JA
AL-B
'AN T

AL-Q

TA

New York University
31142015008520

New York University
Bobst Library Circulation Department
70 Washington Square South
New York, NY 10012-1091

Web Renewal/Info:
http://library.nyu.edu
Phone Renewal:
212-998-2482

THIS ITEM IS SUBJECT TO RECALL AT ANY TIME!

NOTE NEW DUE DATE WHEN RENEWING VIA WEB/PHONE!

al-Tabari, 838-923.
/Jami' al-Bayan,

جامع البيان

عن

تأويل آي القرآن

« كتاب أنزلناه إليك لتخرج
الناس من الظلمات إلى النور بإذن
ربهم إلى صراط العزيز الحميد » .
قرآن كريم

« ما أعلم على أديم الأرض أعلم
من ابن جرير » .
محمد بن إسحاق بن خزيمة

تأليف

أبي جعفر محمد بن جرير الطبري

المتوفى سنة ٣١٠ هـ

الجزء الثالث

الطبعة الثانية

١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

BP
130
.4
.T3
1954
v.3-4
c.1

31142 01500 8520

فهارس الجزء الثالث من جامع البيان عن تأويل آى القرآن

١ – فهرس الآيات

الآية	الآية المفسرة	الصفحة
٢٥٣	تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض . . .	١
٢٥٤	يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم . . .	٣
٢٥٥	الله لاإله إلا هو الحىّ القيوم . . .	٤
٢٥٦	لاإكراه فى الدين . . .	١٣
٢٥٧	الله ولىّ الذين آمنوا . . .	٢١
٢٥٨	ألم تر إلى الذى حاجّ إبراهيم فى ربه . . .	٢٣
٢٥٩	أو كالذى مرّ على قرية وهى خاوية . . .	٢٧
٢٦٠	وإذ قال إبراهيم ربّ أرنى . . .	٤٧
٢٦١	مثل الذين ينفقون أموالهم . . .	٦٠
٢٦٢	الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله . . .	٦٢
٢٦٣	قول معروف ومغفرة خير . . .	٦٣
٢٦٤	يا أيها الذين آمنوا لاتبطلوا . . .	٦٤
٢٦٥	ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء . . .	٦٨
٢٦٦	أيودّ أحدكم أن تكون له جنة . . .	٧٤
٢٦٧	يا أيها الذين آمنوا أنفقوا . . .	٨٠
٢٦٨	الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم . . .	٨٧
٢٦٩	يؤتى الحكمة من يشاء . . .	٨٩
٢٧٠	وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم . . .	٩١
٢٧١	إن تبدوا الصدقات فنعما هى . . .	٩٢
٢٧٢	ليس عليك هداهم . . .	٩٤
٢٧٣	للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله . . .	٩٥
٢٧٤	الذين ينفقون أموالهم بالليل . . .	١٠٠
٢٧٥	الذين يأكلون الربا لايقومون . . .	١٠١
٢٧٦	يمحق الله الربا ويربى الصدقات . . .	١٠٤
٢٧٧	إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . .	١٠٦
٢٧٨	يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله . . .	١٠٦
٢٧٩	فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله . . .	١٠٧
٢٨٠	وإن كان ذو عسرة فنظرة . . .	١٠٩
٢٨١	واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله . . .	١١٤
٢٨٢	يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين . . .	١١٥
٢٨٣	وإن كنتم على سفر ولم تجدوا . . .	١٣٨
٢٨٤	لله ما فى السموات وما فى الأرض . . .	١٤٢
٢٨٥	آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه . . .	١٥١
٢٨٦	لايكلف الله نفسا إلا وسعها . . .	١٥٤

تفسير سورة آل عمران

الآية	الآية المفسرة	الصفحة
١	الم .	١٦١
٢	الله لاإله إلا هو الحىّ القيوم .	١٦١
٣	نزّل عليك الكتاب بالحقّ . . .	١٦٦
٤	من قبل هدى للناس . . .	١٦٦
٥	إن الله لايخفى عليه شئ . . .	١٦٨
٦	هو الذى يصوّركم فى الأرحام . . .	١٦٨
٧	هو الذى أنزل عليك الكتاب . . .	١٧٠
٨	ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا . . .	١٨٦
٩	ربنا إنك جامع الناس ليوم . . .	١٨٩
١٠	إن الذين كفروا لن تغنى عنهم . . .	١٨٩
١١	كدأب آل فرعون . . .	١٩٠
١٢	قل للذين كفروا ستغلبون . . .	١٩١

الآية	الآية المفسرة	الصفحة
١٣	قد كان لكم آية فى فئتين التقتا . . .	١٩٣
١٤	زين للناس حبّ الشهوات . . .	١٩٩
١٥	قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ؟ . . .	٢٠٥
١٦	الذين يقولون ربنا إننا آمنا . . .	٢٠٧
١٧	الصابرين والصادقين والقانتين . . .	٢٠٧
١٨	شهد الله أنه لاإله إلا هو . . .	٢٠٩
١٩	إن الدين عند الله الإسلام . . .	٢١١
٢٠	فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله . . .	٢١٤
٢١	إن الذين يكفرون بآيات الله . . .	٢١٥
٢٢	أولئك الذين حبطت أعمالهم . . .	٢١٥
٢٣	ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا . . .	٢١٧
٢٤	ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار . . .	٢١٩
٢٥	فكيف إذا جمعناهم ليوم لاريب فيه ...	٢٢٠
٢٦	قل اللهمّ مالك الملك . . .	٢٢٠
٢٧	تولج الليل فى النهار . . .	٢٢٣
٢٨	لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء . . .	٢٢٧
٢٩	قل إن تخفوا ما فى صدوركم . . .	٢٣٠
٣٠	يوم تجد كل نفس ما عملت . . .	٢٣٠
٣١	قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى . . .	٢٣٢
٣٢	قل أطيعوا الله والرسول . . .	٢٣٣
٣٣	إن الله اصطفى آدم ونوحا . . .	٢٣٤
٣٤	ذرية بعضها من بعض . . .	٢٣٤
٣٥	إذ قالت امرأة عمران . . .	٢٣٥
٣٦	فلما وضعتها قالت ربّ . . .	٢٣٧
٣٧	فتقبلها ربها بقبول حسن . . .	٢٤١
٣٨	هنالك دعا زكريا ربه . . .	٢٤٧
٣٩	فنادته الملائكة وهو قائم يصلى . . .	٢٤٩
٤٠	قال ربّ أنى يكون لى غلام . . .	٢٥٧

الآية	الآية المفسرة	الصفحة
٤١	قال ربّ اجعل لى آية . . .	٢٥٨
٤٢	وإذ قالت الملائكة يا مريم . . .	٢٦٢
٤٣	يا مريم اقنتى لربك . . .	٢٦٤
٤٤	ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك . . .	٢٦٦
٤٥	إذ قالت الملائكة يا مريم . . .	٢٦٩
٤٦	ويكلم الناس فى المهد وكهلا . . .	٢٧١
٤٧	قالت أنىّ يكون لى ولد . . .	٢٧٣
٤٨	ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة . . .	٢٧٣
٤٩	ورسولا إلى بنى إسرائيل . . .	٢٧٤
٥٠	ومصدّقا لما بين يدىّ من التوراة . . .	٢٨١
٥١	إن الله ربى وربكم فاعبدوه . . .	٢٨١
٥٢	فلما أحسّ عيسى منهم الكفر . . .	٢٨٣
٥٣	ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول . . .	٢٨٨
٥٤	ومكروا ومكر الله . . .	٢٨٨
٥٥	إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك . . .	٢٨٩
٥٦	فأما الذين كفروا فأعذبهم . . .	٢٩٣
٥٧	وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . .	٢٩٣
٥٨	ذلك نتلوه عليك من الآيات . . .	٢٩٤
٥٩	إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم . . .	٢٩٥
٦٠	الحقّ من ربك فلا تكن من الممترين ...	٢٩٧
٦١	فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك . . .	٢٩٧
٦٢	إن هذا لهو القصص الحقّ . . .	٢٩٨
٦٣	فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين . . .	٢٩٨
٦٤	قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة . . .	٣٠١
٦٥	يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم . . .	٣٠٤
٦٦	ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم ...	٣٠٦
٦٧	ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا . . .	٣٠٦
٦٨	إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه . . .	٣٠٧

الآية	الآية المفسرة	الصفحة
٦٩	ودت طائفة من أهل الكتاب . . .	٣٠٨
٧٠	يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله ...	٣٠٩
٧١	يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق . . .	٣١٠
٧٢	وقالت طائفة من أهل الكتاب . . .	٣١١
٧٣	ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم . . .	٣١٣
٧٤	يختصّ برحمته من يشاء . . .	٣١٦
٧٥	ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار...	٣١٧
٧٦	بل من أوفى بعهده واتقى . . .	٣١٩
٧٧	إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم . . .	٣٢٠
٧٨	وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم . . .	٣٢٣
٧٩	ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب . . .	٣٢٤
٨٠	ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة . . .	٣٢٨
٨١	وإذ أخذ الله ميثاق النبيين . . .	٣٢٩
٨٢	فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون .	٣٣٤
٨٣	أفغير دين الله يبغون . . .	٣٣٥
٨٤	قل آمنا بالله وما أنزل علينا . . .	٣٣٨
٨٥	ومن يبتغ غير الإسلام دينا . . .	٣٣٩
٨٦	كيف يهدى الله قوما كفروا . . .	٣٣٩
٨٧	أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله . . .	٣٣٩
٨٨	خالدين فيها لايخفف عنهم العذاب . . .	٣٣٩
٨٩	إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ...	٣٣٩
٩٠	إن الذين كفروا بعد إيمانهم . . .	٣٤٢
٩١	إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار . . .	٣٤٥
٩٢	لن تنالوا البرّ حتّى تنفقوا مما تحبون . . .	٣٤٦

٢ – فهرس الموضوعات

صحيفة

١ ما فضل به بعض الأنبياء بعضا ، وكرامة نبينا صلى الله عليه وسلم .
٢ اقتتال من جاء بعد الرسل ، مع علمهم بتحريم القتال عليهم وكفرهم كان عنادا .
٣ نفى الخلة فى الآخرة ، ومعنى كون الكفر ظلما .
٥ كونه تعالى حيا ، والخلاف فيه ، وأن القيوم معناه : القائم برزق ما يخلق ، والشاهد عليه من قول أمية .
٦ السِّنَة : خثورة النوم ، والشاهد عليه من قول عدىّ والأعشى .
٩ معنى الكرسى وذكر الخلاف فيه .
١١ الصواب فى معنى الكرسى هو العلم ، والشاهد عليه .
١٣ العظيم بمعنى المعظم ، والشاهد عليه .
١٤ الإنسان لا يجوز له أن يُلزم غيره اعتناقَ الدين وسبب نزول آية « لا إكراه فى الدين » .
١٨ الألف واللام فى الدين للعهد ، أو نيابة عن الضمير .
١٨ الطاغوت ، وذكر الخلاف فيه .
٢٠ الانفصام : الكسر ، والشاهد عليه من قول الأعشى .
٢٢ من النصارى من كان على حقّ ونور قبل البعثة ، ثم بعدها صار بكفره فى ضلال وظلام .
٢٣ نسب نمرود الذى حاجّ إبراهيم عليه السلام .

الصفحة

٢٥ سبب المجادلة التى جرت بين إبراهيم صلى الله عليه وسلم ونمرود .
٢٨ الخلاف فى الذى مرّ على قرية أنه عُزَير أو غيره .
٣٢ السبب فى خراب بيت المقدس المعنىّ من القرية ، وتمام تاريخ تلك الحادثة .
٣٧ الهاء فى لم يتسنه أصلية ، والشاهد عليه .
٣٧ لا يجوز الحذف لشىء مما أثبت فى المصحف إلا ما قد علم أنه أثبت على نية الوقف .
٤٤ النشر : المعيشة بعد الموت ، والشاهد عليه .
٤٥ كل شىء غطى شيئا فهو لباس له ، والشاهد عليه .
٤٥ ما اختاره من أوجه القراءة فى « أعلم أن الله على كلّ شىء قدير » .
٤٧ السبب فى مسألة إبراهيم ربه رؤية الإحياء ، والخلاف فيه .
٥١ الطيور التى أمر بأخذها ، ومعنى « فصرُهنّ » وما فيه من اللغات ، والشواهد عليه .
٥٧ عدد الجبال التى أمر بجعل الطيور عليها ، وما فيها من الخلاف .
٦٠ تعلق قوله « مثل الذين ينفقون » بقوله « من ذا الذى » .
٦٢ معنى المنّ ، وأنه إظهار ما أعطاه ، وأن الأذى الشكاية .
٦٥ الصفوان ، وجمعه ، والشواهد عليه .

الصفحة

٦٩ معنى التثبيت ، والشاهد عليه ، وما كان عليه السلف من أنهم لاينفقون شيئا إلا إذا تثبتوا أنه لله .
٧١ معنى الربوة ، وأنها ما نشز من الأرض ، والشاهد عليه .
٧٣ قوله « فإن لم يصبها وابل » على تقدير كان ، والشاهد عليه .
٧٤ قوله « أيودّ أحدكم » ضرب مثلا لنفقة المنافق .
٧٨ الإعصار ، وجمعه ، والشاهد عليه .
٨٠ طيبات الكسب .
٨١ التيمم : معناه القصد ، والشاهد عليه .
٨٣ قوله « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا » نزلت فى الزكاة المفروضة .
٨٤ الخبيث : معناه الحرام ، وأن الإغماض معناه التجافى عن بعض الحقوق ، والشاهد عليه .
٨٦ مستحقو الزكاة شركاء لأهل الأموال بقدر ما يستحقون ، فيلزمهم إنصافهم فى القسمة .
٨٩ الحكمة والخلاف فيها .
٩٢ إخفاء الصدقة أفضل من إظهارها خاصّ بصدقة التطوّع .
٩٤ « ليس عليك هداهم » مقصود به الترغيب فى إعطاء الكفار من صدقة التطوّع .
٩٧ معنى السيمى ، والشاهد عليه .
٩٩ الإلحاف فى المسألة .
١٠١ الربا المنهى عنه ، وأن المسّ معناه : الجنون .
١٠٣ وعيد آكل الربا بخلود النار بسبب ما كانوا يقولونه .
١٠٧ المنذَر بالحرب من أكل الربا .

الصفحة

١١٣ التصدّق على المعسر برأس المال خير من إنظاره .
١١٤ قوله تعالى « واتقوا يوما ترجعون » آخر آية نزلت .
١١٧ اكتتاب الدين بين المتداينين فرض لازم ، لاإرشاد .
١٢١ السفيه الجاهل بالإملاء ، وموضع صواب ذلك من خطئه .
١٢٤ تذكير إحدى الشاهدتين الأخرى ، والاختلاف فيها على حسب القراءات .
١٢٦ الاختلاف فى المحالّ التى تلزم أن لايأبى الشاهد عنها .
١٣٠ المنهى عن السآمة فى كتابته هو الدين ، ومعنى السآمة ، والشاهد عليه .
١٣٢ أوجه القراءة فى قوله « إلا أن تكون تجارة » والشواهد عليها .
١٣٤ مضارة الكاتب والشهيد ، والخلاف فيها ، والصواب فى ذلك .
١٤٠ أوجه القراءات فى قوله « ولم تجدوا كاتبا فرهان » ، وبيان اللغات ، والشاهد على ذلك .
١٤١ المواطن التى تجب فيها الشهادة ، ويكون المتأخر عنها فاجرا قلبه .
١٤٣ المحاسبة على إبداء ما فى النفس أو إخفائه ، وأن ذلك خاصّ أوعامّ ، وهل هو منسوخ أو لا ؟
١٤٥ قوله تعالى : « وإن تبدوا ما فى أنفسكم » .... الآية ، ليست منسوخة بقوله « لايكلف الله نفسا » . . . الآية .
١٥٣ الشاهد على نصب قوله « غفرانك » .

الصفحة

١٥٥ النسيان منه ما هو مؤاخذ به، ومنه ما لا يؤاخذ به .
١٥٦ الخطأ له وجهان : منه ما الشخص آثم به ، والشاهد على ذلك .
١٥٨ العفو والغفران .
١٦٢ تفسير سورة آل عمران .
١٦٢ بيان أن نيفا وثلاثين آية من هذه السورة نزلت احتجاجا على طائفة من النصارى ، وذكر قدومهم .
١٦٤ معنى الحىّ القيوم .
١٧٠ المحكم من الآيات .
١٧٢ المتشابه ، والخلاف فيه .
١٧٦ اتباع المتشابه المنوّه عن فاعله بأن فيه زيغا .
١٧٨ ابتغاء التأويل ، والخلاف فيه .
١٨٢ الرسوخ فى العلم .
١٨٧ زيغ القلب ، وخطأ قول القدرية .
١٩٠ معنى الدأب وأنه العادة والسُّنة .
١٩١ الدأب يطلق على الشأن ، والشاهد عليه من قول امرئ القيس .
١٩٣ قوله «فى فئتين» مراد به عصابة المسلمين ببدر وعصابة كفار قريش .
١٩٤ الشواهد على جواز رفع قوله « فئة تقاتل » .
١٩٥ عدد مشركى قريش ببدر ، وعدد المؤمنين ، وكيف قللوا .
١٩٩ مقدار القنطار ، والخلاف فيه .
٢٠٤ تسويم الخيل ، والشواهد عليه .
٢٠٨ ما يعدّ به الإنسان مستغفرا ، ومعنى السحر .
٢١١ الدين فى قوله « إن الدين عند الله الإسلام » معناه الطاعة ، والشاهد عليه .

الصفحة

٢١٤ معنى الأميين وأهل الكتاب والإسلام .
٢١٧ التوراة تُقِرّ بها سائر الفرق المنتحلة الكتب أنها من عند الله .
٢٢١ الشاهد على الجمع بين يا ، واللهمّ .
٢٢٣ معنى الولوج ، وكيف إدخال الليل فى النهار .
٢٢٦ الصواب فى معنى إخراج الحىّ من الميت ، وإخراج الميت من الحىّ .
٢٢٨ ما يجوز للمسلم فعله مع الكفار إذا كانت لهم دولة ، أو يد عليه .
٢٣١ الأمد ، والشاهد عليه .
٢٣٢ العلامات التى يتبين بها محبة الله تعالى .
٢٣٣ آل الرجل : أتباعه .
٢٣٥ اسم امرأة عمران ، والسبب الداعى لنذرها تحرير ما فى بطنها .
٢٣٨ ما يفعله الشيطان بكل مولود إلا مريم وابنها .
٢٤٣ من كان يلى بيت المقدس من أولاد هارون ، وما كانت وظيفة عمران أبى مريم .
٢٤٤ ما أجراه الله على يد مريم من الكرامات ، وكان يشاهده زكريا .
٢٤٧ ما كان يصنعه زكريا من التحفظ على مريم .
٢٤٧ السبب الذى دعا زكريا لسؤاله الولد .
٢٤٨ جواز تأنيث الشىء لتأنيث لفظه ، وإن كان معناه مذكرا ، والشاهد على ذلك .
٢٥١ اللغات فى بشر ، والشواهد عليها .
٢٥٣ يحيى أوّل من آمن بعيسى .
٢٥٥ معنى الحصور ، والشواهد عليه .
٢٥٧ العاقر يطلق على الرجل والمرأة ، والشاهد عليه .
٢٥٩ تحقيق الآية التى جعلت لزكريا ، وبيان معنى الرمز ، والشاهد عليه .

الصفحة

٢٦٢ تحديد زمن العشىّ والإبكار ، والشواهد عليه.

٢٦٣ خير نساء العالم ، والكمل منهن .

٢٦٦ معنى الوحى لغة ، والشواهد عليه .

٢٦٧ ما صنع على كفالة مريم من القرعة .

٢٧٢ أحوال سيدنا عيسى كانت كأحوال الخلق إلا الخصوصيات التى اختصّ بها

٢٧٥ الطائر الذى كان يصوّره عيسى من الطين ، ثم ينفخ فيه فيكون طائرا .

٢٧٦ نفخ يتعدّى بنفسه تارة ، وبالباء أخرى ، والشاهد عليه .

٢٧٧ إنّ الأكمه هو الأعمى ، والشاهد عليه .

٢٧٨ الفرق بين الإخبارات الصادرة من النبيين والإخبارات الصادرة من المنجمين والمتكهنين

٢٨٠ اللغة الفصحى فيما إذا اجتمعت تاء وذال ، والشاهد عليه .

٢٨٤ ما حصل لعيسى صلى الله عليه وسلم من المعجزات حين أخرجته بنو إسرائيل .

٢٨٧ لم سمى الحواريون بذلك الاسم ، والشاهد عليه .

٢٨٨ المكر الذى مكره اليهود بعيسى .

٢٨٩ معنى الوفاة التى أخبر الله أنه صانعها بعيسى ، والخلاف فيها .

٢٩٢ الذين اتبعوا عيسى هم المسلمون .

٢٩٥ ما حصل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين وفد نجران من المحاجة .

٢٩٩ ما حصل بين وفد نجران بعضهم مع بعض ، وإعراضهم عن الملاعنة التى دعاهم إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الصفحة

٣٠٥ ما كان يدّعيه فريق اليهود ، وفريق النصارى من موافقة السيد إبراهيم لهم فى نحلتهم وبيان كذبهم .

٣٠٨ الإضلال معناه : الإهلاك ، والشاهد عليه .

٣٠٩ اليهود والنصارى كانوا يشهدون أن نعت النبىّ موجود فى كتابهم ، وكان إنكارهم بغيا .

٣١١ ما اتفقت عليه بعض أهل الكتاب من الإيمان أول النهار ، والكفر آخره للتحيل فى الشبه .

٣١٢ وجه النهار بمعنى أوله ، والشاهد عليه .

٣١٤ قوله تعالى « قل إن هدى الله هو الهدى » خبر معترض من الله ، أو من قول بعض أهل الكتاب والاختلاف فى تأويله .

٣١٧ تحذير الله المؤمنين أن يأتمنوا اليهود على أموالهم حيث كان فيهم من يستحلّ أموالهم ويقول : « ليس علينا فى الأميين سبيل » .

٣٢٠ الوفاء بالعهد من أهل الكتاب إيمانهم برسول الله صلى الله عليه وسلم .

٣٢٠ معنى عدم نظر الله عدم التعطف والرحمة ، والشاهد عليه .

٣٢١ سبب نزول قوله تعالى « إن الذين يشترون بعهد الله » .

٣٢٣ ما كان يفعله بعض أهل الكتاب من تحريفهم الكتاب وليهم ألسنتهم ، ليظنّ أنه من الكتاب.

٣٢٤ إن اللىّ معناه : القوّة والغلبة والخصومة ، والشاهد عليه .

٣٢٧ إنّ الربانيين جمع ربانى ، وهو الذى يرب الناس ويصلح أمورهم ، والشاهد عليه .

٣٣٠ تأويل قوله « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين » والاختلاف ، وذكر فيه الصواب من ذلك .

الصفحة

٣٣٦ تأويل قوله « وله أسلم من فى السموات » ... الآية ، وذكر الاختلاف فى إسلام الكاره .
٣٣٩ قوله « ومن يبتغ غير الإسلام دينا » وإبطال دعوى كل فريق من الأمم أنهم مسلمون .
٣٤٠ بيان السبب فى نزول قوله تعالى « كيف يهدى الله قوما » . . . الآيات ، والخلاف فيه .

الصفحة

٣٤٢ تأويل قوله « إن الذين كفروا » . . . الآية ، وبيان أن ازدياد الكفر ، هو الكفر برسول الله بعد الكفر ببعض من تقدمه من الأنبياء ، أو بغير ذلك من المعاصى ، وذكر الصواب من ذلك .
٣٤٦ تأويل قوله « لن تنالوا البرّ » . . . الآية ، والخلاف فى البرّ ما هو .

٣ – فهرس القوافى

القافية	الصفحة
ب	
رُبُوبُ	٣٢٧
تنوبُ	١١
غالبُهْ	٣٢٤
كتابُها	٢٥١
أسْلابِ	٢٧٦
فأصْحَبا	١٨٤
ت	
شُمَّتِ	١٩١
فَشَلَّتِ	١٩٤
ح	
السَّفّاحُ	١٥٣
السلاحُ	١٥٣
الدَّوالحُ	٥٣
النوابحُ	٢٨٧
الجوائحُ	٣٧
ورُمْحا	٢٧٥
د	
المرشدُ	١٥٦
لَبيدُ	١٣٠
أمَدُهْ	٢٣١
بخلودِ	٥٣
وجُدُودِى	٥٣
بُدَّا	٧٣
بأدْرَدَا	٢٤٩
ر	
البَصَرْ	٩٨
مُنْهَمِرْ	٦٥
صُوَرُ	٥٢
الصُّوَرُ	٢٧٦
الصُّدُورُ	٢٣
تَنْعَرُ	٥٣
فَتُبْكِرُ	٢٦٢
أميرُ	٢٥٢
مُسْتَنيرُ	٢٤٦
الكِبارُ	٢٢١
نُصِرُوا	٦٩
تَنْصارُ	٥٤
أميرُها	٢٦٢
أسُورُها	٥٢
يَصُورُها	٥٢
المُنْذَرِ	٧٨
وجائِرِ	٢٧١
مَحْضَرِ	٢٥٧
النّاشِرِ	٤٤
الهَدير	٢٦٠
بِسَوّارِ	٢٥٥
نَهارِ	٣١٢
ز	
أرْتَمِزْ	٢٦٠
س	
القدسِ	١١
نفس	١١
الكرس	١١
ض	
بالإغماض	٨٤
ع	
نَزَعْ	٢٧٧
واجْدَعُ	٥٤
ضُرُوعُ	٥٢
أشْنَعا	١٣٢
ق	
العَسَقْ	٩٧
تَذُوقُ	٢٦٢
أوْلَقُ	١٠٣
وعِناقا	١٣٢

القافية	الصفحة
ل	
فابتهلْ	٢٩٨
الحنظلُ	٢٨٣
هَطِلُ	٧١
أقولُ	٣٢١
كافلُ	٢٤٢
ونائلُ	٣٠٩
الكمالُ	٢٤٨
مُعَوَّلِ	١٩١
بمأسَلِ	١٩١
مَعْزِلِ	٦٦
مُمحِلِ	٢٥١
حِلَّ	١٧١
الطوَّلَ	١٧١
قتلاً لِي	١٧١
وصيالِ	٢١١
الأجمال	٢٠٤
السيالِ	٦
زُلال	١٣

القافية	الصفحة
سِرْبالا	٤٥
ضَلالا	٣٠٨
م	
مُنْفَصِمْ	٢٠
الأصَمّْ	٢٦٧
والنجومُ	٥
يقومُ	٥
عظيمُ	٥
زنيمُ	٥٤
التَّسْويمُ	٢٠٤
فيَظَّلِمُ	٢٨١
بنائمِ	٦
بغنيمة	٧٢
يَتَسَأَّمِ	١٣٠
كُلَّما	٢٢١
اللَّهُمَّ مَا	٢٢١
مُسَلَّما	٢٢١
ن	
الوَسَنْ	٦
شَزَنْ	٨٢

القافية	الصفحة
الرُّهُنُ	١٤٠
جِنِّ	٢٠٤
الحَدَثانِ	١٩٤
عُمانِ	١٩٤
دِينا	٢١١
الأديانا	٢١١
ضَنِينا	٢٥٥
هـ	
تَدْهَمُهْ	٢٦٧
تَثْمُهْ	٢٦٧
مُنَمْنِمُهْ	٢٦٧
الله	٢٢١
المُتَهَتِّهِ	٢٧٧
الأجُلَّه	٦٦
ى	
الصَّفِيّ	٦٥
والصَّبِيَّا	٢٧٢
المَلاوِيا	٣٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

* ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ، وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ، وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ، وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ، وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟، وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (٢٥٣)

يعنى تعالى ذكره بقوله (تِلْكَ الرُّسُلُ): الذين قصّ الله قصصهم فى هذه السورة، كموسى بن عمران وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وشمويل وداود، وسائر من ذكر نبأهم فى هذه السورة. يقول تعالى ذكره: هؤلاء رسلى فضلت بعضهم على بعض، فكلمت بعضهم، والذى كلمته منهم موسى صلى الله عليه وسلم، ورفعت بعضهم درجات على بعض، بالكرامة ورفعة المنزلة.

كما حدثنى محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، قال: ثنا عيسى، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد، فى قول الله تعالى ذكره (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ) قال: يقول: منهم من كلم الله ورفع بعضهم على بعض درجات، يقول: كلم الله موسى، وأرسل محمدا إلى الناس كافة.

حدثنى المثنى، قال: ثنا أبوحذيفة، قال: ثنا شبل، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد بنحوه.

ومما يدل على صحة ما قلنا فى ذلك: قول النبىّ صلى الله عليه وسلم: «أُعْطِيتُ خَمْساً لَمْ يُعْطَهُنَّ أحَدٌ قَبْلِى، بُعِثْتُ إلى الأحْمَرِ وَالأسْوَدِ، وَنُصِرْتُ بالرُّعْبِ، فإنَّ العَدُوَّ لَيُرْعَبُ مِنِّى على مَسِيرَةِ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِىَ الأرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً، وأُحِلَّتْ لِىَ الغَنائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأحَدٍ كانَ قَبْلِى، وَقِيلَ لِى: سَلْ تُعْطَهْ، فاخْتَبَأْتُها شَفاعَةً لِأُمَّتِى، فَهِىَ نائِلَةٌ مِنْكُمْ إنْ شاءَ اللهُ مَنْ لايُشْرِكُ باللهِ شَيْئاً».

القول فى تأويل قوله تعالى (وآتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ البَيِّناتِ وأيَّدْناهُ بِرُوحِ القُدُسِ)

يعنى تعالى ذكره بذلك (وَآتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ) : وآتينا عيسى بن مريم الحجج والأدلة على نبوته : من إبراء الأكمه والأبرص ، وإحياء الموتى ، وما أشبه ذلك ، مع الإنجيل الذى أنزلته إليه ، فبينت فيه مافرضت عليه .

ويعنى تعالى ذكره بقوله (وأَيَّدْناهُ) : وقوّيناه وأعناه بروح القدس ، يعنى بروح الله ، وهو جبريل ، وقد ذكرنا اختلاف أهل العلم فى معنى روح القدس . والذى هو أولى بالصواب من القول فى ذلك فيما مضى قبل ، فأغنى ذلك عن إعادته فى هذا الموضع .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَلَوْ شاءَ اللهُ ما اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِما جاءَتْهُمُ البَيِّناتُ) .

يعنى تعالى ذكره بذلك : ولو أراد الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ، يعنى من بعد الرسل الذين وصفهم بأنه فَضَّل بعضهم على بعض ، ورفع بعضهم درجات ، وبعد عيسى بن مريم ، وقد جاءهم من الآيات بما فيه مزدجر لمن هداه الله ووفقه .

ويعنى بقوله (مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ البَيِّناتُ) يعنى من بعد ما جاءهم من آيات الله ما أبان لهم الحق ، وأوضح لهم السبيل .

وقد قيل : إن الهاء والميم فى قوله (مِنْ بَعْدِهِمْ) من ذكر موسى وعيسى .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (وَلَوْ شاءَ اللهُ ما اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِما جاءَتْهُمُ البَيِّناتُ) يقول : من بعد موسى وعيسى .

حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع قوله (وَلَوْ شاءَ اللهُ ما اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ البَيِّناتُ) : يقول من بعد موسى وعيسى .

القول فى تأويل قوله (وَلكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ، وَلَوْ شاءَ اللهُ ما اقْتَتَلُوا ، وَلكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ)

يعنى تعالى ذكره بذلك : ولكن اختلف هؤلاء الذين من بعد الرسل لَمَّا لم يشأ الله منهم تعالى ذكره ألاّ يقتتلوا ، فاقتتلوا من بعد ما جاءتهم البينات من عند ربهم ، بتحريم الاقتتال والاختلاف ، وبعد ثبوت الحجة عليهم بوحدانية الله ورسالة رسله ووحى كتابه . فكفر بالله وبآياته بعضهم ، وآمن بذلك بعضهم ؛ فأخبر تعالى ذكره : أنهم أتوا ما أتوا من الكفر والمعاصى بعد علمهم بقيام الحجة عليهم بأنهم على خطأ ، تعمدا منهم للكفر بالله وآياته . ثم قال تعالى ذكره لعباده (وَلَوْ شاءَ اللهُ ما اقْتَتَلُوا) يقول : ولو أراد الله أن يَحْجُزَهم بعصمته وتوفيقه إياهم ، عن معصيته ، فلا يقتتلوا ، ما اقتتلوا ولا اختلفوا ، ولكن الله يفعل ما يريد ، بأن يوفق هذا لطاعته والإيمان به ، فيؤمن به ويطيعه ، ويخذل هذا ، فيكفر به ويعصيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ (٢٥٤) ﴾

يعنى تعالى ذكره بذلك : يا أيها الذين آمنوا أنفقوا فى سبيل الله مما رزقناكم من أموالكم ، وتصدقوا منها ، وآتوا منها الحقوق التى فرضناها عليكم ؛ وكذلك كان ابن جريج يقول فيما بلغنا عنه .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قوله (يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ) قال : من الزكاة والتطوّع (مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِىَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ) يقول : ادّخروا لأنفسكم عند الله فى دنياكم من أموالكم بالنفقة منها فى سبيل الله ، والصدقة على أهل المسكنة والحاجة ، وإيتاء مافرض الله عليكم فيها ، وابتاعوا بها ما عنده مما أعدّه لأوليائه من الكرامة ، بتقديم ذلك لأنفسكم ، ما دام لكم السبيل إلى ابتياعه ، بما ندبتكم إليه ، وأمرتكم به من النفقة من أموالكم ، (مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِىَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ) يعنى من قبل مجىء يوم لابيع فيه ، يقول : لاتقدرون فيه على ابتياع ما كنتم على ابتياعه بالنفقة من أموالكم التى [١] أمرتكم به أو ندبتكم ، إليه فى الدنيا قادرين ، لأنه يوم جزاء وثواب وعقاب ، لايوم عمل واكتساب وطاعة ومعصية ، فيكون لهم إلى ابتياع منازل أهل الكرامة بالنفقة حينئذ أو بالعمل بطاعة الله ، سبيل ؛ ثم أعلمهم تعالى ذكره أن ذلك اليوم مع ارتفاع العمل الذى ينال به رضا الله ، أو الوصول إلى كرامته بالنفقة من الأموال ، إذ كان لامال هنالك يمكن إدراك ذلك به ، يوم لامخالّة فيه نافعة ، كما كانت فى الدنيا ، فإن خليل الرجل فى الدنيا قد كان ينفعه فيها بالنصرة له على من حاوله بمكروه ، وأراده بسوء ، والمظاهرة له على ذلك ؛ فآيسهم تعالى ذكره أيضا من ذلك ، لأنه لاأحد يوم القيامة ينصر أحدا من الله ، بل الأخلاء بعضهم لبعض عدوّ إلا المتقين ، كما قال الله تعالى ذكره ؛ وأخبرهم أيضا أنهم يومئذ مع فقدهم السبيل إلى ابتياع ما كان لهم إلى ابتياعه سبيل فى الدنيا بالنفقة من أموالهم ، والعمل بأبدانهم ، وعدمهم النصراء من الخلان ، والظهراء من الإخوان ، لاشافع لهم يشفع عند الله ، كما كان ذلك لهم فى الدنيا ، فقد كان بعضهم يشفع فى الدنيا لبعض بالقرابة والجوار والخُلة ، وغير ذلك من الأسباب ، فبطل ذلك كله يومئذ ، كما أخبر تعالى ذكره عن قيل أعدائه من أهل الجحيم فى الآخرة إذا صاروا فيها ، (فَمَالَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ) . وهذه الآية مَخْرَجها فى الشفاعة عام ، والمراد بها خاص ، وإنما معناه : من قبل أن يأتى يوم لابيع فيه ولا خلة ولا شفاعة لأهل الكفر بالله ، لأن أهل ولاية الله والإيمان به يشفع بعضهم لبعض ، وقد بينا صحة ذلك بما أغنى عن إعادته فى هذا الموضع .

وكان قتادة يقول فى ذلك بما حدثنا به بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة فى قوله (يا أَيُّها

(١) قوله بالنفقة من أموالكم التى أمرتكم به ... الخ : كذا فى النسخ ، ولعله تحريف من الناسخ ، وأصل الكلام « الذى » فى موضع « التى » صفة للابتياع ، أو تأنيث الضمير فى « به » و « إليه » .

الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ) : قد علم الله أن ناسا يتحابون فى الدنيا ، ويشفع بعضهم لبعض ، فأما يوم القيامة فلا خُلة إلا خلة المتقين .

وأما قوله (وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) فإنه يعنى تعالى ذكره بذلك : والجاحدون لله المكذبون به وبرسله هم الظالمون ، يقول : هم الواضعون جحودهم فى غير موضعه ، والفاعلون غير مالهم فعله ، والقائلون ما ليس لهم قوله . وقد دللنا على معنى الظلم بشواهده فيما مضى قبلُ بما أغنى عن إعادته ، وفى قوله تعالى ذكره فى هذا الموضع (وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) : دلالة واضحة على صحة ما قلناه ، وأن قوله (وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ) إنما هو مراد به أهل الكفر ، فلذلك أتبع قوله ذلك(وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) ، فدل بذلك على أن معنى ذلك : حرّمنا الكفار النصرة من الأخلاء ، والشفاعة من الأولياء والأقرباء ، ولم نكن لهم فى فعلنا ذلك بهم ظالمين ، إذ كان ذلك جزاء منا لما سلف منهم من الكفر بالله فى الدنيا ، بل الكافرون هم الظالمون أنفسهم ، بما أتوا من الأفعال التى أوجبوا لها العقوبة من ربهم .

فإن قال قائل : وكيف صرف الوعيد إلى الكفار ، والآية مبتدأة بذكر أهل الإيمان ؟ قيل له : إن الآية قد تقدمها ذكر صنفين من الناس : أحدهما أهل كفر ، والآخر أهل إيمان ، وذلك قوله (وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا ، فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ) . ثم عقب الله تعالى ذكره الصنفين بما ذكرهم به ، فحض أهل الإيمان به على مايقرّبهم إليه من النفقة فى طاعته ، وفى جهاد أعدائه من أهل الكفر به ، قبل مجىء اليوم الذى وصف صفته ، وأخبر فيه عن حال أعدائه من أهل الكفر به ، إذ كان قتالُ أهل الكفر به فى معصيته ، ونفقتهم فى الصدّ عن سبيله ، فقال تعالى ذكره (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا) أنتم (مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ) فى طاعتى ، إذ كان أهل الكفر بى ينفقون فى معصيتى (مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ) ، فيدرك أهل الكفر فيه ابتياع مافرطوا فى ابتياعه فى دنياهم ، ولا (خُلَّةٌ) لهم يومئذ تنصرهم منى ، ولا شافع لهم يشفع عندى ، فتنجيهم شفاعته لهم من عقابى ، وهذا يومئذ فُعِل بهم جزاء لهم على كفرهم ، وهم الظالمون أنفسهم دونى ، لأنى غير ظلام لعبيدى .

وقد حدثنى محمد بن عبد الرحيم ، قال : ثنى عمرو بن أبى سَلَمة ، قال : سمعت عمر بن سليمان ، يحدّث عن عطاء بن دينار : أنه قال : الحمد لله الذى قال (وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) ولم يقل : الظالمون هم الكافرون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ، لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ، وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ، وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)

قد دللنا فيما مضى على تأويل قوله (اللهُ) .

وأما تأويل قوله (لاإِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ) : فإن معناه النهى عن أن يُعبد شىء غير الله ، الحىّ القيوم الذى صفته ماوصف به نفسه تعالى ذكره فى هذه الآية ، يقول : الله الذى له عبادة الخلق : الحىّ القيوم . لاإله سواه : لامعبود سواه ، يعنى : ولا تعبدوا شيئا سواه (الحَىُّ القَيُّومُ) الذى (لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ ولاَ نَوْمٌ) والذى صفته ما وصف فى هذه الآية . وهذه الآية إبانة من الله تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله، عما جاءت به ، أقوال المختلفين فى البينات من بعد الرسل، الذين أخبرَنا تعالى ذكره أنه فضل بعضهم على بعض، واختلفوا فيه ، فاقتتلوا فيه كفرا به من بعض، وإيمانا به من بعض. فالحمد لله الذى هدانا للتصديق به ، ووفقنا للإقرار به .

وأما قوله (الحَىُّ) فإنه يعنى : الذى له الحياة الدائمة ، والبقاء الذى لا أوّل له يحدّ ، ولا آخر له يُؤْمَدُ[١] ، إذ كان كل ماسواه ، فإنه وإن كان حيا فلحياته أول محدود ، وآخر مأمود ، ينقطع بانقطاع أمدها ، وينقضى بانقضاء غايتها .

وبما قلنا فى ذلك قال جماعة من أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثت عن عمار بن الحسن ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قوله (الحَىُّ) : حىّ لايموت .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع : مثله .

وقد اختلف أهل البحث فى تأويل ذلك، فقال بعضهم : إنما سمى الله نفسه حيا ، لصرفه الأمور مصارفها، وتقديره الأشياء مقاديرها ، فهو حىّ بالتدبير لابحياة .

وقال آخرون : بل هو حىّ بحياة هى له صفة .

وقال آخرون : بل ذلك اسم من الأسماء تَسَمَّى بهِ ، فقلناه تسليما لأمره .

وأما قوله (القَيُّومُ) : فإنه الفيعول من القيام، وأصله القيووم، سبق عين الفعل وهى واو ياءٌ ساكنة، فاندغمتا، فصارتا ياء مشددة ، وكذلك تفعل العرب فى كل واو كانت للفعل عينا سبقتها ياء ساكنة . ومعنى قوله (القَيُّومُ) : القائم برزق ما خلق وحفظه ، كما قال أمية :

لَمْ تُخْلَقِ السَّماءُ والنُّجُومُ والشَّمْسُ مَعْهَا قَمَرٌ يقومُ

قَدَّرَهُ المُهَيْمِنُ القَيُّومُ والحَشْرُ والجَنَّـةُ وا لجحيمُ

إلا لأمرٍ شأنُهُ عَظِيمُ[٢]

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

---

(١) يؤمد : يريد : ينتهى إليه . ولم أجد أمد إلا بمعنى : غضب .

(٢) هذه خمسة أبيات من مشطور الرجز ، نسبها المؤلف لأمية ، يعنى أمية بن أبى الصلت الثقفى ، الذى كان يتكلم فى شئون الدين ، وهى فى ديوانه المطبوع فى ليبزج سنة ١٩١١ ص ٢٥ نقلا عن المؤلف . وفى اللسان : (قام) : قال الزجاج : القيوم والقيام ، فى صفة الله تعالى وأسمائه الحسنى : القائم بتدبير أمر خلقه ، فى إنشائهم ورزقهم ، وعلمه بأمكنتهم . ولعل كلمة « يقوم » فى البيت الثانى محرفة عن « يعوم » .

ذكر من قال ذلك :

حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد في قول الله (القَيُّومُ) قال : القائم على كل شيء .

حدثني المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، عن ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (القَيُّومُ) : قيم كل شيء : يكلؤه ويرزقه ويحفظه .

حدثني موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (القَيُّومُ) : هو القائم .

حدثني المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك (الحَيُّ القَيُّومُ) قال : القائم الدائم .

القول في تأويل قوله (لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ)

يعني تعالى ذكره بقوله (لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ) لا يأخذه نعاس فينعُس ، ولا نوم فيستثقل نوما ، والوسَن خثورة النوم ، ومنه قول عدىّ بن الرِّقاع :

وَسْنَانُ أَقْصَدَهُ النُّعاسُ فَرَنَّقَتْ في عَيْنِهِ سِنَةٌ وَلَيْسَ بِنائِمِ [١]

ومن الدليل على ما قلنا ، من أنها خثورة النوم في عين الإنسان ، قول الأعشى ميمون بن قيس :

تُعاطِي الضَّجِيعَ إذَا أَقْبَلَتْ بُعَيْـدَ النُّعاسِ وَقَبْلَ الوَسَنْ [٢]

وقال آخر :

باكَرَتْها الأَغْرَابُ في سِنَةِ النَّوْ مِ فَتَجْرِى خِلالَ شَوْكِ السَّيَالِ [٣]

يعني عند هبوبها من النوم ووسَن النوم في عينها ، يقال منه : وَسِنَ فلان فهو يَوْسَنُ وَسَنًا وسِنة ، وهو وَسنان : إذا كان كذلك .

وبنحو الذى قلنا في ذلك قال أهل التأويل .

---

(١) البيت لعدى بن الرقاع كما في اللسان (رنق ، وسن) قال : فرق بين السنة والنوم كما ترى . وقال : رنق النوم في عينه : خالطها . وأقصده النوم : رماه بسهم .

(٢) البيت للأعشى في ديوانه طبعة القاهرة ص ١٧ ، والرواية فيه : « وعند الوسن » . وبعد البيت :

صَلِيفِيَّةً طَيِّبًا طَعْمُهَا لَهَا زَبَدٌ بين كُوبٍ ودَنْ

وتعاطيه : تناوله . والضجيع : من ينام معها في فراشها . والنعاس والوسن : ما يخالط الإنسان من النوم . والصليفية : الخمر . وكأنه يشبه ريقتها في ذلك الوقت بطعم الخمر الصليفية ، وهو معنى أغرم الشعراء بالقول فيه .

يقول (على رواية الديوان) : إنها حين تستيقظ من نومها آخر الليل ، وهي لا تزال وسنى ، تعطى حبيبها كل ما يشتهيه من تقبيلها وريقتها التي تشبه الخمر .

(٣) وهذا البيت للأعشى أيضا ، كما في اللسان في (سيل) وروايته « الأعراب » بالعين المهملة . خطأ . وفي (غرب) والديوان ص ٥ (الأغراب) ، وجعله في (اللسان) جمعا لغرب بالسكون ، وهو القدح . والمراد به في البيت : مناقع ريق الأسنان أو أطرافها وحدتها وماؤها . والسيال : شوك أبيض طويل إذا نزع خرج منه مثل اللبن . والهاء في باكرتها : راجعة إلى الخمر . وفي رواية اللسان في (غرب) باكرته ، والهاء ضمير الإسفنط في البيت الذى قبله . يشبه الأعشى طيب ريق المرأة بالخمر ، ويشبه أسنانها في بياضها وحدتها بشوك السيال ، فكأن ريقها خمر تجرى في فمها بين شوك السيال .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية بن صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس قوله تعالى (لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ) قال : السنة : النعاس ، والنوم : هو النوم .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس (لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ) السنة : النعاس .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة والحسن فى قوله (لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ) قالا : نَعْسَة .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عمرو بن عون ، قال : أخبرنا هشيم ، عن جويبر ، عن الضحاك فى قوله (لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ) قال : السنة : الوَسنة ، وهو دون النوم ، والنوم : الاستثقال .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك (لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ) السنة : النُّعاس ، والنوم : الاستثقال .

حدثنى يحيى بن أبى طالب ، قال : أخبرنا يزيد ، قال : أخبرنا جويبر ، عن الضحاك ، مثله سواء .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ) أما سنة : فهو ريح النوم الذى يأخذ فى الوجه فينعُس الإنسان .

حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ) قال : السِّنة : الوسنان بين النائم واليقظان .

حدثنى عباس بن أبى طالب ، قال : ثنا منجاب بن الحارث ، قال : ثنا علىّ بن مسهر ، عن إسماعيل عن يحيى بن رافع (لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ) قال : النعاس .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ) قال : الوسنان : الذى يقوم من النوم لايعقل ، حتى ربما أخذ السيف على أهله . وإنما عنى تعالى ذكره بقوله (لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ) : لا تحلُّه الآفات ، ولا تناله العاهات . وذلك أن السنة والنوم معنيان يغمران فهم ذى الفهم ، ويزيلان من أصاباه ، عن الحال التى كان عليها قبل أن يصيباه .

فتأويل الكلام إذ كان الأمر على ما وصفنا : الله لاإله إلا هو الحىّ الذى لايموت ، القيوم على كل ما هو دونه بالرزق والكلاءة والتدبير ، والتصريف من حال إلى حال ، لاتأخذه سنة ولا نوم ، لايغيره ما يغير غيره ، ولا يزيله عما لم يزل عليه تنقل الأحوال ، وتصريف الليالى والأيام ، بل هو الدائم على حال ، والقيوم على جميع الأنام ، لو نام كان مغلوبا مقهورا ، لأن النوم غالب النائم قاهره ، ولو وَسِن لكانت السموات والأرض وما فيهما دكـّا ، لأن قيام جميع ذلك بتدبيره وقدرته . والنوم شاغل المدبر عن التدبير ، والنعاس يمانع المقدّر عن التقدير بوسنه .

كما حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، قال : وأخبرنى الحكم

ابن أبان، عن عكرمة مولى ابن عباس فى قوله (لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ) : أن موسى سأل الملائكة : هل ينام الله ؟ فأوحى الله إلى الملائكة، وأمرهم أن يؤرّقوه ثلاثا، فلا يتركوه ينام، ففعلوا، ثم أعطوه قارورتين فأمسكوه، ثم تركوه وحذّروه أن يكسرهما، قال: فجعل ينعُس وهما فى يديه، فى كل يد واحدة، قال: فجعل ينعُس وينتبه، وينعُس وينتبه، حتى نعَس نعسة، فضرب بإحداهما الأخرى، فكسرهما: قال، معمر : إنما هو مثل ضربه الله، يقول : فكذلك السموات والأرض فى يديه .

حدثنا إسحاق بن أبى إسرائيل، قال : ثنا هشام بن يوسف، عن أمية بن شبل، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن أبى هريرة، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكى عن موسى صلى الله عليه وسلم على المنبر، قال : « وَقَعَ فِي نَفْسِ مُوسَى : هَلْ يَنَامُ اللهُ تَعالى ذِكْرُهُ ؟ فأَرْسَلَ اللهُ إليْهِ مَلَكاً، فأرَّقَهُ ثَلاثا، ثُمَّ أعْطاهُ قارُورَتَيْنِ، فى كُلِّ يَدٍ قارُورَةٌ، وأمَرَهُ أنْ يَحْتَفِظَ بِهِما، قال : فجَعَلَ يَنامُ وتَكادُ يَداهُ تَلْتَقِيانِ، ثُمَّ يَسْتَيْقِظُ فَيَحْبِسُ إحْداهُما عَنِ الأُخْرَى، ثُمَّ نامَ نَوْمَةً، فاصْطَفَقَتْ يَداهُ، وانْكَسَرَتِ القارُورَتانِ » . قال : ضرب الله له مثلا، أن الله لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض .

القول فى تأويل قوله تعالى (لَهُ ما فِي السَّمَوَاتِ وما فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاَّ بإذْنِهِ)

يعنى تعالى ذكره بقوله (لَهُ ما فِي السَّمَوَاتِ وَما فِي الأَرْضِ) أنه مالك جميع ذلك بغير شريك ولا نديد، وخالق جميعه دون كل آلهة ومعبود، وإنما يعنى بذلك أنه لاتنبغى العبادة لشىء سواه، لأن المملوك إنما هو طوع يد مالكه، وليس له خدمة غيره إلا بأمره، يقول : فجميع ما فى السموات والأرض ملكى وخلقى، فلا ينبغى أن يعبد أحد من خلقى غيرى وأنا مالكه، لأنه لاينبغى للعبد أن يعبد غير مالكه، ولا يطيع سوى مولاه .

وأما قوله (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاَّ بإذْنِهِ) يعنى بذلك : من ذا الذى يشفع لمماليكه إن أراد عقوبتهم إلا أن يخليه، ويأذن له بالشفاعة لهم . وإنما قال ذلك تعالى ذكره، لأن المشركين قالوا : ما نعبد أوثاننا هذه إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى، فقال الله تعالى ذكره لهم : لى ما فى السموات وما فى الأرض مع السموات والأرض ملكا، فلا ينبغى العبادة لغيرى، فلا تعبدوا الأوثان التى تزعمون أنها تقربكم منى زلفى، فإنها لا تنفعكم عندى، ولا تغنى عنكم شيئا، ولا يشفع عندى أحد لأحد إلا بتخليتى إياه، والشفاعة لمن يشفع له من رسلى وأوليائى وأهل طاعتى .

القول فى تأويل قوله تعالى (يَعْلَمُ ما بَيْنَ أيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلاَّ بِما شاءَ)

يعنى تعالى ذكره بذلك أنه المحيط بكل ما كان، وبكل ما هو كائن، علما لايخفى عليه شىء منه .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن منصور ، عن الحكم (يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) : الدنيا (وَما خَلْفَهُمْ) : الآخرة .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) : ما مضى من الدنيا (وَما خَلْفَهُمْ) : من الآخرة .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، قال : قال ابن جريج قوله (يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) : ما مضى أمامهم من الدنيا (وما خَلْفَهُمْ) : ما يكون بعدهم من الدنيا والآخرة .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) قال : ما بين أيديهم : فالدنيا (وَما خَلْفَهُمْ) : فالآخرة .

وأما قوله (وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شاءَ) فإنه يعنى تعالى ذكره أنه العالم الذى لايخفى عليه شىء ، محيط بذلك كله ، محصٍ له دون سائر مَن دونه ، وأنه لايعلم أحد سواه شيئا إلا بما شاء هو أن يعلمه ، فأراد فعلمه .

وإنما يعنى بذلك أن العبادة لاتنبغى لمن كان بالأشياء جاهلا ، فكيف يعبد من لا يعقل شيئا البتة من وَثَن وصَنَم ؟ يقول : أخلصوا العبادة لمن هو محيط بالأشياء كلها يعلمها ، لا يخفى عليه صغيرها وكبيرها .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى موسى بن هارون ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ) يقول : لايعلمون بشىء من علمه إلا بما شاء هو أن يعلمهم .

• القول فى تأويل قوله تعالى (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ)

اختلف أهل التأويل فى معنى الكرسىّ الذى أخبر الله تعالى ذكره فى هذه الآية أنه وسع السموات والأرض ، فقال بعضهم : هو علم الله تعالى ذكره .

ذكر من قال ذلك

حدثنا أبو كريب وسلم بن جُنادة ، قالا : ثنا ابن إدريس ، عن مُطَرِّف ، عن جعفر بن أبى المغيرة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ) قال : كرسيه : علمه .

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا مطرف ، عن جعفر بن أبى المغيرة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، مثله ، وزاد فيه : ألا ترى إلى قوله (وَلا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما) .

وقال آخرون : الكرسىّ : موضع القدمين .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى علىّ بن مسلم الطوسىّ ، قال : ثنا عبد الصمد بن عبد الوارث ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى

محمد بن جحادة ، عن سلمة بن كهيل ، عن عمارة بن عمير ، عن أبي موسى ، قال : الكرسيّ : موضع القدمين ، وله أطيط كأطيط الرحل .

حدثني موسى بن هارون ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السديّ (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ) فإن السموات والأرض في جوف الكرسيّ ، والكرسيّ بين يدي العرش ، وهو موضع قدميه .

حدثني المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك قوله (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ) قال : كرسيه الذي يوضع تحت العرش ، الذي يجعل الملوك عليه أقدامهم .

حدثنا أحمد بن إسحاق ، قال : ثنا أبو أحمد الزُّبَيْرِيّ ، عن سفيان ، عن عمار الدُّهْنِيّ ، عن مسلم البَطِين ، قال : الكرسيّ : موضع القدمين[1] .

حُدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ) قال : لما نزلت (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ) قال أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، هذا الكرسيّ وسع السموات والأرض ، فكيف العرش ؟ فأنزل الله تعالى (وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ) إلى قوله (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد في قوله (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ) قال ابن زيد : فحدثني أبي ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما السَّمَوَاتُ السَّبْعُ في الكُرْسِيِّ إلاَّ كَدَرَاهِمَ سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ فِي تُرْسٍ » . قال : وقال أبو ذرّ : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما الكُرْسِيُّ في العَرْشِ إلاَّ كَحَلْقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيْ فَلاةٍ مِنَ الأَرْضِ » .

وقال آخرون : الكرسيّ : هو العرش نفسه .

ذكر من قال ذلك :

حدثني المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك ، قال : كان الحسن يقول : الكرسيّ : هو العرش .

قال أبو جعفر : ولكل قول من هذه الأقوال وجه ومذهب ، غير أن الذي هو أولى بتأويل الآية ، ما جاء به الأثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو ما حدثني به عبد الله بن أبي زياد القَطَوانِي ، قال : ثنا عبيد الله بن موسى ، قال : أخبرنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن عبد الله بن خليفة ، قال : أتت امرأة النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقالت : ادع الله أن يدخلني الجنة ، فعظَّم الربَّ تعالى ذكره ، ثم قال : « إنَّ كُرْسِيَّهُ وَسِعَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ ، وإنَّهُ لَيَقْعُدُ عَلَيْهِ فَمَا يَفْضُلُ مِنْهُ مِقْدَارُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ ، ثم قال بأصابعه فجمعها : وَإنَّ لَهُ أَطِيطًا كَأَطِيطِ الرَّحْلِ الجَدِيدِ إذَا رُكِبَ مِنْ ثِقَلِهِ » .

---

(١) أشار في اللسان : (كرس) إلى حديث عمار الدهني ، وقال قال أبو منصور إنه الصحيح ، وقال : وهذه رواية اتفق أهل العلم على صحتها . قال : ومن روى عنه في الكرسي أنه العلم فقد أبطل . قلت : ولعل أبا منصور : هو الأزهري صاحب التهذيب في اللغة .

حدثني عبدالله بن أبي زياد ، قال : ثنا يحيي بن أبي بكر ، عن إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن عبد الله ابن خليفة ، عن عمر ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، بنحوه .

حدثنا أحمد بن إسحاق ، قال : ثنا أبو أحمد ، قال : ثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن عبد الله بن خليفة ، قال : جاءت امرأة ، فذكر نحوه .

وأما الذى يدل على صحته ظاهر القرآن : فقول ابن عباس الذى رواه جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عنه : أنه قال : هو علمه ، وذلك لدلالة قوله تعالى ذكره (وَلَا يَؤُدُهُ حِفْظُهُمَا) على أن ذلك كذلك ، فأخبر أنه لا يؤده حفظ ما علم ، وأحاط به مما فى السموات والأرض ، وكما أخبر عن ملائكته أنهم قالوا فى دعائهم : (رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شيء رَحْمَةً وَعِلْماً) فأخبر تعالى ذكره أن علمه وسع كل شيء ، فكذلك قوله (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمواتِ والأَرْضَ) وأصل الكرسيّ : العلم ، ومنه قيل للصحيفة يكون فيها علم مكتوب : كُراسة ، ومنه قول الراجز فى صفة قانص :

حتى إذا ما احْتازَها تَكَرَّسا[1]

يعنى : علم ، ومنه يقال للعلماء : الكراسيّ ، لأنهم المعتمد عليهم ، كما يقال : أوتاد الأرض ، يعنى بذلك أنهم العلماء الذين تصلح بهم الأرض ، ومنه قول الشاعر :

يَحُفُّ بِهِمْ بيضُ الوُجُوهِ وعُصْبَةٌ ... كَرَاسِيُّ بالأَحْدَاثِ حِينَ تَنُوبُ[2]

يعنى بذلك علماء بحوادث الأمور ونوازلها .

والعرب تسمى أصل كل شيء : الكِرْس ، يقال منه : فلان كريم الكِرْس : أى كريم الأصل ، قال العجّاج :

قَدْ عَلِمَ القُدُّوسُ مَوْلَى القُدْسِ ... أنَّ أبا العَبَّاسِ أَوْلَى نَفْسِ
بِمَعْدِنِ المُلْكِ الكَرِيمِ الكِرْسِ[3]

يعنى بذلك : الكريم الأصل ، ويروى :

فِى مَعْدِنِ العِزِّ الكَرِيمِ الكِرْسِ

• القول فى تأويل قوله تعالى (وَلَا يَؤُدُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ)

---

(١) لم أعرف قائل البيت .

(٢) رواية هذا البيت فى أساس البلاغة للزمخشرى ، عن قطرب : (به) فى موضع (بهم) . ولم ينسبه . قال : ويقال للعلماء : « الكراسى » ، عن قطرب ، وأنشد . . . (البيت) .

(٣) هذه أبيات ثلاثة من مشطور الرجز للعجاج الراجز . ولم نجدها فى ديوانه طبعة ليبسك ، ووجدناها فى « أراجيز العرب » للسيد « محمد توفيق البكرى » طبعة القاهرة سنة (١٣٤٦ ص ١١٣) . وهى فى ختام أرجوزة له يمدح بها الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموى ، و كنيته : « أبو العباس » . والقدوس : صيغة مبالغة من القدس ، وهو الطهارة . والرواية فيه وفى لسان العرب (قدس ، كرس) : (القديم) فى موضع (الكريم) . والكرس بكسر الكاف : الأصل والمعدن . وفى اللسان (قدس) : (الكرسى) ، بياء مشددة فى آخره . وقال العجاج يمدح الوليد بن عبد الملك . أراد أنه أحق نفس بالخلافة . وأنشد البيتين الأخيرين فى كرس هكذا :

أنْتَ أبا العَبَّاسِ أَوْلَى نَفْسِ ... بمعدِنِ المُلْكِ القَدِيمِ الكِرْسِ

والكرس : الأصل .

يعنى تعالى ذكره بقوله (وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُما) ولايشقّ عليه ولا يثقله ، يقال منه : قد آدنى هذا الأمر ، فهو يئودنى أودا وإيادا ، ويقال : ما آدك فهو لى آئد ، يعنى بذلك : ما أثقلك فهو لى مثقل .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية بن صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس (وَلا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما) يقول : لايثقُل عليه .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس : (وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُما) قال : لايثقل عليه حفظهما .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قوله (وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُما) : لايثقل عليه ، لايجهده حفظهما .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر عن الحسن وقتادة فى قوله (وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُما) قال : لا يثقل عليه شىء .

حدثنى محمد بن عبد الله بن بزيع ، قال : ثنا يوسف بن خالد السَّمْتىّ ، قال : ثنا نافع بن مالك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس فى قوله (وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُما) قال : لايثقل عليه حفظهما .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا ابن أبى زائدة ، وحدثنا يحيى بن أبى طالب ، قال : أخبرنا يزيد ، قالا جميعا : أخبرنا جويبر ، عن الضحاك (وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُما) قال : لا يثقل عليه .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا يحيى بن واضح ، عن عبيد ، عن الضحاك ، مثله .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : سمعته ، يعنى خلادا يقول : سمعت أبا عبد الرحمن المدينى يقول فى هذه الآية (وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُما) قال : لايكبُر عليه .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى بن ميمون ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله (وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُما) قال : لايَكرُثه .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُما) قال : لايثقل عليه .

حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع قوله (وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُما) يقول : لايثقل عليه حفظهما .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُما) قال : لايعزّ عليه حفظهما .

قال أبو جعفر : والهاء والميم والألف فى قوله (حِفْظُهُما) من ذكر السموات والأرض ، فتأويل الكلام : وسع كرسيه السموات والأرض ، ولا يثقل عليه حفظ السموات والأرض .

وأما تأويل قوله (وَهُوَ العَلِيُّ) فإنه يعنى : والله العلىّ ، والعلىّ : الفعيل، من قولك: علا يعلو علوًّا : إذا ارتفع ،فهو عال وعلىّ ، والعلىّ : ذو العلوّ والارتفاع على خلقه بقدرته ، وكذلك قوله (العَظِيمُ) ذو العظمة ، الذى كل شىء دونه ، فلا شىء أعظم منه .

كما حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية بن صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس : العظيم الذى قد كمل فى عظمته .

واختلف أهل البحث فى معنى قوله (وَهُوَ العَلِيُّ) فقال بعضهم : يعنى بذلك : وهو العلىّ عن النظير والأشباه ، وأنكروا أن يكون معنى ذلك : وهو العلىّ المكان ، وقالوا : غير جائز أن يخلو منه مكان ، ولا معنى لوصفه بعلوّ المكان ، لأن ذلك وصفه بأنه فى مكان دون مكان .

وقال آخرون : معنى ذلك: وهو العلىّ على خلقه ، بارتفاع مكانه عن أماكن خلقه ، لأنه تعالى ذكره فوق جميع خلقه ، وخلقه دونه ، كما وصف به نفسه أنه على العرش ، فهو عال بذلك عليهم .

وكذلك اختلفوا فى معنى قوله (العَظِيمُ) فقال بعضهم : معنى العظيم فى هذا الموضع المعظَّم : صرف المُفَعَّل إلى فعيل ، كما قيل للخمر المعتَّقة : خمر عتيق ، كما قال الشاعر :

وكأَنَّ الخَمْرَ العَتِيقَ مِنَ الإِسْـفَنْطِ مَمْزُوجَـةً بِمَاءٍ زُلالِ[1]

وإنما هى معتقة، قالوا: فقوله العظيم: معناه : المعظَّم الذى يعظِّمه خلقه ، ويهابونه ويتقونه . قالوا : وإنما يحتمل قول القائل: هو عظيم أحد معنيين : أحدهما: ما وصفنا من أنه معظَّم؛ والآخر: أنه عظيم فى المساحة والوزن . قالوا : وفى بطول القول بأن يكون معنى ذلك : أنه عظيم فى المساحة والوزن، صحة القول بما قلنا .

وقال آخرون : بل تأويل قوله (العَظِيمُ) هو أن له عظمة هى له صفة . وقالوا : لا نصف عظمته بكيفية ، ولكنا نضيف ذلك إليه من جهة الإثبات ، وننفى عنه أن يكون ذلك على معنى مشابهة العِظَم المعروف من العباد ، لأن ذلك تشبيه له بخلقه ، وليس كذلك . وأنكر هؤلاء ما قاله أهل المقالة التى قدمنا ذكرها ، وقالوا :لو كان معنى ذلك أنه معظَّم، لوجب أن يكون قد كان غير عظيم قبل أن يخلق الخلق . وأن يبطل معنى ذلك عند فناء الخلق ، لأنه لامعظِّم له فى هذه الأحوال .

وقال آخرون : بل قوله : إنه العظيم وصف منه نفسه بالعظم ، وقالوا : كل ما دونه من خلقه فبمعنى الصِّغَر ، لصغرهم عن عظمته .

القول فى تأويل قوله :

لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ، فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ، لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ، وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)

(١) هذا بيت من لامية الأعشى المشهورة (ديوانه طبعة القاهرة بشرح الدكتور محمد حسين) . والعتيق القديم . والإسفنط بفتح الفاء ، قال الجوهرى : ضرب من الأشربة ، فارسى معرب . يشبه طعم ريقها فى آخر الليل بخمر معتقة ممزوجة بالماء الزلال فى فمها ، وخبر كأن فى البيت بعده ، وممزوجة : منصوب على الحال . والشاهد فى العتيق بمعنى اسم المفعول .

اختلف أهل التأويل فى معنى ذلك ، فقال بعضهم : نزلت هذه الآية فى قوم من الأنصار ، أو فى رجل منهم ، كان لهم أولاد قد هوّدوهم أو نصّروهم ؛ فلما جاء الله بالإسلام ، أرادوا إكراههم عليه ، فنهاهم الله عن ذلك ، حتى يكونوا هم يختارون الدخول فى الإسلام .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا ابن أبى عدىّ ، عن شعبة ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : كانت المرأة تكون مِقْلاتا ، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تُهوّده ؛ فلما أجليت بنو النَّضير كان فيهم من أبناء الأنصار ، فقالوا : لاندع أبناءنا ، فأنزل الله تعالى ذكره (لاإِكْرَاهَ فِى الدِّينِ ، قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَىِّ) .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا سعيد ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير ، قال : كانت المرأة تكون مِقْلَى ، ولا يعيش لها ولد ، (قال شعبة : وإنما هو مِقْلات)[1] ، فتجعل عليها إن بقى لها ولد لتهوّدنه ، قال : فلما أُجليت بنو النضير كان فيهم منهم ، فقالت الأنصار : كيف نصنع بأبنائنا ؟ فنزلت هذه الآية : (لاإِكْرَاهَ فِى الدِّينِ ، قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَىِّ) قال : من شاء أن يقيم أقام ، ومن شاء أن يذهب ذهب .

حدثنا حميد بن مَسْعدة ، قال : ثنا بشر بن المفضل ، قال : ثنا داود ، وحدثنى يعقوب ، قال : ثنا ابن علية ، عن داود ، عن عامر ، قال : كانت المرأة من الأنصار تكون مِقلاتا لايعيش لها ولد ، فتَنذِر إن عاش ولدها ، أن تجعله مع أهل الكتاب على دينهم ، فجاء الإسلام ، وطوائف من أبناء الأنصار على دينهم ، فقالوا : إنما جعلناهم على دينهم ، ونحن نرى أن دينهم أفضل من ديننا ، وإذ جاء الله بالإسلام فَلَنُكرهنّهم ، فنزلت (لا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ) ، فكان فصلُ ما بين من اختار اليهودية والإسلام ، فمن لحق بهم اختار اليهودية ، ومن أقام اختار الإسلام . ولفظ الحديث لُحميد .

حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، قال : ثنا معتمر بن سليمان ، قال : سمعت داود ، عن عامر ، بنحو معناه ، إلا أنه قال : فكان فصل ما بينهم إجلاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى النضير ، فلحق بهم من كان يهوديا ولم يُسلم منهم ، وبقى من أسلم .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا عبد الأعلى ، قال : ثنا داود ، عن عامر بنحوه ، إلا أنه قال : إجلاء النَّضير إلى خيبر ، فمن اختار الإسلام أقام ، ومن كره لحق بخيبر .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن أبى إسحاق ، عن محمد بن أبى محمد الحَرَشى ، مولى زيد بن ثابت عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قوله (لا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَىِّ) قال : نزلت فى رجل من الأنصار من بنى سالم بن عوف ، يقال له الحصين ، كان له ابنان نصرانيان ، وكان هو رجلا مسلما ، فقال للنبىّ صلى الله عليه وسلم : ألاأستكرههما ، فإنهما قد أبيا إلا النصرانية ، فأنزل الله فيه ذلك .

---

(١) اشتقاق المقلات : من قلت لامن قلا . فالصواب ما قاله شعبة بن الحجاج .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا حجاج بن المنهال ، قال : ثنا أبو عوانة ، عن أبى بشر ، قال : سألت سعيد ابن جبير عن قوله (لا إكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَىِّ) قال : نزلت هذه فى الأنصار ، قال : قلت خاصة ؟ قال : خاصة ، قال : كانت المرأة فى الجاهلية تنذر إن ولدت ولدا أن تجعله فى اليهود، تلتمس بذلك طول بقائه ، قال : فجاء الإسلام وفيهم منهم ؛ فلما أُجليت النضير ، قالوا : يا رسول الله ، أبناؤنا وإخواننا فيهم ، قال : فسكت عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فأنزل الله تعالى ذكره (لا إكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَىِّ) قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قَدْ خُيِّرَ أَصْحابُكُمْ ، فإنِ اخْتارُوكُمْ فَهُمْ مِنْكُمْ ،وَإنِ اخْتارُوهُمْ فَهُمْ مِنْهُمْ) قال : فأجلوهم معهم.

حدثنى موسى بن هارون ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ، قوله (لا إكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَىِّ) إلى (لا انْفِصَامَ لَهَا) قال : نزلت فى رجل من الأنصار يقال له أبو الحصين، كان له ابنان، فقدم تجار من الشام إلى المدينة يحملون الزيت ؛ فلما باعوا وأرادوا أن يرجعوا، أتاهم ابنا أبى الحصين ، فدعوهما إلى النصرانية فتنصرا ، فرجعا إلى الشام معهم ، فأتى أبوهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : إن ابنىّ تنصرا وخرجا ، فاطلبهما ؟ فقال (لا إكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَىِّ) ولم يؤمر يومئذ بقتال أهل الكتاب،وقال:أبعدهما الله،هما أول من كفر ، فوجد أبو الحصين فى نفسه على النبىّ صلى الله عليه وسلم حين لم يبعث فى طلبهما ، فنزلت (فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لا يَجِدُوا فِى أنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً)، ثم إنه نسخ (لا إكْرَاهَ فِى الدِّينِ) فأمر بقتال أهل الكتاب فى سورة براءة .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله (لا إكْرَاهَ فِى الدِّينِ) قال: كانت فى اليهود يهود أرضعوا [1] رجالا من الأوس ، فلما أمر النبىّ صلى الله عليه وسلم بإجلائهم ، قال أبناؤهم من الأوس : لنذهبنّ معهم ، ولندينن بدينهم ، فمنعهم أهلوهم ، وأكرهوهم على الإسلام ، ففيهم نزلت هذه الآية .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن سفيان ، وحدثنا أحمد بن إسحاق ، قال : ثنا أبو أحمد جميعا ، عن سفيان ، عن خصيف ، عن مجاهد (لا إكْرَاهَ فِى الدِّينِ) قال : كان ناس من الأنصار مسترضَعين فى بنى قريظة ، فأرادوا أن يكرهوهم على الإسلام ، فنزلت (لا إكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَىِّ) .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال مجاهد : كانت النضير يهودا، فأرضعوا ، ثم ذكر نحو حديث محمد بن عمرو، عن أبى عاصم . قال ابن جريج : وأخبرنى عبد الكريم ، عن مجاهد : أنهم كانوا قد دان بدينهم أبناء الأوس ، دانوا بدين النضير .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ،عن أبيه ، عن داود بن أبى هند ، عن

(١) عبارة الدر المنثور : كانت النضير أرضعت رجالا . . . الخ .

الشعبيّ: أن المرأة من الأنصار كانت تنذر إن عاش ولدها لتجعلنه فى أهل الكتاب، فلما جاء الإسلام قالت الأنصار: يا رسول الله، ألا نُكره أولادنا الذين هم فى يهود على الإسلام، فإنا إنما جعلناهم فيها ونحن نرى أن اليهودية أفضل الأديان، فلما أن جاء الله بالإسلام، أفلا نكرههم على الإسلام؟ فأنزل الله تعالى ذكره: (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ).

حدثت عن عمار، قال: ثنا ابن أبى جعفر، عن أبيه، عن داود، عن الشعبيّ، مثله، وزاد: قال: كان فصل ما بين من اختار اليهود منهم، وبين من اختار الإسلام، إجلاء بنى النضير؛ فمن خرج مع بنى النضير كان منهم، ومن تركهم اختار الإسلام.

حدثنى يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد فى قوله (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) إلى قوله (الْعُرْوَةِ الْوُثْقَى) قال: هذا منسوخ.

حدثنى سعيد بن الربيع الرازى، قال: ثنا سفيان، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد، ووائل، عن الحسن، أن أناسا من الأنصار كانوا مسترضَعين فى بنى النضير، فلما أُجلُوا، أراد أهلوهم أن يلحقوهم بدينهم، فنزلت (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ).

وقال آخرون: بل معنى ذلك: لا يُكرَه أهلُ الكتاب على الدين إذا بذلوا الجزية، ولكنهم يُقَرُّون على دينهم. وقالوا: الآية فى خاصّ من الكفار، ولم ينسخ منها شىء.

ذكر من قال ذلك:

حدثنا بشر بن معاذ، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) قال: أكره عليه هذا الحىّ من العرب، لأنهم كانوا أمة أمية، ليس لهم كتاب يعرفونه، فلم يقبل منهم غير الإسلام، ولا يكره عليه أهل الكتاب، إذا أقرّوا بالجزية أو بالخراج، ولم يُفتَنوا عن دينهم، فيخلَّى عنهم.

حدثنا محمد بن بشار، قال: ثنا سليمان، قال: ثنا أبو هلال، قال: ثنا قتادة فى قوله (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) قال: هو هذا الحىّ من العرب أكرهوا على الدين، لم يُقبل منهم إلا القتل أو الإسلام، وأهل الكتاب قبلت منهم الجزية ولم يقتلوا.

حدثنا ابن حميد، قال: ثنا الحكم بن بشير، قال: ثنا عمرو بن قيس، عن جويبر، عن الضحاك فى قوله (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) قال: أُمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقاتل جزيرة العرب من أهل الأوثان، فلم يقبل منهم إلا لا إله إلا الله، أو السيف؛ ثم أُمر فيمن سواهم بأن يقبل منهم الجزية، فقال: (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ).

حدثنا الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر، عن قتادة فى قوله (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) قال: كانت العرب ليس لها دين، فأُكرهوا على الدين بالسيف، قال: ولا يُكْرَه اليهود ولا النصارى والمجوس إذا أعطَوا الجزية.

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا ابن عيينة ، عن ابن أبى نجيح ، قال : سمعت مجاهدا يقول لغلام له نصرانىّ : يا جرير أسلم ، ثم قال : هكذا كان يقال لهم .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى، قال : ثنى عمى، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس : (لاإِكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَىِّ) قال : وذلك لما دخل الناس فى الإسلام ، وأَعطى أهل الكتاب الجزية .

وقال آخرون : هذه الآية منسوخة ، وإنما نزلت قبل أن يفرض القتال .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال: أخبرنى يعقوب بن عبد الرحمن الزهرىّ ، قال : سألت زيد بن أسلم عن قول الله تعالى ذكره (لاإكْرَاهَ فِى الدِّينِ) قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة عشر سنين لايكره أحدا فى الدين ، فأبى المشركون إلا أن يقاتلوهم ، فاستأذن الله فى قتالهم، فأذن له .

وأولى هذه الأقوال بالصواب : قول من قال: نزلت هذه الآية فى خاصّ من الناس، وقال: عنَى بقوله تعالى ذكره (لاإكْرَاهَ فِى الدِّينِ) أهل الكتابين والمجوس ، وكل من جاء إقراره على دينه المخالف دين الحق ، وأخذ الجزية منه ، وأنكروا أن يكون شىء منها منسوخا .

وإنما قلنا: هذا القول أولى الأقوال فى ذلك بالصواب : لما قد دللنا عليه فى كتابنا : كتاب « اللطيف من البيان عن أصول الأحكام » من أن الناسخ غير كائن ناسخا إلا ما نفَى حكم المنسوخ، فلم يجز اجتماعهما . فأما ما كان ظاهره العموم من الأمر والنهى ، وباطنه الخصوص ، فهو من الناسخ والمنسوخ بمعزل ، وإذ كان ذلك كذلك ، وكان غير مستحيل أن يقال : لا إكراه لأحد ممن أخذت منه الجزية فى الدين ، ولم يكن فى الآية دليل على أن تأويلها بخلاف ذلك، وكان المسلمون جميعا قد نقلوا عن نبيهم صلى الله عليه وسلم أنه أَكره على الإسلام قوما، فأبى أن يقبل منهم إلا الإسلام ، وحكم بقتلهم إن امتنعوا منه ، وذلك كعبدة الأوثان من مشركى العرب ، وكالمرتدّ عن دينه دين الحقّ إلى الكفر ومن أشبههم، وأنه ترك إكراه آخرين على الإسلام بقبوله الجزية منه ، وإقراره على دينه الباطل ، وذلك كأهل الكتابين ومن أشبههم ، كان بيِّنا بذلك أن معنى قوله (لاإكْرَاهَ فِى الدِّينِ) : إنما هو لاإكراه فى الدين لأحد ممن حلّ قبولُ الجزية منه ، بأدائه الجزية ، ورضاه بحكم الإسلام . ولا معنى لقول من زعم أن الآية منسوخة الحكم بالإذن بالمحاربة .

فإن قال قائل : فما أنت قائل فيما رُوى عن ابن عباس وعمن روَى عنه، من أنها نزلت فى قوم من الأنصار أرادوا أن يكرهوا أولادهم على الإسلام ؟ قلنا : ذلك غير مدفوعة صحته، ولكنّ الآية قد تنزل فى خاصّ من الأمر ، ثم يكون حكمها عاما فى كل ما جانس المعنى الذى أنزلت فيه، فالذين أنزلت فيهم هذه الآية، على ما ذكر ابن عباس وغيره ، إنما كانوا قوما دانوا بدين أهل التوراة، قبل ثبوت عقد الإسلام لهم، فنهى الله تعالى ذكره عن إكراههم على الإسلام ، وأنزل بالنهى عن ذلك آية يعمّ حكمها كل من كان

فى مثل معناهم ممن كان على دين من الأديان التى يجوز أخذ الجزية من أهلها ، وإقرارهم عليها على النحو الذى قلنا فى ذلك .

ومعنى قوله (لَاإِكْرَاهَ فِى الدِّينِ) لايكره أحد فى دين الإسلام عليه ، وإنما أدخلت الألف واللام فى الدين ، تعريفا للدين الذى عنى الله بقوله: لاإكراه فيه ، وأنه هو الإسلام ، وقد يحتمل أن يكون أدخلتا عقيبا من الهاء المنوية فى الدين ، فيكون معنى الكلام حينئذ : وهو العلىّ العظيم لاإكراه فى دينه ، قد تبين الرشد من الغىّ ، وكان هذا القول أشبه بتأويل الآية عندى .

وأما قوله (قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ) فإنه مصدر من قول القائل: رَشَدْتُ فأنا أَرْشُدُ رُشْدا ورَشَدًا ورَشادا ، وذلك إذا أصاب الحقّ والصواب . وأما الغىّ ، فإنه مصدر من قول القائل : قد غَوَى فلان فهو يَغْوِى غَيًّا وغَوايةً . وبعض العرب يقول : غوِى فلان يَغْوَى ، والذى عليه قراءة القراء (ماضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى) بالفتح ،وهى أفصح اللغتين ، وذلك إذا عدا الحقّ وتجاوزه فضلّ .

فتأويل الكلام إذن : قد وضح الحقّ من الباطل ، واستبان لطالب الحق والرشاد وجه مطلبه ، فتميز من الضلالة والغَواية، فلا تكرهوا من أهل الكتابين ، ومن أبحت لكم أخذ الجزية منه ، على دينكم دين الحق ، فإن من حاد عن الرشاد بعد استبانته له ، فإلى ربه أمره ، وهو ولىّ عقوبته فى معاده .

القول فى تأويل قوله (فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ ويُؤْمِنْ بِاللهِ)

اختلف أهل التأويل فى معنى الطاغوت ، فقال بعضهم : هو الشيطان .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن أبى إسحاق ، عن حسان بن فائد العَبْسِىّ قال : قال عمر بن الخطاب : الطاغوت : الشيطان .

حدثنى محمد بن المثنى ، قال : ثنى ابن أبى عدىّ ، عن شعبة ، عن أبى إسحاق ، عن حسان بن فائد ، عن عمر ، مثله .

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا عبد الملك ، عمن حدثه ، عن مجاهد ، قال : الطاغوت : الشيطان .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا زكريا ، عن الشعبىّ ، قال : الطاغوت : الشيطان .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك فى قوله (فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ) قال : الشيطان .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة : الطاغوت : الشيطان .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ فى قوله (فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ) : بالشيطان .

وقال آخرون : الطاغوت : هو الساحر .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن المثنى ، قال : ثنا عبد الأعلى ، قال : ثنا داود ، عن أبى العالية، أنه قال: الطاغوت : الساحر . وقد خولف عبد الأعلى . فى هذه الرواية ، وأنا أذكر الخلاف بعد .

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا حميد بن مسعدة ، قال: ثنا عوف،عن محمد ، قال: الطاغوت: الساحر

وقال آخرون : بل الطاغوت : هو الكاهن .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن بشار ، قال : حدثنا محمد بن جعفر ، قال : حدثنا سعيد ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير ، قال : الطاغوت : الكاهن .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا عبد الوهاب ، قال : ثنا داود ، عن رفيع ، قال : الطاغوت : الكاهن .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج (فَمَنْ يَكْفُرْ بالطَّاغُوتِ) قال : كهان تنزل عليها شياطين، يلقون على ألسنتهم وقلوبهم، أخبرنى أبو الزبير عن جابر بن عبد الله، أنه سمعه يقول : وسئل عن الطواغيت التى كانوا يتحاكمون إليها ، فقال : كان فى جهينة واحد ، وفى أسلم واحد ، وفى كل حىّ واحد ، وهى كُهّان ينزل عليها الشيطان .

والصواب من القول عندى فى الطاغوت : أنه كل ذى طغيان على الله فعبد مَنْ دونَه ، إما بقهر منه لمن عبده، وإما بطاعة ممن عبده له ، إنسانا كان ذلك المعبود ، أو شيطانا ، أو وثنا ، أو صنما ، أو كائنا ما كان من شىء ؛ وأرى أن أصل الطاغوت : الطَّغَوُوت ، من قول القائل: طغا فلان يطغو: إذا عدا قدره، فتجاوز حدّه ، كالجبروت من التجبر ، والخلبوت من الحلب ، ونحو ذلك من الأسماء التى تأتى على تقدير «فعَلُوت» بزيادة الواو والتاء ، ثم نقلت لامه، أعنى لام الطغَوُوت، فجعلت له عينا، وحولت عينه، فجعلت مكان لامه ، كما قيل: جذب وجبذ، وجابذ وجاذب، وصاعقة وصاقعة ، وما أشبه ذلك من الأسماء التى على هذا المثال .

فتأويل الكلام إذن: فمن يجحد ربوبية كل معبود من دون الله، فيكفر به ويؤمن بالله ، يقول: ويصدق بالله أنه إلهه وربه ومعبوده ، فقد استمسك بالعروة الوثقى ؛ يقول : فقد تمسك بأوثق ما يتمسك به من طلب الخلاص لنفسه من عذاب الله وعقابه .

كما حدثنى أحمد بن سعيد بن يعقوب الكندىّ ، قال : ثنا بقية بن الوليد ، قال : ثنا ابن أبى مريم ، عن حميد بن عقبة، عن أبى الدرداء: أنه عاد مريضا من جيرته، فوجده فى السوق وهو يُغَرغر ،لايفقهون مايريد، فسألهم: يريد أن ينطق ؟ قالوا : نعم، يريد أن يقول : آمنت بالله ، وكفرت بالطاغوت. قال أبو الدرداء: وما علمكم بذلك ؟ قالوا : لم يزل يرددها حتى انكسر لسانه ، فنحن نعلم أنه إنما يريد أن ينطق بها . فقال أبو الدرداء: أفلح صاحبكم، إن الله يقول: (فَمَنْ يَكْفُرْ بالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ باللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بالعُرْوَةِ الوُثْقَى لاانْفِصَامَ لَهَا ، وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) .

القول فى تأويل قوله (فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى) :

والعروة فى هذا المكان: مَثَل للإيمان الذى اعتصم به المؤمن، فشبهه فى تعلقه به وتمسكه به، بالمتمسك بعروة الشىء الذى له عروة يُتَمَسَّك بها، إذ كان كل ذى عروة، فإنما يتعلق من أراده بعروته، وجعل تعالى ذكره الإيمان الذى تمسك به الكافر بالطاغوت، المؤمن بالله، من أوثق عُرا الأشياء بقوله (الوُثْقَى).

والوثقى: فُعْلَى من الوثاقة، يقال فى الذكر: هو الأوثق، وفى الأنثى: هى الوثقى، كما يقال فلان الأفضل وفلانة الفُضْلَى.

وبنحو ما قلنا فى ذلك قال أهل التأويل.

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، عن عيسى، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد فى قوله (بالعُرْوَةِ الوُثْقَى) قال: الإيمان.

حدثنى المثنى، قال: حدثنا أبو حذيفة، قال: حدثنا شبل، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد، مثله.

حدثنى موسى، قال: حدثنا عمرو، قال: ثنا أسباط، عن السدىّ، قال: العروة الوثقى: هو الإسلام.

حدثنا أحمد بن إسحاق، قال: ثنا أبو أحمد، قال: ثنا سفيان، عن أبى السوداء، عن جعفر، يعنى ابن أبى المغيرة، عن سعيد بن جبير قوله (فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى) قال: لا إله إلا الله.

ثنا ابن بشار، قال: ثنا عبد الرحمن، قال: ثنا سفيان، عن أبى السوداء النهدىّ، عن سعيد بن جبير: مثله.

حدثنى المثنى، قال: ثنا إسحاق، قال: ثنا أبو زهير، عن جويبر، عن الضحاك (فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى): مثله.

القول فى تأويل قوله (لا انْفِصَامَ لَهَا)

يعنى تعالى ذكره بقوله (لا انْفِصَامَ لَهَا) لا انكسار لها، والهاء والألف فى قوله لها: عائد على العروة.

ومعنى الكلام: فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله، فقد اعتصم من طاعة الله بما لا يخشى مع اعتصامه خذلانه إياه، وإسلامه عند حاجته إليه فى أهوال الآخرة، كالتمسك بالوثيق من عُرا الأشياء التى لا يخشى انكسار عراها، وأصل الفَصْم: الكسر، ومنه قول أعشى بنى ثعلبة:

وَمَبْسِمُهَا عَنْ شَتِيتِ النَّبَا تِ غيرُ أكسَّ ولا مُنْفَصِمْ[1]

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل.

ذكر من قال ذلك :

(١) البيت لأعشى بنى ثعلبة، وهو أبو بصير (فى ديوانه طبعة القاهرة بشرح الدكتور محمد حسين، ص ٣٥). والشتيت: المفلج. والأكس: صفة، من كس يكس كسسا من باب فرح، وهو القصير الأسنان، أو الذى يكون حنكه الأعلى أقصر من الأسفل. فتكون الثنيتان العليان وراء السفليين من داخل الفم. والمنقصم: اسم فاعل وهو الذى فيه القصم (قصم يقصم قصما من باب فرح) وهو انصداع فى السن، أو تثلم وتكسر فى أطراف الأسنان، وتفلل واسوداد. ورواية المؤلف: منفصم، وهى صحيحة بمعنى الأولى.

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله (لاانْفِصَامَ لَهَا) قال : لايغير الله مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنى موسى بن هارون، قال: ثنا عمرو، قال: ثنا أسباط، عن السدىّ (لاانْفِصَامَ لَهَا) قال: لاانقطاع لها.

القول فى تأويل قوله (وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

يعنى تعالى ذكره : والله سميع إيمان المؤمن بالله وحده ، الكافر بالطاغوت عند إقراره بوحدانية الله ، وتبرئه من الأنداد والأوثان التى تعبد من دون الله، عليم بما عزم عليه من توحيد الله وإخلاص ربوبيته. قلبه، وما انطوى عليه من البراءة من الآلهة والأصنام والطواغيت، ضميره، وبغير ذلك مما أخفته نفس كل أحدمن خلقه، لاينكتم عنه سرّ، ولا يخفى عليه أمر، حتى يجازى كُلاًّ يوم القيامة بما نطق به لسانه، وأضمرته نفسه ، إن خيرا فخيرا ، وإن شرًّا فشرًّا .

القول فى تأويل قوله :

ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ، وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ، أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٥٧)

يعنى تعالى ذكره بقوله (اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا) : نصيرهم وظهيرهم ، يتولاهم بعونه وتوفيقه ، (يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ) يعنى بذلك : يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، وإنما عنى بالظلمات فى هذا الموضع : الكفر ، وإنما جعل الظلمات للكفر مثلا ، لأن الظلمات حاجبة للأبصار عن إدراك الأشياء وإثباتها ، وكذلك الكفر حاجب أبصار القلوب عن إدراك حقائق الإيمان ، والعلم بصحته وصحة أسبابه . فأخبر تعالى ذكره عباده أنه ولىّ المؤمنين، ومبصرهم حقيقة الإيمان وسبله وشرائعه وحُججه، وهاديهم، فوفقهم لأدلته المزيلة عنهم الشكوك، بكشفه عنهم دواعى الكفر، وظُلَم سواتر أبصار القلوب .

ثم أخبر تعالى ذكره عن أهل الكفر به، فقال (وَالَّذِينَ كَفَرُوا) : يعنى الجاحدين وحدانيته، أولياؤهم : يعنى نصراؤهم وظهراؤهم، الذين يتولونهم . الطاغوت : يعنى الأنداد والأوثان الذين يعبدونهم من دون الله، (يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إلى الظُّلُماتِ) يعنى بالنور : الإيمان ، على نحو ما بينا ، إلى الظلمات ، ويعنى بالظلمات : ظلمات الكفر وشكوكه، الحائلة دون أبصار القلوب، ورؤية ضياء الإيمان، وحقائق أدلته وسبله .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قوله (اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا، يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ) يقول : من الضلالة إلى الهدى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ) : الشيطان (يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إلى الظُّلُماتِ) يقول : من الهدى إلى الضلالة .

حدثني المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك (اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) الظلمات : الكفر ، والنور : الإيمان (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ) : يخرجونهم من الإيمان إلى الكفر .

حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع في قوله تعالى ذكره : (اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) يقول : من الكفر إلى الإيمان (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ) يقول : من الإيمان إلى الكفر .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن منصور ، عن عَبْدَةَ[1] بن أبي لُبابة ، عن مجاهد أو مِقسم في قول الله (اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ) قال : كان قوم آمنوا بعيسى ، وقوم كفروا به ؛ فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم آمن به الذين كفروا بعيسى ، وكفر به الذين آمنوا بعيسى ، أي يُخرج الذين آمنوا إلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت : آمنوا بعيسى وكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، قال : يخرجونهم من النور إلى الظلمات .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا الحجاج بن المنهال ، قال : ثنا المعتمر بن سليمان ، قال : سمعت منصورا ، عن رجل ، عن عبدة[1] بن أبي لبابة قال في هذه الآية (اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) إلى (أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) قال : هم الذين كانوا آمنوا بعيسى بن مريم ، فلما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم آمنوا به ، وأنزلت فيهم هذه الآية .

وهذا القول الذي ذكرناه عن مجاهد وعبدة[1] بن أبي لبابة ، يدل على أن الآية معناها الخصوص ، وأنها إن كان الأمر كما وصفنا ، نزلت فيمن كفر من النصارى بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وفيمن آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم من عبدة الأوثان ، الذين لم يكونوا مقرّين بنبوّة عيسى ، وسائر الملل التي كان أهلها تكذّب بعيسى .

فإن قال قائل : أَوَكانت النصارى على حقّ قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، فكذبوا به ؟ قيل : من كان منهم على ملة عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم ، فكان على حق ، وإياهم عَنَى الله تعالى ذكره بقوله (يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ) .

فإن قال قائل : فهل يحتمل أن يكون قوله (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ) أن يكون معنيا به غير الذين ذكر مجاهد وغيره ، أنهم عَنَوْا به من المؤمنين بعيسى ، أو غير أهل الردة والإسلام ؟ قيل : نعم ، يحتمل أن يكون معنى ذلك : والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت ، يحولون بينهم وبين الإيمان ، ويضلونهم فيكفرون ، فيكون تضليلهم إياهم حتى يكفروا ، إخراجا منهم لهم من الإيمان ، يعني صدّهم إياهم عنه ، وحرمانهم إياهم خيره ، وإن لم يكونوا كانوا فيه قبلُ ، كقول الرجل :

(١) في الأصل : عبد الله في الموضع الأول ، وعبدة في الثاني والثالث . والصواب : عبدة فيها ، انظر خلاصة الخزرجي .

أخرجنى والدى من ميراثه : إذا ملك ذلك فى حياته غيره ، فحرمه منه خطيئة ، ولم يملك ذلك القائل هذا الميراث قط فيخرج منه، ولكنه لما حرمه ، وحيل بينه وبين ما كان يكون له لو لم يُحرَمْه ، قيل : أخرجه منه ، وكقول القائل: أخرجنى فلان من كتيبته ، يعنى لم يجعلنى من أهلها ، ولم يكن فيها قطُّ قبل ذلك ، فكذلك قوله (يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إلى الظُّلُماتِ) يحتمل أن يكون إخراجهم إياهم من الإيمان إلى الكفر على هذا المعنى ، وإن كان الذى قاله مجاهد وغيره أشبه بتأويل الآية .

فإن قال لنا قائل : وكيف قال: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ) ، فجمع خبر الطاغوت بقوله يخرجونهم ، والطاغوت واحد . قيل: إن الطاغوت اسم لجماع وواحد، وقد يجمع : طواغيت، وإذا جعل واحده وجمعه بلفظ واحد ، كان نظير قولهم : رجل عَدْل ، وقوم عَدْل ،ورجل فِطْر ، وقوم فِطْر ، وما أشبه ذلك من الأسماء التى تأتى موحدة فى اللفظ واحدها وجمعها، وكما قال العباس بن مرداس :

فَقُلْنا أَسْلِمُوا إِنا أَخُوكُمْ فَقَدْ بَرِئَتْ مِنَ الإِحَنِ الصُّدُورُ [1]

القول فى تأويل قوله (أُولئِكَ أَصحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ)

يعنى تعالى ذكره بذلك : هؤلاء الذين كفروا أصحاب النار : أهل النار الذين يخلدون فيها ، يعنى فى نار جهنم دون غيرهم من أهل الإيمان ، إلى غير غاية ولا نهاية أبدا .

القول فى تأويل قوله :

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِيمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ، إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ، قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ، قَالَ إِبْرَٰهِيمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ، فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ، وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٥٨)

يعنى تعالى ذكره بقوله (أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِي حاجَّ إِبْراهِيمَ فِي رَبِّهِ) ألم تر يا محمد بقلبك الذى حاجّ إبراهيم ؟ يعنى الذى خاصم إبراهيم، يعنى إبراهيم نبىّ الله صلى الله عليه وسلم فى ربه، (أَنْ آتاهُ اللهُ المُلْكَ) : يعنى بذلك : حاجّه فخاصمه فى ربه ، لأن الله آتاه الملك ، وهذا تعجيب من الله تعالى ذكره نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم، من الذى حاجّ إبراهيم فى ربه ، ولذلك أدخلت إلى فى قوله (أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِي حاجَّ) ، وكذلك تفعل العرب إذا أرادت التعجيب من رجل فى بعض ما أنكرت من فعله ، قالوا : ما ترى إلى هذا ، والمعنى : هل رأيت مثل هذا ، أو كهذا ؟ وقيل: إن الذى حاجّ إبراهيم فى ربه جبار كان ببابل، يقال له نُمروذ بن كَنعان بن كُوش بن سام بن نوح، وقيل : إنه نمروذ بن فالَخ بن عابَر بن شالَخ بن أَرْفَخْشَذ ابن سام بن نوح .

(١) البيت فى اللسان (أخو) ونسبه للعباس بن مرداس السلمى ، واستشهد به على أن الأخ قد يجمع بالواو والنون ، وحذفت منه النون للإضافة . وأما المؤلف فقد جعله مفردا بمعنى الجمع . والإحن : العداوات .

ذكر من قال ذلك :

حدثني محمد بن عمرو ، ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد في قول الله : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ) قال : هو نُمروذ بن كنعان .

حدثني المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثني المثنى ، قال : ثنا أبو نعيم ، عن سفيان ، عن ليث ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبي ، عن النضر بن عديّ ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ) قال : كنا نتحدث أنه ملك يقال له نمروذ ، وهو أول ملك تجبر في الأرض ، وهو صاحب الصرح ببابل .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، قال : هو اسمه نمروذ ، وهو أول من تجبر في الأرض ، حاجّ إبراهيم في ربه .

حدثني المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع في قوله (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ) قال : ذكر لنا أن الذى حاجّ إبراهيم في ربه كان ملكا يقال له نمروذ ، وهو أول جبار تجبر في الأرض ، وهو صاحب الصرح ببابل .

حدثنا موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السديّ ، قال : هو نُمروذ[1] بن كنعان .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال: قال ابن زيد : هو نُمروذ .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، مثله .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، قال : أخبرني زيد بن أسلم ، بمثله .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن ابن جريج ، قال : أخبرني عبد الله بن كثير ، أنه سمع مجاهدا يقول : هو نمروذ . قال ابن جريج : هو نمروذ ، ويقال : إنه أول ملك في الأرض .

القول في تأويل قوله (إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ، قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ، فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

يعنى تعالى ذكره بذلك : ألم تر يا محمد إلى الذى حاجّ إبراهيم في ربه حين قال له إبراهيم : ربيَ الذى يحيي ويميت ، يعني بذلك : ربي الذى بيده الحياة والموت ، يحيي من يشاء ، ويميت من أراد بعد الإحياء ، قال : أنا أفعل ذلك ، فأحيي وأميت ، أستحيي من أردت قتله ، فلا أقتله ، فيكون ذلك مني إحياء له ، وذلك عند العربِ يسمى إحياء ، كما قال تعالى ذكره : (وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا) ، وأقتل آخر ، فيكون ذلك مني إماتة له ، قال إبراهيم صلى الله عليه وسلم : فإن الله الذى هو ربي ، يأتي بالشمس من مشرقها ،

(١) نمروذ : بضم النون ، وإهمال الدال وإعجامها . وصرح العصام وغيره بأنه بالمعجمة . (انظر تاج العروس) .

فأت بها إن كنت صادقا أنك إله ، من مغربها ، قال الله تعالى ذكره : (فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ) يعنى انقطع ، وبطلت حجته ، يقال منه : بُهِتَ يُبْهَتُ بَهْتًا ، وقد حكى عن بعض العرب أنها تقول بهذا المعنى : بَهِتَ ، ويقال : بَهَتُّ الرجل : إذا افتريت عليه كذبا ، بَهْتًا وبُهتانا وبَهاتة . وقد رُوِى عن بعض القراء أنه قرأ (فَبَهَتَ الَّذِى كَفَرَ) بمعنى : فَبَهَتَ إبراهيمُ الذى كفر .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة فى قوله (إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ ، قال أنا أُحْيِى وأُمِيتُ) وذكر لنا أنه دعا برجلين ، فقتل أحدهما ، واستحيا الآخر ، فقال : أنا أحيي هذا : أنا أستحيي من شئت ، وأقتل من شئت ، قال إبراهيم عند ذلك (فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ، فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قال : أنا أحيي وأميت : أقتل من شئت ، وأستحيي من شئت ، أدعه حيا ، فلا أقتله ، وقال : مَلَكَ الأرض مشرقَها ومغربها أربعةُ نفر : مؤمنان ، وكافران ، فالمؤمنان : سليمان بن داود ، وذو القرنين ؛ والكافران : بُخْتَنَصَّرُ[1] ونمروذ بن كنعان ، لم يملكها غيرهم .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن زيد بن أسلم : أول جبار كان فى الأرض نمروذ ، فكان الناس يخرجون فيمتارُون من عنده الطعام ، فخرج إبراهيم يمتار مع من يمتار ، فإذا مرّ به ناس قال : من ربكم ؟ قالوا : أنت ، حتى مرّ إبراهيم ، قال : من ربك ؟ قال : الذى يحيي ويميت . قال : أنا أحيي وأميت ، قال إبراهيم (فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ . فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ) قال : فردّه بغير طعام ، قال : فرجع إبراهيم على أهله ، فمرّ على كثيب من رمل أعفر ، فقال : ألا آخذ من هذا فآتىَ به أهلى ، فتطيبَ أنفسهم حين أدخل عليهم ؟ فأخذ منه ، فأتى أهله ، قال : فوضع متاعه ثم نام ، فقامت امرأته إلى متاعه ، ففتحته ، فإذا هى بأجود طعام رأته ، فصنعت له منه ، فقرّبته إليه ، وكان عهده بأهله أنه ليس عندهم طعام ، فقال : من أين هذا ؟ قالت : من الطعام الذى جئت به ، فعلم أن الله رزقه ، فحمد الله ، ثم بعث الله إلى الجبار مَلَكا : أن آمن بى وأتركَكَ على ملكك ، قال : وهل ربّ غيرى ؟ فجاءه الثانية ، فقال له ذلك ، فأبى عليه ، ثم أتاه الثالثة ، فأبى عليه ، فقال له المَلَك : اجمع جموعك إلى ثلاثة أيام ، فجمع الجبار جموعه ، فأمر الله الملك ، ففتح عليه بابا من البعوض ، فطلعت الشمس ، فلم يروها من كثرتها ، فبعثها الله عليهم ، فأكلت لحومهم ، وشربت دماءهم ، فلم يبق إلا العظام ، والملِك كما هو لم يصبه من ذلك شىء ، فبعث الله عليه بعوضة ، فدخلت فى مَنْخِرة ، فمكث أربعمائةسنة يُضْرب رأسه بالمطارق ، وأرحم الناس به من جمع يديه وضرب بهما رأسه ،

(١) أصل اسم بختنصر كما فى سفر إرميا (٢٨ : ١٠) نبوخذ ناصر . وقد يبدلون النون الثانية راء ، كما فى إرمياء (٣٢ : ٢٩) .

وكان جبارا أربعمائة عام ، فعذّبه الله أربعمائة سنة كملكه ، ثم أماته الله ، وهو الذى بنى صرحا إلى السماء ، فأتى الله بنيانه من القواعد ، وهو الذى قال الله : (فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ) .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنى عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قول الله (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ) قال : هو نمروذ ، كان بالموصل والناس يأتونه ، فإذا دخلوا عليه ، قال : من ربكم ؟ فيقولون : أنت ، فيقول : ميروهم . فلما دخل إبراهيم ومعه بعير خرج يمتار به لولده ، قال : فعرضهم كلهم ، فيقول : من ربكم ؟ فيقولون : أنت ، فيقول : ميروهم ، حتى عرض إبراهيم مرتين ، فقال : من ربك ؟ قال : ربى الذى يحيى ويميت ، قال : أنا أحيى وأميت ، إن شئت قتلتك فأمتك ، وإن شئت استحييتك ، (قال إبراهيم : فَإِنَّ اللهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ، فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ ، وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) قال : أخرجوا هذا عنى فلا تميروه شيئا ، فخرج القوم كلهم قد امتاروا ، وجُوالقا إبراهيم يصطفقان ، حتى إذا نظر إلى سواد جبال أهله ، قال : لَيحزُنُنى صَبِيَّاىَ إسماعيل وإسحاق ، لو أنى ملأت هذين الجُوالقين من هذه البطحاء ، فذهبت بهما ، قرّت عينا صَبِيَّىَّ ، حتى إذا كان الليل أهرقته ، قال : فملأهما ثم خيطهما ، ثم جاء بهما ، فترامى عليهما الصبيّان فرحا ، وألقى رأسه فى حجر سارة ساعة ، ثم قالت : ما يجلسنى ؟ قد جاء إبراهيم تعبا لَغِبا ، لو قمت فصنعت له طعاما إلى أن يقوم ؟ قال : فأخذتْ وسادة ، فأدخلتها مكانها ، وانسلت قليلا قليلا ، لئلا توقظه ، قال : فجاءت إلى إحدى الغرارتين ففتقتها ، فإذا حُوَّارَى[1] من النقىّ لم يروا مثله عند أحد قط ، فأخذت منه ، فطحنته وعجنته ، فلما أتت توقظ إبراهيم ، جاءته حتى وضعته بين يديه ، فقال : أىّ شىء هذا يا سارة ؟ قالت : من جُوالقك ، لقد جئت وما عندنا قليل ولا كثير ، قال : فذهب ينظر إلى الجُوالق الآخر ، فإذا هو مثله ، فعرف من أين ذاك .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قال : لما قال له إبراهيم : ربى الذى يحيى ويميت ، قال هو ، يعنى نمروذ : فأنا أحيى وأميت ، فدعا برجلين ، فاستحيا أحدهما ، وقتل الآخر ، قال : أنا أحيى وأميت ، قال : أى أستحيى من شئت ، فقال إبراهيم : (فَإِنَّ اللهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ ، فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ، فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ ، وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، قال : لما خرج إبراهيم من النار ، أدخلوه على الملك ، ولم يكن قبل ذلك دخل عليه ، فكلمه ، وقال له : من ربك ؟ قال : ربى الذى يحيى ويميت ، قال نمروذ : أنا أحيى وأميت ، أنا أُدخل أربعة نفر بيتا ، فلا يُطعمون ولا يُسقون ، حتى إذا هلكوا من الجوع ، أطعمت اثنين وسقيتهما فعاشا ، وتركت اثنين فماتا ، فعرف إبراهيم أن له قدرة بسلطانه وملكه على أن يفعل ذلك ، قال له إبراهيم : فإن ربى الذى يأتى بالشمس من المشرق ، فأت بها من المغرب ، فبهت الذى كفر ، وقال : إن هذا إنسان مجنون ، فأخرجوه ، ألا ترون أنه من جنونه اجترأ على آلهتكم .

(١) الحوارى : الدقيق الأبيض الخالص ، وهو اللباب النقى .

فكسرها، وأن النار لم تأكله ، وخشى أن يفتضح فى قومه ، أعنى نمروذ . وهو قول الله تعالى ذكره: (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ) ، فكان يزعم أنه ربّ ، وأمر بإبراهيم فأُخرج .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : أخبرنى عبد الله ابن كثير : أنه سمع مجاهدا يقول : قال : أنا أحيى وأميت : أحيى فلا أقتل ، وأميت من قتلت . قال ابن جُريج : كان أتى برجلين ، فقتل أحدهما ، وترك الآخر ، فقال : أنا أحيى وأميت ، قال : أقتل فأميت من قتلت ، وأحيى ، قال : أستحيى فلا أقتل .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : ثنى محمد بن إسحاق ، قال : ذكر لنا والله أعلم ، أن نمروذ قال لإبراهيم فيما يقول : أرأيت إلهك هذا الذى تعبده ، وتدعو إلى عبادته ، وتذكر من قدرته التى تعظمه بها على غيره ما هو ؟ قال له إبراهيم : ربى الذى يحيى ويميت ، قال نمروذ : فأنا أحيى وأميت ، فقال له إبراهيم : كيف تحيى وتميت ؟ قال : آخذ رجلين قد استوجبا القتل فى حكمى ، فأقتل أحدهما، فأكون قد أمته ، وأعفو عن الآخر ، فأتركه وأكون قد أحييته ، فقال له إبراهيم عند ذلك : فإن الله يأتى بالشمس من المشرق ، فأت بها من المغرب ، أعرف[1] أنه كما تقول ، فبهت عند ذلك نمروذ ، ولم يرجع إليه شيئا ، وعرف أنه لايطيق ذلك ، يقول تعالى ذكره (فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ) يعنى وقعت عليه الحجة ، يعنى نمروذ، وقوله (وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) يقول: والله لايهدى أهل الكفر إلى حجة يدحضون بها حجة أهل الحق عند المحاجّة والمخاصمة ، لأن أهل الباطل حججهم داحضة ، وقد بينا أن معنى الظلم : وضع الشىء فى غير موضعه ، والكافر وضع جحوده ما جحد فى غير موضعه ، فهو بذلك من فعله ظالم لنفسه .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال ابن إسحاق .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : ثنى محمد بن إسحاق (وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) أى لا يهديهم فى الحجة عند الخصومة ، لما هم عليه من الضلالة .

القول فى تأويل قوله :

أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ، قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِ هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ، قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ، قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ . قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ ، فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ، وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ، وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)

(١) قوله « أعرف » . . . الخ هذه العبارة إن كانت من قول إبراهيم ، فهى إشارة إلى مارد به نمروذ من الإحياء والإماتة المجازيين . وإن كانت من كلام نمروذ ، احتيج إلى لفظ قبلها . مثل : قال أو نحوه .

يعني تعالى ذكره بقوله (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ) نظير الذى عنى بقوله (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ) من تعجيب محمد صلى الله عليه وسلم منه، وقوله (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ): عطف على قوله: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ)، وإنما عطف قوله (أَوْ كَالَّذِي) على قوله (إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ) وإن اختلف لفظاهما، لتشابه معنييهما، لأن قوله: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ) بمعنى: هل رأيت يا محمد كالذى حاجّ إبراهيم فى ربه، ثم عطف عليه بقوله (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ) لأن من شأن العرب العطف بالكلام على معنى نظير له قد تقدمه، وإن خالف لفظه لفظه. وقد زعم بعض نحويى البصرة أن الكاف فى قوله (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ) زائدة، وأن المعنى: ألم تر إلى الذى حاجّ إبراهيم، أو الذى مرّ على قرية. وقد بيّنا قبل فيما مضى أنه غير جائز أن يكون فى كتاب الله شىء لامعنى له، بما أغنى عن إعادته فى هذا الموضع.

واختلف أهل التأويل فى الذى مرّ على قرية، وهى خاوية على عروشها، فقال بعضهم: هو عُزَير.

ذكر من قال ذلك:

حدثنا محمد بن بشار، قال: ثنا عبد الرحمن، قال: ثنا سفيان، عن أبى إسحاق، عن ناجية بن كعب: (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا) قال: عُزَير.

حدثنا ابن حميد، قال: ثنا يحيى بن واضح، قال: ثنا أبو خزيمة، قال: سمعت سليمان بن بُريدة فى قوله (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ) قال: هو عُزير.

حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا) قال: ذكر لنا أنه عزير.

حدثنا الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر، عن قتادة، حُدثت عن عمار، قال: ثنا ابن أبى جعفر، عن أبيه قوله (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ) قال: قال الربيع: ذكر لنا والله أعلم: أن الذى أتى على القرية هو عُزير.

حدثنا القاسم، قال ثنا الحسين قال: ثنى حجاج عن ابن جريج، عن عكرمة (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا) قال: عُزير.

حدثنى موسى، قال: ثنا عمرو، قال: ثنا أسباط، عن السدّى (أو كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ) قال: عُزير.

حدثت عن الحسين، قال: سمعت أبا معاذ يقول: أخبرنا عُبيد بن سليمان، قال: سمعت الضحاك يقول فى قوله (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا) إنه هو عُزير.

حدثنى يونس، قال: قال لنا سالم الخواص: كان ابن عباس يقول: هو عزير.

وقال آخرون: هو إرميا بن حلْقيا[1]، وزعم محمد بن إسحاق أن إرميا هو الخضر.

---

(١) كذا ضبط فى سفر إرميا ١ : ١ .

حدثنا بذلك ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : ثنا ابن إسحاق ، قال : اسم الخضر فيما كان وهب بن منبه يزعم عن بنى إسرائيل : إرميا بن حَلْقِيّا ، وكان من سبط هارون بن عمران .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال: أخبرنا عبد الرزاق ، قال : ثنا عبد الصمد بن معقل : أنه سمع وهب بن منبه يقول فى قوله (أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا) : إن إرميا لما خَرِب بيت المقدس، وحرقت الكتب، وقف فى ناحية الجبل ، فقال : (أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا) .

حدثنا ابن حميد، قال : ثنا سلمة، قال: ثنى ابن إسحاق، عمن لايتهم، عن وهب بن منبه، قال: هو إرميا .

حدثنى محمد بن عسكر ، قال : ثنا إسماعيل بن عبد الكريم ، قال : سمعت عبد الصمد بن معقل ، عن وهب بن منبه ، مثله .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى بن ميمون ، عن قيس بن سعد ، عن عبد الله ابن عبيد بن عمير فى قول الله (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا) قال : كان نبيا وكان اسمه إرميا .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن قيس بن سعد ، عن عبد الله بن عبيد ، مثله .

ثنى يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: أخبرنى بكر بن مُضَر [1] قال: يقولون والله أعلم: إنه إرميا .

وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب، أن يقال: إن الله تعالى ذكره عَجَّب نبيه صلى الله عليه وسلم ممن قال إذ رأى قرية خاوية على عروشها: (أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا)؟ مع علمه أنه ابتدأ خلقها من غير شىء ، فلم يقنعه علمه بقدرته على ابتدائها ، حتى قال : أنى يحييها الله بعد موتها ؟ ولا بيان عندنا من الوجه الذى يصحّ من قِبَله البيان على اسم قائل ذلك، وجائز أن يكون ذلك عُزيرا ، وجائز أن يكون إرميا، ولا حاجة بنا إلى معرفة اسمه ، إذ لم يكن المقصود بالآية تعريف الخلق اسم قائل ذلك ، وإنما المقصود بها تعريف المنكرين قدرة الله على إحيائه خلقه بعد مماتهم، وإعادتهم بعد فنائهم، وأنه الذى بيده الحياة والموت، من قريش ومَن كان يكذب بذلك من سائر العرب، وتثبيت الحجة بذلك على من كان بين ظَهرانى مُهاجَر رسول الله صلى الله عليه وسلم من يهود بنى إسرائيل ، بإطلاعه نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم على ما يزيل شكهم فى نبوّته ، ويقطع عذرهم فى رسالته ، إذ كانت هذه الأنباء التى أوحاها إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم فى كتابه، من الأنباء التى لم يكن يعلمها محمد صلى الله عليه وسلم وقومه، ولم يكن علم ذلك إلا عند أهل الكتاب ، ولم يكن محمد صلى الله عليه وسلم وقومه منهم ، بل كان أميًا وقومه أميون ، فكان معلوما بذلك عند أهل الكتاب من اليهود الذين كانوا بين ظهرانى مُهاجَره، أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يعلم ذلك إلا بوحى من الله إليه . ولو كان المقصود بذلك الخبر عن اسم قائل ذلك ، لكانت الدلالة منصوبة عليه نصبا يقطع العذر ، ويزيل الشك ، ولكن القصد كان إلى ذمّ قيله ، فأبان تعالى ذكره ذلك لخلقه .

(١) مضر : ساقط من الأصول . وسيأتى التصريح به فيما ينقله المؤلف من أحاديث يونس عن ابن وهب عن بكر بن مضر .

واختلف أهل التأويل فى القرية التى مرّ عليها القائل (أَنَّى يُحْيِي هَـٰذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا) ، فقال بعضهم : هى بيت المقدس .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن سهل بن عسكر ، ومحمد بن عبد الملك ، قالا : ثنا إسماعيل بن عبد الكريم ، قال : ثنى عبد الصمد بن معقل : أنه سمع وهب بن منبه ، قال : لما رأى إرميا هدم بيت المقدس كالجبل العظيم ، قال (أَنَّى يُحْيِي هَـٰذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا) ؟

ثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا عبد الصمد بن معقل : أنه سمع وهب بن منبه ، قال : هى بيت المقدس .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : ثنى ابن إسحاق عمن لايتهم : أنه سمع وهب بن منبه يقول ذلك .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قال : ذكر لنا أنه بيت المقدس ، أتى عليه عُزير بعد ما خرّبه بختنصر البابلى .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ ، قال : ثنا عبيد بن سليمان ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا) أنه مرّ على الأرض المقدسة .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن عكرمة فى قوله (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ) قال : القرية : بيت المقدس ، مرّ بها عُزير ، بعد إذ خرّبها بُخْتَنَصَّر .

حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ) قال : القرية بيت المقدس ، مرّ عليها عُزير وقد خرّبها بختنصر .

وقال آخرون : بل هى القرية التى كان الله أهلك فيها الذين خرجوا من ديارهم ، وهم ألوف حذر الموت ، فقال لهم : موتوا .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قول الله تعالى ذكره (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ) قال : قرية كان نزل بها الطاعون ، ثم اقتصّ قصتهم التى ذكرناها فى موضعها عنه ، إلى أن بلغ فقال لهم الله : موتوا فى المكان الذى ذهبوا يبتغون فيه الحياة ، فماتوا ، ثم أحياهم الله ، إن الله لذو فضل على الناس ، ولكن أكثر الناس لايشكرون . قال : ومرّ بها رجل ، وهى عظام تلوح ، فوقف ينظر ، فقال : (أَنَّى يُحْيِي هَـٰذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ، فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ) إلى قوله (لَمْ يَتَسَنَّهْ) .

والصواب من القول فى ذلك : كالقول فى اسم القائل : (أَنَّى يُحْيِي هَـٰذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا) سواء لايختلفان .

القول فى تأويل قوله (وَهِيَ خاوِيَةٌ على عُرُوشِها)

يعنى تعالى ذكره بقوله (وَهِيَ خاوِيَةٌ) : وهى خالية من أهلها وسكانها ، يقال من ذلك : خَوَتِ الدار تَخْوِى خَوَاء وخُوِيًّا ، وقد يقال للقرية : خَوِيت ، والأول أعرب وأفصح ؛ وأما فى المرأة إذا كانت نُفَساء فإنه يقال : خَوِيت تَخْوَى خَوًى ، منقوصا ، وقد يقال فيها : خَوَتْ تَخْوِى ، كما يقال فى الدار ، وكذلك خَوَى الجوف يَخْوِى خَوَاءً شديدا ، ولو قيل فى الجوف ما قيل فى الدار ، وفى الدار ما قيل فى الجوف ، كان صوابا ، غير أن الفصيح ما ذكرت . وأما العروش : فانها الأبنية والبيوت ، واحدها عرش ، وجمع قليله : أعرش ، وكل بناء فإنه عرش ، ويقال : عَرَش فلان يَعْرُش ويَعْرِش ، وعَرَّش تعريشا ، ومنه قول الله تعالى ذكره (وَما كانوا يَعْرِشُونَ) يعنى : يبنون ، ومنه قيل عَرِيش مكة ، يعنى به خيامها وأبنيتها .

وبمثل الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، قال : قال ابن جريج ، قال ابن عباس : خاوية : خراب . قال ابن جريج : بلغنا أن عُزيرا خرج ، فوقف على بيت المقدس وقد خرّبه بختنصر ، فوقف فقال : أبعدَ ما كان لك من المقدس والمقاتلة والمال ما كان ! فحزن .

حدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ ، قال : ثنا عبيد بن سليمان ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (وَهِيَ خاوِيَةٌ على عُرُوشِها) قال : هى خراب .

حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قال : مرّ عليها عُزير وقد خرّبها بختنصر .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (وَهِيَ خاوِيَةٌ على عُرُوشِها) يقول : ساقطة على سقفها .

القول فى تأويل قوله (قال : أَنَّى يُحْيِي هذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِها ؟ فَأَماتَهُ اللهُ مِائَةَ عامٍ)

ومعنى ذلك فيما ذكرت : أن قائله لما مرّ ببيت المقدس ، أو بالموضع الذى ذكر الله أنه مرّ به خرابا بعد ما عهده عامرا ، قال : (أَنَّى يُحْيِي هذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِها) ! فقال بعضهم : كان قيله ماقال من ذلك شكًّا فى قدرة الله على إحيائه ، فأراه الله قدرته على ذلك ، بضربه المثل له فى نفسه ، ثم أراه الموضع الذى أنكر قدرته على عمارته وإحيائه ، أحيا ما رآه قبل خرابه ، وأعمرَ ما كان قبل خرابه ، وذلك أن قائل ذلك كان فيما ذكر لنا عهده عامرا بأهله وسكانه ، ثم رآه خاويا على عروشه ، قد باد أهله ، وشتّتهم القتل والسِّباء ، فلم يبق منهم بذلك المكان أحد ، وخَرِبت منازلهم ودورهم ، فلم يبق إلا الأثر ، فلما رآه كذلك بعد الحال التى عهده عليها ، قال : على أىّ وجه يحيى هذه الله بعد خرابها ، فيُعَمِّرها ، استنكارا فيما قاله بعض أهل التأويل ، فأراه كيفية إحيائه ذلك ، بما ضربه له فى نفسه ، وفيما كان من شرابه وطعامه ، ثم عرّفه

قدرته على ذلك وعلى غيره، بإظهاره إحياء ما كان عجبا عنده فى قدرة الله إحياؤه لرأى عينه، حتى أبصره ببصره، فلما رأى ذلك، قال: (أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

وكان سبب قيله ذلك: كالذى حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عمن لا يتهم، عن وهب بن منبه اليمانى: أنه كان يقول: قال الله لإرميا حين بعثه نبيا إلى بنى إسرائيل: يا إرميا، من قبل أن أخلقك اخترتك، ومن قبل أن أصورك فى رحم أمك قدستك، ومن قبل أن أخرجك من بطنها طهرتك، ومن قبل أن تبلغ السعى نبأتك، ومن قبل أن تبلغ الأشد اخترتك، ولأمر عظيم اجتبيتك. فبعث الله تعالى ذكره إرميا إلى ملك بنى إسرائيل، يسدده ويرشده، ويأتيه بالخبر من الله فيما بينه وبينه. قال: ثم عظمت الأحداث فى بنى إسرائيل، وركبوا المعاصى، واستحلوا المحارم، ونسوا ما كان الله صنع بهم، وما نجاهم من عدوهم سنحاريب، فأوحى الله إلى إرميا: أن ائت قومك من بنى إسرائيل، فاقصص عليهم ما آمرك به، وذكرهم نعمتى عليهم وعرفهم أحداثهم، ثم ذكر ما أرسل الله به إرميا إلى قومه من بنى إسرائيل، قال: ثم أوحى الله إلى إرميا: إنى مهلك بنى إسرائيل بيافث، ويافث أهل بابل، وهم من ولد يافث بن نوح، فلما سمع إرميا وحى ربه، صاح وبكى، وشق ثيابه، ونبذ[1] الرماد على رأسه، فقال: ملعون يوم ولدت فيه، ويوم لقيت التوراة، ومن شر أيامى يوم ولدت فيه، فما أبقيت آخر الأنبياء إلا لما هو شر على، لو أراد بى خيرا ما جعلنى آخر الأنبياء من بنى إسرائيل، فمن أجلى تصيبهم الشقوة والهلاك. فلما سمع الله تضرع الخضر وبكاءه وكيف يقول، ناداه: إرميا، أشق عليك ما أوحيت إليك؟ قال: نعم يا رب، أهلكنى فى بنى إسرائيل ما لا أسر به، فقال الله: وعزتى العزيزة لا أهلك بيت المقدس وبنى إسرائيل حتى يكون الأمر من قبلك فى ذلك. ففرح عند ذلك إرميا لما قال له ربه، وطابت نفسه، وقال: لا والذى بعث موسى وأنبياءه بالحق، لا آمر ربى بهلاك بنى إسرائيل أبدا. ثم أتى ملك بنى إسرائيل، وأخبره بما أوحى الله إليه، ففرح واستبشر، وقال: إن يعذبنا ربنا فبذنوب كثيرة قدمناها لأنفسنا، وإن عفا عنا فبقدرته؛ ثم إنهم لبثوا بعد هذا الوحى ثلاث سنين لم يزدادوا إلا معصية، وتمادوا فى الشر، وذلك حين اقترب هلاكهم، فقل الوحى، حتى لم يكونوا يتذكرون الآخرة، وأمسك عنهم حين ألهتهم الدنيا وشأنها، فقال ملكهم: يا بنى إسرائيل، انتهوا عما أنتم عليه قبل أن يمسكم بأس من الله، وقبل أن يبعث عليكم ملوك لا رحمة لهم بكم، فإن ربكم قريب التوبة، مبسوط اليدين بالخير، رحيم من تاب إليه، فأبوا عليه أن ينزعوا عن شىء مما هم عليه. وإن الله ألقى فى قلب بختنصر بن نعون بن زادان أن يسير إلى بيت المقدس، ثم يفعل فيه ما كان جده سنحاريب أراد أن يفعله، فخرج فى ستمائة ألف راية، يريد أهل بيت المقدس؛ فلما فصل سائرا، أتى ملك بنى إسرائيل الخبر، أن بختنصر أقبل هو وجنوده يريدكم، فأرسل الملك إلى إرميا، فجاءه فقال: يا إرميا، أين ما زعمت لنا أن ربنا أوحى إليك أن لا يهلك أهل بيت المقدس، حتى يكون منك الأمر فى ذلك، فقال إرميا للملك: إن ربى لا يخلف الميعاد، وأنا به واثق؛ فلما اقترب الأجل، ودنا انقطاع ملكهم، وعزم الله على هلاكهم، بعث الله ملكا من عنده، فقال له: اذهب إلى إرميا فاستفته، وأمره

(١) فى الثعلبى: وحثى التراب، أى ألقاه.

بالذى يستفتيه فيه ، فأقبل المَلَك إلى إرميا ، وقد تمثل له رجلا من بنى إسرائيل ، فقال له إرميا : من أنت ؟ قال : رجل من بنى إسرائيل، أستفتيك فى بعض أمرى، فأذن له ، فقال الملك : يا نبيّ الله أتيتك أستفتيك فى أهل رحمى ، وصلت أرحامهم بما أمرنى الله به ، لم آت إليهم إلا حسنا ، ولم آلهم كرامة ، فلا تزيدهم كرامتى إياهم إلا إسخاطا لى ، فأفتنى فيهم يا نبيّ الله ، فقال له : أحسن فيما بينك وبين الله ، وصل ما أمرك الله به أن تصل ، وأبشر بخير . فانصرف عنه المَلَك ، فمكث أياما ثم أقبل إليه فى صورة ذلك الرجل الذى جاءه ، فقعد بين يديه ، فقال له إرميا : من أنت ؟ قال : أنا الرجل الذى أتيتك فى شأن أهلى ، فقال له نبيّ الله ، أو ما طهرت لك أخلاقهم بعد ، ولم تر منهم الذى تحب ؟ فقال : يانبيّ الله ، والذى بعثك بالحقّ ما أعلم كرامة يأتيها أحد من الناس إلى أهل رحمه إلا وقد أتيتها إليهم ، وأفضل من ذلك ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : ارجع إلى أهلك ، فأحسن إليهم ، اسأل الله الذى يصلح عباده الصالحين ، أن يصلح ذات بينكم ، وأن يجمعكم على مرضاته ، ويجنبكم سخطه . فقام المَلَك من عنده ، فلبث أياما ، وقد نزل بختنصر بجنوده حول بيت المقدس أكثر من الجراد ، ففزع منهم بنو إسرائيل فزعا شديدا ، وشقّ ذلك على مَلِك بنى إسرائيل ، فدعا إرميا ، فقال : يا نبيّ الله ، أين ما وعدك الله ؟ فقال : إنى بربى واثق ، ثم إن المَلَك أقبل إلى إرميا وهو قاعد على جدار بيت المقدس ، يضحك ويستبشر بنصر ربه الذى وعده ، فقعد بين يديه ، فقال له إرميا : من أنت ؟ قال : أنا الذى كنت استفتيتك فى شأن أهلى مرتين ، فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : أو لم يأن لهم أن يفيقوا من الذى هم فيه ؟ فقال الملك : يا نبيّ الله كل شىء كان يصيبنى منهم قبل اليوم كنت أصبر عليه ، وأعلم أنما قصدهم فى ذلك سخطى ، فلما أتيتهم اليوم رأيتهم فى عمل لا يرضى الله ، ولا يحبه الله . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : على أىّ عمل رأيتهم ؟ قال : يا نبيّ الله رأيتهم على عمل عظيم من سخط الله ، ولو كانوا على مثل ما كانوا عليه قبل اليوم لم يشتدّ عليهم غضبى ، وصبرت لهم ورجوتهم ، ولكن غضبت اليوم لله ولك ، فأتيتك لأخبرك خبرهم ، وإنى أسألك بالله الذى بعثك بالحقّ إلا ما دعوت عليهم ربك أن يهلكهم . فقال إرميا : يا مالك السموات والأرض ، إن كانوا على حقّ وصواب فأبقهم ، وإن كانوا على سخطك وعمل لا ترضاه فأهلكهم . فلما خرجت الكلمة من فى إرميا أرسل الله صاعقة من السماء فى بيت المقدس ، فالتهب مكان القُربان ، وخُسِف بسبعة أبواب من أبوابها ؛ فلما رأى ذلك إرميا صاح وشقّ ثيابه ، ونبذ الرماد على رأسه ، فقال : يا مَلِك السماء ، ويا أرحم الراحمين ، أين ميعادك الذى وعدتنى ؟ فنودى إرميا : إنه لم يصبهم الذى أصابهم إلا بفتياك التى أفتيت بها رسولنا ، فاستيقن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنها فتياه التى أفتى بها ثلاث مرات ، وأنه رسول ربه ، فطار إرميا حتى خالط الوحوش ، ودخل بختنصر وجنوده بيت المقدس ، فوطئ الشام ، وقتل بنى إسرائيل حتى أفناهم ، وخرّب بيت المقدس ، ثم أمر جنوده أن يملأ كل رجل منهم ترسه ترابا ، ثم يقذفه فى بيت المقدس ، فقذفوا فيه التراب حتى ملئوه ، ثم انصرف راجعا إلى أرض بابل ، واحتمل معه سبايا بنى إسرائيل ، وأمرهم أن يجمعوا من كان فى بيت المقدس كلهم ، فاجتمع عنده كل صغير وكبير من بنى إسرائيل ، فاختار منهم تسعين ألف صبىّ ؛ فلما

خرجت غنائم جنده ، وأراد أن يقسمهم فيهم ، قالت له الملوك الذين كانوا معه : أيها الملك ، لك غنائمنا كلها ، واقسم بيننا هؤلاء الصبيان الذين اخترتهم من بنى إسرائيل ، ففعل ، فأصاب كل واحد منهم أربعة غِلمة ، وكان من أولئك الغلمان : دانيال ، وعزاريا ، ومسايل ، وحنانيا[1] . وجعلهم بختنصر ثلاث فرق ، فثلثا أقرّ بالشام ، وثلثا سبى ، وثلثا قتل ، وذهب بأسبية بيت المقدس حتى أقدمها بابل ، وبالصبيان التسعين الألف[2] حتى أقدمهم بابل ، فكانت هذه الواقعة الأولى التى ذكَّر الله تعالى ذكره نبىّ الله بأحداثهم وظلمهم ، فلما ولى بختنصر عنه راجعا إلى بابل بمن معه من سبايا بنى إسرائيل ، أقبل إرميا على حمار له ، معه عصير من عنب فى زُكرة ، وسلّة تين ، حتى أتى إيليا ، فلما وقف عليها ، ورأى ما بها من الخراب دخله شك ، فقال : (أَنَّى يُحْيِي هَـٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ، فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ) وحماره وعصيره وسلة تينه عنده حيث أماته الله ، ومات حماره معه ، فأعمى الله عنه العيون ، فلم يره أحد ، ثم بعثه الله تعالى ، فقال له : (كَمْ لَبِثْتَ ؟ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ ، فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ) يقول : لم يتغير (وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا) . فنظر إلى حماره يتصل بعضه إلى بعض ، وقد مات معه ، بالعروق والعصب ، ثم كيف كسى ذلك منه اللحم حتى استوى ، ثم جرى فيه الروح ، فقام ينهق ، ونظر إلى عصيره وتينه ، فإذا هو على هيئته حين وضعه لم يتغير . فلما عاين من قدرة الله ما عاين ، قال : أعلم أن الله على كل شىء قدير . ثم عمر الله إرميا بعد ذلك ، فهو الذى يُرى بفلوات الأرض والبُلْدان .

حدثنى محمد بن عسكر وابن زَنْجُويه ، قالا : ثنا إسمعيل بن عبد الكريم ، قال : ثنى عبد الصمد بن معقل : أنه سمع وهب بن منبه يقول : أوحى الله إلى إرميا وهو بأرض مصر : أن الحق بأرض إيليا ، فإن هذه ليست لك بأرض مُقام ، فركب حماره ، حتى إذا كان ببعض الطريق ، ومعه سلّة من عنب وتين ، وكان معه سقاء جديد ، فملأه ماء ، فلما بدا له شخص بيت المقدس ، وما حوله من القرى والمساجد ، ونظر إلى خراب لا يوصف ، ورأى هَدَم[3] بيت المقدس كالجبل العظيم ، قال (أَنَّى يُحْيِي هَـٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا) ؟ وسار حتى تبوأ منها منزلا ، فربط حماره بحبل جديد ، وعلّق سقاءه ، وألقى الله عليه السُّبات ؛ فلما نام نزع الله روحه مائة عام ؛ فلما مرّت من المائة سبعون عاما ، أرسل الله ملكا إلى ملك من ملوك فارس عظيم ، يقال له يوسك[4] ، فقال : إن الله يأمرك أن تنفر بقومك ، فتعمر بيت المقدس وإيلياء وأرضها ، حتى تعود أعمر ما كانت ، فقال الملك : أنظرنى ثلاثة أيام حتى أتأهب لهذا العمل ، ولما يصلحه من أداة العمل ، فأنظره ثلاثة أيام ، فانتدب ثلاثمائة قهرمان ، ودفع إلى كل قهرمان ألف عامل ، وما يصلحه من أداة العمل ، فسار إليها قهارمته[5] ، ومعهم ثلثمائة ألف عامل ؛ فلما وقعوا فى العمل ردّ الله روح الحياة فى عين إرميا ، وأخر جسده ميتا ، فنظر إلى إيليا وما حولها من القرى والمساجد والأنهار والحروث تعمل وتعمر وتجدّد ،

(١) فى سفر دانيال (١ : ٦) وكان بينهم من بنى يهوذا : دانيال وحننيا وميشائيل وعزريا .

(٢) كذا بتعريف الألف فى الأصول.

(٣) الهدم ، بوزن جبل : البناء المهدم .

(٤) الثعلبى : يوشك ، بالشين . وفى القرطبى : كوشك .

(٥) فى الأصل : قهرمته . تحريف . والقهرمان : من أمناء الملك وخاصته .

حتى صارت كما كانت ، وبعد ثلاثين سنة تمام المائة ردّ إليه الروح ، فنظر إلى طعامه وشرابه لم يتسنه ، ونظر إلى حماره واقفا كهيئته يوم ربطه ، لم يَطعَم ، ولم يشرب ، ونظر إلى الرُّمَّة فى عنق الحمار لم تتغير جديدة ، وقد أتى على ذلك ريح مائة عام ، وبرد مائة عام ، وحرّ مائة عام ، لم تتغير ، ولم تُنتقص شيئا ، وقد نحل جسم إرميا من البلى ، فأنبت الله له لحما جديدا ، ونشز عظامه ، وهو ينظر ، فقال له الله (انْظُرْ إلى طَعامِكَ وَشَرابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ، وَانْظُرْ إلى حِمارِكَ ، وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ، وَانْظُرْ إلى العِظامِ كَيْفَ نُنْشِزُها ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا عبد الصمد بن معقل : أنه سمع وهب ابن منبه يقول فى قوله (أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِها) : إن إرميا لما خرّب بيت المقدس ، وحرقت الكتب ، وقف فى ناحية الجبل ، فقال : (أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِها ، فَأَماتَهُ اللهُ مِائَةَ عامٍ) ، ثم ردّ الله من ردّ من بنى إسرائيل على رأس سبعين سنة من حين أماته ، يعمرونها ثلاثين سنة تمام المائة ؛ فلما ذهبت المائة ردّ الله روحه ، وقد عَمِرت على حالها الأولى ، فجعل ينظر إلى العظام كيف تلتام[1] بعضها إلى بعض ، ثم نظر إلى العظام كيف تكسى عصبا ولحما (فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ) ذلك (قالَ : أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) . فقال الله تعالى ذكره (انْظُرْ إلى طَعامِكَ وَشَرابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ) قال : فكان طعامه تينا فى مِكتل ، وقُلَّة فيها ماء .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خاوِيَةٌ على عُرُوشِها) وذلك أن عزيرا مرّ جائيا من الشام على حمار له ، معه عصير وعنب وتين ؛ فلما مرّ بالقرية فرآها ، وقف عليها وقلّب يده وقال : كيف يحيى هذه الله بعد موتها ؟ ليس تكذيبا منه وشكًّا ، فأماته الله وأمات حماره ، فهلكا ومرّ عليهما مائة سنة ، ثم إن الله أحيا عزيرا فقال له : كم لبثت؟ قال له : لبثت يوما أو بعض يوم ، قيل له : بل لبثت مائة عام ، فانظر إلى طعامك من التين والعنب ، وشرابك من العصير (لَمْ يَتَسَنَّهْ) . . . الآية

القول فى تأويل قوله (ثُمَّ بَعَثَهُ ، قالَ كَمْ لَبِثْتَ ؟ قالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قال : بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عامٍ) :

يعنى تعالى ذكره بقوله (ثُمَّ بَعَثَهُ) ثم أثاره حيا من بعد مماته ، وقد دللنا على معنى البعث فيما مضى قبل .

وأما معنى قوله (كَمْ لَبِثْتَ) فإن « كم » استفهام فى كلام العرب عن مبلغ العدد ، وهو فى هذا الموضع نصب بلبثت ، وتأويله : قال الله له : كم قدر الزمان الذى لبثت ميتا قبل أن أبعثك من مماتك حيا ؟ قال المبعوث بعد مماته : لبثت ميتا إلى أن بعثتنى حيا ، يوما واحدا أو بعض يوم ، وذكر أن المبعوث هو إرميا أو عزير ، أومن كان ممن أخبر الله عنه هذا الخبر ، وإنما قال : (لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) ، لأن الله تعالى ذكره كان قبض روحه أول النهار ، ثم ردّ روحه آخر النهار بعد المائة عام ، فقيل له : كم لبثت ؟

(١) تلتام : يريد : تلتئم . أصله الهمز ، فسهل .

قال : لبثت يوما ، وهو يرى أن الشمس قد غربت ، فكان ذلك عنده يوما ، لأنه ذكر أنه قبض روحه أوّل النهار . وسئل عن مقدار لبثه ميتا آخر النهار ، وهو يرى أن الشمس قد غربت ، فقال : لبثت يوما ، ثم رأى بقية من الشمس قد بقيت لم تغرب ، فقال : أو بعض يوم ، بمعنى : بل بعض يوم ، كما قال تعالى ذكره (وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ) بمعنى : بل يزيدون ، فكان قوله (أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) رجوعا منه عن قوله (لَبِثْتُ يَوْماً) .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال جماعة من أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة، قوله (ثُمَّ بَعَثَهُ ، قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ؟ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) قال : ذكر لنا أنه مات ضُحًى، ثم بعثه قبل غيبوبة الشمس ، فقال : لبثت يوما ، ثم التفت فرأى بقية من الشمس ، فقال : أو بعض يوم ، فقال : بل لبثت مائة عام .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة: (أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا) قال : مرّ على قرية فتعجب ، فقال: أنّى يحيى هذه الله بعد موتها ، فأماته الله أوّل النهار ، فلبث مائة عام ، ثم بعثه فى آخر النهار ، فقال : كم لبثت ؟ قال : لبثت يوما أو بعض يوم ، قال : بل لبثت مائة عام .

حدثت عن عمار بن الحسن ، قال : ثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، قال : قال الربيع : أماته الله مائة عام ، ثم بعثه ، قال : كم لبثت ؟ قال : لبثت يوما أو بعض يوم ، قال : بل لبثت مائة عام .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، قال : قال ابن جريج : لمّا وقف على بيت المقدس وقد خرّبه بختنصر ، قال : أنى يحيى هذه الله بعد موتها : كيف يعيدها كما كانت ؟ فأماته الله ، قال : وذكر لنا أنه مات ضحى ، وبعث قبل غروب الشمس بعد مائة عام ، فقال : كم لبثت ؟ قال : يوما ، فلما رأى الشمس ، قال : أو بعض يوم .

القول فى تأويل قوله (فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ)

يعنى تعالى ذكره بقوله (فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ) : لم تغيره السنون التى أتت عليه ، وكان طعامه فيما ذكر بعضهم سلّة تين وعنب ،وشرابه قلة ماء . وقال بعضهم: بل كان طعامه سلّة عنب وسلة تين ، وشرابه زقّ من عصير . وقال آخرون : بل كان طعامه سلة تين ، وشرابه دَنّ خمر أو زُكرة خمر . وقد ذكرنا فيما مضى قول بعضهم فى ذلك ، ونذكر ما فيه فيما يستقبل إن شاء الله .

وأما قوله (لَمْ يَتَسَنَّهْ) ففيه وجهان من القراءة : أحدهما لم يتسن ، بحذف الهاء فى الوصل وإثباتها فى الوقف ، ومن قرأه كذلك فإنه يجعل الهاء فى يتسنه زائدة صلة ، كقوله (فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ) ، وجعل فَعَلْتُ(١) منه: تَسَنَّيْتُ تسنيا . واعتلّ فى ذلك بأن السنة تجمع سنوات ، فيكون تفعلت على نهجه ، ومن قال فى السنة سُنينة ، فجائز على ذلك وإن كان قليلا ، أن يكون تسننت تفعلت ، أبدلت النون ياء لمّا كثرت النونات ،

(١) عبر « بفعلت » هنا وفيما يأتى قريبا ، عن الفعل الماضى ، و « بيفعل » عن المضارع .

كما قالوا: تظنيت، وأصله الظن؛ وقد قال قوم: هومأخوذ من قوله (مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ) وهوالمتغير، وذلك أيضا إذا كان كذلك، فهو أيضا مما بدلت نونه ياء، وهو قراءة عامة قرّاء الكوفة. والآخر منهما: إثبات الهاء فى الوصل والوقف، ومن قرأه كذلك، فإنه يجعل الهاء فى يتسنه لام الفعل، ويجعلها مجزومة بلم، ويجعل فَعَلْتَ منه تسنهت، ويَفْعَل: أتسنه تسنها، وقال فى تصغير السنة: سنيهة، ومنه: أسنهت عند القوم، وتسنهت عندهم: إذا أقمت سنة، هذه قراءة عامة قراء أهل المدينة والحجاز.

والصواب من القراءة عندى فى ذلك، إثبات الهاء فى الوصل والوقف، لأنها مثبتة فى مصحف المسلمين، ولإثباتها وجه صحيح فى كلتا الحالتين فى ذلك.

ومعنى قوله (لَمْ يَتَسَنَّهْ) لم يأت عليه السنون فيتغير، على لغة من قال: أسنهت عندكم أُسْنِه: إذا أقام سنة، وكما قال الشاعر:

وَلَيْسَتْ بِسَنْهاءٍ وَلا رُجَّبِيَّةٍ　　　ولكنْ عَرايا فى السِّنِينَ الجوائحِ[1]

فجعل الهاء فى السنة أصلا، وهى اللغة الفصحى، وغير جائز حذف حرف من كتاب الله فى حال وقف أو وصل، لإثباته وجه معروف فى كلامها.

فإن اعتلّ معتلّ بأن المصحف قد ألحقت فيه حروف هنّ زوائد على نية الوقف، والوجه فى الأصل عند القراءة حذفهن، وذلك كقوله (فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ) وقوله (يا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتابِيَهْ) فإن ذلك هو مما لم يكن فيه شك أنه من الزوائد، وأنه ألحق على نية الوقف. فأما ما كان محتملا أن يكون أصلا للحرف غير زائد، فغير جائز — وهو فى مصحف المسلمين مثبت — صرفه إلى أنه من الزوائد والصلات، على أن ذلك وإن كان زائدا فيما لاشك أنه من الزوائد، فإن العرب قد تصل الكلام بزائد، فتنطق به على نحو منطقها به فى حال القطع، فيكون وصلها إياه وقطعها سواء، وذلك من فعلها دلالة على صحة قراءة من قرأ جميع ذلك بإثبات الهاء فى الوصل والوقف، غير أن ذلك وإن كان كذلك، فلقوله (لَمْ يَتَسَنَّهْ) حكم مفارق حكم ما كان هاؤه زائدا، لاشك فى زيادته فيه.

ومما يدلّ على صحة ما قلنا، من أن الهاء فى «يتسنه» من لغة من قال: قد أسنهت والمسانهة، ما حدثت به عن القاسم بن سلام، قال: ثنا ابن مهدىّ، عن أبى الجراح، عن سليمان بن عمير، قال: ثنى هانئٌ مولى عثمان، قال: كنت الرسول بين عثمان وزيد بن ثابت، فقال زيد: سله عن قوله: لم يتسنن، أو لم يتسنه، فقال عثمان: اجعلوا فيها هاء.

(١) البيت لسويد بن الصامت الأنصارى (اللسان: سنه) وقال: السنهاء: التى أصابتها السنة المجدبة. أو النخلة حملت عاما ولم تحمل الآخر. أو التى أصابها الجدب، وأضر بها، فنفى ذلك عنها. وقد توصف به السنة التى تفعل ذلك، والتى لا نبات بها ولا مطر. وهى لفظة مبنية من السنة، كما يقال: ليلة ليلاء، ويوم أيوم. وعن أبى زيد: طعام سنه وسن: إذا أتت عليه السنون. وسنه الطعام والشراب سنها وتسنه: تغير. وعليه وجه بعضهم قوله تعالى: «فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه». واختاره المؤلف هنا.

وأنشد البيت صاحب اللسان فى (رجب) وقال: نخلة رجبية ورجبية (بفتح الجيم مخففة ومثقلة): بنى تحتها رجبة، لتعضدها وتمنعها من السقوط. كلاهما نسب نادر. والرجبة: أن تعمد النخلة بخشبة ذات شعبتين — يصف نخله بالجودة، وأنه ليس فيها سنهاء، وهى التى أصابتها السنة، يعنى أضر بها الجدب. وقيل: هى التى تحمل سنة وتترك أخرى. والعرايا: جمع عرية، وهى التى يذهب ثمرها. والجوائح: السنون الشداد التى تجيح المال أى تهلكه.

حُدثت عن القاسم ، وحدثنا محمد بن محمد العطار ، عن القاسم ، وحدثنا أحمد والعطار جميعا ، عن القاسم ، قال : ثنا ابن مهدىّ ، عن ابن المبارك ، قال : ثنى أبو وائل : شيخ من أهل اليمن ، عن هانئ البربرىّ ، قال : كنت عند عثمان وهم يعرضون المصاحف ، فأرسلنى بكتف شاة إلى أبىّ بن كعب ، فيها : «لم يتسنَّ» ، و« فأمهل الكافرين» ، و«لا تبديل للخلق» ، قال : فدعا بالدواة ، فمحا إحدى اللامين ، وكتب «لاتبديل لخلق الله» ، ومحا فأمهل ، وكتب «فمهل الكافرين» ، وكتب : «لم يتسنه» ألحق فيها الهاء ، ولو كان ذلك من يتسنى أو يتسنن لما ألحق فيه أبىّ هاء ، لاموضع لها فيه ، ولا أمر عثمان بإلحاقها فيها ، وقد رُوى عن زيد بن ثابت فى ذلك نحوُ الذى رُوِى فيه عن أبىّ بن كعب .

واختلف أهل التأويل فى تأويل قوله (لَمْ يَتَسَنَّهْ) فقال بعضهم بمثل الذى قلنا فيه ، من أن معناه لم يتغير .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة بن المفضل ، عن محمد بن إسحاق ، عمن لا يتهم ، عن وهب بن منبه (لَمْ يَتَسَنَّهْ) : لم يتغير .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثناسعيد ، عن قتادة ، قوله (لَمْ يَتَسَنَّهْ) : لم يتغير .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، مثله .

حدثنى موسى بن هارون ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ) يقول : فانظر إلى طعامك من التين والعنب ، وشرابك من العصير ، لم يتسنه ، يقول : لم يتغير ، فيحمض التين والعنب ، ولم يختمر العصير ، هما حلوان كما هما ، وذلك أنه مرّ جائيا من الشام على حمار له ، معه عصير وعنب وتين ، فأماته الله ، وأمات حماره ، ومرّ عليهما مائة سنة .

حدثت عن الحسين بن الفرج ، قال : سمعت أبا معاذ ، قال : أخبرنا عبيد بن سليمان ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ) يقول : لم يتغير ، وقد أتى عليه مائة عام .

حدثنى المثنى ، قال : أخبرنا إسحاق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك ، بنحوه .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قوله (لَمْ يَتَسَنَّهْ) : لم يتغير .

حدثنا سفيان ، قال : ثنا أبى ، عن النضر ، عن عكرمة (لَمْ يَتَسَنَّهْ) : لم يتغير .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد (لَمْ يَتَسَنَّهْ) لم يتغير فى مائة سنة .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنى بكر بن مضر ، قال : يزعمون فى بعض الكتب أن إرمياء كان بإيليا حين خرّبها بختنصر ، فخرج منها إلى مصر فكان بها ، فأوحى الله إليه أن اخرج منها إلى بيت المقدس ، فأتاها ، فإذا هى خربة ، فنظر إليها فقال : أنى يحيى هذه الله بعد موتها ؟ فأماته الله مائة عام ثم بعثه ، فإذا حماره حىّ قائم على رباطه ، وإذا طعامه سلّ عنب وسلّ تين ، لم يتغير عن حاله ، قال يونس : قال لنا سالم الخواص : كان طعامه وشرابه سلّ عنب وسلّ تين وزقّ عصير .

وقال آخرون : معنى ذلك : لم ينتن .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد قوله (لَمْ يَتَسَنَّهْ) : لم يُنْتِن .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال مجاهد قوله (إلى طَعَامِكَ) قال : سلّ تين (وَشَرَابِكَ) دَنّ خمر (لَمْ يَتَسَنَّهْ) يقول : لم ينتن . وأحسب أن مجاهدا والربيع ومن قال فى ذلك بقولهما ، رأوا أن قوله (لَمْ يَتَسَنَّهْ) : من قول الله تعالى ذكره (مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ) بمعنى المتغير الريح بالنتن ، من قول القائل : تَسَنَّن ، وقد بينت الدلالة فيما مضى ، على أن ذلك ليس كذلك .

فإن ظنّ ظانّ أنه من الأَسَن من قول القائل : أَسِنَ هذا الماء يَأْسَنُ أَسَنًا ، كما قال الله تعالى ذكره (فِيهَا أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ) فإن ذلك لو كان كذلك لكان الكلام : فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتأسّن ، ولم يكن يتسنه ، فإنه منه[1] ، غير أنه ترك همزه ، قيل : فإنه وإن ترك همزه فغير جائز تشديد نونه ، لأن النون غير مشددة ، وهى فى يتسنه مشددة ، ولو نُطِق من يتأسن بترك الهمزة ، لقيل : يتَسَنْ بتخفيف نونه بغير هاء تلحق فيه ، ففى ذلك بيان واضح أنه غير جائز أن يكون من الأَسَن .

القول فى تأويل قوله (وَانْظُرْ إلى حِمارِكَ)

اختلف أهل التأويل فى تأويل قوله (وَانْظُرْ إلى حِمارِكَ) فقال بعضهم : معنى ذلك : وانظر إلى إحيائى حمارك ، وإلى عظامه كيف أنشزها ، ثم أكسوها لحما .

ثم اختلف متأوّلو ذلك فى هذا التأويل ، فقال بعضهم : قال الله تعالى ذكره ذلك له ، بعد أن أحياه خلقا سويا ، ثم أراد أن يحيى حماره ، تعريفا منه تعالى ذكره له كيفية إحيائه القرية التى رآها خاوية على عروشها ، فقال : (أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِها)؟ مستنكرا إحياء الله إياها .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عمن لا يتهم ، عن وهب بن منبه ، قال : بعثه الله فقال : (كَمْ لبثت ؟ قال لَبِثْتُ يوما أو بعضَ يومٍ) إلى قوله (ثُمَّ نَكْسُوها لَحْما) قال : فنظر إلى حماره يتصل بعض إلى بعض ، وقد كان مات معه ، بالعروق والعصب ، ثم كسا ذلك منه اللحم حتى استوى ، ثم جرى فيه الروح ، فقام ينهق ، ونظر إلى عصيره وتينه ، فإذا هو على هيئته حين وضعه لم يتغير ؛ فلما عاين من قدرة الله ما عاين ، قال : (أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، ثم إن الله أحيا عزيرا ، فقال : كم لبثت ؟ قال : لبثت يوما أو بعض يوم ، قال : بل لبثت مائة عام ، فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه ،

(١) قوله « فإنه منه » هكذا بالأصل ، ولعل فيه سقطا ، ووجه الكلام : فإن قيل فإنه منه غير . . . الخ .

وانظر إلى حمارك قد هلك ، وبليت عظامه ، وانظر إلى عظامه كيف ننشزها ، ثم نكسوها لحما ، فبعث الله ريحا ، فجاءت بعظام الحمار من كل سهل وجبل ذهبت به الطير والسباع ، فاجتمعت ، فركب بعضها فى بعض وهو ينظر ، فصار حمارا من عظام، ليس له لحم ولا دم ، ثم إن الله كسا العظام لحما ودما ، فقام حمارا من لحم ودم وليس فيه روح ، ثم أقبل مَلَك يمشى حتى أخذ بمنخر الحمار ، فنفخ فيه ، فنهق الحمار ، فقال : أعلم أن الله على كل شىء قدير .

فتأويل الكلام على ما تأوله قائل هذا القول : وانظر إلى إحيائنا حمارَك ، وإلى عظامه كيف نُنشزها ، ثم نكسوها لحما ، ولنجعلك آية للناس ، فيكون فى قوله : وانظر إلى حمارك ، متروك من الكلام ، استغنى بدلالة ظاهره عليه من ذكره ، وتكون الألف واللام فى قوله (وَانْظُرْ إلى العِظامِ) بدلا من الهاء المرادة فى المعنى ، لأن معناه : وانظر إلى عظامه : يعنى إلى عظام الحمار .

وقال آخرون منهم : بل قال الله تعالى ذكره ذلك له ، بعد أن نفخ فيه الروح فى عينه ، قالوا : وهى أول عضو من أعضائه نفخ الله فيه الروح ، وذلك بعد أن سوّاه خلقا سويّا ، وقبل أن يحيى حماره .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قال : كان هذا رجلا من بنى إسرائيل ، نفخ الروح فى عينيه ، فنظر إلى خَلْقه كله حين يحييه الله ، وإلى حماره حين يحييه الله .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد مثله .

حدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : بدأ بعينيه ، فنفخ فيهما الروح ، ثم بعظامه فأنشزها ، ثم وصل بعضها إلى بعض ، ثم كساها العصب ، ثم العروق ، ثم اللحم ، ثم نظر إلى حماره ، فإذا حماره قد بلى وابيضت عظامه ، فى المكان الذى ربطه فيه ، فنودى : يا عظام اجتمعى ، فإن الله منزل عليك روحا ، فسعى كل عظم إلى صاحبه ، فوصل العظام ، ثم العصب ، ثم العروق ، ثم اللحم ، ثم الجلد ، ثم الشعر ، وكان حماره جَذَعا ، فأحياه الله كبيرا قد تَشَنَّن[١] ، فلم يبق منه إلا الجلد من طول الزمن ، وكان طعامه سَلّ عنب ، وشرابه دَنّ خمر . قال ابن جريج عن مجاهد : نفخ الروح فى عينيه ، ثم نظر بهما إلى خَلْقه كله حين نشره الله ، وإلى حماره حين يحييه الله .

وقال آخرون : بل جعل الله الروح فى رأسه وبصره وجسده ، ميتا ، فرأى حماره قائما كهيئته يوم ربطه ، وطعامه وشرابه كهيئته يوم حلّ البقعة ، ثم قال الله له : انظر إلى عظامك نفسك كيف ننشرها .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن سهل بن عسكر ، قال : ثنا إسماعيل بن عبد الكريم ، قال : ثنى عبد الصمد بن معقل : أنه سمع وهب بن منبه يقول : ردّ الله روح الحياة فى عين إرمياء وآخر جسده ميت ، فنظر إلى طعامه وشرابه لم يتسنه ، ونظر إلى حماره واقفا كهيئته يوم ربطه ، لم يطعم ولم يشرب ، ونظر إلى الرُّمَّة فى عنق

(١) تشنن : تقبض ويبس من الهرم .

الحمار لم تتغير جديدة .

حدثت عن الحسن ، قال : سمعت أبا معاذ ، قال : ثنا عبيد بن سليمان ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ) : فنظر إلى حماره قائما قد مكث مائة عام ، وإلى طعامه لم يتغير ، قد أتى عليه مائة عام (وَانْظُرْ إلى العِظامِ كَيْفَ نُنْشِزُها ثُمَّ نَكْسُوها لَحْماً) فكان أول شىء أحيا الله منه رأسه ، فجعل ينظر إلى سائر خَلْقه يُخلَق .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك ، فى قوله (فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ) فنظر إلى حماره قائما ، وإلى طعامه وشرابه لم يتغير ، فكان أول شىء خلق منه رأسه ، فجعل ينظر إلى كل شىء منه يوصل بعضه إلى بعض ؛ فلما تبين له ، قال : أعلم أن الله على كل شىء قدير .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قال : ذكر لنا أنه أول ما خلق الله منه رأسه ، ثم ركبت فيه عيناه ، ثم قيل له انظر ، فجعل ينظر ، فجعلت عظامه تواصل بعضها إلى بعض ، وبعين نبىّ الله عليه السلام كان ذلك ، فقال : أعلم أن الله على كل شىء قدير .

حُدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (وَانْظُرْ إلى طَعامِكَ وَشَرابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ، وَانْظُرْ إلى حِمارِكَ) وكان حماره عنده كما هو (وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ، وَانْظُرْ إلى العِظامِ كَيْفَ نُنْشِزُها) قال الربيع : ذكر لنا — والله أعلم أنه أول ماخلق منه عيناه ، ثم قيل انظر ، فجعل ينظر إلى العظام يتواصل بعضها إلى بعض وذلك بعينيه ، فقيل : أعلم أن الله على كل شىء قدير .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنا ابن زيد قال قوله (وَانْظُرْ إلى طَعامِكَ وَشَرابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إلى حِمارِكَ) واقفا عليك منذ مائة سنة (وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ، وَانْظُرْ إلى العِظامِ) يقول : وانظر إلى عظامك كيف نحييها حين سألتنا كيف نحيى هذه الأرض بعد موتها ، قال : فجعل الله الروح فى بصره وفى لسانه ، ثم قال : ادع الآن بلسانك الذى جعل الله فيه الروح ، وانظر ببصرك ، قال : فكان ينظر إلى الجمجمة ، قال : فنادى : ليلحق كل عظم بأليفه ، قال : فجاء كل عظم إلى صاحبه ، حتى اتصلت وهو يراها ، حتى إن الكِسرة من العظم لتأتى إلى الموضع الذى انكسرت منه ، فتلصق به ، حتى وصل إلى جمجمته ، وهو يرى ذلك ؛ فلما اتصلت شدّها بالعصب والعروق ، وأجرى عليها اللحم والجلد ، ثم نفخ فيها الروح ، ثم قال (انْظُرْ إلى العِظامِ كَيْفَ نُنْشِزُها ثُمَّ نَكْسُوها لَحْماً ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ) ذلِكَ (قالَ أعْلَمُ أنَّ اللهَ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) قال : ثم أمر فنادى تلك العظام التى قال (أنَّى يُحْيِي هذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِها) كما نادى عظام نفسه ، ثم أحياها الله كما أحياه .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنى بكر بن مُضَر ، قال : يزعمون فى بعض الكتب أن الله أمات إرمياء مائة عام ، ثم بعثه ، فإذا حماره حىّ قائم على رباطه ، قال : وردّ الله إليه بصره ،

وجعل الروح فيه قبل أن يبعث بثلاثين سنة ، ثم نظر إلى بيت المقدس وكيف عمر وما حوله ، قال : فيقولون والله أعلم : إنه الذى قال الله تعالى ذكره (أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ) .. الآية .

ومعنى الآية على تأويل هؤلاء : وانظر إلى حمارك ، ولنجعلك آية للناس ، وانظر إلى عظامك كيف ننشزها بعد بلاها ، ثم نكسوها لحما ، فنحييها بحياتك ، فتعلم كيف يحيي الله القرى وأهلها بعد مماتها .

وأولى الأقوال فى هذه الآية بالصواب قول من قال : إن الله تعالى ذكره بعث قائل (أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا) من مماته، ثم أراه نظير ما استنكر من إحياء الله القرية التى مرّ بها بعد مماتها، عيانا من نفسه وطعامه وحماره ، فجعل تعالى ذكره ما أراه من إحيائه نفسَه وحماره ، مثلا لما استنكر من إحيائه أهل القرية التى مرّ بها خاوية على عروشها، وجعل ما أراه من العبرة فى طعامه وشرابه، عِبرة له، وحُجة عليه ، فى كيفية إحيائه منازل القرية وجنانها ، وذلك هو معنى قول مجاهد الذى ذكرناه قبل .

وإنما قلنا ذلك أولى بتأويل الآية ، لأن قوله (وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ) إنما هو بمعنى : وانظر إلى العظام التى تراها ببصرك كيف ننشزها ، ثم نكسوها لحما ، وقد كان حماره أدركه من البلى فى قول أهل التأويل جميعا ، نظير الذى لحق عظام من خوطب بهذا الخطاب ، فلم يمكن صرف معنى قوله (وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ) إلى أنه أمر له بالنظر إلى عظام الحمار دون عظام المأمور بالنظر إليها ، ولا إلى أنه أمر له بالنظر إلى عظام نفسه دون عظام الحمار ، وإذا كان ذلك كذلك ، وكان البلى قد لحق عظامه وعظام حماره ، كان الأولى بالتأويل : أن يكون الأمر بالنظر إلى كل ما أدركه طرفه، مما قد كان البِلَى لحقه ، لأن الله تعالى ذكره جعل جميع ذلك عليه حجة ، وله عبرة وعظة .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ)

يعنى تعالى ذكره بذلك (وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ) أمتناك مائة عام ثم بعثناك ، وإنما أدخلت الواو مع اللام التى فى قوله (وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ) وهو بمعنى كى ، لأن فى دخولها فى كى وأخواتها دلالة على أنها شرط لفعل بعدها، بمعنى : ولنجعلك كذا وكذا فعلنا ذلك، ولو لم تكن قبل اللام، أعنى لام كى واو، كانت اللام شرطا للفعل الذى قبلها ، وكان يكون معناه : وانظر إلى حمارك لنجعلك آية للناس ، وإنما عنى بقوله (وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً) : ولنجعلك حجة على من جهل قدرتى ، وشكّ فى عظمتى ، وأنا القادر على فعل ما أشاء من إماتة وإحياء ، وإفناء وإنشاء ، وإنعام وإذلال ، وإقتار وإغناء ، بيدى ذلك كله ، لا يملكه أحد دونى ، ولا يقدر عليه غيرى .

وكان بعض أهل التأويل يقول : كان آية للناس ، بأنه جاء بعد مائة عام إلى ولده وولد ولده شابا وهم شيوخ .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : أخبرنا إسحاق ، قال: ثنا قَبيصة بن عُقبة ، عن سفيان ، قال : سمعت الأعمش يقول : (وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ) : قال : جاء شابا وولده شيوخ .

وقال آخرون : معنى ذلك أنه جاء وقد هلك من يعرفه ، فكان آية لمن قدم عليه من قومه .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، قال : رجع إلى أهله ، فوجد داره قد بيعت وبنيت ، وهلك من كان يعرفه ، فقال : اخرجوا من دارى ، قالوا : ومن أنت ؟ قال : أنا عزير ، قالوا : أليس قد هلك عزير منذ كذا وكذا ؟ قال : فإن عزيرا أنا هو ، كان من حالى وكان ؛ فلما عرفوا ذلك ، خرجوا له من الدار ، ودفعوها إليه .

والذى هو أولى بتأويل الآية من القول : أن يقال : إن الله تعالى ذكره ، أخبر أنه جعل الذى وصف صفته فى هذه الآية حجة للناس ، فكان ذلك حجة على من عرفه من ولده وقومه ممن علم موته ، وإحياء الله إياه بعد مماته ، وعلى من بعث إليه منهم .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَانْظُرْ إلى العِظامِ كَيْفَ نُنْشِزُها)

قد دللنا فيما مضى قبل على أن العظام التى أمر بالنظر إليها هى عظام نفسه وحماره ، وذكرنا اختلاف المختلفين فى تأويل ذلك ، وما يعنى كل قائل بما قاله فى ذلك بما أغنى عن إعادته .

وأما قوله (كَيْفَ نُنْشِزُها) فإن القراء اختلفت فى قراءته ، فقرأه بعضهم (وَانْظُرْ إلى العِظامِ كَيْفَ نُنْشِزُها) بضم النون وبالزاى ، وذلك قراءة عامة قراء الكوفيين ، بمعنى : وانظر كيف نركب بعضها على بعض ، وننقل ذلك إلى مواضع من الجسم ، وأصل النشز[1] : الارتفاع ، ومنه قيل : قد نَشَزَ الغلام : إذا ارتفع طوله وشبّ ، ومنه نشوز المرأة على زوجها ، ومن ذلك قيل للمكان المرتفع من الأرض : نَشْز ، ونَشَز ، ونَشَاز[2] ، فإذا أردت أنك رفعته ، قلت : أنشزته إنشازا ، ونَشَز هو : إذا ارتفع ؛ فمعنى قوله (وَانْظُرْ إلى العِظامِ كَيْفَ نُنْشِزُها) فى قراءة من قرأ ذلك بالزاى : كيف نرفعها من أماكنها من الأرض ، فنردّها إلى أماكنها من الجسم .

وممن تأوّل ذلك هذا التأويل جماعة من أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس فى قوله (كَيْفَ نُنْشِزُها) : كيف نخرجها .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (كَيْفَ نُنْشِزُها) قال : نحركها .

وقرأ ذلك آخرون (وَانْظُرْ إلى العِظامِ كَيْفَ نُنْشِرُها) بضم النون ، قالوا من قول القائل : أنشر الله الموتى ، فهو يُنْشِرهم إنشارا ، وذلك قراءة عامة قراء أهل المدينة ، بمعنى : وانظر إلى العظام كيف نحييها ، ثم نكسوها لحما .

(١) الصواب : النشوز ، إذا أراد المصدر .

(٢) فى الأصل : نشز ونشزة ونشازة : والذى فى اللسان : النشز بتسكين النون وفتحها ، والنشاز مثله .

ذكر من قال ذلك :

حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد (كَيْفَ نُنْشِرُها) قال : نظر إليها حين يحييها الله .

حدثني المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة مثله .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (وَانْظُرْ إلى العِظامِ كَيْفَ نُنْشِرُها) قال : كيف نحييها .

واحتجَّ بعض قراء ذلك بالراء وضم نون أوله بقوله (ثُمَّ إذَا شاءَ أنْشَرَهُ) ، فرأى أن من الصواب إلحاق قوله (وَانْظُرْ إلى العِظامِ كَيْفَ نُنْشِرُها) به . وقرأ ذلك بعضهم (وَانْظُرْ إلى العِظامِ كَيْفَ نَنْشُرُها) بفتح النون من أوله وبالراء ، كأنه وجه ذلك إلى مثل معنى نشْر الشيء وطيه ؛ وذلك قراءة غير محمودة ، لأن العرب لاتقول : نَشَرَ الموتَى ، وإنما تقول : أنشر الله الموتى ، فَنَشَرُوا هم ، بمعنى : أحياهم فحَيُوا هم ، ويدلّ على ذلك قوله (ثُمَّ إذَا شاءَ أنْشَرَهُ) وقوله (آلهَةً مِنَ الأرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ) . وعلى أنه إذا أريد به حيى الميت وعاش بعد مماته ، قيل : نشر ، قول أعشى بنى ثعلبة :

حتى يقُولَ النَّاسُ مِمَّا رَأوْا يا عَجَبًا للمَيِّتِ النَّاشِرِ[1]

ورُوِى سماعا من العرب : كان به جرَب فنَشَر : إذا عاد وحَيِى .

والقول فى ذلك عندى : أن معنى الإنشار ، ومعنى الإنشاز ، متقاربان ، لأن معنى الإنشاز : التركيب والإثبات ، وردّ العظام من العظام وإعادتها ، لاشك أنه ردّها إلى أماكنها ومواضعها من الجسد بعد مفارقتها إياها ، فهما وإن اختلفا فى اللفظ ، فمتقاربا المعنى ، وقد جاءت بالقراءة بهما الأمة مجيئا يقطع العذر ، ويوجب الحجة . فبأيهما قرأ القارئ فمصيب ، لانقياد معنييهما ، ولا حجة توجب لإحداهما من القضاء بالصواب على الأخرى .

فإن ظنّ ظانّ أن الإنشار إذا كان إحياء فهو بالصواب أولى ، لأن المأمور بالنظر إلى العظام وهى تنشر ، إنما أُمر به ليَرى عيانا ما أنكره بقوله (أنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِها) ؟ فإن إحياء العظام[2] لا شك فى هذا الموضع إنما عُنِى به ردّها إلى أماكنها من جسد المنظور إليه وهو يحيا ، لا إعادة الروح التى كانت فارقتها عند الممات ، والذى يدل على ذلك قوله (ثُمَّ نَكْسُوها لَحْماً) ولا شك أن الروح إنما نُفخت فى العظام التى أُنشرت بعد أن كسيت اللحم . وإذا كان ذلك كذلك ، وكان معنى الإنشاز تركيب العظام ، وردّها إلى أماكنها من الجسد ، وكان ذلك معنى الإنشار ، كان معلوما استواء معنييهما ، وأنهما

(١) البيت فى ديوان الأعشى أبى بصير (طبعة القاهرة ص ١٤١) والناشر : الحى . وقبله :

لَوْ أسْنَدَتْ مَيْتًا إلى نَحْرِها عاش ولَمْ يُنْقَلْ إلى قابِرِ

والقابر : من يدخل الميت فى قبره .

وأنشد البيت فى اللسان فى (نشر) قال : ونشر الله الميت ينشره نشرا ونشورا وأنشره ، فنشر الميت لاغير . قال الأعشى ... (البيت)

(٢) قوله « فإن إحياء العظام الخ » هذا فى الحقيقة جواب فإن ظن ظان ، وإن كان تركيب العبارة يوهم اتصاله بما قبله .

متفقا المعنى لاختلفاه ، فى ذلك إبانة عن صحة ما قلنا فيه . وأما القراءة الثالثة فغير جائزة القراءة بها عندى ، وهى قراءة من قرأ (كَيْفَ نَنْشُرُها) بفتح النون وبالراء ، لشذوذها عن قراءة المسلمين ، وخروجها عن الصحيح الفصيح من كلام العرب .

القول فى تأويل قوله (ثُمَّ نَكْسُوها لَحْماً)

يعنى تعالى ذكره بذلك (ثُمَّ نَكْسُوها) أى العظام لحما ، والهاء التى فى قوله (ثُمَّ نَكْسُوها لَحْما) من ذكر العظام ، ومعنى نكسوها : نلبسها ونواريها به كما يُوارِى جسدَ الإنسان كسوته التى يلبسها ، وكذلك تفعل العرب ، تجعل كل شىء غطى شيئا وواراه لباسا له وكسوة ، ومنه قول النابغة الجعدىّ :

فالحَمْدُ لله إذْ لَمْ يَأتِنِى أجلِى　　حتى اكْتَسَيْتُ مِنَ الإسْلامِ سِرْبالا[1]

فجعل الإسلام إذ غطى الذى كان عليه ، فواراه وأذهبه ، كسوة له وسربالا .

القول فى تأويل قوله (فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قالَ : أعْلَمُ أنَّ اللهَ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ)

يعنى تعالى ذكره بقوله (فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ) فلما اتضح له عيانا ما كان مستنكرا من قدرة الله وعظمته عنده قبل عيانه ذلك ، قال : أعلم الآن بعد المعاينة والاتضاح به والبيان - أن الله على كل شىء قدير .

ثم اختلفت القراءة فى قراءة قوله (قالَ أعْلَمُ أنَّ اللهَ) فقرأه بعضهم : قال اعلمْ ، على معنى الأمر ، بوصل الألف من اعلم ، وجزم الميم منها ، وهى قراءة عامة قراء أهل الكوفة ، ويذكرون أنها فى قراءة عبد الله ، قيل : اعلم : على وجه الأمر من الله للذى أُحيى بعد مماته ، فأمر بالنظر إلى ما يحييه الله بعد مماته ، وكذلك رُوى عن ابن عباس .

حدثنى أحمد بن يوسف التغلبى ، قال : ثنا القاسم بن سلام ، قال : ثنى حجاج ، عن هارون ، قال : هى فى قراءة عبد الله ، قيل اعلمْ أن الله على وجه الأمر .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه ، أحسبه شك أبو جعفر الطبرىّ ، سمعت ابن عباس يقرأ (فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قالَ اعْلَمْ) قال : إنما قيل ذلك له .

حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قال : ذكر لنا - والله أعلم - أنه قيل له انظر ، فجعل ينظر إلى العظام كيف يتوصل بعضها إلى بعض ، وذلك بعينيه ، فقيل : اعلمْ أن الله على كل شىء قدير . فعلى هذا القول تأويل ذلك : فلما تبين له ما تبين من أمر الله وقدرته ، قال الله له : اعلم الآن أن الله على كل شىء قدير . ولو صرف متأول قوله : قال : اعلم ، وقد قرأه على وجه الأمر ، إلى أنه

---

(١) البيت : نسبه ابن قتيبة فى الشعر والشعراء (طبعة ليدن سنة ١٩٠٢ ص ١٤٩) إلى لبيد بن ربيعة العامرى ، وليس فى ترجمة النابغة الجعدى . قال : ولم يقل (لبيد) فى الإسلام إلا بيتا واحدا . واختلف فى البيت : قال أبو اليقظان هو : (وذكر البيت) ، وقال غيره : بل هو قوله :

ماعاتَبَ المَرْءَ الكَرِيمَ كنَفْسِهِ　　والمرءُ يُصْلِحُهُ الجَلِيسُ الصَّالحُ

وفى رواية أبى اليقظان والديوان ص ٥٦ والأغانى (١٤ : ٩٧) والخزانة (١ : ٣٣٧) : حتى كسانى .

من قبل المخبر عنه بما اقتص فى هذه الآية من قصته ، كان وجها صحيحا ، وكان ذلك كما يقول القائل : اعلم أن قد كان كذا وكذا ، على وجه الأمر منه لغيره ، وهو يعنى به نفسه .

وقرأ ذلك آخرون (قالَ أعْلَمُ) ، على وجه الخبر عن نفسه للمتكلم به ، بهمز ألف أعلمُ وقطعها، ورفع الميم، بمعنى : فلما تبين له ما تبين من قدرة الله وعظيم سلطانه بمعاينته ما عاينه، قال: أليس ذلك[1] ؟ أعلم الآن أنا أن الله على كل شئ قدير ، وبذلك قرأ عامة أهل المدينة ، وبعض قراء أهل العراق ، وبذلك من التأويل تأوله جماعة من أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عمن لا يتهم ، عن وهب بن منبه ، قال : لما عاين من قدرة الله ما عاين ، قال : (أعْلَمُ أنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق، قال : أخبرنا عبد الصمد بن معقل: أنه سمع وهب ابن منبه يقول : (فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قالَ أعْلَمُ أنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قال : يعنى نبيّ الله عليه السلام ، يعنى إنشار العظام ، فقال : أعلمُ أن الله على كل شيء قدير .

حدثني موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، قال : قال عزير عند ذلك : يعنى عند معاينة إحياء الله حمارَه : (أعْلَمُ أنَّ اللهَ على كل شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك ، قال : جعل ينظر إلى كل شيء منه يوصل بعضه إلى بعض (فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قالَ أعْلَمُ أنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، نحوه .

وأولى القراءتين بالصواب فى ذلك: قراءة من قرأ (اعْلَمْ) بوصل الألف ، وجزم الميم، على وجه الأمر من الله تعالى ذكره للذى قد أحياه بعد مماته ، بالأمر بأن يعلم أن الله الذى أراه بعينيه ما أراه من عظيم قدرته وسلطانه، من إحيائه إياه وحمارَه بعد موت مائة عام وبلائه، حتى عادا كهيئتهما يوم قبض أرواحهما، وحفظ عليه طعامه وشرابه مائة عام، حتى ردّه عليه كهيئته يوم وضعه، غير متغير، على كل شئ قادر كذلك .

وإنما اخترنا قراءة ذلك كذلك ، وحكمنا له بالصواب دون غيره ؛ لأن ما قبله من الكلام أمر من الله تعالى ذكره قولا للذى أحياه الله بعد مماته ، وخطابا له به ، وذلك قوله (فانْظُرْ إلى طَعامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ،وَانْظُرْ إلى حِمارِكَ ... وَانْظُرْ إلى العِظامِ كَيْفَ نُنْشِزُها) فلما تبين له ذلك جوابا عن مسئلته ربه (أنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِها) قال الله له : اعلم أن الله الذى فعل هذه الأشياء على ما رأيت ، على غير ذلك من الأشياء قدير ، كقدرته على ما رأيت وأمثاله ، كما قال تعالى ذكره لخليله إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، بعد أن أجابه عن مسئلته إياه فى قوله (رَبِّ أرِنِي كَيْفَ تُحْيِي المَوْتَى) ؟

(١) كذا وردت هذه العبارة فى الأصل .

(وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) . فأمر إبراهيم بأن يعلم بعد أن أراه كيفية إحيائه الموتى ، أنه عزيز حكيم ، وكذلك أمر الذى سأل فقال : (أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا) بعد أن أراه كيفية إحيائه إياها ، أن يعلم أن الله على كل شىء قدير .

القول فى تأويل قوله :

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى ؟ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ، قَالَ بَلَى وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ، قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)

يعنى تعالى ذكره بذلك : ألم تر إذ قال إبراهيم ربِّ أرنى . وإنما صلح أن يعطف بقوله (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ) على قوله (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ) وقوله (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ) ، لأن قوله (أَلَمْ تَرَ) ليس معناه : ألم تر بعينيك ، وإنما معناه : ألم تر بقلبك ، فمعناه : ألم تعلم فتذكر ، فهو وإن كان لفظه لفظ الرؤية ، فيعطف عليه أحيانا بما يوافق لفظه من الكلام ، وأحيانا بما يوافق معناه .

واختلف أهل التأويل فى سبب مسألة إبراهيم ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ؟ فقال بعضهم : كانت مسألته ذلك ربه ، أنه رأى دابة قد تقسمها السباع والطير ، فسأل ربه أن يريه كيفية إحيائه إياها ، مع تفرق لحومها فى بطون طير الهواء وسباع الأرض ، ليرى ذلك عيانا ، فيزداد يقينا برؤيته ذلك عيانا ، إلى علمه به خبرا ، فأراه الله ذلك مثلا ، بما أخبر أنه أمره به .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : حدثنا سعيد ، عن قتادة قوله : (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى) ذكر لنا أن خليل الله إبراهيم صلى الله عليه وسلم أتى على دابة توزَّعها الدوابُّ والسباع ، فقال : (رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ، قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) .

حدثت عن الحسن ، قال : سمعت أبا معاذ ، قال : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى) قال : مرَّ إبراهيم على دابة ميت ، قد بلى وتقسمته الرياح والسباع ، فقام ينظر ، فقال : سبحان الله ! كيف يحيى الله هذا ؟ وقد علم أن الله قادر على ذلك ، فذلك قوله (رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى) ؟

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، قال : قال ابن جريج : بلغنى أن إبراهيم بينا هو يسير على الطريق ، إذا هو بجيفة حار عليها السباع والطير ، قد تمزَّعت لحمها وبقى عظامها ، فلما ذهبت السباع ، وطارت الطير على الجبال والآكام ، فوقف وتعجب ، ثم قال : ربِّ قد علمت لتجمعنها من بطون

هذه السباع والطير (رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي المَوْتَى ؟ قالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟ قالَ بَلَى)، ولكن ليس الخبر كالمعاينة .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : مرّ إبراهيم بحوت نصفه فى البرّ ، ونصفه فى البحر ، فما كان منه فى البحر فدوابّ البحر تأكله ، وماكان منه فى البرّ فالسباع ودوابّ البرّ تأكله ، فقال له الخبيث : ياإبراهيم متى يجمع الله هذا من بطون هؤلاء ؟ فقال : يا ربّ أرنى كيف تحيى الموتى ؟ قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمئنّ قلبى .

وقال آخرون : بل كان سبب مسألته ربه ذلك ، المناظرة والمحاجة التى جرت بينه وبين نُمروذ فى ذلك .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : ثنى محمد بن إسحاق ، قال : لما جرى بين إبراهيم وبين قومه ما جرى مما قصه الله فى سورة الأنبياء ، قال نمروذ فيما يذكرون لإبراهيم : أرأيت إلهك هذا الذى تعبد وتدعو إلى عبادته ، وتذكر من قدرته التى تعظمه بها على غيره ما هو ؟ قال له إبراهيم : ربى الذى يحيى ويميت ، قال نمرود : أنا أحيى وأميت ، فقال له إبراهيم : كيف تحيى وتميت ؟ ثم ذكر ما قصّ الله من محاجته إياه ، قال : فقال إبراهيم عند ذلك (رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي المَوْتَى ، قالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟ قالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) من غير شكّ فى الله تعالى ذكره ولا فى قدرته ، ولكنه أحبّ أن يعلم ذلك، وتاق إليه قلبه ، فقال : ليطمئنّ قلبى ، أى ما تاق إليه إذا هو علمه .

وهذان القولان أعنى الأول، وهذا الآخر متقاربا المعنى ، فى أن مسألة إبراهيم ربه أن يريه كيف يحيى الموتى ، كانت ليرى عيانا ما كان عنده من علم ذلك خبرا .

وقال آخرون : بل كانت مسألته ذلك ربه عند البشارة التى أتته من الله بأنه اتخذه خليلا ، فسأل ربه أن يريه عاجلا من العلامة له على ذلك، ليطمئن قلبه بأنه قد اصطفاه لنفسه خليلا، ويكون ذلك لما عنده من اليقين مؤيدا .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى موسى بن هارون ، قال : ثنا عمرو ، قال: ثنا أسباط ، عن السدىّ، قال : لما اتخذ الله إبراهيم خليلا ، سأل ملكُ الموت ربَّه أن يأذن له أن يبشر إبراهيم بذلك ، فأذِن له ، فأتى إبراهيم وليس فى البيت ، فدخل داره ، وكان إبراهيم أغير الناس ، إن خرج أغلق الباب ؛ فلما جاء وجد فى داره رجلا ، فثار إليه ليأخذه ، قال : من أذن لك أن تدخل دارى ؟ قال ملكُ الموت : أذن لى ربّ هذه الدار ، قال إبراهيم : صدقت ، وعرف أنه ملك الموت، قال : من أنت ؟ قال: أنا ملك الموت، جئتك أبشرك بأن الله قد اتخذك خليلا ، فحمد الله وقال : يا ملك الموت أرنى الصورة التى تقبض فيها أنفاس الكفار ، قال : يا إبراهيم لاتطيق ذلك ، قال: بلى ، قال : فأعرض، فأعرض إبراهيم، ثم نظر إليه ، فإذا هو برجل أسود تنال رأسه السماء ، يخرج من فيه لهب النار ، ليس من شعرة فى جسده إلا فى صورة رجل أسود يخرج من فيه ومسامعه

لهب النار ، فغُشِي على إبراهيم ، ثم أفاق وقد تحوّل ملك الموت فى الصورة الأولى ، فقال : يا ملك الموت ، لو لم يلق الكافر عند الموت من البلاء والحزن إلا صورتك لكفاه ، فأرنى كيف تقبض أنفاس المؤمنين ، قال : فأعرض ، فأعرض إبراهيم ثم التفت ، فإذا هو برجل شاب أحسن الناس وجها ، وأطيبه ريحا ، فى ثياب بيض ، فقال : يا ملك الموت لو لم يكن للمؤمن عند ربه من قرّة العين والكرامة إلا صورتك هذه لكان يكفيه ، فانطلق ملك الموت ، وقام إبراهيم يدعو ربه يقول : (رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى) حتى أعلم أنى خليلك (قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ) بأنى خليلك ؟ يقول : تصدّقْ (قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) بخلولتك .

حدثنا أحمد بن إسحاق ، قال : ثنا أبو أحمد الزبيرىّ ، قال : ثنا عمرو بن ثابت ، عن أبيه ، عن سعيد ابن جبير (وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) قال : بالخُلّة .

وقال آخرون : قال ذلك لربه ، لأنه شكّ فى قدرة الله على إحياء الموتى .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن أيوب فى قوله (وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) قال : قال ابن عباس : ما فى القرآن آية أرجى عندى منها .

حدثنا محمد بن المثنى ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة ، قال : سمعت زيد بن على يحدث عن رجل ، عن سعيد بن المسيب ، قال : اتعد عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو أن يجتمعا ، قال : ونحن يومئذ شَبَبَة ، فقال أحدهما لصاحبه : أىّ آية فى كتاب الله أرجى لهذه الأمة ، فقال عبد الله بن عمرو : (يا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا على أَنْفُسِهِمْ) حتى ختم الآية ، فقال ابن عباس : أما إن كنت تقول إنها ...[1] وإن أرجى منها لهذه الأمة قول إبراهيم صلى الله عليه وسلم : (رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ، قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟ قال : بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : سألت عطاء بن أبى رباح ، عن قوله : (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ، قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) قال : دخل قلب إبراهيم بعض ما يدخل قلوب الناس ، فقال : (رب أرنى كيف تحيي الموتى ، قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى . . . قال : فخذ أربعة من الطير) ليريه .

حدثنى زكريا بن يحيى بن أبان المصرىّ ، قال : ثنا سعيد بن تليد ، قال : ثنا عبد الرحمن بن القاسم ، قال : ثنى بكر بن مضر ، عن عمرو بن الحارث ، عن يونس بن يزيد ، عن ابن شهاب ، قال : أخبرنى أبو سلمة بن عبد الرحمن وسعيد بن المسيب ، عن أبى هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « نَحْنُ أحقّ بالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ[2] ، قَالَ (رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ، قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) » .

(١) الذى فى الدر المنثور : فقال ابن عباس : لكن أنا أقول قول الله لإبراهيم : أو لم تؤمن الخ .
(٢) قال ابن عطية : أى لو كان شاكا .

حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: أخبرني يونس، عن ابن شهاب وسعيد بن المسيب، عن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال، فذكر نحوه.

وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية: ما صحّ به الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قاله، وهو قوله: «نَحْنُ أحقُّ بالشَّكِّ مِنْ إبْرَاهِيمَ، قالَ رَبِّ أرِنِي كَيْفَ تُحْيِي المَوْتَى، قالَ أوَلَمْ تُؤْمِنْ» وأن تكون مسألته ربَّه ماسأله أن يريه من إحياء الموتى، لعارض من الشيطان[1] عرض في قلبه، كالذي ذكرنا عن ابن زيد آنفا، من أن إبراهيم لما رأى الحوت الذي بعضه في البرّ وبعضه في البحر، قد تعاوره دوابّ البرّ ودوابّ البحر وطير الهواء، ألقى الشيطان في نفسه فقال: متى يجمع الله هذا من بطون هؤلاء؟ فسأل إبراهيم حينئذ ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، ليعاين ذلك عيانا، فلا يقدر بعد ذلك الشيطان أن يلقي في قلبه مثل الذي ألقى فيه عند رؤيته ما رأى من ذلك، فقال له ربه: (أوَلَمْ تُؤْمِنْ)؟ يقول: أو لم تصدق يا إبراهيم بأني على ذلك قادر، قال: بلى يا ربّ، لكن سألتك أن تريني ذلك ليطمئنّ قلبي، فلا يقدر الشيطان أن يلقي في قلبي مثل الذي فعل عند رؤيتي هذا الحوت.

حدثني بذلك يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، عن ابن زيد. ومعنى قوله (لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي): ليسكن ويهدأ باليقين الذي يستيقنه. وهذا التأويل الذي قلناه في ذلك، هو تأويل الذين وجهوا معنى قوله (لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي): إلى أنه ليزداد إيمانا، أو إلى أنه ليوقن.

ذكر من قال ذلك: ليوقن، أو ليزداد يقينا أو إيمانًا.

حدثنا أبو كريب، قال: ثنا أبو نعيم، عن سفيان، عن قيس بن مسلم، عن سعيد بن جبير (لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) قال: ليوقن.

حدثنا محمد بن بشار، قال: ثنا عبد الرحمن، قال: ثنا سفيان.

وحدثنا أحمد بن إسحاق، قال: ثنا أبو أحمد، قال: ثنا سفيان، عن أبي الهيثم، عن سعيد بن جبير، (لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي): قال: ليزداد يقيني.

حدثني المثنى، قال: ثنا إسحاق، قال: ثنا أبو زهير، عن جويبر، عن الضحاك: (وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) يقول: ليزداد يقينا.

حدثنا بشر بن معاذ، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة (وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي): قال: وأراد نبيّ الله إبراهيم: ليزداد يقينا إلى يقينه.

حدثنا الحسن بن يحيي، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: قال معمر وقال قتادة: ليزداد يقينا.

حدثت عن عمار، قال: ثنا ابن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع (وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي): قال: أراد إبراهيم أن يزداد يقينا.

حدثني المثنى، قال: ثنا محمد بن كثير البصريّ، قال: ثنا إسرائيل، قال: ثنا أبو الهيثم، عن سعيد ابن جبير (لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) قال: ليزداد يقيني.

---

(١) في القرطبي نقلا عن ابن عطية الأندلسي، كلام نفيس في الرد على الطبري في هذا الموضع. فراجعه فيه.

حدثنى المثنى ، قال : ثنا الفضل بن دُكين ، قال : ثنا سفيان ، عن أبى الهيثم ، عن سعيد بن جبير (وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) قال : ليزداد يقينا .

حدثنا صالح بن مِسمار ، قال : ثنا زيد بن الُحباب ، قال : ثنا خلف بن خليفة ، قال : ثنا ليث بن أبى سليم ، عن مجاهد وإبراهيم ، فى قوله (لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) قال : لأزداد إيمانا مع إيمانى .

حدثنا صالح ، قال : ثنا زيد ، قال : أخبرنا زياد ، عن عبد الله العامرىّ ، قال : ثنا ليث ، عن أبى الهيثم ، عن سعيد بن جبير فى قول الله (لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) قال : لأزداد إيمانا مع إيمانى .

وقد ذكرنا فيما مضى قول من قال : معنى قوله (لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) : بأنى خليلك .

وقال آخرون : معنى قوله (لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) لأعلم أنك تجيبنى إذا دعوتك، وتعطينى إذا سألتك .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس قوله (لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) قال : أعلم أنك تجيبنى إذا دعوتك ، وتعطينى إذا سألتك .

وأما تأويل قوله (قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟) فإنه : أو لم تصدّق ؟ .

كما حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، وحدثنا أحمد بن إسحاق ، قال : ثنا أبو أحمد ، قال : ثنا سفيان ، عن قيس بن مسلم ، عن سعيد بن جبير قوله (أَوَلَمْ تُؤْمِنْ) قال : أوَلم تُوقن بأنى خليلك ؟

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (أَوَلَمْ تُؤْمِنْ) قال : أوَلم تُوقن

القول فى تأويل قوله (قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ) :

يعنى تعالى ذكره بذلك : قال الله له : فخذ أربعة من الطير ، فذكر أن الأربعة من الطير : الديك ، والطاوُس ، والغراب ، والحمام .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : ثنى محمد بن إسحاق ، عن بعض أهل العلم ، أن أهل الكتاب الأول يذكرون أنه أخذ طاوسا ، وديكا ، وغرابا ، وحماما .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قال : الأربعة من الطير : الديك ، والطاوس ، والغراب ، والحمام .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج (قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ) : قال ابن جُريج : زعموا أنه ديك ، وغراب ، وطاوُس ، وحمامة .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب، قال : قال ابن زيد (قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ) قال : فأخذ طاوسا ، وحماما ، وغرابا ، وديكا ، مخالفة أجناسها وألوانها .

القول فى تأويل قوله (فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ) :

اختلفت القراء فى قراءة ذلك ، فقرأته عامة قراء أهل المدينة والحجاز والبصرة (فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ) ، بضم الصاد من قول القائل : صُرْتُ هذا الأمر : إذا مِلت إليه ، أَصُور صَوْرًا ، ويقال : إنى إليكم لأَصْوَرُ ، أىّ مشتاق مائل ، ومنه قول الشاعر :

اللهُ يَعْلَمُ أَنَّا فى تَلَفُّتِنا يَوْمَ الفِراقِ إلى أحْبابِنا صُوْرُ ¹

وهو جمع أَصْوَر وصَوْراء وصُوْر ، مثل أسود وسوداء وسود ، ومنه قول الطِّرِمَّاح :

عَفائفُ إلا ذاكَ أوْ أنْ يَصُورَها هَوًى والهَوَى للعاشقِينَ صَرُوعُ ²

يعنى بقوله : أو أن يصورها هوى : يميلها .

فمعنى قوله (فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ) اضممهنّ إليك ، ووجههن نحوك ، كما يقال : صُرْ وجهك إلىّ ، أى أقبل به إلىّ ، ومن وجّه قوله (فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ) إلى هذا التأويل ، كان فى الكلام عنده متروك قد تُرك ذكره ، استغناء بدلالة الظاهر عليه ، ويكون معناه حينئذ عنده ، قال : فخذ أربعة من الطير فصُرْهنّ إليك ، ثم قطعهن ، ثم اجعل على كل جبل منهنّ جزءا ، وقد يحتمل أن يكون معنى ذلك إذا قرئ كذلك بضم الصاد : قطعهن ، كما قال تَوْبَة بن الحُمَيِّر :

فلمَّا جَذَبْتُ الحَبْلَ أَطَّتْ نُسُوعُهُ بأطرافِ عِيدانٍ شَدِيدٍ أُسُورُهَا

فأدْنَتْ لِيَ الأسْبابَ حتى بلغتُها بنَهْضِي وقد كانَ ارتقائى يَصُورُها ³

يعنى : يقطعها . وإذا كان ذلك تأويل قوله (فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ) كان فى الكلام تقديم وتأخير ، ويكون معناه : فخذ أربعة من الطير إليك فصُرْهن ، ويكون « إليك » من صلة خذ .

وقرأ ذلك جماعة من أهل الكوفة (فَصِرْهُنَّ إِلَيْكَ) بالكسر ، بمعنى قَطِّعهن .

وقد زعم جماعة من نحويى الكوفة أنهم لايعرفون فصُرهنّ ولا فصِرهن ، بمعنى قطعهن فى كلام العرب ، وأنهم لايعرفون كسر الصاد وضمها فى ذلك إلا بمعنى واحد ، وأنهما جميعا لغتان بمعنى الإمالة ، وأن كسر الصاد منها لغة فى هُذيل وسُليم ، وأنشدوا لبعض بنى سُليم :

---

(١) البيت من شواهد النحويين ، وهو غير منسوب . وصور : جمع أصور . وهو المائل العنق من الشوق ، من صور يصور صورا : إذا مال نحوه بعنقه . يريد أنهم كانوا يوم الفراق دائمى التلفت نحو أحبابهم (عن هامش سر صناعة الإعراب لابن جنى ١ : ٢٩ طبعة شركة مصطفى البابى الحلبى وأولاده سنة ١٩٥٤) .

(٢) البيت للطرماح كما نسبه المؤلف . ويصورها : يميل أعناقها نحو من تحب شوقا . والصرع بفتح الصاد المشددة وكسرها ، وبالضاد : الضرب والفن من الشيء . والجمع : أصرع وصروع (اللسان) . يصفهن بأنهن عفيفات ، ليس بهن إلا ميل أعناقهن أحيانا من الشوق إلى الحبيب ، والهوى فنون ، منه القوى الذى يذهب بالعقل أو يقتل ، ومنه الضعيف الذى لايقتل ، ولا يذهب باللب .

(٣) البيتان لتوبة بن الحمير صاحب ليلى الأخيلية . وأطت المحامل والرحال تئط أطا وأطيطا : كان لها صوت إذا ثقل عليها الركبان . والنسوع : جمع نسع ، وهو سير يضفر على هيئة أعنة النعال ، تشد به الرحال . ويجمع على نسوع وأنساع ونسع ، بوزن حمر . وأسورها جمع أسر ، وهو شدة الخلق . يريد أن عيدان الرحل قوية متينة ، والأسباب : جمع سبب ، وهو الحبل ، ويصورها : يقطعها ، كما فسره المؤلف .

وَفَرْعٍ يَصِيرُ الجِيدَ وَحْفٍ كأنَّهُ ... على اللِّيتِ قِنْوَانُ الكُرُومِ الدَّوَالحُ[١]

يعنى بقوله يَصِير : يُميل ، وأن أهل هذه اللغة يقولون : صاره ، وهو يَصيره صَيْرا ، وصِرْ وجهك إلىّ : أى أمله ، كما تقول : صُرْه .

وزعم بعض نحويى الكوفة أنه لا يعرف لقوله (فَصُرْهُنَّ) ولا لقراءة من قرأ فَصِرْهُنَّ) بضم الصاد وكسرها وجها فى التقطيع ، إلا أن يكون (فَصِرْهُنَّ إليكَ) فى قراءة من قرأه بكسر الصاد من المقلوب ، وذلك أن تكون لام فعله جعلت مكان عينه ، وعينه مكان لامه ، فيكون من صَرَى يَصْرِى صَرْيا ، فإن العرب تقول : بات يَصْرِى فى حوضه : إذا استقى ، ثم قطع واستقى ، ومن ذلك قول الشاعر :

صَرَتْ نَظْرَةً لَوْصَادَفَتْ جَوْزَ دارِعٍ ... غَدَا والعَوَاصِى مِنْ دَمِ الجَوفِ تَنْعَرُ[٢]

صَرَت : قطعت نظرة ، ومنه قول الآخر :

يقولونَ إنَّ الشَّامَ يَقْتُلُ أهْلَهُ ... فَمَنْ لِى إذَا لم آتِهِ بخُلودِ
تَعَرَّبَ آبائى فهلا صَرَاهُمُ ... منَ الموْتِ أنْ لم يذهَبوا وجُدودى[٣]

يعنى : قطعهن ، ثم نقلت ياؤها التى هى لام الفعل فجعلت عينا للفعل ، وحولت عينها فجعلت لامها ، فقيل : صار يَصِير ، كما قيل : عَثِى يعثَى عثا ، ثم حوّلت لامها ، فجعلت عينها ، فقيل عاث يعيث .

فأما نحويو البصرة فإنهم قالوا (فَصُرْهُنَّ إليكَ) سواء معناه إذا قرئ بالضم من الصاد وبالكسر ، فى أنه معنىّ به فى هذا الموضع التقطيع ، قالوا : وهما لغتان : إحداهما صار يصُور ، والأخرى صار يَصِير ، واستشهدوا على ذلك ببيت توبة بن الحمير الذى ذكرنا قبل ، وببيت المعلَّى بن حماد العبدىّ :

---

(١) البيت لبعض بنى سليم . وفى (اللسان : صير) : وصرت الشىء (بكسر الصاد) : قطعته . وفى قراءة ابن مسعود وأبى جعفر المدنى « فصرهن إليك » بالكسر : أى قطعهن وشققهن . وقيل : وجههن . وقال الفراء : ضمت العامة الصاد ، وكان أصحاب عبد الله يكسرونها ، وهما لغتان . فأما الضم فكثير . وأما الكسر ففى هذيل وسليم . قال : وأنشد الكسائى . . . (البيت) . ثم قال بعده : يصير : يميل . ويروى : يزين الجيد . وكلهم فسروا فصرهن : أملهن . وأما فصرهن بالكسر ، فإنه فسر بمعنى : قطعهن . قال : ولم نجد قطعهن معروفة . قال الأزهرى : وأراها إن كانت كذلك من صريت أصرى ، أى قطعت ، فقدمت ياؤها . والوحف : من النبات والشعر : ما غزر ، وأثت أصوله واسود . والليت : صفحة من العنق ، وهما ليتان . والقنوان : جمع قنو ، وهو العذق بما فيه . والكروم : جمع كرم ، وهو شجرة العنب . والدوالح : جمع دالح أو دالحة ، وهى المثقلة بما تحمل من العنب .

(٢) البيت : أنشده الجوهرى فى (عصى) وصاحب اللسان فى (نعر ، عصى) . ولم ينسباه لشاعر معين . وصرى الشىء : قطعه ومنعه . والجوز من كل شىء : وسطه . والدارع : لابس الدرع . والعواصى : جمع العاصى ، وهو العرق الذى لا يرقأ ولا ينقطع دمه . وتنعر : بفتح العين وبكسرها : يفور الدم منها . يصفها بأن نظراتها قاتلة ، ولو نظرت إلى بطل ذى درع لمزقت عروقه فى جوفه ، ففار الدم منها وانصب .

(٣) لم ينسب المؤلف هذين البيتين . تعرب آبائى : أى سكنوا أرض العرب ، ولم يخرجوا منها لسكنى الشام ، وهى من بلاد الروم . وصراهم : منعهم وقطعهم . والمصدر من أن وما بعدها : فاعل صرى .

وذكرهما البكرى فى معجم ما استعجم ، طبعة لجنة الترجمة والتأليف والنشر ص ٧٧٣ فى رسم « الشأم » ، وهما :

يقولون إن الشام يقتل أهله ... فمن لى إن لم آته بخلود
تفرق آبائى فهلا صراهم ... عن الموت أن لم يشتموا وجدودى

ولفظة تفرق : محرفة عن تعرب كما فى معانى القرآن للفراء . أو عن تعرق ، بمعنى سكنى العراق ، وهى من بلادهم .

وجاءَتْ خِلْعَةٌ دُهْسٌ صَفَايَا   يَصُورُ عُنُوقَهَا أحْوَى زَنِيمُ [١]

بمعنى : يفرق عنوقها ويقطعها ، وبيت خنساء :

لظلت الشُّمُّ منها وهى تنصارُ [٢]

يعنى بالشمّ : الجبال ، أنها تتصدّع وتتفرّق ، وبيت أبى ذؤيب :

فانْصَرْنَ من فَزَعٍ وَسَدَّ فُرُوجَهُ   غُبْرٌ ضَوارٍ وَافيانِ وأجْدَعُ [٣]

قالوا : فلقول القائل : صُرْتُ الشئَ معنيان : أملته ، وقطعته ، وحكوا سماعا : صُرْنا به الحُكْمَ : فصلنا به الحكم.

وهذا القول الذى ذكرناه عن البصريين من أن معنى الضم فى الصاد من قوله (فَصُرْهُنَّ إلَيْكَ) والكسر سواء بمعنى واحد ، وأنهما لغتان معناهما فى هذا الموضع فقطِّعهن ، وأن معنى « إليك » تقديمها قبل فصُرهن من أجل أنها صلة قوله : فخذ : أولى بالصواب من قول الذين حكينا قولهم من نحويى الكوفيين ، الذين أنكروا أن يكون للتقطيع فى ذلك وجه مفهوم ، إلا على معنى القلب الذى ذكرت ، لإجماع جميع أهل التأويل على أن معنى قوله (فَصُرْهُنَّ) غير خارج من أحد معنيين : إما قطِّعهنّ ، وإما اضمُمهنّ إليك ، بالكسر

---

(١) البيت نسبه صاحب اللسان فى (دهس) وابن الأنبارى فى الأضداد (ص ٣٠) والأصمعى فى الأضداد (ص ٣٣) وابن السكيت (ص ١٨٧) للمعل بن جمال العبدى ، بالجيم المعجمة . وقال الصاغانى وابن برى وصاحب اللسان فى (زنم) للمعل بن حمال ، بالحاء المهملة . والخلعة ، بكسر الخاء وضمها ، خيار المال . والدهس : جمع دهساء ، وهى السوداء المشربة حمرة خفيفة . والصفايا : جمع صفية : وهى خيار المال ، أو مايختاره رئيس الجيش لنفسه من المغانم قبل القسمة . ويصور ، بضم الصاد عند أكثر اللغويين : بمعنى يميل ويعطف . وعنوقها : أعناقها ، أى يميل أعناقها إليه تيس أحوى ، من الحوة ، وهى السواد . والزنيم : الذى له زنمتان تنوسان تحت حلقه .

ونقل صاحب اللسان فى (صور) عن الجوهرى : أن صرت الشىء بالضم ، يكون أحيانا بمعنى قطعته وفصلته ، واستشهد له بقول رؤبة : « صرنا به الحكم وأعيا الحكما » . وقال فى حديث مجاهد : « كره أن يصور شجرة مثمرة » : إنه يحتمل أن يكون أراد يميلها ، لأن إمالتها تدعو إلى الجفوف والذبول ؛ ويجوز أن يكون أراد به قطعها .

(٢) هذا عجز بيت للخنساء ، لم أجده فى ديوانها المسمى : «أنيس الجلساء فى شرح ديوان الخنساء» . ووجدته فى اللسان والتاج : فى صور ، يقال : أصار الشىء فانصار : أى أماله فمال . قالت الخنساء . . . البيت ، أى لظلت الجبال الشم تصدع وتفلق .

(٣) البيت من عينية أبى ذؤيب المشهورة ، وهو مذكور فى المفضليات طبعة القاهرة سنة ١٩٢٦ م . وفى الرواية : « فاهتاج » ، فى موضع « فانصرن » . ورواه اللسان فى (جدع) وقال : أجدع : أى مقطوع الأذن . ووافيان : لم يقطع من آذانهما شىء .

وفى ديوان الهذليين (القسم الأول ، طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٤٥ ص ١٢) وروايته :

فاهْتاجَ من فَزَعٍ وسَدَّ فروجَهُ   غُبْرٌ ضوارٍ : وافِيان وأجْدَعُ

وقال فى الشرح : ويروى : فانصاع من فزع (وسد فروجه) بالعدو . والفروج : ما بين القوائم . والغبر : الكلاب تضرب إلى الغبرة . ضوار : قد ضريت وتعودت . وافيان : لم تقطع آذانهما . وأجدع : قد قطعت أذنه ، وهى علامة تعلم بها الكلاب .

وفى الهامش : وفى رواية : فارتاع . وفروج الثور : ما بين قوائمه . يقول : إنه حين رأى الكلاب قادمة نحوه ، ملأ ما بين قوائمه بالعدو الشديد ، الذى لم يدع انفراجا بينها لسرعة حركتها ، فأسند الفعل إلى الغبر ، وهى الكلاب التى تضرب إلى الغبرة ، لأنها هى التى أفزعته وحملته على العدو . ويجوز أن يفسر قوله (وسد فروجه غبر) : بأن الكلاب دخلت بين قوائمه ، وأتته من جميع وجوهه ، فلم تدع له وجها ينفذ منه . وفى رواية (غبس) مكان قوله : غبر . وهى رواية فى الأصل أيضا . وهى الكلاب تضرب غبرتها إلى السواد . وروى (غضف) وهى من الكلاب التى طالت آذانها واسترخت وتكسرت خلقة . الواحد : أغضف . فانصاع : أى ذهب فى ناحية .

وفى شرح ابن الأنبارى للمفضليات ص ٨٧٣ جاء البيت كرواية الديوان ، والشرح فى الديوان مأخوذ منه . وانصاع : أخذ فى شق فذهب .

قرئ ذلك أو بالضم ؛ فى إجماع جميعهم على ذلك على غير مراعاة منهم كسر الصاد وضمها ، ولا تفريق منهم بين معنيي القراءتين ، أعنى الكسر والضم ، أوضح الدليل على صحة قول القائلين من نحويى أهل البصرة فى ذلك ، ما حكينا عنهم من القول ، وخطأ قول نحويى الكوفيين ، لأنهم لو كانوا إنما تأولوا قوله (فَصُرْهُنَّ) بمعنى فقطعهن ، على أن أصل الكلام فأصرهنّ ، ثم قلبت فقيل : فصِرهن ، بكسر الصاد ، لتحوّل ياء فأصرهن مكان رائه ، وانتقال رائه مكان يائه ، لكان لاشك مع معرفتهم بلغتهم ، وعلمهم بمنطقهم ، قد فصلوا بين معنى ذلك إذا قرئ بكسر صاده ، وبينه إذا قرئ بضمها ، إذ كان غير جائز لمن قلب فأَصِرْهُن إلى فَصِرْهن ، أن يقرأه فصُرهن بضم الصاد ، وهم مع اختلاف قراءتهم ذلك ، قد تأوّلوه تأويلا واحدا على أحد الوجهين اللذين ذكرنا ، فى ذلك أوضح الدليل على خطأ قول من قال : إن ذلك إذا قرئ بكسر الصاد بتأويل التقطيع ، مقلوب من صَرَى يَصْرِى إلى صار يصير ، وجهل من زعم أن قول القائل صار يصُور وصار يصير غير معروف فى كلام العرب بمعنى قَطَع .

ذكر من حَضَرنا قولُه فى تأويل قول الله تعالى ذكره (فَصُرْهُنَّ) : أنه بمعنى : فقطعهنّ .

حدثنا سليمان بن عبد الجبار ، قال : ثنا محمد بن الصلت ، قال : ثنا أبو كدينة ، عن عطاء ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (فَصُرْهُنَّ) قال : هى نبطية : فشققهن .

حدثنا محمد بن المثنى ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة ، عن أبى حمزة ، عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآية : (فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ) قال : إنما هو مَثَل ، قال : قطعهنّ ثم اجعلهن فى أرباع الدنيا ، ربعا ههنا ، وربعا ههنا ، ثم ادعهنّ يأتينك سعيا .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (فَصُرْهُنَّ) قال : قطعهن .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا حصين ، عن أبى مالك فى قوله (فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ) يقول : قطعهن .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عمرو بن عون ، قال : أخبرنا هشيم ، عن حصين ، عن أبى مالك ، مثله .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا يحيى بن يمان ، عن أشعث ، عن جعفر ، عن سعيد : (فَصُرْهُنَّ) قال : قال : جَناح ذه عند رأس ذه ، ورأس ذه عند جَناح ذه .

حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، قال : حدثنا المعتمر بن سليمان ، عن أبيه ، قال : زعم أبو عمرو ، عن عكرمة فى قوله (فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ) قال : قال عكرمة : بالنبطية : قطعهن

حدثنا أحمد بن إسحاق ، قال : ثنا أبو أحمد ، قال : ثنا إسرائيل ، عن يحيى ، عن مجاهد (فَصُرهُنَّ إِلَيْكَ) قال : قطعهن .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ) انتفهن بريشهن ولحومهن [1] تمزيقا ، ثم اخلط لحومهن بريشهن .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ) قال : انتفهن بريشهن ولحومهن تمزيقا .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ) : أمر نبىّ الله عليه السلام أن يأخذ أربعة من الطير فيذبحهن ، ثم يخلط بين لحومهن وريشهن ودمائهن .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ) قال : فرّقهن ، قال : أُمر أن يخلط الدماء بالدماء ، والريش بالريش ، ثم اجعل على كل جبل منهنّ جزءا .

حدثت عن الحسين بن الفرج ، قال : سمعت أبا معاذ ، قال : أخبرنا عبيد بن سليمان ، قال : سمعت الضحاك (فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ) يقول : فشققهن ، وهو بالنبطية صرى ، وهو التشقيق .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ) يقول : قطعهن .

حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع فى قوله (فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ) يقول قطعهن إليك ، ومزّقهن تمزيقا .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ) أى قطعهن ، وهو الصَّوْر فى كلام العرب .

ففيما ذكرنا من أقوال من روينا قوله فى تأويل قوله (فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ) : أنه بمعنى فقطعهن إليك ، دلالة واضحة على صحة ما قلنا فى ذلك ، وفساد قول من خالفنا فيه ، وإذ كان ذلك كذلك ، فسواء قرأ القارئ ذلك بضم الصاد فصُرهن إليك ، أو كسرها فصِرهن ، أن كانت اللغتان معروفتين بمعنى واحد ، غير أن الأمر وإن كان كذلك ، فإن أحبهما إلىّ أن أقرأ به : فصُرهن إليك ، بضم الصاد ، لأنها أعلى اللغتين وأشهرهما ، وأكثرهما فى أحياء العرب .

وعند نفر قليل من أهل التأويل أنها بمعنى : أوثِق .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس (فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ) صُرْهن : أوثقهن .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قلت لعطاء : قوله (فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ) قال : اضممهنّ إليك .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد (فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ) قال : اجمعهن .

القول فى تأويل قوله : (ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ، ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا) :

(١) الذى فى الدر المنثور برواية البيهقى عن مجاهد : انتف ريشهن ولحومهن ، ومزقهن تمزيقا . وهو المعنى المقصود هنا .

اختلف أهل التأويل فى تأويل قوله (ثُمَّ اجْعَلْ على كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا) ، فقال بعضهم : يعنى بذلك : على كل ربع من أرباع الدنيا جزء منهن .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة ، عن أبى حمزة ، عن ابن عباس : (ثُمَّ اجْعَلْ على كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا) قال : اجعلهن فى أرباع الدنيا : ربعا ههنا ، وربعا ههنا ، وربعا ههنا ، وربعا ههنا ، ثم ادعهن يأتينك سعيا .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس : (ثُمَّ اجْعَلْ على كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا) قال : لما أوثقهن ذبحهن ، ثم جعل على كل جبل منهن جزءا .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قال : أمر نبىّ الله أن يأخذ أربعة من الطير ، فيذبحهن ، ثم يخلط بين لحومهن وريشهن ودمائهن ، ثم يجزئهن على أربعة أجبل ، فذكر لنا أنه شكّل[1] على أجنحتهن ، وأمسك برءوسهن بيده ، فجعل العظم يذهب إلى العظم ، والريشة إلى الريشة ، والبضعة إلى البضعة ، وذلك بعين خليل الله إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، ثم دعاهن فأتينه سعيا على أرجلهن ، ويلقى كل طير برأسه ، وهذا مثل آتاه الله إبراهيم ، يقول : كما بعث هذه الأطيار من هذه الأجبل الأربعة ، كذلك يبعث الله الناس يوم القيامة من أرباع الأرض ونواحيها .

حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قال : ذبحهن ، ثم قطعهن ، ثم خلط بين لحومهن وريشهن ، ثم قسمهن على أربعة أجزاء ، فجعل على كل جبل منهن جزءا ، فجعل العظم يذهب إلى العظم ، والريشة إلى الريشة ، والبضعة إلى البضعة ، وذلك بعين خليل الله إبراهيم ، ثم دعاهن فأتينه سعيا ، يقول : شدّا على أرجلهن ، وهذا مثل أراه الله إبراهيم ، يقول : كما بعثت هذه الأطيار من هذه الأجبل الأربعة ، كذلك يبعث الله الناس يوم القيامة من أرباع الأرض ونواحيها .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : ثنا ابن إسحاق ، عن بعض أهل العلم ، أن أهل الكتاب يذكرون : أنه أخذ الأطيار الأربعة ، ثم قطع كل طير بأربعة أجزاء ، ثم عمد إلى أربعة أجبال ، فجعل على كل جبل ربعا من كل طائر ، فكان على كل جبل ربع من الطاوس ، وربع من الديك ، وربع من الغراب وربع من الحمام ، ثم دعاهن فقال : تعالين بإذن الله كما كنتن ، فوثب كل ربع منها إلى صاحبه ، حتى اجتمعن ، فكان كل طائر كما كان قبل أن يقطعه ، ثم أقبلن إليه سعيا ، كما قال الله ، وقيل : يا إبراهيم ، هكذا يجمع الله العباد ، ويحيى الموتى للبعث ، من مشارق الأرض ومغاربها ، وشامها ويمنها ، فأراه الله إحياء الموتى بقدرته ، حتى عرف ذلك بغير ما قال نمروذ من الكذب والباطل .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد (ثُمَّ اجْعَلْ على كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا) قال : فأخذ طاوسا ، وحمامة ، وغرابا ، وديكا ، ثم قال : فرّقهن ، اجعل رأس كل

(١) ربط أجنحتهن بشكال : أى حبل .

واحد وجُؤْشُوش [1] الآخر وجناحى الآخر ، ورجلى الآخر معه . فقطعهن وفرّقهن أرباعا على الجبال ، ثم دعاهن فجئنه جميعا ، فقال الله ، كما ناديتهن فجئنك ، فكما أحييت هؤلاء وجمعتهن بعد هذا ، فكذلك أجمع هؤلاء أيضا ، يعنى الموتى .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : ثم اجعل على كل جبل من الأجبال ، التى كانت الأطيار والسباع التى كانت تأكل من لحم الدابة التى رآها إبراهيم ميتة ، فسأل إبراهيم عند رؤيته إياها أن يريه كيف يحييها وسائر الأموات غيرها ، وقالوا : كانت سبعة أجبال .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : لما قال إبراهيم ما قال عند رؤيته الدابة التى تفرّقت الطير والسباع عنها حين دنا منها ، وسأل ربه ما سأل ، قال : فخذ أربعة من الطير ، قال ابن جريج : فذبحها ثم خلط بين دمائهن وريشهن ولحومهن ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ، حيث رأيت الطير ذهبت والسباع ، قال : فجعلهن سبعة أجزاء ، وأمسك رءوسهن عنده ، ثم دعاهن بإذن الله ، فنظر إلى كل قطرة من دم تطير إلى القطرة الأخرى ، وكل ريشة تطير إلى الريشة الأخرى ، وكل بَضْعة وكل عظم يطير بعضه إلى بعض من رءوس الجبال ، حتى لقيت كل جثة بعضها بعضا فى السماء ، ثم أقبلن يسعين ، حتى وصلت رأسها .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، قال : فخذ أربعة من الطير فصُرهن إليك ، ثم اجعل على سبعة أجبال ، فاجعل على كل جبل منهن جزءا ، ثم ادعهن يأتينك سعيا ، فأخذ إبراهيم أربعة من الطير ، فقطعهن أعضاء ، لم يجعل عضوا من طير مع صاحبه ، ثم جعل رأس هذا مع رجل هذا ، وصدر هذا مع جناح هذا ، وقسمهن على سبعة أجبال ، ثم دعاهن فطار كل عضو إلى صاحبه ، ثم أقبلن إليه جميعا .

وقال آخرون : بل أمره الله أن يجعل ذلك على كل جبل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا) قال : ثم بدّدهن على كل جبل ، يأتينك سعيا ، وكذلك يحيى الله الموتى .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، ثم اجعلهن أجزاء على كل جبل ، ثم ادعهن يأتينك سعيا ، كذلك يحيى الله الموتى ، هو مَثَل ضربه الله لإبراهيم .

حدثنا القاسم ، قال ثنا : الحسين ، قال : ثنا حجاج ، قال : قال ابن جريج ، قال مجاهد (ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا) ثم بدّدهن أجزاء على كل جبل ، ثم ادعهن : تعالين بإذن الله ، فكذلك يحيى الله الموتى ، مَثَل ضربه الله لإبراهيم صلى الله عليه وسلم .

(١) الجؤشوش : الصدر . ومضى من الليل جؤشوش : أى صدر . وقيل : قطعة منه .

حدثنى المثنى ، قال : ثنى إسحاق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك ، قال : أمره أن يخالف بين قوائمهن ورءوسهن وأجنحتهن ، ثم يجعل على كل جبل منهن جزءا .

حدثت عن الحسين بن الفرج ، قال : سمعت أبا معاذ ، قال : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (ثُمَّ اجْعَلْ على كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا) : فخالف إبراهيم بين قوائمهن وأجنحتهن .

وأولى التأويلات بالآية : ما قاله مجاهد ، وهو أن الله تعالى ذكره ، أمر إبراهيم بتفريق أعضاء الأطيار الأربعة ، بعد تقطيعه إياهن ، على جميع الأجبال التى كان يصل إبراهيم فى وقت تكليف الله إياه تفريق ذلك وتبديدها عليها أجزاء ، لأن الله تعالى ذكره قال له : (ثُمَّ اجْعَلْ على كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا) والكل حرف يدل على الإحاطة بما أضيف إليه ، لفظه واحد ومعناه الجمع . فإذا كان ذلك كذلك ، فلن يجوز أن تكون الجبال التى أمر الله إبراهيم بتفريق أجزاء الأطيار الأربعة عليها خارجة من أحد معنيين : إما أن تكون بعضا أو جمعا ، فإن كانت بعضا فغير جائز أن يكون ذلك البعض إلا ما كان لإبراهيم السبيل إلى تفريق أعضاء الأطيار الأربعة عليه ، أو يكون جمعا ، فيكون أيضا كذلك . وقد أخبر الله تعالى ذكره أنه أمره بأن يجعل ذلك على كل جبل ، وذلك إما كل جبل ، وقد عرفهن إبراهيم بأعيانهن ، وإما مافى الأرض من الجبال .

فأما قول من قال : إن ذلك أربعة أجبل ، وقول من قال : هن سبعة ، فلا دلالة عندنا على صحة شىء من ذلك ، فنستجيز القول به ، وإنما أمر الله إبراهيم صلى الله عليه وسلم أن يجعل الأطيار الأربعة أجزاء متفرقة على كل جبل ، ليرى إبراهيم قدرته على جمع أجزائهن ، وهن متفرقات متبددات فى أماكن مختلفة شتى ، حتى يؤلف بعضهن إلى بعض ، فيعدن كهيئتهن قبل تقطيعهن وتمزيقهن ، وقبل تفريقهن أجزاءهن على الجبال ، أطيارا أحياء يطرن ، فيطمئن قلب إبراهيم ، ويعلم أن كذلك يجمع الله أوصال الموتى لبعث القيامة ، وتأليفه أجزاءهم بعد البلى ، ورد كل عضو من أعضائهم إلى موضعه ، كالذى كان قبل الرد . والجزء من كل شىء : هو البعض منه ، كان منقسما جميعه عليه على صحة ، أو غير منقسم ، فهو بذلك من معناه مخالف معنى السهم ، لأن السهم من الشىء : هو البعض المنقسم عليه جميعه على صحة ، ولذلك كثر استعمال الناس فى كلامهم عند ذكرهم أنصباءهم من المواريث : السهام دون الأجزاء .

وأما قوله (ثُمَّ ادْعُهُنَّ) فإن معناه ما ذكرت آنفا عن مجاهد : أنه قال : هو أنه أمر أن يقول لأجزاء الأطيار بعد تفريقهن على كل جبل : تعالَيْن بإذن الله .

فإن قال قائل : أمر إبراهيم أن يدعوهن وهن ممزقات أجزاء على رءوس الجبال أمواتا ، أم بعد ما أحيين ، فإن كان أمر أن يدعوهن وهن ممزقات لاأرواح فيهن ، فما وجه أمر من لاحياة فيه بالإقبال ، وإن كان أمر بدعائهن بعد ما أُحيين ، فما كانت حاجة إبراهيم إلى دعائهن ، وقد أبصرهن يَنْتَشِرن على رءوس الجبال ؟ قيل : إن أمر الله تعالى ذكرُه إبراهيم صلى الله عليه وسلم بدعائهن وهن أجزاء متفرقات ،

إنما هو أمر تكوين، كقول الله للذين مسخهم قردة بعد ما كانوا إنسا: (كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ)، لأمر عبادة، فيكون محالا إلا بعد وجود المأمور المتعبد.

القول فى تأويل قوله: (وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ):

يعنى تعالى ذكره بذلك: واعلم يا إبراهيم أن الذى أحيا هذه الأطيار بعد تمزيقك إياهنّ، وتفريقك أجزاءهنّ على الجبال، فجمعهن وردّ إليهن الروح، حتى أعادهن كهيئتهن قبل تفريقكهن، عزيز فى بطشه، إذا بطش بمن بطش من الجبابرة والمتكبرة الذين خالفوا أمره، وعصوا رسله، وعبدوا غيره، وفى نقمته حتى ينتقم منهم، حكيم فى أمره.

حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، قال: ثنا ابن إسحاق (وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) قال: عزيز فى بطشه، حكيم فى أمره.

حدثنى المثنى، قال: ثنا إسحاق، قال: ثنا ابن أبى جعفر، عن أبيه، عن الربيع: (وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ) فى نقمته (حَكِيمٌ) فى أمره.

القول فى تأويل قوله

مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ، وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)

وهذه الآية مردودة إلى قوله (مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً، وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)، والآيات التى بعدها إلى قوله (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ) من قصص بنى إسرائيل وخبرهم مع طالوت وجالوت، وما بعد ذلك من نبأ الذى حاجّ إبراهيم مع إبراهيم، وأمر الذى مرّ على القرية الخاوية على عروشها، وقصة إبراهيم ومسألته ربه ما سأل، مما قد ذكرناه قبل اعتراض من الله تعالى ذكره بما اعترض به من قصصهم بين ذلك، احتجاجا منه ببعضه على المشركين الذين كانوا يكذبون بالبعث وقيام الساعة، وحضا منه ببعضه للمؤمنين على الجهاد فى سبيله، الذى أمرهم به فى قوله: (وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)، يعرّفهم فيه: أنه ناصرهم وإن قلّ عددهم، وكثر عدد عدوّهم، ويَعِدُهُمُ النصرة عليهم، ويعلمهم سنته فيمن كان على منهاجهم من ابتغاء رضوان الله، أنه مؤيدهم، وفيمن كان على سبيل أعدائهم من الكفار، بأنه خاذلهم، ومفرّق جمعهم، ومُوهِن كيدهم، وقطعا منه ببعضه عذر اليهود، الذين كانوا بين ظَهرانى مُهاجَر رسول الله صلى الله عليه وسلم، بما أطلع نبيه عليه من خفىّ أمورهم، ومكتوم أسرار أوائلهم وأسلافهم، التى لم يعلمها سواهم، ليعلموا أن ما أتاهم به محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله، وأنه ليس بتخرّص ولا اختلاق، وإعذارا منه به إلى أهل النفاق منهم، ليحذروا بشكهم فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم أن يُحلّ بهم من بأسه وسطوته، مثلَ الذى أحلهما بأسلافهم، الذين كانوا فى القرية التى أهلكها، فتركها

خاوية على عروشها ، ثم عاد تعالى ذكره إلى الخبر عن الذى يقرض الله قرضا حسنا ، وما عنده له من الثواب على قرضه ، فقال : (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) يعنى بذلك : مثل الذين ينفقون أموالهم على أنفسهم فى جهاد أعداء الله بأنفسهم وأموالهم ، كمثل حبة من حبات الحنطة أو الشعير ، أو غير ذلك من نبات الأرض ، التى تُسَنْبِل سُنبلة بذرها زارع فأنبتت ، يعنى فأخرجت سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة ، يقول : فكذلك المنفق ماله على نفسه فى سبيل الله ، له أجره سبعمائة ضعف على الواحد من نفقته .

كما حدثنى موسى بن هارون ، قال : ثنا عمرو بن حماد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ : (كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ، فهذا لمن أنفق فى سبيل الله ، فله سبعمائة .

حدثنا يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ، وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ) قال : هذا الذى ينفق على نفسه فى سبيل الله ويخرج .

حُدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قوله (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ) . الآية ، فكان من بايع النبىّ صلى الله عليه وسلم على الهجرة ، ورابط مع النبىّ صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، ولم يلق وجها إلا بإذنه ، كانت الحسنة له بسبعمائة ضعف ، ومن بايع على الإسلام كانت الحسنة له عشر أمثالها .

فإن قال قائل : وهل رأيت سُنبلة فيها مائة حبة ، أو بلغتك ، فضرب بها المثل للمنفق فى سبيل الله ماله ؟ قيل : إن يكن ذلك موجودا فهو ذاك ، وإلا فجائز أن يكون معناه : كمثل سنبلة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، إن جعل الله ذلك فيها ، ويحتمل أن يكون معناه : فى كل سنبلة مائة حبة ، يعنى أنها إذا هى بذرت أنبتت مائة حبة ، فيكون ما حدث عن البذر الذى كان منها من المائة الحبة مضافا إليها ، لأنه كان عنها ، وقد تأول ذلك على هذا الوجه بعض أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك قوله : (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ) قال : كل سنبلة أنبتت مائة حبة ، فهذا لمن أنفق فى سبيل الله ، (وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) .

القول فى تأويل قوله (وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ) :

اختلف أهل التأويل فى تأويل قوله (وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ) . فقال بعضهم : والله يضاعف لمن يشاء من عباده أجر حسناته ، بعد الذى أعطى المنفق فى سبيله من التضعيف ، الواحدة سبعمائة . فأما المنفق فى غير سبيله ، فلا نفقه ما وعده من تضعيف السبعمائة بالواحدة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك ، قال : هذا يضاعف لمن أنفق فى سبيل الله، يعنى السبعمائة، (وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) : يعنى لغير المنفق فى سبيله .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : والله يضاعف لمن يشاء من المنفقين فى سبيله على السبعمائة إلى ألفى ألف ضعف . وهذا قول ذكر عن ابن عباس من وجه لم أجد إسناده . فتركت ذكره .

والذى هو أولى بتأويل قوله (وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ) : والله يضاعف على السبعمائة، إلى مايشاء من التضعيف، لمن يشاء من المنفقين فى سبيله . لأنه لم يجر ذكر الثواب والتضعيف لغير المنفق فى سبيل الله، فيجوز لنا توجيه ما وعد تعالى ذكره فى هذه الآية من التضعيف ، إلى أنه عِدَة منه على العمل على غير النفقة فى سبيل الله .

القول فى تأويل قوله (وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) :

يعنى تعالى ذكره بذلك: والله واسع أن يزيد من يشاء من خلقه المنفقين فى سبيله، على أضعاف السبعمائة التى وعده أن يزيده ، عليم من يستحق منهم الزيادة .

كما حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) قال : واسع أن يزيد من سعته ، عليم عالم بمن يزيده .

وقال آخرون : معنى ذلك : والله واسع لتلك الأضعاف ، عليم بما ينفق الذين ينفقون أموالهم فى طاعة الله .

القول فى تأويل قوله

الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى، لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ،وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢)

يعنى تعالى ذكره بذلك: المعطى ماله المجاهدين فى سبيل الله، معونة لهم على جهاد أعداء الله . يقول تعالى ذكره: الذين يعينون المجاهدين فى سبيل الله، بالإنفاق عليهم، وفى حمولاتهم ، وغير ذلك من مؤنهم ، ثم لم يتبع نفقته التى أنفقها عليهم ، منًّا عليهم بإنفاق ذلك عليهم ، ولا أذى لهم؛ فامتنانه به عليهم ، بأن يظهر لهم أنه قد اصطنع إليهم بفعله وعطائه الذى أعطاهموه تقوية لهم على جهاد عدوهم ، معروفا ، ويبدى ذلك إما بلسان أو فعل . وأما الأذى فهو شكايته إياهم بسبب ما أعطاهم وقواهم من النفقة فى سبيل الله : أنهم لم يقوموا بالواجب عليهم فى الجهاد ، وما أشبه ذلك من القول الذى يؤذى به من أنفق عليه . وإنما شَرَط ذلك فى المنفق فى سبيل الله ، وأوجب الأجر لمن كان غير مانّ ولا مؤذ مَن أنفق عليه فى سبيل الله ، لأن النفقة التى هى فى سبيل الله، مما ابتُغِىَ به وجه الله، وطُلِب به ماعنده، فإذا كان معنى النفقة فى سبيل الله هو ما وصفنا ، فلا وجه لمنّ المنفق على من أنفق عليه ، لأنه لايد له قِبَلَه ، ولا صنيعة يستحق بها عليه إن

لم يكافئه عليها المنّ والأذى، إذ كانت نفقته ما أنفق عليه احتسابا، وابتغاء ثواب الله، وطلب مرضاته، وعلى الله مثوبته دون من أنفق ذلك عليه .

وبنحو المعنى الذى قلنا فى ذلك قال جماعة من أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال: ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة، قوله : (ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى ، لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) علم الله أن أناسا يَمُنُّون بعطيتهم ، فكره ذلك وقدّم فيه ، فقال : (قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ، وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ) .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، قال للآخرين ، يعنى قال : الله للآخرين ، وهم الذين لايخرجون فى جهاد عدوّهم ، الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، ثم لايتبعون ما أنفقوا منّاً ولا أذى ، قال :فشرط عليهم، قال: والخارج لم يشرط عليه قليلا ولا كثيرا ، يعنى بالخارج: الخارج فى الجهاد الذى ذكر الله فى قوله (مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ) . . . الآية ، قال ابن زيد : وكان أبى يقول : إن أُذِن لك أن تُعطىَ من هذا شيئا ، أوتُقَوِّىَ، فقَوَّيت فى سبيل الله ، فظننت أنه يثقل عليه سلامك، فكفّ سلامك عنه . قال ابن زيد : فهو خير من السلام ، قال : وقالت امرأة لأبى: يا أبا أسامة، تدلنى على رجل يخرج فى سبيل الله حقا، فإنهم لايخرجون إلا ليأكلوا الفواكه ، عندى جَعْبة وأسهم فيها ، فقال لها : لابارك الله لكِ فى جَعْبتك ، ولا فى أسهمك ، فقد آذيتيهم[1] قبل أن تعطيهم ، قال : وكان رجل يقول لهم : اخرجوا وكلوا الفواكه .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك قوله (لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى) قال : أن لاينفق الرجل ماله خيرٌ من أن ينفقه ، ثم يتبعه منّاً وأذى .

وأما قوله (لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ) فإنه يعنى للذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله على ما بين ، والهاء والميم فى لهم : عائدة على الذين .

ومعنى قوله (لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ): لهم ثوابهم وجزاؤهم على نفقتهم التى أنفقوها فى سبيل الله ، ثم لايتبعونها منّا ولا أذى .

وقوله: (وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) يقول: وهم مع مالهم من الجزاء والثواب على نفقتهم التى أنفقوها على ماشرطنا ،لاخوف عليهم عند مقدمهم على الله ، وفراقهم الدنيا، ولا فى أهوال القيامة ، وأن ينالهم من مكارهها ، أويصيبهم فيها من عقاب الله ، ولا هم يحزنون على ماخلفوا وراءهم فى الدنيا .

القول فى تأويل قوله

قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ، وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣)

(١) المشهور من اللغات : آذيتهم . والذى فى الرواية : لغة قليلة .

يعنى تعالى ذكره بقوله (قَوْلٌ مَعْرُوفٌ): قول جميل، ودعاء الرجل لأخيه المسلم (وَمَغْفِرَةٌ) يعنى : وستر منه عليه، لما علم من خلَّته وسوء حالته ، خير عند الله من صدقة يتصدقها عليه، يتبعها أذى: يعنى يشتكيه عليها ، ويؤذيه بسببها .

كما حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك (قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى) يقول: أن يمسك ماله: خير من أن ينفق ماله، ثم يتبعه منًّا وأذى .

وأما قوله (غَنِيٌّ حَلِيمٌ) فإنه يعنى : والله غنىّ عما يتصدقون به ، حليم حين لايعجل بالعقوبة على من يمُنّ بصدقته منكم ، ويؤذى فيها من يتصدّق بها عليه .

ورُوِى عن ابن عباس فى ذلك ما حدثنا به المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس: الغنىّ : الذى كمل فى غناه ، والحليم : الذى قد كمل فى حلمه .

القول فى تأويل قوله

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ، فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ، وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ (٢٦٤)

يعنى تعالى ذكره بذلك : يا أيها الذين آمنوا : صدّقوا الله ورسوله ، لاتبطلوا صدقاتكم ، يقول : لاتبطلوا أجور صدقاتكم بالمنّ والأذى ، كما أبطل كفر الذى ينفق ماله رئاء الناس ، وهو مراءاته إياهم بعمله ، وذلك أن ينفق ماله فيما يَرَى الناس فى الظاهر أنه يريد الله تعالى ذكره ، فيحمدونه عليه ، وهو مريد به غير الله ، ولاطالبٌ منه الثواب ، وإنما ينفقه كذلك ظاهرا ، ليحمده الناس عليه ، فيقولوا : هو سخىّ كريم ، وهو رجل صالح . فيحسنوا عليه به الثناء ، وهم لايعلمون ماهو مستبطِن من النية فى إنفاقه ما أنفق ، فلا يدرون ما هو عليه من التكذيب بالله تعالى ذكره واليوم الآخر .

وأما قوله : (وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) : فإن معناه : ولا يصدّق بوحدانية الله ورُبوبيته ، ولا بأنه مبعوث بعد مماته ، فمجازًى على عمله ، فيجعل عمله لوجه الله ، وطلب ثوابه وما عنده فى معاده ، وهذه صفة المنافق . وإنما قلنا : إنه منافق ، لأن المظهر كفره والمعلن شركه ، معلوم أنه لايكون بشىء من أعماله مرائيا ، لأن المرائىَ : هو الذى يرائى الناس بالعمل الذى هو فى الظاهر لله ، وفى الباطن عامله مراده به حمد الناس عليه ، والكافر لايخيل على أحد أمره ، أن أفعاله كلها إنما هى للشيطان ، إذا كان معلنا كفره ، لا لله ، ومن كان كذلك فغير كائن مرائيا بأعماله .

وبنحو ما قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال أبو هانئ الخولاني ، عن عمرو بن حريث ، قال : إن الرجل يغزو ولا يسرق ولا يزني ولا يَغُلّ ، لا يرجع بالكفاف . فقيل له : لم ذاك ؟ قال : فإن الرجل ليخرج ، فإذا أصابه من بلاء الله الذى قد حكم عليه ، سب ولعن إمامه ، ولعن ساعة غزا ، وقال : لأعود لغزوة معه أبدا ، فهذا عليه ، وليس له مثل النفقة فى سبيل الله يتبعها منّ وأذى ، فقد ضرب الله مثلها فى القرآن : (يا أيُّها الَّذين آمَنوا لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُم بالمَنّ والأذَى) ، حتى ختم الآية .

القول فى تأويل قوله تعالى : (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانٍ عَلَيْهِ تُرابٌ فأصابَهُ وابلٌ فتَرَكَهُ صَلْدًا لايَقْدِرُونَ على شىْءٍ مِمَّا كَسَبُوا ، وَاللهُ لا يَهْدِى القَوْمَ الكافِرِينَ) :

يعنى تعالى ذكره بذلك : فمثل هذا الذى ينفق ماله رِئاء الناس ، ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، والهاء فى قوله (فَمَثَلُهُ) عائدة على الذى كمثل صَفْوان ، والصفوان ، واحد وجمع ، فمن جعله جمعا فالواحدة صفوانة ، بمنزلة تمرة وتمر ونخلة ونخل ، ومن جعله واحدا جمعه صفوان وصُفِىّ وصِفِىّ ، كما قال الشاعر :

مَوَاقعُ الطَّيْرِ على الصُّفِىِّ(١)

والصفوان : هو الصفا ، وهى الحجارة المُلْس ، وقوله (عَلَيْهِ تُرابٌ) يعنى على الصفوان تراب ، فأصابه : يعنى أصاب الصفوان ، وابل : وهو المطر الشديد العظيم ، كما قال امرؤ القيس :

ساعَةً ثم انْتَحاها وابلٌ　　ساقِطُ الأكْنافِ واهٍ مُنْهَمِرْ(٢)

يقال منه : وَبَلَت السماء فهى تَبِل وَبْلا ، وقد وَبِلت الأرض ، فهى تُوبَل .

وقوله (فَتَرَكَهُ صَلْدًا) يقول : فترك الوابلُ الصفوان صَلدا ؛ والصلد من الحجارة : الصُّلْب الذى لاشىء عليه من نبات ولا غيره ، وهو من الأرَضِين ما لاينبت فيه شىء ، وكذلك من الرءوس ، كما قال رؤبة :

---

(١) هذا بيت من مشطور الرجز ، نسبه صاحب اللسان للأخيل . وقبله :

كأنّ مَتْنَىَّ من النَّفِىِّ
من طول إشرافى على الطَّوِىّ

والصفى : جمع صفا ، وهو جمع صفاة ، وهى الحجر الصلد الضخم الذى لا ينبت شيئا . والنفى : ما نفاه الرشاء من الماء والطين . والطوى : البئر المبنية بالحجارة . يقول : إن رشاش الرشاء من ماء وطين على متنيه ، يشبه ذرق الطير على الصفا الأملس . وقال الأزهرى : هذا ساق كان أسود الجلدة ، واستقى من بئر ملح ، وكان يبيض نفى الماء على ظهره إذا ترشش ، لأنه كان ملحا (عن هامش سر صناعة الإعراب لابن جنى ، طبعة شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده (١ : ٢٥٢) .

(٢) هذا بيت لامرئ القيس فى وصف المطر (مختار الشعر الجاهلى طبعة الحلبى ص ١١١) وانتحاها : اعتمدها . والوابل : أشد المطر ، وعنه يكون السيل . وساقط الأكناف : ثابت النواحى ، وكنف كل شىء : ناحيته . وقيل ساقط الأكناف : مسترخ ضعيف ، كأنه يسقط ولا يحبسه شىء . وواه : منخرق متشقق بالماء ، يعنى السحاب . والمنهمر : الشديد السكب ، السريع السيل .
يقول : سحت هذه الديمة ساعة ، ثم انتحى هذه الشجراء وابل منهمر ، وهت أعجازه ، وانخرقت أكنافه .

لما رأتني خَلَقَ المُمَوَّهِ بَرَّاقَ أصلادِ الجبينِ الأجْلَهِ[١]

ومن ذلك يقال للقِدر الثخينة البطيئة الغلى: قدر صَلود ، وقد صلَدت تصلُد صُلودا، ومنه قول تأبط شرا:

وَلَسْتُ بِجِلْبِ جِلْبِ لَيْلٍ وَقِرَّةٍ ولا بصَفًا صَلْدٍ عن الخير مَعْزِلِ[٢]

ثم رجع تعالى ذكره إلى ذكر المنافقين الذين ضرب المثل لأعمالهم ، فقال : فكذلك أعمالهم بمنزلة الصفوان الذى كان عليه تراب ، فأصابه الوابل من المطر ، فذهب بما عليه من التراب ، فتركه نقيا لاتراب عليه ولا شيء ؛ يراهم المسلمون فى الظاهر أن لهم أعمالا ، كما يُرى التراب على هذا الصفوان ، بما يراءونهم به ، فإذا كان يوم القيامة وصاروا إلى الله اضمحل ذلك كله ، لأنه لم يكن لله ، كما ذهب الوابل من المطر بما كان على الصفوان من التراب ، فتركه أملس لاشيء عليه . فذلك قوله: لايقدرون، يعنى به الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ، ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، يقول : لايقدِرُون يوم القيامة على ثواب شيء مما كسبوا فى الدنيا ، لأنهم لم يعملوا لمعادهم، ولا لطلب ما عند الله فى الآخرة ، ولكنهم عملوه رِئاء الناس ، وطلب حمدهم ، وإنما حظهم من أعمالهم ما أرادوه وطلبوه بها ، ثم أخبر تعالى ذكره أنه لايهدى القوم الكافرين يقول: لايسددهم لإصابة الحق فى نفقاتهم وغيرها ، فيوفقهم لها، وهم للباطل عليها مؤثرون ، ولكنه تركهم فى ضلالتهم يعمهون ، فقال تعالى ذكره للمؤمنين : لاتكونوا كالمنافقين الذين هذا المثل صفة أعمالهم ، فتبطلوا أجور صدقاتكم بمنكم على من تصدقتم بها عليه، وأذاكم لهم ، كما بطل أجر نفقة المنافق الذى أنفق ماله رِئاء الناس . وهو غير مؤمن بالله واليوم الآخر عند الله .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال: ثنا سعيد ، عن قتادة قوله: (يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا لاتُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بالمَنِّ والأذَى) ، فقرأ حتى بلغ (عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا) ، فهذا مثل ضربه الله لأعمال الكفار يوم القيامة، يقول : لايقدرون على شيء مما كسبوا يومئذ ، كما ترك هذا المطر الصفاة الحجر ليس عليه شيء ، أنقى ما كان .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (لاتُبْطِلُوا

---

(١) هذان بيتان من مشطور الرجز فى ديوان رؤبة بن العجاج (طبعة ليبسك ص ١٦٥) وهما الثالث والرابع فى الأرجوزة ، يصف بها نفسه . وفى (موه) فى اللسان : قال ابن برى : يقال : وجه مموه ، أى مزين بماء الشباب ، قال رؤبة : (وأنشد البيت الأول) . وفيه فى (جله) : والجله : أشد من الجلح ، وهو ذهاب الشعر من مقدم الجبين ، وقد جله يجله جلها ، وهو أجله ، قال رؤبة ، وأنشد البيت مع بيتين آخرين ، ثم قال : والأصلاد : جمع صلد ، وهو الصلب ، عن يعقوب . وإنما مثل جبينه بالحجر الصلد ، لأنه ليس فيه شعر ، كما أنه ليس فى الصفا الصلد نبات ولا شجر .

(٢) البيت أورده اللسان فى (جلب) ونسبه إلى تأبط شرا . قال : الجلب والجلب (بكسر الجيم وضمها) : السحاب الذى لاماء فيه . وقيل : سحاب رقيق لاماء فيه . وقيل : هو السحاب المعترض تراه كأنه جبل . قال تأبط شرا . . . (البيت) . يقول : لست برجل لانفع فيه ، ومع ذلك فيه أذى ، كالسحاب الذى فيه ريح وقر ولا مطر فيه . والجمع : أجلاب . والصفا : العريض من الحجارة الأملس . والصلد : الأملس اليابس . ومعزل : من صفة الجلب . يريد : لست بمنأى عن الخير .

صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ) إلى قوله (وَاللهُ لاَيَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) هذا مثل ضربه الله لأعمال الكافرين يوم القيامة ، يقول : لايقدرون على شيء مما كسبوا يومئذ ، كما ترك هذا المطر الصفا نقيا لاشيء عليه .

حدثني موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدي (لاتُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى) إلى قوله (عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا) أما الصفوان الذى عليه تراب فأصابه المطر ، فذهب ترابه ، فتركه صلدا ، فكذا هذا الذى ينفق ماله رياء الناس ، ذهب الرياء بنفقته ، كما ذهب هذا المطر بتراب هذا الصفا ، فتركه نقيا ، فكذلك تركه الرياء لا يقدر على شيء مما قدم ، فقال للمؤمنين (لاتُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى) ، فتبطل كما بطلت صدقة الرياء .

حدثني المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك ، قال : ألاَّ ينفق الرجل ماله ، خير من أن ينفقه ، ثم يتبعه منًّا وأذى ، فضرب الله مثله كمثل كافر أنفق ماله ، لايؤمن بالله ولاباليوم الآخر ، فضرب الله مثلهما جميعا : (كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ ، فَأَصَابَهُ وَابِلٌ ، فَتَرَكَهُ صَلْدًا) فكذلك من أنفق ماله ، ثم أتبعه منًّا وأذى .

حدثني محمد بن سعد ، قال : ثني أبي ، قال : ثني عمي ، قال : ثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى) إلى (كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ ، فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا) ليس عليه شيء ، وكذلك المنافق يوم القيامة ، لايقدر على شيء مما كسب .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، قال : قال ابن جريج فى قوله (لاتُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى) قال : يمنّ بصدقته ، ويؤذيه فيها حتى يبطلها .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله : (ثُمَّ لايُتْبِعُونَ ما أنْفَقُوا مَنًّا وَلا أذًى) ، فقرأ (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى) حتى بلغ (لايَقْدِرُونَ على شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا) ثم قال : أترى الوابل يدع من التراب على الصفوان شيئا؟ فكذلك مَنُّكَ وأذاك لم يدع مما أنفقت شيئا ، وقرأ قوله (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاتُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى) ، وقرأ (وَما أنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنْفُسِكُمْ) فقرأ حتى بلغ (وَأنْتُمْ لاتُظْلَمُونَ) .

القول فى تأويل قوله عزّ وجل (صَفْوَانٍ) قد بينا معنى الصفوان بما فيه الكفاية ، غير أنا أردنا ذكر من قال مثل قولنا فى ذلك من أهل التأويل .

حدثني محمد بن سعد ، قال : ثني أبي ، قال : ثني عمي ، قال : ثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس قوله (كَمَثَلِ صَفْوَانٍ) : كمثل الصفاة .

حدثني المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك (كَمَثَلِ صَفْوَانٍ) والصفوان : الصفا .

حدثني المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، مثله .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ : أما صفوان ، فهو الحَجر الذى يسمى الصفاة .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، مثله .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قوله (صفوان) : يعنى الحجر .

القول فى تأويل قوله عزّ وجلّ (فَأَصَابَهُ وَابِلٌ) :

قدمضى البيان عنه ، وهذا ذكر من قال قولنا فيه :

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، أما وابل : فمطر شديد .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك (فَأَصَابَهُ وَابِلٌ) ، والوابل : المطر الشديد .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، مثله .

حُدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، مثله .

القول فى تأويل قوله عزّ وجلّ (فَتَرَكَهُ صَلْدًا) :

ذكر من قال نحو ما قلنا فى ذلك :

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (فَتَرَكَهُ صَلْدًا) : يقول نقيا .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس (فَتَرَكَهُ صَلْدًا) قال : تركها نقية ، ليس عليها شىء .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، قال : قال ابن جريج : قال ابن عباس قوله (فَتَرَكَهُ صَلْدًا) قال : ليس عليه شىء .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك (صَلْدًا) : فتركه جرْدا .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة (فَتَرَكَهُ صَلْدًا) : ليس عليه شىء .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس (فَتَرَكَهُ صَلْدًا) : ليس عليه شىء .

القول فى تأويل قوله عزّ وجل

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ، فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ، وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥)

يعنى بذلك جل ثناؤه: ومثل الذين ينفقون أموالهم فيصدّقون بها، ويحملون عليها فى سبيل الله، ويقوّون بها أهل الحاجة من الغزاة والمجاهدين فى سبيل الله، وفى غير ذلك من طاعات الله، طلب مرضاته وتثبيتا، يعنى بذلك: وتثبيتا من أنفسهم، يعنى: لهم على إنفاق ذلك فى طاعة الله، وتحقيقا من قول القائل: ثبّتّ فلانا فى هذا الأمر: إذا صححت عزمه وحققته، وقوّيت فيه رأيه، أثبته تثبيتا، كما قال ابن رَوَاحة:

فَثَبَّتَ اللهُ ما آتاكَ مِنْ حَسَنٍ تَثْبِيتَ مُوسَى وَنَصْرًا كالَّذى نُصِرُوا[1]

وإنما عنى الله جلّ وعزّ بذلك، أن أنفسهم كانت موقنة مصدّقة بوعد الله إياها فيما أنفقت فى طاعته بغير منّ ولا أذى، فثبّتهم فى إنفاق أموالهم ابتغاء مرضاة الله، وصحح عزمهم، وآراهم يقينا منها بذلك، وتصديقا بوعد الله إياها ما وعدها. ولذلك قال من قال من أهل التأويل فى قوله (وَتَثْبِيتًا): وتصديقا، ومن قال منهم ويقينا، لأن تثبيت أنفس المنفقين أموالهم ابتغاء مرضاة الله إياهم، إنما كان عن يقين منها، وتصديق بوعد الله.

ذكر من قال ذلك من أهل التأويل:

حدثنا ابن بشار، قال: ثنا يحيى، قال: ثنا سفيان، عن أبى موسى، عن الشعبىّ (وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ) قال: تصديقا ويقينا.

حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازى، قال: ثنا أبو أحمد، قال: ثنا سفيان، عن أبى موسى، عن الشعبىّ (وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ) قال: وتصديقا من أنفسهم: ثبات ونصرة.

حدثنا الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر، عن قتادة فى قوله (وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ) قال: يقينا من أنفسهم، قال: التثبيت اليقين.

حدثنى يونس، قال: ثنا علىّ بن معبد، عن أبى معاوية، عن إسماعيل، عن أبى صالح فى قوله (وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ) يقول: يقينا من عند أنفسهم.

وقال آخرون: معنى قوله (وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ): أنهم كانوا يتثبتون فى الموضع الذى يضعون فيه صدقاتهم.

ذكر من قال ذلك:

حدثنا محمد بن بشار، قال: ثنا مؤمل، قال: ثنا سفيان، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد (وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ) قال: يتثبتون أين يضعون أموالهم.

حدثنى المثنى، قال: ثنا سويد بن نصر، قال: ثنا ابن المبارك، عن عثمان بن الأسود، عن مجاهد (وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ) فقلت له: ما ذلك التثبيت؟ قال: يتثبتون أين يضعون أموالهم.

حدثنا ابن وكيع، قال: ثنا أبى، عن عثمان بن الأسود، عن مجاهد: (وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ) قال: كانوا يتثبتون أين يضعونها.

(١) البيت أحد ثلاثة لعبد الله بن رواحة، أنشدها ابن هشام فى السيرة عن بعض أهل العلم (٤ : ١٦ طبعة الحلبى بالقاهرة). ورواية البيت فيها: «فى المرسلين» فى مكان «تثبيت موسى». يدعو لرسول الله صلى الله عليه وسلم دعوة رجل مؤمن.

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبي ، عن عليّ بن عليّ بن رفاعة ، عن الحسن فى قوله (وتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ) قال : كانوا يتثبتون أين يضعون أموالهم ، يعنى زكاتهم .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا سويد ، قال : ثنا ابن المبارك ، عن عليّ بن عليّ ، قال : سمعت الحسن قرأ (ابْتِغاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ) قال : كان الرجل إذا همّ بصدقة تَثَبَّتَ ، فإن كان لله مضى ، وإن خالطه شك أمسك .

وهذا التأويل الذى ذكرناه عن مجاهد والحسن : تأويل بعيد المعنى مما يدلّ عليه ظاهر التلاوة ، وذلك أنهم تأوّلوا قوله (وتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ) بمعنى : وتثبتا ، فزعموا أن ذلك إنما قيل كذلك ، لأن القوم كانوا يتثبتون أين يضعون أموالهم . ولو كان التأويل كذلك ، لكان : وتثبتا من أنفسهم ، لأن المصدر من الكلام إن كان على تفعلت : التفعل ، فيقال : تكرمت تكرما ، وتكلمت تكلما ، وكما أنْ قال جل ثناؤه : (أَوْ يَأْخُذَهُمْ على تَخَوُّفٍ) من قول القائل : تخوّف فلان هذا الأمر تخوّفا ، فكذلك قوله (وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ) لو كان من تثبت القوم فى وضع صدقاتهم مواضعها ، لكان الكلام ، وتثبتا من أنفسهم ، لا : وتثبيتا ، ولكن معنى ذلك ما قلنا من أنه وتثبيت من أنفس القوم إياهم بصحة العزم ، واليقين بوعد الله تعالى ذكره .

فإن قال قائل : وما تنكر أن يكون ذلك نظير قول الله عزّ وجلّ (وتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً) ولم يقل : تبتلا ؟ قيل : إن هذا مخالف لذلك ، وذلك أن هذا إنما جاز أن يقال فيه تبتيلا ، لظهور وتبتل إليه ، فكان فى ظهوره دلالة على متروك من الكلام الذى منه قيل : تبتيلا ، وذلك أن المتروك هو تبتل ، فيبتلك الله إليه تبتيلا ، وقد تفعل العرب مثل ذلك أحيانا ، تخرج المصادر على غير ألفاظ الأفعال التى تقدمها ، إذا كانت الأفعال المتقدمة تدل على ما أخرجت منه ، كما قال جل وعزّ (وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتًا) ، وقال : (وأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا) والنبات : مصدر نبت ، وإنما جاز ذلك لمجىء أنبت قبله ، فدلّ على المتروك الذى منه قيل نباتاً . والمعنى : والله أنبتكم ، فنبتم من الأرض نباتا ، وليس قوله (وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ) كلاما يجوز أن يكون متوهما به أنه معدول عن بنائه . ومعنى الكلام : ويتثبتون فى وضع الصدقات مواضعها ، فيصرف إلى المعانى التى صرف إليها قوله (وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً) ، وما أشبه ذلك من المصادر المعدولة عن الأفعال التى هى ظاهرة قبلها .

وقال آخرون : معنى قوله (وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ) : واحتسابا من أنفسهم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ) يقول : احتسابا من أنفسهم ، وهذا القول أيضا بعيد المعنى من معنى التثبيت ، لأن التثبيت لايعرف فى شىء من الكلام بمعنى الاحتساب ، إلا أن يكون أراد مفسره كذلك ، أن أنفس المنفقين كانت محتسبة فى تثبيتها أصحابها ، فإن كان ذلك كان عنده معنى الكلام ، فليس الاحتساب بمعنى حينئذ للتثبيت ، فيترجم عنه به .

القول فى تأويل قوله تعالى (كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ، فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ)

يعنى بذلك جل وعزّ : ومثل الذين ينفقون أموالهم ، فيتصدّقون بها ، ويسبلونها فى طاعة الله بغير منّ على من تصدّقوا بها عليه، ولا أذى منهم لهم بها ، ابتغاء رضوان الله ، وتصديقا من أنفسهم بوعده ، كمثل جنة ، والجنة : البستان . وقد دلنا فيما مضى على أن الجنة : البستان بما فيه الكفاية من إعادته . بربوة ، والربوة من الأرض: ما نشز منها، فارتفع عن السيل، وإنما وصفها بذلك جل ثناؤه ، لأن ما ارتفع عن المسايل والأودية أغلظ ، وجنان ماغلظ من الأرض أحسن وأزكى ثمرا وغرسا وزرعا مما رقّ منها ، ولذلك قال أعشى بنى ثعلبة فى وصف روضة :

مَارَوْضَةٌ من رِياضِ الحَزْنِ مُعْشِبَةٌ خَضْرَاءُ جادَ عَلَيْها مُسْبِلٌ هَطِلُ [١]

فوصفها بأنها من رياض الحزن ، لأن الحزون : غرسها ونباتها أحسن وأقوى من غروس الأودية والتلاع وزروعها . وفى الربوة لغات ثلاث ، وقد قرأ بكل لغة منهن جماعة من القراء ، وهى رُبوة بضم الراء ، وبها قرأت عامة قراء أهل المدينة والحجاز والعراق ، ورَبوة بفتح الراء ، وبها قرأ بعض أهل الشام ، وبعض أهل الكوفة ، ويقال : إنها لغة تميم ، ورِبوة بكسر الراء ، وبها قرأ فيما ذكر ابن عباس . وغير جائز عندى أن يقرأ ذلك إلا بإحدى اللغتين : إما بفتح الراء ، وإما بضمها ، لأن قراءة الناس فى أمصارهم بإحداهما ، وأنا لقراءتها بضمها أشدّ إيثارا منى بفتحها ، لأنها أشهر اللغتين فى العرب ، فأما الكسر فإن فى رفض القراءة به دلالة واضحة على أن القراءة به غير جائزة ، وإنما سميت الربوة لأنها ربت فغلظت وعلت ، من قول القائل: ربا هذا الشىء يربو : إذا انتفخ فعظم .

وبنحو ما قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله (كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ) قال : الربوة : المكان الظاهر المستوى .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، قال : قال مجاهد : هى الأرض المستوية المرتفعة .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد، قال : ثنا سعيد، عن قتادة (كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ) يقول : بنشز من الأرض .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك (كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ) والربوة : المكان المرتفع الذى لاتجرى فيه الأنهار ، والذى فيه الجنان .

(١) البيت لأبى بصير الأعشى (ديوانه ص ٥٧ طبعة القاهرة) . والحزن : الأرض الغليظة ، ونباتها يكون أعظم من نبات القيعان التى يقر الماء فيها . والمراد به فى كلام الأعشى : موضع معروف كانت ترعى فيه إبل الملوك ، وهو من أرض بنى أسد . ومسبل : ساكب للماء . وهطل : هطال غزير الماء . وخبر ما النافية (تميمية أو حجازية) يأتى فى قوله بعد : « يوما بأطيب منها نشر رائحة » . يقول : ليست ريح الروضة التى نعتها فأحسن نعتها ، بأطيب من هذه المرأة نشرا .

حدثني موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى ، قوله (بِرَبْوَةٍ) برابية من الأرض .

حُدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ) والربوة : النَّشْز من الأرض .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، قال : قال ابن جريج ، قال ابن عباس : (كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ) قال : المكان المرتفع الذى لاتجرى فيه الأنهار .

وكان آخرون يقولون : هى المستوية .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن الحسن فى قوله (كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ) قال : هى الأرض المستوية التى تعلو فوق المياه .

وأما قوله (أَصَابَهَا وَابِلٌ) فإنه يعنى جل ثناؤه : أصاب الجنة التى بالربوة من الأرض وابل من المطر ، وهو الشديد العظيم القَطْر منه ، وقوله (فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ) ، فإنه يعنى الجنة ، أنها أضعف ثمرها ضعفين حين أصابها الوابل من المطر ، والأُكُل :[١] هو الشيء المأكول ، وهو مثل الرُّعُب والهُدُء ، وما أشبه ذلك من الأسماء التى تأتى على فُعُل ؛ وأما الأَكْل بفتح الألف وتسكين الكاف ، فهو فِعْل الآكل ، يقال منه : أكلت أكلا ، وأَكلت أَكلة واحدة ، كما قال الشاعر :

وما أَكْلَةٌ أَكَلْتُها بِغَنِيمَةٍ   ولا جَوْعَةٌ إنْ جُعْتُها بغَرَامِ[٢]

ففتح الألف لأنها بمعنى الفعل ، ويدلك على أن ذلك كذلك قوله : ولا جَوعة ، وإن ضمت الألف من الأُكلة كان معناه : الطعام الذى أكلته ، فيكون معنى ذلك حينئذ : ما طعام أكلته بغنيمة .

وأما قوله (فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ) فإن الطل : هو الندى واللين من المطر .

كما حدثنا عباس بن محمد ، قال : ثنا حجاج ، قال : قال ابن جريج : (فَطَلٌّ) ندى ، عن عطاء الخراسانى ، عن ابن عباس .

حدثني موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى ، أما الطلّ : فالندى .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ) أى طش .

حدثني المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك (فَطَلٌّ) قال : الطل : الرذاذ من المطر ، يعنى اللَّين منه .

حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (فَطَلٌّ) أى طش .

وإنما يعنى تعالى ذكره بهذا المثل : كما ضَعَّفت ثمرة هذه الجنة التى وصفت صفتها حين جاد الوابل ، فإن أخطأ هذا الوابل فالطلّ ، كذلك يضعف الله صدقة المتصدّق والمنفق ماله ابتغاء مرضاته وتثبيتا من نفسه من

(١) الأُكل : بضم الهمزة وسكون الكاف وبضمها .

(٢) الأكلة والجوعة : المرة من الأكل والجوع . والغرام : العذاب اللازم ، والشر الدائم . يقول : ليست أكلة آكلها مغنما أغتنمه ، وليست جوعة أجوعها شرا لامخلص منه . يريد أنه قليل الحفل بالتافه من الأمور . ولم نقف على قائله . ويروى : إن نلتها ، فى موضع : أكلتها ، وهى أحسن ، ليكون نظير قوله : إن جعتها .

غير منّ ولا أذى ، قلّت نفقته أو كثرت ، لاتخيب ولا تخلف نفقته ، كما تضعف الجنة التى وصف جل ثناؤه صفتها ، قلّ ما أصابها من المطر أو كثر ، لايخلف خيرها بحال من الأحوال .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال جماعة أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، قوله : (فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ، فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ) يقول : كما أُضعفتْ ثمرةُ تلك الجنة ، فكذلك تضاعف ثمرة هذا المنفق ضعفين .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ، فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ) : هذا مثَل ضربه الله لعمل المؤمن ، يقول : ليس لخيره خُلْف ، كما ليس لخير هذه الجنة خلف على أىّ حال ، إما وابل ، وإما طلّ .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك ، قال : هذا مثَل من أنفق ماله ابتغاء مرضاة الله .

حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قوله (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ) . . . الآية ، قال : هذا مثَل ضربه الله لعمل المؤمن .

فإن قال قائل : وكيف قيل : (فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ) وهذا خبر عن أمر قد مضى ؟ قيل : يراد فيه : كان ، ومعنى الكلام : فآتت أكلها ضعفين ، فإن لم يكن الوابل أصابها ، أصابها طلّ ، وذلك فى الكلام نحو قول القائل : حبست فرسين ، فإن لم أحبس اثنين فواحدا بقيمته ، بمعنى : إلا أكن ، لابد من إضمار كان ، لأنه خبر ؛ ومنه قول الشاعر :

إِذَا مَا انْتَسَبْنَا لَمْ تَلِدْنِى لَئِيمَةٌ　　وَلَمْ تَجِدِى مِنْ أَنْ تُقِرِّى بِهَا بُدَّا[1]

القول فى تأويل قوله (وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

يعنى بذلك : والله بما تعملون أيها الناس فى نفقاتكم التى تنفقونها ، بصير ، لايخفى عليه منها ولا من أعمالكم فيها وفى غيرها شىء ، يعلم مَن المنفق منكم بالمنّ والأذى ، والمنفق ابتغاء مرضاة الله ، وتثبيتا من نفسه ، فيحصى عليكم حتى يجازى جميعكم جزاءه على عمله ، إن خيرا فخيرا ، وإن شرّا فشرّا .

وإنما يعنى بهذا القول جلّ ذكره ، التحذير من عقابه فى النفقات التى ينفقها عباده ، وغير ذلك من الأعمال أن يأتى أحد من خلقه ما قد تقدم فيه بالنهى عنه ، أو يفرّط فيما قد أمر به ، لأن ذلك بمرأى من الله ومسمع ، يعلمه ويحصيه عليهم ، وهو لخلقه بالمرصاد .

(١) البيت من شواهد الفراء فى تفسيره (معانى القرآن) ص ٦١ طبعة دار الكتب المصرية . قال محققه فى هامشه : قائله زائد بن صعصعة الفقعسى ، يعرض بزوجته ، وكانت أمها سرية . وقبله :

رَمَتْنِى عَنْ قَوْسِ العَدُوِّ وباعَدَتْ　　عُبَيْدَةُ زَادَ اللهُ ما بَيْنَنَا بُعْدَا

وقوله : بها : أى بهذه الخصلة . ويروى « به » : أى بما ذكرت لك .

٣ — ١٠

القول فى تأويل قوله

أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦)

يعنى تعالى ذكره (يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب ، فأصابه وابل فتركه صلدا ، لا يقدرون على شىء مما كسبوا – أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار ، له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر) . . . الآية .

ومعنى قوله (أيود أحدكم) : أيحب أحدكم أن تكون له جنة : يعنى بستانا من نخيل وأعناب ، تجرى من تحتها الأنهار : يعنى من تحت الجنة ، وله فيها من كل الثمرات . والهاء فى قوله (له) عائدة على أحد ، والهاء والألف فى (فيها) على الجنة ، وأصابه : يعنى وأصاب أحدكم الكبر ، وله ذرية ضعفاء ، وإنما جعل جل ثناؤه البستان من النخيل والأعناب ، الذى قال جل ثناؤه لعباده المؤمنين : أيود أحدكم أن تكون له ، مثلا لنفقة المنافق التى ينفقها رياء الناس ، لا ابتغاء مرضاة الله ، فالناس بما يظهر لهم من صدقته ، وإعطائه لما يعطى ، وعمله الظاهر ، يثنون عليه ويحمدونه بعمله ذلك أيام حياته ، فى حسنه كحسن البستان ، وهى الجنة التى ضربها الله عز وجل لعمله مثلا من نخيل وأعناب ، له فيها من كل الثمرات ، لأن عمله ذلك الذى يعمله فى الظاهر فى الدنيا ، له فيه من كل خير من عاجل الدنيا ، يدفع به عن نفسه ودمه وماله وذريته ، ويكتسب به المحمدة وحسن الثناء عند الناس ، ويأخذ به سهمه من المغنم ، مع أشياء كثيرة يكثر إحصاؤها ، فله فى ذلك من كل خير فى الدنيا ، كما وصف جل ثناؤه الجنة التى وصف مثلا بعمله ، بأن فيها من كل الثمرات ، ثم قال جل ثناؤه : (وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء) : يعنى أن صاحب الجنة أصابه الكبر وله ذرية ضعفاء صغار أطفال ، فأصابها ، يعنى فأصاب الجنة إعصار فيه نار ، فاحترقت ، يعنى بذلك أن جنته تلك أحرقتها الريح التى فيها النار فى حال حاجته إليها ، وضرورته إلى ثمرتها بكبره وضعفه عن عمارتها ، وفى حال صغر ولده وعجزه عن إحيائها والقيام عليها ، فبقى لا شىء له أحوج ما كان إلى جنته وثمارها بالآفة التى أصابتها من الإعصار الذى فيه النار . يقول : فكذلك المنفق ماله رياء الناس ، أطفأ الله نوره ، وأذهب بهاء عمله ، وأحبط أجره حتى لقيه ، وعاد إليه أحوج ما كان إلى عمله ، حين لا مستعتب له ، ولا إقالة من ذنوبه ولا توبة ، واضمحل عمله كما احترقت الجنة التى وصف جل ثناؤه صفتها ، عند كبر صاحبها وطفولة ذريته ، أحوج ما كان إليها ، فبطلت منافعها عنه .

وهذا المثل الذى ضربه الله للمنفقين أموالهم رياء الناس فى هذه الآية ، نظير المثل الآخر الذى ضربه لهم بقوله : (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ ، فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا) .

وقد تنازع أهل التأويل فى تأويل هذه الآية ، إلا أن معانى قولهم فى ذلك وإن اختلفت تصاريفهم فيها ، عائدة إلى المعنى الذى قلنا فى ذلك ، وأحسنهم إبانة لمعناها ، وأقربهم إلى الصواب قولاً فيها السدّىّ .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وأعناب تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأنهارُ ، لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، وأَصَابَهُ الكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ ، فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ) : هذا مثل آخر لنفقة الرياء ، أنه ينفق ماله يرائى الناس به ، فيذهب ماله منه وهو يرائى ، فلا يأجره الله فيه ، فإذا كان يوم القيامة واحتاج إلى نفقته ، وجدها قد أحرقها الرياء ، فذهبت كما أنفق هذا الرجل على جنته ، حتى إذا بلغت وكثر عياله ، واحتاج إلى جنته ، جاءت ريح فيها سَموم ، فأحرقت جنته ، فلم يجد منها شيئا ، فكذلك المنفق رياء .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله عزّ وجل : (أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وأَعْنَابٍ) كمثل المفرّط فى طاعة الله حتى يموت ، قال يقول : أيودّ أحدكم أن يكون له دنيا لايعمل فيها بطاعة الله ، كمثل هذا الذى له جنات تجرى من تحتها الأنهار ، له فيها من كل الثمرات ، وأصابه الكِبَر ، وله ذرية ضعفاء ، فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت ، فمثله بعد موته ، كمثل هذا حين أحرقت جنته وهو كبير ، لايغنى عنها شيئا ، وولده صغار ، لايغنون عنها شيئا ، وكذلك المفرّط بعد الموت ، كل شىء عليه حسرة .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن عبد الملك ، عن عطاء ، قال : سأل عمر الناس عن هذه الآية ، فما وجد أحدا يشفيه ، حتى قال ابن عباس وهو خلفه : يا أمير المؤمنين ، إنى أجد فى نفسى منها شيئا ، قال : فتلفتَ إليه ، فقال : تحوّل ههنا ، لم تحقّر نفسك ؟ قال : هذا مثل ضربه الله عزّ وجلّ ، فقال : أيودّ أحدكم أن يعمل عمره بعمل أهل الخير وأهل السعادة ، حتى إذا كان أحوج مايكون إلى أن يختمه بخير ، حين فنى عمره ، واقترب أجله ، ختم ذلك بعمل من عمل أهل الشقاء ، فأفسده كله ، فحرّقه أحوج ما كان إليه .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن محمد بن سليم ، عن ابن أبى مليكة : أن عمر تلا هذه الآية : (أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وأَعْنَابٍ) قال : هذا مثل ضُرب للإنسان يعمل عملا صالحا ، حتى إذا كان عنده آخر عمره أحوج ما يكون إليه ، عمل عمل السوء .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا سويد ، قال : أخبرنا ابن المبارك ، عن ابن جريج ، قال : سمعت أبا بكر ابن أبى مليكة يخبر ، عن عبيد بن عمير : أنه سمعه يقول : سأل عمر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : فيم ترون أنزلت (أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وأَعْنَابٍ) ؟ فقالوا : الله

أعلم ، فغضب عمر ، فقال : قولوا : نعلم أو لانعلم ، فقال ابن عباس : فى نفسى منها شىء يا أمير المؤمنين ، فقال عمر : قل يا بن أخى ولا تحقر نفسك ، قال ابن عباس : ضربت مثلا لعمل ، قال عمر : أىّ عمل؟ قال لعمل ، فقال عمر: رجل غنى بعمل الحسنات ، ثم بعث الله له الشيطان ، فعمل بالمعاصى حتى أغرق أعماله كلها ، قال : وسمعت عبد الله بن أبى مليكة يحدّث نحو هذا عن ابن عباس، سمعه منه .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : سمعت أبا بكر بن أبى مليكة يخبر ، أنه سمع عبيد بن عمير ، قال ابن جريج : وسمعت عبد الله بن أبى مليكة ، قال : سمعت ابن عباس ، قالا جميعا : إن عمر بن الخطاب سأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكر نحوه ، إلا أنه قال عمر : للرجل يعمل بالحسنات ، ثم يبعث له الشيطان ، فيعمل بالمعاصى .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : سألت عطاء عنها . ثم قال ابن جريج : وأخبرنى عبد الله بن كثير ، عن مجاهد قالا : ضُربت مثلا للأعمال .

قال ابن جريج ، وقال ابن عباس: ضربت مثلا للعمل، يبدأ فيعمل عملا صالحا، فيكون مثلا للجنة التى من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار ، له فيها من كل الثمرات ، ثم يسىء فى آخر عمره، فيتمادى على الإساءة حتى يموت على ذلك ، فيكون الإعصار الذى فيه نار التى أحرقت الجنة ، مثلا لإساءته التى مات وهو عليها ؛ قال ابن عباس : الجنة عيشه وعيش ولده فاحترقت ، فلم يستطع أن يدفع عن جنته من أجل كبره ، ولم يستطع ذرّيته أن يدفعوا عن جنتهم من أجل صغرهم ، حتى احترقت ، يقول: هذا مَثَله تلقاه وهو أفقر ما كان إلىّ ، فلا يجد له عندى شيئا ، ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه من عذاب الله شيئا ، ولا يستطيع من كِبَره وصغر أولاده أن يعملوا جنة ، كذلك لاتوبة إذا انقطع العمل حين مات.

قال ابن جريج عن مجاهد : سمعت ابن عباس قال : هو مثل المفرّط فى طاعة الله حتى يموت .

قال ابن جريج وقال مجاهد : أيودّ أحدكم أن تكون له دنيا لايعمل فيها بطاعة الله ، كمثل هذا الذى له جنة ، فمثله بعد موته كمثل هذا حين أحرقت جنته وهو كبير ، لايغنى عنها شيئا، وأولاده صغار، ولا يغنون عنه شيئا ، وكذلك المفرط بعد الموت كل شىء عليه حسرة .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قوله (أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وأَعْنَابٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنهارُ) . . . الآية . يقول: أصابها ريح فيها سموم شديدة، (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) . فهذا مثل ، فاعقلوا عن الله جلّ وعزّ أمثاله، فإنه قال : (وَتِلْكَ الأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَمايَعْقِلُها إلاَّ العالِمُونَ)هذا رجل كبرت سنه، ودقّ عظمه، وكثر عياله ، ثم احترقت جنته على بقية ذلك كأحوج ما يكون إليه ، يقول : أيحبّ أحدكم أن يضلّ عنه عمله يوم القيامة كأحوج ما يكون إليه .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ) إلى قوله (فاحْتَرَقَتْ) يقول : فذهبت جنته كأحوج ما كان إليها

حين كبرت سنه، وضعف عن الكسب، وله ذرية ضعفاء لاينفعونه؛ قال: وكان الحسن يقول: فاحترقت: فذهبت أحوج ما كان إليها، فذلك قوله: أيود أحدكم أن يذهب عمله أحوج ما كان إليه.

حدثنى محمد بن سعد، قال: ثنى أبى، قال: ثنى عمى، قال: ثنى أبى، عن أبيه، عن ابن عباس: ضرب الله مثلا حسنا، وكل أمثاله حسن تبارك وتعالى، وقال: قال أيوب (أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ) إلى قوله (فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ) يقول: صنعه فى شبيبته (فَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ)عند آخر عمره، فجاءه إعصار فيه نار، فأحرق بستانه، فلم يكن عنده قوة أن يغرس مثله، ولم يكن عند نسله خير يعودون به عليه، وكذلك الكافر يوم القيامة، إذا رُدَّ إلى الله تعالى ليس له خير، فيستعتب، كما ليس له قوة فيغرس مثل بستانه، ولا يجد خيرا قدم لنفسه يعود عليه، كما لم يغن عن هذا ولده، وحُرِم أجره عند أفقر ما كان إليه، كما حُرِم هذا جنته عند أفقر ما كان إليها عند كبره وضعف ذريته، وهو مثل ضربه الله للمؤمن والكافر فيما أوتيا فى الدنيا، كيف نُجِّى المؤمن فى الآخرة، وذُخر له من الكرامة والنعيم، وخُزِن عنه المال فى الدنيا، وبُسط للكافر فى الدنيا من المال ما هو منقطع، وخُزِن له من الشر ما ليس بمفارقه أبدا، ويَخْلُد فيها مهانا، من أجل أنه فَخَر على صاحبه، ووثق بما عنده، ولم يستيقن أنه ملاق ربه.

حدثت عن عمار، قال: ثنا ابن أبى جعفر، عن أبيه، عن الربيع: (أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ) . . . الآية، قال: هذا مثل ضربه الله (أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ... فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ) والرجل قد كبر سنه وضعف، وله أولاد صغار، وابتلاهم الله فى جنتهم، فبعث الله عليها إعصارا فيه نار فاحترقت، فلم يستطع الرجل أن يدفع عن جنته من الكبر، ولا ولده لصغرهم، فذهبت جنته أحوج ما كان إليها، يقول: أيحب أحدكم أن يعيش فى الضلالة والمعاصى حتى يأتيه الموت، فيجىء يوم القيامة قد ضلَّ عنه عمله أحوج ما كان إليه، فيقول: ابنَ آدم، أتيتنى أحوج ما كنت قطُّ إلى خير، فأين ما قدَّمت لنفسك؟

حدثنى يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، وقرأ قول الله عزَّ وجلَّ (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى) ثم ضرب ذلك مثلا، فقال (أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ) حتى بلغ (فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ) قال: جرت أنهارها وثمارها، وله ذرية ضعفاء، فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت، أيودّ أحدكم هذا؟ فما يحمل أحدكم أن يخرج من صدقته ونفقته، حتى إذا كان له عندى جنة، وجرت أنهارها وثمارها، وكانت لولده وولد ولده، أصابها ريح إعصار فحرقها.

حدثنى المثنى، قال: ثنا إسحاق، قال: ثنا زهير، عن جويبر، عن الضحاك فى قوله (أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنهارُ) رجل غرس بستانا فيه من كلِّ الثمرات، فأصابه الكبر، وله ذرية ضعفاء، فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت، فلا يستطيع

أن يدفع عن بستانه من كبره، ولم يستطع ذريته أن يدفعوا عن بستانه، فذهبت معيشته ومعيشة ذريته، فهذا مثل ضربه الله للكافر، يقول: يلقانى يوم القيامة وهو أحوج ما يكون إلى خير يصيبه، فلا يجد له عندى خيرا، ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه من عذاب الله شيئا.

وإنما دللنا أن الذى هو أولى بتأويل ذلك ما ذكرناه: لأن الله جل ثناؤه تقدم إلى عباده المؤمنين بالنهى عن المنّ والأذى فى صدقاتهم، ثم ضرب مثلا لمن منّ وآذى من تصدّق عليه بصدقة، فمثّله بالمرائى من المنافقين المنفقين أموالهم رياء الناس. وكانت قصة هذه الآية وما قبلها من المثل نظيرة ماضرب لهم من المثل قبلها، فكان إلحاقها بنظيرتها أولى من حمل تأويلها على أنه مثل مالم يجر له ذكر قبلها ولا معها.

فإن قال لنا قائل: وكيف قيل: وأصابه الكبر، وهوفعل ماض، فعطف به على قوله (أيَوَدُّ أحَدُكُمْ؟) قيل: إن ذلك كذلك، لأن قوله (أيَوَدُّ): يصحّ أن يوضع فيه «لو» مكان «أن». فلما صلحت بلو وأن، ومعناهما جميعا الاستقبال، استجازت العرب أن يردّوا «فَعَلَ» بتأويل «لو» على «يَفعَلُ» مع أن، فلذلك قال: فأصابها، وهو فى مذهبه بمنزلة «لو» إذا ضارعت «أن» فى معنى الجزاء، فوضعت فى مواضعها، وأجيبت «أن» بجواب «لو»، و«لو» بجواب «أن»، فكأنه قيل: أيودّ أحدكم لو كانت له جنة من نخيل وأعناب، تجرى من تحتها الأنهار، له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر؟

فإن قال: وكيف قيل ههنا: وله ذرية ضعفاء؟ وقال فى النساء (وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافًا؟) قيل: لأن فعيلا يجمع على فُعَلاء وفِعال، فيقال: رجل ظريف من قوم ظُرفاء وظِراف. وأما الإعصار: فإنه الريح العاصف، تهبّ من الأرض إلى السماء كأنها عمود، تجمع أعاصير؛ ومنه قول يزيد بن مُفرِّغ الحميرى:

أناسٌ أجارُونا فكانَ جِوَارُهُمْ أعاصيرَ من سُوءِ العِراقِ المُنْذَرِ[1]

واختلف أهل التأويل فى تأويل قوله (إعْصَارٌ فِيهِ نارٌ فاحْتَرَقَتْ)، فقال بعضهم: معنى ذلك: ريح فيها سموم شديدة.

ذكر من قال ذلك:

حدثنى محمد بن عبد الله بن بزيع، قال: ثنا يوسف بن خالد السّمتى، قال: ثنا نافع بن مالك، عن عكرمة، عن ابن عباس فى قوله (إعْصَارٌ فِيهِ نارٌ): ريح فيها سموم شديدة.

حدثنا أبو كريب، قال: ثنا ابن عطية، قال: ثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن التميمى، عن ابن عباس، فى (إعْصَارٌ فِيهِ نارٌ) قال: السموم الحارة التى خلق منها الجانّ التى تحرق.

حدثنا حميد، قال: ثنا أبو أحمد، قال: ثنا شريك، عن أبى إسحاق، عن التميمى، عن ابن عباس (فأصَابَها إعْصَارٌ فِيهِ نارٌ فاحْتَرَقَتْ) قال: هى السّموم الحارّة.

---

(١) الأعاصير: جمع إعصار، وهو أن تهيج الريح التراب. وقال أبو زيد: الإعصار: الريح التى تسطع فى السماء. وجمعه أعاصير. والمنذر: بصيغة اسم المفعول، بمعنى المخوف. وهو من نذره: إذا بالغ فى تخويفه.

حدثنا المثنى ، قال : ثنا الحمّانى ، قال : ثنا شريك ، عن أبى إسحاق ، عن التميمىّ ، عن ابن عباس، (إعْصَارٌ فيهِ نارٌ فاحْتَرَقَتْ) : التى تقتل .

حدثنا أحمد بن إسحاق ، قال : ثنا أبو أحمد ، قال : ثنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عمن ذكره ، عن ابن عباس ، قال : إن السَّموم التى خلق منها الجانّ جزء من سبعين جزءا من النار .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس (إعْصَارٌ فيهِ نارٌ فاحْتَرَقَتْ) : هى ريح فيها سَموم شديد .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس : (إعْصَارٌ فِيهِ نارٌ) قال : سَموم شديد .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (إعْصَارٌ فِيهِ نارٌ) يقول : أصابها ريح فيها سَموم شديدة .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، نحوه .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال: ثنا أسباط ، عن السدىّ (إعْصَار فِيهِ نارٌ فاحْتَرَقَتْ) أما الإعصار فالريح ، وأما النار فالسَّموم .

حُدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (إعْصَارٌ فيهِ نارٌ) يقول : ريح فيها سَموم شديد .

وقال آخرون : هى ريح فيها برد شديد .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، قال : كان الحسن يقول فى قوله (إعْصَارٌ فيهِ نارٌ فاحْتَرَقَتْ) : فيها صِرٌّ وبرد .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك (إعْصَارٌ فِيهِ نارٌ فاحْتَرَقَتْ) يعنى بالإعصار : ريح فيها برد .

القول فى تأويل قوله (كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ) :

يعنى بذلك جل ثناؤه : كما بين لكم ربكم تبارك وتعالى أمر النفقة فى سبيله ، وكيف وجهها ، ومالكم، وما ليس لكم فعله فيها ، كذلك يبين لكم الآيات سوى ذلك ، فيعرفكم أحكامها وحلالها وحرامها ، ويوضح لكم حُججها ، إنعاما منه بذلك عليكم لعلكم تتفكرون ، يقول: لتتفكروا بعقولكم . فتتدبروا وتعتبروا بحجج الله فيها ، وتعملوا بما فيها من أحكامها ، فتطيعوا الله به .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا الثورىّ ، قال : قال مجاهد : (لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ) قال : تطيعون .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس (كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ) : يعنى فى زوال الدنيا وفنائها ، وإقبال الآخرة وبقائها .

القول فى تأويل قوله

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧)

يعنى جل ثناؤه بقوله : يا أيها الذين آمنوا صدّقوا بالله ورسوله وآى كتابه ، ويعنى بقوله (أَنْفِقُوا) : زكوا وتصدّقوا .

كما حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس قوله (أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ ما كَسَبْتُمْ) يقول : تصدقوا .

القول فى تأويل قوله (مِنْ طَيِّبَاتِ ما كَسَبْتُمْ) :

يعنى بذلك جل ثناؤه : زكوا من طيب ما كسبتم بتصرّفكم : إما بتجارة ، وإما بصناعة من الذهب والفضة ، ويعنى بالطيبات : الجياد ، يقول : زكوا أموالكم التى اكتسبتموها حلالا ، وأعطوا فى زكاتكم الذهب والفضة ، الجيادَ منها دون الردىء .

كما حدثنا محمد بن المثنى ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، عن شعبة ، عن الحكم ، عن مجاهد فى هذه الآية (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ ما كَسَبْتُمْ) قال : من التجارة .

حدثنى موسى بن عبد الرحمن ، قال : ثنا زيد بن الحُباب ، قال : وأخبرنى شعبة ، عن الحكم ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنى حاتم بن بكر الضبىّ ، قال : ثنا وهب ، عن شُعبة ، عن الحكم ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا آدم ، قال : ثنا شعبة ، عن الحكم ، عن مجاهد فى قوله (أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ ما كَسَبْتُمْ) قال : التجارة الحلال .

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن عطاء بن السائب ، عن عبد الله ابن معقل (أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ ما كَسَبْتُمْ) قال : ليس فى مال المؤمن من خبيث ، ولكن لاتيمموا الخبيث منه تنفقون .

حدثنى عصام بن روّاد بن الجراح ، قال : ثنا أبى ، قال : ثنا أبو بكر الهُذلىّ ، عن محمد بن سيرين ،

عن عبيدة ، قال : سألت علىّ بن أبى طالب صلوات الله عليه عن قوله (يا أيُّها الَّذِين َآمَنُوا أنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ ما كَسَبْتُمْ) قال : من الذهب والفضة .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله (مِنْ طَيِّبَاتِ ما كَسَبْتُمْ) قال : التجارة .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس قوله (أنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ ما كَسَبْتُمْ) يقول : من أطيب أموالكم وأنفسه .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال: ثنا أسباط ، عن السدىّ (يا أيُّها الَّذِين َآمَنُوا أنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ ما كَسَبْتُمْ) قال : من الذهب والفضة .

القول فى تأويل قوله جلّ وعزّ (وَمِمَّا أخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأرْضِ) :

يعنى بذلك جلّ ثناوه : وأنفقوا أيضا مما أخرجنا لكم من الأرض، فتصدقوا وزكوا من النخل والكَرْم والحنطة والشعير ، وما أوجبت فيه الصدقة من نبات الأرض .

كما حدثنى عصام بن روّاد ، قال : ثنى أبى ، قال: ثنا أبو بكر الهذلىّ ، عن محمد بن سيرين ، عن عبيدة، قال: سألت عليا صلوات الله عليه عن قول الله عزّ وجل: (وَمِمَّا أخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأرْضِ) قال : يعنى من الحبّ والتمر، وكل شىء عليه زكاة .

حدثنى محمد بن عمرو، قال : ثنا أبو عاصم، عن عيسى ،عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد، قوله (وَمِمَّا أخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأرْضِ) قال : النخل .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد (وَمِمَّا أخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأرْضِ) قال : من ثمر النخل .

حدثنا القاسم ، قال: ثنا الحسين ، قال : ثنا هشيم ، قال : ثنا شعبة ، عن الحكم ، عن مجاهد، قوله (يا أيُّها الَّذِين َآمَنُوا أنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ ما كَسَبْتُمْ) قال: من التجارة، (وَمِمَّا أخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأرْضِ) : من الثمار .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (وَمِمَّا أخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأرْضِ) قال : هذا فى التمر والحبّ .

القول فى تأويل قوله جلّ وعزّ (وَلا تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ) :

يعنى بقوله جل ثناؤه (وَلا تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ) : ولا تعمدوا ولا تقصدوا، وقد ذكر أن ذلك فى قراءة عبد الله: ولا تأمَّموا، من أمَّمت، وهذه من تيَمَّمت، والمعنى واحد وإن اختلفت الألفاظ، يقال : تأممت فلانا وتيممته ، وأممته ، بمعنى : قصدته وتعمدته ، كما قال ميمون بن قيس الأعشى :

تَيَمَّمْتُ قَيْسًا وكَمْ دُونَهُ مِنَ الأَرْضِ من مَهْمَهٍ ذي شَزَنْ[١]

وكما حدثنا موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (وَلا تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ) : ولاتعمدوا .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة (وَلا تَيَمَّمُوا) : لاتعمدوا .

حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن قتادة ، مثله .

القول فى تأويل قوله (وَلا تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ) :

يعنى جل ثناؤه بالخبيث : الردىء غير الجيد ، يقول : لاتعمدوا الردىء من أموالكم فى صدقاتكم ، فتصدّقوا منه ، ولكن تصدّقوا من الطيب الجيد ، وذلك أن هذه الآية نزلت فى سبب رجل من الأنصار علّق قِنوا من حَشَف فى الموضع الذى كان المسلمون يعلقون صدقة ثمارهم ، صدقة من تمره .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى الحسين بن عمرو بن محمد العَنقزىّ ، قال : ثنا أبى ، عن أسباط ، عن السدىّ ، عن عدىّ بن ثابت ، عن البَراء بن عازب فى قول الله عزّ وجلّ (يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ ومِمَّا أَخْرَجْنا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ) إلى قوله (وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ) قال : نزلت فى الأنصار ، كانت الأنصار إذا كان أيام جَذاذ النخل ، أخرجت من حيطانها أقناء البُسْر ، فعلقوه على حبل بين الأُسطوانتين ، فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيأكل فقراء المهاجرين منه ، فيعمد الرجل منهم إلى الحشَف ، فيدخله مع أقناء البُسر ، يظنّ أن ذلك جائز ، فأنزل الله عزّ وجلّ فيمن فعل ذلك (وَلا تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ) قال : لاتيمموا الحشَف منه تنفقون .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، زعم السدىّ ، عن عدىّ بن ثابت ، عن البراء ابن عازب بنحوه ، إلا أنه قال : فكان يعمِد بعضهم ، فيدخل قِنو الحشَف ، ويظن أنه جائز عنه فى كثرة ما يوضع من الأقناء ، فنزل فيمن فعل ذلك (وَلاتَيَمَّمُوا الخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ) القِنْو الذى قد حَشِف[٢] ، ولو أهدى لكم ما قبلتموه .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا مؤمل ، قال : ثناسفيان ، عن السدىّ ، عن أبى مالك ، عن البراء بن عازب ، قال : كانوا يجيئون فى الصدقة بأردأ تمرهم ، وأردأ طعامهم ، فنزلت (يا أيها الذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ) . . . الآية .

---

(١) البيت لأبى بصير الأعشى فى ديوانه طبعة القاهرة (١٩) من نونيته التى يمدح بها قيس بن معديكرب الكندى من المتقارب : وتيممته : توخيته وقصدته ، قال فى اللسان : وأما التيمم الذى هو التوخى ، فالياء فيه بدل من الهمزة . والأم : القصد . قال ابن السكيت : يقال أمته أما ، وتيممته تيمما : أى توخيته وقصدته . والتيمم بالصعيد مأخوذ من هذا ، وصار التيمم عند عوام الناس : التمسح بالتراب ، والأصل فيه القصد والتوخى . قال الأعشى : . . . وأنشد البيت . والمهمه : المفازة البعيدة . والشزن : الغلظ : أى أن أرض المهمه غير مستوية ، وإنما هى وعرة .

(٢) حشف التمر : صار حشفا ، أى رديئا . (عن الأفعال لابن القوطية ، وليس فى اللسان) .

حدثنى عصام بن روّاد ، قال: ثنا أبى ، قال : ثنا أبو بكر الهذلىّ ، عن ابن سيرين ، عن عبيدة السَّلْمانى ، قال : سألت عليا عن قول الله (يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا أنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ ومِمَّا أخْرَجْنا لكُمْ مِنَ الأرْضِ ، وَلا تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ) قال : فقال علىّ : نزلت هذه الآية فى الزكاة المفروضة ، كان الرجل يعمد إلى التمر فيَصْرِمه ، فيعزل الجيد ناحية ، فإذا جاء صاحب الصدقة أعطاه من الردىء ، فقال عزّ وجلّ (وَلا تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ) .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : ثنى عبد الجليل بن حميد اليحصبىّ ، أن ابن شهاب حدثه ، قال : ثنى أبو أمامة بن سهل بن حُنَيف فى الآية التى قال الله عزّ وجلّ (وَلا تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ) قال : هو الُجعرور ، ولون حُبَيْق [1] ، فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤخذ فى الصدقة .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (وَلا تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ) قال : كانوا يتصدّقون ، يعنى من النخل بحشفه وشراره ، فنُهوا عن ذلك ، وأمروا أن يتصدّقوا بطيبه .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا أنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ) إلى قوله (وَاعْلَمُوا أنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ) : ذكر لنا أن الرجل كان يكون له الحائطان على عهد نبىّ الله صلى الله عليه وسلم ، فيعمِد إلى أردئهما تمرا فيتصدّق به ، ويخلط فيه من الحشَف ، فعاب الله ذلك عليهم ونهاهم عنه .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (وَلا تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ) قال : تعمد إلى رُذالة مالك ، فتصدّق به ، ولست بآخذه إلا أن تُغْمِض فيه .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن يزيد ، بن إبراهيم ، عن الحسن ، قال : كان الرجل يتصدّق برذالة ماله ، فنزلت (وَلا تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ) .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : أخبرنا عبد الله بن كثير أنه سمع مجاهدا يقول: (وَلا تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ) قال: فى الأقناء التى تعلق ، فرأى فيها حشفا ، فقال ما هذا ؟ قال ابن جريج : سمعت عطاء يقول: عَلَّق إنسان حشفا فى الأقناء التى تعلق بالمدينة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ما هَذَا ، بِئْسَما عَلَّقَ هَذَا »! فنزلت (وَلا تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ) .

وقال آخرون: معنى ذلك: ولا تيمموا الخبيث من الحرام فيه تنفقون، وتدَعوا أن تنفقوا الحلال الطيب .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : وسألته عن قول الله عزّ وجلّ

(١) يقال : عذق حبيق كزبير : تمر دقل أغبر صغير ، مع طول فيه ، ردىء ، منسوب إلى ابن حبيق .

(وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ) قال : الخبيث : الحرام ، لاتيممه تنفق منه ، فإن الله عزّ وجلّ لايقبله .

وتأويل الآية : هو التأويل الذى حكيناه عمن حكينا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، واتفاق أهل التأويل فى ذلك . دون الذى قاله ابن زيد .

القول فى تأويل قوله (وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ) :

يعنى بذلك جل ثناؤه : ولستم بآخذى الخبيث فى حقوقكم ، والهاء فى قوله (بِآخِذِيهِ) من ذكر الخبيث إلا أن تغمضوا فيه ، يعنى إلا أن تتجافوا فى أخذكم إياه عن بعض الواجب لكم من حقكم ، فترخصوا فيه لأنفسكم . يقال منه : أغمض فلان لفلان عن بعض حقه فهو يغمض ، ومن ذلك قول الطرِمّاح بن حكيم :

لَمْ يَفُتْنَا بِالوِتْرِ قَوْمٌ وللضَّيْـ ـمِ رِجالٌ يَرْضَوْنَ بالإغْماضِ [1]

واختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك ، فقال بعضهم : معنى ذلك : ولستم بآخذى الرديء من غُرمائكم فى واجب حقوقكم قِبَلهم ، إلا عن إغماض منكم لهم فى الواجب لكم عليهم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا عصام بن روّاد ، قال : ثنا أبى ، قال : ثنا أبو بكر الهذلى ، عن محمد بن سيرين ، عن عبيدة قال : سألت عليا عنه ، فقال (وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فيه) يقول : ولا يأخذ أحدكم هذا الرديء حتى يهضم له .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا مؤمل ، قال : ثنا سفيان ، عن السدىّ ، عن أبى مالك ، عن البراء بن عازب (وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ) يقول : لو كان لرجل على رجل فأعطاه ذلك لم يأخذه إلا أن يرى أنه قد نقصه من حقه .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثنا معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس قوله (وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ) يقول : لو كان لكم على أحد حق فجاءكم بحقّ دون حقكم ، لم تأخذوا بحساب الجيد حتى تنقصوه ، فذلك قوله (إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ) فكيفَ ترضون لى ما لاترضون لأنفسكم ، وحقى عليكم من أطيب أموالكم وأنفسها ، وهو قوله (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ) قال : لاتأخذونه من غرمائكم ولا فى بيوعكم إلا بزيادة على الطيب فى الكيل .

---

(١) الوتر : الذحل . والضيم : الظلم والنقص . والإغماض : أصله تغميض العين عن الشيء ، ثم صار كناية عن المسامحة والمساهلة والتغافل . يقول : لم يفتنا قوم عند الترة ، بل ندركهم وننتقم منهم ، على أن رجالا يرضون بالإغماض عن بعض حقهم لضعفهم وعجزهم .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنا أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس قوله (يا أيها الَّذين َآمَنُوا أنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أخْرَجْنا لَكُمْ مِنَ الأرْضِ . وَلا تيَمَّمُوا الخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ ، وَلَسْتُمْ بآخِذِيهِ إلاَّ أنْ تُغْمِضُوا فيهِ) ،وذلك أن رجالا كانوا يعطون زكاة أموالهم من التمر ، فكانوا يعطون الحشف فى الزكاة ، فقال : لو كان بعضهم يطلب بعضا ثم قضاه لم يأخذه ، إلا أن يرى أنه قد أغمض عنه حقه .

حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع قوله (وَلَسْتُمْ بآخِذِيهِ إلاَّ أنْ تُغْمِضُوا فيهِ) يقول : لو كان لك على رجل دين فقضاك أردأ مما كان لك عليه، هل كنت تأخذ ذلك منه إلا وأنت له كاره ؟

حدثنى يحيى بن أبى طالب ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا جويبر ، عن الضحاك فى قوله (يا أيُّها الَّذِينَ آمنوا أنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ) إلى قوله (إلا أنْ تُغْمِضوا فيهِ) قال : كانوا حين أمر الله أن يؤدوا الزكاة يجىء الرجل من المنافقين بأردأ طعام له من تمر وغيره ، فكره الله ذلك ، وقال (أنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ ، وَمِمَّا أخْرَجْنا لَكُمْ مِنَ الأرْضِ) يقول : لستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه ، يقول : لم يكن رجل منكم له حقٌّ على رجل ، فيعطيه دون حقه فيأخذه إلا وهو يعلم أنه قد نقصه ، فلا ترضوا لى مالا ترضون لأنفسكم ، فيأخذ شيئا وهو مغمض عليه أنقص من حقه .

وقال آخرون : معنى ذلك : ولستم بآخذى هذا الردىء الخبيث إذا اشتريتموه من أهله بسعر الجيد إلا بإغماض منهم لكم فى ثمنه .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن عمران بن حدير ، عن الحسن (وَلَسْتُمْ بآخِذِيهِ إلاَّ أنْ تُغْمِضُوا فيهِ) قال : لو وجدتموه فى السوق يباع ما أخذتموه حتى يُهضَم لكم من ثمنه

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قوله (وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إلاَّ أنْ تُغْمِضُوا فيهِ) يقول : لستم بآخذى هذا الردىء بسعر هذا الطيب ، إلا أن يُغْمَض لكم فيه .

وقال آخرون : معناه : ولستم بآخذى هذا الردىء الخبيث لو أهدى لكم إلا أن تغمضوا فيه ، فتأخذوه وأنتم له كارهون ، على استحياء منكم ممن أهداه لكم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى الحسين بن عمرو بن محمد العنقزى ، قال : ثنا أبى ، عن أسباط ، عن السدىّ ، عن عدىّ بن ثابت ، عن البراء بن عازب (وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إلاَّ أنْ تُغْمِضُوا فيهِ) قال : لو أُهدى لكم ما قبلتموه إلا على استحياء من صاحبه ، أنه بعث إليك بما لم يكن له فيه حاجة .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، قال : زعم السدىّ ، عن عدىّ بن ثابت ، عن البراء نحوه ، إلا أنه قال : إلا على استحياء من صاحبه ، وغيظا أنه بعث إليك بما لم يكن له فيه حاجة .

وقال آخرون : معنى ذلك : ولستم بآخذى هذا الردىء من حقكم إلا أن تغمضوا من حقكم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن عطاء ، عن ابن معقل (وَلَسْتُمْ بآخِذِيهِ) يقول : ولستم بآخذيه من حق هو لكم ، إلا أن تغمضوا فيه ، يقول : أغمض لك من حقك .

وقال آخرون : معنى ذلك : ولستم بآخذى الحرام إلا أن تغمضوا على ما فيه من الإثم عليكم فى أخذه .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى يونس ، قال : ثنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : وسألته عن قوله (وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ) قال : يقول : لستَ آخذا ذلك الحرام حتى تغمض على ما فيه من الإثم . قال : وفى كلام العرب : أما والله لقد أخذه ، ولقد أغمض على ما فيه ، وهو يعلم أنه حرام باطل .

والذى هو أولى بتأويل ذلك عندنا : أن يقال : إن الله عز وجل حث عباده على الصدقة، وأداء الزكاة من أموالهم ، وفرضها عليهم فيها ، فصار مافرض من ذلك فى أموالهم حقا لأهل سُهمان الصدقة، ثم أمرهم تعالى ذكره أن يخرجوا من الطيّب ، وهو الجيد من أموالهم الطيب ، وذلك أن أهل السُّهْمان شركاء أرباب الأموال فى أموالهم، بما وجب لهم فيها من الصدقة بعد وجوبها ، فلا شك أن كل شريكين فى مال، فلكل واحد منهما بقدر ملكه، وليس لأحدهما منع شريكه من حقه، من الملك الذى هو فيه شريكه، بإعطائه بمقدار حقه منه من غيره ، مما هو أردأ منه أو أحسن ، فكذلك المزكى ماله، حرم الله عليه أن يعطى أهل السُّهْمان مما وجب لهم فى ماله من الطيب الجيد من الحق ، فصاروا فيه شركاء من الخبيث الردىء غيره ، ويمنعهم ما هو لهم من حقوقهم فى الطيب من ماله الجيد ، كما لو كان مال ربّ المال رديئا كله غير جيد ، فوجبت فيه الزكاة ، وصار أهل سُهمان الصدقة فيه شركاء ، بما أوجب الله لهم فيه ، لم يكن عليه أن يعطيهم الطيب الجيد من غير ماله الذى منه حقهم ، فقال تبارك وتعالى لأرباب الأموال : زكوا من جيد أموالكم الجيد ، ولا تيمموا الخبيث الردىء ، تعطونه أهل سُهمان الصدقة ، وتمنعونهم الواجب لهم من الجيد الطيب فى أموالكم ، ولستم بآخذى الردىء لأنفسكم مكان الجيد الواجب لكم قِبَل من وجب لكم عليه ذلك من شركائكم وغرمائكم وغيرهم، إلا عن إغماض منكم، وهضم لهم، وكراهة منكم لأخذه . يقول : ولا تأتوا من الفعل إلى من وجب له فى أموالكم حق، مالاترضون من غيركم أن يأتيه إليكم فى حقوقكم الواجبة لكم فى أموالهم ؛ فأما إذا تطوع الرجل بصدقة غير مفروضة فإنى وإن كرهت له أن يعطى فيها إلا أجود ماله وأطيبه ، لأن الله عز وجل أحق من تُقُرِّب إليه بأكرم الأموال وأطيبها، والصدقة قربان المؤمن، فلست أحرّم عليه أن يعطى فيها غير الجيد ، لأن ما دون الجيد ربما كان أعم نفعا لكثرته ، أو لعظم خطره ، وأحسن موقعا من المسكين، وممن أعطيه قربة إلى عز وجل من الجيد، لقلته أو لصغر خطره، وقلة جدوى نفعه على من أعطيه .

وبمثل ما قلنا فى ذلك قال جماعة أهل العلم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبى الشوارب ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا سلمة بن علقمة ، عن محمد بن سيرين ، قال : سألت عبيدة ، عن هذه الآية (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ ما كَسَبْتُمْ ، ومِمَّا أخرَجْنا لكُمْ مِنَ الأرْضِ ،ولا تيمَّمُوا الخبيثَ منهُ تُنْفِقُونَ ، ولَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إلاَّ أنْ تُغْمِضُوا فيهِ) قال : ذلك فى الزكاة ، الدرهم الزائف أحبّ إلىّ من التمرة .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا ابن علية ، قال : ثنا سلمة بن علقمة ، عن محمد بن سيرين ، قال : سألت عبيدة عن ذلك ، فقال : إنما ذلك فى الزكاة ، والدرهم الزائف أحبّ إلىّ من التمرة .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا ابن إدريس ، عن هشام ، عن ابن سيرين ، قال : سألت عبيدة عن هذه الآية : (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ ما كَسَبْتُمْ ، ومِمَّا أخْرَجْنا لكُمْ مِنَ الأرْضِ ، ولا تيمَّمُوا الخبيثَ منهُ تُنْفِقُونَ ، ولَسْتُمْ بِآخِذِيهِ) فقال عبيدة : إنما هذا فى الواجب ، ولا بأس أن يتطوّع الرجل بالتمرة ، والدرهم الزائف خير من التمرة .

حدثنى أبو السائب ، قال : ثنا ابن إدريس ، عن هشام ، عن ابن سيرين فى قوله (ولا تيمَّمُوا الخبيثَ منهُ تُنْفِقُونَ) قال : إنما هذا فى الزكاة المفروضة ، فأما التطوّع فلا بأس أن يتصدّق الرجل بالدرهم الزائف ، والدرهم الزائف خير من التمرة .

القول فى تأويل قوله (واعْلَمُوا أنَّ اللهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ) :

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : واعلموا أيها الناس أن الله عزّ وجلّ غنىّ عن صدقاتكم وعن غيرها ، وإنما أمركم بها ، وفرضها فى أموالكم ، رحمة منه لكم ، ليغنىَ بها عائلكم ، ويقوّىَ بها ضعيفكم ، ويجزل لكم عليها فى الآخرة مثوبتكم ، لامن حاجة به فيها إليكم ، ويعنى بقوله (حَمِيدٌ) أنه محمود عند خلقه بما أولاهم من نعمه ، وبسط لهم من فضله .

كما حدثنى الحسين بن عمرو بن محمد العنقزى ، قال : ثنا أبى ، عن أسباط ، عن السدىّ ، عن عدىّ ابن ثابت ، عن البراء بن عازب فى قوله (واللهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ) عن صدقاتكم .

القول فى تأويل قوله

ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨)

يعنى بذلك تعالى ذكره : الشيطان يعدكم أيها الناس بالصدقة ، وأدائكم الزكاة الواجبة عليكم فى أموالكم ، أن تفتقروا ، ويأمركم بالفحشاء ، يعنى : ويأمركم بمعاصى الله عزّ وجلّ ، وترك طاعته ، والله يعدكم مغفرة منه ، يعنى أن الله عزّ وجلّ يعدكم أيها المؤمنون ، أن يستر عليكم فحشاءكم ، بصفحه لكم عن

عقوبتكم عليها ، فيغفر لكم ذنوبكم بالصدقة التي تتصدّقون ، وفضلا : يعني : ويعدكم أن يخلف عليكم من صدقتكم ، فيتفضل عليكم من عطاياه ، ويسبغ عليكم فى أرزاقكم .

كما حدثنا محمد بن حميد ، قال : ثنا يحيى بن واضح ، قال : ثنا الحسين بن واقد ، عن يزيد النحوىّ ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : اثنان من الله ، واثنان من الشيطان ، الشيطان يعدكم الفقر ، يقول : لاتنفق مالك وأمسكه عليك ، فإنك تحتاج إليه ، ويأمركم بالفحشاء ؛ والله يعدكم مغفرة منه على هذه المعاصى ، وفضلا فى الرزق .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قوله (الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالفَحْشاءِ ، وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً) يقول : مغفرة لفحشائكم ، وفضلا لفقركم .

حدثنا هناد ، قال : ثنا أبو الأحوص ، عن عطاء بن السائب ، عن مرة ، عن عبد الله ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ لِلشَّيْطانِ لَمَّةً مِنَ ابْنِ آدَمَ ، ولِلْمَلَكِ لَمَّةً ، فأمَّا لَمَّةُ الشَّيْطانِ : فإيعادٌ بالشَّرِّ ، وتَكْذِيبٌ بالحق ؛ وأمَّا لَمَّةُ المَلَكِ : فإيعادٌ بالخَيْرِ ، وتَصْدِيقٌ بالحَقِّ . فَمَنْ وَجَدَ ذلِكَ فَلْيَعْلَمْ أنَّهُ مِنَ اللهِ وَلْيَحْمَدِ اللهَ ، وَمَنْ وَجَدَ الأُخْرَى فَلْيَتَعَوَّذْ باللهِ مِنَ الشَّيْطانِ . ثُمَّ قَرأَ : (الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالفَحْشاءِ) .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا الحكم بن بشير بن سليمان ، قال : ثنا عمرو ، عن عطاء بن السائب ، عن مرة ، عن عبد الله ، قال : إن للإنسان من الملك لمّة ، ومن الشيطان لمّة ؛ فاللمة من الملك : إيعاد بالخير ، وتصديق بالحقّ ، واللمة من الشيطان : إيعاد بالشرّ ، وتكذيب بالحقّ ، وتلا عبد الله (الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالفَحْشاءِ ، وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً) قال عمرو : وسمعنا فى هذا الحديث ، أنه كان يقال : إذا أحسّ أحدكم من لمّة المَلَك شيئا فليحمد الله ، وليسأله من فضله ، وإذا أحسّ من لمّة الشيطان شيئا ، فليستغفر الله ، وليتعوّذ من الشيطان .

حدثني يعقوب ، قال : ثنا ابن علية ، قال : ثنا عطاء بن السائب ، عن أبى الأحوص ، أو عن مرّة ، قال : قال عبد الله : ألا إن للمَلَك لمّة ، وللشيطان لمّة ، فلمّة المَلَك : إيعاد بالخير ، وتصديق بالحق ؛ ولمة الشيطان : إيعاد بالشرّ ، وتكذيب بالحقّ ، وذلكم بأن الله يقول (الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالفَحْشاءِ ، وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) فإذا وجدتم من هذه شيئا فاحمدوا الله عليه ، وإذا وجدتم من هذه شيئا فتعوّذوا بالله من الشيطان .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن الزهرىّ ، عن عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة ، عن عبد الله بن مسعود فى قوله : (الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالفَحْشاءِ) قال : إن للملك لمّة ، وللشيطان لمّة ؛ فلمّة الملك : إيعاد بالخير ، وتصديق بالحقّ ، فمن وجدها فليحمد الله ؛ ولمة الشيطان : إيعاد بالشرّ ، وتكذيب بالحقّ ، فمن وجدها فليستعذ بالله .

حدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : ثنا حجاج بن المنهال ، قال : ثنا حماد بن سلمة ، قال : أخبرنا عطاء ابن السائب ، عن مرة الهمدانى : أن ابن مسعود قال : إن للملك لمة ، وللشيطان لمة ؛ فلمة الملك : إيعاد بالخير ، وتصديق بالحق ، ولمة الشيطان : إيعاد بالشر ، وتكذيب بالحق ، فمن أحس من لمة الملك شيئا ، فليحمد الله عليه ، ومن أحس من لمة الشيطان شيئا ، فليتعوذ بالله منه ، ثم تلا هذه الآية : (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بالفَحْشاءِ ، وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا سويد بن نصر ، قال : أخبرنا ابن المبارك ، عن فِطْر[1] ، عن المسيب بن رافع ، عن عامر بن عَبَدة ، عن عبد الله ، بنحوه .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن عطاء ، عن مرة بن شراحيل ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : إن للشيطان لمة ، وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فتكذيب بالحق وإيعاد بالشر . وأما لمة الملك : فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك ، فليعلم أنه من الله ، وليحمد الله عليه ، ومن وجد الأخرى فليستعذ من الشيطان ، ثم قرأ (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بالفَحْشاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً) .

القول فى تأويل قوله (واللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) :

يعنى تعالى ذكره : والله واسع الفضل الذى يعدكم أن يعطيكموه من فضله وسعة خزائنه ، عليم بنفقاتكم وصدقاتكم التى تنفقون وتصدّقون بها ، يحصيها لكم ، حتى يجازيكم بها عند مقدمكم عليه فى آخرتكم .

القول فى تأويل قوله

يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ، وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ (٢٦٩)

يعنى بذلك جل ثناؤه : يؤتى الله الإصابة فى القول والفعل من يشاء من عباده . ومن يؤت الإصابة فى ذلك منهم ، فقد أوتى خيرا كثيرا .

واختلف أهل التأويل فى ذلك ، فقال بعضهم : الحكمة التى ذكرها الله فى هذا الموضع : هى القرآن والفقه به .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس فى قوله : (وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا) يعنى المعرفة بالقرآن ، ناسخه ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه ، ومقدمه ومؤخره ، وحلاله وحرامه ، وأمثاله .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (يُؤْتِى الحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ) قال : الحكمة : القرآن ، والفقه فى القرآن .

---

(١) ذكر صاحب التاج ثلاثة محدثين كلهم يسمى فطرا : فطر بن حماد بن واقد البصرى ، وفطر بن خليفة ، وذكره الخزرجى فى الخلاصة ، وفطر بن محمد العطار الأحدب . ولا ندرى من المراد منهم ، ولعله الثانى .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قوله (يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ ، وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا) والحكمة : الفقه فى القرآن .

حدثنا محمد بن عبد الله الهلالى ، قال : ثنا مسلم بن إبراهيم ، قال : ثنا مهدىّ بن ميمون ، قال : ثنا شعيب بن الحبحاب ، عن أبى العالية (وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا) قال : الكتاب والفهم فيه .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن ليث ، عن مجاهد ، قوله (يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ) . . . الآية ، قال : ليست بالنبوّة ، ولكنه القرآن والعلم والفقه .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس : الفقه فى القرآن .

وقال آخرون : معنى الحكمة : الإصابة فى القول والفعل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن ابن أبى نجيح ، قال : سمعت مجاهدا قال (وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ) قال : الإصابة .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قول الله عزّ وجل (يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ) قال : ، يؤتى إصابته من يشاء .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ) قال : الكتاب ، يؤتى إصابته .

وقال آخرون : هو العلم بالدين .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد (يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ) : العقل فى الدين ، وقرأ (وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا) .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : الحكمة : العقل .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قلت لمالك : وما الحكمة ؟ قال : المعرفة بالدين ، والفقه فيه ، والاتباع له .

وقال آخرون : الحكمة : الفهم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، قال : ثنا سفيان ، عن أبى حمزة ، عن إبراهيم ، قال : الحكمة : هى الفهم

وقال آخرون : هى الخشية .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، فى قوله (يُؤْتِى الحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ ، وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ) . . الآية ، قال : الحكمة : الخشية ، لأن رأس كل شىء خشية الله ، وقرأ (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ العُلَماءُ) .

وقال آخرون : هى النبوّة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، قوله (يُؤْتِى الحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ) . . . الآية ، قال : الحكمة : هى النبوّة .

وقد بينا فيما مضى معنى الحكمة ، وأنها مأخوذة من الحُكم وفصل القضاء ، وأنها الإصابة ، بما دل على صحته ، فأغنى ذلك عن تكريره فى هذا الموضع . فإذا كان ذلك كذلك معناه ، كان جميع الأقوال التى قالها القائلون الذين ذكرنا قولهم فى ذلك ، داخلا فيما قلنا من ذلك ، لأن الإصابة فى الأمور إنما تكون عن فهم بها وعلم ومعرفة ، وإذا كان ذلك كذلك كان المصيب عن فهم منه بمواضع الصواب فى أموره فهما خاشيا لله ، فقيها عالما ، وكانت النبوّة من أقسامه ، لأن الأنبياء مُسَدَّدون مُفَهَّمون ، وموفقون لإصابة الصواب فى الأمور ، والنبوّة بعض معانى الحكمة .

فتأويل الكلام : يؤتى الله إصابة الصواب فى القول والفعل من يشاء ، ومن يؤته الله ذلك فقد آتاه خيرا كثيرا .

القول فى تأويل قوله (وَما يَذَّكَّرُ إلاَّ أُولُوا الأَلْبابِ) :

يعنى بذلك جل ثناؤه : وما يتعظ بما وعظ به ربه فى هذه الآيات التى وعظ فيها المنفقين أموالهم ، بما وعظ به غيرهم فيها ، وفى غيرها من آى كتابه ، فيذكر وعده ووعيده فيها ، فينزجر عما زجره عنه ربه ، ويطيعه فيما أمره به ، إلا أولو الألباب ، يعنى : إلا أولو العقول الذين عقلوا عن الله عزّ وجلّ أمره ونهيه ، فأخبر جلّ ثناؤه ، أن المواعظ غير نافعة إلا أولى الحِجا والحلوم ، وأن الذكرى غير ناهية إلا أهل النُّهى والعقول .

القول فى تأويل قوله

وَمَآ أَنفَقْتُم مِّنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُ ، وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٢٧٠)

يعنى بذلك جل ثناؤه : وأىّ نفقة أنفقتم ، يعنى : أىّ صدقة تصدقتم ، أو أىّ نذر نذرتم ، يعنى بالنذر : ما أوجبه المرء على نفسه ، تبرّرا فى طاعة الله ، وتقرّبا به إليه : من صدقة أو عمل خير ، فإن الله يعلمه ، أى إن جميع ذلك بعلم الله ، لا يعزب عنه منه شىء ، ولا يخفى عليه منه قليل ولا كثير ، ولكنه يحصيه أيها الناس عليكم ، حتى يجازيكم جميعكم على جميع ذلك ، فمن كانت نفقته منكم وصدقته ونذره ابتغاء مرضاة الله ، وتثبيتا من نفسه ، جازاه بالذى وعده من التضعيف ؛ ومن كانت نفقته وصدقته رياء الناس ، ونذوره للشيطان ، جازاه بالذى أوعده من العقاب ، وأليم العذاب .

كالذى حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قول الله عز وجل (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ) ويحصيه .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

ثم أوعد جل ثناؤه من كانت نفقته رياء ، ونذوره طاعة للشيطان ، فقال (وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ) ، يعنى : وما لمن أنفق ماله رياء الناس ، وفى معصية الله ، وكانت نذوره للشيطان ، وفى طاعته ، من أنصار ، وهم جمع نصير ، كما الأشراف جمع شريف . ويعنى بقوله (مِنْ أَنْصَارٍ) من ينصرهم من الله يوم القيامة ، فيدفع عنهم عقابه يومئذ بقوة وشدة بطش ، ولا بفدية . وقد دللنا على أن الظالم : هو الواضع للشىء فى غير موضعه ، وإنما سمى الله المنفق رياء الناس ، والناذر فى غير طاعته ظالما ، لوضعه إنفاق ماله فى غير موضعه ، ونذره فى غير ماله وضعه فيه ، فكان ذلك ظلمه .

فإن قال لنا قائل : فكيف قال : (فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ) ولم يقل : يعلمهما ، وقد ذكر النذر والنفقة ؟ .

قيل : إنما قال (فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ) لأنه أراد : فإن الله يعلم ما أنفقتم ، أو نذرتم ، فلذلك وحد الكناية .

القول فى تأويل قوله

إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ، وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ، وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ، وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١)

يعنى بقوله جل ثناؤه (إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ) : إن تعلنوا الصدقات ، فتعطوها من تصدقتم بها عليه ، (فَنِعِمَّا هِيَ) يقول : فنعم الشىء هى (وَإِنْ تُخْفُوهَا) يقول : وإن تستروها فلن تعلنوها (وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ) يعنى : وتعطوها الفقراء فى السر (فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) ، يقول : فإخفاؤكم إياها خير لكم من إعلانها ، وذلك فى صدقة التطوع .

كما حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله : (إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ، وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) : كل مقبول إذا كانت النية صادقة ، وصدقة السر أفضل . وذكر لنا أن الصدقة تطفئ الخطيئة ، كما يطفئ الماء النار .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، فى قوله (إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ، وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءُ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) قال : كل مقبول إذا كانت النية صادقة ، والصدقة فى السر أفضل ؛ وكان يقول : إن الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثنى معاوية ، عن على ، عن ابن عباس قوله (إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ، وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) فجعل الله صدقة السر فى التطوع ، تفضل علانيتها بسبعين ضعفا ، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها ، يقال بخمسة وعشرين ضعفا ، وكذلك جميع الفرائض والنوافل فى الأشياء كلها .

حدثنى عبد الله بن محمد الحنفىّ ، قال : ثنا عبد الله بن عثمان ، قال : ثنا عبد الله بن المبارك ، قال : سمعت سفيان يقول فى قوله (إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ،وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) قال : يقول : هو سوى الزكاة .

وقال آخرون : إنما عنى الله عزّ وجل بقوله (إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ) : إن تبدوا الصدقات على أهل الكتابين من اليهود والنصارى، فنعما هى ، وإن تخفوها وتؤتوها فقراءهم، فهو خير لكم . قالوا : وأما ماأعطى فقراء المسلمين من زكاة وصدقة تطوّع ، فإخفاؤه أفضل من علانيته .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : ثنى عبد الرحمن بن شريح : أنه سمع يزيد بن أبى حبيب يقول : إنما نزلت هذه الآية (إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ) : فى الصدقة على اليهود والنصارى .

حدثنى عبد الله بن محمد الحنفى ، قال : أخبرنا عبد الله بن عثمان ، قال : أخبرنا ابن المبارك ، قال : أخبرنا ابن لَهيعة ، قال : كان يزيد بن أبى حبيب يأمر بقَسْم الزكاة فى السرّ ، قال عبد الله : أحبّ أن تعطى فى العلانية ، يعنى الزكاة، ولم يخصص الله من قوله (إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ)، فذلك على العموم، إلا ما كان من زكاة واجبة، فإن الواجب من الفرائض قد أجمع الجميع على أن الفضل فى إعلانه وإظهاره، سوى الزكاة التى ذكرنا اختلاف المختلفين فيها، مع إجماع جميعهم على أنها واجبة، فحكمها فى أن الفضل فى أدائها علانية حكم سائر الفرائض غيرها .

القول فى تأويل قوله (وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ) :

اختلف القراء فى قراءة ذلك ، فرُوى عن ابن عباس أنه كان يقرؤه « وَتُكَفِّرُ عَنْكُمْ » بالتاء ، ومن قرأه كذلك ، فإنه يعنى به: وتكفر الصدقات عنكم من سيئاتكم . وقرأ آخرون (وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ) بالياء بمعنى : ويكفر الله عنكم بصدقاتكم، على ماذكر فى الآية من سيئاتكم . وقرأ ذلك بعدُ عامة قرّاء أهل المدينة والكوفة والبصرة (وَنُكَفِّرْ عَنْكُمْ) بالنون وجزم الحرف ، يعنى : وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء ، نكفر عنكم من سيئاتكم، بمعنى: مجازاة الله عز وجل مخفى الصدقة، بتكفير بعض سيئاته، بصدقته التى أخفاها .

وأولى القراءات فى ذلك عندنا بالصواب: قراءة من قرأ (وَنُكَفِّرْ عَنْكُمْ) بالنون وجزم الحرف، على معنى الخبر من الله عن نفسه ، أنه يجازى المخفىّ صدقته من التطوّع ، ابتغاء وجهه من صدقته، بتكفير سيئاته ، وإذا قرئ كذلك فهو مجزوم على موضع الفاء فى قوله (فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) لأن الفاء هنالك حلت محلّ جواب الجزاء .

فإن قال لنا قائل: وكيف اخترت الجزم على النَّسَق على موضع الفاء، وتركت اختيار نَسْقه على مابعد الفاء ، وقد علمت أن الأفصح من الكلام فى النسق على جواب الجزاء الرفع ، وإنما الجزم تجويز ؟ قيل : اخترنا ذلك ليؤذن بجزمه أن التكفير ، أعنى تكفير الله من سيئات المصدّق، لامحالة داخل فيما وعد الله

المصدّق أن يجازيه به على صدقته ، لأن ذلك إذا جزم مُؤْذن بما قلنا لامحالة . ولو رفع كان قد يحتمل أن يكون داخلا فيما وعده الله أن يجازيه به ، وأن يكون خبرا مستأنفا أنه يكفر من سيئات عباده المؤمنين ، على غير المجازاة لهم بذلك على صدقاتهم ، لأن ما بعد الفاء فى جواب الجزاء استئناف ، فالمعطوف على الخبر المستأنف فى حكم المعطوف عليه ، فى أنه غير داخل فى الجزاء ، ولذلك من العلة اخترنا جزم نكفر ، عطفا به على موضع الفاء من قوله (فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) وقراءته بالنون .

فإن قال قائل : وما وجه دخول من فى قوله (وَنُكَفِّرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ) ؟ قيل : وجه دخولها فى ذلك بمعنى : ونكفر عنكم من سيئاتكم ما نشاء تكفيره منها ، دون جميعها ، ليكون العباد على وجل من الله فلا يتكلوا على وعده ما وعد على الصدقات التى يخفيها المتصدّق ، فيجترئوا على حدوده ومعاصيه .

وقال بعض نحويّى البصرة : معنى « من » الإسقاط من هذا الموضع ، ويتأوّل معنى ذلك : ونكفر عنكم سيئاتكم .

القول فى تأويل قوله (وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) :

يعنى بذلك جل ثناؤه : والله بما تعملون فى صدقاتكم ، من إخفائها وإعلان وإسرار بها وإجهار ، وفى غير ذلك من أعمالكم ، خبير ، يعنى بذلك ذو خبرة وعلم ، لايخفى عليه شىء من ذلك ، فهو بجميعه محيط ، ولكله محص على أهله ، حتى يوفيهم ثواب جميعه ، وجزاء قليله وكثيره .

القول فى تأويل قوله عزّ وجلّ

* لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ، وَلَـكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ، وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ، وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ ، وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٢٧٢)

يعنى تعالى ذكره بذلك : ليس عليك يامحمد هُدى المشركين إلى الإسلام ، فتمنعهم صدقة التطوّع ، ولا تعطيهم منها ، ليدخلوا فى الإسلام ، حاجةً منهم إليها ، ولكن الله هو يهدى من يشاء من خلقه إلى الإسلام ، فيوفقهم له ، فلا تمنعهم الصدقة .

كما حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا ابن يمان ، عن أشعث ، عن جعفر ، عن شعبة ، قال : كان النبىّ صلى الله عليه وسلم لايتصدق على المشركين ، فنزلت (وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ) ، فتصدق عليهم .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا أبو داود ، عن سفيان ، عن الأعمش ، عن جعفر بن إياس ، عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس ، قال : كانوا لايرضَخون[1] لقراباتهم من المشركين ، فنزلت (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ) .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن سفيان ، عن رجل ، عن سعيد بن جبير ، قال : كانوا يتقون أن يرضَخوا[1] لقراباتهم من المشركين ، حتى نزلت (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ) .

(١) رضخ له من ماله رضخا ورضيخة : أعطاه شيئا منه .

حدثنا محمد بن بشار وأحمد بن إسحاق ، قالا : ثنا أبو أحمد ، قال : ثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن جعفر بن إياس ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : كانوا لايرضخون لأنسبائهم من المشركين ، فنزلت : (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) ، فرخّص لهم .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا سويد ، قال : أخبرنا ابن المبارك ، عن سفيان ، عن الأعمش ، عن جعفر ابن إياس ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : كان أناس من الأنصار لهم أنسباء وقرابة من قُريظة والنضير ، وكانوا يتقون أن يتصدّقوا عليهم ، ويريدونهم أن يسلموا ، فنزلت (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ) . . . الآية .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، وذكر لنا أن رجالا من أصحاب نبيّ الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا : أنتصدّق على من ليس من أهل ديننا ، فأنزل الله فى ذلك القرآن (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ) .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع فى قوله (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ، وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) قال : كان الرجل من المسلمين إذا كان بينه وبين الرجل من المشركين قرابة وهو محتاج ، فلا يتصدّق عليه ، يقول : ليس من أهل دينى ، فأنزل الله عزّ وجلّ (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ) . . . الآية .

حدثنى محمد ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، قوله (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنْفُسِكُمْ) أما ليس عليك هداهم : فيعنى المشركين ، وأما النفقة فبين أهلها .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا الحمانى ، قال : ثنا يعقوب القُمّىّ ، عن جعفر بن أبى المغيرة ، عن سعيد بن جبير قال : كانوا يتصدّقون[1] .

كما حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ) قال : هو مردود عليك ، فمالك ولهذا تؤذيه وتَمُنّ عليه ؟ إنما نفقتك لنفسك ، وابتغاء وجه الله ، والله يجزيك .

القول فى تأويل قوله

لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ ، يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ، تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ، وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣)

(١) قوله « كانوا يتصدقون » كذا فى النسخ ، ولعله سقط بقية المتن وشىء من التفسير .

أما قوله (لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ) فبيان من الله عزّ وجلّ عن سبيل النفقة ووجهها . ومعنى الكلام : وما تنفقوا من خير فلأنفسكم تنفقون للفقراء ، الذين أحصروا فى سبيل الله ، واللام التى فى الفقراء مردودة على موضع اللام فى فلأنفسكم ، كأنه قال (وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ) يعنى به : وما تتصدّقوا به من مال ، فللفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله ، فلما اعترض فى الكلام بقوله فلأنفسكم ، فأدخل الفاء التى هى جواب الجزاء فيه ، تركت إعادتها فى قوله : للفقراء ، إذ كان الكلام مفهوما معناه .

كما حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، قوله (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ) أما ليس عليك هداهم ، فيعنى المشركين ، وأما النفقة فبين أهلها ، فقال : للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله . وقيل : إن هؤلاء الفقراء الذين ذكرهم الله فى هذه الآية ، هم فقراء المهاجرين عامة ، دون غيرهم من الفقراء .

ذكر من قال ذلك .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله (لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ) ، مهاجرى قريش بالمدينة مع النبىّ صلى الله عليه وسلم ، أمر بالصدقة عليهم .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه قوله (لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ) . . . الآية ، قال : هم فقراء المهاجرين بالمدينة .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ : (لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ) قال : فقراء المهاجرين .

القول فى تأويل قوله عزّ وجلّ (الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ) :

يعنى تعالى ذكره بذلك : الذين جعلهم جهادهم عدوّهم يَحْصُرون أنفسهم ، فيحبسونها عن التصرف ، فلا يستطيعون تصرّفا . وقد دللنا فيما مضى قبل على أن معنى الإحصار : تصيير الرجل المحصَر بمرضه أو فاقته أو جهاده عدوّه ، وغير ذلك من علله ، إلى حالة يحبس نفسه فيها عن التصرّف فى أسبابه ، بما فيه الكفاية فيما مضى قبل .

وقد اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك ، فقال بعضهم : فى ذلك بنحو الذى قلنا فيه .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ) قال : حصروا أنفسهم فى سبيل الله للغزو .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله « لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ) قال : كانت الأرض كلها كفرا لايستطيع أحد أن يخرج يبتغى من فضل الله ، إذا خرج

خرج فى كفر . وقيل : كانت الأرض كلها حربا على أهل هذا البلد ، وكانوا لا يتوجهون جهة إلا لهم فيها عدوّ ، فقال الله عزّ وجلّ : (لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ) . . الآية ، كانوا ههنا فى سبيل الله .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : الذين أحصرهم المشركون ، فمنعوهم التصرّف .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى موسى بن هارون ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ) : حصرهم المشركون فى المدينة .

ولو كان تأويل الآية على ما تأوّله السدىّ ، لكان الكلام : للفقراء الذين حُصِروا فى سبيل الله ، ولكنه أحصروا ، فدلّ ذلك على أن خوفهم من العدوّ الذى صير هؤلاء الفقراء إلى الحال التى حَبَسوا وهم فى سبيل الله أنفسهم ، لأن العدوّ هم كانوا الحابسيهم ، وإنما يقال لمن حبسه العدوّ : حَصَره العدوّ ، وإذا كان الرجل المحبس من خوف العدوّ ، قيل : أحصره خوف العدوّ .

القول فى تأويل قوله (لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ) :

يعنى بذلك جل ثناؤه : لايستطيعون تقلبا فى الأرض ، وسفرا فى البلاد ، ابتغاء المعاش ، وطلب المكاسب ، فيستغنوا عن الصدقات ، رهبة العدوّ ، وخوفا على أنفسهم منهم .

كما حدثنى الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة : (لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ) : حبسوا أنفسهم فى سبيل الله للعدوّ ، فلا يستطيعون تجارة .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ) يعنى التجارة .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، قوله (لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ) : كان أحدهم لايستطيع أن يخرج يبتغى من فضل الله .

القول فى تأويل قوله (يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ) :

يعنى بذلك : يحسبهم الجاهل بأمرهم وحالهم أغنياء من تعففهم عن المسئلة ، وتركهم التعرّض لما فى أيدي الناس صبرا منهم على البأساء والضرّاء .

كما حدثنا بزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قوله (يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ) يقول : يحسبهم الجاهل بأمرهم أغنياء من التعفف ، ويعنى بقوله (مِنَ التَّعَفُّفِ) : من ترك مسئلة الناس ، وهو التفعل من العفة عن الشيء ، والعفة عن الشيء : تركه ، كما قال رؤبة :

فَعَفَّ عَنْ أَسْرَارِهَا بَعْدَ الْغَسَقْ (١)

يعنى : برئ وتجنب .

القول فى تأويل قوله (تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ) :

يعنى بذلك جل ثناؤه : تعرفهم يا محمد بسيماهم ، يعنى بعلامتهم وآثارهم ، من قول الله عزّ وجلّ

(١) يروى الغسق بالغين المعجمة وبالعين المهملة . وقد سبق الكلام على البيت فى الجزء الثانى .

(سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ) هذه لغة قريش ، ومن العرب من يقول بسيمائهم فيمدها ، وأما ثقيف وبعض أسد ، فإنهم يقولون : بسيميائهم ؛ ومن ذلك قول الشاعر :

غُلامٌ رَمَاهُ اللهُ بالحُسْنِ يافعا لَهُ سِيمِيَاءُ لاتَشُقُّ عَلَى البَصَرِ[1]

وقد اختلف أهل التأويل فى السيما التى أخبر الله جل ثناؤه أنها لهؤلاء الفقراء الذين وصفت صفتهم ، وأنهم يُعرفون بها ، فقال بعضهم : هو التخشع والتواضع .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله (تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ) قال : التخشع .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن ليث ، قال : كان مجاهد يقول : هو التخشع .

وقال آخرون : يعنى بذلك تعرفهم بسيما الفقر ، وجَهد الحاجة فى وجوههم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ) : بسيما الفقر عليهم .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع فى قوله (تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ) يقول : تعرف فى وجوههم الجَهد من الحاجة .

وقال آخرون : معنى ذلك : تعرفهم برثاثة ثيابهم ، وقالوا : الجوع خفىّ .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد (تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ) قال : السيما : رثاثة ثيابهم ، والجوع خفىّ على الناس ، ولم تستطع الثياب التى يخرجون فيها تخفى على الناس .

وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب : أن يقال : إن الله عزّ وجلّ أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم أنه يعرفهم بعلاماتهم وآثار الحاجة فيهم ، وإنما كان النبىّ صلى الله عليه وسلم يدرك تلك العلامات والآثار منهم عند المشاهدة بالعيان ، فيعرفهم وأصحابه بها ، كما يدرك المريض ، فيعلم أنه مريض بالمعاينة .

وقد يجوز أن تكون تلك السيما كانت تخشعا منهم ، وأن تكون كانت أثر الحاجة والضرّ ، وأن تكون كانت رثاثة الثياب ، وأن تكون كانت جميع ذلك ، وإنما تدرك علامات الحاجة وآثار الضُّرّ فى الإنسان ، ويعلم

---

(١) هذا البيت لأسيد بن عنقاء الفزارى يمدح عميلة الفزارى حين قاسمه ماله . وبعد البيت بيت آخر ، وهو :

كأنَّ الثُّريَّا عُلِّقَتْ فَوْقَ نَحْرِهِ وفى وجْهِهِ الشِّعْرَى وفى جِيدِهِ القَمَرُ

أنشد البيتين المبرد فى كامله (١ : ١٠٩ رغبة الآمل شرح الكامل للشيخ سيد المرصفى) . والسيما والسيماء والسيمياء بالقصر والمد : العلامة يعرف بها الخير والشر . قال تعالى : « تعرفهم بسيماهم » . واشتقاق السيما من الوسم . والمراد أنه : يفرح به من ينظر إليه . ويروى البيت : « غلام رماه الله بالخير يافعا » عن أبى رياش . عن أبى زيد . قال : لأن الحسن مولود . (انظر اللسان : سوم) .

أنها من الحاجة والضرّ ، بالمعاينة دون الوصف ، وذلك أن المريض قد يصير به فى بعض أحوال مرضه من المرض ، نظير آثار المجهود من الفاقة والحاجة ، وقد يلبس الغنى ذو المال الكثير الثياب الرثة ، فيتزيا بزىّ أهل الحاجة ، فلا يكون فى شىء من ذلك دلالة بالصفة على أن الموصوف به مختلّ ذو فاقة ، وإنما يُدْرَى ذلك عند المعاينة بسيماه ، كما وصفهم الله نظير ما يعرف أنه مريض عند المعاينة ، دون وصفه بصفته .

القول فى تأويل قوله (لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً) :

يقال : قد ألحف السائل فى مسئلته إذا ألحّ ، فهو يلحف فيها إلحافا .

فإن قال قائل : أفكان هؤلاء القوم يسألون الناس غير إلحاف ؟ قيل : غير جائز أن يكون كانوا يسألون الناس شيئا على وجه الصدقة إلحافا ، وغير إلحاف ، وذلك أن الله عزّ وجلّ وصفهم بأنهم كانوا أهل تعفف ، وأنهم إنما كانوا يعرفون بسيماهم ، فلو كانت المسألة من شأنهم لم تكن صفتهم التعفف ، ولم يكن بالنبىّ صلى الله عليه وسلم إلى علم معرفتهم بالأدلة والعلامة حاجة ، وكانت المسئلة الظاهرة تنبئ عن حالهم وأمرهم .

وفى الخبر الذى حدثنا به بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، عن هلال بن حصن ، عن أبى سعيد الخُدرىّ ، قال : أعوزْنا مرة ، فقيل لى : لو أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته ، فانطلقت إليه مُعنِقا ، فكان أوّل ما واجهنى به : من استعفّ أعفه الله ، ومن استغنى أغناه الله ، ومن سألنا لم ندخر عنه شيئا نجده . قال : فرجعت إلى نفسى ، فقلت : ألا أستعفّ فيُعفنى الله ، فرجعت ، فما سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا بعد ذلك من أمر حاجة ، حتى مالت علينا الدنيا فغرقتنا ، إلا من عصم الله ـ الدلالة الواضحة على أن التعفف معنى ينفى معنى المسئلة من الشخص الواحد ، وأن من كان موصوفا بالتعفف ، فغير موصوف بالمسئلة إلحافا وغير إلحاف .

فإن قال قائل : فإن كان الأمر على ما وصفت ، فما وجه قوله (لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً) وهم لا يسألون الناس إلحافا وغير إلحاف ؟ قيل له : وجه ذلك أن الله تعالى ذكره لما وصفهم بالتعفف ، وعرّف عباده أنهم ليسوا أهل مسئلة بحال ، بقوله (يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ) ، وأنهم إنما يعرفون بالسيما ، زاد عباده إبانة لأمرهم ، وحسن ثناء عليهم ، بنفى الشره والضراعة التى تكون فى الملحين من السؤّال عنهم ، وقال : كان بعض القائلين يقول فى ذلك نظير قول القائل : قلّما رأيت مثل فلان ، ولعله لم ير مثله أحدا ولا نظيرا .

وبنحو الذى قلنا فى معنى الإلحاف قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى موسى بن هارون ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً) قال : لا يلحفون فى المسئلة .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (لايَسأَلُون النَّاس إلْحافًا) قال : هو الذى يلحّ فى المسئلة .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قوله (لايَسْأَلُونَ النَّاسَ إلْحافًا) ذكر لنا أن نبىّ الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « إنَّ اللهَ يُحِبُّ الحَلِيمَ الغَنِىَّ المُتَعَفِّفَ ، وَيُبْغِضُ الغَنِىَّ الفاحِشَ البَذِىَّ السَّائِلَ المُلْحِفَ » . قال : وذكر لنا أن نبىّ الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ كَرِهَ لَكُمْ ثَلاثًا ، قِيلَ وَقالَ : وَإِضاعَةَ المَالِ وكَثْرَةَ السُّؤالِ » فإذا شئت رأيته فى قيل وقال يومه أجمع وصدر ليلته ، حتى يلقى جيفة على فراشه ، لا يجعل الله له من نهاره ولا ليلته نصيبا ، وإذا شئت رأيته ذا مال فى شهوته ولذاته وملاعبه ، ويعدله عن حقّ الله ، فذلك إضاعة المال ، وإذا شئت رأيته باسطا ذراعيه ، يسأل الناس فى كفيه ، فإذا أُعطى أفرط فى مدحهم ، وإن منع أفرط فى ذمهم .

القول فى تأويل قوله تعالى

الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤)

حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا معتمر ، عن أيمن بن نابل ، قال : حدثني شيخ من غافق : أن أبا الدرداء كان ينظر إلى الخيل مربوطة بين البراذين والهُجُن ، فيقول : أهل هذه ، يعنى الخيل ، من الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرًّا وعلانية ، فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

وقال آخرون : عنى بذلك قوما أنفقوا فى سبيل الله ، فى غير إسراف ولا تقتير .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ إلى قوله (وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) هؤلاء أهل الجنة ، ذكر لنا أن نبىّ الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « المُكْثِرُونَ هُمُ الأسْفَلُونَ ـ قالوا : يا نبىّ الله إلا مَن ؟ قال : المُكْثِرُونَ هُمْ الأسْفَلُونَ ، قالوا : يا نبىّ الله إلا من ؟ قال : المُكْثِرُونَ هُمُ الأسْفَلُونَ ، قالوا : يا نبىّ الله إلا من ؟ حتى خشوا أن تكون قد مضت فليس لها ردّ ، حتى قال : إلاَّ مَنْ قالَ بالمَالِ هٰكَذا وَهٰكَذا ، عَنْ يَمِينِه وَعَنْ شِمالِه ، وَهٰكَذا بينَ يَدَيْهِ ، وَهٰكَذا خَلْفَهُ ، وَقَلِيلٌ ماهُمْ ، هؤُلاءِ قَوْمٌ أنْفَقُوا فِى سَبِيلِ اللهِ الَّتِى افْتَرَضَ وارتضى ، فِى غَيْرِ سَرَفٍ وَلا إمْلاقٍ ، وَلا تَبْذِيرٍ وَلا فَسادٍ » .

وقد قيل : إن هذه الآيات من قوله (إنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ فَنِعِمَّا هِىَ) إلى قوله (وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ) كان مما يُعمل به قبل نزول ما فى سورة براءة من تفصيل الزكوات ، فلما نزلت براءة قصروا عليها .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس (إنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ فَنِعِمَّا هِيَ) إلى قوله (وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِم وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) فكان هذا يعمل به قبل أن تنزل براءة ، فلما نزلت براءة بفرائض الصدقات وتفصيلها انتهت الصدقات إليها .

القول فى تأويل قوله

ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ، وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ، فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ، وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٧٥)

يعنى بذلك جل ثناؤه : الذين يُرْبون ، والإرباء : الزيادة على الشىء ، يقال منه : أربى فلان على فلان : إذا زاد عليه، يُربى إرباء ، والزيادة هى الربا، وربا الشىء : إذا زاد على ما كان عليه فعظم ، فهو يربو رَبْوا . وإنما قيل للرابية[١] ، لزيادتها فى العظم والإشراف على ما استوى من الأرض مما حولها، من قولهم: ربا يربو ، ومن ذلك قيل : فلان فى ربا قومه، يراد أنه فى رفعة وشرف منهم ، فأصل الربا الإنافة والزيادة، ثم يقال: أربى فلان : أى أناف، صيره زائدا . وإنما قيل للمُرْبى مرب ، لتضعيفه المال الذى كان له على غريمه حالا ، أو لزيادته عليه فيه ، لسبب الأجل الذى يؤخره إليه ، فيزيده إلى أجله الذى كان له قبل حلّ دينه عليه ، ولذلك قال جلّ ثناؤه (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تأكُلُوا الرِّبا أضْعافاً مُضاعَفَةً) .

وبمثل الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قال فى الربا الذى نهى الله عنه : كانوا فى الجاهلية يكون للرجل على الرجل الدين ، فيقول : لك كذا وكذا ، وتؤخر عنى ، فيؤخر عنه .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنى بشر ، قال: ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة : أن ربا الجاهلية، يبيع الرجل البيع إلى أجل مسمى ، فإذا حلّ الأجل ولم يكن عند صاحبه قضاء ، زاده وأخر عنه ، فقال جل ثناؤه للذين يُربون الربا الذى وصفنا صفته فى الدنيا : لايقومون فى الآخرة من قبورهم إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المسّ ، يعنى بذلك : يتخبّله الشيطان فى الدنيا ، وهو الذى يتخبطه ، فيصرعه من المسّ ، يعنى من الجنون .

وبمثل ما قلنا فى ذلك قال أهل التأويل :

ذكر من قال ذلك :

(١) لعل أصل العبارة : وإنما قيل للرابية رابية ... الخ .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله عزّ وجلّ (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لايَقُومُونَ إلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ المَسِّ) : يوم القيامة فى أكل الربا فى الدنيا .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا الحجاج بن المنهال ، قال : ثنا ربيعة بن كلثوم ، قال : ثنى أبى ، عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس : (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لايَقُومُونَ إلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ المَسِّ) قال : ذلك حين يبعث من قبره .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا مسلم بن إبراهيم ، قال : ثنا ربيعة بن كلثوم ، قال : ثنى أبى ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : يقال يوم القيامة لآكل الربا : خذ سلاحك للحرب ، وقرأ (لايَقُومُونَ إلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ المَسِّ) قال : ذلك حين يبعث من قبره .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن أشعث ، عن جعفر ، عن سعيد بن جبير (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لايَقُومُونَ إلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ المَسِّ) . . . الآية ، قال : يُبعث آكل الربا يوم القيامة مجنونا يُخنق .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لايَقُومُونَ) الآية ، وتلك علامة أهل الربا يوم القيامة ، بعثوا ، وبهم خَبَل من الشيطان .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، فى قوله (لايَقُومُونَ إلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ المَسِّ) قال : هو التخبل الذى يتخبله الشيطان من الجنون .

حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع فى قوله (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لايَقُومُونَ إلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ المَسِّ) قال : يبعثون يوم القيامة وبهم خَبَل من الشيطان ، وهى فى بعض القراءة : « لايقومون يوم القيامة » .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك ، فى قوله (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لايَقُومُونَ إلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ المَسِّ) قال : من مات وهو يأكل الربا ، بعث يوم القيامة متخبطا ، كالذى يتخبطه الشيطان من المسّ .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لايَقُومُونَ إلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ المَسِّ) يعنى : من الجنون .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لايَقُومُونَ إلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ المَسِّ) قال : هذا مثلهم يوم القيامة

لايقومون يوم القيامة مع الناس ، إلا كما يقوم الذى يُخنق مع الناس يوم القيامة[١] كأنه خنق . كأنه مجنون، ومعنى قوله (يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ) يتخبله من مسه إياه، يقال منه : قد مُسّ الرجل وأُلق، فهو ممسوس ومألوق ، كل ذلك إذا ألمّ به اللَّمَم فجنّ ، ومنه قول الله عزّ وجلّ (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا) ، ومنه قول الأعشى :

وَتُصْبِحُ عن غِبِّ السُّرَى وكأنما   أَلَمَّ بها من طائفِ الجِنّ أَوْلَقُ[٢]

فإن قال لنا قائل : أفرأيت من عمل ما نهى الله عنه من الربا فى تجارته ولم يأكله ، أيستحقّ هذا الوعيد من الله ؟ قيل : نعم ، وليس المقصود من الربا فى هذه الآية الأكل ، إلا أن الذين نزلت فيهم هذه الآيات يوم نزلت ، كانت طعمتهم ومأكلهم من الربا ، فذكرهم بصفتهم ، معظما بذلك عليهم أمر الربا ، ومقبحا إليهم الحال التى هم عليها فى مطاعمهم . وفى قوله جل ثناؤه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) . . . الآية ، ما ينبئ عن صحة ما قلنا فى ذلك ، وأن التحريم من الله فى ذلك كان لكل معانى الربا ، وأن سواء العمل به وأكله وأخذه وإعطاؤه ، كالذى تظاهرت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله : « لَعَنَ اللهُ آكِلَ الرِّبا ، وَمُؤْكِلَهُ ، وكاتِبَهُ ، وَشاهِدَيْهِ إِذَا عَلِمُوا بِهِ » .

القول فى تأويل قوله (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا) :

يعنى بذلك جل ثناؤه : ذلك الذى وصفهم به من قيامهم يوم القيامة من قبورهم كقيام الذى يتخبطه الشيطان من المسّ من الجنون ، فقال تعالى ذكره هذا الذى ذكرنا أنه يصيبهم يوم القيامة من قبح حالهم ، ووحشة قيامهم من قبورهم ، وسوء ماحلّ بهم ، من أجل أنهم كانوا فى الدنيا يكذبون ويفترون ويقولون : إنما البيع الذى أحله الله لعباده مثل الربا ، وذلك أن الذين كانوا يأكلون من الربا من أهل الجاهلية ، كان إذا حلّ مال أحدهم على غريمه ، يقول الغريم لغريم الحقّ : زدنى فى الأجل ، وأزيدك فى مالك ، فكان يقال لهما إذا فعلا ذلك : هذا ربا لايحلّ ، فإذا قيل لهما ذلك ، قالا : سواء علينا زدنا فى أول البيع أو عند مَحِلّ المال . فكذّبهم الله فى قيلهم ، فقال : (وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ) .

القول فى تأويل قوله (وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ، فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ ، وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ، وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) .

يعنى جل ثناؤه : وأحلّ الله الأرباح فى التجارة والشراء والبيع ، وحرّم الربا ، يعنى الزيادة التى يزاد ربّ المال ، بسبب زيادته غريمه فى الأجل ، وتأخيره دَيْنه عليه . يقول عزّ وجلّ : وليست الزيادتان اللتان

(١) قوله « مع الناس يوم القيامة » الخ ، هكذا فى الأصل . ولعل هنا تكرارا أو تحريفا من الناسخ .

(٢) البيت لأبى بصير الأعشى ، من قصيدته المشهورة فى مدح المحلق عبد العزيز بن حنتم بن شداد بن ربيعة (ديوانه ص ٢٢١) . وغب الشيء : عاقبته وما يليه . والسرى : سير الليل . وألم بها : خالطها ؛ والطائف : ما يمس الإنسان ويطوف به . والأولق : الجنون . يقال : ألق الرجل ألقا : جن ، فهو مألوق وبه أولق . يقول : تسير بالليل سيرا طويلا مجهدا ، فإذا أصبحت فكأن بها مسا من الجن ، من نشاطها وقوتها على استئناف السير .

إحداهما من وجه البيع ، والأخرى من وجه تأخير المال ، والزيادة فى الأجل سواء ، وذلك أنى حرمت إحدى الزيادتين ، وهى التى من وجه تأخير المال ، والزيادة فى الأجل ؛ وأحللت الأخرى منهما ، وهى التى من وجه الزيادة على رأس المال الذى ابتاع به البائع سلعته التى يبيعها ، فيستفضل فضلها . فقال الله عزّ وجلّ : ليست الزيادة من وجه البيع نظير الزيادة من وجه الربا ، لأنى أحللت البيع ، وحرّمت الربا ، والأمر أمرى والخلق خلقى ، أقضى فيهم ما أشاء ، وأستعبدهم بما أريد ، ليس لأحد منهم أن يعترض فى حكمى ، ولا أن يخالف فى أمرى ، وإنما عليهم طاعتى والتسليم لحكمى . ثم قال جل ثناؤه : (فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فانْتَهَى) يعنى بالموعظة : التذكير والتخويف الذى ذكّرهم وخوّفهم به فى آى القرآن ، وأوعدهم على أكلهم الربا من العقاب ، يقول جل ثناؤه : فمن جاءه ذلك ، فانتهى عن أكل الربا ، وارتدع عن العمل به ، وانزجر عنه ، فله ما سلف ، يعنى ما أكل وأخذ ، فمضى قبل مجىء الموعظة والتحريم من ربه فى ذلك . (وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ) يعنى وأمر آكله بعد مجيئه الموعظة من ربه والتحريم ، وبعد انتهاء آكله عن أكله ، إلى الله فى عصمته وتوفيقه ، إن شاء عصمه عن أكله ، وثبته فى انتهائه عنه ، وإن شاء خذله عن ذلك . (وَمَنْ عادَ) يقول : ومن عاد لأكل الربا بعد التحريم ، وقال ما كان يقوله قبل مجىء الموعظة من الله بالتحريم من قوله : (إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) : يعنى ففاعلو ذلك وقائلوه هم أهل النار ، يعنى نار جهنم فيها خالدون .

وبنحو ما قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ : (فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فانْتَهَى فَلَهُ ما سَلَفَ وأَمْرُهُ إلى اللهِ) أما الموعظة فالقرآن ، وأما ماسلف : فله ما أكل من الربا .

القول فى تأويل قوله

يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا وَيُرْبِي الصَّدَقَٰتِ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦)

يعنى عزّ وجلّ بقوله (يَمْحَقُ اللهُ الرِّبا) : ينقص الله الربا فيذهبه .

كما حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس (يَمْحَقُ اللهُ الرِّبا) قال : ينقص . وهذا نظير الخبر الذى روى عن عبد الله بن مسعود ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الرِّبا وَإِنْ كَثُرَ فإلى قُلّ » . وأما قوله (وَيُرْبِى الصَّدَقاتِ) فإنه جل ثناؤه يعنى : أنه يضاعف أجرها لربها ، وينميها له . وقد بينا معنى الربا قبل والإرباء وما أصله ، بما فيه الكفاية من إعادته .

فإن قال لنا قائل : وكيف إرباء الله الصدقات ؟ قيل : إضعافه الأجر لربها ، كما قال جل ثناؤه : (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِى كُلِّ

سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ) وكما قال : (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً) .

وكما حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا وكيع ، قال : ثنا عباد بن منصور ، عن القاسم أنه سمع أبا هريرة يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقْبَلُ الصَّدَقَةَ وَيَأْخُذُهَا بِيَمِينِهِ ، فَيُرَبِّيهَا لأَحَدِكُمْ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ مُهْرَهُ ، حتى إنَّ اللُّقْمَةَ لَتَصِيرُ مِثْلَ أُحُدٍ ، وتصديق ذلك فى كتاب الله عزّ وجل : (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ، ويأخذ الصَّدَقَاتِ ، وَيَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا ويُرْبِي الصَّدَقَاتِ » .

حدثني سليمان بن عمر بن خالد الأقطع ، قال : ثنا ابن المبارك ، عن سفيان ، عن عباد بن منصور ، عن القاسم بن محمد ، عن أبي هريرة ، ولا أراه إلا قد رفعه ، قال : إن الله عزّ وجلّ يقبل الصدقة ، ولا يقبل إلا الطيب .

حدثني محمد بن عمرو بن عليّ المقدمي ، قال : ثنا ريحان بن سعيد ، قال : ثنا عباد ، عن القاسم ، عن عائشة ، قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقْبَلُ الصَّدَقَةَ وَلا يَقْبَلُ مِنْهَا إلاَّ الطَّيِّبَ ، وَيُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهَا ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ مُهْرَهُ أَوْ فَصِيلَهُ ، حتى إن اللُّقْمَةَ لَتَصِيرُ مِثْلَ أُحُدٍ ، وتصديق ذلك فى كتاب الله عزّ وجلّ (يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ) .

حدثني محمد بن عبد الملك ، قال : ثنا عبد الرزاق ، قال : ثنا معمر ، عن أيوب ، عن القاسم بن محمد ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ العَبْدَ إذَا تَصَدَّقَ مِنْ طَيِّبٍ تَقَبَّلَهَا اللهُ مِنْهُ ، وَيَأْخُذُهَا بِيَمِينِهِ ، وَيُرَبِّيهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ مُهْرَهُ أَوْ فَصِيلَهُ ، وَإنَّ الرَّجُلَ لَيَتَصَدَّقُ بِاللُّقْمَةِ ، فَتَرْبُو فِي يَدِ اللهِ ، أو قال : فى كفِّ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، حتى تَكُونَ مِثْلَ أُحُدٍ ، فَتَصَدَّقُوا » .

حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، قال : ثنا المعتمر بن سليمان ، قال : سمعت يونس ، عن صاحب له ، عن القاسم بن محمد ، قال : قال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَتَقَبَّلُ الصدَقَةَ بِيَمِينِهِ ، وَلا يَقْبَلُ مِنْهَا إلاَّ مَا كَانَ طَيِّبًا ، وَاللهُ يُرَبِّي لأَحَدِكُمْ لُقْمَتَهُ ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ مُهْرَهُ وَفَصِيلَهُ ، حتى يُوَافِيَ بِهَا يَوْمَ القِيَامَةِ وَهِيَ أَعْظَمُ مِنْ أُحُدٍ » .

وأما قوله (وَاللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ) فإنه يعني به : والله لا يحب كل مصرّ على كفر بربه ، مقيم عليه ، مستحلّ أكل الربا وإطعامه ، أثيم متمادٍ فى الإثم فيما نهاه عنه من أكل الربا والحرام وغير ذلك من معاصيه ، لا ينزجر عن ذلك ، ولا يرعوى عنه ، ولا يتعظ بموعظة ربه التي وعظه بها فى تنزيله وآي كتابه .

القول فى تأويل قوله

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ، لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧)

وهذا خبر من الله عزّ وجلّ بأن الذين آمنوا ، ، يعنى الذين صدقوا بالله وبرسوله ، وبما جاء به من عند ربهم من تحريم الربا وأكله ، وغير ذلك من سائر شرائع دينه ، وعملوا الصالحات التى أمرهم الله عزّ وجلّ بها ، والتى ندبهم إليها ، وأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها ، وأدّوها بسننها ، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم فى أموالهم . بعد الذى سلف منهم من أكل الربا ، قبل مجىء الموعظة فيه من عند ربهم ، لهم أجرهم ، يعنى ثواب ذلك من أعمالهم وإيمانهم وصدقتهم عند ربهم يوم حاجتهم إليه فى معادهم ، ولا خوف عليهم يومئذ من عقابه على ما كان سلف منهم فى جاهليتهم وكفرهم ، قبل مجيئهم موعظة من ربهم ، من أكل ما كانوا أكلوا من الربا ، بما كان من إنابتهم ، وتوبتهم إلى الله عزّ وجلّ من ذلك عند مجيئهم الموعظة من ربهم ، وتصديقهم بوعد الله ووعيده ، ولا هم يحزنون على تركهم ما كانوا تركوا فى الدنيا ، من أكل الربا والعمل به ، إذا عاينوا جزيل ثواب الله تبارك وتعالى ، وهم على تركهم ما تركوا من ذلك فى الدنيا ابتغاء رضوانه فى الآخرة . فوصلوا إلى ما وعدوا على تركه .

القول فى تأويل قوله

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨)

يعنى جل ثناؤه بذلك : يا أيها الذين آمنوا ، صدّقوا بالله وبرسوله . اتقوا الله : يقول : خافوا الله على أنفسكم ، فاتقوه بطاعته فيما أمركم به ، والانتهاء عما نهاكم عنه . وذروا ، يعنى ، ودعوا ما بقى من الربا ، يقول : اتركوا طلب مابقى لكم من فضل على رءوس أموالكم التى كانت لكم قبل أن تُرْبوا عليها ، إن كنتم مؤمنين ، يقول : إن كنتم محققين إيمانكم قولا ، وتصديقكم بألسنتكم بأفعالكم . وذُكِر أن هذه الآية نزلت فى قوم أسلموا ، ولهم على قوم أموال من ربا كانوا أربوه عليهم ، فكانوا قد قبضوا بعضه منهم ، وبقى بعض ، فعفا الله جل ثناؤه لهم عما كانوا قد قبضوه قبل نزول هذه الآية ، وحرّم عليهم اقتضاء ما بقى منه .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى موسى بن هارون ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى : (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا ما بَقِىَ مِنَ الرِّبا) إلى (وَلا تُظْلَمُونَ) قال : نزلت هذه الآية فى العباس بن عبد المطلب ورجل من بنى المغيرة ، كانا شريكين فى الجاهلية ، سلفا فى الربا إلى أناس من ثقيف من

بنى عمرو ، وهم بنو عمرو بن عمير ، فجاء الإسلام ولهما أموال عظيمة فى الربا ، فأنزل الله (ذَرُوا ما بَقِيَ) من فضل كان فى الجاهلية (مِنَ الرِّبا) .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قوله (يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) قال : كانت ثقيف قد صالحت النبىّ صلى الله عليه وسلم على أن مالهم من ربا على الناس ، وما كان للناس عليهم من ربا ، فهو موضوع ، فلما كان الفتح ، استُعمِل عتاب بن أَسِيد على مكة ، وكانت بنو عمرو بن عمير بن عوف يأخذون الربا من بنى المغيرة ، وكانت بنو المغيرة يُرْبُون لهم فى الجاهلية ، فجاء الإسلام ولهم عليهم مال كثير ، فأتاهم بنو عمرو يطلبون رباهم ، فأبى بنو المغيرة أن يعطوهم فى الإسلام ، ورفعوا ذلك إلى عتاب بن أَسيد ، فكتب عتاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلت (يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ) إلى (وَلا تُظْلَمُونَ) ، فكتب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عتاب ، وقال : « إِنْ رَضُوا وَإِلاَّ فَآذِنْهُمْ بِحَرْبٍ » . قال ابن جريج ، عن عكرمة ، قوله (اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا) قال : كانوا يأخذون الربا على بنى المغيرة ، يزعمون أنهم مسعود ، وعبدياليل ، وحبيب ، وربيعة ، بنو عمرو بن عمير ، فهم الذين كان لهم الربا على بنى المغيرة ، فأسلم عبد ياليل وحبيب وربيعة وهلال ومسعود .

حدثنى يحيى بن أبى طالب ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا جويبر ، عن الضحاك ، فى قوله (اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) قال : كان ربا يتبايعون به فى الجاهلية ، فلما أسلموا أُمروا أن يأخذوا رءوس أموالهم .

القول فى تأويل قوله

فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ، وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩)

يعنى جل ثناؤه بقوله (فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا) : فإن لم تذروا ما بقى من الربا .

واختلف القراء فى قراءة قوله (فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ) ، فقرأته عامة قرّاء أهل المدينة ، (فَأْذَنُوا) بقصر الألف من فأذنوا ، وفتح ذالها ، بمعنى كونوا على علم وإذن . وقرأه آخرون ، وهى قراءة عامة قراء الكوفيين (فَآذِنُوا) بمدّ الألف من قوله : فآذنوا وكسر ذالها ، بمعنى : فآذنوا غيركم : أعلموهم وأخبروهم بأنكم على حربهم .

وأولى القراءتين بالصواب فى ذلك : قراءة من قرأ (فَأْذَنُوا) بقصر ألفها وفتح ذالها ، بمعنى : اعلموا ذلك واستيقنوه ، وكونوا على إذن من الله عزّ وجل لكم بذلك ، وإنما اخترنا ذلك ، لأن الله عزّ وجلّ أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن ينبذ إلى من أقام على شركه ، الذى لا يقرّ على المقام عليه ، وأن يقتل المرتدّ عن

الإسلام منهم بكل حال ، إلا أن يراجع الإسلام . آذنه المشركون بأنهم على حربه أو لم يأذنوه ، فإذ كان المأمور بذلك لا يخلو من أحد أمرين : إما أن يكون كان مشركا مقيما على شركه الذى لا يقرّ عليه ، أو يكون كان مسلما فارتدّ وأذن بحرب ، فأىّ الأمرين كان ، فإنما نبذ إليه بحرب ، لأنه أمر بالإيذان بها إن عزم على ذلك ، لأن الأمر إن كان إليه ، فأقام على أكل الربا مستحلا له ، ولم يؤْذِن المسلمون بالحرب ، لم يلزمهم حربه ، وليس ذلك حكمه فى واحدة من الحالين ، فقد علم أنه المأذون بالحرب لا الآذن بها ، وعلى هذا التأويل تأوّله أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، فى قوله : (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا) إلى قوله (فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ) : فمن كان مقيما على الربا لا ينزع عنه ، فحقّ على إمام المسلمين أن يستتيبه ، فإن نزع ، وإلا ضرب عنقه .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا مسلم بن إبراهيم ، قال : ثنا ربيعة بن كلثوم ، قال : ثنى أبى ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : يقال يوم القيامة لآكل الربا : خذ سلاحك للحرب .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا الحجاج ، قال : ثنا ربيعة بن كلثوم ، قال : ثنى أبى ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، مثله .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قوله (وَذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، فإنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ) : أوعدهم الله بالقتل كما تسمعون ، فجعلهم بَهْرَجًا[1] أينما ثُقفوا .

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا ابن علية ، عن سعيد بن أبى عروبة ، عن قتادة ، مثله .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (فإنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ) أوعد لآكل الربا بالقتل .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس ، قوله (فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ) : فاستيقنوا بحرب من الله ورسوله .

وهذه الأخبار كلها تنبئ عن أن قوله (فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ) إيذان من الله عزّ وجلّ لهم بالحرب والقتل ، لا أمر لهم بإيذان غيرهم .

القول فى تأويل قوله (وَإنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أمْوالِكُمْ) :

يعنى جل ثناؤه بذلك : إن تبتم فتركتم أكل الربا ، وأنبتم إلى الله عزّ وجلّ ، فلكم رءوس أموالكم من الديون التى لكم على الناس دون الزيادة التى أحدثتموها على ذلك ربا منكم .

كما حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة : (وَإنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوس

(١) بهرجا : أى مباحة دماؤهم .

أَمْوَالِكُمْ) المال الذى لهم على ظهور الرجال ، جعل لهم رُءُوسَ أموالهم حين نزلت هذه الآية . فأما الربح والفضل فليس لهم ، ولا ينبغى لهم أن يأخذوا منه شيئا .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عمرو بن عون ، قال : ثنا هشيم ، عن جويبر ، عن الضحاك ، قال : وضع الله الربا ، وجعل لهم رءوس أموالهم .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا ابن علية ، عن سعيد بن أبى عروبة ، عن قتادة ، فى قوله (وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ) قال : ما كان لهم من دَين ، فجعل لهم أن يأخذوا رءوس أموالهم ، ولا يزدادوا عليه شيئا .

حدثنى موسى بن هارون ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ) ، الذى أسلفتم ، وسقط الربا .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، ذكر لنا أن نبىّ الله صلى الله عليه وسلم قال فى خطبته يوم الفتح : « ألاَ إنّ رِبَا الجاهلِيَّةِ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ ، وأوّلُ رِباً أبْتَدِىءُ به رِبَا العَبَّاسِ ابْنِ عَبْدِ المُطَّلِب » .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى خطبته : « إنّ كُلَّ رِباً مَوْضُوعٌ ، وأوّلُ رِباً يُوضَعُ رِبا العَبَّاس » .

القول فى تأويل قوله (لاتَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ)

يعنى بقوله (لاتَظْلِمُونَ) بأخذكم رءوسَ أموالكم التى كانت لكم قبل الإرباء على غرمائكم منهم ، دون أرباحها التى زدتموها ربا على من أخذتم ذلك منه من غرمائكم ، فتأخذوا منهم ما ليس لكم أخذه ، أو لم يكن لكم قبل (وَلا تُظْلَمُونَ) يقول : ولا الغريم الذى يعطيكم ذلك دون الربا الذى كنتم ألزمتموه من أجل الزيادة فى الأجل يبخسكم حقا لكم عليه ، فيمنعكموه ، لأن ما زاد على رءوس أموالكم ، لم يكن حقا لكم عليه ، فيكون بمنعه إياكم ذلك ظالما لكم .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك كان ابن عباس يقول وغيره من أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس : (وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاتَظْلِمُونَ) فتربون ، (ولا تُظْلَمون) فتنقصون .

وحدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (فَلَكُمْ رُءوسُ أَمْوَالِكُمْ لاتَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ) : قال : لاتنقصون من أموالكم ، ولا تأخذون باطلا لايحلّ لكم .

القول فى تأويل قوله

وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ، وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠)

يعنى جل ثناؤه بذلك : وإن كان ممن تقبضون منه من غرمائكم رءوس أموالكم ذو عسرة ، يعنى معسرا برءوس أموالكم التى كانت لكم عليهم قبل الإرباء ، فأنظروهم إلى ميسرتهم . وقوله (ذُو عُسْرَةٍ) : مرفوع بكان ، فالخبر متروك ، وهو ما ذكرنا ، وإنما صلح ترك خبرها من أجل أن النكرات تضمر لها العرب أخبارها . ولو وجهت كان فى هذا الموضع إلى أنها بمعنى الفعل المكتفى بنفسه التام ، لكان وجها صحيحا ، ولم يكن بها حاجة حينئذ إلى خبر ، فيكون تأويل الكلام عند ذلك : وإن وُجِد ذو عسرة من غرمائكم برءوس أموالكم ، فنظرة إلى ميسرة .

وقد ذكر أن ذلك فى قراءة أبىّ بن كعب (وَإِنْ كانَ ذا عُسْرَةٍ) بمعنى : وإن كان الغريم ذا عسرة ، فنظرة إلى ميسرة ، وذلك وإن كان فى العربية جائزا ، فغير جائزة القراءة به عندنا ، لخلافه خطوط مصاحف المسلمين .

وأما قوله (فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرَةٍ) فإنه يعنى : فعليكم أن تُنظروه إلى ميسرة ، كما قال (فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أوْ بِهِ أذًى مِنْ رأسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيامٍ) وقد ذكرنا وجه رفع ما كان من نظائرها فيما مضى قبل ، فأغنى عن تكريره . والميسَرة : المفعَلة من اليسر ، مثل المرحمة والمشأمة .

ومعنى الكلام : وإن كان من غرمائكم ذو عسرة ، فعليكم أن تُنظروه حتى يوسر بما ليس[1] لكم ، فيصير من أهل اليسر به .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى واصل بن عبد الأعلى ، قال : ثنا محمد بن فضيل ، عن يزيد بن أبى زياد ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، فى قوله (وَإنْ كانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرَةٍ) قال : نزلت فى الربا .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا هشيم ، قال : ثنا هشام ، عن ابن سيرين : أن رجلا خاصم رجلا إلى شريح ، قال : فقضى عليه ، وأمر بحبسه ، قال : فقال رجل عند شريح : إنه معسر ، واللهُ يقول فى كتابه (وَإنْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرَةٍ) قال : فقال شريح : إنما ذلك فى الربا ، وإن الله قال فى كتابه (إنَّ اللهَ يَأمُرُكُمْ أنْ تُؤَدُّوا الأماناتِ إلى أهْلِها ، وَإذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أنْ تَحْكُمُوا بالعَدْلِ) ، ولا يأمرنا الله بشىء ، ثم يعذّبنا عليه .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا مغيرة ، عن إبراهيم فى قوله (وَإنْ كانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرَةٍ) قال : ذلك فى الربا .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا مغيرة ، عن الحسن ، أن الربيع بن خيثم كان له على رجل حقّ ، فكان يأتيه ، ويقوم على بابه ، ويقول : أى فلان إن كنت موسرا فأدّ ، وإن كنت معسرا فإلى ميسرة .

(١) كذا فى الأصل . ولعل « ليس » زائدة من الناسخ .

حدثنا يعقوب ، قال : ثنا ابن علية ، عن أيوب ، عن محمد ، قال : جاء رجل إلى شريح ، فكلمه ، فجعل يقول : إنه معسر ، إنه معسر ، قال : فظننت أنه يكلمه فى محبوس ، فقال شريح : إن الربا كان فى هذا الحىّ من الأنصار ، فأنزل الله عزّ وجلّ : (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ) وقال الله عزّ وجلّ : (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا) فما كان الله عزّ وجلّ يأمرنا بأمر ، ثم يعذّبنا عليه ، أدّوا الأمانات إلى أهلها .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا ابن علية ، عن سعيد ، عن قتادة فى قوله (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ) قال : فنظرة إلى ميسرة برأس ماله .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس : (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ) : إنما أمر فى الربا أن يُنظر المعسر ، وليست النظرة فى الأمانة ، ولكن يؤدّى الأمانة إلى أهلها .

حدثنى موسى ، قال : ثناعمرو بن حماد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ) برأس المال إ(إِلَى مَيْسَرَةٍ) يقول : إلى غنى .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ) هذا فى شأن الربا .

حدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ ، قال : أخبرنا عبيد بن سلمان ، قال : سمعت الضحاك فى قوله (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ) هذا فى شأن الربا ، وكان أهل الجاهلية بها يتبايعون ، فلما أسلم من أسلم منهم ، أمروا أن يأخذوا رءوس أموالهم .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظْرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ) : يعنى المطلوب .

حدثنى ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن إسرائيل ، عن جابر ، عن أبى جعفر فى قوله (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ) : قال : الموت .

حدثنا أحمد بن إسحاق ، قالى : ثنا أبوأحمد ، قال : ثنا إسرائيل ، عن جابر ، عن محمد بن علىّ ، مثله .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا قبيصة بن عقبة ، قال : ثنا سفيان ، عن المغيرة ، عن إبراهيم (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ) قال : هذا فى الربا .

حدثنا أحمد بن إسحاق ، قال : ثنا أبوأحمد ، قال : ثنا شريك ، عن منصور ، عن إبراهيم فى الرجل يتزوّج إلى الميسرة ، قال : إلى الموت أو إلى فرقة .

حدثنا أحمد ، قال : ثنا أبو أحمد ، قال : ثنا هشيم ، عن مغيرة ، عن إبراهيم (فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ) قال : ذلك فى الربا .

حدثنا أحمد ، قال : ثنا أبو أحمد ، قال : ثنا مندل ، عن ليث ، عن مجاهد (فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرَةٍ) قال : يؤخره ولا يزد عليه ، وكان إذا حلّ دين أحدهم فلم يجد ما يعطيه ، زاد عليه وأخره .

وحدثنا أحمد بن حازم ، قال : ثنا أبو نعيم ، قال : ثنا مندل ، عن ليث ، عن مجاهد (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرَةٍ) قال : يؤخره ولا يزد عليه .

وقال آخرون : هذه الآية عامة فى كل من كان له قِبَل رجل معسر حق من أىّ وجهة كان ذلك الحق ، من دين حلال أو ربا .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى يحيى بن أبى طالب ، قال : أخبرنا يزيد ، قال : أخبرنا جويبر ، عن الضحاك ، قال : من كان ذا عسرة فنظرة إلى ميسرة ، وأن تصدّقوا خير لكم ؛ قال : وكذلك كل دين على مسلم ، فلا يحلّ لمسلم له دين على أخيه يعلم منه عسرة ، أن يسجنه ولا يطلبه ، حتى ييسره الله عليه ، وإنما جعل النظرة فى الحلال فمن أجل ذلك كانت الديون على ذلك .

حدثنى علىّ بن حرب ، قال : ثنا ابن فضيل ، عن يزيد بن أبى زياد ، عن مجاهد ، عن ابن عباس (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرَةٍ) قال : نزلت فى الدين .

والصواب من القول فى قوله (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرَةٍ) : أنه معنىٌّ به غرماء الذين كانوا أسلموا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهم عليهم ديون قد أربوا فيها فى الجاهلية ، فأدركهم الإسلام قبل أن يقبضوها منهم ، فأمر الله بوضع ما بقى من الربا بعد ما أسلموا ، وبقبض رءوس أموالهم ، ممن كان منهم من غرمائهم موسرا ، وإنظار من كان منهم معسرا برءوس أموالهم إلى ميسرتهم ، فذلك حكم كل من أسلم وله ربا قد أربى على غريم له ، فإن الإسلام يبطل عن غريمه ما كان له عليه من قِبَل الربا ، ويلزمه أداء رأس ماله الذى كان أخذ منه ، أولزمه من قِبَل الإرباء إليه ، إن كان موسرا ، وإن كان معسرا كان منظرا برأس مال صاحبه إلى ميسرته ، وكان الفضل على رأس المال مبطلا عنه .

غير أن الآية وإن كانت نزلت فيمن ذكرنا وإياهم عنى بها ، فإن الحكم الذى حكم الله به من إنظاره المعسر برأس مال المربى بعد بطول الربا عنه ، حكم واجب لكل من كان عليه دين لرجل قد حلّ عليه ، وهو بقضائه معسر فى أنه منظر إلى ميسرته ، لأن دين كل ذى دين فى مال غريمه ، وعلى غريمه قضاؤه منه ، لا فى رقبته ، فإذا عدم ماله ، فلا سبيل له على رقبته بحبس ولا بيع ، وذلك أن مال ربّ الدين لن يخلو من أحد وجوه ثلاثة : إما أن يكون فى رقبة غريمه ، أو فى ذمته يقضيه من ماله ، أو فى مال له بعينه ؛ فإن يكن فى مال له بعينه ، فمتى بطل ذلك المال وعُدِم ، فقد بطل دين ربّ المال ، وذلك ما لايقوله أحد ، ويكون فى رقبته ، فإن يكن كذلك فمتى عدمت نفسه ، فقد بطل دين ربّ الدين ، وإن خلف الغريم وفاء بحقه وأضعاف ذلك ، وذلك أيضا لايقوله أحد ، فقد تبين إذ كان ذلك كذلك ، أن دين ربّ المال فى ذمة غريمه ، يقضيه من ماله ، فإذا عدم ماله فلا سبيل له على رقبته ، لأنه قد عدم ما كان عليه أن يؤدى منه حقّ

صاحبه لو كان موجودا ، وإذا لم يكن على رقبته سبيل، لم يكن إلى حبسه بحقه وهو معدوم سبيل ، لأنه غير مانعه حقا له إلى قضائه سبيل ، فيعاقب بظلمه إياه بالحبس .

القول فى تأويل قوله (وأنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) :

يعنى جلّ وعزّ بذلك : وأن تتصدّقوا برءوس أموالكم على هذا المعسر ، خير لكم أيها القوم من أن تنظروه إلى ميسرته، لتقبضوا رءوس أموالكم منه إذا أيسر ، إن كنتم تعلمون موضع الفضل فى الصدقة ، وما أوجب الله من الثواب لمن وضع عن غريمه المعسر دينه .

واختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك ، فقال بعضهم : معنى ذلك : وأن تصدّقوا برءوس أموالكم على الغنىّ والفقير منهم ، خير لكم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة: (وَإنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أمْوَالِكُمْ)، والمال الذى لهم على ظهور الرجال،جعل لهم رءوس أموالهم حين نزلت هذه الآية؛فأما الربح والفضل فليس لهم ، ولا ينبغى لهم أن يأخذوا منه شيئا ، (وأنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ) يقول: وأن تصدقوا بأصل المال ، خير لكم .

حدثنى يعقوب، قال : ثنا ابن علية، عن سعيد ، عن قتادة (وأنْ تَصَدَّقُوا) : أى برأس المال ، فهو خير لكم .

وحدثنا ابن بشار ، قال: ثنا عبد الرحمن ، قال: ثنا سفيان ، عن مغيرة ، عن إبراهيم ، (وأنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ) قال : من رءوس أموالكم .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا يحيى ، عن سفيان ، عن المغيرة ، عن إبراهيم ، بمثله .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا قبيصة بن عقبة ، قال : ثنا سفيان ، عن مغيرة ، عن إبراهيم: (وأنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ) قال : أن تصدّقوا برءوس أموالكم .

وقال آخرون : معنى ذلك : وأن تصدقوا به على المعسر خير لكم ، نحو ما قلنا فى ذلك .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (وأنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ) قال : وأن تصدّقوا برءوس أموالكم على الفقير ، فهو خير لكم ، فتصدّق به العباس .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (وَإنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرَةٍ ، وأنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ) يقول: وإن تصدّقت عليه برأس مالك فهو خير لك .

حدثت عن الحسين، قال : سمعت أبا معاذ ، قال أخبرنا عبيد قال: سمعت الضحاك فى قوله : (وأنْ

تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ) يعني على المعسر . فأما الموسر فلا ، ولكن يؤخذ منه رأس المال ، والمعسر الأخذ منه حلال ، والصدقة عليه أفضل .

حدثني المثنى ، قال : ثنا عمرو بن عون ، قال : أخبرنا هشيم ، عن جويبر ، عن الضحاك : وأن تصدّقوا برءوس أموالكم خير لكم من نَظِرة إلى ميسرة . فاختار الله عزّ وجلّ الصدقة على النظارة .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ . وأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ) قال : من النَّظِرة (إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) .

حدثني يحيى بن أبى طالب ، قال : أخبرنا يزيد ، قال : أخبرنا جُويبر ، عن الضحاك (فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ، وأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ) والنظرة واجبة ، وخَيَّر الله عزّ وجلّ الصدقة على النظرة ، والصدقة لكل معسر ؛ فأما الموسر فلا .

وأولى التأويلين بالصواب : تأويل من قال : معناه : وأن تصدّقوا على المعسر برءوس أموالكم خير لكم ، لأنه يلى ذكر حكمه فى المعنيين ، وإلحاقه بالذى يليه أحبّ إلىّ من إلحاقه بالذى بعد منه ؛ وقد قيل : إن هذه الآيات فى أحكام الربا هنّ آخر آيات نزلت من القرآن .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا ابن أبى عدىّ ، عن سعيد ، وحدثني يعقوب ، قال : ثنا ابن علية ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن سعيد بن المسيب ، أن عمر بن الخطاب قال : كان آخر ما نزل من القرآن آية الربا ، وإن نبىّ الله صلى الله عليه وسلم قُبِض قبل أن يفسرها ، فدعُوا الربا والريبة .

حدثنا حميد بن مسعدة ، قال : ثنا بشر بن المفضل ، قال : ثنا داود ، عن عامر : أن عمر رضى الله عنه قام ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد : فإنه والله ما أدرى ، لعلنا نأمركم بأمر لايصلح لكم ، وما أدرى لعلنا نهاكم عن أمر يصلح لكم ، وإنه كان من آخر آيات القرآن تنزيلا آيات الربا ، فتُوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يبينه لنا ، فدعوا ما يَريبكم إلى ما لا يَريبكم .

حدثني أبو زيد عُمر بن شبّة ، قال : ثنا قبيصة ، قال : ثنا سفيان الثورىّ ، عن عاصم ، عن الأحول ، عن الشعبىّ ، عن ابن عباس ، قال : آخر ما أُنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية الربا ، وإنا لنأمر بالشىء لاندرى لعلّ به بأسا ، وننهى عن الشىء لعله ليس به بأس .

القول فى تأويل قوله

وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١)

وقيل : هذه الآية أيضا آخر آيه نزلت من القرآن .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا أبو تُميلة ، قال : ثنا الحسين بن واقد ، عن يزيد النحوىّ ، عن عكرمة ،

عن ابن عباس ، قال : آخر آية نزلت على النبيّ صلى الله عليه وسلم : (وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ) .

حدثني محمد بن سعد ، قال : ثني أبي ، قال : ثني عمى ، قال : ثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس : (وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ) . . . الآية ، فهي آخر آية من الكتاب أنزلت .

حدثني محمد بن عمارة ، قال : ثنا إسماعيل بن سهل بن عامر ، قال : ثنا مالك بن مغول ، عن عطية ، قال : آخر آية نزلت (وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لايُظْلَمُونَ) .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبي ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن السدىّ ، قال : آخر آية نزلت : (وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ) .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا أبو تُميلة ، عن عبيد بن سلمان ، عن الضحاك ، عن ابن عباس وحجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس : آخر آية نزلت من القرآن (وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لايُظْلَمُونَ) قال ابن جريج : يقولون : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم مكث بعدها تسع ليال ، وبدا[1] يوم السبت ، ومات يوم الاثنين .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرني يونس ، عن ابن شهاب ، قال : ثني سعيد ابن المسيب ، أنه بلغه أن أحدث القرآن بالعرش آية الدَّين ،

يعنى بذلك جل ثناؤه : واحذروا أيها الناس يوما ترجعون فيه إلى الله ، فتلقونه فيه ، أن تردوا عليه بسيئات تهلككم ، أو بمخزيات تخزيكم ، أو بفضيحات تفضحكم ، فتهتك أستاركم ، أو بموبقات توبقكم ، فتوجب لكم من عقاب الله ما لاقِبَل لكم به ، وإنه يوم مجازاة الأعمال ، لايوم استعتاب ، ولا يوم استقالة وتوبة وإنابة ، ولكنه يوم جزاء وثواب ومحاسبة ، تُوَفَّى فيه كل نفس أجرها على ماقدمت واكتسبت من سيء وصالح ، لايغادر فيه صغيرة ولا كبيرة من خير وشرّ إلا أُحضرت ، فتوَفَّى جزاءها بالعدل من ربها ، وهم لايظلمون ، كيف يظلم من جوزى بالإساءة مثلها ، وبالحسنة عشر أمثالها ؟ كلا بل عدل عليك أيها المسىء ، وتكرم عليك ، فأفضل وأسبغ أيها المحسن ، فاتقى امرؤ ربه ، فأخذ منه حذره ، وراقبه أن يهجم عليه يومه ، وهو من الأوزار ظَهره ثقيل ، ومن صالحات الأعمال خفيف ، فإنه عزّ وجلّ حذَّر فأعذر ، ووعظ فأبلغ .

القول فى تأويل قوله تعالى

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ، وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ، فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ، فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ، وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ، فَإِن

(١) يريد أنه احتجب عن الناس لمرضه ، ثم خرج لهم يوم السبت .

لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى، وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا، وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ، ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا، إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا، وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ، وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ. وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢)

يعنى بذلك جل ثناؤه : يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله . إذا تداينتم : يعنى إذا تبايعتم بدين أواشتريتم به ، أو تعاطيتم . أو أخذتم به ؛ إلى أجل مسمى : يقول : إلى وقت معلوم وقتموه بينكم ، وقد يدخل فى ذلك القرض والسَّلَم فى كل ما جاز . السلَم : شِرًى أجَّل بيعه[١]، يصير دينا على بائع ما أسلم إليه فيه . ويحتمل بيع الحاضر الجائز بيعه من الأملاك بالأثمان المؤجلة . كل ذلك من الديون المؤجلة إلى أجل مسمى ، إذا كانت آجالها معلومة بحدّ موقوف عليه . وكان ابن عباس يقول : نزلت هذه الآية فى السَّلَم خاصة .

ذكر الراوية عنه بذلك :

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا يحى بن عيسى الرملىّ ، عن سفيان ، عن ابن أبى نجيح ، قال : قال ابن عباس . فى (يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) قال : السلم فى الحنطة فى كيل معلوم ، إلى أجل معلوم .

حدثنى محمد بن عبد الله المخرمىّ ، قال : ثنا يحى بن الصامح ، قال : ثنا ابن المبارك ، عن سفيان ، عن أبى حيان . عن ابن أبى نجيح ، عن ابن عباس (يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ) قال : نزلت فى السلَم فى كيل معلوم ، إلى أجل معلوم .

حدثنا علىّ بن سهل ، قال : ثنا يزيد بن أبى الزرقاء ، عن سفيان ، عن أبى حيان ، عن رجل ، عن ابن عباس ، قال : نزلت هذه الآية (إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ) فى السلم فى الحنطة فى كيل معلوم ، إلى أجل معلوم .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا محمد بن محبب ، قال : ثنا سفيان ، عن أبى حيان التيمىّ ، عن رجل ، عن ابن عباس ، قال : نزلت هذه الآية (يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) فى السَّلَف فى الحنطة ، فى كيل معلوم ، إلى أجل معلوم .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا معاذ بن هشام ، قال : ثنى أبى ، عن قتادة ، عن أبى حيان ، عن ابن

(١) فى الأصل : شرى أحل بيعه . . . الخ .

عباس ، قال : أشهد أن السَّلَف المضمون إلى أجل مسمى ، أن الله عزّ وجلّ قد أحله ، وأذن فيه ، ويتلو هذه الآية (إِذَا تَدَايَنتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) .

فإن قال قائل : وما وجه قوله (بِدَيْنٍ) وقد دلّ بقوله (إِذَا تَدَايَنتُمْ) عليه ، وهل تكون مداينة بغير دين ، فاحتيج إلى أن يقال بدين ؟ قيل : إن العرب لما كان مقولا عندها تداينا ، بمعنى تجازينا ، وبمعنى تعاطينا الأخذ والإعطاء بدين ، أبان الله بقوله : بدين ، المعنى الذى قصد تعريفه من قوله : تداينتم حكمه ، وأعلمهم أنه حكم الدين دون حكم المجازاة .

وقد زعم بعضهم أن ذلك تأكيد ، كقوله (فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ) ، ولا معنى لما قال من ذلك فى هذا الموضع .

القول فى تأويل قوله تعالى (فَاكْتُبُوهُ)

يعنى جل ثناؤه بقوله (فَاكْتُبُوهُ) فاكتبوا الدين الذى تداينتموه إلى أجل مسمى ، من بيع كان ذلك أو قرض .

واختلف أهل العلم فى اكتتاب الكتاب بذلك على من هو عليه ، هل هو واجب أو هو ندْب ؟ فقال بعضهم : هو حقّ واجب ، وفرض لازم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك فى قوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ) قال : من باع إلى أجل مسمى أمر أن يكتب ، صغيرا كان أو كبيرا إلى أجل مسمى .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج قوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ) قال : فمن ادّان دينا فليكتب ، ومن باع فليشهد .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع فى قوله (إِذَا تَدَايَنتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ) ، فكان هذا واجبا .

وحُدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بمثله ، وزاد فيه : قال : ثم قامت الرخصة والسعة ، قال (فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ) .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قال : ذكر لنا أن أباسليمان المرعشىّ كان رجلا صحب كعبا ، فقال ذات يوم لأصحابه : هل تعلمون مظلوما دعا ربه فلم يستجب له؟ قالوا : وكيف يكون ذلك ؟ قال : رجل باع شيئا ، فلم يكتب ولم يُشهد ، فلما حلّ ماله جحده صاحبه ، فدعا ربه ، فلم يستجب له ، لأنه قد عصى ربه .

وقال آخرون : كان اكتتاب الكتاب بالدَّين فرضا ، فنسخه قوله : (فإنْ أمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أمانَتَهُ) .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا الثورىّ ، عن ابن شُبرمة ، عن الشعبىّ ، قال : لابأس إذا أَمِنته أن لاتكتب ، ولا تُشهد لقوله (فإنْ أمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا) قال ابن عيينة : قال ابن شُبرمة عن الشعبىّ : إلى هذا انتهى .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا عبد الوهاب ، قال : ثنا داود ، عن عامر فى هذه الآية (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إلى أجَلٍ مُسَمًّى فاكْتُبُوهُ) حتى بلغ هذا المكان (فإنْ أمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أمانَتَهُ) قال : رخص فى ذلك ، فمن شاء أن يأتمن صاحبه فليأتمنه .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا هارون ، عن عمرو ، عن عاصم ، عن الشعبىّ ، قال : إن ائتمنه فلا يشهد عليه ولا يكتب .

حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن إسماعيل بن أبى خالد ، عن الشعبىّ ، قال : فكانوا يرون أن هذه الآية (فإنْ أمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا) نسخت ماقبلها من الكتابة والشهود ، رخصة ورحمة من الله .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال غير عطاء : نسخت الكتاب والشهادة (فإنْ أمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا) .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : نسخ ذلك قوله (فإنْ أمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أمانَتَهُ) قال : فلولا هذا الحرف لم يبح لأحد أن يدَّان بدين إلا بكتاب وشهداء ، أو برهن ، فلما جاءت هذه نسخت هذا كله ، صار إلى الأمانة .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا حجاج ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، عن سليمان التيمىّ ، قال : سألت الحسن قلت : كل من باع بيعا ينبغى له أن يُشهد؟ قال : ألم تر أن الله عزّ وجلّ يقول : (فَلْيُؤَدِّ الَّذِى أُوْتُمِنَ أمانَتَه) .

حدثنا محمد بن المثنى ، قال : ثنا عبد الوهاب ، قال : ثنا داود ، عن عامر فى هذه الآية (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إلى أجَلٍ مُسَمًّى فاكْتُبُوهُ) حتى بلغ هذا المكان (فإنْ أمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أمانَتَهُ) قال : رخص فى ذلك ، فمن شاء أن يأتمن صاحبه فليأتمنه .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا ابن علية ، عن داود ، عن الشعبىّ فى قوله : (فإنْ أمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا) قال : إن أشهدت فحزم ، وإن لم تشهد ففى حِلّ وسعة .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا هشيم ، عن إسماعيل بن أبى خالد ، قال : قلت للشعبىّ : أرأيت الرجل

يستدين من الرجل الشيء ، أحتم عليه أن يشهد ؟ قال : فقرأ إلى قوله (فإنْ أمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا) قد نسخ ما كان قبله .

حدثنا عمرو بن عليّ ، قال : ثنا محمد بن مروان العقيليّ ، قال : ثنا عبد الملك بن أبي نضرة ، عن أبي سعيد الخدريّ ، أنه قرأ (يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا إذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إلى أجَلٍ مُسَمًّى) قال : فقرأ إلى (فإنْ أمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا) قال : هذه نسخت ما قبلها .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كاتِبٌ بالعَدْلِ ، وَلا يَأْبَ كاتِبٌ أنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ) .

يعنى بذلك جل ثناؤه : وليكتب كتاب الدين إلى أجل مسمى بين الدائن والمدين كاتب بالعدل ، يعنى بالحقّ والإنصاف فى الكتاب الذى يكتبه بينهما ، بما لايحيف ذا الحقّ حقه ، ولا يبخسه ، ولا يوجب له حجة على من عليه دينه فيه بباطل ، ولا يلزمه ما ليس عليه .

كما حدثنا بشر قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة فى قوله : (وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كاتِبٌ بالعَدْلِ) قال : اتقى الله كاتب فى كتابه ، فلا يدعنّ منه حقا ، ولا يزيدنّ فيه باطلا .

وأما قوله (وَلا يَأْبَ كاتِبٌ أنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ) فإنه يعنى : ولا يأبينّ كاتب استكتب ذلك ، أن يكتب بينهم كتاب الدَّين ، كما علمه الله كتابته ، فخصه بعلم ذلك ، وحرّمه كثيرا من خلقه .

وقد اختلف أهل العلم فى وجوب الكتاب على الكاتب إذا استكتب ذلك ، نظير اختلافهم فى وجوب الكتاب على الذى له الحقّ .

• ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله عزّ وجلّ (وَلا يَأْبَ كاتِبٌ) قال : واجب على الكاتب أن يكتب .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قلت لعطاء قوله (وَلا يَأْبَ كاتِبٌ أنْ يَكْتُبَ) أواجب أن لايأبى أن يكتب ؟ قال : نعم ، قال ابن جريج وقال مجاهد : واجب على الكاتب أن يكتب .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح عن مجاهد (وَلا يَأْبَ كاتِبٌ أنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ) : بمثله .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن إسرائيل ، عن جابر ، عن عامر وعطاء ، قوله (وَلا يَأْبَ كاتِبٌ أنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ) قالا : إذا لم يجدوا كاتبا فدعيت ، فلا تأب أن تكتب لهم .

ذكر من قال : هى منسوخة :

قد ذكرنا جماعة ممن قال : كل ما فى هذه الآية من الأمر بالكتابة والإشهاد والرهن ، منسوخ بالآية التى فى آخرها ، وأذكر قول من تركنا ذكره هنالك ببعض المعانى .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك (وَلا يَأْبَ كاتِبٌ) قال : كانت عزيمة فنسختها (وَلا يُضارَّ كاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ) .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كاتِبٌ بالعَدْلِ ، وَلا يَأْبَ كاتِبٌ أنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ) ، فكان هذا واجبا على الكتّاب .

وقال آخرون : هو على الوجوب ، ولكنه واجب على الكاتب فى حال فراغه .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، قوله (وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كاتِبٌ بالعَدْلِ ، وَلا يَأْبَ كاتِبٌ أنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ) يقول : لايأب كاتب أن يكتب إن كان فارغا .

والصواب من القول فى ذلك عندنا : أن الله عزّ وجلّ أمر المتداينين إلى أجل مسمى باكتتاب كُتُب الدين بينهم ، وأمر الكاتب أن يكتب ذلك بينهم بالعدل ، وأمرُ الله فرض لازم ، إلا أن تقوم حجة بأنه إرشاد وندب ، ولا دلالة تدلّ على أن أمره جل ثناؤه باكتتاب الكتب فى ذلك ، وأن تقدمه إلى الكاتب ألايأبى كتابة ذلك ، ندب وإرشاد ، فذلك فرض عليهم لايسعهم تضييعه ، ومن ضيعه منهم كان حرجا بتضييعه .

ولا وجه لاعتلال من اعتلّ بأن الأمر بذلك منسوخ بقوله (فإنْ أمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أمانَتَهُ) لأن ذلك إنما أذن الله تعالى ذكره به ، حيث لاسبيل إلى الكتاب ، أو إلى الكاتب ، فأما والكتاب والكاتب موجودان ، فالفرض إذا كان الدَّين إلى أجل مسمى ، ما أمر الله تعالى ذكره به فى قوله (فاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كاتِبٌ بالعَدْلِ ، وَلا يَأْبَ كاتِبٌ أنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ) ، وإنما يكون الناسخ مالم يجز اجتماع حكمه وحكم المنسوخ فى حال واحدة ، على السبيل التى قد بيناها ، فأما ما كان أحدهما غير ناف حكم الآخر ، فليس من الناسخ والمنسوخ فى شىء .

ولو وجب أن يكون قوله (وَإنْ كُنْتُمْ على سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كاتبا فرِهانٌ مَقْبُوضَةٌ ، فإنْ أمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أمانَتَهُ) ناسخا قوله (إذا تَدايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إلى أجَلٍ مُسَمًّى فاكْتُبُوهُ ، وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كاتِبٌ بالعَدْلِ ، وَلا يَأْبَ كاتِبٌ أنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ) ، لوجب أن يكون قوله (وَإنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أوْ عَلَى سَفَرٍ أوْ جاءَ أحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الغائِطِ أوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا) ناسخا الوضوء بالماء فى الحضر عند وجود الماء فيه ، وفى السفر الذى فرضه الله عزّ وجلّ بقوله (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إذا قُمْتُمْ إلى الصَّلاةِ فاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وأيْدِيَكُمْ إلى المَرافِقِ) ، وأن يكون قوله فى كفارة الظهار (فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ) ناسخا قوله (فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أنْ يَتَماسَّا) ، فيسأل القائل إن قول الله عزّ وجل (فإنْ أمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أمانَتَهُ) ناسخ قوله (إذا

تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إلى أجَلٍ مُسَمًّى فاكْتُبُوهُ) : ما الفرق بينه وبين القائل فى التيمم ما ذكرنا قوله؟ فزعم أن كل ما أبيح فى حال الضرورة لعلة الضرورة ، ناسخ حكمه فى حال الضرورة ، حكمه فى كل أحواله . نظير قوله فى أن الأمر باكتتاب كتب الديون والحقوق منسوخ بقوله (وَإنْ كُنْتُمْ على سَفَرٍ ولَمْ تَجِدُوا كاتِباً فرِهانٌ مَقْبُوضَةٌ ، فإنْ أمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أمانَتَهُ) .

فإن قال : الفرق بينى وبينه أن قوله (فإنْ أمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا) كلام منقطع عن قوله (وَإنْ كُنْتُمْ على سَفَرٍ ولَمْ تَجِدُوا كاتِباً فرِهانٌ مَقْبُوضَةٌ) وقد انتهى الحكم فى السفر إذا عدم فيه الكاتب بقوله (فرِهانٌ مَقْبُوضَةٌ) وإنما عنى بقوله (فإنْ أمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا) إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى ، فأمن بعضكم بعضا ، فليؤدّ الذى اؤتمن أمانته ، قيل له : وما البرهان على ذلك من أصل أو قياس ، وقد انقضى الحكم فى الدين الذى فيه إلى الكاتب والكتاب سبيل بقوله (وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ ، واللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) . وأما الذين زعموا أن قوله (فاكْتُبُوهُ) وقوله (ولا يَأْبَ كاتِبٌ) ، على وجه الندب والإرشاد ، فإنهم يسألون البرهان على دعواهم فى ذلك ، ثم يعارضون بسائر أمر الله عزّ وجلّ الذى أمر فى كتابه ، ويسألون الفرق بين ما ادّعوا فى ذلك ، وأنكروه فى غيره ، فلن يقولوا فى شىء من ذلك قولا إلا ألزموا فى الآخر مثله .

ذكر من قال العدل فى قوله (ولْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كاتِبٌ بالعَدْلِ) : الحق[1] .

القول فى تأويل قوله (ولْيُمْلِلِ الَّذى عَلَيْهِ الحَقُّ ولْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ ، ولا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا) .

يعنى بذلك : فليكتب الكاتب ، وليملل الذى عليه الحقّ ، وهو الغريم المدين ، يقول : ليتولّ المدين إملال كتاب ما عليه من دين ربّ المال على الكاتب ، وليتّق الله ربه المملى الذى عليه الحقّ ، فليحذر عقابه فى بخس الذى له الحقّ من حقه شيئا ، أن ينقصه منه ظلما ، أو يذهب به منه تعدّيا ، فيؤخذ به ، حيث لايقدر على قضائه إلا من حسناته ، أو أن يتحمل من سيئاته .

كما حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (فلْيَكْتُبْ ولْيُمْلِلِ الَّذى عَلَيْهِ الحَقُّ) فكان هذا واجبا (ولْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ ، ولا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا) يقول : لايظلم منه شيئا .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (ولا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا) قال : لاينقص من حقّ هذا الرجل شيئا إذا أملى .

القول فى تأويل قوله (فإنْ كانَ الذى عَلَيْهِ الحَقُّ سَفِيهاً أوْ ضَعِيفاً ، أو لايَسْتَطِيعُ أنْ يُمِلَّ هُوَ فلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بالعَدْلِ) يعنى بقوله جلّ ثناؤه (فإنْ كانَ الَّذى عَلَيْهِ الحَقُّ سَفِيها أوْضَعِيفا) فإن كان المدين الذى عليه المال سفيها ، يعنى جاهلا بالصواب فى الذى عليه أن يمله على الكاتب .

---

(١) كذا فى النسخ ، ولم يذكر أحدا ممن قال بهذا .

كما حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (فَإِنْ كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الحَقُّ سَفِيهاً) أما السفيه : فالجاهل بالإملاء والأمور .

وقال آخرون : بل السفيه فى هذا الموضع : الذى عناه الله : الطفل الصغير .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى موسى بن هارون ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (فَإِنْ كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الحَقُّ سَفِيهاً) أما السفيه : فهو الصغير .

حدثنى يحيى بن أبى طالب ، قال : أخبرنا يزيد ، قال : أخبرنا جويبر ، عن الضحاك فى قوله (فَإِنْ كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً) قال : هو الصبىّ الصغير ، فليملل وليه بالعدل .

وأولى التأويلين بالآية ، تأويل من قال : السفيه فى هذا الموضع : الجاهل بالإملاء ، وموضع صواب ذلك من خطئه لما قد بينا قبل ، من أن معنى السفه فى كلام العرب : الجهل .

وقد يدخل فى قوله : (فَإِنْ كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الحَقُّ سَفِيهاً) كل جاهل بصواب مايملّ من خطئه ، من صغير وكبير ، وذكر وأنثى . غير أن الذى هو أولى بظاهر الآية ، أن يكون مرادا بها كل جاهل بموضع خطأ مايمل وصوابه ، من بالغى الرجال ، الذين لايولى عليهم ، والنساء ، لأنه جلّ ذكره ابتدأ الآية بقوله (يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى) ، والصبىّ ومن يولى عليه ، لايجوز مداينته ، وأن الله عزّوجلّ قد استثنى من الذين أمرهم بإملال كتاب الدين مع السفيه الضعيف ، ومن لايستطيع إملاله ، ففى فصله جل ثناؤه الضعيف من السفيه ، ومن لايستطيع إملاء الكتاب ، فى الصفة التى وصف بها كل واحد منهم ، ما أنبأ عن أن كل واحد من الأصناف الثلاثة الذين بين الله صفاتهم ، غير الصنفين الآخرين . وإذا كان ذلك كذلك ، كان معلوما أن الموصوف بالسفه منهم دون الضعف هو ذو القوّة على الإملال ، غير أنه وضع عنه فرض الإملال ، بجهله بموضع صواب ذلك من خطئه ، وأن الموصوف بالضعف منهم هو العاجز عن إملاله ، وإن كان شديدا ، رشيدا إما لعىّ لسانه أو خرس به ، وأن الموصوف بأنه لايستطيع أن يمل ، هو الممنوع من إملاله ، إما بالحبس الذى لايقدر معه على حضور الكاتب الذى يكتب الكتاب فيمل عليه ، وإما لغيبته عن موضع الإملال ، فهو غير قادر من أجل غيبته عن إملال الكتاب ، فوضع الله عنهم فرض إملال ذلك ، للعلل التى وصفنا إذا كانت بهم ، وعذرهم بترك الإملال من أجلها ، وأمر عند سقوط فرض ذلك عليهم ، ولىّ الحقّ بإملاله ، فقال (فَإِنْ كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لايَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ ، فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالعَدْلِ) : يعنى ولىّ الحقّ .

ولا وجه لقول من زعم أن السفيه فى هذا الموضع : هو الصغير ، وأن الضعيف : هو الكبير الأحمق ، لأن ذلك إن كان كما قال ، يوجب أن يكون قوله (أَوْ لايَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ) هو العاجز من الرجال العقلاء الجائزى الأمر فى أموالهم وأنفسهم عن الإملال ، إما لعلة بلسانه ، من خرس أو غيره من العلل ، وإما لغيبته عن موضع الكتاب . وإذا كان ذلك كذلك معناه ، بطل معنى قوله (فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ

بالعَدْلِ) لأن العاقل الرشيد لايولى عليه فى ماله ، وإن كان أخرس أو غائبا ، ولا يجوز حكم أحد فى ماله إلا بأمره ، وفى صحة معنى ذلك ما يقضى على فساد قول من زعم أن السفيه فى هذا الموضع هو الطفل الصغير ، أو الكبير الأحمق .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع : (فإنْ كانَ الَّذِى عَلَيْهِ الحَقُّ سَفِيهاً أوْ ضَعِيفاً أوْ لايَسْتَطِيعُ أنْ يُمِلَّ هُوَ ، فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بالعَدْلِ) يقول : ولىّ الحق .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس : قوله (فإنْ كانَ الَّذِى عَلَيْهِ الحَقُّ سَفِيهاً أوْ ضَعِيفاً أو لايَسْتَطِيعُ أنْ يُمِلَّ هُوَ ، فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بالعَدْلِ) قال : يقول : إن كان عجز عن ذلك ، أملّ صاحبُ الدين بالعدل .

ذكر الرواية عمن قال : عنى بالضعيف فى هذا الموضع : الأحمق ، وبقوله (فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بالعَدْلِ) : ولىّ السفيه والضعيف .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك : (فإنْ كانَ الَّذِى عَلَيْهِ الحَقُّ سَفِيهاً أوْ ضَعِيفاً أوْ لايَسْتَطِيعُ أنْ يُمِلَّ هُوَ) قال : أمر ولىّ السفيه أو الضعيف أن يملّ بالعدل .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ : أما الضعيف : فهو الأحمق .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : أما الضعيف : فالأحمق .

حدثنا يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : (فإنْ كانَ الذِى عَلَيْهِ الحَقُّ سَفِيهاً أوْ ضَعِيفاً) : لايعرف فيثبت لهذا حقه ، ويجهل ذلك ، فوليه بمنزلته ، حتى يضع لهذا حقه ؛ وقد دللنا على أولى التأويلين بالصواب فى ذلك .

وأما قوله (فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بالعَدْلِ) فإنه يعنى : بالحقّ .

القول فى تأويل قوله (وَاسْتَشْهِدُوا شهيدَيْنِ مِنْ رِجالِكُمْ) :

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : واستشهدوا على حقوقكم شاهدين ، يقال : فلان شهيدى على هذا المال ، وشاهدى عليه . وأما قوله (مِنْ رِجالِكُمْ) فإنه يعنى من أحراركم المسلمين ، دون عبيدكم ، ودون أحراركم الكفار .

كما حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن سفيان ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجالِكُمْ) قال : الأحرار .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا علىّ بن سعيد ، عن هشيم ، عن داود بن أبى هند ، عن مجاهد ، مثله .

القول فى تأويل قوله (فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ).

يعنى بذلك جل ثناؤه : فإن لم يكونا رجلين ، فليكن رجل وامرأتان على الشهادة ، ورفع الرجل والمرأتان بالردّ على الكون ، وإن شئت قلت : فإن لم يكونا رجلين فليشهد رجل وامرأتان على ذلك ، وإن شئت فإن لم يكونا رجلين ، فرجل وامرأتان يشهدون عليه ؛ وإن قلت : فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ، كان صوابا كلّ ذلك جائز ، ولو كان فرجل وامرأتان نصبا كان جائزا على تأويل فإن لم يكونا رجلين ، فاستشهدوا رجلا وامرأتين ، وقوله (مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ) : يعنى من العدول المرتضى دينهم وصلاحهم .

كما حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع فى قوله (وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ) يقول فى الدين (فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ) ، وذلك فى الدين ، ممن ترضون من الشهداء ، يقول : عدول .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك (وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ) أمر الله عزّ وجل أن يشهدوا ذوَى عدل من رجالهم (فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ) .

القول فى تأويل قوله (أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى) .

اختلفت القرّاء فى قراءة ذلك ، فقرأ عامة أهل الحجاز والمدينة وبعض أهل العراق (أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى) بفتح الألف من «أن» ، ونصب تضلّ وتذكر ، بمعنى : فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ، كى تذكر إحداهما الأخرى إن ضلت ، وهو عندهم من المقدّم الذى معناه التأخير ، لأن التذكير عندهم هو الذى يجب أن يكون مكان تضلّ ، لأن المعنى ما وصفنا فى قولهم وقالوا : إنما نصبنا تذكّر ، لأن الجزاء لما تقدم اتصل بما قبله ، فصار جوابه مردودا عليه ، كما تقول فى الكلام إنه ليعجبنى أن يسأل السائل فيعطى ، بمعنى إنه ليعجبنى أن يعطى السائل إن سأل ، أو إذا سأل ، فالذى يعجبك هو الإعطاء دون المسئلة ، ولكن قوله أن يسأل لما تقدم اتصل بما قبله ، وهو قوله : ليعجبنى فتح أن ونصب بها ، ثم أتبع ذلك قوله : يعطى ، فنصبه بنصب قوله : ليعجبنى أن يسأل ، نسقا عليه ، وإن كان فى معنى الجزاء .

وقرأ ذلك آخرون كذلك ، غير أنهم كانوا يقرءونه بتسكين الذال من تُذْكِر وتخفيف كافها ، وقارئو ذلك كذلك مختلفون فيما بينهم فى تأويل قراءتهم إياه كذلك ، وكان بعضهم يوجهه إلى أن معناه : فتصير إحداهما الأخرى ذكرا باجتماعهما ، بمعنى أن شهادتها إذا اجتمعت وشهادة صاحبتها ، جازت كما تجوز شهادة الواحد من الذكور فى الدين ، لأن شهادة كل واحدة منهما منفردة ، غير جائزة فيما جازت فيه من الديون إلا باجتماع اثنتين على شهادة واحد ، فتصير شهادتهما حينئذ منزلة شهادة واحد من الذكور ، فكأن كل واحدة منهما فى قول متأولى ذلك بهذا المعنى ، صيرت صاحبتها معها ذكرا ، وذهب إلى قول العرب : لقد

أذكَرَتْ بفلان أمُّه ، أى ولدته ذكرا ، فهى تذكر به ، وهى امرأة مذكرة : إذا كانت تلد الذكور من الأولاد . وهذا قول يروى عن سفيان بن عيينة أنه كان يقوله .

حُدثت بذلك عن أبي عبيد القاسم بن سلام : أنه قال : حُدثت عن سفيان بن عيينة ، أنه قال : ليس تأويل قوله (فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى) من الذكر بعد النسيان ، إنما هو من الذكر ، بمعنى أنها إذا شهدت مع الأخرى صارت شهادتهما كشهادة الذكر .

وقال آخرون منهم : يوجهونه إلى أنه بمعنى الذكر بعد النسيان .

وقرأ ذلك آخرون (إِنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرُ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى) بكسر إن من قوله : (إِنْ تَضِلَّ) ، ورفع (تُذَكِّرُ) وتشديده ، كأنه بمعنى ابتداء الخبر عما تفعل المرأتان ، إن نسيت إحداهما شهادتها تذكرها الأخرى ، من تثبيت الذاكرة الناسية وتذكيرها ذلك ، وانقطاع ذلك عما قبله .

ومعنى الكلام عند قارئ ذلك كذلك : واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ، فإن إحداهما إن ضلت ذَكَّرتها الأخرى ، على استئناف الخبر عن فعلها ، إن نسيت إحداهما شهادتها ، من تذكير الأخرى منهما صاحبتها الناسية . وهذه قراءة كان الأعمش يقرؤها ومن أخذها عنه ، وإنما نصب الأعمش تضلَّ لأنها فى محل جزم بحرف الجزاء ، وهو أن تأويل الكلام على قراءته : إن تَضْلِلْ ، فلما اندغمت إحدى اللامين فى الأخرى ، حركها إلى أخف الحركات ، ورفع تذكر بالفاء ، لأنه جواب الجزاء .

والصواب من القراءة عندنا فى ذلك : قراءة من قرأه بفتح «أن» من قوله (أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا) وبتشديد الكاف من قوله (فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى) ونصب الراء منه بمعنى : فإن لم يكونا رجلين ، فليشهد رجل وامرأتان ، كى إن ضلت إحداهما ذكرتها الأخرى ؛ وأما نصب فتذكرَ فبالعطف على تضلَّ ، وفتحت «أن» بحلولها محل كى ، وهى فى موضع جزاء والجواب بعده ، اكتفاء بفتحها ، أعنى بفتح أن من كى ، ونَسَقَ الثانى ، أعنى فتذكر على تضلَّ ، ليعلم أن الذى قام مقام ما كان يعمل فيه وهو ظاهر ، قد دلَّ عليه ، وأدَّى عن معناه وعمله ، أى عن كى ، وإنما اخترنا ذلك فى القراءة لإجماع الحجة من قدماء القراء والمتأخرين على ذلك ، وانفراد الأعمش ومن قرأ قراءته فى ذلك بما انفرد به عنهم ، ولا يجوز ترك قراءة جاء بها المسلمون مستفيضة بينهم إلى غيرها ؛ وأما اختيارنا فتذكِّرَ بتشديد الكاف ، فإنه بمعنى تأدية الذكر من إحداهما على الأخرى ، وتعريفها بإنهاء ذلك لتذكر ، فالتشديد به أولى من التخفيف .

وأما ما حكى عن ابن عيينة من التأويل الذى ذكرناه ، فتأويل خطأ لا معنى له ، لوجوه شتى : أحدها : أنه خلاف لقول جميع أهل التأويل . والثانى : أنه معلوم بأن ضلال إحدى المرأتين فى الشهادة التى شهدت عليها ، إنما هو خطؤها عنها بنسيانها إياها ، كضلال الرجل فى دينه إذا تحير فيه ، فعدل عن الحقّ ، وإذا صارت إحداهما بهذه الصفة ، فكيف يجوز أن تصير الأخرى ذكرا معها ، مع نسيانها شهادتها وضلالها فيها ، فالضالة منهما فى شهادتها حينئذ لاشك أنها إلى التذكير أحوج منها إلى الإذكار ، إلا إن أراد أن الذاكرة

إذا ضعفت صاحبتها عن ذكر شهادتها ، ستجرئها على ذكر ماضعفت عن ذكره فنسيته ، فقوّتها بالذكر ، حتى صيرتها كالرجل فى قوّتها فى ذكر ماضعفت عن ذكره من ذلك ، كما يقال للشىء القوى فى عمله : ذَكَر ، وكما يقال للسيف الماضى فى ضربه ، سيف ذَكَر ، ورجل ذكر ، يراد به ماض فى عمله ، قوى البطش ، صحيح العزم . فإن كان ابن عيينة هذا أراد ، فهو مذهب من مذاهب تأويل ذلك ، إلا أنه إذا تأوّل ذلك كذلك ، صار تأويله إلى نحو تأويلنا الذى تأوّلناه فيه ، وإن خالفت القراءة بذلك المعنى القراءة التى اخترناها ، بأن تغير القراءة حينئذ الصحيحة بالذى اختار قراءته من تخفيف الكاف من قوله (فَتُذْكِرَ) ، ولا نعلم أحدا تأوّل ذلك كذلك ، ويستحبّ قراءته كذلك بذلك المعنى .

فالصواب فى قوله إذ كان الأمر عاما على ما وصفنا : ما اخترنا .

ذكر من تأوّل قوله (أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى) : نحو تأويلنا الذى قلنا فيه .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قوله (وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجالِكُم ، فإِنْ لَمْ يَكُونا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامرأتانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إحداهما فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُما الأُخْرَى) : علم الله أن ستكون حقوق ، فأخذ لبعضهم من بعض الثقة . فخذوا بثقة الله ، فإنه أطوع لربكم ، وأدرك لأموالكم ، ولعمرى لئن كان تقيا لا يزيده الكتاب إلا خيرا ، وإن كان فاجرا ، فبالحرَى أن يؤدىَ إذا علم أن عليه شهودا .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُما فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُما الأُخْرَى) يقول : أن تنسَى إحداهما ، فتذكرها الأخرى .

حدثنى موسى بن هارون ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُما) يقول : تنسى إحداهما الشهادة ، فَتُذَكِّرَها الأُخْرَى .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك : (إِنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُما) يقول : إن تنس إحداهما ، تذكرها الأخرى .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُما فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُما الأُخْرَى) قال : كلاهما لغة ، وهما سواء ، ونحن نقرأ (فَتُذَكِّرَ) .

القول فى تأويل قوله (وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا ما دُعُوا) .

اختلف أهل التأويل فى الحال التى نهى الله الشهداء عن إباء الإجابة إذا دُعوا بهذه الآية ، فقال بعضهم : معناه : لا يأب الشهداء أن يجيبوا إذا دُعوا ليشهدوا على الكتاب والحقوق .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قوله تعالى : (وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مادُعُوا) كان الرجل يطوف فى الحِواء[1] العظيم فيه القوم ، فيدعوهم إلى الشهادة ، فلا يتبعه أحد منهم ، قال : وكان قتادة يتأوّل هذه الآية (ولا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إذا ما دُعُوا) : ليشهدوا لرجل على رجل .

---

(١) الحواء بوزن كتاب : بيوت مجتمعة من الناس على ماء .

حُدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع فى قوله (وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا) قال : كان الرجل يطوف فى القوم الكثير ، يدعوهم ليشهدوا ، فلا يتبعه أحد منهم ، فأنزل الله عزّ وجلّ : (وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا) .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا) قال : لاتأب أن تشهد إذا ما دعيت إلى شهادة .

وقال آخرون: بمثل معنى هؤلاء ، إلا أنهم قالوا: يجب فرض ذلك على من دعى للإشهاد على الحقوق، إذا لم يوجد غيره ، فأما إذا وجد غيره ، فهو فى الإجابة إلى ذلك مخير ، إن شاء أجاب ، وإن شاء لم يجب .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا سفيان ، عن جابر ، عن الشعبىّ ، قال : (لا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا) قال : إن شاء شهد ، وإن شاء لم يشهد ، فإذا لم يوجد غيره شهد .

وقال آخرون : معنى ذلك : ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا للشهادة على من أراد الداعى إشهاده عليه ، والقيام بما عنده من الشهادة من الإجابة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا أبو عامر ، عن الحسن (وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا) قال : قال الحسن : الإقامة والشهادة .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر فى قوله (وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا) قال : كان الحسن يقول : جَمَعَت أمرين : لاتأب إذا كانت عندك شهادة أن تشهد ، ولا تأب إذا دعيت إلى شهادة .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس قوله (وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا) : يعنى من احتيج إليه من المسلمين شهد على شهادة إن كانت عنده، ولايحلّ له أن يأبى إذا ما دعى .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عمرو بن عون ، قال : أخبرنا هشيم ، عن يونس ، عن الحسن (وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا) قال : لإقامتها ، ولا يَبْدَأ[1] بها إذا دعاه ليشهده ، وإذا دعاه ليقيمها .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا للقيام بالشهادة التى عندهم للداعى ، من إجابته إلى القيام بها .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا) قال : إذا شهد .

---

(١) أى لاينبغى إذا دعى للشهادة أن يلفظ بالبذاء وهو فحش القول الدال على كراهيته للشهادة .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا) قال : إذا كانوا قد شهدوا قبل ذلك .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن سفيان ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا) يقول : إذا كانوا قد أشهدوا .

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا ابن علية ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله (وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إذا ما دُعُوا) قال : إذا كانت عندك شهادة فدعيت .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا ابن علية ، قال : ثنا ليث ، عن مجاهد فى قوله (وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مادُعُوا) قال : إذاكانت شهادة فأقمها ، فإذا دعيت لتشهد ، فإن شئت فاذهب ، وإن شئت فلا تذهب .

حدثنا سوار بن عبد الله ، قال : ثنا عبد الملك بن الصباح ، عن عمران بن حُدير ، قال : قلت لأبى مجلز : ناس يدعوننى لأشهد بينهم ، وأنا أكره أن أشهد بينهم ، قال : دع ما تكره ، فإذا شهدت فأجب إذادعيت .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن سفيان ، عن جابر ، عن عامر ، قال : الشاهد بالخيار مالم يشهد

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا هشيم ، عن يونس ، عن عكرمة فى قوله (وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا) قال : لإقامة الشهادة .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عمرو بن عون ، قال : أخبرنا هشيم ، عن أبى عامر ، عن عطاء قال فى إقامة الشهادة .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا هشيم ، قال : ثنا أبو عامر المزنىّ ، قال : سمعت عطاء يقول ذلك فى إقامة الشهادة ، يعنى قوله : (وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا) .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا أبو مرّة ، أخبرنا عن الحسن أنه سأله سائل قال : أدعى إلى الشهادة وأنا أكره أن أشهد عليها ، قال : فلا تجب إن شئت .

حدثنا يعقوب ، قال : ثنا هشيم ، عن مغيرة ، قال : سألت إبراهيم قلت : أدعى إلى الشهادة وأنا أخاف أن أنسى ؟ قال : فلا تشهد إن شئت .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا أبو عامر ، عن عطاء ، قال : للإقامة

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن شريك ، عن سالم الأفطس ، عن سعيد بن جبير (وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا) قال : إذا كانوا قد شهدوا .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا سويد بن نصر ، قال : أخبرنا ابن المبارك ، عن شريك ، عن سالم عن سعيد : (وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا) قال : هو الذى عنده الشهادة .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو قال : ثنا أسباط عن السدىّ قوله (وَلَا يَأْبَ ، الشُّهَدَاءُ إِذَا مادُعُوا) يقول : لايأب الشاهد أن يتقدم فيشهد إذا كان فارغا .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قلت لعطاء : (وَلَا

يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا ما دُعُوا) قال : هم الذين قد شهدوا ، قال : ولا يضرّ إنسانا أن يأبى أن يشهد إن شاء . قلت لعطاء : ماشأنه إذا دعى أن يكتب وجب عليه أن لا يأبى ، وإذا دعى أن يشهد لم يجب عليه أن يشهد إن شاء ؟ قال : كذلك يجب على الكاتب أن يكتب ، ولا يجب على الشاهد أن يشهد إن شاء ، الشهداء كثير .

حدثنى يونس . قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا ما دُعُوا) قال : إذا شهد فلا يأب إذا دعى أن يأتى يؤدى شهادة ويقيمها .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ) قال : كان الحسن يتأوّلها ، إذا كانت عنده شهادة ، فدعى ليقيمها .

حدثنى يحيى بن أبى طالب ، قال : أخبرنا يزيد ، قال : أخبرنا جويبر ، عن الضحاك فى قوله (وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا ما دُعُوا) قال : إذا كتب الرجل شهادته ، أو أُشهد لرجل فشهد ، والكاتب الذى يكتب الكتاب ، دُعوا إلى مقطع الحقّ ، فعليهم أن يجيبوا ، وأن يشهدوا بما أُشهدوا عليه .

وقال آخرون : هو أمر من الله عزّ وجلّ الرجل والمرأة بالإجابة إذا دعى ليشهد على ما لم يشهد عليه من الحقوق ابتداء ، لا لإقامة الشهادة ، ولكنه أمر ندْب لا فرض .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى أبو العالية العبدىّ إسماعيل بن الهيثم ، قال : ثنا أبوقتيبة ، عن فُضيل بن مرزوق ، عن عطية العوفىّ ، فى قوله (وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مادُعُوا) قال : أمرت أن تشهد ، فإن شئت فاشهد ، وإن شئت فلا تشهد .

حدثنى أبو العالية ، قال : ثنا أبو قتيبة ، عن محمد بن ثابت العصرىّ ، عن عطاء ، بمثله .

وأولى هذه الأقوال بالصواب : قول من قال ذلك : ولا يأب الشهداء من الإجابة إذا دعوا لإقامة الشهادة وأدائها عند ذى سلطان أو حاكم ، يأخذ من الذى عليه ما عليه للذى هو له .

وإنما قلنا هذا القول بالصواب أولى فى ذلك من سائر الأقوال غيره : لأن الله عزّ وجلّ قال (وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مادُعُوا) ، فإنما أمرهم بالإجابة للدعاء للشهادة وقد ألزمهم اسم الشهداء ، وغير جائز أن يلزمهم اسم الشهداء إلا وقد استُشهدوا قبل ذلك ، فشهدوا على ما ألزمهم شهادتُهم عليه اسمَ الشهداء ، فأما قبل أن يُستشهدوا على شىء ، فغير جائز أن يقال لهم شهداء ، لأن ذلك الاسم لو كان يلزمهم ولما يُستشهدوا على شىء يستوجبون بشهادتهم عليه هذا الاسم ، لم يكن على الأرض أحد له عقل صحيح إلا وهو مستحقّ أن يقال له شاهد ، بمعنى أنه سيشهد ، أو أنه يصلح لأن يشهد ، وإن كان خطأ أن يسمى بذلك الاسم إلا من عنده شهادة لغيره ، أو من قد قام بشهادته ، فلزمه لذلك هذا الاسم ، كان معلوما أن المعنىّ بقوله (وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مادُعُوا) : مَن وصفنا صفته ، ممن قد استُرْعِى شهادة أو شهد ، فدعى إلى القيام بها ، لأن الذى لم يستشهد ولم يسترع شهادة قبل الإشهاد ، غير مستحقّ اسم شهيد ولا شاهد ، لما قد

وصفنا قبل ، مع أن فى دخول الألف واللام فى الشهداء ، دلالة واضحة على أن المسمى بالنهى عن ترك الإجابة للشهادة ، أشخاص معلومون قد عرفوا بالشهادة ، وأنهم الذين أمر الله عزّ وجل أهل الحقوق باستشهادهم ، بقوله (وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجالِكُمْ ، فإنْ لَمْ يَكُونا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرأتانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ) . وإذا كان ذلك كذلك ، كان معلوما أنهم إنما أمروا بإجابة داعيهم ، لإقامة شهادتهم بعد ما استُشهدوا فشهدوا ، ولو كان ذلك أمرا لمن أعرض من الناس ، فدعى إلى الشهادة يشهد عليها ، لقيل : ولا يأب شاهد إذا مادُعى . غير أن الأمر وإن كان كذلك ، فإن الذى نقول به فى الذى يدعى لشهادة ليشهد عليها ، إذا كان بموضع ليس به سواه ممن يصلح للشهادة ، فإن الفرض عليه إجابة داعيه إليها ، كما فُرض على الكاتب إذا استكتب بموضع لا كاتب به سواه ، ففرض عليه أن يكتب ، كما فرض على من كان بموضع لا أحد به سواه يعرف الإيمان وشرائع الإسلام ، فحضره جاهل بالإيمان وبفرائض الله ، فسأله تعليمه ، وبيان ذلك له أن يعلمه ويبينه له ، ولم نوجب ما أوجبنا على الرجل من الإجابة للشهادة ، إذا دعى ابتداء ليشهد على ما أشهد عليه بهذه الآية ، ولكن بأدلة سواها ، وهى ما ذكرنا ، وقد فرضنا على الرجل إحياء ما قدر على إحيائه من حقّ أخيه المسلم ، والشهداء : جمع شهيد .

القول فى تأويل قوله (وَلا تَسْأَمُوا أنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أوْ كَبِيرًا إلى أجَلِهِ) :

يعنى بذلك جل ثناؤه : ولا تسأموا أيها الذين تُداينون الناس إلى أجل : أن تكتبوا صغير الحقّ : يعنى قليله أو كبيره ، يعنى أو كثيره ، إلى أجله : إلى أجل الحقّ ، فإن الكتاب أَحْصَى للأجل والمال .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا سويد ، قال : أخبرنا ابن المبارك ، عن شريك ، عن ليث ، عن مجاهد (وَلا تَسْأَمُوا أنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أوْ كَبِيرًا إلى أجَلِهِ) قال : هو الدين ، ومعنى قوله (وَلا تَسْأَمُوا) لا تملوا ، يقال منه : سئمت فأنا أسأم سآمة وسأمة ، ومنه قول لبيد:

ولقد سَئِمْتُ من الحياة وطُولِهَا وسؤالِ هذا الناس : كيف لَبِيدُ[1]

ومنه قول زهير :

سَئِمتُ تكاليفَ الحياةِ ومن يَعِشْ ثمانينَ حَوْلاً لاأبا لَكَ يَسْأَمِ[2]

يعنى : مللت .

وقال بعض نحويِّي البصريين : تأويل قوله (إلى أجَلِهِ) إلى أجل الشاهد ، ومعناه : إلى الأجل الذى تجوز شهادته فيه ، وقد بينا القول فيه .

---

(١) قال فى اللسان : سئم الشيء وسئم منه يسأم سأما وسأمة (بالتسكين) وسآما وسآمة : مل . والناس : قال سيبويه : الأصل فى الناس : الأناس مخففا ، فجعلوا الألف واللام عوضا من الهمزة ، وقد قالوا : الأناس ، قال الشاعر :

إنَّ المَنَايا يَطَّلِعْــــنَ على الأُناسِ الآمِنِينا

والناس : اسم جمع ليس له واحد من لفظه ، ولذلك قال فى الإشارة إليه هذا ، ويجوز أن تقول فى الكلام : هذا الناس ، وهؤلاء الناس .

(١) هذا البيت من معلقة زهير (مختار الشعر الجاهلى ص ٢٢٣) . والتكاليف : المشقات والشدائد .

القول فى تأويل قوله (ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ) :

يعنى جل ثناؤه بقوله : ذلكم : اكتتاب كتاب الدَّين إلى أجله ، ويعنى بقوله أقسط : أعدل عند الله ، يقال منه : أقسط الحاكم فهو يُقسط إقساطا ، وهو مقسط : إذا عدل فى حكمه ، وأصاب الحق فيه ، فإذا جار ، قيل قَسَط فهو يَقْسِطُ قسوطا ، ومنه قول الله عز وجل (وأَمَّا القاسِطُونَ فكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً) يعنى ، الجائرون .

وبمثل ما قلنا فى ذلك قال جماعة أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى ، قوله (ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ) يقول : أعدل عند الله .

القول فى تأويل قوله (وأَقْوَمُ لِلشَّهادَةِ) :

يعنى بذلك جل ثناؤه : وأصوب للشهادة ، وأصله من قول القائل : أقمته من عوجه ، إذا سويته فاستوى ، وإنما كان الكتاب أعدل عند الله ، وأصوب لشهادة الشهود على مافيه ، لأنه يحوى الألفاظ التى أقر بها البائع ، والمشترى ، ورب الدين ، والمستدين على نفسه ، فلا يقع بين الشهود اختلاف فى ألفاظهم بشهادتهم ، لاجتماع شهادتهم على ماحواه الكتاب ، وإذا اجتمعت شهادتهم على ذلك ، كان فصل الحكم بينهم أبين لمن احتكم إليه من الحكام ، مع غير ذلك من الأسباب ؛ وهو أعدل عند الله ، لأنه قد أمر به ، واتباع أمر الله لا شك أنه عند الله أقسط وأعدل من تركه ، والانحراف عنه .

القول فى تأويل قوله (وأَدْنَى أَنْ لاتَرْتابُوا) :

يعنى جل ثناؤه بقوله (وأَدْنَى) وأقرب ، من الدنو : وهو القرب ؛ ويعنى بقوله (أَنْ لاتَرْتابُوا) : من أن لاتشكوا فى الشهادة .

كما حدثنا موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (ذَٰلِكَ أَدْنَى أَنْ لاتَرْتابُوا) : يقول : أن لاتشكُّوا فى الشهادة ، وهو تَفْتَعِلُ من الريبة .

ومعنى الكلام : ولا تملوا أيها القوم أن تكتبوا الحق الذى لكم قِبَلَ من داينتموه من الناس إلى أجل ، صغيرا كان ذلك الحق : قليلا ، أو كثيرا ، فإن كتابكم ذلك أعدل عند الله ، وأصوب لشهادة شهودكم عليه ، وأقرب لكم أن لاتشكوا فيما شهد به شهودكم عليكم من الحق والأجل إذا كان مكتوبا .

القول فى تأويل قوله (إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجارَةً حاضِرَةً تُدِيرُونَها بَيْنَكُمْ ، فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ لاتَكْتُبُوها) :

ثم استثنى جل ذكره مما نهاهم عنه أن يسأموه من اكتتاب كتب حقوقهم على غرمائهم بالحقوق التى لهم عليهم ، ما وجب لهم قِبَلَهم من حق ، عن مبايعة بالنقود الحاضرة يدا بيد ، فرخَّص لهم فى ترك اكتتاب الكتب بذلك ، لأن كل واحد منهم ، أعنى من الباعة والمشترين ، يقبض إذا كان التواجب بينهم فيما يتبايعونه

بعد ما وجب له قِبَل مبايعه قبل المفارقة، فلا حاجة لهم فى ذلك إلى اكتتاب أحد الفريقين على الفريق الآخر ، كتابا بما وجب لهم قِبَلَهم ، وقد تقابضوا الواجب لهم عليهم ، فلذلك قال تعالى ذكره (إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ) لاأجلَ فيها ولا تأخير ولا نَساء (فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ لَا تَكْتُبُوهَا) يقول : فلا حرج عليكم ألا تكتبوها ، يعنى : التجارة الحاضرة .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال جماعة من أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ، قوله (إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ) يقول : معكم بالبلد ترونها، فتؤخذ وتعطى ، فليس على هؤلاء جناح ألا يكتبوها .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك (وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ) إلى قوله (فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ لَا تَكْتُبُوهَا) قال : أمر الله أن لاتسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله ، وأمر ما كان يدا بيد أن يشهد عليه صغيرا كان أو كبيرا ، ورخص لهم أن لايكتبوه .

واختلفت القراء فى قراءة ذلك ، فقرأته عامة قرّاء الحجاز والعراق ، وعامة القرّاء ، (إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةٌ حَاضِرَةٌ) بالرفع . وانفرد بعض قرّاء الكوفيين ، فقرأه بالنصب . وذلك وإن كان جائزا فى العربية ، إذ كانت العرب تنصب النكرات والمنعوتات مع كان ، وتضمر معها فى كان مجهولا ، فتقول : إن كان طعاما طيبا فأتنا به ، وترفعها فتقول : إن كان طعامٌ طيب فأتنا به ، فتتبع النكرة خبرها بمثل إعرابها ، فإن الذى أختار من القراءة ، ثم لاأستجيز القراءة بغيره ، الرفع فى التجارة الحاضرة ، لإجماع القرّاء على ذلك ، وشذوذ من قرأ ذلك نصبا عنهم ، ولا يعترض بالشاذّ على الحجة ، ومما جاء نصبا قول الشاعر :

أعَيْنَيَّ هَلْ تَبْكِيانِ عِفاقَا إذَا كانَ طَعْناً بينهُمْ وَعِناقَا[1]

وقول الآخر :

وِللهِ قَوْمِى أىُّ قَوْمٍ لِحُـرَّةٍ إذا كانَ يوما ذا كواكبَ أشْنَعا[2]

(١) فى اللسان : (عفق) عفاق : اسم رجل أكلته باهلة فى قحط أصابهم . وهو عفاق بن مليك ، ويقال بن أبي مليك ، وهو عبد الله بن الحارث بن عاصم . وكان بسطام بن قيس أغار على بنى يربوع ، فقتل عفاقا وقتل بجيرا أخاه ، بعد قتله عفاقا فى العام الأول ، وأسر أباهما أبا مليك ثم أعتقه .

قال ابن برى : ويقوى قول من قال إن باهلة أكلته قول الراجز :

إن عفاقا أكلته باهـله تَمَشَّشُوا عِظامَهُ وكاهِلَهْ

والعناق : معانقة الرجل قرنه فى الحرب ، وهو بعد الطعن بالرمح ، والضرب بالسيف ، ثم العناق ، فأيهما صدع صاحبه ذبحه بسيفه أو بخنجره . والبيت من شواهد الفراء فى تفسيره معانى القرآن .

(٢) الأشنع : القبيح . واسم كان ضمير يعود على مفهوم من المقام، وهو اليوم ، أى إذا كان اليوم يوما . يعجب من شدة قومهم ، وحسن بلائهم فى الحروب . وقد جاء فى الكتاب لسيبويه (١ : ٢٢) بيت يتفق مع هذا البيت فى عجزه ، فأما صدره فهو : « بنى أسد هل تعلمون بلاءنا » . وهذا البيت لعمرو بن شأس . واستشهد الزمخشرى فى الكشاف ببيت ابن شأس ، لمثل ما استشهد به المؤلف . وفى سيبويه (١ : ٢١) آخر لمقاس العائذى ، وهو : فدى لبنى ذهل بن شيبان ناقتى إذا كان يوم ذو كواكب أشهب

وإنما تفعل العرب ذلك فى النكرات ، لما وصفنا من إتباع أخبار النكرات أسماءها، وكان من حكمها أن يكون معها مرفوع ومنصوب ، فإذا رفعوهما جميعهما تذكروا إتباع النكرة خبرها، وإذا نصبوهما تذكروا صحبة كان منصوب ومرفوع ، ووجدوا النكرة يتبعها خبرها ، وأضمروا فى كان مجهولا لاحتمالها الضمير ، وقد ظنّ بعض الناس أن من قرأ ذلك (إلاَّ أنْ تَكُونَ تِجارَةً حاضِرَةً) إنما قرأه على معنى : إلا أن يكون تجارة حاضرة، فزعم أنه كان يلزم قارئ ذلك أن يقرأ « يكون » بالياء، وأغفل موضع صواب قراءته من جهة الإعراب ، وألزمه غير ما يلزمه . وذلك أن العرب إذا جعلوا مع كان نكرة مؤنثا بنعتها أو خبرها ، أنثوا كان مرّة ، وذكّروها أخرى ، فقالوا : إن كانت جارية صغيرة فاشتروها ، وإن كان جارية صغيرة فاشتروها ، تذكّر كان وإن نصبت النكرة المنعوتة أو رفعت أحيانا ، وتؤنث أحيانا .

وقد زعم بعض نحويى البصرة أن قوله (إلاَّ أنْ تَكُونَ تِجارَةٌ حاضِرَةٌ) مرفوعة فيه التجارة الحاضرة ، لأن يكون بمعنى التمام ، ولا حاجة بها إلى الخبر ، بمعنى : إلا أن توجد أو تقع أو تحدث ، فألزم نفسه ما لم يكن لها لازما ، لأنه إنما ألزم نفسه ذلك ، إذا لم يكن يجد لكان منصوبا، ووجد التجارة الحاضرة مرفوعة ، وأغفل جواز قوله (تُدِيرُونَها بَيْنَكُمْ) أن يكون خبرا لكان ، فيستغنى بذلك عن إلزام نفسه ما ألزم . والذى قال من حكينا قوله من البصريين غير خطأ فى العربية ، غير أن الذى قلنا بكلام العرب أشبه ، وفى المعنى أصحّ . وهو أن يكون فى قوله (تُدِيرُونَها بَيْنَكُمْ) وجهان : أحدهما أنه فى موضع نصب على أنه حلّ محل خبر كان ، والتجارة الحاضرة اسمها . والآخر : أنه فى موضع رفع على إتباع التجارة الحاضرة ، لأن خبر النكرة يتبعها ، فيكون تأويله : إلا أن تكون تجارة حاضرة دائرة بينكم .

القول فى تأويل قوله (وأَشْهِدُوا إذَا تَبايَعْتُمْ) :

يعنى بذلك جل ثناؤه : وأشهدوا على صغير ما تبايعتم وكبيره من حقوقكم ، عاجلِ ذلك وآجله ، ونقده ونَسائه ، فإن إرخاصى لكم فى ترك اكتتاب الكتب بينكم ، فيما كان من حقوق تجرى بينكم لبعضكم من قِبَل بعض : عن تجارة حاضرة دائرة بينكم يدا بيد ونقدا ، ليس بإرخاص منى لكم فى ترك الإشهاد منكم على من بعتموه شيئا ، أو ابتعتم منه ، لأن فى ترككم الإشهاد على ذلك خوف المضرّة على كل من الفريقين : أما على المشترى فأن يجحد البائع المبيع ، وله بينة على ملكه ما قد باع ، ولا بينة للمشترى منه على الشراء منه ، فيكون القول حينئذ قول البائع مع يمينه ، ويقضى له به ، فيذهب مال المشترى باطلا ؛ وأما على البائع فأن يجحد المشترى الشراء ، وقد زال ملك البائع عما باع ، ووجب له قِبَل المبتاع ثمن ما باع ، فيحلف على ذلك ، فيبطل حقّ البائع قِبَل المشترى من ثمن ما باعه ، فأمر الله عزّ وجلّ الفريقين بالإشهاد ، لئلا يضيع حقّ أحد الفريقين قِبَل الفريق الآخر .

ثم اختلفوا فى معنى قوله (وأَشْهِدُوا إذَا تَبايَعْتُمْ) : أهو أمر من الله واجب بالإشهاد عند المبايعة ، أم هو ندب ؟ فقال بعضهم : هو ندب : إن شاء أشهد ، وإن شاء لم يشهد .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن الربيع ، عن الحسن وشقيق ، عن رجل ، عن الشعبىّ ، فى قوله (وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ) قال : إن شاء أشهد ، وإن شاء لم يشهد ، ألم تسمع إلى قوله (فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ) .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا الحجاج بن المنهال ، قال : ثنا الربيع بن صبيح ، قال : قلت للحسن : أرأيت قول الله عزّ وجلّ : (وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ) قال : إن أشهدت عليه فهو ثقة للذى لك ، وإن لم تشهد عليه فلا بأس .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا سويد ، قال : أخبرنا ابن المبارك ، عن الربيع بن صبيح ، قال : قلت للحسن : يا أبا سعيد ، قول الله عزّ وجل (وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ) أبيع الرجل وأنا أعلم أنه لاينقد فى شهرين ولا ثلاثة ، أترى بأسا ألا أشهد عليه ؟ قال : إن أشهدت فهو ثقة للذى لك ، وإن لم تشهد فلا بأس .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا الحجاج ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، عن داود ، عن الشعبىّ (وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ) قال : إن شاءوا أشهدوا ، وإن شاءوا لم يشهدوا .

وقال آخرون : الإشهاد على ذلك واجب .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك (إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ ، فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ لَا تَكْتُبُوهَا) ، ولكن أشهدوا عليها إذا تبايعتم ، أمر الله ما كان يدا بيد ، أن يشهدوا عليه ، صغيرا كان أو كبيرا .

حدثنى يحيى بن أبى طالب ، قال : أخبرنا يزيد ، قال : أخبرنا جويبر ، عن الضحاك ، قال : ما كان من بيع حاضر ، فإن شاء أشهد ، وإن شاء لم يشهد ، وما كان من بيع إلى أجل ، فأمر الله أن يكتب ويشهد عليه ، وذلك فى المُقام .

وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب : أن الإشهاد على كل مبيع ومشترى حقّ واجب ، وفرض لازم ، لما قد بينا من أن كل أمر لله ففرض ، إلا ما قامت حجته من الوجه الذى يجب التسليم له بأنه ندب وإرشاد .
وقد دللنا على قول من قال ذلك منسوخ ، بقوله : (فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ) فيما مضى ، فأغنى عن إعادته .

القول فى تأويل قوله (وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ) :

اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك ، فقال بعضهم : ذلك نهى من الله لكاتب الكتاب بين أهل الحقوق والشهيد : أن يضارّ أهله ، فيكتب هذا ما لم يملله المملى ، ويشهد هذا بما لم يستشهده الشهيد .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن ابن طاوس ، عن

أبيه فى قوله (وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ) ولا يضارّ كاتب ، فيكتب ما لم يمل عليه ، ولاشهيد ، فيشهد بما لم يستشهد .

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا ابن علية ، عن يونس ، قال : كان الحسن يقول : لايضارّ كاتب ، فيزيد شيئا أو يحرّف ، ولا شهيد ، قال : لايكتم الشهادة ، ولا يشهد إلا بحقّ .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، عن قتادة ، قال : اتقى الله شاهد فى شهادته ، لاينقص منها حقا ، ولا يزيد فيها باطلا ، اتقى الله كاتب فى كتابه ، فلا يدَعنّ منه حقا ، ولا يزيدنّ فيه باطلا .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة (وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ) قال : لايضارّ كاتب ، فيكتب ما لم يملل ، ولا شهيد ، فيشهد بما لم يستشهد .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا سويد ، قال : أخبرنا ابن المبارك ، عن معمر ، عن قتادة ، نحوه .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ) ، قال : لايضارّ كاتب ، فيكتب غير الذى أملى عليه ، قال : والكتاب يومئذ قليل ، ولا يدْرون أىّ شىء يكتب ، فيضارّ ، فيكتب غير الذى أملى عليه ، فيبطل حقهم . قال : والشهيد يضارّ ، فيحوّل شهادته ، فيبطل حقهم . فأصل الكلمة على تأويل من ذكرنا من هؤلاء : ولا يضارِرْ كاتب ولا شهيد ، ثم أدغمت الراء فى الراء ، لأنهما من جنس ، وحركت إلى الفتح وموضعها جزم ، لأن الفتح أخفّ الحركات .

وقال آخرون ممن تأوّل هذه الكلمة : هذا التأويل معنى ذلك : ولا يضارّ كاتب ولا شهيد ، بالامتناع عمن دعاهما إلى أداء ما عندهما من العلم أو الشهادة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا ابن جريج ، عن عطاء فى قوله (وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ) يقول : أن يؤدّيا ما قبلهما .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قلت لعطاء (وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ) قال : لايضارّا أن يؤدّيا ما عندهما من العلم .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : أخبرنا ابن المبارك ، عن سفيان ، عن يزيد بن أبى زياد ، عن مِقْسم ، عن ابن عباس ، قال : (لايُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ) قال : أن يدعوهما فيقولا : إن لنا حاجة .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا عبد الرزاق ، عن ابن جريج ، عن عطاء ومجاهد (وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ) قالا : واجب على الكاتب أن يكتب . ولا شهيد ، قالا : إذا كان قد شهدا قبلَه .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : ولايضارّ المستكتِب والمستشهِد الكاتب والشهيد . وتأويل الكلمة على مذهبهم : ولا يضارَرْ على وجه ما لم يسمّ فاعله .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، عن ابن عيينة ، عن عمرو ، عن عكرمة ، قال : كان عمر يقرأ : ولا يضارَرَ كاتب ولا شهيد .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ ، قال : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك ، قال : كان ابن مسعود يقرأ : ولا يضارَرْ .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : أخبرنى عبد الله بن كثير عن مجاهد ، أنه كان يقرأ : ولا يضارَرْ كاتب ولا شهيد ، وأنه كان يقول فى تأويلها : ينطلق الذى له الحقّ فيدعو كاتبه وشاهده إلى أن يشهد ، ولعله أن يكون فى شغل أو حاجة ، ليؤثمه إن ترك ذلك حينئذ لشغله وحاجته . وقال مجاهد : لايُقَمْ عن شغله وحاجته ، فيجد فى نفسه أو يحرَج .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قال : (وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ) والضِّرار : أن يقول الرجل للرجل ، وهو عنه غنىّ : إن الله قد أمرك أن لاتأبى إذا دعيت ، فيضارُّه بذلك ، وهو مكتف بغيره ، فنهاه الله عزّ وجلّ عن ذلك ، وقال (وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ) .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قال : (وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ) يقول : إنه يكون للكاتب والشاهد حاجة ليس منها بدّ ، فيقول : خلّوا سبيله .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا ابن علية ، عن يونس ، عن عكرمة فى قوله (وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ) قال : يكون به العلة ، أو يكون مشغولا ، يقول : فلا يضارَّه .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد أنه كان يقول (وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ) يقول : لايأت الرجل فيقول : انطلق فاكتب لى ، واشهد لى ، فيقول : إن لى حاجة فالتمس غيرى ، فيقول : اتق الله ، فإنك قد أمرت أن تكتب لى . فهذه المضارة ، ويقول : دعه والتمس غيره ، والشاهد بتلك المنزلة .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك ، فى قوله (وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ) يقول : يدعو الرجل الكاتب أو الشهيد ، فيقول الكاتب أو الشاهد : إن لنا حاجة ، فيقول الذى يدعوهما : إن الله عزّ وجلّ أمركما أن تجيبا فى الكتابة والشهادة ، يقول الله عزّ وجلّ : لايضارّهما .

حدثت عن الحسن ، قال : سمعت أبامعاذ ، قال : ثنا عبيد بن سليمان ، قال : سمعت الضحاك فى قوله (وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ) هو الرجل يدعو الكاتب أو الشاهد وهما على حاجة مهمة ، فيقولان : إنا على حاجة مهمة ، فاطلب غيرنا ، فيقول : الله أمركما أن تجيبا ، فأمره أن يطلب غيرهما ولا يضارّهما ، يعنى لايشغلهما عن حاجتهما المهمة ، وهو يجد غيرهما .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، قوله (وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ) يقول : ليس ينبغى أن تعترض رجلا له حاجة فتضارّه ، فتقول له : اكتب لى ، فلا يتركه حتى يكتب له ، وتفوته حاجته ، ولا شاهدا من شهودك وهو مشغول ، فتقول : اذهب فاشهد لى، تحبسه عن حاجته ، وأنت تجد غيره .

حُدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع قوله (وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ) قال : لما نزلت هذه الآية (وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ) كان أحدهم يجىء إلى الكاتب فيقول : اكتب لى ، فيقول : إنى مشغول أو لى حاجة ، فانطلق إلى غيرى ، فيلزمه ويقول : إنك قد أمرت أن تكتب لى، فلا يدعه، ويضارّه بذلك وهو يجد غيره . ويأتى الرجل فيقول: انطلق معى ، فيقول : اذهب إلى غيرى ، فإنى مشغول أو لى حاجة ، فيلزمه ويقول : قد أمرت أن تتبعنى ، فيضارّه بذلك وهو يجد غيره ، فأنزل الله عزّ وجلّ : (وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ) .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا سويد ، قال : أخبرنا ابن المبارك ، عن معمر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه (وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ) يقول: إن لى حاجة فدعنى ، فيقول : اكتب لى ، ولا شهيد كذلك .

وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب : قول من قال: معنى ذلك: ولا يضارّ كاتب ولا شهيد ، بمعنى : ولا يضارّهما من استكتب هذا ، أو استشهد هذا ، بأن يأبى على هذا إلا أن يكتب له وهو مشغول بأمر نفسه ، ويأبى على هذا إلا أن يجيب إلى الشهادة ، وهو غير فارغ ، على ماقاله قائلو ذلك، من القول الذى ذكرنا قبل .

وإنما قلنا هذا القول أولى بالصواب من غيره ، لأن الخطاب من الله عزّ وجلّ فى هذه الآية من مبتدئها إلى انقضائها، على وجه افعلوا أو لاتفعلوا، إنما هو خطاب لأهل الحقوق، والمكتوب بينهم الكتاب، والمشهود لهم أو عليهم بالذى تداينوه بينهم من الديون . فأما ما كان من أمر أو نهى فيها لغيرهم ، فإنما هو على وجه الأمر والنهى للغائب غير المخاطب كقوله (وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ) وكقوله (وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا) وما أشبه ذلك . فالواجب إذا كان المأمورون فيها مخاطبين بقوله (وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ)أشبه[1] منه بأن يكون مردودا على الكاتب والشهيد، ومع ذلك إن الكاتب والشهيد لو كانا هما المنهيين عن الضرار لقيل : وإن يفعلا فإنه فسوق بهما ، لأنهما اثنان ، وإنهما غير مخاطبين بقوله : (وَلا يُضَارَّ) بل النهى بقوله (وَلا يُضَارَّ) نهى للغائب غير المخاطب .فتوجيه الكلام إلى ما كان نظيرا لما فى سياق الآية ، أولى من توجيهه إلى ما كان منعدلا عنه .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ) :

---

(١) قوله « فالواجب إذا كان الخ » كذا فى النسخ ، والمراد أن الواجب إذا كان المأمورون فيها مخاطبين . . . الخ أن يكون النهى عن المضارة مردودا على أهل الحقوق ، وذلك أشبه منه بأن يكون الخ .

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : وإن تضارّوا الكاتب أو الشاهد ، وما نهيتم عنه من ذلك ، فإنه فسوق بكم ، يعنى إثم بكم ومعصية .

واختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك ، فقال بعضهم بنحو الذى قلنا .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك (وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ) يقول : إن تفعلوا غير الذى آمركم به ، فإنه فسوق بكم .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثنا معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس (وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ) والفسوق : المعصية .

حُدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ) الفسوق : العصيان .

وقال آخرون : معنى ذلك : وإن يضارّ كاتب فيكتب غير الذى أملى المملى ، ويضارّ شهيد ، فيحوّل شهادته ويغيرها ، فإنه فسوق بكم ، يعنى : فإنه كذب .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد (وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ) الفسوق : الكذب ، قال : هذا فسوق ، لأنه كذب الكاتب ، فحوّل كتابه فكذب ، وكذب الشاهد ، فحوّل شهادته ، فأخبرهم الله أنه كذب . وقد دللنا فيما مضى على أن المعنىّ بقوله (وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ) إنما معناه : لايضارّهما المستكتب والمستشهد ، بما فيه الكفاية . فقوله (وَإِنْ تَفْعَلُوا) : إنما هو إخبار من يضارّهما بحكمه فيهما ، وأن من يضارّهما فقد عصى ربه وأثم به ، وركب ما لايحلّ له ، وخرج عن طاعة ربه فى ذلك .

القول فى تأويل قوله (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) :

يعنى بقوله جل ثناؤه : واتقوا الله ، وخافوا الله أيها المتداينون فى الكتاب والشهود أن تضارّوهم ، وفى غير ذلك من حدود الله أن تضيعوه ، ويعنى بقوله (وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ) : ويبين لكم الواجب لكم وعليكم ، فاعملوا به (وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) يعنى من أعمالكم وغيرها ، يحصيها عليكم ليجازيكم بها .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك قوله (وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ) قال : هذا تعليم علمكموه ، فخذوا به .

القول فى تأويل قوله

وَإِن كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ ، فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ

ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ ، وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ، وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ، وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ، وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣)

اختلفت القراء فى قراءة ذلك ، فقرأته القراء فى الأمصار جميعا كاتبا ، بمعنى : ولم تجدوا من يكتب لكم كتاب الدين الذى تداينتموه إلى أجل مسمى ، فرهان مقبوضة ، وقرأ جماعة من المتقدمين : ولم تجدوا كتابا ، بمعنى : ولم يكن لكم إلى اكتتاب كتاب الدين سبيل ، إما بتعذر الدواة والصحيفة ، وإما بتعذر الكاتب ، وإن وجدتم الدواة والصحيفة .

والقراءة التى لايجوز غيرها عندنا : هى قراءة الأمصار (وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا) بمعنى : من يكتب ، لأن ذلك كذلك فى مصاحف المسلمين ، وإن كنتم أيها المتداينون فى سفر بحيث لاتجدون كاتبا يكتب لكم ، ولم يكن لكم إلى اكتتاب كتاب الدين الذى تداينتموه إلى أجل مسمى بينكم ، الذى أمرتكم باكتتابه والإشهاد عليه ، سبيل ، فارتهنوا بديونكم التى تداينتموها إلى الأجل المسمى ، رهونا تقبضونها ممن تداينونه كذلك ، ليكون ثقة لكم بأموالكم .

ذكر من قال ما قلنا فى ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك ، قوله (وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَقْبُوضَةٌ) فمن كان على سفر فبايع بيعا إلى أجل ، فلم يجد كاتبا ، فرخص له فى الرهان المقبوضة ، وليس له إن وجد كاتبا أن يرتهن .

حُدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع قوله (وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا) يقول : كاتبا يكتب لكم ، فرهان مقبوضة .

حدثنى يحيى بن أبى طالب ، قال : أخبرنا يزيد ، قال : أخبرنا جويبر ، عن الضحاك ، قال : ما كان من بيع إلى أجل ، فأمر الله عزّ وجلّ أن يكتب ويشهد عليه ، وذلك فى المُقام ، فإن كان قوم على سفر تبايعوا إلى أجل فلم يجدوا ، فرهان مقبوضة .

ذكر قول من تأوّل ذلك على القراءة التى حكيناها :

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا يزيد بن أبى زياد ، عن مِقسم ، عن ابن عباس : فإن لم تجدوا كتابا ، يعنى بالكتاب : الكاتب والصحيفة والدواة والقلم .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا ابن علية ، قال : أخبرنا ابن جريج ، قال : أخبرنى أبى ، عن ابن عباس أنه قرأ : فإن لم تجدوا كتابا ، قال : ربما وجد الرجل الصحيفة ولم يجد كاتبا .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا ابن علية ، قال : ثنا ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، كان يقرؤها : فإن لم تجدوا كتابا ، ويقول : ربما وجد الكاتب ولم توجد الصحيفة أو المداد ، ونحو هذا من القول .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (وَإِنْ كُنْتُمْ

عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كِتاباً) يقول : مِدادا ، يقرؤها كذلك ، يقول : فإن لم تجدوا مِدادا ، فعند ذلك تكون الرهون المقبوضة . فَرِهَانٌ مقبوضة ، قال : لايكون الرهن إلا فى السفر .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا الحجاج ، قال : ثنا حماد بن زيد ، عن شعيب بن الحبحاب ، قال : إن أبا العالية كان يقرؤها : فإن لم تجدوا كتابا ، قال أبو العالية : توجد الدواة ولا توجد الصحيفة .

واختلف القراء فى قراءة قوله (فَرِهانٌ مَقْبُوضَةٌ) فقرأ ذلك عامة قرّاء الحجاز والعراق (فَرِهانٌ مَقْبُوضَةٌ) ، بمعنى جماع رَهْن . كما الكباش جماع كَبْش ، والبغال جماع بغل ، والنعال جماع نَعل . وقرأ ذلك جماعة آخرون : فَرُهُنٌ مقبوضة على معنى جمع رِهان ، ورُهُن : جمع الجمع ، وقد وجهه بعضهم إلى أنها جمع رَهْن ، مثل سَقْف وسُقُف . وقرأه آخرون : فرُهْن ، مخففة الهاء ، على معنى جماع رهن ، كما تجمع السَقْف سُقْفا ، قالوا : ولانعلم اسما على فَعْل يجمع على فُعُل وفُعْل ، إلا الرُّهُن والرُّهْن ، والسُّقُف والسُّقْف .

والذى هو أولى بالصواب فى ذلك : قراءة من قرأه (فَرِهانٌ مَقْبُوضَةٌ) : لأن ذلك الجمع المعروف لما كان من اسم على فَعْل ، كما يقال حَبْل وحِبال وكَعْب وكِعاب ، ونحو ذلك من الأسماء . فأما جمع الفَعْل على الفُعُل أو الفُعْل ، فشاذّ قليل ، إنما جاء فى أحرف يسيرة ، وقيل سَقْف وسُقُف وسُقْف ، وقَلْب وقُلُب وقُلْب ، من قلب النخل ، وجَدّ وجُدّ ، للجَدّ الذى هو بمعنى الحظّ . وأما ماجاء من جمع فَعْل على فُعْل فثَطّ وثُطّ ، ووَرْد ووُرْد ، وخَوْد وخُود . وإنما دعا الذى قرأ ذلك (فَرُهُنٌ مَقْبُوضَةٌ) إلى قراءته فيما أظن كذلك ، مع شذوذه فى جمع فَعْل ، أنه وجد الرِّهان مستعملة فى رِهان الخيل ، فأحبّ صرف ذلك عن اللفظ الملتبس برهان الخيل ، الذى هو بغير معنى الرِّهان ، الذى هو جمع رَهْن ، ووجد الرُّهُن مقولا فى جمع رَهْن ، كما قال قعنب :

بانَتْ سُعادُ وأَمْسَى دُونَها عَدَنُ وغَلِقَتْ عِنْدَها مِنْ قَلْبِكَ الرُهُنُ[1]

القول فى تأويل قوله (فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمانَتَه وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ) :

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : فإن كان المدين أمينا عند ربّ المال والدين ، فلم يرتهن منه فى سفره رهنا بدينه ، لأمانته عنده على ماله وثقته ، فليتق الله المدينُ ربه ، يقول : فليخَفِ الله ربه ، فى الذى عليه من دين صاحبه أن يجحده ، أو يَلِطّ دونه ، أو يحاول الذهاب به ، فيتعرّض من عقوبة الله ما لا قِبَل له به ، وليؤدّ دينه الذى ائتمنه عليه إليه . وقد ذكرنا قول من قال هذا الحكم من الله عزّ وجلّ ناسخ الأحكام التى فى الآية قبلها ، من أمر الله عزّ وجلّ بالشهود والكتاب ، وقد دللنا على أولى ذلك بالصواب من القول فيه ، فأغنى ذلك عن إعادته فى هذا الموضع .

---

(١) البيت لقعنب بن ضمرة ، وأمه : أم صاحب . وهو مطلع قصيدة له فى الهجاء ، ذكر منها فى الحماسة ثلاثة أبيات (٤ : ١٢) وذكر البيت صاحب اللسان فى (رهن) ونسبه إلى قعنب . واستشهد به المؤلف على أن الرهن بوزن كتب : جمع رهن بوزن سقف ، وهو نادر .

وقد حدثنى يحيى بن أبى طالب ، قال : أخبرنا يزيد ، قال : أخبرنا جويبر ، عن الضحاك ، فى قوله (فإنْ أمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أمانَتَهُ) : إنما يعنى بذلك فى السفر ، فأما الحضر فلا ، وهو واجد كاتبا ، فليس له أن يرتهن ، ولا يأمن بعضهم بعضا . وهذا الذى قاله الضحاك ، من أنه ليس لربّ الدين ائتمان المدين وهو واجد إلى الكاتب والكتاب والإشهاد عليه سبيلا ، وإن كانا فى سفر ، فكما قال ، لما قد دللنا على صحته فيما مضى قبل .

وأما ما قاله : من الأمر فى الرهن أيضا كذلك مثل الائتمان ، فى أنه ليس لربّ الحقّ الارتهان بماله إذا وجد إلى الكاتب والشهيد سبيلا فى حضر أو سفر ، فإنه قول لامعنى له ، لصحة الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه اشترى طعاما نَسَاء ، ورهن به درعا له . فجائز للرجل أن يَرْهَن بما عليه ، ويرتهن بماله من حقّ فى السفر والحضر ، لصحة الخبر بما ذكرنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن معلوما أن النبىّ صلى الله عليه وسلم لم يكن حين رهن من ذكرنا غير واجد كاتبا ولا شهيدا ، لأنه لم يكن متعذرا عليه بمدينته فى وقت من الأوقات الكاتب والشاهد ، غير أنهما إذا تبايعا برهن ، فالواجب عليهما إذا وجدا سبيلا إلى كاتب وشهيد ، وكان البيع أو الدين إلى أجل مسمى ، أن يكتبا ذلك ويشهدا على المال والرهن ، وإنما يجوز ترك الكتاب والإشهاد فى ذلك ، حيث لايكون لهما إلى ذلك سبيل .

القول فى تأويل قوله (وَلا تَكْتُمُوا الشَّهادَةَ ، وَمَنْ يَكْتُمْها فإنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ، وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) .

وهذا خطاب من الله عزّ وجلّ للشهود الذين أمر المستدين وربّ المال بإشهادهم ، فقال لهم : ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ، ولا تكتموا أيها الشهود بعد ما شهدتم شهادتكم عند الحكام ، كما شهدتم على ماشهدتم عليه ، ولكن أجيبوا من شهدتم له ، إذا دعاكم لإقامة شهادتكم على خصمه على حقه عند الحاكم الذى يأخذ له بحقه ، ثم أخبر الشاهد جل ثناؤه ماعليه فى كتمان شهادته ، وإبائه من أدائها والقيام بها عند حاجة المستشهد إلى قيامه بها عند حاكم ، أو ذى سلطان ، فقال : ومن يكتمها ، يعنى ومن يكتم شهادته ، فإنه آثم قلبه ، يقول : فاجر قلبه ، مكتسب بكتمانه إياها معصية الله .

كما حدثنى المثنى ، قال : أخبرنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع فى قوله (وَلا تَكْتُمُوا الشَّهادَةَ ، وَمَنْ يَكْتُمْها فإنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ) فلا يحلّ لأحد أن يكتم شهادة هى عنده ، وإن كانت على نفسه والوالدين ، ومن يكتمها فقد ركب إثما عظيما .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، قوله (وَمَنْ يَكْتُمْها فإنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ) يقول : فاجر قلبه .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قال : أكبر الكبائر الإشراك بالله ، لأن الله يقول : (وَمَنْ يُشْرِكْ باللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عليه الجَنَّةَ ، ومَأْواهُ النَّارُ) وشهادة الزور ، وكتمان الشهادة ، لأن الله عزّ وجلّ يقول (وَمَنْ يَكْتُمْها فإنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ) .

وقد روى عن ابن عباس أنه كان يقول: على الشاهد أن يشهد حيثما استشهد، ويخبر بها حيث استخبر.

حدثنى المثنى، قال: ثنا سويد، قال: أخبرنا ابن المبارك، عن محمد بن مسلم، قال: أخبرنا عمرو ابن دينار، عن ابن عباس، قال: إذا كانت عندك شهادة، فسألك عنها، فأخبره بها، ولا تقل: أخبر بها عند الأمير، أخبره بها لعله يراجع أو يرعوى.

• أما قوله (وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) فإنه يعنى بما تعملون فى شهادتكم من إقامتها والقيام بها، أو كتمانكم إياها عند حاجة من استشهدكم إليها، وبغير ذلك من سرائر أعمالكم وعلانيتها، عليم يحصيه عليكم ليجزيكم بذلك كله جزاءكم، إما خيرا، وإما شرًّا على قدر استحقاقكم.

القول فى تأويل قوله

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤)

يعنى جل ثناؤه بقوله (لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) لله ملك كل ما فى السموات وما فى الأرض، من صغير وكبير، وإليه تدبير جميعه، وبيده صرفه وتقليبه، لا يخفى عليه منه شىء، لأنه مدبره ومالكه ومصرّفه. وإنما عنى بذلك جلّ ثناؤه: كتمان الشهود الشهادة، يقول: لا تكتموا الشهادة أيها الشهود، ومن يكتمها يفجُر قلبه، ولن يخفى علىّ كتمانه، ذلك لأنى بكل شىء عليم، وبيدى صرف كل شىء فى السموات والأرض وملكه، أعلمه، خفىّ ذلك وجليه، فاتقوا عقابى إياكم على كتمانكم الشهادة، وعيدا من الله بذلك من كتمها، وتخويفا منه له به، ثم أخبرهم عما هو فاعل بهم فى آخرتهم، وبمن كان من نظرائهم ممن انطوى كشحا على معصية فأضمرها، أو أظهر مُوبقة فأبداها من نفسه، من المحاسبة عليها، فقال: (وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ) يقول: وإن تظهروا فيما عندكم من الشهادة على حقّ ربّ المال الجحود والإنكار، أو تخفوا ذلك فتضمروه فى أنفسكم، وغير ذلك من سيئ أعمالكم (يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ): يعنى بذلك: يحتسب به عليه من أعماله، فيجازى من شاء منكم من المسيئين بسوء عمله، وغافر منكم لمن شاء من المسيئين.

ثم اختلف أهل التأويل فيما عنى بقوله (وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ) فقال بعضهم بما قلنا، من أنه عنى به الشهود فى كتمانهم الشهادة، وأنه لاحق بهم كل من كان من نظرائهم ممن أضمر معصية أو أبداها.

ذكر من قال ذلك:

حدثنى أبو زائدة زكريا بن يحيى بن أبى زائدة، قال: ثنا أبو نفيل، عن يزيد بن أبى زياد، عن مجاهد، عن ابن عباس فى قوله (وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ) يقول: يعنى فى الشهادة.

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا أبو أحمد ، قال : ثنا سفيان ، عن يزيد بن أبى زياد ، عن مِقْسم ، عن ابن عباس فى قوله (وَإِنْ تُبْدُوا ما فى أنفسِكم أَوْ تخفوه) قال : فى الشهادة .

حدثنا محمد بن المثنى ، قال : ثنا عبد الأعلى ، قال : سئل داود ، عن قوله (وَإِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ) فحدثنا عن عكرمة ، قال : هى الشهادة إذا كتمتها .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة ، عن عمرو وأبى سعيد ، أنه سمع عكرمة يقول فى هذه الآية : (إِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ) قال : فى الشهادة .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا أبو أحمد ، قال : ثنا سفيان ، عن السدى ، عن الشعبى ، فى قوله (وَإِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ) قال : فى الشهادة .

حدثنا يعقوب ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا يزيد بن أبى زياد ، عن مِقْسم ، عن ابن عباس ، أنه قال فى هذه الآية : (إِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ) قال : نزلت فى كتمان الشهادة وإقامتها .

حدثنى يحيى بن أبى طالب قال : أخبرنا يزيد ، قال : أخبرنا جويبر ، عن عكرمة فى قوله : (وَإِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ) يعنى كتمان الشهادة وإقامتها على وجهها .

وقال آخرون : بل نزلت هذه الآية إعلاما من الله تبارك وتعالى عباده : أنه مؤاخذهم بما كسبته أيديهم ، وحدثتهم به أنفسهم مما لم يعملوه . ثم اختلف متأولو ذلك كذلك . فقال بعضهم : ثم نسخ الله ذلك بقوله : (لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها ، لَها ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها ما اكْتَسَبَتْ) .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا إسحاق بن سليمان ، عن مصعب بن ثابت ، عن العلاء بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن أبى هريرة ، قال : لما نزلت (لِلَّهِ ما فِي السَّمٰواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ، وَإِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ) اشتدّ ذلك على القوم ، فقالوا : يا رسول الله إنا لمؤاخذون بما نحدّث به أنفسنا هلكنا ؟ فأنزل الله عزّ وجلّ (لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها) الآية ، إلى قوله (رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا) قال أبى ، قال أبو هريرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله : نعم (رَبَّنا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا) إلى آخر الآية ، قال أبى ، قال أبو هريرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال الله عزّ وجلّ : نعم .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا وكيع ، وحدثنا سفيان بن وكيع ، قال : ثنا سفيان ، عن آدم بن سليمان مولى خالد بن خالد ، قال : سمعت سعيد بن جبير يحدّث عن ابن عباس ، قال : لما نزلت هذه الآية (إِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ ، فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ ، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ) : دخل قلوبهم منها شىء لم يدخلها من شىء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سمعنا وأطعنا وسلّمنا . قال : فألقى الله عزّ وجلّ الإيمان فى قلوبهم ، قال : فأنزل الله عزّ وجلّ (آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ

إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ) . قال أبو كريب : فقرأ (رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا) قال : فقال : قد فعلت (رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ على الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا) قال : قد فعلت (رَبَّنَا ولا تُحَمِّلْنَا ما لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ) قال : قد فعلت (وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ، أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا على القَوْمِ الكافِرِينَ) قال : قد فعلت .

حدثنى أبو الرداد المصرىّ عبد الله بن عبد السلام ، قال : ثنا أبو زرعة وهب الله بن راشد ، عن حَيْوة ابن شريح ، قال : سمعت يزيد بن أبى حبيب ، يقول : قال ابن شهاب : حدثنى سعيد بن مَرجانة ، قال : جئت عبد الله بن عمر ، فتلا هذه الآية (إِنْ تُبْدُوا ما فِى أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ، فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ) ، ثم قال ابن عمر : لئن آخذنا بهذه الآية لنهلكنّ ، ثم بكى ابن عمر حتى سالت دموعه ، قال : ثم جئت عبد الله بن العباس ، فقلت : يا أبا عباس ، إنى جئت ابن عمر ، فتلا هذه الآية : (إِنْ تُبْدُوا ما فِى أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ) . . . الآية ، ثم قال : لئن واخذنا بهذه الآية لنهلكن ، ثم بكى حتى سالت دموعه ، فقال ابن عباس : يغفر الله لعبد الله بن عمر ! لقد فَرِق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منها كما فرق ابن عمر منها ، فأنزل الله (لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ، لَهَا ما كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا ما اكْتَسَبَتْ) فنسخ الله الوسوسة ، وأثبت القول والفعل .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنى يونس بن يزيد ، عن ابن شهاب ، عن سعيد بن مَرجانة يحدّث : أنه بينا هو جالس سمع عبد الله بن عمر تلا هذه الآية (لِلَّهِ ما فِى السَّمَوَاتِ وَما فِى الأَرْضِ ، وَإِنْ تُبْدُوا ما فِى أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ) . . . الآية ، فقال : والله لئن آخذنا الله بهذا لنهلكنّ ، ثم بكى ابن عمر ، حتى سُمع نشيجه ، فقال ابن مرجانة : فقمت حتى أتيت ابن عباس ، فذكرت له ما تلا ابن عمر ، وما فعل حين تلاها ، فقال عبد الله بن عباس : يغفر الله لأبى عبد الرحمن ، لعمرى لقد وجَد المسلمون منها حين أنزلت مثل ماوجَد عبد الله بن عمر ، فأنزل الله بعدها (لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا) إلى آخر السورة . قال ابن عباس : فكانت هذه الوسوسة مما لا طاقة للمسلمين بها ، وصار الأمر إلى أن قضى الله عزّ وجلّ : أن للنفس ما كسبت ، وعليها ما اكتسبت ، فى القول والفعل .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، قال : سمعت الزهرى يقول فى قوله (إِنْ تُبْدُوا ما فِى أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ) قال : قرأها ابن عمر ، فبكى وقال : إنا لمؤاخذون بما نحدّث به أنفسنا ، فبكى حتى سمع نشيجه ، فقام رجل من عنده ، فأتى ابن عباس ، فذكر ذلك له ، فقال : رحم الله ابن عمر ! لقد وجد المسلمون نحوًا مما وجد ، حتى نزلت (لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ، لَهَا ما كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا ما اكْتَسَبَتْ) .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا عبد الرزاق ، عن جعفر بن سليمان ، عن حميد الأعرج ، عن مجاهد قال : كنت عند ابن عمر فقال : (إِنْ تُبْدُوا ما فِى أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ) . . . الآية ، فبكى ، فدخلت على ابن عباس ، فذكرت له ذلك ، فضحك ابن عباس فقال : يرحم الله ابن عمر ! أَوَ مَا يدرى

فيم أنزلت ؟ إن هذه الآية حين أنزلت غمّت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم غما شديدا ، وقالوا: يا رسول الله هلكنا، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قُولُوا سَمِعْنا وأطَعْنا » فنسختها (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالمُؤْمِنُونَ ، كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، لانُفَرِّقُ بَيْنَ أحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ) إلى قوله (وَعَلَيْهَا ما اكْتَسَبَتْ) فتجوّز لهم من حديث النفس، وأُخِذوا بالأعمال .

حدثني المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا يزيد بن هارون ، عن سفيان بن حسين ، عن الزهريّ ، عن سالم: أن أباه قرأ (إِنْ تُبْدُوا ما فِي أنْفُسِكُمْ أوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ) ، فدمعت عينه، فبلغ صنيعه ابن عباس ، فقال : يرحم الله أبا عبد الرحمن ، لقد صنع كما صنع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزلت ، فنسختها الآية التى بعدها ، (لايُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَها) .

حدثنا محمد بن بشار ، قال أبو أحمد ، قال : ثنا سفيان ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، قال : نسخَتْ هذه الآيةَ (إِنْ تُبْدُوا ما فى أنْفُسِكُمْ أوْ تُخْفُوهُ) : (لايُكَلِّفُ اللهُ نَفْسا إلاَّ وُسْعَها).

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا أبو أحمد ، قال : ثنا سفيان ، عن آدم بن سليمان ، عن سعيد بن جبير ، قال : لما نزلت هذه الآية (إِنْ تُبْدُوا ما فى أنْفُسِكُمْ أوْ تُخْفُوهُ) قالوا : أنؤاخذ بما حدثنا به أنفسنا ولم تعمل به جوارحنا ؟ قال : فنزلت هذه الآية (لايُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَها ، لَهَا ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها ما اكْتَسَبَتْ ، رَبَّنا لاتُؤاخِذْنا إنْ نَسِينا أوْ أخْطأْنا) قال : ويقول : قد فعلت ، قال : فأُعطيت هذه الأمة خواتيم سورة البقرة ، لم تعطها الأمم قبلها .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا جابر بن نوح ، قال : ثنا إسماعيل ، عن عامر (إِنْ تُبْدُوا ما فِي أنْفُسِكُمْ أوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ ، فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ ، ويُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ) قال : فنسختها الآية بعدها، قوله (لايُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَها، لَهَا ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها ما اكْتَسَبَتْ).

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن مغيرة ، عن الشعبيّ (إِنْ تُبْدُوا ما فى أنْفُسِكُمْ أوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ) قال : نسختها الآية التى بعدها (لايُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَها) وقوله (وَإِنْ تُبْدُوا) قال : يحاسب بما أبدى من سرّ ، أو أخفى من سرّ ، فنسختها التى بعدها .

حدثني يعقوب ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا سيار ، عن الشعبيّ ، قال : لما نزلت هذه الآية: (إِنْ تُبْدُوا ما فِي أنْفُسِكُمْ أوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ ، فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ) قال : فكان فيها شدة ، حتى نزلت هذه الآية التى بعدها (لَهَا ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها ما اكْتَسَبَتْ): قال : فنسخت ما كان قبلها .

حدثني يعقوب ، قال : ثنا ابن علية ، عن ابن عون ، قال : ذكروا عند الشعبيّ (إِنْ تُبْدُوا ما فِي أنْفُسِكُمْ أوْ تُخْفُوهُ) حتى بلغ (لَهَا ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها ما اكْتَسَبَتْ) قال : فقال الشعبيّ : إلى هذا صار ، رجعت إلى آخر الآية .

حدثني يحيى بن أبي طالب ، قال : أخبرنا يزيد ، قال : أخبرنا جويبر ، عن الضحاك ، في قوله (إِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ) قال : قال ابن مسعود : كانت المحاسبة قبل أن تنزل (لَهَا ما كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا ما اكْتَسَبَتْ) ، فلما نزلت نسخت الآية التي كانت قبلها .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : ثنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك ، يذكر عن ابن مسعود ، نحوه .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن بيان ، عن الشعبيّ ، قال : نسخت (إِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ) : (لَهَا ما كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا ما اكْتَسَبَتْ) .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبي ، عن موسى بن عبيدة ، عن محمد بن كعب وسفيان ، عن جابر ، عن مجاهد ، وعن إبراهيم بن مهاجر ، عن مجاهد ، قالوا : نسخت هذه الآية (لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا) : (إِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ) . . . الآية .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبي ، عن إسرائيل ، عن جابر ، عن عكرمة وعامر ، بمثله .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا الحجاج ، قال : ثنا حماد بن حميد ، عل الحسن في قوله (إِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ) إلى آخر الآية ، قال : محتها : (لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ، لَهَا ما كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا ما اكْتَسَبَتْ) .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، أنه قال : نسخت هذه الآيةُ ، يعني قوله : (لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا) . . . الآيةَ التي كانت قبلها : (إِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ) .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة في قوله (إِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ) قال : نسختها قولُه (لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا) .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : ثني ابن زيد ، قال : لما نزلت هذه الآية : (إِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ) ... إلى آخر الآية ، اشتدّت على المسلمين ، وشقت مشقة شديدة ، فقالوا : يا رسول الله لو وقع في أنفسنا شيء لم نعمل به ، وأخذنا الله به ؟ قال : فَلَعَلَّكُمْ تَقُولُونَ كَمَا قَالَ بَنُو إِسْرَائِيلَ : سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ، قالوا : بل سمعنا وأطعنا يا رسول الله ، قال : فنزل القرآن يفرجها عنهم : (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ، كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ) إلى قوله (لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ، لَهَا ما كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا ما اكْتَسَبَتْ) قال : فصيره إلى الأعمال ، وترك ما يقع في القلوب .

حدثني المثنى ، قال : ثنا الحجّاج ، قال : ثنا هشيم ، عن سيار ، عن أبي الحكم ، عن الشعبيّ ، عن

أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود في قوله (إِنْ تُبْدُوا ما في أنْفُسِكُمْ أوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ) قال: نسخت هذه الآيةُ التي بعدها : (لَهَا ما كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا ما اكْتَسَبَتْ) .

حدثني موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ، قوله (إِنْ تُبْدُوا مافي أنْفُسِكُمْ أوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ) قال : يوم نزلت هذه الآية كانوا يؤاخذون بما وسوست به أنفسهم ، وماعملوا ، فشكوا ذلك إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقالوا: إن عمل أحدُنا وإن لم يعمل أُخذنا به ، والله ما نملك الوسوسة . فنسخها الله بهذه الآية التي بعدها بقوله (لايُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا)، فكان حديث النفس مما لم تطيقوا . الآية .

حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن قتادة: أن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : نسخها قولُه (لَهَا ما كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا ما اكْتَسَبَتْ) .

وقال آخرون ممن قال : معنى ذلك الإعلام من الله عزّ وجلّ عباده أنه مؤاخذهم بما كسبته أيديهم ، وعملته جوارحهم ، وبما حدثتهم به أنفسهم مما لم يعملوه : هذه الآية محكمة غير منسوخة ، والله عزّ وجلّ محاسب خلقه على ما عملوا من عمل ، وعلى مالم يعملوه، مما أسَرُّوه فى أنفسهم ونوَوه وأرادوه ، فيغفره للمؤمنين ، ويؤاخذ به أهل الكفر والنفاق .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ عن ابن عباس، قوله (إِنْ تُبْدُوا ما فى أنفُسِكُمْ أوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ) فإنها لم تنسخ ، ولكن الله عزّ وجلّ إذا جمع الخلائق يوم القيامة ، يقول الله عزّ وجل : إنى أخبركم بما أخفيتم فى أنفسكم ، مما لم تطلع عليه ملائكتى ، فأما المؤمنون فيخبرهم ويغفر لهم ما حدّثوا به أنفسهم ، وهو قوله (يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ) يقول : يخبركم . وأما أهل الشكّ والريب، فيخبرهم بما أخفَوا من التكذيب، وهو قوله (فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ ، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ) وهوقوله (وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ): من الشك والنفاق .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس: (وَإِنْ تُبْدُوا مافى أنْفُسِكُمْ أوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ): فذلك سرّ عملكم وعلانيته، يحاسبكم به الله ، فليس من عبد مؤمن يُسر فى نفسه خيرا ليعمل به ، فإن عمل به كتبت له به عشر حسنات ، وإن هو لم يقدر له أن يعمل به كتبت له به حسنة ، من أجل أنه مؤمن، والله يرضى سرّ المؤمنين وعلانيتهم: وإن كان سوءا حدّث به نفسه ، اطلع الله عليه، وأخبره به يوم تُبلى السرائر ،وإن هو لم يعمل به لم يؤاخذه الله به حتى يعمل به، فإن هوعمل به تجاوز الله عنه، كما قال: (أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا، وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ) .

حدثنى يحيى بن أبى طالب ، قال: أخبرنا يزيد ، قال : أخبرنا جويبر ، عن الضحاك فى قوله: (إِنْ تُبْدُوا مافى أنْفُسِكُمْ أوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ)... الآية،قال: قال ابن عباس: إن الله يقول يوم

القيامة: إن كُتَّابى لم يكتبوا من أعمالكم إلاما ظهر منها ، فأما ما أسررتم فى أنفسكم ، فأنا أحاسبكم به اليوم ، فأغفر لمن شئت ، وأعذّب من شئت .

حدثنى يحيى بن أبى طالب ، قال : أخبرنا علىّ بن عاصم ، قال : أخبرنا بيان ، عن بشر ، عن قيس ابن أبى حازم ، قال : إذا كان يوم القيامة، قال الله عزّ وجلّ : يسمع الخلائق أنما كان كتّابى يكتبون عليكم ما ظهر منكم ، فأما ما أسررتم فلم يكونوا يكتبونه ، ولا يعلمونه ، أنا الله أعلم بذلك كله منكم ، فأغفر لمن شئت ، وأعذّب من شئت .

حدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ ، قال : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ) ، كان ابن عباس يقول : إذا دعى الناس للحساب ، أخبرهم الله بما كانوا يسرّون فى أنفسهم مما لم يعملوه ، فيقول : إنه كان لايعزُب عنى شىء ، وإنى مخبركم بما كنتم تسرّون من السوء ، ولم تكن حفظتكم عليكم مطلعين عليه ، فهذه المحاسبة .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا أبو تُمَيلة ، عن عبيد بن سليمان ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، نحوه .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، فى قوله (وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللهُ) قال : هى محكمة لم ينسخها شىء ، يقول : يحاسبكم به الله ، يقول : يعرّفه الله يوم القيامة أنك أخفيت فى صدرك كذا وكذا ، لايؤاخذه .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن عمرو بن عبيد ، عن الحسن ، قال : هى محكمة لم تنسخ .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا ابن علية ، قال : ثنا ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله (وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ) قال : من الشكّ واليقين .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله عزّ وجلّ (وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ) يقول : فى اليقين والشك .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

فتأويل هذه الآية على قول ابن عباس الذى رواه علىّ بن أبى طلحة : (وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ) من شىء من الأعمال ، فتظهروه بأبدانكم وجوارحكم ، أو تخفوه فتسرّوه فى أنفسكم ، فلم يطلع عليه أحد من خلقى ، أحاسبكم به ، فأغفر كل ذلك لأهل الإيمان ، وأعذّب أهل الشرك والنفاق فى دينى .

وأما على الرواية التى رواها عنه الضحاك من رواية عبيد بن سليمان عنه ، وعلى ما قاله الربيع بن أنس ، فإن تأويلها : إن تظهروا ما فى أنفسكم فتعملوه من المعاصى ، أو تضمروا إرادته فى أنفسكم ، فتخفوه ، يُعلمكم به الله يوم القيامة ، فيغفر لمن يشاء ، ويعذّب من يشاء .

وأما قول مجاهد فشبيه معناه بمعنى قول ابن عباس الذى رواه علىّ بن أبى طلحة .

وقال آخرون ممن قال : هذه الآية محكمة ، وهي غير منسوخة ، ووافقوا الذين قالوا : معنى ذلك أن الله عزّ وجلّ أعلم عباده ماهو فاعل بهم ، فيما أبدَوا وأخفَوا من أعمالهم ، معناها : أن الله محاسب جميع خلقه بجميع ما أبدَوا من سيّء أعمالهم ، وجميع ما أسروه ، ومعاقبهم عليه ، غير أن عقوبته إياهم على ما أخفَوه ، مما لم يعملوه ، ما يحدث لهم فى الدنيا من المصائب ، والأمور التى يحزنون عليها ، ويألَمون منها .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى يحيى بن أبى طالب ، قال : ثنا يزيد ، قال : أخبرنا جويبر ، عن الضحاك ، فى قوله (وَإِنْ تُبْدُوا مافِى أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ)... الآية ، قال : كانت عائشة رضى الله عنها تقول : من همّ بسيئة فلم يعملها أرسل الله عليه من الهمّ والحزن مثلَ الذى همّ به من السيئة فلم يعملها ، فكانت كفارته .

حدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ ، قال : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله : (وَإِنْ تُبْدُوا ما فِى أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ) قال : كانت عائشة تقول : كل عبد يَهُمّ بمعصية ، أو يحدّث بها نفسه ، حاسبه الله بها فى الدنيا ، يخاف ويحزن ويهتم .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى أبو تُمَيلة ، عن عبيد ، عن الضحاك ، قال : قالت عائشة فى ذلك : كل عبد همّ بسوء ومعصية ، وحدّث نفسه به ، حاسبه الله فى الدنيا ، يخاف ويحزن ويشتدّ همه ، لايناله من ذلك شىء ، كما همّ بالسوء ولم يعمل منه شيئا .

حدثنا الربيع ، قال : ثنا أسد بن موسى ، قال : ثنا حماد بن سلمة ، عن علىّ بن زيد ، عن أمه : أنها سألت عائشة عن هذه الآية (إِنْ تُبْدُوا ما فِى أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ) ، (وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ) فقالت : ما سألنى عنها أحد مذ سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ياعائشة ، هذه متابعة الله العبد بما يصيبه من الحمى والنكبة والشوكة ، حتى البضاعة يضعها فى كمه ، فيفقدها فيفزع لها ، فيجدُها فى ضِبنه[1] ، حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه ، كما يخرج التبر الأحمر من الكير .

وأولى الأقوال التى ذكرناها بتأويل الآية ، قول من قال : إنها محكمة وليست بمنسوخة ، وذلك أن النسخ لا يكون فى حكم إلا ينفيه بآخر له ناف من كل وجوهه ، وليس فى قوله جلّ وعزّ (لايُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاّ وُسْعَها ، لَها ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها ما اكْتَسَبَتْ) نفى الحكم الذى أعلم عباده بقوله (أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ) لأن المحاسبة ليست بموجبة عقوبة ، ولا مؤاخذة بما حوسب عليه العبد من ذنوبه ، وقد أخبر الله عزّ وجلّ عن المجرمين : أنهم حين تُعرض عليهم كتب أعمالهم يوم القيامة ، يقولون : (ياوَيْلَتَنا ما لِهذَا الكِتابِ لايُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إلاّ أَحْصاها) ، فأخبر أن كتبهم محصية عليهم صغائر أعمالهم وكبائرها ، فلم تكن الكتب وإن أحصت صغائر الذنوب وكبائرها ، بموجب إحصاؤها على أهل الإيمان بالله ورسوله وأهل الطاعة له ، أن يكونوا بكل ما أحصته الكتب من الذنوب معاقَبين ، لأن الله عزّ وجلّ وعدهم العفو عن الصغائر ، باجتنابهم الكبائر ، فقال فى تنزيله (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ ، وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً) ، فدلّ أن محاسبة الله عباده المؤمنين بما هو

(١) الضبن : الإبط وما يليه ، أو ما بين الإبط والكشح ، أو أعلى الجنب . (اللسان) .

محاسبهم به من الأمور التي أخفتها أنفسهم غير موجبة لهم منه عقوبة ، بل محاسبته إياهم إن شاء الله عليها ، ليعرّفهم تفضله عليهم بعفوه لهم عنها ، كما بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في الخبر الذي حدثني به أحمد بن المقدام ، قال : ثنا المعتمر بن سليمان ، قال : سمعت أبي ، عن قتادة ، عن صفوان بن مُحرز ، عن ابن عمر ، عن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « يُدْنِي اللهُ عَبْدَهُ المُؤْمِنَ يَوْمَ القِيامَةِ ، حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ[١] ، فَيُقَرِّرُهُ بِسَيِّئَاتِهِ ، يَقُولُ : هَلْ تَعْرِفُ ؟ فَيَقُولُ نَعَمْ ، فَيَقُولُ : سَتَرْتُها فِي الدُّنْيا وأغْفِرُها اليَوْمَ ؛ ثُمَّ يُظْهِرُ لَهُ حَسَناتِهِ ، فَيَقُولُ : هاؤُمُ اقْرَءُوا كِتابِيَهْ » ، أو كما قال . وأَمَّا الكافِرُ ، فَإِنَّهُ يُنادَى بِهِ عَلَى رُءُوسِ الأَشْهادِ » .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا ابن أبي عديّ وسعيد وهشام ، وحدثني يعقوب ، قال : ثنا ابن علية ، قال : أخبرنا هشام ، قالا : جميعا في حديثهما ، عن قتادة ، عن صفوان بن محرز ، قال : بينما نحن نطوف بالبيت مع عبد الله بن عمر ، وهو يطوف ، إذ عرض له رجل ، فقال : يا بن عمر ، أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى ؟ فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يَدْنُو المُؤْمِنُ مِنْ رَبِّهِ ، حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ[١] ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ ، فَيَقُولُ : هَلْ تَعْرِفُ كَذَا ؟ فَيَقُولُ : رَبِّ اغْفِرْ مَرَّتَيْنِ ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ بِهِ ما شاءَ اللهُ أَنْ يَبْلُغَ ، قال : فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُها عَلَيْكَ فِي الدُّنْيا ، وأنا أَغْفِرُها لَكَ اليَوْمَ ، قال : فَيُعْطَى صَحِيفَةَ حَسَناتِهِ أَوْ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ . وأَمَّا الكُفَّارُ وَالمُنافِقُونَ ، فَيُنادَى بِهِمْ عَلَى رُءُوسِ الأَشْهادِ : هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ ، أَلا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ » . إن الله يفعل بعبده المؤمن من تعريفه إياه سيئات أعماله ، حتى يعرّفه تفضله عليه بعفوه له عنها ، فكذلك فعله تعالى ذكره ، في محاسبته إياه بما أبداه من نفسه ، وبما أخفاه من ذلك . ثم يغفر له كل ذلك بعد تعريفه تفضله وتكرّمه عليه ، فيستره عليه ، وذلك هو المغفرة التي وعد الله عباده المؤمنين ، فقال : يغفر لمن يشاء .

فإن قال قائل : فإن قوله (لَهَا ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها ما اكْتَسَبَتْ) : ينبئ عن أن جميع الخلق غير مؤاخذين إلا بما كسبته أنفسهم من ذنب ، ولا مثابين إلا بما كسبته من خير ، قيل : إن ذلك كذلك ، وغير مؤاخذ العبد بشيء من ذلك إلا بفعل ما نُهي عن فعله ، أو ترك ما أمر بفعله .

فإن قال : فإذ كان ذلك كذلك ، فما معنى وعيد الله عزّ وجلّ إيانا على ما أخفته أنفسنا بقوله (وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ) إن كان (لَها ما كَسَبَتْ ، وَعَلَيْها ما اكْتَسَبَتْ) ، وما أضمرته قلوبنا ، وأخفته أنفسنا ، من همّ بذنب ، أو إرادة لمعصية ، لم تكتسبه جوارحنا ؟ قيل له : إن الله جلّ ثناؤه قد وعد المؤمنين أن يعفو لهم عما هو أعظم مما همّ به أحدهم من المعاصي فلم يفعله ، وهو ما ذكرنا ، من وعده إياهم العفو عن صغائر ذنوبهم إذا هم اجتنبوا كبائرها ، وإنما الوعيد من الله عزّ وجلّ بقوله (وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ) على ما أخفته نفوس الذين كانت أنفسهم تخفي الشك في الله ، والمرية في وحدانيته ، أو في نبوّة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وما جاء به من عند الله ، أو في المعاد والبعث من المنافقين ، على نحو ما قال ابن عباس ومجاهد ،

---

(١) أصل الكنف بالتحريك : الجانب والناحية : (اللسان) .

ومن قال بمثل قولهما : إن تأويل قوله (أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ) على الشكّ واليقين . غير أنا نقول : إن المتوعَّد بقوله (وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ) هو من كان إخفاء نفسه ماتخفيه الشكّ والمرية فى الله ، وفيما يكون الشك فيه بالله كفرا ، والموعود الغفران بقوله (فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ) هو الذى أخفى ، وما يخفيه الهمة بالتقدّم على بعض مانهاه الله عنه ، من الأمور التى كان جائزا ابتداء تحليله وإباحته ، فحرّمه على خلقه جلّ ثناؤه ، أو على ترك بعض ما أمر الله بفعله ، مما كان جائزا ابتداء إباحة تركه ، فأوجب فعله على خلقه . فإن الذى يهمّ بذلك من المؤمنين إذا هو لم يصحح همّه بما يهمّ به ، ويحقق ما أخفته نفسه من ذلك بالتقدم عليه ، لم يكن مأخوذا ، كما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ » ، فهذا الذى وصفنا ، هو الذى يحاسب الله به مؤمنى عباده ، ثم لايعاقبهم عليه .

فأما من كان ما أخفته نفسه شكا فى الله ، وارتيابا فى نبوّة أنبيائه ، فذلك هو الهالك المخلَّد فى النار ، الذى أوعده جل ثناؤه العذاب الأليم بقوله (وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ) .

فتأويل الآية إذنْ : (وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِى أَنْفُسِكُمْ) أيها الناس ، فتظهروه (أَوْ تُخْفُوهُ) فتنطوى عليه نفوسكم (يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ) ، فيعرّف مؤمنكم تفضله بعفوه عنه ، ومغفرته له ، فيغفره له ، ويعذّب منافقكم على الشكّ الذى انطوت عليه نفسه فى وحدانية خالقه ، ونبوّة أنبيائه .

القول فى تأويل قوله (وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) :

يعنى بذلك جل ثناؤه : والله عزّ وجلّ على العفو عما أخفته نفس هذا المؤمن من الهمة بالخطيئة ، وعلى عقاب هذا الكافر على ما أخفته نفسه من الشكّ فى توحيد الله عزّ وجلّ ، ونبوّة أنبيائه ، ومجازاة كل واحد منهما على ما كان منه ، وعلى غير ذلك من الأمور ، قادر .

القول فى تأويل قوله

آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ، كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥)

يعنى بذلك جل ثناؤه : صدّق الرسول ، يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقرّ بما أنزل إليه ، يعنى بما أوحى إليه من ربه من الكتاب ، وما فيه من حلال وحرام ، ووعد ووعيد ، وأمر ونهى ، وغير ذلك من سائر ما فيه من المعانى التى حواها . وذُكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية عليه قال : « يَحِقُّ لَهُ » .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قوله (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ) وذكر لنا أن نبىّ الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية قال : « وَيَحِقُّ لَهُ أَنْ يُؤْمِنَ »

وقد قيل : إنها نزلت بعد قوله (وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِى أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ) ،

فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) لأن المؤمنين برسول الله من أصحابه ، شقّ عليهم ماتوعّدهم الله به من محاسبتهم على ما أخفته نفوسهم ،فشكوْا ذلك إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لعلّكم تقولون : سمعنا وعصينا كما قالتْ بنو إسرائيلَ ، فقالوا : بل نقول : سمعنا وأطعنا ، فأنزل الله لذلك من قول النبىّ صلى الله عليه وسلم وقول أصحابه (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ، كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ) » يقول : وصدّق المؤمنون أيضا مع نبيهم بالله وملائكته وكتبه ورسله ... الآيتين ، وقد ذكرنا قائلى ذلك قبل .

واختلف القراء فى قراءة قوله وكتبه ، فقرأ ذلك عامة قراء المدينة وبعض قراء أهل العراق وكُتُبه ، على وجه جمع الكتاب ، على معنى : والمؤمنون كلّ آمن بالله وملائكته وجميع كتبه التى أنزلها على أنبيائه ورسله ، وقرأ ذلك جماعة من قراء أهل الكوفة وكتابه ، بمعنى : والمؤمنون كلّ آمن بالله وملائكته ، وبالقرآن الذى أنزله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم . وقد روى عن ابن عباس أنه كان يقرأ ذلك وكتابه ، ويقول : الكتاب أكثر من الكتب . وكان ابن عباس يوجه تأويل ذلك إلى نحو قوله (وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ) ، بمعنى : جنس الناس وجنس الكتاب ، كما يقال : ما أكثر درهم فلان وديناره ، ويراد به جنس الدراهم والدنانير ، وذلك وإن كان مذهبا من المذاهب معروفا ، فإن الذى هو أعجب إلىّ من القراءة فى ذلك ، أن يُقرأ بلفظ الجمع ، لأن الذى قبله جمع ، والذى بعده كذلك ، أعنى بذلك : وملائكته وكتبه ورسله . [فإلحاق الكتب فى الجمع لفظا به ، أعجب إلىّ من توحيده وإخراجه فى اللفظ به بلفظ الواحد ، ليكون لاحقا فى اللفظ والمعنى بلفظ ما قبله وما بعده ، وبمعناه .

القول فى تأويل قوله جلّ ثناؤه (لَانُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ) :

وأما قوله (لَانُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ) فإنه أخبر جلّ ثناؤه بذلك عن المؤمنين أنهم يقولون ذلك ، ففى الكلام فى قراءة من قرأ (لَانُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ) بالنون متروك ،قد استغنى بدلالة ما ذكر عنه ، وذلك المتروك هو : يقولون .

وتأويل الكلام : والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، يقولون : لانفرّق بين أحد من رسله ، وترك ذكر يقولون لدلالة الكلام عليه ، كما ترك ذكره فى قوله (وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ : سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ) بمعنى : يقولون سلام ، وقد قرأ ذلك جماعة من المتقدّمين (لَايُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ) بالياء ، بمعنى : والمؤمنون كلهم آمن بالله وملائكة وكتبه ورسله ، لايفرّق الكلّ منهم بين أحد من رسله ، فيؤمن ببعض ،ويكفر ببعض، ولكنهم يصدقون بجميعهم ، ويقرّون أن ما جاءوا به كان من عند الله، وأنهم دعَوْا إلى الله وإلى طاعته ، ويخالفون فى فعلهم ذلك اليهود : الذين أقرّوا بموسى وكذّبوا عيسى ، والنصارى الذين أقرّوا بموسى وعيسى وكذّبوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ،وجحدوا نبوّته، ومن أشبههم من الأمم الذين كذّبوا بعض رسل الله، وأقرّوا ببعضهم

كما حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب . قال : قال ابن زيد : (لانُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ) كما صنع القوم ، يعنى بنى إسرائيل ، قالوا : فلان نبىّ ، وفلان ليس نبيا ، وفلان نؤمن به ، وفلان لانؤمن به ؛ والقراءة التى لانستجيز غيرها فى ذلك عندنا بالنون (لانُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ) لأنها القراءة التى قامت حجة بالنقل المستفيض ، الذى يمتنع معه التشاغر والتواطؤ ، والسهو والغلط ، يعنى ما وصفنا من يقولون : لانفرّق بين أحد من رسله ، ولا يعترض بشاذّ من القراءة ، على ما جاءت به الحجة نقلا ورواية .

القول فى تأويل قوله : (وَقَالُوا سَمِعْنَا وأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ) :

يعنى بذلك جل ثناؤه : وقال الكلّ من المؤمنين : سمعنا قول ربنا ، وأمره إيانا بما أمرنا به ، ونهيه عما نهانا عنه ، وأطعنا : يعنى أطعنا ربنا فيما ألزمنا من فرائضه ، واستعبدنا به من طاعته ، وسلمنا له . وقوله (غُفْرَانَكَ رَبَّنَا) يعنى : وقالوا : غفرانك ربنا ، بمعنى : اغفر لنا ربنا غفرانك . كما يقال : سبحانك ، بمعنى نسبحك سبحانك . وقد بيّنا فيما مضى أن الغفران والمغفرة : السّتر من الله على ذنوب من غفر له ، وصفحه له عن هتك ستْره بها فى الدنيا والآخرة ، وعفوه عن العقوبة عليه . وأما قوله (وَإِلَيْكَ المَصِيرُ) فإنه يعنى جل ثناؤه ، أنهم قالوا : وإليك يا ربنا مرجعنا ومَعادنا ، فاغفر لنا ذنوبنا .

فإن قال لنا قائل : فما الذى نصب قوله (غُفْرَانَكَ)؟ قيل له وقوعه ، وهو مصدر موقع الأمر ، وكذلك تفعل العرب بالمصادر والأسماء ، إذا حلت محل الأمر ، وأدّت عن معنى الأمر نصبتها ، فيقولون : شكرا لله يا فلان ، وحمدا له ، بمعنى : اشكر الله واحمده ، والصلاةَ الصلاةَ : بمعنى صلوا ، ويقولون فى الأسماء : اللهَ اللهَ ياقوم ، ولو رفع بمعنى هو الله ، أوهذا الله ، ووجه إلى الخبر وفيه تأويل الأمر ، كان جائزا ، كما قال الشاعر :

إنَّ قَوْماً مِنْهُمْ عُمَيْرٌ وأشْبا ... هُ عُمَيْرٍ وَمِنْهُمُ السَّفَّاحُ

لَجَدِيرُونَ بالوَفاءِ إذَا قا ... لَ أخو النَّجْدَةِ السِّلاحُ السِّلاحُ (١)

ولو كان قوله (غُفْرَانَكَ رَبَّنَا) جاء رفعا فى القراءة لم يكن خطأ ، بل كان صوابا على ما وصفنا .

وقد ذكر أن هذه الآية لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثناء من الله عليه وعلى أمته ، قال له جبريل صلى الله عليه وسلم : إن الله عزّ وجلّ قد أحسن عليك وعلى أمتك الثناء ، فسل ربك .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن بيان ، عن حكيم بن جابر ، قال : لما أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالمُؤْمِنُونَ ، كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، لانُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ، وَقَالُوا سَمِعْنَا وأَطَعْنَا ، غُفْرَانَكَ

---

(١) البيتان غير منسوبين ، وهما من شواهد الفراء ، كما قال العينى فى المقاصد النحوية فى شرح شواهد شروح الألفية (على هامش خزانة الأدب للبغدادى ٤ : ٣٠٧) والشاهد فى قوله السلاح السلاح بالرفع ، مع أنه محذر منه ، فحقه النصب . لكن يجوز الرفع فيه على تقدير مبتدأ ، أى هو السلاح أو هذا السلاح فاحذروا . قال الفراء : العرب قد ترفع ما فيه معنى التحذير ، وأنشد البيتين .

رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) قال جبريل: إن الله عزّ وجلّ قد أحسن الثناء عليك، وعلى أمتك، فسل تُعْطَهْ، فسأل (لايُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا) . . . إلى آخر السورة.

القول فى تأويل قوله

لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ، أَنتَ مَوْلَىٰنَا، فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ (٢٨٦)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه: (لايُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا) فيتعبدها إلا بما يسعها، فلا يضيق عليها، ولا يَجْهَدُها، وقد بينا فيا مضى قبل أن الوُسْع اسم من قول القائل: وسعنى هذا الأمر، مثل الجُهْد والوُجْد، من جَهَدَنى هذا الأمر، ووجَدْتُ منه.

كما حدثنى المثنى، قال: ثنا عبد الله، قال: ثنى معاوية، عن علىّ، عن ابن عباس، قوله: (لايُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا) قال: هم المؤمنون، وسع الله عليهم أمر دينهم، فقال الله جل ثناؤه: (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ)، وقال: (يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ اليُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ)، وقالَ: (اتَّقُوا اللهَ ما اسْتَطَعْتُمْ).

حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثنى حجاج، عن ابن جريج، عن الزهرىّ، عن عبد الله ابن عباس، قال: لما نزلت ضجّ المؤمنون منها ضجة، وقالوا: يا رسول الله، هذا: نتوب من عمل اليد والرجل واللسان، كيف نتوب من الوسوسة، كيف نمتنع منها؟ فجاء جبريل صلى الله عليه وسلم بهذه الآية (لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا) إنكم لاتستطيعون أن تمتنعوا من الوسوسة.

حدثنى موسى، قال: ثنا عمرو، قال: ثنا أسباط، عن السدىّ (لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا) وُسْعُها: طاقتها، وكان حديث النفس مما لايطيقون.

القول فى تأويل قوله (لَهَا ما كَسَبَتْ، وَعَلَيْهَا ما اكْتَسَبَتْ):

يعنى بقوله جل ثناؤه لها: للنفس التى أخبر أنه لا يكلفها إلا وسعها، يقول: لكل نفس ما اجترحت وعملت من خير؛ وعليها: يعنى وعلى كل نفس ما اكتسبت: ما عملت من شر.

كما حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله (لايُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا، لَهَا ما كَسَبَتْ) أى من خير (وَعَلَيْهَا ما اكْتَسَبَتْ) أى من شرّ، أو قال: من سوء.

حدثنى موسى، قال: ثنا عمرو، قال: ثنا أسباط، عن السدىّ (لَهَا ما كَسَبَتْ) يقول: ماعملت من خير، (وَعَلَيْهَا ما اكْتَسَبَتْ) يقول: وعليها ماعملت من شرّ.

حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن قتادة ، مثله .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن الزهرىّ ، عن عبد الله ابن عباس (لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) : عمل اليد والرجل واللسان .

فتأويل الآية إذنْ : لايكلف الله نفسا إلا ما يسعها ، فلا يجهدها ، ولا يضيق عليها فى أمر دينها ، فيؤاخذها بهمة إن همت ، ولا بوسوسة إن عرضت لها ، ولا بخطرة إن خطرت بقلبها .

القول فى تأويل قوله (رَبَّنَا لاتُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا) :

وهذا تعليم من الله عزّ وجلّ عباده المؤمنين دعاءه كيف يدعونه ، ومايقولون فى دعائهم إياه ، ومعناه : قولوا : ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا شيئا فرضت علينا عمله فلم نعمله ، أو أخطأنا فى فعل شىء نهيتنا عن فعله ففعلناه ، على غير قصدٍ منا إلى معصيتك ، ولكن على جهالة منا به وخطأ .

كما حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (رَبَّنَا لاتُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا) : إن نسينا شيئا مما افترضته علينا ، أو أخطأنا شيئا مما حرّمته علينا .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر عن قتادة فى قوله : (رَبَّنَا لاتُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا) قال : بلغنى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ تَجَاوَزَ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَنْ نِسْيَانِهَا وَمَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسُهَا » .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، قال : زعم السدىّ أن هذه الآية حين نزلت (رَبَّنَا لاتُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا) قال له جبريل صلى الله عليه وسلم : فقل ذلك يا محمد .

إن قال لنا قائل : وهل يجوز أن يؤاخذ الله عزّ وجلّ عباده بمانسُوا أو أخطئوا ، فيسألوه أن لايؤاخذهم بذلك ؟ قيل : إن النسيان على وجهين : أحدهما : على وجه التضييع من العبد والتفريط ، والآخر : على وجه عجز الناسى عن حفظ ما استُحفِظ ووكل به ، وضعْف عقله عن احتماله ، فأما الذى يكون من العبد على وجه التضييع منه والتفريط ، فهو ترك منه لما أمر بفعله ، فذلك الذى يرغب العبد إلى الله عزّ وجلّ فى تركه مؤاخذته به ، وهو النسيان الذى عاقب الله عزّ وجل به آدم صلوات الله عليه ، فأخرجه من الجنة ، فقال فى ذلك (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا) . وهو النسيان الذى قال جلّ ثناؤه (فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا) ، فرغبة العبد إلى الله عزّ وجلّ بقوله (رَبَّنَا لاتُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا) فيما كان من نسيان منه لما أمر بفعله ، على هذا الوجه الذى وصفنا ، ما لم يكن تركه ما ترك من ذلك تفريطا منه فيه وتضييعا ، كفرا بالله عزّ وجلّ ، فإن ذلك إذا كان كفرا بالله ، فإن الرغبة إلى الله فى تركه المؤاخذة به غير جائزة ، لأن الله عزّ وجلّ قد أخبر عباده أنه لايغفر لهم الشرك به ، فمسئلته فعل ما قد أعلمهم أنه لايفعله خطأ ، وإنما يكون مسئلته المغفرة فيما كان من مثل نسيانه القرآن بعد حفظه بتشاغله عنه ، وعن قراءته ، ومثل نسيانه صلاة أو صياما ، باشتغاله عنهما بغيرهما حتى ضيعهما .

وأما الذى العبد به غير مؤاخذ لعجز بِنيته عن حفظه ، وقلة احتمال عقله ما وُكِّل بمراعاته ، فإن ذلك من

العبد غير معصية، وهو به غير آثم ،فذلك الذى لاوجه لمسئلة العبد ربه أن يغفره له،لأنه مسئلة منه، له أن يغفر له ما ليس له بذنب . وذلك مثل الأمر يغلب عليه ، وهو حريص على تذكره وحفظه . كالرجل يحرص على حفظ القرآن بجدّ منه ، فيقرؤه ، ثم ينساه بغير تشاغل منه بغيره عنه ، ولكن بعجز بنيته عن حفظه ، وقلة احتمال عقله، ذكر ما أودع قلبه منه ، وما أشبه ذلك من النسيان، فإن ذلك مما لايجوز مسئلة الربّ مغفرته. لأنه لاذنب للعبد فيه، فيغفر له باكتسابه. وكذلك للخطأ وجهان: أحدهما: من وجه ما نُهِى عنه العبد، فيأتيه بقصد منه وإرادة، فذلك خطأ منه ، وهو به مأخوذ ، يقال منه: خَطِئَ فلان وأخطأ فيما أتى من الفعل ، وأثِم : إذا أتى ما يتأثم فيه وركبه ، ومنه قول الشاعر :

النَّاسُ يَلْحَوْنَ الأمِـيرَ إذَا هُمُ ... خَطِئُوا الصَّوَابَ وَلا يُلامُ المُرْشِدُ[١]

يعني : أخطئوا الصواب ، وهذا الوجه الذى يرغب العبد إلى ربه فى صفح ما كان منه من إثم عنه، إلا ما كان من ذلك كفرا . والآخر منهما : ما كان عنه على وجه الجهل به ، والظنّ منه بأن له فعله . كالذى يأكل فى شهر رمضان ليلا ، وهو يحسب أن الفجر لم يطلع ، أو يؤخر صلاة فى يوم غيم ، وهو ينتظر بتأخيره إياها دخول وقتها ، فيخرج وقتها ، وهو يرى أن وقتها لم يدخل. فإن ذلك من الخطأ الموضوع عن العبد الذى وضع الله عزّ وجلّ عن عباده الإثم فيه . فلا وجه لمسئلة العبد ربه ألا يؤاخذه به ؛ وقد زعم قوم أن مسئلة العبد ربه ألا يؤاخذه بما نسى أو أخطأ، إنما هو فعل منه لما أمره به ربه تبارك وتعالى ، أو لما ندبه إليه من التذلل له ، والخضوع بالمسئلة ، فأما على وجه مسئلته الصفح ، فما لاوجه له عندهم . وللبيان عن هؤلاء كتاب سنأتى فيه إن شاء الله على ما فيه الكفاية لمن وفق لفهمه .

القول فى تأويل قوله (رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ على الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا) :

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : قولوا : ربنا لاتحمل علينا إصرا : يعنى بالإصر : العهد ، كما قال جل ثناؤه : (قال أأقْرَرْتُمْ وأخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إصْرِى) وإنما عنى بقوله (وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا) : ولا تحمل علينا عهدا ، فنعجز عن القيام به ولانستطيعه . (كَمَا حَمَلْتَهُ على الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا) : يعنى على اليهود والنصارى الذين كلفوا أعمالا ، وأخذت عهودهم ومواثيقهم على القيام بها ، فلم يقوموا بها ، فعوجلوا بالعقوبة ، فعلّم الله عزّ وجلّ أمة محمد صلى الله عليه وسلم الرغبة إليه ، بمسئلته ألا يحملهم من عهوده ومواثيقه على أعمال إن ضيعوها أو أخطئوا فيها أو نسوها ، مثل الذى حمّل من قبلهم ، فيحلّ بهم بخطئهم فيه ، وتضييعهم إياه ، مثلَ الذى أحلّ بمن قبلهم .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله :

---

(١) البيت غير منسوب . ولحيت الرجل: لمته، ألحاه لحيا ، وهو يائى ليس غير . واللحى : السب واللعن أيضا . وخطئوا الصواب: جاوزوه بقصد منهم . يقول : الناس يلومون الأمير إذا هم أخطئوا الصواب ، وفعلوا ما نهوا عنه ، فردهم إلى الصواب والرشد ، ولا أن ينبغى أن يلام المرشد الهادى إلى الصواب .

(لا تَحْمِلْ عَلَيْنا إصْرًا) قال : لاتحمل علينا عهدا وميثاقا . (كَمَا حَمَلْتَهُ على الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا) : يقول : كما غلَّظ على من قبلنا .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبي ، عن موسى بن قيس الحضرميّ ، عن مجاهد ، فى قوله (وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنا إصْرًا) قال : عهدا .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله (إصْرًا) قال : عهدا .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثنا معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس فى قوله (إصْرًا) يقول : عهدا .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (رَبَّنا ولا تَحْمِلْ عَلَيْنا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا) والإصر : العهد الذى كان على مَن قبلنا من اليهود .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج قوله (وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنا إصْرًا) قال : عهدا لانطيقه ، ولا نستطيع القيام به (كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا) : اليهود والنصارى ، فلم يقوموا به ، فأهلكتهم .

حدثنى يحيى بن أبى طالب ، قال : أخبرنا يزيد ، قال : أخبرنا جويبر ، عن الضحاك: (إصْرًا) قال : المواثيق .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع : الإصر : العهد (وأخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إصْرِى) قال : عهدى .

حدثنى محمد بن سعد ،قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس (وأخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إصْرِى) قال : عهدى .

وقال آخرون : معنى ذلك : ولا تحمل علينا ذنوبا وإثما ، كما حملت ذلك على من قبلنا من الأمم ، فتمسخنا قردة وخنازير كما مسختهم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى سعيد بن عمرو السَّكُونىّ ، قال: ثنا بقية بن الوليد ، عن علىّ بن هارون ، عن ابن جريج ، عن عطاء بن أبى رَباح ، فى قوله (وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا) قال: لاتمسخنا قردة وخنازير .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (رَبَّنا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ على الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا) : لاتحمل علينا ذنبا ليس فيه توبة ولا كفارة .

وقال آخرون : معنى الإصر بكسر الألف : الثقل .

ذكر من قال ذلك :

حدثت عن عمار، قال : ثنا ابن أبي جعفر، عن أبيه ، عن الربيع ، قوله (رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا) يقول : التشديد الذى شددته على من قبلنا من أهل الكتاب .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : سألته ، يعنى مالكا عن قوله (وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا) قال : الإصر : الأمر الغليظ . فأما الأَصر بفتح الألف : فهو ما عطف الرجل على غيره من رحم أو قرابة ، يقال : أَصَرَتْنى رحم بينى وبين فلان عليه ، بمعنى : عطفتنى عليه ، وما يأصِرُنى عليه: أى ما يعطفنى عليه ، وبينى وبينه أَصْر : رحم يأصرنى عليه أَصْرا : يعنى به : عاطفة رحم تعطفنى عليه .

القول فى تأويل قوله (رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا ما لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ) :

يعنى بذلك جل ثناؤه : وقولوا أيضا : ربنا لا تكلفنا من الأعمال ما لانطيق القيام به لثقل حمله علينا . وكذلك كانت جماعة أهل التأويل يتأولونه .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا ما لاطَاقَةَ لَنَا بِهِ): تشديد يشدَّد به ، كما شدِّد على من كان قبلكم .

حدثنى يحيى بن أبى طالب ، قال : أخبرنا يزيد ، قال : أخبرنا جويبر، عن الضحاك ، قوله (وَلَا تُحَمِّلْنَا ما لاطاقَةَ لَنَا بِهِ) قال : لاتحملنا من الأعمال ما لانطيق .

دثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال: قال ابن زيد، فى قوله (رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا ما لاطاقَةَ لَنَا بِهِ) : لا تفترض علينا من الدِّين ما لاطاقة لنا به ، فنعجِز عنه .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج (وَلَا تُحَمِّلْنَا ما لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ) مسخ القردة والخنازير .

حدثنى سلام بن سالم الخزاعىّ ، قال : ثنا أبو حفص عمر بن سعيد التنوخىّ ، قال: ثنا محمد بن شعيب بن سابور ، عن سالم بن شابور، فى قوله (رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا ما لاطاقَةَ لَنَا بِهِ) قال : الغُلْمة .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ،عن السدىّ (رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا ما لاطاقَةَ لَنَا بِهِ) من التغليظ والأغلال التى كانت عليهم من التحريم .

وإنما قلنا: إن تأويل ذلك : ولا تكلفنا من الأعمال ما لا نطيق القيام به، على نحو الذى قلنا فى ذلك : لأنه عَقِيب مسئلة المؤمنين ربهم أن لا يؤاخذهم إن نسُوا أو أخطَئُوا، وألا يحمل عليهم إصرا كما حمله على الذين من قبلهم ، فكان إلحاق ذلك بمعنى ماقبله من مسئلتهم التيسير فىالدين ، أولى مما خالف ذلك المعنى .

القول فى تأويل قوله (وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا) :

وفى هذا أيضا من قول الله عزّ وجلّ خبرا عن المؤمنين من مسئلتهم إياه ذلك، الدلالة الواضحة أنهم سألوه تيسير فرائضه عليهم بقوله (وَلَا تُحَمِّلْنَا ما لاطاقَةَ لَنَا بِهِ)، لأنهم عقبوا ذلك بقولهم (وَاعْفُ

عنَّا)، مسئلة منهم ربهم أن يعفو لهم عن تقصير إن كان منهم في بعض ما أمرهم به من فرائضه ، فيصفح لهم عنه ، ولا يعاقبهم عليه ، وإن خفَّ ما كلفهم من فرائضه على أبدانهم .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال بعض أهل التأويل :

ذكر من قال ذلك :

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (وَاعْفُ عَنَّا) قال : اعف عنا إن قصرنا عن شىء من أمرك مما أمرتنا به ، وكذلك قوله (وَاغْفِرْ لَنَا) يعنى : واستر علينا زلّة إن أتيناها فيما بيننا وبينك ، فلا تكشفها ولا تفضحنا بإظهارها . وقد دللنا على معنى المغفرة فيما مضى قبل .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد (وَاغْفِرْ لَنَا) إن انتهكنا شيئا مما نهيتنا عنه .

القول فى تأويل قوله (وَارْحَمْنَا) :

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : تغمدنا منك برحمة تنجينا بها من عقابك ، فإنه ليس بناج من عقابك أحد إلا برحمتك إياه دون عمله ، وليست أعمالنا منجيتنا إن أنت لم ترحمنا ، فوفقنا لما يرضيك عنا .

كما حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (وَارْحَمْنَا) قال : يقول : لاننال العمل بما أمرتنا به ، ولا نترك ما نهيتنا عنه إلا برحمتك ، قال : ولم ينج أحد إلا برحمتك .

القول فى تأويل قوله (أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) :

يعنى بقوله جل ثناؤه (أَنْتَ مَوْلَانَا) أنت ولينا بنصرك دون من عاداك وكفر بك ، لأنا مؤمنون بك ومطيعوك فيما أمرتنا ونهيتنا ، فأنت ولىّ من أطاعك ، وعدوّ من كفر بك فعصاك ، فانصرنا لأنا حزبك ، على القوم الكافرين الذين جحدوا وحدانيتك ، وعبدوا الآلهة والأنداد دونك ، وأطاعوا فى معصيتك الشيطان . والمولى فى هذا الموضع المَفعل من وَلِىَ فلان أمر فلان ، فهو يليه ولاية ، وهو وَلِيُّه ومولاه . وإنما صارت الياء من ولى ألفا لانفتاح اللام قبلها ، التى هى عين الاسم .

وقد ذكروا أن الله عزّ وجلّ لما أنزل هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، استجاب الله له فى ذلك كله .

ذكر الأخبار التى جاءت بذلك :

حدثنى المثنى بن إبراهيم ومحمد بن خَلَف قالا : ثنا آدم ، قال : ثنا ورقاء ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : لما نزلت هذه الآية (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ) قال : قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما انتهى إلى قوله (غُفْرَانَكَ رَبَّنَا) قال الله عز وجل : قد غفرت لكم ، فلما قرأ (رَبَّنَا لَاتُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا) قال الله عزّ وجلّ : لاأُحملكم . فلما قرأ (وَاغْفِرْ لَنَا) قال الله تبارك وتعالى : قد غفرت لكم ، فلما قرأ (وَارْحَمْنَا) قال الله عزّ وجلّ : قد رحمتكم . فلما قرأ (وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) قال الله عزّ وجلّ : قد نصرتكم عليهم .

حدثني يحيى بن أبي طالب ، قال : أخبرنا يزيد ، قال : أخبرنا جويبر ، عن الضحاك ، قال : أتى جبريل النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد قل (رَبَّنا لاتُؤاخِذْنا إنْ نَسِينا أوْ أخْطأْنا) ، فقالها ، فقال جبريل : قد فعل . وقال له جبريل : قل (رَبَّنا لا تَحْمِلْ عَلَيْنا إصْرًا كَما حَمَلْتَهُ على الَّذينَ مِنْ قَبْلِنا) فقالها ، فقال جبريل : قد فعل ، فقال : قل (رَبَّنا وَلا تُحَمِّلْنا ما لاطاقَةَ لَنا بِهِ) ، فقالها ، فقال جبريل صلى الله عليه وسلم : قد فعل ، فقال : قل (وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا، أنْتَ مَوْلانا فانْصُرْنا على القَوْمِ الكافِرِينَ) .فقالها ، فقال جبريل : قد فعل .

حدثني موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، قال : زعم السدىّ أن هذه الآية حين نزلت (رَبَّنا لاتُؤاخِذْنا إنْ نَسِينا أوْ أخْطأْنا) فقال له جبريل : فعل ذلك يامحمد (رَبَّنا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنا إصْرًا كَما حَمَلْتَهُ على الَّذينَ مِنْ قَبْلِنا ، رَبَّنا وَلا تُحَمِّلْنا ما لاطاقَةَ لَنا بِهِ ، وَاعْفُ عَنَّا ، وَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا ، أنْتَ مَوْلانا فانْصُرْنا على القَوْمِ الكافِرِينَ) فقال له جبريل فى كل ذلك : فَعَلَ ذلك يا محمد .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا وكيع ، وحدثنا سفيان ، قال : ثنا أبى ، عن سفيان ، عن آدم بن سليمان مولى خالد ، قال : سمعت سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال: أنزل الله عزّ وجلّ (آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ) إلى قوله (رَبَّنا لاتُؤاخِذْنا إنْ نَسِينا أوْ أخْطأْنا) ، فقرأ (رَبَّنا لاتُؤاخِذْنا إنْ نَسِينا أوْ أخْطأْنا) قال : فقال : قد فعلت (رَبَّنا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنا إصْرًا كَما حَمَلْتَهُ على الَّذينَ مِنْ قَبْلِنا) فقال : قد فعلت (رَبَّنا وَلا تُحَمِّلْنا ما لاطاقَةَ لَنا بِهِ) قال : قد فعلت (وَاعْفُ عَنَّا ، وَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا ، أنْتَ مَوْلانا فانْصُرْنا على القَوْمِ الكافِرِينَ) قال : قد فعلت .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا إسحاق بن سليمان ، عن مصعب بن ثابت ، عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب، عن أبيه ، عن أبى هريرة ، قال: أنزل الله عزّ وجلّ (رَبَّنا لاتُؤاخِذْنا إنْ نَسِينا أوْ أخْطأْنا)، قال أبى ، قال أبو هريرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : نَعَمْ » .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا أبوحميد ، عن سفيان ، عن آدم بن سليمان ، عن سعيد بن جبير (لايُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلاّ وُسْعَها ، لَها ما كَسَبَتْ ، وَعَلَيْها ما اكْتَسَبَتْ ، رَبَّنا لاتُؤاخِذْنا إنْ نَسِينا أوْ أخْطأْنا) قال : ويقول قد فعلت (رَبَّنا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنا إصْرًا كَما حَمَلْتَهُ على الَّذينَ مِنْ قَبْلِنا) قال : ويقول قد فعلت ، فأُعطيت هذه الأمة خواتيم سورة البقرة ، ولم تعطها الأمم قبلها .

حدثنا علىّ بن حرب الموصلى ، قال : ثنا ابن فضيل ، قال : ثنا عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى قول الله عز وجلّ (آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ) إلى قوله (غُفْرانَكَ رَبَّنا) قال : قد غفرت لكم (لايُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلاّ وُسْعَها) إلى قوله (لاتُؤاخِذْنا إنْ نَسِينا أوْ أخْطأْنا) قال : لاأؤاخذكم (رَبَّنا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنا إصْرًا كَما حَمَلْتَهُ على الَّذينَ مِنْ

قَبْلِنا) قال : لاأحمل عليكم إلى قوله (وَاعْفُ عَنَّا ، وَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا ، أَنْتَ مَوْلانا) إلى آخر السورة ، قال : قد عفوت عنكم ، وغفرت لكم ، ورحمتكم ، ونصرتكم على القوم الكافرين .

وروى عن الضحاك بن مزاحم أن إجابة الله للنبيّ صلى الله عليه وسلم خاصة .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ ، قال : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (رَبَّنا لاتُؤاخِذْنا إنْ نَسِينا أوْ أخْطأْنا) : كان جبريل عليه السلام يقول له سلها ، فسألها نبىّ الله ربه جل ثناؤه ، فأعطاه إياها ، فكانت للنبىّ صلى الله عليه وسلم خاصة .

حدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : ثنا أبو نعيم ، قال : ثنا سفيان ، عن أبى إسحاق أن معاذا كان إذا فرغ من هذه السورة (وَانْصُرْنا على القَوْمِ الكافِرِينَ) قال : آمين .

تفسير سورة آل عمران

بسم الله الرحمن الرحيم

أخبرنا أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيدَ الطبرىّ رضى الله عنه .

القول فى تأويل قوله

الم (١) اللهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ (٢)

قال أبو جعفر : قد أتينا على البيان عن معنى قوله (الم) فيما مضى ؛ بما أغنى عن إعادته فى هذا الموضع ، وكذلك البيان عن قوله (اللهُ) . وأما معنى قوله (لاإلَهَ إلاَّ هُوَ) فإنه خبر من الله جلّ وعزّ ، أخبر عباده أن الألوهية خاصة به دون ماسواه من الآلهة والأنداد ، وأن العبادة لاتصلح ولا تجوز إلا له ، لانفراده بالربوبية ، وتوحده بالألوهية ، وأن كل ما دونه فملكه ، وأن كل ما سواه فخلقه ، لاشريك له فى سلطانه وملكه ، احتجاجا منه تعالى ذكره عليهم ، بأن ذلك إذ كان كذلك ، فغير جائزة لهم عبادة غيره ، ولا إشراك أحد معه فى سلطانه ، إذ كان كل معبود سواه فملكه ، وكل معظم غيره فخلقه ؛ وعلى المملوك إفراد الطاعة لمالكه ، وصرف خدمته إلى مولاه ورازقه ، ومعرّف من كان من خلقه ، يوم أنزل ذلك إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، بتنزيله ذلك إليه ، وإرساله به إليهم على لسانه ، صلوات الله عليه وسلامه ، مقيما على عبادة وثن أو صنم ، أو شمس أو قمر ، أو إنسىّ أو ملك ، أو غير ذلك من الأشياء التى كانت بنو آدم مقيمة على عبادته وإلاهته ، ومتخذته دون مالكه وخالقه إلها وربا ، أنه مقيم على ضلالة ، ومنعزل عن المحجة ، وراكب غير السبيل المستقيمة ، بصرفه العبادة إلى غيره ، ولا أحد له الألوهية غيره .

وقد ذكر أن هذه السورة ابتدأ الله بتنزيله فاتحتها ، بالذى ابتدأ به من نفى الألوهية أن يكون لغيره ، ووصفه نفسه بالذى وصفها به فى ابتدائها ، احتجاجا منه بذلك على طائفة من النصارى ، قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من نجران ، فحاجّوه فى عيسى صلوات الله عليه ، وألحدوا فى الله ، فأنزل الله عزّ

وجلّ فى أمرهم وأمر عيسى من هذه السورة ، نيفا وثلاثين آية من أوّلها ، احتجاجا عليهم ، وعلى من كان على مثل مقالتهم لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، فأبوا إلا المقام على ضلالتهم وكفرهم ، فدعاهم إلى المباهلة، فأبوا ذلك ، وسألوا قبول الجزية منهم ، فقبلها صلى الله عليه وسلم منهم ، وانصرفوا إلى بلادهم ، غير أن الأمر وإن كان كذلك ، وإياهم قصد بالحجاج ، فإن من كان معناه من سائر الخلق ، معناهم فى الكفر بالله ، واتخاذ ماسوى الله ربا وإلها معبودا ، معمومون بالحجة التى حجّ الله تبارك وتعالى بها من نزلت هذه الآيات فيه ، ومحجوجون فى الفُرقان الذى فُرق به لرسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبينهم .

ذكر الرواية عمن ذكرنا قوله فى نزول افتتاح هذه السورة أنه نزل فى الذين وصفنا صفتهم من النصارى :

حدثنا محمد بن حميد، قال: ثنا سلَمة بن الفضل، قال: ثنى محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر، قال: قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد نَجْران[1] ، ستون راكبا ، فيهم أربعة عشر رجلا من أشرفهم ، فى الأربعة عشر ثلاثة نفر ، إليهم يئول أمرهم : العاقب أمير القوم ، وذو رأيهم ، وصاحب مشورتهم ، والذى لايَصدُرون إلاعن رأيه ، واسمه عبد المسيح . والسيد ثِمالهُم ، وصاحب رَحْلهم ومجتمعهم ، واسمه الأيهم . وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل ، أسقفهم وحَبْرهم وإمامهم وصاحب مِدراسهم . وكان أبو حارثة قد شرف فيهم ، ودرس كتبهم ، حتى حسن علمه فى دينهم ، فكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرّفوه وموّلوه وأخدموه ، وبنوا له الكنائس ، وبسطوا عليه الكرامات ، لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده فى دينه . قال ابن إسحاق : قال محمد بن جعفر بن الزبير : قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فدخلوا عليه فى مسجده حين صلى العصر ، عليهم ثياب الحِبَرات جُبَب وأردية فى بَلْحرث بن كعب ، قال : يقول بعض من رآهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ : ما رأينا بعدهم وفدا مثلهم ، وقد حانت صلاتهم ، فقاموا يصلون فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دَعُوهُمْ . فَصَلَّوْا إلى المَشْرِقِ » قال : وكانت تسمية الأربعة عشر منهم الذين يئول إليهم أمرهم : العاقب وهو عبد المسيح ، والسيد وهو الأيهم ، وأبو حارثة ابن علقمة أخو بكر بن وائل ، وأوس ، والحارث ، وزيد ، وقيس ، ويزيد ، ونبيه ، وخويلد بن عمرو ، وخالد ، وعبد الله ، ويُحَنَّس فى ستين راكبا ، فكلم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم منهم أبوحارثة ابن علقمة ، والعاقب عبد المسيح ، والأيهم السيد ، وهو من النصرانية على دين الملك ، مع اختلاف من أمرهم يقولون : هو الله ، ويقولون : هو ولد الله ، ويقولون : هو ثالث ثلاثة ، وكذلك قول النصرانية .

فهم يحتجون فى قولهم : هو الله ، بأنه كان يحيى الموتى ، ويبرئ الأسقام ، ويخبر بالغيوب ، ويخلق من الطين كهيئة الطير ، ثم ينفخ فيه فيكون طائرا ، وذلك كله بإذن الله ، ليجعله آية للناس . ويحتجون فى قولهم : إنه ولد الله ، أنهم يقولون : لم يكن له أب يُعلَم ، وقد تكلم فى المهد بشىء لم يصنعه أحد من ولد آدم قبله . ويحتجون فى قولهم : إنه ثالث ثلاثة ، بقول الله عزّ وجلّ : فعلنا وأمرنا ، وخلقنا وقضينا ، فيقولون : لو كان واحدا ماقال إلا فعلت وأمرت ، وقضيت وخلقت ، ولكنه هو ، وعيسى ، ومريم . ففى كل ذلك من

(١) نجران ، بوزن عطشان : اسم لعدة مواضع ببلاد العرب ، أشهرها نجران مدينة بالحجاز من شق اليمن . (انظر معجم ما استعجم للبكرى طبعة القاهرة ص ١٢٩٨) .

قولهم قد نزل القرآن ، وذكر الله لنبيه صلى الله عليه وسلم فيه قولهم . فلما كلمه الحبران ، قال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَسْلِما ، قالا : قد أسلمنا ، قال : إِنَّكُما لَمْ تُسْلِما ، فأَسْلِما ، قالا : بلى ، قد أسلمنا قبلك ، قال : كَذَبْتُما ، يَمْنَعُكُما مِنَ الإسْلامِ دُعاؤُكُما لله عَزَّ وَجَلَّ وَلَدًا ، وَعِبادَتُكُما الصليبَ ، وأَكْلُكُما الخِنْزِيرَ . قالا : فمن أبوه يا محمد ؟ فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهما ، فلم يجبهما . فأنزل الله فى ذلك من قولهم ، واختلاف أمرهم كله ، صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها . [فقال (اللهُ لاإِلَهَ إلاَّ هُوَ الحَىُّ القَيُّومُ) ، فافتتح السورة بتبرئة نفسه تبارك وتعالى مما قالوا ، وتوحيده إياها بالخلق والأمر ، لاشريك له فيه ، وردًّا عليهم ما ابتدعوا من الكفر ، وجعلوا معه من الأنداد ، واحتجاجا عليهم بقولهم فى صاحبهم ، ليعرّفهم بذلك ضلالتهم ، فقال : (اللهُ لا إِلَهَ إلاَّ هُوَ) : أى ليس معه شريك فى أمره .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع فى قوله (المۤ . اللهُ لاإِلَهَ إلاَّ هُوَ الحَىُّ القَيُّومُ) قال : إن النصارى أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخاصموه فى عيسى ابن مريم ، وقالوا له : من أبوه ، وقالوا على الله الكذب والبهتان ، لاإله إلا هو ، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، فقال لهم النبىّ صلى الله عليه وسلم : أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لا يَكُونُ وَلَدٌ إلاَّ وَهُوَ يُشْبِهُ أباهُ ؟ قالوا : بلى ، قال : أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَبَّنا حَىٌّ لايَمُوتُ ، وأَنَّ عِيسَى يَأْتِى عَلَيْهِ الفَناءُ ؟ قالوا : بلى ، قال : أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَبَّنا قَيِّمٌ على كُلِّ شَىْءٍ : يَكْلَؤُهُ وَيَحْفَظُهُ وَيَرْزُقُهُ ؟ قالوا : بلى ، قال : فَهَلْ يَمْلِكُ عِيسَى مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ؟ قالوا : لا ، قال : أَفَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى الأَرْضِ ولا فِى السَّماءِ ؟ قالوا : بلى ، قال : فَهَلْ يَعْلَمُ عِيسَى مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا إلاَّ ما عُلِّمَ ؟ قالوا : لا ، قال : فإِنَّ رَبَّنا صَوَّرَ عِيسَى فِى الرَّحِمِ كَيْفَ شاءَ ، فَهَلْ تَعْلَمُونَ ذَلِكَ ؟ قالوا : بلى ، قال : أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَبَّنا لا يَأْكُلُ الطَّعامَ ، وَلا يَشْرَبُ الشَّرابَ ، وَلا يُحْدِثُ الحَدَثَ ؟ قالوا : بلى ، قال : أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ عِيسَى حَمَلَتْهُ امْرَأَةٌ كَما تَحْمِلُ المَرْأَةُ ، ثُمَّ وَضَعَتْهُ كَما تَضَعُ المَرْأَةُ وَلَدَها ، ثُمَّ غُذِّىَ كَما يُغَذَّى الصَّبِىُّ ، ثُمَّ كانَ يَطْعَمُ الطَّعامَ ، وَيَشْرَبُ الشَّرابَ ، وَيُحْدِثُ الحَدَثَ ؟ قالوا : بلى ، قال : فَكَيْفَ يَكُونُ هَذا كَما زَعَمْتُمْ ؟ قال : فعرفوا ثم أَبَوا إلا جحودا ، فأنزل الله عز وجل (المۤ . اللهُ لاإِلَهَ إلاَّ هُوَ الحَىُّ القَيُّومُ) .

القول فى تأويل قوله (الحَىُّ القَيُّومُ) :

اختلفت القراء فى ذلك ، فقرأته قراء الأمصار (الحَىُّ القَيُّومُ) وقرأ ذلك عمر بن الخطاب وابن مسعود ، فيما ذكر عنهما (الحَىُّ القَيَّامُ) ، وذكر عن علقمة بن قيس أنه كان يقرأ (الحَىُّ القَيِّمُ) .

حدثنا بذلك أبو كريب ، قال : ثنا عثّام بن علىّ ، قال : ثنا الأعمش ، عن إبراهيم ، عن أبى معمر ، قال : سمعت علقمة يقرأ (الحَىُّ القَيِّمُ) قلت : أنت سمعته ؟ قال : لاأدرى .

حدثنا أبو هشام الرفاعىّ ، قال : ثنا وكيع ، قال : ثنا الأعمش ، عن إبراهيم ، عن أبى معمر ، عن علقمة ، مثله .

وقد روى عن علقمة خلاف ذلك ، وهو ما حدثنا أبو هشام ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثنا شيبان ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن أبى معمر ، عن علقمة أنه قرأ (الحَىُّ القَيَّام) .

والقراءة التى لايجوز غيرها عندنا فى ذلك : ما جاءت به قراءة المسلمين نقلا مستفيضا ، عن غير تشاغر ولا تواطؤ وراثة ، وما كان مثبتا فى مصاحفهم ، وذلك قراءة من قرأ (الحَىُّ القَيُّومُ) .

القول فى تأويل قوله (الحَىُّ) :

اختلف أهل التأويل فى معنى قوله (الحَىُّ) فقال بعضهم : معنى ذلك من الله تعالى ذكره : أنه وصف نفسه بالبقاء ، ونفى الموت الذى يجوز على من سواه من خلقه عنها .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن حميد ، قال : ثنا سلمة بن الفضل ، قال : ثنى محمد بن إسحاق ، عن محمد بن جعفر ابن الزبير (الحَىُّ) الذى لايموت ، وقد مات عيسى وصُلِب فى قولهم ، يعنى فى قول الأحبار الذين حاجُّوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من نصارى أهل نجران .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع قوله (الحَىُّ) قال : يقول : حىّ لايموت .

وقال آخرون : معنى (الحَىُّ) الذى عناه الله عزّ وجلّ فى هذه الآية ، ووصف به نفسه : أنه المتيسر له تدبير كل ما أراد وشاء ، لا يمتنع عليه شىء أراده ، وأنه ليس كمن لاتدبير له من الآلهة والأنداد .

وقال آخرون : معنى ذلك : أن له الحياة الدائمة التى لم تزل له صفة ، ولا تزال كذلك ، وقالوا : إنما وصف نفسه بالحياة ، لأن له حياة كما وصفها بالعلم ، لأن لها علما ، وبالقدرة ، لأن لها قدرة .

ومعنى ذلك عندى : أنه وصف نفسه بالحياة الدائمة التى لافناء لها ولا انقطاع ، ونفى عنها ما هو حالّ بكل ذى حياة من خلقه ، من الفناء ، وانقطاع الحياة عند مجىء أجله ، فأخبر عباده أنه المستوجب على خلقه العبادة والألوهة ، والحىّ الذى لايموت ولا يَبيد ، كما يموت كل من اتخذ من دونه ربا ، ويَبيد كلّ من ادّعى من دونه إلها ، واحتجّ على خلقه بأن من كان يبيد فيزول ويموت فيفنى ، فلا يكون إلها يستوجب أن يعبد دون الإله الذى لايبيد ولا يموت ، وأن الإله : هو الدائم الذى لايموت ولا يبيد ولا يفنى ، وذلك الله الذى لاإله إلا هو .

القول فى تأويل قوله (القَيُّومُ) قد ذكرنا اختلاف القراءة فى ذلك ، والذى نختار منه ، وما العلة التى من أجلها اخترنا ما اخترنا من ذلك .

فأما تأويل جميع الوجوه التى ذكرنا أن القرّاء قرأت بها فمتقارب ، ومعنى ذلك كله : القيم بحفظ كل شىء ورزقه وتدبيره ، وتصريفه فيما شاء وأحبّ ، من تغيير وتبديل ، وزيادة ونقص .

كما حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى بن ميمون ، قال : ثنا ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، فى قول الله جل ثناؤه (الحَىُّ القَيُّومُ) قال : القائم على كل شىء .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (القَيُّوم) : قيم على كل شىء : يكلؤه ويحفظه ويرزقه .

وقال آخرون : معنى ذلك القيام على مكانه ، ووجهوه إلى القيام الدائم ، الذى لازوال معه ولا انتقال ، وأن الله عزّ وجلّ إنما نفى عن نفسه بوصفها بذلك ، التغيرّ والتنقل من مكان إلى مكان ، وحدوث التبدّل الذى يحدث فى الآدميين وسائر خلقه غيرهم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن عمر بن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير (القَيُّومُ) : القيام على مكانه ، مَن سلطانه فى خلقه لايزول ، وقد زال عيسى فى قولهم ، يعنى : فى قول الأحبار الذين حاجوا النبىّ صلى الله عليه وسلم من أهل نجران فى عيسى ، عن مكانه الذى كان به ، وذهب عنه إلى غيره .

وأولى التأويلين بالصواب : ما قاله مجاهد والربيع ، وأن ذلك وصف من الله تعالى ذكره نفسه ، بأنه القائم بأمر كل شىء فى رزقه والدفع عنه ، وكلائه وتدبيره ، وصرفه فى قدرته ، من قول العرب : فلان قائم بأمر هذه البلدة ، يُعنى بذلك : المتولى تدبير أمرها ؛ فالقيُّوم إذ كان ذلك معناه «الفَيْعول» من قول القائل : الله يقوم بأمر خلقه . وأصله القَيْوُوم ، غير أن الواو الأولى من القيوم ، لما سبقتها ياء ساكنة وهى متحركة ، قلبت ياء ، فجعلت هى والياء التى قبلها ياء مشددة ، لأن العرب كذلك تفعل بالواو المتحركة ، إذا تقدمتها ياء ساكنة . وأما القَيَّام ، فإن أصله القَيْوام ، وهو « الفَيْعال » من قام يقوم ، سبقت الواو المتحركة من قيوام ياء ساكنة ، فجعلتا جميعا ياء مشددة ، ولو أن القيُّوم «فَعُّول» ، كان القَوُّوم ، ولكنه الفَيْعُول . وكذلك القَيَّام لو كان الفَعَّال لكان القوّام ، كما قيل : الصوّام والقوّام ، وكما قال جل ثناؤه (كُونُوا قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاءَ بِالقِسْطِ) ، ولكنه «الفَيْعال» ، فقال : القَيَّام . وأما القيم فهو «الفَيْعِل» من قام يقوم ، سبقت الواو المتحركة ياء ساكنة ، فجعلتا ياء مشددة ، كما قيل : فلان سيد قومه ، من ساد يسود ، وهذا طعام جيد ، من جاد يجود ، وما أشبه ذلك . وإنما جاء ذلك بهذه الألفاظ لأنه قصد به قصد المبالغة فى المدح ، فكان القيوم والقيَّام والقيِّم أبلغ فى المدح من القائم . وإنما كان عمر رضى الله عنه يختار قراءته إن شاء الله القَيَّام ، لأن ذلك الغالب على منطق أهل الحجاز ، فى ذوات الثلاثة من الياء والواو ، فيقولون للرجل الصَّوَّاغ : الصَّيَّاغ ، ويقولون للرجل الكثير الدوران الدَّيَّار ، وقد قيل إن قول الله جل ثناؤه (لا تَذَرْ على الأَرْضِ مِنَ الكافِرِينَ دَيَّارًا) إنما هو دوّارا فَعَّالا ، من دار يدور ، ولكنها نزلت بلغة أهل الحجاز ، وأقرّت كذلك فى المصحف .

القول فى تأويل قوله

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ (٣) مِن قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ ، وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤)﴾

يقول جلّ ثناؤه : يا محمد إن ربك وربّ عيسى وربّ كل شيء ، هو الربّ الذى أنزل عليك الكتاب ، يعنى بالكتاب : القرآن . بالحقّ ، يعنى : بالصدق فيما اختلف فيه أهل التوراة والإنجيل ، وفيما خالفك فيه محاجوك من نصارى أهل نَجران ، وسائر أهل الشرك غيرهم . مصدّقا لما بين يديه : يعنى بذلك القرآن ، أنه مصدّق لما كان قبله من كتب الله التى أنزلها على أنبيائه ورسله ، ومحقّق ما جاءت به رسل الله من عنده ، لأن منزل جميع ذلك واحد ، فلا يكون فيه اختلاف ، ولو كان من عند غيره كان فيه اختلاف كثير .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ) قال : لما قبله من كتاب أو رسول .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ) لما قبله من كتاب أو رسول .

حدثنى محمد بن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : ثنى محمد بن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزُّبير (نَزَّلَ عَلَيْكَ الكتابَ بالحَقِّ) : أى بالصدق فيما اختلفوا فيه .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتاب بالحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ) يقول : القرآن مصدّقا لما بين يديه من الكتب التى قد خلت قبله .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنى ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع قوله (نَزَّلَ عَلَيْكَ الكتابَ بالحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ) يقول : مصدّقا لما قبله من كتاب ورسول .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه (وأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإنجيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى للنَّاسِ) :

يعنى بذلك جل ثناؤه : وأنزل التوراة على موسى ، والإنجيل على عيسى (مِنْ قَبْلُ) يقول : من قبل الكتاب الذى نزّله عليك . ويعنى بقوله (هُدًى للنَّاسِ) : بيانا للناس من الله ، فيما اختلفوا فيه من توحيد الله ، وتصديق رسله ، ومفيدا يامحمد أنك نبيى ورسولى ، وفى غير ذلك من شرائع دين الله .

كما حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (وأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ والإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى للنَّاسِ) ، هما كتابان أنزلهما الله ، فيهما بيان من الله ، وعصمة لمن أخذ به ، وصدّق به ، وعمل بما فيه

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير (وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ) التوراة على موسى ، والإنجيل على عيسى ، كما أنزل الكتب على من كان قبلهما .

القول فى تأويل قوله (وَأَنْزَلَ الفُرْقَانَ) :

يعنى جل ثناؤه بذلك : وأنزل الفصل بين الحقّ والباطل ، فيما اختلفت فيه الأحزاب وأهل الملل فى أمر عيسى وغيره . وقد بينا فيما مضى أن الفُرقان إنما هو الفُعلان ، من قولهم : فَرَقَ الله بين الحقّ والباطل، يفصل بينهما بنصره بالحقّ على الباطل : إما بالحجة البالغة ، وإما بالقهر والغلبة بالأيد والقوّة .

وبما قلنا فى ذلك قال أهل التأويل . غير أن بعضهم وجه تأويله إلى أنه فصل بين الحقّ والباطل فى أمر عيسى ، وبعضهم إلى أنه فصل بين الحقّ والباطل فى أحكام الشرائع .

ذكر من قال : معناه : الفصل بين الحقّ والباطل فى أمر عيسى والأحزاب .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير (وَأَنْزَلَ الفُرْقَانَ) أى الفصل بين الحقّ والباطل ، فيما اختلف فيه الأحزاب من أمر عيسى وغيره .

ذكر من قال : معنى ذلك الفصل بين الحق والباطل فى الأحكام وشرائع الإسلام :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، وأنزل الفرقان : هو القرآن أنزله على محمد ، وفرق به بين الحقّ والباطل ، فأحلّ فيه حلاله ، وحرّم فيه حرامه ، وشرع فيه شرائعه ، وحدّ فيه حدوده ، وفرض فيه فرائضه ، وبين فيه بيانه ، وأمر بطاعته ، ونهى عن معصيته .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (وَأَنْزَلَ الفرقانَ) قال : الفرقان : القرآن ، فرق بين الحقّ والباطل .

والتأويل الذى ذكرناه عن محمد بن جعفر بن الزبير فى ذلك : أولى بالصحة من التأويل الذى ذكرناه عن قتادة والربيع ، وأن يكون معنى الفرقان فى هذا الموضع : فصل الله بين نبيه محمد صلى الله عليه وسلم والذين حاجوه فى أمر عيسى ، وفى غير ذلك من أموره ، بالحجة البالغة القاطعة عذرهم ، وعذر نظرائهم من أهل الكفر بالله .

وإنما قلنا : هذا القول أولى بالصواب ، لأن إخبار الله عن تنزيله القرآن قبل إخباره عن تنزيله التوراة والإنجيل فى هذه الآية ، قد مضى بقوله (نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ) ولا شك أن ذلك الكتاب هو القرآن لا غيره ، فلا وجه لتكريره مرّة أخرى ، إذ لا فائدة فى تكريره ، ليست فى ذكره إياه وخبره عنه ابتداء .

القول فى تأويل قوله (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ) :

يعنى بذلك جل ثناؤه : إن الذين جحدوا أعلام الله وأدلته على توحيده وألوهته ، وأن عيسى عبد له ، واتخذوا المسيح إلها وربا ، أو ادّعوه لله ولدا ، لهم عذاب من الله شديد يوم القيامة ، والذين كفروا هم الذين جحدوا آيات الله ، وآيات الله : أعلام الله وأدلته وحُجَجه .

وهذا القول من الله عزّ وجلّ ، ينبئ عن معنى قوله (وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ) أنه معنىّ به الفصل عن الذى هو حجة لأهل الحقّ على أهل الباطل ، لأنه عقب ذلك بقوله (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ) يعنى : إن الذين جحدوا ذلك الفصل والفرقان ، الذى أنزله فرقا بين المحقّ والمبطل ، لهم عذاب شديد ، وعيد من الله لمن عاند الحقّ بعد وضوحه له ، وخالف سبيل الهدى بعد قيام الحجة عليه ، ثم أخبرهم أنه عزيز فى سلطانه ، لايمنعه مانع ممن أراد عذابه منهم ، ولا يحول بينه وبينه حائل ، ولا يستطيع أن يعانده فيه أحد ، وأنه ذو انتقام ممن جحد حججه وأدلته ، بعد ثبوتها عليه ، وبعد وضوحها له ، ومعرفته بها .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن محمد بن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ) : أى إن الله منتقم ممن كفر بآياته ، بعد علمه بها ، ومعرفته بما جاء منه فيها .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ) .

القول فى تأويل قوله

إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ (٥)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : إن الله لا يخفى عليه شيء هو فى الأرض ، ولا شيء هو فى السماء ، يقول : فكيف يخفى علىّ يا محمد ، وأنا علام جميع الأشياء ، ما يضاهى[1] به هؤلاء الذين يجادلونك فى آيات الله ، من نصارى نجران فى عيسى بن مريم ، فى مقالتهم التى يقولونها فيه ؟

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن محمد بن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير (إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ) : أى قد علم مايريدون وما يكيدون وما يضاهون[1] بقولهم فى عيسى ، إذ جعلوه ربا وإلها ، وعندهم من علمه غير ذلك ، غرّة بالله وكفرا به .

القول فى تأويل قوله

هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : الله الذى يصوّركم ، فيجعلكم صورا أشباحا فى أرحام أمهاتكم كيف شاء وأحبّ ، فيجعل هذا ذكرا ، وهذا أنثى ، وهذا أسود ، وهذا أحمر ، يعرف عباده بذلك أن جميع من اشتملت عليه أرحام النساء ممن صوّره وخلقه كيف شاء ، وأن عيسى بن مريم ممن صوّره فى رحم أمه ، وخلقه فيها كيف شاء وأحبّ ، وأنه لو كان إلها لم يكن ممن اشتملت عليه رحم أمه ، لأن خلاّق مافى الأرحام لاتكون الأرحام عليه مشتملة ، وإنما تشتمل على المخلوقين .

(١) فى اللسان : قال صاحب العين : ضاهأت الرجل وضاهيته : أى شابهته ، يهمز ولايهمز .

كما حدثني ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير (هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ) قد كان عيسى ممن صُوِّر فى الأرحام ، لايدفعون ذلك ، ولا ينكرونه ، كما صوّر غيره من بنى آدم ، فكيف يكون إلها وقد كان بذلك المنزل ؟

حدثنا المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ) : أى أنه صوّر عيسى فى الرحم كيف شاء .

وقال آخرون فى ذلك ، ما حدثنا به موسى بن هارون ، قال : ثنا عمرو بن حماد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، عن أبى مالك ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس . وعن مُرَّة الهمَدانى ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم ، قوله (هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ) قال : إذا وقعت النطفة فى الأرحام ، طارت[1] فى الجسد أربعين يوما ، ثم تكون علقة أربعين يوما ، ثم تكون مضغة أربعين يوما ، فإذا بلغ أن يُخلق ، بعث الله ملكا يصوّرها ، فيأتى الملك بتراب بين أصبعيه ، فيخلطه فى المضغة ، ثم يعجنه بها ، ثم يصوّرها كما يؤمر ، فيقول : أذكر أو أنثى ، أشقىّ أو سعيد ، وما رزقه ، وما عمره ، وما أثره ، وما مصائبه ؟ فيقول الله ، ويكتب الملك ، فإذا مات ذلك الجسد ، دفن حيث أخذ ذلك التراب .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ) : قادر والله ربنا أن يصوّر عباده فى الأرحام كيف يشاء : من ذكر أو أنثى ، أو أسود أو أحمر ، تامّ خلقه ، وغير تام .

القول فى تأويل قوله (لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

وهذا القول تنزيه من الله تعالى ذكره نفسه أن يكون له فى ربوبيته نِدّ أو مثل ، أو أن تجوز الألوهة لغيره ، وتكذيب منه للذين قالوا فى عيسى ما قالوا : من وفد نجران الذين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسائر من كان على مثل الذى كانوا عليه من قولهم فى عيسى ، ولجميع من ادّعى مع الله معبودا ، أو أقرّ بربوبية غيره . ثم أخبر جل ثناؤه خلقه بصفته ، وعيدا منه لمن عبد غيره ، أو أشرك فى عبادته أحدا سواه ، فقال : هو العزيز الذى لاينصر من أراد الانتقام منه أحد ، ولاينجيه منه وال ولا لَجَأ[2] ، وذلك لعزّته التى يذلّ لها كل مخلوق ، ويخضع لها كل موجود . ثم أعلمهم أنه الحكيم فى تدبيره ، وإعذاره إلى خلقه ، ومتابعة حججه عليهم ، ليهلك من هلك منهم عن بينة ، ويحيا من حىّ عن بينة .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير ، قال : ثم قال : يعنى الربّ عزّ وجلّ ، إنزاها لنفسه ، وتوحيدا لها مما جعلوا معه (لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) قال : العزيز فى نصرته ممن كفر به إذا شاء ، والحكيم فى عذره وحجته إلى عباده .

(١) كذا فى الأصول والدر المنثور للسيوطى (٢ : ٤) .
(٢) اللجأ بوزن سبب : الملجأ والمعقل .

حدثني المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (لا إلَهَ إلا هوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ) يقول : عزيز في نقمته ، حكيم في أمره .

القول في تأويل قوله

هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ، كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧)

يعنى بقوله جلّ ثناؤه (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ) : أن الله الذى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ) يعني بالكتاب : القرآن . وقد أتينا على البيان فيما مضى ، عن السبب الذى من أجله سُمّى القرآن كتابا ، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع .

وأما قوله (مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ) فإنه يعنى من الكتاب آيات ، يعنى بالآيات آيات القرآن . وأما المحكمات : فإنهنّ اللواتي قد أُحكمن بالبيان والتفصيل ، وأثبتت حججهن وأدلتهن على ماجعلن أدلة عليه ، من حلال وحرام ، ووعد ووعيد ، وثواب وعقاب ، وأمر وزجر ، وخبر ومَثَل ، وعظة وعِبَر ، وما أشبه ذلك . ثم وصف جل ثناؤه هؤلاء الآيات المحكمات ، بأنهنّ هنّ أمّ الكتاب ، يعنى بذلك أنهن أصل الكتاب الذى فيه عماد الدين والفرائض والحدود ، وسائر ما بالخلق إليه الحاجة من أمر دينهم ، وما كُلّفوا من الفرائض في عاجلهم وآجلهم ، وإنما سماهنّ أم الكتاب ، لأنهنّ معظم الكتاب ، وموضع مَفْزَع أهله عند الحاجة إليه ، وكذلك تفعل العرب ، تسمى الجامع معظم الشيء أمًّا له ، فيسمى راية القوم التى تجمعهم في العساكر أمّهم ، والمدبر معظم أمر القرية والبلدة أمها . وقد بينا ذلك فيما مضى بما أغنى عن إعادته ، ووحد أمّ الكتاب ، ولم يجمع فيقول : هنّ أمهات الكتاب ، وقد قال « هنّ » : لأنه أراد جميع الآيات المحكمات أمّ الكتاب ، لا أن كل آية منهن أمّ الكتاب ، ولو كان معنى ذلك أن كل آية منهن أمّ الكتاب ، لكان لاشك قد قيل : هنّ أمهات الكتاب ، ونظير قول الله عزّ وجلّ : هنّ أم الكتاب ، على التأويل الذى قلنا في توحيد الأم ، وهى خبر لهنّ ، قوله تعالى ذكره (وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً) ولم يقل آيتين ، لأن معناه : وجعلنا جميعهما آية ، إذ كان المعنى : وإحداثهما جعلنا فيه للخلق عبرة ، ولو كان مراده الخبر عن كل واحد منهما على انفراده ، بأنه جعل للخلق عبرة ، لقيل : وجعلنا ابن مريم وأمه آيتين ، لأنه قد كان في كل واحد منهما لهم عبرة ، وذلك أن مريم وَلَدت من غير رجل ، ونطق ابنها ، فتكلم في المهد صبيا ، فكان في كل واحد منهما للناس آية .

وقد قال بعض نحويّي البصرة : إنما قيل : هنّ أمّ الكتاب ، ولم يقل : هنّ أمهات الكتاب ، على وجه

الحكاية ، كما يقول الرجل : مالى أنصار ، فتقول : أنا أنصارك ، أو مالى نظير ، فتقول : نحن نظيرك ، قال : وهو شبيه دعنى من تمرتان ، وأنشد لرجل من فقعس :

تَعَرَّضَتْ لى بِمَكانٍ حِلِّ تَعَرُّضَ المُهْرَةِ فى الطِّوَلِّ
تَعَرُّضًا لَمْ تَأْلُ عَنْ قَتْلاً لى[1]

كل أى يحكى[2] به على الحكاية ، لأنه كان منصوبا قبل ذلك ، كما يقول : نودى : الصلاةَ الصلاةَ ، يحكى قول القائل : الصلاةَ الصلاةَ . وقال : قال بعضهم : إنما هى : أن قتلا لى ، ولكنه جعله «عن» ، لأن أن فى لغته تجعل موضعها «عن» ، والنصب على الأمر ، كأنك قلت : ضربا لزيد . وهذا قول لامعنى له . لأن كل هذه الشواهد التى استشهد بها ، لاشكّ أنهن حكايات حالتهن بما حكى عن قول غيره وألفاظه التى نطق بهن ، وأنّ معلوما أن الله جلّ ثناؤه لم يحك عن أحد قوله : أمّ الكتاب ، فيجوز أن يقال : أخرج ذلك مُخرج الحكاية عمن قال ذلك كذلك .

وأما قوله (وَأُخَرُ) فإنها جمع أُخْرَى[3] .

ثم اختلف أهل العربية فى العلة التى من أجلها لم يصرف أُخَر . فقال بعضهم : لم يصرف أُخَر ، من أجل أنها نعت ، واحدتها : أخرى ، كما لم تصرف جُمع وكُتَع ، لأنهنّ نعوت[4] .

وقال آخرون : إنما لم تصرف الأُخَر لزيادة الياء التى فى واحدتها ، وأن جمعها مبنىّ على واحدها فى ترك الصرف . قالوا : وإنما ترك صرف أخرى ، كما ترك صرف حمراء وبيضاء فى النكرة والمعرفة ، لزيادة المدة فيها والهمزة بالواو[5] . ثم افترق جمع حمراء وأخرى . فبنى جمع أخرى على واحدته ، فقيل : فُعَل أُخَر ، فترك صرفها كما ترك صرف أخرى . وبنى جمع حمراء وبيضاء على خلاف واحدته . فصرف ، فقيل حُمْرٌ وبِيض . فلاختلاف حالتيهما فى الجمع ، اختلف إعرابهما عندهم فى الصرف . ولاتفاق حالتيهما فى الواحدة ، اتفقت حالتاهما فيها .

---

(١) هذه أبيات ثلاثة من مشطور الرجز ، لمنظور بن مرثد الأسدى ، ويقال منظور بن حبة ، وهى أمه ، من أرجوزة بلغت أبياتها المتفرقة فى الكتب ودواوين اللغة ١٨ بيتا . وانظرها كاملة فى هامش الجزء الأول من سر صناعة الإعراب لابن جنى طبعة (شركة مصطفى البابى الحلبى وأولاده ص ١٧٨ ، ٢٣٥) . والطول : بتشديد اللام فى الوقف ، فى الشعر خاصة . وهو بوزن عنب : حبل طويل تربط فيه الدابة من طرف ، ويمسك طرفه الآخر بوتد أو نحوه ، لتدور فيه وترعى . وقال ابن جنى فى سر الصناعة (١ : ٢٣٦) فى قوله « عن قتلالى » : هكذا أنشدنيه أبو على . وحمله تأويلين : أنه قال : يجوز أن يكون أراد به الحكاية ، كأنه حكى النصب الذى كان معتادا من قولها فى بابه ، أى كانت تقول : قتلا . قتلا . ثم حكى ما كانت تلفظ به ، كما تقول : بدأت بالحمد لله (بضم الدال) ، وقرأت على خاتمه : الله ربنا ، وكقول الآخر :

وَجَدْنا فى كِتابِ بَنِى تَمِيمٍ أَحَقُّ الخَيْلِ بالرَّكْضِ المُعارُ

أى وجدنا هذا مكتوبا عندهم . والمعار ههنا : السمين . هكذا قال أبو حاتم . ثم قال (ص ٢٣٧ سطر ٣) والوجه الآخر : أنه قال : يجوز أن يكون أراد : « أن (قتلا لى) أى أن قتلنى قتلا ، فأبدل الهمزة عينا » . اهـ .

(٢) هذه العبارة كما فى الأصول : وهى مضطربة . ولعل أصلها كما هو المفهوم من السياق : لم يقل ، عن قتل وأتى به على الحكاية . وبهذا التقدير يستقيم الكلام .

(٣) فى الأصول : آخر . تحريف . (٤) هذا قول نقله صاحب اللسان عن الزجاج .

(٥) قوله : والهمزة بالواو : غير واضح . ولعل أصله ، والهمزة بالواحد ، يريد الهمزة الأولى فى آخر (أصله : أأخر) .

وأما قوله (مُتَشَابِهَاتٌ) : فإن معناه : متشابهات فى التلاوة ، مختلفات فى المعنى ، كما قال جلّ ثناؤه : (وأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا) يعنى : فى المنظر ، مختلفا فى المطعم ، وكما قال مخبرا عمن أخبر عنه من بنى إسرائيل أنه قال (إن البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا) يعنون بذلك : تشابه علينا فى الصفة ، وإن اختلفت أنواعه .

فتأويل الكلام إذنْ : إن الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، هو الذى أنزل عليك يامحمد القرآن ، منه آيات محكمات بالبيان ، هنّ أصل الكتاب الذى عليه عمادك وعماد أمتك فى الدين ، وإليه مفزَعك ومفزعهم ، فيما افترضت عليك وعليهم من شرائع الإسلام ، وآيات أخر هنّ متشابهات فى التلاوة ، مختلفات فى المعانى .

وقد اختلف أهل التأويل فى تأويل قوله (مِنْهُ آياتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أمّ الكِتابِ وأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ) ، وما المحكم من آى الكتاب ، وما المتشابه منه ؟

فقال بعضهم : المحكمات من آى القرآن : المعمول بهنّ ، وهن الناسخات ، أو المثبتات الأحكام ؛ والمتشابهات من آيه : المتروك العمل بهن ، المنسوخات .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا العوّام ، عمن حدثه ، عن ابن عباس ، فى قوله (مِنْهُ آياتٌ مُحْكَمَاتٌ) قال : هى الثلاث الآيات التى ههنا (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ) إلى ثلاث آيات ، والتى فى بنى إسرائيل (وَقَضَى رَبُّكَ ألاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ) إلى آخر الآيات .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثنا معاوية بن صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، قوله (هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتابِ) المحكمات : ناسخه ، وحلاله ، وحرامه ، وحدوده ، وفرائضه ، وما يؤمن به ويعمل به ، قال (وأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ) ، والمتشابهات : منسوخه ، ومقدّمه ، ومؤخره ، وأمثاله ، وأقسامه ، وما يؤمن به ولا يعمل به .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس فى قوله (هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتابَ) إلى (وأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ) فالمحكمات التى هى أمّ الكتاب : الناسخ الذى يدان به ويعمل به ؛ والمتشابهات : هنّ المنسوخات التى لا يدان بهن .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، فى خبر ذكره عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس . وعن مرة الهمدانىّ ، عن ابن مسعود . وعن ناس من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم (هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتابِ) إلى (قوله (كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا) : أما الآيات المحكمات ، فهنّ الناسخات التى يعمل بهنّ ؛ وأما المتشابهات : فهنّ المنسوخات .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتابِ) والمحكمات : الناسخ الذى يعمل به ما أحلّ الله فيه حلاله ، وحرّم فيه حرامه ؛ وأما المتشابهات : فالمنسوخ الذى لا يعمل به ويؤمن به .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (آياتٌ مُحْكَمَاتٌ) قال : المحكم : ما يعمل به .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (هُوَ الَّذِى أنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكتاب ، وأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ) قال : المحكمات : الناسخ الذى يعمل به ، والمتشابهات : المنسوخ الذى لايعمل به ، ويؤمن به .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا هشيم ، عن جويبر ، عن الضحاك فى قوله (آياتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتابِ) قال : الناسخات . (وأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ) قال : ما نسخ وترك يتلى .

حدثنى ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن سلمة بن نُبَيْط ، عن الضحاك بن مزاحم ، قال : المحكم ما لم ينسخ ، وما تشابه منه : ما نسخ .

حدثنى يحيى بن أبى طالب ، قال : أخبرنا يزيد ، قال : أخبرنا جويبر ، عن الضحاك فى قوله (آياتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتابِ) قال : الناسخ (وأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ) قال : المنسوخ .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع : (هُوَ الَّذِى أنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتابِ وأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ) قال : المحكمات : الذى يعمل به .

حدثت عن الحسين بن الفرج ، قال : سمعت أبا معاذ يحدّث ، قال : أخبرنا عبيد بن سليمان ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (مِنْهُ آياتٌ مُحْكَمَاتٌ) يعنى : الناسخ الذى يعمل به (وأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ) يعنى المنسوخ ، يؤمن به ولا يعمل به .

حدثنى أحمد بن حازم ، قال : ثنا أبو نعيم ، قال : ثنا سلمة ، عن الضحاك : (مِنْهُ آياتٌ مُحْكَمَاتٌ) قال : مالم ينسخ . (وأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ) قال : ما قد نسخ .

وقال آخرون : المحكمات من آى الكتاب : ما أحكم الله فيه بيان حلاله وحرامه ؛ والمتشابه منها : ما أشبه بعضه بعضا فى المعانى ، وإن اختلفت ألفاظه .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قوله : (مِنْهُ آياتٌ مُحْكَمَاتٌ) ما فيه من الحلال والحرام ، وما سوى ذلك ، فهو متشابه يصدّق بعضه بعضا ، وهومثل قوله (وَما يُضِلُّ بِهِ إلاَّ الفاسِقِينَ) . ومثل قوله (كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ على الَّذِين لا يُؤْمِنُونَ) . ومثل قوله : (وَالَّذِينَ اهْتَدَوا زادَهُمْ هُدًى وآتاهُمْ تَقْوَاهُمْ) .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

وقال آخرون : المحكمات من آى الكتاب : مالم يحتمل من التأويل غير وجه واحد ؛ والمتشابه منها : ما احتمل من التأويل أوجها .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن محمد بن إسحاق ، قال : ثنى محمد بن جعفر بن الزبير : (هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ) : فيهن حجة الربّ ، وعصمة العباد ، ودفع الخصوم والباطل ، ليس لها تصريف ولا تحريف عما وضعت عليه ، وأُخر متشابهة فى الصدق ، لهنّ تصريف وتحريف وتأويل ، ابتلى الله فيهنّ العباد ، كما ابتلاهم فى الحلال والحرام ، لايصرفن إلى الباطل ولا يحرّفن عن الحقّ .

وقال آخرون : معنى المحكَم : ما أحكم الله فيه من آى القرآن ، وقصص الأمم ورسلهم الذين أرسلوا إليهم ، ففصله ببيان ذلك لمحمد وأمته . والمتشابه : هو ما اشتبهت الألفاظ به من قصصهم ، عند التكرير فى السور ، فقصة باتفاق الألفاظ واختلاف المعانى ، وقصة باختلاف الألفاظ واتفاق المعانى .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد وقرأ (الر ، كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) قال : وذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أربع وعشرين آية منها ، وحديث نوح فى أربع وعشرين آية منها ، ثم قال : تلك من أنباء الغيب ، ثم ذكر : وإلى عاد ، فقرأ حتى بلغ (وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ) ، ثم مضى ، ثم ذكر صالحا وإبراهيم ولوطا وشعيبا ، وفرغ من ذلك ، وهذا يقين ، ذلك يقين (أحكمت آياته ثم فصلت) . قال : والمتشابه ذكر موسى فى أمكنة كثيرة ، وهو متشابه ، وهو كله معنى واحد ، ومتشابه : اسلك فيها ، احمل فيها ، اسلك يدك ، أدخل يدك ، حية تسعى ، ثعبان مبين ؛ قال : ثم ذكر هودا فى عشر آيات منها ، وصالحا فى ثمانى آيات منها ، وإبراهيم فى ثمانى آيات أخرى ، ولوطا فى ثمانى آيات منها ، وشعيبا فى ثلاث عشرة آية ، وموسى فى أربع آيات ، كل هذا يقضى بين الأنبياء وبين قومهم فى هذه السورة ، فانتهى ذلك إلى مائة آية من سورة هود ، ثم قال : (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ القُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ، مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ) . وقال فى المتشابه من القرآن : من يرد الله به البلاء والضلالة ، يقول : ما شأن هذا لايكون هكذا ، وما شأن هذا لايكون هكذا ؟ .

وقال آخرون : بل المحكم من آى القرآن : ما عرف العلماء تأويله ، وفهموا معناه وتفسيره . والمتشابه : مالم يكن لأحد إلى علمه سبيل مما استأثر الله بعلمه دون خلقه ، وذلك نحو الخبر عن وقت مَخرج عيسى بن مريم ، ووقت طلوع الشمس من مغربها ، وقيام الساعة ، وفناء الدنيا ، وما أشبه ذلك ، فإن ذلك لايعلمه أحد . وقالوا : إنما سمى الله من آى الكتاب المتشابه : الحروف المقطعة التى فى أوائل بعض سور القرآن ، من نحو الم ، والمص ، والمر ، والر ، وما أشبه ذلك ، لأنهن متشابهات فى الألفاظ ، وموافقات حروف حساب الجمّل . وكان قوم من اليهود على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، طمعوا أن يدركوا من قِبَلها معرفة مدة الإسلام وأهله ، ويعلموا نهاية أجل محمد وأمته ، فأكذب الله أحدوثتهم بذلك ، وأعلمهم أن ما ابتغوا علمه من ذلك من قِبَل هذه الحروف المتشابهة لايدركونه ، ولا من قِبَل غيرها ، وأن ذلك لايعلمه

إلا الله . وهذا قول ذكر عن جابر بن عبد الله بن رئاب : أن هذه الآية نزلت فيه ، وقد ذكرنا الرواية بذلك عنه وعن غيره ، ممن قال نحو مقالته فى تأويل ذلك فى تفسير قوله (الم ذَلكَ الكِتابُ لارَيْبَ فِيهِ) .

وهذا القول الذى ذكرناه عن جابر بن عبد الله : أشبه بتأويل الآية ، وذلك أن جميع ما أنزل الله عز وجل من آى القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإنما أنزله عليه بيانا له ولأمته ، وهدى للعالمين ؛ وغير جائز أن يكون فيه مالاحاجة بهم إليه ، ولا أن يكون فيه مابهم إليه الحاجة ، ثم لايكون لهم إلى علم تأويله سبيل .

فإذا كان ذلك كذلك ، فكل مافيه لخلقه إليه الحاجة ، وإن كان فى بعضه مابهم عن بعض معانيه الغنى ، وإن اضطرته الحاجة إليه فى معان كثيرة ، وذلك كقول الله عز وجل (يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لايَنْفَعُ نَفْساً إيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ ، أَوْ كَسَبَتْ فِى إيمانِها خَيْراً) ؛ فأعلم النبى صلى الله عليه وسلم أمته ، أن تلك الآية التى أخبر الله جل ثناؤه عباده أنها إذا جاءت لم ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل ، ذلك هى طلوع الشمس من مغربها ، فالذى كانت بالعباد إليه الحاجة من علم ذلك ، هو العلم منهم بوقت نفع التوبة بصفته ، بغير تحديده بعد بالسنين والشهور والأيام ، فقد بين الله ذلك لهم بدلالة الكتاب ، وأوضحه لهم على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم مفسرا ، والذى لاحاجة لهم إلى علمه منه هو العلم بمقدار المدة التى بين وقت نزول هذه الآية ، ووقت حدوث تلك الآية ، فإن ذلك مما لاحاجة بهم إلى علمه فى دين ولا دنيا ، وذلك هو العلم الذى استأثر الله جل ثناؤه به دون خلقه ، فحجبه عنهم ، وذلك وما أشبهه هو المعنى الذى طلبت اليهود معرفته فى مدة محمد صلى الله عليه وسلم وأمته من قِبَل قوله : الم ، والمص ، والر ، والمر ، ونحو ذلك من الحروف المقطعة المتشابهات ، التى أخبر الله جل ثناؤه أنهم لايدركون تأويل ذلك من قِبَله ، وأنه لا يعلم تأويله إلا الله .

فإذا كان المتشابه هو ما وصفنا ، فكل ماعداه فمحكم ، لأنه لن يخلوَ من أن يكون محكما ، بأنه بمعنى واحد ، لاتأويل له غير تأويل واحد ، وقد استغنى بسماعه عن بيان مبينه ، أو يكون محكما ، وإن كان ذا وجوه وتأويلات وتصرّف فى معان كثيرة ، فالدلالة على المعنى المراد منه ، إما من بيان الله تعالى ذكره عنه ، أو بيان رسوله صلى الله عليه وسلم لأمته ، ولن يذهب علم ذلك عن علماء الأمة ، لما قد بينا .

القول فى تأويل قوله (هُنَّ أُمُّ الكِتابِ) :

قد أتينا على البيان عن تأويل ذلك ، بالدلالة الشاهدة على صحة ما قلنا فيه ، ونحن ذاكرو اختلاف أهل التأويل فيه ، وذلك أنهم اختلفوا فى تأويله ، فقال بعضهم : معنى قوله (هُنَّ أُمُّ الكِتابِ) هن اللائى فيهن الفرائض والحدود والأحكام ، نحو قيلنا الذى قلنا فيه .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا عمران بن موسى القزاز ، قال : ثنا عبد الوارث بن سعيد ، قال : ثنا إسحاق بن سويد ، عن يحيى بن يعمر : أنه قال فى هذه الآية (مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتابِ) قال يحيى : هن اللاتى فيهن الفرائض والحدود وعماد الدين ، وضرب لذلك مثلا ، فقال : أم القرى مكة ، وأم خراسان مرو ، وأم المسافرين : الذى يجعلون إليه أمرهم ، ويُعْنَى بهم فى سفرهم ، قال : فذاك أمهم .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (هُنَّ أُمُّ الكِتابِ) قال : هنّ جماع الكتاب .

وقال آخرون : بل معنيّ بذلك فواتحُ السور التى منها يستخرج القرآن .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا عمران بن موسى ، قال : ثنا عبد الوارث بن سعيد ، قال : ثنا إسحاق بن سويد ، عن أبى فاختة أنه قال فى هذه الآية (مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتابِ) قال : أمّ الكتاب : فواتح السور ، منها يستخرج القرآن (الم ذَلِكَ الكِتابُ) منها استخرجت البقرة ، و (الم اللهُ لاإلهَ إلاَّ هُوَ) منها استخرجت آل عمران .

القول فى تأويل قوله (فأما الَّذِينَ فى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ) :

يعنى بذلك جل ثناؤه : فأما الذين فى قلوبهم ميل عن الحقّ ، وانحراف عنه ، يقال منه : زاغ فلان عن الحقّ ، فهو يزيغ عنه زيغا وزيغانا وزيغوغة وزيوغا ، وأزاغه الله : إذا أماله ، فهو يزيغه ، ومنه قوله جلّ ثناؤه (رَبَّنا لاتُزِغْ قُلُوبَنا) : لاتملها عن الحقّ (بعدَ إذْ هَدَيْتَنا) .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : ثنى ابن إسحاق ، عن محمد بن جعفربن الزبير (فأمَّا الَّذِينَ فى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ) أى ميل عن الهدى .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله (فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ) قال : شكّ .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية بن صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس (فأمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ) قال : من أهل الشك .

حدثنى موسى بن هارون ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ فى خبر ذكره عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة الهمدانى ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم (فأمَّا الَّذِينَ فى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ) أما الزيغ : فالشك .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، قال : زيغ : شك . قال ابن جريج (الَّذِينَ فى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ) : المنافقون .

القول فى تأويل قوله (فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ) :

يعنى بقوله جل ثناؤه (فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ) ما تشابهت ألفاظه وتصرّفت معانيه بوجوه التأويلات ، ليحققوا بادّعائهم الأباطيل من التأويلات فى ذلك ما هم عليه من الضلالة والزيغ عن محجة الحقّ ، تلبيسا منهم بذلك على من ضعفت معرفته بوجوه تأويل ذلك ، وتصاريف معانيه .

كما حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس (فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ) فيحملون المحكم على المتشابه ، والمتشابه على المحكم ، ويلبسون ، فلبّس الله عليهم .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير (فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ) : أى ما تحرّف منه وتصرّف ، ليصدّقوا به ما ابتدعوا وأحدثوا ، ليكون لهم حجة على ما قالوا وشبهة .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد : فى قوله (فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ) قال : الباب الذى ضلوا منه ، وهلكوا فيه ، ابتغاء تأويله .

وقال آخرون فى ذلك بما حدثنى به موسى بن هارون ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، فى قوله (فَيَتَّبِعُونَ ماتَشابَهَ مِنْهُ) : يتبعون المنسوخ والناسخ ، فيقولون : ما بال هذه الآية عُمل بها كذا وكذا مجاز هذه الآية ، فتركت الأولى وعمل بهذه الأخرى ، هلا كان العمل بهذه الآية قبل أن تجىء الأولى التى نسخت؟ وما باله يعد العذاب من عمل عملا يعد به النار ، وفى مكان آخر من عمله فإنه لم يوجب النار؟

واختلف أهل التأويل فيمن عنى بهذه الآية ، فقال بعضهم : عنى به الوفد من نصارى نجران ، الذين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحاجوه بما حاجوه به وخاصموه ، بأن قالوا : ألست تزعم أن عيسى روح الله وكلمته ، وتأوّلوا فى ذلك ما يقولون فيه من الكفر .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قال : عَمَدوا ، يعنى الوفد الذين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من نصارى نجران . فخاصموا النبىّ صلى الله عليه وسلم ، قالوا : ألست تزعم أنه كلمة الله وروح منه ، قال : بلى ، قالوا : فحسبنا ، فأنزل الله عزّ وجل (فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ماتَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الفِتْنَةِ) . ثم إن الله جلّ ثناؤه أنزل (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ) . . . الآية .

وقال آخرون : بل أنزلت هذه الآية فى أبى ياسر بن أخطب ، وأخيه حيى بن أخطب ، والنفر الذين ناظروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قدر مدة أجله وأجل أمته ، وأرادوا علم ذلك من قِبَل قوله : الم ، والمص ، والمر ، والر ، فقال الله جل ثناؤه فيهم : (فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ) : يعنى هؤلاء اليهود الذين قلوبهم مائلة عن الهدى والحقّ (فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ) : يعنى معانى هذه الحروف المقطعة ، المحتملة التصريف فى الوجوه المختلفة التأويلات ، ابتغاء الفتنة . وقد ذكرنا الرواية بذلك فيما مضى قبلُ ، فى أول السورة التى تذكر فيها البقرة .

وقال آخرون : بل عَنى الله عزّ وجلّ بذلك كل مبتدع فى دينه بدعة مخالفة لما ابتعث به رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بتأويل يتأوّله من بعض آى القرآن المحتملة التأويلات ، وإن كان الله قد أحكم بيان ذلك ، إما فى كتابه ، وإما على لسان رسوله .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، فى قوله (فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَاتَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ)وكان قتادة إذا قرأ هذه الآية : (فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ) قال : إن لم يكونوا الحرورية والسَّبَئية ، فلا أدرى من هم ؟ ولعمرى لقد كان فى أهل بدر والحُديبية الذين شهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الرضوان من المهاجرين والأنصار ، خبر لمن استخبر ، وعبرة لمن استعبر ، لمن كان يعقل ، أو يبصر . إن الخوارج خرجوا، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ كثير بالمدينة والشام والعراق،وأزواجه يومئذ أحياء. والله إن خرج منهم ذكر ولا أنثى حَرُوريا قطُّ ، ولا رضُوا الذى هم عليه، ولا مالئوهم فيه ، بل كانوا يحدّثون بعيب رسول الله صلى الله عليه وسلم إياه، ونعته الذى نعتهم به،وكانوا يبغضونهم بقلوبهم،ويعادونهم بألسنتهم وتشتدّ والله عليهم أيديهم إذا لقوهم ، ولعمرى لو كان أمر الخوارج هُدًى لاجتمع ، ولكنه كان ضلالا فتفرّق ، وكذلك الأمر إذا كان من عند غير الله وجدت فيه اختلافا كثيرا ، فقد ألاصُوا[1] هذا الأمر منذ زمان طويل ، فهل أفلحوا فيه يوما أو أنجحوا ، يا سبحان الله ! كيف لايعتبر آخر هؤلاء القوم بأوّلهم! لو كانوا على هدى قد أظهره الله وأفلحه ونصره ، ولكنهم كانوا على باطل أكذبه الله وأدحضه ، فهم كما رأيتهم كلما خرج لهم قرن أدحض الله حجتهم ، وأكذب أحدوثتهم ، وأهراق دماءهم ، وإن كتموا كان قرحا فى قلوبهم ، وغمًّا عليهم ، وإن أظهروه ، أهْرَاق الله دماءهم ، ذاكم - والله - دين سوء فاجتنبوه ، والله إن اليهود لبدعة ، وإن النصرانية لبدعة ، وإن الحرورية لبدعة ، وإن السَّبَئية لبدعة ، ما نزل بهنّ كتاب ، ولا سنهنّ نبىّ .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَاتَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ)،طلب القوم التأويل: فأخطئوا التأويل، وأصابوا الفتنة ، فاتبعوا ما تشابه منه ، فهلكوا من ذلك ، لعمرى لقد كان فى أصحاب بدر والحديبية الذين شهدوا بيعة الرضوان ، وذكر نحو حديث عبد الرزاق ، عن معمر ، عنه .

حدثنى محمد بن خالد بن خداش ويعقوب بن إبراهيم ، قالا : ثنا إسماعيل بن علية ، عن أيوب ، عن عبد الله بن أبى مُليكة ، عن عائشة قالت: قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ) إلى قوله (وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ) فقال: « فإذا رأيتم الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فيه ، فهُمُ الَّذِينَ عَنَى اللهُ فاحذَرُوهُمْ » .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا المعتمر بن سليمان ، قال : سمعت أيوب ، عن عبد الله بن أبى مليكة، عن عائشة : أنها قالت: قرأ نبىّ الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية (هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ)... إلى (وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ) قالت : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فإذا رأيتم الَّذِينَ

(١) ألاصوا الأمر : أداروه . وألصته على الشيء : مثل روادته عليه وداورته .

يجادِلُونَ فيه » أوقال « يتَجادَلُونَ ، فيه فهُمُ الذِينَ عَنَى اللهُ فاحذَرُوهُمْ » قال مطر ، عن أيوب ، إنه قال : فلا تجالسوهم ، فهم الذين عنى الله فاحذروهم .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الوهاب ، قال : ثنا أيوب ، عن ابن أبى مليكة ، عن عائشة ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، بنحو معناه .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن أيوب ، عن ابن أبى مليكة ، عن عائشة ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، نحوه .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنا الحارث ، عن أيوب ، عن ابن أبى مليكة عن عائشة زوج النبىّ صلى الله عليه وسلم ، قالت : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية (هُوَ الَّذِى أنزَلَ عَلَيْكَ الكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتابِ وأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ) ... الآية كلها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا رأيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ماتَشابَهَ مِنْهُ وَالَّذِينَ يجادِلُونَ فِيهِ فَهُمُ الَّذِينَ عَنَى اللهُ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ قالَ اللهُ : فَلا تُجالِسُوهُمْ » .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبو أسامة ، عن يزيد بن إبراهيم ، عن ابن أبى مليكة ، قال : سمعت القاسم بن محمد يحدّث عن عائشة ، قالت : تلا النبىّ صلى الله عليه وسلم هذه الآية (هُوَ الَّذِى أنزَلَ عَلَيْكَ الكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتابِ) ، ثم قرأ إلى آخر الآيات ، فقال « إذا رأيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ، فأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ ، فاحْذَرُوهُمْ » .

حدثنا علىّ بن سهل ، قال : ثنا الوليد بن مسلم ، عن حماد بن سلمة ، عن عبد الرحمن بن القاسم ، عن أبيه ، عن عائشة ، قالت : نزع رسول الله صلى الله عليه وسلم (يَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قَدْ حَذَّرَكُمُ اللهُ ، فإذا رأيْتُمُوهُمْ فاعْرِفُوهُمْ » .

حدثنا علىّ ، قال : ثنا الوليد ، عن نافع ، عن عمر ، عن عائشة ، قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا رأيْتُمُوهُمْ فاحْذَرُوهُمْ » ، ثم نزع (فأمَّا الَّذِينَ فى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ) ولا يَعْمَلُونَ بمُحْكَمِهِ » .

حدثنى أحمد بن عبد الرحمن بن وهب ، قال : أخبرنا عمى ، قال : أخبرنى شبيب بن سعيد ، عن روح ابن القاسم ، عن ابن أبى مليكة ، عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئل عن هذه الآية (فأمَّا الَّذِينَ فى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الفِتْنَةِ وابْتِغاء تَأْوِيلِهِ ، وَما يَعْلَمُ تَأوِيلَهُ إلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فى العِلْمِ) فقال : « فإذا رأيْتُمُ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فيه ، فهُمُ الَّذِينَ عَنَى اللهُ فاحْذَرُوهُمْ » .

حدثنى محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، قال : ثنا خالد بن نزار ، عن نافع ، عن ابن أبى مليكة ، عن عائشة فى هذه الآية (هُوَ الَّذِى أنزَلَ عَلَيْكَ الكِتابَ) . . . الآية . يتبعها يتلوها ، ثم يقول « فإذا رأيْتُمُ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِيهِ ، فاحْذَرُوهُمْ ، فَهُمُ الَّذِينَ عَنَى اللهُ » .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا يزيد بن هارون ، عن حماد بن سلمة ، عن ابن أبي مليكة ، عن القاسم ، عن عائشة ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية (هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتابِ) إلى آخر الآية ، قال : « هُمُ الَّذِينَ سَمَّاهُمُ اللهُ ، فإذا رأيْتُمُوهُم فاحْذَرُوهُمْ » .

قال أبو جعفر : والذى يدلّ عليه ظاهر هذه الآية ، أنها نزلت فى الذين جادلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمتشابه ما أُنزل إليه من كتاب الله : إما فى أمر عيسى ، وإما فى مدة أجله وأجل أمته ، وهو بأن تكون فى الذين جادلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمتشابهه ، فى مدته ومدة أمته أشبه ، لأن قوله (وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلاَّ اللهُ) دالّ على أن ذلك إخبار عن المدة التى أرادوا علمها من قِبَل المتشابه ، الذى لا يعلمه إلا الله ، فأما أمر عيسى وأسبابه ، فقد أعلم الله ذلك نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم وأمته ، وبيّنه لهم ، فمعلوم أنه لم يعن إلا ما كان خفيا عن الآحاد .

القول فى تأويل قوله (ابْتِغاءَ الفِتْنَةِ) :

اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك ، فقال بعضهم : معنى ذلك : ابتغاء الشرك .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى موسى بن هارون ، قال : ثنا عمرو بن حماد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (ابْتِغاءَ الفِتْنَةِ) قال : إرادة الشرك .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع فى قوله (ابْتِغاءَ الفِتْنَةِ) يعنى : الشرك .

وقال آخرون : معنى ذلك : ابتغاء الشبهات .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد (ابْتِغاءَ الفِتْنَةِ) قال : الشبهات ، بها أهلكوا .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد فى قوله (ابْتِغاءَ الفِتْنَةِ) الشبهات ، قال : هلكوا به .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد (ابْتِغاءَ الفِتْنَةِ) : قال : الشبهات ، قال : والشبهات ما أهلكوا به .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير (ابْتِغاءَ الفِتْنَةِ) أى اللبس .

وأولى القولين فى ذلك بالصواب : قول من قال : معناه : إرادة الشبهات واللَّبس .

فمعنى الكلام إذنْ : فأما الذين فى قلوبهم ميل عن الحقّ ، وحيف عنه ، فيتبعون من آى الكتاب ماتشابهت

ألفاظه ، واحتمل صرفه فى وجوه التأويلات ، باحتماله المعانى المختلفة ، إرادة اللبس على نفسه وعلى غيره ، احتجاجا به على باطله الذى مال إليه قلبه ، دون الحقّ الذى أبانه الله ، فأوضحه بالمحكمات من آى كتابه .

وهذه الآية ، وإن كانت نزلت فيمن ذكرنا أنها نزلت فيه من أهل الشرك ، فإنه معنىّ بها كل مبتدع فى دين الله بدعة ، فمال قلبه إليها ، تأويلا منه لبعض متشابه آى القرآن ، ثم حاجّ به وجادل به أهل الحقّ ، وعدل عن الواضح ، من أدلة آيه المحكمات ، إرادة منه بذلك اللبسَ على أهل الحقّ من المؤمنين ، وطلبا لعلم تأويل ما تشابه عليه من ذلك كائنا من كان ، وأىّ أصناف البدعة كان من أهل النصرانية كان أو اليهودية أو المجوسية ، أو كان سبَئيا ، أو حرَوريا ، أو قدَريا ، أو جهْميا ، كالذى قال صلى الله عليه وسلم : « فإذَا رأيْتُمُ الذِينَ يُجادِلُونَ بِهِ ، فَهُمُ الَّذِينَ عَنَى اللهُ فاحْذَرُوهُمْ » .

وكما حدثنى يونس ، قال : أخبرنا سفيان ، عن معمر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، وذُكر عنده الخوارج ، وما يلقون عند الفرار ، فقال : يؤمنون بمحكمه ، ويهلكون عند متشابهه . وقرأ ابن عباس (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلاَّ اللهُ) . . . الآية .

وإنما قلنا : القول الذى ذكرنا أنه أولى التأويلين بقوله (ابْتِغاءَ الفِتْنَةِ) : لأن الذين نزلت فيهم هذه الآية كانوا أهل شرك ، وإنما أرادوا بطلب تأويل ماطلبوا تأويله اللبسَ على المسلمين ، والاحتجاج به عليهم ، ليصدّوهم عما هم عليه من الحقّ ؛ فلا معنى لأن يقال : فعلوا ذلك إرادة الشرك ، وهم قد كانوا مشركين .

القول فى تأويل قوله (وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ) :

اختلف أهل التأويل فى معنى التأويل الذى عنى الله جل ثناؤه بقوله (وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ) : فقال بعضهم معنى ذلك : الأجل الذى أرادت اليهود أن تعرفه من انقضاء مدة أمر محمد صلى الله عليه وسلم وأمر أمته من قِبَل الحروف المقطعة من حساب الجمَّل كالمٓ ، والمصٓ ، والرٓ ، والمرٓ ، وما أشبه ذلك من الآجال .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، أما قوله (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلاَّ اللهُ) يعنى : تأويله يوم القيامة إلا الله .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : عواقب القرآن ، وقالوا : إنما أرادوا أن يعلموا متى يجىء ناسخ الأحكام التى كان الله جلّ ثناؤه شرعها لأهل الإسلام قبل مجيئه ، فنسخ ما قد كان شرعه قبل ذلك .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ) : أرادوا أن يعلموا تأويل القرآن ، وهو عواقبه ، قال الله (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلاَّ اللهُ) ، وتأويله : عواقبه ، متى يأتى الناسخ منه ، فينسخ المنسوخ .

وقال آخرون : معنى ذلك : وابتغاء تأويل ما تشابه من آى القرآن يتأوّلونه ، إذ كان ذا وجوه وتصاريف فى التأويلات ، على ما فى قلوبهم من الزيغ ، وما ركبوه من الضلالة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير (وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ) وذلك على ما ركبوا من الضلالة فى قوله : خلقنا وقضينا .

والقول الذى قاله ابن عباس من أن ابتغاء التأويل الذى طلبه القوم من المتشابه هو معرفة انقضاء المدة ، ووقت قيام الساعة . والذى ذكرنا عن السدىّ من أنهم طلبوا وأرادوا معرفة وقت ، هوجاء قبل مجيئه : أولى بالصواب ، وإن كان السدىّ قد أغفل معنى ذلك من وجه صرفه إلى حصره ، على أن معناه : أن القوم طلبوا معرفة وقت مجىء الناسخ لما قد أحكم قبل ذلك .

وإنما قلنا : إن طلب القوم معرفة الوقت الذى هو جاء قبل مجيئه ، المحجوب علمه عنهم وعن غيرهم بمتشابه آى القرآن ،أولى بتأويل قوله (وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ) :لما قد دللنا عليه قبل من إخبار الله جل ثناؤه أن ذلك التأويل لا يعلمه إلا الله ، ولا شكّ أن معنى قوله : وقضينا وفعلنا ، قد علم تأويله كثير من جهلة أهل الشرك ، فضلا عن أهل الإيمان ، وأهل الرسوخ فى العلم منهم .

القول فى تأويل قوله (وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ، كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا)

يعنى جل ثناؤه بذلك : وما يعلم وقت قيام الساعة ، وانقضاء مدة أجل محمد وأمته ، وما هو كائن ، إلا الله ، دون من سواه من البشر ، الذين أمّلوا إدراك علم ذلك من قِبَل الحساب والتنجيم والكهانة .

وأما الراسخون فى العلم ، فيقولون : آمنا به كلّ من عند ربنا ، لايعلمون ذلك ، ولكن فضل علمهم فى ذلك على غيرهم ، العلم بأن الله هو العالم بذلك ، دون من سواه من خلقه .

واختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك ، وهل الراسخون معطوف على اسم الله ، بمعنى إيجاب العلم لهم بتأويل المتشابه ، أو هم مستأنف ذكرهم بمعنى الخبر عنهم أنهم يقولون آمنا بالمتشابه ، وصدّقنا أن علم ذلك لايعلمه إلا الله ؟ فقال بعضهم : معنى ذلك : وما يعلم تأويل ذلك إلا الله وحده منفردا بعلمه .

وأما الراسخون فى العلم فإنهم ابتدئ الخبر عنهم بأنهم يقولون : آمنا بالمتشابه والمحكم ، وأن جميع ذلك من عند الله .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، قال : ثنا خالد بن نزار ، عن نافع ، عن ابن أبى مليكة ، عن عائشة ، قوله (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ) قالت : كان من رسوخهم فى العلم أن آمنوا بمحكمه ومتشابهه ، ولم يعلموا تأويله .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه ، قال : كان ابن عباس يقول (وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ) يقول الراسخون : آمنا به .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنى ابن أبى الزناد ، قال : قال هشام بن عروة :

كان أبي يقول في هذه الآية (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) : إن الراسخين فى العلم لايعلمون تأويله ، ولكنهم يقولون : (آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا) .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا يحيى بن واضح ، قال : ثنا عبيد الله ، عن أبى نهيك الأسدىّ ، قوله (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) فيقول : إنكم تصلون هذه الآية ، وإنها مقطوعة (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ، يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا) ، فانتهى علمهم إلى قولهم الذى قالوا .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا ابن دكين ، قال : ثنا عمرو بن عثمان بن عبد الله بن موهب ، قال : سمعت عمر بن عبد العزيز يقول (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) انتهى علم الراسخين فى العلم بتأويل القرآن إلى أن قالوا : (آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا) .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا أشهب ، عن مالك فى قوله (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ) قال : ثم ابتدأ فقال (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا) وليس يعلمون تأويله .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم ، وهم مع علمهم بذلك ورسوخهم فى العلم (يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا) .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس أنه قال : أنا ممن يعلم تأويله .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) يعلمون تأويله ، ويقولون آمنا به .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) يعلمون تأويله ، ويقولون آمنا به .

حدثت عن عمار بن الحسن ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) يعلمون تأويله ، ويقولون آمنا به .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ) الذى أراد ، ما أراد [1] ، إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به .

ثم ردّوا تأويل المتشابهة على ماعرفوا من تأويل المحكمة التى لاتأويل لأحد فيها إلا تأويل واحد ، فاتسق بقولهم الكتاب ، وصدق بعضه بعضا ، فنفذت به الحجة ، وظهر به العذر ، وزاح به الباطل ، ودمغ به الكفر .

فمن قال القول الأول فى ذلك ، وقال : إن الراسخين لايعلمون تأويل ذلك ، وإنما أخبر الله عنهم بإيمانهم

(١) قوله « الذى أراد ما أراد الخ » كذا فى الأصل ، وعبارة « الذى أراد » هى بمعنى عبارة « ما أراد » ، فلعلهما تكرار من الناسخ .

وتصديقهم بأنه من عند الله . فإنه يرفع الراسخين فى العلم بالابتداء فى قول البصريين ، ويجعل خبره يقولون آمنا به . وأما فى قول بعض الكوفيين فبالعائد من ذكرهم فى يقولون ، وفى قول بعضهم بجملة الخبر عنهم ، وهى يقولون . ومن قال القول الثانى ، وزعم أن الراسخين يعلمون تأويله ، عطف بالراسخين على اسم الله ، فرفعهم بالعطف عليه .

والصواب عندنا فى ذلك : أنهم مرفوعون بجملة خبرهم بعدهم ، وهو يقولون ، لما قد بينا قبل من أنهم لايعلمون تأويل المتشابه الذى ذكره الله عزّ وجلّ فى هذه الآية ، وهو فيما بلغنى مع ذلك فى قراءة أبىّ : (ويقول الرَّاسِخُونَ فِى العِلْمِ) كما ذكرناه عن ابن عباس أنه كان يقرؤه ؛ وفى قراءة عبد الله : (إنْ تأويله إلا عند الله ، والراسخون فى العلم يقولون) .

وأما معنى التأويل فى كلام العرب : فانه التفسير والمرجع والمصير ، وقد أنشد بعض الرواة بيت الأعشى :

على أنَّها كانَتْ تَأَوُّلُ حُبِّهَا تَوَالِى رِبْعِىِّ السِّقابِ فأَصْحَبَا[1]

وأصله : من آل الشىء إلى كذا ، إذا صار إليه ورجع ، يئول أولا ، وأوّلته أنا : صيرته إليه ؛ وقد قيل : إن قوله (وأَحْسَنُ تَأْوِيلا) أى جزاء ، وذلك أن الجزاء هو الذى آل إليه أمر القوم ، وصار إليه ، ويعنى بقوله : تأوّل حبها : تفسير حبها ومرجعه ، وإنما يريد بذلك أن حبها كان صغيرا فى قلبه ، فآل من الصغر إلى العظم ، فلم يزل ينبت حتّى أصحب ، فصار قديما ، كالسقب الصغير الذى لم يزل يشبّ حتّى أصحب ، فصار كبيرا مثل أمه . وقد يُنْشد هذا البيت :

على أنَّها كانَتْ تَوَابِعُ حُبِّهَا تَوَالِىَ رِبْعِىِّ السِّقابِ فأَصْحَبَا[1]

القول فى تأويل قوله (وَالرَّاسِخُونَ فِى العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ) :

يعنى بالراسخين فى العلم : العلماء الذين قد أتقنوا علمهم ، ووعوه فحفظوه حفظا لايدخلهم فى معرفتهم وعلمهم بما علموه شكّ ولا لبس ، وأصل ذلك من رسوخ الشىء فى الشىء ، وهو ثبوته وولوجه فيه ، يقال منه : رسخ الإيمان فى قلب فلان ، فهو يَرْسَخ رَسْخا ورسوخا .

وقد روى فى نعتهم خبر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وهو ما حدثنا موسى بن سهل الرملىّ ، قال : ثنا محمد بن عبد الله ، قال : ثنا فياض بن محمد الرقىّ ، قال : ثنا عبد الله بن يزيد بن آدم ، عن أبى الدرداء

---

(١) الرواية للبيت كما جاء فى لسان العرب فى (ولى) :

وَلَكِنَّها كانَتْ نَوًى أجْنَبِيَّةٌ تَوَالِىَ رِبْعِىِّ السِّقابِ فأَصْحَبَا

وقال : قال الأزهرى : وللموالاة معنى ثالث ، سمعت العرب تقول : والوا حواشى نعمكم عن جلتها : أى اعزلوا صغارها عن كبارها ؛ وقد واليناها فتوالت ، إذا تميزت . ومنه قول الأعشى : البيت ، ثم قال : وربعى السقاب : الذى نتج فى أول الربيع . وتواليه : أن يفصل عن أمه ، فيشتد ولهه إليها إذا فقدها ، ثم يستمر على الموالاة ، ويصحب أى ينقاد ويصبر ، بعد ما كان اشتد عليه من مفارقته إياها . شبه هجرها إياه بالسفر البعيد حال بينها وبينه ، كما يحال بين السقب وأمه ، فيتألم ، ثم لايلبث بعد حين أن ينقاد ويسلوها .

على أنه فى الديوان واللسان (أول) رواية أخرى : « على أنها كانت تأول حبها تأول . . . الخ » ، وتفسيرها ككلام المؤلف .

وأبى أمامة ، قالا : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : من الراسخ فى العلم ؟ قال : « مَنْ بَرَّتْ يَمِينُهُ ، وَصَدَقَ لِسانُهُ ، وَاسْتَقامَ بهِقَلْبُهُ ، وَعَفَّ بَطْنُهُ ، فَذَلِكَ الرَّاسِخُ فِى العِلْمِ » .

حدثنى المثنى وأحمد بن الحسن الترمذىّ ، قالا : ثنا نعيم بن حماد ، قال : ثنا فياض الرقىّ ، قال : ثنا عبد الله بن يزيد الأَودىّ ، قال : وكان أدرك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال حدثنا أنس ابن مالك وأبو أمامة وأبو الدرداء : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الراسخين فى العلم ؟ فقال : « مَنْ بَرَّتْ يَمِينُهُ ، وَصَدَقَ لِسانُهُ . وَاسْتَقامَ بِهِ قَلْبُهُ ، وَعَفَّ بَطْنُهُ وَفَرْجُهُ ، فَذَلِكَ الرَّاسِخُ فِى العِلْمِ » .

وقد قال جماعة من أهل التأويل : إنما سمى الله عزّ وجلّ هؤلاء القوم : الراسخين فى العلم ، بقولهم (آمَنَّا بِهِ ، كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا) .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن سفيان ، عن جابر ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، قال : (الرَّاسِخُونَ فِى العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ) قال : الراسخون الذين يقولون آمنا به ، كلٌّ من عند ربنا .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (وَالرَّاسِخُونَ فِى العِلْمِ) هم المؤمنون ، فإنهم (يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ) بناسخه ومنسوخه (كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا) .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، قال : قال ابن جريج : قال ابن عباس : قال عبدالله بن سلام (الرَّاسِخُونَ فِى العِلْمِ) وعلمهم قولهم . قال ابن جريج (الرَّاسِخُونَ فى العلم يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ) وهم الذين يقولون (رَبَّنا لاتُزِغْ قُلُوبَنا) ويقولون (رَبَّنا إنَّكَ جامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لارَيْبَ فِيهِ) . . . الآية .

وأما تأويل قوله (يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ) فإنه يعنى : أن الراسخين فى العلم يقولون : صدقنا بما تشابه من آى الكتاب ، وإنه حقّ ، وإن لم نعلم تأويله .

وقد حدثنى أحمد بن حازم ، قال : ثنا أبو نعيم ، قال : ثنا سلمة بن نُبيط ، عن الضحاك (وَالرَّاسِخُونَ فِى العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ) قال : المحكم والمتشابه .

القول فى تأويل قوله (كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا) :

يعنى بقوله جل ثناؤه (كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا) كل المحكم من الكتاب والمتشابه منه من عند ربنا ، وهو تنزيله ووحيه إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

كما حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن سفيان ، عن جابر ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، فى قوله (كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا) قال : يعنى ما نسخ منه ، وما لم ينسخ .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قوله (وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلاَّ اللهُ والراسخُونَ فِى العِلْمِ) قالوا : (كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا) آمنوا بمتشابهه ، وعملوا بمحكمه .

حدثت عن عمار بن الحسن ، قال : ثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع قوله (كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا) يقولون : المحكم والمتشابه من عند ربنا .

حدثني محمد بن سعد ، قال : ثني أبي ، قال : ثني عمي ، قال : ثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا) يؤمن بالمحكم ، ويدين به ، ويؤمن بالمتشابه ولا يدين به ، وهو من عند الله كله .

حدثنا يحيى بن أبي طالب ، قال : ثنا يزيد ، قال : أخبرنا جويبر ، عن الضحاك ، في قوله (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) يعملون به ، يقولون : نعمل بالمحكم ونؤمن به ، ونؤمن بالمتشابه ولا نعمل به ، وكل من عند ربنا .

واختلف أهل العربية فى حكم « كل » إذا أضمر فيها ، فقال بعض نحويي البصريين : إذا[1] جاز حذف المراد الذى كان معها ، الذى الكلّ إليه مضاف فى هذا الموضع ، لأنها اسم ، كما قال (إِنَّا كُلٌّ فِيهَا) ، بمعنى : إنا كلنا فيها ، قال : ولا يكون كلّ مضمرا فيها وهى صفة ، لايقال : مررت بالقوم كل ، وإنما يكون فيها مضمر إذا جعلتها اسما ، لو كان : إنا كلا فيها على الصفة ، لم يجز ؛ لأن الإضمار فيها ضعيف ، لايتمكن فى كل مكان . وكان بعض نحويي الكوفيين يرى الإضمار فيها ، وهى صفة أو اسم سواء ، لأنه غير جائز أن يحذف ما بعدها عنده ، إلا وهى كافية بنفسها عما كانت تضاف إليه من المضمر ، وغير جائز أن تكون كافية منه فى حال ، ولا تكون كافية فى أخرى . وقال : سبيل الكلّ والبعض فى الدلالة على مابعدهما بأنفسهما وكفايتهما منه ، بمعنى واحد فى كل حال ، صفة كانت أو اسما . وهذا القول الثانى : أولى بالقياس ، لأنها إذا كانت كافية بنفسها مما حذف منها فى حال لدلالتها عليه[2] ، فالحكم فيها أنها كلما وجدت دالة على ما بعدها ، فهى كافية منه .

القول فى تأويل قوله (وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ) :

يعنى بذلك جل ثناؤه : وما يتذكر ويتعظ وينزجر عن أن يقول فى متشابه آى كتاب الله ما لاعلم له به ، إلا أولو العقول والنُّهى .

وقد حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير (وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ) يقول : وما يذكر فى مثل هذا ، يعنى فى ردّ تأويل المتشابه إلى ما قد عرف من تأويل المحكم ، حتى يتسقا على معنى واحد ، إلا أولو الألباب .

القول فى تأويل قوله

رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : أن الراسخين فى العلم يقولون : آمنا بما تشابه من آى كتاب الله ، وإنه والمحكم من

(١) لعل « إذا » زائدة من قلم الناسخ . أولعلها « إذن » حرف الجواب . (٢) فى الأصل : عليها .

آيه من تنزيل ربنا ووحيه . ويقولون أيضا : (ربنا لاتُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا) : يعنى أنهم يقولون رغبة منهم إلى ربهم ، فى أن يصرف عنهم ما ابتُلى به الذين زاغت قلوبهم من اتباع متشابه آى القرآن ، ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله الذى لايعلمه غير الله : يا ربنا لاتجعلنا مثل هؤلاء الذين زاغت قلوبهم عن الحقّ ، فصدّوا عن سبيلك (لاتُزِغْ قُلُوبَنَا) : لاتملها فتصرفها عن هداك (بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا) له ، فوفقتنا للإيمان بمحكم كتابك ومتشابهه (وَهَبْ لَنَا) ياربنا (مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً) يعنى من عندك رحمة ، يعنى بذلك : هب لنامن عندك توفيقا وثباتا للذى نحن عليه ، من الإقرار بمحكم كتابك ومتشابهه (إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ) يعنى : إنك أنت المعطى عبادك التوفيق والسداد ، للثبات على دينك ، وتصديق كتابك ورسلك .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير (رَبَّنَا لاتُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا) أى : لا تُمل قلوبنا وإن ملنا بأجسادنا (وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً) .

وفى مدح الله جلّ ثناؤه هؤلاء القوم بمامدحهم به ، من رغبتهم إليه فى أن لايزيغ قلوبهم ، وأن يعطيهم رحمة منه ، معونة لهم للثبات على ماهم عليه من حسن البصيرة بالحقّ الذى هم عليه مقيمون ، ما أبان عن خطأ قول الجهلة من القدَرية ، إن إزاغة الله قلب من أزاغ قلبه من عباده عن طاعته ، وإمالته له عنها ، جَور . لأن ذلك لو كان كما قالوا لكان الذين قالوا (رَبَّنَا لاتُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا) بالذمّ أولى منهم بالمدح ، لأن القول لو كان كما قالوا ، لكان القوم إنما سألوا ربهم مسألتهم إياه ، ألا يزيغ قلوبهم ، ألا يظلمهم ولا يجور عليهم ، وذلك من السائل جهل ، لأن الله جل ثناؤه لايظلم عباده ، ولا يجور عليهم ، وقد أعلم عباده ذلك ، ونفاه عن نفسه بقوله (وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) ، ولاوجه لمسألته أن يكون بالصفة التى قد أخبرهم أنه بها ، وفى فساد ما قالوا من ذلك الدليل الواضح ، على أن عدلا من الله عزّ وجلّ إزاغة من أزاغ قلبه من عباده عن طاعته ، فلذلك استحقّ المدح من رغب إليه فى أن لايزيغه ، لتوجيهه الرغبة إلى أهلها ، ووضعه مسألته موضعها ، مع تظاهر الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم برغبته إلى ربه فى ذلك ، مع محله منه ، وكرامته عليه .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا وكيع ، عن عبد الحميد بن بهرام ، عن شهر بن حَوشب ، عن أم سلمة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يامُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِى على دِينِكَ ، ثم قرأ (رَبَّنَا لاتُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا) . . . » إلى آخر الآية .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا وكيع ، عن عبد الحميد بن بهرام ، عن شهر بن حوشب ، عن أسماء ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بنحوه .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا الحجاج بن المنهال ، قال : ثنا عبد الحميد بن بهرام الفزارىّ ، قال : ثنا شهر ابن حوشب ، قال : سمعت أم سلمة تحدّث : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكثر فى دعائه أن يقول : اللَّهُمَّ مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِى على دِينِكَ ، قال : قلت يا رسول الله ، وإن القلب ليقلَّب ؟ قال : نَعَمْ ، ما خَلَقَ اللهُ مِنْ بَشَرٍ مِنْ بَنِى آدَمَ إلاَّ وَقَلْبُهُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصابِعِهِ ،

فإنْ شاءَ أقامَهُ ، وإنْ شاءَ أزاغَهُ ، فنَسألُ اللهَ رَبَّنا أنْ لايُزيغَ قلُوبنا بعدَ إذْ هدَانا ، ونسألُهُ أنْ يَهبَ لَنا مِنْ لَدُنْه رَحْمَةً ، إنَّه هوَ الوَهَّاب . قالت: قلت يا رسول الله ، ألا تعلمنى دعوة أدعو بها لنفسى ؟ قال : بلى ، قولى : اللهُمَّ رَبَّ النَّبِيِّ مُحمَّدٍ ، اغْفِرْ لى ذَنْبِى ، وأذْهِبْ غَيْظَ قلْبِى ، وأجِرْنِى مِنْ مُضِلاَّتِ الفِتَن » .

حدثنى محمد بن منصور الطوسىّ ، قال : ثنا محمد بن عبد الله الزبيرىّ ، قال : ثنا سفيان ، عن الأعمش عن أبى سفيان ، عن جابر ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول : « يا مُقلِّبَ القُلُوبِ ثبِّتْ قلْبِى على دِينِكَ » ، فقال له بعض أهله : يُخاف علينا وقد آمنا بك وبما جئت به ؟ قال: إنَّ القلْبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أصابِعِ الرَّحْمَنِ تبارَكَ وتَعالى، يقُولُ به هكذا، وحرك أبو أحمد أصبعيه » . قال أبو جعفر : وإن الطوسى[1] وسَقَ بين أصبعيه .

حدثنى سعيد بن يحيى الأموى ، قال : ثنا أبو معاوية ، قال : ثنا الأعمش عن أبى سفيان ، عن أنس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يقول : «يا مُقلِّبَ القُلُوبِ ثبِّتْ قلْبِى على دِينِكَ ، قلنا : يا رسول الله قد آمنا بك ، وصدّقنا بما جئت به ، فيخاف علينا ؟ قال : نعَمْ ، إنَّ القُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أصابِعِ اللهِ ، يُقلِّبُها تبارَكَ وتَعالى » .

حدثنى محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، قال : ثنا بشر بن بكر ، وحدثنى علىّ بن سهل ، قال : ثنا أيوب بن بشر جميعا ، عن ابن جابر ، قال : سمعت بشر بن عبيد الله ، قال : سمعت أبا إدريس الخولانىّ يقول: سمعت النَّوَّاس بن سَمعان الكلابىّ ، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « مامِنْ قلْبٍ إلاَّ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أصابِعِ الرَّحْمَنِ ،إنْ شاءَ أقامَهُ ،وإنْ شاءَ أزاغَهُ » وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « يا مُقلِّبَ القُلُوبِ ثبِّتْ قُلُوبنا على دِينِكَ ، والمِيزَانُ بيَدِ الرَّحْمَنِ ، يرْفَعُ أقْواماً ويَخْفِضُ آخَرِينَ ، إلى يَوْمِ القِيامَةِ » .

حدثنى عمر بن عبد الملك الطائى ، قال : ثنا محمد بن عبيدة ، قال : ثنا الجرَّاح بن مليح البهرانىّ ، عن الزبيدىّ ، عن جويبر ، عن سَمُرة بن فاتك الأسدىّ ، وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، أنه قال: « المَوَازِينُ بيَدِ اللهِ ، يرْفَعُ أقْواماً ،ويَضَعُ أقْواماً، وقَلْبُ ابْنِ آدَمَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أصابِعِ الرَّحْمَنِ ، إنْ شاءَ أزاغَهُ ، وإنْ شاءَ أقامَهُ » .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا سويد بن نصر ، قال: أخبرنا ابن المبارك ، عن حَيْوة بن شريح ، قال : أخبرنى أبو هانئ الخولانىّ أنه سمع أبا عبد الرحمن الحبلىّ يقول : سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنَّ قلُوبَ بَنِى آدَمَ كلَّها بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أصابِعِ الرَّحْمَنِ كقَلْبٍ واحِدٍ يُصَرِّفُ كيْفَ يَشاءُ ، ثم يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهُمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ صَرِّفْ قلُوبنا إلى طاعَتِكَ) .

(١) من معنى الوسق : التفريق ، ولعله المراد فى كلام أبى جعفر .

حدثنا الربيع بن سليمان ، قال : ثنا أسد بن موسى ، قال : ثنا عبد الحميد بن بهرام ، قال : ثنا شهر ابن حوشب ، قال : سمعت أمّ سلمة تحدّث : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكثر فى دعائه أن يقول : « اللَّهُمَّ ثَبِّتْ قَلْبِي على دِينِكَ » ، قالت : قلت يا رسول الله ، وإن القلوب لتقلّب ؟ قال : نَعَمْ : ما مِنْ خَلْقِ اللهِ مِنْ بَنِى آدَمَ بَشَرٌ إلاَّ أنَّ قَلْبَهُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أصَابِعِ اللهِ ، إنْ شاءَ أقامَهُ ، وَإنْ شاءَ أزَاغَهُ ، فَنَسألُ اللهُ رَبَّنا أنْ لا يُزِيغَ قُلُوبَنا بَعْدَ إذْ هَدَانا ، ونسألُهُ أنْ يَهَبَ لَنا مِنْ لَدُنْهُ رَحْمَةً ، إنَّهُ هُوَ الوَهَّابُ » : .

القول فى تأويل قوله

رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَرَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٩)

يعنى بذلك جل ثناؤه : أنهم يقولون أيضا مع قولهم : آمنا بما تشابه من آى كتاب ربنا ، كلٌّ المحكم والمتشابه الذى فيه من عند ربنا : ياربنا إنك جامع الناس ليوم لاريب فيه ، إن الله لايخلف الميعاد . وهذا من الكلام الذى استغنى بذكر ماذكر منه عما ترك ذكره . وذلك أن معنى الكلام : ربنا إنك جامع الناس ليوم القيامة ، فاغفر لنا يومئذ ، واعف عنا ، فإنك لاتخلف وعدك ، أنّ من آمن بك ، واتبع رسولك ، وعمل بالذى أمرته به فى كتابك ، أنك غافره يومئذ . وإنما هذا من القوم مسألة ربهم أن يثبتهم على ما هم عليه من حسن نصرتهم بالإيمان بالله ورسوله ، وما جاءهم به من تنزيله ، حتى يقبضهم على أحسن أعمالهم وإيمانهم ، فإنه إذا فعل ذلك بهم وجبت لهم الجنة ، لأنه قد وعد من فعل ذلك به من عباده ، أنه يدخله الجنة . فالآية وإن كانت قد خرجت مخرج الخبر ، فإن تأويلها من القوم مسألة ودعاء ، ورغبة إلى ربهم .

وأما معنى قوله (لِيَوْمٍ لارَيْبَ فِيهِ) فإنه لاشكّ فيه ، وقد بينا ذلك بالأدلة على صحته فيما مضى قبل.

ومعنى قوله (لِيَوْمٍ) فى يوم ، وذلك يوم يجمع الله فيه خلقه ، لفصل القضاء بينهم ، فى موقف العرض والحساب . والميعاد : المفعال من الوعد .

القول فى تأويل قوله

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ اللهِ شَيْئًا وَأُوْلَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠)

يعنى جلّ ثناؤه بقوله (إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا) إن الذين جحدوا الحقّ الذى قد عرفوه من نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم من يهود بنى إسرائيل ومنافقيهم ، ومنافقى العرب وكفارهم ، الذين فى قلوبهم زيغ ، فهم يتبعون من كتاب الله المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله . (لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أمْوَالُهُمْ وَلا أوْلادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا) : يعنى بذلك : أن أموالهم وأولادهم لن تنجيهم من عقوبة الله إن أحلها بهم عاجلا فى الدنيا على تكذيبهم بالحقّ بعد تبيّنهم ، واتباعهم المتشابه طلب اللبس ، فتدفعها عنهم ، ولا يغنى ذلك عنهم منها شيئا وَهُمْ فِى الآخِرَةِ (وَقُودُ النَّارِ) : يعنى بذلك حطبها .

القول فى تأويل قوله

كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا، فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ، وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (١١)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا عند حلول عقوبتنا بهم ، كسنة آل فرعون وعادتهم ، والذين من قبلهم من الأمم الذين كذّبوا بآياتنا ، فأخذناهم بذنوبهم ، فأهلكناهم حين كذّبوا بآياتنا ، فلن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا حين جاءهم بأسنا ، كالذين عوجلوا بالعقوبة على تكذيبهم ربهم من قبل آل فرعون : من قوم نوح وقوم هود وقوم لوط وأمثالهم.

واختلف أهل التأويل فى تأويل قوله (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ) فقال بعضهم : معناه : كسنتهم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق بن الحجاج ، قال : ثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع فى قوله (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ) يقول : كسنتهم .

وقال بعضهم : معناه : كعملهم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا مؤمّل ، قال : ثنا سفيان . وحدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو نعيم ، قال : ثنا سفيان جميعا ، عن جويبر ، عن الضحاك (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ) قال : كعمل آل فرعون .

حدثنا يحيى بن أبى طالب ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا جويبر ، عن الضحاك فى قوله (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ) قال : كعمل آل فرعون .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ) قال : كفعلهم . كتكذيبهم حين كذبوا الرسل . وقرأ قول الله (مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ) أنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ الَّذِى أصابهمْ عَلَيْهِ مِنْ عَذَابِ اللهِ . قال : الدأب : العمل .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا أبو تُمَيلة يحيى بن واضح ، عن أبى حمزة ، عن جابر ، عن عكرمة ومجاهد فى قوله (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ) قال : كفعل آل فرعون ، كشأن آل فرعون .

حدثت عن المنجاب ، قال : ثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس فى قوله (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ) قال : كصُنع آل فرعون .

وقال آخرون : معنى ذلك : كتكذيب آل فرعون .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى موسى بن هارون ، قال : ثنا عمرو بن حماد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ) ذكر الذين كفروا

وأفعال تكذيبهم كمثل تكذيب الذين من قبلهم فى الجحود والتكذيب ، وأصل الدأب : من دأبت فى الأمر دَأْبًا : إذا أدمنت العمل والتعب فيه ، ثم إن العرب نقلت معناه إلى الشأن والأمر والعادة ، كما قال امرؤ القيس بن حُجْر :

وَإِنَّ شفائى عَبْرَةٌ مُهْرَاقَةٌ   فَهَلْ عندَ رَسْمٍ دارِسٍ من مُعَوَّلِ
كَدأْبِكَ مِنْ أُمِّ الحُوَيْرِث قَبْلَها   وَجارَتِها أُمِّ الرَّبابِ بِمأْسَلِ[1]

يعنى بقوله كدأبك : كشأنك وأمرك وفعلك ، يقال منه : هذا دأبى ودأبك أبدا ، يعنى به : فعلى وفعلك ، وأمرى وأمرك ، وشأنى وشأنك ، يقال منه : دأبت دءُوبا ودأبا . وحكى عن العرب سماعا : دأبت دَأَبا مثقلة محركة الهمزة ، كما قيل هذا شعَر ونهَر ، فتحرك ثانيه ، لأنه حرف من الحروف الستة ، فألحق الدأب إذ كان ثانية من الحروف الستة ، كما قال الشاعر :

لَهُ نَعَلٌ لايَطَّبِى الكَلْبَ رِيحُها   وَإِنْ وُضِعَتْ بَيْنَ المَجالِسِ شُمَّتِ[2]

وأما قوله (وَاللهُ شَدِيدُ العِقابِ) فإنه يعنى به : والله شديد عقابه لمن كفر به وكذّب رسله ، بعد قيام الحجة عليه .

القول فى تأويل قوله

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢)

اختلفت القراء فى ذلك ، فقرأه بعضهم (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ) بالتاء ، على وجه الخطاب للذين كفروا بأنهم سيغلبون ، واحتجوا لاختيارهم قراءة ذلك بالتاء بقوله (قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ فِى فِئَتَيْنِ) قالوا : ففى ذلك دليل على أن قوله (سَتُغْلَبُونَ) كذلك خطاب لهم ، وذلك هو قراءة عامة قرّاء الحجاز والبصرة وبعض الكوفيين ، وقد يجوز لمن كانت نيته فى هذه الآية أن الموعودين بأن يغلبوا هم الذين أمر النبىّ صلى الله عليه وسلم بأن يقول ذلك لهم ، أن يقرأه بالياء والتاء ، لأن الخطاب بالوحى حين نزل لغيرهم ، فيكون نظير قول القائل فى الكلام : قلت للقوم : إنكم مغلوبون ، وقلت لهم : إنهم مغلوبون ، وقد ذكر أن فى قراءة عبد الله (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ تَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَكُمْ) ، وهى فى قراءتنا (إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ) . وقرأت ذلك جماعة من قراء أهل الكوفة : سيغلبون ويحشرون . على معنى : قل لليهود : سيغلب مشركو العرب ، ويحشرون إلى جهنم . ومن قرأ ذلك كذلك على هذا التأويل لم يجز فى قراءته غير الياء .

(١) البيتان لامرئ القيس فى معلقته : (مختار الشعر الجاهلى ص ٢٤) مهراقة : مصبوبة . والمعول : إما من العويل والبكاء ، يريد : فهل يبكى عند رسم دارس ؟ والاستفهام بمعنى النفى ، أى لا ينبغى أن يبكى عند رسم دارس . وإما من التعويل والاعتماد على الشىء . أى أن البكاء على الرسوم لايجدى شيئا ، فلا ينبغى أن يعول عليه . دأبك : عادتك . ومأسل بفتح السين : جبل .

(٢) البيت لكثير عزة كما فى لسان العرب فى (نعل) . قال : فأما قول كثير : . . . البيت ، فإنه حرك حرف الحلق ، لانفتاح ما قبله ، كما قال بعضهم : يغدو وهو محموم (بتحريك الغين) ، فى : يغدو (بتسكينها) . وهذا لايعد لغة ، إنما هو متبع ما قبله .

والذى نختار من القراءة فى ذلك قراءة من قرأه بالتاء ، بمعنى : قل يا محمد للذين كفروا من يهود بنى إسرائيل ، الذين يتبعون ما تشابه من آى الكتاب الذى أنزلته إليك، ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله: ستغلبون وتحشرون إلى جهنم ، وبئس المهاد .

وإنما اخترنا قراءة ذلك كذلك، على قراءته بالياء، لدلالة قوله (قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِى فِئَتَيْنِ): على أنهم بقوله ستغلبون مخاطبون خطابهم بقوله: قد كان لكم، فكان إلحاق الخطاب بمثله من الخطاب، أولى من الخطاب بخلافه ، من الخبر عن غائب .

وأخرى: أن أبا كريب حدثنا، قال: ثنا يونس بن بكير ، عن محمد بن إسحاق ، قال : ثنى محمد بن أبى محمد مولى زيد ، عن سعيد بن جبير أو عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا يوم بدر ، فقدم المدينة، جمع يهود فى سوق بنى قينُقاع فقال: يا معشر يهود ، أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشا ، فقالوا : يا محمد لاتغرّنك نفسك،إنك قتلت نفرا من قريش كانوا أغمارا لايعرفون القتال ، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، وأنك لم تأت مثلنا . فأنزل الله عزّ وجلّ فى ذلك من قولهم (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ المِهَادُ)... إلى قوله (لِأُولِى الأَبْصَارِ) .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : ثنا محمد بن إسحاق ، عن عاصم بن عمر بن قتادة ، قال: لما أصاب الله قريشا يوم بدر، جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يهود فى سوق بنى قَينُقاع ، حين قدم المدينة ، ثم ذكر نحو حديث أبى كريب ، عن يونس .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قال : كان من أمر بنى قَينُقاع ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمعهم بسوق بنى قينقاع ، ثم قال : يامعشر اليهود، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة ، وأسلموا ، فإنكم قدعرفتم أنى نبىّ مرسل، تجدون ذلك فى كتابكم، وعهد الله إليكم ، فقالوا : يا محمد إنك ترى أنا كقومك ،لايغرنّك أنك لقيت قوما لاعلم لهم بالحرب . فأصبت فيهم فرصة ، إنا والله لئن حاربناك لتعلمنّ أنا نحن الناس .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن محمد بن إسحاق ، عن محمد بن أبى محمد مولى آل زيد بن ثابت ، عن سعيد بن جبير أو عكرمة ، عن ابن عباس، قال : ما نزلت هؤلاء الآيات إلا فيهم (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ المِهَادُ) إلى (لِأُولِى الأَبْصَارِ) .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن عكرمة فى قوله (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ المِهَادُ) قال فِنْحاص اليهودىّ فى يوم بدر : لايغرنّ محمدا أن غلب قريشا وقتلهم ، إن قريشا لاتحسن القتال ، فنزلت هذه الآية (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ المِهَادُ) .

قال أبو جعفر : فكل هذه الأخبار تنبئ عن أن المخاطبين بقوله (سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى

جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ) هم اليهود المقول لهم (قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِى فِئَتَيْنِ) . . . الآية ، وتدل على أن قراءة ذلك بالتاء أولى من قراءته بالياء . ومعنى قوله (وَتُحْشَرُونَ) وتجمعون فتجلبون إلى جهنم . وأما قوله (وَبِئْسَ الْمِهَادُ) : وبئس الفراش جهنم التى تحشرون إليها .

وكان مجاهد يقول كالذى حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله (وَبِئْسَ الْمِهَادُ) قال : بئسما مهدوا لأنفسهم .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

القول فى تأويل قوله

قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ، فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ ، يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ الْعَيْنِ ، وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى الْأَبْصَٰرِ (١٣)

يعنى بذلك جل ثناؤه : قل يا محمد للذين كفروا من اليهود الذين بين ظهرانى بلدك : قد كان لكم آية ، يعنى علامة ودلالة على صدق ما أقول إنكم ستغلبون وعبرة ، كما حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ) : عبرة وتفكر .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، مثله ، إلا أنه قال : ومتفكَّر فى فئتين ، يعنى فى فرقتين وحزبين . والفئة : الجماعة من الناس . التقتا : للحرب ، وإحدى الفئتين رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن كان معه ممن شهد وقعة بدر ، والأخرى مشركو قريش ، فئة تقاتل فى سبيل الله : جماعة تقاتل فى طاعة الله وعلى دينه ، وهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وأخرى كافرة ، وهم مشركو قريش .

كما حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا يونس بن بكير ، عن محمد بن إسحاق ، قال : ثنى محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن سعيد بن جبير أو عكرمة ، عن ابن عباس (قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِى فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ، فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِى سَبِيلِ اللهِ) : أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ببدر ، وأخرى كافرة فئة ، قريش الكفار .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن سعيد بن جبير أو عكرمة ، عن ابن عباس ، مثله .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن عكرمة (قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِى فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ، فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِى سَبِيلِ اللهِ) محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وأخرى كافرة : قريش يوم بدر .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قوله (قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِى فِئَتَيْنِ) : قال فى محمد وأصحابه ومشركى قريش يوم بدر .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق قال : أخبرنا الثوريّ ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد، فى قوله (قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ، فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ) قال ذلك يوم بدر، التقى المسلمون والكفار ، ورفعت (فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ) وقد قيل قبل ذلك فى فئتين ، بمعنى : إحداهما تقاتل فى سبيل الله على الابتداء ، كما قال الشاعر :

فكنتُ كَذِى رِجْلَيْنِ : رِجْلٍ صحيحةٍ ... ورِجْلٍ رَمَى فيها الزَّمانُ فَشَلَّتِ[1]

وكما قال ابن مفرّغ :

فكنتُ كذِى رِجْلَيْنِ : رِجْلٍ صحيحةٍ ... ورِجْلٍ بِها رَيْبٌ من الحَدَثانِ

فأمَّا التى صحَّتْ فأزْدُ شَنُوءةٍ ... وأمَّا التى شَلَّتْ فأزْدُ عُمانِ[2]

وكذلك تفعل العرب فى كل مكرّر على نظير له قد تقدمه ، إذا كان مع المكرر خبر تردّه على إعراب الأول مرة ، وتستأنفه ثانية بالرفع ، وتنصبه فى التامّ من الفعل والناقص ، وقد جرّ ذلك كلّه . فخفض على الردّ على أول الكلام ، كأنه يعنى إذا خفض ذلك : فكنت كذى رجلين : كذى رجل صحيحة ورجل سقيمة ، وكذلك الخفض فى قوله : فئة ، جائز على الردّ على قوله : فى فئتين التقتا ، فى فئة تقاتل فى سبيل الله . وهذا وإن كان جائزا فى العربية ، فلا أستجيز القراءة به ، لإجماع الحجة من القراء على خلافه ، ولو كان قوله : فئة جاء نصبا كان جائزا أيضا على قوله : قد كان لكم آية فى فئتين التقتا مختلفتين .

القول فى تأويل قوله (يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ) :

اختلفت القرّاء فى قراءة ذلك ، فقرأته قرّاء أهل المدينة : تَرونهم بالتاء ، بمعنى : قد كان لكم أيها اليهود آية فى فئتين التقتا ، فئة تقاتل فى سبيل الله ، والأخرى كافرة ، تَرون المشركين مِثْلَىْ المسلمين رأْى العين . يريد بذلك عظتهم ، يقول : إن لكم عبرة أيها اليهود فيما رأيتم من قلة عدد المسلمين ، وكثرة عدد المشركين ، وظفر هؤلاء مع قلة عددهم ، بهؤلاء مع كثرة عددهم ، وقرأ ذلك عامة قرّاء الكوفة والبصرة وبعض المكيين : يرونهم مثليهم ، بالياء ، بمعنى : يرى المسلمون الذين يقاتلون فى سبيل الله الجماعة الكافرة مثلى المسلمين فى القدر . فتأويل الآية على قراءتهم : قد كان لكم يا معشر اليهود عبرة ومتفكَّر فى فئتين

---

(١) هذا البيت لكثير عزة : (خزانة الأدب للبغدادى ٢ : ٣٧٦ وما بعدها) . وهو شاهد نحوى على أن (رجل) يجوز فيها الجر على البدل من رجلين ، ويجوز فيها الرفع ، على أنه بدل مقطوع عما قبله . أو خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : هما رجل صحيحة ، ورجل أخرى . أو تقديره : إحداهما رجل صحيحة ، والأخرى رجل . . . الخ . أو مبتدأ محذوف الخبر ، تقديره : منهما رجل صحيحة . . . الخ قال العينى : ويجوز النصب ، على إضمار أعنى . وشلت : مبنى للمعلوم من باب فرح ، والشلل : يبس يصيب اليد أو الرجل ، فتموت أعصابها وتسترخى .

تمنى كثير أن تضيع قلوصه ، فيبقى فى حى عزة ، فيكون ببقائه فى حيها كذى رجل صحيحة ، ويكون من عدمه لقلوصه كذى رجل عليلة .

(٢) نسب المؤلف البيتين ليزيد بن مفرغ الحميرى . وفى الخزانة (٢ : ٣٧٨) أن كثيرا أخذ بيته من قول النجاشى : وذكر البيتين . قال : وقد أورده ابن رشيق فى « العمدة » فى السرقات الشعرية ، وسماه الاهتدام . قال : فأخذ كثير القسم الأول ، واهتدم باقى البيت .

التقتا ، فئة تقاتل فى سبيل الله ، وأخرى كافرة ، يرى هؤلاء المسلمون مع قلة عددهم هؤلاء المشركين فى كثرة عددهم .

فإن قال قائل : وما وجه تأويل قراءة من قرأ ذلك بالياء ، وأىّ الفئتين رأت صاحبتها مثليها ، ألفئة المسلمة هى التى رأت المشركة مثليها ، أم المشركة هى التى رأت المسلمة كذلك ، أم غيرهما رأت إحداهما كذلك ؟ قيل : اختلف أهل التأويل فى ذلك ، فقال بعضهم : الفئة التى رأت الأخرى مثلى أنفسها الفئة المسلمة ، رأت عدد الفئة المشركة مثلى عدد الفئة المسلمة ، قلّلها الله عزّ وجلّ فى أعينها ، حتى رأتها مثلى عدد أنفسها ، ثم قللها فى حال أخرى ، فرأتها مثل عدد أنفسها .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، فى خبر ذكره عن مرّة الهمْدانىّ ، عن ابن مسعود (قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ فِى فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ، فِئَةٌ تُقاتِلُ فِى سَبِيلِ اللهِ ، وأُخْرَى كافِرَةٌ ، يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأىَ العَيْنِ) قال : هذا يوم بدر ، قال عبد الله بن مسعود ، قد نظرنا إلى المشركين ، فرأيناهم يَضْعُفُون علينا ، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلا واحدا ، وذلك قول الله عزّ وجلّ (وَإذْ يُرِيكُمُوهُمْ إذِ الْتَقَيْتُمْ فِى أعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِى أعْيُنِهِمْ) .

فمعنى الآية على هذا التأويل : قد كان لكم يامعشر اليهود آية فى فئتين التقتا : إحداهما مسلمة ، والأخرى كافرة ، كثير عدد الكافرة ، قليل عدد المسلمة ، ترى الفئة القليل عددها ، الكثير عددها أمثالا لها : أنها تكثرها من العدد بمثل واحد ، فهم يرونهم مثليهم ، فيكون أحد المثلين عند ذلك ، العدد الذى هو مثل عدد الفئة التى رأتهم ، والمثل الآخر : الضعف الزائد على عددهم ، فهذا أحد معنيى التقليل الذى أخبر الله عزّ وجل المؤمنين أنه قللهم فى أعينهم . والمعنى الآخر منه : التقليل الثانى على ما قاله ابن مسعود ، وهو أن أراهم عدد المشركين مثل عددهم ، لايزيدون عليهم ، فذلك التقليل الثانى الذى قال الله جل ثناؤه (وَإذْ يُرِيكُمُوهُمْ إذِ الْتَقَيْتُمْ فِى أعْيُنِكُمْ قَلِيلاً) .

وقال آخرون من أهل هذه المقالة : إن الذين رأوا المشركين مثلى أنفسهم هم المسلمون ، غير أن المسلمين رأوهم على ما كانوا به من عددهم ، لم يُقلَّلوا فى أعينهم ، ولكن الله أيدهم بنصره ، قالوا : ولذلك قال الله عزّ وجلّ لليهود : قد كان لكم فيهم عبرة ، يخوّفهم بذلك أن يُحلّ بهم منهم ، مثلُ الذى أحلّ بأهل بدر على أيديهم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس : (قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ فِى فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقاتِلُ فِى سَبِيلِ اللهِ ، وأُخْرَى كافِرَةٌ) : أنزلت فى التخفيف يوم بدر ، كأنّ المؤمنين كانوا يومئذ ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا ، وكان المشركون مثليهم ،

فأنزل الله عزّ وجلّ: (قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتا ، فِئَةٌ تُقاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وأُخْرَى كافِرَةٌ ، يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ العَيْنِ) وكان المشركون ستة وعشرين وستمائة ، فأيد الله المؤمنين ، فكان هذا الذى فى التخفيف على المؤمنين . وهذه الرواية خلاف ما تظاهرت به الأخبار عن عدّة المشركين يوم بدر ، وذلك أن الناس إنما اختلفوا فى عددهم على وجهين ، فقال بعضهم: كان عددهم ألفا ، وقال بعضهم : ما بين التسعمائة إلى الألف

ذكر من قال : كان عددهم ألفا :

حدثنى هارون بن إسحاق الهمدانى ، قال : ثنا مصعب بن المقدام ، قال : ثنا إسرائيل ، قال : ثنا أبو إسحاق ، عن حارثة ، عن علىّ ، قال: سار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر ، فسبقنا المشركين إليها ، فوجدنافيها رجلين، منهم رجل من قريش ، ومولى لعُقبة بن أبى مُعَيط ؛ فأما القرشىّ فانفلت، وأما مولى عقبة فأخذناه ، فجعلنا نقول : كم القوم ؟ فيقول : هم والله كثير شديد بأسهم ، فجعل المسلمون إذا قال ذلك صدّقوه ، حتى انتهوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : كم القوم ؟ فقال : هم والله كثير شديد بأسهم ، فجهَد النبىّ صلى الله عليه وسلم على أن يخبره كم هم ؟ فأبى . ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأله : كَمْ تَنْحَرُونَ مِنَ الجُزُرِ ؟ قال : عشرة كل يوم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : القَوْمُ أَلْفٌ .

حدثنى أبو سعيد بن يوشع البغدادىّ ، قال : ثنا إسحاق بن منصور، عن إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن أبى عبيدة ، عن عبد الله قال: أسرنا رجلا منهم ، يعنى من المشركين يوم بدر ، فقلنا : كم كنتم ؟ قال: ألفا .

ذكر من قال : كان عددهم ما بين التسعمائة إلى الألف .

حدثنا ابن حميد ، قال: ثنا سلمة، قال : قال ابن إسحاق : ثنى يزيد بن رومان ، عن عروة بن الزبير ، قال : بعث النبىّ صلى الله عليه وسلم نفرا من أصحابه إلى ماء بدر يلتمسون الخبر له عليه ، فأصابوا راوية من قريش فيها أسلم: غلام بنى الحجاج ، وعُرَيض أبو يسار: غلام بنى العاص ، فأتوا بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهما : كَمِ القَوْمُ ؟ قالا : كثير . قال : ما عدّتهم ؟ قالا : لاندرى . قال: كَمْ تَنْحَرُونَ كُلَّ يَوْمٍ ؟ قالا : يوما تسعا ، ويوما عشرا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : القَوْمُ ما بَيْنَ التِّسْعِمائَةِ إلى الأَلْفِ .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتا، فِئَةٌ تُقاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وأُخْرَى كافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ العَيْنِ) : ذلكم يوم بدر، أَلْفُ المشركون ، أو قاربوا ، وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلثمائة وبضعة عشر رجلا .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر، عن قتادة ، فى قوله (قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتا ، فِئَةٌ) إلى قوله (رَأْيَ العَيْنِ) قال : يَضْعُفُونَ عليهم ، فقتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين يوم بدر .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، فى قوله (قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ فِى فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ، فِئَةٌ تُقاتِلُ فِى سَبِيلِ اللهِ ، وأُخْرَى كافِرَةٌ ، يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رأىَ العَيْنِ) : قال : كان ذلك يوم بدر ، وكان المشركون تسعمائة وخمسين ، وكان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ثلثمائة وثلاثة عشر .

حدثنى القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، قال : قال ابن جريج : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلثمائة وبضعة عشر ، والمشركون ما بين التسعمائة إلى الألف ، فكل هؤلاء الذين ذكرنا مخالفون القولَ الذى رويناه عن ابن عباس فى عدد المشركين يوم بدر . فإذا كان ما قاله من حكيناه ممن ذكر أن عددهم كان زائدا على التسعمائة ، فالتأويل الأول الذى قلناه على الرواية التى روينا عن ابن مسعود : أولى بتأويل الآية .

وقال آخرون : كان عدد المشركين زائدا على التسعمائة ، فرأى المسلمون عددهم على غير ما كانوا به من العدد ، وقالوا : أرى الله المسلمين عدد المشركين قليلا آية للمسلمين ، قالوا : وإنما عنى الله عزّ وجلّ بقوله (يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ) المخاطبين بقوله (قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ فِى فِئَتَيْنِ) قالوا : وهم اليهود ، غير أنه رجع من المخاطبة إلى الخبر عن الغائب ، لأنه أمر من الله جلّ ثناؤه لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول ذلك لهم ، فحسن أن يخاطب مرّة ، ويخبر عنهم على وجه الخبر مرّة أخرى ، كما قال : (حَتَّى إذَا كُنْتُمْ فِى الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ) .

وقالوا : فإن قال لنا قائل : فكيف قيل (يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْىَ العَيْنِ) وقد علمتم أن المشركين كانوا يومئذ ثلاثة أمثال المسلمين ؟ . قلنا لهم كما يقول القائل وعنده عبد احتاج إلى مثله : أنا محتاج إليه ، وإلى مثله ، ثم يقول : أحتاج إلى مثليه ، فيكون ذلك خبرا عن حاجته إلى مثله ، وإلى مثلى ذلك المثل ، وكما يقول الرجل : معى ألف ، وأحتاج إلى مثليه ، وهو محتاج إلى ثلاثة ؛ فلما نوى أن يكون الألف داخلا فى معنى المثل ، صار المثل أشرف [1] والاثنان ثلاثة ، قال : ومثله فى الكلام : أراكم مثلكم ، كما يقال : إن لكم ضعفكم ، وأراكم مثليكم ، يعنى أراكم ضعفيكم ، قالوا : فهذا على معنى ثلاثة أمثالهم .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : أن الله أرى الفئة الكافرة عدد الفئة المسلمة مثلى عددهم ، وهذا أيضا خلاف ما دلّ عليه ظاهر التنزيل ، لأن الله جل ثناؤه قال فى كتابه (وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِى أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِى أَعْيُنِهِمْ) فأخبر أن كلا من الطائفتين قُلّل عددها فى مرأى الأخرى

وقرأ آخرون ذلك (تُرونهم) بضم التاء ، بمعنى : يريكموهم الله مثليهم .

وأولى هذه القراءات بالصواب : قراءة من قرأ (يَرَوْنَهُمْ) بالياء ، بمعنى : وأخرى كافرة ، يراهم المسلمون مثليهم ، يعنى : مثلى عدد المسلمين ، لتقليل الله إياهم فى أعينهم فى حال ، فكان حزرُهم إياهم

(١) (قوله صار المثل أشرف) . . . الخ كذا فى النسخ ، ولعله : صار المثل اثنين . . . الخ .

كذلك ، ثم قللهم فى أعينهم عن التقليل الأول ، فحزَروهم مثلى عدد المسلمين ، ثم تقليلا ثالثا ، فحزَروهم أقلّ من عدد المسلمين .

كما حدثنى أبو سعيد البغدادىّ ، قال : ثنا إسحاق بن منصور ، عن إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن أبى عبيدة ، عن عبد الله ، قال : لقد قُلِّلوا فى أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبى : تراهم سبعين ؟ قال : أراهم مائة ، قال : فأسرنا رجلا منهم ، فقلنا كم كنتم ؟ قال : ألفا .

وقد روى عن قتادة أنه كان يقول : لو كانت تَرَوْنهم ، لكانت مثليكم .

حدثنى المثنى ، قال : ثنى عبد الرحمن بن أبى حماد ، عن ابن المعرك[1] ، عن معمر ، عن قتادة بذلك ؛ ففى الخبرين اللذين روينا عن عبد الله بن مسعود ، ما أبان عن اختلاف حَزْر المسلمين يومئذ عدد المشركين فى الأوقات المختلفة ، فأخبر الله عزّ وجلّ عما كان من اختلاف أحوال عددهم عند المسلمين ، اليهود[2] على ما كان به عندهم ، مع علم اليهود بمبلغ عدد الفئتين ، إعلاما منه لهم أنه مؤيد المؤمنين بنصره ، لئلا يغترّوا بعددهم وبأسهم ، وليحذروا منه أن يحلّ بهم من العقوبة على أيدى المؤمنين ، مثل الذى أحلّ بأهل الشرك به من قريش على أيديهم ببدرهم .

وأما قوله (رَأْىَ العَيْنِ) فإنه مصدر رأيته ، يقال : رأيته رَأْيا ورؤية ، ورأيت فى المنام رؤيا حسنة غير مجراة ، يقال : هو منى رأىَ العين ، ورأىُ العين ، بالنصب والرفع ، يراد حيث يقع عليه بصرى ، وهو من الرائى مثله ، والقوم رَآوَا[3] : إذا جلسوا حيث يرى بعضهم بعضا ، فمعنى ذلك : يرونهم حيث تلحقهم أبصارهم ، وتراهم عيونهم مثليهم .

القول فى تأويل قوله (وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِى الأَبْصَارِ) :

يعنى بذلك جل ثناؤه : والله يؤيد : يقوّى بنصره من يشاء ، من قول القائل : قد أيدت فلانا بكذا : إذا قوّيته وأعنته ، فأنا أؤيده تأييدا ، « وفَعَلْتُ » منه : إِدْته[4] ، فأنا أئيده أَيْدا ؛ ومنه قول الله عزّ وجلّ (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ) يعنى ذا القوّة .

وتأويل الكلام : قد كان لكم آية يا معشر اليهود فى فئتين التقتا : إحداهما تقاتل فى سبيل الله ، وأخرى كافرة ، يراهم المسلمون مثليهم رأى أعينهم ، فأيدنا المسلمة وهم قليل عددهم ، على الكافرة وهم كثير عددهم ، حتى ظفروا بهم ، مُعْتَبَر ومُتَفَكَّر ، والله يقوّى بنصره من يشاء ؛ وقال جل ثناؤه : إن فى ذلك : يعنى : إن فيما فعلنا بهؤلاء الذين وصفنا أمرهم من تأييدنا الفئة المسلمة مع قلة عددها ، على الفئة الكافرة مع كثرة عددها ، لعبرة ، يعنى لمتفكرًا ومتعظا لمن عقل وادّكر ، فأبصر الحق .

كما حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِى الأَبْصَارِ) يقول : لقد كان لهم فى هؤلاء عبرة وتفكُّر ، أيدهم الله ونصرهم على عدوّهم .

(١) لم أجده فى التاج ، ولا فى معاجم الرجال .

(٢) اليهود : مفعول أخبر . يريد أن الله أخبر اليهود بمصير المشركين على أيدى المسلمين ليعتبروا به .

(٣) كذا فى الأصول . ولعل الصواب : تراءوا ، أى رأى بعضهم بعضا بالعين .

(٤) يريد أن الفعل الثلاثى منه هو . . . الخ . ولم نجد الفعل الثلاثى من هذه المادة متعديا فى المعاجم .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع مثله .

القول فى تأويل قوله

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ، ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ (١٤)

يعنى تعالى ذكره : زُين للناس محبة مايشتهون من النساء والبنين ، وسائر ما عدّ ، وإنما أراد بذلك توبيخ اليهود الذين آثروا الدنيا وحبّ الرياسة فيها ، على اتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، بعد علمهم بصدقه . وكان الحسن يقول : من زيّنها ، ما أحد أشدّ لها ذما من خالقها .

حدثنى بذلك أحمد بن حازم[1] : قال : ثنا أبو نعيم ، قال : ثنا أبو الأشعث ، عنه ، حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن عطاء ، عن أبى بكر بن حفص بن عمر بن سعد ، قال : قال عمر : لما نزل (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ) قلت : الآن يا ربّ حين زينتها لنا ، فنزلت : (قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ ؟ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ) . . . الآية .

وأما القناطير : فإنها جمع القِنطار .

واختلف أهل التأويل فى مبلغ القنطار ، فقال بعضهم : هو ألف ومائتا أوقية .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن أبى حصين ، عن سالم بن أبى الجعد ، عن معاذ بن جبل ، قال : القنطار : ألف ومائتا أوقية .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا أبو بكر بن عياش ، قال : ثنا أبو حصين ، عن سالم بن أبى الجعد ، عن معاذ ، مثله .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنا ، يعنى حفص بن ميسرة ، عن أبى مروان ، عن أبى طيبة ، عن ابن عمر ، قال : القنطار : ألف ومائتا أوقية .

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا القاسم بن مالك المزنى ، قال : أخبرنى العلاء بن المسيب ، عن عاصم بن أبى النَّجود ، قال : القنطار : ألف ومائتا أوقية .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن بن مهدىّ ، قال : ثنا حماد بن زيد ، عن عاصم بن بَهْدلة ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة ، مثله .

حدثنى زكريا بن يحيى الصديق ، قال : ثنا شَبَابة ، قال : ثنا مخلد بن عبد الواحد ، عن علىّ بن زيد عن عطاء بن أبى ميمونة ، عن زرّ بن حبيش ، عن أبىّ بن كعب ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « القِنْطارُ أَلْفُ أُوقِيَّةٍ وَمِائَتا أُوقِيَّةٍ » .

وقال آخرون : القنطار : ألف دينار ومائتا دينار .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا عمران بن موسى ، قال : ثنا عبد الوارث بن سعيد ، قال : ثنا يونس عن الحسن ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « القِنْطارُ ألْفٌ ومِائَتا دِينارٍ » .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا يونس ، عن الحسن ، قال : القنطار : ألف ومائتا دينار .

حدثني محمد بن سعد ، قال : ثنا أبي ، قال : ثني عمي ، قال : ثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : القنطار : ألف ومائتا دينار ، ومن الفضة ، ألف ومائتا مثقال .

حدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ ، قال : أخبرنا عبيد بن سلمان ، قال : سمعت الضحاك ابن مزاحم يقول : القناطير المقنطرة ، يعني : المال الكثير من الذهب والفضة ، والقنطار : ألف ومائتا دينار ، ومن الفضة : ألف ومائتا مثقال .

وقال آخرون : القنطار : اثناعشر ألف درهم ، أو ألف دينار .

ذكر من قال ذلك :

حدثني عليّ بن داود ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثني معاوية ، عن عليّ ، عن ابن عباس ، قال : القنطار : اثنا عشر ألف درهم ، أو ألف دينار .

حدثني المثنى ، قال : ثنا عمرو بن عون ، قال : أخبرنا هشيم ، عن جويبر ، عن الضحاك ، قال : القنطار : ألف دينار ، ومن الوَرِق[1] : اثنا عشر ألف درهم .

حدثنا بشر قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، عن الحسن أن القنطار : اثنا عشر ألفا .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : أخبرنا عوف ، عن الحسن : القنطار : اثنا عشر ألفا .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عوف ، عن الحسن : اثنا عشر ألفا .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الأعلى ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، عن الحسن بمثله .

حدثني المثنى ، قال : ثنا عمرو بن عون ، قال : أخبرنا هشيم ، عن عوف ، عن الحسن ، قال : القنطار : ألف دينار ، دية أحدكم .

وقال آخرون : هو ثمانون ألفا من الدراهم ، أو مائة رطل من الذهب .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن بشار ومحمد بن المثنى ، قالا : ثنا يحيى بن سعيد ، عن سليمان التيميّ ، عن قتادة ، عن سعيد بن المسيب ، قال : القنطار : ثمانون ألفا .

حدثني المثنى ، قال : ثنا عمرو بن عون ، قال : أخبرنا هشيم ، عن عليّ بن زيد ، عن سعيد بن المسيب ، قال : القنطار : ثمانون ألفا .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قال : كنا نحدّث : أن القنطار مائة رطل من ذهب ، أو ثمانون ألفا من الورق .

(١) الورق بوزن كتف : الفضة ، مضروبة أو غير مضروبة .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، قال : القنطار : مائة رطل من ذهب ، أو ثمانون ألف درهم من وَرِق .

حدثنا أحمد بن حازم ، قال : ثنا أبو نعيم ، قال : ثنا سفيان ، عن إسماعيل ، عن أبى صالح ، قال : القنطار : مائة رطل .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ : القنطار يكون مائة رطل ، وهو ثمانية آلاف مثقال .

وقال آخرون : القنطار سبعون ألفا .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قول الله (الْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ) قال : القنطار : سبعون ألف دينار .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا عمر بن حَرْشَب ، قال : سمعت عطاء الخراسانى ، قال : سُئل ابن عمر عن القنطار ، فقال : سبعون ألفا .

وقال آخرون : هى مِلء مَسك[1] ثور ذهبا .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا سالم بن نوح ، قال : ثنا سعيد الجُرَيرىّ ، عن أبى نَضْرة[2] ، قال : ملءُ مَسك ثور ذهبا .

حدثنى أحمد بن حازم ، قال : ثنا أبو نعيم ، قال : ثنا أبو الأشعث ، عن أبى نضرة : ملء مَسك ثور ذهبا .

وقال آخرون : هو المال الكثير .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال ثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس ، قال : القناطير المقنطرة : المال الكثير بعضه على بعض .

وقد ذكر بعض أهل العلم بكلام العرب أن العرب : لاتحدّ القنطار بمقدار معلوم من الرزن ، ولكنها تقول : هو قدر ووزن ، وقد ينبغى أن يكون ذلك كذلك ، لأن ذلك لو كان محدودا قدره عندها لم يكن بين متقدمى أهل التأويل فيه كل هذا الاختلاف .

فالصواب فى ذلك أن يقال : هو المال الكثير ، كما قال الربيع بن أنس ، ولا يحدّ قدر وزنه بحدّ على

---

(١) المسك : جلد الثور . بفتح الميم وسكون السين .

(٢) الجريرى : بالجيم والرائين . ونضرة : بالنون والضاد المعجمة . اه من الخلاصة .

تعنف، وقد قيل ماقيل مما روينا . وأما المقنطرة: فهى المُضَعَّفة ، وكأن القناطير ثلاثة، والمقنطرة تسعة، وهو كما قال الربيع بن أنس : المال الكثير بعضه على بعض .

كما حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة : القناطير المقنطرة من الذهب والفضة . والمقنطرة : المال الكثير بعضه على بعض .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ ، قال : أخبرنا عبيد بن سلمان ، قال : سمعت الضحاك فى قوله : القناطير المقنطرة : يعنى المال الكثير من الذهب والفضة .

وقال آخرون : معنى المقنطرة : المضروبة دراهم أو دنانير .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال: ثنا أسباط ، عن السدىّ: أما قوله : المقنطرة، فيقول: المضروبة، حتى صارت دنانير أو دراهم .

وقد رُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فى قوله: (وآتَيْتُمْ إحْدَاهُنَّ قِنْطاراً) خبر لو صحّ سنده لم نَعْدُه إلى غيره، وذلك ما حدثنا به ابن عبد الرحمن البَرْقىّ، قال: ثنى عمرو بن أبى سلمة، قال: ثنا زهير ابن محمد . قال : ثنى أبان بن أبى عياش وحميد الطويل ، عن أنس بن مالك ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وآتَيْتُمْ إحْدَاهُنَّ قِنْطاراً) قال : ألْفَا مِئِين[1] ، يعنى ألفين .

القول فى تأويل قوله (والخَيْلِ المُسَوَّمَةِ) :

اختلف أهل التأويل فى معنى المسوّمة ، فقال بعضهم : هى الراعية .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن سفيان ، عن حبيب بن أبى ثابت ، عن سعيد بن جبير : الخيل المسوّمة ، قال : الراعية التى ترعى .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن حبيب ، عن سعيد بن جبير ، مثله .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو نعيم ، قال : ثنا سفيان ، عن حبيب ، عن سعيد بن جبير ، مثله .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا سفيان ، عن حبيب بن أبى ثابت ، عن سعيد بن جبير : هى الراعية ، يعنى السائمة .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن طلحة القَنَّاد ، قال: سمعت عبد الله بن عبد الرحمن بن أَبْزى يقول : الراعية .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس (والخَيْلِ المُسَوَّمَةِ) قال : الراعية .

حدثنا بشر، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، عن الحسن (والخَيْلِ المُسَوَّمَةِ): المسرّحة فى الرعى .

---

(١) قوله فى حديث البرقى: «ألفا مئين» يعنى الخ: كذا فى بعض النسخ ، وفى بعضها : ألفا ومئين . وفى الدر المنثور : ألفا ومائتين يعنى الخ .

حُدثت عن عمار بن الحسن ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قوله : (والخَيْلِ المُسَوَّمَةِ) قال : الخيل الراعية .

حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن ليث ، عن مجاهد : أنه كان يقول : الخيل الراعية .

وقال آخرون : المسوّمة : الحسان .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن حبيب ، قال : قال مجاهد : المسوّمة : المُطَهَّمة .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا الثورىّ ، عن حبيب بن أبى ثابت ، عن مجاهد : فى قوله (والخَيْلِ المُسَوَّمَةِ) ، قال : المطهمة : الحسان .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : فى قوله (والخَيْلِ المُسَوَّمَةِ) : قال : المطهمة حُسنا .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو نعيم ، قال : ثنا سفيان ، عن حبيب ، عن مجاهد : المطهمة .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا أبو عبد الرحمن المقرى ، قال : ثنا سعيد بن أبى أيوب ، عن بشر بن أبى عمرو الخَوْلانىّ ، قال : سألت عكرمة عن الخيل المسوّمة ، قال : تسويمها : حسنها .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنى سعيد بن أبى أيوب ، عن بشر بن أبى عمرو الخولانىّ ، قال : سمعت عكرمة يقول (الخَيْلِ المُسَوَّمَةِ) : قال : تسويمها : الحسن .

حدثنى موسى بن هارون ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (والخَيْلِ المُسَوَّمَةِ) : والأنعام الرائعة .

وقد حدثنى بهذا الحديث عن عمرو بن حماد غيرُ موسى ، قال : الراعية .

وقال آخرون : (الخَيْلِ المُسَوَّمَةِ) : المُعْلَمة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى علىّ بن داود ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس : (والخَيْلِ المُسَوَّمَةِ) يعنى : المُعْلَمة .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (والخَيْلِ المُسَوَّمَةِ) وسيماها : شيتها .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (والخَيْلِ المُسَوَّمَةِ) قال : شية الخيل فى وجوهها .

وقال غيرهم : المسوّمة : المعدّة للجهاد .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد (وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ) قال: المعدة للجهاد.

قال أبو جعفر: أولى هذه الأقوال بالصواب فى تأويل قوله (وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ): المعلمة بالشيات الحسان، الرائعة حسنا من رآها، لأن التسويم فى كلام العرب: هو الإعلام، فالخيل الحسان معلمة بإعلام إياها بالحسن من ألوانها وشياتها وهيئاتها، وهى المطهمة أيضا، ومن ذلك قول نابغة بنى ذبيان فى صفة الخيل:

بِسُمْرٍ كَالْقِدَاحِ مُسَوَّمَاتٍ عليها مَعْشَرٌ أشباهُ جِنٍّ [1]

يعنى بالمسوّمات: المعلمات؛ وقول لَبِيد:

وَغَـدَاةَ قاعِ القُرْنَتَيْنِ أَتَيْنَهُمْ زُجَلاً يَلُوحُ خِلالَهَا التَّسْـوِيمُ [2]

فمعنى تأويل من تأوّل ذلك: المطهمة، والمعلمة، والرائعة: واحد. وأما قول من تأوّله بمعنى الراعية، فإنه ذهب إلى قول القائل: أَسَمْتَ الماشية، فأنا أسيمها إسامة: إذا رعيتها الكلأ والعشب، كما قال الله عزّ وجلّ (وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ) بمعنى تُرْعُون، ومنه قول الأخطل:

مثلُ ابن بَزْعَةَ أو كآخَرَ مِثْلِهِ أَوْلَى لكَ ابنَ مُسِيمَةِ الأجْمالِ [3]

يعنى بذلك راعية الأجمال. فإذا أريد أن الماشية هى التى رعت، قيل: سامت الماشية تسوم سوما، ولذلك قيل: إبل سائمة، بمعنى راعية، غير أنه مستفيض فى كلامهم: سوّمت الماشية، بمعنى أرعيتها، وإنما يقال إذا أريد ذلك: أسمتها، فإذا كان ذلك كذلك، فتوجيه تأويل المسوّمة إلى أنها المعلمة بما وصفنا من المعانى التى تقدم ذكرها أصحّ. وأما الذى قاله ابن زيد، من أنها المعدّة فى سبيل الله، فتأويل من معنى المسوّمة بمعزل.

القول فى تأويل قوله (وَالأَنْعامِ وَالْحَرْثِ):

---

(١) البيت للنابغة الذبيانى، (مختار الشعر الجاهلى طبعة شركة مصطفى البابى الحلبى وأولاده ص ٢٠١). والرواية فيه: (وضمر). وهى الصواب، فى موضع (بسمر). وضمر: معطوف على ما قبله: (بكل مجرب)... الخ يريد بالضمر: الخيل الضامرة حتى صارت من ضمرها شبه قداح الميسر فى خفة أجسامها. ومسومات: معلمات بعلامة تميزها فى الحرب، يقال: سوم فلان فرسه: إذا أعلم عليه بحريرة أو بشىء يعرف به. وشبه الفرسان بالجن لشدة صولتهم وخفتهم فى الحرب على الخيل.

(٢) البيت للبيد بن ربيعة العامرى، ولم أجده فى ديوانه طبعة ليدن (سنة ١٨٩١. والقاع: أرض مستوية يستقر فيها الماء. وقاع القرنتين: موضع بعينه كانت به وقعة بين كنانة وغطفان. والنون فى أتينهم: ضمير الخيل، وقد ذكرها قبل البيت. وزجلا: جمع زجلة كغرفة، وهى الجماعة من الخيل وغيرها. والتسويم: الإعلام بعلامة تعرف بها الخيل فى الحرب كقطعة من الحرير ونحوه.

(٣) وقال فى اللسان: (ولى) وقوله عز وجل: «أولى لك فأولى»: معناه التوعد والتهدد: أى الشر أقرب إليك. وقال ثعلب: دنوت من الهلكة. وكذلك قوله تعالى: «فأولى لهم»: أى وليهم المكروه، وقال الأصمعى: «أولى لك»: قاربك ماتكره. وأنشد:

فعادَى بينَ هادِيَتين منها وأولى أن يزيد على الثلاثِ

أى قارب أن يزيد. قال ثعلب: ولم يقل أحد فى أولى أحسن مما قال الأصمعى.

والبيت فى ديوان الأخطل طبع بيروت سنة ١٨٩١ ص ١٥٩، وقال شارحه: ابن بزعة يعنى شداد بن المنذر أخا حصين بن الحارث بن وعلة الذهلى، صاحب راية ربيعة بصفين، من بنى ذهل بن ثعلبة بن عكابة، وأمهم رقاش، وإليها ينسبون. والآخر الذى مثله: هو حوشب بن رؤيم. يعيره بأن أمه ترعى الإبل كالإماء. ورواية الأغانى (٨: ٣١٩ طبع دار الكتب): كابن البزيعة.

فالأنعام: جمع نَعَم: وهى الأزواج الثمانية التى ذكرها فى كتابه، من الضأن والمعز والبقر والإبل . وأما الحرث : فهو الزرع . وتأويل الكلام: زُين للناس حبّ الشهوات من النساء، ومن البنين ،ومن كذا، ومن كذا ، ومن الأنعام والحرث .

القول فى تأويل قوله (ذَٰلِكَ مَتاعُ الحَياةِ الدُّنْيا ، وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ المآبِ) :

يعنى بقوله جل ثناؤه : ذلك جميع ما ذكر فى هذه الآية من النساء والبنين ، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسوّمة ، والأنعام والحرث ، فكنى بقوله ذلك عن جميعهن ، وهذا يدلّ على أن «ذلك » يشتمل على الأشياء الكثيرة المختلفة المعانى ، ويكنى به عن جميع ذلك . وأما قوله (مَتاعُ الحَياةِ الدُّنْيا) فإنه خبر من الله عن أن ذلك كله مما يستمتع به فى الدنيا أهلها أحياء ، فيتبلغون به فيها ، ويجعلونه وصلة فى معايشهم ، وسببا لقضاء شهواتهم ، التى زُين لهم حبها ، فى عاجل دنياهم ، دون أن يكون عُدّة لمعادهم ، وقُربة لهم إلى ربهم ، إلا ما أسلك فى سبيله ، وأنفق منه فيما أمر به .

وأما قوله (وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ المآبِ) : فإنه يعنى بذلك جل ثناؤه : وعند الله حسن المآب ، يعنى حسن المرجع .

كما حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ المآبِ) يقول : حسن المنقلب ، وهى الجنة ، وهو مصدر على مثال مَفْعَل ، من قول القائل : آب الرجل إلينا : إذا رجع ، فهو يئوب إيابا وأوبة وأيبة ومآبا ، غير أن موضع الفاء منها مهموز ، والعين مبدلة من الواو إلى الألف بحركتها إلى الفتح ، فلما كان حظها الحركة إلى الفتح ، وكانت حركتها منقولة إلى الحرف الذى قبلها ، وهو فاء الفعل ، انقلبت فصارت ألفا ، كما قيل : قال ، فصارت عين الفعل ألفا ، لأن حظها الفتح ،والمآب ، مثل المقال والمعاد والمحال ، كل ذلك مَفْعَل ، منقولة حركة عينه إلى فائه ، فتصير واوه أو ياؤه ألفا ، لفتحة ما قبلها .

فإن قال قائل : وكيف قيل (وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ المآبِ) وقد علمت ما عنده يومئذ من أليم العذاب وشديد العقاب ؟ قيل : إن ذلك معنىّ به خاصّ من الناس ، ومعنى ذلك : والله عنده حسن المآب للذين اتقوا ربهم ، وقد أنبأنا عن ذلك فى هذه الآية التى تليها . فإن قال : وما حسن المآب ؟ قيل : هو ما وصفه به جلّ ثناؤه ، وهو المرجع إلى جنات تجرى من تحتها الأنهار مخلدًا فيها ، وإلى أزواج مطهرة ورضوان من الله .

القول فى تأويل قوله

قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ؟ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥)

يعنى جلّ ثناؤه: قل يا محمد للناس الذين زُين لهم حبّ الشهوات، من النساء والبنين ،وسائر ماذكر ربنا

جلّ ثناؤه : أؤنبئكم : أأخبركم وأعلمكم بخير من ذلكم ، يعنى بخير وأفضل لكم من ذلكم ، يعنى مما زُين لكم فى الدنيا حبّ شهوته من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، وأنواع الأموال ، التى هى متاع الدنيا.

ثم اختلف أهل العربية فى الموضع الذى تناهى إليه الاستفهام من هذا الكلام ، فقال بعضهم : تناهى ذلك عند قوله (مِنْ ذَٰلِكُمْ) ثم ابتدأ الخبر عما (لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ) فقيل : للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، فلذلك رفع الجنات . ومن قال هذا القول ، لم يجز فى قوله (جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) إلا الرفع . وذلك أنه خبر مبتدأ غير مردود على قوله بخير ، فيكون الخفض فيه جائزا ، وهو وإن كان خبرا مبتدأ عندهم ، ففيه إبانة عن معنى الخير الذى أمر الله عزّ وجلّ نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للناس : أؤنبئكم به . والجنات على هذا القول : مرفوعة باللام التى فى قوله (لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ) .

وقال آخرون منهم بنحو من هذا القول ، إلا أنهم قالوا : إن جعلت اللام التى فى قوله : للذين من صلة الإنباء ، جاز فى الجنات الخفض والرفع : الخفض على الردّ على الخير ، والرفع على أن يكون قوله (لِلَّذِينَ اتَّقَوْا) خبر مبتدأ ، على ما قد بيناه قبل .

وقال آخرون : بل منتهى الاستفهام قوله (عِنْدَ رَبِّهِمْ) ثم ابتدأ (جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) وقالوا : تأويل الكلام : قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم ؟ ثم كأنه قيل : ماذا لهم ؟ أو ماذاك ؟ أو على أنه يقال : ماذا لهم أوماذاك ؟ فقال : هو جنات تجرى من تحتها الأنهار... الآية .

وأولى هذه الأقوال عندى بالصواب : قول من جعل الاستفهام متناهيا عند قوله (بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ) . والخبر بعده مبتدأ عمن له الجنات بقوله (لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ) ، فيكون مخرج ذلك مخرج الخبر ، وهو إبانة عن معنى الخير الّذى قال : أنبئكم به ، فلا يكون بالكلام حينئذ حاجة إلى ضمير .

قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبرىّ : وأما قوله (خَالِدِينَ فِيهَا) : فمنصوب على القطع ؛ ومعنى قوله (لِلَّذِينَ اتَّقَوْا) : للذين خافوا الله فأطاعوه ، بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه (عِنْدَ رَبِّهِمْ) : يعنى بذلك : لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار عند ربهم ، والجنات : البساتين ، وقد بينا ذلك بالشواهد فيما مضى ، وأن قوله (تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) : يعنى به : من تحت الأشجار ، وأن الخلود فيها دوام البقاء فيها ، وأن الأزواج المطهرة : هن نساء الجنة اللواتى طَهُرن من كل أذى يكون بنساء أهل الدنيا : من الحيض والمنىّ والبول والنفاس ، وما أشبه ذلك من الأذى ، بما أغنى عن إعادته فى هذا الموضع . وقوله (وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ) : يعنى : ورضا الله ، وهو مصدر من قول القائل : رَضِىَ الله عن فلان ، فهو يرضَى عنه رضا ، منقوص ، ورُضوانا ورَضوانا ومَرضاة . فأما الرُّضوان بضم الراء فهو لغة قيس ، وبه كان عاصم يقرأ . وإنما ذكر الله جلّ ثناؤه فيما ذكر للذين اتقوا عنده من الخير : رِضوانه ، لأن رضوانه أعلى منازل كرامة أهل الجنة .

(١) فى اللسان : رضى يرضى رضا ورضا ورضوانا ورضوانا (بضم الراء وكسرها فى المصدرين) .

كما حدثنا ابن بشار ، قال : ثنى أبو أحمد الزبيرىّ ، قال : ثنا سفيان ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله ، قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة ، قال الله تبارك و تعالى : أعطيكم أفضل من هذا ؟ فيقولون : أى ربنا أىّ شىء أفضل من هذا ؟ قال : رضوانى .

وقوله (وَٱللهُ بَصِيرٌ بِالعِبادِ) : يعنى بذلك : والله ذو بصر بالذى يتقيه من عباده ، فيخافه فيطيعه ، ويؤثر ما عنده ، مماذكر أنه أعدّه للذين اتقوه على حبّ ما زين له فى عاجل الدنيا من شهوات النساء والبنين وسائر ماعدّد منها تعالى ذكره ، وبالذى لايتقيه فيخافه ، ولكنه يعصيه ، ويطيع الشيطان ، ويؤثر مازين له فى الدنيا من حبّ شهوة النساء والبنين والأموال ، على ما عنده من النعيم المقيم ، عالم تعالى ذكره بكل فريق منهم ، حتى يجازىَ كلهم عند معادهم إليه جزاءهم ، المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته .

القول فى تأويل قوله

ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا ، فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ، وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ (١٦)

ومعنى ذلك : قل هل أنبئكم بخير من ذلكم ؟ للذين اتقوا يقولون : ربنا إننا آمنا ، فاغفر لنا ذنوبنا ، وقنا عذاب النار . وقد يحتمل الذين يقولون وجهين من الإعراب : الخفض على الردّ على الذين الأولى ، والرفع على الابتداء ، إذ كان فى مبتدأ آية أخرى غير التى فيها الذين الأولى ، فيكون رفعها نظير قول الله عزّ وجلّ (إِنَّ ٱللهَ ٱشْتَرَى مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ) . ثم قال فى مبتدأ الآية التى بعدها : التائبون العابدون ، ولو كان جاء ذلك مخفوضا كان جائزا .

ومعنى قوله (ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا ، فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا) : الذين يقولون : إننا صدّقنا بك وبنبيك ، وما جاء به من عندك (فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا) يقول : فاستر علينا بعفوك عنها ، وتركك عقوبتنا عليها ، (وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ) : ادفع عنا عذابك إيانا بالنار أن تعذّبنا بها . وإنما معنى ذلك : لاتعذّبنا ياربنا بالنار ، وإنما خصوا المسئلة بأن يقيهم عذاب النار ، لأن من زُحْزِح يومئذ عن النار ، فقد فاز بالنجاة من عذاب النار ، وحسن مآبه . وأصل قوله (قِنا) : من قول القائل : وقى الله فلانا كذا ، يراد به : دفع عنه . فهو يقيه ، فإذا سأل بذلك سائل قال : قِنى كذا .

القول فى تأويل قوله

ٱلصَّٰبِرِينَ ، وَٱلصَّٰدِقِينَ ، وَٱلْقَٰنِتِينَ ، وَٱلْمُنفِقِينَ ، وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ (١٧)

يعنى بقوله (الصَّابِرِينَ) الذين صبروا فى البأساء والضرّاء وحين البأس . ويعنى بالصادقين : الذين صدقوا الله فى قولهم بتحقيقهم الإقرار به وبرسوله ، وماجاء به من عنده ، بالعمل بما أمره به ، والانتهاء عما نهاه عنه . ويعنى بالقانتين : المطيعين له . وقد أتينا على الإبانة عن كل هذه الحروف ومعانيها بالشواهد على صحة ما قلنا فيها ، وبالإخبار عمن قال فيها قولا فيما مضى ، بما أغنى عن إعادته فى هذا الموضع ، وقد كان قتادة يقول فى ذلك بما حدثنا به بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله :

(الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالقَانِتِينَ وَالمُنْفِقِينَ) الصادقين : قوم صدقت أفواههم ، واستقامت قلوبهم وألسنتهم ، وصدقوا فى السرّ والعلانية . والصابرين : قوم صبروا على طاعة الله ، وصبروا عن محارمه . والقانتون : هم المطيعون لله . وأما المنفقون : فهم المؤتون زكَوات أموالهم ، وواضعوها على ما أمرهم الله بإتيانها ، والمنفقون أموالهم فى الوجوه التى أذن الله لهم جلّ ثناؤه بإنفاقها فيها . وأما الصابرين والصادقين وسائر هذه الحروف : فخفض ، ردّا على قوله (الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا) . والخفض فى هذه الحروف يدلّ على أن قوله (الَّذِينَ يَقُولُونَ) : خفض ردّا على قوله (لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ) .

القول فى تأويل قوله (وَالمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ) :

اختلف أهل التأويل فى القوم الذين هذه الصفة صفتهم ، فقال بعضهم : هم المصلون بالأسحار .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (وَالمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ) : هم أهل الصلاة .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن قتادة (وَالمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ) قال : يصلون بالأسحار .

وقال آخرون : هم المستغفرون .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن حريث بن أبى مطر ، عن إبراهيم بن حاطب ، عن أبيه ، قال : سمعت رجلا فى السحَر فى ناحية المسجد وهو يقول : ربّ أمرتنى فأطعتك ، وهذا سَحَر فاغفر لى . فنظرت فإذا ابن مسعود .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا الوليد بن مسلم ، قال : سألت عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، عن قول الله عزّ وجلّ (وَالمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ) قال : حدثنى سليمان بن موسى ، قال : ثنا نافع : أن ابن عمر كان يحيى لليل صلاة ، ثم يقول : يا نافع أسْحَرْنا ؟ فيقول : لا ، فيعاود الصلاة ، فإذا قلت : نعم ، قعد يستغفر ويدعو حتى يصبح .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن بعض البصريين ، عن أنس بن مالك قال : أُمرنا أن نستغفر بالأسحار سبعين استغفارة .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا زيد بن الحُباب ، قال : ثنا أبو يعقوب الضبىّ ، قال : سمعت جعفر بن محمد يقول : من صلّى من الليل ثم استغفر فى آخر الليل سبعين مرة ، كتب من المستغفرين بالأسحار .

وقال آخرون : هم الذين يشهدون الصبح فى جماعة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسماعيل بن مسلمة أخو القعنبىّ [١] قال : ثنا يعقوب بن عبد الرحمن ، قال : قلت لزيد بن أسلم : مَن المستغفرين [٢] بالأسحار ؟ قال : هم الذين يشهدون الصبح .

وأولى هذه الأقوال بتأويل قوله (وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ) : قول من قال : هم السائلون ربهم أن يستر عليهم فضيحتهم بها بالأسحار ، وهى جمع سَحَر ، وأظهر معانى ذلك أن تكون مسئلتهم إياه بالدعاء . وقد يحتمل أن يكون معناه : تعرّضهم لمغفرته بالعمل والصلاة ، غير أن أظهر معانيه ما ذكرنا من الدعاء .

القول فى تأويل قوله

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : شهد الله أنه لا إله إلا هو ، وشهدت الملائكة ، وأولو العلم ؛ فالملائكة معطوف بهم على اسم الله ، وأنه مفتوحة بشهد .

وكان بعض البصريين يتأوّل قوله شهد الله : قَضَى الله ، ويرفع الملائكة ، بمعنى : والملائكة شهود وأولو العلم . وهكذا قرأت قراء أهل الإسلام ، بفتح الألف من أنه على ماذكرت من إعمال شهد فى أنه الأولى ، وكسر الألف من إن الثانية وابتدائها ؛ سوى أن بعض المتأخرين من أهل العربية كان يقرأ ذلك جميعا بفتح ألفيهما ، بمعنى : شهد الله أنه لاإله إلا هو ، وأن الدين عند الله الإسلام ، فعطف بأن الدين على أنه الأولى ، ثم حذف واو العطف وهى مرادة فى الكلام ؛ واحتجّ فى ذلك بأن ابن عباس قرأ ذلك (شَهِدَ اللَّهُ إِنَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ) . . . الآية ، ثم قال (أَنَّ الدِّينَ) : بكسر إن الأولى ، وفتح أن الثانية بإعمال شهد فيها ، وجعل إن الأولى اعتراضا فى الكلام غير عامل فيها شهد ؛ وأن ابن مسعود قرأ (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ) بفتح أن ، وكسر إن من (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) على معنى إعمال الشهادة فى أن الأولى ، وأن الثانية مبتدأة ، فزعم أنه أراد بقراءته إياهما بالفتح ، جمع قراءة ابن عباس وابن مسعود ، فخالف بقراءته ماقرأ من ذلك على ما وصفت ، جميع قرّاء أهل الإسلام المتقدمين منهم والمتأخرين ، بدعوى تأويل على ابن عباس وابن مسعود ، زعم أنهما قالاه وقرأا به ، وغير معلوم ما ادّعى عليهما برواية صحيحة ، ولا سقيمة . وكفى شاهدا على خطأ قراءته خروجها من قراءة أهل الإسلام . فالصواب إذ كان الأمر على ما وصفنا من قراءة ذلك ، فتح الألف من أنه الأولى ، وكسر الألف من إن الثانية ، أعنى من قوله (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) ابتداء .

وقد روى عن السدىّ فى تأويل ذلك قول كالدالّ على تصحيح ما قرأ به فى ذلك مَن ذكرنا قوله من أهل العربية ، فى فتح أنّ من قوله (أَنَّ الدِّينَ) وهو ما حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط عن السدىّ (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ) إلى (لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) ، فإن الله

(١) قوله « أخو القعنبى » هو عبد الله بن مسلمة بن قعنب القعنبى ، كما فى الخلاصة اه .

(٢) أورده كذا منصوباً على الحكاية .

يشهد هو والملائكة والعلماء من الناس أن الدين عند الله الإسلام ، فهذا التأويل يدلّ على أن الشهادة إنما هى عاملة فى أن الثانية ، التى فى قوله (إنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإسْلام) ، فعلى هذا التأويل : جائز فى أن الأولى وجهان من التأويل : أحدهما أن تكون الأولى منصوبة على وجه الشرط ، بمعنى : شهد الله بأنه واحد ، فتكون مفتوحة بمعنى الخفض فى مذهب بعض أهل العربية ، وبمعنى النصب فى مذهب بعضهم ، والشهادة عاملة فى أن الثانية ، كأنك قلت : شهد الله أن الدين عند الله الإسلام ، لأنه واحد ، ثم تقدم لأنه واحد ، فتفتحها على ذلك التأويل .

والوجه الثانى : أن تكون أن الأولى مكسورة بمعنى الابتداء ، لأنها معترض بها ، والشهادة واقعة على أن الثانية ، فيكون معنى الكلام : شهد الله فإنه لا إله إلا هو والملائكة ، أن الدين عند الله الإسلام ، كقول القائل : أشهد ، فإنى محقّ ، أنك مما تعاب به برىء ؛ فإن الأولى مكسورة لأنها معترضة ، والشهادة واقعة على إن الثانية

وأما قوله (قائماً بالْقِسْطِ) : فإنه بمعنى أنه الذى يلى العدل بين خلقه ، والقسط : هو العدل ، من قولهم : هو مُقْسِط ، وقد أقسط : إذا عدل ، ونصب قائما على القطع .

وكان بعض نحويى أهل البصرة يزعم أنه حال من هو التى فى : لا إله إلا هو .

وكان بعض نحويى الكوفة يزعم أنه حال من اسم الله الذى مع قوله (شَهِدَ اللهُ) فكان معناه : شهد الله القائم بالقسط أنه لا إله إلا هو ، وقد ذكر أنها فى قراءة ابن مسعود كذلك : وأولو العلم القائم بالقسط ، ثم حذفت الألف واللام من القائم ، فصار نكرة وهو نعت لمعرفة ، فنصب .

وأولى القولين بالصواب فى ذلك عندى : قول من جعله قطعا ، على أنه من نعت الله جلّ ثناؤه ، لأن الملائكة وأولى العلم معطوفون عليه ، فكذلك الصحيح أن يكون قوله قائما حالا منه .

وأما تأويل قوله (لا إلَهَ إلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ) فإنه نفى أن يكون شىء يستحقّ العبودة غير الواحد الذى لا شريك له فى ملكه ، ويعنى بالعزيز : الذى لا يمتنع عليه شىء أراده ، ولا ينتصر منه أحد عاقبه أو انتقم منه ، الحكيم فى تدبيره ، فلا يدخله خلل .

وإنما عنى جلّ ثناؤه بهذه الآية نفى ما أضافت النصارى الذين حاجّوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عيسى من البنوّة ، وما نسب إليه سائر أهل الشرك : من أن له شريكا ، واتخاذهم دونه أربابا ، فأخبرهم الله عن نفسه ، أنه الخالق كلّ ما سواه ، وأنه ربّ كل ما اتخذه كل كافر وكل مشرك ربا دونه ، وأن ذلك مما يشهد به هو وملائكته وأهل العلم به من خلقه ، فبدأ جل ثناؤه بنفسه تعظيما لنفسه ، وتنزيها لها عما نَسَبَ الذين ذكرنا أمرهم من أهل الشرك به ما نسبوا إليها ، كما سنّ لعباده أن يبدءوا فى أمورهم بذكره قبل ذكر غير ، مؤدّبا خلقه بذلك .

والمراد من الكلام : الخبر عن شهادة من ارتضاهم من خلقه فقدموه ، من ملائكته وعلماء عباده ، فأعلمهم أن ملائكته التى يعظمها العابدون غيره من أهل الشرك ويعبدها الكثير منهم ، وأهل العلم منهم

منكرون ما هم عليه مقيمون، من كفرهم، وقولهم فى عيسى، وقول من اتخذ ربا غيره من سائر الخلق، فقال: شهدت الملائكة وأولو العلم، أنه لا إله إلا هو، وأن كل من اتخذ ربا دون الله فهو كاذب، احتجاجا منه لنبيه عليه السلام على الذين حاجُّوه من وفد نجران فى عيسى، واعترض بذكر الله وصفته على ما نبينه، كما قال جلّ ثناؤه (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ) افتتاحا باسمه الكلام، فكذلك افتتح باسمه، والثناء على نفسه الشهادة بما وصفنا من نفى الألوهة عن غيره، وتكذيب أهل الشرك به. فأما ما قال الذى وصفنا قوله: من أنه عنى بقوله شهد: قضى، فمما لا يعرف فى لغة العرب ولا العجم، لأن الشهادة معنى، والقضاء غيرها.

وبنحو الذى قلنا فى ذلك، رُوى عن بعض المتقدمين القول فى ذلك.

حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ) بخلاف ما قالوا، يعنى: بخلاف ما قال وفد نجران من النصارى (قَائِمًا بِالْقِسْطِ): أى بالعدل.

حدثنى المثنى، قال: ثنا أبو حذيفة، قال: ثنا شبل، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد (بِالْقِسْطِ): بالعدل.

القول فى تأويل قوله

إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ، وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٩)

ومعنى الدِّين فى هذا الموضع: الطاعة والذِّلَّةُ، من قول الشاعر:

وَيَوْمَ الحَزْنِ إِذْ حَشَدَتْ مَعَدٌّ　　وَكَانَ النَّاسُ إِلَّا نَحْنُ دِينَا[1]

يعنى بذلك: مطيعين على وجه الذل؛ ومنه قول القُطامىّ:

كَانَتْ نَوَارُ تَدِينُكَ الْأَدْيَانَ[2]

يعنى تذلك؛ وقول الأعشى ميمون بن قيس:

هُوَ دَانَ الرِّبَابَ إِذْ كَرِهُوا الدِّيـنَ دِرَاكًا بِغَزْوَةٍ وَصِيَالِ[3]

(١) لم أعثر على قائل هذا البيت فى المراجع التى تحت يدى. وفى اللسان: (دين) وقوم دين، أى دائنون. وقال: وكان الناس إلا نحن دينا. ولم ينسبه. يريد كان الناس خاضعين غيرنا فى يوم الحزن.

(٢) هذا عجز بيت من الكامل للقطامى عمير بن شييم (ديوانه طبعة ليدن سنة ١٩٠٢، ص ١٥) ورواية البيت كاملا فيه:

رَمَتِ الْمَقَاتِلَ مِنْ فُؤَادِكَ بَعْدَمَا　　كَانَتْ جَنُوبُ تَدِينُكَ الْأَدْيَانَا

ويروى: كانت ظلوم.

قال شارحه: أى تفعل بك الأفعال، ويقال: تستعبدك. أو أنها كانت تعذبك.

(٣) سبق الكلام على بيت الأعشى هذا فى الجزء الثانى ص١٩٤؛ والرباب بكسر الراء: اسم لخمس قبائل: ضبة، وثيم، وعدى، وثور، وعكل، أولاد طابخة بن إلياس بن مضر. والدين: الطاعة.

يعنى بقوله دان: ذَلَّ، وبقوله: كرهوا الدِّين: الطاعة، وكذلك الإسلام، وهو الانقياد بالتذلل والخشوع، والفعل منه أسلم، بمعنى: دخل فى السِّلْم، كما يقال أقحط القوم: إذا دخلوا فى القحط، وأربعوا: إذا دخلوا فى الربيع، فكذلك أسلموا: إذا دخلوا فى السلم، وهو الانقياد بالخضوع وترك الممانعة.

فإذ كان ذلك كذلك، فتأويل قوله (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ) إن الطاعة التى هى الطاعة عنده: الطاعة له، وإقرار الألسن والقلوب له بالعبودية والذلة، وانقيادها له بالطاعة فيما أمر ونهى، وتذللها له بذلك، من غير استكبار عليه، ولا انحراف عنه، دون إشراك غيره من خلقه معه فى العبودية والألوهية.

وبنحو ما قلنا فى ذلك قال جماعة من أهل التأويل.

ذكر من قال ذلك:

حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ)، والإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله، والإقرار بما جاء به من عند الله، وهو دين الله الذى شرع لنفسه، وبعث به رسله، ودلّ عليه أولياءه، لايقبل غيره، ولا يجزى إلا به.

حدثنى المثنى، قال: ثنا إسحاق، قال: ثنا ابن أبى جعفر، عن أبيه، عن الربيع، قال: ثنا أبو العالية، فى قوله (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ) قال: الإسلام: الإخلاص لله وحده، وعبادته لاشريك له، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وسائر الفرائض لهذا تبَع.

حدثنى يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد فى قوله: أسلمنا، قال: دخلنا فى السلم، وتركنا الحرب.

حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير: إن الدين عند الله الإسلام: أى ما أنت عليه يا محمد من التوحيد للربّ والتصديق للرسل.

القول فى تأويل قوله (وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ)

يعنى بذلك جل ثناؤه: وما اختلف الذين أوتوا الإنجيل، وهو الكتاب الذى ذكره الله فى هذه الآية، فى أمر عيسى، وافترائهم على الله فيما قالوه فيه من الأقوال التى كثُر بها اختلافهم بينهم، وتشتّتت بها كلمتهم، وباين بها بعضهم بعضا، حتى استحلّ بها بعضهم دماء بعض، إلا من بعد ما جاءهم العلم، بغيا بينهم، يعنى: إلا من بعد ما علموا الحقّ فيما اختلفوا فيه من أمره، وأيقنوا أنهم فيما يقولون فيه من عظيم الفرية مبطلون، فأخبر الله عباده: أنهم أتوا ما أتوا من الباطل، وقالوا ما قالوا من القول الذى هو كفر بالله، على علم منهم بخطأ ما قالوه، وأنهم لم يقولوا ذلك جهلا منهم بخطئه، ولكنهم قالوه واختلفوا فيه الاختلاف الذى هم عليه، تعدّيا من بعضهم على بعض، وطلب الرياسات والملك والسلطان.

كما حدثنى المثنى، قال: ثنا إسحاق، قال: ثنا ابن أبى جعفر، عن أبيه، عن الربيع، فى قوله (وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ العِلْمُ، بَغْياً بَيْنَهُمْ) قال: قال أبو العالية

إلا من بعد ما جاءهم الكتاب والعلم بغيا بينهم ، يقول : بغيا على الدنيا، وطلب ملكها وسلطانها ، فقتل بعضهم بعضا على الدنيا ، من بعد ما كانوا علماء الناس .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ،عن الربيع ، عن ابن عمر أنه كان يكثر تلاوة هذه الآية (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإسلام ، وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ماجاءَهُمُ العِلْمُ ، بَغْياً بَيْنَهُمْ) يقول : بغيا على الدنيا ، وطلب ملكها وسلطانها من قِبَلها، والله ما[1] أُتينا ماكان علينا من يكون، بعد أن يأخذ فينا كتاب الله وسنة نبيه، ولكنا أُتينا من قِبَلها.

حدثنى المثنى ، قال: ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قال : إن موسى لما حضره الموت دعا سبعين حبرا من أحبار بنى إسرائيل، فاستودعهم التوراة ، وجعلهم أمناء عليه ، كل حبر جزءا منه ،واستخلف موسى يوشع بن نون؛ فلما مضى القرن الأول ،ومضى الثانى، ومضى الثالث، وقعت الفرقة بينهم ،وهم الذين أوتوا العلم من أبناء أولئك السبعين ، حتى أهراقوا بينهم الدماء ، ووقع الشرّ والاختلاف ، وكان ذلك كله من قبل الذين أوتوا العلم بغيا بينهم على الدنيا ، طلبا لسلطانها وملكها وخزائنها وزخرفها ، فسلط الله عليهم جبابرتهم ، فقال الله (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ) إلى قوله (وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ) يقول الربيع بن أنس : هذا يدلّ على أنه كان عنده أنه معنىّ بقوله (وَما اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ) اليهود من بنى إسرائيل ، دون النصارى منهم ومن غيرهم ، وكان غيره يوجه ذلك إلى أن المعنىّ به النصارى الذين أوتوا الإنجيل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن حميد ، قال :ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير (وَما اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الكتابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ العِلْمُ) الذى جاءك ، أى أن الله الواحد الذى ليس له شريك . (بَغْياً بَيْنَهُمْ) يعنى بذلك : النصارى .

القول فى تأويل قوله (وَمَنْ يَكْفُرْ بِآياتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحساب) :

يعنى بذلك: ومن يجحدحُجج الله وأعلامه التى نصبها ذكرى لمن عقل، وأدلة لمن اعتبر وتذكر، فإن الله محص عليه أعماله التى كان يعملها فى الدنيا ، فمجازيه بها فى الآخرة ، فإنه جلّ ثناؤه سريع الحساب ، يعنى :سريع الإحصاء . وإنما معنى ذلك :أنه حافظ على كل عامل عمله،لاحاجة به إلى عقد، كما يعقده خلقه بأكفهم ،أويعونه بقلوبهم ،ولكنه يحفظ ذلك عليهم بغيركلفة ولامئونة، ولامعاناة لما يعانيه غيره من الحسّاب.

وبنحو الذى قلنا فى معنى (سَرِيعُ الحِسابِ) كان مجاهد يقول .

حدثنى محمد بن عمرو ،قال: ثنا أبو عاصم ،عن عيسى ،عن ابن أبى نجيح،عن مجاهد، فى قول الله عزّ وجلّ (وَمَنْ يَكْفُرْ بِآياتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسابِ) قال : إحصاؤه عليهم .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح عن مجاهد (وَمَنْ يَكْفُرْ بِآياتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسابِ) : إحصاؤه .

(١) « ما » : ساقطة من الأصل .

القول فى تأويل قوله

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ، وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ، فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٢٠)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : فإن حاجّك يا محمد النفر من نصارى أهل نجران فى أمر عيسى صلوات الله عليه ، فخاصموك فيه بالباطل ، فقل : انقدت لله وحده ، بلسانى وقلبى وجميع جوارحى . وإنما خصّ جلّ ذكره بأمره بأن يقول : أسلمت وجهى لله ، لأن الوجه أكرم جوارح ابن آدم عليه ، وفيه بهاؤه وتعظيمه ، فإذا خضع وجهه لشىء ، فقد خضع له الذى هو دونه فى الكرامة عليه من جوارح بدنه . وأما قوله (وَمَنِ اتَّبَعَنِ) فإنه يعنى : وأسلم من اتبعنى أيضا وجهه لله معى ، ومن معطوف بها على التاء فى أسلمت .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير (فَإِنْ حَاجُّوكَ) : أى بما يأتونك به من الباطل من قولهم : خلقنا ، وفعلنا ، وجعلنا ، وأمرنا ، فإنما هى شبهة باطلة ، قد عرفوا ما فيها من الحقّ ، فقل : أسلمت وجهى لله ومن اتبعنى .

القول فى تأويل قوله (وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ والأُمِّيِّينَ أأَسْلَمْتُمْ ، فإنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا) :

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : وقل يا محمد للذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى ، والأميين الذين لاكتاب لهم من مشركى العرب : أأسلمتم ؟ يقول : قل لهم : هل أفردتم التوحيد ، وأخلصتم العبادة والألوهة لربّ العالمين ، دون سائر الأنداد والأشراك التى تشركونها معه فى عبادتكم إياهم ، وإقراركم بربوبيتهم ، وأنتم تعلمون أنه لاربّ غيره ، ولا إله سواه ؟ فإن أسلموا : يقول : فان انقادوا لإفراد الوحدانية لله ، وإخلاص العبادة والألوهة له ، فقد اهتدوا ، يعنى : فقد أصابوا سبيل الحقّ ، وسلكوا محجة الرشد .

فإن قال قائل : وكيف قيل : فإن أسلموا فقد اهتدوا عقيب الاستفهام ، وهل يجوز على هذا فى الكلام أن يقال لرجل : هل تقوم ؟ فإن تقم أكرمك ؟ . قيل : ذلك جائز إذا كان الكلام مرادا به الأمر ، وإن خرج مخرج الاستفهام ، كما قال جلّ ثناؤه (وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) ؟ يعنى انتهوا . وكما قال جل ثناؤه مخبرا عن الحواريين أنهم قالوا لعيسى : (ياعيسى بنَ مَرْيَمَ هل يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ) ، وإنما هو مسئلة ، كما يقول الرجل : هل أنت كافٌّ عنا ، بمعنى : اكفف عنا ، وكما يقول الرجل للرجل : أين أين ؟ بمعنى : أقم فلا تبرح ، ولذلك جوزى فى الاستفهام كما جوزى فى الأمر فى قراءة عبد الله (هَلْ أَدُلُّكُمْ على تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أليمٍ ؟ آمِنُوا) ففسرها بالأمر ، وهى فى قراءتنا على الخبر ، فالمجازاة فى قراءتنا على قوله (هَلْ أَدُلُّكُمْ) وفى قراءة عبد الله على قوله (آمِنُوا) على الأمر ، لأنه هو التفسير .

وبنحو معنى ما قلنا فى ذلك قال بعض أهل التأويل .

حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، عن محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير: (وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ ، والأُمِّيِّينَ) الذين لا كتاب لهم: (أأسلمتم؟ فإنْ أسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا) ... الآية .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس (وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ) قال : الأميون : الذين لا يكتبون .

القول فى تأويل قوله (وإن تَوَلَّوْا فإنَّما عَلَيْكَ البَلاغُ ، وَاللهُ بَصِيرٌ بالعِبادِ) :

يعنى جلّ ثناؤه بقوله (وَإنْ تَوَلَّوْا) وإن أدبروا معرضين عما تدعوهم إليه من الإسلام ، وإخلاص التوحيد لله ربّ العالمين ، فإنما أنت رسول مبلغ ، وليس عليك غير إبلاغ الرسالة إلى من أرسلتك إليه من خلقى ، وأداء ما كلفتك من طاعتى . (وَاللهُ بَصِيرٌ بالعبادِ) : يعنى بذلك ، والله ذو علم بمن يقبل من عباده ما أرسلتك به إليه ، فيطيعك بالإسلام ، وبمن يتولى منهم عنه معرضا ، فيردّ عليك ما أرسلتك به إليه ، فيعصيك بإبائه الإسلام .

القول فى تأويل قوله

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ ، فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٢)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه (إنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بآياتِ اللهِ) أى يجحدون حُجَج الله وأعلامه ، فيكذّبون بها من أهل الكتابين : التوراة ، والإنجيل .

كما حدثنى ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير ، قال : ثم جمع أهل الكتابين جميعا ، وذكر ما أحدثوا وابتدعوا من اليهود والنصارى ، فقال (إنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بآياتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ) إلى قوله (قُلِ اللَّهُمَّ مالكَ المُلْكِ ، تُؤْتى المُلْكَ مَنْ تَشاءُ) وأما قوله (وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ) : فإنه يعنى بذلك أنهم كانوا يقتلون رُسُل الله الذين كانوا يرسلون إليهم ، بالنهى عما يأتون من معاصى الله ، وركوب ما كانوا يركبونه من الأمور التى قد تقدّم الله إليهم فى كتبهم بالزجر عنها ، نحو زكريا وابنه يحيى وما أشبههما من أنبياء الله .

القول فى تأويل قوله (وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بالقِسْطِ مِنَ النَّاسِ) :

اختلفت القرّاء فى قراءة ذلك ، فقرأه عامة أهل المدينة والحجاز والبصرة والكوفة وسائر قرّاء الأمصار (وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بالقِسْطِ) بمعنى القتل ، وقرأه بعض المتأخرين من قرّاء الكوفة : ويقاتلون ، بمعنى القتال ، تأوّلا منه قراءة عبد الله بن مسعود ، وادّعى أن ذلك فى مصحف عبد الله : وقاتلوا ، فقرأ الذى وصفنا أمره من القراءة بذلك التأويل : ويقاتلون .

والصواب من القراءة فى ذلك عندنا: قراءة من قرأه: (وَيَقْتُلُونَ) لإجماع الحجة من القراء عليه به، مع مجيء التأويل من أهل التأويل بأن ذلك تأويله .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن معقل بن أبى مسكين؛ فى قول الله (وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ) قال : كان الوحى يأتى إلى[1] بنى إسرائيل، فيذكرون ، ولم يكن يأتيهم كتاب ، فيُقتلون، فيقوم رجال ممن اتبعهم وصدّقهم ، فيذكّرون قومهم ، فيُقتلون ، فهم الذين يأمرون بالقسط من الناس .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن قتادة فى قوله (ويقتلون النبيين بغير حقٍّ ، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس) قال: هؤلاء أهل الكتاب، كان أتباع الأنبياء ينهونهم ويذكّرونهم ، فيقتلونهم .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، قال : قال ابن جريج فى قوله (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ، وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ) قال: كان ناس من بنى إسرائيل ممن لم يقرأ الكتاب، كان الوحى يأتى إليهم ، فيذكّرون قومهم ، فيُقتلون على ذلك ، فهم الذين يأمرون بالقسط من الناس .

حدثنى أبو عبيد الوصّافى محمد بن جعفر ، قال : ثنا ابن حميد ، قال : ثنا أبو الحسن مولى بنى أسد ، عن مكحول ، عن قبيصة بن ذُؤيب الخزاعىّ ، عن أبى عبيدة بن الجراح ، قال: قلت يا رسول الله ، أىّ الناس أشدّ عذابا يوم القيامة ؟ قال : « رَجُلٌ قَتَلَ نَبِيًّا ، أَوْ رَجُلٌ أَمَرَ بِالْمُنْكَرِ وَنَهَى عَنِ الْمَعْرُوفِ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الَّذِينَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ[2] وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ)، إلى أن انتهى إلى: (وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ). ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أبا عُبَيْدَةَ ،قَتَلَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ ثَلَاثَةً وَأَرْبَعِينَ نَبِيًّا مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ، فِى سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَقَامَ مِائَةُ رَجُلٍ وَاثْنَا عَشَرَ رَجُلًا مِنْ عُبَّادِ بَنِى إِسْرَائِيلَ ، فَأَمَرُوا مَنْ قَتَلَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهَوْهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَقُتِلُوا جَمِيعا مِنْ آخِرِ النَّهَارِ فِى ذَلِكَ الْيَوْمِ ، وَهُمُ الَّذِينَ ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ » .

فتأويل الآية إذن : إن الذين يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير حقٍّ ، ويقتلون آمريهم بالعدل فى أمر الله ونهيه ، الذين ينهونهم عن قتل أنبياء الله وركوب معاصيه .

القول فى تأويل قوله (فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) :

(١) « إلى » : ساقطة من الدر المنثور (٢ : ١٣) .

(٢) كذا فى النسخ وفى الدر المنثور أيضا ، والتلاوة « إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون الخ » .

يعنى بقوله جلّ ثناؤه (فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) : فأخبرهم يا محمد ، وأعلمهم أن لهم عند الله عذابا مؤلما لهم ، وهو الموجع .

وأما قوله (أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ) فإنه يعنى بقوله (أُولَئِكَ) : الذين يكفرون بآيات الله ، ومعنى ذلك : إن الذين ذكرناهم ، هم الذين حبطت أعمالهم ، يعنى بطلت أعمالهم فى الدنيا والآخرة . فأما قوله (فِي الدُّنْيَا) : فلم ينالوا بها محمدة ولا ثناء من الناس، لأنهم كانوا على ضلال وباطل ، ولم يرفع الله لهم بها ذكرا ، بل لعنهم وهتك أستارهم ، وأبدى ما كانوا يُخفون من قبائح أعمالهم ، على ألسن أنبيائه ورسله فى كتبه التى أنزلها عليهم،فأبقى لهم ما بقيت الدنيا مَذَمّة، فذلك حبوطها فى الدنيا . وأما فى الآخرة ، فإنه أعدّ لهم فيها من العقاب ما وصف فى كتابه ، وأعلم عباده أن أعمالهم تصير بُورا لاثواب لها ، لأنها كانت كفرا بالله ، فجزاء أهلها الخلود فى الجحيم .

وأما قوله (وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) فإنه يعنى : وما لهؤلاء القوم من ناصر ينصرهم من الله،إذا هو انتقم منهم بما سلف من إجرامهم واجترائهم عليه ، فيستنقذهم منه .

القول فى تأويل قوله

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : ألم تر يا محمد إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب ، يقول : الذين أُعطوا حظا من الكتاب ، يُدعون إلى كتاب الله .

واختلف أهل التأويل فى الكتاب الذى عنى الله بقوله (يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ) فقال بعضهم : هو التوراة، دعاهم إلى الرضا بما فيها ، إذ كانت الفرق المنتحلة الكتب تقرّ بها وبما فيها ، أنها كانت أحكام الله قبل أن ينسخ منها ما نسخ .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا يونس ، قال : ثنا محمد بن إسحاق ، قال : ثنى محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، قال : ثنى سعيد بن جبير وعكرمة ، عن ابن عباس ، قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت المدراس على جماعة من يهود ، فدعاهم إلى الله ، فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد : على أىّ دين أنت يا محمد ؟ فقال : على ملة إبراهيم ودينه ، فقالا : فإن إبراهيم كان يهوديا ، فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم: فَهَلُمُّوا إلى التَّوْرَاةِ ، فَهِيَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، فأبوا عليه ، فأنزل الله عزّ وجل (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ) . . . إلى قوله (مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن محمد بن إسحاق ، عن محمد بن أبى محمد مولى آل زيد ، عن

سعيد بن جبير أو عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت المِدراس ، فذكر نحوه ، إلا أنه قال : فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فَهَلُمَّا إلى التَّوْرَاةِ » ، وقال أيضا : فأنزل الله فيهما (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ)،وسائر الحديث مثل حديث أبي كريب .

وقال بعضهم: بل ذلك كتاب الله الذى أنزله على محمد،وإنما دعيت طائفة منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحكم بينهم بالحقّ ، فأبت .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال: ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة، قوله (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ) أولئك أعداء الله اليهود ، دُعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم ، وإلى نبيه ليحكم بينهم ، وهم يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ، ثم تولَّوا عنه وهم معرضون .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن قتادة (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ) . . . الآية ، قال: هم اليهود ، دُعوا إلى كتاب الله وإلى نبيه، وهم يجدونه مكتوبا عندهم ، ثم يتولون وهم معرضون .

حدثنا القاسم ، قال: ثنا الحسين ، قال : ثنى حجّاج ، عن ابن جريج قوله (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ) قال : كان أهل الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم بالحقّ يكون،وفى الحدود ، وكان النبىّ صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلى الإسلام ، فيتولّون عن ذلك .

وأولى الأقوال فى تأويل ذلك عندى بالصواب: أن يقال : إن الله جل ثناؤه أخبر عن طائفة من اليهود الذين كانوا بين ظَهْرَانَىْ مهاجَر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عهده، ممن قد أوتى علما بالتوراة: أنهم دُعوا إلى كتاب الله الذى كانوا يقرّون أنه من عند الله ، وهو التوراة فى بعض ما تنازعوا فيه هم ورسول الله صلى الله عليه وسلم،وقد يجوز أن يكون تنازعهم الذى كانوا تنازعوا فيه،ثم دُعوا إلى حكم التوراة فيه، فامتنعوا من الإجابة إليه،كان أمرَ محمد صلى الله عليه وسلم، وأمر نبوته. ويجوز أن يكون ذلك كان أمر إبراهيم خليل الرحمن ودينه.ويجوز أن يكون ذلك مادعوا إليه من أمر الإسلام، والإقرار به . ويجوز أن يكون ذلك كان فى حدّ . فإن كل ذلك مما قد كانوا نازعوا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعاهم فيه إلى حكم التوراة ، فأبى الإجابة فيه ، وكتمه بعضهم ، ولا دلالة فى الآية على أن ذلك كان ممن أبى ، فيجوز أن يقال : هو هذا دون هذا ، ولا حاجة بنا إلى معرفة ذلك ، لأن المعنى الذى دعوا إليه جملته،هو مما كان فرضا عليهم الإجابة إليه فى دينهم ، فامتنعوا منه ، فأخبر الله جل ثناؤه عنهم بردّتهم ، وتكذيبهم بما فى كتابهم

وجحودهم ، ما قد أخذ عليهم عهودهم ومواثيقهم بإقامته والعمل به ، فلن يَعْدُوا أن يكونوا فى تكذيبهم محمدا وما جاء به من الحقّ ، مِثلَهم فى تكذيبهم موسى وما جاء به ، وهم يتولونه ويقرّون به .

ومعنى قوله (ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ) : ثم يستدبر عن كتاب الله الذى دعا إلى حكمه معرضا عنه منصرفا ، وهو بحقيقته وحجته عالم .

وإنما قلنا : إن ذلك الكتاب هو التوراة ، لأنهم كانوا بالقرآن مكذّبين ، وبالتوراة بزعمهم مصدّقين . فكانت الحجة عليهم بتكذيبهم بما هم به فى زعمهم مقرّون ، أبلغ ، وللعذر أقطع .

القول فى تأويل قوله

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤)

يعنى جل ثناؤه بقوله (بِأَنَّهُمْ قَالُوا) بأن هؤلاء الذين دعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم بالحقّ فيما نازعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنما أبوا الإجابة فى حكم التوراة ، وما فيها من الحقّ ، من أجل قولهم : (لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ) وهى أربعون يوما ، وهنّ الأيام التى عبدوا فيها العجل ، ثم يخرجنا منها ربنا ، اغترارا منهم بما كانوا يفترون ، يعنى بما كانوا يختلقون من الأكاذيب والأباطيل ، فى ادّعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأن الله قد وعد أباهم يعقوب أن لا يُدْخِل أحدا من ولده النار إلا تَحِلَّةَ القسم ، فأكذبهم الله على ذلك كله من أقوالهم ، وأخبر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أنهم هم أهل النار ، هم فيها خالدون ، دون المؤمنين بالله ورسله ، وما جاءوا به من عنده .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ) قالوا : لن تمسنا النار إلا تحلة القسم التى نصبنا فيها العجل ، ثم ينقطع القَسَم والعذاب عنا ، قال الله عزّ وجلّ (وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِمْ ما كَانُوا يَفْتَرُونَ) أى قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع فى قوله (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ) . . . الآية ، قال : قالوا : لن نعذّب فى النار إلا أربعين يوما ، قال : يعنى اليهود . قال : وقال قتادة مثله ، وقال : هى الأيام التى نصبوا فيها العجل يقول الله عزّ وجلّ (وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِمْ ما كَانُوا يَفْتَرُونَ) حين قالوا (نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ) .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، قال : قال ابن جريج : قال مجاهد ، قوله : (وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِمْ ما كَانُوا يَفْتَرُونَ) قال : غرّهم قولهم (لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ) .

القول فى تأويل قوله

فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ، وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٥)

يعنى بقوله جلّ ثناؤه (فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ)فأىّ حال يكون حال هؤلاء القوم الذين قالوا هذا القول ، وفعلوا مافعلوا ، من إعراضهم عن كتاب الله ، واغترارهم بربهم ، وافترائهم الكذب . وذلك من الله عزّ وجلّ وعيد لهم شديد ، وتهديد غليظ . وإنما يعنى بقوله (فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ) . . . الآية : فما أعظم مايلقون من عقوبة الله وتنكيله بهم إذا جمعهم ليوم يوفَّى كل عامل جزاء عمله على قدر استحقاقه ، غير مظلوم فيه ، لأنه لا يعاقب فيه إلا على ما اجترم ، ولايؤاخذ إلا بما عمل ، يجزى المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته ، لايخاف أحد من خلقه يومئذ ظلما ولا هضما .

فإن قال قائل : وكيف قيل (فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَارَيْبَ فِيهِ) ولم يقل : فى يوم لاريب فيه ؟ قيل : لمخالفة معنى اللام فى هذا الموضع معنى فى ، وذلك أنه لو كان مكان اللام «فى» لكان معنى الكلام : فكيف إذا جمعناهم فى يوم القيامة ماذا يكون لهم من العذاب والعقاب ؟ وليس ذلك المعنى فى دخول اللام ، ولكن معناه مع اللام ، فكيف إذا جمعناهم لما يحدث فى يوم لاريب فيه ، ولما يكون فى ذلك اليوم من فصل الله القضاءَ بين خلقه ، ماذا لهم حينئذ من العقاب ، وأليم العذاب ؟ فمع اللام فى (لِيَوْمٍ لَارَيْبَ فِيهِ) نية فعل وخبر مطلوب ، وقد ترك ذكره أخيرا بدلالة دخول اللام فى اليوم عليه منه ، وليس ذلك مع «فى» ، فلذلك اختيرت اللام ، فأدخلت فى « ليوم » دون «فى» .

وأما تأويل قوله (لَارَيْبَ فِيهِ) فإنه لاشكّ فى مجيئه ، وقد دللنا على أنه كذلك بالأدلة الكافية ، مع ذكر من قال ذلك فى تأويله ، فيما مضى ، بما أغنى عن إعادته . وعنى بقوله (وَوُفِّيَتْ) : ووفى الله (كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ) يعنى ما عملت من خير وشرّ (وَهُمْ لَايُظْلَمُونَ) ، يعنى أنه لايبخس المحسن جزاء إحسانه ، ولا يعاقب مسيئا بغير جرمه .

القول فى تأويل قوله

قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ، تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ، وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ، وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ ، وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ، بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ، إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)

أما تأويل قوله (قُلِ اللَّهُمَّ) فإنه قل : يا محمد : يا ألله .

واختلف أهل العربية فى نصب ميم (اللَّهُمَّ) وهو منادى ، وحكم المنادى المفرد غير المضاف الرفع ، وفى دخول الميم فيه ، وهو فى الأصل الله بغير ميم ، فقال بعضهم : إنما زيدت فيه الميمان لأنه لاينادى بيا ، كما ينادى الأسماء التى لاألف فيها ، وذلك أن الأسماء التى لاألف ولالام فيها تنادى بيا ، كقول القائل : يازيد وياعمرو ،

قال : فجعلت الميم فيه خلَفا من يا ، كما قالوا : فم ودم[1] وهم وزُرْقُم وسُتْهُم ، وما أشبه ذلك من الأسماء والنعوت التى يحذف منها الحرف ، ثم يبدل مكانه ميم ، قال : فكذلك حذفت من اللهم يا التى يُنادى بها الأسماء التى على ماوصفنا ، وجعلت الميم خلفا منها فى آخر الاسم ، وأنكر ذلك من قولهم آخرون ، وقالوا : قد سمعنا العرب تنادى : اللهمّ بيا ، كما تناديه ولا ميم فيه ، قالوا : فلو كان الذى قال هذا القول مصيبا فى دعواه ، لم تدخله العرب يا ، وقد جاءوا بالخلف منها ؛ وأنشدوا فى ذلك سماعا من العرب :

وَما عَلَيْكِ أنْ تَقُولى كُلَّما صَلَّيْتِ أوْ كَبَّرْتِ يا اللَّهُمَّ مَا
ارْدُدْ إلينا شَيْخَنا مُسَلَّما[2]

ويروى : «سبحت أو كبرت» ، قالوا : ولم نر العرب زادت مثل هذه الميم إلا مخففة فى نواقص الأسماء مثل فم ودم وهم[1] . قالوا : ونحن نرى أنها كلمة ضمّ إليها أم ، بمعنى يا الله أمنا بخير ، فكثرت فى الكلام ، فاختلطت به ، قالوا : فالضمة التى فى الهاء من همزة أم لما تركت انتقلت إلى ما قبلها ، قالوا : ونرى أن قول العرب : هلمّ إلينا مثلها ، إنما كان هلمّ «هل» ، ضمّ إليها «أمّ» فتركت على نصبها ؛ قالوا : ومن العرب من يقول : إذا طرح الميم يا ألله اغفر لى ، ويا الله اغفر لى ، بهمز الألف من الله مرّة ، ووصلها أخرى ، فمن حذفها أجراها على أصلها ، لأنها ألف ولام ، مثل الألف واللام اللتين يدخلان فى الأسماء المعارف زائدتين ، ومن همزها توهم أنها من الحرف ، إذ كانت لاتسقط منه ، وأنشدوا فى همز الألف منها :

مُبارَكٌ هُوَّ وَمَنْ سَمَّاهُ على اسمكَ اللَّهُمَّ يا أللهُ[3]

قالوا : وقد كثرت اللهمّ فى الكلام حتى خففت ميمها فى بعض اللغات ، وأنشدوا :

كحَلْفَةٍ مِنْ أبى رِياحٍ يَسْمَعُها لاهُمَ الكُبارُ[4]

---

(١) قوله «ودم» كذا فى النسخ . والكلمتان : دم وهم لعلهما محرفتان عن ابنم ودلهم أودلقم من الكلمات التى زيدت فى آخرها الميم ، وقد ذكرها السيوطى فى المزهر (٢ : ١٣٥) .

(٢) أورد البغدادى فى الخزانة الأبيات الثلاثة فى شواهد النداء ، وفيها «سجدت أوصليت» فى مكان : «صليت أو كبرت» ، وقال : هذا الرجز مما لايعرف قائله . والشاعر يخاطب أنثى . لعلها زوجه أو ابنته ، يطلب منها أن تدعو له إذا سافر وغاب ، فى أوقات الدعوات ، ومظان القبول .

(والهم ما) : كذا روى فى الخزانة بثلاث ميمات . وفى اللسان : (يا ألهما) بميم واحدة مخففة . وبقطع همزة (الله) . وقال قال الفراء : إن ياقد يقال مع اللهم ، فيقال (يا ألهم) واستشهد بشعر لا يكون مثله حجة . قال أبو إسحاق : وقال الخليل وسيبويه وجميع النحويين الموثوق بعلمهم : اللهم : بمعنى يا ألله ، وإن الميم المشددة : عوض من (يا) .

(٣) البيت أنشده صاحب اللسان فى (أله) ولم ينسبه . واستشهد به على أن لفظ الجلالة (الله) إذا دخلت عليه يا للنداء ، فمن العرب من يحذف الهمزة ، ومنهم من يحققها .

(٤) البيت فى ديوان الأعشى طبع القاهرة ص ٢٨٣ ، وأبو رياح بكسر الراء وبالياء : رجل من بنى ضبيعة قتل جارا لبنى سعد بن ثعلبة ، فسألوه أن يديه ، فحلف ألا يفعل ، ثم قتل بعد حلفته ، فبرت يمينه . يقول لهم : قد برت يمينكم حين أقسمتم منهمكين ألا نعطيكم إلا القتال ، كما برت يمين أبى رياح هذا . ولاهم : كذا روى فى (اللسان : أله) وفى الديوان : لاهه : أى إلهه . والكبار : الكبير العظيم وأنشده الفراء فى معانى القرآن : «يسمعه اللهم الكبار» . بتخفيف الميم من اللهم .

والرواة تنشد ذلك : يَسْمَعُها لاهُهُ الكُبارُ

وقد أنشده بعضهم : يَسْمَعُها اللهُ والكُبارُ

القول فى تأويل قوله (مالِكَ المُلْكِ ، تُؤْتِى المُلْكَ مَنْ تَشاءُ ، وتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ) :

يعنى بذلك : يا مالك الملك ، يا من له ملك الدنيا والآخرة خالصا دون غيره .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن محمد بن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير ، قوله (قُلِ اللّهُمَّ مالِكَ المُلْكِ) : أى ربَّ العباد المَلِك لايقضى فيهم غيرك . وأما قوله (تُؤْتِى المُلْكَ مَنْ تَشاءُ) فإنه يعنى : تعطى الملك من تشاء ، فتملِّكه وتسلِّطه على من تشاء ، وقوله (وتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ) أن تنزعه منه ، فترك ذكر أن تنزعه منه ، اكتفاء بدلالة قوله (وتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ) عليه ، كما يقال : خذ ما شئت ، وكن فيما شئت ، يراد : خذ ما شئت أن تأخذه ، وكن فيما شئت أن تكون فيه ، وكما قال جل ثناؤه (فِى أىِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ) يعنى : فى أىّ صورة شاء أن يركبك فيها ركبك . وقيل : إن هذه الآية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم جوابا لمسئلته ربَّه ، أن يجعل ملك فارس والروم لأمته .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة : وذكر لنا أن نبىّ الله صلى الله عليه وسلم سأل ربه جلّ ثناؤه أن يجعل له ملك فارس والروم فى أمته ، فأنزل الله عزّ وجلّ (قُلِ اللّهُمَّ مالِكَ المُلْكِ ، تُؤْتِى المُلْكَ مَنْ تَشاءُ) . . . إلى (إنَّكَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن قتادة ، قال : ذُكر لنا والله أعلم أن نبىّ الله صلى الله عليه وسلم سأل ربه عزّ وجلّ أن يجعل ملك فارس والروم فى أمته ، ثم ذكر مثله .

وروى عن مجاهد أنه كان يقول : معنى الملك فى هذا الموضع : النبوّة .

ذكر الرواية عنه بذلك :

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قوله (تُؤْتِى المُلْكَ مَنْ تَشاءُ ، وتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ) قال : النبوّة .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : مثله .

القول فى تأويل قوله (وتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ ، وتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ ، بِيَدِكَ الخَيْرُ ، إنَّكَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) :

يعنى جلّ ثناؤه : وتعزّ من تشاء بإعطائه الملك والسلطان ، وبسط القدرة له ، وتذلّ من تشاء ، بسلبك ملكه ، وتسليط عدوّ عليه (بِيَدِكَ الخَيْرُ) : أى كلّ ذلك بيدك وإليك ، لايقدر على ذلك أحد ، لأنك

على كل شىء قدير ، دون سائر خلقك ، ودون من اتخذه المشركون من أهل الكتاب والأميين من العرب إلها وربا يعبدونه من دونك ، كالمسيح والأنداد التى اتخذها الأميون ربا .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير قوله (تُؤْتِى المُلْكَ مَنْ تَشاءُ) . . . الآية ، أى إن ذلك بيدك لا إلى غيرك (إنَّكَ على كل شَىْءٍ قَدِيرٌ) : أى لايقدر على هذا غيرك بسلطانك وقدرتك .

القول فى تأويل قوله

تُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهارِ وَتُولِجُ النَّهارَ فِى اللَّيْلِ ، وَتُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ ، وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ ، وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧)

يعنى بقوله جلّ ثناؤه (تُولِجُ) تدخل ، يقال منه : قد وَلَجَ فلان منزله : إذا دخله ، فهو يلِجه ولْجا ووُلوجا ولِجَة ، وأولجته أنا : إذا أدخلته ؛ ويعنى بقوله (تُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهارِ) :تدخل مانقصت من ساعات الليل فى ساعات النهار ، فتزيد من نقصان هذا فى زيادة هذا (وَتُولِجُ النَّهارَ فِى اللَّيْلِ) : وتدخل ما نقصت من ساعات النهار فى ساعات الليل ، فتزيد فى ساعات الليل مانقصت من ساعات النهار .

كما حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (تُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهارِ ، وَتُولِجُ النَّهارَ فِى اللَّيْلِ) حتى يكون الليل خمس عشرة ساعة ، والنهار تسع ساعات ، وتدخل النهار فى الليل ، حتى يكون النهار خمس عشرة ساعة ، والليل تسع ساعات .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا حفص ، عن عمر ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : ما نقص من النهار يجعله فى الليل ، وما نقص من الليل يجعله فى النهار .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قول الله (تُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهارِ ، وتُولِجُ النَّهارَ فِى اللَّيْلِ) قال : ما ينقص من أحدهما يدخل فى الآخر ، متعاقبان ، أو يتعاقبان ، شكّ أبو عاصم ، ذلك من الساعات .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (تُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهارِ ، وَتُولِجُ النَّهارَ فِى اللَّيْلِ) ما ينقص من أحدهما فى الآخر ، يتعاقبان ذلك من الساعات .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، عن الحسن ، قوله (تُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهارِ ، وَتُولِجُ النَّهارَ فِى اللَّيْلِ) : نقصان الليل فى زيادة النهار ، ونقصان النهار فى زيادة الليل .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (تُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهارِ ، وَتُولِجُ النَّهارَ فِى اللَّيْلِ) قال : هو نقصان أحدهما فى الآخر .

حُدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن قتادة فى قوله (تُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهارِ وَتُولِجُ النَّهارَ فِى اللَّيْلِ) قال : يأخذ الليل من النهار ، ويأخذ النهار من الليل . يقول : نقصان الليل فى زيادة النهار ، ونقصان النهار فى زيادة الليل .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ ، قال : ثنا عبيد بن سلمان ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (تُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهارِ ، وَتُولِجُ النَّهارَ فِى اللَّيْلِ) يعنى أنه يأخذ أحدُهما من الآخر ، فيكون الليل أحيانا أطول من النهار ، والنهار أحيانا أطول من الليل .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (تُولِجُ اللَّيْلَ فى النَّهارِ ، وَتُولِجُ النَّهارَ فِى اللَّيْلِ) قال : هذا طويل ، وهذا قصير ، أخذ من هذا فأولجه فى هذا ، حتى صار هذا طويلا ، وهذا قصيرا .

القول فى تأويل قوله (وَتُخْرِجُ الحَىَّ مِنَ المَيِّتِ ، وَتُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَىِّ) :

اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك ، فقال بعضهم : تأويل ذلك : أنه يخرج الشىء الحىّ من النطفة الميتة ، ويخرج النطفة الميتة من الشىء الحىّ .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى أبو السائب ، قال : ثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن عبد الله ، فى قوله (تُخْرِجُ الحَىَّ مِنَ المَيِّتِ ، وتُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَىِّ) قال : هى النطفة تخرج من الرجل وهى ميتة ، وهو حىّ ، ويخرج الرجل منها حيا وهى ميتة .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله عزّ وجلّ (تُخْرِجُ الحَىَّ مِنَ المَيِّتِ، وتُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَىِّ) قال : الناس الأحياء من النطف والنطف ميتة ، ويخرجها من الناس الأحياء والأنعام .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : مثله .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن سلمة بن نُبيط ، عن الضحاك فى قوله (تُخْرِجُ الحَىَّ مِنَ المَيِّتِ ، وتُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَىِّ) ، فذكر نحوه .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (تُخْرِجُ الحَىَّ مِنَ المَيِّتِ ، وتُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَىِّ): فالنطفة ميتة تكون تخرج من إنسان حىّ ، ويَخرج إنسان حىّ من نطفة ميتة .

حدثنى محمد بن عمرو ، وابن علىّ ، عن عطاء المقدمىّ ، قال : ثنا أشعث السجستانىّ ، قال : ثنا شعبة ، عن إسماعيل بن أبى خالد فى قوله (تُخْرِجُ الحَىَّ مِنَ المَيِّتِ ، وتُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَىِّ) قال : تخرج النطفة من الرجل ، والرجل من النطفة .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، فى قوله (تُخْرِجُ الحَىَّ مِنَ المَيِّتِ ، وتُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَىِّ) قال : تخرج الحىّ من هذه النطفة الميتة ، وتخرج هذه النطفة الميتة من الحىّ .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، فى قوله (تُخْرِجُ

الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ ، وتُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ) . . . الآية ، قال : الناس الأحياء من النطف ، والنطف ميتة من الناس الأحياء ، ومن الأنعام والنبت ، كذلك قال ابن جُريج : وسمعت يزيد بن عويمر يخبر عن سعيد بن جبير ، قال : إخراجه النطفة من الإنسان ، وإخراجه الإنسان من النطفة .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (تُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ ، وتُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ) قال : النطفة ميتة ، فتخرج منها أحياء (وتُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ) تخرج النطفة من هؤلاء الأحياء ، والحبّ ميت تخرج منه حيا (وتُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ) تخرج من هذا الحىّ حبا ميتا .

وقال آخرون : معنى ذلك : أنه يخرج النخلة من النواة ، والنواة من النخلة ، والسنبل من الحبّ والحبّ من السنبل ، والبيض من الدجاج ، والدجاج من البيض .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا أبو تميلة ، قال : ثنا عبد الله ، عن عكرمة قوله (تُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ) قال : هى البيضة تخرج من الحىّ ، وهى ميتة ، ثم يخرج منها الحىّ .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا حفص بن عمر ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة فى قوله (تُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ ، وتُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ) قال : النخلة من النواة ، والنواة من النخلة ، والحبة من السنبلة ، والسنبلة من الحبة .

وقال آخرون : معنى ذلك : أنه يخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، عن الحسن فى قوله (تُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ ، وتُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ) يعنى المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، والمؤمن عبد حىّ الفؤاد ، والكافر عبد ميت الفؤاد .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، قال : قال الحسن فى قوله (تُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ ، وتُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ) قال : يخرج المؤمن من الكافر ، ويخرج الكافر من المؤمن .

حدثنا عمران بن موسى ، قال : ثنا عبد الوارث ، عن سعيد بن عمرو ، عن الحسن قرأ (تُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ ، وتُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ) قال : تخرج المؤمن من الكافر ، وتخرج الكافر من المؤمن .

حدثنى حميد بن مَسْعدة ، قال : ثنا بشر بن المفضل ، قال : ثنا سليمان التيمىّ ، عن أبى عثمان ، عن سلمان ، أوعن ابن مسعود ، وأكبر ظنى أنه عن سلمان ، قال : إن الله عزّ وجلّ خَمَّر طينة آدم أربعين ليلة ، أو قال : أربعين يوما ، ثم قال بيده فيه ، فخرج كل طيب فى يمينه ، وخرج كل خبيث فى يده الأخرى ،

ثم خلط بينهما ، ثم خلق منها آدم ، فمن ثم يخرج الحىّ من الميت ، ويخرج الميت من الحىّ ، يخرج المؤمن من الكافر ، ويخرج الكافر من المؤمن .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن الزهرىّ : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم دخل على بعض نسائه ، فإذا بامرأة حسنة النغمة[1] ، فقال : مَنْ هَذِهِ ؟ قالت : إحدى خالاتك ، قال : إنَّ خالاتى بِهَذِهِ البَلَدِ[2] لَغَرائِبُ ، وأىّ خالاتى هَذِهِ ؟ قالت : خَلِدَةُ[3] بنة الأسود ابن عبد يغوث ، قال : سُبْحانَ الَّذِى يُخْرِجُ الحَىَّ مِنَ المَيِّتِ ! وكانت امرأة صالحة ، وكان أبوها كافرا .

حدثنى محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفىّ ، قال : ثنا عباد بن منصور ، عن الحسن فى قوله (تُخْرِجُ الحَىَّ مِنَ المَيِّتِ ، وتُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَىِّ) قال : هل علمتم أن الكافر يلد مؤمنا ، وأن المؤمن يلد كافرا ؟ فقال : هو كذلك .

وأولى التأويلات التى ذكرناها فى هذه الآية بالصواب : تأويل من قال : يخرج الإنسانَ الحىّ والأنعام والبهائم الأحياء من النطف الميتة ، وذلك إخراج الحىّ من الميت ، ويخرج النطفة الميتة من الإنسان الحىّ والأنعام والبهائم الأحياء ، وذلك إخراج الميت من الحىّ ، وذلك أن كل حىّ فارقه شىء من جسده ، فذلك الذى فارقه منه ميت ، فالنطفة ميتة لمفارقتها جسد من خرجت منه ، ثم ينشئ الله منها إنسا نا حيا وبهائم وأنعاما أحياء ، وكذلك حكم كل شىء حىّ زايله شىء منه ، فالذى زايله منه ميت ، وذلك هو نظير قوله (كَيْفَ تَكْفُرونَ بِاللهِ وكُنْتُمْ أمْواتًا فأحْياكُمْ ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ، ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ، ثُمَّ إلَيْهِ تُرْجَعُونَ) .

وأما تأويل من تأوّله بمعنى الحبة من السنبلة ، والسنبلة من الحبة ، والبيضة من الدجاجة ، والدجاجة من البيضة ، والمؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، فإن ذلك وإن كان له وجه مفهوم ، فليس ذلك الأغلب الظاهر فى استعمال الناس فى الكلام ، وتوجيه معانى كتاب الله عزّ وجلّ إلى الظاهر المستعمل فى الناس : أولى من توجيهها إلى الخفىّ القليل فى الاستعمال .

واختلفت القرّاء فى قراءة ذلك : فقرأته جماعة منهم (تُخْرِجُ الحَىَّ مِنَ المَيِّتِ ، وتُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَىِّ) بالتشديد وتثقيل الياء من الميت ، بمعنى أنه يخرج الشىء الحىّ من الشىء الذى قد مات ، ومما لم يمت . وقرأت جماعة أخرى منهم (تُخْرِجُ الحَىَّ مِنَ المَيْتِ ، وتُخْرِجُ المَيْتَ مِنَ الحَىِّ) : بتخفيف الياء من الميت ، بمعنى أنه يخرج الشىء الحىّ من الشىء الذى قد مات دون الشىء الذى لم يمت ، وتخرج الشىء الميت دون الشىء الذى لم يمت من الشىء الحىّ ، وذلك أن الميّت مثقل الياء عند العرب : ما لم يمت وسيموت وما قد مات . وأما الميْت مخففا : فهو الذى قد مات ، فإذا أرادوا النعت قالوا : إنك مائت غدا وإنهم مائتون ، وكذلك كل ما لم يكن بعد ، فإنه يخرج على هذا المثال الاسم منه ، يقال : هو الجائد بنفسه والطائبة نفسه بذلك ، وإذا أريد معنى الاسم قيل : هو الجواد بنفسه ، والطيبة نفسه ، فإذ كان ذلك كذلك ، فأولى القراءتين فى هذه الآية بالصواب : قراءة من شدّد الياء من الميّت ، لأن الله جلّ ثناؤه يخرج الحىّ من

(١) فى القرطبى : الهيئة . (٢) البلد يذكر ويؤنث كما فى المصباح . (٣) الدرر المنثور : خالدة .

النطفة التى قد فارقت الرجل ، فصارت ميتة ، وسيخرجه منها بعد أن تفارقه وهى فى صلب الرجل ، ويخرج الميت من الحىّ ، النطفة التى تصير بخروجها من الرجل الحىّ ميتا ، وهى قبل خروجها منه حية ، فالتشديد أبلغ فى المدح ، وأكمل فى الثناء .

القول فى تأويل قوله (وَتَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ) :

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : أنه يعطى من يشاء من خلقه ، فيجود عليه بغير محاسبة منه لمن أعطاه ، لأنه لايخاف دخول انتقاص فى خزائنه ، ولا الفناء على ما بيده .

كما حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع فى قوله (وَتَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ) قال : يخرج الرزق من عنده بغير حساب ، لايخاف أن ينقص ما عنده تبارك وتعالى .

فتأويل الآية إذنْ : اللهمّ يا مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعزّ من تشاء ، وتذلّ من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شىء قدير ، دون من ادّعى الملحدون أنه لهم إله ورب ، وعبدوه دونك ، واتخذوه شريكا معك ، أو أنه لك ولد ، وبيدك القدرة التى تفعل هذه الأشياء ، وتقدر بها على كل شىء ، تولج الليل فى النهار ، وتولج النهار فى الليل ، فتنقص من هذا وتزيد فى هذا ، وتنقص من هذا وتزيد فى هذا ، وتخرج من ميت حيا ، ومن حىّ ميتا ، وترزق من تشاء بغير حساب من خلقك ، لايقدر على ذلك أحد سواك ، ولا يستطيعه غيرك .

كما حدثنى ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزُّبير (تُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهارِ ، وتُولِجُ النَّهارَ فِى اللَّيْلِ ، وتُخْرِجُ الحَىَّ مِنَ المَيِّتِ ، وتُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَىِّ) : أى بتلك القدرة ، يعنى بالقدرة التى تُؤتى الملك بها من تشاء ، وتنزعه ممن تشاء ، وترزق من تشاء بغير حساب ، لايقدر على ذلك غيرك ، ولا يصنعه إلا أنت ، أى فإن كنت سلطت عيسى على الأشياء التى بها يزعمون أنه إله ، من إحياء الموتى ، وإبراء الأسقام ، والخلْق للطير من الطين ، والخبر عن الغيوب لتجعله آية للناس ، وتصديقا له فى نبوّته التى بعثته بها إلى قومه ، فإنّ من سلطانى وقدرتى ما لم أعطه ، كتمليك الملوك ، وأمر النبوّة ووضعها حيث شئت ، وإيلاج الليل فى النهار ، والنهار فى الليل ، وإخراج الحىّ من الميت ، والميت من الحىّ ، ورزق من شئت من برّ أو فاجر بغير حساب ، فكل ذلك لم أسلط عيسى عليه ، ولم أملكه إياه ، فلم يكن لهم فى ذلك عبرة وبينة ، إذ لو كان إلها لكان ذلك كله إليه ، وهو فى علمهم يهرب من الملوك ، وينتقل منهم فى البلاد من بلد إلى بلد

القول فى تأويل قوله

لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَـٰةً ، وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ، وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ (٢٨)

وهذا نهى من الله عزّ وجلّ المؤمنين أن يتخذوا الكفار أعوانا وأنصارا وظهورا، ولذلك كسر يتخذ، لأنه فى موضع جزم بالنهى ، ولكنه كسر الذال منه للساكن الذى لقيه وهى ساكنة . ومعنى ذلك : لاتتخذوا أيها المؤمنون الكفار ظهرا وأنصارا ، توالونهم على دينهم ، وتظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين ، وتدلونهم على عوراتهم ، فإنه من يفعل ذلك فليس من الله فى شىء ، يعنى بذلك : فقد برئ من الله ، وبرئ الله منه بارتداده عن دينه ، ودخوله فى الكفر ، إلا أن تتقوا منهم تُقاة ، إلا أن تكونوا فى سلطانهم ، فتخافوهم على أنفسكم ،فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم، وتُضمروا لهم العداوة ، ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر ، ولا تعينوهم على مسلم بفعل .

كما حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية بن صالح ، عن علىّ ، عن ابن عباس قوله (لايَتَّخِذِ المُؤْمِنُونَ الكافرينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنِينَ) قال : نهى الله سبحانه المؤمنين أن يلاطفوا الكفار ، أو يتخذوهم وَليجة من دون المؤمنين ، إلا أن يكون الكفار عليهم ظاهرين ، فيظهرون لهم اللطف ، ويخالفونهم فى الدين ، وذلك قوله (إلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً) .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : ثنى محمد بن إسحاق ، قال : ثنى محمد بن أبى محمد ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس . قال : كان الحجَّاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف وابن أبى الُحقيق ، وقيس بن زيد، قد بطنوا بنفر [1] من الأنصار ،ليفتنوهم عن دينهم ، فقال رفاعة بن المنذر ابن زبير وعبد الله بن جبير وسعد بن خيثمة لأولئك النفر : اجتنبوا هؤلاء اليهود ، واحذروا لزومهم ومباطنتهم ، لايفتنوكم عن دينكم ،فأبى أولئك النفر إلا مباطنتهم ولزومهم ،فأنزل الله عزّ وجل (لايَتَّخِذِ المُؤْمِنُونَ الكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنِينَ) . . . إلى قوله (وَاللهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

حدثنا محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفىّ ، قال : ثنا عباد بن منصور ، عن الحسن فى قوله (لايَتَّخِذِ المُؤْمِنُونَ الكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنِينَ) يقول: لايتخذ المؤمن كافرا وليا من دون المؤمنين .

حدثنى موسى ، قال: ثنا عمرو ، قال: ثنا أسباط ، عن السدىّ (لايَتَّخِذِ المُؤْمِنُونَ الكافِرِينَ)... إلى (إلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً) أما أولياء : فيواليهم فى دينهم ، ويظهرهم على عورة المؤمنين ، فمن فعل هذا فهو مشرك ، فقد برئ الله منه ، إلا أن يتقى منهم تُقاة ، فهو يظهر الولاية لهم فى دينهم والبراءة من المؤمنين .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا قبيصة بن عقبة ، قال : ثنا سفيان ، عن ابن جريج ، عمن حدثه ، عن ابن عباس (إلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً) قال : التقاة : التكلم باللسان ، وقلبه مطمئنّ بالإيمان .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا حفص بن عمر ، قال : ثنا الحكم بن أبان ، عن عكرمة فى قوله (إلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً) قال : مالم يُهرق دم مسلم ، ومالم يستحل ماله .

(١) بطن فلان بفلان يبطن به بطونا وبطانة : إذا كان خاصا به داخلا فى أمره .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله (لايَتَّخِذِ المُؤْمِنُونَ الكافرِينَ أوْلياءَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنِينَ) : إلامصانعة فى الدنيا ومخالقة .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع فى قوله (لايَتَّخِذِ المُؤْمِنونَ الكافِرِينَ أوْلياءَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنِينَ) ... إلى (إلاَّ أنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً) قال : قال أبو العالية : التقية باللسان ، وليس بالعمل .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ ، قال : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (إلاَّ أنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً) قال : التقية باللسان ، من حُمِل على أمر يتكلم به وهو لله معصية ، فتكلم مخافة على نفسه ، وقلبه مطمئنّ بالإيمان ، فلا إثم عليه ، إنما التقية باللسان .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس فى قوله (إلاَّ أنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً) فالتقية باللسان : من حُمِل على أمر يتكلم به ، وهو معصية لله ، فيتكلم به مخافة الناس ، وقلبه مطمئنّ بالإيمان ، فإن ذلك لايضرّه ، إنما التقية باللسان .

وقال آخرون : معنى (إلاَّ أنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً) إلا أن يكون بينك وبينه قرابة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قوله (لايَتَّخِذِ المُؤْمِنُونَ الكافرِينَ أوْلياءَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنِينَ ، إلاَّ أنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً) نهى الله المؤمنين أن يوادّوا الكفار ، أو يتولوهم دون المؤمنين ، وقال الله (إلاَّ أنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً) الرحم من المشركين ، من غير أن يتولّوهم فى دينهم ، إلا أن يصل رحما له فى المشركين .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (لا يَتَّخِذِ المُؤْمِنُونَ الكافرِينَ أوْلِياءَ) قال : لايحلّ لمؤمن أن يتخذ كافرا وليا فى دينه ، وقوله (إلاَّ أنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً) قال : أن يكون بينك وبينه قرابة ، فتصله لذلك .

حدثنى محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفىّ ، قال : ثنا عباد بن منصور ، عن الحسن فى قوله (إلاَّ أنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً) قال : صاحبهم فى الدنيا معروفا الرحم وغيره ، فأما فى الدين فلا ، وهذا الذى قاله قتادة تأويل له وجه ، وليس بالوجه الذى يدلّ عليه ظاهر الآية : إلا أن تتقوا من الكافرين تُقاة .

فالأغلب من معانى هذا الكلام : إلاأن تخافوا منهم مَخافة . فالتَّقيَّة التى ذكرها الله فى هذه الآية إنما هى تقية من الكفار ، لامن غيرهم . ووجهه قتادة إلى أن تأويله : إلا أن تتقوا الله من أجل القرابة التى بينكم وبينهم تُقاة ، فتصلون رحمها ، وليس ذلك الغالب على معنى الكلام ، والتأويل فى القرآن على الأغلب الظاهر من معروف كلام العرب . المستعمل فيهم .

وقد اختلفت القرّاء فى قراءة قوله (إلاَّ أنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً) فقرأ ذلك عامة قراء الأمصار (إلاَّ

أنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً) على تقدير فُعَلَة مثل تُخَمة وتُؤَدة وتُكَأة ، من اتقيت . وقرأ ذلك آخرون (إلاَّ أنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تَقِيَّةً) ، على مثال فَعيلة .

والقراءة التي هي القراءة عندنا ، قراءة من قرأها (إلاَّ أنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً)لثبوت حجة ذلك بأنه القراءة الصحيحة ، بالنقل المستفيض الذي يمتنع منه الخطأ .

القول في تأويل قوله عزَّ وجلَّ (وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وإلى اللهِ المَصِيرُ) :

يعني تعالى ذكره بذلك: ويخوّفكم الله من نفسه أن تركبوا معاصيه، أو توالوا أعداءه، فإن لله مرجعكم ومصيركم بعد مماتكم ، ويوم حشركم لموقف الحساب ، يعني بذلك : متى صرتم إليه ، وقد خالفتم ما أمركم به ،وأتيتم مانهاكم عنه، من اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين ،نالكم من عقاب ربكم مالا قِبَل لكم به ، يقول : فاتقوه واحذروه أن ينالكم ذلك منه ، فإنه شديد العقاب .

القول في تأويل قوله عز وجل

قُلْ إن تخفُوا ما في صُدُورِكُمْ أوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ ، وَيَعْلَمُ ما في السَّمٰوَاتِ وَمَا في الأرْضِ ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩)

يعني بذلك جلّ ثناؤه : قل يا محمد للذين أمرتهم أن لايتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين : إن تخفوا مافي صدوركم من موالاة الكفار فتسرّوه، أو تبدوا ذلكم من أنفسكم بألسنتكم وأفعالكم ، فتظهروه ، يعلمه الله ، فلا يخفى عليه . يقول : فلا تضمروا لهم مودّة ، ولا تظهروا لهم موالاة ، فينالكم من عقوبة ربكم ما لاطاقة لكم به ، لأنه يعلم سركم وعلانيتكم، فلا يخفى عليه شيء منه ، وهو مُحْصيه عليكم ، حتى يجازيكم عليه بالإحسان إحسانا ، وبالسيئة مثلها .

كما حدثني موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السديّ ، قال : أخبرهم أنه يعلم ما أسرّوا من ذلك وما أعلنوا ، فقال : إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه .

وأما قوله (وَيَعْلَمُ ما فِي السَّمٰوَاتِ وَما فِي الأرْضِ) : فإنه يعني أنه إذ كان لايخفى عليه شيء هو في سماء أو أرض أو حيث كان ، فكيف يخفى عليه أيها القوم الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ما في صدوركم من الميل إليهم بالمودّة والمحبة ، أو ما تبدونه لهم بالمعونة فعلا وقولا .

وأما قوله (واللهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) فإنه يعني : والله قدير على معاجلتكم بالعقوبة على موالاتكم إياهم ، ومظاهرتكموهم على المؤمنين ، وعلى ما يشاء من الأمور كلها ، لايتعذّر عليه شيء أراده ، ولا يمتنع عليه شيء طلبه .

القول في تأويل قوله عزّ وجل

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ، وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ، وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ، وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : ويحذّركم الله نفسه ، فى يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضَرا موفَّرا ، وما عملت من سوء ، تودّ لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا : يعنى : غاية بعيدة ، فإن مصيركم أيها القوم يومئذ إليه ، فاحذروه على أنفسكم من ذنوبكم .

وكان قتادة يقول فى معنى قوله (مُحْضَرًا) : ما حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قوله (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا) يقول : مُوَفَّرا .

وقد زعم أهل العربية أن معنى ذلك : واذكر يوم تجد ، وقال : إن ذلك إنما جاء كذلك ، لأن القرآن إنما نزل للأمر والذكر ، كأنه قيل لهم : اذكروا كذا وكذا ، لأنه فى القرآن فى غير موضع ، واتقوا يوم كذا وحين كذا . وأما « ما » التى مع عملت فبمعنى الذى ، ولا يجوز أن تكون جزاء لوقوع تجد عليه .

وأما قوله (وَما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ) فإنه معطوف [1] على قوله « ما » الأولى ، وعملت صلة بمعنى الرفع ، كما قيل تود . فتأويل الكلام : يوم تجد كل نفس الذى عملت من خير محضرا ، والذى عملت من سوء ، تودّ لو أن بينها وبينه أمدا ، والأمد : الغاية التى ينتهى إليها ، ومنه قول الطرماح :

كلّ حَىٍّ مُسْتَكْمِلٌ عِدَّةَ العُمْـ ـرِ ومُودٍ إذَا انْقَضَى أمَدُهْ [2]

يعنى : غاية أجله .

وقد حدثنى موسى بن هارون ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ قوله (وَما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ ، تَوَدُّ لَوْ أنَّ بَيْنَها وبَيْنَهُ أمَدًا بَعِيدًا) : مكانا بعيدا .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج (أمَدًا بَعِيدًا) قال : أجلا .

حدثنى محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفىّ ، قال : ثنا عباد بن منصور ، عن الحسن فى قوله (وَما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أنَّ بَيْنَها وَبَيْنَهُ أمَدًا بَعِيدًا) قال : يسرّ أحدهم أن لايلقى عمله ذاك أبدا ، يكون ذلك مُناه ، وأما فى الدنيا فقد كانت خطيئته يستلذّها .

القول فى تأويل قوله (وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ، وَاللهُ رَءُوفٌ بالعِبادِ) يقول جلّ ثناؤه : ويحذّركم الله نفسه أن تسخطوها عليكم بركوبكم ما يسخطه عليكم ، فتوافونه ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تودّ لو أنّ بينها وبينه أمدا بعيدا ، وهو عليكم ساخط ، فينالكم من أليم عقابه ما لا قِبَل لكم به . ثم أخبر عزّ وجلّ أنه رءوف بعباده رحيم بهم ، ومن رأفته بهم تحذيره إياهم نفسه ، وتخويفهم عقوبته ، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معاصيه .

كما حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، عن ابن عيينة ، عن عمرو بن

---

(١) قوله « فانه معطوف الخ » لعل فى العبارة سقطا من الناسخ ، وحاصل المقام أن وما ، إما معطوفة على ما الأولى أو مبتدأ خبره تود ، انظر كتب التفسير .

(٢) قال فى اللسان (أمد) الأمد : الغاية كالمدى . يقال : ما أمدك ؟ أى منتهى عمرك .

والبيت فى ديوان الطرماح طبعة ليدن سنة ١٩٢٧ ص ١١٢ ، وهو التاسع فى القصيدة . وفيه : « انقضى عدده » فى مكان : « انقضى أمده » .

الحسن فى قوله (وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ، وَاللهُ رَءُوفٌ بالعِبادِ) قال : من رأفته بهم أن حذّرهم نفسه .

القول فى تأويل قوله

قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١)

اختلف أهل التأويل فى السبب الذى أنزلت هذه الآية فيه ، فقال بعضهم : أنزلت فى قوم قالوا على عهد النبىّ صلى الله عليه وسلم : إنا نحبّ ربنا ، فأمر الله جلّ وعزّ نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم : « إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِيما تَقُولُونَ فاتَّبِعُونِى ، فإنَّ ذلكَ عَلامَةُ صِدْقِكُمْ فِيما قُلْتُمْ مِنْ ذَلِكَ » .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا عبد الرحمن بن عبد الله ، عن بكر بن الأسود ، قال : سمعت الحسن يقول : قال قوم على عهد النبىّ صلى الله عليه وسلم : يامحمد إنا نحبّ ربنا ، فأنزل الله عزّ وجلّ (قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) فجعل اتباع نبيه محمد صلى الله عليه وسلم علَمًا لحبه ، وعذاب من خالفه .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا علىّ بن الهيثم ، قال : ثنا عبد الوهاب ، عن أبى عبيدة ، قال : سمعت الحسن ، يقول : قال أقوام على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا محمد إنا لنحبّ ربنا ، فأنزل الله جلّ وعزّ بذلك قرآنا (قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُم اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُم ذُنُوبَكُمْ) ، فجعل اللهُ اتباع نبيه محمد صلى الله عليه وسلم علما لحبه ، وعذاب من خالفه .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج قوله (إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ) قال : كان قوم يزعمون أنهم يحبون الله ، يقولون : إنا نحبّ ربنا ، فأمرهم الله أن يتبعوا محمدا صلى الله عليه وسلم ، وجعل اتباع محمد علَمًا لحبه .

حدثنى محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفىّ ، قال : ثنا عباد بن منصور ، عن الحسن فى قوله (إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ) . . . الآية ، قال : إن أقواما كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يزعمون أنهم يحبون الله ، فأراد الله أن يجعل لقولهم تصديقا من عمل ، فقال : (إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ) . . . الآية . كان اتباع محمد صلى الله عليه وسلم تصديقا لقولهم .

وقال آخرون : بل هذا أمر من الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يقول لوفد نجران الذين قدموا عليه من النصارى : إن كان الذى يقولونه فى عيسى من عظيم القول إنما يقولونه تعظيما لله وحبا له ، فاتبعوا محمدا صلى الله عليه وسلم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن محمد بن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير (قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ) : أى إن كان هذا من قولكم ، يعنى فى عيسى ، حبا لله وتعظيما له ، (فاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ ، ويَغْفِرْ لكُمْ ذُنُوبَكُمْ) أى ما مضى من كفركم ، (وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

قال أبو جعفر : وأولى القولين بتأويل الآية : قول محمد بن جعفر بن الزبير ، لأنه لم يجر لغير وفد نجران فى هذه السورة ، ولا قبل هذه الآية ، ذكر قوم ادّعوا أنهم يحبون الله ، ولا أنهم يعظمونه ، فيكون قوله (إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعُونِى) جوابا لقولهم ، على ما قاله الحسن .

وأما ما روى الحسن فى ذلك مما قد ذكرناه ، فلا خبر به عندنا يصحّ ، فيجوز أن يقال : إن ذلك كذلك ، وإن لم يكن فى السورة دلالة على أنه كما قال ، إلا أن يكون الحسن أراد بالقوم الذين ذكر أنهم قالوا ذلك على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد نجران من النصارى ، فيكون ذلك من قوله نظير إخبارنا ، فإذا لم يكن بذلك خبر على ما قلنا ، ولا فى الآية دليل على ما وصفنا ، فأولى الأمور بنا أن نلحق تأويله بالذى عليه الدلالة من آى السورة ، وذلك هو ما وصفنا ، لأن ما قبل هذه الآية من مبتدأ هذه السورة وما بعدها خبر عنهم ، واحتجاج من الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، ودليل على بطول قولهم فى المسيح ، فالواجب أن تكون هى أيضا مصروفة المعنى إلى نحو ما قبلها ، ومعنى ما بعدها.

فإذْ كان الأمر على ما وصفنا ، فتأويل الآية : قل يامحمد للوفد من نصارى نجران : إن كنتم تزعمون أنكم تحبون الله ، وأنكم تعظمون المسيح ، وتقولون فيه ما تقولون، حبا منكم ربكم، فحققوا قولكم الذى تقولونه ، إن كنتم صادقين باتباعكم إياى ، فإنكم تعلمون أنى لله رسول إليكم ، كما كان عيسى رسولا إلى من أرسل إليه ، فإنه إن اتبعتمونى وصدّقتمونى على ما أتيتكم به من عند الله ، يغفر لكم ذنوبكم ، فيصفح لكم عن العقوبة عليها، ويعفو لكم عما مضى منها ، فإنه غفور لذنوب عباده المؤمنين، رحيم بهم، وبغيرهم من خلقه .

القول فى تأويل قوله

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : قل يا محمد لهؤلاء الوفد من نصارى نجران : أطيعوا الله والرسول محمدا ، فإنكم قد علمتم يقينا أنه رسولى إلى خلقى ، ابتعثته بالحقّ تجدونه مكتوبا عندكم فى الإنجيل ، فإن تولّوا فاستدبروا عما دعوتهم إليه من ذلك ، وأعرضوا عنه، فأعلمهم أن الله لايحبّ من كفر بجحد ماعرف من الحقّ ، وأنكره بعد علمه، وأنهم منهم، بجحودهم نبوّتك، وإنكارهم الحقّ الذى أنت عليه، بعد علمهم بصحة أمرك ، وحقيقة نبوّتك .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير (قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ) فأنتم تعرفونه ،يعنى الوفد من نصارى نجران، وتجدونه فى كتابكم (فإنْ تَوَلَّوْا) على كفرهم، (فإنَّ اللهَ لايُحِبُّ الكافِرِينَ) .

القول فى تأويل قوله

إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ ، وَنُوحًا ، وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ، وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (٣٣)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : إن الله اجتبى آدم ونوحا ، واختارهما لدينهما ، وآل إبراهيم وآل عمران، لدينهم الذى كانوا عليه ، لأنهم كانوا أهل الإسلام . فأخبر الله عزّ وجلّ أنه اختار دين من ذكرنا على سائر الأديان التى خالفته ، وإنما عنى بآل إبراهيم وآل عمران : المؤمنين .

وقد دللنا على أن آل الرجل أتباعه وقومه ، ومن هو على دينه ، وبالذى قلنا فى ذلك رُوى القول عن ابن عباس ، أنه كان يقوله .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس، قوله (إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وآلَ إِبْرَاهِيمَ وآلَ عِمْرَانَ على العالَمِينَ) قال : هم المؤمنون من آل إبراهيم وآل عمران وآل ياسين وآل محمد ، يقول الله عزّ وجلّ (إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ) ، وهم المؤمنون .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قوله (إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وآلَ إِبْرَاهِيمَ وآلَ عِمْرَانَ على العالَمِينَ) رجلان نبيان اصطفاهما الله على العالمين .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وآلَ إِبْرَاهِيمَ وآلَ عِمْرَانَ على العالَمِينَ) قال : ذكر الله أهل بيتين صالحين ، ورجلين صالحين ، ففضلهم على العالمين ، فكان محمد من آل إبراهيم .

حدثنى محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفىّ ، قال : ثنا عباد ، عن الحسن فى قوله (إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وآلَ إِبْرَاهِيمَ) إلى قوله (وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) قال : فضلهم الله على العالمين بالنبوّة على الناس كلهم ، كانوا هم الأنبياء الأتقياء المطيعين لربهم .

القول فى تأويل قوله

ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ ، وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤)

يعنى بذلك : أن الله اصطفى آل إبراهيم ، وآل عمران، ذرية بعضها من بعض؛ فالذرّية منصوبة على القطع من آل إبراهيم وآل عمران ، لأن الذرّية نكرة ، وآل عمران معرفة ، ولو قيل نصبت على تكرير الاصطفاء لكان صوابا ، لأن المعنى : اصطفى ذرّية بعضها من بعض ، وإنما جعل بعضهم من بعض فى الموالاة فى الدين ، والموازرة على الإسلام والحقّ ، كما قال جلّ ثناؤه (وَالمُؤْمِنُونَ وَالمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) وقال فى موضع آخر (المُنَافِقُونَ وَالمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ): يعنى أن دينهم واحد، وطريقتهم واحدة، فكذلك قوله (ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ) إنما معناه : ذرّية دين بعضها دين بعض ، وكلمتهم واحدة ، وملتهم واحدة فى توحيد الله وطاعته .

كما حدثنا بشر ، قال: ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ) يقول : فى النية ، والعمل ، والإخلاص ، والتوحيد له .

وقوله (وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) يعنى بذلك : والله ذو سمع لقول امرأة عمران ، وذو علم بما تضمره فى نفسها ، إذ نذرت له ما فى بطنها محرّرا .

القول فى تأويل قوله

إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا ، فَتَقَبَّلْ مِنِّى إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥)

يعنى[1] بقوله جلّ ثناؤه (إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا ، فَتَقَبَّلْ مِنِّى) فإذ من صلة سميع . وأما امرأة عمران : فهى أمّ مريم ابنة عمران أم عيسى بن مريم صلوات الله عليه ، وكان اسمها فيما ذكر لنا حَنَّة بنة فاقوذ بن قتيل .

كذلك حدثنا به محمد بن حميد، قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق فى نسبه. وقال غير ابن حميد: ابنة فاقود بالدال ابن قتيل . فأما زوجها فإنه عمران بن ياشهم[2] بن آمون بن منشا بن حزقيا بن أحريق بن يوثم بن عزاريا ابن أمصيا بن ياوش بن احريهو بن يازم بن يهفاشاط بن اشابرابان بن رحبعم بن سليمان بن داود بن ايشا .

كذلك حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، فى نسبه .

وأما قوله (رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا) فإن معناه : إنى جعلت لك يا ربّ نذرا أن لك الذى فى بطنى محرّرا لعبادتك ، يعنى بذلك : حبسته على خدمتك وخدمة قدسك فى الكنيسة ، عتيقة من خدمة كل شىء سواك ، مفرّغة لك خاصة ، ونصب محرّرا على الحال من ما التى بمعنى الذى (فَتَقَبَّلْ مِنِّى) : أى فتقبل منى ما نذرت لك يا ربّ (إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) يعنى : إنك أنت يا ربّ السميع لما أقول وأدعو ، العليم لما أنوى فى نفسى وأريد ، لايخفى عليك سرّ أمرى وعلانيته .

وكان سبب نذر حَنَّة بنة فاقوذ امرأة عمران الذى ذكره الله فى هذه الآية فيما بلغنا ، ما حدثنا به ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : ثنى محمد بن إسحاق ، قال : تزوّج زكريا وعمران أختين ، فكانت أمّ يحيى عند زكريا ، وكانت أمّ مريم عند عمران ، فهلك عمران وأمّ مريم حامل بمريم ، فهى جنين فى بطنها ، قال: وكانت فيما يزعمون قد أمسك عنها الولد حتى أسنت ، وكانوا أهل بيت من الله جل ثناؤه بمكان ، فبينا هى فى ظلّ شجرة ، نظرت إلى طائر يطعم فرخا له ، فتحرّكت نفسها للولد ، فدعت الله أن يهب لها ولدا، فحملت بمريم، وهلك عمران ، فلما عرفت أن فى بطنها جنينا ، جعلته لله نذيرة ، والنذيرة : أن تُعَبِّده لله ، فتجعله حبسا فى الكنيسة ، لا ينتفع به بشىء من أمور الدنيا .

(١) كذا فى النسخ ، ولعل المعنى سقط من قلم الناسخ ، كما يدل عليه التفريع بعده .

(٢) فى إنجيل متى (١ : ١ – ١٦) خلاف فى رسم بعض هذه الأسماء . وقد تركناها كما فى أصل المؤلف ، مكتفين بهذ الإشارة لمن أراد زيادة التحقيق .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير ، قال : ثم ذكر امرأة عمران ، وقولها (رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا) أى نذرته ، تقول : جعلته عتيقا لعبادة الله ، لاينتفع به بشىء من أمور الدنيا ، (فَتَقَبَّلْ مِنِّى إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ) .

حدثنى عبد الرحمن بن الأسود الطُّفاوى ، قال : ثنا محمد بن ربيعة ، قال : ثنا النضر بن عربىّ ، عن مجاهد فى قوله (مُحَرَّرًا) قال : خادما للبيعة .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا جابر بن نوح ، عن النضر بن عربىّ ، عن مجاهد ، قال : خادما للكنيسة.

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا جابر بن نوح ، قال : أخبرنا إسماعيل ، عن الشعبىّ فى قوله (إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا) قال : فرّغته للعبادة .

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا إسماعيل بن أبى خالد ، عن الشعبىّ ، فى قوله (إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا) قال : جعلته فى الكنيسة ، وفرّغته للعبادة .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عمرو بن عون ، قال : أخبرنا هشيم ، عن إسماعيل ، عن الشعبىّ ، نحوه .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله (إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا) قال : للكنيسة يخدمها .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن سفيان ، عن خصيف ، عن مجاهد (إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا) قال : خالصا لايخالطه شىء من أمر الدنيا .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا حكام ، عن عمرو ، عن عطاء ، عن سعيد بن جبير (إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا) قال : للبيعة والكنيسة .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا الحمانى ، قال : ثنا شريك ، عن سالم ، عن سعيد (إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا) قال : محرّرا للعبادة .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قوله (إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا) . . . الآية ، كانت امرأة عمران حرّرت لله ما فى بطنها ، وكانوا إنما يحررون الذكور ، وكان المحرَّر إذا حُرِّر جعل فى الكنيسة لايبرحها ، يقوم عليها ويكنسها .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، فى قوله (إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا) قال : نذرتْ ولدها للكنيسة .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا ، فَتَقَبَّلْ مِنِّى إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ) قال : وذلك أن امرأة عمران حملت ، فظنت أن ما فى بطنها غلام ، فوهبته لله محرّرا ، لايعمل فى الدنيا .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قال : كانت

امرأة عمران حرّرت لله ما فى بطنها، قال: وكانوا إنما يحرّرون الذكور ، فكان المحرَّر إذا حُرِّر جعل فى الكنيسة لايبرحها ، يقوم عليها ويكنسها .

حُدثت عن الحسين بن الفرج ، قال : سمعت أبا معاذ ، قال : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك فى قوله (إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا) قال : جعلت ولدها لله وللذين يدرسون الكتاب ويتعلمونه .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن القاسم بن أبى بزّة ، أنه أخبره عن عكرمة ، وأبى بكر عن عكرمة : أن امرأة عمران كانت عجوزا عاقرا تسمى حَنّة ، وكانت لاتلد ، فجعلت تغبط النساء لأولادهن ، فقالت : اللهمّ إن علىّ نذرا شكرا ، إن رزقتنى ولدا أن أتصدّق به على بيت المقدس ، فيكون من سدَنته وخدّامه . قال وقوله (نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا) أنها لِلْحُرّة ابنة الحرائر ، محرّرا للكنيسة يخدمها .

حدثنى محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفىّ ، عن عباد بن منصور ، عن الحسن فى قوله (إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ) . . . الآية كلها ، قال : نذرت ما فى بطنها ، ثم سيّبتها .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه

فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ (٣٦)

يعنى جلّ ثناؤه بقوله (فَلَمَّا وَضَعَتْهَا) فلما وضعت حنة النذيرة ، ولذلك أنث ، ولو كانت الهاء عائدة على « ما » التى فى قوله (إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا) لكان الكلام : فلما وضعته قالت : ربّ إنى وضعته أنثى ، ومعنى قوله (وَضَعَتْهَا) : ولدتها ، يقال منه : وضعت المرأة تضع وضعا (قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنْثَى) : أى ولدت النذيرة أنثى (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ) .

واختلف القراء فى قراءة ذلك ؛ فقرأته عامة القراء (وَضَعَتْ) خبرا من الله عزّ وجلّ عن نفسه ، أنه العالم بما وضعت من غير قيلها (رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنْثَى) ، وقرأ ذلك بعض المتقدمين (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتُ) على وجه الخبر بذلك عن أمّ مريم ؛ أنها هى القائلة ، والله أعلم بما ولدتُ منى .

وأولى القراءتين بالصواب : مانقلته الحجة مستفيضة فيها قراءته بينها ، لايتدافعون صحتها ، وذلك قراءة من قرأ (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ) ، ولا يعترض بالشاذّ عنها عليها .

فتأويل الكلام إذنْ : والله أعلم من كل خلقه بما وضعتْ ، ثم رجع جلّ ذكره إلى الخبر عن قولها ، وأنها قالت اعتذارا إلى ربها مما كانت نذرت فى حملها ، فحرّرته لخدمة ربها (وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى) ، لأن الذكر أقوى على الخدمة وأقوم بها ، وأن الأنثى لاتصلح فى بعض الأحوال لدخول القدس ، والقيام بخدمة الكنيسة ، لما يعتريها من الحيض والنفاس : (وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ) .

كما حدثني ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير (فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى): أي لما جعلتها له محرّرة نذيرة .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : ثنى ابن إسحاق (وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى): لأن الذكر هو أقوى على ذلك من الأنثى .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى) : كانت المرأة لاتستطيع أن يُصْنع بها ذلك، يعنى أن تحرّر للكنيسة، فتجعل فيها، تقوم عليها وتكنسها، فلا تبرحها، مما يصيبها من الحيض والأذى ، فعند ذلك قالت : (وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى) .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، قالت (رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى)، وإنما كانوا يحرّرون الغلمان، قال (وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى ، وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ) .

حدثنى المثنى ،قال : ثنا إسحاق، قال : ثنا ابن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع ، قال : كانت امرأة عمران حرّرت لله ما فى بطنها ، وكانت على رجاء أن يهب لها غلاما ، لأن المرأة لاتستطيع ذلك ، يعنى القيام على الكنيسة لاتبرحها وتكنسها ، لما يصيبها من الأذى .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ : أن امرأة عمران ظنت أن مافى بطنها غلام، فوهبته لله، فلما وضعت إذا هى جارية ، فقالت تعتذر إلى الله: (رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى ،وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى) تقول: إنما يُحرّر الغلمان. يقول الله (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ) فقالت: (إِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ) .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن القاسم بن أبى بزّة ، أنه أخبره عن عكرمة ، وأبى بكر عن عكرمة (فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى ، وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى) يعنى فى المحيض ، ولا ينبغى لامرأة أن تكون مع الرجال ، أمها تقول ذلك .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه (وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) :

تعنى بقولها (وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا): وإنى أجعل معاذها ومعاذ ذريّتها من الشيطان الرجيم بك . وأصل المعاذ: الموئل والملجأ والمعقل، فاستجاب الله لها، فأعاذها الله وذريّتها من الشيطان الرجيم، فلم يجعل له عليها سبيلا .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا عَبْدة بن سليمان ، عن محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن عبد الله بن قسيط ، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « مامِنْ نَفْسٍ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلاَّ وَالشَّيْطَانُ يَنَالُ مِنْهُ تِلْكَ الطَّعْنَةَ ، وَبِهَا يَسْتَهِلُّ الصَّبِيُّ ، إِلاَّ مَاكَانَ مِنْ مَرْيَمَ ابْنَةِ عِمْرَانَ ، فَإِنَّهَا لَمَّا

وَضَعَتْها قالَتْ : (رَبِّ إِنِّى أُعِيذُها بِكَ وَذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ) ، فَضُرِبَ دُونَها حِجابٌ ، فَطَعَنَ فِيهِ » .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا يونس بن بكير ، قال : ثنى محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن عبد الله ابن قُسيط ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كُلُّ مَوْلُودٍ مِنْ وَلَدِ آدَمَ ، لَهُ طَعْنَةٌ مِنَ الشَّيْطانِ ، وبِها يَسْتَهِلُّ الصَّبِيُّ ، إلَّا ما كانَ مِنْ مَرْيَمَ ابْنَةِ عِمْرانَ وَوَلَدِها ، فإنَّ أُمَّها قالَتْ حِينَ وَضَعَتْها : (إِنِّى أُعِيذُها بِكَ وَذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ) ، فَضُرِبَ دُونَهُما حِجابٌ ، فَطَعَنَ فِي الحِجابِ » .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : ثنى محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن عبد الله بن قُسيط ، عن أبى هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بنحوه .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا هارون بن المغيرة ، عن عمرو ، عن شعيب بن خالد ، عن الزبير ، عن سعيد بن المسيب ، قال : سمعت أبا هريرة يقول : سمعت النبىَّ صلى الله عليه وسلم يقول : « ما مِنْ بَنِى آدَمَ مَوْلُودٌ يُولَدُ إلَّا قَدْ مَسَّهُ الشَّيْطانُ حِينَ يُولَدُ ، فَيَسْتَهِلُّ صارِخاً بِمَسِّهِ إيَّاهُ ، غَيْرَ مَرْيَمَ وَابْنِها » . فقال أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم (إِنِّى أُعِيذُها بِكَ وَذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ) .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنى ابن أبى ذئب عن عَجْلان مولى المُشْمَعِلِّ ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ مِنْ بَنِى آدَمَ يَمَسُّهُ الشَّيْطانُ بِأُصْبُعِهِ ، إلَّا مَرْيَمَ وَابْنَها » .

حدثنى أحمد بن عبد الرحمن بن وهب ، قال : ثنى عمى عبد الله بن وهب ، قال : أخبرنى عمرو بن الحارث ، أن أبا يونس سليمان مولى أبى هريرة ، حدثه عن أبى هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كُلُّ بَنِى آدَمَ يَمَسُّهُ الشَّيْطانُ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ ، إلَّا مَرْيَمَ وَابْنَها » .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنى عمران أن أبا يونس حدثه ، عن أبى هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مثله .

حدثنى الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن الزهرىِّ ، عن ابن المسيب ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إلَّا يَمَسُّهُ الشَّيْطانُ ، فَيَسْتَهِلُّ صارِخا مِنْ مَسَّةِ الشَّيْطانِ ، إلَّا مَرْيَمَ وَابْنَها » . ثم يقول أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم (وَإِنِّى أُعِيذُها بِكَ وَذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ) .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا الحمانى ، قال : ثنا قيس ، عن الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إلَّا وَقَدْ عَصَرَهُ الشَّيْطانُ

عَصْرَةً أَوْ عَصْرَتَيْنِ ، إلاَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَمَرْيَمَ . ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) » .

حدثنا ابن حميد ، قال ثنا هارون بن المغيرة ، عن عمرو بن أبي قيس ، عن سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : ما ولد مولود إلا وقد استهلّ ، غير المسيح بن مريم، لم يسلط عليه الشيطان ولم ينهزه .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا المنذر بن النعمان الأفطس ، أنه سمع وهب بن منبه يقول : لما ولد عيسى ، أتت الشياطين إبليس ، فقالوا : أصبحت الأصنام قد نكست رءوسها ، فقال : هذا في حادث حدث ، فقال : مكانكم ، فطار حتى جاء خافقى الأرض ، فلم يجد شيئا ، ثم جاء البحار ، فلم يجد شيئا ، ثم طار أيضا ، فوجد عيسى قد ولد عند مِذود حمار ، وإذا الملائكة قد حَفَّت حوله ، فرجع إليهم فقال : إن نبيا قد ولد البارحة ، ما حملت أنثى قط ولا وضعت ، إلا أنا بحضرتها ، إلا هذه ، فأيِسوا أن تعبد الأصنام بعد هذه الليلة ، ولكن ائتوا بنى آدم من قِبَل الخِفَّة والعَجَلة .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ). وذكر لنا أن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « كُلُّ بَنِي آدَمَ طَعَنَ الشَّيْطَانُ فِي جَنْبِهِ ، إلاَّ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ ، جُعِلَ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَهُ حِجَابٌ ، فَأَصَابَتِ الطَّعْنَةُ الحِجَابَ وَلَمْ يَنْفُذْ إِلَيْهِمَا شَيْءٌ » . وذكر لنا أنهما كانا لايصيبان الذنوب كما يصيبها سائر بنى آدم ، وذكر لنا أن عيسى كان يمشى على البحر كما يمشى على البرّ ، مما أعطاه الله تعالى من اليقين والإخلاص .

حدثنى المثنى ، قال : ثنى إسحاق ، قال : ثنا عبد الله بن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) قال : إن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم قال : « كُلُّ آدَمِيٍّ طَعَنَ الشَّيْطَانُ فِي جَنْبِهِ ، غَيْرَ عِيسَى وَأُمِّهِ ، كَانَا لايُصِيبَانِ الذُّنُوبَ كَمَا يُصِيبُهَا بَنُو آدَمَ » . قال : وقال عيسى صلى الله عليه وسلم فيما يثنى على ربه : وأعاذنى وأمى من الشيطان الرجيم ، فلم يكن له علينا سبيل .

حدثنا الربيع بن سليمان ، قال : ثنا شعيب بن الليث ، قال : ثنا الليث ، عن جعفر بن ربيعة ، عن عبد الرحمن بن هُرمز أنه قال : قال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كُلُّ بَنِي آدَمَ يَطْعُنُ الشَّيْطَانُ فِي جَنْبِهِ حِينَ تَلِدُهُ أُمُّهُ ، إلاَّ عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ ، ذَهَبَ يَطْعُنُ ، فَطَعَنَ فِي الحِجَابِ » .

حدثنا الربيع ، قال : ثنا شعيب ، قال : أخبرنا الليث ، عن جعفر بن ربيعة ، عن عبد الرحمن بن هرمز : أنه قال : قال أبو هريرة : أرأيت هذه الصَّرخة التي يصرخها الصبيّ حين تلده أمه ، فإنها منها .

حدثنى أحمد بن الفرج ، قال : ثنا بقية بن الوليد ، قال : ثنا الزبيدىّ ، عن الزهرىّ ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَامِنْ بَنِي آدَمَ مَوْلُودٌ إلاَّ يَمَسُّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُولَدُ ، يَسْتَهِلُّ صَارِخًا » .

القول فى تأويل قوله

فتقبلها ربها بقبول حسن، وأنبتها نباتا حسنا، وكفلها زكريا، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا، قال يامريم أنى لك هذا؟ قالت هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب (٣٧)

يعنى بذلك جل ثناؤه: تقبّل مريم من أمها حنة، بتحريرها إياها للكنيسة وخدمتها، وخدمة ربها، بقبول حسن. والقبول: مصدر من قبِلها ربها، فأخرج المصدر على غير لفظ الفعل، ولو كان على لفظه لكان فتقبلها ربها تقبلا حسنا. وقد تفعل العرب ذلك كثيرا، أن يأتوا بالمصادر على أصول الأفعال، وإن اختلفت ألفاظها فى الأفعال بالزيادة، وذلك كقولهم: تكلم فلان كلاما، ولو أخرج المصدر على الفعل لقيل: تكلم فلان تكلما، ومنه قوله (وأنبتها نباتا حسنا) ولم يقل: إنباتا حسنا. وذكر عن أبى عمرو بن العلاء أنه قال: لم نسمع العرب تضمّ القاف فى قبول، وكان القياس الضمّ، لأنه مصدر مثل الدخول والخروج. قال: ولم أسمع بحرف آخر فى كلام العرب يشبهه. حُدثت بذلك عن أبى عبيد، قال: أخبرنى اليزيدىّ عن أبى عمرو.

وأما قوله (وأنبتها نباتا حسنا) فإن معناه: وأنبتها ربها فى غذائه ورزقه نباتا حسنا، حتى تمت، فكملت امرأة بالغة تامة.

كما حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثنى حجاج، عن ابن جريج، قال الله عزّ وجلّ (فتقبلها ربها بقبول حسن) قال: تقبل من أمها ما أرادت بها للكنيسة، وآجرها فيها وأنبتها، قال: نبتت فى غذاء الله.

القول فى تأويل قوله (وكفلها زكريا):

اختلفت القراء فى قراءة قوله (وكفلها)؛ فقرأته عامة قراء أهل الحجاز والمدينة والبصرة (وكفلها) مخففة الفاء، بمعنى ضمها زكريا إليه، اعتبارا بقول الله عزّ وجلّ: (يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم)؟ وقرأ ذلك عامة قراء الكوفيين (وكفّلها زكريا) بمعنى: وكفلها اللهُ زكريا.

وأولى القراءتين بالصواب فى ذلك عندى: قراءة من قرأ (وكفّلها) مشددة الفاء، بمعنى: وكفلها الله زكريا، بمعنى: وضمها الله إليه، لأن زكريا أيضا ضمها إليه، بإيجاب الله له ضمها إليه، بالقرعة التى أخرجها الله له، والآية التى أظهرها لخصومه فيها، فجعله بها أولى منهم، إذ قرَع فيها من شاحّه فيها، وذلك أنه بلغنا أن زكريا وخصومه فى مريم إذ تنازعوا فيها أيهم تكون عنده، تساهموا بقداحهم، رمَوا بها فى نهر الأردنّ. فقال بعض أهل العلم: رتَب قِدْحُ زكريا، فقام، فلم يجر به الماء، وجرى بقداح الآخرين الماء، فجعل الله ذلك لزكريا، أنه أحقّ المتنازعين فيها.

(١) رتب: انتصب وثبت.

وقال آخرون : بل صعد قدح زكريا فى النهر ، وانحدرت قداح الآخرين مع جرية الماء وذهبت ، فكان ذلك له علمًا من الله فى أنه أولى القوم بها ، وأىّ الأمرين كان من ذلك؟ فلا شكّ أن ذلك كان قضاء من الله بها لزكريا على خصومه ، بأنه أولاهم بها ، وإذا كان ذلك كذلك . فإنما ضمها زكريا إلى نفسه بضم الله إياها إليه ، بقضائه له بها على خصومه عند تشاحّهم فيها ، واختصامهم فى أَولاهم بها .

وإذا كان ذلك كذلك كان بيّنا أن أولى القراءتين بالصواب : ما اخترنا من تشديد كفّلها . وأما ما اعتلّ به القارئون ذلك بتخفيف الفاء من قول الله (أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ) ، وأن ذلك موجب صحة اختيارهم التخفيف فى قوله (وكَفَلَها) ، فحجة دالة على ضعف اختيار المحتجّ بها ، وذلك أنه غير ممتنع ذو عقل من أن يقول قائل : كفّل فلان فلانا ، فكَفَله فلان ، فكذلك القول فى ذلك : ألقى القوم أقلامهم أيهم يكفل مريم ، بتكفيل الله إياه ، بقضائه الذى يقضى بينهم فيها ، عند إلقائهم الأقلام .

وكذلك اختلفت القراء فى قراءة زكريا ، فقرأته عامة قراء المدينة بالمدّ ، وقرأته عامة قراء الكوفة بالقصر ؛ وهما لغتان معروفتان ، وقراءتان مستفيضتان فى قراءة المسلمين . وليس فى القراءة بإحداهما خلاف لمعنى القراءة الأخرى ، فبأيّتهما قرأ القارئ فهو مصيب ،

غير أن الصواب عندنا إذا مدّ زكريا ، أن ينصب بغير تنوين ، لأنه اسم من أسماء العجم لا يُجْرَى . ولأن قراءتنا فى كفّلها بالتشديد وتثقيل الفاء ، فزكرياء منصوب بالفعل الواقع عليه . وفى زكريا لغة ثالثة لاتجوز القراءة بها ، لخلافها مصاحف المسلمين ، وهو زَكَرِىٌّ ، بحذف المدّة ، والياء الساكنة ، تشبهه العرب بالمنسوب من الأسماء فتنوّنه ، وتجريه فى أنواع الإعراب مجارى ياء النسبة .

فتأويل الكلام : وضمها الله إلى زكريا ، من قول الشاعر :

فَهُوَ لِضُلاَّلِ الهَوَامِ [1] كافِلُ

يراد أنه لِما ضَلّ من متفرّق النَّعَم ومنتشره ، ضامٌّ إلى نفسه وجامع ، وقد رُوى :

فَهُوَ لِضُلاَّلِ الهَوَافِى كافِلُ

بمعنى أنه لِما نَدّ فهرب من النعم ضامٌّ ، من قولهم : هفا الظليم : إذا أسرع الطيران ، يقال منه للرجل : مالك تكفُلُ كل ضالّة ، يعنى به : تضمها إليك وتأخذها .

وبنحو ما قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى عبد الرحمن بن الأسود الطُّفَاوىّ ، قال : ثنا محمد بن ربيعة ، عن النضر بن عربىّ ، عن عكرمة ، فى قوله (إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ) قال : ألقوا أقلامهم ، فجرت بها الجِرْيَة ، إلا قلم زكريا صاعدا ، فكفلها زكريا .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع قوله

(١) الهوام : جمع هامية ، هت الماشية : إذا ندت للرعى ، وهوامى الإبل : ضوالها ، التى لاراعى معها . حذفت منه الياء تخفيفا . ومعناها الهوافى فى الرواية الأخرى ، جمع هافية . ولم نعثر على بقية البيت ولا قائله .

(وكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا) قال : ضمها إليه ، قال : ألقوا أقلامهم ، يقول عصيهم ، قال : فألقوها تلقاء جرية الماء ، فاستقبلت عصا زكريا جِرْيَة الماء ، فقرعهم .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى ، قال الله عزّ وجلّ (فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ، وأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً) فانطلقت بها أمها فى خِرَقها ، يعنى أم مريم بمريم حين ولدتها إلى المحراب .

وقال بعضهم : انطلقت حين بلغت إلى المحراب ، وكان الذين يكتبون التوراة إذا جاءوا إليهم بإنسان يجرّبونه ، اقترعوا عليه أيهم يأخذه فيعلمه ، وكان زكريا أفضلهم يومئذ وكان بينهم ، وكانت خالة مريم تحته ، فلما أتوا بها اقترعوا عليها ، وقال لهم زكريا : أنا أحقكم بها ، تحتى خالتها ، فأبوا ، فخرجوا إلى نهر الأردنّ ، فألقوا أقلامهم التى يكتبون بها ، أيهم يقوم قلمه فيكفلها ، فجرت الأقلام وقام قلم زكريا على قُرْنته[1] ، كأنه فى طين ، فأخذ الجارية ، وذلك قول الله عزّ وجلّ (وكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا) ، فجعلها زكريا معه فى بيته ، وهو المحراب .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (وكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا) يقول : ضمها إليه .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله (وكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا) قال : سَهَمَهُم[2] بقلمه .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، نحوه .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن قتادة ، قال : كانت مريم ابنة سيدهم وإمامهم ، قال : فتشاحّ عليها أحبارهم ، فاقترعوا فيها بسهامهم أيهم يكفلها ؟ قال قتادة : وكان زكريا زوج أختها فكفلها ، وكانت عنده وحضنها .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن القاسم بن أبى بزّة ، أنه أخبره ، عن عكرمة ، وأبى بكر ، عن عكرمة ، قال : ثم خرجت بها ، يعنى أمّ مريم بمريم ، فى خِرَقها ، تحملها إلى بنى الكاهن بن هارون ، أخى موسى بن عمران ، قال : وهم يومئذ يلون من بيت المقدس ما يلى الحجَبة من الكعبة ، فقالت لهم : دونكم هذه النذيرة ، فإنى حرّرتها ، وهى ابنتى ، ولا يدخل الكنيسة حائض ، وأنا لا أردّها إلى بيتى . فقالوا : هذه ابنة إمامنا ، وكان عمران يؤمهم فى الصلاة ، وصاحب قربانهم . فقال زكريا : ادفعوها إلىّ ، فإن خالتها عندى ، قالوا : لا تطيب أنفسنا ، هى ابنة إمامنا ، فذلك حين اقترعوا ، فاقترعوا بأقلامهم عليها ، بالأقلام التى يكتبون بها التوراة ، فقرعهم زكريا فكفلها .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : أخبرنى يعلَى بن مسلم ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : جعلها زكريا معه فى محرابه ، قال الله عزّ وجلّ (وكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا) قال حجاج : قال ابن جريج : الكاهن فى كلامهم : العالم .

---

(١) القرنة ، بضم القاف : الطرف الشاخص من كل شىء ، يقال : قرنة الجبل والسهم والرمح (اللسان) .
(٢) أى غلبهم وفلج عليهم . يقال : ساهمه على الشىء ، فسهمه ، أى غلبه عليه .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير (وكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا) بعد أبيها وأمها ، يذكرها باليتم ، ثم قص خبرها وخبر زكريا .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا الحمانى ، قال : ثنا شريك ، عن عطاء ، عن سعيد بن جبير قوله (وكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا) قال : كانت عنده .

حدثنى علىّ بن سهل ، قال : ثنا حجاج ، عن ابن جريج ، عن يعلى بن مسلم ، عن سعيد بن جبير ، قوله (وكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا) قال : جعلها زكريا معه فى محرابه .

حدثنى محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفىّ ، عن عباد ، عن الحسن فى قوله (فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ، وأَنْبَتَهَا نباتاً حَسَناً) ، وتقارعها القوم ، فقرع زكريا ، فكفلها زكريا .

وقال آخرون : بل كان زكريا بعد ولادة حنة ابنتها مريم ، كفلها بغير اقتراع ، ولا استهام عليها ، ولا منازعة أحد إياه فيها ، وإنما كفلها لأن أمها ماتت بعد موت أبيها وهى طفلة ، وعند زكريا خالتها إيشاع ابنة فاقوذ ؛ وقد قيل : إن اسم أمّ يحيى خالة عيسى : أشيع .

حدثنا بذلك القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : أخبرنى وهب ابن سليمان ، عن شعيب الجبائى أن اسم أمّ يحيى : أَشْيِع ، فضمها إلى خالتها أمّ يحيى ، فكانت إليهم ومعهم ، حتى إذا بلغت أدخلوها الكنيسة ، لنذر أمها التى نذرت فيها ، قالوا : والاقتراع فيها بالأقلام ، إنما كان بعد ذلك بمدة طويلة ، لشدة إصابتهم ضعف زكريا عن حمل مؤنتها ، فتدافعوا حمل مؤنتها ، لا رغبة منهم ، ولا تنافسا عليها وعلى احتمال مؤنتها . وسنذكر قصتها على قول من قال ذلك إذا بلغنا إليها إن شاء الله تعالى .

حدثنا بذلك ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : ثنى محمد بن إسحاق .

فعلى هذا التأويل تصحّ قراءة من قرأ (وكَفَلَهَا زَكَرِيَّا) ، بتخفيف الفاء لو صحّ التأويل ، غير أن القول متظاهر من أهل التأويل بالقول الأول : أن استهام القوم فيها كان قبل كفالة زكريا إياها ، وأن زكريا إنما كفلها بإخراج سهمه منها فالجا على سهام خصومه فيها ، فلذلك كانت قراءته بالتشديد عندنا ، أولى من قراءته بالتخفيف .

القول فى تأويل قوله (كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا) :

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : أن زكريا كان كلما دخل عليها المحراب بعد إدخاله إياها المحراب ، وجد عندها رزقا من الله لغذائها ، فقيل : إن ذلك الرزق الذى كان يجده زكريا عندها ، فاكهة الشتاء فى الصيف ، ، فاكهة الصيف فى الشتاء .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا الحسن بن عطية ، عن شريك ، عن عطاء ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا) قال : وجد عندها عنبا فى مِكْتَل فى غير حينه .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا حكام ، عن عمرو ، عن عطاء ، عن سعيد فى قوله (كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً) قال : العنب فى غير حينه .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا مغيرة ، عن إبراهيم فى قوله (وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً) : قال : فاكهة فى غير حينها .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا أبو إسحاق الكوفىّ ، عن الضحاك أنه كان يجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء ، وفاكهة الشتاء فى الصيف ، يعنى فى قوله (وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقا) .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن سلمة بن نُبَيط ، عن الضحاك ، مثله .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عمرو ، قال : أخبرنا هشيم ، عن بعض أشياخه ، عن الضحاك ، مثله .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : أخبرنا هشيم ، قال : أخبرنا جويبر ، عن الضحاك ، مثله .

حدثنا يعقوب ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا من سمع الحكم بن عتيبة يحدّث ، عن مجاهد : قال : كان يجد عندها العنب فى غير حينه .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله (وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً) قال : عنبا وجده زكريا عند مريم فى غير زمانه .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، نحوه .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، قال : ثنا النضر بن عربىّ ، عن مجاهد فى قوله (وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً) قال : فاكهة الصيف فى الشتاء ، وفاكهة الشتاء فى الصيف .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة فى قوله (كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً) قال : كنا نحدّث أنها كانت تؤتّى بفاكهة الشتاء فى الصيف ، وفاكهة الصيف فى الشتاء .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة (وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً) قال : وجد عندها ثمرة فى غير زمانها .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قال : جعل زكريا دونها عليها سبعة أبواب ، فكان يدخل عليها ، فيجد عندها فاكهة الشتاء فى الصيف ، وفاكهة الصيف فى الشتاء .

حدثنى موسى بن عبد الرحمن ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، قال : جعلها زكريا معه فى بيت ، وهو المحراب ، فكان يدخل عليها فى الشتاء ، فيجد عندها فاكهة الصيف ، ويدخل فى الصيف فيجد عندها فاكهة الشتاء .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ ، قال : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً) قال : كان يجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : أخبرنى يعلى بن مسلم ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيَّا المِحْرابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً) قال : وجد عندها ثمار الجنة : فاكهة الصيف فى الشتاء ، وفاكهة الشتاء فى الصيف .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قال : ثنى بعض أهل العلم أن زكريا كان يجد عندها ثمرة الشتاء فى الصيف ، وثمرة الصيف فى الشتاء .

حدثنى محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفىّ ، عن عباد ، عن الحسن ، قال : كان زكريا إذا دخل عليها ، يعنى على مريم المحراب وجد عندها رزقا من السماء من الله ، ليس من عند الناس ، وقالوا : لو أن زكريا كان يعلم أن ذلك الرزق من عنده لم يسألها عنه .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : أن زكريا كان إذا دخل إليها المحراب وجد عندها من الرزق فضلا عما كان يأتيها به الذى كان يمونها فى تلك الأيام .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : ثنى محمد بن إسحاق ، قال : كفلها بعد هلاك أمها ، فضمها إلى خالتها أم يحيى ، حتى إذا بلغت ، أدخلوها الكنيسة ، لنذر أمها الذى نذرت فيها ، فجعلت تنبت وتزيد ، قال : ثم أصابت بنى إسرائيل أَزْمة ، وهى على ذلك من حالها ، حتى ضعف زكريا عن حملها ، فخرج على بنى إسرائيل ، فقال : يا بنى إسرائيل أتعلمون ، والله لقد ضعفت عن حمل ابنة عمران ، فقالوا : ونحن لقد جُهدنا ، وأصابنا من هذه السنة ما أصابكم ، فتدافعوها بينهم ، وهم لايرون لهم من حملها بدًّا ، حتى تقارعوا بالأقلام ، فخرج السهم بحملها على رجل من بنى إسرائيل نجار ، يقال له جُرَيج ، قال : فعرفت مريم فى وجهه شدّة مؤنة ذلك عليه ، فكانت تقول له : يا جريج أحسن بالله الظنّ ، فإن الله سيرزقنا ، فجعل جريج يُرْزق بمكانها ، فيأتيها كل يوم من كسبه بما يصلحها ، فإذا أدخله عليها وهى فى الكنيسة ، أنماه الله وكثّره ، فيدخل عليها زكريا فيرى عندها فضلا من الرزق ، وليس بقدر ما يأتيها به جريج ، فيقول : يا مريم أنى لك هذا ؟ فتقول : هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

وأما المِحراب : فهو مقدَّم كل مجلس ومصلًّى ، وهو سيد المجالس وأشرفها وأكرمها ، وكذلك هو من المساجد ، ومنه قول عدىّ بن زيد :

كَدُمَى العاجِ فى المَحارِيب أو كالْـــــبَيْضِ فى الروضِ زَهْرُه مُسْتَنيرُ[1]

والمحاريب : جمع محراب ، وقد يجمع على محارب .

---

(١) عدى بن زيد التيمى كان نصرانيا عباديا كعباد الحيرة . والدمى : جمع دمية ، وهى التمثال من العاج أو الرخام يضعه النصارى فى بيوت العبادة . والمحراب كما فى لسان العرب : صدر البيت ، وأكرم موضع فيه ، وهو أيضا الغرفة يرتقى إليها . وعند العامة : مقام الإمام فى المسجد . والقبلة ، والمساجد التى يجتمع فيها الناس للصلاة .

شبه نساء حسانا مشرقات الوجوه ، بتماثيل من العاج فى بيوت العبادة عندهم ، أو بالبيض تضعه النعامة فى روضة مزهرة ، ليكون أبعد له من الدنس .

القول فى تأويل قوله (قالَ يا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هذا ؟ قالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، إنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ) :

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : قال زكريا : يا مريم ! أنى لك هذا ؟ من أىّ وجه لك هذا الذى أرى عندك من الرزق ؟ قالت مريم مجيبة له : هو من عند الله ، تعنى أن الله هو الذى رزقها ذلك ، فساقه إليها وأعطاها ، وإنما كان زكريا يقول ذلك لها ، لأنه كان فيما ذكر لنا يغلق عليها سبعة أبواب ، ويخرج ثم يدخل عليها ، فيجد عندها فاكهة الشتاء فى الصيف ، وفاكهة الصيف فى الشتاء ، فكان يعجب مما يرى من ذلك ، ويقول لها تعجبا مما يرى : أنى لك هذا ؟ فتقول : من عند الله .

حدثنى بذلك المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قال : ثنى بعض أهل العلم ، فذكر نحوه .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس قوله (يامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هذا؟ قالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ) قال : فإنه وجد عندها الفاكهة الغضة ، حين لاتوجد الفاكهة عند أحد ، فكان زكريا يقول : يا مريم أنى لك هذا ؟

وأما قوله (إنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ) : فخبر من الله أنه يسوق إلى من يشاء من خلقه رزقه ، بغير إحصاء ولاعدد يحاسب عليه عبده ، لأنه جل ثناؤه لاينقص سوقه ذلك إليه ، كذلك خزائنه ، ولا يزيد إعطاؤه إياه ، ومحاسبته عليه فى ملكه ، وفيما لديه شيئا ، ولا يعزب عنه علم ما يرزقه ، وإنمايحاسب من يعطى مايعطيه من يخشى النقصان من ملكه ، بخروج ماخرج من عنده بغير حساب معروف ، ومن كان جاهلا بما يعطى على غير حساب .

القول فى تأويل قوله

هُنالِكَ دَعا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ، قالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ، إنَّكَ سَمِيعُ الدُّعاءِ (٣٨)

أماقوله : (هُنالِكَ دَعا زَكَرِيَّا رَبَّهُ) فمعناه : عند ذلك ، أى عند رؤية زكريا ما رأى عند مريم من رزق الله الذى رزقها ، وفضله الذى آتاها من غير تسبب أحد من الآدميين فى ذلك لها ، ومعاينته عندها الثمرة الرطبة التى لاتكون فى حين رؤيته إياها عندها فى الأرض ، طمع فى الولد مع كبر سنه من المرأة العاقر ، فرجا أن يرزقه الله منها الولد مع الحال التى هما بها ، كما رزق مريم على تخليها من الناس ما رزقها ، من ثمرة الصيف فى الشتاء ، وثمرة الشتاء فى الصيف ، وإن لم يكن مثله مما جرت بوجوده فى مثل ذلك الحين العادات فى الأرض ، بل المعروف فى الناس غير ذلك ، كما أن ولادة العاقر غيرُ الأمرِ الجارية به العادات فى الناس ، فرغب إلى الله جل ثناؤه فى الولد ، وسأله ذريّة طيبة ، وذلك أن أهل بيت زكريا فيما ذكر لنا ، كانوا قد انقرضوا فى ذلك الوقت .

كما حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، فلما رأى زكريا من حالها ذلك .

يعنى فاكهة الصيف فى الشتاء ، وفاكهة الشتاء فى الصيف ، قال : إن ربا أعطاها هذا فى غير حينه ، لقادر على أن يرزقنى ذرّية طيبة ، ورغب فى الولد ، فقام فصلى ، ثم دعا ربه سرًا ، فقال : (رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ، وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي ، وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا ، فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ، يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ، وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا) ، وقوله : (رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ، إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ) . و (قَالَ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ) .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : أخبرنى يَعْلى بن مسلم ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : فلما رأى ذلك زكريا ، يعنى فاكهة الصيف فى الشتاء ، وفاكهة الشتاء فى الصيف عند مريم ، قال : إن الذى يأتى بهذا مريم فى غير زمانه ، قادر أن يرزقنى ولدا ، قال الله عزّ وجلّ (هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ) قال : فذلك حين دعا .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن أبى بكر ، عن عكرمة ، قال : فدخل المحراب ، وغلق الأبواب ، وناجى ربه ، فقال : (رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا) ... إلى قوله (رَبِّ رَضِيًّا - فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ : أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ) . . . الآية .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قال : ثنى بعض أهل العلم ، قال : فدعا زكريا عند ذلك بعدما أسنّ ، ولا ولد له ، وقد انقرض أهل بيته ، فقال (رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ) ، ثم شكا إلى ربه ، فقال (رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا) ... إلى (وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا - فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ) ... الآية .

وأما قوله (رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً) فإنه يعنى بالذرية : النسل ، وبالطيبة المباركة .

كما حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، (قال : رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً) يقول : مباركة .

وأما قوله (مِنْ لَدُنْكَ) فإنه يعنى من عندك . وأما الذرية : فإنها جمع ، وقد تكون فى معنى الواحد ، وهى فى هذا الموضع الواحد ، وذلك أن الله عزّ وجلّ قال فى موضع آخر مخبرا عن دعاء زكريا (فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا) ، ولم يقل أولياء ، فدلّ على أنه سأل واحدا ، وإنما أنث طيبة لتأنيث الذرية ، كما قال الشاعر :

أَبُوكَ خَلِيفَةٌ وَلَدَتْهُ أُخْرَى وَأَنْتَ خَلِيفَةٌ ، ذَاكَ الْكَمَالُ[1]

فقال : ولدته أخرى ، فأنث وهو ذكر ، لتأنيث لفظ الخليفة ، كما قال الآخر :

(١) البيت غير منسوب وهو من شواهد الفراء . وذكره صاحب اللسان : (خلف) قال : الخليفة السلطان الأعظم ، وقد يؤنث . وأنشد الفراء (البيت) قال : ولدته أخرى لتأنيث اسم الخليفة . والوجه أن يكون : ولده آخر .

كما يزدري من حية جبلية	سكاب إذا ما عض ليس بأدردا(١)

فأنث الجبلية لتأنيث لفظ الحية ، ثم رجع إلى المعنى فقال : إذا ما عض ، لأنه كان أراد حية ذكرا . وإنما يجوز هذا فيما لم يقع عليه «فلان» من الأسماء ، كالدابة والذرية والخليفة . فأما إذا سمى رجل بشيء من ذلك ، فكان في معنى « فلان » لم يجز تأنيث فعله ولا نعته .

وأما قوله (إنك سميع الدعاء) فإن معناه : إنك سامع الدعاء ، غير أن سميع أمدح ، وهو بمعنى ذو سمع له . وقد زعم بعض نحويى البصرة أن معناه : إنك تسمع ما تدعى به .

فتأويل الآية : فعند ذلك دعا زكريا ربه فقال : رب هب لى من عندك ولدا مباركا ، إنك ذو سمع دعاء من دعاك .

القول فى تأويل قوله

﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ : أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٣٩) ﴾

اختلفت القراء فى قراءة ذلك . فقرأته عامة قراء أهل المدينة وبعض أهل الكوفة والبصرة (فَنَادَتْهُ الملائِكَةُ) على التأنيث بالتاء ، يراد بها : جمع الملائكة . وكذلك تفعل العرب فى جماعة الذكور إذا تقدمت أفعالها ، أنثت أفعالها ، ولا سيما الأسماء التى فى ألفاظها التأنيث كقولهم : جاءت الطلحات .

وقد قرأ ذلك جماعة من أهل الكوفة بالياء ، بمعنى : فناداه جبريل ، فذكروه للتأويل ، كما قد ذكرنا آنفا أنهم يؤنثون فعل الذكر للفظ ، فكذلك يذكرون فعل المؤنث أيضا للفظ ، واعتبروا ذلك فيما أرى بقراءة يذكر أنها قراءة عبد الله بن مسعود .

وهو ما حدثنى به المثنى ، قال : ثنا إسحاق بن الحجاج ، قال : ثنا عبد الرحمن بن أبى حماد : أن قراءة ابن مسعود : (فناداه جبريل وهو قائم يصلى فى المحراب) . وكذلك تأول قوله (فَنَادَتْهُ الملائِكَةُ) جماعةٌ مِنْ أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (فَنَادَتْهُ الملائِكَةُ) وهو جبريل أو (قالت الملائكة) ، وهو جبريل (أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى) .

فإن قال قائل : وكيف جاز أن يقال على هذا التأويل (فَنَادَتْهُ الملائِكَةُ) والملائكة جمع لا واحد ؟ قيل : ذلك جائز فى كلام العرب ، بأن تخبر عن الواحد بمذهب الجمع ، كما يقال فى الكلام : خرج فلان على بغال البرد ، وإنما ركب بغلا واحدا ، وركب السفن ، وإنما ركب سفينة واحدة ، وكما يقال : ممن سمعت

(١) فى اللسان (حيى) : الحية تكون للذكر والأنثى ، وإنما دخلته التاء لأنه واحد من جنس ، مثل بطة ودجاجة . والازدراء : الاحتقار . وسكاب : اسم فرس . والأدرد : الذى ذهبت أسنانه ، وهو من صفة حية ، لأنه أراد حية ذكرا ليس بأدرد .

هذا الخبر ؟ فيقال : من الناس ، وإنما سمعه من رجل واحد ؛ وقد قيل : إن منه قوله : (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ : إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ) ، والقائل كان فيما ذكر واحدا ، وقوله (وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ) ، والناس بمعنى واحد ، وذلك جائز عندهم فيما لم يقصد فيه قصد واحد .

وإنما الصواب من القول عندى فى قراءة ذلك : أنهما قراءتان معروفتان ، أعنى التاء والياء . فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب . وذلك أنه لا اختلاف فى معنى ذلك باختلاف القراءتين ، وهما جميعا فصيحتان عند العرب ؛ وذلك أن الملائكة إن كان مرادا بها جبريل ، كما رُوى عن عبد الله ، فإن التأنيث فى فعلها فصيح فى كلام العرب ، للفظها إن تقدمها الفعل ، وجائز فيه التذكير لمعناها . وإن كان مرادا بها جمع الملائكة فجائز فى فعلها التأنيث ، وهو من قِبَلها للفظها ، وذلك أن العرب إذا قدمت على الكثير من الجماعة فعلها أنثته ، فقالت : قالت النساء ، وجائز التذكير فى فعلها بناء على الواحد إذا تقدم فعله ، فيقال : قال الرجال .

وأما الصواب من القول فى تأويله ، فأن يقال : إن الله جلّ ثناؤه ، أخبر أن الملائكة نادته ، والظاهر من ذلك أنها جماعة من الملائكة دون الواحد ، وجبريل واحد ، فلن يجوز أن يحمل تأويل القرآن إلا على الأظهر الأكثر من الكلام المستعمل فى ألسن العرب ، دون الأقلّ ، ماوُجد إلى ذلك سبيل ، ولم يضطرّنا حاجة إلى صرف ذلك إلى أنه بمعنى واحد ، فيحتاج له إلى طلب المخرج بالخفىّ من الكلام والمعانى .

وبما قلنا فى ذلك من التأويل ، قال جماعة من أهل العلم ، منهم قتادة والربيع بن أنس وعكرمة ومجاهد وجماعة غيرهم ، وقد ذكرنا ما قالوا من ذلك فيما مضى .

القول فى تأويل قوله (وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى) :

وتأويل قوله (وَهُوَ قَائِمٌ) : فنادته الملائكة فى حال قيامه مصليا ، فقوله (وَهُوَ قَائِمٌ) : خبر عن وقت نداء الملائكة زكريا ؛ وقوله (يُصَلِّي) : فى موضع نصب على الحال من القيام ، وهو رفع بالياء . وأما المحراب : فقد بيّنا معناه ، وأنه مقدّم المسجد .

واختلفت القرّاء فى قراءة قوله (أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ) فقرأته عامة القرّاء (أَنَّ اللَّهَ) بفتح الألف من أنّ ، بوقوع النداء عليها ، بمعنى فنادته الملائكة بذلك ، وقرأه بعض قرّاء أهل الكوفة (إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ) بكسر الألف بمعنى : قالت الملائكة : إن الله يبشرك ، لأن النداء قول ؛ وذكروا أنها فى قراءة عبد الله : فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب : يا زكريا إن الله يبشرك ؛ قالوا : وإذا بطل النداء أن يكون عاملا فى قوله : يازكريا ، فباطل أيضا أن يكون عاملا فى إنّ .

والصواب من القراءة فى ذلك عندنا : (أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ) بفتح أنّ ، بوقوع النداء عليه ، بمعنى : فنادته الملائكة بذلك . وليست العلة : التى [1] اعتلّ بها القارئون بكسر إن ، من أن عبد الله كان يقرؤها كذلك . وذلك أن عبد الله إن كان قرأ ذلك كذلك ، فإنما قرأها بزعمهم وقد اعترض «بيازكريا» بين إنّ ، وبين قوله

(١) التى : خبر ليست العلة .

فنادته ، وإذا اعترض به بينهما ، فإن العرب تُعمِل حينئذ النداء فى أنّ ، وتبطله عنها . أما الإبطال ، فإنه بطل عن العمل فى المنادى قبله ، فأسلكوا الذى بعده مسلكه فى بطول عمله . وأما الإعمال ، فلأن النداء فعل واقع كسائر الأفعال . وأما قراءتنا فليس نداء زكريا « بيازكريا » ، معترضا به بين « أنّ » وبين قوله : فنادته ، وإذلم يكن ذلك بينهما ، فالكلام الفصيح من كلام العرب إذ نصبت بقول ناديت اسمَ المنادى ، وأوقعوه عليه ، أن يوقعوه كذلكَ على أنّ بعده ، وإن كان جائزا إبطال عمله ، فقوله : نادته ، قد وقع على مكنىِّ زكريا ، فكذلك الصواب أن يكون واقعا على أنّ ، وعاملا فيها ، مع أن ذلك هو القراءة المستفيضة فى قراءة أمصار الإسلام ، ولا يعترض بالشاذّ على الجماعة التى تجىء مجىء الحجة .

وأما قوله (يُبَشِّرُكَ) فإن القرّاء اختلفت فى قراءته ، فقرأته عامة قرّاء أهل المدينة والبصرة (أنّ اللهَ يُبَشِّرُكَ) بتشديد الشين ، وضمّ الياء ، على وجه تبشير الله زكريا بالولد ، من قول الناس : بَشَّرْتُ فلانا البشرى بكذا وكذا : أى أتته بشارات البشرى بذلك .

وقرأ ذلك جماعة من قرّاء الكوفة وغيرهم (إنّ اللهَ يَبْشُرُكَ) : بفتح الياء وضمّ الشين وتخفيفها . بمعنى : أن الله يسرّك بولد يهبه لك ، من قول الشاعر :

بَشَرْتُ عيالى إذْ رأيْتُ صَحيفَــةً　　أتَتْكَ مِنَ الحَجَّاجِ يُتْلَى كِتابُها[1]

وقد قيل : إن بشرت لغة أهل تِهامة من كنانة وغيرهم من قريش ، وأنهم يقولون : بشرت فلانا بكذا فأنا أبشره بشرا ، وهل أنت باشر بكذا ، وينشد لهم البيت فى ذلك :

وإذَا رأيْتُ الباهِشِينَ إلى العُــلا　　غُــبْرًا أكفُّهُمْ بقاعٍ مُمْحِلُ

فأعِنْهُمُ وَابْشَرْ بِمَا بَشِرُوا بِهِ　　وَإذَا هُمُ نَزَلُوا بِضَنْكٍ فانْزِلِ[2]

فإذا صاروا إلى الأمر ، فالكلام الصحيح من كلامهم بلا ألف ، فيقال : أبشر فلانا بكذا ، ولا يكادون يقولون : بَشَّره بكذا ، ولا أبشره .

وقد روى عن حميد بن قيس أنه كان يقرأ (يُبْشِرُكَ) بضم الياء . وكسر الشين وتخفيفها .

وقد حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا عبد الرحمن بن أبى حماد ، عن معاذ الكوفى ، قال : من قرأ يبشّرهم مثقلة ، فإنه من البشارة ، ومن قرأ يبشرهم مخففة بنصب الياء ، فإنه من السرور يسرّهم .

والقراءة التى هى القراءة عندنا فى ذلك : ضمّ الياء وتشديد الشين ، بمعنى التبشير ، لأن ذلك هى اللغة السائرة ، والكلام المستفيض المعروف فى الناس ، مع أن جميع قرّاء الأمصار مجمعون فى قراءة (فَبِمَ تُبَشِّرُونَ) ، على التشديد . والصواب فى سائر ما فى القرآن من نظائره ، أن يكون مثله فى التشديد وضم الياء .

---

(١) هذا البيت مما رواه الفراء عن بعض العرب فى تفسيره (معانى القرآن . طبعة دار الكتب المصرية صفحة ٢١٢) . وفى (اللسان : بشر) : بشرت الرجل أبشره بشرا وبشورا (من باب نصر) : من البشرى . وكذلك الإبشار والتبشير . ثلاث لغات . يقال : بشرته بمولود ، فأبشر إبشارا ، أى سر . وبشرت بكذا (بكسر الشين) أبشر : أى استبشرت به .

(٢) أورد البيتين الفراء فى معانى القرآن وصاحب اللسان فى (بشر) ونسبهما إلى عطية بن زيد شاعر جاهلى . وقال ابن برى : هو لعبد القيس بن خفاف البرجمى ، واستشهد به على أن بشرت بكذا بالكسر أبشر : أى استبشرت به . ثم قال : ويروى : وبسر بما يسروا به . وبهش إلى الشىء : نظر إليه ، فأعجبه واشتهاه فتناوله ، وأسرع نحوه وفرح به .

وأما ما روى عن معاذ الكوفيّ ، من الفرق بين معنى التخفيف والتشديد فى ذلك ، فلم نجد أهل العلم بكلام العرب يعرفونه من وجه صحيح ، فلا معنى لما حُكى من ذلك عنه ، وقد قال جرير بن عطية :

يا بِشْرُ حُقَّ لِبِشْرِكَ التَّبْشِيرُ هَلاَّ غَضِبتَ لنا وأنْتَ أميرُ[1]

فقد علم أنه أراد بقوله التبشير : الجمال والنضارة والسرور . فقال التبشير ،ولم يقل البِشْر ، فقد بين ذلك أن معنى التخفيف والتثقيل فى ذلك واحد .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، قوله (أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى) قال : بشرته الملائكة بذلك .

وأما قوله (بِيَحْيَى) فإنه اسم صلة[2] يَفْعَل ، من قول القائل : حيى فلان فهو يحيا ، وذلك إذا عاش ، فيحيى يَفْعَل ،من قولهم حيي ،وقيل : إن الله جلّ ثناؤه سماه بذلك لأنه يتأوّل اسمه : أحياه بالإيمان .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى) يقول : عبد أحياه الله بالإيمان .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن قتادة قوله (أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى) قال : إنَّما سمى يحيى ، لأن الله أحياه بالإيمان .

القول فى تأويل قوله (مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ) :

يعنى بقوله جلّ ثناؤه : أن الله يبشرك يا زكريا بيحيى ابنا لك ، مصدّقا بكلمة من الله ، يعنى بعيسى ابن مريم ، ونصب قوله مصدّقا على القطع من يحيى ، لأن مصدقا نعت له ، وهو نكرة ، ويحيى غير نكرة .

وبنحو ما قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى عبد الرحمن بن الأسود الطُّفاويّ ، قال : ثنا محمد بن ربيعة ، قال : ثنا النضْر بن عربىّ ، عن مجاهد ، قال : قالت امرأة زكريا لمريم : إنى أجد الذى فى بطنى يتحرّك للذى فى بطنك ، قال : فوضعت امرأة زكريا يحيى ، ومريم عيسى ، ولذا قال (مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ) قال : يحيى مصدّق بعيسى .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن الرّقاشىّ فى قول الله (يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ) قال : مصدّقا بعيسى بن مريم .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا سليمان ، قال : ثنا أبو هلال ، قال : ثنا قتادة فى قوله (مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ) قال : مصدّقا بعيسى .

---

(١) فى اللسان (بشر) : وقوله عز وجل : « إن الله يبشرك » . وقرئ يبشرك (كينصرك) قال الفراء : كأن المشدد منه على بشارات البشراء ، وكأن المخفف من وجه الإفراح والسرور . وهذا شىء كان المشيخة يقولونه . قلت : هذا الذى أشار إليه المؤلف هنا ، وشكك فى صحته .

(٢) أى متعلق بالفعل الذى قبله ، ومتمم لمعناه .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ) يقول : مصدّق بعيسى بن مريم ، وعلى سنّته ومنهاجه .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة في قوله (مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ) : يعني : عيسى بن مريم .

حدثني المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا عبد الله بن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن قتادة (مصدّقاً بكلمة من الله) يقول : مصدّقا بعيسى بن مريم ، يقول : على سنّته ومنهاجه .

حدثني المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ) قال : كان أوّل رجل صدّق عيسى ، وهو كلمة من الله وروح .

حدثني موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ) : يصدّق بعيسى .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ ، قال : أخبرنا عبيد بن سليمان ، قال : سمعت الضحاك يقول في قوله (إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ) : كان يحيى أوّل من صدّق بعيسى ، وشهد أنه كلمة من الله ، وكان يحيى ابن خالة عيسى ، وكان أكبر من عيسى .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبي ، عن إسرائيل ، عن سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قوله (مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ) : قال : عيسى بن مريم هو الكلمة من الله ، اسمه المسيح .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : أخبرني حجّاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس ، قوله (مصدّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ) قال : كان عيسى ويحيى ابني خالة ، وكانت أم يحيى تقول لمريم : إني أجد الذي في بطني يسجد للذي في بطنك ، فذلك تصديقه بعيسى ، سجوده في بطن أمه ، وهو أوّل من صدّق بعيسى ، وكلمةِ عيسى ، ويحيى أكبر من عيسى .

حدثني محمد بن سعد ، قال : ثني أبي ، قال : ثني عمي ، قال : ثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس (أنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ) قال : الكلمة التي صدّق بها عيسى .

حدثني موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، قال : لقيتْ أمّ يحيى أمّ عيسى ، وهذه حامل بيحيى ، وهذه حامل بعيسى ، فقالت امرأة زكريا : يامريم ، استشعرتُ أني حبلى ، قالت : مريم : استشعرت أني أيضا حبلى ، قالت امرأة زكريا : فإني وجدت ما في بطني يسجد لما في بطنك ، فذلك قوله (مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ) .

حدثني محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفيّ ، عن عباد ، عن الحسن ، في قول الله (أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ) قال : مصدّقا بعيسى بن مريم .

وقد زعم بعض أهل العلم بلغات العرب من أهل البصرة ، أن معنى قوله (مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ)

بكتاب من الله ، من قول العرب : أنشدنى فلان كلمة كذا ، يراد به قصيدة كذا ، جهلا منه بتأويل الكلمة ، واجتراء على ترجمة القرآن برأيه .

القول فى تأويل قوله (وَسَيِّدًا) :

يعنى بقوله جلّ ثناؤه (وَسَيِّدًا) : وشريفا فى العلم والعبادة ، ونصب السيد عطفا على قوله مصدّقا .

وتأويل الكلام : أن الله يبشرك بيحيى مصدّقا بهذا وسيدا . والسيد : الفَيْعِل ، من قول القائل : ساد يسود .

كما حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (وسَيِّدا) : إى والله ، لَسيد فى العبادة والحلم والعلم والوَرَع .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا مسلم ، قال : ثنا أبو هلال ، قال : ثنا قتادة، فى قوله (وَسَيِّدًا) قال : السيد : لاأعلمه إلا قال فى العلم والعبادة .

حُدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن قتادة ، قال : السيد : الحليم .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن شريك ، عن سالم الأفطس ، عن سعيد بن جبير (وَسَيِّدًا) : قال : الحليم .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا الحِمّانى ، قال: ثنا شريك ، عن سالم ، عن سعيد بن جبير (وَسَيِّدًا) : قال : السيد : التقىّ .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد، فى قول الله عزّ وجلّ (وَسَيِّدًا) قال : السيد : الكريم على الله .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، قال: زعم الرَّقاشىّ : أن السيد : الكريم على الله.

حدثنى المثنى ، قال: ثنا عمرو بن عون ، قال : أخبرنا هشيم ، عن جويبر ، عن الضحاك، فى قول الله عزّ وجلّ (وَسَيِّدًا) قال : السيد : الحليم التقىّ .

حدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ ، قال : أخبرنا عبيد بن سليمان ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (وَسَيِّدًا) قال: يقول : تقيا حليما .

حدثنى المثنى ، قال: ثنا إسحاق ، قال: ثنا عبد الرحمن بن مهدىّ ، عن سفيان فى قوله (وَسَيِّدًا) : قال : حليما تقيا .

حدثنى يونس ، قال: أخبرنا ابن وهب، عن ابن زيد، فى قوله (وَسَيِّدًا) قال : السيد : الشريف.

حدثنى سعيد بن عمرو السكونى ، قال : ثنا بقية بن الوليد ، عن عبد الملك ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب ، فى قول الله عزّ وجلّ (وَسَيِّدًا) قال : السيد : الفقيه العالم .

حدثنى محمد بن سعد ، قال: ثنى أبى ، قال : ثنى عمى، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس: (وَسَيِّدًا) قال : يقول : حليما تقيا .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن أبي بكر ، عن عكرمة (وَسَيِّدًا) قال : السيد الذى لايغلبه الغضب .

القول فى تأويل قوله (وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ) :

يعنى بذلك : ممتنعا من جماع النساء ، من قول القائل : حَصِرت من كذا أحصر : إذا امتنع منه ؛ ومنه قولهم : حَصِر فلان فى قراءته : إذا امتنع من القراءة فلم يقدر عليها ، وكذلك حَصْر العدوّ : حبسهم الناس ، ومنعهم إياهم التصرّف . ولذلك قيل للذى لايخرج مع ندمائه شيئا : حَصور ، كما قال الأخطل :

وَشارِبٍ مُرْبِحٍ بالكأْسِ نادَمَنِى   لا بالحَصُورِ ولا فيها بسَوّارِ[1]

ويروى بسآر ؛ ويقال أيضا للذى لا يخرج سرّه ويكتمه حصور ، لأنه يمنع سرّه أن يظهر ، كما قال جرير :

وَلَقَدْ تَسَقَّطَنِى الوُشاةُ فصادَفُوا   حَصِرًا بِسِرِّكِ يا أُمَيْمَ ضَنِينا[2]

وأصل جميع ذلك واحد ، وهو المنع والحبس .

وبمثل الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا ابن خلف ، قال : ثنا حماد بن شعيب ، عن عاصم ، عن زرّ ، عن عبد الله فى قوله (وَسَيِّدًا وَحَصُورًا) قال : الحصور : الذى لايأتى النساء .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب أنه قال : ثنى ابن العاص : أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كُلُّ بَنِى آدَمَ يَأْتِى يَوْمَ القِيامَةِ وَلَهُ ذَنْبٌ ، إلاَّ ما كانَ مِنْ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا ، قال : ثم دَلَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم يده إلى الأرض ، فأخذ عُويدا صغيرا ، ثم قال : وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ ما للرِّجالِ إلاَّ مِثْلَ هَذَا العودِ ، وَبِذَلِكَ سَمَّاهُ اللهُ سَيِّدًا وَحَصُورًا » .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا أنس بن عياض ، عن يحيى بن سعيد ، قال : سمعت سعيد بن المسيب ، يقول : ليس أحد إلا يلقى الله يوم القيامة ذا ذنب ، إلا يحيى بن زكريا ، كان حصورا ، معه مثل الهُدْبة .

حدثنا أحمد بن الوليد القرشىّ ، قال : ثنا عمر بن جعفر ، قال : ثنا شُعبة ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب ، قال : قال ابن العاص : إما عبد الله ، وإما أبوه : ما أحد يلقى الله إلا وهو ذو ذنب ،

---

(١) البيت فى ديوان الأخطل (طبعةبيروت سنة ١٨٩١ ص ١١٦) . والمربح : الذى يربح صاحبها ، أو الذى ينحر لضيفانه الربح ، وهو الفصيل . ويروى : مرتج . وهو الذى كأسه ملأى بالخمر ، فيسكر ولا يتغير عن أخلاقه الحميدة . والحصور : الضيق البخيل مثل الحصير . والسوار : السيىء الخلق ، الذى يساور عليها ، ويقاتل فيها . ويروى بسآر ، وهو الذى يسئر فى القدح ، أى يترك فيه فضلة . وانظره فى اللسان : حصر .

(٢) فى اللسان (سقط) : وتسقطه واستسقطه : طلب سقطه ، وعالجه على أن يسقط ، فيخطئ أو يكذب ، أو يبوح بما عنده . قال جرير . . . البيت . وفيه « حجئا بسرك » أى مولعا ضنينا به ، (وفى الأساس والصحاح ، واللسان : حصر) كما رواه المؤلف . والحصر والحصور والحصير : الكتوم للسر ، الحابس له ، الضنين به .

إلا يحيى بن زكريا ، قال : وقال سعيد بن المسيب (وَسَيِّدًا وَحَصُورًا) قال : الحصور : الذى لايغشى النساء ، ولم يكن ما معه إلا مثل هدبة الثوب .

حدثنى سعيد بن عمرو السكونى ، قال : ثنا بقية بن الوليد ، عن عبد الملك ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب فى قوله (وَحَصُورًا) قال : الحصور ، الذى لايشتهى النساء ، ثم ضرب بيده إلى الأرض ، فأخذ نواة فقال : ما كان معه إلا مثل هذه .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، قال : الحصور : الذى لايأتى النساء .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن عطاء ، عن سعيد ، مثله .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا حكام ، عن عمرو ، عن عطاء ، عن سعيد ، مثله .

حدثنى عبد الرحمن بن الأسود ، قال : ثنا محمد بن ربيعة ، قال : ثنا النضر بن عربىّ ، عن مجاهد : (وَحَصُورًا) قال : الذى لايأتى النساء .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قال : الحصور : لايقرب النساء .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، قال : زعم الرَّقاشىّ : الحصور : الذى لايقرب النساء .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عمرو بن عون . قال : ثنا هشيم ، عن جويبر ، عن الضحاك : الحصور : الذى لايولد له ، وليس له ماء .

حُدثت عن الحسين بن الفرج ، قال سمعت أبا معاذ ، قال : أخبرنا عبيد بن سليمان ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (وَحَصُورًا) قال : هو الذى لاماء له .

حدثنا بشر ، قال : ثنا سويد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (وَحَصُورًا) : كنا نحدّث أن الحصور : الذى لايقرَب النساء .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا سليمان ، قال : ثنا أبو هلال ، قال : ثنا قتادة فى قوله (وَسَيِّدًا وَحَصُورًا) قال : الحصور : الذى لايأتى النساء .

حُدثت عن عمار بن الحسن ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن قتادة ، مثله .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، مثله .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن قابوس ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قال : الحصور : الذى لا ينزل الماء .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، عن ابن زيد (وَحَصُورًا) قال : الحصور : الذى لايأتى النساء

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ: (وَحَصُورًا) قال : الحصور : الذى لايريد النساء .

حدثنى محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفىّ ، عن عباد ، عن الحسن (وَحَصُورًا) قال : لايقرب النساء .

وأما قوله (وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ) فإنه يعنى : رسولا لربه إلى قومه ، ينبئهم عنه بأمره ونهيه ، وحلاله وحرامه، ويبلغهم عنه ما أرسله به إليهم . ويعنى بقوله (مِنَ الصَّالِحِينَ): من أنبيائه الصالحين . وقد دللنا فيما مضى على معنى النبوّة وما أصلها بشواهد ذلك، والأدلة الدالة على الصحيح من القول فيه بما أغنى عن إعادته .

القول فى تأويل قوله

قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِى عَاقِرٌ، قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠)

يعنى أن زكريا قال إذ نادته الملائكة : (أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ) :(أَنَّى يَكُونُ لِى غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ الْكِبَرُ) يعنى :من بلغ من السنّ مابلغت لم يولد له ، وامرأتى عاقر ، والعاقر من النساء : التى لاتلد ، يقال منه : امرأة عاقر ، ورجل عاقر ، كما قال عامر بن الطُّفَيل :

لَبِئْسَ الفَتَى أَنْ كُنْتُ أَعْوَرَ عاقِرًا ... جَبانًا فَمَا عُذْرِى لَدَى كُلِّ مَحْضَرِ[1]

وأما الكِبَر : فمصدر كبِر فلان،فهو يكْبَر كبرا ، وقيل :بلغنى الكبر ، وقد قال فى موضع آخر : وقد بلغت من الكبر ، لأن ما بلغك فقد بلغته ، وإنما معناه : قد كَبِرْت ، وهو كقول القائل : وقد بلغنى الجَهد بمعنى : إنى فى جهد .

فإن قال قائل : وكيف قال زكريا وهو نبىّ الله: (ربِّ أَنَّى يَكُونُ لى غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ الكِبَرُ وَامْرَأَتِى عاقِرٌ) وقد بشرته الملائكة بما بشرته به، عن أمر الله إياها به؟ أشكٌّ فى صدقهم ؟ فذلك مالايجوز أن يوصف به أهل الإيمان بالله ، فكيف الأنبياء والمرسلون ؟ أم كان ذلك منه استنكارا لقدرة ربه ، فذلك أعظم فى البلية ؟ قيل : كان ذلك منه صلى الله عليه وسلم على غير ما ظننت ، بل كان قيله ما قال من ذلك:

كما حدثنى موسى ،قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، لما سمع النداء ، يعنى زكريا لما سمع نداء الملائكة بالبشارة بيحيى ، جاءه الشيطان فقال له : يا زكريا إن الصوت الذى سمعت ، ليس هو من الله ، إنما هو من الشيطان يسخَر بك ، ولو كان من الله أوحاه إليك ، كما يوحى إليك فى غيره من

(١) البيت فى ديوان عامر بن الطفيل طبعة ليدن سنة ١٩١٣ . والرواية فيه : « فبئس » فى مكان « لبئس » . وفى اللسان العاقر : التى لاتحمل ، ورجل عاقر : لايولد له . ونساء عقر ، ورجال عقر ، بضم العين وتشديد القاف المفتوحة .

الأمر ، فشكَّ مكانه ، وقال : (أَنَّى يَكُونُ لِى غُلامٌ) ذَكَر ؟ يقول : ومن أين (وَقَدْ بَلَغَنِىَ الكِبَرُ وامْرَأتِى عاقِرٌ) ؟

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن أبى بكر ، عن عكرمة ، قال : فأتاه الشيطان ، فأراد أن يكدر عليه نعمة ربه ، فقال : هل تدرى من ناداك ؟ قال : نعم ، نادانى ملائكة ربى . قال : بل ذلك الشيطان ، لو كان هذا من ربك لأخفاه إليك كما أخفيت نداءك . فقال : (رَبِّ اجْعَلْ لى آيَةً) ، فكان قوله ما قال من ذلك ، ومراجعته ربه فيما راجع فيه بقوله (أَنَّى يَكُونُ لى غُلامٌ) ، للوسوسة التى خالطت قلبه من الشيطان ، حتى خيلت إليه أن النداء الذى سمعه ، كان نداء من غير الملائكة ، فقال : (رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لى غُلامٌ) مستثبتا فى أمره ، ليتقرّر عنده بآية ، يريه الله فى ذلك أنه بشارة من الله على ألسن ملائكته ، ولذلك قال : (رَبِّ اجْعَلْ لى آيَةً) . وقد يجوز أن يكون قيله ذلك مسألة منه ربه : من أىّ وجه يكون الولد الذى بشر به ، أمن زوجته فهى عاقر ، أم من غيرها من النساء ؟ فيكون ذلك على غير الوجه الذى قاله عكرمة والسدىّ . ومن قال مثل قولهما .

القول فى تأويل قوله (قالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ) :

يعنى جل ثناؤه بقوله (كَذَلِكَ اللهُ) أى هو ماوصف به نفسه ، أنه هين عليه أن يخلق ولدا من الكبير الذى قد يئس من الولد ، ومن العاقر التى لايُرجَى من مثلها الولادة ، كما خلقك يازكريا من قبل خلق الولد منك ، ولم تك شيئا ، لأنه الله الذى لايتعذّر عليه خلق شىء أراده ، ولا يمتنع عليه فعل شىء شاءه ، لأن قدرته القدرة التى لايشبهها قدرة .

كما حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، قال : (كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ) وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا .

القول فى تأويل قوله

قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً، قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ (٤١)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه خبرا عن زكريا ، قال زكريا : ربِّ إن كان هذا النداء الذى نوديته ، والصوت الذى سمعته صوت ملائكتك ، وبشارة منك لى ، فاجعل لى آية ، يقول : علامة أن ذلك كذلك ، ليزول عنى ما قد وَسوس إلىّ الشيطان ، فألقاه فى قلبى ، من أن ذلك صوت غير الملائكة ، وبشارة من عند غيرك .

كما حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (قالَ رَبِّ اجْعَلْ لى آيَةً) قال : قال ، يعنى زكريا : يا ربّ ، فإن كان هذا الصوت منك ، فاجعل لى آية .

وقد دللنا فيما مضى على معنى الآية ، وأنها العلامة ، بما أغنى عن إعادته .

وقد اختلف أهل العربية فى سبب ترك العرب همزها ، ومن شأنها همز كل ياء جاءت بعد ألف ساكنة ، فقال بعضهم : ترك همزها لأنها كانت أيَّة ، فثقل عليهم التشديد ، فأبدلوه ألفا ، لانفتاح ماقبل التشديد ، كما قالوا : أَيْما[1] فلان فأخزاه الله .

وقال آخرون منهم : بل هى «فاعلة» منقوصة ، فسئلوا ، فقيل لهم ، فما بال العرب تصغرها أُيَيَّة ، ولم يقولوا أُوَيِيَّة ؟ فقالوا : قيل ذلك كما قيل فى فاطمة : هذه فُطَيمة ، فقيل لهم : فإنهم يصغرون فاعلة على فُعَيْلة إذا كان اسما فى معنى فلان وفلانة ، فأما فى غير ذلك ، فليس من تصغيرهم فاعلة على فُعَيْلَة .

وقال آخرون : إنه «فَعْلَة» ، صُيرت ياؤها الأولى ألفا ، كما فعل بحاجة وقامة ، فقيل لهم : إنما تفعل العرب ذلك[1] فى أولاد الثلاثة ، وقال من أنكر ذلك من قِبلهم : لو كان كما قالوا لقيل فى نواة : ناية ، وفى حياة : حاية .

القول فى تأويل قوله (قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا) : فعاقبه الله فيما ذكر لنا بمسألته الآية ، بعد مشافهة الملائكة إياه بالبشارة ، فجعل آيته على تخصيص ماسمع من البشارة من الملائكة بيحيى أنه من عند الله ، آية من نفسه ، جمع تعالى ذكره بها العلامة التى سألها ربه ، على مايبين له حقيقة البشارة أنها من عند الله ، وتمحيصا له من هفوته ، وخطأ قيله ومسألته .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال جماعة من أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (رَبِّ اجْعَلْ لِى آيَةً ، قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا) ، إنما عوقب بذلك لأن الملائكة شافهته مشافهة بذلك ، فبشرته بيحيى ، فسأل الآية بعد كلام الملائكة إياه ، فأُخذ عليه بلسانه ، فجعل لايقدر على الكلام ، إلا ما أومأ وأشار ، فقال الله تعالى ذكره كما تسمعون : (آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا) .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا) قال : شافهته الملائكة ، فقال (رَبِّ اجْعَلْ لِى آيَةً ، قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا) يقول : إلا إيماء ، وكانت عقوبة عُوقب بها ، إذ سأل الآية مع مشافهة الملائكة إياه بما بشرته به .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع فى قوله (رَبِّ اجْعَلْ لِى آيَةً ، قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا) قال : ذُكر لنا والله أعلم ، أنه عوقب لأن الملائكة شافهته مشافهة ، فبشرته بيحيى ، فسأل الآية بعد ، فأُخذ بلسانه .

حُدثت عن عمار بن الحسن ، قال : ثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قال : ذُكر لنا والله أعلم : أنه عوقب لأن الملائكة شافهته فبشرته بيحيى ، قالت : (إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى) ،

(١) أصلها : أما فلان . . الخ .
(٢) كذا فى النسخ ، وتأمله .

فسأل بعد كلام الملائكة إياه الآية ، فأخذ عليه لسانه ، فجعل لايقدر على الكلام إلا رمزا ، يقول : يومئ إيماء .

حدثني أبو عبيد الرُّصافي ، قال : ثنا محمد بن حمير ، قال : ثنا صفوان بن عمرو ، عن جويبر بن نصير في قوله (قالَ رَبِّ اجْعَلْ لي آيَةً ، قالَ آيَتُكَ ألاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أيَّامٍ إلاَّ رَمْزًا) قال : ربا لسانه في فيه حتى ملأه ، ثم أطلقه الله بعد ثلاث .

وإنما اختارت القرّاء النصب في قوله (ألاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ) ، لأن معنى الكلام : قال : آيتك أن لاتكلم الناس فيما يستقبل ثلاثة أيام ، فكانت « أن » هي التي تصحب الاستقبال دون التي تصحب الأسماء فتنصبها ، ولو كان المعنى فيه : آيتك أنك لاتكلم الناس ثلاثة أيام : أي أنك على هذه الحال ثلاثة أيام ، كان وجه الكلام الرفع ، لأن « أن » كانت تكون حينئذ بمعنى الثقيلة خُفِّفت ، ولكن لم يكن ذلك جائزا لما وصفت من أن ذلك بالمعنى الآخر .

وأما الرمز ، فإن الأغلب من معانيه عند العرب : الإيماء بالشفتين ، وقد يستعمل في الإيماء بالحاجبين والعينين أحيانا ، وذلك غير كثير فيهم ، وقد يقال للخفيّ من الكلام الذي هو مثل الهمس بخفض الصوت : الرمز ، ومنه قول جُؤَيَّة بن عابد :

وكانَ يُكَلِّمُ الأبْطالَ رَمْزًا وَهَمْهَمَةً لَهُمْ مِثْلَ الهَدِيرِ[1]

يقال منه : رمز فلان فهو يرمُزُ ، ويَرْمِز رمزا ، ويترمز ترمزا ، ويقال : ضربه ضربة فارتمز منها : أي اضطرب للموت ، قال الشاعر :

خَرَرْتُ منها لقفايَ أرْتَمِزُ[2]

وقد اختلف أهل التأويل في المعنى الذي عنى الله عزّ وجلّ به في إخباره عن زكريا من قوله : (آيَتُكَ ألاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أيَّامٍ إلاَّ رَمْزًا) وأيّ معاني الرمز عنى بذلك ؟ فقال بعضهم : عنى بذلك : آيتك أن لاتكلم الناس ثلاثة أيام إلا تحريكا بالشفتين ، من غير أن ترمُز بلسانك الكلام .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا جابر بن نوح ، عن النضر بن عربيّ ، عن مجاهد ، في قوله (إلاَّ رَمْزًا) قال : تحريك الشفتين .

حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد (ثَلاثَةَ أيَّامٍ إلاَّ رَمْزًا) قال : إيماؤه بشفتيه .

---

(١) البيت لجؤية بن عائذ الكوفي النحوي . وقد جاء اسمه محرفا في الأصل . والتصويب عن تاج العروس . قال في اللسان (رمز) : الرمز : تصويت خفي باللسان كالهمس ، ويكون تحريك الشفتين بكلام غير مفهوم باللفظ من غير إبانة صوت ، إنما هو إشارة بالشفتين . وقيل الرمز : إشارة بالعينين والحاجبين والشفتين والفم . والرمز في اللغة : كل ما أشرت إليه مما يبان باللفظ ، بأي شيء أشرت إليه ، بيد أو بعين . والهمهمة : الصوت الخفي . وقيل : هو صوت معه بحح . وقيل : هو ترديد الصوت في الصدر . والهدير : تردد صوت البعير في حنجرته .

(٢) أنشد هذا البيت صاحب اللسان في (رمز) وجعله شاهدا على أن معنى أرتمز من الضربة : أضطرب منها . ولم ينسبه لقائل .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

وقال آخرون : بل عنى الله بذلك الإيماء والإشارة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن سلمة بن نُبيط ، عن الضحاك (إِلاَّ رَمْزًا) قال : الإشارة .

حُدثت عن الحسين بن الفرج ، قال : سمعت أبا معاذ ، قال : أخبرنا عبيد بن سليمان ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (إِلاَّ رَمْزًا) قال : الرمز : أن يشير بيده أو رأسه ولا يتكلم .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس : (إِلاَّ رَمْزًا) قال : الرمز : أن أُخِذ بلسانه ، فجعل يكلم الناس بيده .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (إِلاَّ رَمْزًا) قال : والرمز : الإشارة .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (رَبِّ اجْعَلْ لِى آيَةً ، قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا) . . . الآية . قال : جعل آيته ألا يكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا ، إلا أنه يذكر الله ، والرمز : الإشارة ، يشير إليهم .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة (إِلاَّ رَمْزًا) إلا إيماء .

حُدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، مثله .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (إِلاَّ رَمْزًا) يقول : إشارة .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال عبد الله بن كثير (إِلاَّ رَمْزًا) : إلا إشارة .

حدثنى محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفىّ ، عن عباد ، عن الحسن ، فى قوله (قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا) قال : أُمْسِك بلسانه ، فجعل يومئ بيده إلى قومه : أن سبحوا بكرة وعشيا .

القول فى تأويل قوله (وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ) :

يعنى بذلك : قال الله جلّ ثناؤه لزكريا : يا زكريا آيتك أن لاتكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا بغير خرَس ، ولاعاهة ، ولا مرض ، واذكر ربك كثيرا ، فإنك لاتمنع ذكره ، ولا يحال بينك وبين تسبيحه وغير ذلك من ذكره .

وقد حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن أبى معشر ، عن محمد بن كعب ، قال : لو كان الله رخّص لأحد فى ترك الذكر ، لرخص لزكريا حيث قال (آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا ، وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا) أيضا .

وأما قوله (وَسَبِّحْ بالعَشِيِّ) فإنه يعنى : عظم ربك بعبادته بالعشىّ ، والعشىّ : من حين تزول الشمس إلى أن تغيب ، كما قال الشاعر :

فلا الظلَّ من بَرْدِ الضحَى تَسْتَطِيعُهُ ولا الفَىْءَ من بَرْدِ العَشِيِّ تَذُوقُ[١]

فالفىء إنما تبتدئ أوبته عند زوال الشمس ، وتتناهى بمغيبها .

وأما الإبكار : فإنه مصدر من قول القائل : أبكر فلان فى حاجة ، فهو يبكر إبكارا ، وذلك إذا خرج فيها من بين مطلع الفجر إلى وقت الضحى ، فذلك إبكار . يقال فيه : أبكر فلان ، وبكر يبكر بكورا ، فمن الإبكار قول عمر بن أبى ربيعة .

أمِنْ آلِ نُعْمٍ أنتَ غادٍ فمُبْكِرُ[٢]

ومن البكور قول جرير :

ألا بَكَرَتْ سَلْمَى فَجَدَّ بُكُورُها وَشَقَّ العَصَا بعد اجتماعٍ أميرُها[٣]

ويقال من ذلك : بَكَرَ النخل يبكُرُ بُكورا ، وأبكر يُبكِر إبكارا ، والباكور من الفواكه : أوّلها إدراكا .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، (وَسَبِّحْ بالعَشِيِّ وَالإبْكارِ) قال : الإبكار : أوّل الفجر ، والعشىّ : ميل الشمس حتّى تغيب .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

القول فى تأويل قوله

وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٢)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : والله سميع عليم (إذْ قالَتِ امْرَأةُ عِمْرانَ : رَبِّ إنّى نَذَرْتُ لَكَ ما فى بَطْنِى مُحَرَّرًا) ، (وَإذْ قالَتِ المَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إنَّ اللهَ اصْطَفاكِ) .

ومعنى قوله (اصْطَفاكِ) اختارك واجتباك لطاعته ، وما خصك به من كرامته ، وقوله (وَطَهَّرَكِ) يعنى : طهر دينك من الريب والأدناس التى فى أديان نساء بنى آدم ، (وَاصْطَفاكِ على نِساءِ العالَمِينَ) ، يعنى : اختارك على نساء العالمين فى زمانك بطاعتك إياه ، ففضلك عليهم .

---

(١) البيت لحميد بن ثور الهلالى كما فى اللسان (فيأ) كما أورده المؤلف . وهو فى (ديوانه طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٥١ ص ٤٠) . يصف سرحة ، وكنى بها عن امرأة . والرواية فيه : « فلا الظل منها بالضحى » . والظل : ما كان أول النهار . والفىء : ما كان بعد الزوال إلى الليل . ويقال : البردان والأبردان للظل والفىء ، وأيضا للغداة والعشى .

(٢) البيت مطلع قصيدة لعمر بن أبى ربيعة . وعجزه :

غَدَاةَ غَدٍ أمْ رَائحٌ فمُهَجِّرُ

(ديوانه طبعة السعادة سنة ١٣٣٠ هـ ، ص ١٨١) .

(٣) البيت مطلع قصيدة لجرير يهجو بها غسان بن ذهل ، ويرد عليه هجاءه ، (ديوانه طبعة الصاوى ص ٢٩٣) . وشق العصا : كناية عن الفرقة بعد الاجتماع . وأميرها : زوجها أو أبوها .

كما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خَيْرُ نِسائِها مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرانَ ، وَخَيْرُ نِسائِها خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ » يعنى بقوله : خير نسائها : خير نساء أهل الجنة .

حدثنى بذلك الحسين بن علىّ الصُّدائى ، قال : ثنا محاضر بن المورّع ، قال : ثنا هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عبد الله بن جعفر ، قال : سمعت عليا بالعراق ، يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « خَيْرُ نِسائِها مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرانَ ، وَخَيْرُ نِسائِها خَدِيجَةُ » .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : ثنى المنذر بن عبد الله الحزامىّ ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « خَيْرُ نِساءِ الجَنَّةِ : مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرانَ ، وَخَيْرُ نِساءِ الجَنَّةِ : خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ » .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَإِذْ قالَتِ المَلائِكَةُ يامَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفاكِ وَطَهَّرَكِ واصطفاكِ على نِساءِ العالَمِينَ) : ذُكر لنا أن نبىّ الله صلى الله عليه وسلم ، كان يقول : « حَسْبُكَ بِمَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرانَ ، وَامْرَأَةِ فِرْعَوْنَ ، وَخَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ ، وَفاطِمَةَ بِنْتِ مُحَمَّدٍ مِنْ نِساءِ العالَمِينَ » قال قتادة : ذكر لنا أن نبىّ الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « خَيْرُ نِساءٍ رَكِبْنَ الإِبِلَ صَوالِحُ نِساءِ قُرَيْشٍ : أَحْناهُ عَلى وَلَدٍ فى صِغَرِهِ ، وأَرْعاهُ على زَوْجٍ فى ذاتِ يَدِهِ » . قال قتادة : وذُكر لنا أنه كان يقول : « لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ مَرْيَمَ رَكِبَتِ الإِبِلَ مافَضَّلْتُ عَلَيْها أَحَدًا » .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، فى قوله : (يامَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفاكِ على نِساءِ العالَمِينَ) قال : كان أبو هريرة يحدّث : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، قال : « خَيْرُ نِساءٍ رَكِبْنَ الإِبِلَ صُلَّحُ نِساءِ قُرَيْشٍ : أَحْناهُ عَلى وَلَدٍ ، وأَرْعاهُ لِزَوْجٍ فى ذاتِ يَدِهِ) . قال أبو هريرة : ولم تركب مريم بعيرا قط .

حُدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه قوله (وَإِذْ قالَتِ المَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفاكِ على نِساءِ العالَمِينَ) قال : كان ثابت البُنانىّ يحدّث عن أنس بن مالك : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « خَيْرُ نِساءِ العالَمِينَ أَرْبَعٌ : مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرانَ ، وَآسِيَةُ بِنْتُ مُزاحِمٍ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ، وَفاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ » .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا آدم العسقلانى ، قال : ثنا شعبة ، قال : ثنا عمرو بن مرّة ، قال : سمعت مرّة الهمدانى يحدّث عن أبى موسى الأشعرىّ ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كَمَلَ مِنَ الرِّجالِ كَثِيرٌ ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّساءِ إِلاَّ مَرْيَمُ ، وآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ، وَفاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ » .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو الأسود المصرىّ ، قال : ثنا ابن لهيعة ، عن عُمارة بن غَزِيّة ، عن محمد

ابن عبد الرحمن بن عمرو بن عثمان، أن فاطمة بنت حسين بن علىّ حدثته: أن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما، وأنا عند عائشة، فناجانى، فبكيت، ثم ناجانى، فضحكت، فسألتنى عائشة عن ذلك، فقلت: لقد عجلتِ، أُخبرك بسرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فتركتنى. فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم، سألتها عائشة، فقالت: نعم، ناجانى فقال: «جِبْرِيلُ كانَ يُعارِضُ القُرآنَ كُلَّ عامٍ مَرَّةً، وإنَّهُ قَدْ عارَضَ القُرآنَ مَرَّتَيْنِ، وإنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَبِيَ إلاَّ عُمِّرَ نِصْفَ عُمْرِ الَّذِى كانَ قَبْلَهُ، وَإنَّ عِيسَى أخِى كانَ عُمْرُهُ عِشْرِينَ وَمِائَةَ سَنَةٍ، وَهَذِهِ لى سِتُّونَ، وأحْسِبُنِى مَيِّتًا فى عامِى هَذَا، وَإنَّهُ لَمْ تُرْزَأْ امْرَأةٌ مِنْ نِساءِ العالَمِينَ بِمِثْلِ ما رُزِئْتِ، وَلا تَكُونِى دُونَ امْرَأة صَبْرًا». قالت: فبكيت، ثم قال: أنْتِ سَيِّدَةُ نِساءِ أهْلِ الجَنَّةِ إلاَّ مَرْيَمَ البَتُول». فتُوُفِّى فى عامه ذلك.

حدثنى المثنى، قال: ثنا أبو الأسود، قال: ثنا ابن لهَيعة، عن عمرو بن الحارث، أن أبا زياد الحميرىّ حدثه أنه سمع عمار بن سعد يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فُضِّلَتْ خَدِيجَةُ على نِساءِ أُمَّتِى، كَما فُضِّلَتْ مَرْيَمُ على نِساءِ العالَمِينَ».

وبمثل الذى قلنا فى معنى قوله (وَطَهَّرَكِ): أنه وطهّر دينك من الدنس والريب. قال مجاهد:

حدثنى محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، عن عيسى، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد فى قول الله: (إنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ) قال: جعلك طيبة إيمانا.

حدثنى المثنى، قال: ثنا أبوحذيفة، قال: ثنا شبل، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد، مثله.

حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثنى الحجاج، عن ابن جريج (وَاصْطَفَاكِ على نِساءِ العالَمِينَ) قال: ذلك للعالمين يومئذ، وكانت الملائكة فيما ذكر ابن إسحاق تقول ذلك لمريم شِفاها.

حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، قال: ثنى ابن إسحاق، قال: كانت مريم حبيسا فى الكنيسة، ومعها فى الكنيسة غلام اسمه يوسف، وقد كان أمه وأبوه جعلاه نذيرا حبيسا، فكانا فى الكنيسة جميعا، وكانت مريم إذا نفِد ماؤها وماء يوسف، أخذا قُلّتيهما، فانطلقا إلى المفازة التى فيها الماء الذى يستعذبان منه، فيملآن قلتيهما، ثم يرجعان إلى الكنيسة، والملائكة فى ذلك مقبلة على مريم: (يا مَرْيَمُ إنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ على نِساءِ العالَمِينَ)، فإذا سمع ذلك زكريا، قال: إن لابنة عمران لشأنا.

القول فى تأويل قوله

يَامَرْيَمُ اقْنُتِى لِرَبِّكِ وَاسْجُدِى وَارْكَعِى مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)

يعنى جلّ ثناؤه بقوله خبرا عن قيل ملائكته لمريم (يامَرْيَمُ اقْنُتِى لِرَبِّكِ): أخلصى الطاعة لربك وحده. وقد دللنا على معنى القُنوت بشواهده فيما مضى قبل. والاختلاف بين أهل التأويل فيه فى هذا الموضع، نحو اختلافهم فيه هنالك، وسنذكر قول بعضهم أيضا فى هذا الموضع، فقال بعضهم: معنى اقنتى: أطيلى الركود.

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (يامَرْيَمُ اقْنُتِى لِرَبِّكِ) قال : أطيلى الركود ، يعنى : القنوت .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج (اقْنُتِى لِرَبِّكِ) قال : قال مجاهد : أطيلى الركود فى الصلاة ، يعنى : القنوت .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا عبد الله بن إدريس ، عن ليث ، عن مجاهد ، قال : لما قيل لها : (يا مَرْيَمُ اقْنُتِى لِرَبِّكِ) ، قامت حتى وَرِم كعباها .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا عبد الله بن إدريس ، عن ليث ، عن مجاهد ، قال : لما قيل لها : (يا مَرْيَمُ اقْنُتِى لِرَبِّكِ) ، قامت حتى وَرِمت قدماها .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا الثورىّ ، عن ابن أبى ليلى ، عن مجاهد (اقْنُتِى لِرَبِّكِ) : قال : أطيلى الركود .

حُدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (يا مَرْيَمُ اقْنُتِى لِرَبِّكِ) قال : القنوت : الركود ، يقول : قومى لربك فى الصلاة ، يقول : اركدى لربك ، أى انتصبى له فى الصلاة ، واسجدى واركعى مع الراكعين .

حدثنى محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن سفيان ، عن ليث ، عن مجاهد (يا مَرْيَمُ اقْنُتِى لِرَبِّكِ) قال : كانت تصلى حتى تَرِم قدماها .

حدثنى ابن البرقىّ ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا الأوزاعىّ (يا مَرْيَمُ اقْنُتِى لِرَبِّكِ) قال : كانت تقوم حتى يسيل القَيْح من قدميها .

وقال آخرون : معناه : أخلصى لربك .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا الحِمّانىّ ، قال : ثنا ابن المبارك ، عن شريك ، عن سالم ، عن سعيد (يامَرْيَمُ اقْنُتِى لِرَبِّكِ) قال : أخلصى لربك .

وقال آخرون : معناه : أطيعى ربك .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله : (اقْنُتِى لِرَبِّكِ) قال : أطيعى ربك .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (اقْنُتِى لِرَبِّكِ) : أطيعى ربك .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا محمد بن حرب ، قال : ثنا ابن لَهيعة ، عن درّاج ، عن

أبى الهيثم ، عن أبى سعيد الخُدرىّ ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « كُلُّ حَرْفٍ يُذْكَرُ فِيهِ القُنُوتُ مِنَ القُرْآنِ ، فَهُوَ طَاعَةٌ لِلهِ » .

حدثنى محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفىّ ، عن عباد بن منصور ، عن الحسن ، فى قوله : (يا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ) قال : يقول : اعبدى ربك .

قال أبو جعفر : وقد بينا أيضا معنى الركوع والسجود بالأدلة الدالة على صحته ، وأنهما بمعنى الخشوع لله ، والخضوع له بالطاعة والعبودية .

فتأويل الآية إذن : يا مريم أخلصى عبادة ربك لوجهه خالصا ، واخشعى لطاعته وعبادته ، مع من خشع له من خلقه ، شكرا له على ما أكرمك به من الاصطفاء والتطهير من الأدناس ، والتفضيل على نساء عالم دهرك .

القول فى تأويل قوله

ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤)

يعنى جل ثناؤه بقوله ذلك: الأخبار التى أخبر بها عباده عن امرأة عمران وابنتها مريم ، وزكريا وابنه يحيى ، وسائر ماقصّ فى الآيات من قوله : (إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً) ، ثم جمع جميع ذلك تعالى ذكره بقوله ذلك ، فقال : هذه الأنباء من أنباء الغيب : أى من أخبار الغيب ، ويعنى بالغيب ، أنها من خفىّ أخبار القوم ، التى لم تطلع أنت يامحمد عليها ولا قومك ، ولم يعلمها إلا قليل من أحبار أهل الكتابين ورُهبانهم ، ثم أخبر تعالى ذكره نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أنه أوحى ذلك إليه حجة على نبوّته ، وتحقيقا لصدقه ، وقطعا منه به عذر منكرى رسالته من كفار أهل الكتابين ، الذين يعلمون أن محمدا لم يصلْ إلى علم هذه الأنباء مع خفائها ، ولم يدرك معرفتها مع خمولها عند أهلها ، إلا بإعلام الله ذلك إياه ، إذ كان معلوما عندهم أن محمدا صلى الله عليه وسلم أمىّ لايكتب فيقرأ الكتب ، فيصل إلى علم ذلك من قِبَل الكتب ، ولا صاحبَ أهل الكتب ، فيأخذ علمه من قِبَلهم .

وأما الغيب : فمصدر من قول القائل : غاب فلان عن كذا ، فهو يغيب عنه غَيْبا وغَيْبَة .

وأما قوله (نُوحِيهِ إِلَيْكَ) فإن تأويله : ننزله إليك ، وأصل الإيحاء : إلقاء الموحى إلى الموحَى إليه ، وذلك قد يكون بكتاب ، وإشارة ، وإيماء ، وبإلهام ، وبرسالة ، كما قال جلّ ثناؤه : (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ) بمعنى : ألقى ذلك إليها فألهمها ، وكما قال : (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ) بمعنى : ألقيت إليهم علم ذلك إلهاما ، وكما قال الراجز :

أَوْحَى لَهَا القَرَارَ فَاسْتَقَرَّتِ [1]

(١) هذا بيت للعجاج من أرجوزة له فى (ديوانه ص ٥) . والرواية فيه : « وحى » بدون همزة ، وهو بمعنى أوحى .

بمعنى : ألقى إليها ذلك أمرا . وكما قال جلّ ثناؤه : (فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) : بمعنى : فألقى ذلك إليهم أيضا . والأصل فيه ما وصفت من إلقاء ذلك إليهم ، وقد يكون إلقاؤه ذلك إليهم إيماء ، ويكون بكتاب ، ومن ذلك قوله : (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ) يلقون إليهم ذلك وسوسة ، وقوله : (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ) : أُلْقِيَ إليّ بمجيء جبريل عليه السلام به إليّ من عند الله عزّ وجلّ . وأما الوحى : فهو الواقع من الموحِى إلى الموحَى إليه ، ولذلك سمت العرب الخط والكتاب وحيا ، لأنه واقع فيما كتب ثابت فيه ، كما قال كعب بن زهير :

أَتَى العُجْمَ والآفاقَ مِنْهُ قَصائِدٌ بَقِينَ بَقاءَ الوَحْيِ فِي الحَجَرِ الأَصَمّ[1]

يعنى به الكتاب الثابت فى الحجر ، وقد يقال فى الكتاب خاصة إذا كتبه الكاتب : وَحَى ، بغير ألف . ومنه قول رؤبة :

وكأنّهُ بَعْدَ رِياحٍ تَدْهَمُهُ وَمُرْثَعِنّاتُ الدُّجُونِ تَثِمُهُ
إنجيلُ أحْبارٍ وَحَى مُنَمْنِمُهُ[2]

القول فى تأويل قوله (وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ) :

يعنى جل ثناؤه بقوله (وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ) : وما كنت يا محمد عندهم ، فتعلم ما نعلمكه من أخبارهم التى لم تشهدها ، ولكنك إنما تَعلَم ذلك ، فتدرك معرفته بتعريفناكه .

ومعنى قوله (لَدَيْهِمْ) : عندهم .ومعنى قوله (إِذْ يُلْقُونَ) : حين يُلقون أقلامهم . وأما أقلامهم فسهامهم التى استهم بها المستهمون من بنى إسرائيل على كفالة مريم ، على ما قد بينا قبل فى قوله (وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا) .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا هشام بن عمرو ، عن سعيد ، عن قتادة ، فى قوله (وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ) : يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ) : زكريا وأصحابه استهموا بأقلامهم على مريم حين دخلت عليهم .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قوله (وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ

---

(١) قال فى لسان العرب (وحى) : الوحى : الإشارة ، والكتابة ، والرسالة ، والإلهام ، والكلام الخفى ، وكل ما ألقيته إلى غيرك ، والوحى : المكتوب ، والكتاب .

(٢) هذه الأبيات من الرجز فى ديوان رؤبة بن العجاج ص ١٤٩ طبعة برلين سنة ١٩٠٣ . وتدهمه : تغشاه . والمرثعن من المطر : المسترسل السائل . والدجون : جمع دجن ، وهو ظل الغيم فى اليوم المطير . وتثمه : تضربه بشدة . ووحى منمنمه : أى كتبه كاتبه كما فى اللسان ، واستشهد عليه بالبيت ، ونسبه لرؤبة ، وهو الصحيح . وفى موضع آخر (رثعن) نسبه إلى ذى الرمة خطأ . وقال : يقال : وحيت الكتاب أحيه وحيا ، كتبته ، فهو موحى ، قال رؤبة : . . . (البيت) . وبعده : « ماخط فيه بالمداد قلمه » .

أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ) : كانت مريم ابنة إمامهم وسيدهم ، فتشاحّ عليها بنو إسرائيل ، فاقترعوا فيها بسهامهم أيهم يكفلها ؟ فقرعهم زكريا ، وكان زوج أختها ، فكفلها زكريا ، يقول : ضمها إليه .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ) قال : تساهموا على مريم أيهم يكفلها ؟ فقرعهم زكريا .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس قوله (وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ) ، وإن مريم لما وُضعت فى المسجد ، اقترع عليها أهل المصلّى ، وهم يكتبون الوحى ، فاقترعوا بأقلامهم أيهم يكفلها ؟ فقال الله عزّ وجلّ لمحمد صلى الله عليه وسلم : (وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ؟ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ) .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ ، قال : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ؟) : اقترعوا بأقلامهم أيهم يكفل مريم ؟ فقرعهم زكريا .

حدثنا محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفى ، عن عباد ، عن الحسن ، فى قوله (وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ) قال : حيث اقترعوا على مريم ، وكان غيبا عن محمد صلى الله عليه وسلم حين أخبره الله .

وإنما قيل : (أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ) لأن إلقاء المستهمين أقلامهم على مريم إنما كان لينظروا أيهم أولى بكفالتها وأحقّ ؟ ففى قوله عزّ وجلّ (إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ) دلالة على محذوف من الكلام ، وهو لينظروا أيهم يكفل ؟ وليتبينوا ذلك ويعلموه .

فإن ظنّ ظانّ أن الواجب فى أيّهم النصب ، إذ كان ذلك معناه ، فقد ظنّ خطأ ، وذلك أن النظر والتبين والعلم مع أىّ يقتضى استفهاما واستخبارا ، وحظّ أىّ فى الاستخبار الابتداء ، وبُطول عمل المسئلة والاستخبار عنه ، وذلك أن معنى قول القائل : لأنظرنّ أيُّهم قام ، لأستخبرنّ الناس أيُّهم قام ؛ وكذلك قولهم : لأعلمنّ ، وقد دللنا فيما مضى قبلُ أن معنى يكفُل : يضمّ ، بما أغنى عن إعادته فى هذا الموضع .

القول فى تأويل قوله (وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ) :

يعنى بذلك جل ثناؤه : وما كنت يا محمد عند قوم مريم ، إذ يختصمون فيها أيهم أحقّ بها وأولى ؟ وذلك من الله عزّ وجلّ ، وإن كان خطابا لنبيه صلى الله عليه وسلم ، فتوبيخ منه عزّ وجلّ للمكذّبين به من أهل الكتابين ، يقول : كيف يشكّ أهل الكفر بك منهم ، وأنت تنبئهم هذه الأنباء ولم تشهدها ، ولم تكن معهم يوم فعلوا هذه الأمور ، ولستَ ممن قرأ الكتب فعلم نبأهم ، ولا جالس أهلها فسمع خبرهم .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير (وَمَا كُنْتَ

لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ) أى ما كنت معهم إذ يختصمون فيها ، يخبره بخفىّ ما كتموا منه من العلم عندهم ، لتحقيق نبوّته ، والحجة عليهم لما يأتيهم به ، مما أخفَوا منه .

القول فى تأويل قوله

إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ، وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ، وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (٤٥)

يعنى بقوله جلّ ثناؤه : إذ قالت الملائكة : وما كنت لديهم إذ يختصمون ، وما كنت لديهم أيضا إذ قالت الملائكة : يا مريم إن الله يبشرك . والتبشير : إخبار المرء بما يسرّه من خير ، وقوله (بِكَلِمَةٍ مِنْهُ) يعنى : برسالة من الله ، وخبر من عنده ، وهو من قول القائل : ألقى فلان إلىّ كلمة سرّنى بها ، بمعنى : أخبرنى خبرا فرحت به . كما قال جلّ ثناؤه : (وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ) : يعنى بشرى الله مريم بعيسى ألقاها إليها .

فتأويل الكلام : وما كنتَ يامحمد عند القوم إذ قالت الملائكة لمريم : يامريم إن الله يبشرك ببشرى من عنده ، هى ولد لك ، اسمه المسيح عيسى بن مريم .

وقد قال قوم ، وهو قول قتادة : إن الكلمة التى قال الله عزّ وجلّ : بكلمة منه ، هو قوله : كن .

حدثنا بذلك الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، قوله (بِكَلِمَةٍ مِنْهُ) قال : قوله : كن ، فسماه الله عزّ وجلّ كلمته ، لأنه كان عن كلمته ، كما يقال لما قدر الله من شىء : هذا قدر الله وقضاؤه ، يعنى به : هذا عن قدر الله وقضائه حدَث ، وكما قال جلّ ثناؤه : (وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا) يعنى به : ما أمر الله به ، وهو المأمور الذى كان عن أمر الله عزّ وجلّ .

وقال آخرون : بل هى اسم لعيسى سماه الله بها كما سمى سائر خلقه بما شاء من الأسماء .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : الكلمة : هى عيسى .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن إسرائيل ، عن سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس، فى قوله (إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ) قال : عيسى هو الكلمة من الله .

وأقرب الوجوه إلى الصواب عندى : القول الأول ، وهو أن الملائكة بشّرت مريم بعيسى عن الله عزّ وجلّ برسالته وكلمته التى أمرها أن تلقيها إليها : أن الله خالق منها ولدا من غير بَعْل ولافحْل ، ولذلك قال عزّ وجل : (اسْمُهُ الْمَسِيحُ) فذكّر ، ولم يقل اسمها فيؤنث ، والكلمة مؤنثة ، لأن الكلمة غير مقصود بها قصد الاسم الذى هو بمعنى فلان ، وإنما هى بمعنى البشارة ، فذُكّرت كنايتها ، كما تذكر كناية الذرّية والدابة والألقاب ، على ما قد بيناه قبل فيما مضى .

فتأويل ذلك كما قلنا آنفا ، من أن معنى ذلك : إن الله يبشرك ببشرى ، ثم بين عن البشرى ، أنها ولد اسمه المسيح .

وقد زعم بعض نحويّ البصرة ، أنه إنما ذكّر فقال (اسْمُهُ الْمَسِيحُ) ، وقد قال (بِكَلِمَةٍ مِنْهُ) ، والكلمة عنده : هي عيسى ، لأنه في المعنى كذلك ، كما قال جلّ ثناؤه (أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتا) ، ثم قال : (بَلَى قَدْ جاءَتْكَ آياتِي فَكَذَّبْتَ بِها) وكما يقال : ذوالثُّدَيَّة[1] ، لأن يده كانت قصيرة قريبة من ثدييه ، فجعلها كأن اسمها ثُدَيَّة ، ولولا ذلك لم تدخل الهاء في التصغير .

وقال بعض نحويّي الكوفة نحو قول من ذكرنا من نحويّ البصرة ، في أن الهاء من ذكر الكلمة ، وخالفه في المعنى الذي من أجله ذُكِّر قوله (اسْمُهُ) ، والكلمة متقدمة قبله ، فزعم أنه إنما قيل اسمه ، وقد قدمت الكلمة ، ولم يقل اسمها ، لأن من شأن العرب أن تفعل ذلك فيما كان من النعوت والألقاب والأسماء التي لم توضع لتعريف المسمى به ، كفلان وفلان ، وذلك مثل الذرّية والخليفة والدابة ، ولذلك جاز عنده أن يقال : ذرّية طيبة ، وذرّية طيبا ، ولم يجز أن يقال : طلحة أقبلت ، ومغيرة قامت . وأنكر بعضهم اعتلال من اعتلّ في ذلك بذي الثدية ، وقالوا : إنما أدخلت الهاء في ذي الثدية لأنه أريد بذلك : القطعة من الثدي ، كما قيل : كنا في لحمة ونبيذة ، يراد به : القطعة منه .

وهذا القول نحو قولنا الذي قلناه في ذلك .

وأما قوله (اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ) : فإنه جلّ ثناؤه أنبأ عباده عن نسبة عيسى ، وأنه ابن أمه مريم ، ونفى بذلك عنه ما أضاف إليه الملحدون في الله جلّ ثناؤه من النصارى ، من إضافتهم بنوته إلى الله عزّ وجلّ ، وما قَذَفت أمَّه به المفترية عليها من اليهود .

كما حدثني به ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير (إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ، وَجِيهاً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ ، وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) : أي هكذا كان أمره ، لاما يقولون فيه . وأما المسيح ، فإنه فَعيل ، صُرِف من مفعول إلى فعيل ، وإنما هو ممسوح ، يعني : مسحه الله ، فطهّره من الذنوب ، ولذلك قال إبراهيم : المسيح : الصديق ، وقال آخرون : مسح بالبركة

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبي عن سفيان ، عن منصور ، عن إبراهيم ، مثله .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا ابن المبارك ، عن سفيان ، عن منصور ، عن إبراهيم ، مثله .

حدثنا ابن البرقيّ ، قال : ثنا عمرو بن أبي سلمة ، قال : قال سعيد : إنما سمي المسيح ، لأنه مُسح بالبركة .

القول في تأويل قوله (وَجِيهاً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ ، وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) :

يعني بقوله وجيها : ذا وجه ومنزلة عالية عند الله ، وشرف وكرامة ، ومنه يقال للرجل الذي يشرف وتعظمه الملوك والناس : وجيه ؛ يقال منه : ما كان فلان وجيها ، ولقد وَجُه وجاهة ، وإن له لوَجْها عند السلطان ، وجَاها ووَجَاهة . والجاه : مقلوب ، قلبت واوه من أوّله إلى موضع العين منه ، فقيل جاه ، وإنما

(١) ذو الثدية ، والأصح : ذو اليدية : لقب حرقوص بن زهير كبير الخوارج . وقيل لقب رجل اسمه ثرملة .

هو وجه، وفَعَل من الجاه: جاه يَجوه، مسموع من العرب. أخاف أن يَجُوهَنى بأكثر من هذا، بمعنى: أن يستقبلنى فى وجهى بأعظم منه. وأما نصب الوَجيه فعلى القطع من عيسى، لأن عيسى معرفة، ووجيه نكرة، وهو من نعته، ولو كان مخفوضا على الردّ على الكلمة كان جائزا.

وكما قلنا من أن تأويل ذلك وجيها فى الدنيا والآخرة عند الله، قال فيما بلغنا محمد بن جعفر:

حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير، (وَجِيهاً) قال: وجيها فى الدنيا والآخرة عند الله.

وأما قوله (وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) فإنه يعنى: أنه ممن يقرّبه الله يوم القيامة، فيسكنه فى جواره، ويدنيه منه.

كما حدثنا بشر بن معاذ، قال: ثنا يزيد بن زريع، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله (وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) يقول: من المقرّبين عند الله يوم القيامة.

حُدثت عن عمار بن الحسن، قال: ثنا ابن أبى جعفر، عن أبيه، عن الربيع، قوله (وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) يقول: من المقرّبين عند الله يوم القيامة.

حدثنى المثنى، قال: ثنا إسحاق، قال: ثنا ابن أبى جعفر، عن أبيه، عن الربيع، مثله.

القول فى تأويل قوله

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِى الْمَهْدِ وَكَهْلًا، وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦)

أما قوله (وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِى الْمَهْدِ) فإن معناه: أن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم، وجيها عند الله، ومكلِّما الناس فى المهد. فيكلم، وإن كان مرفوعا، لأنه فى صورة «يَفْعَلُ» بالسلامة من العوامل فيه، فإنه فى موضع نصب، وهو نظير قول الشاعر:

بِتُّ أُعَشِّيها بِعَضْبٍ باتِرٍ ... يَقْصِدُ فى أسْوُقِها وَجائِرِ[1]

وأما المهد: فإنه يعنى به مضجع الصبى فى رَضاعه.

كما حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثنى حجاج، عن ابن جريج، قال: قال ابن عباس: (وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِى الْمَهْدِ) قال: مضجع الصبىّ فى رضاعه.

وأما قوله (وَكَهْلاً) فإنه: ومحتنكا فوق الغلومة، ودون الشيخوخة، يقال منه: رجل كَهْل، وامرأة كهلة، كما قال الراجز:

---

(١) البيت غير معروف قائله، وقد استشهد به النحويون على جواز عطف الاسم المشبه للفعل (جائر) على الفعل (يقصد). واستشهد به الفراء والزجاج فى تفسيريهما، ولم ينسباه. ورواية الفراء: (بت). ورواية ابن الشجرى فى أماليه: (بات يغشيها) بالغين المعجمة، أى يشملها ويعمها. وضمير المؤنث للإبل. وهو فى وصف كريم بأنه يعقر إبله لضيوفه. والعضب: السيف القاطع. وباتر: صفة أولى لعضب، وجملة يقصد صفة ثانية له، وجائر: صفة ثالثة له. والجائر: الظالم. (انظر خزانة الأدب للبغدادى ٢: ٣٤٥، ٣٤٦).

والرواية فى (اللسان: كهل)، وفى معانى القرآن للفراء طبعة دار الكتب المصرية والخزانة ٢: ٣٤٥: «بت أعشيها».

وَلا أعُودُ بَعْدَها كَرِيًّا أُمارِسُ الكَهْلَةَ وَالصَّبِيًّا[١]

وإنما عنى جلّ ثناؤه بقوله (وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المَهْدِ وكَهْلاً) : ويكلم الناس طفلا فى المهد ، دلالة على براءة أمه مما قذفها به المفترون عليها ، وحجة له على نبوّته ، وبالغا كبيرا بعد احتناكه بوحى الله الذى يوحيه إليه ، وأمره ونهيه ، وما تقوّل عليه من كتابه . وإنما أخبر الله عزّ وجلّ عباده بذلك من أمر المسيح ، وأنه كذلك كان ، وإن كان الغالب من أمر الناس أنهم يتكلمون كهولا وشيوخا ، احتجاجا به على القائلين فيه من أهل الكفر بالله من النصارى بالباطل ، وأنه كان فى معاناة أشياء مولودا طفلا ، ثم كهلا يتقلّب فى الأحداث ، ويتغير بمرور الأزمنة عليه والأيام ، من صغر إلى كبر ، ومن حال إلى حال ، وأنه لو كان كما قال الملحدون فيه ، كان ذلك غير جائز عليه . فكذّب بذلك ما قاله الوفد من أهل نجران ، الذين حاجُّوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ، واحتجّ به عليهم لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ،وأعلمهم أنه كان كسائر بنى آدم ، إلا ما خصه الله به من الكرامة التى أبانه بها منهم .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير (وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المَهْدِ وَكَهْلاً ، وَمِنَ الصَّالِحِينَ) : يخبرهم بحالاته التى يتقلب بها فى عمره ، كتقلب بنى آدم فى أعمارهم صغارا وكبارا ، إلا أن الله خصه بالكلام فى مهده آية لنبوّته ، وتعريفا للعباد مواقع قدرته .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المَهْدِ وَكَهْلاً ، وَمِنَ الصَّالِحِينَ) يقول : يكلمهم صغيرا وكبيرا .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المَهْدِ وَكَهْلاً) قال : يكلمهم صغيرا وكبيرا .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (وَكَهْلاً ، وَمِنَ الصَّالِحِينَ) قال : الكهل : الحليم .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : كلّمهم صغيرا وكبيرا وكهلا . وقال ابن جريج ، وقال مجاهد : الكهل : الحليم .

حدثنى محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفىّ ، عن عباد ، عن الحسن. فى قوله : (وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المَهْدِ وَكَهْلاً) قال : كلمهم فى المَهْدِ صَبِيًّا ، وكلمهم كبيرا .

وقال آخرون : معنى قوله (وَكَهْلاً) : أنه سيكلمهم إذا ظهر .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب، قال : سمعته : يعنى ابن زيد، يقول فى قوله : (وَيُكَلِّمُ

(١) البيتان من الرجز ، نسبهما صاحب اللسان فى (كرى) لعذافر الكندى . قال : والكرى على فعيل : المكارى ، وهو الذى يكرى دابته . والكهل : من زاد على الثلاثين سنة إلى الأربعين أو إلى الخمسين ، والمراد أنه إذا جاوز سن الشباب سمى كهلا .

النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً) قال : قد كلمهم عيسى فى المهد ، وسيكلمهم إذا قتل الدجال ، وهو يومئذ كهل ؛ ونصب كهلا عطفا على موضع : ويكلم الناس .

وأما قوله (وَمِنَ الصَّالِحِينَ) فإنه يعنى : من عِدادهم وأوليائهم ، لأن أهل الصلاح بعضهم من بعض فى الدين والفضل .

القول فى تأويل قوله

قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ، قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : قالت مريم ، إذ قالت لها الملائكة : إن الله يبشرك بكلمة منه : ربِّ أنى يكون لى ولد : من أىّ وجه يكون لى ولد ؟ أمِن قِبَل زوج أتزوّجه وبعل أنكحه ؟ أو تبتدئ فىّ خلقه من غير بعل ولا فحل ، ومن غير أن يمسنى بشر؟ فقال الله لها : (كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ) يعنى : هكذا يخلق الله منك ولدا لك من غير أن يمسك بشر ، فيجعله آية للناس وعبرة ، فإنه يخلق ما يشاء ، ويصنع ما يريد ، فيعطى الولد من يشاء من غير فحل ومن فحل ، ويَحرِم ذلك من يشاء من النساء وإن كانت ذات بعل ، لأنه لايتعذّر عليه خلق شىء أراد خلقه ، إنما هو أن يأمر إذا أراد شيئا ما أراد ، فيقول له : كن ، فيكون ماشاء مما يشاء ، وكيف شاء .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير (قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ، قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ) : يصنع ما أراد ويخلق ما يشاء من بشر أو غير بشر : أى إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ، مما يشاء ، وكيف يشاء ، فيكون ما أراد .

القول فى تأويل قوله

وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٤٨)

اختلفت القراء فى قراءة ذلك ، فقرأته عامة قراء الحجاز والمدينة ، وبعض قراء الكوفيين : (وَيُعَلِّمُهُ) ، بالياء ، ردّا على قوله (كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مايَشاءُ وَيُعَلِّمُهُ الكتابَ) ، فألحقوا الخبر فى قوله ويعلمه ، بنظير الخبر فى قوله (يَخْلُقُ ما يَشاءُ) ، وقوله (فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) .

وقرأ ذلك عامة قراء الكوفيين وبعض البصريين (وَنُعَلِّمُهُ) بالنون ، عطفا به على قوله (نُوحِيهِ إِلَيْكَ) ، كأنه قال : ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، ونعلمه الكتاب ، وقالوا : مابعد نوحيه فى صلته ، إلى قوله : كن فيكون ، ثم عطف بقوله : ونعلمه عليه .

والصواب من القول فى ذلك عندنا : أنهما قراءتان مختلفتان غير مختلفى المعانى ، فبأيتهما قرأ القارئ فهو

مصيب الصواب فى ذلك، لاتفاق معنى القراءتين فى أنه خبر عن الله، بأنه يعلّم عيسى الكتاب ، وما ذكر أنه يعلمه ، وهذا ابتداء خبر من الله عزّ وجلّ لمريم ما هو فاعل بالولد الذى بشرها به من الكرامة ، ورفعة المنزلة والفضيلة ، فقال : كذلك الله يخلق منك ولدا ، من غير فحل ولا بعل ، فيعلمه الكتاب ، وهو الخط الذى يخطه بيده . والحكمة : وهى السنة التى نوحيها إليه فى غير كتاب . والتوراة : وهى التوراة التى أنزلت على موسى ، كانت فيهم من عهد موسى . والإنجيل : إنجيل عيسى ، ولم يكن قبله ، ولكن الله أخبر مريم قبل خلق عيسى أنه موحيه إليه ، وإنما أخبرها بذلك ، فسماه لها ، لأنها قد كانت علمت فيما نزل من الكتب أن الله باعث نبيا يوحى إليه كتابا اسمه الإنجيل ، فأخبرها الله عزّ وجلّ أن ذلك النبىّ صلى الله عليه وسلم الذى سمعت بصفته، الذى وعد أنبياءه من قبل أنه منزل عليه الكتاب الذى يسمى إنجيلا ، هو الولد الذى وهبه لها ، وبشرها به .

وبنحو ما قلنا فى ذلك ، قال جماعة من أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، قال : قال ابن جريج (وَنُعَلِّمُهُ الكِتَابَ) قال : بيده .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (وَنُعَلِّمُهُ الكتابَ والحِكْمَةَ) قال : الحكمة : السنة .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن قتادة ، فى قوله (وَنُعَلِّمُهُ الكِتابَ وَالحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإنْجِيلَ) قال: الحكمة : السنة. والتوراة والإنجيل ، قال : كان عيسى يقرأ التوراة والإنجيل .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج (وَنُعَلِّمُهُ الكِتابَ وَالحِكْمَةَ) قال: الحكمة: السنة .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير ، قال : أخبرها ، يعنى : أخبر الله مريم ما يريد به، فقال: (وَنُعَلِّمُهُ الكتابَ والحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ) التى كانت فيهم من عهد موسى ، (وَالإنْجِيلَ) كتابا آخر أحدثه إليه ، لم يكن عندهم علمه إلا ذكره أنه كائن من الأنبياء قبله.

القول فى تأويل قوله

وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ ، أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ، أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْـَٔةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ ، وَأُحْىِ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٤٩)

يعنى بقوله جلّ ثناؤه (وَرَسُولاً) : ونجعله رسولا إلى بنى إسرائيل ، فترك ذكر ونجعله ، لدلالة الكلام عليه ، كما قال الشاعر :

ورأيتِ زَوْجَكِ فى الوَغَى	مُتَقَلِّداً سَيْفاً وَرُمْحا(١)

وقوله (أَنِّى قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ) بمعنى : ونجعله رسولا إلى بنى إسرائيل ، بأنه نبىّ وبشير ونذير ، وحجتى عن صدق على ذلك . أنى قد جئتكم بآية من ربكم ، يعنى بعلامة من ربكم تحقق قولى ، وتصدّق خبرى ، أنى رسول من ربكم إليكم .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير (وَرَسُولاً إِلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ) أى تحقق بها نبوّتى ، وأنى رسول منه إليكم .

القول فى تأويل قوله (أَنِّى أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ، فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ) :

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم ، ثم بين عن الآية ماهى ؟ فقال : (أَنِّى أَخْلُقُ لَكُمْ) . فتأويل الكلام : ورسولا إلى بنى إسرائيل ، بأنى قد جئتكم بآية من ربكم ، بأن أخلق لكم من الطين كهيئة الطير ، والطير : جمع طائر .

واختلفت القراء فى قراءة ذلك . فقرأه بعض أهل الحجاز : كهيئة الطائر ، فأنفخ فيه فيكون طائرا ، على التوحيد . وقرأه آخرون : كهيئة الطير ، فأنفخ فيه فيكون طيرا ، على الجماع كليهما .

وأعجب القراءات إلىّ فى ذلك قراءة من قرأ : كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا ، على الجماع فيهما جميعا ، لأن ذلك كان من صفة عيسى أنه يفعل ذلك بإذن الله ، وأنه موافق لخط المصحف ، واتباع خط المصحف مع صحة المعنى ، واستفاضة القراءة به ، أعجب إلىّ من خلاف المصحف .

وكان خلق عيسى ما كان يخلق من الطير :

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : ثنا ابن إسحاق أن عيسى صلوات الله عليه ، جلس يوما مع غلمان من الكتّاب ، فأخذ طينا ، ثم قال : أجعل لكم من هذا الطين طائرا ، قالوا : وتستطيع ذلك ؟ قال : نعم بإذن ربى ، ثم هيأه حتى إذا جعله فى هيئة الطائر نفخ فيه ، ثم قال : كن طائرا بإذن الله ، فخرج يطير بين كفيه ، فخرج الغلمان بذلك من أمره ، فذكروه لمعلمهم ، فأفشوه فى الناس ، وترعرع ، فهمت به بنو إسرائيل ، فلما خافت أمه عليه ، حملته على حمير لها ، ثم خرجت به هاربة .

وذكر أنه لما أراد أن يخلق الطير من الطين سألهم : أىّ الطير أشدّ خلقا ؟ فقيل له : الخفّاش :

---

(١) أورد البيت صاحب اللسان فى (قلد) ولم ينسبه ، قال : وتقلد الأمر : احتمله ، وكذلك تقلد السيف ، وقوله :

يا ليت زوجك قد غدا	متقلدا سيفا ورمحا

أى وحاملا رمحا ، قال : وهذا كقول الآخر : « علفتها تبنا وماء باردا » : أى وسقيتها ماء باردا .

وأورده صاحب الخزانة عرضا فى باب شواهد المفعول معه (١ : ٥٠٠) كما أورده صاحب اللسان بلفظه .

كما حدثنا القاسم قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قوله (أَنِّى أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ) قال : أىّ الطير أشدّ خلقا ؟ قالوا : الخُفاش ، إنما هو لحم . قال ففعل .

فإن قال قائل : وكيف قيل (فَأَنْفُخُ فِيهِ) وقد قيل (أَنِّى أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ) ؟ قيل : لأن معنى الكلام : فأنفخ فى الطير ، ولو كان ذلك : فأنفخ فيها ، كان صحيحا جائزا كما قال فى المائدة (فَتَنْفُخُ فِيهَا) يريد : فأنفخ فى الهيئة ، وقد ذكر أن ذلك فى إحدى القراءتين : فأنفخها ، بغير « فى » ، وقد تفعل العرب مثل ذلك . فتقول : ربّ ليلة قد بتّها وبتّ فيها ، قال الشاعر :

ماشُقَّ جَيْبٌ ولا قامَتْكَ نائحةٌ ولا بَكَتْكَ جِيادٌ عنـدَ أَسْلابِ[1]

بمعنى : ولا قامت عليك ، وكما قال الآخر :

إحْدَى بَنِي عَيِّذِ اللهِ اسْتَمَرَّ بِهَا حُلْوُ العُصَارَةِ حتى يُنْفَخَ الصُورُ[2]

القول فى تأويل قوله (وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ) :

يعنى بقوله (وَأُبْرِئُ) : وأَشْفِى ، يقال منه : أبرأ الله المريض : إذا شفاه منه ، فهو يبرئه إبراء ، وبَرَأَ المريض فهو يَبْرأ بُرْءا . وقد يقال أيضا : بَرِئَ المريض فهو يبرأ ، لغتان معروفتان .

واختلف أهل التأويل فى معنى الأكمه ، فقال بعضهم : هو الذى لايبصر بالليل ، ويبصر بالنهار .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قوله (وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ) قال : الأكمه : الذى يبصر بالنهار ، ولا يبصر بالليل ، فهو يتكمّه .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

وقال آخرون : هو الأعمى الذى ولدته أمه كذلك .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قال : كنا نحدّث أن الأكمه الذى ولد وهو أعمى ، مضمومَ العينين .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن قتادة ، فى قوله (وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ) قال : كنا نحدّث أن الأكمه الذى ولد وهو أعمى مضموم العينين .

حُدثت عن المنجاب ، قال : ثنا بشر ، عن عمارة ، عن أبى رَوْق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، قال : الأكمه : الذى يُولد وهو أعمى .

---

(١) الشاهد فى قوله : قامتك نائحة ، فإن أصله : قامت عليك نائحة ، ثم حذف الجار ، ووصل الضمير بالفعل ، ولم نعثر على قائل البيت .

(٢) لم نعثر على قائل البيت . وبنو عيذ الله ، بتشديد الياء ، وتخفف عند النسب إليه ، وعيذ الله هو ابن سعد بن مذحج ، كما فى التاج . وقوله « حتى ينفخ الصور » : أصله ينفخ فى الصور . قال فى اللسان : نفخ فيه فانتفخ . فأسقط حرف الجر ، وأوصل الفعل إلى المفعول ، ثم رفعه نائبا عن الفاعل .

وقال آخرون : بل هو الأعمى .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى موسى بن هارون ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (وأُبْرِئُ الأكمهَ) : هو الأعمى .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس : الأعمى .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (وأُبْرِئُ الأكْمَهَ) قال : الأكمه : الأعمى .

حدثنى محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفىّ ، عن عباد بن منصور ، عن الحسن فى قوله (وأُبْرِئُ الأكْمَهَ) قال : الأعمى .

وقال آخرون : هو الأعمش .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا حفص بن عمر ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، فى قوله (وأُبْرِئُ الأكْمَهَ) قال : الأعمش . والمعروف عند العرب من معنى الكَمَه : العمى ، يقال منه : كَمِهَتْ عينه ، فهى تَكْمَه كَمَها ، وأكمهتها أنا : إذا أعميتها ، كما قال سويد بن أبى كاهل :

كَمِهَتْ عَيْناهُ حتى ابْيَضَّتا فهو يَلْحَى نَفْسَهُ لما نَزَعْ[1]

ومنه قول رؤبة :

هَرَّجْتُ فارْتَدَّ ارْتِدادَ الأكْمَهِ فى غائلاتِ الحائرِ المُتَهْتَهِ[2]

وإنما أخبر الله عزّ وجلّ عن عيسى صلوات الله عليه ، أنه يقول ذلك لبنى إسرائيل ، احتجاجا منه بهذه العِبر والآيات عليهم فى نبوّته ، وذلك أن الكَمَه والبَرَص لا علاج لهما ، فيَقْدِر على إبرائه ذو طبّ بعلاج ، فكان ذلك من أدلته على صدق قيله ، إنه لله رسول ، لأنه من المعجزات مع سائر الآيات التى

---

(١) البيت من عينية سويد بن أبى كاهل اليشكرى المشهورة (انظر المفضليات للضبى) . وأورده صاحب اللسان فى « كمه » ، قال : الكمه فى التفسير : العمى الذى يولد به الإنسان ، كمه بصره بالكسر كمها ، وهو أكمه ؛ إذا اعترته ظلمة تطمس عليه . وربما جاء الكمه فى الشعر : العمى العارض ، قال سويد : . . . (البيت) .

قال ابن برى : وقد يجوز أن يكون مستعارا من قولهم : كمهت الشمس : إذا علتها غبرة فأظلمت ، كما تظلم العين إذا علتها غبرة العمى . ويجوز أيضا أن يكون مستعارا من قولهم كمه الرجل : إذا سلب عقله ، لأن العين بالكمه يسلب نورها . ومعنى البيت : أن الحسد قد بيض عينيه كما قال رؤبة : « بيض عينيه العمى المعمى » .

وذكر أهل اللغة أن الكمه يكون خلقة ، ويكون حادثا بعد بصر . وعلى هذا الوجه الثانى فسر هذا البيت ، قال ابن سيده : وربما قالوا للمسلوب العقل أكمه ، قال رؤبة (انظر الشاهد الذى بعد هذا) . ابن الأعرابى : الأكمه الذى يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل وقال أبو الهيثم : الأكمه الأعمى الذى لا يبصر ، فيتحير ويتردد . ويقال : إن الأكمه الذى تلده أمه أعمى . وأنشد بيت رؤبة . . فوصفه بالهرج ، وذكر أنه كالأكمه فى حال هرجه .

(٢) فى لسان العرب (تهته) قال ابن برى : تهته فى الشىء (مبنيا للمجهول) أى ردد فيه ، ويقال : تهته فلان : إذا ردد فى الباطل . ومنه قول رؤبة . . . (البيت) والبيتان فى ديوانه من أرجوزة يصف بها نفسه ص ١٦٦ . وفيه « الخائب » فى مكان « الحائر » .

أعطاه الله إياها دلالة على نبوّته . فأما ماقال عكرمة ، من أن الكَمَه : العَمَش ، وماقاله مجاهد : من أنه سوء البصر بالليل ، فلا معنى لهما ، لأن الله لايحتجّ على خلقه بحجة تكون لهم السبيل إلى معارضته فيها ، ولو كان مما احتجّ به عيسى على بنى إسرائيل فى نبوّته أنه يبرئ الأعمش ، أو الذى يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل ، لقدروا على معارضته بأن يقولوا : ومافى هذا لك من الحجة ، وفينا خَلْق ممن يعالج ذلك وليسوا لله أنبياء ولا رسلا ، ففى ذلك دلالة بينة على صحة ماقلنا من أن الأكمه : هو الأعمى الذى لايبصر شيئا ، لاليلا ولا نهارا ، وهو بما قال قتادة : من أنه المولود كذلك ، أشبه ، لأن علاج مثل ذلك لايدّعيه أحد من البشر ، إلا من أعطاه الله مثل الذى أعطى عيسى ، وكذلك علاج الأبرص .

القول فى تأويل قوله جلّ ثناؤه (وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ ، وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ ، وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ) وكان إحياء عيسى الموتى بدعاء الله ، يدعو لهم ، فيستجيب له .

كما حدثنى محمد بن سهل بن عسكر ، قال : ثنا إسماعيل بن عبد الكريم ، قال : ثنى عبد الصمد بن معقل أنه سمع وهب بن منبه يقول : لما صار عيسى ابن اثنتى عشرة سنة ، أوحى الله إلى أمه وهى بأرض مصر ، وكانت هربت من قومها حين ولدته إلى أرض مصر : أن اطلُعى به إلى الشام . ففعلت الذى أمرت به . فلم تزل بالشام حتى كان ابن ثلاثين سنة ، وكانت نبوّته ثلاث سنين ، ثم رفعه الله إليه . قال : وزعم وهب أنه ربما اجتمع على عيسى من المرضى فى الجماعة الواحدة خمسون ألفا ، من أطاق منهم أن يبلغه بلغه ، ومن لم يطق منهم ذلك أتاه عيسى يمشى إليه ، وإنما كان يداويهم بالدعاء إلى الله .

وأماقوله (وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ) فإنه يعنى : وأخبركم بما تأكلون ، مما لم أعاينه وأشاهده معكم فى وقت أكلكموه . وما تدّخرون ، يعنى بذلك : وما ترفعونه فتخبئونه ولا تأكلونه . يُعْلِمهم أن من حجته أيضا على نبوّته مع المعجزات التى أعلمهم أنه يأتى بها . حجة على نبوّته وصدقه فى خبره أن الله أرسله إليهم : من خلق الطير من الطين . وإبراء الأكمه والأبرص . وإحياء الموتى بإذن الله . التى لايطيقها أحد من البشر ، إلا من أعطاه الله ذلك . علَمًا له على صدقه ، وآية له على حقيقة قوله ، من أنبيائه ورسله ، ومن أحبّ من خلقه إنباءه عن الغيب ، الذى لاسبيل لأحد من البشر الذين سبيلهم سبيله عليه .

فإن قال قائل : وماكان فى قوله لهم : (وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ) ، من الحجة له على صدقه ، وقد رأينا المتنجمة والمتكهنة تخبر بذلك كثيرا فتصيب ؟ قيل : إن المتنجم والمتكهن معلوم منهما عند من يخبره بذلك ، أنهما ينبئان به عن استخراج له ببعض الأسباب المؤدية إلى علمه ، ولم يكن ذلك كذلك من عيسى صلوات الله عليه ، ومن سائر أنبياء الله ورسله ، وإنما كان عيسى يخبر به عن غير استخراج ولا طلب لمعرفته باحتيال ، ولكن ابتدأ بإعلام الله إياه ، من غير أصل تقدّم ذلك احتذاه ، أو بنى عليه أو فزِع إليه ، كما يفزع المتنجم إلى حسابه ، والمتكهن إلى رَئِيِّه . فذلك هو الفصل بين علم الأنبياء بالغيوب وإخبارهم عنها ، وبين علم سائر المتكاذبة على الله ، أو المدّعية علم ذلك .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قال : لما بلغ عيسى تسع سنين أو عشرا أو نحو ذلك ، أدخلته أمه الكتاب فيما يزعمون ، فكان عند رجل من المُكْتِبين ، يعلمه كما يعلّم الغلمان ، فلا يذهب يعلمه شيئا مما يعلمه الغلمان إلا بَدَرَه إلى علمه قبل أن يعلمه إياه ، فيقول : ألا تعجبون لابن هذه الأرملة ، ما أذهب أعلمه شيئا إلا وجدته أعلم به منى .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ : لما كبر عيسى أسلمته أمه يتعلم التوراة ، فكان يلعب مع الغلمان ، غلمان القرية التى كان فيها ، فيحدّث الغلمان بما يصنع آباؤهم .

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا إسماعيل بن سالم ، عن سعيد بن جبير فى قوله (وأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ) قال : كان عيسى بن مريَم إذ كان فى الكُتّاب يخبرهم بما يأكلون فى بيوتهم وما يدّخرون .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا إسماعيل بن سالم ، قال : سمعت سعيد بن جبير يقول : (وأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ) قال : إن عيسى ابن مريم كان يقول للغلام فى الكتاب : يافلان إن أهلك قد خبئوا لك كذا وكذا من الطعام ، فتطعمنى منه ، فهكذا فعل الأنبياء ، وحججها إنما تأتى بما أتت به من الحجيج بما قد يوصل إليه ببعض الحيل ، على غير الوجه الذى يأتى به غيرها ، بل من الوجه الذى يعلم الخلق أنه لا يوصل إليه من ذلك الوجه بحيلة إلا من قِبَل الله .

وبنحو ما قلنا فى تأويل قوله (وأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ) قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله : (وأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ) قال : بما أكلتم البارحة ، وما خبأتم منه . عيسى بن مريم يقوله .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال عطاء بن أبى رباح يعنى قوله (وأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ) قال : الطعام والشىء يدّخرونه فى بيوتهم ، غيبا علمه الله إياه .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع فى قوله (وأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ) قال : ما تأكلون : ما أكلتم البارحة من طعام ، وما خبأتم منه .

حدثنى موسى بن هارون ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، قال : كان ، يعنى عيسى بن مريم ، يحدّث الغلمان وهو معهم فى الكتاب بما يصنع آباؤهم ، وبما يرفعون لهم ، وبما يأكلون

ويقول للغلام : انطلق فقد رفع لك أهلك كذا وكذا ، وهم يأكلون كذا وكذا ، فينطلق الصبيّ ، فيبكى على أهله ، حتى يعطوه ذلك الشيء ، فيقولون له : من أخبرك بهذا ؟ فيقول : عيسى . فذلك قول الله عزّ وجلّ (وأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ) فحبسوا صبيانهم عنه ، وقالوا : لاتلعبوا مع هذا الساحر ، فجمعوهم فى بيت ، فجاء عيسى يطلبهم . فقالوا : ليس هم ههنا . فقال : ما فى هذا البيت ؟ فقالوا : خنازير ، قال عيسى : كذلك يكونون ، ففتحوا عنهم فإذا هم خنازير ، فذلك قوله (عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ) .

حدثنى محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفيّ ، عن عباد ، عن الحسن فى قوله (وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ) قال : ما تخبئون مخافة الذى يمسك أن لايخلفه شيء .

وقال آخرون : إنما عنى بقوله (وأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ) : ما تأكلون من المائدة التى تنزل عليكم ، وما تدخرون منها .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ) ، فكان القوم لما سألوا المائدة ، فكانت جرابا ينزل عليه أينما كانوا ثمرا من ثمار الجنة ، فأمر القوم ألاّ يخونوا فيه ، ولا يخبئوا ، ولا يدّخروا لغد ، بلاء ابتلاهم الله به ، فكانوا إذا فعلوا من ذلك شيئا أنبأهم به عيسى بن مريم ، فقال : (وأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ) .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، فى قوله (وأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ) قال : أنبئكم بما تأكلون من المائدة ، وما تدّخرون منها . قال : فكان أخذ عليهم فى المائدة حين نزلت أن يأكلوا ولا يدّخروا ، فادّخروا وخانوا ، فجُعلوا خنازير حين ادّخروا وخانوا ، فذلك قوله (فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ) . قال ابن يحيى : قال عبد الرزاق : قال معمر ، عن قتادة ، عن خلاس ابن عمرو ، عن عمار بن ياسر ، ذلك .

وأصل يدّخرون من الفعل يَفْتَعِلون ، من قول القائل : ذَخَرت الشيء بالذال ، فأنا أَذخَره ، ثم قيل : يدّخر كما قيل : يدّكر ، من ذكرت الشيء ، يراد به يذتخر ، فلما اجتمعت الذال والتاء وهما متقاربتا المخرج ، ثقُل إظهارهما على اللسان ، فأدغمت إحداهما فى الأخرى ، وصيرتا دالا مشددة ، صيروها عدلا بين الذال والتاء ، ومن العرب من يغلب الذال على التاء ، فيدغم التاء فى الذال ، فيقول : وما تَذَّخرون وهومذّخر لك ، وهو مُذَّكِر . واللغة التى بها القراءة : الأولى ، وذلك إدغام الذال فى التاء ، وإبدالهما دالا مشددة : لايجوز القراءة بغيرها ، لتظاهر النقل من القراء بها ، وهى اللغة الجودَى ، كما قال زهير :

إنَّ الكَرِيمَ الذى يُعْطِيكَ نائلَهُ عَفْوًا وَيُظْلَمُ أحيانًا فَيَظَّلِمُ[1]

يروى بالظاء ، يريد : فيفتعل من الظلم ، ويروى بالطاء أيضا .

القول فى تأويل قوله (إنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) :

يعنى بذلك جل ثناؤه : إن فى خلقى من الطين الطيرَ بإذن الله ، وفى إبرائى الأكمه والأبرص ، وإحيائى الموتى ، وإنبائى إياكم بما تأكلون وما تدّخرون فى بيوتكم ، ابتداء من غير حساب وتنجيم ، ولا كهانة وعرافة ، لعبرة لكم ، ومتفكرًا تتفكرون فىّ ذلك ، فتعتبرون به أنى محقّ فى قولى لكم : إنى رسول من ربكم إليكم ، وتعلمون به أنى فيما أدعوكم إليه من أمر الله ونهيه صادق . إن كنتم مؤمنين ، يعنى : إن كنتم مصدّقين حجج الله وآياته ، مقرّين بتوحيده ونبيه موسى ، والتوراة التى جاءكم بها .

القول فى تأويل قوله

وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ، وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٥١)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : وبأنى قد جئتكم بآية من ربكم ، وجئتكم مصدّقا لما بين يدىّ من التوراة ، ولذلك نصب مصدّقا على الحال من جئتكم . والذى يدلّ على أنه نصب على قوله وجئتكم ، دون العطف على قوله : وجيها ، قوله (لِمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ) ولو كان عطفا على قوله : وجيها ، لكان الكلام : ومصدّقا لما بين يديه من التوراة ، وليحلّ لكم بعض الذى حرّم عليكم ، وإنما قيل : (وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ) : لأن عيسى صلوات الله عليه كان مؤمنا بالتوراة ، مقرًّا بها ، وأنها من عند الله . وكذلك الأنبياء ، كلهم يصدّقون بكل ما كان قبلهم من كتب الله ورسله ، وإن اختلف بعض شرائع أحكامهم ، لمخالفة الله بينهم فى ذلك ، مع أن عيسى كان فيما بلغنا ، عاملا بالتوراة ، لم يخالف شيئا من أحكامها ، إلا ما خفف الله عن أهلها فى الإنجيل ، مما كان مشدّدا عليهم فيها .

كما حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا عبد الكريم ، قال : ثنى عبد الصمد بن معقل : أنه سمع وهب بن منبه يقول : إن عيسى كان على شريعة موسى صلى الله عليهما وسلم . وكان يَسْبِت ويستقبل بيت المقدس ، فقال لبنى إسرائيل : إنى لم أدعُكم إلى خلاف حرف مما فى التوراة ، إلا لأحلّ لكم بعض الذى حرّم عليكم ، وأضع عنكم من الآصار .

(١) رواية البيت كما فى الصحاح واللسان عن سيبويه والديوان (انظر مختار الشعر الجاهلى ص ٢٦٠) : هو الجواد الذى . . . الخ . قال فى اللسان : أنشد سيبويه قول زهير : هو الجواد . . . الخ . أى يطلب منه فى غير موضع الطلب ، وهو عنده يفتعل . ويروى يظطلم . . . وفى افتعل من ظلم ثلاث لغات : من العرب من يقلب التاء طاء ، ثم يظهر الطاء والظاء جميعا ، فيقول : اظطلم ، ومنهم من يدغم الظاء فى الطاء ، فيقول : اطلم ، وهو أكثر اللغات . ومنهم من يكره أن يدغم الأصل فى الزائد ، فيقول : اظلم . اهـ .

حدثني بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ) كان الذى جاء به عيسى ألين مما جاء به موسى ، وكان قد حُرِّم عليهم فيما جاء به موسى ، لحومُ الإبل والثُّروب[1] ، وأشياء من الطير والحيتان .

حدثني المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، فى قوله (وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ، وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ) قال : كان الذى جاء به عيسى ألين من الذى جاء به موسى ، قال : وكان حُرِّم عليهم فيما جاء به موسى من التوراة لحوم الإبل والثُّروب[1] ، فأحلها لهم على لسان عيسى ، وحرِّمت عليهم الشحوم ، وأحلت لهم فيما جاء به عيسى ، وفى أشياء من السمك ، وفى أشياء من الطير ، مما لا صيصية له ، وفى أشياء حرّمها عليهم ، وشدّدها عليهم . فجاءهم عيسى بالتخفيف منه فى الإنجيل ، فكان الذى جاء به عيسى ألين من الذى جاءبه موسى ، صلوات الله عليه .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قوله (وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ) قال : لحوم الإبل والشحوم ، لما بُعث عيسى أحلها لهم ، وبعث إلى اليهود ، فاختلفوا وتفرّقوا .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير (وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ) : أى لما سبقنى منها (وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ) : أى أخبركم أنه كان حراما عليكم ، فتركتموه ، ثم أحله لكم تخفيفا عنكم ، فتصيبون يسره ، وتخرجون من تِباعته[2] .

حدثني محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفيّ ، عن عباد ، عن الحسن (وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ) قال : كان حرِّم عليهم أشياء ، فجاءهم عيسى ليحلّ لهم الذى حرِّم عليهم ، يبتغى بذلك شكرهم .

القول فى تأويل قوله (وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ) :

يعنى بذلك : وجئتكم بحجة وعبرة من ربكم ، تعلمون بها حقيقة ما أقول لكم .

كما حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : (وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ) قال : ما بين لهم عيسى من الأشياء كلها ، وما أعطاه ربه .

حدثني المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ) : ما بين لهم عيسى من الأشياء كلها ، ويعنى بقوله (مِنْ رَبِّكُمْ) : من عند ربكم

القول فى تأويل قوله (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ، إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) :

يعنى بذلك : وجئتكم بآية من ربكم ، تعلمون بها يقينا صدق فيما أقول ، فاتقوا الله يا معشر بنى إسرائيل فيما أمركم به ، ونهاكم عنه ، فى كتابه الذى أنزله على موسى ، فأوفوا بعهده الذى عاهدتموه فيه ، وأطيعون

(١) جمع ثَرب ، وهو شحم رقيق يغشى الكرش والأمعاء . وجمعه : ثروب .
(٢) التباعة والتبعة : ما فيه إثم يتبع به .

فيما دعوتكم إليه ، من تصديقى فيما أرسلنى به إليكم ربى وربكم فاعبدوه ، فإنه بذلك أرسلنى إليكم ، وبإحلال بعض ما كان محرّما عليكم فى كتابكم ، وذلك هو الطريق القويم ، والهُدَى المتين الذى لا اعوجاج فيه .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ، إِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ) تبريا من الذى يقولون فيه . يعنى ما يقول فيه النصارى ، واحتجاجا لربه عليهم ، فاعبدوه . وهذا صراط مستقيم : أى هذا الذى قد حملتكم عليه وجئتكم به .

واختلفت القراء فى قراءة قوله (إِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ) فقرأته عامة قرّاء الأمصار : (إِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ) بكسر ألف إنّ . على ابتداء الخبر . وقرأه بعضهم (أَنَّ اللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ) بفتح ألف أنّ ، بتأويل : وجئتكم بآية من ربكم : أنّ الله ربى وربكم ، على ردّ أنّ على الآية ، والإبدال منها .

والصواب من القراءة عندنا : ما عليه قراء الأمصار ، وذلك كسر ألف إنّ . على الابتداء ، لإجماع الحجة من القراء على صحة ذلك ، وما اجتمعت عليه فحجة ، وما انفرد به المنفرد عنها فرأى . ولا يعترض بالرأى على الحجة . وهذه الآية ، وإن كان ظاهرها خبرا . ففيه الحجة البالغة من الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، على الوفد الذين حاجُّوه من أهل نجران ، بإخبار الله عزوجلّ . عن أن عيسى كان بريئا مما نسبه إليه من نسبه ، إلى غير الذى وصف به نفسه ، من أنه لله عبد كسائر عبيده من أهل الأرض ، إلا ما كان الله جلّ ثناؤه خصه به من النبوّة ، والحجج التى آتاه دليلا على صدقه . كما آتى سائر المرسلين غيره من الأعلام ، والأدلة على صدقهم ، والحجة على نبوّتهم .

القول فى تأويل قوله عزّ وجلّ

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ، آمَنَّا بِاللَّهِ ، وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (٥٢)

يعنى بقوله جلّ ثناؤه (فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ) : فلما وجد عيسى منهم الكفر . والإحساس : هو الوجود ، ومنه قول الله عزّ وجلّ (هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ) : فأما الحسّ بغير ألف ، فهو : الإفناء والقتل ، ومنه قوله (إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ) والحسّ أيضا : العطف والرقة . ومنه قول الكميت :

هَلْ مَنْ بَكَى الدَّارَ رَاجٍ أَنْ تَحِسَّ لَهُ		أَوْ يُبْكِيَ الدَّارَ ماءُ العَبْرَةِ الخَضِلُ[١]

يعنى بقوله : أن تحِسّ له : أن ترق له .

فتأويل الكلام : فلما وجد عيسى من بنى إسرائيل الذين أرسله الله إليهم جحودا لنبوّته . وتكذيبا

(١) أنشد صاحب اللسان البيت منسوبا إلى الكميت . قال الأزهرى : الحس : العطف والرقة بالفتح . وأنشد للكميت . . . البيت . وفى حديث قتادة رضى الله عنه : «إن المؤمن ليحس للمنافق» : أى يأوى له ويتوجع . وحسست له بالفتح والكسر ، أحس : أى رققت له .

لقوله ، وصدّا عما دعاهم إليه من أمر الله ، قال : (مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ) يعنى بذلك : قال عيسى : من أعوانى على المكذّبين بحجة الله ، والمولّين عن دينه ، والجاحدين نبوّة نبيه ، إلى الله عزّ وجلّ ؟ ويعنى بقوله (إلى اللهِ) : مع الله ، وإنما حسن أن يقال : إلى الله ، بمعنى : مع الله ، لأن من شأن العرب إذا ضموا الشىء إلى غيره ، ثم أرادوا الخبر عنهما بضمّ أحدهما مع الآخر إذا ضمّ إليه ، جعلوا مكان «مع» «إلى» أحيانا ، وأحيانا تخبر عنهما بمع ، فتقول : الذود إلى الذود إبل ، بمعنى : إذا ضممت الذود إلى الذود صارت إبلا . فأما إذا كان الشىء مع الشىء لم يقولوه بإلى ، ولم يجعلوا مكان « مع » إلى ؛ غير جائز أن يقال : قدم فلان وإليه مال ، بمعنى : ومعه مال .

وبمثل ما قلنا فى تأويل قوله : (مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ) قال جماعة من أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ قوله (مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ) يقول : مع الله .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج (مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ) يقول : مع الله .

وأما سبب استنصار عيسى عليه السلام من استنصر من الحواريين : فإن بين أهل العلم فيه اختلافا .

فقال بعضهم : كان سبب ذلك ما حدثنى به موسى بن هارون ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ : لما بعث الله عيسى ، فأمره بالدعوة ، نفته بنو إسرائيل وأخرجوه ، فخرج هو وأمه يسيحون فى الأرض ، فنزل فى قرية على رجل ، فضافهم وأحسن إليهم ، وكان لتلك المدينة ملك جبار معتدٍ ، فجاء ذلك الرجل يوما ، وقد وقع عليه همّ وحزن ، فدخل منزله ، ومريم عند امرأته ، فقالت مريم لها : ماشأن زوجك أراه حزينا ؟ قالت : لاتسألى ، قالت : أخبرينى لعلّ الله يفرّج كربته ، قالت : فإن لنا ملكا يجعل على كل رجل منا يوما يطعمه هو وجنوده ، ويسقيهم من الخمر ، فإن لم يفعل عاقبه ، وإنه قد بلغت نوبته اليوم الذى يريد أن نصنع له فيه ، وليس لذلك عندنا سعة . قالت : فقولى له : لايهتمّ ، فإنى آمر ابنى فيدعو له ، فيُكْفَى ذلك . قالت مريم لعيسى فى ذلك . قال عيسى : يا أمة ، إنى إن فعلت كان فى ذلك شرّ . قالت : فلا تبال ، فإنه قد أحسن إلينا وأكرمنا . قال عيسى : فقولى له : إذا اقترب ذلك ، فاملأ قدورك وخوابيك ماء ، ثم أعلمنى . قال : فلما ملأهنّ أعلمه ، فدعا الله ، فتحوّل ما فى القدور لحما ومرقا وخبزا ، وما فى الخوابى خمرا لم ير الناس مثله قَطُّ ، وإياه طعاما ؛ فلما جاء الملك أكل ، فلما شرب الخمر سأل من أين هذه الخمر ؟ قال له : هى من أرض كذا وكذا . قال الملك : فإن خمرى أُوتَى بها من تلك الأرض ، فليس هى مثل هذه . قال : هى من أرض أخرى ؛ فلما خلط على الملك ، اشتدّ عليه ، قال : فأنا أخبرك : عندى غلام لايسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه ، وإنه دعا الله ، فجعل الماء خمرا ، قال الملك ، وكان له ابن يريد أن يستخلفه ، فمات قبل ذلك بأيام ، وكان أحبّ الخلق إليه ، فقال : إن رجلا دعا الله حتى جعل

الماء خمرا ، ليُستجابَنّ له حتى يُحيِيَ ابنى . فدعا عيسى فكلمه ، فسأله أن يدعو الله فيحييَ ابنه . فقال عيسى : لا تفعل ، فإنه إن عاش كان شرًّا . فقال الملك : لا أبالى ، أليس أراه ، فلا أبالى ما كان . فقال عيسى عليه السلام : فإن أحييته تتركونى أنا وأمى نذهب أينما شئنا ؟ قال الملك : نعم . فدعا الله ، فعاش الغلام ، فلما رآه أهل مملكته قد عاش ، تنادوا بالسلاح . وقالوا : أكلنا هذا ، حتى إذا دنا موته يريد أن يستخلف ابنه ، فيأكلنا كما أكلنا أبوه ؟ فاقتتلوا . وذهب عيسى وأمه . وصحبهما يهوديّ . وكان مع اليهوديّ رغيفان ، ومع عيسى رغيف . فقال له عيسى : شاركنى . فقال اليهوديّ : نعم . فلما رأى أنه ليس مع عيسى إلا رغيف ندم ، فلما ناما جعل اليهوديّ يريد أن يأكل الرغيف ، فلما أكل لقمة قال له عيسى : ما تصنع ؟ فيقول : لا شيء . فيطرحها . حتى فرغ من الرغيف كله ، فلما أصبحا ، قال له عيسى : هلمّ طعامك ، فجاء برغيف . فقال له عيسى : أين الرغيف الآخر ؟ قال : ما كان معى إلا واحد . فسكت عنه عيسى . فانطلقوا . فمرّوا براعى غنم . فنادى عيسى : يا صاحب الغنم أجزرنا شاة من غنمك . قال : نعم ، أرسل صاحبك يأخذها . فأرسل عيسى اليهوديّ . فجاء بالشاة . فذبحوها وشوَوْها . ثم قال لليهوديّ : كل ولا تكسرنّ عظما . فأكلا . فلما شبعوا قذف عيسى العظام فى الجلد . ثم ضربها بعصاه وقال : قومى بإذن الله . فقامت الشاة تَثْغو[1] . فقال : يا صاحب الغنم خذ شاتك . فقال له الراعى : من أنت ؟ قال : أنا عيسى بن مريم . قال : أنت الساحر ، وفرّ منه . قال عيسى لليهوديّ : بالذى أحيا هذه الشاة بعد ما أكلناها ، كم كان معك رغيفا ؟ فحلف ما كان معه إلا رغيف واحد . فمرّوا بصاحب بقر . فنادى عيسى ، فقال : يا صاحب البقر ، أجزرنا من بقرك هذه عِجْلا . قال : ابعث صاحبك يأخذه . قال : انطلق يا يهوديّ فجئ به . فانطلق فجاء به . فذبحه وشواه ، وصاحب البقر ينظر . فقال له عيسى : كل ولا تكسرنّ عظما . فلما فرغوا قذف العظام فى الجلد ، ثم ضربه بعصاه ، وقال : قم بإذن الله . فقام وله خُوار ، قال خذ عجلك . قال : ومن أنت ؟ قال : أنا عيسى . قال : أنت السحار ، ثم فرّ منه . قال اليهودى : يا عيسى ! أحييته بعد ما أكلناه . قال عيسى : فبالذى أحيا الشاة بعد ما أكلناها ، والعجل بعد ما أكلناه : كم كان معك رغيفا ؟ فحلف بالله ما كان معه إلا رغيف واحد . فانطلقا حتى نزلا قرية ، فنزل اليهوديّ أعلاها ، وعيسى فى أسفلها ، وأخذ اليهوديّ عصا مثل عصا عيسى ، وقال : أنا الآن أحيى الموتى ، وكان ملك تلك المدينة مريضا شديد المرض . فانطلق اليهوديّ ينادى : من يبتغى طبيبا ، حتى أتى ملك تلك القرية ، فأخبر بوجعه . فقال : أدخلونى عليه ، فأنا أبرئه . وإن رأيتموه قد مات فأنا أحييه . فقيل له : إن وجع الملك قد أعيا الأطباء قبلك ، ليس من طبيب يداويه ، ولا يفى دواؤه شيئا إلا أمر به فصُلب . قال : أدخلونى عليه فإنى سأبرئه . فأدخل عليه . فأخذ برجل الملك ، فضربه بعصاه حتى مات . فجعل يضربه بعصاه وهو ميت ، ويقول : قم بإذن الله . فأُخذ ليصلب . فبلغ عيسى ، فأقبل إليه ، وقد رفع على الخشبة ، فقال : أرأيتم إن أحييت لكم صاحبكم أتتركون لى صاحبى ؟ قالوا : نعم . فأحيا الله الملك لعيسى ، فقام وأُنزل اليهوديّ . فقال : يا عيسى ، أنت أعظم الناس علىّ مِنة ، والله لا أفارقك أبدا ؛ قال عيسى ، فما حدثنا

(١) ثغت الشاة والعنز والظبية تثغو ثغاء : صاحت .

به محمد بن الحسين بن موسى ، قال : ثنا أحمد بن المفضل قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ لليهودىّ : أَنْشُدُكَ بالذى أحيا الشاة والعجل بعد ما أكلناهما ، وأحيا هذا بعد ما مات ، وأنزلك من الجذع بعد ما رُفعت عليه لتُصلَب ، كم كان معك رغيفا ؟ قال : فحلف بهذا كله ما كان معه إلا رغيف واحد . قال : لابأس . فانطلقا حتى مرّا على كنز قد حفرته السباع والدوابّ . فقال اليهودىّ يا عيسى : لمن هذا المال ، قال عيسى : دعه ، فإن له أهلا يهلكون عليه . فجعلت نفس اليهودىّ تطلع إلى المال ، ويكره أن يعصىَ عيسى ، فانطلق مع عيسى ، ومرّ بالمال أربعة نفر ، فلما رأوه ، اجتمعوا عليه . فقال اثنان لصاحبيهما : انطلقا فابتاعا لنا طعاما وشرابا ودوابّ ، نحمل عليها هذا المال . فانطلق الرجلان ، فابتاعا دوابّ وطعاما وشرابا ، وقال أحدهما لصاحبه : هل لك أن نجعل لصاحبينا فى طعامهما سَمًّا ، فإذا أكلا ماتا . فكان المال بينى وبينك ، فقال الآخر : نعم ، ففعلا . وقال الآخران : إذا ما أُتيانا بالطعام ، فليقم كل واحد إلى صاحبه فيقتله ، فيكون الطعام والدوابّ بينى وبينك . فلما جاءا بطعامهما قاما فقتلاهما ، ثم قعدا على الطعام ، فأكلا منه فماتا ، وأُعلم ذلك لعيسى ، فقال لليهودىّ : أخرجه حتى نقتسمه ، فأخرجه ، فقسمه عيسى بين ثلاثة ، فقال اليهودىّ : ياعيسى اتق الله ولا تظلمنى ، فإنما هو أنا وأنت ، ما هذه الثلاثة ؟ قال له عيسى هذا لى ، وهذا لك ، وهذا الثلث لصاحب الرغيف ، قال اليهودىّ : فإن أخبرتك بصاحب الرغيف تعطينى هذا المال ؟ فقال عيسى : نعم ، قال : أنا هو . قال عيسى : خذ حظى وحظك وحظّ صاحب الرغيف ، فهو حظك من الدنيا والآخرة ؛ فلما حمله مشى به شيئا ، فخُسِف به . وانطلق عيسى بن مريم ، فمرّ بالحواريّين وهم يصطادون السمك ، فقال : ما تصنعون ؟ فقالوا : نصطاد السمك ، فقال : أفلا تمشون حتى نصطاد الناس ؟ قالوا : ومن أنت ؟ قال : أنا عيسى بن مريم ، فآمنوا به ، وانطلقوا معه ، فذلك قول الله عزّ وجلّ (مَنْ أَنْصَارِى إلى اللهِ ؟ قالَ الحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ ، آمَنَّا باللهِ ، وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) .

حدثنا محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفىّ عن عباد بن منصور ، عن الحسن فى قوله (فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الكُفْرَ قالَ مَنْ أَنْصَارِى إلى اللهِ) . . . الآية ، قال : استنصر فنصره الحواريون ، وظهر عليهم .

وقال آخرون : كان سبب استنصار عيسى من استنصر ، لأن من استنصر الحواريين عليه ، كانوا أرادوا قتله .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد (فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الكُفْرَ) قال : كفروا وأرادوا قتله ، فذلك حين استنصر قومه ، قال (مَنْ أَنْصَارِى إلى اللهِ ، قالَ الحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ) والأنصار : جمع نصير ، كما الأشراف جمع شريف ، والأشهاد جمع شهيد .

وأما الحواريون ، فإن أهل التأويل اختلفوا فى السبب الذى من أجله سموا حَوَارِيِّين ، فقال بعضهم : سموا بذلك لبياض ثيابهم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عبيد المحاربىّ ، قال : مما روى أبى ، قال : ثنا قيس بن الربيع ، عن ميسرة ، عن المِنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، قال : إنما سموا الحواريين ببياض ثيابهم .

وقال آخرون : سموا بذلك لأنهم كانوا قَصَّارين يبيضون الثياب .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن أبى أرطاة ، قال : الحواريون : الغسالون ، الذين يحوّرون الثياب : يغسلونها .

وقال آخرون : هم خاصة الأنبياء وصفوتهم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا ابن علية ، عن روح بن القاسم ، أن قتادة ذكر رجلا من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : كان من الحواريين ، فقيل له : مَن الحواريون ؟ قال : الذين تصلُح لهم الخلافة .

حُدثت عن المِنجاب ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا بشر ، عن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، فى قوله (إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ) قال : أصفياء الأنبياء .

وأشبه الأقوال التى ذكرنا فى معنى الحواريين : قول من قال : سموا بذلك لبياض ثيابهم ، ولأنهم كانوا غسالين ، وذلك أن الحَوَر عند العرب : شدة البياض ، ولذلك سمى الحُوَّارَى من الطعام حُوَّارَى ، لشدة بياضه ، ومنه قيل للرجل الشديد البياض مقلة العينين : أحور ، وللمرأة حوراء . وقد يجوز أن يكون حواريو عيسى كانوا سُموا بالذى ذكرنا من تبييضهم الثياب ، وأنهم كانوا قصَّارين ، فعرفوا بصحبة عيسى ، واختياره إياهم لنفسه أصحابا وأنصارا ، فجرى ذلك الاسم لهم ، واستعمل ، حتى صار كل خاصة للرجل من أصحابه وأنصاره : حَوَارِيَّه ، ولذلك قال النبىّ صلى الله عليه وسلم « لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيٌّ [١] ، وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ » يعنى : خاصته . وقد تسمى العرب النساء اللواتى مساكنهن القرى والأمصار حَوَارِيَّات ، وإنما سمين بذلك لغلبة البياض عليهن ، ومن ذلك قول أبى جَلْدَةَ الْيَشْكُرِيِّ :

فَقُلْ لِلْحَوَارِيَّاتِ يَبْكِينَ غَيْرَنَا ... وَلَا تَبْكِنَا إِلَّا الْكِلَابُ النَّوَابِحُ [٢]

ويعنى بقوله (قَالَ الْحَوَارِيُّونَ) قال : هؤلاء الذين صفتهم ما ذكرنا من تبييضهم الثياب : آمنا بالله ،

(١) فى الأصل : إن لكل نبى حوارى . وفى مسلم : لكل نبى حوارى .

(٢) البيت لأبى جلدة اليشكرى ، كما فى اللسان (حور) قال : الحوراء : البيضاء ، لا يقصد بذلك حور عينها . والأعراب تسمى نساء الأمصار : حواريات ، لبياضهن وتباعدهن عن قشف الأعراب بنظافتهن ، قال أبو جلدة . . . البيت . . . ثم قال : والحواريات من النساء : النقيات الألوان والجلود ، لبياضهن .

صدّقنا بالله . واشهد أنت يا عيسى بأننا مسلمون . وهذا خبر من الله عزّ وجلّ أن الإسلام دينه الذى ابتعث به عيسى والأنبياء قبله . لاالنصرانية ولا اليهودية ، وتبرئة من الله لعيسى ممن انتحل النصرانية ، ودان بها ، كما برّأ إبراهيم من سائر الأديان غير الإسلام ، وذلك احتجاج من الله تعالى ذكره لنبيه صلى الله عليه وسلم على وفد نجران .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن محمد بن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير (فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الكُفْرَ)والعدوان(قالَ مَنْ أَنْصارِي إلى اللهِ ؟ قالَ الحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللهِ آمَنَّا بِهِ) وهذا قولهم الذى أصابوا به الفضل من ربهم ، واشهد بأنا مسلمون . لا كما يقول هؤلاء الذين يحاجونك فيه . يعنى وفد نصارى نجران .

القول فى تأويل قوله

رَبَّنا ءامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ ، فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣)

وهذا خبر من الله عزّ وجلّ عن الحواريِّين أنهم قالوا : (رَبَّنا آمَنَّا) : أى صدّقنا بما أنزلت ، يعنى : بما أنزلت على نبيك عيسى من كتابك ، (وَاتَّبَعْنا الرَّسُولَ)يعنى بذلك : صرنا أتباع عيسى ، على دينك الذى ابتعثته به ، وأعوانه على الحقّ الذى أرسلته به إلى عبادك . وقوله (فاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ) يقول : فأثبت أسماءنا مع أسماء الذين شهدوا بالحق ، وأقرّوا لك بالتوحيد ، وصدّقوا رسلك ، واتبعوا أمرك ونهيك ، فاجعلنا فى عدادهم ومعهم ، فيما تكرمهم به من كرامتك ، وأحلّنا محلهم . ولا تجعلنا ممن كفر بك ، وصدّ عن سبيلك ، وخالف أمرك ونهيك . يعرّف خلقه جلّ ثناؤه بذلك سبيل الذين رضى أقوالهم وأفعالهم ، ليحتذوا طريقهم ، ويتبعوا منهاجهم ، فيصلوا إلى مثل الذى وصلوا إليه من درجات كرامته . ويكذّب بذلك الذين انتحلوا من الملل غير الحنيفية المسلمة ، فى دعواهم على أنبياء الله ، أنهم كانوا على غيرها ، ويحتجّ به على الوفد الذين حاجُّوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل نجران ، بأنّ قيل من رضى الله عنه من أتباع عيسى ، كان خلاف قيلهم ، ومنهاجهم غير منهاجهم .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير (رَبَّنا آمَنَّا بِما أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنا الرَّسُولَ ، فاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ) : أى هكذا كان قولهم وإيمانهم .

القول فى تأويل قوله

وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ ، وَاللهُ خَيْرُ الماكِرِينَ (٥٤)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : ومكر الذين كفروا من بنى إسرائيل ، وهم الذين ذكر الله أن عيسى أحسّ منهم الكفر ، وكان مكرهم الذى وصفهم الله به ، مواطأة بعضهم بعضا على الفتك بعيسى وقتله ، وذلك أن عيسى صلوات الله عليه بعد إخراج قومه إياه وأمه من بين أظهرهم ، عاد إليهم ، فيما حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ : ثم إن عيسى سار بهم : يعنى بالحوارين

الذين كانوا يصطادون السمك، فآمنوا به واتبعوه إذ دعاهم، حتى أتى بنى إسرائيل ليلا فصاح فيهم، فذلك قوله : (فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ) . . . الآية .

وأما مكر الله بهم، فإنه فيما ذكر السدى: إلقاؤه شَبَهَ عيسى على بعض أتباعه، حتى قتله الماكرون بعيسى ، وهم يحسبونه عيسى ، وقد رفع الله عزّ وجلّ عيسى قبل ذلك .

كما حدثنى محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ : ثم إن بنى إسرائيل حصروا عيسى وتسعة عشر رجلا من الحواريين فى بيت ، فقال عيسى لأصحابه : من يأخذ صورتى فيقتل وله الجنة ؟ فأخذها رجل منهم ، وصُعِد بعيسى إلى السماء، فذلك قوله (وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ ، وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) . فلما خرج الحواريون أبصروهم تسعة عشر ، فأخبروهم أن عيسى قد صُعِد به إلى السماء، فجعلوا يعدّون القوم، فيجدونهم ينقصون رجلا من العدّة، ويرون صورة عيسى فيهم، فشكّوا فيه ، وعلى ذلك قتلوا الرجل، وهم يرون أنه عيسى ، وصلبوه ، فذلك قول الله عزّ وجلّ (وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ) وقد يحتمل أن يكون معنى مكر الله بهم استدراجه إياهم، ليبلغ الكتاب أجله ، كما قد بينا ذلك فى قول الله (اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ) .

القول فى تأويل قوله

إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ، وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ، وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ، ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥)

يعنى بذلك جل ثناؤه : ومكر الله بالقوم الذين حاولوا قتل عيسى مع كفرهم بالله ، وتكذيبهم عيسى فيما أتاهم به من عند ربهم، إذ قال الله جل ثناؤه (إِنِّي مُتَوَفِّيكَ) فإذ صلة من قوله (وَمَكَرَ اللهُ): يعنى : ومكر الله بهم حين قال الله لعيسى (إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ) ، فتوفاه ورفعه إليه .

ثم اختلف أهل التأويل فى معنى الوفاة التى ذكرها الله عزّ وجلّ فى هذه الآية ، فقال بعضهم : هى وفاة نوم ، وكان معنى الكلام على مذهبهم : إنى منيمك ، ورافعك فى نومك .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، فى قوله (إِنِّي مُتَوَفِّيكَ) قال : يعنى وفاة المنام : رفعه الله فى منامه .

قال الحسن : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لليهود : « إنَّ عِيسَى لَمْ يَمُتْ ، وإنَّهُ رَاجِعٌ إلَيْكُمْ قَبْلَ يَوْمِ القِيامَةِ » .

وقال آخرون : معنى ذلك : إنى قابضك من الأرض ، فرافعك إلىّ ، قالوا : ومعنى الوفاة : القبض،

كما يقال : تَوَفَّيت من فلان مالى عليه ، بمعنى : قبضته واستوفيته ، قالوا : فمعنى قوله (إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ) : أى قابضك من الأرض حيا إلى جوارى ، وآخذك إلى ما عندى بغير موت ، ورافعك من بين المشركين ، وأهل الكفر بك .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا علىّ بن سهل ، قال : ثنا ضَمْرة بن ربيعة ، عن ابن شَوذب ، عن مطر الورّاق ، فى قول الله : (إِنِّى مُتَوَفِّيكَ) قال : متوفيك من الدنيا ، وليس بوفاة موت .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن الحسن ، فى قوله (إِنِّى مُتَوَفِّيكَ) قال : متوفيك من الأرض .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قوله (إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ، وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا) قال : فرفعه إياه إليه : توفيه إياه ، وتطهيره من الذين كفروا .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية بن صالح أن كعب الأحبار ، قال : ما كان الله عزّ وجلّ ليميت عيسى بن مريم ، إنما بعثه الله داعيا ومبشرا يدعو إليه وحده ، فلما رأى عيسى قلة من اتبعه ، وكثرة من كذّبه ، شكا ذلك إلى الله عزّ وجلّ ، فأوحى الله إليه (إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ) وليس من رفعته عندى ميتا ، وإنى سأبعثكَ على الأعور الدجال ، فتقتله ، ثم تعيش بعد ذلك أربعا وعشرين سنة ، ثم أميتك ميتة الحىّ . قال كعب الأحبار ، وذلك يصدّق حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : « كَيْفَ تَهلكُ أُمَّةٌ أنا فى أوّلها ، وعيسَى فِى آخِرِها ؟ » .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير : يا عيسى إنى متوفيك : أى قابضك .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ) قال : متوفيك : قابضك ، قال : ومتوفيك ورافعك واحد . قال : ولم يمت بعد حتى يقتل الدجال ، وسيموت ، وقرأ قول الله عزّ وجلّ (وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِى الْمَهْدِ وَكَهْلاً) قال : رفعه الله إليه قبل أن يكون كهلا ، قال : وينزل كهلا .

حدثنا محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفىّ ، عن عباد ، عن الحسن ، فى قول الله عزّ وجلّ (يا عِيسَى إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ) . . . الآية كلها ، قال : رفعه الله إليه ، فهو عنده فى السماء .

وقال آخرون : معنى ذلك : إنى متوفيك وفاة موت .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قوله (إِنِّى مُتَوَفِّيكَ) يقول : إنى مميتك .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عمن لا يتهم ، عن وهب بن منبه اليمانى ، أنه قال : توفى الله عيسى بن مريم ثلاث ساعات من النهار ، حتى رفعه إليه .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قال : والنصارى يزعمون أنه توفاه سبع ساعات من النهار ، ثم أحياه الله .

وقال آخرون : معنى ذلك : إذ قال الله يا عيسى ، إنى رافعك إلىّ ، ومطهرك من الذين كفروا ، ومتوفيك بعد إنزالى إياك إلى الدنيا ، وقال : هذا من المقدّم الذى معناه التأخير ، والمؤخر الذى معناه التقديم .

قال أبو جعفر : وأولى هذه الأقوال بالصحة عندنا قول من قال : معنى ذلك : إنى قابضك من الأرض ، ورافعك إلىّ ، لتواتر الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يَنْزِلُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ فَيَقْتُلُ الدَّجَّالَ ، ثُمَّ يَمْكُثُ فِى الأَرْضِ مُدَّةً ذَكَرَهَا » اختلفت الرواية فى مبلغها ، ثم يموت ، فيصلى عليه المسلمون ويدفنونه .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن مسلم الزهرىّ ، عن حنظلة بن علىّ الأسلمىّ ، عن أبى هريرة ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لَيَهْبِطَنَّ اللهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ حَكَماً عَدْلاً ، وَإِمَاماً مُقْسِطاً ، يَكْسِرُ الصَّلِيبَ ، وَيَقْتُلُ الخِنْزِيرَ ، وَيَضَعُ الجِزْيَةَ ، وَيُفِيضُ المَالَ حتى لا يَجِدَ مَنْ يَأْخُذُهُ ، وَلَيَسْلُكَنَّ الرَّوْحَاءَ حَاجّاً أَوْ مُعْتَمِراً ، أَوْ يَدِينُ بِهِمَا جَمِيعاً » .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن الحسن بن دينار ، عن قتادة ، عن عبد الرحمن ابن آدم ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلاَّتٍ ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى ، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ ، وأنا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ، لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنِى وَبَيْنَهُ نَبِىٌّ ، وَإِنَّهُ خَلِيفَتِى عَلَى أُمَّتِى ، وَإِنَّهُ نَازِلٌ ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَاعْرِفُوهُ ، فَإِنَّهُ رَجُلٌ مَرْبُوعُ الخَلْقِ إِلَى الحُمْرَةِ وَالبَيَاضِ ، سَبْطُ الشَّعْرِ كَأَنَّ شَعْرَهُ يَقْطُرُ وَإِنْ لَمْ يُصِبْهُ بَلَلٌ ، بَيْنَ مُمَصَّرَتَيْنِ ، يَدُقُّ الصَّلِيبَ ، وَيَقْتُلُ الخِنْزِيرَ ، وَيُفِيضُ المَالَ ، وَيُقَاتِلُ النَّاسَ عَلَى الإِسْلاَمِ حَتَّى يُهْلِكَ اللهُ فِى زَمَانِهِ المِلَلَ كُلَّهَا ، وَيُهْلِكَ اللهُ فِى زَمَانِهِ مَسِيحَ الضَّلاَلَةِ الكَذَّابَ الدَّجَّالَ ، وَتَقَعُ فِى الأَرْضِ الأَمَنَةُ ، حَتَّى تَرْتَعَ الأُسُودُ مَعَ الإِبِلِ ، وَالنُّمُرُ مَعَ البَقَرِ ، وَالذِّئَابُ مَعَ الغَنَمِ ، وَتَلْعَبَ الغِلْمَانُ بِالحَيَّاتِ ، لاَ يَضُرُّ بَعْضُهُمْ بَعْضاً ، فَيَثْبُتُ فِى الأَرْضِ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، ثُمَّ يُتَوَفَّى وَيُصَلِّى المُسْلِمُونَ عَلَيْهِ وَيَدْفِنُونَهُ » .

قال أبو جعفر : ومعلوم أنه لو كان قد أماته الله عزّ وجلّ لم يكن بالذى يميته ميتة أخرى ، فيجمع عليه ميتتين ، لأن الله عزّ وجلّ إنما أخبر عباده أنه يخلقهم ثم يميتهم ، ثم يحييهم ، كما قال جل ثناؤه : (اللهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ، ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ، هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَىْءٍ) ؟

فتأويل الآية إذن : قال الله لعيسى : يا عيسى إنى قابضك من الأرض، ورافعك إلىّ ، ومطهرك من الذين كفروا ، فجحدوا نبوّتك . وهذا الخبر وإن كان مخرجه مخرج خبر ، فإن فيه من الله عزّ وجلّ احتجاجا على الذين حاجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عيسى من وفد نجران ، بأن عيسى لم يقتل ولم يُصْلَب ، كما زعموا ، وأنهم واليهود الذين أقرّوا بذلك ، وادّعوا على عيسى كَذِبة فى دعواهم وزعمهم .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير ، ثم أخبرهم ، يعنى الوفد من نجران ، وردّ عليهم فيما أخبروا هم واليهود بصلبه ، كيف رفعه وطهره منهم؟ فقال : (إِذْ قَالَ اللهُ يَاعِيسَى إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ) . وأما «مطهرك من الذين كفروا» ، فإنه يعنى منظفك ، فخلصك ممن كفر بك وجحد ما جئتهم به من الحقّ ، من اليهود وسائر الملل غيرها .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير (وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا) قال : إذ همُّوا منك بما همّوا .

حدثنى محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفىّ ، عن عباد ، عن الحسن ، فى قوله (وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا) قال : طهره من اليهود والنصارى والمجوس ، ومن كفار قومه .

القول فى تأويل قوله عزّ وجلّ (وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) .

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : وجاعل الذين اتبعوك على منهاجك وملتك من الإسلام وفطرته ، فوق الذين جحدوا نبوّتك ، وخالفوا بسبيلهم جميع أهل الملل ، فكذّبوا بما جئت به ، وصدّوا عن الإقرار به ، فصيرهم فوقهم ظاهرين عليهم .

كما حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة فى قوله (وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) هم أهل الإسلام الذين اتبعوه على فطرته وملته وسنته ، فلا يزالون ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع فى قوله (وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) ، ثم ذكر نحوه .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج (وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) ، ثم ذكر نحوه .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج (وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) قال : ناصر من اتبعك على الإسلام ، على الذين كفروا إلى يوم القيامة .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (وَجَاعِلُ الَّذِينَ

اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) أما الذين اتبعوك ، فيقال : هم المؤمنون ، وليس هم الروم .

حدثنى محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفى ، عن عباد ، عن الحسن (وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) قال: جعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ، قال : المسلمون من فوقهم ، وجعلهم أعلى ممن ترك الإسلام إلى يوم القيامة .

وقال آخرون : معنى ذلك : وجاعل الذين اتبعوك من النصارى فوق اليهود .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قول الله (وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا) قال الذين كفروا : من بنى إسرائيل (وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ) قال : الذين آمنوا به من بنى إسرائيل وغيرهم (فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا) النصارى فوق اليهود إلى يوم القيامة ، قال : فليس بلد فيه أحد من النصارى إلا وهم فوق يهود فى شرق ولا غرب ، هم فى البلدان كلها مستذَلون .

القول فى تأويل قوله (ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) :

يعنى بذلك جلّ ثناؤه (ثم إلىّ) : ثم إلى الله أيها المختلفون فى عيسى مرجعكم ، يعنى مصيركم يوم القيامة (فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ) يقول: فأقضى حينئذ بين جميعكم فى أمر عيسى بالحق ، فيما كنتم فيه تختلفون من أمره. وهذا من الكلام الذى صُرف من الخبر عن الغائب إلى المخاطبة. وذلك أن قوله (ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ) : إنما قصد به الخبر عن متبعى عيسى والكافرين به .

وتأويل الكلام : وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ، ثم إلىّ مرجع الفريقين : الذين اتبعوك ، والذين كفروا بك ، فأحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون ، ولكن ردّ الكلام إلى الخطاب ، لسوق القول على سبيل ما ذكرنا من الكلام الذى يخرج على وجه الحكاية ، كما قال (حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ) .

القول فى تأويل قوله

فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٥٦)
وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧)

يعنى بقوله جلّ ثناؤه (فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا) : فأما الذين جحدوا نبوّتك يا عيسى ، وخالفوا ملتك ، وكذّبوا بما جئتهم به من الحقّ ، وقالوا فيك الباطل ، وأضافوك إلى غير الذى ينبغى أن يضيفوك إليه ، من اليهود والنصارى ، وسائر أصناف الأديان ، فإنى أعذّبهم عذابا شديدا ؛ أما فى الدنيا فبالقتل والسِّباء والذلة والمسكنة ، وأما فى الآخرة ، فبنار جهنم خالدين فيها أبدا . وماهم من ناصرين : يقول : وما لهم من عذاب الله مانع ، ولا عن أليم عقابه لهم دافع ، بقوّة ولا شفاعة ، لأنه العزيز ذو الانتقام .

وأما قوله (وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) فإنه يعنى تعالى ذكره : وأما الذين آمنوا بك ياعيسى ، يقول : صدّقوك فأقرّوا بنبوّتك ، وبما جئتهم به من الحقّ من عندى ، ودانوا بالإسلام الذى بعثتك به ، وعملوا بما فرضت من فرائضى على لسانك ، وشرعت من شرائعى ، وسننت من سنّنى .

كما حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس . قوله (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) يقول : أدّوا فرائضى . فيوفيهم أجورهم . يقول : فيعطيهم جزاء أعمالهم الصالحة كاملا ، لايُبخسون منه شيئا ولا ينقصونه .

وأما قوله (وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) فإنه يعنى : والله لايحبّ من ظلم غيره حقا له ، أو وضع شيئا فى غير موضعه ، فنفى جلّ ثناؤه عن نفسه بذلك أن يظلم عباده ، فيجازى المسىء ممن كفر جزاء المحسنين ممن آمن به ، أو يجازى المحسن ممن آمن به ، واتبع أمره ، وانتهى عما نهاه عنه فأطاعه ، جزاء المسيئين ممن كفر به ، وكذّب رسله ، وخالف أمره ونهيه ، فقال : إنى لاأحبّ الظالمين ، فكيف أظلم خلقى ؟

وهذا القول من الله تعالى ذكره ، وإن كان خرج مخرج الخبر ، كأنه وعيد منه للكافرين به وبرسله ، ووعد منه للمؤمنين به وبرسله ، لأنه أعلم الفريقين جميعا أنه لايبخس هذا المؤمن حقه ، ولا يظلم كرامته ، فيضعها فيمن كفر به ، وخالف أمره ونهيه ، فيكون لها بوضعها فى غير أهلها ظالما .

القول فى تأويل قوله

ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨)

يعنى بقوله جلّ ثناؤه (ذلك) : هذه الأنباء التى أنبأ بها نبيه عن عيسى وأمه مريم ، وأمها حنّة ، وزكريا وابنه يحيى ، وما قصّ من أمر الحواريين ، واليهود من بنى إسرائيل ، نتلوها عليك يا محمد ، يقول : نقرؤها عليك يامحمد ، على لسان جبريل صلى الله عليه وسلم ، بوحيناها إليك . (من الآيات) ، يقول : من العبر والحجج ، على من حاجّك من وفد نصارى نجران ويهود بنى إسرائيل ، الذين كذّبوك ، وكذّبوا ما جئتهم به من الحقّ من عندى . والذكر : يعنى : والقرآن الحكيم ، يعنى : ذى الحكمة الفاصلة بين الحقّ والباطل ، وبينك وبين ناسبى المسيح إلى غير نسبه .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير (ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ) ، القاطع الفاصل الحقّ ، الذى لم يخلطه الباطل من الخبر عن عيسى ، وعما اختلفوا فيه من أمره ، فلا تقبلن خبرا غيره .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك (ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ) قال : القرآن .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية بن صالح ، عن علىّ ، عن ابن عباس قوله (وَالذِّكْرِ) يقول : القرآن الحكيم الذى قد كَمُل فى حكمته .

القول فى تأويل قوله جلّ ثناؤه

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ، ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٥٩)

يعنى جل ثناؤه : إن شبه عيسى فى خلقى إياه من غير فحل ، فأخبرْ به يامحمد الوفد من نصارى نجران ، عندى كشبه آدم ، الذى خلقته من تراب ، ثم قلت له كن فكان ، من غير فحل ، ولا ذكر ، ولا أنثى . يقول : فليس خلقى عيسى من أمه ، من غير فحل ، بأعجب من خلقى آدم من غير ذكر ولا أنثى ، فكان لحما ؛ يقول : وأمرى إذ أمرته أن يكون فكان ، فكذلك خلقى عيسى ، أمرته أن يكون فكان .

وذكر أهل التأويل أن الله عزّ وجلّ أنزل هذه الآية احتجاجا لنبيه صلى الله عليه وسلم على الوفد من نصارى نجران الذين حاجُّوه فى عيسى .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن مغيرة ، عن عامر ، قال : كان أهل نجران أعظم قوم من النصارى فى عيسى قولا ، فكانوا يجادلون النبىّ صلّى الله عليه وسلم ، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية فى سورة آل عمران (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) إلى قوله (فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ على الكاذِبِينَ) .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) ، وذلك أن رهطا من أهل نجران ، قدموا على محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان فيهم السيد والعاقب . فقالوا لمحمد : ما شأنك تذكر صاحبنا ؟ فقال : مَنْ هُوَ ؟ قالوا : عيسى ، تزعم أنه عبد الله . فقال محمد : أجَلْ ، إنَّهُ عَبْدُ اللهِ ، قالوا له : فهل رأيت مثل عيسى ، أو أنبئت به ؟ ثم خرجوا من عنده . فجاءه جبريل صلى الله عليه وسلم بأمر ربنا السميع العليم ، فقال : قل لهم : إذا أتوك (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ) . . . إلى آخر الآية .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قوله (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ ، خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) : ذكر لنا أن سيدَىْ أهل نجران وأسقفيهم ، السيدَ والعاقب ، لقيا نبىّ الله صلى الله عليه وسلم ، فسألاه عن عيسى ؟ فقالا : كل آدمىّ له أب ، فما شأن عيسى لاأب له ؟ فأنزل الله عزّ وجلّ فيه هذه الآية : (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ) لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسمع به أهل نجران ، أتاه منهم أربعة نفر من خيارهم : منهم العاقب ، والسيد ، وماسَرْجَس ، وماريجز ، فسألوه مايقول

فى عيسى ؟ فقال : هو عبد الله وروحه وكلمته ، قالوا هم : لا ، ولكنه هو الله ، نزل من ملكه ، فدخل فى جوف مريم، ثم خرج منها، فأرانا قدرته وأمره، فهل رأيت قطُّ إنسانا خُلق من غير أب ؟! فأنزل الله عزّ وجل : (إنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ).

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن عكرمة ، قوله (إنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) قال: نزلت فى العاقب والسيد من أهل نجران ، وهما نصرانيان . قال ابن جريج : بلغنا أن نصارى أهل نجران قدم وفدهم على النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فيهم السيد والعاقب ، وهما يومئذ سيدا أهل نجران ، فقالوا : يامحمد فيم تشتم صاحبنا ؟ قال : مَنْ صَاحِبُكُما ؟ قالا : عيسى بن مريم ، تزعم أنه عبد . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أجَلْ إنَّهُ عَبْدُ اللهِ وكَلِمَتُهُ ألْقاها إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ، فغضبوا وقالوا : إن كنت صادقا، فأرنا عبدا يُحيى الموتى، ويبرئ الأكمه، ويخلق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه، الآية ... لكنه الله . فسكت حتى أتاه جبريل ، فقال : يا محمد (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إنَّ اللهَ هُوَ المَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ) . . . الآية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا جِبْرِيلُ إنَّهُمْ سأَلُونِى أنْ أُخْبِرَهُمْ بِمَثَلِ عِيسَى ؟ قال جبريل : مثل عيسى كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون ، فلما أصبحوا عادوا ، فقرأ عليهم الآيات .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير (إنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ) فاسمع (كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ المُمْتَرِينَ) .

فإن قالوا : خُلق عيسى من غير ذكر ، فقد خلقت آدم من تراب بتلك القدرة ، من غير أنثى ولا ذكر . فكان كما كان عيسى لحما ودما وشَعْرا وبَشَرا ، فليس خلق عيسى من غير ذكر بأعجب من هذا .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قول الله عزّ وجلّ (إنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ) قال : أتى نجرانيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا له : هل علمت أن أحدا وُلِد من غير ذكر ، فيكون عيسى كذلك ؟ قال : فأنزل الله عزّ وجلّ : (إنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) ، أكان لآدم أب أو أمّ ، كما خلقت هذا فى بطن هذه .

فإن قال قائل : فكيف قال : كمثل آدم خلقه ، وآدم معرفة ، والمعارف لا توصل ؟ قيل : إن قوله (خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ) غير صلة لآدم، وإنما هو بيان عن أمره، على وجه التفسير عن المَثَل الذى ضربه، وكيف كان .

وأما قوله (ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) فإنما قال : فيكون ، وقد ابتدأ الخبر عن خلق آدم ، وذلك خبر عن أمر قد تقضّى ، وقد أخرج الخبر عنه مُخرج الخبر عما قد مضى . فقال جل ثناؤه : (خَلَقَهُ

مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ) ، لأنه بمعنى الإعلام من الله نبيه ، أن تكوينه الأشياء بقوله : (كُنْ) ، ثم قال (فَيَكُونُ) خبرا مبتدأ ، وقد تناهى الخبر عن أمر آدم عند قوله : كن .

فتأويل الكلام إذنْ : إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ، ثم قال له كن ؛ واعلم يا محمد أن ما قال له ربك : كن ، فهو كائن ، فلما كان فى قوله (كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ) دلالة على أن الكلام يراد به إعلام نبيّ الله صلى الله عليه وسلم وسائر خلقه أنه كائن ما كوّنه ابتداء من غير أصل ، ولا أول ، ولا عنصر ، استغنى بدلالة الكلام على المعنى ؛ وقيل : فيكون ، فعطف بالمستقبل على الماضى ، على ذلك المعنى ؛ وقد قال بعض أهل العربية : فيكون رفع على الابتداء ، ومعناه : كن فكان ، فكأنه قال : فإذا هو كائن .

القول فى تأويل قوله

﴿ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ، فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠) ﴾

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : الذى أنبأتك به من خبر عيسى ، وأن مثله كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له ربه : كن ، هو الحقّ من ربك ، يقول : هو الخبر الذى هو من عند ربك ، فلا تكن من الممترين ، يعنى : فلا تكن من الشاكين فى أن ذلك كذلك .

كما حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) يعنى : فلا تكن فى شكّ من عيسى أنه كمثل آدم عبدُ الله ورسوله ، وكلمةُ الله وروحه .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قوله (الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) يقول : فلا تكن فى شكّ مما قصصنا عليك أن عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمة منه وروح ، وأن مثله عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير (الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ) : ما جاءك من الخبر عن عيسى . (فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) : أى قد جاءك الحقّ من ربك فلا تمتر فيه .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) : قال : والممترون : الشاكون ، والمرية والشكّ والريب : واحد سواء ، كهيئة ما تقول : أعطى ، وناولنى ، وهلم ، فهذا مختلف فى الكلام وهو واحد .

القول فى تأويل قوله

﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ، فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ ، وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ، ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١) ﴾

يعنى بقوله جلّ ثناؤه (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ) : فمن جادلك يا محمد فى المسيح عيسى بن مريم ، والهاء

فى قوله (فِيهِ) عائدة على ذكر عيسى ، وجائز أن تكون عائدة على الحقّ الذى قال تعالى ذكره (الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ) . ويعنى بقوله (مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ العِلْمِ) : من بعد ما جاءك من العلم الذى قد بينته لك فى عيسى أنه عبد الله . فقل تعالَوا : هلموا فلندْع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل ، يقول : ثم نلتعن . يقال فى الكلام : ماله ، بَهَلَه الله! أى لعنه الله . وما له عليه بَهْلة الله ، يريد اللعن . وقال لَبيد ، وذكر قوما هلكوا ، فقال :

نَظَرَ الدَّهْرُ إلَيْهِمْ فابْتَهَلْ(١)

يعنى دعا عليهم بالهلاك ، فنجعل لعنة الله على الكاذبين منا ومنكم فى آية عيسى .

كما حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (فَمَنْ حاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ العِلْمِ) : أى فى عيسى أنه عبد الله ورسوله ، من كلمة الله وروحه ، (فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أبْناءَنا وأبْناءَكُمْ) إلى قوله (على الكاذِبِينَ) .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير (فَمَنْ حاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ العِلْمِ) : أى من بعد ما قصصت عليك من خبره ، وكيف كان أمره (فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أبْناءَنا وأبْناءَكُمْ) . . . الآية .

حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قوله (فَمَنْ حاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ العِلْمِ) يقول : من حاجّك فى عيسى من بعد ما جاءك فيه من العلم .

حدثنا يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد (ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ على الكاذِبِينَ) قال : منا ومنكم .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : وثنى ابن لَهيعة ، عن سليمان بن زياد الحضرمىّ ، عن عبد الله بن الحارث بن جَزْء الزبيدىّ : أنه سمع النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول : « لَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَ أهْلِ نَجْرانَ حِجابا ، فَلا أراهُمْ وَلا يَرَوْنِى » من شدّة ما كانوا يمارون النبىّ صلى الله عليه وسلم .

القول فى تأويل قوله

إِنَّ هٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ، وَمَا مِنْ إِلٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ، وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٦٢) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِٱلْمُفْسِدِينَ (٦٣)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : إن هذا الذى أنبأتك به يا محمد من أمر عيسى ، فقصصته عليك من أنبائه ، وأنه عبدى ورسولى ، وكلمتى ألقيتها إلى مريم ، وروح منى ، لهو القصص والنبأ الحقّ ، فاعلم ذلك . واعلم أنه ليس للخلق معبود يستوجب عليهم العبادة بملكه إياهم ، إلا معبودك الذى تعبده ، وهو الله العزيز الحكيم .

ويعنى بقوله (العَزِيزُ) : العزيز فى انتقامه ممن عصاه ، وخالف أمره ، وادّعى معه إلها غيره ، أو عبد ربا سواه (الحَكِيمُ) فى تدبيره ، لايدخل ما دبره وَهْن ، ولا يلحقه خَلَل (فَإِنْ تَوَلَّوْا) : يعنى فإن أدبر

(١) هذا عجز بيت للبيد ، وصدره : « فى قروم سادة من قومه » ديوانه ص ١٧ طبعة ليدن سنة ١٨٩١ .

هؤلاء الذين حاجُّوك فى عيسى عما جاءك من الحقّ من عند ربك فى عيسى وغيره ، من سائر ما آتاك الله من الهدى والبيان ، فأعرضوا عنه ، ولم يقبلوه . (فإنَّ اللهَ عَلِيمٌ بالمُفْسِدِينَ) . يقول : فإن الله ذو علم بالذين يعصون ربهم ، ويعملون فى أرضه وبلاده بما نهاهم عنه ، وذلك هو إفسادهم . يقول تعالى ذكره : فهو عالم بهم وبأعمالهم ، يحصيها عليهم ويحفظها ، حتى يجازيهم عليها جزاءهم .

وبنحو ما قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير (إنَّ هَـٰذَا لَهُوَ القَصَصُ الحَقُّ) أى إن هذا الذى جئت به من الخبر عن عيسى ، لهو القصص الحقّ من أمره .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج (إنَّ هَـٰذَا لَهُوَ القَصَصُ) : إن هذا الذى قلنا فى عيسى لهو القصص الحقّ .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (إنَّ هَـٰذَا لَهُوَ القَصَصُ الحَقُّ) قال : إن هذا القصصُ الحقُّ فى عيسى ، ما ينبغى لعيسى أن يتعدّى هذا ، ولا يجاوز أن يتعدى أن يكون كلمة الله ألقاها إلى مريم ، وروحا منه ، وعبد الله ورسوله .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، (إنَّ هَـٰذَا لَهُوَ القَصَصُ الحَقُّ) : إن هذا الذى قلنا فى عيسى هو الحقّ (وَمَا مِنْ إلَـٰهٍ إلاَّ اللهُ) . . . الآية . فلما فصل جل ثناؤه بين نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وبين الوفد من نصارى نجران بالقضاء الفاصل، والحكم العادل ، وأمره إن هم تولّوا عما دعاهم إليه من الإقرار بوحدانية الله ، وأنه لا ولد له ولا صاحبة ، وأن عيسى عبده ورسوله ، وأبَوا إلا الجدل والخصومة ، أن يدعوهم إلى الملاعنة ، ففعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم انخزلوا ، فامتنعوا من الملاعنة ، ودَعَوا إلى المصالحة .

كالذى حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن مغيرة ، عن عامر ، قال : فأُمر ، يعنى النبيَّ صلى الله عليه وسلم بملاعنتهم ، يعنى بملاعنة أهل نجران بقوله : (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ) . . . الآية ، فتواعدوا أن يلاعنوه ، وواعدوه الغد ، فانطلقوا إلى السيد والعاقب ، وكانا أعقلهم فتابعاهم ، فانطلقوا إلى رجل منهم عاقل ، فذكروا له ما فارقوا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ماصنعتم ؟ وندَّمَهُمْ ، وقال لهم : إن كان نبيا ثم دعا عليكم ، لا يغضبه الله فيكم أبدا ، ولئن كان ملكا فظهر عليكم لا يستبقيكُم أبدا . قالوا : فكيف لنا وقد واعدَنا ؟ فقال لهم : إذا غدوتم إليه ، فعرض عليكم الذى فارقتموه عليه ، فقولوا : نعوذ بالله ، فإن دعاكم أيضا ، فقولوا له : نعوذ بالله ، ولعله أن يُعْفيكم من ذلك . فلما غدَوا ، غدا النبيّ صلى الله عليه وسلم محتضنا حسنا ، آخذا بيد الحسين ، وفاطمة تمشى خلفه ، فدعاهم إلى الذى فارقوه عليه بالأمس ، فقالوا : نعوذ بالله ، ثم دعاهم ، فقالوا : نعوذ بالله مرارا . قال : « فإنْ أبَيْتُمْ فأسْلِمُوا ، ولَكُمْ ما للمُسْلِمِينَ ، وعَلَيْكُمْ ما على المُسْلِمِينَ » كما قال الله عز

وجلّ : (فَإِنْ أَبَيْتُمْ فَأَعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَأَنْتُمْ صَاغِرُونَ) . كما قال الله عز وجل . قالوا : ما نملك إلا أنفسنا . قال (فَإِنْ أَبَيْتُمْ فَإِنِّى أَنْبِذُ إِلَيْكُمْ على سَوَاءٍ) كما قال الله عزّ وجلّ . قالوا : مالنا طاقة بحرب العرب ، ولكن نؤدّى الجزية . قال : فجعل عليهم فى كل سنة ألفى حُلَّة ، ألفا فى رجب ، وألفا فى صفر . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « قَدْ أَتَانِي الْبَشِيرُ بِهَلَكَةِ أَهْلِ نَجْرَانَ حَتّى الطَّيْرُ على الشَّجَرِ ، أَوِ الْعَصَافِيرُ على الشَّجَرِ » لو تَمُّوا على الملاعنة .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، قال : فقلت للمغيرة : إن الناس يرون فى حديث أهل نجران أن عليا كان معهم . فقال : أما الشعبىّ فلم يذكره ، فلا أدرى لسوء رأى بنى أمية فى علىّ ، أولم يكن فى الحديث .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير : (إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ) إلى قوله (فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) . فدعاهم إلى النَّصَف ، وقطع عنهم الحجة ، فلما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من الله عنه ، والفصل من القضاء بينه وبينهم ، وأمره بما أمره به من ملاعنتهم ، إن ردّوا عليه ، دعاهم إلى ذلك ، فقالوا : يا أبا القاسم ، دعنا ننظر فى أمرنا ، ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه ، فانصرفوا عنه ، ثم خلوا بالعاقب ، وكان ذا رأيهم ، فقالوا : يا عبدالمسيح ما ترى ؟ قال : والله يامعشر النصارى ، لقد عرفتم أن محمدا نبىّ مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم : ما لاعن قوم نبيا قَطُّ ، فبقى كبيرهم ، ولا نبت صغيرهم ، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم ، والإقامة على ما أنتم عليه من القول فى صاحبكم ، فوادعوا الرجل ، ثم انصرفوا إلى بلادكم حتى يريكم زمن رأيه . فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا أبا القاسم ، قد رأينا ألا نلاعنك ، وأن نتركك على دينك ، ونرجع على ديننا ، ولكن ابعث معنا رجلا من أصحابك ترضاه لنا ، يحكم بيننا فى أشياء قد اختلفنا فيها من أموالنا ، فإنكم عندنا رضا .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا عيسى بن فرقد ، عن أبى الجارود ، عن زيد بن علىّ فى قوله (تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ) ... الآية ، قال : كان النبىّ صلى الله عليه وسلم وعلىّ وفاطمة والحسن والحسين .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ) . . . الآية ، فأخذ ، يعنى النبىّ صلى الله عليه وسلم بيد الحسن والحسين وفاطمة ، وقال لعلىّ اتبعنا ، فخرج معهم ، فلم يخرج يومئذ النصارى ، وقالوا : إنا نخاف أن يكون هذا هو النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وليس دعوة النبىّ كغيرها ، فتخلفوا عنه يومئذ ، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « لَوْ خَرَجُوا لَاحْتَرَقُوا » . فصالحوه على صلح ، على أن له عليهم ثمانين ألفا ، فما عجزت الدراهم ففى العروض ، الحلة بأربعين ، وعلى أن له عليهم ثلاثا وثلاثين درعا ، وثلاثا وثلاثين بعيرا ، وأربعة وثلاثين فرسا غازية كل سنة ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضامن لها حتى نؤديها إليهم .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قال : ذُكر لنا أن نبىّ الله صلى الله عليه وسلم دعا وفدا من وفد نجران من النصارى ، وهم الذين حاجوه فى عيسى ، فنكصوا عن ذلك وخافوا .

وذكر لنا أن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، إِنْ كَانَ العَذَابُ لَقَدْ تَدَلَّى عَلَى أَهْلِ نَجْرَانَ ، وَلَوْ فَعَلُوا لَاسْتُؤْصِلُوا عَنْ جَدِيدِ الأَرْضِ » .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ ، فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ) قال : بلغنا أن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم خرج ليلا عن أهل نجران ، فلما رأوه خرج ، هابوا وفَرِقوا ، فرجعوا . قال معمر ، قال قتادة : لما أراد النبيّ صلى الله عليه وسلم أهل نجران أخذ بيد حسن وحسين . وقال لفاطمة : اتّبعينا . فلما رأى ذلك أعداء الله رجعوا .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن عبد الكريم الجزرىّ ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : لو خرج الذين يباهلون النبيّ صلى الله عليه وسلم لرجعوا لايجدون أهلا ولا مالا .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا زكريا ، عن عدىّ ، قال : ثنا عبيد الله بن عمرو ، عن عبد الكريم ، عن عكرمة ، عن ابن عباس مثله .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا عَنَوْنِي مَا حَالَ الحَوْلُ وَبِحَضْرَتِهِمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَهْلَكَ اللهُ الكَاذِبِينَ » .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : ثنا ابن زيد ، قال : قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لولا عنت القوم بمن كنت تأتى حين قلت (أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ) ؟ قال : حسن وحسين .

حدثنى محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفىّ ، قال : ثنا المنذر بن ثعلبة ، قال : ثنا علباء بن أحمر اليشكرىّ ، قال : لما نزلت هذه الآية (فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ) الآية ، أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى علىّ وفاطمة وابنيهما الحسن والحسين ، ودعا اليهود ليلاعنهم . فقال شاب من اليهود : وَيْحَكُم . أليس عهدكم بالأمس إخوانكم الذين مسخوا قردة وخنازير ؟ لا تلاعنوا ، فانتهوا .

القول فى تأويل قوله

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ ، وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : قل يا محمد لأهل الكتاب ، وهم أهل التوراة والإنجيل . تعالوا : هلموا إلى

كلمة سواء : يعنى إلى كلمة عدل بيننا وبينكم . والكلمة العدل : هى أن نوحد الله، فلا نعبد غيره ، ونبرأ من كل معبود سواه ، فلا نشرك به شيئا ، وقوله (وَلايَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضًا أَرْبابًا) يقول : ولا يدين بعضنا لبعض بالطاعة فيما أمر به من معاصى الله ، ويعظمه بالسجود له ، كما يسجد لربه . فإن تولوا : يقول : فإن أعرضوا عما دعوتهم إليه من الكلمة السواء التى أمرتك بدعائهم إليها ، فلم يجيبوك إليها ، فقولوا أيها المؤمنون للمتولين عن ذلك : اشهدوا بأنا مسلمون .

واختلف أهل التأويل فيمن نزلت فيه هذه الآية ، فقال بعضهم : نزلت فى يهود بنى إسرائيل الذين كانوا حوالَىْ مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قال : ذكر لنا أن نبىّ الله صلى الله عليه وسلم دعا يهود أهل المدينة إلى الكلمة السواء ، وهم الذين حاجُّوا فى إبراهيم .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قال : ذُكر لنا أن نبىّ الله صلى الله عليه وسلم دعا اليهود إلى كلمة السَّواء .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : بلغنا أن نبىّ الله صلى الله عليه وسلم دعا يهود أهل المدينة إلى ذلك ، فأبوا عليه ، فجاهدهم . قال : دعاهم إلى قول الله عزّ وجلّ (قُلْ يا أَهْلَ الكِتابِ تَعالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنَا وبَيْنَكُمْ) . . . الآية .

وقال آخرون : بل نزلت فى الوفد من نصارى نجران .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير (قُلْ يا أَهْلَ الكِتابِ تَعالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وبَيْنَكُمْ) . . . الآية ، إلى قوله (فَقُولُوا اشْهَدُوا بأَنَّا مُسْلِمُونَ) قال : فدعاهم إلى النَّصَف ، وقطع عنهم الحجة . يعنى وفد نجران .

حدثنا موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، قال : ثم دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعنى الوفد من نصارى نجران ، فقال : (يا أَهْلَ الكِتابِ تَعالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وبَيْنَكُمْ) . . . الآية .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : ثنا ابن زيد ، قال قال : يعنى جل ثناؤه (إنَّ هٰذا لَهُوَ القَصَصُ الحَقُّ) فى عيسى ، على ما قد بيناه فيما مضى . قال (فأَبَوْا) : يعنى الوفد من نجران ، فقال : ادعهم إلى أيسر من هذا (قُلْ يا أَهْلَ الكِتابِ تَعالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وبَيْنَكُمْ) ، فقرأ حتى بلغ (أَرْبابًا مِنْ دُونِ اللهِ) ، فأبوا أن يقبلوا هذا ولا الآخر .

وإنما قلنا : عنى بقوله (يا أَهْلَ الكِتابِ) : أهل الكتابين ، لأنهما جميعا من أهل الكتاب ، ولم يخصص جلّ ثناؤه بقوله (يا أَهْلَ الكِتابِ) بَعْضًا دون بعض ، فليس بأن يكون موجها ذلك إلى أنه

مقصود به أهل التوراة بأولى منه بأن يكون موجها إلى أنه مقصود به أهل الإنجيل . ولا أهل الإنجيل بأولى أن يكونوا مقصودين به دون غيرهم من أهل التوراة . وإذ لم يكن أحد الفريقين بذلك بأولى من الآخر ، لأنه لادلالة على أنه المخصوص بذلك من الآخر . ولا أثر صحيح . فالواجب أن يكون كل كتابىّ معنيا به ، لأن إفراد العبادة لله وحده ، وإخلاص التوحيد له ، واجب على كل مأمور منهىّ من خلق الله ، وأهل الكتاب يعمّ أهل التوراة وأهل الإنجيل ، فكان معلوما بذلك أنه عُنِى به الفريقان جميعا .

وأما تأويل قوله (تَعالَوْا) فإنه : أقبلوا وهلموا . وإنما هو تفاعلوا من العلوّ . فكأن القائل لصاحبه : تعال إلىّ ، فإنه تفاعل من العلوّ ، كما يقال : تدان منى من الدنوّ . وتقارب منى من القرب ، وقوله (إلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ) فإنها الكلمة العدل . والسواء : من نعت الكلمة .

وقد اختلف أهل العربية فى وجه اتباع سواء فى الإعراب لكلمة . وهو اسم لا صفة . فقال بعض نحوىّ البصرة : جرّ سواء لأنها من صفة الكلمة : وهى العدل ، وأراد مستوية . قال : ولو أراد استواء كان النصب ، وإن شاء أن يجعلها على الاستواء ويجرّ : جاز ، ويجعله من صفة الكلمة مثل الخلق، لأن الخلق هو المخلوق ، والخلق قد يكون صفة واسما ، ويجعل الاستواء مثل المستوى ، قال عزّ وجلّ : (الَّذِى جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً العاكِفُ فِيهِ وَالبَادِ) لأن السواء للآخر ، وهو اسم ليس بصفة، فيجرى على الأول ، وذلك إذا أراد به الاستواء ، فإن أراد به مستويا جاز أن يجرى على الأول ، والرفع فى ذا المعنى جيد ، لأنها لاتغير عن حالها ، ولا تثنى ، ولا تجمع ، ولا تؤنث ، فأشبهت الأسماء التى هى مثل عدل ورضا وجُنُب ، وما أشبه ذلك ، وقالوا (أنْ نَجْعَلَهُمْ كالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَوَاءً مَحْياهُمْ وَمَماتُهُم) ، فالسواء للمحيا والممات بهذا المبتدأ . وإن شئت أجريته على الأول ، وجعلته صفة مقدمة ، كأنها من سبب الأول ، فجرَت عليه ، وذلك إذا جعلته فى معنى مستوٍ ، والرفع وجه الكلام ، كما فسرت لك .

وقال بعض نحوىّ الكوفة : سواء مصدر وضع موضع الفعل ، يعنى موضع متساوية ومتساو ، فمرّة يأتى على الفعل ، ومرّة على المصدر . وقد يقال فى سواء بمعنى عدل : سِوًى وسُوًى ، كما قال جلّ ثناؤه (مَكاناً سُوًى) ، وسوى : يراد به عدْل ونَصَف بيننا وبينك . وقد روى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه كان يقرأ ذلك إلى كلمة عدل بيننا وبينكم .

وبمثل الذى قلنا فى تأويل قوله (إلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ) بأن السواء : هو العدل ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (يا أَهْلَ الكِتابِ تَعالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ) : عدل بيننا وبينكم : (ألاَّ نَعْبُدَ إلاَّ اللهَ) . . . الآية .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، فى قوله (قُلْ

يا أَهْلَ الكِتابِ تَعالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ ، إلاَّ نَعْبُدَ إلاَّ اللهَ ، وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا) بمثله .

وقال آخرون : هو قول : لا إله إلا الله .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قال : قال أبو العالية : كلمة السواء : لا إله إلا الله .

وأما قوله (أَلاَّ نَعْبُدَ إلاَّ اللهَ) فإن أنْ فى موضع خفض ، على معنى تعالوا إلى أن لا نعبد إلا الله ، وقد بينا معنى العبادة فى كلام العرب فيما مضى . ودللنا على الصحيح من معانيه بما أغنى عن إعادته .

وأما قوله (وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضًا أَرْبابًا) فإن اتخاذ بعضهم بعضا ، هو ما كان بطاعة الأتباع الرؤساء فيما أمروهم به من معاصى الله ، وتركهم ما نهوهم عنه من طاعة الله ، كما قال جل ثناؤه (اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْبابًا مِنْ دُونِ اللهِ ، وَالمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ، وَما أُمِرُوا إلاَّ لِيَعْبُدُوا إلَهًا واحِدًا) .

كما حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، قال : قال ابن جريج (وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضًا أَرْبابًا مِنْ دُونِ اللهِ) يقول : لا يطع بعضنا بعضا فى معصية الله ، ويقال : إن تلك الربوبية : أن يطيع الناس سادتهم وقادتهم فى غير عبادة ، وإن لم يصلُّوا لهم .

وقال آخرون : اتخاذ بعضهم بعضا أربابا : سجود بعضهم لبعض .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا حفص بن عمر ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة فى قوله (وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضًا أَرْبابًا مِنْ دُونِ اللهِ) قال : سجود بعضهم لبعض .

وأما قوله (فَإنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) فإنه يعنى : فإن تولّى الذين تدعوهم إلى الكلمة السواء عنها وكفروا ، فقولوا أنتم أيها المؤمنون لهم : اشهدوا علينا بأنا بما توليتم عنه من توحيد الله وإخلاص العبودية له ، وأنه الإله الذى لا شريك له ، مسلمون ، يعنى خاضعون لله به ، متذللون له بالإقرار بذلك ، بقلوبنا وألسنتنا . وقد بينا معنى الإسلام فيما مضى ، ودللنا عليه بما أغنى عن إعادته .

القول فى تأويل قوله

يَأَهْلَ الكِتَبِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَٰهِيمَ ، وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥)

قال أبو جعفر : يعنى تعالى ذكره بقوله (يا أَهْلَ الكِتابِ) : يا أهل التوراة والإنجيل (لِمَ تُحاجُّونَ) : لم تجادلون (فِي إِبْراهِيمَ) وتخاصمون فيه ؟ يعنى فى إبراهيم خليل الرحمن ، صلوات الله عليه ، وكان

حجاجهم فيه : ادّعاء كل فريق من أهل هذين الكتابين أنه كان منهم ، وأنه كان يدين دين أهل نِحْلته ، فعابهم الله عزّ وجل بادّعائهم ذلك ، ودلّ على مناقضتهم ودعواهم ، فقال : وكيف تدّعون أنه كان على ملتكم ودينكم ، ودينكم إما يهودية أو نصرانية ، واليهوديّ منكم يزعم أن دينه إقامة التوراة والعمل بما فيها، والنصرانيّ منكم يزعم أن دينه إقامة الإنجيل وما فيه ، وهذان كتابان لم ينزلا إلا بعد حين من مَهْلِك إبراهيم ووفاته ، فكيف يكون منكم ؟ فما وجه اختصامكم فيه،وادعائكم أنه منكم ، والأمر فيه على ما قد علمتم ؟ وقيل : نزلت هذه الآية فى اختصام اليهود والنصارى فى إبراهيم ، وادّعاء كل فريق منهم أنه كان منهم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا يونس بن بكير ، قال : ثنى محمد بن إسحاق ، وحدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن محمد بن إسحاق ، قال : ثنى محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، قال : ثنى سعيد بن جبير أو عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتنازعوا عنده ، فقالت الأحبار : ما كان إبراهيم إلا يهوديا ، وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرانيا ، فأنزل الله عزّ وجلّ فيهم : (يا أَهْلَ الكِتابِ لِمَ تُحاجُّونَ فِى إِبْراهِيمَ وَما أُنْزِلَتِ التَّوْراةُ وَالإِنْجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أفَلا تَعْقِلُونَ) ؟ قالت النصارى : كان نصرانيا ، وقالت اليهود : كان يهوديا ، فأخبرهم الله أن التوراة والإنجيل ما أنزلا إلا من بعده ، وبعده كانت اليهودية والنصرانية .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قوله (يا أَهْلَ الكِتابِ لِمَ تُحاجُّونَ فِى إِبْراهِيمَ) يقول : لم تحاجون فى إبراهيم ، وتزعمون أنه كان يهوديا أو نصرانيا ، وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده ؟ فكانت اليهودية بعد التوراة ، وكانت النصرانية بعد الإنجيل ، أفلا تعقلون ؟

وقال آخرون : بل نزلت هذه الآية فى دعوى اليهود إبراهيم أنه منهم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قال : ذُكر لنا أن نبىّ الله صلى الله عليه وسلم دعا يهود أهل المدينة إلى كلمة السَّواء ، وهم الذين حاجُّوا فى إبراهيم ، وزعموا أنه مات يهوديا ، فأكذبهم الله عزّ وجلّ ، ونفاهم منه ، فقال : (يا أَهْلَ الكِتابِ لِمَ تُحاجُّونَ فِى إِبْراهِيمَ وَما أُنْزِلَتِ التَّوْراةُ وَالإِنْجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أفَلا تَعْقِلُونَ) ؟

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، مثله .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله عزّ وجلّ : (يا أَهْلَ الكِتابِ لِمَ تُحاجُّونَ فِى إِبْراهِيمَ) قال: اليهود والنصارى برّأه الله عز وجلّ منهم ، حين ادّعى كل أمة أنه منهم ، وألحق به المؤمنين مَنْ كان من أهل الحنيفية .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد مثله .

وأما قوله (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) : فإنه يعنى : أفلا تعقلون : تفقهون خطأ قيلكم إن إبراهيم كان يهوديا أو نصرانيا ، وقد علمتم أن اليهودية والنصرانية حدثت من بعد مَهْلكه بحين .

القول فى تأويل قوله

هَٰأَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ، فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : ها أنتم هؤلاء القوم الذين خاصمتم وجادلتم فيما لكم به علم من أمر دينكم الذى وجدتموه فى كتبكم ، وأتتكم به رسل الله من عنده ، ومن غير ذلك مما أوتيتموه ،وثبتت عندكم صحته،فلِمَ تحاجون ؟ يقول : فلم تجادلون وتخاصمون فيما ليس لكم به علم ؟ يعنى الذى لا علم لكم به من أمر إبراهيم ودينه ، ولم تجدوه فى كتب الله ، ولا أتتكم به أنبياؤكم ، ولا شاهدتموه فتعلموه .

كما حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (ها أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ، فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ)؟أما الذى لهم به علم : فما حُرِّم عليهم وما أمروا به ، وأما الذى ليس لهم به علم : فشأن إبراهيم .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (ها أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ) يقول : فيما شهدتم ، ورأيتم ، وعاينتم (فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ) فيما لم تشاهدوا ، ولم تروا ، ولم تعاينوا ، والله يعلم وأنتم لاتعلمون .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، مثله .

وقوله (وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَاتَعْلَمُونَ) يقول : والله يعلم ماغاب عنكم ،فلم تشاهدوه ولم تروه ، ولم تأتكم به رسله ، من أمر إبراهيم وغيره من الأمور ، ومما تجادلون فيه ، لأنه لايغيب عنه شىء ، ولا يعزُب عنه علم شىء فى السموات ولا فى الأرض ، وأنتم لاتعلمون من ذلك إلا ما عاينتم فشاهدتم ، أو أدركتم علمه بالإخبار والسماع .

القول فى تأويل قوله عزّ وجلّ

مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ، وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧)

وهذا تكذيب من الله عزّ وجلّ دعوى الذين جادلوا فى إبراهيم وملته من اليهود والنصارى ، وادّعوا أنه كان على ملتهم ، وتبرئة لهم منه ، وأنهم لدينه مخالفون ، وقضاء منه عزّ وجلّ لأهل الإسلام ، ولأمة محمد صلى الله عليه وسلم أنهم هم أهل دينه ، وعلى منهاجه وشرائعه ، دون سائر أهل الملل والأديان غيرهم ، يقول الله عزّ وجلّ : (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ، وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) : الذين يعبدون الأصنام والأوثان ، أو مخلوقا دون خالقه ، الذى هو إله الخلق

وبارئهم . (وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً) يعنى : متبعا أمر الله وطاعته ، مستقيما على محجة الهدى التى أُمر بلزومها ، (مُسْلِماً) يعنى : خاشعا لله بقلبه ، متذللا له بجوارحه ، مُذْعنا لما فرض عليه ، وأُلزمه من أحكامه .

وقد بينا اختلاف أهل التأويل فى معنى الحنيف فيما مضى . ودللنا على القول الذى هو أولى بالصحة من أقوالهم ، بما أغنى عن إعادته .

وبنحو ما قلنا فى ذلك من التأويل ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى إسحاق بن شاهين الواسطىّ ، قال : ثنا خالد بن عبد الله ، عن داود ، عن عامر ، قال : قالت اليهود : إبراهيم على ديننا ، وقالت النصارى : هو على ديننا ، فأنزل الله عزّ وجلّ : (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا) . . . الآية ، فأكذبهم الله ، وأدحض حجتهم . يعنى اليهود الذين ادّعوا أن إبراهيم مات يهوديا .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، مثله .

حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنى يعقوب بن عبد الرحمن الزهرىّ ، عن موسى بن عقبة ، عن سالم بن عبد الله ، لا أراه إلا يحدّثه عن أبيه ، أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدّين ، ويتبعه ، فلقى عالما من اليهود ، فسأله عن دينه ، وقال : إنى لعلّى أن أدين دينكم ، فأخبرْنى عن دينكم ، فقال له اليهودىّ : إنك لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله . قال زيد : ما أفرّ إلا من غضب الله ، ولا أحمل من غضب الله شيئا أبدا ، وأنا لا أستطيع ، فهل تدلنى على دين ليس فيه هذا ؟ قال : ما أعلمه إلا أن تكون حنيفا ، قال : وما الحنيف ؟ قال : دين إبراهيم ، لم يك يهوديا ولا نصرانيا ، وكان لا يعبد إلا الله ، فخرج من عنده ، فلقى عالما من النصارى ، فسأله عن دينه ، فقال : إنى لعلّى أن أدين دينكم ، فأخبرنى عن دينكم . قال : إنك لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله ، قال : لا أحتمل من لعنة الله شيئا ، ولا من غضب الله شيئا أبدا ، وأنا لا أستطيع ، فهل تدلنى على دين ليس فيه هذا ؟ فقال له نحوا مما قاله اليهودىّ : لا أعلمه إلا أن تكون حنيفا ، فخرج من عنده ، وقد رضى الذى أخبراه ، والذى اتفقا عليه من شأن إبراهيم ، فلم يزل رافعا يديه إلى الله ، وقال : اللهمّ إنى أشهدك أنى على دين إبراهيم .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه

إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨)

يعنى جلّ ثناؤه بقوله (إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ) : إن أحقّ الناس بإبراهيم ونصرته وولايته ، للذين اتبعوه ، يعنى الذين سلكوا طريقه ومنهاجه ، فوحدوا الله مخلصين له الدين ، وسنّوا سننه ، وشرعوا شرائعه ، وكانوا لله حُنَفاء مسلمين ، غير مشركين به ، وهذا النبىّ : يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم ، والذين آمنوا :

يعنى : والذين صدّقوا محمدا ، وبما جاءهم به من عند الله . والله ولىّ المؤمنين ، يقول : والله ناصر المؤمنين بمحمد ، المصدقين له فى نبوّته ، وفيما جاءهم به من عنده ، على من خالفهم من أهل الملل والأديان .

وبمثل الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ) يقول : الذين اتبعوه على ملته وسنته ومنهاجه وفطرته ، وهذا النبىّ ، وهو نبىّ الله محمد والذين آمنوا معه ، وهم المؤمنون الذين صدّقوا نبىّ الله واتبعوه ، كان محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين معه من المؤمنين أولى الناس بإبراهيم .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، مثله .

حدثنا محمد بن المثنى ،وجابر بن الكردىّ، والحسن بن أبى يحيى المقدسىّ ، قالوا : ثنا أبو أحمد ، قال : ثنا سفيان ، عن أبيه ، عن أبى الضحى ، عن مسروق ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ وُلَاةً مِنَ النَّبِيِّينَ ، وَإِنَّ وَلِيِّي مِنْهُمْ أَبِي وَخَلِيلُ رَبِّي ، ثم قرأ (إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ) » .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا أبو نعيم الفضل بن دكين ، قال : ثنا سفيان ، عن أبيه ، عن أبى الضحى ، عن عبد الله ، أراه قال : عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فذكر نحوه .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية بن صالح ، عن علىّ ، عن ابن عباس : يقول الله سبحانه : (إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ) وهم المؤمنون .

القول فى تأويل قوله

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ، وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ، وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩)

يعنى بقوله جلّ ثناؤه (وَدَّتْ) : تمنت (طَائِفَةٌ) يعنى : جماعة (مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ) ، وهم أهل التوراة من اليهود ، وأهل الإنجيل من النصارى (لَوْ يُضِلُّونَكُمْ) يقول : لو يصدّونكم أيها المؤمنون عن الإسلام ، ويردّونكم عنه إلى ما هم عليه من الكفر ، فيهلكونكم بذلك ، والإضلال فى هذا الموضع : الإهلاك ، من قول الله عزّ وجلّ (وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ) يعنى : إذا هلكنا ، ومنه قول الأخطل فى هجاء جرير :

كُنْتَ الْقَذَى فِي مَوْجِ أَكْدَرَ مُزْبِدٍ ... قَذَفَ الْأَتِيُّ بِهِ فَضَلَّ ضَلَالًا[1]

يعنى : هلك هلاكا ، وقول نابغة بنى ذبيان :

(١) البيت فى ديوان الأخطل (طبع بيروت صفحة ٥٠) . والقذى : ما يعلو الماء من الزبد والغثاء . والأتى : السيل يأتى من بلد بعيد . وفى البحر المحيط لأبى حيان (مجلد ٢ ص ٤٨٩) : « فى موج أخضر مزبد » .

فآبَ مُضِلُّوهُ بِعَيْنٍ جَلِيَّةٍ وغُودِرَ بالجَوْلانِ حَزْمٌ ونائِلُ[1]

يعنى : مهلكوه .

(وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ) : وما يهلكون بما يفعلون من محاولتهم صدّكم عن دينكم أحدا غير أنفسهم . يعنى بأنفسهم : أتباعهم وأشياعهم على ملتهم وأديانهم . وإنما أهلكوا أنفسهم وأتباعهم بماحاولوا من ذلك،لاستيجابهم من الله بفعلهم ذلك سُخْطه، واستحقاقهم به غضبه ولعنته . لكفرهم بالله ، ونقضهم الميثاق الذى أخذ الله عليهم فى كتابهم،فى اتباع محمد صلى الله عليه وسلم وتصديقه . والإقرار بنبوّته . ثم أخبر جلّ ثناؤه عنهم أنهم يفعلون ما يفعلون ، من محاولة صدّ المؤمنين عن الهدى إلى الضلالة والردى ، على جهل منهم بما الله بهم محلّ من عقوبته ، ومدّخر لهم من أليم عذابه . فقال تعالى ذكره (وَمَا يَشْعُرُونَ) أنهم لا يُضلون إلا أنفسهم، بمحاولتهم إضلالكم أيها المؤمنون،ومعنى قوله (وَمَا يَشْعُرُونَ) : وما يدرون ولا يعلمون ، وقد بيّنا تأويل ذلك بشواهده فى غير هذا الموضع ، فأغنى ذلك عن إعادته .

القول فى تأويل قوله جلّ ثناؤه

يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه (يا أَهْلَ الكِتابِ) من اليهود والنصارى (لِمَ تَكْفُرُونَ) يقول: لِمَ تجحدون (بِآياتِ اللهِ) يعنى : بما فى كتاب الله ،الذى أنزله إليكم ، على ألسن أنبيائكم من آيه وأدلته (وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ) أنه حقّ من عند ربكم؟ وإنما هذا من الله عزّ وجلّ توبيخ لأهل الكتابين ، على كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم . وجحودهم نبوّته ، وهم يجدونه فى كتبهم ، مع شهادتهم أن مافى كتبهم حقّ ، وأنه من عند الله .

كما حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثناسعيد ،عن قتادة ، قوله (يا أَهْلَ الكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ)؟ يقول : تشهدون أن نعت محمد نبىّ الله صلى الله عليه وسلم فى كتابكم ، ثم تكفرون به وتنكرونه ، ولا تؤمنون به وأنتم تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة والإنجيل ، النبىّ الأمىّ الذى يؤمن بالله وكلماته .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (يا أَهْلَ الكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ)؟ يقول : تشهدون أن نعت محمد فى كتابكم ، ثم تكفرون به ولا تؤمنون به ، وأنتم تجدونه عندكم فى التوراة والإنجيل النبىّ الأمىّ .

حدثنى محمد ، قال : ثنا أحمد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (يا أَهْلَ الكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ) آيات الله : محمد . وأما تشهدون : فيشهدون أنه الحق ، يجدونه مكتوبا عندهم

---

(١) البيت للنابغة الذبيانى يرثى النعمان بن الحارث بن أبى شمر الغسانى كما فى ديوانه (انظر مختار الشعر الجاهلى ص١٩٨) وكما فى اللسان (ضل) قال : يريد بمضليه : دافنيه حين مات . وقوله : « بعين جلية » : أى بخبر صادق أنه مات . والجولان : موضع بالشام . أى دفن بدفن النعمان الحزم والعطاء .

حدثنا الحسين ، قال : ثنا حجاج ، عن ابن جريج ، قوله (يا أَهْلَ الكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بآياتِ اللهِ وأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ) أن الدين عند الله الإسلام ، ليس لله دين غيره ؟

القول فى تأويل قوله

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ، وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : يا أهل التوراة والإنجيل . لم تلبسون . يقول : لم تخلطون الحقّ بالباطل . وكان خلطهم الحقّ بالباطل : إظهارهم بألسنتهم من التصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وما جاء به من عند الله ، غيرَ الذى فى قلوبهم من اليهودية والنصرانية .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن أبى محمد ، عن عكرمة ، أو سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : قال عبد الله بن الصيف ، وعدىّ بن زيد ، والحارث بن عوف ، بعضهم لبعض : تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غُدْوة ، ونكفر به عَشِية ، حتى نَلْبِس عليهم دينهم ، لعلهم يصنعون كما نصنع ، فيرجعوا عن دينهم . فأنزل الله عزّ وجلّ فيهم : (يا أَهْلَ الكِتابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الحَقَّ بالباطِلِ) . . . إلى قوله (وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (يا أَهْلَ الكِتابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الحَقَّ بالباطِلِ) يقول : لم تلبسون اليهودية والنصرانية بالإسلام ، وقد علمتم أن دين الله الذى لا يقبل غيره الإسلام ، ولا يجزى إلا به .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بمثله ، إلا أنه قال : الذى لا يقبل من أحد غيره الإسلام ، ولم يقبل ولا يجزى إلا به .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قوله (يا أَهْلَ الكِتابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الحَقَّ بالباطِلِ) : الإسلام باليهودية والنصرانية .

وقال آخرون فى ذلك بما حدثنى به يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قول الله عزّ وجلّ (لِمَ تَلْبِسُونَ الحَقَّ بالباطِلِ) قال : الحقّ : التوراة التى أنزل الله على موسى ، والباطل : الذى كتبوه بأيديهم .

قال أبو جعفر : وقد بيّنا معنى اللبس فيما مضى ، بما أغنى عن إعادته .

القول فى تأويل قوله (وَتَكْتُمُونَ الحَقَّ وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) :

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : ولِمَ تكتمون يا أهل الكتاب الحقّ ؟ والحقّ الذى كتموه : ما فى كتبهم من نعت محمد صلى الله عليه وسلم ومبعثه ونبوّته .

كما حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَتَكْتُمُونَ الحَقَّ وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) : كتموا شأن محمد ، وهم يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قوله (وَتَكْتُمُونَ الحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) يقول : يكتمون شأن محمد صلى الله عليه وسلم ، وهم يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر .

حدثنى القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج (تَكْتُمُونَ الحَقَّ) : الإسلام ، وأمرَ محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنتم تعلمون أن محمدا رسول الله ، وأن الدين الإسلام .

وأما قوله (وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) فإنه يعنى به : وأنتم تعلمون أن الذى تكتمونه من الحقّ حقّ ، وأنه من عند الله . وهذا القول من الله عزّ وجلّ خبر عن تعمد أهل الكتاب الكفر به ، وكتمانهم ما قد علموا من نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، ووجدوه فى كتبهم ، وجاءتهم به أنبياؤهم .

القول فى تأويل قوله جلّ ثناؤه

وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢)

اختلف أهل التأويل فى صفة المعنى الذى أُمرت به هذه الطائفة مَن أُمرت به ، من الإيمان وجه النهار ، والكفر آخره . فقال بعضهم : كان ذلك أمرا منهم إياهم بتصديق النبىّ صلى الله عليه وسلم فى نبوّته ، وما جاء به من عند الله ، وأنه حقّ فى الظاهر ، من غير تصديقه فى ذلك بالعزم ، واعتقاد القلوب على ذلك ، وبالكفر به ، وجحود ذلك كله فى آخره .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (آمِنُوا بِالَّذِى أُنْزِلَ على الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ) فقال بعضهم لبعض : أعطوهم الرضا بدينهم أوّل النهار ، واكفروا آخره ، فإنه أجدر أن يصدّقوكم ، ويعلموا أنكم قد رأيتم فيهم ما تكرهون ، وهو أجدر أن يرجعوا عن دينهم .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا معلى بن أسد ، قال : ثنا خالد ، عن حصين ، عن أبى مالك فى قوله (آمِنُوا بِالَّذِى أُنْزِلَ على الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ) قال : قالت اليهود : آمنوا معهم أوّلَ النهار ، واكفروا آخره ، لعلهم يرجعون معكم .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (وَقالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ آمِنُوا بِالَّذِى أُنْزِلَ على الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) : كان أحبار قرى عَرَبِيَّةَ اثنى عشر حبرا ، فقالوا لبعضهم : ادخلوا فى دين محمد أول النهار ، وقولوا : نشهد أن محمدا حقّ صادق ، فإذا كان آخر النهار فاكفروا وقولوا : إنا رجعنا إلى علمائنا وأحبارنا ، فسألناهم ، فحدثونا أن محمدا كاذب ، وأنكم لستم على شىء . وقد رجعنا إلى ديننا فهو أعجب إلينا من

دينكم ، لعلهم يشكون ، يقولون : هؤلاء كانوا معنا أوّل النهار ، فما بالهم ؟ فأخبر الله عزّ وجلّ رسوله صلى الله عليه وسلم بذلك .

حُدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن حصين ، عن أبى مالك الغِفارىّ ، قال : قالت اليهود بعضهم لبعض : أسلموا أوّل النهار ، وارتدّوا آخره ، لعلهم يرجعون ، فاطلع الله على سرّهم ، فأنزل الله عزّ وجل (وَقالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ آمِنُوا بالَّذِى أُنْزِلَ على الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَاكْفُرُوا آخرَهُ ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) .

وقال آخرون : بل الذى أمرت به من الإيمان الصلاة ، وحضورها معهم أوّل النهار ، وترك ذلك آخره

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قول الله عزّ وجلّ (آمِنُوا بالَّذِى أُنْزِلَ على الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ) يهود تقوله ، صلت مع محمد صلاة الصبح ، وكفروا آخر النهار ، مكرا منهم ، ليُروا الناس أن قد بدت لهم منه الضلالة بعد أن كانوا اتبعوه .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، بمثله .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (وَقالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ آمِنُوا بالَّذِى أُنْزِلَ على الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ) . . . الآية ، وذلك أن طائفة من اليهود قالوا : إذا لقيتم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أول النهار فآمنوا ، وإذا كان آخره فصلوا صلاتكم ، لعلهم يقولون : هؤلاء أهل الكتاب ، وهم أعلم منا ، لعلهم ينقلبون عن دينهم ، ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم .

فتأويل الكلام إذنْ : وقالت طائفة من أهل الكتاب ، يعنى من اليهود الذين يقرءون التوراة : آمنوا : صدّقوا بالذى أنزل على الذين آمنوا ، وذلك ما جاءهم به محمد صلى الله عليه وسلم من الدين الحقّ وشرائعه وسننه . وجه النهار : يعنى أول النهار . وسمى أوله وجها له ، لأنه أحسنه ، وأوّل ما يواجه الناظر فيراه منه ، كما يقال لأوّل الثوب وجهه . وكما قال ربيع بن زياد :

مَنْ كانَ مَسْرُورًا بِمَقْتَلِ مالِكٍ فَلْيَأْتِ نِسْوَتَنا بِوَجْهِ نَهارِ (١)

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال جماعة من أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

(١) البيت للربيع بن زياد ، يقوله فى مالك بن زهير العبسى كما فى شرح التبريزى على الحماسة (٣ : ٢٦) وأراد بوجه نهار : صدر نهار ، لأن من شأن الحزين إذا هب من النوم أن يتجدد عليه المصاب . أو هو كما قالت الخنساء :

يذكرنى طلوع الشمس صخرا وأذكره لكل غروب شمس

تذكره أول النهار ، أى فى وقت الغارة ، وعند الغروب لأنه وقت لقاء الضيفان .

ورواه صاحب اللسان فى (وجه) وقال قبله : ووجه النهار : أوله . وجئتك بوجه نهار : أى بأول نهار . ويقال : أتيته بوجه نهار ، وشباب نهار ، وصدر نهار : أى فى أوله ، ومنه قوله : . . البيت . وقيل فى قوله تعالى : « وجه النهار واكفروا آخره » : صلاة الصبح . وقيل : أول النهار .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَجْهَ النَّهارِ) : أول النهار .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (وَجْهَ النَّهارِ) : أول النهار (وَاكْفُرُوا آخِرَهُ) يقول : آخر النهار .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد (آمِنُوا بِالَّذِى أُنْزِلَ عَلى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ) قال : قال صلُّوا معهم الصبح ، ولا تصلوا معهم آخر النهار ، لعلكم تستزلونهم بذلك .

وأما قوله (وَاكْفُرُوا آخِرَهُ) : فإنه يعنى به أنهم قالوا : واجحدوا ما صدقتم به من دينهم فى وجه النهار فى آخر النهار . (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) : يعنى بذلك : لعلهم يرجعون عن دينهم معكم ويدَعونه .

كما حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) يقول : لعلهم يدَعون دينهم ، ويرجعون إلى الذى أنتم عليه .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، مثله .

حدثنا محمد بن سعد ، قال : ثنا أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) : لعلهم ينقلبون عن دينهم .

حدثنى محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) : لعلهم يشكون .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، قوله (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) قال : يرجعون عن دينهم .

القول فى تأويل قوله

﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٧٣)

يعنى بذلك جل ثناؤه : ولا تصدّقوا إلا من تبع دينكم . فكان يهوديا . وهذا خبر من الله عن قول الطائفة الذين قالوا لإخوانهم من اليهود : (آمِنُوا بِالَّذِى أُنْزِلَ عَلى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ) واللام التى فى قوله (لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ) نظيرة اللام التى فى قوله (عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ) بمعنى : ردفكم بعضُ الذى تستعجلون .

وبنحو ما قلنا فى تأويل ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (وَلا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ) : هذا قول بعضهم لبعض .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، مثله .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ) قال : لا تؤمنوا إلا لمن تبع اليهودية .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ) قال : لا تؤمنوا إلا لمن آمن بدينكم ، لا من خالفه ، فلا تؤمنوا به .

القول فى تأويل قوله جلّ ثناؤه (قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ) :

اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك ، فقال بعضهم : قوله (قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ) اعترض به فى وسط الكلام ، خبر من الله عن أن البيان بيانه ، والهدى هداه ، قالوا : وسائر الكلام بعد ذلك متصل بالكلام الأوّل ، خبر عن قيل اليهود بعضها لبعض . فمعنى الكلام عندهم : ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ، ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، أو أن يحاجوكم عند ربكم : أى ولا تؤمنوا أن يحاجّكم أحد عند ربكم ، ثم قال الله عزّ وجلّ لنبيه صلى الله عليه وسلم : قل يا محمد إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، وإن الهدى هدى الله .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قوله (أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ) : حسدا من يهودَ أن تكون النبوّة فى غيرهم ، وإرادة أن يتبعوا على دينهم .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

وقال آخرون : تأويل ذلك : قل يا محمد : إن الهدى هدى الله ، إن البيان بيان الله أن يؤتى أحد . قالوا : ومعناه : لا يؤتى أحد من الأمم مثل ما أوتيتم ، كما قال : (يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا) بمعنى : لا تضلون . وكقوله : (كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ) بمعنى : أن لا يؤمنوا (مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ) : يقول : مثل ما أوتيت أنت يا محمد وأمتك من الإسلام والهدى ، أو يحاجوكم عند ربكم ، قالوا : ومعنى « أو » : إلا ، أى إلا أن يحاجوكم ، يعنى إلا أن يجادلوكم عند ربكم ، عند ما فعل بهم ربكم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، قال الله عزّ وجلّ لمحمد صلى الله عليه وسلم (قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ) يقول : مثل ما أوتيتم يا أمة محمد ، أو يحاجوكم عند ربكم ، تقول اليهود : فعل الله بنا كذا وكذا من الكرامة ، حتى أنزل علينا المنّ والسلوى ، فإن الذى أعطيتكم أفضل ، فقولوا (إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ) . . . الآية . فعلى هذا التأويل جميع هذا الكلام من الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يقوله

لليهود ، وهو متلاصق بعضه ببعض ، لا اعتراض فيه . والهدى الثانى : ردّ على الهدى الأوّل ، وأن فى موضع رفع على أنه خبر عن الهدى .

وقال آخرون : بل هذا أمر من الله لنبيه أن يقوله لليهود ، وقالوا : تأويله : قل يا محمد إن الهدى هدى الله ، أن يؤتى أحد من الناس مثل ما أوتيتم ، يقول : مثل الذى أوتيتموه أنتم يا معشر اليهود من كتاب الله ، ومثل نبيكم ، فلا تحسدوا المؤمنين على ما أعطيتهم ، مثل الذى أعطيتكم من فضلى ، فإن الفضل بيدى أوتيه من أشاء .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (قُلْ إنَّ الهُدَى هُدَى اللهِ أنْ يُؤْتَى أحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ) يقول : لما أنزل الله كتابا مثل كتابكم ، وبعث نبيا مثل نبيكم ، حسدتموهم على ذلك (قُلْ إنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللهِ) . . . الآية .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، مثله .

وقال آخرون : بل تأويل ذلك : قل يا محمد : إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أنتم يامعشر اليهود من كتاب الله . قالوا : وهذا آخر القول الذى أمر الله به نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم أن يقوله لليهود من هذه الآية . قالوا : وقوله (أوْ يُحاجُّوكُمْ) مردود على قوله (وَلا تُؤْمِنُوا إلاّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ) . وتأويل الكلام على قول أهل هذه المقالة : ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ، فتتركوا الحقّ أن يحاجوكم به عند ربكم من اتبعتم دينه ، فاخترتموه أنه محقّ ، وأنكم تجدون نعته فى كتابكم ، فيكون حينئذ قوله (أوْ يُحاجُّوكُمْ) مردودا على جواب نهى متروك ، على قول هؤلاء .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قوله (إنَّ الهُدَى هُدَى اللهِ أنْ يُؤْتَى أحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ) يقول : هذا الأمر الذى أنتم عليه أن يُؤْتَى أحد مثل ما أوتيتم ، أو يحاجوكم عند ربكم . قال : قال بعضهم لبعض : لا تخبروهم بما بين الله لكم فى كتابه . ليحاجوكم : قال : ليخاصموكم به عند ربكم . قل إن الهدى هدى الله ، معترض به ، وسائر الكلام متسق على سياق واحد .

فيكون تأويله حينئذ : ولا تؤمنوا إلا لمن اتبع دينكم ، ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، بمعنى : لا يؤتى أحد بمثل ما أوتيتم ، أو يحاجوكم عند ربكم ، بمعنى : أو أن يحاجّكم عند ربكم أحد بإيمانكم ، لأنكم أكرم على الله منهم ، بما فضلكم به عليهم . فيكون الكلام كله خبرا عن قول الطائفة التى قال الله عزّ وجلّ : (وَقالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أهْلِ الكِتابِ آمِنُوا بِالَّذِى أُنْزِلَ عَلى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ) ، سوى قوله (قُلْ إنَّ الهُدَى هُدَى اللهِ) ، ثم يكون الكلام مبتدأ بتكذيبهم فى قولهم : قل يا محمد للقائلين ماقالوا ، من الطائفة التى وصفت لك قولها لِتُبّاعها من اليهود : (إنَّ الهُدَى هُدَى اللهِ) : إن التوفيق توفيق الله .

والبيان بيانه ، وإن الفضل بيده يؤتيه من يشاء ، لا ما تمنيتموه أنتم يامعشر اليهود . وإنما اخترنا ذلك من سائر الأقوال التى ذكرناها ، لأنه أصحها معنى ، وأحسنها استقامة على معنى كلام العرب ، وأشدّها اتساقا على نظم الكلام وسياقه ، وما عدا ذلك من القول ، فانتزاع يبعد من الصحة ، على استكراه شديد الكلام .

القول فى تأويل قوله (قُلْ إِنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) :

يعنى بذلك جل ثناؤه : قل يا محمد لهؤلاء اليهود الذين وصفت قولهم لأوليائهم : إن الفضل بيد الله ، إن التوفيق للإيمان ، والهداية للإسلام، بيد الله ، وإليه دونكم ودون سائر خلقه ، يؤتيه من يشاء من خلقه ، يعنى : يعطيه من أراد من عباده تكذيبا من الله عزّ وجلّ لهم فى قولهم لتُبّاعهم :لايؤتى أحد مثل ما أوتيتم . فقال الله عزّ وجلّ لنبيه صلى الله عليه وسلم : قل لهم : ليس ذلك إليكم ، إنما هو إلى الله الذى بيده الأشياء كلها ، وإليه الفضل وبيده ، يعطيه من يشاء والله (واسع عليم) ، يعنى : والله ذو سعة بفضله على من يشاء أن يتفضل عليه ، عليم : ذو علم بمن هو منهم للفضل أهل .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا سويد بن نصر ، قال : أخبرنا ابن المبارك قراءة عن ابن جريج ، فى قوله (قُلْ إِنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ) قال : الإسلام .

القول فى تأويل قوله

يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ ، وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ (٧٤)

يعنى بقوله (يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ) : يفتعل ، من قول القائل : خصصت فلانا بكذا ، أخصه به . وأما رحمته فى هذا الموضع : فالإسلام ، والقرآن مع النبوّة .

كما حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ) قال : النبوّة يخصّ بها من يشاء .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ) قال : يختصّ بالنبوّة من يشاء .

حدثنى المثنى ، قال: ثنا سويد ، قال : أخبرنا ابن المبارك قراءة ، عن ابن جريج (يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ) قال : القرآن والإسلام .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج مثله .

(وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ) يقول : ذو فضل يتفضل به على من أحبّ وشاء من خلقه . ثم وصف فضله بالعظم ، فقال : فضله عظيم لأنه غير مشبه فى عظم موقعه ممن أفضله عليه أفضال خلقه ، ولا يقاربه فى جلالة خطره ، ولا يدانيه .

القول فى تأويل قوله جلّ ثناؤه

* وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ، وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥)

وهذا خبر من الله عزّ وجلّ ، أن من أهل الكتاب ، وهم اليهود من بنى إسرائيل ، أهلَ أمانة يؤدّونها ولا يخونونها ، ومنهم الخائن أمانته ، الفاجر فى يمينه المستحلّ .

فإن قال قائل : وما وجه إخبار الله عزّ وجلّ بذلك نبيه صلى الله عليه وسلم ، وقد علمت أن الناس لم يزالوا كذلك : منهم المؤدى أمانته ، والخائنها ؟ قيل إنما أراد جلّ وعزّ بإخباره المؤمنين خبرهم ، على ما بينه فى كتابه بهذه الآيات ، تحذيرهم أن يأتمنوهم على أموالهم ، وتخويفهم الاغترار بهم ، لاستحلال كثير منهم أموال المؤمنين . فتأويل الكلام : ومن أهل الكتاب الذى إن تأمنه يا محمد على عظيم من المال كثير ، يؤدّه إليك ، ولا يخنك فيه ؛ ومنهم الذى إن تأمنه على دينار يخنك فيه ، فلا يؤدّه إليك إلا إن تُلح عليه بالتقاضى والمطالبة . والباء فى قوله (بِدِينَارٍ) وعلى ، يتعاقبان فى هذا الموضع ، كما يقال : مررت به ، ومررت عليه .

واختلف أهل التأويل فى تأويل قوله (إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا) فقال بعضهم : إلا مادمت له متقاضيا .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا) : إلا ما طلبته واتبعته .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، فى قوله (إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا) قال : تقتضيه إياه .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله (إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا) قال : مواظبا .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

وقال آخرون : معنى ذلك : إلا ما دمت عليه قائما على رأسه .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، قوله (إِلَّا مَادُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا) يقول : يعترف بأمانته ما دمت قائما على رأسه ، فإذا قمت ثم جئت تطلبه ، كافرك الذى يؤدى ، والذى يجحد .

وأولى القولين بتأويل الآية قول من قال : معنى ذلك : إلا ما دمت عليه قائما بالمطالبة والاقتضاء من

قولهم : قام فلان بحق على فلان، حتى استخرجه لى . أى عمل فى تخليصه ، وسعى فى استخراجه منه حتى استخرجه . لأن الله عزّوجلّ إنما وصفهم باستحلالهم أموال الأميين ، وأن منهم من لايقضى ما عليه إلا بالاقتضاء الشديد والمطالبة ، وليس القيام على رأس الذى عليه الدين ، بموجب له النقلة عما هو عليه من استحلال ما هو له مستحلّ ، ولكن قد يكون مع استحلاله الذهاب بما عليه لربّ الحقّ إلى استخراجه السبيل ، بالاقتضاء والمحاكمة والمخاصمة . فذلك الاقتضاء : هو قيام ربّ المال باستخراج حقه ممن هو عليه .

القول فى تأويل قوله (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ) :

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : أن من استحلّ الخيانة من اليهود ، وجحود حقوق العربىّ التى هى له عليه ، فلم يؤدّ ما ائتمنه العربىّ عليه إليه إلا ما دام له متقاضيا مطالبا ، من أجل أنه يقول : لاحرج علينا فيما أصبنا من أموال العرب ولا إثم . لأنهم على غير الحقّ . وأنهم مشركون .

واختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك ، فقال بعضهم نحو قولنا فيه .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ) . . . الآية . قالت اليهود : ليس علينا فيما أصبنا من أموال العرب سبيل .

حدثنا الحسن بن يحيى . قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، فى قوله (لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ) قال : ليس علينا فى المشركين سبيل . يعنون : من ليس من أهل الكتاب .

حدثنا محمد ، قال : ثنا أحمد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ) قال : يقال له : ما بالك لاتؤدّى أمانتك ؟ فيقول : ليس علينا حرج فى أموال العرب ، قد أحلها الله لنا .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا يعقوب القُمِّىّ ، عن جعفر ، عن سعيد بن جبير ، لما نزلت (وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا : لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ) قال قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « كَذَبَ أَعْدَاءُ اللهِ ! ما مِنْ شَىْءٍ كانَ فِى الجاهِلِيَّةِ إلاَّ وَهُوَ تَحْتَ قَدَمَىَّ ، إلاَّ الأمانَةَ ، فإنَّها مُؤَدَّاةٌ إلى البَرِّ والفاجِرِ » .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا هشام بن عبيد الله ، عن يعقوب القمى ، عن جعفر ، عن سعيد بن جبير ، قال : لما قالت اليهود : (لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ) يعنون : أخذ أموالهم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ذكر نحوه ، إلا أنه قال : « إلاَّ وَهُوَ تَحْتَ قَدَمَىَّ هاتَيْنِ ، إلاَّ الأمانَةَ ، فإنَّها مُؤَدَّاةٌ » ولم يزد على ذلك .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس

(ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ) وذلك أن أهل الكتاب كانوا يقولون : ليس علينا جناح فيما أصبنا من هؤلاء ، لأنهم أميون . فذلك قوله (لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ) . . . إلى آخر الآية .

وقال آخرون فى ذلك ما حدثنا به القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ) قال : بايع اليهودَ رجال من المسلمين فى الجاهلية ، فلما أسلموا تقاضوهم ثمن بيوعهم ، فقالوا : ليس لكم علينا أمانة ، ولا قضاء لكم عندنا ، لأنكم تركتم دينكم الذى كنتم عليه ، وادّعوا أنهم وجدوا ذلك فى كتابهم ، فقال الله عزّ وجلّ : (وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، قال : ثنا سفيان ، عن أبى إسحاق ، عن صعصعة ، قال : قلت لابن عباس : إنا نغزو أهل الكتاب ، فنصيب من ثمارهم ، قال : وتقولون كما قال أهل الكتاب (لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ) .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن أبى إسحاق الهمدانىّ ، عن صعصعة أن رجلا سأل ابن عباس فقال : إنا نصيب فى العرف أو العذق؟ (الشكّ من الحسن) من أموال أهل الذمة الدجاجةَ والشاة . فقال ابن عباس : فتقولون ماذا ؟ قال : نقول : ليس علينا بذلك بأس ، قال : هذا ، كما قال أهل الكتاب (لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ) إنهم إذا أدّوا الجزية لم تحلّ لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم .

القول فى تأويل قوله (وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) :

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : أن القائلين منهم : ليس علينا فى أموال الأميين من العرب حرج أن نختانهم إياه ، يقولون بقيلهم : إن الله أحلّ لنا ذلك ، فلا حرج علينا فى خيانتهم إياه ، وترك قضائهم الكذب على الله ، عامدين الإثم بقيل الكذب على الله إنه أحلّ ذلك لهم ، وذلك قوله عزّ وجلّ (وَهُمْ يَعْلَمُونَ) .

كما حدثنا محمد ، قال : ثنا أحمد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، فيقول على الله الكذب ، وهو يعلم ، يعنى الذى يقول منهم إذا قيل له : مالك لا تؤدّى أمانتك : ليس علينا حرج فى أموال العرب ، قد أحلها الله لنا .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج (وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) : يعنى ادّعاءهم أنهم وجدوا فى كتابهم قولهم (لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ) .

القول فى تأويل قوله

بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ ، فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦)

وهذا إخبار من الله عزّ وجلّ عمن أدّى أمانته إلى من ائتمنه عليها ، اتقاء الله ومراقبته وعيده ، فقال

جل ثناؤه : ليس الأمر كما يقول هؤلاء الكاذبون على الله من اليهود : من أنه ليس عليهم فى أموال الأميين حرَج ولا إثم . ثم قال : بلى ، ولكن من أوفى بعهده واتقى ، يعنى ولكن الذى أوفى بعهده ، وذلك وصيته إياهم ، التى أوصاهم بها فى التوراة من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وما جاءهم به ، والهاء فى قوله (مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ) عائدة على اسم الله فى قوله (وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ) يقول : بلى من أوفى بعهد الله الذى عاهده فى كتابه ، فآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وصدّق به وبما جاء به من الله ، من أداء الأمانة إلى من ائتمنه عليها ، وغير ذلك من أمر الله ونهيه ، واتقى ، يقول : واتقى ما نهاه الله عنه من الكفر به ، وسائر معاصيه التى حرمها عليه ، فاجتنب ذلك مراقبة وعيد الله ، وخوف عقابه (فإنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَّقِينَ) .

يعنى : فإن الله يحبّ الذين يتقونه ، فيخافون عقابه ، ويحذرون عذابه ، فيجتنبون ما نهاهم عنه ، وحرّمه عليهم ، ويطيعونه فيما أمرهم به . وقد روى عن ابن عباس أنه كان يقول : هو اتقاء الشرك .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنا معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قوله (بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى) يقول : اتقى الشرك (إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَّقِينَ) يقول : الذين يتقون الشرك .

وقد بينا اختلاف أهل التأويل فى ذلك ، والصواب من القول فيه بالأدلة الدالة عليه فيما مضى من كتابنا ، بما فيه الكفاية عن إعادته .

القول فى تأويل قوله

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ، أُولَـٰئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى الْأَخِرَةِ ، وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ ، وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : إن الذين يستبدلون بتركهم عهد الله الذى عهد إليهم ، ووصيته التى أوصاهم بها فى الكتب ، التى أنزلها الله إلى أنبيائه باتباع محمد وتصديقه ، والإقرار به ، وما جاء به من عند الله وبأيمانهم الكاذبة التى يستحلون بها ما حرّم الله عليهم من أموال الناس التى اؤتمنوا عليها . ثمنا : يعنى عوضا وبدلا خسيسا من عرض الدنيا وحطامها (أُولَـٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فى الآخِرَةِ) يقول : فإن الذين يفعلون ذلك لاحظّ لهم فى خيرات الآخرة ، ولا نصيب لهم من نعيم الجنة ، وما أعدّ الله لأهلها فيها دون غيرها .

وقد بينا اختلاف أهل التأويل فيما مضى فى معنى الخلاق ، ودللنا على أولى أقوالهم فى ذلك بالصواب بما فيه الكفاية .

وأما قوله (وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ) فإنه يعنى : ولا يكلمهم الله بما يسرّهم ، ولا ينظر إليهم . يقول : ولا يعطف عليهم بخير ، مقتاً من الله لهم ، كقول القائل لآخر : انظر إلىّ نظر الله إليك ، بمعنى : تعطف علىّ تعطف الله عليك بخير ورحمة ، وكما يقال للرجل : لا سمع الله لك دعاءك ، يراد : لااستجاب الله لك ، والله لايخفى عليه خافية ، وكما قال الشاعر :

دَعَوْتُ اللهَ حتى خِفْتُ أنْ لا يَكُونُ اللهُ يَسْمَعُ ما أقُولُ[١]

وقوله (وَلَا يُزَكِّيهِمْ) يعنى : ولا يطهرهم من دنس ذنوبهم وكفرهم (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) : يعنى : ولهم عذاب موجع .

واختلف أهل التأويل فى السبب الذى من أجله أنزلت هذه الآية ، ومن عنى بها ؟ فقال بعضهم : نزلت فى أحبار من أحبار اليهود .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن عكرمة ، قال : نزلت هذه الآية (إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً) فى أبى رافع ، وكنانة[٢] بن أبى الحقيق ، وكعب بن الأشرف ، وحيى بن أخطب .

وقال آخرون : بل نزلت فى الأشعث بن قيس وخصم له .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى أبو السائب سلم بن جُنادة ، قال : ثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن أبى وائل ، عن عبد الله ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ حَلَفَ على يَمِينٍ هُوَ فيها فاجِرٌ ، لِيَقْتَطِعَ بِها مالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ ، لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبانُ » ، فقال الأشعث بن قيس : فىَّ والله كان ذلك ، كان بينى وبين رجل من اليهود أرض ، فجحدنى ، فقدمته إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَلَكَ بَيِّنَةٌ ؟ قلت : لا ، فقال لليهودىّ : احْلِفْ ، قلت : يا رسول الله إذَنْ يحلف فيذهب مالى ، فأنزل الله عزّ وجلّ : (إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً) الآية .

حدثنا مجاهد بن موسى ، قال : ثنا يزيد بن هارون ، قال : أخبرنا جرير بن حازم ، عن عدىّ بن عدىّ ، عن رجاء بن حَيْوة والعُرْس[٣] ، أنهما حدثاه ، عن أبيه عدىّ بن عَميرة ، قال : كان بين امرئ القيس[٤] ورجل من حضرموت خصومة ، فارتفعا إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فقال للحضرمىّ : بَيِّنَتُكَ وَإِلَّا فَيَمِينُهُ ، قال : يا رسول الله إن حلف ذهب بأرضى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ حَلَفَ على يَمِينٍ كاذِبَةٍ ، لِيَقْتَطِعَ بِها حَقَّ أخِيهِ ، لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبانُ . فقال امرؤ القيس يا رسول الله ، فما لمن تركها وهو يعلم أنها حقّ ؟ قال : الجنة ، قال : فإنى أشهدك أنى قد تركتها . قال جرير : فكنت مع أيوب السختيانى حين سمعنا هذا الحديث من عدىّ ، فقال أيوب : إنّ عديا قال فى حديث العُرْس بن عَميرة : فنزلت هذه الآية : (إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً) . . . إلى آخر الآية . قال جرير : ولم أحفظ يومئذ من عدىّ .

---

(١) البيت أنشده صاحب اللسان فى (سمع) غير منسوب نقله عن أبى زيد الأنصارى . قال : وقد تأتى سمعت بمعنى أجبت ، ومنه قولهم : سمع الله لمن حمده : أى أجاب حمده وتقبله . يقال : اسمع دعائى : أى أجب ، لأن غرض السائل الإجابة والقبول ، وعليه ما أنشده أبو زيد . . . البيت .

(٢) كذا فى الدر المنثور أيضا وفى التفسير الكبير : لبابة .

(٣) فى الخلاصة : العرس بن عميرة بالفتح الكندى : صحابى روى عنه ابن أخيه عدى بن عدى .

(٤) امرؤ القيس بن عابس الكندى ، وخصمه ربيعة بن عبدان ، كما فى صحيح مسلم .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج قال : قال آخرون : إن الأشعث بن قيس اختصم هو ورجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أرض كانت فى يده لذلك الرجل، أخذها لتعزّزه فى الجاهلية ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : أَقِمْ بَيِّنَتَكَ ، قال الرجل : ليس يشهد لى أحد على الأشعث . قال: فلك يمينه ، فقام الأشعث ليحلف ، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية ، فَنَكَلَ الأشعث ، وقال : إنى أشهد الله وأشهدكم أن خصمى صادق ، فردّ إليه أرضه ، وزاده من أرض نفسه زيادة كثيرة ، مخافة أن يبقى فى يده شىء من حقه ، فهى لعقب ذلك الرجل بعده .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن منصور ، عن شقيق ، عن عبد الله ، قال : من حلف على يمين يستحقّ بها مالا ، هو فيها فاجر ، لقى الله وهو عليه غضبان، ثم أنزل الله تصديق ذلك: (إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وأَيْمانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً) . . . الآية ثم إن الأشعث بن قيس خرج إلينا ، فقال: ما حدثكم أبو عبد الرحمن ؟ فحدثناه بما قال ، فقال : صدق ، لىّ أنزلت ، كانت بينى وبين رجل خصومة فى بئر ، فاختصمنا إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : شاهِدَاكَ أَوْ يَمِينُهُ ، فقلت: إذنْ يحلفَ ولا يبالى ، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : مَنْ حَلَفَ على يَمِينٍ يَسْتَحِقُّ بِها مالاً هُوَ فِيها فاجِرٌ ، لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبانُ . ثم أنزل الله عزّ وجلّ تصديق ذلك : (إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وأَيْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً) . . . الآية .

وقال آخرون بما حدثنا به محمد بن المثنى ، قال : ثنا عبد الوهاب ، قال : أخبرنى داود بن أبى هند ، عن عامر : أن رجلا أقام سلعته أوّل النهار ، فلما كان آخره جاء رجل يساومه ، فحلف لقد منعها أوّل النهار من كذا وكذا ، ولولا المساء ما باعها به ، فأنزل الله عزّ وجلّ (إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وأَيْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً) .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا عبد الأعلى ، قال : ثنا داود ، عن رجل ، عن مجاهد ، نحوه .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وأَيْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً) . . . الآية ، إلى (وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ) : أنزلهم الله بمنزلة السَّحَرَة .

حدثنا بشر : قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة أن عمران بن حُصين كان يقول : من حلف على يمين فاجرة يقتطع بها مال أخيه ، فليتبوأ مقعده من النار . فقال له قائل : شىء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال لهم : إنكم لتجدون ذلك ، ثم قرأ هذه الآية (إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وأَيْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً) . . . الآية .

حدثنى موسى بن عبد الرحمن المسروقىّ ، قال : ثنا حسين بن علىّ ، عن زائدة ، عن هشام ، قال : قال محمد بن عمران بن حصين : من حلف على يمين مصبورة، فليتبوأ بوجهه مقعده من النار . ثم قرأ هذه الآية كلها : (إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وأَيْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً) .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا ابن المبارك ، عن معمر ، عن الزهرىّ ، عن سعيد بن المسيب ، قال :

إنّ اليمين الفاجرة من الكبائر ، ثم تلا (إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً) .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة : أن عبد الله بن مسعود ، كان يقول : كنا نرى ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن من الذنب الذى لايغفر : يمين الصبر[1] ، إذا فجر فيها صاحبها .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ ، وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : وإنّ من أهل الكتاب ، وهم اليهود الذين كانوا حوالَى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم على عهده ، من بنى إسرائيل ، والهاء والميم فى قوله (مِنْهُمْ) عائدة على أهل الكتاب الذين ذكرهم فى قوله (وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ) وقوله (لَفَرِيقاً) يعنى : جماعة (يَلْوُونَ) : يعنى : يحرّفون (أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ) يعنى : لتظنوا أن الذى يحرّفونه لكلامهم من كتاب الله وتنزيله . يقول الله عزّ وجلّ : وما ذلك الذى لَوَوْا به ألسنتهم فحرّفوه وأحدثوه ، من كتاب الله . ويزعمون أن ما لَوَوْا به ألسنتهم من التحريف والكذب والباطل ، فألحقوه فى كتاب الله ، من عند الله ، يقول : مما أنزله الله على أنبيائه ، وما هو من عند الله ، يقول : وماذلك الذى لووا به ألسنتهم ، فأحدثوه ، مما أنزله الله إلى أحد من أنبيائه ، ولكنه مما أحدثوه من قِبَل أنفسهم ، افتراء على الله . يقول عزّ وجلّ (وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) يعنى بذلك : أنهم يتعمدون قِيل الكذب على الله ، والشهادة عليه بالباطل ، والإلحاق بكتاب الله ما ليس منه ، طلبا للرياسة والخسيس من حطام الدنيا .

وبنحو ما قلنا فى معنى (يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ) قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ) قال : يحرّفونه .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ) حتى بلغ (وَهُمْ يَعْلَمُونَ) هم أعداء الله اليهود ، حرّفوا كتاب الله ، وابتدعوا فيه ، وزعموا أنه من عند الله .

(١) فى اللسان : يمين الصبر أو اليمين المصبورة : أن يحبسه السلطان على اليمين حتى يحلف بها . فلو حلف إنسان من غير إحلاف ماقيل : حلف صبرا .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، مثله .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس، قوله (وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ) وهم اليهود ، كانوا يزيدون فى كتاب الله مالم ينزل الله .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج (وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ) قال : فريق من أهل الكتاب يلوون ألسنتهم ، وذلك تحريفهم إياه عن موضعه . وأصل اللىّ : الفتل والقلب ، من قول القائل : لوى فلان يد فلان : إذا فتلها وقلبها ، ومنه قول الشاعر :

لَوَى يَدَهُ اللهُ الذى هُوَ غَالِبُهْ[1]

يقال منه : لوى يده ولسانه يلوى ليا ، وما لوى ظهر فلان أحد : إذا لم يصرعه أحد ، ولم يفتل ظهره إنسان ، وإنه لألوى بعيد المستمرّ : إذا كان شديد الخصومة ، صابرا عليها ، لايغلب فيها ، قال الشاعر :

فَلَوْ كَانَ فِى لَيْلَى شَدًا مِنْ خُصُومَةٍ ... لَلَوَّيْتُ أَعْنَاقَ الْخُصُومِ الْمَلَاوِيَا[2]

القول فى تأويل قوله

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ (٧٩)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : وما ينبغى لأحد من البشر . والبشر : جمع بنى آدم ، لاواحد له من لفظه ، مثل القوم والخلق ، وقد يكون اسما لواحد . (أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ) يقول : أن ينزل الله عليه كتابه . (وَالْحُكْمَ) يعنى : ويعلمه فصل الحكمة . (وَالنُّبُوَّةَ) يقول : ويعطيه النبوة . (ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِى مِنْ دُونِ اللهِ) يعنى : ثم يدعو الناس إلى عبادة نفسه دون الله ، وقد آتاه الله ما آتاه من الكتاب والحكم والنبوة ، ولكن إذا آتاه الله ذلك ، فإنما يدعوهم إلى العلم بالله، ويحدوهم على معرفة شرائع دينه ، وأن يكونوا رؤساء فى المعرفة بأمر الله ونهيه ، وأئمة فى طاعته وعبادته ، بكونهم معلمى الناس الكتاب ، وبكونهم دارسيه .

---

(١) هذا عجز بيت لفرعان بن الأعرف ، كما فى لسان العرب فى (لوى) ، وصدره :

تَغَمَّدَ حَقِّى ظَالِماً وَلَوَى يَدِى

(٢) البيت أورده صاحب اللسان فى (شدا) وقال قبله : قال أبو منصور : الشدا : البقية . وأنشد ابن الأعرابى . . . البيت . أى بقية . قال أبو بكر : الشدا : حد كل شىء ، يكتب بالألف . قال : والشدا من الأذى . وأنشد . . . البيت . وقال : الملاوى جمع ملوى . قال : وهو مصدر ، أنشده الفراء : شذا بالذال ، وأنشده غيره بالدال . وأكثر الناس على أنه بالدال ، وهو الحد . وأورده ابن برى بالدال شاهدا على قوله : الشدا : طرف من الشىء . قال : ومنه بيت المجنون . وقال ابن خالويه : الشدا : البقية ، وأنشد هذا البيت ابن الأعرابى : شدا : إذا قوى فى بدنه . وشدا : إذا أبقى بقية . ويقال : للمريض إذا أشفى على الموت : لم يبق منه إلا شدا . والبيت لمجنون بنى عامر كما صرح به صاحب اللسان فى (لوى) عن ابن برى الذى رواه بلفظ :

فَلَوْ كَانَ فِى لَيْلَى شَدًا مِنْ خُصُومَةٍ ... الخ

وقيل: إن هذه الآية نزلت فى قوم من أهل الكتاب، قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم: أتدعونا إلى عبادتك؟

كما حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، قال: ثنا ابن إسحاق، عن محمد بن أبى محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: قال أبورافع القرظى، حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران، عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودعاهم إلى الإسلام: أتريد يامحمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم؟ فقال رجل من أهل نجران نصرانىّ، يقال له الرئيس: أَوَ ذاك تريد منا يا محمد، وإليه تدعونا؟ أو كما قال. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَعاذَ اللهِ أنْ نَعْبُدَ غَيْرَ اللهِ، أوْ نأْمُرَ بِعِبادَةِ غَيْرِهِ، ما بِذَلِكَ بَعَثَنِى، وَلا بِذَلِكَ أمَرَنِى. أو كما قال؛ فأنزل الله عزّ وجلّ فى ذلك من قولهم (ما كانَ لِبَشَرٍ أنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الكِتابَ والحُكْمَ والنُّبُوَّةَ) . . . الآية، إلى قوله بعد (إذْ أنْتُمْ مُسْلِمُونَ).

حدثنا أبو كريب، قال: ثنا يونس بن بكير، قال: ثنا محمد بن إسحاق، قال: ثنى محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت، قال: ثنى سعيد بن جبير أوعكرمة، عن ابن عباس، قال: قال أبورافع القُرَظى، فذكر نحوه.

حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله (ما كانَ لِبَشَرٍ أنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الكِتابَ والحُكْمَ والنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِباداً لى مِنْ دُونِ اللهِ) يقول: ماكان ينبغى لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوّة[1] يأمر عباده أن يتخذوه ربًّا من دون الله.

حدثنى المثنى، قال: ثنا إسحاق، قال: ثنا ابن أبى جعفر، عن أبيه، عن الربيع، مثله.

حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثنى حجاج، عن ابن جريج، قال: كان ناس من يهود يتعبدون الناس من دون ربهم، بتحريفهم كتاب الله عن موضعه، فقال الله عزّ وجلّ (ما كانَ لِبَشَرٍ أنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الكِتابَ والحُكْمَ والنُّبُوَّةَ، ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِباداً لى مِنْ دُونِ اللهِ): ثم يأمر الناس بغير ما أنزل الله فى كتابه.

القول فى تأويل قوله (وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ):

يعنى جلّ ثناؤه بذلك: ولكن يقول لهم: كونوا ربانيين، فترك القول، استغناء بدلالة الكلام عليه. وأما قوله (كُونُوا رَبَّانِيِّينَ) فإن أهل التأويل اختلفوا فى تأويله، فقال بعضهم: معناه كونوا حكماء علماء.

ذكر من قال ذلك:

حدثنا محمد بن بشار، قال: ثنا عبد الرحمن، قال: ثنا سفيان، عن منصور، عن أبى رزين (كُونُوا رَبَّانِيِّينَ) قال: حكماء علماء.

حدثنا أبو كريب، قال: ثنا ابن يمان، عن سفيان، عن منصور، عن أبى رزين (كُونُوا رَبَّانِيِّينَ) قال: حكماء علماء.

حدثنا ابن حميد، قال: ثنا حكام، عن عمرو، عن منصور، عن أبى رزين، مثله.

(١) لعل «أن» سقطت من الناسخ، أو لعل المؤلف حذفها مقدرا لها، على طريقة الكوفيين.

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن منصور ، عن أبي رزين (وَلَـٰكِن كُونُوا رَبَّـٰنِيِّـۧنَ) : حكماء علماء .

حدثني يعقوب بن إبراهيم قال : ثنا هشيم ، عن عوف ، عن الحسن ، فى قوله (كُونُوا رَبَّـٰنِيِّـۧنَ) قال : كونوا فقهاء علماء .

حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، فى قوله (كُونُوا رَبَّـٰنِيِّـۧنَ) قال : فقهاء .

حدثني المثنى ، قال : ثنا أبوحذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : أخبرنى القاسم ، عن مجاهد ، قوله (وَلَـٰكِن كُونُوا رَبَّـٰنِيِّـۧنَ) قال : فقهاء .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَلَـٰكِن كُونُوا رَبَّـٰنِيِّـۧنَ) قال : كونوا فقهاء علماء .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر عن منصور بن المعتمر ، عن أبي رزين فى قوله (كُونُوا رَبَّـٰنِيِّـۧنَ) قال : علماء حكماء .

قال معمر : قال قتادة : حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى ، فى قوله (كُونُوا رَبَّـٰنِيِّـۧنَ) أما الربانيون : فالحكماء الفقهاء .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنا سفيان ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، قال : الربانيون : الفقهاء العلماء ، وهم فوق الأحبار .

حدثني محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس قوله (وَلَـٰكِن كُونُوا رَبَّـٰنِيِّـۧنَ) يقول : كونوا حكماء فقهاء .

حُدثت عن المنجاب ، قال : ثنا بشر بن عمارة ، عن أبي حمزة الثمالى ، عن يحيى بن عقيل ، فى قوله : الربانيون والأحبار ، قال : الفقهاء العلماء .

حُدثت عن المنجاب ، قال : ثنا بشر ، عن أبي رَوْق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، مثله .

حدثني ابن سنان القزاز ، قال : ثنا الحسين بن الحسن الأشقر ، قال : ثنا أبو كدينة ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، فى قوله (كُونُوا رَبَّـٰنِيِّـۧنَ) قال : كونوا حكماء فقهاء .

حُدثت عن الحسين بن الفرج ، قال : سمعت أبا معاذ ، قال : أخبرنا عبيد بن سليمان ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (كُونُوا رَبَّـٰنِيِّـۧنَ) يقول : كونوا فقهاء علماء .

وقال آخرون : بل هم الحكماء الأتقياء .

ذكر من قال ذلك :

حدثني يحيى بن طلحة اليربوعيّ ، قال : ثنا فُضيل بن عياض ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، قوله (كُونُوا رَبَّانِيِّينَ) قال : حكماء أتقياء .

وقال آخرون : بل هم ولاة الناس وقادتهم .

ذكر من قال ذلك :

حدثني يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : سمعت ابن زيد يقول فى قوله (كُونُوا رَبَّانِيِّينَ) قال : الربانيون : الذين يَرُبُّون الناس ، ولاة هذا الأمر ، يربونهم : يلونهم ، وقرأ (لَوْلا يَنْهاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبارُ) قال : الربانيون : الولاة . والأحبار : العلماء .

قال أبو جعفر : وأولى الأقوال عندى بالصواب فى الربانيين : أنهم جمع ربانىّ ، وأن الربانىّ المنسوب إلى الرَّبان : الذى يَرُب الناس ، وهو الذى يصلح أمورهم ويربها ، ويقوم بها ، ومنه قول علقمة بن عبدة :

وكنتَ امْرأً أفْضَتْ إليْكَ رِبابَتِى ... وَقَبْلَكَ رَبَّتْنى فَضِعْتُ رُبُوبُ[1]

يعنى بقوله : ربتنى : ولىَ أمرى ، والقيام به قبلك من يربه ويصلحه ، فلم يصلحوه ، ولكنهم أضاعونى فضعت . يقال : منه : ربّ أمرى فلان ، فهو يربه ربا ، وهو رابه ، فإذا أريد به المبالغة فى مدحه قيل : هو رَبَّان ، كما يقال : هو نَعسان ، من قولهم : نعَسَ ينعُس ، وأكثر ما يجىء من الأسماء على فعلان ما كان من الأفعال ماضيه على فَعِل ، مثل قولهم : هو سكران وعطشان وريان ، من سكر يسكر ، وعطش يعطش ، ورَوِى يروَى ، وقد يجىء مما كان ماضيه على فَعَل يفعُل ، نحو ما قلنا من نعَس ينعُس ، ورب يرب .

فإذا كان الأمر فى ذلك على ما وصفنا ، وكان الرَّبان ما ذكرنا . والربانىّ : هو المنسوب إلى من كان بالصفة التى وصفت ، وكان العالم بالفقه والحكمة من المصلحين ، يرُب أمور الناس بتعليمه إياهم الخير ، ودعائهم إلى ما فيه مصلحتهم ، وكان كذلك الحكيم التقىّ لله ، والوالى الذى يلى أمور الناس ، على المنهاج الذى وليه المقسطون من المصلحين أمور الخلق بالقيام فيهم ، بما فيه صلاح عاجلهم وآجلهم ، وعائدة النفع عليهم فى دينهم ودنياهم ، وكانوا جميعا مستحقين أنهم ممن دخل فى قوله عزّ وجلّ (وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ) فالربانيون إذنْ ، هم عماد الناس فى الفقه والعلم وأمور الدين والدنيا ، ولذلك قال مجاهد : وهم فوق الأحبار ، لأن الأحبار هم العلماء ، والربانىّ : الجامع إلى العلم والفقه ، البصر بالسياسة والتدبير ، والقيام بأمور الرعية ، وما يصلحهم فى دنياهم ودينهم .

القول فى تأويل قوله (بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الكِتابَ ، وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ) :

اختلفت القراء فى قرءة ذلك ، فقرأه عامة قراء أهل الحجاز وبعض البصريين (بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) ، بفتح التاء وتخفيف اللام ، يعنى : بعلمكم الكتاب ، ودراستكم إياه وقراءتكم . واعتلوا لاختيارهم قراءة ذلك كذلك ، بأن الصواب لو كان التشديد فى اللام وضمّ التاء ، لكان الصواب فى تدرسون بضم التاء

(١) البيت لعلقمة بن عبدة التميمى ، شاعر جاهلى ، من قصيدة له مشهورة يمدح بها الحارث بن أبى شمر الغسانى (انظر مختار الشعر الجاهلى طبعة شركة مصطفى البابى الحلبى وأولاده سنة ١٩٤٨) وأورده صاحب اللسان فى (رب) وقال قبله : والربابة والرباب : ه والميثاق . قال علقمة بن عبدة . . . البيت ، كما رواه المؤلف هنا .

وتشديد الراء . وقرأ ذلك عامة قراء الكوفيين (بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الكِتَابَ) بضم التاء من تُعلّمون وتشديد اللام ، بمعنى : بتعليمكم الناس الكتاب ، ودراستكم إياه ؛ واعتلوا لاختيارهم ذلك ، بأن من وصفهم بالتعليم فقد وصفهم بالعلم ، إذ لا يُعلّمون إلا بعد علمهم بما يُعلّمون .

قالوا : ولا موصوف بأنه يعلّم ، إلا وهو موصوف بأنه عالم ، قالوا : فأما الموصوف بأنه عالم ، فغير موصوف بأنه معلم غيره . قالوا : فأولى القراءتين بالصواب ، أبلغهما في مدح القوم ، وذلك وصفهم بأنهم كانوا يُعلّمون الناس الكتاب .

كما حدثني المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا يحيى بن آدم ، عن ابن عيينة ، عن حميد الأعرج ، عن مجاهد : أنه قرأ (بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الكِتَابَ ، وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ) مخففة بنصب التاء ، وقال ابن عيينة : ما علّموه حتى علموه .

وأولى القراءتين بالصواب في ذلك : قراءة من قرأه بضم التاء وتشديد اللام ، لأن الله عزّ وجلّ وصف القوم بأنهم أهل عماد للناس في دينهم ودنياهم ، وأهل إصلاح لهم ولأمورهم وتربية ، يقول جلّ ثناؤه ، (وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ) على ما بيّنا قبل من معنى الربانيّ ، ثم أخبر تعالى ذكره عنهم أنهم صاروا أهل إصلاح للناس وتربية لهم ، بتعليمهم إياهم كتابَ ربهم ، ودراستهم إياه وتلاوته . وقد قيل : دراستهم الفقه .

وأشبه التأويلين بالدراسة : ما قلنا من تلاوة الكتاب ، لأنه عطف على قوله (تُعَلِّمُونَ الكِتَابَ) ، والكتاب : هو القرآن ، فلأن تكون الدراسة معنيا بها دراسة القرآن ، أولى من أن تكون معنيا بها دراسة الفقه ، الذي لم يجر له ذكر .

ذكر من قال ذلك :

حدثني المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : قال يحيى بن آدم ، قال أبو زكريا : كان عاصم يقرؤها : (بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الكِتَابَ) قال : القرآن ، (وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ) قال : الفقه .

فمعنى الآية : ولكن يقول لهم : كونوا أيها الناس سادة الناس وقادتهم ، في أمر دينهم ودنياهم ، ربانيين بتعليمكم إياهم كتاب الله ، وما فيه من حلال وحرام ، وفرض وندب ، وسائر ما حواه من معاني أمور دينهم ، وبتلاوتكم إياه ودراستكموه .

القول في تأويل قوله عزّ وجلّ

وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ، أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ؟ (٨٠)

اختلفت القراء في قراءة قوله (وَلَا يَأْمُرَكُمْ) فقرأته عامة قراء الحجاز والمدينة (وَلَا يَأْمُرُكُمْ) على

وجه الابتداء من الله بالخبر ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم« أَنَّهُ لا يَأْمُرُكُمْ أَيُّها النَّاسُ أَنْ تَتَّخِذُوا المَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْباباً » واستشهد قارئو ذلك كذلك بقراءة ذكروها عن ابن مسعود ، أنه كان يقرؤها ، وهى (ولن يأمركم) فاستدلوا بدخول لن على انقطاع الكلام عما قبله ، وابتداء خبر مستأنف . قالوا : فلما صير مكان « لن » فى قراءتنا « لا » وجبت قراءته بالرفع . وقرأه بعض الكوفيين والبصريين (وَلا يَأْمُرَكُمْ) بنصب الراء ، عطفا على قوله (ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ) . وكان تأويله عندهم : ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب ، ثم يقول للناس (وَلا أَنْ يَأْمُرَكُمْ) بمعنى : ولا كان له أن يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا .

وأولى القراءتين بالصواب فى ذلك : (وَلا يَأْمُرَكُمْ) بالنصب على الاتصال بالذى قبله ، بتأول ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ، ثم يقول للناس كونوا عبادا لى مِنْ دُونِ اللهِ ، ولا أن يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا . لأن الآية نزلت فى سبب القوم الذين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أتريد أن نعبدك . فأخبرهم الله جلّ ثناؤه ، أنه ليس لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يدعو الناس إلى عبادة نفسه ، ولا إلى اتخاذ الملائكة والنبيين أربابا ، ولكن الذى له ، أن يدعوهم إلى أن يكونوا ربانيين . فأما الذى ادّعى من قرأ ذلك رفعا : أنه فى قراءة عبد الله : (ولن يأمركم) استشهادا لصحة قراءته بالرفع ، فذلك خبر غير صحيح سنده ، وإنما هو خبر رواه حجاج عن هارون ، لايجوز[1] أن ذلك فى قراءة عبد الله كذلك . ولو كان ذلك خبرا صحيحا سنده ، لم يكن فيه لمحتجّ حجة ، لأن ما كان على صحته من القراءة من الكتاب[1] الذى جاء به المسلمون وراثة عن نبيهم صلى الله عليه وسلم ، لا يجوز تركه ، لتأويل نحو قراءة أضيفت إلى بعض الصحابة ، بنقل من يجوز فى نقله الخطأ والسهو .

فتأويل الآية إذنْ : وما كان للنبيّ أن يأمر الناس أن يتخذوا الملائكة والنبيين أربابا ، يعنى بذلك : آلهة يُعبدون من دون الله ، كما ليس له أن يقول لهم : كونوا عبادا لى من دون الله ، ثم قال جلّ ثناؤه نافيا عن نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأمر عباده بذلك : أيأمركم بالكفر أيها الناس نبيكم بجحود وحدانية الله بعد إذ أنتم مسلمون ، يعنى بعد إذ أنتم له منقادون بالطاعة ، متذللون له بالعبودية ، أى إن ذلك غير كائن منه أبدا .

وقد حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : ولا يأمركم النبيّ صلى الله عليه وسلم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا .

القول فى تأويل قوله عزّ وجلّ

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَٰقَ النَّبِيِّينَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ، قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ؟ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ، قَالَ فَاشْهَدُوا۟ ، وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّٰهِدِينَ (٨١)

(١ - ١) كذا فى الأصول . ولعل الأولى : يجوز أن لايكون ذلك الخ ، وقوله « من الكتاب » لعله دليل من القراءة من الكتاب الخ .

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : واذكروا يأهل الكتاب إذ أخذ الله ميثاق النبيين ، يعنى حين أخذ الله ميثاق النبيين . وميثاقهم : ماوثقوا به على أنفسهم طاعة الله فيما أمرهم ونهاهم ، وقد بينا أصل الميثاق باختلاف أهل التاويل فيه، بما فيه الكفاية . (لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ) : اختلفت القراء فى قراءة ذلك، فقرأته عامة قراء الحجاز والعراق (لَمَا آتَيْتُكُمْ) بفتح اللام من لما ، إلا أنهم اختلفوا فى قراءة آتيتكم . فقرأه بعضهم (آتَيْتُكُم) على التوحيد ، وقرأه آخرون (آتيناكم) على الجمع .

ثم اختلف أهل العربية إذا قرئ ذلك كذلك ، فقال بعض نحوىّ البصرة : اللام التى مع ما فى أوّل الكلام لام الابتداء ، نحو قول القائل : لزيد أفضل منك ، لأن ما اسم ، والذى بعدها صلة لها ، واللام التى فى (لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ) لام القسم ، كأنه قال : والله لتؤمننّ به ، يؤكد فى أول الكلام وفى آخره ، كما يقال : أما والله أن لو جئتنى لكان كذا وكذا ، وقد يستغنى عنها ، فيؤكد فى لتؤمننّ به باللام فى آخر الكلام ، وقد يستغنى عنها ، ويجعل خبر ما آتيتكم من كتاب وحكمة ، لتؤمننّ به ، مثل ، لعبد الله والله لآتينّه، قال: وإن شئت جعلت خبر «ما» من كتاب، يريد لما آتيتكم كتابٌ وحكمة ، وتكون مِن زائدة . وخطأ بعض نحوىّ الكوفيين ذلك كله، وقال: اللام التى تدخل فى أوائل الجزاء لاتجاب بما، ولا«لا»، فلا يقال : لمن قام لاتتبعه . ولا لمن قام ما أحسن . فإذا وقع فى جوابها «ما» ، و«لا» ، علم أن اللام ليست بتوكيد للأولى، لأنه يوضع موضعها ما ولا، فتكون كالأولى، وهى جواب للأولى . قال وأما قوله (لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ) بمعنى إسقاط «من» غلط ، لأن من التى تدخل وتخرج لاتقع مواقع الأسماء ، قال : ولا تقع فى الخبر أيضا ، إنما تقع فى الجحد والاستفهام والجزاء .

وأولى الأقوال فى تأويل هذه الآية، على قراءة من قرأ ذلك بفتح اللام ، بالصواب : أن يكون قوله (لَمَا) بمعنى : لمهما ، وأن تكون ما حرف جزاء أدخلت عليها اللام ، وصير الفعل معها على فَعَل[1] ، ثم أجيبت بما تجاب به الأيمان ، فصارت اللام الأولى يمينا ، إذ تلقيت بجواب اليمين .

وقرأ ذلك آخرون : (لِمَا آتَيْتُكُمْ) بكسر اللام من لما ، وذلك قراءة جماعة من أهل الكوفة .

ثم اختلف قارئو ذلك كذلك فى تأويله ، فقال بعضهم : معناه : إذا قرئ كذلك : وإذ أخذ الله ميثاق النبيين للذى آتيتكم ، فما على هذه القراءة بمعنى الذى عندهم . وكان تأويل الكلام : وإذ أخذ الله ميثاق النبيين من أجل الذى آتاهم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول : يعنى : ثم إن جاءكم رسول ، يعنى ذِكر محمد فى التوراة ، لتؤمننّ به ، أى ليكونن إيمانكم به ، للذى عندكم فى التوراة من ذكره .

وقال آخرون منهم : تأويل ذلك إذا قرئ بكسر اللام من لِما ، وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لِلذى آتاهم من الحكمة ، ثم جعل قوله: لتومننّ به من الأخذ ، أخذ الميثاق ، كما يقال فى الكلام: أخذت ميثاقك لتفعلن لأن أخذ الميثاق بمنزلة الاستحلاف . فكان تأويل الكلام عند قائل هذا القول : وإذ استحلف الله النبيين للذى آتاهم من كتاب وحكمة ، متى جاءهم رسول مصدّق لما معهم ، ليؤمننّ به ولينصرنه .

وأولى القراءتين فى ذلك بالصواب: قراءة من قرأ (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ)

(١) أى ماضى الصيغة .

بفتح اللام ، لأن الله عزّ وجلّ أخذ ميثاق جميع الأنبياء بتصديق كل رسول له ابتعثه إلى خلقه ، فيما ابتعثه به إليهم ، كان ممن آتاه كتابا ، أو ممن لم يؤته كتابا . وذلك أنه غير جائز وصف أحد من أنبياء الله عزّ وجلّ ورسله ، بأنه كان ممن أبيح له التكذيب بأحد من رسله ؛ فإذا كان ذلك كذلك . وكان معلوما أن منهم من أنزل عليه الكتاب ، وأن منهم من لم ينزل عليه الكتاب ، كان بيّنا أن قراءة من قرأ ذلك (لِمَا آتَيْتُكُمْ) بكسر اللام ، بمعنى : من أجل الذى آتيتكم من كتاب ، لاوجه له مفهوم إلا على تأويل بعيد ، وانتزاع عميق .

ثم اختلف أهل التأويل فيمن أخذ ميثاقه بالإيمان بمن جاءه من رسل الله مصدّقا لما معه ، فقال بعضهم : إنما أخذ الله بذلك ميثاق أهل الكتاب ، دون أنبيائهم ، واستشهدوا لصحة قولهم بذلك بقوله (لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ) قالوا : فإنما أمر الذين أرسلت إليهم الرسل من الأمم بالإيمان برسل الله ، ونصرتها على من خالفها . وأما الرسل ، فإنه لاوجه لأمرها بنصرة أحد ، لأنها المحتاجة إلى المعونة على من خالفها من كفرة بنى آدم . فأما هى فإنها لاتعين الكفرة على كفرها ولاتنصرها ، قالوا : وإذا لم يكن غيرها وغير الأمم الكافرة ، فمن الذى ينصر النبى ، فيؤخذ ميثاقه بنصرته؟ .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله (وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ) قال : هى خطأ من الكاتب ، وهى فى قراءة ابن مسعود (وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ) .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع فى قوله (وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ) يقول : وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ، وكذلك كان يقرؤها الربيع : وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ، إنما هى أهل الكتاب ، قال : وكذلك كان يقرؤها أبىّ ابن كعب . قال الربيع : ألا ترى أنه يقول : (ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ) يقول : لتؤمننّ بمحمد صلى الله عليه وسلم ولتنصرنه ، قال : هم أهل الكتاب .

وقال آخرون : بل الذين أخذ ميثاقهم بذلك الأنبياء دون أممها .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى وأحمد بن حازم ، قالا : ثنا أبو نعيم ، قال : ثنا سفيان ، عن حبيب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : إنما أخذ الله ميثاق النبيين على قومهم .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه ، فى قوله (وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ) : أن يصدّق بعضهم بعضا .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن ابن طاوس ، عن أبيه

فى قوله (وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ، ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ) . . . الآية ، قال : أخذ الله ميثاق الأَوَّل من الأنبياء ليصدقنّ وليؤمننّ بما جاء به الآخر منهم .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا عبد الله بن هاشم ، قال : أخبرنا سيف بن عمرو ، عن أبى روق ، عن أبى أيوب ، عن علىّ بن أبى طالب ، قال : لم يبعث الله عزّ وجلّ نبيا ، آدم فمن بعده ، إلا أخذ عليه العهد فى محمد : لئن بعث وهو حىّ ليؤمننّ به ولينصرنه ، ويأمره فيأخذ العهد على قومه ، فقال (وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ) . . . الآية .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ) . . . الآية : هذا ميثاق أخذه الله على النبيين ، أن يصدق بعضهم بعضا ، وأن يبلغوا كتاب الله ورسالاته ، فبلغت الأنبياء كتاب الله ورسالاته إلى قومهم . وأخذ عليهم فيما بلغتهم رسلهم ، أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ويصدّقوه وينصروه .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ) . . . الآية ، قال : لم يبعث الله عزّ وجلّ نبيا قطّ من لدن نوح إلا أخذ ميثاقه : ليؤمننّ بمحمد ، ولينصرنه إن خرج وهو حىّ ، وإلا أخذ على قومه أن يؤمنوا به ، ولينصرنه إن خرج وهم أحياء .

حدثنى محمد بن سنان ، قال : ثنا عبد الكبير بن عبد المجيد أبو بكر الحنفىّ ، قال : ثنا عباد بن منصور قال : سألت الحسن ، عن قوله (وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ) . . . الآية كلها ، قال : أخذ الله ميثاق النبيين : ليبلغنّ آخركم أولكم ولا تختلفوا .

وقال آخرون : معنى ذلك : أنه أخذ ميثاق النبيين وأممهم ، فاجتزأ بذكر الأنبياء عن ذكر أممها ، لأن فى ذكر أخذ الميثاق على المتبوع ، دلالة على أخذه على التُّباع ، لأن الأمم هم تُباع الأنبياء .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن محمد بن إسحاق ، عن محمد بن أبى محمد ، عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : ثم ذكر ما أخذ عليهم ، يعنى على أهل الكتاب ، وعلى أنبيائهم من الميثاق بتصديقه ، يعنى بتصديق محمد صلى الله عليه وسلم إذا جاءهم ، وإقرارهم به على أنفسهم ، فقال : (وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ) . . . إلى آخر الآية .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا يونس بن بكير ، قال : ثنا محمد بن إسحاق ، قال : ثنى محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، قال : ثنى سعيد بن جبير أو عكرمة ، عن ابن عباس ، مثله .

وأولى هذه الأقوال فى ذلك بالصواب : قول من قال : معنى ذلك : الخبر عن أخذ الله الميثاق من أنبيائه ، بتصديق بعضهم بعضا ، وأخذ الأنبياء على أممها وتُباعها الميثاق ، بنحو الذى أخذ عليها ربها ، من تصديق

أنبياء الله ورسله بما جاءتها به ، لأن الأنبياء عليهم السلام بذلك أرسلت إلى أممها ، ولم يدّع أحد ممن صدق المرسلين أن نبيا أرسل إلى أمة بتكذيب أحد من أنبياء الله عزّ وجلّ ، وحججه فى عباده ، بل كلها ، وإن كذّب بعض الأمم بعض أنبياء الله بجحودها نبوّته ، مقرّ بأن من ثبتت صحة نبوّته ، فعليها الدينونة بتصديقه، فذلك ميثاق مقرّ به جميعهم ، ولا معنى لقول من زعم أن الميثاق إنما أخذ على الأمم دون الأنبياء ، لأن الله عزّ وجلّ قد أخبر أنه أخذ ذلك من النبيين ، فسواء قال قائل : لم يأخذ ذلك منها ربها ، أو قال : لم يأمرها ببلاغ ما أرسلت ، وقد نصّ الله عزّ وجلّ أنه أمرها بتبليغه ، لأنهما جميعا خبران من الله عنها ، أحدهما أنه أخذ منها ، والآخر منهما أنه أمرها ، فإن جاز الشكّ فى أحدهما جاز فى الآخر . وأما ما استشهد به الربيع بن أنس ، على أن المعنىّ بذلك أهل الكتاب ، من قوله (لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ) ، فإن ذلك غير شاهد على صحة ما قال ، لأن الأنبياء قد أمر بعضها بتصديق بعض ، وتصديق بعضها بعضا ، نصرة من بعضها بعضا .

ثم اختلفوا فى الذين عُنوا بقوله (ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ) فقال بعضهم : الذين عنوا بذلك هم الأنبياء ، أخذت مواثيقهم أن يصدّق بعضهم بعضا ، وأن ينصروه ، وقد ذكرنا الرواية بذلك عمن قاله .

وقال آخرون : هم أهل الكتاب ، أمروا بتصديق محمد صلى الله عليه وسلم إذا بعثه الله وبنصرته ، وأخذ ميثاقهم فى كتبهم بذلك ، وقد ذكرنا الرواية بذلك أيضا عمن قاله .

وقال آخرون ممن قال الذين عنوا بأخذ الله ميثاقهم منهم فى هذه الآية : هم الأنبياء ، قوله (ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ) معنىّ به أهل الكتاب .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبر معمر قال : أخبرنا ابن طاوس ، عن أبيه فى قوله (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ) قال : أخذ الله ميثاق النبيين : أن يصدق بعضهم بعضا ، ثم قال : (ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ) قال : فهذه الآية لأهل الكتاب أخذ الله ميثاقهم أن يؤمنوا بمحمد ويصدّقوه .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنى ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، قال : قال قتادة : أخذ الله على النبيين ميثاقهم ، أن يصدّق بعضهم بعضا ، وأن يبلغوا كتاب الله ورسالته إلى عباده ، فبلغت الأنبياء كتاب الله ورسالاته إلى قومهم ، وأخذوا مواثيق أهل الكتاب فى كتابهم ، فيما بلغتهم رسلهم ، أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ويصدّقوه وينصروه .

وأولى الأقوال بالصواب عندنا فى تأويل هذه الآية : أن جميع ذلك خبر من الله عزّ وجلّ عن أنبيائه ، أنه أخذ ميثاقهم به ، وألزمهم دعاء أممهم إليه ، والإقرار به ، لأن ابتداء الآية خبر من الله عزّ وجلّ ، عن أنبيائه أنه أخذ ميثاقهم ، ثم وصف الذى أخذ به ميثاقهم ، فقال : هو كذا ، وهوكذا .

وإنما قلنا : إن ما أخبر الله أنه أخذ به مواثيق أنبيائه من ذلك ، قد أخذت الأنبياء مواثيق أممها به ، لأنها

أرسلت لتدعو عباد الله إلى الدينونة بما أمرت بالدينونة به فى أنفسها ، من تصديق رسل الله، على ما قدمنا البيان قبل . فتأويل الآية: واذكروا يا معشر أهل الكتاب إذ أخذ الله ميثاق النبيين ، لَمهما آتيتكم أيها النبيون من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول من عندى مصدّق لما معكم ، لتؤمنُنّ به . يقول : لتصدقُنه ولتنصرُنه .

وقد قال السدىّ فى ذلك بما حدثنا به محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ، قوله (لَمَا آتَيْتُكُمْ) : يقول لليهود : أخذت ميثاق النبيين بمحمد صلى الله عليه وسلم . وهو الذى ذكر فى الكتاب عندكم . فتأويل ذلك على قول السدىّ الذى ذكرناه : واذكروا يا معشر أهل الكتاب ، إذ أخذ الله ميثاق النبيين ، لِما آتيتكم أيها اليهود من كتاب وحكمة . وهذا الذى قاله السدىّ كان تأويلا لاوجه غيره ، لو كان التنزيل بما آتيتكم ، ولكن التنزيل باللام « لَما آتيتكم » ، وغير جائز فى لغة أحد من العرب أن يقال : أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم ، بمعنى : بما آتيتكم .

القول فى تأويل قوله (قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي ؟ قَالُوا أَقْرَرْنَا) :

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : وإذ أخذ الله ميثاق النبيين بما ذكر ، فقال لهم تعالى ذكره : أأقررتم بالميثاق الذى واثقتمونى عليه : من أنكم مهما أتاكم رسول من عندى ، مصدّق لما معكم ، لتؤمننّ به ولتنصرنه ، (وأخَذْتُمْ على ذَلِكُمْ إصْرِي) يقول : وأخذتم على ما واثقتمونى عليه ، من الإيمان بالرسل التى تأتيكم بتصديق ما معكم من عندى ، والقيام بنصرتهم ، إصرى ، يعنى عهدى ووصيّتى ، وقبلتم فى ذلك منى ورضيتموه . والأخذ : هو القبول فى هذا الموضع والرضا ، من قولهم : أخذ الوالى عليه البيعة ، بمعنى : بايعه ، وقَبِل ولايته ، ورضى بها . وقد بيّنا معنى الإصر باختلاف المختلفين فيه ، والصحيح من القول فى ذلك ، فيما مضى قبل ، بما أغنى عن إعادته فى هذا الموضع . وحذفت الفاء من قوله (قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ) لأنه ابتداء كلام ، على نحو ماقد بيّنا فى نظائره فيما مضى . وأما قوله (قَالُوا أَقْرَرْنَا) : فإنه يعنى به : قال النبيون الذين أخذ الله ميثاقهم بما ذكر فى هذه الآية : أقررنا بما ألزمتنا من الإيمان برسلك الذين ترسلهم مصدّقين لما معنا من كتبك وبنصرتهم .

القول فى تأويل قوله (قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ) :

يعنى بذلك جلّ ثناؤه ، قال الله : فاشهدوا أيها النبيون بما أخذت به ميثاقكم ، من الإيمان بتصديق رسلى التى تأتيكم بتصديق ما معكم من الكتاب والحكمة ، ونصرتهم على أنفسكم ، وعلى أتباعكم من الأمم ، إذ أنتم أخذتم ميثاقهم على ذلك ، وأنا معكم من الشاهدين عليكم وعليهم بذلك .

كما حدثنا المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا عبد الله بن هاشم ، قال : أخبرنا سَيف بن عمرو ، عن أبى رَوْق ، عن أبى أيوب ، عن علىّ بن أبى طالب ، فى قوله (قَالَ فَاشْهَدُوا) يقول : فاشهدوا : على أممكم بذلك ، (وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ) عليكم وعليهم .

القول فى تأويل قوله

فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : فمن أعرض عن الإيمان برسلى الذين أرسلتهم بتصديق ما كان مع أنبيائى من الكتب والحكمة ، وعن نصرتهم ، فأدبر ولم يؤمن بذلك ، ولم ينصر ، ونكث عهده وميثاقه بعد ذلك ، يعنى : بعد العهد والميثاق الذى أخذه الله عليه ، فأولئك هم الفاسقون : يعنى بذلك أن المتولين عن الإيمان بالرسل الذين وصف أمرهم ونصرتهم ، بعد العهد والميثاق اللذين أُخذا عليهم بذلك . هم الفاسقون، يعنى بذلك : الخارجون من دين الله ، وطاعة ربهم .

كما حدثنا المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا عبد الله بن هاشم ، قال : أخبرنا سيّف بن عمرو ، عن أبى روق ، عن أبى أيوب ، عن علىّ بن أبى طالب ، فمن تولى عنك يا محمد بعد هذا العهد من جميع الأمم ، فأولئك هم الفاسقون : هم العاصون فى الكفر .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، قال أبو جعفر : يعنى الرازىّ : (فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ) يقول : بعد العهد والميثاق الذى أخذ عليهم ، فأولئك هم الفاسقون .

حُدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن الربيع ، مثله .

وهاتان الآيتان وإن كان مخرج الخبر فيهما من الله عزّ وجلّ بما أخبر أنه شهد ، وأخذ به ميثاق من أخذ ميثاقه به عن أنبيائه ورسله ، فإنه مقصود به إخبار من كان حوالَى مهاجَر رسول الله صلى الله عليه وسلم من يهود بنى إسرائيل أيام حياته صلى الله عليه وسلم ، عما لله عليهم من العهد، فى الإيمان بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، ومعنىّ تذكيرهم ما كان الله آخذا على آبائهم وأسلافهم من المواثيق والعهود ، وما كانت أنبياء الله عرفتهم ، وتقدمت إليهم فى تصديقه واتباعه ونصرته على من خالفه وكذبه ، وتعريفهم ما فى كتب الله التى أنزلها إلى أنبيائه ، التى ابتعثهم إليهم ، من صفته وعلامته .

القول فى تأويل قوله

أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣)

اختلفت القراء فى قراءة ذلك ، فقرأته عامة قراء الحجاز من مكة والمدينة ، وقراء الكوفة : أفغير دين الله تبغون ... وإليه ترجعون، على وجه الخطاب ، وقرأ ذلك بعض أهل الحجاز : أفغير دين الله يبغون ... وإليه يرجعون ، بالياء كلتيهما على وجه الخبر عن الغائب ، وقرأ ذلك بعض أهل البصرة : أفغير دين الله يبغون، على وجه الخبر عن الغائب ، وإليه ترجعون بالتاء ، على وجه المخاطبة .

وأولى ذلك بالصواب قراءة من قرأ (أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ تَبْغُونَ) على وجه الخطاب (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) بالتاء، لأن الآية التى قبلها خطاب لهم ، فإتباع الخطاب نظيره : أولى من صرف الكلام إلى غير نظيره ، وإن كان الوجه الآخر جائزا ، لما قد ذكرنا فيما مضى قبل، من أن الحكاية يخرج الكلام معها أحيانا

على الخطاب كله ، وأحيانا على وجه الخبر عن الغائب ، وأحيانا بعضه على الخطاب ، وبعضه على الغيبة ، فقوله (تَبْغُونَ ... وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) فى هذه الآية من ذلك .

وتأويل الكلام : يا معشر أهل الكتاب (أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ تَبْغُونَ) يقول : أفغير طاعة الله تلتمسون وتريدون (وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) يقول : وله خشع من فى السموات والأرض ، فخضع له بالعبودية ، وأقرّ له بإفراد الربوبية ، وانقاد له بإخلاص التوحيد والألوهية (طَوْعاً وَكَرْهاً) يقول : أسلم لله طائعا ، من كان إسلامه منهم له طائعا . وذلك كالملائكة والأنبياء والمرسلين ، فإنهم أسلموا لله طائعين ، وكرهًا من كان منهم كارها .

اختلف أهل التأويل فى معنى إسلام الكاره الإسلام ، وصفته . فقال بعضهم : إسلامه : إقراره بأن الله خالقه وربه ، وإن أشرك معه فى العبادة غيره .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا وكيع ، عن سفيان ، عن منصور ، عن مجاهد (وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) قال : هو كقوله (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ) .

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا أبو أحمد ، قال : ثنا سفيان ، عن منصور ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، عن أبى العالية فى قوله (وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) قال : كل آدمىّ قد أقرّ على نفسه ، بأن الله ربى وأنا عبده ، فمن أشرك فى عبادته ، فهذا الذى أسلم كرها ، ومن أخلص له العبودية ، فهو الذى أسلم طوعا .

وقال آخرون : بل إسلام الكاره منهم كان حين أخذ منه الميثاق ، فأقرّ به .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا وكيع ، عن سفيان ، عن الأعمش ، عن مجاهد ، عن ابن عباس (وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً) قال : حين أخذ الميثاق .

وقال آخرون : عنى بإسلام الكاره منهم : سجود ظله .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا سوّار بن عبد الله . قال : ثنا المعتمر بن سليمان ، عن ليث ، عن مجاهد ، فى قول الله عزّ وجلّ (وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً) قال : الطائع: المؤمن ، وكرها : ظل الكافر .

حدثنى محمد بن عمرو . قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح عن مجاهد ، فى قوله (طَوْعاً وَكَرْهاً) قال : سجود المؤمن طائعا ، وسجود الكافر وهو كاره .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (كَرْهاً) قال : سجود المؤمن طائعا ، وسجود ظلّ الكافر وهو كاره .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن عبد الله بن كثير ، عن مجاهد ، قال : سجود وجهه وظله طائعا [1] .

وقال آخرون : بل إسلامه بقلبه فى مشيئة الله ، واستقادته لأمره ، وإن أنكر ألوهته بلسانه .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا وكيع ، عن إسرائيل ، عن جابر بن عامر (وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) قال : استقاد كلهم له .

وقال آخرون : عنى بذلك إسلام من أسلم من الناس كرها ، حذر السيف على نفسه .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفىّ ، قال : ثنا عباد بن منصور ، عن الحسن ، فى قوله (وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً) . . . الآية كلها ، فقال : أكره أقوام على الإسلام ، وجاء أقوام طائعين .

حدثنى الحسن بن قزعة الباهلى ، قال : ثنا روح بن عطاء ، عن مطر الورّاق ، فى قول الله عزّ وجل (وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) قال : الملائكة طوعا ، والأنصار طوعا ، وبنو سليم وعبد القيس طوعا ، والناس كلهم كرها .

وقال آخرون : معنى ذلك أن أهل الإيمان ، أسلموا طوعا ، وأن الكافر أسلم فى حال المعاينة ، حين لا ينفعه إسلام كرها .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ تَبْغُونَ) . . . الآية ، فأما المؤمن فأسلم طائعا ، فنفعه ذلك ، وقُبل منه ؛ وأما الكافر فأسلم كارها ، حين لا ينفعه ذلك ، ولا يقبل منه .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، فى قوله (وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا) قال : أما المؤمن فأسلم طائعا ، وأما الكافر فأسلم حين رأى بأس الله ، فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا .

وقال آخرون : معنى ذلك : فى عبادة الخلق لله عزّ وجل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قوله

(١) لعله : طائعا وكارها . تأمل .

(أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ تَبْغُونَ . وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً) قال : عبادتهم لى أجمعين طوعا وكرها . وهو قوله (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً) .

وأما قوله (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) فإنه يعنى : وإليه يا معشر من يبتغى غير الإسلام دينا من اليهود والنصارى وسائر الناس ، ترجعون ، يقول : إليه تصيرون بعد مماتكم ، فمجازيكم بأعمالكم ، المحسن منكم بإحسانه ، والمسىء بإساءته . وهذا من الله عزّ وجلّ تحذير خلقه أن يرجع إليه أحد منهم ، فيصير إليه بعد وفاته على غير ملة الإسلام .

القول فى تأويل قوله تعالى

قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ ، وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ، وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ، وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ (٨٤)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : أفغير دين الله تبغون يا معشر اليهود ، وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها ، وإليه ترجعون . فإن ابتغوا غير دين الله يا محمد ، فقل لهم : آمنا بالله ، فترك ذكر قوله : فإن قالوا : نعم ، وذكر قوله : فإن ابتغوا غير دين الله ، لدلالة ما ظهر من الكلام عليه .

وقوله (قُلْ آمَنَّا بِاللهِ) يعنى به : قل لهم يامحمد : صدّقنا بالله أنه ربنا وإلهنا ، لاإله غيره ، ولا نعبد أحدا سواه (وَما أُنْزِلَ عَلَيْنا) يقول : وقل : وصدّقنا أيضا بما أنزل علينا من وحيه وتنزيله ، فأقررنا به ، (وَما أُنْزِلَ على إِبْراهِيمَ) يقول : وصدقنا أيضا بما أنزل على إبراهيم خليل الله ، (و)على ابنيه (إِسْماعيلَ وَإِسْحاقَ). وابن ابنه (يَعْقُوبَ)، وبما أنزل على الأسباط ، وهم ولد يعقوب الاثنا عشر . وقد بيّنا أسماءهم بما أغنى عن إعادته فى هذا الموضع (وَما أُوتِيَ موسَى وَعِيسَى) يقول : وصدقنا أيضا مع ذلك بالذى أنزل الله على موسى وعيسى من الكتب والوحى ، وبما أنزل على النبيين من عنده ، والذى آتى الله موسى وعيسى ، مما أمر الله عزّ وجلّ محمدا بتصديقهما فيه ، والإيمان به ، التوراة التى آتاها موسى ، والإنجيل الذى آتاه عيسى . (لانُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ) يقول : لانصدّق بعضهم ونكذّب بعضهم ، ولا نؤمن ببعضهم ونكفر ببعضهم ، كما كفرت اليهود والنصارى ببعض أنبياء الله ، وصدّقت بعضا ، ولكنا نؤمن بجميعهم ونصدّقهم . (وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) يعنى : ونحن ندين لله بالإسلام ، لاندين غيره ، بل نتبرأ إليه من كل دين سواه ، ومن كل ملة غيره . ويعنى بقوله (وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) : ونحن له منقادون بالطاعة ، متذللون بالعبودية ، مقرّون له بالألوهة والربوبية ، وأنه لاإله غيره .

وقد ذكرنا الرواية بمعنى ما قلنا فى ذلك فيما مضى ، وكرهنا إعادته .

القول فى تأويل قوله

وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ، وَهُوَ فِى الْآخِرَةِ مِنَ الْخَٰسِرِينَ (٨٥)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : ومن يطلب دينا غير دين الإسلام ليدين به ، فلن يقبل الله منه . وهو فى الآخرة من الخاسرين ، يقول : من الباخسين أنفسهم حظوظها من رحمة الله عزّ وجلّ . وذكر أن أهل كل ملة ادّعوا أنهم هم المسلمون لما نزلت هذه الآية ، فأمرهم الله بالحجّ إن كانوا صادقين ، لأن من سنة الإسلام الحجّ ، فامتنعوا ، فأدحض الله بذلك حجتهم .

ذكر الخبر بذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، قال : زعم عكرمة (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسْلامِ دِينًا) فقالت الملل : نحن المسلمون ، فأنزل الله عزّ وجلّ : (وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِىٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) ، فحجّ المسلمون ، وقعد الكفار .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا القعنبى ، قال : ثنا سفيان ، عن ابن أبى نجيح ، عن عكرمة ، قال (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسْلامِ دِينا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ) قالت اليهود : فنحن المسلمون ، فأنزل الله عزّ وجلّ لنبيه صلى الله عليه وسلم يحجهم : إن لله على الناس حِجّ البيت من استطاع إليه سبيلا ، ومن كفر فإنّ الله غنىّ عن العالمين .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا سفيان ، عن ابن أبى نجيح ، عن عكرمة ، قال : لما نزلت (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسْلامِ دِينًا) . . . إلى آخر الآية ، قالت اليهود : فنحن مسلمون ، قال الله عزّ وجلّ لنبيه صلى الله عليه وسلم : قل لهم : إن لله على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلا ، ومن كفر من أهل الملل ، فإن الله غنىّ عن العالمين .

وقال آخرون فى هذه الآية بما حدثنا به المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قوله (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى والصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ) إلى قوله (وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) فأنزل الله عزّ وجلّ بعد هذا (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ) .

القول فى تأويل قوله عزّ وجل

كَيْفَ يَهْدِى اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ الْبَيِّنَٰتُ ، وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ (٨٦) أُولَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلَٰٓئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٨) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٨٩)

اختلف أهل التأويل فيمن عُنى بهذه الآية ، وفيمن نزلت ، فقال بعضهم : نزلت فى الحارث بن سُويد الأنصارىّ ، وكان مسلما ، فارتدّ بعد إسلامه .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عبد الله بن بزيع البصرى ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا داود بن أبى هند ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : كان رجل من الأنصار أسلم ، ثم ارتدّ ولحق بالشرك ، ثم ندم ، فأرسل إلى قومه : أرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل لى من توبة ؟ قال : فنزلت (كَيْفَ يَهْدِى اللهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إيمانِهِمْ) إلى قوله (وَجاءَهُمُ البَيِّناتُ ، وَاللهُ لا يَهْدِى القَوْمَ الظَّالِمِينَ ، إلاَّ الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وأَصْلَحُوا ، فإنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) فأرسل إليه قومه ، فأسلم .

حدثنى ابن المثنى ، قال : ثنى عبد الأعلى ، قال : ثنا داود ، عن عكرمة بنحوه ، ولم يرفعه إلى ابن عباس ، إلا أنه قال : فكتب إليه قومه ، فقال : ما كذبنى قومى ، فرجع .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا حكيم بن جميع ، عن علىّ بن مُسْهِر ، عن داود بن أبى هند ، عن عكرمة عن ابن عباس ، قال : ارتدّ رجل من الأنصار ، فذكر نحوه .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا جعفر بن سليمان ، قال : أخبرنا حميد الأعرج ، عن مجاهد ، قال : جاء الحارث بن سويد ، فأسلم مع النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ثم كفر الحارث، فرجع إلى قومه ، فأنزل الله عزّ وجلّ فيه القرآن (كَيْفَ يَهْدِى اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إيمانِهِمْ) إلى (إلاَّ الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وأَصْلَحُوا ، فإنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) قال : فحملها إليه رجل من قومه ، فقرأها عليه ، فقال الحارث : إنك والله ما علمتُ لصدوق ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصدق منك ، وإن الله عزّ وجلّ لأصدق الثلاثة ، قال : فرجع الحارث فأسلم ، فحسن إسلامه.

حدثنى موسى بن هارون ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (كَيْفَ يَهْدِى اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إيمانِهِمْ ، وَشَهِدُوا أنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ) قال : أنزلت فى الحارث بن سُويد الأنصارىّ ، كفر بعد إيمانه ، فأنزل الله عزّ وجلّ فيه هذه الآيات ، إلى (أُولَئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ) . ثم تاب وأسلم ، فنسخها الله عنه ، فقال : (إلاَّ الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وأَصْلَحُوا ، فإنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله عزّ وجلّ (كَيْفَ يَهْدِى اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إيمانِهِمْ ، وَشَهِدُوا أنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجاءَهُمُ البَيِّناتُ) قال : رجل من بنى عمرو بن عوف كفر بعد إيمانه .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، قال : هو رجل من بنى عمرو بن عوف كفر بعد إيمانه .

قال ابن جريج : أخبرنى عبد الله بن كثير ، عن مجاهد ، قال : لحق بأرض الروم فتنصر ، ثم كتب إلى قومه : أرسلوا : هل لى من توبة ؟ قال : فحسبت أنه آمن ثم رجع .

قال ابن جريج : قال عكرمة : نزلت فى أبى عامر الراهب ، والحارث بن سويد بن الصامت ، وَوَحْوَح بن الأسلت ، فى اثنى عشر رجلا رجعوا عن الإسلام ، ولحقوا بقريش ، ثم كتبوا إلى أهلهم : هل لنا من توبة ؟ فنزلت (إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ) . . . الآيات .

وقال آخرون : عنى بهذه الآية أهل الكتاب ، وفيهم نزلت .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (كَيْفَ يَهْدِى اللهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ) فهم أهل الكتاب ، عرفوا محمدا صلى الله عليه وسلم ، ثم كفروا به .

حدثنا محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفىّ ، قال : ثنا عباد بن منصور ، عن الحسن فى قوله (كَيْفَ يَهْدِى اللهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ) . . . الآية كلها ، قال اليهود والنصارى .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قال : كان الحسن يقول فى قوله (كَيْفَ يَهْدِى اللهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ) . . . الآية : هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، رأوا نعت محمد صلى الله عليه وسلم فى كتابهم ، وأقرّوا به ، وشهدوا أنه حقّ ، فلما بُعث من غيرهم حسدوا العرب على ذلك ، فأنكروه وكفروا بعد إقرارهم ، حسدا للعرب ، حين بعث من غيرهم .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن الحسن فى قوله (كَيْفَ يَهْدِى اللهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ) قال : هم أهل الكتاب ، كانوا يجدون محمدا صلى الله عليه وسلم فى كتابهم ، ويستفتحون به ، فكفروا بعد إيمانهم .

قال أبو جعفر : وأشبه القولين بظاهر التنزيل : ماقال الحسن ، من أن هذه الآية معنىّ بها أهل الكتاب ، على ما قال ، غير أن الأخبار بالقول الآخر أكثر ، والقائلين به أعلم بتأويل القرآن ، وجائز أن يكون الله عزّ وجلّ أنزل هذه الآيات بسبب القوم الذين ذُكر أنهم كانوا ارتدّوا عن الإسلام ، فجمع قصتهم وقصة من كان سبيله سبيلهم فى ارتداده عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم فى هذه الآيات ، ثم عرّف عباده سنته فيهم ، فيكون داخلا فى ذلك كل من كان مؤمنا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، قبل أن يبعث ، ثم كفر به بعد أن بعث ، وكل من كان كافرا ثم أسلم على عهده صلى الله عليه وسلم ، ثم ارتدّ وهو حىّ عن إسلامه ، فيكون معنيا بالآية جميع هذين الصنفين وغيرهما ، ممن كان بمثل معناهما ، بل ذلك كذلك إن شاء الله .

فتأويل الآية إذن (كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ) يعنى : كيف يرشد الله للصواب ، ويوفق للإيمان ، قوما جحدوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . بعد إيمانهم : أى بعد تصديقهم إياه ، وإقرارهم بما جاءهم به من عند ربهم . وشهدوا أن الرسول حق . يقول : وبعد أن أقروا أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خلقه حقا . (وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ) يعنى : وجاءهم الحجج من عند الله ، والدلائل بصحة ذلك (وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) يقول : والله لا يوفق للحق والصواب الجماعة الظلمة ، وهم الذين بدلوا الحق إلى الباطل . فاختاروا الكفر على الإيمان . وقد دللنا فيما مضى قبل على معنى الظلم ، وأنه وضع الشيء فى غير موضعه ، بما أغنى عن إعادته . (أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ) : يعنى : هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم ، وبعد أن شهدوا أن الرسول حق . جزاؤهم : ثوابهم من عملهم الذى عملوه . (أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ) يعنى أن حل بهم من الله الإقصاء والبعد . ومن الملائكة والناس ، إلا مما يسوءهم من العقاب أجمعين ، يعنى من جميعهم ، لا بعض من سماه جل ثناؤه من الملائكة والناس ، ولكن من جميعهم . وإنما جعل ذلك جل ثناؤه ثواب عملهم . لأن عملهم كان بالله كفرا . وقد بينا صفة لعنة الناس الكافر فى غير هذا الموضع ، بما أغنى عن إعادته . (خَالِدِينَ فِيهَا) يعنى : ماكثين فيها ، يعنى : فى عقوبة الله . (لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ) : لا ينقصون من العذاب شيئا فى حال من الأحوال ، ولا ينفسون فيه . (وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ) يعنى : ولا هم ينظرون : لمعذرة يعتذرون . وذلك كله : أعنى الخلود فى العقوبة فى الآخرة . ثم استثنى جل ثناؤه الذين تابوا من هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم ، فقال تعالى ذكره : (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا) يعنى : إلا الذين تابوا من بعد ارتدادهم عن إيمانهم ، فراجعوا الإيمان بالله وبرسوله ، وصدقوا بما جاءهم به نبيهم صلى الله عليه وسلم من عند ربهم . وأصلحوا : يعنى : وعملوا الصالحات من الأعمال . (فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) يعنى : فإن الله لمن فعل ذلك بعد كفره . غفور : يعنى : ساتر عليه ذنبه الذى كان منه من الردة . فتارك عقوبته عليه ، وفضيحته به يوم القيامة ، غير مؤاخذه به إذا مات على التوبة منه . رحيم : متعطف عليه بالرحمة .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا ، لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠)

اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك . فقال بعضهم : عنى الله عز وجل بقوله (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا) أى ببعض أنبيائه الذين بعثوا قبل محمد صلى الله عليه وسلم بعد إيمانهم (ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا) بكفرهم بمحمد ، (لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ) عند حضور الموت ، وحشرجته بنفسه .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفى ، قال : ثنا عباد بن منصور ، عن الحسن فى قوله

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ، ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا ، لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ) قال : اليهود والنصارى لن تقبل توبتهم عند الموت .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ، ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا) : أولئك أعداء الله اليهود ، كفروا بالإنجيل وبعيسى ، ثم ازدادوا كفرا ، بمحمد صلى الله عليه وسلم والفرقان .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا) قال : ازدادوا كفرا حتى حضرهم الموت ، فلم تقبل توبتهم حين حضرهم الموت ، قال معمر : وقال مثل ذلك عطاء الخراسانىّ .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن قتادة ، قوله (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ) وقال : هم اليهود ، كفروا بالإنجيل ، ثم ، ازدادوا كفرا حين بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم ، فأنكروه ، وكذّبوا به .

وقال آخرون : معنى ذلك : إن الذين كفروا من أهل الكتاب بمحمد بعد إيمانهم بأنبيائهم ، ثم ازدادوا كُفْرًا) يعنى : ذنوبا (لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ) من ذنوبهم وهم على الكفر مقيمون .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا المثنى ، قال : ثنا عبد الوهاب ، قال : ثنا داود ، عن رفيع (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ، ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا) ازدادوا ذنوبا وهم كفار (فَلَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ) من تلك الذنوب ما كانوا على كفرهم وضلالتهم .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا ابن أبى عدىّ ، عن داود ، قال : سألت أبا العالية ، قال : قلت (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا ، لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ) قال : إنما هم هؤلاء النصارى واليهود الذين كفروا ثم ازدادوا كفرا بذنوب أصابوها ، فهم يتوبون منها فى كفرهم .

حدثنا عبد الحميد بن بيان اليشكرىّ ، قال : أخبرنا ابن أبى عدىّ ، عن داود ، قال : سألت أبا العالية عن الذين آمنوا ثم كفروا ، فذكر نحوًا منه .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا عبد الأعلى ، قال : ثنا داود ، قال : سألت أبا العالية عن هذه الآية (إن الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا ، لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ) قال : هم اليهود والنصارى والمجوس ، أصابوا ذنوبا فى كفرهم ، فأرادوا أن يتوبوا منها ، ولن يتوبوا من الكفر ، ألا ترى أنه يقول : (وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ) .

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا أبوعاصم ، قال : ثنا سفيان ، عن داود ، عن أبى العالية ، فى قوله (لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ) قال : تابوا من بعض ، ولم يتوبوا من الأصل .

حُدِّثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن داود بن أبي هند ، عن أبي العالية ، قوله (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ، ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا) قال : هم اليهود والنصارى ، يصيبون الذنوب فيقولون : نتوب وهم مشركون ، قال الله عزّ وجلّ : لن تقبل التوبة فى الضلالة .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : إن الذين كفروا بعد إيمانهم بأنبيائهم ، ثم ازدادوا كفرا ، يعنى : بزيادتهم الكفر بما هم عليه حتى هلكوا ، وهم عليه مقيمون ، لن تقبل توبتهم : لن تنفعهم توبتهم الأولى ، وإيمانهم لكفرهم الآخر وموتهم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن عكرمة ، قوله (ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا) قال : نموا على كفرهم ، قال ابن جريج : (لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ) يقول : إيمانهم أوّل مرّة لن ينفعهم .

وقال آخرون : معنى قوله (ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا) ماتوا كفارا ، فكان ذلك هو زيادتهم من كفرهم ، وقالوا : معنى (لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ) : لن تقبل توبتهم عند موتهم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد ، قال : ثنا أحمد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ، ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ) أما ازدادوا كفرا : فماتوا وهم كفار ، وأما لن تقبل توبتهم : فعند موته إذا تاب لم تقبل توبته .

قال أبو جعفر : وأولى هذه الأقوال بالصواب فى تأويل هذه الآية ، قول من قال : عُنى بها اليهود ، وأن يكون تأويله : إن الذين كفروا من اليهود بمحمد صلى الله عليه وسلم عند مبعثه ، بعد إيمانهم به قبل مبعثه ، ثم ازدادوا كفرا بما أصابوا من الذنوب فى كفرهم ، ومُقامهم على ضلالتهم ، لن تقبل توبتهم من ذنوبهم التى أصابوها فى كفرهم ، حتى يتوبوا من كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ويراجعوا التوبة منه ، بتصديق ماجاء به من عند الله .

وإنما قلنا ذلك أولى الأقوال فى هذه الآية بالصواب ، لأن الآيات قبلها وبعدها فيهم نزلت ، فأولى أن تكون هى فى معنى ما قبلها وبعدها إذ كانت فى سياق واحد . وإنما قلنا : معنى ازديادهم الكفر ما أصابوا فى كفرهم من المعاصى ، لأنه جلّ ثناؤه قال : (لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ) فكان معلوما أن معنى قوله (لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ) إنما هو معنىٌّ به : لن تقبل توبتهم مما ازدادوا من الكفر على كفرهم بعد إيمانهم ، لامن كفرهم ، لأن الله تعالى ذكره وعد أن يقبل التوبة من عباده ، فقال : (وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ) فمحال أن يقول عزّ وجلّ : أقبل ولا أقبل فى شىء واحد ، وإذ كان ذلك كذلك ، وكان من حكم الله فى عباده أنه قابل توبة كل تائب من كل ذنب ، وكان الكفر بعد الإيمان أحد تلك الذنوب التى وعد قبول التوبة منها بقوله (إِلا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا ، فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) ، عُلم أن المعنى

الذى لاتقبل التوبة منه ، غير المعنى الذى تقبل التوبة منه ، وإذ كان ذلك كذلك ، فالذى لاتقبل منه التوبة هو الازدياد على الكفر بعد الكفر ، لايقبل الله توبة صاحبه ما أقام على كفره ، لأن الله لايقبل من مشرك عملا ما أقام على شركه وضلاله ، فأما إن تاب من شركه وكفره وأصلح ، فإن الله كما وصف به نفسه ، غفور رحيم .

فإن قال قائل : وما ينكر أن يكون معنى ذلك ، كما قال من قال : فلن تقبل توبتهم من كفرهم عند حضور أجله ، أو توبته الأولى ؟ قيل : أنكرنا ذلك ، لأن التوبة من العبد غير كائنة إلا فى حال حياته ، فأما بعد مماته فلا توبة ، وقد وعد الله عزّ وجلّ عباده قبول التوبة منهم ما دامت أرواحهم فى أجسادهم ، ولا خلاف بين جميع الحجة فى أن كافرا لو أسلم قبل خروج نفسه بطرفة عين ، أن حكمه حكم المسلمين فى الصلاة عليه والموارثة ، وسائر الأحكام غيرهما ، فكان معلوما بذلك أن توبته فى تلك الحال لو كانت غير مقبولة ، لم ينتقل حكمه من حكم الكفار إلى حكم أهل الإسلام ، ولا منزلة بين الموت والحياة ، يجوز أن يقال : لا يقبل الله فيها توبة الكافر ، فإذا صحّ أنها فى حال حياته مقبولة ، ولا سبيل بعد الممات إليها ، بطل قول الذى زعم أنها غير مقبولة عند حضور الأجل .

وأما قول من زعم أن معنى ذلك التوبة التى كانت قبل الكفر ، فقول لامعنى له ، لأن الله عزّ وجلّ لم يصف القوم بإيمان كان منهم بعد كفر ، ثم كفر بعد إيمان ، بل إنما وصفهم بكفر بعد إيمان ، فلم يتقدم ذلك الإيمان كفر ، كان للإيمان لهم توبة منه ، فيكون تأويل ذلك على ماتأوّله قائل ذلك ، وتأويل القرآن على ما كان موجودا فى ظاهر التلاوة ، إذا لم تكن حجة تدلّ على باطن خاصّ ، أولى من غيره ، وإن أمكن توجيهه إلى غيره .

وأما قوله (وأُولَـٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ) فإنه يعنى بذلك : وهؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم ، ثم ازدادوا كفرا ، هم الذين ضلوا سبيل الحقّ ، فأخطئوا منهجه ، وتركوا مَنْصَفَ[1] السبيل ، وهدى الله الذى أخبرهم عنه ، فعموا عنه ، وقد بينّا فيما مضى معنى الضلال بما فيه الكفاية .

القول فى تأويل قوله

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ ، أُولَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٩١) ﴾

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : إن الذين كفروا : أى جحدوا نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يصدّقوا به ، وبما جاء به من عند الله من أهل كل ملة يهودها ونصاراها ومجوسها وغيرهم . وماتوا وهم كفار : يعنى : وماتوا على ذلك من جحود نبوّته ، وجحود ماجاء به (فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ) يقول : فلن يقبل ممن كان بهذه الصفة فى الآخرة جزاء ولا رشوة على ترك عقوبته

(١) المنصف من الطريق ومن النهار ومن كل شىء : وسطه . وفى الأصل : نصف .

على كفره ، ولا جعل على العفو عنه ، ولو كان له من الذهب قدر ما يملأ الأرض من مشرقها إلى مغربها، فرشا وجزى على ترك عقوبته ، وفى العفو عنه على كفره ، عوضا مما الله محل به من عذابه ، لأن الرشا إنما يقبلها من كان ذا حاجة إلى ما رُشِي ، فأما من له الدنيا والآخرة ، فكيف يقبل الفدية ؟ وهو خلاق كل فدية افتدى بها مفتدٍ عن نفسه أو غيره . وقد بينا أن معنى الفدية : العوض والجزاء من المفتدى منه ، بما أغنى عن إعادته فى هذا الموضع . ثم أخبر عز وجل عما لهم عنده ، فقال : أولئك ، يعنى : هؤلاء الذين كفروا وماتوا وهم كفار ، لهم عذاب أليم ، يقول : لهم عند الله فى الآخرة عذاب موجع ، وما لهم من ناصرين ، يعنى : وما لهم من قريب ولا حميم ولا صديق ينصره ، فيستنقذه من الله ومن عذابه ، كما كانوا ينصرونه فى الدنيا ، على من حاول أذاه ومكروهه .

وقد حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قال : ثنا أنس بن مالك ، أن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « يُجاءُ بالكافِرِ يَوْمَ القيامَةِ فَيُقالُ لَهُ : أرأيْتَ لَوْ كانَ لَكَ مِلْءُ الأرْضِ ذَهَباً ، أكُنْتَ مُفْتَدِياً بِهِ ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ ، قال : فَيُقالُ لَقَدْ سُئِلْتَ ما هُوَ أيْسَرُ مِنْ ذَلِكَ) ، فذلك قوله (إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أحَدِهِمْ مِلْءُ الأرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ » .

حدثنى محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفىّ ، قال : ثنا عباد ، عن الحسن ، قوله (إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أحَدِهِمْ مِلْءُ الأرْضِ ذَهَباً) قال : هو كل كافر ، ونصب قوله ذهبا على الخروج من المقدار الذى قبله ، والتفسير منه ، وهو قوله : مِلءُ الأرض ، كقول القائل : عندى قدرزِقٍّ سمنا وقدر رطل عسلا ، فالعسل مبين به ما ذكر من المقدار ، وهو نكرة منصوبة على التفسير للمقدار ، والخروج منه .

وأما نحويو البصرة ، فإنهم زعموا أنه نصب الذهب لاشتغال الملء بالأرض ، ومجىء الذهب بعدهما ، فصار نصبها نظير نصب الحال ، وذلك أن الحال يجىء بعد فعل قد شغل بفاعله فينصب ، كما ينصب المفعول الذى يأتى بعد الفعل الذى قد شغل بفاعله ، قالوا : ونظير قوله (مِلْءُ الأرْضِ ذَهَباً) فى نصب الذهب فى الكلام : لى مِثلك رجلا ، بمعنى : لى مثلك من الرجال ، وزعموا أن نصب الرجل لاشتغال الإضافة بالاسم ، فنصب كما ينصب المفعول به لاشتغال الفعل بالفاعل ، وأدخلت الواو فى قوله (وَلَوِ افْتَدَى بِهِ) لمحذوف من الكلام بعده ، دلّ عليه دخول الواو ، كالواو فى قوله (وَلِيَكُونَ مِنَ المُوقِنِينَ) .

وتأويل الكلام : وليكون من الموقنين ، أريناه ملكوت السموات والأرض ، فكذلك ذلك فى قوله (وَلَوِ افْتَدَى بِهِ) . ولو لم يكن فى الكلام واو ، لكان الكلام صحيحا ، ولم يكن هنالك متروك ، وكان : فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا لو افتدى به .

القول فى تأويل قوله

لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ، وَما تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه: لن تدركوا أيها المؤمنون البرّ. وهو البرّ من الله الذى يطلبونه منه بطاعتهم إياه، وعبادتهم له، ويرجونه منه، وذلك تفضله عليهم بإدخالهم جنته، وصرف عذابه عنهم، ولذلك قال كثير من أهل التأويل: البرّ: الجنة، لأن برّ الربّ بعبده فى الآخرة وإكرامه إياه، بإدخاله الجنة.

ذكر من قال ذلك:

حدثنا أبو كريب، قال: ثنا وكيع، عن شريك، عن أبى إسحاق، عن عمرو بن ميمون، فى قوله (لَنْ تَنالُوا البِرَّ) قال: الجنة.

حدثنى المثنى، قال: ثنا الحِمّانىّ، قال: ثنا شريك، عن أبى إسحاق، عن عمرو بن ميمون، فى قوله (لَنْ تَنالُوا البِرَّ) قال: البرّ: الجنة.

حدثنا محمد بن الحسين، قال: ثنا أحمد بن المفضل، قال: ثنا أسباط، عن السدىّ (لَنْ تَنالُوا البِرَّ) أما البرّ: فالجنة.. فتأويل الكلام: لن تنالوا أيها المؤمنون جنة ربكم، حتى تنفقوا مما تحبون، يقول: حتى تتصدّقوا مما تحبون وتهوون أن يكون لكم من نفيس أموالكم.

كما حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله (لَنْ تَنالُوا البِرَّ حَتّى تُنْفِقُوا مِمّا تُحِبُّونَ) يقول: لن تنالوا برّ ربكم حتى تنفقوا مما يعجبكم، ومما تهوون من أموالكم.

حدثنى محمد بن سنان، قال: ثنا أبو بكر، عن عباد، عن الحسن، قوله (لَنْ تَنالُوا البِرَّ حَتّى تُنْفِقُوا مِمّا تُحِبُّونَ) قال: من المال.

وأما قوله (وَما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ): فإنه يعنى به: ومهما تنفقوا من شىء، فتتصدّقوا به من أموالكم، فإن الله تعالى ذكره بما يتصدّق به المتصدّق منكم، فينفقه مما يحبّ من ماله فى سبيل الله، وغير ذلك. علیم، يقول: هو ذو علم بذلك كله، لايعزب عنه شىء منه، حتى يجازى صاحبه عليه جزاءه فى الآخرة.

كما حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة (وَما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ) يقول: محفوظ لكم ذلك، الله به عليم، شاكر له.

وبنحو التأويل الذى قلنا، تأوّل هذه الآية جماعة من الصحابة والتابعين.

ذكر من قال ذلك:

حدثنا محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، قال: ثنا عيسى، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد فى قول الله عزّ وجلّ (لَنْ تَنالُوا البِرَّ حَتّى تُنْفِقُوا مِمّا تُحِبُّونَ) قال: كتب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرىّ أن يبتاع له جارية من جَلُولاء، يوم فتحت مدائن كسرى، فى قتال سعد بن أبى وقّاص، فدعا بها عمر بن الخطاب، فقال: إن الله يقول: (لَنْ تَنالُوا البِرَّ حَتّى تُنْفِقُوا مِمّا تُحِبُّونَ) فأعتقها عمر، وهى مثل قول الله عزّ وجلّ (وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً. وَيُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ).

حدثني المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، مثله سواء .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا ابن أبي عدىّ ، عن حميد ، عن أنس بن مالك ، قال : لما نزلت هذه الآية (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) ، أو هذه الآية (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً) قال أبو طلحة : يا رسول الله ، حائطى الذى بكذا وكذا صدقة ، ولو استطعت أن أجعله سرّا لم أجعله علانية . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اجْعَلْهَا فِي فُقَرَاءِ أَهْلِكَ .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا الحجاج بن المنهال ، قال : ثنا حماد ، عن ثابت ، عن أنس بن مالك ، قال : لما نزلت هذه الآية (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) قال أبو طلحة : يا رسول الله ، إن الله يسألنا من أموالنا ، اشهد أنى قد جعلت أرضى بأريحا لله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اجْعَلْهَا فِي قَرَابَتِكَ . فجعلها بين حسان بن ثابت وأبىّ بن كعب .

حدثنا عمران بن موسى ، قال : ثنا عبد الوارث ، قال : ثنا ليث ، عن ميمون بن مهران ، أن رجلا سأل أبا ذرّ : أىّ الأعمال أفضل ؟ قال : الصلاة عماد الإسلام ، والجهاد : سنام العمل ، والصدقة شىء عجيب . فقال : يا أبا ذرّ ، لقد تركت شيئا هو أوثق عملى فى نفسى لا أراك ذكرته ، قال : ما هو ؟ قال : الصيام ، فقال : قُربة وليس هناك ، وتلا هذه الآية (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنى داود بن عبد الرحمن المكىّ ، عن عبد الله ابن عبد الرحمن بن أبي حسين ، عن عمرو بن دينار ، قال : لما نزلت هذه الآية (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) جاء زيد بفرس له ، يقال لها «سبل»[١] إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : تصدّق بهذه يا رسول الله ، فأعطاها رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنه أسامة بن زيد بن حارثة ، فقال : يا رسول الله ، إنما أردت أن أتصدّق به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قَدْ قُبِلَتْ صَدَقَتُكَ .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن أيوب وغيره ، أنها حين نزلت (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) جاء زيد بن حارثة بفرس له كان يحبها ، فقال : يا رسول الله هذه فى سبيل الله ، فحمل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها أسامة بن زيد ، فكأن زيدا وَجَد فى نفسه ، فلما رأى ذلك منه النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : أمَا إنّ اللَّهَ قَدْ قَبِلَهَا .

(١) فى التاج : سبل بالباء بوزن سبب : اسم فرس . وفى الأصول : سيل ، بالياء .

تمّ الجزء الثالث من تفسير ابن جرير الطبرىّ ،

ويليه الجزء الرابع

وأوله : القول فى تأويل قوله تعالى (كلّ الطعام)

جامع البيان

عن

تأويل آي القرآن

« كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد » .
قرآن كريم

« ما أعلم على أديم الأرض أعلم من ابن جرير » .
محمد بن إسحاق بن خزيمة

تأليف

أبي جعفر محمد بن جرير الطبري
المتوفى سنة ٣١٠ هـ

الجزء الرابع

الطبعة الثانية
١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

فهارس الجزء الرابع من جامع البيان عن تأويل آى القرآن للطبرى

١ – فهرس الآيات

الآية	الآية المفسرة	الصفحة
٩٣	كلّ الطعام كان حلا لبنى إسرائيل . . .	١
٩٤	فمن افترى على الله الكذب . . .	٦
٩٥	قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم . . .	٦
٩٦	إن أوّل بيت وضع للناس . . .	٧
٩٧	فيه آيات بينات مقام إبراهيم . . .	١٠
٩٨	قل يا أهل الكتاب لم تكفرون . . .	٢١
٩٩	قل يا أهل الكتاب لم تصدّون . . .	٢٢
١٠٠	يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا . . .	٢٤
١٠١	وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم . . .	٢٦
١٠٢	يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حقّ تقاته ...	٢٧
١٠٣	واعتصموا بحبل الله جميعا . . .	٣٠
١٠٤	ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير . . .	٣٨
١٠٥	ولا تكونوا كالذين تفرّقوا . . .	٣٩
١٠٦	يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه . . .	٣٩
١٠٧	وأما الذين ابيضت وجوههم . . .	٣٩
١٠٨	تلك آيات الله نتلوها عليك بالحقّ . . .	٤١
١٠٩	ولله ما فى السموات وما فى الأرض . . .	٤٢
١١٠	كنتم خير أمة أخرجت للناس . . .	٤٣
١١١	لن يضرّوكم إلا أذى . . .	٤٦
١١٢	ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا . . .	٤٧
١١٣	ليسوا سواء . . .	٥١
١١٤	يؤمنون بالله واليوم الآخر . . .	٥٦
١١٥	وما يفعلوا من خير فلن يكفروه . . .	٥٦
١١٦	إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ...	٥٧
١١٧	مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا . . .	٥٨
١١٨	يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة . . .	٦٠
١١٩	ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم . . .	٦٤
١٢٠	إن تمسسكم حسنة تسؤهم . . .	٦٧
١٢١	وإذ غدوت من أهلك تبوّئ المؤمنين . .	٦٩
١٢٢	إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا . . .	٧٢
١٢٣	ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة . . .	٧٤
١٢٤	إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم . . .	٧٦
١٢٥	بلى إن تصبروا وتتقوا . . .	٧٦
١٢٦	وما جعله الله إلا بشرى لكم . . .	٨٤
١٢٧	ليقطع طرفا من الذين كفروا . . .	٨٥
١٢٨	ليس لك من الأمر شىء . . .	٨٦
١٢٩	ولله ما فى السموات وما فى الأرض . . .	٨٩
١٣٠	يا أيها الذين آمنوا لاتأكلوا الربا . . .	٨٩
١٣١	واتقوا النار التى أعدت للكافرين . . .	٩٠
١٣٢	وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون . .	٩١
١٣٣	وسارعوا إلى مغفرة من ربكم . . .	٩١
١٣٤	الذين ينفقون فى السرّاء والضرّاء . . .	٩٣
١٣٥	والذين إذا فعلوا فاحشة . . .	٩٤
١٣٦	أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم . . .	٩٨
١٣٧	قد خلت من قبلكم سنن . . .	٩٩
١٣٨	هذا بيان للناس . . .	١٠٠
١٣٩	ولا تهنوا ولا تحزنوا . . .	١٠٢
١٤٠	إن يمسسكم قرح فقد مس القوم . . .	١٠٣

الآية	الآية المفسرة	الصفحة
١٤١	وليمحص الله الذين آمنوا . . .	١٠٧
١٤٢	أم حسبتم أن تدخلوا . . .	١٠٨
١٤٣	ولقد كنتم تمنون الموت من قبل . . .	١٠٨
١٤٤	وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله ..	١١٠
١٤٥	وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله.	١١٤
١٤٦	وكأين من نبي قاتل معه . . .	١١٦
١٤٧	وما كان قولهم إلا أن قالوا . . .	١٢٠
١٤٨	فآتاهم الله ثواب الدنيا . . .	١٢٢
١٤٩	يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا . . .	١٢٢
١٥٠	بل الله مولاكم وهو خير الناصرين ...	١٢٣
١٥١	سنلقي في قلوب الذين كفروا . . .	١٢٣
١٥٢	ولقد صدقكم الله وعده . . .	١٢٤
١٥٣	إذ تصعدون ولا تلوون على أحد . . .	١٣٢
١٥٤	ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة . . .	١٣٩
١٥٥	إن الذين تولوا منكم . . .	١٤٤
١٥٦	يا أيها الذين آمنوا لاتكونوا . . .	١٤٦
١٥٧	ولئن قتلتم في سبيل الله أومتم . . .	١٤٩
١٥٨	ولئن متم أوقتلتم لإلى الله تحشرون . . .	١٥٠
١٥٩	فبما رحمة من الله لنت لهم . . .	١٥٠
١٦٠	إن ينصركم الله فلا غالب لكم . . .	١٥٣
١٦١	وما كان لنبي أن يغل . . .	١٥٤
١٦٢	أفمن اتبع رضوان الله . . .	١٦١
١٦٣	هم درجات عند الله . . .	١٦٢
١٦٤	لقد من الله على المؤمنين . . .	١٦٣
١٦٥	أو لما أصابتكم مصيبة . . .	١٦٤
١٦٦	وما أصابكم يوم التقى الجمعان . . .	١٦٧
١٦٧	وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا . . .	١٦٧
١٦٨	الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا . . .	١٦٩
١٦٩	ولا تحسبن الذين قتلوا . . .	١٧٠
١٧٠	فرحين بما آتاهم الله من فضله . . .	١٧٠
١٧١	يستبشرون بنعمة من الله وفضل . . .	١٧٥
١٧٢	الذين استجابوا لله والرسول . . .	١٧٦
١٧٣	الذين قال لهم الناس إن الناس . . .	١٧٨
١٧٤	فانقلبوا بنعمة من الله وفضل . . .	١٨٢
١٧٥	إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه . . .	١٨٣
١٧٦	ولا يحزنك الذين يسارعون . . .	١٨٤
١٧٧	إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان . . .	١٨٥
١٧٨	ولا يحسبن الذين كفروا . . .	١٨٥
١٧٩	ماكان الله ليذر المؤمنين . . .	١٨٧
١٨٠	ولا يحسبن الذين يبخلون . . .	١٨٩
١٨١	لقد سمع الله قول الذين قالوا . . .	١٩٤
١٨٢	ذلك بما قدمت أيديكم . . .	١٩٤
١٨٣	الذين قالوا إن الله عهد إلينا . . .	١٩٧
١٨٤	فإن كذبوك فقد كذب رسل . . .	١٩٨
١٨٥	كل نفس ذائقة الموت . . .	١٩٩
١٨٦	لتبلون في أموالكم وأنفسكم . . .	٢٠٠
١٨٧	وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا . . .	٢٠٢
١٨٨	لاتحسبن الذين يفرحون بما أتوا . . .	٢٠٥
١٨٩	ولله ملك السموات والأرض . . .	٢٠٩
١٩٠	إن في خلق السموات والأرض . . .	٢٠٩
١٩١	الذين يذكرون الله قياما وقعودا . . .	٢٠٩
١٩٢	ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته...	٢١١
١٩٣	ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي . . .	٢١٢
١٩٤	ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك . . .	٢١٣
١٩٥	فاستجاب لهم ربهم أني لاأضيع . . .	٢١٤
١٩٦	لايغرنك تقلب الذين كفروا . . .	٢١٧

الآية	الآية المفسرة	الصفحة
١٩٧	متاع قليل ثم مأواهم جهنم . . .	٢١٧
١٩٨	لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات . . .	٢١٧
١٩٩	وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله . . .	٢١٨
٢٠٠	يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ...	٢٢٠

القول فى تفسير السورة التى يذكر فيها النساء

الآية	الآية المفسرة	الصفحة
١	يا أيها الناس اتقوا ربكم . . .	٢٢٣
٢	وآتوا اليتامى أموالهم . . .	٢٢٨
٣	وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى . . .	٢٣١
٤	وآتوا النساء صدقاتهن نحلة . . .	٢٤١
٥	ولا تؤتوا السفهاء أموالكم . . .	٢٤٥
٦	وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح . . .	٢٥١
٧	للرجال نصيب مما ترك الوالدان . . .	٢٦٢
٨	وإذا حضر القسمة أولى القربى . . .	٢٦٣
٩	وليخش الذين لو تركوا من خلفهم . . .	٢٦٩
١٠	إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما . . .	٢٧٣
١١	يوصيكم الله فى أولادكم . . .	٢٧٤
١٢	ولكم نصف ما ترك أزواجكم . . .	٢٨٢
١٣	تلك حدود الله . . .	٢٨٩
١٤	ومن يعص الله ورسوله . . .	٢٩١
١٥	واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم . . .	٢٩١
١٦	واللذان يأتيانها منكم فآذوهما . . .	٢٩٤
١٧	إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء ...	٢٩٨
١٨	وليست التوبة للذين يعملون السيئات . . .	٣٠٢
١٩	يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم . . .	٣٠٤
٢٠	وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج ...	٣١٣
٢١	وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم ...	٣١٤
٢٢	ولا تنكحوا مانكح آباؤكم من النساء ...	٣١٧
٢٣	حرمت عليكم أمهاتكم . . .	٣١٩

٢ – فهرس الموضوعات

الصفحة

١ تأويل قوله تعالى « كل الطعام » . . . الآية . وما كان يعقوب عليه السلام حرّمه على نفسه .

٣ الصواب فى أن الذى حرّمه إسرائيل كان من تلقاء نفسه ، وأن التوراة لما أتت حرّم الله فيها ما شاء .

٦ تأويل قوله « قل صدق الله » . . . الآية . وأن الدين الحقّ إخلاص العبادة لله وحده ، كما كان عليه إبراهيم عليه السلام .

٨ تأويل قوله « إنّ أوّل بيت وضع » . . . الآية. وأن البيت أوّل مكان وضع فى الأرض للعبادة.

١٠ تأويل قوله « فيه آيات بينات » ، وما هى الآيات التى فى البيت ، ومعنى الأمن .

١٥ تأويل قوله « ولله على الناس » . . . الآية . ومعنى الحجّ والاستطاعة والخلاف فيها .

١٩ تأويل قوله تعالى « ومن كفر » . وأن الكفر معناه الجحد لما ألزمه من فرض حجّ بيته .

٢٢ تأويل قوله « قل يا أهل الكتاب » . وأن السبيل تؤنث ، وسبب النزول .

٢٤ تأويل قوله « يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا » . وأن المراد من الذين آمنوا الأوس والخزرج ، ومن الذين أوتوا الكتاب بعض اليهود .

٢٠ تأويل قوله تعالى « وكيف تكفرون » . . .الآية ومعنى الاعتصام ، وما يتعلق به من الأبحاث اللغوية ، والشواهد عليها .

الصفحة

٢٧ تأويل قوله « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله » . . . الآية . وحقّ التقوى والإسلام .

٣٠ تأويل قوله « واعتصموا بحبل الله » . والمراد من الحبل ، والشاهد عليه من قول الأعشى .

٣٢ معنى التفرّق ، وما ورد فى تفرّق الأمم السابقة ، وتفرّق هذه الأمة .

٣٢ تأويل قوله « واذكروا نعمة الله » . . . الآية . وما كانت عليه الأوس والخزرج من العداوة وابتداء دخول الإسلام فيهم .

٣٦ تأويل قوله « وكنتم على شفا حفرة » . . . الآية ومعنى الحفرة ، والشواهد عليه ، ثم بيان ما كانت عليه الأنصار من سوء الحظّ قبل الدخول فى الإسلام .

٣٨ ما يجب على الأمة من قيام بعضهم بالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وعدم الاختلاف والتفرّق .

٣٩ تأويل قوله « يوم تبيضّ وجوه » . . . الآية . وأن المراد بالذين تسودّ وجوههم طائفة من هذه الأمة .

٤٣ تأويل قوله « كنتم خير أمة » . . . الآية . والخلاف فى المراد من الخير ، أهم المهاجرون ، أم غيرهم ؟

٤٦ تأويل قوله « لن يضرّوكم إلا أذى » . وأن المراد من الأذى إسماعهم الشرك .

الصفحة

٤٩ السبب الجالب للباء فى قوله « إلا بحبل » ، والشاهد عليه .

٥١ تأويل قوله « ليسوا سواء » ، وأن فى الآية حذف المقابل ، والشاهد عليه .

٥٤ آناء جمع إِنْى ، والشاهد عليه ، وبيان الفعل الذى به يتحقق أنه قام آناء الليل .

٥٨ تأويل قوله « مثل ما ينفقون » ، وما يبطل النفقة من الكفر بالله .

٦٠ تأويل قوله « لاتتخذوا بطانة » . . . الآية . وأن السبب فى نزول الآية مصافاة بعضهم أهل الكفر والنفاق .

٦٣ إبداء البغضاء من أفواههم بأىّ معنى كان .

٦٥ أل فى قوله « بالكتاب كله » مراد بها الجنس .

٦٦ الأنامل جمع أنملة ، وهى أطراف الأصابع ، والشاهد عليه .

٦٩ تأويل قوله « وإذ غدوت من أهلك » ، وذكر غزوة أُحد .

٧٢ تأويل قوله « إذ همت طائفتان » ، وبيان الطائفتين والفَشَل .

٧٤ تأويل قوله « ولقد نصركم الله » . . . الآية ، وغزوة بدر .

٧٩ لادلالة فى القرآن على أنهم أُمدّوا بثلاثة آلاف أو بخمسة آلاف من الملائكة ، وأنهم لم يمدّوا يوم أُحد بشىء .

٨٢ معنى تسويم الملائكة .

٨٤ السيما : معناها العلامة ، والشاهد عليه .

٨٦ تأويل قوله « ليس لك من الأمر شىء » وأنه نزل لما فعل المشركون به صلى الله عليه وسلم فى غزوة أحد ما فعلوا ، من شجّ وجهه وغير ذلك .

الصفحة

٩١ تأويل قوله « وسارعوا » ، وحذف المضاف فى قوله « السموات » ، والشاهد عليه .

٩٥ تأويل قوله « والذين إذا فعلوا فاحشة » ، ومعنى الفاحشة والظلم والإصرار .

٩٩ تأويل قوله « قد خلت من قبلكم سُنَن » ، ومعنى السنة ، والشاهد عليه .

١٠٢ تأويل قوله « ولا تَهنوا » . . . الآية ، وأنه تعزية لأصحاب النبىّ على ما أصابهم يوم أُحد .

١٠٨ تأويل قوله « ولقد كنتم تمنون الموت » ، وما كان يتمناه من لم يحضر غزوة بدر ، وحين حضر غزوة أُحد فرّ .

١١٠ ذكر ما أصابهم يوم أُحد من الهلع عند ما قيل لهم : رسول الله قتل ، وكان ذلك من أسباب نزول قوله « وما محمد إلا رسول » .

١١١ ذكر تفصيل غزوة أُحد ، وما تمّ لرسول الله وللمسلمين فيها .

١١٦ تأويل قوله « قتل معه ربيون كثير » ، والخلاف فى معنى الرِّبِّىّ ، وأن الكلام على تقدير الواو أى ومعه .

١٢٠ تأويل قوله « وما كان قولهم إلا أن قالوا » ، ومعنى الإسراف .

١٢٤ تأويل قوله « ولقد صدقكم الله وعده » ، وما تمّ للمؤمنين من النصر يوم أحد ، وانهزامهم بسبب المخالفة .

١٢٧ تأويل قوله «إذ تَحُسُّونهم». وأن معنى الحسّ القتل .

١٢٨ تأويل قوله « حتى إذا فشلتم » ، وما تمّ للمسلمين يوم أُحد من الغنيمة ، ثم الهزيمة .

الصفحة

١٢٩ تأويل قوله « حتى إذا فشلتم » . . . الآية من المقدَّم الذى معناه التأخير ، والشاهد عليه .

١٣١ معنى العفو فى قوله « ولقد عفا عنكم » مع ما تمَّ لهم من الإساءة والإضرار .

١٣٢ تأويل قوله « إذ تصعدون » والفرق بين الإصعاد والصعود، وإن حصل منهم الأمران .

١٣٤ تأويل قوله « فأثابكم » . . . الآية ، وأن الثواب يطلق على العوض ، سواء كان خيرا أو شرًّا ، والشواهد عليه ، وأن القوم أصابهم غمان ، وما هما ؟

١٣٩ تأويل قوله « ثم أنزل عليكم من بعد الغمِّ » الآية ، والنعاس الذى أتاهم وأين محله .

١٤١ الطائفة التى أهمتهم أنفسهم كانت منافقة ، وأن قولهم ما قالوا كان منشؤه عدم رسوخ الإيمان .

١٤٣ تأويل قوله « قل لو كنتم » . . . الآية ، وأن الابتلاء معناه الاختبار ، وأن ما كان مسندا إلى الله فهو على جهة مجاز الحذف .

١٤٤ تأويل قوله « إن الذين تولوا » ، وبعض أسماء من تولى يوم أُحد ، وبيان معنى العفو .

١٤٦ تأويل قوله « يا أيها الذين آمنوا » . . . الآية ، وأن غُزًّى جمع غاز ، والشاهد عليه .

١٤٩ تأويل قوله (ولئن قتلتم » . . . الآية ، وأن القتل فى سبيل الله خير من الدنيا التى لأجلها يتثاقلون .

١٥٠ « ما » فى قوله « فبما رحمة » زائدة والشاهد عليه

١٥١ تأويل قوله « فاعف عنهم » . . . الآية ، وما ندب إليه النبىَّ من الاستشارة مع ماهو عليه من التأييد .

الصفحة

١٥٤ تأويل قوله « وما كان لنبىٍّ أن يَغُلَّ » ، ومعنى الغلول ، وسبب نزول ذلك .

١٥٨ تأويل قوله « ومن يغلل » ، وما يفعل بالغالِّ يوم القيامة .

١٦٢ « هم درجات » بمعنى : لهم درجات ، والشاهد عليه .

١٦٤ تأويل قوله « أو لما أصابتكم » . . . الآية ، وأن ما حصل لهم لم يكن إلا بخلافهم ، وما خالفوا فيه .

١٦٧ ما قاله المنافقون للمسلمين عند قولهم : تعالوا قاتلوا معنا ولو بتكثير السواد .

١٧٠ تأويل قوله « ولا تحسبنَّ الذين قتلوا » . . . الآية ، وما ورد فى نعيم الشهداء وإحيائهم .

١٧٦ تأويل قوله « الذين استجابوا لله » . . . الآية وغزوة حمراء الأسد .

١٧٩ ماقاله مَعْبَد الخزاعىّ من الأبيات التى كانت سبب رجوع أبى سفيان عن القتال .

١٨٩ تأويل قوله « ولا يحسبنَّ الذين يبخلون » ... الآية ، وأن المعنىَّ به أهل الكتاب .

١٩١ ذكر ما ورد من الوعيد على البخل بمنع الزكاة .

١٩٣ تأويل قوله « ولله ميراث السموات » ، وأن البقاء لله وحده ، وغيره فانٍ موروث .

١٩٤ مقالة اليهود فى الجناب الأقدس حتى نزل قوله « لقد سمع الله » .

١٩٨ الزُّبُر جمع زَبور ، وهو الكتاب ، والشاهد عليه .

٢٠٠ تأويل قوله « لتبلونَّ » . . . الآية ، وما أوذى به المسلمون من اليهود والنصارى ، ومقتل كعب بن الأشرف .

الصفحة

٢٠٥ تأويل قوله « لا تحسبنّ الذين يفرحون » ، وبيان أنها نزلت فى طائفة من المنافقين .

٢١١ إدخال النار ببعض الذنوب لا ينافى الشفاعة ، ولا يعارض « ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته » .

٢١٣ هدَى يتعدّى باللام كما يعدّى بالى، والشاهد عليه .

٢١٣ وجه سؤال إعطاء ما وهب على ألسنة الأنبياء مع أنه لابدّ من إعطائه .

٢١٨ الموت خير لكلّ مؤمن .

٢١٩ الآية قد تنزل فى مخصوص ولفظها عام ، فيراد منها العموم .

٢٢٢ الصواب فى معنى الصبر والمصابرة والمرابطة .

٢٢٣ (تفسير سورة النساء) .

٢٢٤ المراد بالنفس : آدم ، والشاهد على أنه تطلق النفس الواحدة على الذكر .

٢٢٦ الشاهد على جواز عطف الظاهر على الضمير من غير فاصل . ومعنى الأرحام وقطعها .

٢٣٠ الحُوب معناه الإثم ، والشاهد عليه .

٢٣١ تأويل قوله «وإن خفتم ألا تقسطوا » . . .الآية والخلاف فيها ، والصواب منه .

٢٣٧ الشواهد على أن مثنى وما معه غير مصروفة للعدل والتعريف .

٢٣٨ قوله « فانكحوا » وإن كان أمرا فإنه للدلالة على النهى عن نكاح ما خاف الجور فيه .

٢٣٩ قوله « أن لا تعولوا » من العول ، بمعنى : الجور ، لا من العَيْلة بمعنى الافتقار ، والشواهد على الفرق بينهما .

الصفحة

٢٤٣ الشواهد على نقل الفعل عن النفوس إلى أصحابها ، ونصب النفوس تمييزا .

٢٤٧ الصواب فى معنى السفيه ، وأنه يشمل كلّ مستحقّ للحجر .

٢٥٢ معنى الرشد الذى إذا تمّ للشخص أعطى له ماله .

٢٥٤ معنى الفقر والغنى فى وُلاة أموال اليتامى .

٢٦٣ تأويل قوله « وإذا حضر القسمة » ، وأنه محكم أو منسوخ .

٢٦٩ تأويل قوله « وليخش الذين » . . . الآية ، وأن المخاطب به من حضر الموصى حين وصيته

٢٧٣ ما ورد من الوعيد لآكل مال اليتيم ،والشواهد على الإصلاء .

٢٧٥ ما كان عليه أهل الجاهلية من توريث الكبار دون الصغار والنساء .

٢٧٧ ما للأبوين من الميراث عند الإخوة ، أو الأخ الواحد .

٢٧٨ المراد من الإخوة : أخوان فأكثر ، والشاهد على جواز ذلك .

٢٨٠ الدَّيْن يؤخذ من التركة قبل الوصية .

٢٨٣ تأويل قوله « وإن كان رجل » . . . الآية ، ومعنى الكلالة والخلاف فيه .

٢٨٩ تأويل قوله « تلك حدود الله » ، ومعنى الحدود ، والصواب من الخلاف فيه .

٢٩١ من عصى الله ورسوله فى قسمة المواريث يخلد فى النار إذا جمع إلى ذلك شكا أو محادّة .

٢٩١ ما كان على الزانيات من العقوبة قبل أن تفرض الحدود .

الصفحة

٢٩٨ تأويل قوله « إنما التوبة » الآية . ومن يتقبل الله توبتهم من أهل الذنوب .
٣٠٠ تأويل قوله « ثم يتوبون من قريب » ومعنى القريب فى هذا الموضع ، والخلاف فيه .
٣٠٣ الحالة التى لاتقبل فيها التوبة .
٣٠٥ ما كان عليه الجاهلية من إرث الرجل امرأة قريبه ، وإبطال الشرع لذلك .
٣١٠ الفاحشة التى إذا أتتها المرأة جاز لزوجها الإضرار بها حتى تختلع منه .
٣١٢ ما يلزم الرجل من حسن الصحبة مع امرأته .

الصفحة

٣١٣ ما يحرم على الرجل من المضارّة لامرأته ، لتفتدى منه ، ومعنى الإفضاء ، والشاهد عليه
٣١٥ الميثاق الغليظ الذى يؤخذ على الزوج عند نكاحه .
٣١٧ ما كان يفعله أهل الجاهلية من خلف الرجل على امرأة أبيه ، وورود النهى عن ذلك .
٣١٨ معنى الاستثناء فى قوله « إلا ما قد سلف » ، والخلاف فيه .
٣٢٠ ما يحرم بالنسب ، وما يحرم بالصهر .

٣ – فهرس القوافى

القافية	الصفحة
ب	
مُجيبُ	٢١٥
فَصَليبُ	٢٤٤
شَبّوا	١٢٩
الحُبُّ	١٢٩
النُّقَبِ	٢٤٤
نابَا	٢٦
وخابا	٢٣٠
طلابُها	٥٢
ت	
الثَّبَتِ	٢١٣
د	
نَواهِدْ	٢٢٨
فى غَدِ	١٤٨
مُحَمَّدِ	١٨١
كالعَنجَدِ	١٨١
الأتلدِ	١٨١
موعدى	١٨١
الغَدِ	١٨١
لِصيدِ	٤٩
مَوْعِدَا	٢٢
يقودها	١٢١
ر	
البَصَرْ	٨٤
سائِرُ	١١٤
الدّابِرِ	٢٣٧
ظاهِرِ	٣١٤
قِفارِ	٩١
سُمْرَا	١٣٤
العَشْرَا	٦٦
عُشارا	٢٣٨
والقبرا	٤٢
س	
خامِسْ	٢٣٧
ض	
عَرْضى	٣٧
ع	
ذِراعَا	٢٤٤
ف	
سَرَفُ	٢٥٥
مُتَكَنِّفُ	٢٧٣
أُنِفوا	٣٦
عَلِفوا	٣٦
نَفانِفُ	٢٢٦
المُشَعَّفِ	٢٧٩
خلافِ	١٩٠
ق	
فُرُوقُ	٤٩
بالعَناقِ	٩٢
ل	
والعَمَلُ	٧٢
يَعيلُ	٢٣٩
يَنْتَعِلُ	٥٤
مُتَضائِلُ	٥٢
الكمالُ	٢٢٤
حلالِ	٢٣٧
الهلالِ	٣٧
صالى	٢٧٤
السُّيولِ	١٦٢
الأبابيلِ	١٧٩
عائلِ	٢٣٩ ، ٢٤٠
صَواهِلُهْ	٢٣٧
بَقْلَهْ	٣٦
حِبالَها	٣٠
م	
عُصُمْ	٢٦

القافية	الصفحة	القافية	الصفحة	القافية	الصفحة
الحِلْمُ	٢٧	تُغْنِينِى	٦١		
وإمامُها	١٠٠	إيَّانَا	١٥٠	ى	
ن		شَجِينا	٢٤٤	التآسيا	١٠٠
المَلَوانِ	١٨٦	ه		حِباليا	٢٧
ودِينى	١٦٩				
يمانى	١٩٨	بالمُسَقَّنَهِ	١٤٧	راضيا	٦٨

استدراك

البيتان اللذان فى تفسير الإمام ابن جرير الطبرىّ، فى أول ص٣٦ من هذا الجزء الرابع ، وهما لمالك بن عجلان ، مطلع قصيدة له فى حرب سُمَير ، وقد وجدنا هذه القصيدة أخيرا فى جمهرة أشعار العرب ص ١٢٢ طبعة بُلاق ، وهما كما فى الجمهرة :

إنَّ سُمَيْرًا أرَى عَشِيرَتَهُ قَدْ حَدِبُوا دونَهُ وقد أنِفُوا

إنْ يَكُنِ الظَّنُّ صَادِقًا بِبَنِى النَّجَّارِ لا يَطْعَمُوا الّذِى عَلِفُوا

والقصيدة فائيَّة لاقافية ، ولكن المؤلف أو بعض النساخين جعل رَوِىّ البيتين من حرف القاف . وكذلك صاحب اللسان أنشد البيت الأوّل فى رسم (سمر) وجعل رويه القاف ، فاقتضى ذلك التنبيه هنا ، وإلغاء التعليق الذى كتبناه على البيتين فى ص ٣٦ .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِى إِسْرَآءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَآءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٣)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : أنه لم يكن حرّم على بنى إسرائيل ، وهم ولد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن شيئا من الأطعمة ، من قبل أن تنزل التوراة ، بل كان ذلك كله لهم حلالا ، إلا ما كان يعقوب حرّمه على نفسه ، فإن ولده حرّموه استنانا بأبيهم يعقوب ، من غير تحريم الله ذلك عليهم فى وحى ، ولا تنزيل ، ولا على لسان رسول له إليهم ، من قبل نزول التوراة .

ثم اختلف أهل التأويل فى تحريم ذلك عليهم : هل نزل فى التوراة ، أم لا ؟ فقال بعضهم : لما أنزل الله عزّ وجلّ التوراة ، حرّم عليهم من ذلك ما كانوا يحرّمونه قبل نزولها .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضّل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، قوله (كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِى إِسْرَائِيلَ ، إلاَّ ما حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ على نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ . قُلْ فَأْتُوا بالتَّوْرَاةِ فاتْلُوها إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ) قالت اليهود : إنما نحرّم ما حرّم إسرائيل على نفسه ، وإنما حرّم إسرائيل العروق ، كان يأخذه عرق النَّسا ، كان يأخذه بالليل ، ويتركه بالنهار ، فحلف لئن الله عافاه منه لايأكل عرقا أبدا ، فحرّمه الله عليهم ، ثم قال : (قل فأْتُوا بالتَّوْرَاةِ فاتْلُوها إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ) ما حرّم هذا عليكم غيرى ببغيكم ، فذلك قوله (فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ) .

فتأويل الآية على هذا القول : كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل ، إلا ما حرّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ، فإن الله حرّم عليهم من ذلك ، ما كان إسرائيل حرّمه على نفسه فى التوراة ، ببغيهم على أنفسهم ، وظلمهم لها . قل يا محمد : فأتوا أيها اليهود إن أنكرتم ذلك بالتوراة ، فاتلوها إن كنتم

صادقين . إن الله لم يحرّم ذلك عليكم فى التوراة ، وإنكم إنما تحرّمونه لتحريم إسرائيل إياه على نفسه .

وقال آخرون : ما كان شىء من ذلك عليهم حراما ، ولا حرّمه الله عليهم فى التوراة ، وإنما هو شىء حرّموه على أنفسهم ، اتباعا لأبيهم ، ثم أضافوا تحريمه إلى الله ، فكذبهم الله عزّ وجلّ فى إضافتهم ذلك إليه . فقال الله عزّ وجلّ لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قل لهم يا محمد : إن كنتم صادقين ، فأتوا بالتوراة فاتلوها ، حتى ننظر هل ذلك فيها ، أم لا ؟ ليتبين كذبهم لمن يجهل أمرهم .

ذكر من قال ذلك :

حدثت عن الحسين بن الفرج ، قال : سمعت أبا معاذ ، قال : أخبرنا عُبيد بن سلمان ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (إِلاَّ ما حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلى نَفْسِهِ) إسرائيل : هو يعقوب ، أخذه عرق النَّسا ، فكان لا يَبِيتُ[1] الليل من وجعه ، وكان لا يؤذيه بالنهار ، فحلف : لئن شفاه الله لا يأكل عرقا أبدا . وذلك قبل نزول التوراة على موسى ، فسأل نبيّ الله صلى الله عليه وسلم اليهود : ما هذا الذى حرّم إسرائيل على نفسه ؟ فقالوا : نزلت التوراة بتحريم الذى حرّم إسرائيل . فقال الله لمحمد صلى الله عليه وسلم : قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين . . . إلى قوله (فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) وكذبوا وافتروا ، لم تنزل التوراة بذلك .

وتأويل الآية على هذا القول : كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل ، من قبل أن تنزل التوراة وبعد نزولها ، إلا ما حرّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة . بمعنى : لكن إسرائيل حرّم على نفسه من قبل أن تنزل التوراة بعض ذلك . وكأن الضحاك وجّه قوله (إِلاَّ ما حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلى نَفْسِهِ) إلى الاستثناء الذى تسميه النحويون : الاستثناء المنقطع .

وقال آخرون : تأويل ذلك : كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل ، إلا ما حرّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ، فإن ذلك حرام على ولده ، بتحريم إسرائيل إياه على ولده ، من غير أن يكون الله حرّمه على إسرائيل ، ولا على ولده .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس قوله (كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ ما حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلى نَفْسِهِ) فإنه حرم على نفسه العروق ، وذلك أنه كان يشتكى عرق النَّسا ، فكان لا ينام الليل ، فقال : والله لئن عافانى الله منه لا يأكله لى ولد ، وليس مكتوبا فى التوراة ، وسأل محمد صلى الله عليه وسلم نفرا من أهل الكتاب ، فقال : ما شأن هذا حراما ؟ فقالوا : هو حرام علينا من قبل الكتاب ، فقال الله عزّ وجل : (كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ) . . . إلى (إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ) .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، قال : قال ابن جريج ، قال ابن عباس : أخذه ، يعنى إسرائيل ، عرق النَّسا ، فكان لا يثبت بالليل من شدّة الوجع ، وكان لا يؤذيه بالنهار ، فحلف لئن شفاه الله لا يأكل عرقا أبدا ، وذلك قبل أن تنزل التوراة ، فقال اليهود للنبيّ صلى الله عليه وسلم : نزلت

(١) لا يسكن ولا ينام .

التوراة بتحريم الذى حرّم إسرائيل على نفسه ، قال الله لمحمد صلى الله عليه وسلم : (قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) وكذبوا ، ليس فى التوراة .

قال أبو جعفر : وأولى الأقوال فى ذلك عندنا بالصواب : قول من قال : معنى ذلك : كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل من قبل أن تنزل التوراة ، إلا ما حرّم إسرائيل على نفسه ، من غير تحريم الله ذلك عليه ، فإنه كان حراما عليهم بتحريم أبيهم إسرائيل ذلك عليهم ، من غير أن يحرّمه الله عليهم فى تنزيل ، ولا بوحى قبل التوراة ، حتى نزلت التوراة ، فحرّم الله عليهم فيها ما شاء ، وأحلّ لهم فيها ما أحبّ ، وهذا قول قالته جماعة من أهل التأويل ، وهو معنى قول ابن عباس الذى ذكرناه قبل .

ذكر بعض من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ) وإسرائيل : هو يعقوب (قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) يقول : كل الطعام كان حلاّ لبنى إسرائيل من قبل أن تنزل التوراة ، إلا ما حرّم إسرائيل على نفسه ، فلما أنزل الله التوراة حرّم عليهم فيها ما شاء ، وأحلّ لهم ما شاء .

حُدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن قتادة ، بنحوه .

واختلف أهل التأويل فى الذى كان إسرائيل حرّمه على نفسه ، فقال بعضهم : كان الذى حرّمه إسرائيل على نفسه العروق .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا أبو بشر ، عن يوسف بن ماهك ، قال : جاء أعرابىّ إلى ابن عباس ، فقال : إنه جعل امرأته عليه حراما ، قال : ليست عليك بحرام ، قال : فقال الأعرابى : ولم ؟ والله يقول فى كتابه (كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ) قال : فضحك ابن عباس ، وقال : وما يدريك ما كان إسرائيل حرّم على نفسه ؟ قال : ثم أقبل على القوم يحدثهم ، فقال : إسرائيل عرضت له الأنساء فأضنته ، فجعل لله عليه إن شفاه الله منها لايطعمُ عرقا ، قال : فلذلك اليهود تنزع العروق من اللحم .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة ، عن أبى بشر ، قال : سمعت يوسف ابن ماهك يحدّث أن أعرابيا أتى ابن عباس ، فذكر رجلا حرّم امرأته ، فقال : إنها ليست بحرام ، فقال الأعرابى : أرأيت قول الله عزّ وجلّ (كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ) فقال : إن إسرائيل كان به عرق النَّسا ، فحلف : لئن عافاه الله أن لايأكل العروق من اللحم ، وإنها ليست عليك بحرام .

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا ابن علية ، عن سليمان التيمىّ ، عن أبى مجلز فى قوله (كُلُّ

الطَّعامِ كانَ حِلاً لِبَنِى إسْرَائِيلَ إلاَّ ما حَرَّمَ إسْرَائِيلُ على نَفْسِهِ) قال : إن يعقوب أخذه وجع عرق النَّسا ، فجعل لله عليه ، أو أقسم ، أو قال : لا يأكله من الدواب ، قال : والعروق كلها تبع لذلك العرق .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قال : ذُكر لنا أن الذى حرّم إسرائيل على نفسه ، أن الأنساء أخذته ذات ليلة ، فأسهرته ، فتألى[1] إن الله شفاه ، لا يطعم نَسًا أبدا ، فتتبعت بنوه العروق بعد ذلك ، يخرجونها من اللحم .

حُدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن قتادة ، بنحوه . وزاد فيه : قال : فتألَّى لئن شفاه الله لا يأكل عرقا أبدا ، فجعل بنوه بعد ذلك يتتبعون العروق ، فيخرجونها من اللحم ، وكان الذى حرّم على نفسه من قبل أن تنزّل التوراة العروق .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، فى قوله (إلاَّ ما حَرَّمَ إسْرَائِيلُ على نَفْسِهِ) قال : اشتكى إسرائيل عرق النَّسا ، فقال : إن اللهُ شفانى لأحرمن العروق ، فحرّمها .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : ثنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا سفيان الثورىّ ، عن حبيب بن أبى ثابت عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : كان إسرائيل أخذه عرق النَّسا ، فكان يبيت وله زُقاء ، فجعل لله عليه إن شفاه ألّا يأكل العروق ، فأنزل الله عزّ وجلّ (كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلاً لِبَنِى إسْرَائِيلَ إلاَّ ما حَرَّمَ إسْرَائِيلُ على نَفْسِهِ) قال سفيان : له زُقاء : يعنى صياح .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قوله (إلا ما حَرَّمَ إسْرَائِيلُ على نَفْسِهِ) قال : كان يشتكى عرق النَّسا ، فحرّم العروق .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا جرير ، عن منصور ، عن حبيب بن أبى ثابت ، عن ابن عباس فى قوله : (كُلُّ الطعامِ كانَ حِلاً لِبَنِى إسْرَائِيلَ إلا ما حَرَّمَ إسْرَائِيلُ على نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ) قال : كان إسرائيل يأخذه عرق النَّسا ، فكان يبيت وله زُقاء ، فحرّم على نفسه أن يأكل عرقا .

وقال آخرون : بل الذى كان إسرائيل حرّم على نفسه : لحوم الإبل وألبانها .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن عبد الله بن كثير ، قال : سمعنا أنه اشتكى شكوى ، فقالوا : إنه عرق النَّسا ، فقال : ربّ إن أحبّ الطعام إلىّ لحوم الإبل وألبانها ، فإن شفيتنى فإنى أحرّمها علىّ . قال ابن جريج وقال عطاء بن أبى رباح : لحومَ الإبل وألبانَها حرّم إسرائيل.

حدثنى محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفىّ ، قال : ثنا عباد ، عن الحسن ، فى قوله (كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلاً لِبَنِى إسْرَائِيلَ) ، قال : كان إسرائيل حرّم على نفسه لحوم الإبل ، وكانوا يزعمون أنهم يجدون فى التوراة تحريم إسرائيل على نفسه لحوم الإبل ، وإنما كان حرّم إسرائيل على نفسه لحوم الإبل

(١) تألى : حلف .

قبل أن تنزل التوراة ، فقال الله (فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) فقال : لاتجدون فى التوراة تحريم إسرائيل على نفسه إلا[1] لحم الإبل .

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا يحيى بن سعيد ، قال : ثنا سفيان قال : ثنا حبيب بن أبى ثابت ، قال : ثنا سعيد ، عن ابن عباس : أن إسرائيل أخذه عرق النَّسا ، فكان يبيت بالليل له زُقاء ، يعنى صياح . قال : فجعل على نفسه : لئن شفاه الله منه لايأكله ، يعنى لحوم الإبل ، قال : فحرّمه اليهود ، وتلا هذه الآية : (كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ، قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) أى أن هذا قبل التوراة .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا يحيى بن عيسى ، عن الأعمش ، عن حبيب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى (إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ) قال : حرّم العروق ولحوم الإبل ، قال : كان به عرق النَّسا ، فأكل من لحومها ، فبات بليلة يزقو ، فحلف ألا يأكله أبدا .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا وكيع ، عن إسرائيل ، عن جابر ، عن مجاهد ، فى قوله (إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ) قال : حرّم لحوم الأنعام .

قال أبو جعفر : وأولى هذه الأقوال بالصواب : قول ابن عباس الذى رواه الأعمش ، عن حبيب ، عن سعيد ، عنه : أن ذلك العروق ولحوم الإبل ، لأن اليهود مجمعة إلى اليوم على ذلك من تحريمهما ، كما كان عليه من ذلك أوائلها .

وقد رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بنحو ذلك خبر ، وهو ما حدثنا به أبو كريب ، قال : ثنا يونس بن بكير ، عن عبد الحميد بن بهرام ، عن شهر بن حَوْشب ، عن ابن عباس : أن عصابة من اليهود حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا أبا القاسم ، أخبرنا : أىّ الطعام حرّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَنْشُدُكُمْ بِالَّذِى أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ على مُوسَى : هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْرَائِيلَ (يَعْقُوبَ) مَرِضَ مَرَضًا شَدِيدًا ، فَطَالَ سَقَمُهُ مِنهُ ، فَنَذَرَ لِلَّهِ نَذْرًا : لَئِنْ عَافَاهُ اللهُ مِنْ سَقَمِهِ ، لَيُحَرِّمَنَّ أَحَبَّ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ إِلَيْهِ ، وكَانَ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ لُحْمَانُ الإِبِلِ ، وأَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ أَلْبَانُهَا ، فقالوا : اللهمَّ نعم .

وأما قوله (قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) فإن معناه : قل يا محمد للزاعمين من اليهود أن الله حرم عليهم فى التوراة العروق ولحوم الإبل وألبانها : ائتوا بالتوراة فاتلوها ، يقول : قل لهم : جيئوا بالتوراة فاتلوها ، حتى يتبين لمن خفى عليه كذبهم ، وقيلهم الباطل على الله من أمرهم ، أن ذلك ليس مما أنزلته فى التوراة إن كنتم صادقين ، يقول : إن كنتم محقين فى دعواكم أن الله أنزل تحريم ذلك فى التوراة ، فأتونا بها ، فاتلوا تحريم ذلك علينا منها ، وإنما ذلك خبر من الله عن كذبهم ، لأنهم لايجيئون بذلك أبدا على صحته ، فأعلم الله بكذبهم عليه نبيه صلى الله عليه وسلم ، وجعل إعلامه إياه ذلك حجة له عليهم ، لأن ذلك

(١) لفظ « إلا » : زائد من الناسخ ، كما يدرك من السابق واللاحق .

إذ كان يخفى على كثير من أهل ملتهم ، فمحمد صلى الله عليه وسلم وهو أميّ من غير ملتهم ، لولا أن الله أعلمه ذلك بوحي من عنده ، كان أحرى ألا يعلمه ، فكان فى ذلك له صلى الله عليه وسلم من أعظم الحجة عليهم ، بأنه نبيّ الله صلى الله عليه وسلم إليهم ، لأن ذلك من أخبار أوائلهم ، كان من خفيّ علومهم الذى لايعلمه غير خاصة منهم ، إلا من أعلمه الذى لا يخفى عليه خافية من نبى أو رسول ، أو من أطلعه الله على علمه ممن شاء من خلقه .

القول فى تأويل قوله

فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ، فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٩٤)

يعنى جلّ ثناؤه بذلك : فمن كذب على الله منا ومنكم من بعد مجيئكم بالتوراة ، وتلاوتكم إياها ، وعدمكم ما ادّعيتم من تحريم الله العروق ولحوم الإبل وألبانها فيها ، فأولئك هم الظالمون ، يعنى : فمن فعل ذلك منهم فأولئك ، يعنى : فهؤلاء الذين يفعلون ذلك ، هم الظالمون : يعنى فهم الكافرون القائلون على الله الباطل .

كما حدثنا المثنى ، قال : ثنا عمرو بن عون ، قال : ثنا هشيم ، عن زكريا ، عن الشعبيّ (فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ) قال : نزلت فى اليهود .

القول فى تأويل قوله جلّ ثناؤه

قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ، وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (٩٥)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : قل يا محمد : صدق الله فيما أخبرنا به من قوله (كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ) وإن الله لم يحرّم على إسرائيل ، ولا على ولده العروق ، ولا لحوم الإبل وألبانها ، وأن ذلك إنما كان شيئا حرّمه إسرائيل على نفسه وولده ، بغير تحريم الله إياه عليهم فى التوراة ، وفى كل ما أخبر به عباده من خبر ، دونكم أنتم يا معشر اليهود الكذبة فى إضافتكم تحريم ذلك إلى الله عليكم فى التوراة ، المفترية على الله الباطل فى دعواكم عليه غير الحقّ ، فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين ، يقول : فإن كنتم أيها اليهود محقين فى دعواكم أنكم على الدين الذى ارتضاه الله لأنبيائه ورسله ، فاتبعوا ملة إبراهيم خليل الله ، فإنكم تعلمون أنه الحقّ الذى ارتضاه الله من خلقه دينا ، وابتعث به أنبياءه ، وذلك الحنيفية ، يعنى الاستقامة على الإسلام وشرائعه ، دون اليهودية والنصرانية والمشركة ، وقوله (وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ) يقول : لم يكن يشرك فى عبادته أحدا من خلقه ، فكذلك أنتم أيضا أيها اليهود ، فلا يتخذ بعضكم بعضا أربابا من دون الله ، تطيعونهم كطاعة إبراهيم ربه ، وأنتم يا معشر عبدة الأوثان ، فلا تتخذوا الأوثان والأصنام أربابا ، ولا تعبدوا شيئا من دون الله ، فإن إبراهيم خليل الرحمن كان دينه إخلاص العبادة لربه وحده ، من غير إشراك أحد معه فيه ، فكذلك أنتم أيضا ، فأخلصوا له العبادة ، ولا تشركوا معه فى العبادة أحدا ، فإن جميعكم مقرّون بأن إبراهيم كان على حقّ وهدى مستقيم ، فاتبعوا ما قد أجمع جميعكم على تصويبه

من ملته الحنيفية ، ودعوا ما اختلفتم فيه من سائر الملل غيرها أيها الأحزاب، فإنها بِدَع ابتدعتموها ، إلى ما قد أجمعتم عليه أنه حق ، فإن الذى أجمعتم عليه أنه صواب ، وحق من ملة إبراهيم هو الحق الذى ارتضيته، وابتعثت به أنبيائى ورسلى ، وسائر ذلك هو الباطل الذى لا أقبله من أحد من خلقى جاءنى به يوم القيامة .
وإنما قال جل ثناؤه (وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) يعنى به : وما كان من عددهم وأوليائهم ، وذلك أن المشركين بعضهم من بعض فى التظاهر على كفرهم ، ونصرة بعضهم بعضا ، فبرأ الله إبراهم خليله أن يكون منهم ، أو نصرائهم وأهل ولايتهم . وإنما عنى جل ثناؤه بالمشركين : اليهود والنصارى ، وسائر الأديان غير الحنيفية ، قال : لم يكن إبراهيم من أهل هذه الأديان المشركة ، ولكنه كان حنيفا مسلما .

القول فى تأويل قوله

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ، وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦)

اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك . فقال بعضهم : تأويله : إن أول بيت وضع للناس يعبد الله فيه مباركا وهدى للعالمين . الذى ببكة ، قالوا : وليس هو أول بيت وضع فى الأرض . لأنه قد كانت قبله بيوت كثيرة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا هناد بن السرى ، قال : ثنا أبو الأحوص ، عن سماك ، عن خالد بن عُرعُرة ، قال : قام رجل إلى على ، فقال : ألا تخبرنى عن البيت ، أهو أول بيت وضع فى الأرض ؟ فقال : لا ، ولكنه أول بيت وضع فى البركة ، مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمنا .

حدثنا محمد بن المثنى ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة ، عن سماك ، قال : سمعت خالد ابن عُرعرة قال : سمعت عليا ، وقيل له (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ) : هو أول بيت كان فى الأرض ؟ قال : لا ، قال : فأين كان قوم نوح ، وأين كان قوم هود ؟ قال : و لكنه أول بيت وضع للناس مباركا وهدى .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا ابن علية ، عن أبى رجاء ، قال : سأل حفص الحسن وأنا أسمع ، عن قوله (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا) قال : هو أول مسجد عبد الله فيه فى الأرض .

حدثنا عبد الجبار بن يحيى الرملى ، قال : ثنا ضمرة ، عن ابن شوذب ، عن مطر فى قوله (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ) قال : قد كانت قبله بيوت ، ولكنه أول بيت وضع للعبادة .

حدثنى محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفى ، قال : ثنا عباد ، عن الحسن ، قوله (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ) يعبد الله فيه (لَلَّذِى بِبَكَّةَ) .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا الحمانى ، قال : ثنا شريك ، عن سالم ، عن سعيد (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا) قال : وضع للعبادة .

وقال آخرون : بل هو أوّل بيت وضع للناس . ثم اختلف قائلو ذلك فى صفة وضعه أوّل ، فقال بعضهم : خُلِق قبل جميع الأرضين . ثم دُحيت الأرضون من تحته .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن عمارة الأسدىّ ، قال : ثنا عبيد الله بن موسى ، قال : أخبرنا شيبان ، عن الأعمش ، عن بكير بن الأخنس ، عن مجاهد ، عن عبد الله بن عمرو ، قال : خلق الله البيت قبل الأرض بألفى سنة ، وكان إذ كان عرشه على الماء ، زَبَدة بيضاء ، فدُحيت الأرض من تحته .

حدثنى محمد بن عبد الملك بن أبى الشوارب ، قال : ثنا عبد الواحد بن زياد ، قال : ثنا خصيف ، قال : سمعت مجاهدا يقول : إن أوّل ما خلق الله الكعبة ، ثم دحى الأرض من تحتها .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله عزّ وجلّ (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ) كقوله (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) .

حدثنى محمد ، قال : ثنا أحمد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ) أما أوّل بيت ، فإنه يوم كانت الأرض ماء ، كان زَبَدة على الأرض ، فلما خلق الله الأرض ، خلق البيت معها ، فهو أوّل بيت وضع فى الأرض .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً) قال : أوّل بيت وضعه الله عزّ وجلّ ، فطاف به آدم ومن بعده .

وقال آخرون : موضع الكعبة ، موضع أوّل بيت وضعه الله فى الأرض .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، ذكر لنا أن البيت هبط مع آدم حين هبط . قال : أهبط معك بيتى يطاف حوله ، كما يطاف حول عرشى ، فطاف حوله آدم ، ومن كان بعده من المؤمنين ، حتى إذ كان زمن الطوفان ، زمن أغرق الله قوم نوح ، رفعه الله وطهره من أن يصيبه عقوبة أهل الأرض ، فصار معمورا فى السماء ، ثم إن إبراهيم تتبع منه أثرا بعد ذلك ، فبناه على أساس قديم كان قبله .

والصواب من القول فى ذلك : ما قال جلّ ثناؤه فيه : إن أوّل بيت مبارك . وهدى وضع للناس ، للذى ببكة . ومعنى ذلك : إن أوّل بيت وضع للناس : أى لعبادة الله فيه مباركا وهدى ، يعنى : بذلك ومآبا لنسك الناسكين ، وطواف الطائفين ، تعظيما لله ، وإجلالا له ، للذى ببكة ، لصحة الخبر بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك ما حدثنا به محمد بن المثنى ، قال : ثنا ابن أبى عدىّ ، عن شُعبة ، عن سليمان ، عن إبراهيم التيمىّ ، عن أبيه ، عن أبى ذرّ ، قال : قلت يا رسول الله ، أىّ مسجد وضع أوّل ؟ قال : الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ ، قال : ثم أىّ ؟ قال : الْمَسْجِدُ الأَقْصَى ، قال : كم بينهما ؟ قال :

أَرْبَعُونَ سَنَةً » . فقد بين هذا الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن المسجد الحرام هو أول مسجد وضعه الله فى الأرض على ما قلنا . فأما فى وضعه بيتا بغير معنى بيت للعبادة والهدى والبركة . ففيه من الاختلاف ما قد ذكرت بعضه فى هذا الموضع ، وبعضه فى سورة البقرة وغيرها من سور القرآن . وبينت الصواب من القول عندنا فى ذلك ، بما أغنى عن إعادته فى هذا الموضع .

وأما قوله (لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً) : فإنه يعنى : للبيت الذى بمزدحم الناس لطوافهم فى حجهم وعُمَرِهم. وأصل البك : الزحم. يقال منه: بكّ فلان فلانا: إذا زحمه وصدمه . فهو يَبُكه بَكًّا ، وهم يتباكُّون فيه : يعنى به : يتزاحمون ويتصادمون فيه . فكان بَكَّة : فَعْلَة ، من بكّ فلان فلانا : زحمه ، سميت البقعة بفعل المزدحمين بها ، فإذا كانت بكة ما وصفنا ، وكان موضع ازدحام الناس حول البيت ، وكان لا طواف يجوز خارج المسجد ، كان معلوما بذلك أن يكون ما حول الكعبة من داخل المسجد ، وأن ما كان خارج المسجد فمكة لابكة . لأنه لامعنى خارجه يوجب على الناس التباكّ فيه ، وإذ كان ذلك كذلك كان بينا بذلك فساد قول من قال : بكة : اسم لبطن مكة ، ومكة : اسم للحرم .

ذكر من قال فى ذلك ما قلنا : من أن بكة موضع مزدحم الناس للطواف :

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ،قال: ثنا هشيم ، عن حصين، عن أبى مالك الغِفارىّ، فى قوله (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ) قال : بكة : موضع البيت ، ومكة :ما سوى ذلك .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا مغيرة ، عن إبراهيم مثله .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا حكام ، عن عمرو ، عن عطاء ،[عن أبى جعفر ، قال : مرّت امرأة بين يدى رجل وهو يصلى ، وهى تطوف بالبيت ، فدفعها ، قال أبو جعفر : إنها بَكَّة يَبُكّ بعضُها بعضا .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا عبد الصمد ، قال : ثنا شعبة ، قال : ثنا سلمة ، عن مجاهد ، قال : إنما سميت بكة ، لأن الناس يتباكُّون فيها : الرجال والنساء .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن سفيان ، عن حماد ، عن سعيد ، قال : قلت لأىّ شىء سميت بكة ؟ قال : لأنهم يتباكُّون فيها ، قال : يعنى يتزاحمون .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن سفيان ، عن الأسود بن قيس ، عن أخيه ، عن ابن الزبير ، قال : إنما سميت بكة لأنهم يأتونها حُجاجا .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً) فإن الله بَكّ به الناس جميعا ، فيصلى النساء قدّام الرجال ، ولا يصلح ببلد غيره .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال :أخبرنا معمر ، عن قتادة : بَكَّة : بَكّ الناس بعضهم بعضا : الرجال والنساء يصلى بعضهم بين يدى بعض ، لايصلح ذلك إلا بمكة .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن فضيل بن مرزوق ، عن عطية العوفىّ ، قال : بَكَّة : موضع البيت ، ومكة : ما حولها .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنى يحيى بن أزهر ، عن غالب بن عبيد الله : أنه سأل ابن شهاب عن بكة ، قال : بكة البيت والمسجد . وسأله عن مكة ، فقال : ابن شهاب: مكة : الحرم كله .

حدثنا الحسين ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا حجاج ، عن عطاء ومجاهد ، قالا : بكة : بَكَّ فيها الرجال والنساء .

حدثنى عبد الجبار بن يحيى الرملىّ ، قال : قال ضَمرة بن ربيعة : بكة : المسجد ، ومكة : البيوت .

وقال بعضهم بما حدثنى به يحيى بن أبى طالب ، قال : أخبرنا يزيد ، قال : أخبرنا جويبر ، عن الضحاك فى قوله (إنَّ أوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ للنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ) قال : هى مكة ، وقيل (مباركا): لأن الطواف به مغفرة للذنوب . فأما نصب قوله (مُبارَكاً) ، فإنه على الخروج من قوله (وُضِعَ) ، لأن فى وُضِع ذِكرًا من البيت هو به مشغول ، وهو معرفة ، ومبارك نكرة لا يصلح أن يتبعه فى الإعراب . وأما على قول من قال : هو أوّل بيت وضع للناس ، على ما ذكرنا فى ذلك قول من ذكرنا قوله ، فإنه نصب على الحال من قوله (لَلَّذِى بِبَكَّةَ) ، لأن معنى الكلام على قولهم : إن أوّل بيت وضع للناس ، البيت ببكة مباركا ، فالبيت عندهم من صفته الذى ببكة ، والذى بصلته معرفة ، والمبارك نكرة ، فنصب على القطع منه فى قول بعضهم ، وعلى الحال فى قول بعضهم ، وهدى : فى موضع نصب على العطف على قوله مباركا .

القول فى تأويل قوله

فِيهِ ءَايَٰتٌ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ، وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ، وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ (٩٧)

اختلفت القراء فى قراءة ذلك ؛ فقرأه قراء الأمصار (فيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ) على جماع آية ، بمعنى : فيه علامات بينات ، وقرأ ذلك ابن عباس (فيه آية بينة) يعنى بها : مقام إبراهيم ، يراد بها علامة واحدة .

ثم اختلف أهل التأويل فى تأويل قوله (فيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ) وما تلك الآيات ، فقال بعضهم: مقام إبراهيم والمشعر الحرام ، ونحو ذلك :

ذكر من قال ذلك .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (فيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ) : مَقام إبراهيم ، والمشعَر .

حدثنا إسحاق بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ومجاهد (فيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إبْرَاهِيمُ) قالا : مقام إبراهيم من الآيات البينات .

وقال آخرون : الآيات البينات : مقام إبراهيم ، (وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِنًا) .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفى ، قال : ثنا عباد ، عن الحسن ، فى قوله (فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ) قال : مقام إبراهيم (وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا) .

وقال آخرون : الآيات البينات : هو مقام إبراهيم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى ، قوله (فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ) أما الآيات البينات : فمقام إبراهيم .

وأما الذين قرءوا ذلك (فيه آية بينة) على التوحيد ، فإنهم عنوا بالآية البينة : مقام إبراهيم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ)(١) قال : قدماه فى المقام آية بينة ، يقول (وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا) قال : هذا شىء آخر .

حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن ليث ، عن مجاهد (فِيهِ آيَةٌ بَيِّنَةٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ) قال : أثر قدميه فى المقام آية بينة .

وأولى الأقوال فى تأويل ذلك بالصواب : قول من قال : الآيات البينات منهن مقام إبراهيم ، وهو قول قتادة ومجاهد ، الذى رواه معمر عنهما ، فيكون الكلام مرادا فيهن منهن ، فترك ذكره اكتفاء بدلالة الكلام عليها .

فإن قال قائل : فهذا المقام من الآيات البينات ، فما سائر الآيات التى من أجلها قيل (آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ) ؟ قيل : منهن : المقام ، ومنهن الحجَر ، ومنهن الحطيم . وأصح القراءتين فى ذلك ، قراءة من قرأ (فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ) على الجماع ، لإجماع قراء أمصار المسلمين على أن ذلك هو القراءة الصحيحة دون غيرها .

وأما اختلاف أهل التأويل فى تأويل (مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ) فقد ذكرناه فى سورة البقرة ، وبينا أولى الأقوال بالصواب فيه هنالك ، وأنه عندنا : المقام المعروف به .

فتأويل الآية إذن : إن أول بيت وضع للناس مباركا ، وهدى للعالمين ، للذى ببكة ، فيه علامات بينات من قدرة الله ، وآثار خليله إبراهيم ، منهن أثر قدم خليله إبراهيم صلى الله عليه وسلم فى الحجر الذى قام عليه .

القول فى تأويل قوله (وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا) :

اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك ؛ فقال بعضهم : تأويله : الخبر عن أن كل من جر فى الجاهلية جريرة ، ثم عاذ بالبيت ، لم يكن بها مأخوذا .

---

(١) كذا فى الأصول . وكان الأولى إثبات قراءة مجاهد « آية بينة » بالإفراد ، وربما كان تركها سهوا من الناسخ .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِنا) ، وهذا كان فى الجاهلية ، كان الرجل لو جرّ كل جريرة على نفسه ، ثم لجأ إلى حرم الله ، لم يُتناول ، ولم يُطلب ؛ فأما فى الإسلام ، فإنه لايمنع من حدود الله ، من سرق فيه قُطع ، ومن زنى فيه أقيم عليه الحدّ ، ومن قتل فيه قتل .

وعن قتادة أن الحسن كان يقول : إن الحرم لايمنع من حدود الله ، لو أصاب حدّا فى غير الحرم ، فلجأ إلى الحرم ، لم يمنعه ذلك أن يقام عليه الحدّ ، ورأى قتادة ماقاله الحسن .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، قوله (وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِنا) قال : كان ذلك فى الجاهلية ، فأما اليوم فإن سرق فيه أحد قُطع ، وإن قتل فيه قُتل ، ولو قُدر فيه على المشركين قتلوا .

حدثنا سعيد بن يحيى الأمويّ ، قال : ثنا عبد السلام بن حرب ، قال : ثنا خصيف[1] ، عن مجاهد فى الرجل يقتل ، ثم يدخل الحرم ، قال : يؤخذ فيخرج من الحرم ، ثم يقام عليه الحدّ ، يقول : القتل .

حدثنا محمد بن المثنى ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، عن شعبة ، عن حماد ، مثل قول مجاهد .

حدثنا أبو كريب وأبو السائب ، قالا : ثنا ابن إدريس ، قال : أخبرنا هشام ، عن الحسن وعطاء ، فى الرجل يصيب الحدّ ، ويلجأ إلى الحرم ، يخرج من الحرم فيقام عليه الحد .

فتأويل الآية على قول هؤلاء ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، والذى دخله من الناس كان آمنا بها فى الجاهلية .

وقال آخرون : معنى ذلك : ومن يدخله يكن آمنا بها ، بمعنى الجزاء ، كنحو قول القائل : من قام لى أكرمته ؛ بمعنى : من يقم لى أكرمه ، وقالوا : هذا أمر كان فى الجاهلية ، كان الحرم مفزَع كل خائف ، وملجأ كلّ جان ، لأنه لم يكن يُهاج به ذو جريرة ، ولا يعرض الرجل فيه لقاتل أبيه وابنه بسوء ، قالوا : وكذلك هو فى الإسلام ، لأن الإسلام زاده تعظيما وتكريما .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عبد الملك بن أبى الشوارب ، قال : ثنا عبد الواحد بن زياد قال : ثنا خصيف[1] ، قال ثنا مجاهد ، قال : قال ابن عباس : إذا أصاب الرجل الحدّ قتل أو سرق ، فدخل الحرم ، لم يبايع ، ولم يؤوَ حتى يتبرّم ، فيخرج من الحرم ، فيقام عليه الحدّ . قال : فقلت لابن عباس : ولكنى لاأرى ذلك ، أرى أن يؤخذ برُمته ، ثم يخرج من الحرم ، فيقام عليه الحدّ ، فإن الحرم لايزيده إلا شدة .

حدثنا أبو كريب وأبو السائب ، قالا : ثنا ابن إدريس ، قال : ثنا عبد الملك ، عن عطاء ، قال : أخذ ابن الزبير سعدا مولى معاوية ، وكان فى قلعة بالطائف ، فأرسل إلى ابن عباس من يشاوره فيهم ، إنهم لنا عين ، فأرسل إليه ابن عباس : لو وجدت قاتل أبى لم أعرض له ، قال : فأرسل إليه ابن الزبير : ألا نخرجهم من الحرم ؟ قال : فأرسل إليه ابن عباس : أفلا قبل أن تدخلهم الحرم ؟ زاد أبو السائب فى حديثه : فأخرجهم ، فصلبهم ، ولم يصغ إلى قول ابن عباس .

(١) خصيف بن عبد الرحمن الجزرى الحضرمى مولاهم : ضبطه فى القاموس بفتح الخاء ، وفى الخلاصة للخزرجى بكسرها .

حدثني يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا حجاج ، عن عطاء ، عن ابن عباس ، قال : من أحدث حدثا فى غير الحرم ، ثم لجأ إلى الحرم ، لم يعرض له ولم يبايع ولم يكلم ولم يؤو ، حتى يخرج من الحرم ، فإذا خرج من الحرم ، أخذ فأقيم عليه الحدّ ، قال : ومن أحدث فى الحرم حدثا أقيم عليه الحدّ .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا إبراهيم بن إسماعيل بن نصر السلمىّ ، عن ابن أبى حبيبة ، عن داود بن حصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : أنه قال : من أحدث حدثا ثم استجار بالبيت ، فهو آمن ، وليس للمسلمين أن يعاقبوه على شيء إلى أن يخرج ، فإذا خرج أقاموا عليه الحدّ .

حدثني يعقوب ، قال : ثنا هشيم ، قال : ثنا حجاج ، عن عطاء ، عن ابن عمر ، قال : لو وجدت قاتل عمر فى الحرم ما هِجته .

حدثنا أبو كريب وأبو السائب ، قالا : ثنا ابن إدريس ، قال : ثنا ليث ، عن عطاء : أن الوليد بن عتبة أراد أن يقيم الحدّ فى الحرم ، فقال له عُبيد بن عمير : لاتقيم عليه الحدّ فى الحرم ، إلا أن يكون أصابه فيه .

حدثنا أبو كريب وأبو السائب ، قالا : ثنا ابن إدريس ، قال : أخبرنا مطرّف ، عن عامر ، قال : إذا أصاب الحدّ ، ثم هرب إلى الحرم ، فقد أمن ، فإذا أصابه فى الحرم ، أقيم عليه الحد فى الحرم .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا مؤمل ، قال : ثنا سفيان ، عن فِرَاس[1] ، عن الشعبىّ ، قال : من أصاب حدّا فى الحرم أقيم عليه فى الحرم ، ومن أصابه خارجا من الحرم ، ثم دخل الحرم ، لم يكلم ولم يبايع حتى يخرج من الحرم ، فيقام عليه .

حدثنا سعيد بن يحيى الأموى ، قال : ثنا عبد السلام بن حرب ، قال : ثنا عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، وعن عبد الملك ، عن عطاء بن أبى رباح ، فى الرجل يقتل ، ثم يدخل الحرم ، قال : لايبيعه أهل مكة ، ولا يشترون منه ، ولا يسقونه ولا يطعمونه ، ولايؤونه ، عدّ أشياء كثيرة ، حتى يخرج من الحرم ، فيؤخذ بذنبه .

حُدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : إن الرجل إذا أصاب حدّا ثم دخل الحرم أنه لايطعم ، ولا يسقى ، ولا يُؤْوَى ، ولا يكلم ، ولا ينكح ، ولا يبايع ، فإذا خرج منه أقيم عليه الحدّ .

حدثني المثنى ، قال : ثنى حجاج ، قال : ثنا حماد ، عن عمرو بن دينار ، عن ابن عباس ، قال : إذا أحدث الرجل حدثا ، ثم دخل الحرم ، لم يُؤْوَ ، ولم يجالس ، ولم يبايع ، ولم يطعم ، ولم يسق ، حتى يخرج من الحرم .

حدثني المثنى ، قال : ثنا حجاج ، قال : ثنا حماد ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، مثله .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ : أما قوله (وَمَن

---

(١) فراس بن يحيى الهمدانى صاحب الشعبى : كوفى مكتب محدث ، توفى سنة تسع وعشرين ومئة : (التاج) .

دَخَلَهُ كانَ آمِناً) : فلو أن رجلا قتل رجلا ، ثم أتى الكعبة فعاذ بها، ثم لقيه أخو المقتول، لم يحلّ له أبدا أن يقتله .

وقال آخرون : معنى ذلك : ومن دخله يكن آمنا من النار .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا علىّ بن مسلم ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : أخبرنا رزيق بن مسلم المخزومى ، قال : ثنا زياد ابن أبى عياض ، عن يحيى بن جعدة ، فى قوله (وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً) قال : آمنا من النار .

وأولى الأقوال فى ذلك عندنا بالصواب : قول ابن الزبير ، ومجاهد والحسن ، ومن قال معنى ذلك: ومن دخله من غيره ، ممن لجأ إليه عائذا به ، كان آمنا ما كان فيه ، ولكنه يخرج منه ، فيقام عليه الحدّ إن كان أصاب ما يستوجبه فى غيره ، ثم لجأ إليه ، وإن كان أصابه فيه أقيم عليه فيه .

فتأويل الآية إذن : فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، ومن يدخله من الناس مستجيرا به ، يكن آمنا مما استجار منه ما كان فيه ، حتى يخرج منه .

فإن قال قائل : وما منعك من إقامة الحدّ عليه فيه ؟ قيل : لاتفاق جميع السلف على أن من كانت جريرته فى غيره ، ثم عاذ به ، فإنه لايؤخذ بجريرته فيه .

وإنما اختلفوا فى صفة إخراجه منه لأخذه بها ، فقال بعضهم : صفة ذلك منعه المعانى التى يضطرّ مع منعه وفقده ، إلى الخروج منه .

وقال آخرون : لاصفة لذلك غير إخراجه منه ، بما أمكن إخراجه من المعانى التى توصل إلى إقامة حدّ الله عليه معها، فلذلك قلنا : غيرجائز إقامة الحدّ عليه فيه، إلا بعد إخراجه منه؛فأما من أصاب الحدّ فيه، فإنه لاخلاف بين الجميع فى أنه يقام عليه فيه الحدّ ، فكلتا المسئلتين أصل مجمع على حكمهما، على ماوصفنا .

فإن قال لنا قائل : وما دلالتك على أن إخراج العائذ بالبيت إذا أتاه مستجيرا به من جريرة جرّها ، أو من حدّ أصابه من الحرم، جائز ، لإقامة الحدّ عليه، وأخذه بالجريرة، وقد أقررت بأن الله عزّ وجلّ قد جعل من دخله آمنا ، ومعنى الآمن غير معنى الخائف ، فما هما فيه مختلفان ؟ قيل : قلنا ذلك لإجماع الجميع من المتقدمين والمتأخرين من علماء الأمة ، على أن إخراج العائذ بهمن جريرة أصابها، أوفاحشة أتاها، وجبت عليه بها عقوبة منه ببعض معانى الإخراج، لأخذه بما لزمه ، واجب على إمام المسلمين، وأهل الإسلام معه .

وإنما اختلفوا فى السبب الذى يخرج به منه ، فقال بعضهم : السبب الذى يجوز إخراجه به منه ، ترك جميع المسلمين مبايعته وإطعامه وسقيه وإيواءه وكلامه، وما أشبه ذلك من المعانى التى لاقرار للعائذ به فيه مع بعضها ، فكيف مع جميعها ؟

وقال آخرون منهم: بل إخراجه لإقامة ما لزمه من العقوبة واجب ، بكل معانى الإخراج، فلما كان إجماعا من الجميع ، على أن حكم الله فيمن عاذ بالبيت ، من حدّ أصابه ، أو جريرة جرّها ؛ إخراجه منه ؛ لإقامة مافرض الله على المؤمنين إقامته عليه .

ثم اختلفوا فى السبب الذى يجوز إخراجه به منه ، كان اللازم لهم ولإمامهم إخراجه منه ، بأى معنى أمكنهم إخراجه منه ، حتى يقيموا عليه الحدّ الذى لزمه ، خارجا منه إذا كان لجأ إليه من خارج على ما قد بيّنا قبل .

وبعد، فإن الله عزّ وجلّ لم يضع حدّا من حدوده عن أحد من خلقه، من أجل بقعة وموضع صار إليها من لزمه ذلك ، وقد تظاهرت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنّى حَرَّمْتُ المَدِينَةَ كَمَا حَرَّمَ إبْرَاهِيمُ مَكَّةَ » ، ولا خلاف بين جميع الأمة ، أن عائذا لو عاذ من عقوبة لزمته بحرم النبىّ صلى الله عليه وسلم ، يؤاخذ بالعقوبة فيه ، ولولا ما ذكرت من إجماع السلف على أن حرم إبراهيم لايقام فيه على من عاذ به من عقوبة لزمته ، حتى يخرج منه ما لزمه ، لكان أحقّ البقاع أن تؤدى فيه فرائض الله التى ألزمها عباده ، من قتل أو غيره ، أعظم البقاع إلى الله ، كحرم الله ، وحرم رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولكنا أمرنا بإخراج من أمرنا بإخراجه من حرم الله ، لإقامة الحدّ ، لما ذكرنا من فعل الأمة ذلك وراثة .

فمعنى الكلام إذ كان الأمر على ما وصفنا : ومن دخله كان آمنا ما كان فيه . فإذا كان ذلك كذلك ، فمن لجأ إليه من عقوبة لزمته عائذا به ، فهو آمن ما كان به حتى يخرج منه ، وإنما يصير إلى الخوف بعد الخروج أو الإخراج منه ، فحينئذ هو غير داخله ، ولا هو فيه .

القول فى تأويل قوله (وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إلَيْهِ سَبِيلاً) :

يعنى بذلك جل ثناؤه : وفرض واجب لله على من استطاع من أهل التكليف السبيل إلى حجّ بيته الحرام الحجّ إليه . وقد بيّنا فيما مضى معنى الحجّ ، ودللنا على صحة ما قلنا من معناه ، بما أغنى عن إعادته فى هذا الموضع .

واختلف أهل التأويل فى تأويل قوله عزّ وجلّ (مَنِ اسْتَطَاعَ إلَيْهِ سَبِيلا) ، وما السبيل التى يجب مع استطاعتها فرض الحجّ ، فقال بعضهم : هى الزاد والراحلة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا محمد بن بكر ، قال : أخبرنا ابن جريج ، قال: قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه (مَنِ اسْتَطَاعَ إلَيْهِ سَبِيلا) قال : الزاد والراحلة .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا محمد بن بكر ، قال : أخبرنا ابن جريج ، قال : قال عمرو بن دينار : الزاد والراحلة .

حدثنا أبو كريب، قال : ثنا وكيع ، عن أبى خبّاب ، عن الضحاك ، عن ابن عباس، فى قوله (مَنِ اسْتَطَاعَ إلَيْهِ سَبِيلا) قال : الزاد والبعير .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قوله (وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إلَيْهِ سَبِيلا) ، والسبيل : أن يصحّ بدن العبد ، ويكون له ثمن زاد وراحلة ، من غير أن يُجحف به .

حدثنا خلاد بن أسلم ، قال : ثنا النضر بن شميل ، قال : أخبرنا إسرائيل ، عن أبي عبد الله البجلي ، قال : سألت سعيد بن جبير ، عن قوله (مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلا) قال : قال ابن عباس : من ملك ثلثمائة درهم ، فهو السبيل إليه .

حدثني محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن إسحاق بن عثمان ، قال : سمعت عطاء يقول : السبيل : الزاد والراحلة .

حدثني محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدي : أما من استطاع إليه سبيلا ، فإن ابن عباس قال : السبيل : راحلة وزاد .

حدثني المثنى وأحمد بن حازم ، قالا : ثنا أبو نعيم ، قال : ثنا سفيان ، عن محمد بن سوقة ، عن سعيد ابن جبير (مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلا) قال : الزاد والراحلة .

حدثنا أحمد بن حازم ، قال : ثنا أبو نعيم ، قال : أخبرنا الربيع بن صبيح ، عن الحسن ، قال : الزاد والراحلة .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن منصور ، عن الحسن ، قال : قرأ النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلا) فقال رجل : يا رسول الله ، ما السبيل ؟ قال : الزَّادُ وَالرَّاحِلَةُ .

واعتل قائلو هذه المقالة بأخبار رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بنحو ما قالوا في ذلك .

ذكر الرواية بذلك ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا إبراهيم بن يزيد الخوزي ، قال : سمعت محمد بن عباد بن جعفر ، يحدث عن ابن عمر ، قال : « قام رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما السبيل ؟ قال : الزَّادُ وَالرَّاحِلَةُ » .

حدثني محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا سفيان ، عن إبراهيم الخوزي ، عن محمد بن عباد ، عن ابن عمر ، « أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال في قوله عز وجل (مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلا) قال : السَّبِيلُ إلى الحَجّ ، الزَّادُ وَالرَّاحِلَةُ » .

حدثنا حميد بن مسعدة ، قال : ثنا بشر بن المفضل ، قال : ثنا يونس ، وحدثني يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا ابن علية ، عن يونس ، عن الحسن ، قال : « قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلا) قالوا : يا رسول الله ، ما السبيل ؟ قال : الزَّادُ وَالرَّاحِلَةُ » .

حدثنا أبو عثمان المقدمي ، والمثنى بن إبراهيم ، قالا : ثنا مسلم بن إبراهيم ، قال : ثنا هلال بن عبيد الله مولى ربيعة بن عمرو بن مسلم الباهلي ، قال : ثنا أبو إسحاق ، عن الحارث ، عن علي ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « مَنْ مَلَكَ زَادًا وَرَاحِلَةً تُبَلِّغُهُ إلى بَيْتِ اللهِ ، فَلَمْ يَحُجَّ ، فَلا عَلَيْهِ أَنْ

يَمُوتَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا » ، وذلك أن الله عزّ وجلّ يقول فى كتابه (وَلِلهِ على النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلا) . . . الآية .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، عن الحسن ، قال : « بلغنا أن نبىّ الله صلى الله عليه وسلم ، قال له قائل ، أو رجل : يارسول الله ما السبيل إليه ؟ قال : مَنْ وَجَدَ زَادًا وَرَاحِلَةً » .

حدثنا أحمد بن الحسن التِّرمذىّ ، قال : ثنا شاذ بن فياض البصرىّ ، قال : ثنا هلال بن هشام ، عن أبى إسحاق الهمدانى ، عن الحارث ، عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ مَلَكَ زَادًا وَرَاحِلَةً فَلَمْ يَحُجَّ ، ماتَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا ، وذلك أن الله يقول فى كتابه (وَلِلهِ على النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلا) . . . الآية » .

حدثنى أحمد بن حازم ، قال : ثنا أبو نعيم ، قال : ثنا حماد بن سلمة ، عن قتادة وحميد ، عن الحسن ، « أن رجلا قال : يا رسول الله ، ما السبيل إليه ؟ قال : الزَّادُ وَالرَّاحِلَةُ » .

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا الحجاج بن المنهال ، قال : ثنا حماد ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، مثله .

وقال آخرون : السبيل التى إذا استطاعها المرء كان عليه الحجّ : الطاقة للوصول إليه .

قال : وذلك قد يكون بالمشى وبالركوب ، وقد يكون مع وجودهما العجز عن الوصول إليه ، بامتناع الطريق من العدوّ الحائل ، وبقلة الماء ، وما أشبه ذلك . قالوا : فلا بيان فى ذلك أبين مما بينه الله عزّ وجلّ ، بأن يكون مستطيعا إليه السبيل ، وذلك الوصول إليه بغير مانع ، ولا حائل بينه وبينه ، وذلك قد يكون بالمشى وحده ، وإن أعوزه المركَب ، وقد يكون بالمركب وغير ذلك .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن بن مهدىّ ، قال : ثنا سفيان ، عن خالد بن أبى كريمة ، عن رجل ، عن ابن الزبير ، قوله (وَلِلهِ على النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلا) قال : على قدر القوّة .

حدثنا يحيى بن أبى طالب ، قال : أخبرنا يزيد ، قال : أخبرنا جويبر ، عن الضحاك فى قوله (مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلا) قال : الزاد والراحلة ، فإن كان شابا صحيحا ليس له مال ، فعليه أن يُؤاجر نفسه بأكله وعقبه ، حتى يقضى حجته ، فقال له قائل : كلف الله الناس أن يمشوا إلى البيت ؟ فقال : لوأن لبعضهم ميراثا بمكة ، أكان تاركه ؟ والله لانطلق إليه ولو حَبَوْا ، كذلك يجب عليه الحجّ .

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا محمد بن بكر ، قال : أخبرنا ابن جريج ، قال : قال عطاء : من وجد شيئا يبلّغه ، فقد وجد سبيلا ، كما قال الله عزّ وجلّ (مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً) .

حدثنا أحمد بن حازم ، قال : ثنا أبو نعيم ، قال : ثنا أبوهانئ ، قال : ثنا سهل بن عامر ، عن هذه الآية (وَلِلهِ على النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ من اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلا) قال : السبيل : ما يسره الله .

حدثنى محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفىّ ، قال : ثنا عباد ، عن الحسن : من وجد شيئا يبلغه فقد استطاع إليه سبيلا .

وقال آخرون : السبيل إلى ذلك : الصحة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن حميد ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم والمثنى بن إبراهيم ، قالوا : حدثنا أبو عبد الرحمن المقرى ، قال : ثنا حَيْوة بن شريح وابن لهيعة ، قالا : أخبرنا شرحبيل بن شريك المعافرىّ : أنه سمع عكرمة مولى ابن عباس يقول فى هذه الآية (وَلِلّهِ على النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً) قال : السبيل : الصحة .

وقال آخرون بما حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قول الله عزّ وجلّ (وَلِلّهِ على النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلا) قال : من وجد قوّة فى النفقة والجسد والحُمْلان[١] ، قال : وإن كان فى جسده ما لايستطيع الحجّ ، فليس عليه الحجّ ، وإن كان له قوّة فى مال ؛ كما إذا كان صحيح الجسد ولا يجد مالا ولا قوّة ، يقولون : لايكلّف أن يمشى .

وأولى الأقوال فى ذلك عندنا بالصواب : قول من قال بقول ابن الزبير وعطاء : إن ذلك على قدر الطاقة ، لأن السبيل فى كلام العرب : الطريق ، فمن كان واجدا طريقا إلى الحجّ ، لامانع له منه ، من زَمانة ، أو عجز ، أو عدوّ ، أو قلة ماء فى طريقه ، أو زاد ، وضعف عن المشى ، فعليه فرض الحجّ ، لا يجزيه إلا أداؤه . فإن لم يكن واجدا سبيلا ، أعنى بذلك : فإن لم يكن مطيقا الحجّ بتعذّر بعض هذه المعانى التى وصفناها عليه ، فهو ممن لايجد إليه طريقا ، ولا يستطيعه ، لأن الاستطاعة إلى ذلك هو القدرة عليه ، ومن كان عاجزا عنه ببعض الأسباب التى ذكرنا ، أو بغير ذلك ، فهو غير مطيق ولا مستطيع إليه السبيل .

وإنما قلنا هذه المقالة أولى بالصحة مماخالفها ، لأن الله عزّ وجلّ لم يخصص ، إذ ألزم الناس فرض الحجّ ، بعض مستطيعى السبيل إليه ، بسقوط فرض ذلك عنه ، فذلك على كل مستطيع إليه سبيلا بعموم الآية . فأما الأخبار التى رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك ، بأنه الزاد والراحلة ، فإنها أخبار فى أسانيدها نظر ، لايجوز الاحتجاج بمثلها فى الدين .

واختلف القراء فى قراءة الحجّ ، فقرأ ذلك جماعة من قراء أهل المدينة والعراق بالكسر (وَلِلّهِ على النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ) ، وقرأ ذلك جماعة أخرى منهم بالفتح (وَلِلّهِ على النَّاسِ حَجُّ البَيْتِ) ، وهما لغتان معروفتان للعرب ، فالكسر لغة أهل نجد ، والفتح لغة أهل العالية[٢] ، ولم نر أحدا من أهل العربية ادّعى فرقا بينهما فى معنى ولا غيره ، غيرما ذكرنا من اختلاف اللغتين ، إلا ما حدثنا به أبو هشام الرفاعىّ ، قال : قال حسن الجُعْفِىّ : الحَجّ مفتوح : اسم ، والحِجّ مكسور : عمل . وهذا قول لم أر أهل المعرفة بلغات العرب ومعانى كلامهم يعرفونه ، بل رأيتهم مجمعين على ما وصفت ، من أنهما لغتان بمعنى واحد .

والذى نقول به فى قراءة ذلك ، أن القراءتين إذ كانتا مستفيضتين فى قراءة أهل الإسلام ، ولا اختلاف

(١) فى اللسان : حمل الشىء يحمله حملا وحملانا ، بضم الحاء فى الأخير ، وسكون الميم .
(٢) أرض بناحية المدينة ، مما يلى نجدا .

بينهما فى معنى ولا غيره ، فهما قراءتان قد جاءتا بمجىء الحجة ، فبأىّ القراءتين ، أعنى بكسر الحاء من الحجّ أو فتحها قرأ القارئ ، فمصيب الصواب فى قراءته .

وأما (مَنِ) التى مع قوله (مَنِ اسْتَطَاعَ) فإنه فى موضع خفض على الإبدال من الناس ، لأن معنى الكلام : ولله على من استطاع من الناس سبيلا إلى حجّ البيت حجه ؛ فلما تقدم ذكر الناس قبل «مَن» بُيّن بقوله (مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلا) ، الذى عليه فرض ذلك منهم ، لأن فرض ذلك على بعض الناس دون جميعهم .

القول فى تأويل قوله (وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِىٌّ عَنِ العَالَمِينَ) :

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : ومن جحد ما ألزمه الله من فرض حجّ بيته ، فأنكره وكفر به ، فإن الله غنىّ عنه ، وعن حجه وعمله ، وعن سائر خلقه من الجنّ والإنس .

كما حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا عبد الواحد بن زياد ، عن الحجاج بن أرطاة عن محمد بن أبى المُجالد ، قال : سمعت مِقسما ، عن ابن عباس ، فى قوله (وَمَنْ كَفَرَ) قال : من زعم أنه ليس بفرض عليه .

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا الحجاج ، عن عطاء وجويبر ، عن الضحاك فى قوله (وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِىٌّ عَنِ العَالَمِينَ) قالا : من جحد الحجّ ، وكفر به .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا هشيم ، عن الحجاج بن أرطاة ، عن عطاء ، قال : من جحد به .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا عمران القطان ، يقول : من زعم أن الحجّ ليس عليه .

حدثنا محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر ، عن عباد ، عن الحسن ، فى قوله (وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِىٌّ عَنِ العَالَمِينَ) قال : من أنكره ، ولا يرى أن ذلك عليه حقا ، فذلك كفر .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (وَمَنْ كَفَرَ) قال : من كفر بالحجّ .

حدثنا عبد الحميد بن بيان ، قال : أخبرنا إسحاق بن يوسف ، عن أبى بشر ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قوله (وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِىٌّ عَنِ العَالَمِينَ) قال : من كفر بالحجّ كفر بالله .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا يعلى بن أسد ، قال : ثنا خالد ، عن هشام بن حسان ، عن الحسن فى قول الله عزّ وجلّ (وَلِلهِ عَلى النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ، وَمَنْ كَفَرَ) قال : من لم يره عليه واجبا .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (وَمَنْ كَفَرَ) قال : بالحجّ .

وقال آخرون : معنى ذلك : أن لا يكون معتقدا فى حَجّه أن له الأجر عليه ، ولا أن عليه بتركه إثما ، ولا عقوبة .

ذكر من قال ذلك :

حدثني يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا ابن علية ، قال : أخبرنا ابن جريج ، قال : ثني عبد الله بن مسلم ، عن مجاهد ، في قوله (وَمَنْ كَفَرَ فإنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ العالَمِينَ) قال : هو ما إن حجّ لم يره برًّا ، وإن قعد لم يره مأثما .

حدثنا عبد الحميد بن بيان ، قال : أخبرنا إسحاق بن يوسف ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، قال : هو ما إن حجّ لم يره برًّا ، وإن قعد لم يره مأثما .

حدثني أحمد بن حازم ، قال : ثنا أبو نعيم ، قال : ثنا مطر ، عن أبي داود نُفيع ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «(وَلِلهِ على النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إلَيْهِ سَبِيلاً ، وَمَنْ كَفَرَ فإنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ العالَمِينَ) فقام رجل من هُذيل ، فقال : يا رسول الله من تركه كفر ؟ قال : مَنْ تَرَكَهُ وَلا يَخافُ عُقُوبَتَهُ ، وَمَنْ حَجَّ وَلا يَرْجُو ثَوابَهُ ، فَهُوَ ذاكَ » .

حدثني المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثني معاوية ، عن عليّ ، عن ابن عباس (وَمَنْ كَفَرَ فإنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ العالَمِينَ) يقول : من كفر بالحجّ ، فلم ير حجه برًّا ، ولا تركه مأثما .

وقال آخرون : معنى ذلك : ومن كفر بالله واليوم الآخر .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن منصور ، عن مجاهد ، قال : سألته عن قوله (وَمَنْ كَفَرَ فإنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ العالَمِينَ) ماهذا الكفر ؟ قال : من كفر بالله واليوم الآخر .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن بن مهديّ ، قال : ثنا سفيان ، عن منصور ، عن مجاهد ، في قوله (وَمَنْ كَفَرَ) قال : مَنْ كَفَرَ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ .

حدثنا يحيى بن أبي طالب ، قال : أخبرنا يزيد ، قال : أخبرنا جويبر ، عن الضحاك في قوله (وَلِلهِ على النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إلَيْهِ سَبِيلاً) قال : لما نزلت آية الحجّ جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الأديان كلهم ، فقال : « يا أيُّها النَّاسُ إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الحَجَّ فَحُجُّوا ، فآمنت به ملة واحدة ، وهي من صدّق النبيّ صلى الله عليه وسلم وآمن به ، وكفرت به خمس ملل ، قالوا : لانؤمن به ، ولانصلّي إليه ، ولا نستقبله ، فأنزل الله عز وجلّ (وَمَنْ كَفَرَ فإنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ العالَمِينَ) » .

حدثني أحمد بن حازم ، قال : أخبرنا أبو نعيم ، قال : ثنا أبو هانئ ، قال : سئل عامر ، عن قوله (وَمَنْ كَفَرَ) قال : من كفر من الخلق ، فإن الله غنيّ عنه .

حدثني محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا سفيان ، عن إبراهيم ، عن محمد بن عباد ، عن ابن عمر ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، في قول الله (وَمَنْ كَفَرَ) قال : من كفر بالله واليوم الآخر .

حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن عكرمة مولى

ابن عباس ، فى قول الله عزّ وجلّ (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً) فقالت الملل : نحن مسلمون ، فأنزل الله عزّ وجلّ (وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) ، فحجّ المؤمنون ، وقعد الكفار .

وقال آخرون : معنى ذلك : ومن كفر بهذه الآيات التى فى مقام إبراهيم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) فقرأ (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً) فقرأ حتى بلغ (مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ، وَمَنْ كَفَرَ) قال : من كفر بهذه الآيات (فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) : ليس كما يقولون : إذا لم يحجّ ، وكان غنيا ، وكانت له قوّة فقد كفر بها . وقال قوم من المشركين : فإنا نكفر بها ولا نفعل ، فقال الله عزّ وجلّ (فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) .

وقال آخرون بما حدثنى إبراهيم بن عبد الله بن مسلم ، قال : أخبرنا أبو عمر الضرير ، قال : ثنا حماد ، عن حبيب بن أبى بقية ، عن عطاء بن أبى رباح ، فى قوله (وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) قال : من كفر بالبيت .

وقال آخرون : كفره به : تركه إياه حتى يموت .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنى أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ : أما من كفر : فمن وجد ما يحجّ به ، ثم لا يحجّ ، فهو كافر .

وأولى التأويلات بالصواب فى ذلك : قول من قال : معنى (وَمَنْ كَفَرَ) : ومن جحد فرض ذلك ، وأنكر وجوبه ، فإن الله غنىّ عنه ، وعن حجه ، وعن العالمين جميعا .

وإنما قلنا ذلك أولى به ، لأن قوله (وَمَنْ كَفَرَ) بعقب قوله (وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً) بأن يكون خبرا عن الكافر بالحجّ ، أحقّ منه بأن يكون خبرا عن غيره ، مع أن الكافر بفرض الحجّ على من فرضه الله عليه ، بالله كافر ، وأن الكفر أصله الجحود ، ومن كان له جاحدا ، ولفرضه منكرا ، فلا شكّ إن حجّ لم يرج بحجه برّا ، وإن تركه فلم يحجّ لم يره مأثما .

فهذه التأويلات وإن اختلفت العبارات بها فمتقاربات المعانى .

القول فى تأويل قوله

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ، وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (٩٨)

يعنى بذلك : يا معشر يهود بنى إسرائيل وغيرهم من سائر من ينتحل الديانة بما أنزل الله عزّ وجلّ من كتبه ، ممن كفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وجحد نبوّته : لم تجحدون بآيات الله ؟ يقول : لم تجحدون

حُجج الله التي آتاها محمدا في كتبكم وغيرها، التي قد ثبتت عليكم بصدقه ونبوته حُجّتُه ، وأنتم تعلمون ؟ يقول : لم تجحدون ذلك من أمره ، وأنتم تعلمون صدقه ، فأخبر جلّ ثناؤه عنهم أنهم متعمدون الكفر بالله وبرسوله ، على علم منهم ، ومعرفة من كفرهم .

وقد حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدّي (يا أهْلَ الكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللهِ) : أما آيات الله : فمحمد صلى الله عليه وسلم .

حدثني محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر ، قال : ثنا عباد ، عن الحسن في قوله (يا أهْلَ الكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللهِ ، وَاللهُ شَهِيدٌ على ما تَعْمَلُونَ) قال : هم اليهود والنصارى .

القول في تأويل قوله

قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ، وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩)

يعني بذلك جلّ ثناؤه : يا معشر يهود بني إسرائيل وغيرهم ممن ينتحل التصديق بكتب الله (لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ) يقول: لم تُضلون عن طريق الله ومحجته التي شرعها لأنبيائه وأوليائه وأهل الإيمان (مَنْ آمَنَ) يقول : من صدّق بالله ورسوله ، وما جاء به من عند الله (تَبْغُونَها عِوَجاً) يعني تبغون لها عوجا ، والهاء والألف اللتان في قوله (تَبْغُونَها) عائدتان على السبيل ، وأنثها لتأنيث السبيل .

ومعنى قوله : تبغون لها عوجا ، من قول الشاعر ، وهو سُحيم عبدُ بني الحَسْحاس :

بَغَاكَ وَما تَبْغِيهِ حَتى وَجَدْتَهُ كأنَّكَ قد واعَدْتَهُ أمْسِ مَوْعِدا[1]

يعني طلبك وما تطلبه ، يقال: ابغني كذا : يراد ابتغه لي ، فإذا أرادوا : أعِنّي على طلبه ، وابتغه معي ، قالوا : أبغني بفتح الألف . وكذلك يقال : احْلبني ، بمعنى : اكفني الحلب ، وأَحلبني : أعنّي عليه ، وكذلك جميع ما ورد من هذا النوع ، فعلى هذا .

وأما العوج : فهو الأوَدَ والميْل ، وإنما يعني بذلك الضلال عن الهدى ، يقول جلّ ثناؤه (لِمَ تَصُدُّونَ) عن دين الله من صدق الله ورسوله ، تبغون دين الله اعوجاجا عن سَنَنه واستقامته ، وخرج الكلام على السبيل ، والمعنى لأهله ، كأن المعنى : تبغون لأهل دين الله ، ولمن هو على سبيل الحقّ ، عوجا ، يقول: ضلالا عن الحقّ ، وزيغا عن الاستقامة على الهدى والمحجة ، والعِوج بكسر أوله : الأوَد في الدين والكلام، والعَوَج بفتح أوله : الميل في الحائط والقناة ، وكل شيء منتصب قائم .

وأما قوله (وَأَنْتُمْ شُهَداءُ) فإنه يعني : شهداء على أن الذي تصدّون عنه من السبيل، حقّ تعلمونه وتجدونه في كتبكم . (وَما اللهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) يقول :ليس الله بغافل عن أعمالكم التي تعملونها

(١) البيت في ديوانه (طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٥٠ ص ٤١) . والرواية فيه : « إلا وجدته » . وبغاك : طلبك ؛ والفاعل : ضمير يعود على الموت ، في بيت سابق عليه .

مما لا يرضاه لعباده، وغير ذلك من أعمالكم، حتى يعاجلكم بالعقوبة عليها مُعَجلة، أو يؤخر ذلك لكم، حتى تلقوه، فيجازيكم عليها.

وقد ذكر أن هاتين الآيتين من قوله (يا أَهْلَ الكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللهِ) والآيات بعدهما إلى قوله (فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) نزلت في رجل من اليهود، حاول الإغراء بين الحيين من الأوس والخزرج بعد الإسلام، ليراجعوا ما كانوا عليه في جاهليتهم من العداوة والبغضاء، فعنّفه الله بفعله ذلك، وقبح له ما فعل، ووبّخه عليه، ووعظ أيضا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف، وأمرهم بالاجتماع والائتلاف.

ذكر الرواية بذلك:

حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، عن محمد بن إسحاق، قال: ثنى الثقة، عن زيد بن أسلم، قال: مرّ شاس بن قيس، وكان شيخا قد عَسَا[1] في الجاهلية، عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم، على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج، في مجلس قد جمعهم يتحدّثون فيه، فغاظه ما رأى من جماعتهم وألفتهم، وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذى كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فقال: قد اجتمع مَلأ بنى قَيْلَة[2] بهذه البلاد، والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شابا من اليهود، وكان معه، فقال: اعمد إليهم، فاجلس معهم، وذكرهم يوم بُعاث وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار. وكان يوم بعاث يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج، ففعل. فتكلم القوم عند ذلك، فتنازعوا وتفاخروا، حتى تواثب رجلان من الحيين على الرُّكَب: أوس بن قَيْظِيّ، أحد بنى حارثة بن الحارث من الأوس، وجبار ابن صخر أحد بنى سَلِمة من الخزرج، فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم والله رددناها الآن جَذَعة[3]. وغضب الفريقان، وقالوا: قد فعلنا، السلاحَ السلاح، موعدكم الظاهرة، والظاهرة: الحرة، فخرجوا إليها، وتحاور الناس، فانضمت الأوس بعضها إلى بعض، والخزرج بعضها إلى بعض، على دعواهم التى كانوا عليها في الجاهلية، فبلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه، حتى جاءهم، فقال: يامعشر المسلمين، اللهَ اللهَ، أبِدَعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف به بينكم، تَرجعون إلى ما كنتم عليه كفارا؟ فعرف القوم أنها نَزْغَة من الشيطان، وكيد من عدوّهم، فألقوا السلاح من أيديهم، وبكَوا، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدوّ الله شاس بن قيس، وما صنع، فأنزل الله في شاس بن قيس، وما صنع (يا أهل الكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بآياتِ اللهِ وَاللهُ شَهِيدٌ على ما تَعْمَلُونَ).

(١) عسا الشيخ: كبر وأسن، من عسا القضيب إذا يبس.

(٢) هي قيلة بنت كاهل بن عذرة قضاعية. ويقال: بنت جفنة غسانية. وهى أم الأوس والخزرج.

(٣) جذعة: شابة فتية. يريد عودة الحرب قوية كما كانت.

يا أَهْلَ الكِتابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَها عِوَجاً) . . . الآية . وأنزل الله عزّ وجلّ فى أوس بن قيظى وجبّار بن صخر ، ومن كان معهما من قومهما ، الذين صنعوا ما صنعوا ، مما أدخل عليهم شاس بن قيس من أمر الجاهلية (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إيمانِكُمْ كافِرِينَ) إلى قوله (أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ) .

وقيل : إنه عَنَى بقوله (يا أَهْلَ الكِتابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ) جماعة يهود بنى إسرائيل ، الذين كانوا بين أظهر مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أيام نزلت هذه الآيات ، والنصارى ، وأن صدّهم عن سبيل الله ، كان بإخبارهم مَن سألهم عن أمر نبىّ الله محمد صلى الله عليه وسلم ، هل يجدون ذكره فى كتبهم ؟ أنهم لايجدون نعته فى كتبهم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدّى (يا أَهْلَ الكِتابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَها عِوَجاً) كانوا إذا سألهم أحد : هل تجدون محمدا ؟ قالوا : لا ، فصدّوا عنه الناس ، وبغَوا محمدا عوَجا : هلاكا .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (يا أَهْلَ الكِتابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ؟) يقول : لم تصدّون عن الإسلام ، وعن نبى الله ، من آمن بالله ، وأنتم شهداء فيما تقرءون من كتاب الله ، أن محمدا رسول الله ، وأن الإسلام دين الله ، الذى لايقبل غيره ، ولا يجزى إلا به ، تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة والإنجيل .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، نحوه .

حدثنا محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر ، قال : ثنا عباد ، عن الحسن فى قوله (قُلْ يا أَهْلَ الكِتابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ) قال : هم اليهود والنصارى ، نهاهم أن يصدّوا المسلمين عن سبيل الله ، ويريدون أن يعدلوا الناس إلى الضلالة .

فتأويل الآية على ماقاله السدى: يامعشر اليهود، لم تصدّون عن محمد، وتمنعون من اتباعه المؤمنين به، بكتمانكم صفته التى تجدونها فى كتبكم . ومحمد على هذا القول: هوالسبيل . تبغونها عوجا: تبغون محمدا هلاكا.

وأما سائر الروايات غيره ، والأقوال فى ذلك ، فإنه نحو التأويل الذى بيّناه قبل، من أن معنى السبيل التى ذكرها فى هذا الموضع الإسلام ، وما جاء به محمد من الحقّ من عند الله .

القول فى تأويل قوله

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ (١٠٠)

اختلف أهل التأويل فيمن عنى بذلك . فقال بعضهم : عنى بقوله (يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا)، الأوس والخزرج ، وبالذين أوتوا الكتاب : شاس بن قيس اليهودىّ، على ما قد ذكرنا قبلُ من خبره عن زيد بن أسلم .

وقال آخرون : فيمن عَنى بالذين آمنوا ، مثل قول زيد بن أسلم ، غير أنهم قالوا : الذى جرى الكلام بينه وبين غيره من الأنصار ، حتى هموا بالقتال ، ووجد اليهودىّ به مغمزا فيهم ، ثعلبة بن غنمة الأنصارى.

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إيمانِكُمْ كافِرِينَ) قال : نزلت فى ثعلبة بن غنمة الأنصارى ، كان بينه وبين أناس من الأنصار كلام ، فمشى بينهم يهودىّ من قينقاع ، فحمل بعضهم على بعض ، حتى همت الطائفتان من الأوس والخزرج أن يحملوا السلاح فيقاتلوا ، فأنزل الله عزّ وجلّ (إنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إيمانِكُمْ كافِرِينَ) يقول : إن حملتم السلاح فاقتتلتم كفرتم .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا جعفر بن سليمان ، عن حميد الأعرج عن مجاهد فى قوله (يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ) قال : كان جماع قبائل الأنصار بطنين : الأوس والخزرج ، وكان بينهما فى الجاهلية حرب ودماء وشنَآن ، حتى منَّ الله عليهم بالإسلام وبالنبىّ صلى الله عليه وسلم ، فأطفأ الله الحرب التى كانت بينهم ، وألف بينهم بالإسلام ، قال : فبينا رجل من الأوس ، ورجل من الخزرج قاعدان يتحدثان ، ومعهما يهودىّ جالس ، فلم يزل يذكّرهما أيامهما ، والعداوة التى كانت بينهم ، حتى استبّا ، ثم اقتتلا ، قال : فنادى هذا قومه ، وهذا قومه ، فخرجوا بالسلاح ، وصفّ بعضهم لبعض ، قال : ورسول الله صلى الله عليه وسلم شاهد يومئذ بالمدينة ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يزل يمشى بينهم إلى هؤلاء وإلى هؤلاء ، ليسكّنهم ، حتى رجعوا ، ووضعوا السلاح ، فأنزل الله عزّ وجلّ القرآن فى ذلك (يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِين أُوتُوا الكِتابَ) إلى قوله (عَذابٌ عَظِيمٌ) .

فتأويل الآية : يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله ، وأقرّوا بما جاءهم به نبيّهم صلى الله عليه وسلم من عند الله ، إن تطيعوا جماعة ممن ينتحل الكتاب ، من أهل التوراة والإنجيل ، فتقبلوا منهم ما يأمرونكم به ، يُضلوكم ، فيردّوكم بعد تصديقكم رسول ربكم ، وبعد إقراركم بما جاء به من عند ربكم كافرين ، يقول : جاحدين لما قد آمنتم به وصدّقتموه من الحقّ الذى جاءكم من عند ربكم ، فنهاهم جلّ ثناؤه أن ينتصحوهم ، ويقبلوا منهم رأيا أو مشورة ، ويُعلمهم تعالى ذكره ، أنهم لهم منطوون على غِلّ وغشّ وحسد وبغض .

كما حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إيمانِكُمْ كافِرِينَ) : قد تقدم الله إليكم فيهم كما تسمعون ، وحذّركم وأنبأكم بضلالتهم ، فلا تأمنوهم على دينكم ، ولاتنتصحوهم على أنفسكم ، فإنهم الأعداء الحسَدة الضُلاّل ، كيف تأتمنون قوما كفروا بكتابهم ، وقتلوا رسلهم ، وتحيروا فى دينهم ، وعجزوا عن أنفسهم ، أولئك والله هم أهل التُهَمة والعداوة .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، مثله .

القول فى تأويل قوله عز وجل

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ ، وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ، وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : وكيف تكفرون أيها المؤمنون بعد إيمانكم بالله وبرسوله، فترتدّوا على أعقابكم وأنتم تُتلى عليكم آيات الله ، يعنى : حُجج الله عليكم التى أنزلها فى كتابه، على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم. وفيكم رسوله ، حجة أخرى عليكم لله ، مع آى كتابه ، يدعوكم جميع ذلك إلى الحقّ ، ويبصركم الهدى والرشاد ، وينهاكم عن الغىّ والضلال . يقول لهم تعالى ذكره : فما وجه عذركم عند ربكم فى جحودكم نبوّة نبيكم ، وارتدادكم على أعقابكم ، ورجوعكم إلى أمر جاهليتكم ، إن أنتم راجعتم ذلك وكفرتم ، وفيه هذه الحجج الواضحة ، والآيات البينة ، على خطأ فعالكم ذلك إن فعلتموه .

كما حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آياتُ اللهِ) . . . الآية ، عَلَمان بينان : وِجدان نبىّ الله صلى الله عليه وسلم، وكتاب الله ؛ فأما نبىّ الله فمضى صلى الله عليه وسلم ؛ وأما كتاب الله ، فأبقاه الله بين أظهركم رحمة من الله ونعمة . فيه حلاله وحرامه ، وطاعته ومعصيته .

وأما قوله (وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِىَ إلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ) فإنه يعنى : ومن يتعلق بأسباب الله ، ويتمسك بدينه وطاعته ، فقد هُدى، يقول: فقد وُفق لطريق واضح ، ومحجة مستقيمة غير معوجة، فيستقيم به إلى رضا الله ، وإلى النجاة من عذاب الله ، والفوز بجنته .

كما حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قوله (وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِى) قال : يؤمن بالله . وأصل العصم : المنع ، فكل مانع شيئا ، فهو عاصمه ، والممتنع به معتصم به ، ومنه قول الفرزدق :

أنا ابْنُ العاصِمِينَ بَنِى تَمِيمٍ إذَا ما أعْظَمُ الحَدَثانِ نابَا[١]

ولذلك قيل للحبل : عِصام ، وللسبب الذى يتسبب به الرجل إلى حاجته : عِصام ، ومنه قول الأعشى :

إلى المَرْءِ قَيْسٍ أُطِيلُ السُّرَى وآخُذُ مِنْ كُلِّ حَىّ عُصُمْ[٢]

يعنى بالعُصُم : الأسباب ، أسباب الذمة والأمان ، يقال منه : اعتصمت بحبل من فلان ، واعتصمت حبلا منه ، واعتصمت به واعتصمته ، وأفصح اللغتين : إدخال الباء، كما قال عزّ وجلّ (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً) . وقد جاء اعتصمته ، كما قال الشاعر :

(١) البيت فى ديوانه (طبعة القاهرة سنة ١٩٣٦ ص ١١٥) مطلع قصيدة له يناقض بها جريرا . وفى اللسان (حدث) : وحدثان الدهر وحوادثه : نوبه . وناب : أصاب ونزل .

(٢) البيت فى ديوانه (طبعة القاهرة سنة ١٩٥٠ بشرح الدكتور محمد حسين ص ٣٧) من قصيدة يمدح بها قيس بن معديكرب . والعصم بضم الصاد : جمع عصام ، وهو الحبل للمزادة والقربة ونحوها ، والمراد به هنا : كل عهد أو موثق يعتصم به آخذه ويأمن .

إذَا أنْتَ جازَيْتَ الإخاءَ بِمِثْلِهِ　　وآسَيْتَنِى ثُمَّ اعْتَصَمْتُ حِبالِيا[1]

فقال : اعتصمت حباليا ، ولم يدخل الباء ، وذلك نظير قولهم[2] : تناولت الخطام ، وتناولت بالخطام ، وتعلقت به ، وتعلقته ، كما قال الشاعر :

تَعَلَّقْتَ هِنْدًا ناشِئًا ذَاتَ مِئْزَرٍ　　وأنتَ وقد فارَقْتَ لَمْ تَدْرِ ما الحِلْمُ[2]

وقد بينت معنى الهُدى والصراط ، وأنه معنىٌّ به الإسلام ، فيما مضى قبلُ بشواهده ، فكرهنا إعادته فى هذا الموضع .

وقد ذكر أن الذى نزل فى سبب تحاور القبيلتين : الأوس ، والخزرج ، كان منه قوله : ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آياتُ اللهِ ﴾ .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا حسن بن عطية ، قال : ثنا قيس بن الربيع ، عن الأغرّ بن الصباح ، عن خليفة بن حُصين ، عن أبى نصر ، عن ابن عباس ، قال : كانت الأوس والخزرج بينهم حرب فى الجاهلية كل شهر[3] ، فبيناهم جلوس إذ ذكروا ما كان بينهم حتى غضبوا ، فقام بعضهم إلى بعض بالسلاح ، فنزلت هذه الآية ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آياتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ ... إلى آخر الآيتين ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إذْ كُنْتُمْ أعْدَاءً ﴾ . . . إلى آخر الآية .

القول فى تأويل قوله

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) ﴾

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : يا معشر من صدّق الله ورسوله ، اتقوا الله : خافوا الله وراقبوه بطاعته ، واجتناب معاصيه . حقّ تقاته : حقّ خوفه ، وهو أن يطاع فلا يعصى ، ويشكر فلا يكفر ، ويذكر فلا ينسى . ولا تموتنّ أيها المؤمنون بالله ورسوله إلا وأنتم مسلمون لربكم ، مذعنون له بالطاعة ، مخلصون له الألوهية ، والعبادة .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، وحدثنا الحسن بن يحيى ، قال :

(١) فى اللسان : (عصم) : وقوله « واعتصموا بحبل الله » : أى تمسكوا بعهد الله ، وكذلك فى قوله : « ومن يعتصم بالله » : أى من يتمسك بحبله وعهده . وقول الشاعر هنا : « اعتصمت حباليا » : أى اعتصمت بحبالى ، حذف حرف الجر ، وعدى الفعل إلى المجرور ، فنصب ، مثل قول جرير : « تمرون الديار » . والبيت من شواهد الفراء فى معانى القرآن ص ٣٢ من مخطوطة الشنقيطى ، ونسبه إلى بعضهم .

(٢) فى اللسان (علق) : العلاقة : الهوى والحب اللازم للقلب . وقد علقها بالكسر علقا وعلاقة ، وعلق بها علوقا ، وتعلقها وتعلق بها ، وعلقها وعلق بها تعليقا : أحبها . والبيت من شواهد معانى القرآن للفراء من مخطوطة الشنقيطى ص ٣٢ . ونسبه إلى بعضهم .

(٣) الذى فى الدر المنثور : كانت الأوس والخزرج فى الجاهلية بينهم شر الخ ، وهى واضحة ، فلعل فيما هنا تحريفا أو زيادة من الناسخ .

أخبرنا عبد الرزاق ، قال: أخبرنا الثوريّ ، عن زبيد ، عن مرة ، عن عبد الله (اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ) قال : أن يطاع فلا يُعْصَى ،ويذكر فلا يُنْسَى ، ويشكر ، فلا يكفر .

حدثنا ابن بشار ،قال: ثنا عبد الرحمن ، قال: ثنا شعبة ، عن زبيد ،عن مرة الهمْدانيّ، عن عبد الله مثله.

حدثنا ابن المثنى ،قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة ، عن زبيد ، عن مرة الهمْدانيّ ، عن عبد الله ، مثله .

حدثنا أبو كريب وأبو السائب ، قالا : ثنا ابن إدريس ، قال : سمعت ليثا ، عن زبيد ، عن مرة بن شراحيل الهمدانيّ ، عن عبد الله بن مسعود ، مثله .

حدثني المثنى ،قال : ثنا الحجاج بن المنهال ، قال : ثنا جرير ، عن زبيد ، عن عبد الله ، مثله .

حدثني المثنى ، قال : ثنا أبو نعيم ، قال : ثنا مسعر ، عن زبيد ، عن مرة ، عن عبد الله ، مثله .

حدثني المثنى ، قال :ثنا عمرو بن عون ، قال : أخبرنا هشيم ، عن المسعوديّ ، عن زبيد الأَيامىّ ، عن مرّة ، عن عبد الله ، مثله .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن منصور ، عن زبيد ، عن مرة ، عن عبد الله ، مثله .

حدثنا محمد بن سنان ، قال : ثنا يحيى بن سفيان ، عن أبي إسحاق ، عن عمرو بن ميمون (اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ) قال : أن يطاع فلا يعصى ، ويشكر فلا يكفر ، ويذكر فلا ينسى .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبي ، عن إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن عمرو بن ميمون ، نحوه .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا يحيى بن سعيد ، قال : ثنا شعبة ، قال : ثنا عمرو بن مرة ، عن الربيع بن خيثم ، قال : أن يطاع فلا يعصى ، ويشكر فلا يكفر ، ويذكر فلا ينسى .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا أبو داود ، قال : ثنا شعبة ، عن عمرو بن مرة ، قال : سمعت مرة الهمدانيّ يحدّث عن الربيع بن خيثم ، في قول الله عزّ وجلّ (اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ) ، فذكر نحوه .

حدثني المثنى ، قال : ثنا أبوحذيفة ، قال :ثنا شبل ، عن قيس بن سعد ، عن طاوس (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ) أن يطاع فلا يعصى .

حدثنا محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفيّ ، قال : ثنا عباد ، عن الحسن ، في قوله (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ) قال : حقّ تقاته : أن يطاع فلا يعصى .

حدثني محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السديّ ، ثم تقدم إليهم ، يعني إلى المؤمنين من الأنصار ، فقال: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) أما حقّ تقاته : يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر .

حدثني المثنى ، قال : ثنا حجاج بن المنهال ، قال : ثنا همام ، عن قتادة (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ) أن يطاع فلا يعصى ، قال (وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) .

وقال آخرون : بل تأويل ذلك كما حدثني به المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال: ثني معاوية،

عن علىّ ، عن ابن عباس ، قوله (اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ) قال : حقّ تقاته : أن يجاهدوا فى سبيل الله حقّ جهاده ، ولا يأخذهم فى الله لومة لائم ، ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم .

ثم اختلف أهل التأويل فى هذه الآية ، هل هى منسوخة أم لا ؟ فقال بعضهم : هى محكمة غير منسوخة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية بن صالح ، عن علىّ ، عن ابن عباس قوله (اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ) إنها لم تنسخ ، ولكن حقّ تقاته : أن تجاهد فى الله حقّ جهاده . ثم ذكر تأويله الذى ذكرناه عنه آنفا .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن قيس بن سعد ، عن طاوس (يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ) فإن لم تفعلوا ولم تستطيعوا (فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال طاوس ، قوله (وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) يقول : إن لم تتقوه ، فلا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون .

وقال آخرون : هى منسوخة نسخها قوله (فاتَّقُوا اللهَ ما اسْتَطَعْتُمْ) .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ ، وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) ثم أنزل التخفيف واليسر ، وعاد بعائدته ورحمته على مايعلم من ضعف خلقه ، فقال (اتَّقُوا اللهَ ما اسْتَطَعْتُمْ) فجاءت هذه الآية فيها تخفيف وعافية ويسر .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا الحجاج بن المنهال الأنماطىّ ، قال : ثنا همام ، عن قتادة (يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ ، وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) قال : نسخها هذه الآية التى فى التغابن (فاتَّقُوا اللهَ ما اسْتَطَعْتُمْ واسْمَعُوا وأَطِيعُوا) ، وعليها بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على السمع والطاعة فيما استطاعوا .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس ، قال : لما نزلت (اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ) ، ثم نزل بعدها (فاتَّقُوا اللهَ ما اسْتَطَعْتُمْ) ، فنسخت هذه الآية التى فى آل عمران .

حدثنا محمد ، قال : ثنا أحمد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ ، وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) ، فلم يطق الناس هذا ، فنسخه الله عنهم ، فقال : (فاتَّقُوا اللهَ ما اسْتَطَعْتُمْ) .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا

اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ) قال : جاء أمر شديد ، قالوا : ومن يعرف قدر هذا أو يبلغه ، فلما عرف أنه قد اشتدّ ذلك عليهم ، نسخها عنهم ، وجاء بهذه الأخرى ، فقال (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) فنسخها .

وأما قوله (وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) فإن تأويله كما حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة، قال: ثنا شبل ، عن قيس بن سعد ، عن طاوس (وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) قال: على الإسلام وعلى حرمة الإسلام .

القول فى تأويل قوله

وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ، وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ، وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : وتعلقوا بأسباب الله جميعا ، يريد بذلك تعالى ذكره : وتمسكوا بدين الله الذى أمركم به، وعهده الذى عهده إليكم فى كتابه إليكم، من الألفة والاجتماع على كلمة الحقّ، والتسليم لأمر الله . وقد دللنا فيما مضى قبل على معنى الاعتصام . وأما الحبل ، فإنه السبب الذى يوصل به إلى البغية والحاجة ، ولذلك سمى الأمان حبلا ، لأنه سبب يوصل به إلى زوال الخوف ، والنجاة من الجزع والذعر ، ومنه قول أعشى بنى ثعلبة :

وإذَا تُجَوِّزُها حبال قبيلَة أخذَتْ مِنَ الأُخْرَى إليكَ حِبالَها[1]

ومنه قول الله عزّ وجلّ (إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ) .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا العوّام ، عن الشعبىّ ، عن عبد الله بن مسعود : أنه قال فى قوله (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا) قال : الجماعة .

(١) قال فى اللسان (حبل) قال أبو عبيد : أصل الحبل فى كلام العرب ينصرف على وجوه ، منها العهد ، وهو الأمان . وفى حديث الجنازة : اللهم إن فلان بن فلان فى ذمتك وحبل جوارك . كان من عادة العرب أن يخيف بعضها بعضا فى الجاهلية ، فكان الرجل إذا أراد سفرا ، أخذ عهدا من سيد كل قبيلة، فيأمن به ما دام فى تلك القبيلة ، حتى ينتهى إلى الأخرى ، فيأخذ مثل ذلك أيضا، يريد به الأمان . فهذا حبل الجوار ، أى ما دام مجاورا أرضه . أو هو من الإجارة : الأمان والنصرة . وقال الأعشى يذكر مسيرا له . . . البيت . وفى الحديث : بيننا وبين القوم حبال ، أى عهود ومواثيق . قال : والحبل فى غير هذا : المواصلة . قال امرؤ القيس :

إنى بحبلك واصل حبلى وبريش نبلك رائش نبلى

والبيت للأعشى فى قصيدته التى مطلعها « رحلت سمية غدوة أجمالها » ، وانظر ديوانه طبع القاهرة بشرح الدكتور محمد حسين ص ٢٧ ، والقصيدة مدح لقيس بن معد يكرب ، والضمير فى تجوزها عائد على الناقة .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا عمرو بن عون ، قال : ثنا هشيم ، عن العوّام ، عن الشعبىّ ، عن عبد الله فى قوله (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعا) قال : حبل الله : الجماعة .

وقال آخرون : عنى بذلك القرآن ، والعهد الذى عهد فيه .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعا) حبل الله المتين الذى أمر أن يعتصم به : هذا القرآن .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، فى قوله (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعا) قال : بعهد الله وأمره .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن منصور ، عن شقيق ، عن عبد الله ، قال : إن الصراط محتضر ، تحضره الشياطين ، ينادون : يا عبد الله ، هلمّ هذا الطريق ، ليصدّوا عن سبيل الله ، فاعتصموا بحبل الله ، فإن حبل الله هو كتاب الله .

حدثنا محمد ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، عن أسباط ، عن السدىّ (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعا) أما حبل الله : فكتاب الله .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (بِحَبْلِ اللهِ) : بعهد الله .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن عطاء (بِحَبْلِ اللهِ) قال : العهد .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا وكيع ، عن الأعمش ، عن أبى وائل ، عن عبد الله (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ) قال : حبل الله : القرآن .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك فى قوله : (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعا) قال : القرآن .

حدثنا سعيد بن يحيى ، قال : ثنا أسباط بن محمد ، عن عبد الملك بن أبى سليمان العرزمىّ ، عن أبى سعيد الخدرىّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كِتاب اللهُ : هُوَ حَبْلُ اللهِ المَمْدُودُ مِنَ السَّماءِ إلى الأرْضِ » .

وقال آخرون : بل ذلك هو إخلاص التوحيد لله .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، عن أبى العالية فى قوله (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعا) يقول : اعتصموا بالإخلاص لله وحده .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعا) قال : الحبل : الإسلام ، وقرأ (وَلا تَفَرَّقُوا) .

القول فى تأويل قوله عزّ وجلّ (وَلا تَفَرَّقُوا) :

يعنى جلّ ثناؤه بقوله (وَلا تَفَرَّقُوا) : ولا تتفرّقوا عن دين الله وعهده الذى عهد إليكم فى كتابه ، من الائتلاف والاجتماع على طاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والانتهاء إلى أمره .

كما حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (وَلا تَفَرَّقُوا ، وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ) : إن الله عزّ وجلّ قد كره لكم الفرقة ، وقدّم إليكم فيها ، وحذّركموها ، ونهاكم عنها ، ورضى لكم السمع والطاعة ، والألفة والجماعة ، فارضوا لأنفسكم مارضى الله لكم إن استطعتم ، ولاقوّة إلا بالله .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، عن أبى العالية (وَلا تَفَرَّقُوا) : لا تعادَوْا عليه ، يقول : على الإخلاص لله ، وكونوا عليه إخوانا .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية بن صالح ، أن الأوزاعىّ حدثه أن يزيد الرقاشى حدثه ، أنه سمع أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إنَّ بَنِى إِسْرائِيلَ افْتَرَقَتْ على إحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، وإنَّ أُمَّتِى سَتَفْتَرِقُ على اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، كُلُّهُمْ فِى النَّارِ ، إلاَّ وَاحِدَةً» ، قال : فقيل يارسول الله ، وماهذه الواحدة ؟ قال : فقبض يده ، وقال : الجماعة . (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعا وَلا تَفَرَّقُوا) » .

حدثنى عبد الكريم بن أبى عمير ، قال : ثنا الوليد بن مسلم ، قال : سمعت الأوزاعىّ يحدّث عن يزيد الرَّقاشىّ ، عن أنس بن مالك ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، نحوه .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا المحاربىّ ، عن ابن أبى خالد ، عن الشعبىّ ، عن ثابت بن قُطْنة[١] المزنىّ ، عن عبد الله أنه قال : يا أيها الناس عليكم بالطاعة والجماعة ، فإنهما حبل الله الذى أمر به ، وإن ماتكرهون فى الجماعة والطاعة ، هو خير مما تستحبون فى الفرقة .

حدثنا عبد الحميد بن بيان اليشكرىّ ، قال : أخبرنا محمد بن يزيد ، عن إسماعيل بن أبى خالد ، عن الشعبىّ ، عن ثابت بن قطنة ، قال : سمعت ابن مسعود وهو يخطب ، وهو يقول : يا أيها الناس ، ثم ذكر نحوه .

حدثنا إسماعيل بن حفص الآملى ، قال : ثنا عبد الله بن نمير أبو هشام ، قال : ثنا مجالد بن سعيد ، عن عامر ، عن ثابت بن قُطْنة المزنىّ ، قال : قال عبد الله : عليكم بالطاعة والجماعة ، فإنها حبل الله الذى أمر به ، ثم ذكر نحوه .

القول فى تأويل قوله (وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً) :

(١) قوله « عن ثابت بن قطنة ... الخ » كذا فى النسخ ، بزيادة لفظ « ابن » ، ولكن الذى فى الخلاصة والقاموس : أن المحدث هو ثابت قطنة وقطنة : لقب .

يعنى بقوله جلّ ثناؤه (وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ) : واذكروا ما أنعم الله به عليكم من الألفة والاجتماع على الإسلام .

واختلف أهل العربية فى قوله (إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ)، فقال بعض نحويّى البصرة فى ذلك : انقطع الكلام عند قوله (وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ) ، ثم فسر بقوله (فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ) وأخبر بالذى كانوا فيه قبل التأليف ، كما تقول : أمسك الحائط أن يميل .

وقال بعض نحويّى الكوفة : قوله (إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ) تابع قوله(وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ) غير منقطعة منها .

والصواب من القول فى ذلك عندى : أن قوله (إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ) متصل بقوله (وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ) ، غير منقطع عنه .

وتأويل ذلك : واذكروا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم ، التى أنعم بها عليكم حين كنتم أعداء : أى بشركِكم ، يقتل بعضكم بعضا ، عصبية فى غير طاعة الله ولا طاعة رسوله ، فألف الله بالإسلام بين قلوبكم ، فجعل بعضكم لبعض إخوانا ، بعد إذ كنتم أعداء تتواصلون بألفة الإسلام ، واجتماع كلمتكم عليه .

كما حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : حدثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ) كنتم تذابحون فيها ، يأكل شديدكم ضعيفكم ، حتى جاء الله بالإسلام ، فآخى به بينكم ، وألف به بينكم ، أما والله الذى لا إله إلا هو ، إن الألفة لرحمة ، وإن الفرقة لعذاب .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع فى قوله (وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً) : يقتل بعضكم بعضا ، ويأكل شديدكم ضعيفكم ، حتى جاء الله بالإسلام ، فألف به بينكم ، وجمع جمعكم عليه ، وجعلكم عليه إخوانا ؛ فالنعمة التى أنعم الله على الأنصار ، التى أمرهم تعالى ذكره فى هذه الآية أن يذكروها ، هى ألفة الإسلام ، واجتماع كلمتهم عليها ، والعداوة التى كانت بينهم ، التى قال الله عزّ وجلّ (إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً) فإنها عداوة الحروب التى كانت بين الحيّين من الأوس والخزرج ، فى الجاهلية قبل الإسلام ، يزعم العلماء بأيام العرب ، أنها تطاولت بينهم عشرين ومائة سنة .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : قال ابن إسحاق : كانت الحرب بين الأوس والخزرج عشرين ومائة سنة ، حتى قام الإسلام وهم على ذلك ، فكانت حربهم بينهم وهم أخوان لأب وأم ، فلم يُسمع بقوم كان بينهم من العداوة والحرب ما كان بينهم ، ثم إن الله عزّ وجلّ أطفأ ذلك بالإسلام ، وألف بينهم برسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، فذكّرهم جلّ ثناؤه إذ وعظهم ، عظيم ما كانوا فيه فى جاهليتهم من البلاء والشقاء ، بمعاداة بعضهم بعضا ، وقتل بعضهم بعضا ، وخوف بعضهم من بعض ، وما صاروا

إليه بالإسلام ، واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم والإيمان به ، وبما جاء به من الائتلاف والاجتماع ، وأمن بعضهم من بعض ، ومصير بعضهم لبعض إخوانا .

وكان سبب ذلك ما حدثنا به ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : ثنى ابن إسحاق ، قال : ثنا عاصم بن عمر بن قتادة المدنىّ ، عن أشياخ من قومه ، قالوا : قدم سُويد بن صامت أخو بنى عمرو بن عوف ، مكة حاجا أو معتمرا ، قال : وكان سويد إنما يسميه قومه فيهم الكامل ، لجلده وشعره ، ونسبه وشرفه . قال : فتصدّى له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به ، فدعاه إلى الله عزّ وجلّ وإلى الإسلام . قال : فقال له سويد : فلعلّ الذى معك مثل الذى معى . قال : فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وَمَا الَّذِى مَعَكَ ؟ قال مَجَلّة لُقْمان : يعنى حكمة لقمان ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : اعْرِضْها عَلَىَّ ، فعرضها عليه ، فقال : إنَّ هَذَا الكَلَامَ حَسَنٌ ، مَعِى أفْضَلُ مِنْ هَذَا ، قُرآنٌ أنْزَلَهُ اللهُ عَلَىَّ ، هُدًى وَنُورٌ ، قال : فتلا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ، ودعاه إلى الإسلام ، فلم يبعد منه ، وقال : إن هذا القول حسن ، ثم انصرف عنه ، وقدم المدينة ، فلم يلبث أن قتلته الخزرج ، فإن كان قومه ليقولون : قد قتل وهو مسلم ، وكان قتله قبل يوم بُعاث .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن محمد بن إسحاق ، قال : ثنى الحسين بن عبد الرحمن بن عمرو ابن سعد بن مُعاذ ، أحد بنى عبد الأشهل : أن محمود بن أسد ، أحد بنى عبد الأشهل ، قال : لما قدم أبو الحيش أنَس بن رافع مكة ، ومعه فتية من بنى عبد الأشهل ، فيهم إياس بن معاذ ، يلتمسون الحِلْف من قريش على قوم من الخزرج ، سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتاهم ، فجلس إليهم ، فقال : « هَلْ لَكُمْ إلى خَيْرٍ مِمَّا جِئْتُمْ لَهُ ؟ قالُوا : وَمَا ذَاكَ ؟ قال : أنا رَسُولُ اللهِ ، بَعَثَنِى إلى العِبادِ ، أدْعُوهُمْ إلى اللهِ ، أنْ يَعْبُدُوا اللهَ وَلا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وأنْزَلَ عَلَىَّ الكِتابَ ، ثم ذكر لهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن » فقال إياس بن معاذ ، وكان غلاما حدَثا : أىْ قوم ، هذا والله خير مما جئتم له . قال : فأخذ أبو الحيش أنس بن رافع حَفْنة من البطحاء ، فضرب بها وجه إياس بن معاذ ، وقال : دعنا منك ، فلعمرى لقد جئنا لغير هذا ، قال : فصمت إياس بن مُعاذ ، وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم ، وانصرفوا إلى المدينة ، وكانت وقعة بُعاث بين الأوس والخزرج . قال : ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك . قال : فلما أراد الله إظهار دينه ، وإعزاز نبيه صلى الله عليه وسلم ، وإنجاز موعده له ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الموسمَ الذى لَقِى فيه النفرَ من الأنصار ، يعرض نفسه على قبائل العرب ، كما كان يصنع فى كل موسم ، فبينا هو عند العقبة ، إذ لَقِى رهطا من الخزرج أراد الله لهم خيرا . قال ابن حميد : قال سلمة : قال محمد بن إسحاق : فحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة ، عن أشياخ من قومه ، قالوا : لما لقيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : مَنْ أنْتُمْ ؟ قالوا : نفر من الخزرج ، قال : أمِنْ مَوَالِى يَهُود ؟ قالوا : نعم . قال : أفَلا تَجْلِسُونَ حَتى أُكَلِّمَكُمْ ؟ قالوا : بلى ، قال : فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، قال : وكان مما صنع الله لهم به فى الإسلام ، أن يهود كانوا

معهم ببلادهم ، وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا أهل شرك ، أصحاب أوثان ، وكانوا قد غزوهم ببلادهم ، فكانوا إذا كان بينهم شىء ، قالوا لهم : إن نبيا الآن مبعوث ، قد أظلّ زمانُه ، نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرَم ، فلما كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر ، ودعاهم إلى الله عزّ وجلّ ، قال بعضهم لبعض : ياقوم ، تَعَلَّمُوا والله إنه للنبىّ الذى توعدكم به يهود ، ولايسبقُنَّكم إليه ، فأجابوه فيما دعاهم إليه ، بأن صدّقوه ، وقبلوا منه ماعرض عليهم من الإسلام ، وقالوا له : إنا قد تركنا قومنا ولا قوم ، بينهم من العداوة والشرّ مابينهم ، وعسى أن يجمعهم الله بك ، وسنقدَم عليهم ، فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه ، فلا رجل أعزّ منك ، ثم انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، راجعين إلى بلادهم ، قد آمنوا وصدّقوا ، وهم فيما ذكر لى ستة نفر . قال : فلما قدموا المدينة على قومهم ، ذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعوهم إلى الإسلام ، حتى فشا فيهم ، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا كان العام المقبل ، وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا ، فلقُوه بالعقبة ، وهى العقبة الأولى ، فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء ، وذلك قبل أن يفترض عليهم الحرب » .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن أيوب ، عن عكرمة : أنه لقى النبىّ صلى الله عليه وسلم ستةُ نفر من الأنصار ، فآمنوا به وصدّقوه ، فأراد أن يذهب معهم ، فقالوا : يا رسول الله ، إن بين قومنا حربا ، وإنا نخاف إن جئت على حالك هذه ألا يتهيأ الذى تريد ، فوعدوه العام المقبل ، وقالوا : يا رسول الله نذهب ، فلعلّ الله أن يصلح تلك الحرب ، قال : فذهبوا ففعلوا ، فأصلح الله عزّ وجلّ تلك الحرب ، وكانوا يرون أنها لاتصلح ، وهو يوم بُعاث ، فلقوه من العام المقبل سبعين رجلا قد آمنوا ، فأخذ عليهم النقباءَ اثنى عشر نقيبا ، فذلك حين يقول (وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إذْ كُنْتُمْ أعْدَاءً فَألَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ) .

حدثنى محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ : أما (إذْ كُنْتُمْ أعْدَاءً) : فى حرب [1] (فَألَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ) : بالإسلام .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا أبو سفيان ، عن معمر ، عن أيوب ، عن عكرمة ، بنحوه ، وزاد فيه : فلما كان من أمر عائشة ما كان ، فتثاور [2] الحيان ، فقال بعضهم لبعض : موعدكم الحرة ، فخرجوا إليها ، فنزلت هذه الآية (وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إذْ كُنْتُمْ أعْدَاءً فَألَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إخْوَانًا) . . .الآية ، فأتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يزل يتلوها عليهم ، حتى اعتنق بعضهم بعضا ، وحتى إن لهم لحنينا ، يعنى البكاء . وسُمَيْر الذى زعم السدىّ أنّ قوله (إذْ كُنْتُمْ أعْدَاءً) عنى به حربه : هو سمير بن زيد بن مالك أحد بنى عمرو بن عوف ، الذى ذكره مالك بن العجلان فى قوله :

(١) لعله قد سقط من الناسخ لفظة « سمير » ، وسيأتى تصريحه بها بعد قليل .
(٢) فى الدر المنثور : فتشاور ، تحريف عن تساور .

إنَّ سُمَيرًا أرَى عَشِيرَتَهُ قَدْ حَدَبُوا دُونَهُ وَقَدْ أَنِفُوا

إنْ يَكُنِ الظَّنُّ صادِقِي ببنى النَّجَّارِ لم يَطْعَمُوا الذى عَلِقُوا[1]

وقد ذكر علماء الأنصار أن مبدأ العداوة التى هيجت الحروب التى كانت بين قبيلتيها الأوس والخزرج وأولها ، كان بسبب قتل مولى لمالك بن العجلان الخزرجىّ ، يقال له : الحُرّ بن سُمير ، من مزينة ، وكان حليفا لمالك بن العجلان ، ثم اتصلت تلك العداوة بينهم ، إلى أن أطفأها الله بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، فذلك معنى قول السدىّ : حرب ابن[2] سُمير .

وأما قوله (فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا) فإنه يعنى : فأصبحتم بتأليف الله عزّ وجلّ بينكم بالإسلام وكلمة الحقّ ، والتعاون على نصرة أهل الإيمان ، والتآزر على من خالفكم من أهل الكفر ، إخوانا متصادقين ، لاضغائن بينكم ، ولا تحاسد .

كما حدثنى بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا) . وذُكر لنا أن رجلا قال لابن مسعود : كيف أصبحتم ؟ قال : أصبحنا بنعمة الله إخوانا .

القول فى تأويل قوله (وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا) :

يعنى بقوله جلّ ثناؤه (وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ) : وكنتم يا معشر المؤمنين من الأوس والخزرج ، على حرف حفرة من النار ، وإنما ذلك مثَل لكفرهم الذى كانوا عليه قبل أن يهديهم الله للإسلام ، يقول تعالى ذكره : وكنتم على طَرَف جهنم بكفركم الذى كنتم عليه ، قبل أن ينعم الله عليكم بالإسلام ، فتصيروا بائتلافكم عليه إخوانا ، ليس بينكم وبين الوقوع فيها إلا أن تموتوا على ذلك من كفركم ، فتكونوا من الخالدين فيها ، فأنقذكم الله منها ، بالإيمان الذى هداكم له . وشفا الحفرة : طرَفها وحرفها ، مثل شفا الرَّكِية والبئر ، ومنه قول الراجز :

نَحْنُ حَفَرْنا للحَجِيجِ سَجْلَهْ نابِتَةً فوقَ شَفاها بَقْلَهْ[3]

---

(١) فى اللسان : (علق) : العلقة (بالضم) والعلاق : ما فيه بلغة من الطعام إلى وقت الغذاء . وقال اللحيانى : ما يأكل فلان إلا علقة : أى ما يمسك نفسه من الطعام . وفى الحديث : وتجتزئ بالعلقة : أى تكتفى بالبلغة من الطعام . وعلق علاقا وعلوقا بفتح العين فيهما : أكل . وما فى الأرض علاق ولا لماق ، أى ما فيها مايتبلغ به من عيش . وأورد البيت الأول صاحب اللسان ، فى (سمر) وقال : سمير ، على لفظ التصغير : اسم رجل . ولم يذكر قائل البيت .

(٢) الذى سبق فى كلام السدى : حرب سمير كما قال المؤلف .

(٣) سجلة : قال البكرى فى معجم ما استعجم : بفتح أوله وإسكان ثانيه ، على لفظ تأنيث السجل من الدلاء : بئر احتفرها قصى بمكة ، وقال :

أنا قُصَىٌّ وحَفَرْتُ سَجْلَهْ تَرْوِى الحجيجَ زُغْلَةً فَزُغْلَهْ

وقيل : بل حفرها هاشم ، ووهبها أسد بن هاشم لعدى بن نوفل ، وفى ذلك تقول خالدة بنت هاشم :

نَحْنُ وَهَبْنا لِعَدِىٍّ سَجْلَهْ تَرْوِى الحَجِيجَ زُغْلَةً فَزُغْلَهْ

أى جرعة فجرعة أو قدر ما يملأ الفم . وقد دخلت هذه البئر فى زيادة بناء المسجد . وشفاها : حرفها . وقال السهيلى فى الروض الأنف (١ : ١٠١) مثل قول البكرى فى المعجم .

يعنى فوق حرفها، يقال: هذا شَفَا هذه الرَّكية، مقصور، وهما شفواها، وقال (فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا): يعنى فأنقذكم من الحفرة، فردّ الخبر إلى الحفرة، وقد ابتدأ الخبر عن الشفا، لأن الشَّفَا من الحفرة، فجاز ذلك، إذ كان الخبر عن الشفا، على السبيل التى ذكرها فى هذه الآية، خبرا عن الحفرة، كما قال جرير بن عطية :

رأَتْ مَرَّ السِّنِينَ أخذْنَ مِنِّى ... كما أخذَ السِّرَارُ مِنَ الهِلالِ[1]

فذكر مرّ السنين، ثم رجع إلى الخبر عن السنين، وكما قال العجاج :

طُولُ اللَّيالى أسْرَعَتْ فِى نَقْضِى ... طَوَيْنَ طُولى وَطَوَيْنَ عَرْضِى[2]

وقد بينت العلة التى من أجلها قيل ذلك كذلك فيما مضى قبلُ .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك من التأويل، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر، قال : ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله (وكُنْتُمْ على شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آياتِهِ) : كان هذا الحىّ من العرب أذلَّ الناس ذُلا، وأشقاه عيشا، وأبينه ضلالة، وأعراه جلودا، وأجوعه بطونا، معكومين على رأس حجر بين الأسدين : فارس والروم، لاوالله ما فى بلادهم يومئذ من شىء يُحسدون عليه، من عاش منهم عاش شقيا، ومن مات رُدّى فى النار، يؤكلون ولا يأكلون، والله ما نعلم قبيلا يومئذ من حاضر الأرض، كانوا فيها أصغر حظا، وأدقّ فيها شأنا منهم، حتى جاء الله عزّ وجلّ بالإسلام، فورّثكم به الكتاب، وأحلّ لكم به دار الجهاد، ووضع لكم به من الرزق، وجعلكم به ملوكا على رقاب الناس. وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا نعمه، فإن ربكم منعم يحبّ الشاكرين، وإن أهل الشكر فى مزيد الله، فتعالى ربنا وتبارك.

حدثنى المثنى، قال : ثنا إسحاق، قال : ثنا عبد الله بن أبى جعفر، عن أبيه، عن الربيع بن أنس، قوله (وكُنْتُمْ على شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ) يقول : كنتم على الكفر بالله (فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها) : من ذلك، وهداكم إلى الإسلام .

---

(١) البيت فى ديوان جرير بشرحه لمحمد إسماعيل الصاوى (ص ٤٢٦) . وفى اللسان (سرر) السرار : آخر ليلة إذا كان الشهر تسعا وعشرين . وسراره : ليلة ثمان وعشرين . وإذا كان الشهر ثلاثين فسراره ليلة تسع وعشرين . قيل : وربما استسر ليلتين إذا تم الشهر . وإنما قال أخذن، ولم يقل أخذ، لأن (المر) لما أضيف إلى السنين وهو جمع مؤنث، اكتسب منه التأنيث، فأدخل النون فى الفعل مراعاة لما فى (المر) من التأنيث المكتسب من الإضافة، وما قيل فى هذا يقال فى الشاهد الذى بعده من قول العجاج .

(٢) هذان بيتان من مشطور الرجز، اختلف الرواة فى نسبتهما لقائلهما، فقال صاحب الأغانى هما للأغلب العجلى . وقيل للعجاج، وهما فى زوائد ديوانه ص ٨٠، وقيل إنهما من شوارد الرجز التى لايعلم قائلها . وفى البيت الأول روايات : ورواية المؤلف كرواية الكتاب لسيبويه، وروى : « مر الليالى » فى (خزانة الأدب ٢ : ١٦٨) . وروى : إن الليالى . ورواه الجاحظ فى البيان : « أرى الليالى » . والشاهد فى قوله : « أسرعت »، فأنث الضمير الذى هو فاعل أسرعت، ويجب أن يكون مذكرا، لأنه ينبغى أن يعود إلى المبتدأ، والمبتدأ مذكر، وهو الطول . وإنما أنث لأنه أضاف الطول إلى الليالى، وليس الطول شيئا غيرها، فأخلص الخبر الليالى دون الطول .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (وَكُنْتُمْ على شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا) بمحمد صلى الله عليه وسلم ، يقول : كنتم على طرف النار ، من مات منكم أُوبق فى النار ، فبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم ، فاستنقذكم به من تلك الحفرة .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا حسن بن يحيى (وَكُنْتُمْ على شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا) قال : عصبية .

القول فى تأويل قوله (كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) :

يعنى جلّ ثناؤه بقوله : كذلك كما بين لكم ربكم فى هذه الآيات أيها المؤمنون من الأوس والخزرج ، من علماء اليهود ، الذى يضمرونه لكم ، وغشهم لكم ، وأمره إياكم بما أمركم به فيها ، ونهيه لكم عما نهاكم عنه ، والحال التى كنتم عليها فى جاهليتكم ، والتى صرتم إليها فى إسلامكم ، يعرّفكم فى كل ذلك مواقع نعمه قِبَلكم ، وصنائعه لديكم ، فكذلك يبين سائر حججه لكم فى تنزيله ، وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم (لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) : يعنى : لتهتدوا إلى سبيل الرشاد وتسلكوها ، فلا تضلوا عنها .

القول فى تأويل قوله

وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ) أيها المؤمنون (أُمَّةٌ) يقول : جماعة (يَدْعُونَ) الناس (إلى الخَيْرِ) يعنى إلى الإسلام وشرائعه التى شرعها الله لعباده ، (وَيَأْمُرُونَ بالمَعْرُوفِ) يقول : يأمرون الناس باتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، ودينه الذى جاء به من عند الله (وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ) : يعنى : وينهون عن الكفر بالله ، والتكذيب بمحمد ، وبما جاء به من عند الله ، بجهادهم بالأيدى والجوارح ، حتى ينقادوا لكم بالطاعة ، وقوله (وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ) يعنى : المنجحون عند الله ، الباقون فى جناته ونعيمه . وقد دللنا فيما مضى على معنى الإفلاح فى غير هذا الموضع ، بما أغنى عن إعادته ههنا .

حدثنا أحمد بن حازم ، قال : ثنا أبو نعيم ، قال : ثنا عيسى بن عمر القارئ ، عن أبى عون الثقفىّ ، أنه سمع صبيحا ، قال : سمعت عثمان يقرأ : (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الخَيْرِ ، وَيَأْمُرُونَ بالمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ) ، « ويستعينون الله على ما أصابهم » .

حدثنى أحمد بن حازم ، قال : ثنا أبو نعيم ، قال : ثنا ابن عيينة ، عن عمرو بن دينار ، قال : سمعت ابن الزبير يقرأ ، فذكر مثل قراءة عثمان التى ذكرناها قبلُ سواء .

حدثنا يحيى بن أبى طالب ، قال : أخبرنا يزيد ، قال : أخبرنا جويبر ، عن الضحاك (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بالمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ) قال : هم خاصة أصحاب رسول الله ، وهم خاصة الرواة .

القول فى تأويل قوله

وَلَا تَكُونُوا۟ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : ولاتكونوا يا معشر الذين آمنوا كالذين تفرّقوا من أهل الكتاب ، واختلفوا فى دين الله وأمره ونهيه ، من بعد ما جاءهم البينات ،من حُجج الله ، فيما اختلفوا فيه،وعلموا الحقّ فيه ، فتعمّدوا خلافه ، وخالفوا أمر الله ، ونقضوا عهده وميثاقه ، جراءة على الله ، وأولئك لهم : يعنى ولهؤلاء الذين تفرّقوا ، واختلفوا من أهل الكتاب ، من بعد ما جاءهم عذاب من عند الله عظيم ، يقول جل ثناؤه : فلا تفرّقوا يامعشر المؤمنين فى دينكم، تفرّق هؤلاء فى دينهم ، ولا تفعلوا فعلهم ، وتستنوا فى دينكم بسنتهم، فيكون لكم من عذاب الله العظيم ، مثل الذى لهم .

كما حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، فى قوله (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ) قال : هم أهل الكتاب ، نهى الله أهل الإسلام أن يتفرّقوا ويختلفوا ،كما تفرق واختلف أهل الكتاب ،قال الله عزّ وجلّ (وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال:ثنى معاوية بن صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، قوله (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا) ونحو هذا فى القرآن أمر الله جلّ ثناؤه المؤمنين بالجماعة ، فنهاهم عن الاختلاف والفرقة ، وأخبرهم أنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات فى دين الله .

حدثنى محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفىّ ، عن عباد ، عن الحسن فى قوله (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) قال : هم اليهود والنصارى .

القول فى تأويل قوله

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) ، وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (١٠٧)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : أولئك لهم عذاب عظيم فى يوم تبيضّ وجوه ، وتسودّ وجوه . وأما قوله (فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ : أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ) فإن معناه : فأما الذين اسودّت

وجوههم، فيقال لهم : (أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ، فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)، ولا بدّ لأمامن جواب بالفاء، فلما أسقط الجواب سقطت الفاء معه، وإنما جاز ترك ذكر «فيقال»، لدلالة ماذكر من الكلام عليه . وأما معنى قوله جلّ ثناؤه (أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ) فإن أهل التأويل اختلفوا فيمن عُنى به ، فقال بعضهم : عُنى به أهل قبلتنا من المسلمين .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ) . . . الآية : لقد كفر أقوام بعد إيمانهم كما تسمعون ، ولقد ذُكر لنا أن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ الحَوْضَ مِمَّنْ صَحِبَنِي أَقْوَامٌ ، حتى إِذَا رُفِعُوا إِلَيَّ وَرَأَيْتُهُمْ ، اخْتُلِجُوا دُونِي ، فلأَقُولَنَّ : رَبِّ أصحابي أصحابي ، فَلَيُقَالَنَّ : إِنَّكَ لا تَدْرِي ما أَحْدَثُوا بَعْدَكَ » . وقوله (وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ): هؤلاء أهل طاعة الله والوفاء بعهد الله ، قال الله عز وجلّ : (فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ، فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ) : فهذا مَن كفر مِن أهل القبلة حين اقتتلوا .

حدثنا ابن وكيع ، قال: ثنا أبي ، عن حماد بن سلمة والربيع بن صبيح ، عن أبي مجالد ، عن أبي أمامة (فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ) قال : هم الخوارج .

وقال آخرون: عُنى بذلك كل من كفر بالله بعد الإيمان الذى آمن ، حين أخذ الله من صلب آدم ذريته، وأشهدهم على أنفسهم بما بيَّن فى كتابه .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا علىّ بن الهيثم ، قال : أخبرنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، عن أبي العالية ، عن أُبيّ بن كعب ، فى قوله (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ) قال : صاروا يوم القيامة فريقين ، فقال لمن اسودّ وجهه وعيرّهم: (أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ، فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ) قال : هو الإيمان الذى كان قبل الاختلاف فى زمان آدم ، حين أخذ منهم عهدهم وميثاقهم ، وأقرّوا كلهم بالعبودية ، وفطرهم على الإسلام ، فكانوا أمة واحدة مسلمين ، يقول : أكفرتم بعد إيمانكم ، يقول بعد ذلك الذى كان فى زمان آدم ، وقال فى الآخرين الذين استقاموا على إيمانهم ذلك ، فأخلصوا له الدين والعمل ، فبيض الله وجوههم ، وأدخلهم فى رضوانه وجنته .

وقال آخرون : بل الذين عنوا بقوله (أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ) : المنافقون .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن سنان ، قال: ثنا أبو بكر الحنفىّ ، عن عباد ، عن الحسن (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ

وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ) . . . الآية ، قال : هم المنافقون ، كانوا أعطوا كلمة الإيمان بألسنتهم ، وأنكروها بقلوبهم وأعمالهم .

وأولى الأقوال التى ذكرناها فى ذلك بالصواب : القول الذى ذكرناه عن أبىّ بن كعب : أنه عنى بذلك جميع الكفار ، وأن الإيمان الذى يُوَبَّخون على ارتدادهم عنه ، هو الإيمان الذى أقرّوا به يوم قيل لهم : (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا) ، وذلك أن الله جلّ ثناؤه جعل جميع أهل الآخرة فريقين : أحدهما سوداء وجوهه ، والآخر بيضاء وجوهه ، فمعلوم إذ لم يكن هنالك إلا هذان الفريقان ، أن جميع الكفار داخلون فى فريق من سُوِّد وجهه ، وأن جميع المؤمنين داخلون فى فريق من بُيِّض وجهه . فلا وجه إذنْ لقول قائل : عَنَى بقوله (أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ) بعض الكفار دون بعض ، وقد عمّ الله جلّ ثناؤه الخبر عنهم جميعهم ، وإذا دخل جميعهم فى ذلك ، ثم لم يكن لجميعهم حالة آمنوا فيها ، ثم ارتدوا كافرين بعد ، إلا حالة واحدة ، كان معلوما أنها المراد بذلك .

فتأويل الآية إذن : أولئك لهم عذاب عظيم فى يوم تبيضّ وجوه قوم ، وتسودّ وجوه آخرين ؛ فأما الذين اسودّت وجوههم ، فيقال : أجحدتم توحيد الله وعهده وميثاقه الذى واثقتموه عليه ، بأن لا تشركوا به شيئا ، وتخلصوا له العبادة بعد إيمانكم ، يعنى بعد تصديقكم به (فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ) : يقول : بما كنتم تجحدون فى الدنيا ما كان الله قد أخذ ميثاقكم بالإقرار به والتصديق ؛ وأما الذين ابيضت وجوههم ، ممن ثبت على عهد الله وميثاقه ، فلم يبدل دينه ، ولم ينقلب على عقبيه بعد الإقرار بالتوحيد ، والشهادة لربه بالألوهة ، وأنه لا إله غيره . ففى رحمة الله : يقول : فهم فى رحمة الله ، يعنى فى جنته ونعيمها ، وما أعدّ الله لأهلها فيها ، هم فيها خالدون ، أى باقون فيها أبدا ، بغير نهاية ولا غاية .

القول فى تأويل قوله

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ، وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (١٠٨)

يعنى بقوله جلّ ثناؤه (تِلْكَ آيَاتُ اللهِ) : هذه آيات الله ، وقد بينا كيف وضعت العرب تلك وذلك مكان هذا وهذه ، فى غير هذا الموضع فيما مضى قبل ، بما أغنى عن إعادته . وقوله (آيَاتُ اللهِ) يعنى : مواعظ الله ، وعبره وحُججه (نَتْلُوها عَلَيْكَ) : نقرؤها عليك ونقصها (بالحَقِّ) يعنى : بالصدق واليقين ؛ وإنما يعنى بقوله (تِلْكَ آيَاتُ اللهِ) : هذه الآيات التى ذكر فيها أمور المؤمنين من أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمور يهود بنى إسرائيل وأهل الكتاب ، وما هو فاعل بأهل الوفاء بعهده ، وبالمبدّلين دينه ، والناقضين عهده بعد الإقرار به . ثم أخبر عزّ وجلّ نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ، أنه يتلو ذلك عليه بالحقّ ، وأعلمه أن من عاقبه من خلقه بما أخبر أنه معاقبه ، من تسويد وجهه ، وتخليده فى أليم عذابه ، وعظيم عقابه ، ومن جازاه منهم بما جازاه ، من تبييض وجهه وتكريمه ، وتشريف منزلته لديه ، بتخليده فى دائم نعيمه ، فبغير ظلم منه لفريق منهم ، بل لحقّ استوجبوه ، وأعمال لهم سلفت ، جازاهم

عليها ، فقال تعالى ذكره (وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً للعالَمِينَ) يعنى بذلك : وليس الله يامحمد بتسويد وجوه هؤلاء ، وإذا قبهم العذاب العظيم ؛ وتبييض وجوه هؤلاء ، وتنعيمه إياهم فى جنته ، طالبا وضع شىء مما فعل من ذلك ، فى غير موضعه الذى هو موضعه . إعلاما بذلك عباده ، أنه لن يصلح فى حكمته بخلقه ، غير ماوعد أهل طاعته والإيمان به ، وغير ما أوعد أهل معصيته والكفر به ، وإنذارا منه هؤلاء ، وتبشيرا منه هؤلاء .

القول فى تأويل قوله عزّ وجل

وَلِلَّهِ مَافِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : أنه يعاقب الذين كفروا بعد إيمانهم ، بما ذكر أنه معاقبهم به ، من العذاب العظيم ، وتسويد الوجوه ، ويثيب أهل الإيمان به ، الذين ثبتوا على التصديق والوفاء بعهودهم التى عاهدوا عليها ، بما وصف أنه مثيبهم به ، من الخلود فى جنانه ، من غير ظلم منه لأحد الفريقين فيما فعل ، لأنه لاحاجة به إلى الظلم . وذلك أن الظالم إنما يظلم غيره ليزداد إلى عزّته عزّة بظلمه إياه ، وإلى سلطانه سلطانا ، وإلى ملكه ملكا ، لنقصان فى بعض أسبابه ، يتمم بما ظلم غيره فيه ، ما كان ناقصا من أسبابه عن التمام ، فأما من كان له جميع ما بين أقطار المشارق والمغارب ، وما فى الدنيا والآخرة ، فلا معنى لظلمه أحدا ، فيجوز أن يظلم شيئا ، لأنه ليس من أسبابه شىء ناقص يحتاج إلى تمام ، فيتمّ ذلك بظلم غيره ، تعالى الله علوّا كبيرا . ولذلك قال جلّ ثناؤه عقيب قوله (وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً للعالَمِينَ ، وَلِلّهِ ما فى السَّمَوَاتِ وَما فى الأرْضِ ، وإلى اللهِ تُرْجَعُ الأمُورُ) .

واختلف أهل العربية فى وجه تكرير الله تعالى ذكره اسمه مع قوله (وإلى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ) ظاهرا ، وقد تقدم اسمه ظاهرا مع قوله (وَلِلّهِ ما فى السَّمَوَاتِ وَما فى الأرْضِ) فقال بعض أهل العربية من أهل البصرة : ذلك نظير قول العرب : أما زيد فذهب زيد ، وكما قال الشاعر :

لاأرَى الموتَ يسبِقُ الموتَ شَىْءٌ نَغَّصَ المَوْتُ ذا الغِنَى والفقيرا[١]

فأظهر فى موضع الإضمار . وقال بعض نحويّى الكوفة : ليس ذلك نظير هذا البيت ، لأن موضع الموت الثانى فى البيت موضع كناية ، لأنه كلمة واحدة ، وليس ذلك كذلك فى الآية ، لأن قوله (وَلِلّهِ ما فى السَّمَوَاتِ وَما فى الأرْضِ) خبرٌ ليس من قوله (وإلى اللهِ تُرْجَعُ الأمُورُ) فى شىء ، وذلك أن كلّ واحدة من القصتين مفارق معناها معنى الأخرى ، مكتفية كل واحدة منهما بنفسها ، غير محتاجة إلى الأخرى ، كما قال الشاعر : « لاأرى الموت » محتاج إلى تمام الخبر عنه .

وهذا القول الثانى عندنا : أولى بالصواب ، لأن كتاب الله عزّ وجلّ لايؤخذ معانيه ، ومافيه من البيان إلى الشواذّ من الكلام والمعانى ، وله فى الفصيح من المنطق ، والظاهر من المعانى المفهوم ، وجه صحيح موجود .

(١) هذا البيت لعدى بن زيد العبادى ، وهو الصحيح ، وقيل لابنه سوادة بن عدى (الخزانة ١ : ١٨٣) وهو شاهد على أن وضع الظاهر مقام الضمير جائز فى الشعر ، بشرط أن يكون بلفظ الأول عند سيبويه ، ولم يرتضه شراح أبياته ، وقالوا : إن فيه قبحا إذا كان تكريره فى جملة واحدة ، لأنه يستغنى بعضها عن بعض ، فلا يكاد يجوز إلا فى ضرورة ، فإن كانت إعادته فى جملتين حسن . ومعنى يسبقه : يفوته .

وأما قوله (وإلى الله تُرْجَعُ الأُمُورُ) فإنه يعنى تعالى ذكره : إلى الله مصير أمر جميع خلقه ، الصالح منهم والطالح ، والمحسن والمسىء ، فيجازى كلا على قدر استحقاقهم منه الجزاء ، بغير ظلم منه أحدا منهم .

القول فى تأويل قوله جلّ ثناؤه

كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ : تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ، مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ ، وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ (١١٠)

اختلف أهل التأويل فى تأويل قوله (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) فقال بعضهم : هم الذين هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من مكة إلى المدينة ، وخاصة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا عمرو بن حماد ، قال : ثنا أسباط ، عن سماك ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال فى (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) قال : هم الذين خرجوا معه من مكة .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا ابن عطية ، عن قيس ، عن سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) قال : هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ : تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) قال عمر بن الخطاب : لوشاء الله لقال أنتم ، فكنا كلنا ، ولكن قال (كُنْتُمْ) فى خاصة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن صنع مثل صنيعهم ، كانوا خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، قال : قال ابن جريج : قال عكرمة : نزلت فى ابن مسعود ، وسالم مولى أبى حذيفة ، وأُبىّ بن كعب ، ومُعاذ بن جبل .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا مصعب بن المقدام ، عن إسرائيل ، عن السدىّ ، عمن حدثه ، قال عمر : (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) قال : تكون لأوّلنا ، ولا تكون لآخرنا .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا إسرائيل ، عن سماك بن حرب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) قال : هم الذين هاجروا مع النبىّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينة .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قال : ذُكر لنا أن عمر بن الخطاب قال فى حِجة حجها : ورأى من الناس رِعة[1] سيئة ، فقرأ هذه (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) . . . الآية ، ثم قال : يا أيها الناس ، من سره أن يكون من تلك الأمة ، فليؤدّ شرط الله منها .

(١) الرعة بوزن العدة : الاحتشام والكف عن سوء الأدب ، انظر اللسان فى (ورع) .

حدثنى يحيى بن أبى طالب ، قال : أخبرنا يزيد ، قال : أخبرنا جويبر ، عن الضحاك فى قوله : (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) قال : هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة ، يعنى : وكانوا هم الرواة الدعاة ، الذين أمر الله المسلمين بطاعتهم .

وقال آخرون : معنى ذلك : كنتم خير أمة أخرجت للناس ، إذ كنتم بهذه الشروط التى وصفهم جلّ ثناؤه بها ؛ فكان تأويل ذلك عندهم : كنتم خير أمة تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله ، أخرجوا للناس فى زمانكم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله عزّ وجلّ (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) يقول : على هذا الشرط أن تأمروا بالمعروف ، وتنهوا عن المنكر ، وتؤمنوا بالله ، يقول : لمن أنتم بين ظهرانيه ، كقوله (وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ) .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد قوله (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) قال : يقول : كنتم خير الناس للناس ، على هذا الشرط : أن تأمروا بالمعروف ، وتنهوا عن المنكر ، وتؤمنوا بالله ، يقول لمن بين ظهريه كقوله (وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ) .

وحدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن سفيان ، عن ميسرة ، عن أبى حازم ، عن أبى هريرة (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) قال : كنتم خير الناس للناس ، تجيئون بهم فى السلاسل ، تدخلونهم فى الإسلام .

حدثنا عبيد بن أسباط ، قال : ثنا أبى ، عن فضيل بن مرزوق ، عن عطية ، فى قوله (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) قال : خير الناس للناس .

وقال آخرون : إنما قيل (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) : لأنهم أكثر الأمم استجابة للإسلام.

ذكر من قال ذلك :

حُدثت عن عمار بن الحسين ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قوله (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ : تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) قال : لم تكن أمة أكثر استجابة فى الإسلام من هذه الأمة ، فمن ثم قال (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) .

وقال بعضهم : عنى بذلك أنهم كانوا خير أمة أخرجت للناس .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفىّ ، عن عباد ، عن الحسن ، فى قوله (كُنْتُمْ خَيْرَ

أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ : تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) قال: قد كان ما تسمع من الخير فى هذه الأمة .

حدثنا بشر ،قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعد، عن قتادة، قال: كان الحسن يقول: نحن آخرها وأكرمها على الله.

قال أبو جعفر : وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية: ماقال الحسن ، وذلك أن يعقوب بن إبراهيم حدثنى قال: ثنا ابن علية ، عن بَهز بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده ، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ألا إنكم وَفَيْتُمْ سَبْعِينَ أُمَّةً ، أنتُمْ آخِرُها وأكْرَمُها على اللهِ » .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن بهز بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده ، أنه سمع النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول فى قوله (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) قال : « أنتُمْ تُتِمُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةً ، أنتُمْ خَيْرُها وأكْرَمُها على اللهِ » .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قال : ذكر لنا أن نبىّ الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم ، وهو مسند ظهره إلى الكعبة: « نَحْنُ نُكْمِلُ يَوْمَ القِيامَةِ سَبْعِينَ أُمَّةً ، نَحْنُ آخِرُها وخَيْرُها » .

وأما قوله (تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ) فإنه يعنى: تأمرون بالإيمان بالله ورسوله ، والعمل بشرائعه . (وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) يعنى : وتنهون عن الشرك بالله ، وتكذيب رسوله ، وعن العمل بما نهى عنه .

كما حدثنا علىّ بن داود ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس، قوله (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) يقول: تأمرونهم بالمعروف: أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ، والإقرار بما أنزل الله، وتقاتلونهم عليه ، ولا إله إلا الله هو أعظم المعروف . وتنهونهم عن المنكر، والمنكر: هو التكذيب، وهو أنكر المنكر . وأصل المعروف: كل ما كان معروفا، ففعله جميل مستحسن، غير مستقبح فى أهل الإيمان بالله ، وإنما سميت طاعة الله معروفا، لأنه مما يعرفه أهل الإيمان ، ولا يستنكرون فعله، وأصل المنكر: ما أنكره الله، ورأوه قبيحا فعله، ولذلك سميت معصية الله منكرا، لأن أهل الإيمان بالله يستنكرون فعلها، ويستعظمون ركوبها . وقوله (وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ) يعنى :تصدّقون بالله، فتخلصون له التوحيد والعبادة .

فإن سأل سائل فقال : وكيف قيل: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ) وقد زعمت أن تأويل الآية : أن هذه الأمة خير الأمم التى مضت ؟ وإنما يقال : كنتم خير أمة ، لقوم كانوا خيارا فتغيروا عما كانوا عليه؟ قيل : إن معنى ذلك بخلاف ما ذهبتَ إليه ، وإنما معناه : أنتم خير أمة ، كما قيل : (وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ) وقد قال فى موضع آخر : (وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ) ، فإدخال كان فى مثل هذا وإسقاطها بمعنى واحد ، لأن الكلام معروف معناه . ولو قال أيضا فى ذلك قائل : كنتم بمعنى التمام ، كان تأويله : خُلقتم خير أمة ، أو وُجدتم خير أمة ، كان معنى صحيحا . وقد زعم بعض أهل العربية أن معنى

ذلك : كنتم خير أمة عند الله فى اللوح المحفوظ ، أخرجت للناس ، والقولان الأوّلان اللذان قلنا ، أشبه بمعنى الخبر الذى رويناه قبل .

وقال آخرون : معنى ذلك : كنتم خير أهل طريقة ، وقال : الأمة : الطريقة .

القول فى تأويل قوله (وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الكِتابِ لَكانَ خَيْرًا لَهُمْ ، مِنْهُمُ المُؤْمِنُونَ وأَكْثَرُهُمُ الفاسِقُونَ) :

يعنى بذلك تعالى ذكره : ولو صدّق أهل التوراة والإنجيل ، من اليهود والنصارى ، بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وما جاءهم به من عند الله ، لكان خيرا لهم عند الله ، فى عاجل دنياهم ، وآجل آخرتهم . (مِنْهُمُ المُؤْمِنُونَ) يعنى : من أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، المؤمنون المصدّقون رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جاءهم به من عند الله ، وهم عبد الله بن سلام وأخوه ، وثعلبة بن سعيد وأخوه ، وأشباههم ممن آمنوا بالله ، وصدّقوا برسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، واتبعوا ما جاءهم به من عند الله (وأَكْثَرُهُمُ الفاسِقُونَ) يعنى : الخارجون عن دينهم . وذلك أن من دين اليهود اتّباع ما فى التوراة ، والتصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ومن دين النصارى اتباع ما فى الإنجيل ، والتصديق به وبما فى التوراة ، وفى كل الكتابين صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته ، ومبعثه ، وأنه نبىّ الله ، وكلتا الفرقتين ، أعنى اليهود والنصارى مكذبة ، فذلك فسقهم وخروجهم عن دينهم ، الذى يدّعون أنهم يدينون به ، الذى قال جلّ ثناؤه (وأَكْثَرُهُمُ الفاسِقُونَ) .

وقال قتادة بما حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (مِنْهُمُ المُؤْمِنُونَ وأَكْثَرُهُمُ الفاسِقُونَ) : ذمّ الله أكثر الناس .

القول فى تأويل قوله

لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ، وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ (١١١)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : لن يضركم يا أهل الإيمان بالله ورسوله ، هؤلاء الفاسقون من أهل الكتاب ، بكفرهم وتكذيبهم نبيكم محمدا صلى الله عليه وسلم شيئا إلا أذى ، يعنى بذلك : ولكنهم يؤذونكم بشركهم ، وإسماعكم كفرهم ، وقولهم فى عيسى وأمه وعزير ، ودعائهم إياكم إلى الضلالة ، ولا يضرّونكم بذلك . وهذا من الاستثناء المنقطع ، الذى هو مخالف معنى ماقبله ، كما قيل «ما اشتكى شيئا إلا خيرا» ، وهذه كلمة محكية عن العرب سماعا .

وبنحو ما قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (لَنْ يَضُرُّوكم إلاَّ أَذًى) يقول : لن يضرّوكم إلا أذى تسمعونه منهم .

حُدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قوله (لَنْ يَضُرُّوكُمْ إلاَّ أذًى) قال : أذى تسمعونه منهم .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ،عن ابن جريج ، قوله (لَنْ يَضُرُّوكُمْ إلاَّ أذًى) قال : إشراكهم فى عُزَير وعيسى والصليب .

حدثنى محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفىّ ، عن عباد ، عن الحسن ، فى قوله (لَنْ يَضُرُّوكُمْ إلاَّ أذًى) . . . الآية ، قال : تسمعون منهم كذبا على الله ، يدعونكم إلى الضلالة .

القول فى تأويل قوله (وَإنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأدْبارَ ، ثُمَّ لايُنْصَرُونَ) :

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : وإن يقاتلكم أهلُ الكتاب من اليهود والنصارى ، يُهزموا عنكم ، فيولوكم أدبارهم انهزاما . فقوله (يُوَلُّوكُمُ الأدْبارَ) : كناية عن انهزامهم ،لأن المنهزم يحوّل ظهره إلى جهة الطالب ، هربا إلى ملجأ ومَوْئل يَئِل إليه منه ، خوفا على نفسه ، والطالب فى أثره ، فدُبُر المطلوب حينئذ يكون محاذىَ وجه الطالب الهازمِه (ثُمَّ لايُنْصَرُونَ) يعنى : ثم لاينصرهم الله أيها المؤمنون عليكم ، لكفرهم بالله ورسوله ، وإيمانكم بما آتاكم نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم ،لأن الله عزّ وجلّ قد ألقى الرعب فى قلوب كائدكم أيها المؤمنون بنصركم ، وهذا وعد من الله تعالى ذكره نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم وأهل الإيمان نصرهم على الكفرة به من أهل الكتاب ، وإنما رفع قوله (ثُمَّ لايُنْصَرُونَ) وقد جزم قوله (يُوَلُّوكُمُ الأدْبارَ) على جواب الجزاء، ائتنافا للكلام ، لأن رءوس الآيات قبلها بالنون ، فألحق هذه بها ، كما قال (وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ) رفعا ، وقد قال فى موضع آخر (لايُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا) إذ لم يكن رأس آية .

القول فى تأويل قوله

ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَاثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ ، وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ، وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ (١١٢)

يعنى بقوله جلّ ثناؤه (ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ): ألزموا الذلة ، والذلة : الفِعلة من الذلّ ، وقد بيّنا ذلك بشواهده فى غير هذا الموضع . (أيْنَمَا ثُقِفُوا) يعنى : حيثما لُقُوا ، يقول جلّ ثناؤه: ألزم اليهود المكذّبون بمحمد صلى الله عليه وسلم الذلة أينما كانوا من الأرض ،وبأىّ مكان كانوا من بقاعها من بلاد المسلمين والمشركين ، إلا بحبل من الله ، وحبل من الناس .

كما حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا هَوْذة ، قال :ثنا عوف ، عن الحسن فى قوله (ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أيْنَما ثُقِفُوا ، إلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ المَسْكَنَةُ) قال : أدركتهم هذه الأمة وإن المجوس لتجبيهم الجزية .

حدثني محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفيّ ، قال : ثنا عباد ، عن الحسن ، في قوله (ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَما ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ) قال : أذلهم الله فلامنعة لهم ، وجعلهم الله تحت أقدام المسلمين .

وأما الحبل الذى ذكره الله فى هذا الموضع ، فإنه السبب الذى يأمنون به على أنفسهم من المؤمنين ، وعلى أموالهم وذراريّهم : من عهد وأمان تقدم لهم عقده ، قبل أن يُثْقفوا فى بلاد الإسلام .

كما حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد فى قوله (إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ) قال : بعهد (وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ) قال : بعهدهم .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَما ثُقِفُوا ، إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ) يقول : إلا بعهد من الله ، وعهد من الناس .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، مثله .

حدثنا حميد بن مسعدة ، قال : ثنا يزيد ، عن عثمان بن غياث ، قال عكرمة : يقول (إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ) قال : بعهد من الله ، وعهد من الناس .

حدثنا محمد ، قال : ثنا أحمد ، قال : ثنا أسباط ، عن السديّ (إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ) يقول : إلا بعهد من الله ، وعهد من الناس .

حُدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قوله (إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ) يقول : إلا بعهد من الله ، وعهد من الناس .

حدثني محمد بن سعد ، قال : ثني أبي ، قال : ثني عمي ، قال : ثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (أَيْنَما ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ) فهو عهد من الله ، وعهد من الناس ، كما يقول الرجل : ذمة الله ، وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فهو الميثاق .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال مجاهد : (أَيْنَما ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ) قال : بعهد من الله ، وعهد من الناس لهم ، قال ابن جريج : وقال عطاء : العهد : حبل الله .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (أَيْنَما ثُقِفُوا إِلا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ) قال : إلا بعهد ، وهم يهود ، قال : والحبل : العهد ، قال : وذلك قول أبى الهيثم بن التَّيِّهان لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين أتته الأنصار فى العقبة : أيها الرجل ، إنا قاطعون فيك حبالاً بيننا وبين الناس ، يقول : عهودا ، قال : واليهود لا يأمنون فى أرض من أرض الله إلا بهذا الحبل ، الذى قال الله عزّ وجلّ ، وقرأ (وَجاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ) . قال : فليس بلد فيه أحد من النصارى إلا وهم فوق يهود فى شرق ولا غرب ، هم فى البلدان كلها مستذَلون ، قال الله (وَقَطَّعْناهُمْ فِى الأَرْضِ أُمَماً) : يهود .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ ، قال : ثنا عبيد بن سليمان ، قال : سمعت الضحاك فى قوله (إلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ) يقول : بعهد من الله ، وعهد من الناس .

حدثنى يحيى بن أبى طالب ، قال : أخبرنا يزيد ، قال : أخبرنا جويبر ، عن الضحاك ، مثله .

واختلف أهل العربية فى المعنى الذى جلب الباء فى قوله (إلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ) فقال بعض نحوىّ الكوفة : الذى جلب الباء فى قوله (بِحَبْلٍ) : فعل مضمر قد ترك ذكره . ؛ قال : ومعنى الكلام : ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا ، إلا أن يعتصموا بحبل من الله ، فأضمر ذلك ، واستشهد لقوله ذلك بقول الشاعر :

رأتْنِى بِحَبْلَيْها فَصَدَّتْ مَخافَةً ... وفى الحَبْلِ رَوْعاءُ الفُؤادِ فَرُوقُ [١]

وقال : أراد : أقْبَلَتْ بحبليها ، وبقول الآخر :

حَنَتْنِى حانياتُ الدَّهْرِ حتى ... كأنى خاتِلٌ أحْنُو لِصَيْدِ [٢]

فأوجب إعمال فعل محذوف ، وإظهار صلته وهو متروك ، وذلك فى مذاهب العربية ضعيف ، ومن كلام العرب بعيد . وأما ما استشهد به لقوله من الأبيات ، فغير دالّ على صحة دعواه ، لأن فى قول الشاعر : رأتنى بحبليها ، دلالة بينة فى أنها رأته بالحبل ممسكا ، ففى إخباره عنها أنها رأته بحبليها ، إخبار منه أنها رأته ممسكا بالحبلين ، فكان فيما ظهر من الكلام مستغنى عن ذكر الإمساك ، وكانت الباء وصلة لقوله : رأتنى ، كما فى قول القائل : أنا بالله ، مكتف بنفسه ومعرفة السامع معناه ، أن تكون الباء محتاجة إلى كلام يكون لها جالبا غير الذى ظهر ، وأن المعنى أنا بالله مستعين .

وقال بعض نحوىّ البصرة ، قوله (إلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ) استثناء خارج من أوّل الكلام ، قال : وليس ذلك بأشدّ من قوله (لايَسْمَعُونَ فِيها لَغْوًا إلاَّ سَلامًا) .

---

(١) البيت لحميد بن ثور الهلالى (ديوانه طبع دار الكتب المصرية سنة ١٩٥١ ص ٣٥) وروايته فيه :

فجئت بحبليها فردت مخافة ... إلى النفس روعاء الجنان فروق

وقال شارحه فى هامشه : روعاء الجنان : ذكية ، وفروق : فزعة . ورواية البيت فى اللسان (فرق) والأساس (روع) :

رأتنى بحبليها فصدت مخافة ... وفى الحبل روعاء الفؤاد فروق

وهى كرواية المؤلف . قال فى اللسان (حبل) : أراد : رأتنى أقبلت بحبليها ، فأضمر أقبلت ، كما أضمر الاعتصام فى الآية ، يريد قوله تعالى : « إلا بحبل من الله » أى إلا أن يعتصموا بحبل من الله . والضمير فى بحبليها : راجع إلى ناقته .

(٢) البيت من شواهد الفراء فى معانى القرآن . أورده صاحب اللسان فى (ختل) ، وفيه « يدنو » فى موضع أحنو . وقال : المختلة مشى الصياد قليلا قليلا فى خفية ، لئلا يسمع حسه ، ثم جعل مثلا لكل شىء ورى بغيره ، وستر على صاحبه . وبعد البيت بيت آخر ، وهو قوله :

قَرِيبُ الخَطْوِ يَحسبُ من رآنى ... (ولستُ مُقَيَّدًا) : أنّى بِقَيْدِ

أى كبرت وضعفت مشيتى .

وفى كتاب المعانى الكبير لابن قتيبة طبع الهند (ص١٢١٤) أورد البيت مختلفا عن رواية المؤلف ، ونسبه لأبى الطمحان القينى ، ونصه :

وقد طالت بى الأيام حتى ... كأنى خاتل يدنو لصيد

وأورده اللسان فى « أدا » كما أورده المؤلف ، مع تغير « أحنو » بيأدو ، مضارع « أدا » بمعنى ختل . يقال : أدا السبع للغزال يأدو أدوا : ختله ليأكله .

وقال آخرون من نحويّي الكوفة: هو استثناء متصل. والمعنى: ضُربت عليهم الذلة أينما ثقفوا: أى بكلّ مكان، إلا بموضع حبل من الله، كما تقول: ضربت عليهم الذلة فى الأمكنة إلا فى هذا المكان. وهذا أيضا طَلَبَ الحقّ، فأخطأ المفصِل. وذلك أنه زعم أنه استثناء متصل، ولو كان متصلا كما زعم، لوجب أن يكون القوم إذا ثُقفوا بحبل من الله وحبل من الناس غير مضروبة عليهم المسكنة، وليس ذلك صفة اليهود، لأنهم أينما ثقفوا بحبل من الله، وحبل من الناس، أو بغير حبل من الله عزّ وجلّ، وغير حبل من الناس، فالذلة مضروبة عليهم، على ماذكرنا عن أهل التأويل قبل. فلو كان قوله (إلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ) استثناء متصلا، لوجب أن يكون القوم إذا ثُقِفوا بعهد وذمة، ألاتكون الذلة مضروبة عليهم. وذلك خلاف ما وصفهم الله به من صفتهم، وخلاف ما هم به من الصفة، فقد تبين أيضا بذلك فساد قول هذا القائل أيضا. ولكن القول عندنا: أن الباء فى قوله (إلا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ) أدخلت، لأن الكلام الذى قبل الاستثناء مقتض فى المعنى الباء. وذلك أن معنى قوله (ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَما ثُقِفوا): ضربت عليهم الذلة بكل مكان ثقفوا، ثم قال: إلا بحبل من الله، وحبل من الناس، على غير وجه الاتصال بالأول، ولكنه على الانقطاع عنه. ومعناه: ولكن يُثقفون بحبل من الله وحبل من الناس، كما قيل (وَمَا كانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنا إلاَّ خَطأً)، فالخطأ وإن كان منصوبا بما عمل فيما قبل الاستثناء، فليس قوله باستثناء متصل بالأوّل بمعنى إلا خطأ، فإن له قتله كذلك، ولكن معناه: ولكن قد يقتله خطأ، فكذلك قوله (أَيْنَما ثُقِفُوا إلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ) وإن كان الذى جلب الباء التى بعد إلا الفعل الذى يقتضيها قبل إلا، فليس الاستثناء بالاستثناء المتصل بالذى قبله، بمعنى أن القوم إذا لُقُوا، فالذلة زائلة عنهم، بل الذلة ثابتة بكلّ حال، ولكن معناه ما بيّنا آنفا.

القول فى تأويل قوله (وَباءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللهِ، وَيَقْتُلُونَ الأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ):

يعنى تعالى ذكره: (وَباءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ): وتحملوا غضب الله، فانصرفوا به مستحقيه. وقد بيّنا أصل ذلك بشواهده، ومعنى المسكنة، وأنها ذلّ الفاقة والفقر وخشوعهما، ومعنى الغضب من الله فيما مضى، بما أغنى عن إعادته فى هذا الموضع.

وقوله (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللهِ) يعنى جلّ ثناؤه بقوله ذلك: أى بَوْءُهم الذى باءوا به من غضب الله، وضربُ الذلة عليهم، بدل مما كانوا يكفرون بآيات الله، يقول: مما كانوا يجحدون أعلام الله وأدلته على صدق أنبيائه، ومافرض عليهم من فرائضه (وَيَقْتُلُونَ الأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ) يقول: وبما كانوا يقتلون أنبياءهم ورسُلَ الله إليهم، اعتداء على الله، وجراءة عليه بالباطل، وبغير حقّ استحقوا منهم القتل.

فتأويل الكلام: أُلزموا الذلة بأىّ مكان لُقُوا، إلا بذمة من الله وذمة من الناس، وانصرفوا بغضب من

الله متحمليه ، وألزموا ذلّ الفاقة ، وخشوع الفقر ، بدلا مما كانوا يجحدون بآيات الله ، وأدلته وحججه ، ويقتلون أنبياءه بغير حقّ ، ظلما واعتداء .

القول فى تأويل قوله (ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وكانُوا يَعْتَدُونَ) :

يقول تعالى ذكره : فعلنا بهم ذلك بكفرهم ، وقتلهم الأنبياء ، ومعصيتهم ربهم ، واعتدائهم أمر ربهم. وقد بينا معنى الاعتداء فى غير موضع فيما مضى من كتابنا ، بما فيه الكفاية عن إعادته . فأعلم ربنا جلّ ثناؤه عباده ، ما فعل بهؤلاء القوم من أهل الكتاب ، من إحلال الذلة والخزى بهم فى عاجل الدنيا ، مع ما ادّخر لهم فى الآجل من العقوبة والنكال ، وأليم العذاب ، إذ تعدّوا حدود الله ، واستحلوا محارمه ، تذكيرا منه تعالى ذكره لهم ، وتنبيها على موضع البلاء الذى من قِبَله أُتوا ، لينيبوا ويذّكروا ، وعظة منه لأمتنا أن لايستنوا بسنتهم ، ويركبوا منهاجهم ، فيسلك بهم مسالكهم ، ويحلّ بهم من نقم الله ومَثُلاته ما أحلّ بهم .

كما حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وكانُوا يَعْتَدُونَ) : اجتنبوا المعصية والعدوان ، فإن بهما أهلك من أهلك قبلكم من الناس .

القول فى تأويل قوله

﴿ لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ اللَّهِ ءَانَآءَ الَّيْلِ ، وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣)

يعنى بقوله جلّ ثناؤه : ليسوا سواء : ليس فريقا أهل الكتاب ، أهل الإيمان منهم والكفر ، سواء ، يعنى بذلك : أنهم غير متساوين ، يقول : ليسوا متعادلين ، ولكنهم متفاوتون فى الصلاح والفساد والخير والشرّ ، وإنما قيل : ليسوا سواء ، لأن فيه ذكر الفريقين من أهل الكتاب اللذين ذكرهما الله فى قوله (وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الكِتابِ لَكانَ خَيْرًا لَهُمْ ، مِنْهُمُ المُؤْمِنُونَ ، وأَكْثَرُهُمُ الفاسِقُونَ) ثم أخبر جلّ ثناؤه عن حال الفريقين عنده ، المؤمنة منهما والكافرة ، فقال : (لَيْسُوا سَوَاءً) : أى ليس هؤلاء سواء ، المؤمنون منهم والكافرون . ثم ابتدأ الخبر جلّ ثناؤه عن صفة الفرقة المؤمنة من أهل الكتاب ومدحهم ، وأثنى عليهم ، بعد ما وصف الفرقة الفاسقة منهم بما وصفها به من الهَلَع ، ونَخب الجنان ، ومحالفة الذلّ والصغار ، وملازمة الفاقة والمسكنة ، وتحمل خزى الدنيا وفضيحة الآخرة ، فقال : (مِنْ أَهْلِ الكِتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ يَتْلُونَ آياتِ اللهِ آناءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ) ... الآيات الثلاث . إلى قوله (وَاللهُ عَلِيمٌ بالمُتَّقِينَ) ، قوله : أمة قائمة ، مرفوعة بقوله : من أهل الكتاب .

وقد توهم جماعة من نحوِيّى الكوفة والبصرة ، والمقدّمين منهم فى صناعتهم ، أن ما بعد سواء فى هذا الموضع من قوله (أُمَّةٌ قائِمَةٌ) ترجمة عن سواء ، وتفسير عنه ، بمعنى : لايستوى من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل ، وأخرى كافرة ، وزعموا أن ذكر الفرقة الأخرى تُرِك اكتفاء بذكر إحدى الفرقتين ، وهى الأمة القائمة ، ومثلوه بقول أبى ذؤيب :

عَصَيْتُ إلَيْهَا القَلْبَ إنّى لأمْرِها سَميعٌ فَما أدْرِى أرُشْدٌ طِلابُها[١]

ولم يقل : أم غير رشد اكتفاء بقوله : أرشد ، من ذكر ، أم غير رشد ، وبقول الآخر :

أزَالُ فلا أدْرِى أهَمٌّ هَمَمْتُهُ وذو الهَمّ قِدْماً خاشِعٌ مُتَضَائِلُ[٢]

وهو مع ذلك عندهم خطأ، قول القائل المريد أن يقول: سواء أقمت أم قعدت ، سواء أقمت، حتى يقول أم قعدت ، وإنما يجيزون حذف الثانى فيما كان من الكلام مكتفيا بواحد ، دون ما كان ناقصا عن ذلك، وذلك نحو ما أبالى أوما أدرى ، فأجازوا فى ذلك: ما أبالى أقمت، وهم يريدون : ما أبالى أقمت أم قعدت، لاكتفاء ما أبالى بواحد ، وكذلك فى ما أدرى ، وأبوا الإجازة فى سواء من أجل نقصانه ، وأنه غير مكتف بواحد. فأغفلوا فى توجيههم قوله (لَيْسُوا سَوَاءً، مِنْ أهْلِ الكِتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ) على ما حكينا عنهم إلى ما وجهوه إليه ، مذاهبهم فى العربية ، إذ أجازوا فيه من الحذف ما هو غير جائز عندهم فى الكلام مع سواء ، وأخطئوا تأويل الآية ، فسواء فى هذا الموضع بمعنى التمام والاكتفاء ، لابالمعنى الذى تأوله من حكينا قوله . وقد ذُكر أن قوله (مِنْ أهْلِ الكِتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ) . . . الآيات الثلاث ، نزلت فى جماعة من اليهود أسلموا ، فحسن إسلامهم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن محمد بن إسحاق ، قال : ثنى محمد بن أبى محمد ، عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : لما أسلم عبد الله بن سلام ، وثعلبة بن سَعْية ، وأسيد بن سَعية، وأسد بن عبيد، ومن أسلم من يهود معهم، فآمنوا وصدّقوا ، ورغبوا فى الإسلام، ومنحوا فيه، قالت أحبار يهود وأهل الكفر منهم : ما آمن بمحمد ولا تبعه إلا أشرارنا ، ولو كانوا من خيارنا ماتركوا

---

(١) البيت لأبى ذؤيب ، أنشده ابن هشام فى المغنى (١ : ١٠) وروايته :

دَعانِى إليها القَلْبُ إنّى لأمْرِهِ سَميعٌ فما أدْرِى أرُشْدٌ طِلابُها

ورواه النيسابورى فى تفسيره بهذا اللفظ :

دَعانِى إلَيْها القَلْبُ إنّى لأمْرِهِ مُطِيعٌ فَمَا أدْرِى أرُشْدٌ طِلابُها

وفى تفسير القرطبى (٤ : ١٧٦) كانت رواية الأصل : عصيت إليها القلب إنى لأمرها ، وجعله مصححوه تبعا للديوان :
عصانى إليها القلب إنى لأمره مطيع . . .
وشرحوه بقولهم : يقول : عصانى القلب وذهب إليها ، فأنا أتبع مايأمرنى به .
وفى ديوان الهذليين (القسم الأول ص ٧١) عصانى إليها القلب إنى لأمره سميع . . .
عصانى إليها : أى خطر إليها قلبى وذهب إليها ، فما أدرى أرشد الذى وقعت فيه أم غى .
وفى الهامش ٧ – عبارة الأصمعى فى تفسير قوله : عصانى إليها القلب : جعل لايقبل منى ، أى ذهب إليها قلبى سفها ، وهى أوضح فى معنى العصيان ، من عبارة الشارح هنا .

(٢) البيت غير منسوب . واستشهد به المؤلف على حذف المسئول عنه الثانى بهمزة الاستفهام التى لأحد الشيئين ، مع أن حذفه غير مقيس ، لما يوقع فيه من لبس . ونظيره ما استشهد به النحويون على حذف المعادل ، وهو قول أبى ذؤيب « فما أدرى أرشد طلابها » كما فى المغنى لابن هشام (١ : ١٠ مع حاشية الأمير) تقديره : أم غى . قال ابن هشام : ولك أن تقول : لاحاجة إلى تقدير معادل فى البيت ، لصحة قولك : ما أدرى : هل طلابها رشد ؟ وامتناع أن يؤتى لها بمعادل . قال الأمير : فالهمزة لطلب التصديق كهل ، لاتحتاج لمعادل . والمعنى : لا أدرى جواب هذا الاستفهام .

دين آبائهم، وذهبوا إلى غيره، فأنزل الله عزّ وجلّ فى ذلك من قولهم: (لَيْسُوا سَوَاءً، مِنْ أَهْلِ الكتابِ أمةٌ قائمةٌ يَتْلُونَ آياتِ الله) إلى قوله (وأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ).

حدثنا أبو كريب، قال: ثنا يونس، عن بكير، عن محمد بن إسحاق، قال: ثنى محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت، قال: ثنى سعيد بن جبير أو عكرمة، عن ابن عباس، بنحوه.

حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة (لَيْسُوا سَوَاءً، مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ أُمَّةٌ قائمَةٌ)... الآية، يقول: ليس كلُّ القوم هلك، قد كان لله فيهم بقية.

حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثنى حجاج، قال: قال ابن جريج (أُمَّةٌ قائمَةٌ): عبد الله بن سلام، وثعلبة بن سلام أخوه، وسَعْية ومبشر، وأسيد وأسد ابنا كعب.

وقال آخرون: معنى ذلك: ليس أهل الكتاب، وأمة محمد القائمة بحقّ الله، سواءً عند الله.

ذكر من قال ذلك:

حدثنى محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، قال: ثنا عيسى، عن ابن أبى نجيح، عن الحسن بن يزيد العجلىّ، عن عبد الله بن مسعود أنه كان يقول فى قوله (لَيْسُوا سَوَاءً، مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ أُمَّةٌ قائمَةٌ) قال: لايستوى أهل الكتاب، وأمة محمد صلى الله عليه وسلم.

حدثنا محمد بن الحسين، قال: ثنا أحمد بن المفضل، قال: ثنا أسباط، عن السدىّ (لَيْسُوا سَوَاءً، مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ أُمَّةٌ قائمَةٌ)... الآية، يقول: ليس هؤلاء اليهود كمثل هذه الأمة التى هى قائمة.

وقد بيّنا أن أولى القولين بالصواب فى ذلك: قول من قال: قد تمت القصة عند قوله (لَيْسُوا سَوَاءً)، عن إخبار الله بأمر مؤمنى أهل الكتاب، وأهل الكفر منهم، وأن قوله (مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ أُمَّةٌ قائمَةٌ): خبر مبتدأ عن مدح مؤمنيهم، ووصفهم بصفتهم، على ما قاله ابن عباس وقتادة وابن جريج، ويعنى جلّ ثناؤه بقوله (أُمَّةٌ قائمَةٌ): جماعة ثابتة على الحقّ. وقد دللنا على معنى الأمة فيما مضى، بما أغنى عن إعادته.

وأما القائمة، فإن أهل التأويل اختلفوا فى تأويله، فقال بعضهم: معناها: العادلة.

ذكر من قال ذلك:

حدثنى محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، قال: ثنا عيسى، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد (أُمَّةٌ قائمَةٌ) قال: عادلة.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنها قائمة على كتاب الله، وما أمر به فيه.

ذكر من قال ذلك:

حدثنا بشر بن معاذ، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة فى قوله (أُمَّةٌ قائمَةٌ) يقول: قائمة على كتاب الله وفرائضه وحدوده.

حُدثت عن عمار، قال: ثنا ابن أبى جعفر، عن أبيه، عن الربيع، قوله (أُمَّةٌ قائمَةٌ) يقول: قائمة على كتاب الله وحدوده وفرائضه.

حدثني محمد بن سعد ، قال : ثني أبي ، قال : ثني عمي ، قال : ثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس (مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ) يقول: أمة مهتدية ، قائمة على أمر الله ، لم تنزع عنه وتتركه ، كما تركه الآخرون وضيعوه .

وقال آخرون : بل معنى قائمة : مطيعة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (أُمَّةٌ قَائِمَةٌ) الآية . يقول : ليس هؤلاء اليهود ، كمثل هذه الأمة التي هي قانتة لله ، والقانتة : المطيعة .

وأولى هذه الأقوال بالصواب في تأويل ذلك : ماقاله ابن عباس وقتادة ، ومن قال بقولهما ، على ماروينا عنهم ، وإن كان سائر الأقوال الأُخَر متقاربة المعنى من معنى ماقاله ابن عباس وقتادة في ذلك ، وذلك أن معنى قوله (قَائِمَةٌ) مستقيمة على الهدى ، وكتاب الله وفرائضه ، وشرائع دينه ، بالعدل والطاعة ، وغير ذلك من أسباب الخير ، من صفة أهل الاستقامة على كتاب الله ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ونظير ذلك الخبر الذى رواه النعمان بن بشير ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا ، كَمَثَلِ قَوْمٍ رَكِبُوا سَفِينَةً ، ثُمَّ ضَرَبَ لَهُمْ مَثَلاً . فالقَائِمُ عَلَى حُدُودِ اللهِ هُوَ الثَّابِتُ عَلَى التَّمَسُّكِ بِمَا أَمَرَهُ اللهُ بِهِ ، وَاجْتِنَابِ مَا نَهَاهُ اللهُ عَنْهُ » .

فتأويل الكلام : من أهل الكتاب جماعة معتصمة بكتاب الله ، متمسكة به ، ثابتة على العمل بما فيه ، وما سنّ له رسوله صلى الله عليه وسلم .

القول في تأويل قوله (يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ) :

يعنى بقوله (يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ) : يقرءون كتاب الله آناء الليل ، ويعنى بقوله (آيَاتِ اللهِ) : ما أنزل في كتابه من العبر والمواعظ ، يقول: يتلون ذلك آناء الليل ، يقول : في ساعات الليل ، فيتدبرونه ويتفكرون فيه . وأما (آنَاءَ اللَّيْلِ) : فساعات الليل ، واحدها : إِنْىٌ ، كما قال الشاعر :

حُلْوٌ ومُرٌّ كعَطْفِ القِدْحِ مِرَّتُهُ ... فِى كُلِّ إِنْيٍ قَضَاهُ اللَّيْلُ يَنْتَعِلُ (١)

وقد قيل إن واحد الآناء : إِنًى مقصور ، كما واحد الأمعاء : مِعًى .

واختلف أهل التأويل في تأويل ذلك ، فقال بعضهم : تأويله : ساعات الليل ، كما قلنا .

---

(١) البيت للمتنخل الهذلى ، وهو من شواهد الصحاح ، وذكره اللسان فى (أنى) مرتين مع تغيير الشطر الأول منه . شاهدا على أن مفرد آناء الليل : إِنى بكسر الهمزة ، وسكون النون ، كمعى وأمعاء ، قال الهذلى المتنخل: السالك الثغر مخشيا موارده . . . الخ . قال الأزهرى : كذا رواه ابن الأنبارى . وأنشده الجوهرى . . . الخ ، كرواية المؤلف . ونسبه أيضا للمتنخل ؛ فإما أن يكون هو البيت بعينه ، أو آخر من قصيدة أخرى .

وفى ديوان الهذليين القسم الثانى دار الكتب المصرية سنة ١٩٤٨ ص ٣٥ ، وروايته : فى كل إنى حذاه الليل ينتعل :

كعطف القدح : يريد حلوى كما يطوى القدح . ومرته : فتلته . وينتعل: يسرى فى كل ساعة من الليل من هدايته . وإنى : واحد الآناء ، وهى الساعات . ومن ذلك : « ومن آناء الليل » .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (يَتْلُونَ آياتِ اللهِ آناءَ اللَّيْلِ) : أى ساعات الليل .

حُدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قال (آناءَ اللَّيْلِ) : ساعات الليل .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، قال : قال ابن جريج ، قال عبد الله بن كثير : سمعنا العرب تقول : (آناءَ اللَّيْلِ) : ساعات الليل .

وقال آخرون (آناءَ اللَّيْلِ) : جوف الليل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (يَتْلُونَ آياتِ اللهِ آناءَ اللَّيْلِ) أما آناء الليل : فجوف الليل .

وقال آخرون : بل عُنى بذلك قوم كانوا يصلون العشاء الأخيرة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن الحسن بن يزيد العجلىّ ، عن عبد الله بن مسعود ، فى قوله (يَتْلُونَ آياتِ اللهِ آناءَ اللَّيْلِ) : صلاة العَتَمة ، هم يصلونها ، ومَن سواهم من أهل الكتاب لايصليها .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : ثنى يحيى بن أيوب ، عن عبيد الله بن زَحْر ، عن سليمان ، عن زرّ بن حبيش ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : احتبس علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ، كان عند بعض أهله ونسائه ، فلم يأتنا لصلاة العشاء حتى ذهب ليل ، فجاء ومنا المصلى ، ومنا المضطجع ، فبشّرنا وقال : إنه لايصلى هذه الصلاة أحد من أهل الكتاب ، فأنزل الله (لَيْسُوا سَوَاءً ، مِنْ أَهْلِ الكِتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ يَتْلُونَ آياتِ اللهِ آناءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ) .

حدثنى يونس ، قال : ثنا علىّ بن معبد ، عن أبى يحيى الخراسانىّ ، عن نصر بن طريف ، عن عاصم ، عن زرّ بن حبيش ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن ننتظر العشاء ، يريد العَتَمة ، فقال : لنا ما على الأرض أحد من أهل الأديان ينتظر هذه الصلاة فى هذا الوقت غيركم ، قال : فنزلت (لَيْسُوا سَوَاءً ، مِنْ أَهْلِ الكِتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ يَتْلُونَ آياتِ اللهِ آناءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ) .

وقال آخرون : بل عُنى بذلك قوم كانوا يصلون فيما بين المغرب والعشاء .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا الثورىّ ، عن منصور ، قال :

بلغنى أنها نزلت (لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ) فيما بين المغرب والعشاء .

وهذه الأقوال التى ذكرتها على اختلافها: متقاربة المعانى . وذلك أن الله تعالى ذكره ، وصف هؤلاء القوم ، بأنهم يتلون آيات الله فى ساعات الليل ،وهى آناؤه ، وقد يكون تاليها فى صلاةالعشاء تاليا لها آناء الليل ، وكذلك من تلاها فيما بين المغرب والعشاء،ومن تلاها جوف الليل ، فكلّ تالٍ له ساعات الليل .

غير أن أولى الأقوال بتأويل الآية : قول من قال : عُنى بذلك تلاوة القرآن فى صلاة العشاء ، لأنها صلاة لايصليها أحد من أهل الكتاب ، فوصف الله أمة محمد صلى الله عليه وسلم بأنهم يصلونها ، دون أهل الكتاب الذين كفروا بالله ورسوله .

وأما قوله (وَهُمْ يَسْجُدُونَ) فإن بعض أهل العربية زعم أن معنى السجود فى هذا الموضع اسم الصلاة لاالسجود ، لأن التلاوة لاتكون فى السجود ولا فى الركوع ، فكان معنى الكلام عنده : يتلون آيات الله آناء الليل وهم يصلون، وليس المعنى على ما ذهب إليه ، وإنما معنى الكلام : من أهل الكتاب أمة قائمة ، يتلون آيات الله آناء الليل فى صلاتهم ،وهم مع ذلك يسجدون فيها ، فالسجود: هو السجود المعروف فى الصلاة .

القول فى تأويل قوله

يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَيُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ ، وَأُولَـٰئِكَ مِنَ الصَّـٰلِحِينَ (١١٤)

يعنى بقوله جلّ وعزّ (يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) : يصدّقون بالله ، وبالبعث بعد الممات ، ويعلمون أن الله مجازيهم بأعمالهم ،وليسوا كالمشركين الذين يجحدون وحدانية الله ، ويعبدون معه غيره ، ويكذّبون بالبعث بعد الممات ، وينكرون المجازاة على الأعمال ، والثواب والعقاب ، وقوله (وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ) يقول : يأمرون الناس بالإيمان بالله ورسوله ، وتصديق محمد صلى الله عليه وسلم ، وما جاءهم به ، (وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ): يقول: وينهون الناس عن الكفر بالله، وتكذيب محمد ، وما جاءهم به من عند الله : يعنى بذلك:أنهم ليسوا كاليهود والنصارى ، الذين يأمرون الناس بالكفر ، وتكذيب محمد فيما جاءهم به ، وينهونهم عن المعروف من الأعمال ، وهو تصديق محمد فيما أتاهم به من عند الله (وَيُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ) يقول: ويبتدرون فعل الخيرات ، خشية أن يفوتهم ذلك قبل معاجلتهم مناياهم .ثم أخبر جل ثناؤه ، أن هؤلاء الذين هذه صفتهم من أهل الكتاب ،هم من عداد الصالحين ، لأن من كان منهم فاسقا قد باء بغضب من الله ، لكفره بالله وآياته ، وقتلهم الأنبياء بغير حقّ ، وعصيانه ربه ،واعتدائه فى حدوده .

القول فى تأويل قوله

وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥)

اختلف القراء فى قراءة ذلك، فقرأته عامة قراء الكوفة : ومايفعلوا من خير فلن يكفروه جميعا ، ردّا على صفة القوم الذين وصفهم جلّ ثناؤه بأنهم يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر . وقرأته عامة قراء المدينة والحجاز ، وبعض قراء الكوفة ، بالتاء فى الحرفين جميعا (وَما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ تُكْفَرُوهُ)، بمعنى : وما تفعلوا أنتم أيها المؤمنون من خير فلن يَكفرَكموه ربكم . وكان بعض قراء البصرة يرى القراءتين فى ذلك جائزا بالياء والتاء فى الحرفين .

والصواب من القراءة فى ذلك عندنا : (وَمايَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ) بالياء فى الحرفين كليهما ، يعنى بذلك الخبر عن الأمة القائمة ، التالية آيات الله . وإنما اخترنا ذلك ، لأن ما قبل هذه الآية من الآيات خبر عنهم ، فإلحاق هذه الآية ، إذكان لادلالة فيها تدلّ على الانصراف عن صفتهم بمعانى الآيات قبلها ، أولى من صرفها عن معانى ما قبلها ، وبالذى اخترنا من القراءة كان ابن عباس يقرأ .

حدثنى أحمد بن يوسف ، قال : ثنا القاسم بن سلام ، قال : ثنا حجاج ، عن هارون ، عن أبى عمرو ابن العلاء ، قال : بلغنى عن ابن عباس ، أنه كان يقرؤهما جميعا بالياء .

فتأويل الآية إذنْ على ما اخترنا من القراءة : وماتفعل هذه الأمة من خير ، وتعمل من عمل لله فيه رضا، فلن يكفرهم الله ذلك ، يعنى بذلك : فلن يبطل الله ثواب عملهم ذلك ، ولا يدعهم بغير جزاء منه لهم عليه ، ولكنه يجزل لهم الثواب عليه ، ويسْنى لهم الكرامة والجزاء .

وقد دللنا على معنى الكفر فيما مضى قبلُ بشواهده ، وأن أصله تغطية الشىء ، فكذلك ذلك فى قوله (فَلَنْ يُكْفَرُوهُ) : فلن يغطى على ما فعلوا من خير ، فيتركوا بغير مجازاة ، ولكنهم يشكرون على ما فعلوا من ذلك ، فيجزل لهم الثواب فيه .

وبنحو ما قلنا فى ذلك من التأويل تأوّل من تأوّل ذلك من أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة (وَما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ تُكْفَرُوهُ)، يقول : لن يضلّ عنكم .

حُدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، بمثله .

وأما قوله (وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ) فإنه يقول تعالى ذكره : والله ذو علم بمن اتقاه بطاعته ، واجتناب معاصيه ، وحافظ أعمالهم الصالحة حتى يثيبهم عليها ، ويجازيهم بها ، تبشيرا منه لهم جلّ ذكره فى عاجل الدنيا ، وحضًّا لهم على التمسك بالذى هم عليه من صالح الأخلاق التى ارتضاها لهم .

القول فى تأويل قوله

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ ، وَلَآ أَوْلَدُهُم مِّنَ اللهِ شَيْئًا ، وَأُولَـٰٓئِكَ أَصْحَبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ (١١٦)

وهذا وعيد من الله عزّ وجلّ للأمة الأخرى الفاسقة من أهل الكتاب ، الذين أخبر عنهم بأنهم فاسقون ، وأنهم قد باءوا بغضب منه ، ولمن كان من نظرائهم من أهل الكفر بالله ورسوله ، وما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله ، يقول تعالى ذكره (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا) يعنى الذين جحدوا نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، وكذبوا به ، وبما جاءهم به من عند الله (لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا) يعنى : لن تدفع أمواله التى جمعها فى الدنيا ، وأولاده الذين رباهم فيها ، شيئا من عقوبة الله يوم القيامة ، إن أخرها لهم إلى يوم القيامة ، ولا فى الدنيا إن عجلها لهم فيها . وإنما خصّ أولاده وأمواله ، لأن أولاد الرجل أقرب أنسبائه إليه ، وهو على ماله أقرب منه على مال غيره ، وأمره فيه أجوز من أمره فى مال غيره ، فإذا لم يغن عنه ولده لصلبه ، وماله الذى هو نافذ الأمر فيه ، فغير ذلك من أقربائه وسائر أنسبائه وأموالهم ، أبعد من أن تغنى عنه من الله شيئا . ثم أخبر جلّ ثناؤه ، أنهم هم أهل النار الذين هم أهلها بقوله : (وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ) ، وإنما جعلهم أصحابها ، لأنهم أهلها الذين لايخرجون منها ، ولايفارقونها ، كصاحب الرجل الذى لايفارقه ، وقرينه الذى لايزايله ، ثم وكّد ذلك بإخباره عنهم أنهم فيها خالدون ، صحبتهم إياها صحبة لاانقطاع لها ، إذا كان من الأشياء ما يفارق صاحبه فى بعض الأحوال ، ويزايله فى بعض الأوقات ، وليس كذلك صحبة الذين كفروا النار التى أصلوها ، ولكنها صحبة دائمة لا نهاية لها ولا انقطاع ، نعوذ بالله منها ، ومما قرّب منها من قول وعمل .

القول فى تأويل قوله

مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ ، وَلَٰكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : شبّه ماينفق الذين كفروا : أى شبّه مايتصدّق به الكافر من ماله ، فيعطيه من يعطيه على وجه القُربة إلى ربه ، وهو لوحدانية الله جاحد ، ولمحمد صلى الله عليه وسلم مكذّب فى أن ذلك غير نافعه مع كفره ، وأنه مضمحلّ عند حاجته إليه ، ذاهب بعد الذى كان يرجو من عائدة نفعه عليه ، كشبَه ريح فيها برد شديد ، أصابت هذه الريح التى فيها البرد الشديد ، حرثَ قوم : يعنى زرع قوم ، قد أمّلوا إدراكه ، ورجَوا ريعه ، وعائدة نفعه ، ظلموا أنفسهم : يعنى أصحاب الزرع ، عصوا الله ، وتعدّوا حدوده ، فأهلكته ، يعنى فأهلكت الريح التى فيها الصرّ زرعهم ذلك ، بعد الذى كانوا عليه من الأمل ، ورجاء عائدة نفعه عليهم . يقول تعالى ذكره : فكذلك فعل الله بنفقة الكافر ، وصدقته فى حياته ، حين يلقاه يبطل ثوابها ، ويخيب رجاؤه منها ، وخرَج المثلُ للنفقة ، والمراد بالمثل : صنيع الله بالنفقة ، فبين ذلك قوله (كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ) ، فهو كما قد بينا فى مثله من قوله (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا) ، وما أشبه ذلك .

فتأويل الكلام : مَثَل إبطال الله أجر ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا ، كمثل ريح فيها صرّ ، وإنما جاز

ترك ذكر إبطال الله أجر ذلك لدلالة آخر الكلام عليه ، وهو قوله (كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ) ولمعرفة السامع ذلك معناه .

واختلف أهل التأويل فى معنى النفقة التى ذكرها فى هذه الآية ، فقال بعضهم : هى النفقة المعروفة فى الناس .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد، فى قول الله عزّ وجلّ (مَثَلُ ما يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ الدُّنْيا) قال : نفقة الكافر فى الدنيا .

وقال آخرون : بل ذلك قوله : الذى يقوله بلسانه ، مما لايصدّقه بقلبه .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن الحسين ، قال : ثنى أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (مَثَلُ ما يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ الدُّنْيا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيها صِرٌّ أصابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ فأهْلَكَتْهُ) يقول : مثل ما يقول فلا يقبل منه كمثل هذا الزرع إذا زرعه القوم الظالمون ، فأصابه ريح فيها صرّ ، أصابته فأهلكته ، فكذلك أنفقوا ، فأهلكهم شركهم .

وقد بيّنّا أولى ذلك بالصواب قبل . وقد تقدم بياننا تأويل الحياة الدنيا بما فيه الكفاية من إعادته فى هذا الموضع . وأما الصرّ ، فإنه شدة البرد ، وذلك بعُصوف من الشّمال فى إعصار الطَّلّ والأنداء فى صبيحة معتمة ، بعقب ليلة مصحية .

كما حدثنا حميد بن مسعدة ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، عن عثمان بن غياث ، قال : سمعت عكرمة يقول : (رِيحٍ فِيها صِرٌّ) قال : برد شديد .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، قال : قال ابن جريج ، قال ابن عباس : (رِيحٍ فِيها صِرٌّ) قال : برد شديد وزمهرير .

حدثنا علىّ بن داود ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قوله (رِيحٍ فِيها صِرٌّ) يقول : برد .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن سفيان ، عن هارون بن عنترة ، عن أبيه ، عن ابن عباس : الصرّ : البرد .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (كَمَثَلِ رِيحٍ فِيها صِرٌّ) : أى برد شديد .

حُدثت عن عمار ، عن ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، مثله .

حدثنا محمد ، قال : ثنا أحمد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، فى الصرّ : البرد الشديد .

حدثنا محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنا عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس (كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ) يقول : ريح فيها برد .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد (رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ) قال : صِرٌّ : باردة أهلكت حرثهم ، قال : والعرب تدعوها الضَّرِيب : تأتى الريح باردة ، فتصبح ضريبا قد أحرق الزرع ، تقول : قد ضُرِب الليلة : أصابه ضريب تلك الصرّ التى أصابته .

حدثنى يحيى بن أبى طالب ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا جويبر ، عن الضحاك (رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ) قال : ريح فيها برد .

القول فى تأويل قوله (وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) :

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : وما فعل الله بهؤلاء الكفار ما فعل بهم ، من إحباطه ثواب أعمالهم ، وإبطاله أجورها ظلما منه لهم ، يعنى : وضعا منه لما فعل بهم من ذلك فى غير موضعه ، وعند غير أهله ، بل وضع فعله ذلك فى موضعه ، وفعل بهم ماهم أهله ، لأن عملهم الذى عملوه لم يكن لله ، وهم له بالوحدانية دائنون ، ولأمره متبعون ، ولرسله مصدّقون ، بل كان ذلك منهم ، وهم به مشركون ، ولأمره مخالفون ، ولرسله مكذّبون ، بعد تقدّم منه إليهم ، أنه لا يقبل عملا من عامل ، إلا مع إخلاص التوحيد له ، والإقرار بنبوّة أنبيائه ، وتصديق ما جاءوهم به ، وتوكيده الحجَجَ بذلك عليهم ، فلم يكن بفعله مافعل بمن كفر به ، وخالف أمره فى ذلك ، بعد الاعتذار إليه من إحباط وافر عمله ، له ظالما ، بل الكافر هو الظالم نفسه ، لإكسابها من معصية الله ، وخلاف أمره ، ما أوردها به نار جهنم ، وأصلاها به سعير سَقَر .

القول فى تأويل قوله

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ، وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ ، قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ، وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨)

يعنى بذلك تعالى ذكره : يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله ، وأقرّوا بما جاءهم به نبيهم من عند ربهم ، لاتتخذوا بطانة من دونكم ، يقول : لاتتخذوا أولياء وأصدقاء لأنفسكم من دونكم ، يقول : من دون أهل دينكم وملتكم ، يعنى من غير المؤمنين ، وإنما جعل البطانة مثلا لخليل الرجل ، فشبهه بما ولى بطنه من ثيابه ، لحلوله منه فى اطلاعه على أسراره ، وما يطويه عن أباعده ، وكثير من أقاربه ، محلّ ما ولى جسده من ثيابه ، فنهى الله المؤمنين به أن يتخذوا من الكفار به أخلاّء وأصفياء ، ثم عرّفهم ماهم عليه لهم منطوون ، من الغشّ والخيانة ، وبغيهم إياهم الغوائل ، فحذّرهم بذلك منهم عن مخالّتهم ، فقال تعالى ذكره (لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا) يعنى : لايستطيعونكم شرًّا ، من ألوت آلو أُلُوًّا ، يقال : ما ألا فلان كذا : أى ما استطاع ، كما قال الشاعر :

جَهْرَاءُ لاتأْلُو إذا هِىَ أَظْهَرَتْ بَصَرًا وَلا مِنْ عَيْلَةٍ تُغْنِينِى[١]

يعنى : لاتستطيع عند الظهر إبصارا .

و إنما يعنى جلّ ذكره بقوله (لا يَأْلُونَكُمْ خَبالاً) البطانة التى نهى المؤمنين عن اتخاذها من دونهم ، فقال : إن هذه البطانة لا تترككم طاقتها خبالا : أى لاتدع جهدها فيما أورثكم الخبال ، وأصل الخبل والخبال : الفساد ، ثم يستعمل فى معان كثيرة ، يدلّ على ذلك الخبر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : «من أصيب بخبل أو جراح» .

وأما قوله (وَدُّوا ماعَنِتُّمْ) فإنه يعنى : ودّوا عنتكم ، يقول : يتمنون لكم العَنَت ، والشرّ فى دينكم ، وما يسوءكم ولا يسرّكم ، وذكر أن هذه الآية نزلت فى قوم من المسلمين كانوا يخالطون حلفاءهم من اليهود وأهل النفاق منهم ، ويصافونهم المودة ، بالأسباب التى كانت بينهم فى جاهليتهم قبل الإسلام ، فنهاهم الله عن ذلك ، وأن يستنصحوهم فى شىء من أمورهم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن محمد بن إسحاق ، قال : قال محمد بن أبى محمد ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : كان رجال من المسلمين يواصلون رجالا من اليهود ، لما كان بينهم من الجوار والحلف فى الجاهلية ، فأنزل الله عزّ وجلّ فيهم ، فنهاهم عن مباطنتهم ، تخوّف الفتنة عليهم منهم (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاتَتَّخِذُوا بِطانَةً مِنْ دُونِكُمْ) إلى قوله (وَتُؤْمِنُونَ بالكِتابِ كُلِّهِ)

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله عزّ وجلّ (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاتَتَّخِذُوا بطانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبالاً) فى المنافقين من أهل المدينة ، نهى الله عزّ وجلّ المؤمنين أن يتولّوهم .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاتَتَّخِذُوا بِطانَةً مِنْ دونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبالاً وَدُّوا ما عَنِتُّمْ) نهى الله عزّ وجلّ المؤمنين أن يستدخلوا المنافقين أو يؤاخوهم : أى يتولوهم من دون المؤمنين .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (لاتَتَّخِذُوا بِطانَةً مِنْ دُونِكُمْ) هم المنافقون .

---

(١) فى اللسان (ألا) : وأنشد ابن جنى فى ألوت بمعنى استطعت ، لأبى العيال الهذلى . . . البيت .

أى لاتطيق . يقال : هو يألو هذا الأمر : أى يطيقه ويقوى عليه . وفى اللسان (جهر) : وقال أبو العيال الهذلى يصف منيحة منحه إياها بدر بن عمار الهذلى . . . البيت . قال : هذا نص ابن سيده ، وأورده الأزهرى عن الأصمعى ، وما عزاه لأحد ، وقال : قال يصف فرسا ، يعنى الجهراء . وقال أبو منصور : أرى هذا البيت لبعض الهذليين يصف نعجة . وقال اللحيانى : كل ضعيف البصر فى الشمس أجهر . وقيل الأجهر بالنهار ، والأعشى بالليل . والعيلة : الفقر والحاجة . وقال ابن قتيبة فى المعانى الكبير (ص ١٩٠) الجهراء : التى لاتبصر فى الشمس ، يقال : كبش أجهر ، ونعجة جهراء . وأظهرت : إذا نظرت فى وقت الظهيرة حين ارتفاع الشمس .

وفى ديوان الهذليين القسم الثانى ص ٢٦٣ : الجهراء : التى لاتبصر فى الهاجرة من الدواب والإبل : أى منحتنى شاة لا تبصر ، والأجهر : مثلها . لاتألو : لاتستطيع بصرا . قال : وسمعت رجلا بمكة يقول : لا آلو كذا وكذا ، أى لاأستطيعه .

حدثت عن عمار، قال: ثنا ابن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع، قوله (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاتَتَّخِذُوا بِطانَةً مِنْ دُونِكُمْ لايَأْلُونَكُمْ خَبالاً) يقول: لاتستدخلوا المنافقين، تتولَّوْهم دون المؤمنين.

حدثنا أبو كريب ويعقوب بن إبراهيم، قالا: ثنا هشيم، قال: أخبرنا العوَّام بن حوشب، عن الأزهر ابن راشد، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لاتَسْتَضِيئُوا بِنارِ أهْلِ الشِّرْكِ، ولا تَنْقُشُوا فِي خَواتِيمِكُمْ عَرَبِيًّا» قال: فلم ندر ما ذلك، حتى أتوا الحسن فسألوه، فقال نعم، أما قوله: لاتنقشوا فى خواتيمكم عربيا، فإنه يقول: لاتنقشوا فى خواتيمكم محمد؛ وأما قوله: ولا تستضيئوا بنار أهل الشرك، فإنه يعنى به المشركين، يقول لاتستشيروهم فى شىء من أموركم، قال: قال الحسن، وتصديق ذلك فى كتاب الله، ثم تلا هذه الآية (ياأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاتَتَّخِذُوا بِطانَةً مِنْ دُونِكُمْ).

حدثنا محمد بن الحسين، قال: ثنا أحمد بن المفضل، قال: ثنا أسباط، عن السدىّ (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاتَتَّخِذُوا بِطانَةً مِنْ دُونِكُمْ) أما البطانة: فهم المنافقون.

حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثنى حجاج، عن ابن جريج، قوله (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاتَتَّخِذُوا بِطانَةً مِنْ دُونِكُمْ)... الآية، قال: لايستدخل المؤمن المنافق دون أخيه.

حدثنى يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، فى قوله (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاتَتَّخِذُوا بِطانَةً مِنْ دُونِكُمْ)... الآية، قال: هؤلاء المنافقون، وقرأ قوله (قَدْ بَدَتِ البَغْضاءُ مِنْ أفْواهِهِمْ)... الآية.

واختلفوا فى تأويل قوله (وَدُّوا ما عَنِتُّمْ)، فقال بعضهم معناه: ودّوا ما ضللتم عن دينكم.

ذكر من قال ذلك:

حدثنا محمد بن الحسين، قال: ثنا أحمد، قال: ثنا أسباط، عن السدىّ (وَدُّوا ما عَنِتُّمْ) يقول: ما ضللتم.

وقال آخرون بما حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثنى حجاج، عن ابن جريج (وَدُّوا ما عَنِتُّمْ) يقول فى دينكم، يعنى: أنهم يودّون أن تُعْنَتوا فى دينكم.

فإن قال لنا قائل: وكيف قيل (وَدُّوا ما عَنِتُّمْ) فجاء بالخبر عن البطانة بلفظ الماضى فى محلّ الحال والقطع، بعد تمام الخبر، والحالات التى لاتكون إلا بصور الأسماء والأفعال المستقبلة، دون الماضية منها؟ قيل: ليس الأمر فى ذلك على ما ظننت، من أن قوله (وَدُّوا ما عَنِتُّمْ) حال من البطانة، وإنما هو خبر عنهم ثان، منقطع عن الأول، غير متصل به.

وإنما تأويل الكلام: يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة صفتهم كذا، صفتهم كذا، فالخبر عن الصفة الثانية غير متصل بالصفة الأولى، وإن كانتا جميعا من صفة شخص واحد.

وقد زعم بعض أهل العربية أن قوله (وَدُّوا ما عَنِتُّمْ) من صلة البطانة ، وقد وصلت بقوله (لا يَأْلُونَكُمْ خَبالاً) فلا وجه لصلة أخرى بعد تمام البطانة بصلته ، ولكن القول فى ذلك كما بيّنا قبلُ ، من أن قوله (وَدُّوا ماعَنِتُّمْ) خبر مبتدأ عن البطانة غير الخبر الأول ، وغير حال من البطانة ولاقطع منها .

القول فى تأويل قوله (قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ) :

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : قد بدت بغضاء هؤلاء الذين نهيتكم أيها المؤمنون أن تتخذوهم بطانة من دونكم ، لكم بأفواههم ، يعنى بألسنتهم ، والذى بدا لهم منهم بألسنتهم إقامتهم على كفرهم ، وعداوتهم من خالف ماهم عليه مقيمون من الضلالة ، فذلك من أوكد الأسباب فى معاداتهم أهل الإيمان ، لأن ذلك عداوة على الدين ، والعداوة على الدين ، العداوة التى لازوال لها إلا بانتقال أحد المتعاديين إلى ملة الآخر منهما ، وذلك انتقال من هدى إلى ضلالة ، كانت عند المنتقل إليها ضلالة قبل ذلك ، فكان فى إبدائهم ذلك للمؤمنين ومُقامهم عليه ، أبين الدلالة لأهل الإيمان ، على ماهم عليه من البغضاء والعداوة .

وقد قال بعضهم : معنى قوله (قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ) قد بدت بغضاؤهم لأهل الإيمان إلى أوليائهم من المنافقين وأهل الكفر ، بإطلاع بعضهم بعضا على ذلك .

وزعم قائلو هذه المقالة أن الذين عُنوا بهذه الآية : أهل النفاق ، دون من كان مصرّحا بالكفر من اليهود وأهل الشرك .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ) يقول : قد بدت البغضاء من أفواه المنافقين ، إلى إخوانهم من الكفار ، من غشهم للإسلام وأهله ، وبغضهم إياهم .

حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ) يقول : من أفواه المنافقين . وهذا القول الذى ذكرناه عن قتادة قول لامعنى له ، وذلك أن الله تعالى ذكره إنما نهى المؤمنين أن يتخذوا بطانة ممن قد عرفوه بالغشّ للإسلام وأهله والبغضاء ، إما بأدلة ظاهرة دالة على أن ذلك من صفتهم ، وإما بإظهار الموصوفين بذلك العداوة ، والشنآن والمناصبة لهم ، فأما من لم يُثْبِتُوه[1] معرفةً أنه الذى نهاهم الله عزّ وجلّ عن مخالّته ومباطنته ، فغير جائز أن يكونوا نُهُوا عن مخالّته ومصادقته ، إلا بعد تعريفهم إياهم ، إما بأعيانهم وأسمائهم ، وإما بصفات قد عرفوهم بها ، وإذ كان ذلك كذلك ، وكان إبداء المنافقين بألسنتهم ما فى قلوبهم من بغضاء المؤمنين إلى إخوانهم من الكفار ، غير مدرك به المؤمنون معرفة ماهم عليه لهم ، مع إظهارهم الإيمان بألسنتهم لهم ، والتودّد إليهم ، كان بيّنا أن الذى نهى الله المؤمنين عن اتخاذهم لأنفسهم بطانة دونهم ، هم الذين قد ظهرت لهم بغضاؤهم بألسنتهم ، على ماوصفهم الله عزّ وجلّ به ، فعرفهم المؤمنون بالصفة التى نعتهم الله بها ، وأنهم هم الذين وصفهم تعالى ذكره بأنهم أصحاب النار هم فيها خالدون ، ممن كان له ذمة وعهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من أهل

(١) فى الأصول : يتنسوه ، ولعله تحريف عما أثبتناه . وفى اللسان : أثبته : عرفه حق المعرفة .

الكتاب ، لأنهم لو كانوا المنافقين ، لكان الأمر فيهم على ماقد بينا ، ولو كانوا الكفار ممن قد ناصب المؤمنين الحرب ، لم يكن المؤمنون متخذيهم لأنفسهم بطانة ، من دون المؤمنين مع اختلاف بلادهم ، وافتراق أمصارهم ، ولكنهم الذين كانوا بين أظهر المؤمنين من أهل الكتاب . أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ممن كان له من رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد وعقد، من يهود بنى إسرائيل . والبغضاء : مصدر . وقد ذكر أنها فى قراءة عبد الله بن مسعود : قد بدا البغضاء من أفواههم ، على وجه التذكير . وإنما جاز ذلك بالتذكير ولفظه لفظ المؤنث ، لأن المصادر تأنيثها ليس بالتأنيث اللازم ، فيجوز تذكير ماخرج منها على لفظ المؤنث وتأنيثه ، كما قال عزّ وجلّ (وأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ) وكما قال (فَقَدْ جَاءَ كُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ) ،وفى موضع آخر (وأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ ، وَجَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ) وقال من أفواههم ، وإنما بدا ما بدا من البغضاء بألسنتهم ، لأن المعنىّ به الكلام الذى ظهر للمؤمنين منهم من أفواههم ، فقال (قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ) بألسنتهم .

القول فى تأويل قوله (وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ) :

يعنى تعالى ذكره بذلك: والذى تُخفى صدورهم ،يعنى صدور هؤلاء الذين نهاهم عن اتخاذهم بطانة، فتخفيه عنكم أيها المؤمنون، أكبر ، يقول: أكبر مما قد بدا لكم بألسنتهم من أفواههم من البغضاء، وأعظم .

كما حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ) يقول : وما تخفى صدورهم أكبر مما قد أبدوا بألسنتهم .

حُدثت عن عمار ، عن ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قوله (وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ) يقول : ما تُكِنّ صدورهم أكبر مما قد أبدوا بألسنتهم .

القول فى تأويل قوله (قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ) :

يعنى بذلك جلّ ثناؤه: قد بينا لكم أيها المؤمنون الآيات، يعنى بالآيات : العِبَر ، قد بينا لكم من أمر هؤلاء اليهود الذين نهيناكم أن تتخذوهم بطانة من دون المؤمنين،ماتعتبرون وتتعظون به من أمرهم . إن كنتم تعقلون : يعنى : إن كنتم تعقلون عن الله مواعظه وأمره ونهيه . وتعرفون مواقع نفع ذلك منكم ، ومبلغ عائدته عليكم .

القول فى تأويل قوله

هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ، وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ، وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا ، وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ، قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : ها أنتم أيها المؤمنون الذين تحبونهم ، يقول : تحبون هؤلاء الكفار ، الذين نهيتكم

عن اتخاذهم بطانة من دون المؤمنين ، فتودّونهم وتواصلونهم ، وهم لايحبونكم ، بل ينتظرون[١] لكم العداوة والغشّ ، وتؤمنون بالكتاب كله . ومعنى الكتاب فى هذا الموضع ، معنى الجمع ، كما يقال : أكثر الدرهم فى أيدى الناس ، بمعنى الدراهم ، فكذلك قوله (وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ) ، إنما معناه : بالكتب كلها : كتابكم الذى أنزل الله إليكم ، وكتابهم الذى أنزله إليهم ، وغير ذلك من الكتب التى أنزلها الله على عباده .

يقول تعالى ذكره : فأنتم إذ كنتم أيها المؤمنون تؤمنون بالكتب كلها ، وتعلمون أن الذين نهيتكم عن أن تتخذوهم بطانة من دونكم ، كفار بذلك كله ، بجحودهم ذلك كله ، من عهود الله إليهم ، وتبديلهم مافيه من أمر الله ونهيه ، أولى بعداوتكم إياهم ، وبغضائهم وغشهم ، منهم بعداوتكم[٢] وبغضائكم ، مع جحودهم بعض الكتب ، وتكذيبهم ببعضها .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قال : ثنى محمد بن أبى محمد ، عن عكرمة ، أوعن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ) : أى بكتابكم وكتابهم ، وبما مضى من الكتب قبل ذلك ، وهم يكفرون بكتابكم ، فأنتم أحقّ بالبغضاء لهم ، منهم لكم . وقال (هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ) ، ولم يقل : هؤلاء أنتم ، ففرّق بين ها وأولاء ، بكناية اسم المخاطبين ، لأن العرب كذلك تفعل فى هذا ، إذا أرادت به التقريب ، ومذهب النقصان ، الذى يحتاج إلى تمام الخبر ، وذلك مثل أن يقال لبعضهم : أين أنت ؟ فيجيب المقول ذلك له : ها أنا ذا ، فيفرق بين التنبيه وذا بمكنىّ اسم نفسه ، ولا يكادون يقولون : هذا أنا ، ثم يثنى ويجمع على ذلك ، وربما أعادوا حرف التنبيه مع ذا ، فقالوا : ها أنا هذا ، ولا يفعلون ذلك إلا فيما كان تقريبا ، فأما إذا كان على غير التقريب والنقصان ، قالوا : هذا هو ، وهذا أنت ، وكذلك يفعلون مع الأسماء الظاهرة ، يقولون : هذا عمرو قائما ، وإن كان هذا تقريبا . وإنما فعلوا ذلك فى المكنى مع التقريب ، تفرقة بين هذا إذا كان بمعنى الناقص الذى يحتاج إلى تمام ، وبينه وبين ما إذا كان بمعنى الاسم الصحيح ، وقوله (تُحِبُّونَهُمْ) : خبر للتقريب .

وفى هذه الآية إبانة من الله عزّ وجلّ عن حال الفريقين ، أعنى المؤمنين والكافرين ، ورحمة أهل الإيمان ، ورأفتهم بأهل الخلاف لهم ، وقساوة قلوب أهل الكفر ، وغلظتهم على أهل الإيمان .

كما حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ، وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ) فوالله إن المؤمن ليحبّ المنافق ، ويأوى له[٣] ويرحمه ، ولو أن المنافق يقدر على ما يقدر عليه المؤمن منه ، لأباد خضراءه .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : المؤمن خير للمنافق ، من المنافق للمؤمن ، يرحمه ، ولو يقدر المنافق من المؤمن ، على مثل ما يقدر المؤمن عليه منه ، لأباد خضراءه .

وكان مجاهد يقول : نزلت هذه الآية فى المنافقين .

(١) لعله : بل يبطنون ، أو يضمرون .	(٢) أى بالعداوة والبغضاء الواقعة منهم عليكم .

(٣) قوله « ويأوى له » أى يرق له ، من قولهم : أوى له ، أوية : إذا رق له ورحمه .

حدثنى بذلك محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد .

القول فى تأويل قوله (وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا ، وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الغَيْظِ) :

يعنى بذلك تعالى ذكره : أن هؤلاء الذين نهى الله المؤمنين أن يتخذوهم بطانة من دونهم ، ووصفهم بصفتهم ، إذا لَقُوا المؤمنين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أعطوهم بألسنتهم تقيّة ، حذرا على أنفسهم منهم ، فقالوا لهم : قد آمنا وصدّقنا بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، وإذا هم خَلَوْا فصاروا فى خلاء ، حيث لايراهم المؤمنون ، عضُّوا على ما يرون من ائتلاف المؤمنين ، واجتماع كلمتهم ، وصلاح ذات بينهم ، أناملهم ، وهى أطراف أصابعهم ، تغيظا مما بهم من الموجِدة عليهم ، وأسًى على ظهر يسندون إليه ، لمكاشفتهم العداوة ، ومناجزتهم المحاربة .

وبنحو ما قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا ، وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الغَيْظِ) : إذا لقوا المؤمنين قالوا آمنا ، ليس بهم إلا مخافة على دمائهم وأموالهم ، فصانعوهم بذلك (وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الغَيْظِ) يقول : مما يجدون فى قلوبهم من الغيظ والكراهة ، لما هم عليه ، لو يجدون ريحا لكانوا على المؤمنين ، فهم كما نعت الله عزّ وجلّ .

حُدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بمثله ، إلا أنه قال : من الغيظ لكراهتهم الذى هم عليه ، ولم يقل : لو يجدون ريحا وما بعده .

حدثنا عباس بن محمد ، قال : ثنا مسلم ، قال : ثنى يحيى بن عمرو بن مالك البكرىّ ، قال : ثنا أبى ، قال : كان أبو الجوزاء إذا تلا هذه الآية (وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا ، وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الغَيْظِ) قال : هم الإباضية . والأنامل : جمع أَنْمُلة ، ويقال أُنْمُلة ، وربما جمعت أَنْمُلا ، قال الشاعر :

أَوَدُّ كَمَا مَا بَلَّ حَلْقِيَ رِيقَتِي وَمَا حَمَلَتْ كَفَّايَ أَنْمُلِيَ العَشْرَا[1]

وهى أطراف الأصابع .

كما حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، الأنامل : أطراف الأصابع .

(١) البيت غير منسوب . والأنملة من الأصابع : العقدة . وبعضهم يقول الأنامل : رءوس الأصابع . وعليه قول الأزهرى : الأنملة : المفصل الذى فيه الظفر . وهى بفتح الهمزة وفتح الميم أكثر من ضمها . وابن قتيبة يجعل الضم من لحن العوام . وبعض المتأخرين من النحاة حكى تثليث الهمزة مع تثليث الميم ، فيصير تسع لغات (عن المصباح المنير) .

ولم يذكر فى جمع الأنملة سوى الأنامل . وقال فى اللسان (نمل) : والجمع : أنامل وأنملات ، وهى رءوس الأصابع . وهو أحد ما كسر وسلم بالتاء . والظاهر أن البيت من شواهد النحويين الكوفيين ، وأنهم هم الذين صرحوا بجمع الأنملة على أنمل ، والله أعلم .

حُدثت عن عمار ، عن ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، بمثله .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ) : الأصابع .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا وكيع ، عن إسرائيل ، عن أبى الأحوص ، عن عبد الله ، قوله (عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ) قال : عضوا على أصابعهم .

القول فى تأويل قوله عزّ وجلّ (قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) :

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : قل يا محمد لهؤلاء اليهود الذين وصفت لك صفتهم ، وأخبرتك أنهم إذا لَقُوا أصحابك ، قالوا آمنا ، وإذا خَلَوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ : موتوا بغيظكم الذى بكم على المؤمنين ، لاجتماع كلمتهم ، وائتلاف جماعتهم .

وخرج هذا الكلام مَخْرَج الأمر ، وهو دعاء من الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ، بأن يدعو عليهم بأن يهلكهم الله كمدا ، مما بهم من الغيظ على المؤمنين ، قبل أن يروا فيهم مايتمنون لهم ، من العَنَت فى دينهم ، والضلالة بعد هداهم ، فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : قل يا محمد ، اهلِكوا بغيظكم ، إن الله عليم بذات الصدور ، يعنى بذلك : إن الله ذو علم بالذى فى صدور هؤلاء الذين إذا لَقُوا المؤمنين ، قالوا : آمنا ، وما ينطوون لهم عليه من الغِلّ والغمّ ، ويعتقدون لهم من العداوة والبغضاء ، وبما فى صدور جميع خلقه ، حافظ على جميعهم ما هو عليه منطوٍ من خير وشرّ ، حتى يجازِىَ جميعهم على ما قدّم من خير وشرّ ، واعتقد من إيمان وكفر ، وانطوى عليه لرسوله وللمؤمنين ، من نصيحة أو غِلّ و غِمْر [1] .

القول فى تأويل قوله

إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ، وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ، وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)

يعنى بقوله تعالى ذكره (إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ) إنْ تنالوا أيها المؤمنون سرورا بظهوركم على عدوّكم ، وتتابع الناس فى الدخول فى دينكم ، وتصديق نبيكم ، ومعاونتكم على أعدائكم ، يسؤهم ، وإن تنلكم مساءة ، بإخفاق سَرِيّة لكم ، أو بإصابة عدوّ لكم منكم ، أو اختلاف يكون بين جماعتكم ، يفرحوا بها .

كما حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ، وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا) : فإذا رأوا من أهل الإسلام ألفة وجماعة ، وظهورا على عدوّهم ، غاظهم ذلك وساءهم ، وإذا رأوا من أهل الإسلام فرقة واختلافا ، أو أصيب طَرَف من أطراف المسلمين ، سرّهم ذلك ، وأُعجبوا به ، وابتهجوا به ، فهم كلما خرج منهم قَرْن أكذب الله أحدوثته ، وأوطأ محلته ، وأبطل حجته ، وأظهر عورته ، فذاك قضاء الله فيمن مضى منهم ، وفيمن بقى إلى يوم القيامة .

(١) الغمر ، بكسر الغين ، وسكون الميم : الحقد . (اللسان : غمر ٦ : ٣٣٥) .

حُدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قوله (إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ، وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا) قال: هم المنافقون: إذا رأوا من أهل الإسلام جماعة وظهورا على عدوّهم ، غاظهم ذلك غيظا شديدا ، وساءهم ؛ وإذا رأوا من أهل الإسلام فُرقة واختلافا ، أو أصيب طَرَف من أطراف المسلمين، سرّهم ذلك ، وأُعجبوا به ، قال الله عزّ وجلّ (وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لايَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ، إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قوله (إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ) قال : إذا رأوا من المؤمنين جماعة وألفة ، ساءهم ذلك ، وإذا رأوا منهم فرقة واختلافا فرحوا .

وأما قوله (وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لايَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا) فإنه يعنى بذلك جلّ ثناؤه : وإن تصبروا أيها المؤمنون على طاعة الله ، واتباع أمره فيما أمركم به ، واجتناب ما نهاكم عنه ، من اتخاذ بطانة لأنفسكم من هؤلاء اليهود الذين وصف الله صفتهم من دون المؤمنين ، وغير ذلك من سائر ما نهاكم ، وتتقوا ربكم ، فتخافوا التقدم بين يديه ، فيما ألزمكم ، وأوجب عليكم من حقه ، وحقّ رسوله ، لايضرّكم كيدهم شيئا : أى كيد هؤلاء الذين وصف صفتهم . ويعنى بكيدهم : غوائلهم التى يبتغونها للمسلمين ، ومكرهم بهم ، ليصدّوهم عن الهدى وسبيل الحقّ .

واختلف القراء فى قراءة قوله (لايَضُرُّكُمْ) فقرأ ذلك جماعة من أهل الحجاز وبعض البصريين : لا يَضِرْكم ، مخففة بكسر الضاد ، من قول القائل : ضارَنى فلان ، فهو يضيرنى ضَيْرا . وقد حكى سماعا من العرب ماينفعنى ، ولا يَضُورُنى ، فلو كانت قرئت على هذه اللغة لقيل : لايَضُرْكُم كيدهم شيئا . ولكنى لا أعلم أحدا قرأ به . وقرأ ذلك جماعة من أهل المدينة ، وعامة قراء أهل الكوفة (لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا) بضم الضاد وتشديد الراء ، من قول القائل : ضرّنى فلان ، فهو يضرّنى ضَرا .

وأما الرفع فى قوله (لا يَضُرُّكُمْ) فمن وجهين : أحدهما على إتباع الراء فى حركتها ، إذ كان الأصل فيها الجزم ، ولم يمكن جزمها ، لتشديدها أقرب حركات الحروف التى قبلها ، وذلك حركة الضاد ، وهى الضمة ، فألحقت بها حركة الراء لقربها منها ، كما قالوا : مُدُّ ياهذا . والوجه الآخر من وجهى الرفع فى ذلك : أن تكون مرفوعة على صحة ، وتكون لا بمعنى ليس ، وتكون الفاء التى هى جواب الجزاء متروكة ، لعلم السامع بموضعها . وإذا كان ذلك معناه ، كان تأويل الكلام : وإن تصبروا وتتقوا فليس يضرّكم كيدهم شيئا ، ثم تركت الفاء من قوله (لايَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ) ، ووجهت « لا » إلى معنى ليس ، كما قال الشاعر :

فإنْ كانَ لا يُرْضِيكَ حَتى تَرُدَّنِى ... إلى قَطَرِىٍّ لاإخالُكَ رَاضِيا[1]

ولو كانت الراء محركة إلى النصب والخفض كان جائزا ، كما قيل : مدَّ ياهذا ، ومدِّ .

(١) البيت لسوار بن المضرب ، وكان قد هرب من الحجاج خوفا على نفسه . وهو من شواهد النحويين فى باب الفاعل (انظر المقاصد النحوية فى شرح شواهد شروح الألفية للعينى ، على هامش خزانة الأدب للبغدادى) ٢ : ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ؛ و (فرائد القلائد ، شرح مختصر الشواهد ص ١٥٥) وكلاهما للعينى . واستشهد به المؤلف على ترك الفاء من جواب الشرط المقرون بلا « لا إخالك » كما (فى الآية) .

وقوله (إنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) يقول جل ثناؤه : إن الله بما يعمل هؤلاء الكفار فى عباده وبلاده من الفساد ، والصدّ عن سبيله ، والعداوة لأهل دينه ، وغير ذلك من معاصى الله، محيط بجميعه، حافظ له ، لايعزُب عنه شىء منه، حتى يوفيهم جزاءهم على ذلك كله ، ويذيقهم عقوبته عليه .

القول فى تأويل قوله

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١)

يعنى جلّ ثناؤه بقوله (وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ) : وإن تصبروا وتتقوا لايضرّكم أيها المؤمنون كيد هؤلاء الكفار من اليهود شيئا ، ولكن الله ينصركم عليهم ، إن صبرتم على طاعتى ، واتباع أمر رسولى ، كما نصرتكم ببدر وأنتم أذلة ؛ وإن أنتم خالفتم أيها المؤمنون أمرى ، ولم تصبروا على . ما كلفتكم من فرائضى ، ولم تتقوا ما نهيتكم عنه ، وخالفتم أمرى ، وأمر رسولى ، فإنه نازل بكم ما نزل بكم بأُحُد، واذكروا ذلك اليوم، إذ غدا نبيكم يبوّئ المؤمنين ،فترك ذكر الخبر عن أمر القوم إن لم يصبروا على أمر ربهم ، ولم يتقوه، اكتفاء بدلالة ما ظهر من الكلام على معناه ، إذ ذكر ما هو فاعل بهم من صرف كيد أعدائهم عنهم ، إن صبروا على أمره ، واتقوا محارمه . وتعقيبه ذلك بتذكيرهم ما حلّ بهم من البلاء بأُحُد ، إذ خالف بعضهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتنازعوا الرأى بينهم . وأخرج الخطاب فى قوله (وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ) على وجه الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم. والمراد بمعناه : الذين نهاهم أن يتخذ الكفار من اليهود بطانة من دون المؤمنين، فقد بيّن إذنْ أن قوله «وإذ»إنما جرّها فى معنى الكلام ، على ما قد بينت وأوضحت .

وقد اختلف أهل التأويل فى اليوم الذى عَنَى الله عزّ وجلّ بقوله (وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ) فقال بعضهم : عَنَى بذلك يوم أُحد .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله (وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ) قال : مشى النبىّ صلى الله عليه وسلم يومئذ على رجليه يبوّئ المؤمنين .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ) ذلك يوم أُحد، غدا نبىّ الله صلى الله عليه وسلم من أهله إلى أُحد، يبوّئ المؤمنين مقاعد للقتال .

حُدثت عن عمار ، عن ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قوله (وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ)، فغدا النبىّ صلى الله عليه وسلم من أهله إلى أُحد، يبوّئ المؤمنين مقاعد للقتال .

حدثني محمد بن سعد ، قال : ثني أبي ، قال : ثني عمي ، قال : ثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ) : فهو يوم أُحد .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ) قال : هنا يوم أحد .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق مما نزل فى يوم أحد (وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ) .

وقال آخرون : عنى بذلك يوم الأحزاب .

ذكر من قال ذلك :

حدثني محمد بن سنان القزّاز ، قال : ثنا أبو بكر الحنفىّ ، قال : ثنا عباد ، عن الحسن ، فى قوله (وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ) قال : يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم ، غدا يبوّئ المؤمنين مقاعد للقتال يوم الأحزاب .

وأولى هذين القولين بالصواب : قول من قال : عنى بذلك : يوم أُحُد ، لأن الله عزّ وجلّ يقول فى الآية التى بعدها : (إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا) ولا خلاف بين أهل التأويل أنه عنى بالطائفتين بنو سَلِمة [1] وبنو حارثة ، ولا خلاف بين أهل السير والمعرفة بمغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن الذى ذكر الله من أمرهما ، إنما كان يوم أحد ، دون يوم الأحزاب .

فإن قال لنا قائل : وكيف يكون ذلك يوم أحد ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم إنما راح إلى أُحد من أهله للقتال يوم الجمعة ، بعد ما صلى الجمعة فى أهله بالمدينة بالناس ، كالذى حدثكم ابن حميد ، قال : حدثنا سَلَمة ، عن محمد بن إسحاق ، قال : ثنى محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبدالله بن شهاب الزُّهرىّ ، ومحمد بن يحيى ابن حبَّان ، وعاصم بن عمر بن قتادة ، والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ ، وغيرهم من علمائنا : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم راح حين صلى الجمعة إلى أحد ، دخل فلبس لأْمته ، وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة ، وقد مات فى ذلك اليوم رجل من الأنصار ، فصلى عليه رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، ثم خرج عليهم وقال : « ما يَنْبَغِي لِلنَّبِيِّ ، صلى الله عليه وسلم ، إِذَا لَبِسَ لأْمَتَهُ ، أَنْ يَضَعَهَا حتى يُقَاتِلَ » . قيل : إن النبىّ صلى الله عليه وسلم وإن كان خروجه للقوم كان رواحا فلم يكن تبوئته للمؤمنين مقاعدهم للقتال عند خروجه ، بل كان ذلك قبل خروجه لقتال عدوه ، وذلك أن المشركين نزلوا منزلهم من أحد ، فيما بلغنا ، يوم الأربعاء ، فأقاموا به ذلك اليوم ويوم الخميس ويوم الجمعة ، حتى راح رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم يوم الجمعة ، بعد ما صلى بأصحابه الجمعة ، فأصبح بالشِّعْب من أُحد يوم السبت ، للنصف من شوّال .

حدثنا بذلك ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قال : ثنى محمد بن مسلم الزهرىّ ، ومحمد ابن يحيى بن حبان ، وعاصم بن عمر بن قتادة ، والحصين بن عبد الرحمن وغيرهم .

(١) سلمة ، بفتح السين ، وكسر اللام . وبنوسلمة : بطن من الأنصار ، وهم بنوسلمة بن سعد بن على بن أسد بن ساردة بن تزيد بن جشم (عن تاج العروس) وذكر منهم جملة من الصحابة ، منهم جابر بن عبدالله .

فإن قال : وكيف كانت تبوئته المؤمنين مقاعد للقتال غُدُوًّا قبل خروجه ، وقد علمت أن التبوئة اتخاذ الموضع ؟ قيل : كانت تبوئته إياهم ذلك قبل مناهضته عدوّه ، عند مشورته على أصحابه بالرأى الذى رآه لهم بيوم أو يومين ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سمع بنزول المشركين من قريش وأتباعها أحدا ، قال فيما حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، لأصحابه : أشيروا علىّ ما أصنع ؟ فقالوا : يارسول الله اخرج إلى هذه الأكلُب . فقالت الأنصار : يارسول الله ما غلَبنا عدوّ لنا أتانا فى ديارنا ، فكيف وأنت فينا ؟ فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبىّ ابن سَلُول ، ولم يَدْعُه قطُّ قبلها ، فاستشاره ، فقال : يارسول الله ، اخرج بنا إلى هذه الأكلب . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه أن يدخلوا عليه المدينة ، فيقاتَلُوا فى الأزقة . فأتاه النعمان بن مالك الأنصارىّ ، فقال : يا رسول الله ، لا تحرمنى الجنة ، فوالذى بعثك بالحقّ لأدخلنّ الجنة ، فقال له : بم ؟ قال : بأنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ، وأنى لا أفرّ من الزحف . قال : صَدَقْتَ ، فقُتل يومئذ . ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا بدرعه فلبسها ، فلما رأوه ، وقد لبس السلاح ، ندموا ، وقالوا : بئسما صنعنا ، نشير على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والوحى يأتيه ، فقاموا واعتذروا إليه ، وقالوا : اصنع ما رأيت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لايَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أنْ يَلْبَسَ لأْمَتَهُ فَيَضَعَهَا حَتَّى يُقَاتِلَ » .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن محمد بن إسحاق ، قال : ثنى ابن شهاب الزهرىّ ومحمد بن يحيى بن حَبان وعاصم بن عمر بن قتادة ، والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ ، و غيرهم من علمائنا ، قالوا : لما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون بالمشركين ، قدنزلوا منزلهم من أحد ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنّى قَدْ رَأيْتُ بَقَرًا ، فأوَّلْتُها خَيْرًا ، ورأيْتُ فِى ذُبابِ سَيْفِى ثَلْمًا ، ورأيْتُ أنّى أدْخَلْتُ يَدِى فِى دِرْعٍ حَصِينَةٍ ، فأوّلْتُها المَدِينَةَ ، فإنْ رأيْتُمْ أنْ تُقِيمُوا بالمَدِينَةِ ، وتَدَعُوهُمْ حَيْثُ نَزَلُوا ، فإنْ أقامُوا أقامُوا بِشَرِّ مُقامٍ ، وَإنْ هُمْ دَخَلُوا عَلَيْنا ، قاتَلْناهُمْ فيها » . وكان رأى عبد الله بن أبىّ ابن سَلُولَ مع رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يرى رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك ألا يخرج إليهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره الخروج من المدينة ، فقال رجال من المسلمين ، ممن أكرم الله بالشهادة يوم أحد ، وغيرهم ممن كان فاته بدر وحضوره : يارسول الله ، اخرج بنا إلى أعدائنا ، لايرون أنا جَبُنَّا عنهم وضعفنا ، فقال عبد الله بن أبىّ ابن سلول : يارسول الله ، أقم بالمدينة ، لاتخرج إليهم ، فوالله ما خرجنا منها إلى عدوّ لنا قطُّ ، إلا أصاب منا ، ولادخلها علينا قط إلا أصبنا منه ، فدعهم يا رسول الله ، فإن أقاموا أقاموا بشرّ مَحْبِس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا .

فلم يزل الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين كان من أمرهم حبّ لقاء القوم ، حتى دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلبس لأمته ، فكانت تبوئة رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمنين مقاعد للقتال ، ماذكرنا

من مشورته على أصحابه بالرأى الذى ذكرنا، على ماوصفه الذين حكينا قولهم . يقال منه : بوأتُ القومَ منزلا، وبوأته لهم ، فأنا أبوّئهم المنزل تبوئة ، وأبوئُ لهم منزلا تبوئة . وقد ذكر أن فى قراءة عبد الله بن مسعود (وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ) وذلك جائز ، كما يقال : رَدِفَكَ ورَدِفَ لك ، ونَقَدت لها صداقها ونَقَدْتُها ، كما قال الشاعر :

أَسْتَغْفِرُ اللهَ ذَنْباً لَسْتُ مُحْصِيَهُ رَبُّ العِبادِ إليهِ الوَجْهُ وَالعَمَلُ(١)

والكلام: أستغفر الله لذنب . وقد حُكِى عن العرب سماعا: أبأت القوم منزلا. فأنا أُبيئهم إباءة، ويقال منه: أبأت الإبل: إذا رددتها إلى المباءة، والمباءة: المُراح الذى تبيت فيه. والمقاعد: جمع مقعد، وهو المجلس.

فتأويل الكلام: واذكر إذ غدوت يامحمد من أهلك، تتخذ للمؤمنين مُعَسكرا، وموضعا لقتال عدوّهم.

وقوله (وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) يعنى بذلك تعالى ذكره : والله سميع لما يقول المؤمنون لك ، فيما شاورتهم فيه، من موضع لقائك ولقائهم عدوّك وعدوّهم، من قول من قال : اخرج بنا إليهم حتى نلقاهم خارج المدينة ، وقول من قال لك : لاتخرج إليهم ، وأقم بالمدينة حتى يدخلوها علينا ، على ما قد بينا قبل ، ومما تشير به عليهم أنت يا محمد ، عليم بأصلح تلك الآراء لك ولهم ، وبما تخفيه صدور المشيرين عليك بالخروج إلى عدوّك ، وصدور المشيرين عليك بالمُقام فى المدينة ، وغير ذلك من أمرك وأمورهم .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق فى قوله (وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) : أى سميع لما يقولون ، عليم بما يخفون .

القول فى تأويل قوله

إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا ، وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : والله سميع عليم حين همّت طائفتان منكم أن تفشلا . والطائفتان اللتان همّتا بالفشل ، ذكر لنا أنهم : بنوسَلِمة ، وبنوحارثة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله (إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا) قال بنوحارثة : كانوا نحو أُحد ، وبنوسَلِمة نحو سَلْع ، وذلك يوم الخندق .

قال أبو جعفر : وقد دللنا على أن ذلك كان يوم أحد فيما مضى بما فيه الكفاية عن إعادته .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ

(١) البيت من شواهد سيبويه التى لايعرف قائلها . كذا فى خزانة الأدب للبغدادى (١ : ٤٨٦) . والشاهد فيه سقوط حرف الجر من المفعول الثانى للفعل : أستغفر . قال : والأصل : أستغفر الله من ذنب . وأراد بالذنب : جميع ذنوبه التى لا يحصيها ، أى لايعرف عددها . والوجه : القصد والتوجه .

وفى حاشية يس على التصريح فى باب التمييز : قال الشهاب القاسمى : لقائل أن يقول : قد عدوا السين من المعديات ، فما المانع هنا أن قد عدت الفعل إلى مفعول آخر ، وهو « ذنبا » ؟ اهـ . قلت : والمراد السين الدالة على الطلب .

تَفْشَلا) . . . الآية ، وذلك يوم أحد ، والطائفتان : بنوسَلِمة ، وبنو حارثة : حيان من الأنصار ، هموا بأمر ، فعصمهم الله من ذلك . قال قتادة : وقد ذكر لنا أنه لما أنزلت هذه الآية قالوا : ما يسرّنا أنا لم نهمّ بالذى هممنا به ، وقد أخبرَنا الله أنه ولينا .

حُدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قوله (إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ) . . . الآية ، وذلك يوم أحد ، فالطائفتان : بنو سَلِمة ، وبنو حارثة : حيان من الأنصار . فذكر مثل قول قتادة .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أُحد فى ألف رجل ، وقد وعدهم الفتح إن صَبَروا ؛ فلما رجع عبد الله ابن أبىّ ابن سَلُول فى ثلثمائة ، فتبعهم أبوجابر السَّلَمى يدعوهم ، فلما غلبوه ، وقالوا له : ما نعلم قتالا ، ولئن أطعتنا لترجعنّ معنا ، وقال (إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا) وهم بنوسَلِمة ، وبنو حارثة ، هموا بالرجوع ، حين رجع عبد الله بن أبىّ ، فعصمهم الله ، وبقى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سبعمائة .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال عكرمة : نزلت فى بنى سَلِمة من الخزرج ، وبنى حارثة من الأوس ، ورأسهم عبد الله بن أُبىّ ابن سلول .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس قوله (إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا) : فهم بنوحارثة وبنوسَلِمة .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا) : والطائفتان : بنو سَلِمة من جُشَم بن الخزرج ، وبنو حارثة بن النَّبِيت من الأوس ، وهما الجناحان .

حدثنى محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفىّ ، عن عباد ، عن الحسن فى قوله (إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا) . . . الآية ، قال : هما طائفتان من الأنصار ، همّا أن يفشلا ، فعصمهم الله ، وهزم عدوّهم .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا ابن عيينة ، عن عمرو بن دينار ، قال : سمعت جابر بن عبد الله يقول : (إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا) قال : هم بنوسَلِمة ، وبنوحارثة ، وما نحبّ أن لو لم تكن [1] هممنا ، لقول الله عزّ وجلّ (وَاللهُ وَلِيُّهُما) .

حدثنى أحمد بن حازم ، قال : ثنا أبو نُعيم ، قال : ثنا ابن عيينة ، عن عمرو ، قال : سمعت جابر بن عبد الله يقول ، فذكر نحوه .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد (إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا) قال : هذا يوم أُحد ، وأما قوله (أَنْ تَفْشَلا) فإنه يعنى : همّا أن يَضْعفا ويَجْبُنا عن لقاء عدوّهما ، يقال منه : فَشِل فلان عن لقاء عدوّه ، يفشَل فَشَلا .

(١) قوله « أن لو لم تكن الخ » الظاهر : أن لم تكونا همتا . أو : وما نحب أن لو لم نكن هممنا ، كما تقدم آنفا .

كما حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس : الفشل : الجبن : وكان همُّهما الذى همّا به من الفَشَل : الانصراف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، حين انصرف عنهم عبد الله بن أُبيّ ابن سلول بمن معه ، جبنا منهم ، من غير شكّ منهم فى الإسلام ولا نفاق ، فعصمهم الله مما هموا به من ذلك ، ومضَوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لوجهه الذى مضى له ، وتركوا عبد الله بن أبيّ ابن سلول والمنافقين معه ، فأثنى الله عزّ وجلّ عليهما بثبوتهما على الحقّ ، وأخبر أنه وليهما وناصرهما على أعدائهما من الكفار .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا) : أى الدافع عنهما ما همّا به من فَشَلهما . وذلك أنه إنما كان ذلك منهما عن ضعف ووَهْن أصابهما ، من غير شكّ أصابهما فى دينهما ، فتولى دفع ذلك عنهما برحمته وعائدته ، حتى سَلِمتا من وَهْنهما وضعفهما ، ولحقتا بنبيهما صلى الله عليه وسلم .

يقول (وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ) أى من كان به ضعف من المؤمنين أو وَهْن ، فليتوكل علىّ ، وليستعن بى ، أعنه على أمره ، وأدفع عنه ، حتى أبلغ به ، وأقوّيه على نيته .

وذكر أن ابن مسعود رضى الله عنه كان يقرأ (وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمْ) ، وإنما جاز أن يقرأ ذلك كذلك ، لأن الطائفتين وإن كانتا فى لفظ اثنين ، فإنهما فى معنى جماع ، بمنزلة الخصمين والحزبين .

القول فى تأويل قوله

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : وإن تصبروا وتتقوا ، لايضرّكم كيدهم شيئا ، وينصركم ربكم ، ولقد نصركم الله ببدر على أعدائكم ، وأنتم يومئذ أذلة : يعنى قليلون ، فى غير مَنَعَة من الناس ، حتى أظهركم الله على عدوّكم ، مع كثرة عددهم ، وقلة عددكم ، وأنتم اليوم أكثر عددا منكم حينئذ ، فإن تصبروا لأمر الله ينصركم ، كما نصركم ذلك اليوم . فاتقوا الله : يقول تعالى ذكره : فاتقوا ربكم بطاعته ، واجتناب محارمه . لعلكم تشكرون : يقول : لتشكروه على ما منّ به عليكم ، من النصر على أعدائكم ، وإظهار دينكم ، ولما هداكم له من الحقّ الذى ضلّ عنه مخالفوكم .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ) : يقول : وأنتم أقلّ عددا ، وأضعف قوّة ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون : أى فاتقون ، فإنه شكر نعمتى .

واختلف فى المعنى الذى من أجله سمى بدر بدرا ، فقال بعضهم : سمى بذلك ، لأنه كان ماء لرجل يسمى بدرا ، فسمى باسم صاحبه .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن زكريا ، عن الشعبىّ ، قال : كانت «بدر» لرجل يقال له بدر ، فسميت به .

حدثنى يعقوب ، قال: ثنا هشيم ، قال : أخبرنا زكريا، عن الشعبىّ : أنه قال : (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ) قال : كانت بدر بئرا لرجل يقال له بدر ، فسميت به .

وأنكر ذلك آخرون ، وقالوا : ذلك اسم سميت به البقعة ، كما سمى سائر البُلدان بأسمائها .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا الحارث بن محمد ، قال : ثنا ابن سعد ، قال : ثنا محمد بن عمر الواقدىّ ، قال : ثنا منصور ، عن أبى الأسود ، عن زكريا ، عن الشعبىّ ، قال : إنما سمى بدرا لأنه كان ماء لرجل من جهينة، يقال له بدر ، وقال الحارث : قال ابن سعد : قال الواقدىّ : فذكرت ذلك لعبد الله بن جعفر ومحمد بن صالح ، فأنكراه ، وقالا : فلأىّ شىء سميت الصفراء ، ولأىّ شىء سميت الحمراء ، ولأىّ شىء سمى رابغ[1]؟ هذا ليس بشىء ، إنما هو اسم الموضع . قال : وذكرت ذلك ليحيى بن النعمان الغِفارىّ ، فقال : سمعت شيوخنا من بنى غِفار يقولون : هو ماؤنا ومنزلنا ، وما ملكه أحد قطُّ يقال له بدر ، وما هو من بلاد جُهينة ، إنما هى بلاد غِفار . قال الواقدىّ : فهذا المعروف عندنا .

حُدثت عن الحسين بن الفرج ، قال : سمعت أبا معاذ ، قال : أخبرنا عبيد بن سليمان ، قال : سمعت الضحاك يقول : بدر ماء عن يمين طريق مكة ، بين مكة والمدينة .

وأما قوله (أَذِلَّةٌ): فإنه جمع ذليل ، كما الأعزّة جمع عزيز ، والألبّة جمع لبيب ، وإنما سماهم الله عزّ وجلّ أذلة ، لقلة عددهم ، لأنهم كانوا ثلثمائة نفس وبضعة عشر ، وعدوّهم ما بين التسعمائة إلى الألف ، على ما قد بينا فيما مضى ، فجعلهم لقلة عددهم أذلة .

وبنحو ما قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ، فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) وبدر : ماء بين مكة والمدينة ، التقى عليه نبىّ الله صلى الله عليه وسلم والمشركون ، وكان أوّل قتال قاتله نبىّ الله صلى الله عليه وسلم . وذُكر لنا أنه قال لأصحابه يومئذ : أَنْتُمُ الْيَوْمَ بِعِدَّةِ أَصْحَابِ طَالُوتَ يَوْمَ لَقِىَ جالُوت ، فكانُوا ثَلَثَمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلاً ، وَالْمُشْرِكُونَ يَوْمَئِذٍ أَلْفٌ ، أَوْ رَاهَقُوا ذَلِكَ .

حدثنى محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر ، عن عباد ، عن الحسن فى قوله (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ، فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) قال: يقول : وأنتم أذلة: قليل، وهم يومئذ بضعة عشر وثلثمائة .

حُدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، نحو قول قتادة .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ) أقلّ عددا وأضعف قوّة .

(١) الصفراء ، والحمراء ، ورابغ : أعلام أماكن فى جزيرة العرب انظر معجم البلدان لياقوت ، ومعجم ما استعجم للبكرى .

وأما قوله (فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) : فإن تأويله كالذى قد بيّنت ، كما حدثنا ابن حميد ، قال ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) : أى فاتقونى ، فإنه شكر نعمى .

القول فى تأويل قوله تعالى

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا ، يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥)

يعنى تعالى ذكره (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ) إذ تقول للمؤمنين بك من أصحابك : (أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ) ؟ وذلك يوم بدر .

ثم اختلف أهل التأويل فى حضور الملائكة يوم بدر حربَهم ، فى أىّ يوم وُعِدوا ذلك ؟ فقال بعضهم : إن الله عزّ وجلّ كان وَعَد المؤمنين يوم بدر أن يمدّهم بملائكته ، إن أتاهم العدوّ من فورهم ، فلم يأتوهم ، ولم يُمَدّوا .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى حميد بن مسعدة ، قال : ثنا بشر بن المفضل ، قال : ثنا داود ، عن عامر ، قال : حدث المسلمون أن كُرز بن جابر المحاربىّ يُمِدّ المشركين ، قال : فشقّ ذلك على المسلمين ، فقيل لهم : (أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ؟ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا ، يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ) قال : فبلغت كُرْزًا الهزيمة [1] . فرجع ، ولم يُمِدّهم بالخمسة .

حدثنى ابن المثنى ، قال : ثنا عبد الأعلى ، قال : ثنا داود ، عن عامر ، قال : لما كان يوم بدر ، بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ذكر نحوه ، إلا أنه قال : (وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا) : يعنى كُرزا وأصحابه (يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ) قال : فبلغ كرزا وأصحابه الهزيمة ، فلم يمدّهم ، ولم تنزل الخمسة ، وأُمِدّوا بعد ذلك بألف ، فهم أربعة آلاف من الملائكة مع المسلمين .

حدثنى محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفىّ ، عن عباد ، عن الحسن ، فى قوله (إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ؟) ... الآية كلها ، قال : هذا يوم بدر .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا ابن علية ، عن داود ، عن الشعبىّ ، قال : حدث المسلمون أن كُرز بن

(١) فى الدر المنثور : فبلغت كرزا الهزيمة ، فلم يمد المشركين ، ولم يمد المسلمون بالخمسة . ويؤيده ما بعده . اهـ .

جابر المحاربىّ ، يريد أن يمدّ المشركين ببدر ، قال : فشقّ ذلك على المسلمين ، فأنزل الله عزّ وجلّ (أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ ؟) . . . إلى قوله (مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ) قال : فبلغته هزيمة المشركين ، فلم يمدّ أصحابه ، ولم يُمَدّوا بالخمسة .

وقال آخرون: كان هذا الوعد من الله لهم يوم بدر، فصبر المؤمنون، واتقَوا الله ، فأمدّهم بملائكته على ما وعدهم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا يونس بن بكير ، عن محمد بن إسحاق ، قال : ثنى عبد الله بن أبى بكر ، عن بعض بنى ساعدة ، قال : سمعت أبا أُسيد مالك بن ربيعة ، بعد ما أصيب بصره ، يقول : لو كنت معكم ببدر الآن ، ومعى بصرى ، لأخبرتكم بالشِّعب الذى خرجت منه الملائكة ، لاأشك ولا أتمارى .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال :قال ابن إسحاق ، وثنى عبد الله بن أبى بكر ، عن بعض بنى ساعدة ، عن أبى أُسيد مالك بن ربيعة ، وكان شهد بدرا: أنه قال بعد إذ ذهب بصره :لو كنت معكم اليوم ببدر ، ومعى بصرى، لأريتكم الشِّعب الذى خرجت منه الملائكة ، لاأشك ولا أتمارى .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن محمد بن إسحاق ، قال : ثنى عبد الله بن أبى بكر أنه حدث عن ابن عباس، أن ابن عباس، قال: ثنى رجل من بنى غِفار، قال: أقبلت أنا وابنُ عمّ لى، حتى أصعدنا فى جبل يشرف بنا على بدر، ونحن مشركان، ننتظر الوقعة على من تكون الدَّبْرة ، فننتهب مع من ينتهب . قال : فبينا نحن فى الجبل ، إذ دنت منا سحابة ، فسمعنا فيها حمحمة الخيل ، فسمعت قائلا يقول : أقدم حَيزوم . قال : فأما ابن عمى فانكشف قناع قلبه ، فمات مكانه . وأما أنا فكدت أهلك ، ثم تماسكت .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن محمد بن إسحاق ، قال : وثنى الحسن بن عمارة ، عن الحكم بن عتيبة ، عن مِقسم ، مولى عبد الله بن الحارث ، عن عبد الله بن عباس ، قال : لم تقاتل الملائكة فى يوم من الأيام سوى يوم بدر ، وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عَدَدا ومَدَدا لايضربون .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : قال محمد بن إسحاق ، حدثنى أبى إسحاق بن يسار ، عن رجال من بنى مازن بن النجار ، عن أبى داود المازنىّ ، وكان شهد بدرا ، قال : إنى لأتبع رجلا من المشركين يوم بدر لأضربه ، إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفى ، فعرفت أن قد قتله غيرى .

حدثنى ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : قال محمد : ثنى حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس ، عن عكرمة مولى ابن عباس ، قال : قال أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم : كنت غلاما للعباس ابن عبد المطلب ، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت ، فأسلم العباس ، وأسلمت أمّ الفضل ، وأسلمت ، وكان العباس يهاب قومه ، ويكره أن يخالفهم ، وكان يكتم إسلامه ، وكان ذا مال كثير متفرّق فى قومه ، وكان أبو لهب عدوّ الله قد تخلف عن بدر ، وبعث مكانه العاصىَ بن هشام بن المغيرة ، وكذلك صنعوا: لم يتخلف رجل إلا بعث مكانه رجلا ، فلما جاء الخبر عن مصاب أصحاب بدر من قريش ، كبته الله

وأخزاه، ووجدنا فى أنفسنا قوّة وعونة . قال: وكنت رجلا ضعيفا، وكنت أعمَل القداح: أنحتها فى حجرة زمزم، فوالله إنى لجالس فيها أنحت القداح، وعندى أم ّ الفضل جالسة، وقد سرّنا ما جاءنا من الخبر، إذ أقبل الفاسق أبو لهب يجرّ رجليه بشرّ، حتى جلس على طُنُب الحجرة، فكان ظهره إلى ظهرى، فبينا هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم . قال: قال أبو لهب: هلم إلىّ يا بن أخى، فعندك الخبر . قال: فجلس إليه، والناس قيام عليه، فقال: يا بن أخى، أخبرنى كيف كان أمر الناس؟ قال: لاشىء، والله إن كان إلا أن لقيناهم، فمنحناهم أكتافنا، يقتلوننا ويأسروننا كيف شاءوا، وايم الله مع ذلك مالمت الناس، لقينا رجالا بيضا على خيل بُلق مابين السماء والأرض، مايَليق[1] لها شىء، ولا يقوم لها شىء، قال أبو رافع: فرفعت طُنُب الحجرة بيدى، ثم قلت: تلك الملائكة .

حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، عن محمد، قال: ثنى الحسن بن عمارة، عن الحكم بن عتيبة، عن مقسم، عن ابن عباس، قال: كان الذى أسر العباس أبا اليسر كعب بن عمرو أخا بنى سَلِمة، وكان أبو اليسر رجلا مجموعا، وكان العباس رجلا جسيما، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى اليسر: « كَيْفَ أَسَرْتَ العَبَّاسَ أبا اليُسْرِ ؟ قال: يارسول الله، لقد أعانى عليه رجل ما رأيته قبل ذلك ولا بعده، هيئته كذا وكذا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لَقَدْ أعانَكَ عَلَيْهِ مَلَكٌ كَرِيمٌ » .

حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله (أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلافٍ مِنَ المَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ؟) أمدّوا بألف، ثم صاروا ثلاثة آلاف، ثم صاروا خمسة آلاف: (بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا، يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ المَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ) وذلك يوم بدر، أمدّهم الله بخمسة آلاف من الملائكة .

حُدثت عن عمار، عن ابن أبى نجيح، عن أبيه، عن الربيع، بنحوه .

حدثنى محمد بن سعد، قال: ثنى أبى، قال: ثنى عمى، عن أبيه، عن ابن عباس فى قوله (يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ المَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ) فإنهم أتوا محمدا صلى الله عليه وسلم مسوّمين .

حدثنى محمد بن بشار، قال: ثنا سفيان، عن ابن خُثَيْم، عن مجاهد، قال: لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر .

وقال آخرون: إن الله عزّ وجلّ إنما وعدهم يوم بدر أن يمدّهم إن صبروا عند طاعته، وجهاد أعدائه، واتقَوه باجتناب محارمه، أن يمدّهم فى حروبهم كلها، فلم يصبروا، ولم يتقوا إلا فى يوم الأحزاب، فأمدّهم حين حاصروا قريظة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عمارة الأسدى، قال: ثنا عبد الله بن موسى، قال: أخبرنا سليمان بن زيد أبو آدم المحاربىّ، عن عبد الله بن أبى أوفى، قال: كنا محاصرى قريظة والنضير ما شاء الله أن نحاصرهم، فلم يفتح علينا، فرجعنا، فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته يغسل رأسه، إذ جاءه جبريل صلى الله

(١) أى ما يقف لها ولا يثبت .

عليه وسلم ، فقال : يامحمد، وضعتم أسلحتكم ولم تضع الملائكة أوزارها ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخرقة ، فلفّ بهارأسه ولم يغسله، ثم نادى فينا ، فقمنا كالزَّمِعين[١] لانعبأ بالسير شيئا، حتى أتينا قريظة والنضير ، فيومئذ أمدّنا الله عزّ وجلّ بثلاثة آلاف من الملائكة ، وفتح اللهلنا فتحا يسيرا ، فانقلبنا بنعمة من الله وفضل .

وقال آخرون بنحو هذا المعنى ، غير أنهم قالوا: لم يصبر القوم ، ولم يتقوا ، ولم يُمَدّوا بشىء فى أحد .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : ثنى عمرو بن دينار ، عن عكرمة، سمعه يقول: (بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا) قال: يوم بدر . قال : فلم يصبروا ولم يتقوا ، فلم يُمَدّوا يوم أحد ، ولو مُدّوا لم يهزموا يومئذ .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان بن عيينة ، عن عمرو بن دينار ، قال : سمعت عكرمة يقول : لم يُمَدّوا يوم أحد ولا بمَلَك واحد ، أو قال: إلا بملك واحد ، أبو جعفر يشكّ .

حُدثت عن الحسين بن الفرج ، قال : سمعت أبا معاذ ، قال : سمعت عبيد بن سليمان ، عن الضحاك ، قوله (أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ ؟) إلى (خَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ) كان هذا موعدا من الله يوم أحد، عرضه على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: أن المؤمنين إن اتقوا وصبروا أمدّهم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين، ففرّ المسلمون يوم أحد، وولوا مدبرين، فلم يمدّهم الله .

حدثنا يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا) . . . الآية كلها ، قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم ينظرون المشركين : يا رسول الله ، أليس يمدّنا الله كما أمدّنا يوم بدر ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ) ؟ وإنما أمدّكم يوم بدر بألف ، قال : فجاءت الزيادة من الله، على أن يصبروا ويتقوا ، قال : بشرط أن يأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم . . . الآية كلها .

وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب : أن يقال: إن الله أخبر عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: أنه قال للمؤمنين : (أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ) ؟فوعدهم الله بثلاثة آلاف من الملائكة مددا لهم، ثم وعدهم بعد الثلاثة الآلاف، خمسة آلاف، إن صبروا لأعدائهم، واتقوا الله ، ولا دلالة فى الآية على أنهم أُمدّوا بالثلاثة آلاف ، ولا بالخمسة آلاف، ولا على أنهم لم يُمَدّوا بهم .

وقد يجوز أن يكون الله عزّ وجلّ أمدّهم، على نحو مارواه الذين أثبتوا أنه أمدّهم . وقد يجوز أن يكون لم يمدّهم، على نحو الذى ذكره من أنكر ذلك ، ولاخبر عندنا صحّ من الوجه الذى يثبت أنهم أمدّوا بالثلاثة الآلاف ، ولا بالخمسة الآلاف ، وغير جائز أن يقال فى ذلك قول إلا بخبر تقوم الحجة به ، ولا خبر به كذلك، فنسلم لأحد الفريقين قوله ، غير أن فى القرآن دلالة على أنهم قد أُمدّوا يوم بدر بألف من الملائكة،

(١) الزمع : الدهش ، والخرق من خوف وجزع ، وقد يراد : السرعة فى الأمر .

وذلك قوله (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ) . فأما فى يوم أُحد ، فالدلالة على أنهم لم يُمَدّوا أبين منها فى أنهم أمدّوا ، وذلك أنهم لو أمدّوا لم يهزموا ، وينال منهم ما نيل منهم .

فالصواب فيه من القول : أن يقال كما قال تعالى ذكره . وقد بيّنا معنى الإمداد فيما مضى ، والمدد، ومعنى الصبر والتقوى .

وأما قوله (وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا) : فإن أهل التأويل اختلفوا فيه ، فقال بعضهم : معنى قوله : (مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا) : من وجههم هذا .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا حميد بن مسعدة ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، عن عثمان بن غياث ، عن عكرمة ، قال : (وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا) قال : من وجههم هذا .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا) يقول : من وجههم هذا .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، مثله .

حدثنا محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفىّ ، قال : ثنا عباد ، عن الحسن فى قوله (وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا) : من وجههم هذا .

حُدثت عن عمار بن الحسن ، عن ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع . قوله (وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا) يقول : من وجههم هذا .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، قوله (وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا) يقول : من وجههم هذا .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس قوله (وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا) يقول : من سفرهم هذا . ويقال : يعنى عن غير ابن عباس : بل هو من غضبهم هذا .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد (مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا) : من وجههم هذا .

وقال آخرون : معنى ذلك : من غضبهم هذا .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن المثنى ، قال : ثنا عبد الأعلى ، قال : ثنا داود ، عن عكرمة فى قوله (وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ) قال : فورهم ذلك : كان يوم أُحد ، غضبوا ليوم بدر مما لقوا .

حدثنى محمد بن عمارة ، قال : ثنا سهل بن عامر ، قال : ثنا مالك بن مغول ، قال : سمعت أباصالح مولى أمّ هانئ يقول : (مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا) يقول : من غضبهم هذا .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد، فى قوله (وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا) قال : غَضَبٍ لهم ، يعنى الكفار ، فلم يقاتلوهم عند تلك الساعة ، وذلك يوم أُحد .

حدثنى القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا حجاج ، قال : قال ابن جريج ، قال مجاهد (مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا) قال : من غضبهم هذا .

حُدثت عن الحسين بن الفرج ، قال : سمعت أبا معاذ ، قال : أخبرنا عبيد بن سليمان ، قال : سمعت الضحاك فى قوله (وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا) يقول : من وجههم وغضبهم .

وأصل الفَوْر : ابتداء الأمر يوجد فيه ، ثم يوصل بآخر ، يقال منه : فارت القدر ، فهى تفور فَوْرا وفورانا : إذا ما ابتدأ ما فيها بالغليان، ثم اتصل ؛ ومضيت إلى فلان من فورى ذلك ، يراد به : من وجهى الذى ابتدأت فيه .

فالذى قال فى هذه الآية : معنى قوله (مِنْ فَوْرِهِم هَذَا) : من وجههم هذا ، قصد إلى أن تأويله : ويأتيكم كرز بن جابر وأصحابه يوم بدر ، من ابتداء مخرجهم الذى خرجوا منه ، لنصرة أصحابهم من المشركين .

وأما الذين قالوا : معنى ذلك : من غضبهم هذا ، فإنما عَنَوا أن تأويل ذلك : ويأتيكم كفار قريش وتُبّاعهم يوم أُحد ، من ابتداء غضبهم الذى غضبوه لقتلاهم الذين قتلوا يوم بدر بها (يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ) . وكذلك من اختلاف تأويلهم فى معنى قوله (وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا)، اختلف أهل التأويل فى إمداد الله المؤمنين بأُحد بملائكته ، فقال بعضهم : لم يُمدّوا بهم ، لأن المؤمنين لم يصبروا لأعدائهم، ولم يتقوا الله عزّ وجلّ بترك من ترك من الرماة طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فى ثبوته فى الموضع الذى أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالثبوت فيه ، ولكنهم أَخلّوا به طلبا للغنائم، فقتل من المسلمين ، ونال المشركون منهم ما نالوا ، وإنما كان الله عزّ وجلّ وعد نبيه صلى الله عليه وسلم إمدادهم بهم إن صَبروا واتقَوا الله .

وأما الذين قالوا: كان ذلك يوم بدر بسبب كرز بن جابر ، فإن بعضهم قالوا : لم يأت كرز وأصحابه إخوانهم من المشركين مددا لهم ببدر ، ولم يُمدّ الله المؤمنين بملائكته ، لأن الله عزّ وجلّ إنما وعدهم أن يُمدّهم بملائكته إن أتاهم كرز ومدد المشركين من فورهم ، ولم يأتهم المدد .

وأما الذين قالوا : إن الله تعالى ذكره أمدّ المسلمين بالملائكة يوم بدر ، فإنهم اعتلوا بقول الله عزّ وجلّ : (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ) . قال : فالألف منهم قد أتاهم مددا ، وإنما الوعد الذى كانت فيه الشروط فيما زاد على الألف ، فأما الألف فقد كانوا أُمدّوا به ، لأن الله عزّ وجلّ كان قد وعدهم ذلك ، ولن يخلف الله وعده .

واختلف القراء فى قراءة قوله (مُسَوِّمِينَ) : فقرأ ذلك عامة قراء أهل المدينة والكوفة (مُسَوَّمِينَ)،

بفتح الواو ، بمعنى أن الله سوّمها ؛ وقرأ ذلك بعض قراء أهل الكوفة والبصرة (مُسَوِّمِينَ) ، بكسر الواو ، بمعنى : أن الملائكة سوّمت لنفسها .

وأولى القراءتين فى ذلك بالصواب : قراءة من قرأ بكسر الواو ، لتظاهر الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأهل التأويل منهم ومن التابعين بعدهم ، بأن الملائكة هى التى سوّمت أنفسها من غير إضافة تسويمها إلى الله عزّ وجلّ ، أو إلى غيره من خلقه .

ولا معنى لقول من قال : إنما كان يختار الكسر فى قوله (مُسَوِّمِينَ) لو كان فى البشر ، فأما الملائكة فوصفهم غير ذلك ، ظنا منه بأن الملائكة غير ممكن فيها تسويم أنفسها إمكان ذلك فى البشر ، وذلك أنه غير مستحيل أن يكون الله عز وجل مكنها من تسويم أنفسها بحقّ تمكينه البشر من تسويم أنفسهم ، فسوموا أنفسهم بحقّ الذى سوّم البشر ، طلبا منها بذلك طاعة ربها ، فأضيف تسويمها أنفسها إليها ، وإن كان ذلك عن تسبيب الله لهم أسبابه ، وهى إذا كانت موصوفة بتسويمها أنفسها ، تقرّبا منها إلى ربها ، كان أبلغ فى مدحها ، لاختيارها طاعة الله ، من أن تكون موصوفة بأن ذلك مفعول بها .

ذكر الأخبار بما ذكرنا من إضافة مَن أضاف التسويم إلى الملائكة دون إضافة ذلك إلى غيرهم ، على نحو ما قلنا فيه :

حدثنى يعقوب ، قال : أخبرنا ابن علية ، قال : أخبرنا ابن عوف ، عن عمير بن إسحاق ، قال : إن أوّل ما كان الصوف لَيومئذ ، يعنى يوم بدر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تَسَوَّمُوا فإنَّ المَلائِكَةَ قَدْ تَسَوَّمَتْ[1] » .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا مختار بن غسان ، قال : ثنا عبد الرحمن بن الغسيل ، عن الزبير بن المنذر ، عن جده أبى أُسيد ، وكان بدريا ، فكان يقول : لو أن بصرى معى ، ثم ذهبتم معى إلى أُحد ، لأخبرتكم بالشِّعب الذى خرجت منه الملائكة فى عمائم صفر ، قد طرحوها بين أكتافهم .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله (بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ المَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ) يقول : مُعْلِمين ، مجزوزة أذناب خيلهم ونواصيها ، فيها الصوف أو العهن ، وذلك التسويم .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا حكام ، عن عنبسة ، عن محمد بن عبد الرحمن ، عن القاسم بن أبى بزّة ، عن مجاهد فى قوله (بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ المَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ) قال : مجزوزة أذنابها وأعرافها ، فيها الصوف أو العهن ، فذلك التسويم .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (مُسَوِّمِينَ) : ذُكر لنا أن سيماهم يومئذ الصوف ، بنواصى خيلهم وأذنابها ، وأنهم على خيل بُلْق .

(١) كذا فى الدر المنثور ، وفى اللسان : سوموا فإن الملائكة سومت . وهو الأقرب للوارد فى الآية ، وإن كان الذى فى الأصل صحيحا فى نفسه ، فلعله رواية .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، فى قوله : (مُسَوِّمِينَ) قال : كان سيماها صوفا فى نواصيها .

حُدثت عن عمار ، عن ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن ليث ، عن مجاهد ، أنه كان يقول (مُسَوِّمِينَ) : قال : كانت خيولهم مجزوزة الأعراف ، مُعْلَمَة نواصيها وأذنابها بالصوف والعِهْن .

حُدثت عن عمار ، عن ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، كانوا يومئذ على خيل بُلْق .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا جويبر ، عن الضحاك ، وبعض أشياخنا ، عن الحسن ، نحو حديث معمر ، عن قتادة .

حدثنا محمد ، قال : ثنا أحمد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (مُسَوِّمِينَ) : معلمين .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس قوله (بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ المَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ) فإنهم أتوا محمدا النبىّ صلى الله عليه وسلم ، مسوّمين بالصوف ، فسوّم محمد وأصحابه أنفسَهم وخيلهم على سيماهم بالصوف .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا ابن يمان ، قال : ثنا هشام بن عروة ، عن عباد بن حمزة ، قال : نزلت الملائكة فى سِيمَى الزبير ، عليهم عمائم صفر ، وكانت عمامة الزبير صفراء .

حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا جويبر ، عن الضحاك فى قوله (مُسَوِّمِينَ) قال : بالصوف فى نواصيها وأذنابها .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن هشام بن عروة ، قال : نزلت الملائكة يوم بدر على خيل بُلق ، عليهم عمائم صفر ، وكان على الزبير يومئذ عمامة صفراء .

حدثنى أحمد بن يحيى الصوفى ، قال : ثنا عبد الرحمن بن شريك ، قال : ثنا أبى ، قال : ثنا هشام ابن عروة ، عن عروة ، عن عبد الله بن الزبير : أن الزبير كانت عليه ملاءة صفراء يوم بدر ، فاعتمّ بها ، فنزلت الملائكة يوم بدر على نبىّ الله صلى الله عليه وسلم مُعتَمّين بعمائم صفر .

فهذه الأخبار التى ذكرنا بعضها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه قال لأصحابه : « تَسَوَّمُوا فإنَّ المَلائِكَةَ قَدْ تَسَوَّمَتْ » ، وقول أبى أسيد : خرجت الملائكة فى عمائم صفر قد طرحوها بين أكتافهم ، وقول من قال منهم (مُسَوِّمِينَ) : مُعلِمين ، ينبئ جميع ذلك عن صحة ما اخترنا من القراءة فى ذلك ، وأن التسويم كان من الملائكة بأنفسها ، على نحو ما قلنا فى ذلك فيما مضى .

وأما الذين قرءوا ذلك (مسوَّمين) بالفتح ، فإنهم أراهم تأوّلوا فى ذلك ما حدثنا به حميد بن مسعدة ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، عن عثمان بن غياث ، عن عكرمة (بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ المَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ) يقول : عليهم سِيمَى القتال .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ المَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ) يقول : عليهم سِيمَى القتال ، وذلك يوم بدر ، أمدّهم الله بخمسة آلاف من الملائكة مسوَّمين ،

يقول : عليهم سيمَى القتال ، فقالوا : كان سيمَى القتال عليهم ، لأنهم كانوا تسوَّموا بسيمى ، فيضاف إليهم التسويم ، فمن أجل ذلك قرءوا (مُسَوَّمِينَ) بمعنى أن الله تعالى أضاف التسويم إلى من سوَّمهم تلك السيمَى . والسيمى : العلامة ، يقال : هى سيمى حسنة ، وسيمياء حسنة ، كما قال الشاعر :

غُلامٌ رَماهُ اللهُ بالحُسْنِ يافِعا لَهُ سِيمِيَاءُ لاتَشُقُّ على البَصَرْ [١]

يعنى بذلك علامة من حسن ، فإذا أعلم الرجل بعلامة يعرف بها فى حرب أو غيره ، قيل : سوَّم نفسه ، فهو يسوِّمها تسويما .

القول فى تأويل قوله جلّ ثناؤه

وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ ، وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ، وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ (١٢٦)

يعنى تعالى ذكره: وماجعل الله وعده إياكم ماوعدكم ، من إمداده إياكم بالملائكة الذين ذكر عددهم ، إلا بشرَى لكم ، يعنى بشرى يبشركم بها ، ولتطمئنّ قلوبكم به ، يقول : وكى تطمئنّ بوعده الذى وعدكم من ذلك قلوبُكم ، فتسكن إليه ، ولا تجزع من كثرة عدد عدوّكم ، وقلة عددكم (وَمَا النَّصْرُ إلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ) : يعنى وماظفركم إن ظفرتم بعدوّكم إلا بعون الله ، لامن قِبَل المدد الذى يأتيكم من الملائكة ، يقول : فعلى الله فتوكلوا ،وبه فاستعينوا ، لابالجموع وكثرة العدد ، فإن نصركم إن كان إنما يكون بالله وبعونه معكم من ملائكته خمسة آلاف ، فإنه إلى أن يكون ذلك بعون الله ؟ وبتقويته إياكم على عدوّكم ، وإن كان معكم من البشر جموع كثيرة أخرى ، فاتقوا الله واصبروا على جهاد عدوّكم ، فإن الله ناصركم عليهم .

كما حدثنا محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (وَما جَعَلَهُ اللهُ إلاَّ بُشْرَى لَكُمْ) يقول : إنما جعلهم ليستبشروا بهم ، وليطمئنوا إليهم ، ولم يقاتلوا معهم يومئذ ، يعنى يوم أُحد ، قال مجاهد : ولم يقاتلوا معهم يومئذ ولا قبله ولا بعده ، إلا يوم بدر .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (وَما جَعَلَهُ اللهُ إلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ): لما أعرف من ضعفكم ، وما النصر إلا من عندى بسلطانى وقدرتى ، وذلك أنى أعرف الحكمة التى لا إلى أحد من خلقى .

حدثنا يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد (وَما النَّصْرُ إلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ) لو شاء أن ينصركم بغير الملائكة فعل العزيز الحكيم .

---

(١) البيت فى اللسان (سوم) ، ونسبه لأسيد بن عنقاء الفزارى ، يمدح ابن عمه عميلة حين قاسمه ماله . . . البيت . وبعده :

كأنَّ الثُّرَيَّا عُلِّقَتْ فَوْقَ نَحْرِهِ وفى جيده الشِّعْرَى وفى وجهه القَمَرْ

له سيمياء لا تشق على البصر : أى يفرح به من ينظر إليه . قال ابن برى : وحكى على بن حمزة (الكسائى) أن أبا رياش قال : لايروى بيت ابن عنقاء الفزارى : « غلام رماه الله بالحسن يافعا » إلا أعمى البصيرة ، لأن الحسن مولود ، وإنما هو : « رماه الله بالخير يافعا » . قال : حكاه أبو رياش عن أبى زيد . قلت : والسيمى والسيميا : يكونان مقصورين وممدودين .

وأما معنى قوله (العَزِيزِ الحَكِيمِ) فإنه جلّ ثناؤه يعنى : العزيز فى انتقامه من أهل الكفر بأيدى أوليائه من أهل طاعته ، الحكيم فى تدبيره لكم أيها المؤمنون على أعدائكم من أهل الكفر ، وغير ذلك من أموره ، يقول : فأبشروا أيها المؤمنون بتدبيرى لكم على أعدائكم ، ونصرى إياكم عليهم ، إن أنتم أطعتمونى فيما أمرتكم به ، وصبرتم لجهاد عدوّى وعدوّكم .

القول فى تأويل قوله

لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ (١٢٧)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : ولقد نصركم الله ببدر ، ليقطع طرفا من الذين كفروا ، ويعنى بالطَرَف : الطائفة والنفر ، يقول تعالى ذكره : ولقد نصركم الله ببدر كما يهلك طائفة من الذين كفروا بالله ورسوله فجحدوا وحدانية ربهم ، ونبوّة نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم .

كما حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا) فقطع الله يوم بدر طرَفا من الكفار ، وقتل صناديدهم ورؤساءهم ، وقادتهم فى الشرّ .

حُدثت عن عمار ، عن ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، نحوه .

حدثنى محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفىّ ، عن عباد ، عن الحسن ، فى قوله (لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا) . . . الآية كلها ، قال : هذا يوم بدر ، قطع الله طائفة منهم ، وبقيت طائفة .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة (لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا) : أى ليقطع طرفا من المشركين بقتل ينتقم به منهم .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : وما النصر إلا من عند الله ، ليقطع طرفا من الذين كفروا ، وقال : إنما عنى بذلك من قُتل بأُحد .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، قال : ذكر الله قتلى المشركين ، يعنى بأُحد ، وكانوا ثمانية عشر رجلا ، فقال : (لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا) ثم ذكر الشهداء فقال : (وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً) . . . الآية .

وأما قوله (أَوْ يَكْبِتَهُمْ) فإنه يعنى بذلك أو يخزيهم بالخيبة بما رجوا من الظفر بكم ، وقد قيل : إن معنى قوله : (أَوْ يَكْبِتَهُمْ) : أو يصرعهم لوجوههم . ذكر بعضهم أنه سمع العرب تقول : كَبَتَه الله لوجهه ، بمعنى : صرعه الله .

فتأويل الكلام : ولقد نصركم الله ببدر ، ليُهلك فريقا من الكفار بالسيف ، أو يخزيهم ، بخيبتهم مما طمعوا فيه من الظفر ، فينقلبوا خائبين ، يقول : فيرجعوا عنكم خائبين ، لم يصيبوا منكم شيئا مما رجَوا أن ينالوه منكم .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خائِبِينَ) : أو يردّهم خائبين ، أو يرجع من بقى منهم خائبين ، لم ينالوا شيئا مما كانوا يأملون .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (أَوْ يَكْبِتَهُمْ) يقول : يخزيهم (فَيَنْقَلِبُوا خائِبِينَ) .

حدثت عن عمار ، عن ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، مثله .

القول فى تأويل قوله

لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ، أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨)

يعنى بذلك تعالى ذكره : ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم ، أو يتوب عليهم ، أو يعذبهم ، فإنهم ظالمون ، ليس لك من الأمر شىء ، فقوله (أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ) منصوب عطفا على قوله (أَوْ يَكْبِتَهُمْ) . وقد يحتمل أن يكون تأويله : ليس لك من الأمر شىء حتى يتوب عليهم ، فيكون نصب يتوب بمعنى أو التى هى فى معنى حتى . والقول الأول أولى بالصواب ، لأنه لا شىء من أمر الخلق إلى أحد سوى خالقهم قبل توبة الكفار وعقابهم ، وبعد ذلك ، وتأويل قوله (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ) : ليس إليك يا محمد من أمر خلقى إلا أن تنفذ فيهم أمرى ، وتنتهى فيهم إلى طاعتى ، وإنما أمرهم إلىّ ، والقضاء فيهم بيدى دون غيرى ، أقضى فيهم ، وأحكم بالذى أشاء ، من التوبة على من كفر بى وعصانى ، وخالف أمرى ، أو العذاب : إما فى عاجل الدنيا بالقتل والنقم المبيرة ، وإما فى آجل الآخرة ، بما أعددت لأهل الكفر بى .

كما حدثنى ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قال : ثم قال لمحمد صلى الله عليه وسلم : (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ، أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، أَوْ يُعَذِّبَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ) : أى ليس لك من الحكم شىء فى عبادى ، إلا ما أمرتك به فيهم ، أو أتوب عليهم برحمتى ، فإن شئت فعلت ، أو أعذبهم بذنوبهم ، فإنهم ظالمون : أى قد استحقوا ذلك بمعصيتهم إياى ، وذكر أن الله عزّوجلّ إنما أنزل هذه الآية على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه لما أصابه بأحد ما أصابه من المشركين ، قال كالآيس لهم من الهدى ، أو من الإنابة إلى الحقّ : « كيف يُفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم » ؟

ذكر الرواية بذلك :

حدثنا حميد بن مسعدة ، قال : ثنا بشر بن المفضل ، قال : ثنا حميد ، قال : قال أنس ، قال النبىّ صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، وكُسرت رَباعيتُه ، وشُجّ ، فجعل يمسح عن وجهه الدم ، ويقول : « كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ خَضَبُوا نَبِيَّهُمْ بالدَّمِ ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إلى رَبِّهِمْ ؟ » ، فأنزلت (لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ، أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، أَوْ يُعَذِّبَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ ظالِمُونَ) .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا ابن أبى عدىّ ، عن حميد ، عن أنس ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم بنحوه .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا هشيم ، عن حميد الطويل ، عن أنس ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم بنحوه.

حدثنى يحيى بن طلحة اليربوعىّ ، قال : ثنا أبو بكر بن عياش ، عن حميد الطويل ، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين شُجّ فى جبهته، وكُسرت رَباعيته : «لايُفْلِحُ قَوْمٌ صَنَعُوا هَذَا بِنَبِيِّهِمْ » فأوحى الله إليه (لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَىْءٌ، أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، أَوْ يُعَذِّبَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ) .

حدثنى يعقوب عن ابن علية ، قال : ثنا ابن عون ، عن الحسن : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال يوم أُحد: « كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ أَدْمَوْا وَجْهَ نَبِيِّهِمْ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إلى الله عزّ وجلّ ؟ » فنزلت (لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَىْءٌ ، أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، أَوْ يُعَذِّبَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ) .

حدثنا يعقوب ، قال : ثنا ابن علية ، عن حميد ، عن أنس ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، نحو ذلك .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (لَيْسَ مِنَ الأَمْرِ شَىْءٌ ، أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، أَوْ يُعَذِّبَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ) ذُكر لنا أن هذه الآية أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحد ، وقد جرح نبىّ الله صلى الله عليه وسلم فى وجهه، وأصيب بعض رَباعيته ، فقال: وسالم مولى أبى حذيفة يغسل عن وجهه الدم: « كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ خَضَبُوا وَجْهَ نَبِيِّهِمْ بالدَّمِ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إلى رَبِّهِمْ » فأنزل الله عزّ وجلّ : (لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَىْءٌ ، أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ) .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا يحيى بن واضح ، قال : ثنا الحسين بن واقد ، عن مطر ، عن قتادة ، قال أصيب النبىّ صلى الله عليه وسلم يوم أُحد، وكُسرت رَباعيته، وفُرِق حاجبه، فوقع ، وعليه درعان، والدم يسيل، فمرّ به سالم مولى أبى حذيفة، فأجلسه، ومسح عن وجهه ، فأفاق وهو يقول : « كَيْفَ بِقَوْمٍ فَعَلُوا هَذَا بِنَبِيِّهِمْ ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إلى الله »؟ فأنزل الله تبارك وتعالى (لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَىْءٌ ، أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، أَوْ يُعَذِّبَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ) .

حُدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، قوله (لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَىْءٌ) . . . الآية ، قال : قال الربيع بن أنس : أنزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحد وقد شُجّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وجهه ، وأصيبت رَباعيته ، فهمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو عليهم ، فقال : « كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ أَدْمَوْا وَجْهَ نَبِيِّهِمْ ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إلى الله وَهُمْ يَدْعُونَهُ إلى الشَّيْطانِ ، وَيَدْعُوهُمْ إلى الهُدَى ، وَيَدْعُونَهُ إلى الضَّلالَةِ ، وَيَدْعُوهُمْ إلى الجَنَّةِ ، وَيَدْعُونَهُ إلى النَّارِ » فهمّ أن يدعو عليهم ، فأنزل الله عزّ وجلّ (لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَىْءٌ ، أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، أَوْ يُعَذِّبَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ) فكفّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدعاء عليهم .

حدثنى محمد بن سنان، قال: ثنا أبو بكر الحنفىّ ، قال: ثنا عباد ، عن الحسن، فى قوله (لَيْسَ لَكَ

منَ الأمْرِ شَيْءٌ أوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ) . . . الآية كلها ، فقال : جاء أبوسفيان من الحول غضبان ، لما صُنع بأصحابه يوم بدر ، فقاتل أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يوم أُحد قتالا شديدا ، حتى قتل منهم بعدد الأسارى يوم بدر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمة علم الله أنها قد خالطت غضبا : « كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ خَضَبُوا وَجْهَ نَبِيِّهِمْ بالدَّمِ ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إلى الإسْلامِ » فقال الله عزّ وجلّ : (لَيْسَ مِنَ الأمْرِ شَيْءٌ ، أوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، أوْ يُعَذِّبَهُمْ ، فإنَّهُمْ ظالِمُونَ) .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة : أن رَباعية النبيّ صلى الله عليه وسلم أصيبت يوم أُحد ، أصابها عتبة بن أبي وقاص ، وشجّه في وجهه ، وكان سالم مولى أبي حذيفة يغسل عن النبيّ صلى الله عليه وسلم الدم ، والنبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : « كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ صَنَعُوا بِنَبِيِّهِمْ هَذَا » ؟ فأنزل الله عزّ وجلّ (لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمْرِ شَيْءٌ ، أوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، أوْ يُعَذِّبَهُمْ ، فإنَّهُمْ ظالِمُونَ) .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن الزهريّ ، وعن عثمان الجزرى ، عن مِقسم : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم دعا على عتبة بن أبي وقاص يوم أحد ، حين كسر رَباعيته ، ووثأ[1] وجهه ، فقال : « اللَّهُمَّ لا تُحِلْ عَلَيْهِ الحَوْلَ حتى يَمُوتَ كافرًا » قال : فما حال عليه الحول حتى مات كافرا .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس : شجّ النبيّ صلى الله عليه وسلم في فَرْق حاجبه ، وكسرت رَباعيته ، قال ابن جريج : ذُكر لنا أنه لما جرح ، جعل سالم مولى أبي حذيفة يغسل الدم عن وجهه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ خَضَبُوا وَجْهَ نَبِيِّهِمْ بالدَّمِ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إلى اللهِ » ؟ فأنزل الله عزّ وجلّ : (لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمْرِ شَيْءٌ) .

وقال آخرون : بل نزلت هذه الآية على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، لأنه دعا على قوم ، فأنزل الله عزّ وجل : ليس الأمر إليك فيهم .

ذكر الرواية بذلك :

حدثني يحيى بن حبيب بن عربي ، قال : ثنا خالد بن الحارث ، قال : ثنا محمد بن عجلان ، عن نافع ، عن ابن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يدعو على أربعة نَفَر ، فأنزل الله عزّ وجلّ : (لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمْرِ شَيْءٌ ، أوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، أوْ يُعَذِّبَهُمْ ، فإنَّهُمْ ظالِمُونَ) قال : وهداهم الله للإسلام .

حدثني أبو السائب سلم بن جُنادة ، قال : ثنا أحمد بن سفيان ، عن عمر بن حمزة ، عن سالم ، عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ الْعَنْ أبا سُفْيانَ ، اللَّهُمَّ الْعَنِ الحارثَ

(١) الوثء : وصم يصيب اللحم ، ولا يبلغ العظم ، فيرم . أو أن يصيب العظم وصم لايبلغ الكسر .

ابْنَ هِشامٍ ، اللَّهُمَّ الْعَنْ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ» . فنزلت (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ، أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، أَوْ يُعَذِّبَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ) .

حدثنا مجاهد بن موسى ، قال : ثنا يزيد ، قال : أخبرنا محمد بن إسحاق ، عن عبد الرحمن بن الحارث ابن عبد الله بن عياش بن أبى ربيعة ، عن عبد الله بن كعب ، عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، قال : صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الفجر ، فلما رفع رأسه من الركعة الثانية ، قال : «اللَّهُمَّ أَنْجِ عَيَّاشَ بْنَ أَبِى رَبِيعَةَ ، وَسَلَمَةَ بْنَ هِشامٍ ، وَالْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ ، اللَّهُمَّ سِنِينَ كَسِنِينِ آلِ يُوسُفَ» فأنزل الله : (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ) . . . الآية .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنى يونس بن يزيد ، عن ابن شهاب ، أخبره عن سعيد بن المسيب ، وأبى سلمة بن عبد الرحمن : أنهما سمعا أبا هريرة يقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول حين يفرغ فى صلاة الفجر من القراءة ، ويكبر ويرفع رأسه : «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَه ، ربنا ولكَ الحمدُ ، ثم يقول ، وهو قائم : اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ ، وَسَلَمَةَ بْنَ هِشامٍ ، وَعَيَّاشَ بْنَ أَبِى رَبِيعَةَ ، والْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ ، وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ كَسِنِى يُوسُفَ ، اللَّهُمَّ الْعَنْ لِحْيانَ وَرِعْلًا وَذَكْوَانَ وعُصَيَّةَ [2] عَصَتِ اللهَ وَرَسُولَه» ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما نزل قوله (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ، أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ) .

القول فى تأويل قوله

وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ ، وَمَا فِى الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ ، وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢٩)

يعنى بذلك تعالى ذكره : ليس لك يا محمد من الأمر شىء ، ولله جميع ما بين أقطار السموات والأرض من مشرق الشمس إلى مغربها ، دونك ودونهم ، يحكم فيهم بما شاء ، ويقضى فيهم ما أحبَّ ، فيتوب على من أحبَّ من خلقه العاصين أمره ونهيه ، ثم يغفر له ، ويعاقب من شاء منهم على جُرمه ، فينتقم منه ، وهو الغفور ، الذى يستر ذنوب من أحبَّ أن يستر عليه ذنوبه من خلقه ، بفضله عليهم بالعفو والصفح ، والرحيم بهم فى تركه عقوبتهم عاجلا على عظيم ما يأتون من المآثم .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) : أى يغفر الذنوب ، ويرحم العباد على ما فيهم .

القول فى تأويل قوله

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَوٰا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠)

---

(١) كذا فى الأصل . وفى سائر روايات الحديث : اللهم اجعلها عليهم سنين . . . الخ ، وقد يضمر الفعل فى مثل هذا .

(٢) عصية : بطن من بنى سليم . وهم بنو عصية بن خفاف بن امرئ القيس بن بهثة بن سليم .

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله ، لا تأكلوا الربا فى إسلامكم ، بعد إذ هداكم له ، كما كنتم تأكلونه فىجاهليتكم ، وكان أكلهم ذلك فى جاهليتهم ، أن الرجل منهم كان يكون له على الرجل مال إلى أجل ، فإذا حلّ الأجل طلبه من صاحبه ، فيقول له الذى عليه المال : أخّر عنى دَيْنك ، وأزيدك على مالك ، فيفعلان ذلك ، فذلك هو الربا أضعافا مضاعفة ، فنهاهم الله عزّ وجلّ فى إسلامهم عنه .

كما حدثنا محمد بن سنان ، قال : ثنا مؤمل ، قال : ثنا سفيان ، عن ابن جريج ، عن عطاء ، قال : كانت ثقيف تَدَّاين فى بنى المغيرة فى الجاهلية ، فإذا حلّ الأجل ، قالوا : نزيدكم وتؤخرون ، فنزلت : (لا تَأْكُلُوا الرِّبا أضْعافاً مُضاعَفَةً) .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قال (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبا أضْعافاً مُضاعَفَةً) : أى لا تأكلوا فى الإسلام إذ هداكم له ، ما كنتم تأكلون ، إذ أنتم على غيره ، مما لا يحلّ لكم فى دينكم .

حدثنا محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد ، فى قول الله عزّ وجلّ (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبا أضْعافاً مُضاعَفَةً) قال : ربا الجاهلية .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : سمعت ابن زيد يقول فى قوله (لا تَأْكُلُوا الرِّبا أضْعافاً مُضاعَفَةً) قال : كان أبى يقول : إنما كان الربا فى الجاهلية فى التضعيف وفى السنّ ، يكون للرجل فضلُ دَين ، فيأتيه إذا حلّ الأجل ، فيقول له : تقضينى أو تزيدنى ، فإن كان عنده شىء يقضيه قضى ، وإلا حوّله إلى السنّ التى فوق ذلك ، إن كانت ابنة مخاض ، يجعلها ابنة لبون فى السنة الثانية ، ثم حِقّة ، ثم جَذَعة ، ثم رَباعياً ، ثم هكذا إلى فوق . وفى العَيْن : يأتيه ، فإن لم يكن عنده أضعفه فى العام القابل ، فإن لم يكن عنده أضعفه أيضا ، فتكون مائة ، فيجعلها إلى قابل مائتين ، فإن لم يكن عنده جعلها أربعمائة ، يضعفها له كل سنة ، أو يقضيه ، قال : فهذا قوله (لا تَأْكُلُوا الرِّبا أضْعافاً مُضاعَفَةً) .

وأما قوله (وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) فإنه يعنى : واتقوا الله أيها المؤمنون فى أمر الربا ، فلا تأكلوه ، وفى غيره مما أمركم به ، أو نهاكم عنه ، وأطيعوه فيه لعلكم تفلحون ، يقول : لتنجحوا فتنجوا من عقابه ، وتدركوا ما رغبكم فيه من ثوابه ، والخلود فى جنانه .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سَلَمة ، عن ابن إسحاق (وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) : أى فأطيعوا الله لعلكم أن تنجوا مما حذّركم من عذابه ، وتدركوا ما رغبكم فيه من ثوابه .

القول فى تأويل قوله

وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١)

يقول تعالى ذكره للمؤمنين : واتقوا أيها المؤمنون النار ، أن تصلوها بأكلكم الربا ، بعد نهيى إياكم عنه ، التى أعددتها لمن كفر بى ، فتدخلوا مداخلهم بعد إيمانكم بى ، بخلافكم أمرى ، وترككم طاعتى .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى أُعِدَّتْ للكافرينَ) التى جُعِلَتْ دارا لمن كفر بى .

القول فى تأويل قوله

وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ ، وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) *

يعنى بذلك جل ثناؤه : وأطيعوا الله أيها المؤمنون فيما نهاكم عنه من أكل الربا وغيره من الأشياء . وفيما أمركم به الرسول . يقول : وأطيعوا الرسول أيضا كذلك . لعلكم ترحمون : يقول : لترحموا فلا تعذبوا .

وقد قيل : إن ذلك معاتبة من الله عز وجل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين خالفوا أمره يوم أحد ، فأخلوا بمراكزهم التى أمروا بالثبات عليها .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (وأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) : معاتبة للذين عصوا رسوله حين أمرهم بالذى أمرهم به فى ذلك اليوم وفى غيره ، يعنى فى يوم أُحد .

القول فى تأويل قوله

وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ، وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣)

يعنى تعالى ذكره بقوله : وسارعوا : وبادروا وسابقوا إلى مغفرة من ربكم ، يعنى : إلى ما يستر عليكم ذنوبكم من رحمته ، وما يغطيها عليكم من عفوه عن عقوبتكم عليها ، وجنة عرضها السموات والأرض يعنى : وسارعوا أيضا إلى جنة عرضها السموات والأرض ، ذُكِر أن معنى ذلك : وجنة عرضها كعرض السموات السبع ، والأرضين السبع ، إذا ضم بعضها إلى بعض .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل قال : ثنا أسباط ، عن السدى (وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ) قال : قال ابن عباس : تُقْرَن السموات السبع والأرضون السبع ، كما تُقْرَن الثياب بعضها إلى بعض ، فذاك عرض الجنة ، وإنما قيل (وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ والأَرْضُ) فوصف عرضها بالسموات والأرضين . والمعنى ما وصفنا من وصف عرضها بعرض السموات والأرض ، تشبيها به فى السعة والعظم ، كما قيل : (مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ) . يعنى إلا كبعث نفس واحدة ، وكما قال الشاعر :

كأنَّ عَذِيرَهُمْ بِجَنُوبِ سِلَّى　　　نَعامٌ قاقَ فِى بَلَدٍ قِفارِ[1]

أى عذير نعام ، وكما قال الآخر :

(١) البيت فى اللسان (سل) ولم ينسبه . قال : والعذير : الحال . وسلى : اسم موضع بالأهواز كثير التمر . قال . . . البيت . والقفار : جمع القفر : الخالى من البناء والشجر والساكن . جمعه لاتساع نواحيه وتعددها ، كأنها مواضع مختلفة . وفى (قاق) : قاق النعام : صوت ، قال النابغة . . . البيت . أراد عذير نعام ، فحذف المضاف ، وأقام المضاف إليه مقامه ، ومعناه : كأن حالهم فى الهزيمة حال نعام تعدو مذعورة . وهذا البيت نسبه ابن برى لشقيق بن جزء بن رباح الباهلى .

حَسِبْتُ بُغامَ رَاحِلَتِي عَنَاقًا وَمَا هِيَ وَيْبَ غَيْرِكَ بالعُنَاقِ[١]

يريد: صوت عناق، وقد ذُكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل، فقيل له: هذه الجنة عرضها السموات والأرض، فأين النار؟ فقال: هَذَا النَّهارُ إذَا جاءَ، أيْنَ اللَّيْلُ؟

ذكر الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيره:

حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: أخبرني مسلم بن خالد، عن ابن خثيم، عن سعيد ابن أبي راشد، عن يعلى بن مرّة، قال: لقيت التنوخيَّ رسولَ هرقل، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحمصَ شيخا كبيرا، قد أُقعد، قال: قدمتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتاب هرقل، فناول الصحيفة رجلا عن يساره، قال: قلت: من صاحبكم الذى يقرأ؟ قالوا: معاوية، فإذا هو: إنك كتبت تدعونى إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدّت للمتقين، فأين النار؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سُبْحانَ اللهِ! فَأَيْنَ اللَّيْلُ إذَا جاءَ النَّهارُ؟

حدثنا محمد بن بشار، قال: ثنا عبد الرحمن بن مهديّ، قال: ثنا سفيان، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب، أن ناسا من اليهود سألوا عمر بن الخطاب، عن جنة عرضها السموات والأرض، أين النار؟ قال: أرأيتم إذا جاء الليل أين يكون النهار؟ فقالوا: اللهمَّ نَزَعْتَ[٢] مثله من التوراة.

حدثني محمد بن المثنى، قال: ثنا محمد بن جعفر، قال: ثنا شعبة، عن قيس بن مسلم، عن طارق ابن شهاب: أن عمر أتاه ثلاثة نفر من أهل نجران، فسألوه، وعنده أصحابه، فقالوا: أرأيت قوله: (وَجَنَّةٍ عَرْضُها السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ) فأين النار؟ فأحجم الناس، فقال عمر: أرأيتم إذا جاء الليل، أين يكون النهار؟ وإذا جاء النهار، أين يكون الليل؟ فقالوا: نَزَعْتَ[٢] مثلها من التوراة.

حدثنا ابن المثنى، قال: ثنا محمد بن جعفر، قال: أخبرنا شعبة، عن ابن ابراهيم بن مهاجر، عن طارق بن شهاب، عن عمر، بنحوه فى الثلاثة الرهط الذين أتَوا عمر، فسألوه عن جنة عرضها كعرض السموات والأرض، بمثل حديث قيس بن مسلم.

حدثنا مجاهد بن موسى، قال: ثنا جعفر بن عون، قال: أخبرنا الأعمش، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب، قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر، فقال: تقولون: جنة عرضها السموات والأرض، أين تكون النار؟ فقال له عمر: أرأيت النهار إذا جاء، أين يكون الليل؟ أرأيت الليل إذا جاء، أين يكون النهار؟ فقال: إنه لمثلها فى التوراة، فقال له صاحبه: لِمَ أخبرته؟ فقال له صاحبه: دعه إنه بكلٍّ موقن.

حدثني أحمد بن حازم، قال: أخبرنا أبو نعيم، قال: ثنا جعفر بن برقان، قال: ثنا يزيد الأصمّ، أن رجلا من أهل الكتاب أتى ابن عباس، فقال: تقولون: جنة عرضها السموات والأرض، فأين النار؟ فقال ابن عباس: أرأيت الليل إذا جاء، أين يكون النهار؟ وإذا جاء النهار، أين يكون الليل؟.

(١) البيت فى اللسان (بغم) قال: وبغام الناقة: صوت لا تفصح به، ومنه قول ذى الخرق . . . البيت . وأورده أيضا فى (عنق) قال: والعناق: الأنثى من المعز، أنشد ابن الأعرابى لقريط يصف الذئب . . . البيت نفسه، وبعده بيت آخر وهو:

قلو أنى رميتك من قريب لَعاقك عن دعاء الذئب عاق

(٢) الذى فى نهاية ابن الأثير: لقد نزعت بمثل ما فى التوراة، أى جئت بما يشبهها.

وأما قوله (أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) فإنه يعنى : أن الجنة التى عرضها كعرض السموات والأرضين السبع ، أعدّها الله للمتقين ، الذين اتقوا الله ، فأطاعوه فيما أمرهم ونهاهم ، فلم يتعدّوا حدوده ، ولم يقصروا فى واجب حقه عليهم ، فيضيعوه .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قال (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) : أى ذلك لمن أطاعنى ، وأطاع رسولى .

القول فى تأويل قوله جلّ ثناؤه

الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى السَّرَّآءِ وَالضَّرَّآءِ وَالْكَٰظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)

يعنى جلّ ثناؤه بقوله (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ) : أُعدت الجنة التى عرضها السموات والأرض للمتقين ، وهم المنفقون أموالهم فى سبيل الله ، إما فى صرفه على محتاج ، وإما فى تقوية مُضْعَف على النهوض للجهاد فى سبيل الله .

وأما قوله (فِى السَّرَّاءِ) فإنه يعنى : فى حال السرور بكثرة المال ، ورخاء العيش ؛ والسرّاء : مصدر ، من قولهم : سرّنى هذا الأمر مسرّة وسرورا ؛ والضرّاء : مصدر ، من قولهم : قد ضُرّ فلان فهو يُضَرّ : إذا أصابه الضرّ ، وذلك إذا أصابه الضيق والجهد فى عيشه .

حدثنا محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس قوله (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ) يقول : فى العسر واليسر ، فأخبر جلّ ثناؤه أن الجنة التى وصف صفتها لمن اتقاه ، وأنفق ماله فى حال الرخاء والسعة ، وفى حال الضيق والشدّة فى سبيله .

وقوله (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ) يعنى : والجارعين الغيظ عند امتلاء نفوسهم منه ، يقال منه : كظم فلان غيظه : إذا تجرّعه ، فحفظ نفسه من أن تُمْضِى ماهى قادرة على إمضائه ، باستمكانها ممن غاظها ، وانتصارها ممن ظلمها ، وأصل ذلك ، من كظم القربة ، يقال منه : كظمت القربة : إذا ملأتها ماء ، وفلان كظيم ومكظوم : إذا كان ممتلئا غما وحزنا ، ومنه قول الله عزّ وجلّ (وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ) يعنى ممتلئ من الحزن ، ومنه قيل لمجارى المياه : الكظائم ، لامتلائها بالماء ، ومنه قيل : أخذت بكَظَمه : يعنى بمجارى نَفَسه . والغيظ : مصدر من قول القائل : غاظنى فلان ، فهو يغيظنى غيظا ، وذلك إذا أحفظه وأغضبه .

وأما قوله (وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ) فإنه يعنى : والصافحين عن الناس عقوبة ذنوبهم إليهم ، وهم على الانتقام منهم قادرون ، فتاركوها لهم .

وأما قوله (وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) فإنه يعنى : فإن الله يحبّ من عمل بهذه الأمور ، التى وصف أنه أعدّ للعاملين بها الجنة ، التى عرضها السموات والأرض ، والعاملون بها هم المحسنون ، وإحسانهم هو عملهم بها .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ) ... الآية (والعافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ) أى وذلك الإحسان ، وأنا أحبّ من عمل به .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ، وَالكاظِمِينَ الغَيْظَ ، والعافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ) : قوم أنفقوا فى العسر واليسر ، والجهد والرخاء ، فمن استطاع أن يغلب الشرّ بالخير فليفعل ، ولا قوّة إلا بالله ، فنعمت والله يا بن آدم الجرعة تجترعها من صبر ، وأنت مغيظ وأنت مظلوم .

حدثنى موسى بن عبد الرحمن ، قال : ثنا محمد بن بشر ، قال : ثنا محرز أبو رجاء ، عن الحسن ، قال : يقال يوم القيامة : ليقم من كان له على الله أجر ، فما يقوم إلا إنسان عفا ، ثم قرأ هذه الآية : (والعافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ) .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا داود بن قيس ، عن زيد بن أسلم ، عن رجل من أهل الشأم ، يقال له : عبد الجليل ، عن عمّ له ، عن أبى هريرة فى قوله (وَالكاظِمِينَ الغَيْظَ) : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ كَظَمَ غَيْظاً وَهُوَ يَقْدِرُ على إنْفاذِهِ ، مَلأَهُ اللهُ أمْنًا وإيمانا » .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (وَالكاظِمِينَ الغَيْظَ)... إلى (وَاللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ) ، فالكاظمين الغيظ كقوله (وَإذَا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ) : يغضبون فى الأمر لو وقعوا به كان حراما ، فيغفرون ويعفون ، يلتمسون بذلك وجه الله . (وَالعافِينَ عَنِ النَّاسِ) كقوله (وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ) ... إلى (ألا تُحِبُّونَ أنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ ؟) يقول : لاتقسموا على أن لاتعطوهم من النفقة شيئا ، واعفوا واصفحوا .

القول فى تأويل قوله

وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ ، فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ ، وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ؟ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥)

يعنى بقوله جلّ ثناؤه (وَالَّذِينَ إذَا فَعَلُوا فاحِشَةً) : أن الجنة التى وصف صفتها ، أعدّت للمتقين ، المنفقين فى السرّاء والضرّاء ، والذين إذا فعلوا فاحشة ، وجميع هذه النعوت من صفة المتقين الذين قال تعالى ذكره : (وَجَنَّةٍ عَرْضُها السَّمٰواتُ وَالأرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) .

كما حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا جعفر بن سليمان ، عن ثابت البُنانى ، قال : سمعت الحسن قرأ هذه الآية (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالكاظِمِينَ الغَيْظَ وَالعافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ) ، ثم قرأ (وَالَّذِينَ إذَا فَعَلُوا فاحِشَةً أوْ ظَلَمُوا

أنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ)... إلى (أجْرُ العامِلِينَ) فقال: إن هذين النعتين لَنَعت رجل واحد .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن منصور ، عن مجاهد (وَالَّذِينَ إذا فَعَلُوا فاحِشَةً أوْ ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ) قال : هذان ذنبان : الفاحشة ذنب ، وظلموا أنفسهم ذنب . أما الفاحشة فهى صفة لمتروك .

ومعنى الكلام: والذين إذا فعلوا فَعْلة فاحشة . ومعنى الفاحشة : الفعلة القبيحة: الخارجة عما أذن الله عزّ وجلّ فيه . وأصل الفحش القبح ، والخروج عن الحدّ والمقدار فى كل شيء . ومنه قيل للطويل المفرط الطول : إنه لفاحش الطول ، يراد به : قبيح الطول ، خارج عن المقدار المستحسن ؛ ومنه قيل للكلام القبيح غير القصد : كلام فاحش ، وقيل للمتكلم به : أفحش فى كلامه : إذا نطق بفحش ؛ وقيل: إن الفاحشة فى هذا الموضع معنىً بها الزّنى .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا العباس بن عبد العظيم، قال : ثنا حبان ، قال : ثنا حماد ، عن ثابت ، عن جابر (وَالَّذِينَ إذَا فَعَلُوا فاحِشَةً) قال : زَنى القوم ، وربّ الكعبة .

حدثنا محمد ، قال : ثنا أحمد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (وَالَّذِينَ إذَا فَعَلُوا فاحِشَةً)أما الفاحشة : فالزّنى .

وقوله (أوْ ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ) يعنى به : فعلوا بأنفسهم غير الذى كان ينبغى لهم أن يفعلوا بها ، والذى فعلوا من ذلك ركوبهم من معصية الله ، ما أوجبوا لها به عقوبته .

كما حدثنا ابن وكيع ، قال: ثنا أبى ،عن سفيان ، عن منصور ،عن إبراهيم ،قوله (وَالَّذِينَ إذَا فَعَلُوا فاحِشَةً أوْ ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ) قال : الظلم من الفاحشة ، والفاحشة من الظلم .

وقوله (ذَكَرُوا اللهَ) يعنى بذلك ذكروا وعيد الله على ما أتَوْا من معصيتهم إياه (فاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ) يقول : فسألوا ربهم أن يستر عليهم ذنوبهم ، بصفحه لهم عن العقوبة عليها (وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ اللهُ) ؟ يقول : وهل يغفر الذنوب : أى يعفو عن راكبها فيسترها عليه ، إلا الله . (وَلَمْ يُصِرُّوا على ما فَعَلُوا) يقول : ولم يقيموا على ذنوبهم التى أتوها ، ومعصيتهم التى ركبوها (وَهُمْ يَعْلَمُونَ) يقول : لم يقيموا على ذنوبهم عامدين للمُقام عليها ، وهم يعلمون أن الله قد تقدّم بالنهى عنها ، وأوعد عليها العقوبة من ركبها . وذكر أن هذه الآية أُنزلت خصوصا بتخفيفها ويسرها،أمنًا مما كانت بنو إسرائيل ممتحنة به من عظيم البلاء فى ذنوبها .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن عطاء بن أبى رباح : أنهم قالوا : يا نبىّ الله ، بنو إسرائيل أكرم على الله منا ، كانوا إذا أذنب أحدهم أصبحت كفارة ذنبه مكتوبة فى عتبة بابه : اجدَع أذنك ، اجدع أنفك ، افعل . فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلت :

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) ... إلى قوله (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ)، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ ؟ فقرأ هؤلاء الآيات .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى عمر بن خليفة العبدى ، قال : ثنا علىّ بن زيد بن جُدْعان ، قال : قال ابن مسعود : كانت بنو إسرائيل إذا أذنبوا ، أصبح مكتوبا على بابه الذنب وكفارته، فأُعطينا خيرا من ذلك هذه الآية .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا يحيى بن واضح ، قال : ثنا جعفر بن سليمان ، عن ثابت البُنَانِىّ ، قال : لما نزلت (وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ) بكى إبليس فزعا من هذه الآية .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا جعفر بن سليمان ، عن ثابت البُنانى، قال : بلغنى أن إبليس حين نزلت هذه الآية (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ) بكى.

حدثنا محمد بن المثنى ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة ، قال : سمعت عثمان مولى آل أبى عقيل الثقفىّ ، قال : سمعت علىّ بن ربيعة، يحدّث عن رجل من فزارة، يقال له أسماء أو ابن أسماء ، عن علىّ ، قال : كنت إذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا ، نفعنى الله بما شاء أن ينفعنى ، فحدثنى أبو بكر ، وصدق أبو بكر ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، قال : مامن عبد . قال شعبة : وأحسبه قال : مسلم ،يذنب ذنبا ثم يتوضأ ، ثم يصلى ركعتين ، ثم يستغفر الله لذلك الذنب [1] . وقال شعبة : وقرأ إحدى هاتين الآيتين : (مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ) (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ) .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، وحدثنا الفضل بن إسحاق ، قال : ثنا وكيع ، عن مسعر وسفيان ، عن عثمان بن المغيرة الثقفى ،عن علىّ بن ربيعة الوالبىّ ، عن أسماء بن الحكم الفزارىّ ، عن علىّ بن أبى طالب قال : كنت إذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا نفعنى الله بما شاء منه ، وإذا حدثنى عنه غيره ، استحلفته ، فإذا حلف لى صدقته ، وحدثنى أبو بكر وصدق أبو بكر، أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « مامِنْ رَجُلٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا ثُمَّ يَتَوَضَّأُ ، ثُمَّ يُصَلِّى، قال أحدهما: رَكْعَتَيْنِ وقال الآخر : ثُمَّ يُصَلِّى وَيَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ، إِلاَّ غَفَرَ لَهُ » .

حدثنا الزبير بن بكار ، قال : ثنى سعد بن سعيد بن أبى سعيد المقبرىّ، عن أخيه، عن جده، عن علىّ ابن أبى طالب أنه قال : ما حدثنى أحد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا سألته أن يُقسم لى بالله لهو سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا أبا بكر ، فإنه كان لايكذب . قال علىّ رضى الله عنه : فحدثنى أبوبكر، أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال: « مامِنْ عَبْدٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا ، ثُمَّ يَقُومُ عِنْدَ ذِكْرِ ذَنْبِهِ ، فَيَتَوَضَّأُ ، ثُمَّ يُصَلِّى رَكْعَتَيْنِ، وَيَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ ذَنْبِهِ ذَلِكَ ، إِلاَّ غَفَرَهُ اللَّهُ لَهُ ».

(١) كذا فى النسخ ، ولعله سقط من قلم الناسخ لفظ : إلا غفر له ، كما هو فى الروايات بعد .

وأما قوله (ذَكَرُوا اللهَ فاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ) فإنه كما بيّنا تأويله . وبنحو ذلك كان أهل التأويل يقولون :

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : ثنا ابن إسحاق (والَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فاحِشَةً) : أى إن أتوا فاحشة (أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ) بمعصية ، ذكروا نَهْىَ الله عنها ، وما حرّم الله عليهم ، فاستغفروا لها ، وعرفوا أنه لايغفر الذنوب إلا هو .

وأما قوله (وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ اللهُ ؟) فإن اسم الله مرفوع ، ولا جحد قبله ، وإنما يرفع مابعد إلا باتباعه ماقبله ، إذا كان نكرة ومعه جحد ، كقول القائل : مافى الدار أحد إلا أخوك ؛ فأما إذا قيل : قام القوم إلا أباك ، فإن وجه الكلام فى الأب النصب ، ومَن بصلته فى قوله (وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ اللهُ) معرفة . فإن ذلك إنما جاء رفعا ، لأن معنى الكلام : وهل يغفر الذنوب أحد ، أو ما يغفر الذنوب أحد إلا الله . فرفع ما بعد إلا من الله على تأويل الكلام ، لاعلى لفظه .

وأما قوله (وَلَمْ يُصِرُّوا على ما فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ) فإن أهل التأويل اختلفوا فى تأويل الإصرار ، ومعنى هذه الكلمة : فقال بعضهم : معنى ذلك : لم يثبتوا على ما أتَوا من الذنوب ، ولم يقيموا عليه ، ولكنهم تابوا واستغفروا ، كما وصفهم الله به .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى ما فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ) فإياكم والإصرارَ ، فإنما هلك المصرّون الماضون قُدُمًا ، لاينهاهم مخافة الله عن حرام حرّمه الله عليهم ، ولا يتوبون من ذنب أصابوه ، حتى أتاهم الموت ، وهم على ذلك .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (وَلَمْ يُصِرُّوا على مافَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ) قال : قُدُمًا قُدُمًا فى معاصى الله ، لاينهاهم مخافة الله حتى جاءهم أمر الله .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (وَلَمْ يُصِرُّوا على ما فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ) : أى لم يقيموا على معصيتى ، كفعل من أشرك بى ، فيما عملوا به من كفر بى .

وقال آخرون : معنى ذلك : لم يواقعوا الذنب إذا هموا به .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن الحسن فى قوله (وَلَمْ يُصِرُّوا على ما فَعَلُوا) قال : إتيان العبد ذنبا إصرارا حتى يتوب .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله عزّ وجلّ (وَلَمْ يُصِرُّوا على ما فَعَلُوا) قال : لم يواقعوا .

وقال آخرون : معنى الإصرار : السكوت على الذنب ، وترك الاستغفار .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (ولم يُصِرُّوا على ما فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ) : أما يُصِرّوا : فيسكتوا ولا يستغفروا .

وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب عندنا : قول من قال : الإصرار : الإقامة على الذنب عامدا ، أو ترك التوبة منه . ولا معنى لقول من قال : الإصرار على الذنب : هو مواقعته ، لأن الله عزوجل مدح بترك الإصرار على الذنب مُواقع الذنب ، فقال (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ، وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ ؟ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ) .

ولو كان المُواقعُ الذنب مصرّا بمواقعته إياه ، لم يكن للاستغفار وجه مفهوم ، لأن الاستغفار من الذنب إنما هو التوبة منه والندم ، ولا يُعرف للاستغفار من ذنب لم يواقعه صاحبه وجه . وقد رُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما أَصَرَّ مَنِ اسْتَغْفَرَ ، وَإِنْ عَادَ فِى الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً » .

حدثنى بذلك الحسين بن يزيد السبيعى ، قال : ثنا عبد الحميد الحمّانى ، عن عثمان بن واقد ، عن أبى نصيرة ، عن مولى لأبى بكر ، عن أبى بكر ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلو كان مواقع الذنب مصرّا ، لم يكن لقوله « ما أَصَرَّ مَنِ اسْتَغْفَرَ وَإِنْ عَادَ فِى الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً » معنى ، لأن مواقعة الذنب ، إذا كانت هى الإصرار ، فلا يزيل الاسم الذى لزمه معنى غيره ، كما لا يزيل عن الزانى اسم زان ، وعن القاتل اسم قاتل ، توبتُه منه ، ولا معنى غيرها . وقد أبان هذا الخبر أن المستغفر من ذنبه غير مصرّ عليه ، فمعلوم بذلك أن الإصرار غير المواقعة ، وأنه المُقام عليه ، على ما قلنا قبل .

واختلف أهل التأويل فى تأويل قوله : (وَهُمْ يَعْلَمُونَ) فقال بعضهم : معناه : وهم يعلمون أنهم قد أذنبوا .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى ، أما (وَهُمْ يَعْلَمُونَ) : فيعلمون أنهم قد أذنبوا ، ثم أقاموا فلم يستغفروا .

وقال آخرون : معنى ذلك : وهم يعلمون أن الذى أتوا معصيةُ الله .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (وَهُمْ يَعْلَمُونَ) قال : يعلمون بما حرمت عليهم من عبادة غيرى .

قال أبو جعفر : وقد تقدم بياننا أولى ذلك بالصواب .

القول فى تأويل قوله

أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَجَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦)

يعنى تعالى ذكره بقوله : أولئك الذين ذكر أنه أعدّ لهم الجنة التى عرضها السموات والأرض من المتقين ، ووصفهم بما وصفهم به ، ثم قال : هؤلاء الذين هذه صفتهم . جزاؤهم ، يعنى ثوابهم من أعمالهم التى وصفهم تعالى ذكره أنهم عملوها . مغفرة من ربهم : يقول : عفو لهم من الله عن عقوبتهم ، على ماسلف من ذنوبهم . ولهم على ما أطاعوا الله فيه من أعمالهم بالحسن منها ، جنات ، وهى البساتين . تجرى من تحتها الأنهار : يقول : تجرى خلال أشجارها الأنهار ، وفى أسافلها ، جزاء لهم على صالح أعمالهم . خالدين فيها : يعنى دائمى المقام فى هذه الجنات التى وصفها . ونعم أجر العاملين : يعنى ونعم جزاء العاملين لله الجنات التى وصفها .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (أُولَـٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأنهارُ خالِدِينَ فِيهَا ، وَنِعْمَ أَجْرُ العامِلِينَ) : أى ثواب المطيعين .

القول فى تأويل قوله

قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧)

يعنى بقوله تعالى ذكره (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ) : مضت وسلفت منى ، فيمن كان قبلكم يامعشر أصحاب محمد وأهل الإيمان به ، من نحو قوم عاد وثمود ، وقوم هود ، وقوم لوط وغيرهم من سُلاّف الأمم قبلكم ، سُنَنٌ . يعنى مَثُلات سير بها فيهم وفيمن كذبوابه من أنبيائهم الذين أرسلوا إليهم ، بإمهالى أهل التكذيب بهم ، واستدراجى إياهم ، حتى بلغ الكتاب فيهم أجله الذى أجلته ، لإدالة أنبيائهم وأهل الإيمان بهم عليهم ، ثم أحللت بهم عقوبتى ، ونزلت بساحتهم نقمتى ، فتركتهم لمن بعدهم أمثالا وعبرا . (فَسِيرُوا فِى الأَرْضِ ، فانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ المُكَذِّبِينَ) يقول : فسيروا أيها الظانون أن إدالتى من أدلت من أهل الشرك يوم أُحد على محمد وأصحابه ، لغير استدراج منى لمن أشرك بى ، وكفر برسلى ، وخالف أمرى فى ديار الأمم الذين كانوا قبلكم ، ممن كان على مثل الذى عليه هؤلاء المكذّبون برسولى ، والجاحدون وحدانيتى ، فانظروا كيف كان عاقبة تكذيبهم أنبيائى ، وما الذى آل إليه عن خلافهم أمرى ، وإنكارهم وحدانيتى ، فتعلموا عند ذلك أن إدالتى من أدلت من المشركين على نبيى محمد وأصحابه بأُحد ، إنما هى استدراج وإمهال ، ليبلغ الكتاب أجله الذى أجلت لهم ، ثم إما أن يئول حالهم إلى مثل ما آل إليه حال الأمم الذين سلفوا قبلهم ، من تعجيل العقوبة عليهم ، أو ينيبوا إلى طاعتى ، واتباع رسولى .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر ، قال : ثنا عباد ، عن الحسن ، فى قوله (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ، فَسِيرُوا فِى الأَرْضِ ، فانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ المُكَذِّبِينَ ؟) فقال : ألم تسيروا فى الأرض ، فتنظروا كيف عذّب الله قوم نوح ، وقوم لوط ، وقوم صالح ، والأمم التى عذّب الله عزّ وجلّ ؟

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد، فى قوله (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ) يقول : فى الكفار والمؤمنين ، والخير والشرّ .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبوحذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ) : فِى المؤمنين والكفار .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قال : استقبل ذكر المصيبة التى نزلت بهم ، يعنى بالمسلمين يوم أُحد ،والبلاء الذى أصابهم ، والتمحيص لما كان فيهم ، واتخاذه الشهداء منهم ، فقال تعزية لهم ، وتعريفا لهم فيما صنعوا، وماهو صانع بهم: (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ، فَسِيرُوا فى الأَرْضِ ، فانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ المُكَذِّبِينَ ؟) : أى قدمضت منى وقائع نِقْمة فى أهل التكذيب لرسلى،والشرك فى عاد وثمود ، وقوم لوط ، وأصحاب مدين، فسيروا فى الأرض، تروا مَثُلات قد مضت فيهم، ولمن كان على مثل ماهم عليه مثل ذلك منى ، وإن أمكنت لهم : أى لئلا يظنوا أن نقمتى انقطعت عن عدوّهم وعدوّى . للدولة التى أدلتها عليكم بها ، لأبتليكم بذلك ، لأعلم ما عندكم .

حدثنا بشر، قال : ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد ،عن قتادة ، قوله (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِى الأَرْضِ ، فانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ المُكَذِّبِينَ ؟) يقول : متعهم فى الدنيا قليلا ، ثم صيرهم إلى النار ، وأما السُّنَن ، فإنها جمع سُنة ، والسنة : هى المثال المتبع ، والإمام المؤتمّ به . يقال منه : سَنّ فلان فينا سنة حسنة ، وسنّ سنة سيئة : إذا عمل عملا اتبع عليه من خير وشرّ ، ومنه قول لبيد ابن ربيعة :

مِنْ مَعْشَرٍ سَنَّتْ لَهُمْ آباؤُهُمْ ولِكُلِّ قَوْمٍ سُنَّةٌ وإمامُها[1]

وقول سليمان بن قَتَّة :

وَإنَّ الأُلَى بالطَّفِّ مِنْ آلِ هاشِمٍ تَآسَوْا فَسَنُّوا لِلْكِرامِ التَّآسِيا[2]

وقال ابن زيد فى ذلك: ما حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ) قال : أمثال .

القول فى تأويل قوله عزّ وجلّ

هٰذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ ، وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨)

اختلف أهل التأويل فى المعنى الذى أشير إليه بهذا ، فقال بعضهم : عَنى بقوله : هذا : القرآن .

ذكر من قال ذلك :

(١) البيت للبيد بن ربيعة ، رواه الزوزنى والتبريزى فى معلقته . والمعشر : الجماعة . وسنت لهم آباؤهم : علمتهم طريق كسب المعالى . والسنة : الطريق ، والأمر الواضح . والإمام : القدوة والمثال يقتدى به .

(٢) البيت لسليمان بن قتة العدوى . والطف : موضع قرب الكوفة ، سمى طفا لأنه طرف البر مما يلى الفرات . وهناك الموضع المعروف بكربلاء ، الذى قتل فيه الحسين بن على رضى الله عنهما . وتآسوا: من المؤاساة ، وهى المشاركة ، لامن التأسى بمعنى التصبر .

حدثنا محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفى ، قال ثنا عباد ، عن الحسن فى قوله (هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ) قال : هذا : القرآن .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ) وهو هذا القرآن . جعله الله بيانا للناس عامة ، وهدى وموعظة للمتقين خصوصا .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قال فى قوله (هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ ، وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ) خاصة .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا سويد ، قال : ثنا ابن المبارك ، عن ابن جريج ، فى قوله (هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ ، وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ) خاصة .

وقال آخرون : إنما أشير بقوله هذا ، إلى قوله (قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ، فَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ ، فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ؟) ثم قال : هذا الذى عرفتكم يا معشر أصحاب محمد بيان للناس .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق بذلك .

وأولى القولين فى ذلك عندى بالصواب : قول من قال : قوله هذا إشارة إلى ماتقدم هذه الآية من تذكير الله جل ثناؤه المؤمنين ، وتعريفهم حدوده ، وحضهم على لزوم طاعته ، والصبر على جهاد أعدائه وأعدائهم ، لأن قوله : هذا ، إشارة إلى حاضر ، إما مرئى ، وإما مسموع ، وهو فى هذا الموضع إلى حاضر مسموع من الآيات المتقدمة . فمعنى الكلام : هذا الذى أوضحت لكم وعرفتكموه ، بيان للناس ، يعنى بالبيان : الشرح والتفسير .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ) أى هذا تفسير للناس إن قبلوه .

حدثنا أحمد بن حازم والمثنى ، قالا : ثنا أبو نعيم ، قال : ثنا سفيان ، عن بيان ، عن الشعبى (هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ) قال : من العمى .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا الثورى ، عن الشعبى ، مثله .

وأما قوله (وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ) فإنه يعنى بالهدى : الدلالة على سبيل الحق ، ومنهج الدين ، وبالموعظة : التذكرة للصواب والرشاد .

كما حدثنا أحمد بن حازم والمثنى ، قالا : ثنا أبو نعيم ، قال : ثنا سفيان ، عن بيان ، عن الشعبى : (وَهُدًى) قال : من الضلالة . (وَمَوْعِظَةٌ) من الجهل .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا الثورى ، عن بيان ، عن الشعبى مثله .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (لِّلْمُتَّقِينَ) : أى لمن أطاعنى ، وعرف أمرى .

القول فى تأويل قوله

وَلَا تَهِنُوا ، وَلَا تَحْزَنُوا ، وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنْتُم مُؤْمِنِينَ (١٣٩)

وهذا من الله تعالى ذكره تعزية لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما أصابهم من الجراح والقتل بأُحد. قال : ولا تهنوا ولا تحزنوا يا أصحاب محمد ، يعنى : ولاتضعفوا بالذى نالكم من عدوكم بأُحد، من القتل والقروح ، عن جهاد عدوكم وحربهم ، من قول القائل : وَهَن فلان فى هذا الأمر ، فهو يَهِن وَهْنا (وَلَا تَحْزَنُوا) : ولاتأسَوا ، فتجزعوا على ما أصابكم من المصيبة يومئذ ، فإنكم أنتم الأعلَون ، يعنى الظاهرون عليهم ، ولكم العُقْبَى فى الظفر والنصرة عليهم إن كنتم مؤمنين ، يقول : إن كنتم مصدِّقى نبيِّ محمد صلى الله عليه وسلم فيما يعدكم ، وفيما ينبئكم من الخبر عما يئول إليه أمركم وأمرهم .

كما حدثنا المثنى ، قال : ثنا سويد بن نصر ، قال : أخبرنا ابن المبارك ، عن يونس ، عن الزهرىّ ، قال : كثر فى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم القتل والجراح ، حتى خَلَص إلى كل امرئ منهم اليأس ، فأنزل الله عزّ وجلّ القرآن ، فآسَى فيه المؤمنين بأحسن ما آسى به قوما من المسلمين كانوا قبلهم من الأمم الماضية ، فقال : (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) . . . إلى قوله (لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ القَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ) .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) : يعزّى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كما تسمعون ، ويحثهم على قتال عدوّهم ، وينهاهم عن العجز والوهن فى طلب عدوّهم فى سبيل الله .

حدثنى محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفىّ ، قال : ثنا عباد ، عن الحسن ، فى قوله (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) قال : يأمر محمدا ، يقول : ولا تهنوا أن تمضوا فى سبيل الله .

حدثنا محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قول الله عزّ وجلّ (وَلَا تَهِنُوا) : ولا تضعفوا .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبوحذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، فى قوله (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا) يقول : ولا تضعفوا .

حدثنى القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج (وَلَا تَهِنُوا) قال ابن جريج : ولا تضعفوا فى أمر عدوكم (وَلَا تَحْزَنُوا وأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ) قال : انهزم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشِّعْب ، فقالوا : ما فعل فلان ؟ مافعل فلان ؟ فنعى بعضهم بعضا ، وتحدّثوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل ، فكانوا فى همّ وحزن ، فبينما هم كذلك ، إذ علا خالد بن الوليد الجبل بخيل

المشركين فوقهم، وهم أسفل فى الشِّعْب ؛ فلما رأوُا النبىّ صلى الله عليه وسلم فرحوا، وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : اللَّهُمَّ لاقُوَّةَ لَنا إلاَّ بِكَ ، ولَيْسَ يَعْبُدُكَ بِهَذِهِ البَلْدَةِ غَيْرُ هَؤُلاءِ النَّفَرِ » . قال : وثاب نفر من المسلمين رُماة ، فصعدوا ، فرموا خيل المشركين حتى هزمهم الله ، وعلا المسلمون الجبل ، فذلك قوله (وأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (وَلا تَهِنُوا) أى لا تضعفوا (ولا تَحْزَنُوا) : ولا تأسوا على ما أصابكم (وأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ) : أى لكم تكون العاقبة والظهور (إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) : إن كنتم صدّقتم نبيى . بما جاءكم به عنى .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : أقبل خالد بن الوليد، يريد أن يعلو عليهم الجبل ، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ لايَعْلُونَ عَلَيْنا » . فأنزل الله عزّ وجلّ (وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) .

القول فى تأويل قوله

إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ، وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ، وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ، وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ، وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٤٠)

اختلف القراء فى قراءة ذلك، فقرأته عامة قراء أهل الحجاز والمدينة والبصرة: (إنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ) كلاهما بفتح القاف ، بمعنى : إن يمسسكم القتل والجراح يا معشر أصحاب محمد ، فقد مسّ القومَ من أعدائكم من المشركين قرح قتل وجراح مثله ؛ وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة : (إنْ يَمْسَسْكُمْ قُرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القَوْمَ قُرْحٌ مِثْلُهُ) .(١)

وأولى القراءتين بالصواب : قراءة من قرأ (إنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ) ، بفتح القاف فى الحرفين ، لإجماع أهل التأويل على أن معناه القتل والجراح ، فذلك يدلّ على أن القراءة هى الفتح ، وكان بعض أهل العربية يزعم أن القَرح والقُرح لغتان بمعنى واحد ، والمعروف عند أهل العلم بكلام العرب ما قلنا .

ذكر من قال : إن القرح : الجراح والقتل .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله (إنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ) قال : جِراح وقتل .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنى محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفىّ ، عن عباد ، عن الحسن ، فى قوله (إنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ) قال : إن يَقتلوا منكم يوم أُحد ، فقد قتلتم منهم يوم بدر .

(١) أى بضم القاف فيهما ، ولعله سقط هنا من قلم الناسخ .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ) والقرح : الجراحة ، وذاكم يوم أُحد ، فشا فى أصحاب نبىّ الله صلى الله عليه وسلم يومئذ القتل والجراحة ، فأخبرهم الله عزّ وجلّ أن القوم قد أصابهم من ذلك مثل الذى أصابكم ، وأن الذى أصابكم عقوبة .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع فى قوله (إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ) قال : ذلك يوم أُحد ، فشا فى المسلمين الجراح ، وفشا فيهم القتل ، فذلك قوله (إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُه) يقول : إن كان أصابكم قرح فقد أصاب عدوكم مثله . يعزّى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، ويحثهم على القتال .

حدثنى محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ) والقرح : هى الجراحات .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ) أى جراح (فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ) : أى جراح مثلها .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا حفص بن عمر ، قال : ثنا الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : نام المسلمون ، وبهم الكُلوم ، يعنى يوم أُحد . قال عكرمة : وفيهم أنزلت : (إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) . وفيهم أنزلت (إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ، وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ ما لايَرْجُونَ) .

وأما تأويل قوله (إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ) فإنه : إن يصبكم .

كما حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس (إِنْ يَمْسَسْكُمْ) : إن يصبكم .

القول فى تأويل قوله (وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) :

يعنى تعالى ذكره : وتلك الأيام نداولها بين الناس ، أيام بدر ، وأُحد ، ويعنى بقوله (نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) : نجعلها دُوَلاً بين الناس مصرّفة ، ويعنى بالناس : المسلمين والمشركين ، وذلك أن الله عزّ وجلّ أدال المسلمين من المشركين ببدر ، فقتلوا منهم سبعين ، وأسروا سبعين ، وأدال المشركين من المسلمين بأُحد ، فقتلوا منهم سبعين ، سوى من جرحوا منهم ، يقال منه : أدال الله فلانا من فلان ، فهو يديله منه إدالة : إذا ظفر به ، فانتصر منه ، مما كان نال منه المدال منه .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفىّ ، عن عباد ، عن الحسن (وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) قال : جعل الله الأيام دُوَلاً ، أدال الكفار يوم أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) : إنه والله لولا الدول ما أُنزل المؤمنون ، ولكن قد يدال للكافر من المؤمن ، ويبتلى المؤمن بالكافر ليعلم الله من يطيعه ممن يعصيه ، ويعلم الصادق من الكاذب .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قوله (وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) فأظهر الله عزّ وجلّ نبيه صلى الله عليه وسلم وأصحابه على المشركين يوم بدر ، وأظهر عليهم عدوّهم يوم أُحد ، وقد يُدال الكافر من المؤمن ، ويُبتلى المؤمن بالكافر ، ليعلم الله من يطيعه ممن يعصيه ، ويعلم الصادق من الكاذب ، وأما من ابتُلى منهم من المسلمين يوم أُحد ، فكان عقوبة بمعصيتهم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) : يوما لكم ، ويوما عليكم .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، قال : قال ابن جريج : قال ابن عباس (نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) قال : أدال المشركين على النبىّ صلى الله عليه وسلم يوم أُحد .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنا أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) فإنه كان يومُ أُحد بيوم بدر ، قتل المؤمنون يوم أُحد ، اتخذ الله منهم شهداء ، وَغلَبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر المشركين ، فجعل له الدولة عليهم .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا حفص بن عمر ، قال : ثنا الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : لما كان قتال أُحد ، وأصاب المسلمين ما أصاب ، صعد النبىّ صلى الله عليه وسلم الجبل ، فجاء أبو سفيان ، فقال : يامحمد ، يامحمد ، ألا تخرج ، ألا تخرج ؟ الحرب سجال ، يوم لنا ، ويوم لكم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : أجِيبُوهُ ، فقالوا : لاسَوَاء لاسَوَاء ، قتلانا فى الجنة ، وقتلاكم فى النار ، فقال أبو سفيان : لنا عُزَّى ، ولا عُزَّى لكم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قُولُوا : اللهُ مَوْلانا ، وَلا مَوْلَى لَكُمْ ، فقال أبو سفيان : اعْلُ هُبَلُ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قُولُوا : اللهُ أعْلَى وأجَلُّ ، فقال أبو سفيان : موعدكم وموعدنا بدر الصغرى . قال عكرمة : وفيهم أنزلت : (وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا سويد بن نصر ، قال : ثنا ابن المبارك ، عن ابن جريج ، عن ابن عباس ، فى قوله (وَتِلْكَ الأيامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) : فإنه أدال على النبىّ صلى الله عليه وسلم يوم أُحد .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق : (وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) : أى نصرّفها للناس بالبلاء والتمحيص .

حدثنى إبراهيم بن عبد الله ، قال : أخبرنا عبد الله بن عبد الوهاب الحجبىّ ، قال : ثنا حماد بن زيد ، عن ابن عون ، عن محمد فى قول الله (وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) قال : يعنى الأمراء .

القول فى تأويل قوله (وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا ، وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ، وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) :

يعنى بذلك تعالى ذكره : وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء نداولها بين الناس ، ولو لم يكن فى الكلام واو لكان قوله : ليعلم ، متصلا بما قبله ، وكان : وتلك الأيام نداولها بين الناس ليعلم الله الذين آمنوا . ولكن لما دخلت الواو فيه ، آذنت بأن الكلام متصل بما قبلها ، وأن بعدها خبرا مطلوبا للام التى فى قوله : وليعلم ، متعلقة به .

فإن قال قائل : وكيف قيل : (وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا) معرفة ، وأنت لاتستجيز فى الكلام : قد سألت فعلمت عبد الله ، وأنت تريد : علمت شخصه ، إلا أن تريد : علمت صفته وما هو ؟ قيل : إن ذلك إنما جاز مع الذين ، لأن فى الذين تأويل مَنْ وأىّ ، وكذلك جائز مثله فى الألف واللام ، كما قال تعالى ذكره (وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا ، وَلَيَعْلَمَنَّ الكاذِبِينَ) ، لأن فى الألف واللام من تأويل أىّ ، ومَنْ مثل الذى فى الذى ، ولو جعل مع الاسم المعرفة اسم فيه دلالة على أىّ ، جاز كما يقال : سألت لأعلم عبد الله مِنْ عمرو ، ويراد بذلك : لأعرف هذا من هذا .

فتأويل الكلام : وليعلم الله الذين آمنوا منكم أيها القوم ، مِنَ الذين نافقوا منكم ، نداول بين الناس ، فاستغنى بقوله (وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ) عن ذكر قوله (مِنَ الَّذِينَ نافَقُوا) ، لدلالة الكلام عليه ، إذ كان فى قوله (الَّذِينَ آمَنُوا) تأويل أىّ على ماوصفنا . فكأنه قيل : وليعلم الله أيُّكم المؤمن ؟ كما قال جل ثناؤه (لِيَعْلَمَ أَىُّ الحِزْبَيْنِ أَحْصَى) غير أن الألف واللام والذى ومن ، إذا وضعت مع العلم موضع أىّ نصبت بوقوع العلم عليه ، كما قيل : وليعلمنّ الكاذبين ، فأما أىّ فإنها ترفع .

وأما قوله (وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ) فإنه يعنى : وليعلم الله الذين آمنوا ، وليتخذ منكم شهداء : أى ليكرم منكم بالشهادة من أراد أن يكرمه بها ، والشهداء : جمع شهيد .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ) : أى ليميز بين المؤمنين والمنافقين ، وليكرم مَنْ أكرم من أهل الإيمان بالشهادة .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا سويد بن نصر ، قال : أخبرنا ابن المبارك قراءة على ابن جريج ، فى قوله (وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا ، وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ) قال : فإن المسلمين كانوا يسألون ربهم : ربنا أرنا يوما كيوم بدر ، نقاتل فيه المشركين ، ونُبْليك فيه خيرا ، ونلتمس فيه الشهادة ، فلقُوا المشركين يوم أُحد ، فاتخذ منهم شهداء .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا ، وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ) فكرّم الله أولياءه ، بالشهادة بأيدى عدوّهم ، ثم تصير حواصل الأمور وعواقبها لأهل طاعة الله .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج (وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ

آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ) قال : قال ابن عباس : كانوا يسألون الشهادة ، فلقوا المشركين يوم أحد ، فاتخذ منهم شهداء .

حُدثت عن الحسين بن الفرج ، قال : سمعت أبا معاذ ، قال : أخبرنا عبيد بن سليمان ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله : (وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا ، وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ) : كان المسلمون يسألون ربهم أن يُريَهم يوما كيوم بدر ، يُبلُون فيه خيرا ، ويرزقون فيه الشهادة ، ويرزقون الجنة والحياة والرزق ، فلقى المسلمون يوم أُحد ، فاتخذ الله منهم شهداء ، وهم الذين ذكرهم الله عزّ وجلّ ، فقال : (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ) . . . الآية .

وأما قوله (وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) فإنه يعنى به : الذين ظلموا أنفسهم ، بمعصيتهم ربهم .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) : أى المنافقين الذين يظهرون بألسنتهم الطاعة ، وقلوبهم مُصِرّة على المعصية .

القول فى تأويل قوله

وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ (١٤١)

يعنى تعالى ذكره بقوله (وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا) : وليختبر الله الذين صدقوا الله ورسوله ، فيبتليهم بإدالة المشركين منهم ، حتى يتبين المؤمن منهم المخلص الصحيح الإيمان من المنافق .

كما حدثنا محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله ، فى قوله (وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا) قال : ليبتلى .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنى محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفىّ ، عن عباد ، عن الحسن فى قوله (وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا) قال : ليمحص الله المؤمن حتى يصدق .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا) يقول : يبتلى المؤمنين .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس : (وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا) قال : يبتليهم .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الكافِرِينَ) ، فكان تمحيصا للمؤمنين ، ومَحْقا للكافرين .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا) : أى يختبر الذين آمنو حتى يخلصهم بالبلاء الذى نزل بهم ، وكيف صَبْرُهم ويقينهم ؟

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ

آمنوا ، وَيَمْحَقَ الكافِرِينَ) قال : يمحق مَنْ محق فى الدنيا ، وكان بقية من يمحق فى الآخرة فى النار .

وأما قوله (وَيَمْحَقَ الكافِرِينَ) فإنه يعنى به : أنه ينقصهم ويفنيهم ، يقال منه : مَحَق فلان هذا الطعام : إذا نقصه أو أفناه ، يَمْحَقه مَحْقا ، ومنه قيل لمحاق القمر : مِحاق ، وذلك نقصانه وفناؤه .

كما حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس (وَيَمْحَقَ الكافِرِينَ) قال : ينقصهم .

حدثنى محمد بن سنان ، قال : ثنا أبو بكر الحنفىّ ، عن عباد ، عن الحسن ، فى قوله (وَيَمْحَقَ الكافِرِينَ) قال : يمحق الكافر ، حتى يكذبه .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (وَيَمْحَقَ الكافِرِينَ) : أى يبطل من المنافقين قولهم بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، حتى يظهر منهم كفرهم الذى يستترون به منكم .

القول فى تأويل قوله

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَٰهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّٰبِرِينَ (١٤٢)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : أم حسبتم يا معشر أصحاب محمد ، وظننتم أن تدخلوا الجنة ، وتنالوا كرامة ربكم ، وشرف المنازل عنده (وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ) يقول : ولما يتبين لعبادى المؤمنين ، المجاهدُ منكم فى سبيل الله ، على ما أمره به ، وقد بينت معنى قوله (وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ) : وليعلم الله ، وما أشبه ذلك بأدلته فيما مضى ، بما أغنى عن إعادته ، وقوله (وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ) يعنى : الصابرين عند البأس ، على ما ينالهم فى ذات الله من جرح وألم ومكروه .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ) وتصيبوا من ثوابى الكرامة ، ولم أختبركم بالشدّة ، وأبتليكم بالمكاره ، حتى أعلم صدق ذلك منكم ، الإيمان بى ، والصبر على ما أصابكم فىّ . ونصب (وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ) على الصرف ، والصرف[1] : أن يجتمع فعلان ببعض حروف النسق ، وفى أوله ما لايحسن إعادته مع حرف النسق ، فينصب الذى بعد حرف العطف على الصرف ، لأنه مصروف عن معنى الأوّل ، ولكن يكون مع جحد أو استفهام أو نهى فى أول الكلام ، وذلك كقولهم : لايسعُنى شىء ويضيقَ عنك ، لأن لا التى مع يسعنى لايحسن إعادتها مع قوله : ويضيق عنك ، فلذلك نصب . والقراء فى هذا الحرف على النصب . وقد روى عن الحسن أنه كان يقرأ (وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ) ، فيكسر الميم من يعلم ، لأنه كان ينوى جزمها على العطف به ، على قوله (وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ) .

القول فى تأويل قوله

وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (١٤٣)

يعنى بقوله جلّ ثناؤه (وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ المَوْتَ) : ولقد كنتم يا معشر أصحاب محمد تمنون الموت ، يعنى أسباب الموت ، وذلك القتال ، فقد رأيتموه ، فقد رأيتم ما كنتم تمنونه ، والهاء فى قوله رأيتموه ، عائدة

(١) هذا التوجيه النحوى كله مستمد من كلام الفراء فى كتابه « معانى القرآن » . (انظر مصورة جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٥٩) ص ٧١ .

على الموت . ومعنى (وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) يعنى : قد رأيتموه بمرأًى منكم ومنظَر : أى بقرب منكم . وكان بعض أهل العربية يزعم أنه قيل (وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) على وجه التوكيد للكلام ، كما يقال : رأيته عيانا ، ورأيته بعينى ، وسمعته بأذنى . وإنما قيل : (وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ) لأن قوما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن لم يشهد بدرا ، كانوا يتمنون قبل أُحد يوما مثل يوم بدر ، فيبلُوا الله من أنفسهم خيرا ، وينالوا من الأجر ، مثل ما نال أهل بدر ؛ فلما كان يوم أُحد فرّ بعضهم وصبر بعضهم ، حتى أوفى بما كان عاهد الله قبل ذلك ، فعاتب الله من فرّ منهم ، فقال (وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ) . . . الآية ، وأثنى على الصابرين منهم ، والموفِّين بعهدهم .

ذكر الأخبار بما ذكرنا من ذلك :

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله (وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ ، فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) قال : غاب رجال عن بدر ، فكانوا يتمنون مثل يوم بدر أن يلقَوه ، فيصيبوا من الخير والأجر ، مثل ما أصاب أهل بدر ؛ فلما كان يوم أُحد ولّى من ولّى ، فعاتبهم الله ، أو فعابهم ، أو فعتبهم على ذلك ، شك أبو عاصم .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد نحوه ، إلا أنه قال : فعاتبهم الله على ذلك ، ولم يشكّ .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ ، فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) : أناس من المؤمنين لم يشهدوا يوم بدر ، والذى أعطى الله أهل بدر من الفضل والشرف والأجر ، فكانوا يتمنون أن يرزقوا قتالا فيقاتلوا ، فسيق إليهم القتال ، حتى كان فى ناحية المدينة يوم أُحد ، فقال الله عزّ وجلّ كما تسمعون (وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ) حتى بلغ (الشَّاكِرِينَ) .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، قوله (وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ) قال : كانوا يتمنون أن يلقَوا المشركين فيقاتلوهم ، فلما لقُوهم يوم أُحد ولَّوْا .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قال : إن أناسا من المؤمنين لم يشهدوا يوم بدر ، والذى أعطاهم الله من الفضل ، فكانوا يتمنون أن يروا قتالا ، فيقاتلوا ، فسيق إليهم القتال ، حتى كان بناحية المدينة يوم أُحد ، فأنزل الله عزّ وجلّ (وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ) . . . الآية .

حدثنى محمد بن بشار ، قال : ثنا هَوْذة ، قال : ثنا عوف ، عن الحسن ، قال : بلغنى أن رجالا من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون : لئن لقينا مع النبىّ صلى الله عليه وسلم لنفعلنّ ولنفعلنّ ،

فابتلوا بذلك . فلا والله ما كلهم صدق ، فأنزل الله عزّ وجلّ (وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ المَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ ، فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، كان ناس من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم لم يشهدوا بدرا ، فلما رأوا فضيلة أهل بدر ، قالوا : اللهمّ إنا نسألك أن تُرِيَنا يوما كيوم بدر ، نُبليك فيه خيرا ، فرأوا أُحدا ، فقال لهم : (وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ المَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ ، فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ المَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ ، فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) : أى لقد كنتم تمنون الشهادة على الّذى أنتم عليه من الحقّ ، قبل أن تلقوا عدوكم ، يعنى الذين حملوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على خروجه بهم إلى عدوّهم ، لما فاتهم من الحضور فى اليوم الذى كان قبله ببدر ، رغبة فى الشهادة التى قد فاتهم به ، يقول (فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) : أى الموت بالسيوف فى أيدى الرجال ، قد حلّ بينكم وبينهم ، وأنتم تنظرون إليهم ، فصَدَدتم عنهم .

القول فى تأويل قوله

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ، وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ، وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ (١٤٤)

يعنى تعالى ذكره بذلك : وما محمد إلا رسول كبعض رسل الله الذين أرسلهم إلى خلقه داعيا إلى الله وإلى طاعته ، الذين حين انقضت آجالهم ماتوا وقبضهم الله إليه . يقول جلّ ثناؤه : فمحمد صلى الله عليه وسلم إنما هو فيما الله به صانع من قبضه إليه ، عند انقضاء مدة أجله ، كسائر مدة رسله إلى خلقه ، الذين مضوا قبله ، وماتوا عند انقضاء مدة آجالهم . ثم قال لأصحاب محمد ، معاتبهم على ما كان منهم من الهلع والجزع ، حين قيل لهم بأُحد : إن محمدا قُتل ، ومقبحا إليهم انصراف من انصرف منهم عن عدوّهم ، وانهزامه عنهم : أفائن مات محمد أيها القوم لانقضاء مدة أجله ، أو قتله عدوّكم ، انقلبتم على أعقابكم ، يعنى ارتددتم عن دينكم الذى بعث الله محمدا بالدعاء إليه ، ورجعتم عنه كفارا بالله ، بعد الإيمان به ، وبعد ما قد وضحت لكم صحة ما دعاكم محمد إليه ، وحقيقة ما جاءكم به من عند ربه ؟ (وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ) يعنى بذلك : ومن يرتدد منكم عن دينه ، ويرجع كافرا بعد إيمانه (فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا) يقول : فلن يُوهن ذلك عزة الله ولا سلطانه ، ولا يدخل بذلك نقص فى ملكه ، بل نفسَه يضرّ بردته ، وحظّ نفسه ينقص بكفره . (وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ) يقول : وسيثيب الله من شكره على توفيقه ، وهدايته إياه لدينه بنبوته على ماجاء به محمد صلى الله عليه وسلم إن هو مات أو قُتل ، واستقامته على منهاجه ، وتمسكه بدينه وملته بعده .

كما حدثنا المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا عبد الله بن هاشم ، قال : أخبرنا سيف بن عمرو ، عن

أبى رَوْق ، عن أبى أيوب ، عن علىّ فى قوله (وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ) : الثابتين على دينهم : أبا بكر وأصحابه ، فكان علىّ رضى الله عنه يقول : كان أبو بكر أمين الشاكرين ، وأمين أحباء الله ، وكان أشكرَهم ، وأحبهم إلى الله .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن مغيرة ، عن العلاء بن بدر ، قال : إن أبا بكر أمين الشاكرين ، وتلا هذه الآية (وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ) .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ) : أى من أطاعه وعمل بأمره ، وَذكر أن هذه الآية أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيمن انهزم عنه بأُحد من أصحابه .

ذكر الأخبار الواردة بذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ) إلى قوله (وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ) ذاكم يوم أُحد حين أصابهم القَرْح والقتل ، ثم تنازعوا نبىّ الله صلى الله عليه وسلم بقية ذلك ، فقال أناس : لو كان نبيا ما قتل . وقال أناس من عِلْيَة أصحاب نبىّ الله صلى الله عليه وسلم : قاتلوا على ما قاتل عليه محمد نبيكم ، حتى يفتح الله لكم ، أو تلحقوا به ، فقال الله عزّ وجلّ (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَائِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ؟) يقول : إن مات نبيكم ، أو قتل ، ارتددتم كفارا بعد إيمانكم ؟

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بنحوه ، وزاد فيه ، قال الربيع : وذكر لنا والله أعلم أن رجلا من المهاجرين مرّ على رجل من الأنصار ، وهو يتشحَّط فى دمه ، فقال : يافلان أشعرت أن محمدا قد قتل ؟ فقال الأنصارىّ : إن كان محمد قد قتل ، فقد بلَّغ ، فقاتلوا عن دينكم ، فأنزل الله عزّ وجلّ : (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَائِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ؟) يقول : ارتددتم كفارا بعد إيمانكم .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، قال : لما برز رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد إليهم ، يعنى إلى المشركين ، أمر الرماة فقاموا بأصل الجبل فى وجوه خيل المشركين ، وقال : لاتَبْرَحُوا مَكانَكُمْ إِنْ رَأَيْتُمُونا قَدْ هَزَمْناهُمْ ، فإنّا لَنْ نَزالَ غالِبِينَ ما ثَبَتُّمْ مَكانَكُمْ ، وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير ، أخا خوّات بن جبير ، ثم شدّ الزبير بن العوّام والمقداد بن الأسود على المشركين ، فهزماهم ، وحمل النبىّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فهزموا أبا سفيان ؛ فلما رأى ذلك خالد بن الوليد ، وهو على خيل المشركين حمل ، فرمته الرماة فانقمع ؛ فلما نظر الرماة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى جوف عسكر المشركين ينتهبونه ، بادروا الغنيمة ، فقال بعضهم : لانترك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانطلق عامتهم ، فلحقوا بالعسكر ؛ فلما رأى خالد قلة الرماة ، صاح فى خيله ، ثم حمل فقتل الرماة ، وحمل على أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فلما

رأى المشركون أن خيلهم تقاتل، تبادروا فشدّوا على المسلمين، فهزموهم وقتلوهم، فأتى ابن قميئة الحارثى، أحد بنى الحارث بن عبد مناف بن كنانة، فرمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر، فكسر أنفه ورَباعيته، وشجّه فى وجهه، فأثقله، وتفرّق عنه أصحابه، ودخل بعضهم المدينة، وانطلق بعضهم فوق الجبل إلى الصخرة، فقاموا عليها، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس: إلىّ عِبادَ الله، إلىّ عِبادَ الله؛ فاجتمع إليه ثلاثون رجلا، فجعلوا يسيرون بين يديه، فلم يقف أحد إلا طلحة وسهل بن حنيف، فحماه طلحة، فرمى بسهم فى يده، فيبست يده، وأقبل أبىّ بن خلف الجُمحىّ، وقد حلف ليقتلنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم: بَلْ أنا أقتُلُكَ، فقال: يا كذّاب أين تفرّ، فحمل عليه، فطعنه النبىّ صلى الله عليه وسلم فى جنب الدرع، فجرح جرحا خفيفا، فوقع يخور خُوَران الثور، فاحتملوه وقالوا: ليس بك جراحة، قال: أليس قال: لأقتلنك، لو كانت بجميع ربيعة ومضر لقتلتهم، ولم يلبث إلا يوما أو بعض يوم، حتى مات من ذلك الجرح، وفشا فى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قُتل، فقال بعض أصحاب الصخرة: ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن أبىّ، فيأخذَ لنا أَمَنة من أبى سفيان، ياقوم إن محمدا قد قتل، فارجعوا إلى قومكم، قبل أن يأتوكم فيقتلوكم، قال أنس بن النضر: يا قوم إن كان محمد قد قتل، فإنّ ربّ محمد لم يقتل، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد صلى الله عليه وسلم، اللهمّ إنى أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، ثم شدّ بسيفه فقاتل حتى قُتل، وانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس حتى انتهى إلى أصحاب الصخرة؛ فلما رأوه وضع رجل سهما فى قوسه فأراد أن يرميه، فقال: أنا رسول الله، ففرحوا حين وجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حيا، وفرح رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى أن فى أصحابه من يمتنع، فلما اجتمعوا، وفيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ذهب عنهم الحزن، فأقبلوا يذكرون الفتح، وما فاتهم منه، ويذكرون أصحابه الذين قتلوا، فقال الله عزّ وجلّ للذين قالوا: إن محمدا قد قتل، فارجعوا إلى قومكم: (وَما مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ، أفإِنْ ماتَ أوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ على أعْقابِكُمْ؟ وَمَنْ يَنْقَلِبْ على عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً، وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ).

حدثنى محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، عن عيسى، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد (وَمَنْ يَنْقَلِبْ على عَقِبَيْهِ) قال: يرتدّ.

حدثنى محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، عن عيسى، عن ابن أبى نجيح، عن أبيه.

وحدثنى المثنى، قال: ثنا أبو حذيفة، قال: ثنا شبل، عن ابن أبى نجيح، عن أبيه، أن رجلا من المهاجرين، مرّ على رجل من الأنصار وهو يتشحّط فى دمه، فقال: يافلان، أشعرت أن محمدا قد قُتِل؟ فقال الأنصارىّ: إن كان محمد قد قتل، فقد بلغ، فقاتلوا عن دينكم.

حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، قال: ثنى ابن إسحاق، قال: ثنى القاسم بن عبد الرحمن بن رافع أخو بنى عدىّ بن النجار، قال: انتهى أنس بن النضر عمّ أنس بن مالك إلى عمر وطلحة بن عبيدالله فى رجال

من المهاجرين والأنصار . وقد ألقوا بأيديهم ، فقال : ما يُجلسكم ؟ قالوا : قد قتل محمد رسول الله ، قال : فما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ، واستقبل القوم ، فقاتل حتى قُتل ، وبه سمى أنس بن مالك .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك ، قال : نادى مناد يوم أحد ، حين هزم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم : ألا إن محمدا قد قتل ، فارجعوا إلى دينكم الأول ، فأنزل الله عزّ وجلّ (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ) . . . الآية .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، قال : أُلقى فى أفواه المسلمين يوم أُحد ، أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قد قُتِل ، فنزلت هذه الآية (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ) . . . الآية .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتزل هو وعصابة معه يومئذ على أَكَمة ، والناس يفرّون ، ورجل قائم على الطريق يسألهم : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وجعل كلما مرّوا عليه يسألهم ، فيقولون : والله ما ندرى مافعل . فقال : والذى نفسى بيده لئن كان النبىّ صلى الله عليه وسلم قُتل لنعطينهم بأيدينا ، إنهم لعشائرنا وإخواننا . وقالوا : إن محمدا إن كان حيا لم يُهزم ، ولكنه قد قتل ، فترخصوا فى الفرار حينئذ ، فأنزل الله عزّ وجلّ على نبيه صلى الله عليه وسلم : (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ) . . . الآية .

حُدثت عن الحسين بن الفرج ، قال : سمعت أبا معاذ ، قال : ثنا عبيد بن سليمان ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ) ... الآية : ناس من أهل الارتياب والمرض والنفاق ، قالوا يوم فرّ الناس عن نبىّ الله صلى الله عليه وسلم ، وشجّ فوق حاجبه ، وكسرت رباعيته : قتل محمد ، فالحقوا بدينكم الأول فذلك قوله (أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ) ؟

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ على أَعْقَابِكُمْ) ؟ قال : مابينكم وبين أن تدَعوا الإسلام ، وتنقلبوا على أعقابكم ، إلا أن يموت محمد ، أو يُقتل ، فسوف يكون أحد هذين : فسوف يموت ، أو يقتل .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ) إلى قوله (وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ) : أى لقول الناس : قتل محمد ، وانهزامهم عند ذلك ، وانصرافهم عن عدوّهم ، أى أفائن مات نبيكم ، أو قتل ، رجعتم عن دينكم كفارا ، كما كنتم ، وتركتم جهاد عدوكم وكتاب الله ، وما قد خلف نبيه من دينه معكم وعندكم ، وقد بين لكم فيما جاءكم عنى أنه ميت ومفارقكم ، (وَمَنْ يَنْقَلِبْ على عَقِبَيْهِ) : أى يرجع عن دينه (فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا) : أى لن ينقص ذلك من عزّ الله ، ولا ملكه ، ولا سلطانه .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، قال : قال ابن جريج : قال أهل المرض والارتياب والنفاق ، حين فرّ الناس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : قد قتل محمد ، فالحقوا بدينكم الأول ، فنزلت هذه الآية .

ومعنى الكلام : وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفتنقلبون على أعقابكم إن مات محمد أو قُتل ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئا ، فجعل الاستفهام فى حرف الجزاء ، ومعناه أن يكون فى جوابه [خبر] [1] ، وكذلك كل استفهام دخل على جزاء ، فمعناه أن يكون فى جوابه [خَبَر] [1] ، لأن الجواب خبر يقوم بنفسه ، والجزاء شرط لذلك الخبر ، ثم يجزم جوابه وهو كذلك ، ومعناه الرفع لمجيئه بعد الجزاء ، كما قال الشاعر :

حَلَفْتُ لَهُ إنْ تُدْلِجِ اللَّيلَ لايَزَلْ أمامَكَ بَيْتٌ مِنْ بُيُوتِى سائِرُ [2]

فمعنى لايزل رفع ، ولكنه جزم لمجيئه بعد الجزاء ، فصار كالجواب ، ومثله (أفائِنْ مِتَّ فَهُمُ الخالِدُونَ . وَكَيفَ تَتَّقُونَ إن كَفَرْتُمْ ؟) ولو كان مكان فهم الخالدون : يخلدون ، وقيل أفائن متّ يخلدوا جاز الرفع فيه والجزم ، وكذلك لو كان مكان «انقلبتم» تنقلبوا ، جاز الرفع والجزم ، لما وصفت قبل . وتركت إعادة الاستفهام ثانية مع قوله : انقلبتم ، اكتفاء بالاستفهام فى أول الكلام ، وأن الاستفهام فى أوله دال على موضعه ومكانه . وقد كان بعض القراء يختار فى قوله (أئِذَا كُنَّا تُرَاباً وَعِظاماً أئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ) ترك إعادة الاستفهام مع أئنا ، اكتفاء بالاستفهام فى قوله (أئِذَا كُنَّا تُراباً) ، ويستشهد على صحة وجه ذلك بإجماع القرّاء على تركهم إعادة الاستفهام مع قوله : انقلبتم ، اكتفاء بالاستفهام فى قوله : أفائن مات ، إذا كان دالاً على معنى الكلام وموضع الاستفهام منه . وكان يفعل مثل ذلك فى جميع القرآن ، وسنأتى على الصواب من القول فى ذلك إن شاء الله ، إذا انتهينا إليه .

القول فى تأويل قوله

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا (١٤٥)

يعنى تعالى ذكره بذلك : وما يموت محمد ولا غيره من خلق الله إلا بعد بلوغ أجله الذى جعله الله غاية لحياته وبقائه ، فإذا بلغ ذلك من الأجل الذى كتبه الله له ، وأذن له بالموت ، فحينئذ يموت ، فأما قبل ذلك فلن تموت بكيد كائد ، ولا بحيلة محتال .

---

(١) زيادة عن معانى القرآن للفراء ص ٧١ من مصورة جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٥٩ وقد أورد المؤلف أكثر كلامه بنصه .

(٢) البيت من شواهد النحويين : أورده الفراء فى معانى القرآن عن القاسم بن معن ، عن العرب ، ولم ينسبه لأحد ، واستشهد به على جزم لايزل فى ضرورة الشعر ، بجعله جواب الشرط ، وكان القياس أن يرفع ، ويجعل جوابا للقسم ، فيكون جواب الشرط محذوفا مدلولا عليه بجواب القسم . وقال ابن عصفور : وليس حلفت فيه قسما ، كما ذهب إليه الفراء ، بل هو خبر محض ، غير مراد به معنى القسم ، لأن القسم إذا تقدم على الشرط بنى الجواب عليه ، ولم يبن على الشرط .

وتدلج : تسر الليل كله . وأراد بالبيت جماعة من أقاربه . يقول : إن سافرت بالليل أرسلت جماعة من أهلى يسيرون أمامك يخفرونك إلى أن تصل إلى مأمنك (انظر الخزانة ٤ : ٥٤٠ – ٥٤١) .

ورواه ابن قتيبة فى كتاب المعانى الكبير ص ٨٠٥ مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن سنة ١٣٦٩ هـ هكذا :

وقلت له إن تدلج الليل لاتزل أمامك بيت من بيوتى عائر

وفسره بقوله : أى بيت هجاء سائر . ونسبه للراعى .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً) : أى إن لمحمد أجلا هو بالغه ، إذا أذن الله له فى ذلك كان .

وقد قيل : إن معنى ذلك : وما كانت نفس لتموت إلا بإذن الله .

وقد اختلف أهل العربية فى معنى الناصب قوله (كِتَاباً مُؤَجَّلاً) . فقال بعض نحويّ البصرة : هو توكيد ، ونصبه على كتب الله كتابا مؤجلا . قال : وكذلك كل شىء فى القرآن من قوله : حقا ، إنما هو أحقّ ذلك حقا ، وكذلك «وَعْدَ اللهِ ، وَرَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، وصُنْعَ اللهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شىءٍ ، وكِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ » : إنما هو صَنَعَ الله هكذا صنعا ، فهكذا تفسير كل شىء فى القرآن من نحو هذا ، فإنه كثير .

وقال بعض نحويّ الكوفة فى قوله (وما كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ) معناه : كتب الله آجال النفوس ، ثم قيل : كتابا مؤجلا ، فأخرج قوله : كتاباً مؤجلا ، نصبا من المعنى الذى فى الكلام ، إذ كان قوله (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ) قد أدّى عن معناه كتب . قال : وكذلك سائر ما فى القرآن من نظائر ذلك ، فهو على هذا النحو .

وقال آخرون منهم : قول القائل : زيد قائم حقا ، بمعنى أقول : زيد قائم حقا ، لأن كل كلام قول ، فأدّى المقول عن القول ، ثم خرج ما بعده منه ، كما تقول : أقول قولا حقا ، وكذلك ظنا ويقينا ، وكذلك وَعْدَ الله ، وما أشبهه .

والصواب من القول فى ذلك عندى : أن كل ذلك منصوب على المصدر ، من معنى الكلام الذى قبله ، لأن فى كل ما قبل المصادر التى هى مخالفة ألفاظها ألفاظ ما قبلها من الكلام ، معانى ألفاظ المصادر ، وإن خالفها فى اللفظ ، فنصبها من معانى ما قبلها دون ألفاظه .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه

وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ، وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ، وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ (١٤٦)

يعنى بذلك جل ثناؤه : ومن يرد منكم أيها المؤمنون بعمله جزاء منه ، بعضَ أعراض الدنيا ، دون ماعند الله من الكرامة لمن ابتغى بعمله ما عنده ، نؤته منها ، يقول : نعطه منها ، يعنى : من الدنيا ، يعنى : أنه يعطيه منها ماقُسم له فيها من رزق أيام حياته ، ثم لانصيب له فى كرامة الله ، التى أعدّها لمن أطاعه ، وطلب ماعنده فى الآخرة . ومن يرد ثواب الآخرة : يقول : ومن يرد منكم بعمله جزاء منه ثواب الآخرة ، يعنى ما عند الله من كرامته التى أعدّها للعاملين له فى الآخرة ، نؤته منها ، يقول : نعطه منها ، يعنى من الآخرة ، والمعنى : من كرامة الله التى خصّ بها أهل طاعته فى الآخرة ، فخرج الكلام على الدنيا والآخرة ، والمعنى ما فيهما .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ، وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا) : أى فمن كان منكم يريد الدنيا ، ليست له رغبة فى الآخرة ،

نؤته ما قسم له منها من رزق ، ولا حظّ له فى الآخرة . ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ما وعده ، مع ما يجرى عليه من رزقه فى دنياه .

وأما قوله : (وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ) : يقول : وسأثيب من شكر لى ما أوليته من إحسانى إليه بطاعته إياى ، وانتهائه إلى أمرى ، وتجنبه محارمى فى الآخرة ، مثل الذى وعدت أوليائى من الكرامة على شكرهم إياى .

وقال ابن إسحاق فى ذلك بما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ) : أى ذلك جزاء الشاكرين ، يعنى بذلك : إعطاء الله إياه ما وعده فى الآخرة ، مع ما يجرى عليه من الرزق فى الدنيا .

القول فى تأويل قوله

وَكَأَيِّنْ مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ، فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ، وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ، وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٤٦)

اختلفت القراء فى قراءة ذلك ، فقرأه بعضهم : وكأيّن بهمز الألف ، وتشديد الياء ، وقرأه آخرون : بمدّ الألف وتخفيف الياء . وهما قراءتان مشهورتان فى قراءة المسلمين ، ولغتان معروفتان لا اختلاف فى معناهما ، فبأىّ القراءتين قرأ ذلك قارئ فمصيب ، لاتفاق معنى ذلك ، وشهرتهما فى كلام العرب ، ومعناه : وكم من نبىّ .

القول فى تأويل قوله (قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ) :

اختلفت القراء فى قراءة قوله (قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ) ، فقرأ ذلك جماعة من قراء الحجاز والبصرة «قُتِلَ» بضم القاف ، وقرأه جماعة أخرى ، بفتح القاف وبالألف ، وهى قراءة جماعة من قراء الحجاز والكوفة ، فأما من قرأ : قاتل ، فإنه اختار ذلك لأنه قال : لو قُتلوا لم يكن لقوله (فَمَا وَهَنُوا) وجه معروف ، لأنه يستحيل أن يوصفوا بأنهم لم يهنوا ولم يضعفوا بعد ما قتلوا ، وأما الذين قرءوا ذلك : قُتِلَ ، فإنهم قالوا : إنما عنى بالقتل النبىّ ، وبعض من معه من الرِّبِّيين دون جميعهم ، وإنما نفى الوهن والضعف عمن بقى من الربيين ممن لم يُقتل .

وأولى القراءتين فى ذلك عندنا بالصواب : قراءة من قرأ بضمّ القاف (قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ) : لأن الله عزّ وجلّ إنما عاتب بهذه الآية ، والآيات التى قبلها : من قوله (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ) : الذين انهزموا يوم أُحد ، وتركوا القتال ، أو سمعوا الصائح يصيح : إن محمدا قد قُتل ، فعذلهم الله عزّ وجلّ على فرارهم وتركهم القتال ، فقال : أفائن مات محمد أو قُتل أيها المؤمنون ارتددتم عن دينكم ، وانقلبتم على أعقابكم ، ثم أخبرهم عما كان من فعل كثير من أتباع الأنبياء قبلهم ، وقال لهم : هلا فعلتم كما كان أهل الفضل والعلم من أتباع الأنبياء قبلكم يفعلونه إذا قُتل نبيهم : من المضىّ على منهاج نبيهم ، والقتال على دينه أعداء دين الله ، على نحو ما كانوا يقاتلون مع نبيهم

ولم تهنوا ولم تضعفوا ، كما لم يضعف الذين كانوا قبلكم من أهل العلم والبصائر ، من أتباع الأنبياء إذا قُتل نبيهم ، ولكنهم صبروا لأعدائهم ، حتى حكم الله بينهم وبينهم ، وبذلك من التأويل جاء تأويل المتأوِّل .

وأما الرِّبِّيُّون ، فإنهم مرفوعون بقوله : « معه » لابقوله : « قُتل » .

وإنما تأويل الكلام : وكائِنْ من نبيّ قُتل ومعه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وفى الكلام إضمار واو ، لأنها واو تدلّ على معنى حال قتل النبيّ صلى الله عليه وسلم ، غير أنه اجتزأ بدلالة ماذكر من الكلام عليها من ذكرها ، وذلك كقول القائل فى الكلام : قتل الأمير معه جيش عظيم ، بمعنى : قتل ، ومعه جيش عظيم .

وأما الرِّبِّيُّون ، فإن أهل العربية اختلفوا فى معناه ، فقال بعض نحويِّى البصرة : هم الذين يعبدون الربّ ، واحدهم رِبِّىّ . وقال بعض نحويّى الكوفة : لو كانوا منسوبين إلى عبادة الربّ ، لكانوا رَبيون ، بفتح الراء ، ولكنه العلماء والألوف ، والرِّبيون عندنا : الجماعة الكثيرة ، واحدهم رِبِّىّ ، وهم جماعة .

واختلف أهل التأويل فى معناه ، فقال بعضهم مثل ما قلنا .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن عاصم ، عن زرّ ، عن عبد الله : الربيون : الألوف .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو نعيم ، قال : ثنا سفيان ، عن الثورىّ ، عن عاصم ، عن زرّ ، عن عبد الله ، مثله .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا الثورىّ وابن عيينة ، عن عاصم بن أبى النَّجود ، عن زرّ بن حبيش ، عن عبد الله ، مثله .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا حكام ، قال : ثنا عمرو بن عاصم ، عن زر ، عن عبد الله ، مثله .

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا عوف عمن حدثه ، عن ابن عباس فى قوله (رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ) قال : جموع كثيرة .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قوله (قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ) قال : جموع .

حدثنى حميد بن مسعدة ، قال : ثنا بشر بن المفضل ، قال : ثنا شعبة ، عن عاصم ، عن زرّ ، عن عبد الله (وكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ) قال : الألوف .

وقال آخرون بما حدثنى به سليمان بن عبد الجبار ، قال : ثنا محمد بن الصَّلْت ، قال : ثنا أبو كدينة ، عن عطاء ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (وكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ) قال : علماء كثير .

حدثني يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا عوف ، عن الحسن في قوله (وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ) قال : فقهاء علماء .

حدثني يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا ابن علية ، عن أبي رجاء ، عن الحسن ، في قوله (وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ) قال : الجموع الكثيرة . قال يعقوب : وكذلك قرأها إسماعيل (قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ) .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ) يقول : جموع كثيرة .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن الحسن في قوله (قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ) قال : علماء كثيرة . وقال قتادة : جموع كثيرة .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا ابن عيينة ، عن عمرو ، عن عكرمة في قوله (رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ) قال : جموع كثيرة .

حدثني عمرو بن عبد الحميد الآملي ، قال : ثنا سفيان ، عن عمرو ، عن عكرمة ، مثله .

حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد في قول الله عزّ وجلّ (قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ) قال : جموع كثيرة .

حدثني المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حُدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ) يقول : جموع كثيرة .

حدثني المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك في قوله (وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ) يقول : جموع كثيرة ، قتل نبيهم .

حدثني المثنى ، قال : ثنا سويد بن نصر ، قال : أخبرنا ابن المبارك ، عن جعفر بن حيان ، والمبارك عن الحسن في قوله (وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ) قال جعفر : علماء صبروا . وقال ابن المبارك : أتقياء صبروا .

حُدثت عن الحسين بن الفرج ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد بن سليمان ، قال : سمعت الضحاك يقول في قوله (قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ) : يعني الجموع الكثيرة ، قُتل نبيهم .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد ، قال : ثنا أسباط ، عن السديّ (قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ) يقول : جموع كثيرة .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قوله (وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ) قال : وكأين من نبيّ أصابه القتل ، ومعه جماعات .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس (وكأيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ) الربيون : الجموع الكثيرة .

وقال آخرون : الربيون : الأتباع .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (وكأيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ) قال: الربيون : الأتباع ، والربانيون : الوُلاة ، والرِّبيون: الرعية ، وبهذا عاتبهم الله حين انهزموا عنه ، حين صاح الشيطان: إن محمدا قد قتل ، قال : كانت الهزيمة عند صياحه فى سنيئة صاح : أيها الناس إن محمدا رسول الله قد قتل ، فارجعوا إلى عشائركم يؤمنوكم .

القول فى تأويل قوله (فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا، وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) :

يعنى بقوله تعالى ذكره (فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ) فما عجزوا لما نالهم من ألم الجراح الذى نالهم فى سبيل الله ، ولا لقتل من قتل منهم عن حرب أعداء الله ، ولا نكَلوا عن جهادهم ، وما ضعفوا يقول : وما ضعفت قواهم لقتل نبيهم (وَمَا اسْتَكَانُوا) يعنى : وما ذلوا فيتخشعوا لعدوّهم بالدخول فى دينهم ، ومداهنتهم فيه ، خيفة منهم ، ولكن مضَوا قدُما على بصائرهم ، ومنهاج نبيهم ، صُبرا على أمر الله وأمر نبيهم وطاعة الله ، واتباعا لتنزيله ووحيه . (وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) يقول: والله يحبّ هؤلاء وأمثالهم من الصابرين لأمره وطاعته ، وطاعة رسوله ، فى جهاد عدوّه ، لامَن فَشِل ففرّ عن عدوّه ، ولا من انقلب على عقبيه ، فذلّ لعدوّه ، لأنْ قُتل نبيه أو مات ، ولا من دخله وَهْن عن عدوّه ، وضعف لفقد نبيه .

وبنحو ما قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا) يقول : ماعجزوا ، وما تضعضعوا لقتل نبيهم ، وما استكانوا . يقول : ما ارتدّوا عن نصرتهم ، ولا عن دينهم ، بل قاتلوا على ما قاتل عليه نبيّ الله ، حتى لحقوا بالله .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع فى قوله (فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا): يقول : ما عجزوا ، وما ضعفوا لقتل نبيهم ، وما استكانوا ، يقول : وما ارتدّوا عن نصرتهم ، قاتلوا على ما قاتل عليه نبيّ الله صلى الله عليه وسلم ، حتى لحقوا بالله .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (فَمَا وَهَنُوا) : فما وهن الربيون لما أصابهم فى سبيل الله ، من قتل النبيّ صلى الله عليه وسلم . (وَمَا ضَعُفُوا): يقول: ماضعفوا

فى سبيل الله ، لقتل النبىّ (وَمَا اسْتَكَانُوا) يقول : ماذلوا حين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اللّهُمّ لَيْسَ لَهُمْ أنْ يَعْلُونا ، (وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وأنْتُمْ الأعْلَوْنَ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)» .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (فَمَا وَهَنُوا) لفقد نبيهم (وَمَا ضَعُفُوا) عن عدوّهم (وَمَا اسْتَكَانُوا) لما أصابهم فى الجهاد عن الله ، وعن دينهم ، وذلك الصبر (وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس : (وَمَا اسْتَكَانُوا) قال : تخشعوا .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد (وَمَا اسْتَكَانُوا) قال : ما استكانوا لعدوّهم (وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) .

القول فى تأويل قوله

وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا : رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ، وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا ، وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ، وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَٰفِرِينَ . (١٤٧)

يعنى تعالى ذكره بقوله (وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ) : وما كان قول الرِّبيين ، والهاء والميم من ذكر أسماء الربيين ، إلا أن قالوا : يعنى ماكان لهم قول سوى هذا القول ، إذ قُتل نبيهم ، وقوله (رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا) يقول : لم يعتصموا إذ قتل نبيهم إلا بالصبر على ما أصابهم ، ومجاهدة عدوّهم ، وبمسئلة ربهم المغفرة والنصر على عدوّهم .

ومعنى الكلام : (وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إلاَّ أنْ قالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا) . وأما الإسراف : فإنه الإفراط فى الشىء ، يقال منه : أسرف فلان فى هذا الأمر : إذا تجاوز مقداره فأفرط ، ومعناه ههنا : اغفر لنا ذنوبنا الصغار منها ، وما أسرفنا فيه منها ، فتخطينا إلى العظام ، وكان معنى الكلام : اغفر لنا ذنوبنا : الصغائر منها والكبائر .

كما حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس فى قول الله (وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا) قال : خطايانا .

حدثنى المثنى ، قال ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا) : خطايانا وظلمنا أنفسنا .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ ، قال : أخبرنا عبيد بن سليمان ، قال : سمعت الضحاك فى قوله (وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا) يعنى : الخطايا الكبار .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا أبو تُمَيلة ، عن عبيد بن سليمان ، عن الضحاك بن مزاحم ، قال : الكبائر .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس : (وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا) قال : خطايانا .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا) يقول : خطايانا .

وأما قوله (وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا) : فإنه يقول : اجعلنا ممن يثبت لحرب عدوك وقتالهم ، ولا تجعلنا ممن ينهزم فيفرّ منهم ، ولا يثبت قدمه فى مكان واحد لحربهم . (وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) يقول : وانصرنا على الذين جحدوا وحدانيتك ، ونبوّة نبيك ، وإنما هذا تأنيب من الله عزّ وجلّ عباده الذين فرّوا عن العدوّ يوم أحد ، وتركوا قتالهم ، وتأديب لهم ، يقول الله عزّ وجلّ : هلا فعلتم إذ قيل لكم : قُتل نبيكم ، كما فعل هؤلاء الرِّبِّيون ، الذين كانوا قبلكم من أتباع الأنبياء ، إذ قُتلت أنبياؤهم ، فصبرتم لعدوكم صبرهم ، ولم تضعفوا وتستكينوا لعدوّكم ، فتحاولوا الارتداد على أعقابكم ، كما لم يضعف هؤلاء الربيون ، ولم يستكينوا لعدوّهم ، وسألتم ربكم النصر والظفر كما سألوا ، فينصركم الله عليهم كما نصروا ، فإن الله يحبّ من صبر لأمره ، وعلى جهاد عدوّه ، فيعطيه النصر والظفر على عدوّه .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا : رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ، وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ، وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ، وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) : أى فقولوا كما قالوا ، واعلموا أنما ذلك بذنوب منكم ، واستغفروا كما استغفروا ، وامضوا على دينكم ، كما مضوا على دينهم ، ولا ترتدّوا على أعقابكم راجعين ، واسألوه كما سألوه أن يثبت أقدامكم ، واستنصروه كما استنصروه على القوم الكافرين ، فكل هذا من قولهم قد كان ، وقد قتل نبيهم ، فلم يفعلوا كما فعلتم .

والقراءة التى هى القراءة فى قوله (وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ) : النصب ، لإجماع قراء الأمصار على ذلك ، نقلا مستفيضا ، ووراثة عن الحجة ، وإنما اختير النصب فى القول ، لأن «إلا أن» لاتكون إلا معرفة ، فكانت أولى بأن تكون هى الاسم دون الأسماء التى قد تكون معرفة أحيانا ونكرة أحيانا ، ولذلك اختير النصب فى كل اسم ولىَ كان إذا كان بعده أنَ الخفيفة ، كقوله (وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا : اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ) ، وقوله (ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا) . فأما إذا كان الذى يلى كان اسما معرفة ، والذى بعده مثله ، فسواء الرفع والنصب فى الذى ولى كان ، فإن جعلت الذى ولى كان هو الاسم رفعته ، ونصبت الذى بعده ، وإن جعلت الذى ولى كان هو الخبر نصبته ، ورفعت الذى بعده ، وذلك كقوله جلّ ثناؤه (ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى) إن جعلت «العاقبة» الاسم رفعتها ، وجعلت السوآى هى الخبر منصوبة ، وإن جعلت «العاقبة» الخبر نصبت ، فقلت : وكان عاقبة الذين أساءوا السوآى ، وجعلت السوآى هى الاسم ، فكانت مرفوعة ، وكما قال الشاعر :

لقدْ علِمَ الأقوامُ ما كانَ داءَها ... بثهلان إلا الخزْىُ ممَّنْ يقودُها(١)

(١) البيت أورده المؤلف غفلا ولم ينسبه ، ويجوز فى داءها الرفع والنصب ، وكذا فيما بعد إلا ، على ما وجهه المؤلف المحقق .

ورُوى أيضا : ما كان داؤها بثهلان إلا الخزىَ ، نصبا ورفعا، على ما قد بينت . ولو فعل مثل ذلك مع «أن» كان جائزا . غير أن أفصح الكلام ماوصفت عند العرب

القول فى تأويل قوله

﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا، وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨)﴾

يعنى بذلك تعالى ذكره : فأعطى الله الذين وصفهم بما وصفهم ، من الصبر على طاعة الله بعد مقتل أنبيائهم ، وعلى جهاد عدوّهم ، والاستعانة بالله فى أمورهم ، واقتفائهم مناهج إمامهم ، على ما أَبْلَوْا فى الله ثواب الدنيا ، يعنى : جزاء فى الدنيا ، وذلك النصر على عدوّهم ، وعدوّ الله ، والظفر والفتح عليهم ، والتمكين لهم فى البلاد . (وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ) يعنى : وخير جزاء الآخرة ، على ما أسلفوا فى الدنيا من أعمالهم الصالحة ، وذلك الجنة ونعيمها .

كما حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا: رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا)، فقرأ حتى بلغ (وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ): أى والله لآتاهم الله الفتح والظهور والتمكين ، والنصر على عدوّهم فى الدنيا (وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ) يقول : حسن الثواب فى الآخرة : هى الجنة .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قوله (وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ) ، ثم ذكر نحوه .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، فى قوله (فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا) قال : النصر والغنيمة (وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ) قال : رضوان الله ورحمته .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا) : حسن الظهور على عدوّهم (وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ): الجنة ، وما أعدّ فيها، وقوله (وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) : يقول تعالى ذكره : فعل الله ذلك بإحسانهم ، فإنه يحب المحسنين ، وهمُ الذين يفعلون مثل الذى وصف عنهم تعالى ذكره ، أنهم فعلوه حين قُتل نبيهم .

القول فى تأويل قوله

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ، فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩)﴾

يعنى بذلك تعالى ذكره: يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله، فى وعد الله ووعيده وأمره ونهيه، إن تطيعوا الذين كفروا ، يعنى : الذين جحدوا نبوّة نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى ، فيما يأمرونكم به ، وفيما ينهونكم عنه ، فتقبلوا رأيهم فى ذلك ، وتنتصحوهم فيما تزعمون أنهم لكم فيه ناصحون .

(يَرُدُّوكُمْ على أعْقابِكُمْ) يقول : يحملوكم على الردّة بعد الإيمان ، والكفر بالله وآياته وبرسوله بعد الإسلام (فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ) يقول : فترجعوا عن إيمانكم ودينكم الذى هداكم الله له خاسرين ، يعنى : هالكين ، قد خسرتم أنفسكم ، وضَلَلْتم عن دينكم ، وذهبت دنياكم وآخرتكم . ينهى بذلك أهل الإيمان بالله أن يطيعوا أهل الكفر فى آرائهم ، وينتصحوهم فى أديانهم .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ على أعْقابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ) : أى عن دينكم ، فتذهب دنياكم وآخرتكم .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قوله (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا) قال ابن جريج : يقول : لاتنتصحوا اليهود والنصارى على دينكم ، ولا تصدّقوهم بشىء فى دينكم .

حدثنا محمد ، قال : ثنا أحمد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ على أعْقابِكُمْ ، فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ) يقول : إن تطيعوا أبا سفيان يردُّوكم كفارا .

القول فى تأويل قوله جلّ ثناؤه

بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَـٰكُمْ ، وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ (١٥٠)

يعنى بذلك تعالى ذكره : أن الله مسدّدكم أيها المؤمنون ، فمنقذكم من طاعة الذين كفروا .
وإنما قيل (بَلِ اللهُ مَوْلاكُمْ) لأن قوله (إنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ على أعْقابِكُمْ) نَهْىٌ لهم عن طاعتهم ، فكأنه قال : يا أيها الذين آمنوا لا تطيعوا الذين كفروا ، فيردّوكم على أعقابكم . ثم ابتدأ الخبر ، فقال : (بَلِ اللهُ مَوْلاكُمْ) ، فأطيعوه دون الذين كفروا ، فهو خير من نصر ، ولذلك رفع اسم الله ، ولو كان منصوبا على معنى : بل أطيعوا الله مولاكم دون الذين كفروا ، كان وجها صحيحا .
ويعنى بقوله (بَلِ اللهُ مَوْلاكُمْ) : وليكم وناصركم على أعدائكم الذين كفروا (وَهُوَ خَيْرُ النّاصِرِينَ) . لامَن فررتم إليه من اليهود وأهل الكفر بالله ، فبالله الذى هو ناصركم ومولاكم فاعتصموا ، وإياه فاستنصروا دون غيره ممن يبغيكم الغوائل ، ويرصدكم بالمكاره .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (بَلِ اللهُ مَوْلاكُمْ) إن كان ما تقولون بألسنتكم صدقا فى قلوبكم (وَهُوَ خَيْرُ النّاصِرِينَ) : أى فاعتصموا به ، ولا تستنصروا بغيره ، ولاترجعوا على أعقابكم مرتدّين عن دينكم .

القول فى تأويل قوله

سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ، وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ، وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ (١٥١)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : سيُلقى الله أيها المؤمنون، فى قلوب الذين كفروا بربهم ، وجحدوا نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، ممن حاربكم بأُحد، الرعبَ، وهو الجزَع والهلَع ، بما أشركوا بالله، يعنى بشركهم بالله وعبادتهم الأصنام ، وطاعتهم الشيطان، التى لم أجعل لهم بها حجة ،وهى السلطان التى أخبر عزّ وجلّ أنه لم يُنزله بكفرهم وشركهم، وهذا وعد من الله جلّ ثناؤه أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، بالنصر على أعدائهم ، والفَلَج عليهم ما استقاموا على عهده ، وتمسكوا بطاعته ، ثم أخبرهم ما هو فاعل بأعدائهم بعد مصيرهم إليه . فقال جلّ ثناؤه (وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ) يعنى : ومرجعهم الذى يرجعون إليه يوم القيامة النار . (وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ) يقول : وبئس مقام الظالمين الذين ظلموا أنفسهم باكتسابهم ما أوجب لها عقاب الله النار .

كما حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق (سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً ، وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ) : إنى سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب الذى به كنت أنصركم عليهم ، بما أشركوا بى ، ما لم أجعل لهم به حجة ، أى فلا تظنوا أن لهم عاقبة نصر ، ولا ظهور عليكم ، ما اعتصمتم واتبعتم أمرى ، للمصيبة التى أصابتكم منهم ، بذنوب قدّمتموها لأنفسكم ، خالفتم بها أمرى ، وعصيتم فيها نبىّ الله صلى الله عليه وسلم .

حدثنى محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، قال : لما ارتحل أبوسفيان والمشركون يوم أُحد متوجهين نحو مكة ، انطلق أبو سفيان حتى بلغ بعض الطريق ، ثم إنهم ندموا فقالوا: بئس ما صنعتم، إنكم قتلتموهم ، حتى إذا لم يبق إلا الشرّيد تركتموهم ، ارجعوا فاستأصلوهم ، فقذف الله عزّ وجلّ فى قلوبهم الرعب ، فانهزموا ، فلقُوا أعرابيا ، فجعلوا له جُعْلا ، وقالوا له : إن لقيت محمدا فأخبره بما قد جمعنا لهم ، فأخبر الله عزّ وجلّ رسوله صلى الله عليه وسلم . فطلبهم حتى بلغ حمراء الأسد ، فأنزل الله عزّ وجلّ فى ذلك ، فذكر أبا سفيان حين أراد أن يرجع إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وماقذف فى قلبه من الرعب ، فقال (سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ) .

القول فى تأويل قوله

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ، حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى الْأَمْرِ ، وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَآ أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ، مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ، ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ، وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ، وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢)

يعنى بقوله تعالى ذكره: ولقد صدقكم الله أيها المؤمنون من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بأُحد، وعده الذى وعدهم على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، والوعد الذى كان وعدهم على لسانه بأُحد

قوله للرُّماة : « اثْبُتُوا مَكانَكُمْ وَلا تَبْرَحُوا وَإنْ رأيْتُمُونَا قدْ هَزَمْنَاهُمْ ، فإنَّا لَنْ نَزَالَ غالبِينَ ما ثَبَتُّمْ مَكانَكُمْ » . وكان وعدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم النصر يومئذ إن انتهوا إلى أمره .

كالذى حدثنا محمد ، قال : ثنا أحمد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، قال : لما برز رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين بأُحد ، أمر الرّماة ، فقاموا بأصل الجبل فى وجوه خيل المشركين ، وقال : «لا تَبْرَحُوا مَكانَكُمْ إنْ رأيْتُمُونا قَدْ هَزَمْناهُمْ ، فإنَّا لَنْ نَزَالَ غالِبِينَ ماثَبَتُّمْ مَكانَكُمْ » ، وأمّر عليهم عبد الله بن جبير أخا خوّات بن جبير ، ثم إن طلحة بن عثمان صاحب لواء المشركين ، قام فقال : يامعشر أصحاب محمد ، إنكم تزعمون أن الله يعجلنا بسيوفكم إلى النار ، ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنة ، فهل منكم أحد يعجله الله بسيفى إلى الجنة ، أو يعجلنى بسيفه إلى النار ؟ فقام إليه علىّ بن أبى طالب ، فقال : والذى نفسى بيده ، لا أفارقك حتى يعجلك الله بسيفى إلى النار ، أو يعجلنى بسيفك إلى الجنة ، فضربه علىّ ، فقطع رجله فسقط ، فانكشفت عورته ، فقال : أنشدك الله والرحم يا بن عم ، فتركه ، فكبّر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال لعلىّ أصحابُه : مامنعك أن تُجهز عليه ؟ قال : إن ابن عمى ناشدنى حين انكشفت عورته ، فاستحييت منه ، ثم شدّ الزبير بن العوّام والمقداد بن الأسود على المشركين ، فهزماهم ، وحمل النبىّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فهزموا أبا سفيان ، فلما رأى ذلك خالد بن الوليد ، وهو على خيل المشركين حمل ، فرمته الرماة ، فانقمع ؛ فلما نظر الرماة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى جوف عسكر المشركين ينتهبونه ، بادروا الغنيمة ، فقال بعضهم : لا نترك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانطلق عامتهم ، فلحقوا بالعسكر ؛ فلما رأى خالد قلة الرماة ، صاح فى خيله ، ثم حمل فقتل الرماة ، ثم حمل على أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ فلما رأى المشركون أن خيلهم تقاتل ، تنادوا ، فشدّوا على المسلمين ، فهزموهم وقتلوهم .

حدثنا هارون بن إسحاق ، قال : ثنا مصعب بن المقدام ، قال : ثنا إسرائيل ، قال : ثنا أبو إسحاق ، عن البَراء ، قال : لما كان يوم أُحد ، ولقينا المشركين ، أجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم رجالا بإزاء الرماة ، وأمّر عليهم عبد الله بن جبير أخا خوّات بن جبير ، وقال لهم : «لا تَبْرَحُوا مَكانَكُمْ ؛ إنْ رأيْتُمُونا ظَهَرْنا عَلَيْهِمْ فَلا تَبْرَحُوا ، وَإنْ رأيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنا فَلا تُعِينُونا » فلما التقى القوم ، هُزِم المشركون ، حتى رأيت النساء قد رفعن عن سُوقهن ، وبدت خلاخلهن ، فجعلوا يقولون : الغنيمة الغنيمة ، قال عبد الله : مَهْلا ، أما علمتم ما عهد إليكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأبَوا ، فانطلقوا ، فلما أتوهم صرف الله وجوههم ، فأصيب من المسلمين سبعون قتيلا .

حدثنا سفيان بن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن البَراء ، بنحوه .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس قوله (وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إذْ تَحُسُّونَهُمْ بإذْنِهِ) ، فإن أباسفيان أقبل فى ثلاث ليال خلون من شوّال ، حتى نزل أحدا ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأذّن فى الناس ، فاجتمعوا ، وأمّر

على الخيل الزبير بن العوّام ، ومعه يومئذ المقداد بن الأسود الكندىّ ، وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم اللواء رجلا من قريش ، يقال له مُصعب بن عُمير ، وخرج حمزة بن عبد المطلب بالحسر ، وبعث حمزة بين يديه ، وأقبل خالد بن الوليد على خيل المشركين ، ومعه عكرمة بن أبى جهل ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبير ، وقال : استقبل خالد بن الوليد ، فكن بإزائه حتى أوذنك ، وأمر بخيل أخرى ، فكانوا من جانب آخر ، فقال : لاتبرحوا حتى أُوذنكم ، وأقبل أبو سفيان يحمل اللات والعزّى ، فأرسل النبىّ صلى الله عليه وسلم إلى الزبير أن يحمل ، فحمل على خالد بن الوليد ، فهزمه ومن معه ، كما قال (لَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ، حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِى الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ) . وإن الله وعد المؤمنين أن ينصرهم ، وأنه معهم .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قال : ثنى محمد بن مسلم بن عبيد الله الزهرىّ ، أن محمد بن يحيى بن حبان ، وعاصم بن عمر بن قتادة ، والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو ، بن سعد بن معاذ ، وغيرهم من علمائنا فى قصة ذكرها عن أُحد ، ذكر أن كلهم قد حدّث ببعضها ، وأن حديثهم اجتمع فيما ساق من الحديث ، فكان فيما ذكر فى ذلك : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل الشِّعب من أُحد فى عدوة الوادى إلى الجبل ، فجعل ظهره وعسكره إلى أُحد ، وقال : لاتقاتلوا حتى نأمر بالقتال ، وقد سرحت قريش الظهر والكُراع فى زروع كانت بالصمغة من قناة للمسلمين ، فقال رجل من الأنصار حين نُهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القتال : أتُرعى زروع بنى قَيْلة ولما تضارب ، وصفّنا رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتال ، وهو فى سبعمائة رجل ، وتصافّ قريش ، وهم ثلاثة آلاف ، ومعهم مائتا فرس قد جَنَبوها ، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد ، وعلى ميسرتها عكرمة بن أبى جهل ، وأمّر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على الرماة عبد الله بن جبير ، أخا بنى عمرو بن عوف ، وهو يومئذ معلَم بثياب بيض ، والرماة خمسون رجلا ، وقال : انضح عنا الخيل بالنبل ، لايأتونا من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك ، لانؤتَيَنّ من قِبلك ، فلما التقى الناس ، ودنا بعضهم من بعض ، واقتتلوا حتى حميت الحرب ، وقاتل أبو دُجانة حتى أمعن فى الناس ، وحمزة بن عبد المطلب ، وعلىّ بن أبى طالب فى رجال من المسلمين ، فأنزل الله عزّ وجلّ نصره ، وصدَقهم وعده ، فحسّوهم بالسيوف حتى كشفوهم ، وكانت الهزيمة لاشك فيها .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن محمد بن إسحاق ، عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير ، عن أبيه ، عن جده ، قال : قال الزبير : والله لقد رأيتنى أنظر إلى خَدَم[1] هند بنة عتبة وصواحبها ، مشمرات هوازم ، مادون إحداهن قليل ولا كثير ، إذ مالت الرماة إلى العسكر حين كشفنا القوم عنه ، يريدون النهب ، وخلّوا ظهورنا للخيل ، فأُتينا من أدبارنا ، وصرخ صارخ : ألا إن محمدا قد قُتل ، فانكفأنا ، وانكفأ علينا القوم ، بعد أن هزمنا أصحاب اللواء ، حتى ما يدنو منه أحد من القوم .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق فى قوله (وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ) : أى لقد وفيت لكم بما وعدتكم من النصر على عدوكم .

(١) الخدم : جمع خدمة ، وهى الخلخال ، وقد تسمى الساق خدمة حملا على الخلخال ، لكونها فى موضعه ، والجمع : خدم وخدام .

حُدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قوله (وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ) ، وذلك يوم أُحد ، قال لهم : « إنَّكُمْ سَتَظْهَرُونَ ، فَلَا تَأْخُذُوا ما أَصَبْتُمْ مِنْ غَنائِمِهِم شَيْئًا حَتَّى تَفْرُغُوا » ، فتركوا أمر نبىّ الله صلى الله عليه وسلم ، وعَصَوا ، ووقعوا فى الغنائم ، ونَسُوا عهده الذى عهده إليهم ، وخالفوا إلى غير ما أمرهم به .

القول فى تأويل قوله (إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ) :

يعنى تعالى ذكره بذلك : ولقد وفى الله لكم أيها المؤمنون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بما وعدكم من النصر ، على عدوكم بأُحد ، حين تَحُسُّونهم ، يعنى : حين تقتلونهم ، يقال منه : حسه يَحُسُّه حَسًّا : إذا قتله .

كما حدثنى محمد بن عبد الله بن سعيد الواسطى ، قال : ثنا يعقوب بن عيسى ، قال : ثنى عبد العزيز ابن عمران بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن عوف ، عن محمد بن عبد العزيز ، عن الزهرىّ ، عن عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة ، عن أبيه ، عن عبد الرحمن بن عوف ، فى قوله (إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ) : قال : الحسّ : القتل .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنا ابن أبى الزناد ، عن أبيه ، قال : سمعت عبيد الله بن عبد الله يقول فى قول الله عزّ وجلّ (إِذْ تَحُسُّونَهُمْ) قال : القتل .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ) قال : تقتلونهم .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ) أى قتلا بإذنه .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (إِذْ تَحُسُّونَهُمْ) يقول : إذ تقتلونهم .

حُدثت عن عمار ، عن ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ) والحسّ : القتل

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ) يقول : تقتلونهم .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (إِذْ تَحُسُّونَهُمْ) بالسيوف : أى بالقتل .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن مبارك ، عن الحسن ، (إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ) يعنى : القتل .

حدثنى علىّ بن داود ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، قوله (إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ) يقول : تقتلونهم .

وأما قوله (بِإِذْنِهِ) فإنه يعنى : بحكمى وقضائى لكم بذلك ، وتسليطى إياكم عليهم .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (إِذْ تَحُسُّونَهُمْ) بإذنى وتسليطى أيديكم عليهم ، وكفِّى أيديَهم عنكم .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه (حتى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِى الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما أَرَاكُمْ ما تُحِبُّونَ) :

يعنى بقوله جل ثناؤه (حتى إِذَا فَشِلْتُمْ) : حتى إذا جبنتم وضعفتم . (وَتَنَازَعْتُمْ فِى الأَمْرِ) يقول : واختلفتم فى أمر الله ، يقول : وعصيتم وخالفتم نبيكم ، فتركتم أمره ، وما عهد إليكم . وإنما يعنى بذلك الرّماة الذين كان أمرهم صلى الله عليه وسلم بلزوم مركزهم ومقعدهم من فم الشِّعب بأُحد ، بإزاء خالد بن الوليد ، ومن كان معه من فرسان المشركين الذين ذكرنا قبلُ أمرهم .

وأما قوله (مِنْ بَعْدِ ما أَرَاكُمْ ما تُحِبُّونَ) : فإنه يعنى بذلك : من بعد الذى أراكم الله أيها المؤمنون بمحمد : من النصر والظفر بالمشركين ، وذلك هو الهزيمة التى كانوا هزموهم عن نسائهم وأموالهم ، قبل ترك الرماة مقاعدهم ، التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أقعدهم فيها ، وقبل خروج خيل المشركين على المؤمنين من ورائهم .

وبنحو الذى قلنا تظاهرت الأخبار عن أهل التأويل ، وقد مضى ذكر بعض من قال ، وسنذكر قول بعض من لم يُذكر قوله فيما مضى .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (حتى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِى الأَمْرِ) أى اختلفتم فى الأمر (وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما أَرَاكُمْ ما تُحِبُّونَ) وذاكم يوم أُحد ، عهد إليهم نبىّ الله صلى الله عليه وسلم ، وأمرهم بأمر ، فنسُوا العهد ، وجاوزوا وخالفوا ما أمرهم نبىّ الله صلى الله عليه وسلم ، فانصرف عليهم عدوّهم ، بعد ما أراهم من عدوّهم ما يحبون .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعث ناسا من الناس ، يعنى : يوم أُحد ، فكانوا من ورائهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كُونُوا هَهُنَا ، فَرُدُّوا وَجْهَ مَنْ قَدِمَنَا ، وكُونُوا حَرَساً لَنَا مِنْ قِبَلِ ظُهُورِنا » ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هزم القوم هو وأصحابه ، اختلف الذين كانوا جعلوا من ورائهم ، فقال بعضهم لبعض ، لما رأوا النساء مصعدات فى الجبل ، ورأوا الغنائم ، قالوا : انطلقوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأدركوا الغنيمة قبل أن تسبقوا إليها . وقالت طائفة أخرى : بل نطيع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنثبت مكاننا . فذلك قوله (مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا) للذين أرادوا الغنيمة (وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ) للذين قالوا : نطيع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونثبت مكاننا ، فأتوا محمدا صلى الله عليه وسلم ، فكان فشلا حين تنازعوا بينهم ، يقول (وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما أَرَاكُمْ ما تُحِبُّونَ) : كانوا قد رأوا الفتح والغنيمة .

حُدثت عن عمار ، عن ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ) يقول : جبنتم عن عدوكم (وَتَنَازَعْتُمْ فِى الأَمْرِ) يقول : اختلفتم وعصيتم (مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ) وذلك يوم أُحد، قال لهم : إنكم ستظهرون فلا أعرفنّ ما أصبتم من غنائمهم شيئا ، حتى تفرغوا ، فتركوا أمر نبىّ الله صلى الله عليه وسلم وعصَوا ، ووقعوا فى الغنائم ، ونسُوا عهده الذى عهده إليهم ، وخالفوا إلى غير ما أمرهم به ، فانصرف عليهم عدوّهم من بعد ما أراهم فيهم ما يحبون .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج (حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ) قال ابن جريج : قال ابن عباس : الفَشَل : الُجبن .

حدثنا محمد ، قال : ثنا أحمد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِى الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ) : من الفتح .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ) : أى تخاذلتم (وَتَنَازَعْتُمْ فِى الأَمْرِ) أى اختلفتم فى أمرى (وَعَصَيْتُمْ) : أى تركتم أمر نبيكم صلى الله عليه وسلم ، وما عهد إليكم ، يعنى : الرماة (مِنْ بَعْدِمَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ) أى الفتح لاشكّ فيه ، وهزيمة القوم عن نسائهم وأموالهم .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن المبارك ، عن الحسن (مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ) يعنى : من الفتح . وقيل : معنى قوله (حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِى الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ) : حتى إذا تنازعتم فى الأمر فشلتم وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ، أنه من المقدّم الذى معناه التأخير ، وأن الواو دخلت فى ذلك ، ومعناها : السقوط كما قلنا فى (فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ) معناه : ناديناه ، وهذا مقول فى حتى إذا ، وفى لما ، ومنه قول الله عزّ وجلّ (حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ) ، ثم قال (وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ) ومعناه : اقترب ، وكما قال الشاعر :

حَتَّى إِذَا قَمِلَتْ بُطُونُكُمُ ... وَرَأَيْتُمُ أَبْنَاءَكُمْ شَبُّوا
وَقَلَبْتُمُ ظَهْرَ الْمِجَنِّ لَنَا ... إِنَّ اللَّئِيمَ العَاجِزُ الْخَبُّ[1]

القول فى تأويل قوله (مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ) :

يعنى جلّ ثناؤه بقوله (مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا) : الذين تركوا مقعدهم الذى أقعدهم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشعب من أُحد لخيل المشركين ، ولحقوا بمعسكر المسلمين ، طلب النهب ، إذ رأوا هزيمة المشركين (وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ) يعنى بذلك : الذين ثبتوا من الرماة فى مقاعدهم التى أقعدهم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واتبعوا أمره ، محافظة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابتغاء ما عند الله من الثواب بذلك من فعلهم ، والدار الآخرة .

كما حدثنا محمد ، قال : ثنا أحمد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا ،

---

(١) البيتان فى اللسان غير منسوبين إلى قائلهما (قمل) قال : وقمل القوم : كثروا ، قال . . . البيتين . الواو فى : وقلبتم زائدة ، وهو جواب إذا ، كما قال المؤلف . وقملت بطونكم : كثرت قبائلكم ، بهذا فسره أبو العالية . وقمل الرجل : سمن بعد هزال . وكلام المؤلف فى الآية من أول قوله حتى إلى آخر البيتين من كتاب معانى القرآن للفراء ، كما فى الصفحة ٧٢ من مصورة الجامعة رقم ٢٤٠٥٩ .

وَمِنكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ) فالذين انطلقوا يريدون الغنيمة ، هم أصحاب الدنيا . والذين بقوا وقالوا : لانخالف قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أرادوا الآخرة .

حدثني محمد بن سعد ، قال : ثني أبي ، قال : ثني عمي ، قال : ثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس مثله .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ ، قال : ثنا عبيد بن سليمان ، قال : سمعت الضحاك يقول في قوله (مِنكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا وَمِنكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ) فإن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم أمر يوم أُحد طائفة من المسلمين ، فقال : كونوا مَسْلَحَةً للناس ، بمنزلة أمرهم أن يثبتوا بها ، وأمَرَهم أن لايبرحوا مكانهم حتى يأذن لهم . فلما لقي نبيّ الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحد أبا سفيان ومن معه من المشركين ، هزمهم نبيّ الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأى المسلحةُ أن الله عزّ وجلّ هزم المشركين ، انطلق بعضهم وهم يتنادَوْن : الغنيمةَ الغنيمةَ لاتفتكم . وثبت بعضهم مكانهم ، وقالوا : لانَرِيم موضعنا حتى يأذن لنا نبيّ الله صلى الله عليه وسلم ، ففي ذلك نزل (مِنكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا ، وَمِنكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ) ، فكان ابن مسعود يقول : ماشعرت أن أحدا من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يريد الدنيا وعرضها حتى كان يوم أحد .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، قال : قال ابن جريج : قال ابن عباس : لما هزم الله المشركين يوم أُحد ، قال الرماة : أدركوا الناس ونبيّ الله صلى الله عليه وسلم ، لايسبقوكم إلى الغنائم ، فتكونَ لهم دونكم ؛ وقال بعضهم : لانَرِيم حتى يأذن لنا النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فنزلت (مِنكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا ، وَمِنكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ) قال ابن جريج : قال ابن مسعود : ماعلمنا أن أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يريد الدنيا وعرَضها حتى كان يومئذ .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن المبارك ، عن الحسن (مِنكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا) هؤلاء الذين يحوزون الغنائم (وَمِنكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ) الذين يتبعونهم يقتلونهم .

حدثنا الحسين بن عمرو بن محمد العنقزيّ ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السديّ عن عبد خير ، قال : قال عبد الله : ما كنت أرى أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الدنيا ، حتى نزل فينا يوم أُحد (مِنكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا ، وَمِنكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ) .

حدثنا محمد ، قال : ثنا أحمد ، قال : ثنا أسباط ، عن السديّ ، عن عبدخير ، قال : قال ابن مسعود : ما كنت أظن أن من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ أحدا يريد الدنيا ، حتى قال الله ما قال .

حدثت عن عمار ، عن ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قال : قال عبد الله بن مسعود لما رآهم وقعوا في الغنائم : ماكنت أحسب أن أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الدنيا ، حتى كان اليوم .

حدثني محمد بن سعد ، قال : ثني أبي ، قال : ثني عمي ، قال : ثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قال : كان ابن مسعود يقول : ما شعرت أن أحدا من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم ، كان يريد الدنيا وعرَضها ، حتى كان يومئذ .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا) أى الذين أرادوا النهب رغبة فى الدنيا ، وترك ما أمروا به من الطاعة التى عليها ثواب الآخرة (وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ) : أى الذين جاهدوا فى الله لم يخالفوا إلى ما نُهوا عنه ، لعرض من الدنيا ، رغبة فى رجاء ما عند الله من حسن ثوابه فى الآخرة .

القول فى تأويل قوله (ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ) :

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : ثم صرفكم أيها المؤمنون عن المشركين بعد ما أراكم ما تحبون فيهم ، وفى أنفسكم من هزيمتكم إياهم ، وظهوركم عليهم ، فردّ وجوهكم عنهم ، لمعصيتكم أمر رسولى ، ومخالفتكم طاعته ، وإيثاركم الدنيا على الآخرة ، عقوبة لكم على ما فعلتم . ليبتليكم : يقول : ليختبركم ، فيتميز المنافق منكم من المخلص الصادق فى إيمانه منكم .

كما حدثنا محمد ، قال : ثنا أحمد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، ثم ذكر حين مال عليهم خالد بن الوليد (ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ) .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن مبارك ، عن الحسن فى قوله (ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ) قال : صرف القوم عنهم ، فقُتل من المسلمين بعدّة من أسروا يوم بدر ، وقُتل عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكسرت رَباعيته ، وشُجّ فى وجهه ، وكان يمسح الدم عن وجهه ، ويقول « كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ فَعَلُوا هٰذَا بِنَبِيِّهِمْ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إلى رَبِّهِمْ ؟ » فنزلت (لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَىْءٌ) . . . الآية ، فقالوا : أليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدنا النصر ، فأنزل الله عزّ وجلّ (وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ) إلى قوله (ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ، وَلَقَدْ عَفا عَنْكُمْ) .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ) : أى صرفكم عنهم ليختبركم ، وذلك ببعض ذنوبكم .

القول فى تأويل قوله (وَلَقَدْ عَفا عَنْكُمْ ، وَاللهُ ذُو فَضْلٍ على المُؤْمِنِينَ) :

يعنى بقوله جلّ ثناؤه (وَلَقَدْ عَفا عَنْكُمْ) : ولقد عفا الله أيها المخالفون أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتاركون طاعته ، فيما تقدم إليكم من لزوم الموضع الذى أمركم بلزومه ، عنكم ، فصفح لكم من عقوبة ذنبكم الذى أتيتموه ، عما هو أعظم مما عاقبكم به ، من هزيمة أعدائكم إياكم ، وصرف وجوهكم عنهم ، إذ لم يستأصل جمعكم .

كما حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن مبارك ، عن الحسن ، فى قوله (وَلَقَدْ عَفا عَنْكُمْ) قال : قال الحسن وصفّق بيديه : وكيف عفا عنهم ، وقد قُتل منهم سبعون ، وقتل عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكسرت رَباعيته ، وشُجّ فى وجهه ؟ قال : ثم يقول : قال الله عزّ وجلّ : قد عفوت عنكم إذ عصيتمونى ، أن لا أكون استأصلتكم . قال : ثم يقول الحسن : هؤلاء مع رسول الله صلى

الله عليه وسلم، وفى سبيل الله، غِضاب لله ، يقاتلون أعداء الله، نُهُوا عن شىء فصنعوه، فوالله ما تُرِكوا حتى غُمّوا بهذا الغمّ ، فأفسق الفاسقين اليوم يتجرأ على كل كبيرة ، ويركب كل داهية ، ويسحب عليها ثيابه ، ويزعم أن لابأس عليه ، فسوف يعلم .

حدثنا القاسم، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج، عن ابن جريج ، قوله (وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ): قال : لم يستأصلكم .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ) : ولقد عفا الله عن عظيم ذلك ، لم يهلككم بما أتيتم من معصية نبيكم ، ولكن عُدْتُ بفضلى عليكم .

وأما قوله (وَاللهُ ذُو فَضْلٍ على المُؤْمِنِينَ) فإنه يعنى : والله ذوطَوْل على أهل الإيمان به وبرسوله، بعفوه لهم عن كثير ما يستوجبون به العقوبة عليه من ذنوبهم ، فإن عاقبهم على بعض ذلك ، فذو إحسان إليهم ، بجميل أياديه عندهم .

كما حدثنا ابن حميد ، قال: ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ، وَاللهُ ذُو فَضْلٍ على المُؤْمِنِينَ) يقول: وكذلك منّ الله على المؤمنين، أن عاقبهم ببعض الذنوب فى عاجل الدنيا، أدبا وموعظة، فإنه غير مستأصل لكل مافيهم من الحقّ له عليهم، لما أصابوا من معصيته ، رحمة لهم ، وعائدة عليهم، لما فيهم من الإيمان .

القول فى تأويل قوله

* إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ ، فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ ، لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ، وَاللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : ولقد عفا عنكم أيها المؤمنون إذلم يستأصلكم ، إهلاكا منه جمعكم بذنوبكم ، وهربكم ، إذ تُصْعِدون ، ولا تَلْوُون على أحد .

واختلفت القراء فى قراءة ذلك ؛ فقرأه عامة قراء الحجاز والعراق والشام سوى الحسن البصرىّ : (إِذْ تُصْعِدُونَ) بضمّ التاء وكسر العين، وبه القراءة عندنا، لإجماع الحجة من القراء على القراءة به، واستنكارهم ما خالفه . ورُوى عن الحسن البصرىّ أنه كان يقرؤه (إِذْ تَصْعَدُونَ) بفتح التاء والعين .

حدثنى بذلك أحمد بن يوسف ، قال : ثنا القاسم بن سلام ، قال: ثنا حجاج ، عن هارون ، عن يونس ابن عبيد ، عن الحسن : فأما الذين قرءوا (تُصْعِدُونَ) بضم التاء وكسر العين ، فإنهم وجهوا معنى ذلك إلى أن القوم حين انهزموا عن عدوّهم ، أخذوا فى الوادى هاربين ، وذكروا أن ذلك فى قراءة أبىّ : إذ تصعدون فى الوادى .

حدثنا أحمد بن يوسف ، قال : ثنا أبو عبيد ، قال : ثنا حجاج ، عن هارون ، قالوا : الهرب

فى مستوى الأرض ، وبطون الأودية والشِّعاب ، إصعاد لاصعود . قالوا : وإنما يكون الصعود على الجبال والسلاليم والدَّرَج ، لأن معنى الصعود : الارتقاء والارتفاع على الشىء علوًّا . قالوا : فأما الأخذ فى مستوى الأرض والهبوط ، فإنما هو إصعاد ، كما يقال : أصعدنا من مكة ، إذا ابتدأت فى السفر منها والخروج ، وأصعدنا من الكوفة إلى خراسان ، بمعنى خرجنا منها سفرا إليها ، وابتدأنا منها الخروج إليها ، قالوا : وإنما جاء تأويل أكثر أهل التأويل بأن القوم أخذوا عند انهزامهم عن عدوّهم فى بطن الوادى .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ) ذاكم يوم أُحد ، أصعدوا فى الوادى فرارا ، ونبىّ الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم فى أخراهم ، قال : إلىَّ عِبادَ اللهِ ، إلىَّ عِبادَ اللهِ . وأما الحسن فإنى أراه ذهب فى قراءته (إِذْ تَصْعَدُونَ) بفتح التاء والعين ، إلى أن القوم حين انهزموا عن المشركين صَعِدوا الجبل ، وقد قال ذلك عدد من أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، قال : لما شدّ المشركون على المسلمين بأُحد فهزموهم ، دخل بعضهم المدينة ، وانطلق بعضهم فوق الجبل إلى الصخرة ، فقاموا عليها ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس : إلىَّ عِبادَ اللهِ ، إلىَّ عِبادَ اللهِ ، فذكر الله صعودهم على الجبل ، ثم ذكر دعاء نبىّ الله صلى الله عليه وسلم إياهم ، فقال (إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِى أُخْرَاكُمْ) .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قال : انحازوا إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فجعلوا يصعدون فى الجبل ، والرسول يدعوهم فى أخراهم .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس ، قوله (إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ) قال : صَعِدوا فى أُحد فرارا .

قال أبو جعفر : وقد ذكرنا أن أولى القراءتين بالصواب : قراءة من قرأ (إِذْ تُصْعِدُونَ) بضم التاء وكسر العين ، بمعنى السبق والهرب فى مستوى الأرض ، أو فى المهابط ، لإجماع الحجة على أن ذلك هو القراءة الصحيحة ، فى إجماعها على ذلك الدليل الواضح على أن أولى التأويلين بالآية ، تأويل من قال : أصعدوا فى الوادى ، ومضوا فيه ، دون قول من قال : صعدوا على الجبل .

وأما قوله (وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ) فإنه يعنى : ولا تعطفون على أحد منكم ، ولا يلتفت بعضكم إلى بعض ، هربا من عدوّكم ، مصعدين فى الوادى ، ويعنى بقوله (وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِى أُخْرَاكُمْ) : ورسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوكم أيها المؤمنون به من أصحابه فى أخراكم ، يعنى أنه يناديكم من خلفكم : إلىَّ عِبادَ اللهِ ، إلىَّ عِبادَ اللهِ .

كما حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس : (وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ) : إلىَّ عباد الله ارجعوا ، إلىَّ عباد الله ارجعوا .

حدثنا بشر قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ) : رأوا نبيَّ الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم : إلىَّ عبادَ الله .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد ، قال : ثنا أسباط ، عن السديّ ، مثله .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قال : أنبهم الله بالفرار عن نبيهم صلى الله عليه وسلم ، وهو يدعوهم ،لايعطفون عليه لدعائه إياهم ، فقال (إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ) .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ) : هذا يوم أُحد حين انكشف الناس عنه .

القول فى تأويل قوله(فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) :

يعنى بقوله جلّ ثناؤه (فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ) يعنى : فجازاكم بفراركم عن نبيكم ، وفشلكم عن عدوّكم ، ومعصيتكم ربكم غمًّا بغمّ ، يقول : غمًّا على غمّ ، وسمى العقوبة التى عاقبهم بها من تسليط عدوّهم عليهم ، حتى نال منهم ما نال ثوابا ، إذ كان ذلك من عملهم الذى سخطه ، ولم يرضه منهم ، فدلّ بذلك جلّ ثناؤه ، أن كل عوض كالمعوّض من شىء من العمل ، خيرا كان أو شرًّا ، أو العوض الذى بذله رجل لرجل ، أو يد سلفت له إليه ، فإنه مستحقّ اسم ثواب ، كان ذلك العوض تكرمة أو عقوبة ، ونظير ذلك قول الشاعر :

أَخَافُ زِيَادًا أَنْ يَكُونَ عَطَاؤُهُ أَدَاهِمَ سُودًا أَوْ مُحَدْرَجَةً سُمْرًا[1]

فجعل العطاء العقوبة ، وذلك كقول القائل لآخر : سلف إليه منه مكروه : لأجازينك على فعلك ، ولأثيبنك ثوابك .

وأما قوله (غَمًّا بِغَمٍّ) فإنه قيل : غما بغمّ ، معناه : غما على غم ، كما قيل (وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ) بمعنى : ولأصلبنكم على جذوع النخل ، وإنما جاز ذلك ، لأن معنى قول القائل : أثابك الله غمًّا على غمّ : جزاك الله غمًّا بعد غمّ يقدمه ، فكان كذلك معنى : فأثابكم غما بغمّ ، لأن معناه : فجزاكم الله غما بعقب غمّ يقدمه ، وهو نظير قول القائل : نزلت ببنى فلان ، ونزلت على بنى فلان ، وضربته بالسيف ، وعلى السيف .

واختلف أهل التأويل فى الغمّ الذى أثيب القوم على الغمّ ، وما كان غمهم الأول والثانى؟ ، فقال بعضهم :

---

(١) البيت فى اللسان (حدرج) ونسبه إلى الفرزدق ، قال : يعنى بالأداهم : القيود ، وبالمحدرجة : السياط ، وسوط محدرج : مغار شديد الفتل ، وفى ديوانه طبعة الصاوى (١ : ٢٢٧) : « فلما خشيت أن يكون ... الخ » ، والبيت من شواهد الفراء فى معانى القرآن ص ٧٢ .

أما الغمّ الأوّل ، فكان ما تحدّث به القوم : أن نبيهم صلى الله عليه وسلم قد قُتِل . وأما الغمّ الآخر ، فإنه كان ما نالهم من القتل والجراح .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (فأثابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ) : كانوا تحدثوا يومئذ أن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم أصيب ، وكان الغمّ الآخر قتل أصحابهم ، والجراحات التى أصابتهم . قال : وذكر لنا أنه قتل يومئذ سبعون رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : ستة وستون رجلا من الأنصار ، وأربعة من المهاجرين ، وقوله (لِكَيْلا تَحْزَنُوا على ما فاتَكُمْ) يقول : ما فاتكم من غنيمة القوم ، ولا ما أصابكم فى أنفسكم من القتل والجراحات .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله (فأثابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ) قال : فرّة بعد فرّة ، الأولى : حين سمعوا الصوت أن محمدا قد قُتِل ، والثانية : حين رجع الكفار فضربوهم مدبرين ، حتى قتلوا منهم سبعين رجلا ، ثم انحازوا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فجعلوا يصعدون فى الجبل ، والرسول يدعوهم فى أخراهم .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، نحوه .

وقال آخرون : بل غمّهم الأول : كان قتل من قُتل منهم ، وجرح من جُرح منهم ، والغمّ الثانى : كان من سماعهم صوت القائل : قُتل محمد صلى الله عليه وسلم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (غَمًّا بِغَمٍّ) قال : الغمّ الأول : الجراح والقتل ، والغمّ الثانى : حين سمعوا أن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم قد قُتل ، فأنساهم الغمّ الآخر ما أصابهم من الجراح والقتل ، وما كانوا يرجُون من الغنيمة ، وذلك حين يقول : (لِكَيْلا تَحْزَنُوا على ما فاتَكُمْ وَلا ما أصابَكُمْ) .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (فأثابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ) قال : الغمّ الأوّل : الجراح والقتل ، والغمّ الآخر : حين سمعوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قُتل ، فأنساهم الغمّ الآخر ما أصابهم من الجراح والقتل ، وما كانوا يرجون من الغنيمة ، وذلك حين يقول الله (لِكَيْلا تَحْزَنُوا على ما فاتَكُمْ وَلا ما أصابَكُمْ) .

وقال آخرون : بل الغمّ الأوّل ما كان فاتهم من الفتح والغنيمة ، والثانى إشراف أبى سفيان عليهم فى الشعب . وذلك أن أبا سفيان فيما زعم بعض أهل السير لما أصاب من المسلمين ما أصاب ، وهرب المسلمون ، جاء حتى أشرف عليهم ، وفيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شعب أُحد ، الذى كانوا ولّوا إليه عند الهزيمة ، فخافوا أن يصطلمهم أبو سفيان وأصحابه .

ذكر الخبر بذلك :

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، قال : انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ يدعو الناس ، حتى انتهى إلى أصحاب الصخرة ، فلما رأوه ، وضع رجل سهما فى قوسه ، فأراد أن يرميه ، فقال : أنا رَسُولُ الله ، ففرحوا بذلك حين وجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حيا ، وفرح رسول الله حين رأى أن فى أصحابه من يمتنع . فلما اجتمعوا ، وفيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ذهب عنهم الحزن ، فأقبلوا يذكرون الفتح ، وما فاتهم منه ، ويذكرون أصحابهم الذين قُتلوا ، فأقبل أبوسفيان حتى أشرف عليهم ؛ فلما نظروا إليه ، نسُوا ذلك الذى كانوا عليه ، وهمّهم أبوسفيان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَعْلُونا ، اللَّهُمَّ إنْ تُقْتَلْ هٰذه العِصَابَةُ لاتُعْبَدُ » ثم ندب أصحابه ، فرموهم بالحجارة حتى أنزلوهم ، فقال أبو سفيان يومئذ : اعْلُ هُبَل ، حنظلة بحنظلة ، ويوم بيوم بدر ؛ وقتلوا يومئذ حنظلة بن الراهب ، وكان جُنُبا فغسلته الملائكة ، وكان حنظلة بن أبى سفيان قُتل يوم بدر ؛ قال أبو سفيان : لنا العُزَّى ، ولا عُزّى لكم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر : قُلِ : اللهُ مَوْلانا وَلا مَوْلَى لَكُمْ ، فقال أبو سفيان : فيكم محمد ؟ قالوا : نعم ، قال : أما إنها قد كانت فيكم مُثْلة ، ما أمرت بها ، ولا نهيت عنها ، ولا سرّتنى ، ولا ساءتنى . فذكر الله إشراف أبى سفيان عليهم ، فقال (فَأَثابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ ، لِكَيْلا تَحْزَنُوا على مافاتَكُمْ وَلا ما أَصابَكُمْ) : الغمّ الأوّل : ما فاتهم من الغنيمة والفتح ؛ والغمّ الثانى : إشراف العدوّ عليهم ، لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من الغنيمة ، ولا ما أصابكم من القتل حين تذكرون ، فشغلهم أبو سفيان .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قال : ثنى ابن شهاب الزهرىّ ، ومحمد بن يحيى ابن حبان ، وعاصم بن عمر بن قتادة ، والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ ، وغيرهم من علمائنا فيما ذكروا من حديث أُحد ، قالوا : كان المسلمون فى ذلك اليوم لما أصابهم فيه من شدّة البلاء أثلاثا : ثلث قتيل ، وثلث جريح ، وثلث منهزم ، وقد بلغته الحرب حتى ما يدرى ما يصنع ، وحتى خلص العدوّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدثّ[1] بالحجارة ، حتى وقع لشقه ، وأصيبت رَباعيته ، وشُجّ فى وجهه ، وكُلمت شفته ، وكان الذى أصابه عتبة بن أبى وقّاص ، وقاتل مصعب بن عمير دون رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه لواؤه حتى قتل ، وكان الذى أصابه ابن قَمِيئة الليثى ، وهو يظنّ أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرجع إلى قريش فقالت : قتلت محمدا .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قال : فكان أوّل من عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الهزيمة وقول الناس : قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن محمد بن إسحاق ، قال : ثنى ابن شهاب الزهرىّ ، كعب بن مالك أخو بنى سلمة ، قال : عرفت عينيه تَزْهَرَان[2] تحت المِغْفَر ، فناديت بأعلى صوتى : يامعشر المسلمين ؟ أبشروا ، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأشار إلىّ رسول الله : أن أنصت ؛ فلما عرف المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم نهضوا به ، ونهض نحو الشِّعب ، معه علىّ بن أبى طالب وأبوبكر بن أبى قحافة

---

(١) دث بالحجارة ، مبنيا للمفعول : رمى بها . (٢) تزهران : تلمعان لبياضهما . (انظر اللسان) .

وعمر بن الخطاب ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوّام ، والحارث بن الصامت فى رهط من المسلمين .
قال : فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشِّعب ومعه أولئك النفر من أصحابه ، إذ علت عالية من قريش الجبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللّهُمَّ إنَّهُ لايَنْبَغِي لَهُمْ أنْ يَعْلُونا » فقاتل عمر بن الخطاب ورهط معه من المهاجرين ، حتى أهبطوهم عن الجبل ، ونهض رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صخرة من الجبل ليعلُوَها ـ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بَدَّن ـ فظاهر بين درعين . فلما ذهب لينهض ، فلم يستطع ، جلس تحته طلحة بن عبيد الله ، فنهض حتى استوى عليها . ثم إن أبا سفيان حين أراد الانصراف ، أشرف على الجبل ، ثم صرخ بأعلى صوته : أنعمت ! فقال : إن الحرب سِجال ، يوم بيوم بدر ، اعلُ هبل : أى ظهر دينك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر : « قُمْ فأجِبْهُ فَقُلْ : اللهُ أعْلَى وأجَلُّ ، لاسَوَاءٌ ، قَتْلانا فِي الجَنَّةِ ، وَقَتْلاكُمْ فِي النَّارِ » . فلما أجاب عمر رضى الله عنه ، أبا سفيان ، قال له أبو سفيان : هلمّ إلىّ يا عمر ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ائْتِهِ فانْظُرْ ما شأْنُهُ ؟ ، فجاءه فقال له أبو سفيان : أَنْشُدُكَ الله يا عمر ، أقتلنا محمدا ؟ فقال عمر : اللهمّ لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن . فقال : أنت أصدق عندى من ابن قميئة . وأشار لقول ابن قميئة لهم : إنى قتلت محمدا . ثم نادى أبو سفيان ، فقال : إنه قد كان فى قتلاكم مُثْلَة . والله ما رضيت ، ولا سخطت ، ولا نهيت ، ولا أمرت .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : ثنى ابن إسحاق (فَأثابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ لِكَيْلا تَحْزَنُوا على مافاتَكُمْ وَلا ما أصابَكُمْ) : أى كرْبًا بعد كرب ، قَتْل من قُتل من إخوانكم ، وعلوّ عدوّكم عليكم ، وما وقع فى أنفسكم من قول من قال : قُتل نبيكم ، فكان ذلك مما تتابع عليكم غما بغمّ ، لكيلا تحزنوا على مافاتكم من ظهوركم على عدوّكم ، بعد أن رأيتموه بأعينكم ، ولاما أصابكم من قتل إخوانكم ، حتى فرّجت بذلك الكرب عنكم . (والله خبير بما تعملون) . وكان الذى فرّج عنهم ما كانوا فيه من الكرب والغمّ الذى أصابهم : أن الله عزّ وجلّ ردّ عنهم كَذْبة الشيطان بقتل نبيهم ، فلما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حيا بين أظهرهم ، هان عليهم ما فاتهم من القوم ، فهان الظهور عليهم ، والمصيبة التى أصابتهم فى إخوانهم ، حين صرف الله القتل عن نبيهم صلى الله عليه وسلم .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج (فَأثابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ) قال ابن جريج : قال مجاهد : أصاب الناس حزن وغمّ ، على ما أصابهم فى أصحابهم الذين قُتلوا ، فلما تولجّوا فى الشِّعب يتصافّون ، وقف أبو سفيان وأصحابه بباب الشعب ، فظنّ المؤمنون أنهم سوف يميلون عليهم ، فيقتلونهم أيضا ، فأصابهم حزن فى ذلك أيضا ، أنساهم حزنهم فى أصحابهم ، فذلك قوله (فَأثابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ ، لِكَيْلا تَحْزَنُوا على مافاتَكُمْ) قال ابن جريج : قوله (على مافاتَكُمْ) يقول : على ما فاتكم من غنائم القوم ، (ولا ما أصابكم) : فى أنفسكم .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : أخبرنى عبد الله بن

كثير ، عن عبيد بن عمير ، قال : جاء أبو سفيان بن حرب ومن معه ، حتى وقف بالشِّعب ، ثم نادى : أفى القوم ابن أبى كبشة[١] ؟ فسكتوا . فقال أبو سفيان : قُتل وربِّ الكعبة . ثم قال : أفى القوم ابن أبى قحافة؟ فسكتوا ، فقال : قتل وربِّ الكعبة . ثم قال : أفى القوم عمر بن الخطاب ؟ فسكتوا ، فقال : قتل وربِّ الكعبة ، ثم قال أبو سفيان : اعلُ هُبَل ، يوم بيوم بدر ، وحنظلة بحنظلة ، وأنتم واجدون فى القوم مُثْلاً لم يكن عن رأى سراتنا وخيارنا ، ولم نكرهه حين رأيناه . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب : «قُمْ فنادِ فقُل : اللهُ أعلَى وأجَلّ » نعم ، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا أبو بكر ، وهاأناذا «لايستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون » . قتلانا فى الجنة ، وقتلاكم فى النار .

وقال آخرون فى ذلك بما حدثنى به محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس (إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ على أحدٍ والرَّسُولُ يَدْعُوكُم فى أُخْرَاكُمْ) : فرجعوا فقالوا : والله لنأتينهم ، ثم لنقتلنهم ، قد خرجوا منا[٢] ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مهْلاً ، فإنَّما أصابَكُمُ الَّذى أصابَكُمْ مِنْ أجلِ أنَّكُمْ عَصَيْتُمُونى» . فبينما هم كذلك ، إذ أتاهم القوم ، قد أَيِسوا ، وقد اخترطوا سيوفهم ، فكان غمّ الهزيمة وغمهم حين أتوهم (لِكَيْلا تَحْزَنُوا على مافاتَكُمْ) من القتل (وَلا ما أصابَكُمْ) من الجراحة (فأثابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ ، لِكَيْلا تَحْزَنُوا) . . . الآية ، وهو يوم أُحد .

وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية : قول من قال : معنى قوله (فأثابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ) أيها المؤمنون بحرمان الله إياكم غنيمة المشركين ، والظفر بهم ، والنصر عليهم ، وما أصابكم من القتل والجراح يومئذ ، بعد الذى كان قد أراكم فى كل ذلك ما تحبون بمعصيتكم ربكم ، وخلافكم أمر نبيكم صلى الله عليه وسلم ، غمّ ظنكم أن نبيكم صلى الله عليه وسلم قد قتل ، وميل العدوّ عليكم بعد فُلولكم منهم .

والذى يدلّ على أن ذلك أولى بتأويل الآية مما خالفه : قوله (لِكَيْلا تَحْزَنُوا على ما فاتَكُمْ وَلا ما أصابَكُمْ) والفائت لاشكّ أنه هو ما كانوا رجَوُا الوصول إليه من غيرهم ، إمّا من ظهور عليهم بغلبهم ، وإما من غنيمة يحتازونها ، وإن قوله (وَلا ما أصابَكُمْ) هو ما أصابهم إما فى أبدانهم ، وإما فى إخوانهم . فإذ كان ذلك كذلك ، فمعلوم أن الغمّ الثانى هو معنى غير هذين . لأن الله عزّ وجلّ أخبر عباده المؤمنين به من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه أثابهم غما بغم ، لئلا يَحزُنهم ما نالهم من الغمّ الناشئ عما فاتهم من غيرهم ، ولا ما أصابهم قبل ذلك فى أنفسهم ، وهو الغمّ الأول على ماقد بيناه قبل .

وأما قوله (لِكَيْلا تَحْزَنُوا على مافاتَكُمْ وَلا ما أصابَكُمْ) فإن تأويله : على ما قد بينت ، من أنه لكيلا تحزنوا على مافاتكم ، فلم تدركوه مما كنتم ترجون إدراكه من عدوّكم بالظفر عليهم والظهور ، وحيازة غنائمهم ، ولاما أصابكم فى أنفسكم من جرح من جُرح ، وقَتل من قُتل من إخوانكم .

وقد ذكرنا اختلاف أهل التأويل فيه قبل ، على السبيل التى اختلفوا فيه .

(١) يريد النبى صلى الله عليه وسلم . وأبو كبشة : رجل من خزاعة خالف قريشا فى عبادة الأصنام ، فعبد الشعرى . شبهوا النبى به فى مخالفة قومه فى الدين (التاج) .

(٢) قوله «قد خرجوا منا» : سقطت هذه الجملة من رواية الدر المنثور ، وهى أوضح .

كما حدثنا يونس ، قال : أخبرنا وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (لِكَيْلَا تَحْزَنُوا على ما فاتكم وَلَا ما أصابكُم) قال : على ما فاتكم من الغنيمة التى كنتم ترجون (وَلَا تَحْزَنُوا على ما أصابكُم) من الهزيمة . وأما قوله (وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) فإنه يعنى جل ثناؤه : والله بالذى تعملون أيها المؤمنون ، من إصعادكم فى الوادى هربا من عدوكم ، وانهزامكم منهم ، وترككم نبيكم وهو يدعوكم فى أخراكم ، وحزنكم على ما فاتكم من عدوكم ، وما أصابكم فى أنفسكم ، ذوخبرة وعلم ، وهو مُحْصٍ ذلك كله عليكم ، حتى يجازيكم به : المحسن منكم بإحسانه ، والمسىء بإساءته ، أو يعفوَ عنه .

القول فى تأويل قوله

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ، وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ، يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ؟ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ، يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ، يَقُولُونَ : لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ، قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ، وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ ، وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤)

يعنى بذلك جل ثناؤه : ثم أنزل الله أيها المؤمنون من بعد الغمّ الذى أثابكم ربكم بعد غمّ تقدّمه قبله أَمَنَةً ، وهى الأمان على أهل الإخلاص منكم واليقين ، دون أهل النفاق والشكّ . ثم بين جلّ ثناؤه عز الأَمَنَة التى أنزلها عليهم ماهى ؟ فقال : نُعاسا ، بنصب النعاس على الإبدال من الأَمَنَة .

ثم اختلفت القراء فى قراءة قوله (يَغْشَى) ، فقرأ ذلك عامة قراء الحجاز والمدينة والبصرة وبعض الكوفيين : بالتذكير بالياء : يغشى ؛ وقرأ جماعة من قراء الكوفيين بالتأنيث : تغشى بالتاء . وذهب الذين قرءوا ذلك بالتذكير ، إلى أن النعاس هو الذى يغشى الطائفة من المؤمنين دون الأَمَنَة ، فذكّره بتذكير النعاس ، وذهب الذين قرءوا ذلك بالتأنيث ، إلى أن الأمنة هى التى تغشاهم ، فأنثوه لتأنيث الأمنة .

والصواب من القول فى ذلك عندى : أنهما قراءتان معروفتان مستفيضتان فى قراء الأمصار ، غير مختلفتين فى معنى ولا غيره ، لأن الأَمَنَة فى هذا الموضع هى النعاس ، والنعاس : هو الأمنة ، وسواء ذلك ، وبأيتهما قرأ القارئ فهو مصيب الحقّ فى قراءته ، وكذلك جميع ما فى القرآن من نظائره من نحو قوله (إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ ، كَالْمُهْلِ تَغْلِي فِي الْبُطُونِ - وأَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ تُمْنَى - وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ) .

فإن قال قائل : وما كان السبب الذى من أجله افترقت الطائفتان اللتان ذكرهما الله عزّ وجلّ ، فيما افترقتا فيه من صفتهما ، فأمنت إحداهما بنفسها حتى نعست ، وأهمت الأخرى أنفسها ، حتى ظنت بالله غير الحقّ

ظنّ الجاهلية ؟ قيل : كان سبب ذلك فيما ذكر لنا ، كما حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ : أن المشركين انصرفوا يوم أُحد بعد الذى كان من أمرهم وأمر المسلمين ، فواعدوا النبىّ صلى الله عليه وسلم بدرا من قابل ، فقال لهم : نعم ، فتخوّف المسلمون أن ينزلوا المدينة ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا ، فقال : انظر ، فإن رأيتهم قعدوا على أثقالهم ، وجنّبوا خيولهم ، فإن القوم ذاهبون ، وإن رأيتهم قدقعدوا على خيولهم ، وجنّبوا على أثقالهم ، فإن القوم ينزلون المدينة ، فاتقوا الله واصبروا ، ووطّنهم على القتال ؛ فلما أبصرهم الرسول قعدوا على الأثقال سراعا عِجالا ، نادى بأعلى صوته بذهابهم ؛ فلما رأى المؤمنون ذلك ، صدّقوا نبىّ الله صلى الله عليه وسلم ، فناموا ، وبقى أناس من المنافقين يظنون أن القوم يأتونهم ، فقال الله جلّ وعزّ ، يذكر حين أخبرهم النبىّ صلى الله عليه وسلم : إن كانوا ركبوا الأثقال ، فإنهم منطلقون ، فناموا (ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الغَمِّ أَمَنَةً نُعاساً يَغْشَى طائِفَةً مِنْكُمْ ، وَطائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ، يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيرَ الحَقِّ ظَنَّ الجاهِلِيَّةِ) .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس : أمّنهم يومئذ بنعاس غشاهم ، وإنما ينعس من يأمن (يَغْشَى طائِفَةً مِنْكُمْ ، وَطائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ، يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيرَ الحَقِّ ظَنَّ الجاهِلِيَّةِ) .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا ابن أبى عدىّ ، عن حميد ، عن أنس بن مالك ، عن أبى طلحة ، قال : كنت فيمن أُنزل عليه النعاس يوم أُحد أمَنَة ، حتى سقط من يدى مرارا .

قال أبو جعفر : يعنى : سوطه ، أو سيفه .

حدثنا عمرو بن علىّ ، قال : ثنا عبد الرحمن بن مهدىّ ، قال : ثنا حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس ، عن أبى طلحة ، قال : رفعت رأسى يوم أُحد ، فجعلت ما أرى أحدا من القوم إلا تحت حَجَفته يميد من النعاس .

حدثنا ابن بشار وابن المثنى ، قالا : ثنا أبو داود ، قال : ثنا عمران ، عن قتادة ، عن أنس ، عن أبى طلحة ، قال : كنت فيمن صُبّ عليه النعاس يوم أُحد .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قال : ثنا أنس بن مالك ، عن أبى طلحة : أنه كان يومئذ ممن غشيه النعاس ، قال : كان السيف يسقط من يدى ، ثم آخذه ، من النعاس .

حُدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، ذكر لنا ـ والله أعلم ، عن أنس : أن أبا طلحة حدثهم : أنه كان يومئذ ممن غشيه النعاس ؛ قال : فجعل سيفى يسقط من يدى وآخذه ، ويسقط وآخذه ، ويسقط . والطائفة الأخرى : المنافقون ، ليس لهم همة إلا أنفسهم (يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيرَ الحَقِّ ظَنَّ الجاهِلِيَّةِ) . . . الآية كلها .

حدثنا أحمد بن الحسن الترمذى ، قال : ثنا ضرار بن صُرَد ، قال : ثنا عبد العزيز بن محمد ، عن محمد ابن عبد العزيز ، عن الزهرىّ ، عن عبد الرحمن بن المِسور بن مَخرمة ، عن أبيه ، قال : سألت عبد الرحمن

ابن عوف ، عن قول الله عزّ وجلّ (ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الغَمِّ أَمَنَةً نُعاساً) قال : أُلقى علينا النوم يوم أُحد .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الغَمِّ أَمَنَةً نُعاساً) ... الآية ، وذاكم يوم أُحد ، كانوا يومئذ فريقين ، فأما المؤمنون فغشّاهم الله النعاس ، أمَنَةً منه ورحمة .

حدثني المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس ، نحوه .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قوله (أَمَنَةً نُعاساً) قال : أُلقى عليهم النعاس ، فكان ذلك أَمَنَة لهم .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن عاصم ، عن أبي رزين ، قال : قال عبد الله : النعاسُ فى القتال أمنة ، والنعاس فى الصلاة من الشيطان .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الغَمِّ أَمَنَةً نُعاساً) قال : أنزل النعاس أمنة منه على أهل اليقين به ، فهم نيام لايخافون .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، فى قوله (أَمَنَةً نُعاساً) قال : ألقى الله عليهم النعاس ، فكان أمنة لهم ، وذَكَر أن أباطلحة قال : أُلقِىَ علىّ النعاس يومئذ ، فكنت أنعُس ، حتى يسقط سيفى من يدى .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا إسحاق بن إدريس ، قال : ثنا حماد بن سلمة ، قال : أخبرنا ثابت ، عن أنس بن مالك ، عن أبي طلحة ، وهشام بن عروة بن الزبير : أنهما قالا : لقد رفعنا رءوسنا يوم أُحد ، فجعلنا ننظر ، فما منهم من أحد إلا وهو يميل بجنب حَجَفته ؛ قال : وتلا هذه الآية (ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الغَمِّ أَمَنَةً نُعاساً) .

القول فى تأويل قوله (وَطائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ، يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الحَقِّ ظَنَّ الجاهِلِيَّةِ)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : وطائفة منكم أيها المؤمنون قد أهمّهم أنفسهم ، يقول : هم المنافقون ، لاهمّ لهم غير أنفسهم ، فهم من حذر القتل على أنفسهم ، وخوف المنية عليها ، فى شُغُل ، قد طار عن أعينهم الكرى ، يظنون بالله الظنون الكاذبة ، ظنّ الجاهلية من أهل الشرك بالله ، شكا فى أمر الله ، وتكذيبا لنبيه صلى الله عليه وسلم ، ومَحْسَبة منهم أن الله خاذلٌ نبيّه ، ومُعْلٍ عليه أهلَ الكفر به ، يقولون : هل لنا من الأمر من شىء .

كالذى حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قال : والطائفة الأخرى : المنافقون ، ليس لهم همّ إلا أنفسهم ، أجبن قوم وأرعبه ، وأخذله للحقّ ، يظنون بالله غير الحقّ ظنونا كاذبة ، إنما هم أهل شكّ وريبة فى أمر الله ، يقولون (لَوْ كانَ لَنا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ما قُتِلْنا هَهُنا ، قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ القَتْلُ إِلى مَضاجِعِهِمْ) .

حدثني المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا عبد الله بن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قال : والطائفة الأخرى : المنافقون ليس لهم همة إلا أنفسهم ، يظنون بالله غير الحق ظنّ الجاهلية ، يقولون : (لَوْ كانَ لَنا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ما قُتِلْنا هَهُنا) قال الله عزّ وجلّ (قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ القَتْلُ إِلى مَضاجِعِهِمْ) . . . الآية .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (وَطائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ) قال : أهل النفاق ، قد أهمّتهم أنفسهم تخوّفَ القتل ، وذلك أنهم لايرجون عاقبة .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد في قوله (وَطائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ) إلى آخر الآية ، قال : هؤلاء المنافقون ، وأما قوله (ظَنَّ الجاهِلِيَّةِ) : فإنه يعني أهل الشرك .

كالذي حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة في قوله : (ظَنَّ الجاهِلِيَّةِ) قال : ظنّ أهل الشرك .

حدثني المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قوله (ظَنَّ الجاهِلِيَّةِ) قال : ظنّ أهل الشرك .

وفي رفع قوله (وَطائِفَةٌ) وجهان : أحدهما أن تكون مرفوعة بالعائد من ذكرها في قوله (قَدْ أَهَمَّتْهُمْ) ، والآخر بقوله (يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الحَقِّ) ، ولو كانت منصوبة كان جائزا ، وكانت الواو في قوله (وَطائِفَةٌ) ظرفا للفعل ، بمعنى : وأهمت طائفةً أنفسهم ، كما قال (وَالسَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ) .

القول في تأويل قوله (يَقُولُونَ : هَلْ لَنا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ؟ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلهِ ، يُخْفُونَ في أَنْفُسِهِمْ ما لا يُبْدُونَ لَكَ ، يَقُولُونَ لَوْ كانَ لَنا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ما قُتِلْنا هَهُنا) .

يعني بذلك : الطائفة المنافقة التي قد أهمّتهم أنفسهم ، يقولون : ليس لنا من الأمر من شيء ، قل إن الأمر كله لله ، ولو كان لنا من الأمر شيء ما خرجنا لقتال مَن قاتلنا فقتلونا .

كما حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قيل لعبد الله بن أبيّ : قُتل بنو الخزرج اليوم ، قال : وهل لنا من الأمر من شيء ؟ قل إن الأمر كله لله . وهذا أمر مبتدأ من الله عزّ وجلّ ، يقول لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قل يا محمد لهؤلاء المنافقين : إن الأمر كله لله ، يُصرِّفه كيف يشاء ، ويدبره كيف يحبّ . ثم عاد إلى الخبر عن ذكر نفاق المنافقين ، فقال (يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ ما لا يُبْدُونَ لَكَ) : يقول : يخفي يا محمد هؤلاء المنافقون الذين وصفت لك صفتهم في أنفسهم من الكفر والشكّ في الله ، ما لا يبدون لك . ثم أظهر نبيه صلى الله عليه وسلم على ما كانوا يخفونه بينهم من نفاقهم ، والحسرة التي أصابتهم على حضورهم مع المسلمين مَشهدَهم بأُحد ، فقال مخبرا عن قيلهم الكفر ، وإعلانهم النفاق بينهم : يقولون : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا ، يعني بذلك أن هؤلاء المنافقين يقولون : لو كان الخروج إلى حرب من خرجنا لحربه من المشركين إلينا ، ما خرجنا إليهم ، ولا قُتل منا أحد في الموضع الذي قُتلوا فيه بأُحد ، وذُكر أن ممن قال هذا القول ، مُعتِّب بن قُشير ، أخو بني عمرو بن عوف .

ذكر الخبر بذلك :

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : قال ابن إسحاق : ثنى يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير ، عن أبيه ، عن عبد الله بن الزبير ، عن الزبير ، قال : والله إنى لأسمع قول مُعَتِّب بن قُشير أخى بنى عمرو ابن عوف ، والنعاس يغشانى ، ما أسمعه إلا كالحلم ، حين قال : لو كان لنا من الأمر شىء ماقتلنا ههنا .

حدثنى سعيد بن يحيى الأموى ، قال : ثنى أبى ، عن ابن إسحاق ، قال : ثنى يحيى بن عباد بن عبد الله ابن الزبير ، عن أبيه ، عن عبد الله بن الزبير ، عن أبيه بمثله .

واختلفت القراء فى قراءة ذلك ، فقرأته عامة قراء الحجاز والعراق (قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ) : بنصب الكلّ على وجه النعت للأمر والصفة له . وقرأه بعض قراء أهل البصرة (قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلُّهُ لِلهِ) : برفع الكل على توجيه الكلّ إلى أنه اسم . وقوله « لله » خبره ، كقول القائل : إن الأمر بعضُه لعبد الله . وقد يجوز أن يكون الكلّ فى قراءة من قرأه بالنصب منصوبا على البدل . والقراءة التى هى القراءة عندنا النصب فى الكلّ ؛ لإجماع أكثر القراء عليه ، من غير أن تكون القراءة الأخرى خطأ فى معنى أو عربية . ولو كانت القراءة بالرفع فى ذلك مستفيضة فى القراء ، لكانت سواء عندى القراءة بأىّ ذلك قرئ . لاتفاق معانى ذلك بأىّ وجهيه قُرِئ .

القول فى تأويل قوله (قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ . وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ ما فِى صُدُورِكُمْ ، وَلِيُمَحِّصَ ما فِى قُلُوبِكُمْ . وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) :

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : قل يا محمد للذين وصفت لك صفتهم من المنافقين : لو كنتم فى بيوتكم لم تشهدوا مع المؤمنين مشهدهم ، ولم تحضروا معهم حرب أعدائهم من المشركين ، فيظهر للمؤمنين ما كنتم تخفونه من نفاقكم ، وتكتمونه من شرككم فى دينكم ، لبرز الذين كتب عليهم القتل . يقول : لظهر للموضع الذى كتب عليه مصرعه فيه ، مَن قد كتب عليه القتل منهم ، ويخرج من بيته إليه ، حتى يصرع فى الموضع الذى كتب عليه أن يصرع فيه .

واما قوله (وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مافِى صُدُورِكُمْ) : فإنه يعنى به : وليبتلى الله ما فى صدوركم أيها المنافقون ، كنتم تبرزون من بيوتكم إلى مضاجعكم . ويعنى بقوله (وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ ما فِى صُدُورِكُمْ) : وليختبر الله الذى فى صدوركم من الشكّ ، فيميزكم بما يظهره للمؤمنين من نفاقكم ، من المؤمنين .

وقد دللنا فيما مضى على أن معانى نظائر قوله (لِيَبْتَلِيَ اللهُ — وَلِيَعْلَمَ اللهُ) وما أشبه ذلك ، وإن كان فى ظاهر الكلام مضافاً إلى الله الوصف به ، فمراد به أولياؤه وأهل طاعته ، وأن معنى ذلك : وليختبر أولياء الله ، وأهل طاعته ، الذى فى صدوركم من الشكّ والمرض ، فيعرفوكم من أهل الإخلاص واليقين ؛ (وَلِيُمَحِّصَ ما فِى قُلُوبِكُمْ) يقول : وليتبينوا ما فى قلوبكم من الاعتقاد لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ، من العداوة أو الولاية ، (وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) يقول : والله ذو علم بالذى

فى صدور خلقه، من خير وشرّ، وإيمان وكفر. لايخفى عليه شىء من أمورهم، سرائرها وعلانيتها، وهو لجميع ذلك حافظ، حتى يجازىَ جميعهم جزاءهم، على قدر استحقاقهم.

وبنحو الذى قلنا فى ذلك كان ابن إسحاق يقول.

حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، قال: ذكر الله تلاومهم، يعنى: تلاوُم المنافقين، وحسرتهم على ما أصابهم، ثم قال لنبيه صلى الله عليه وسلم: قل لو كنتم فى بيوتكم لم تحضروا هذا الموضع الذى أظهر الله جلّ ثناؤه فيه منكم ما أظهر من سرائركم، لأُخرج الذين كتب عليهم القتل إلى موطن غيره، يُصرعون فيه، حتى يبتلىَ به ما فى صدوركم، وليمحص ما فى قلوبكم، والله عليم بذات الصدور، أى لايخفى عليه شىء مما فى صدورهم، مما استخفوا به منكم.

حدثنى المثنى، قال: ثنا إسحاق، قال: ثنا الحارث بن مسلم، عن بحر السقاء، عن عمرو بن عبيد، عن الحسن، قال: سئل عن قوله «قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ القَتْلُ إلى مَضَاجِعِهِمْ» قال: كتب الله على المؤمنين أن يقاتلوا فى سبيله، وليس كل من يقاتل يُقتل، ولكن يقتل من كتب الله عليه القتل.

القول فى تأويل قوله

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا، وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه: إن الذين ولوا عن المشركين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحد وانهزموا عنهم، وقوله (تَوَلَّوْا): تفعَّلوا، من قولهم: ولّى فلان ظهره، وقوله (يَوْمَ الْتَقَى الجَمْعَانِ) يعنى: يوم التقى جمع المشركين والمسلمين بأُحد، (إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ): أى إنما دعاهم إلى الزَّلة الشيطان، وقوله استزلّ: استفعل من الزلة، والزلة: هى الخطيئة (بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا) يعنى: ببعض ما عملوا من الذنوب، (وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ) يقول: ولقد تجاوز الله عن عقوبة ذنوبهم، فصفح لهم عنه (إِنَّ اللهَ غَفُورٌ) يعنى به: مغطّ على ذنوب من آمن به، واتبع رسوله، بعفوه عن عقوبته إياهم عليها (حَلِيمٌ) يعنى: أنه ذو أناة، لايعجل على من عصاه، وخالف أمره بالنقمة.

ثم اختلف أهل التأويل فى أعيان القوم الذين عُنوا بهذه الآية، فقال بعضهم: عُنى بها كلّ من ولّى الدُّبرَ عن المشركين بأُحد.

ذكر من قال ذلك:

حدثنا أبو هشام الرفاعى، قال: ثنا أبو بكر بن عياش، قال: ثنا عاصم بن كليب، عن أبيه، قال: خطب عمر يوم الجمعة، فقرأ آل عمران، وكان يعجبه إذا خطب أن يقرأها، فلما انتهى إلى قوله (إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الجَمْعَانِ) قال: لما كان يوم أحد هزمناهم، ففررت حتى صعدت

الجبل ، فلقد رأيتنى أنزو كأننى أروى ، والناس يقولون : قتل محمد ، فقلت : لاأجد أحدا يقول : قتل محمد إلا قتلته . حتى اجتمعنا على الجبل ، فنزلت (إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ التَقَى الجَمْعَانِ) . . . الآية كلها .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ التَقَى الجَمْعَانِ) . . . الآية ، وذلك يوم أُحد ، ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تولوا عن القتال ، وعن نبىّ الله يومئذ ، وكان ذلك من أمر الشيطان وتخويفه ، فأنزل الله عزّ وجلّ ما تسمعون ، أنه قد تجاوز لهم عن ذلك ، وعفا عنهم .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنى عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع فى قوله (إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ التَقَى الجَمْعَانِ) . . . الآية ، فذكر نحو قول قتادة .

وقال آخرون : بل عُنى بذلك خاصّ ممن ولى الدبر يومئذ ، قالوا : وإنما عنى به الذين لحقوا بالمدينة منهم ، دون غيرهم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، قال : لما انهزموا يومئذ تفرّق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ، فدخل بعضهم المدينة ، وانطلق بعضهم فوق الجبل إلى الصخرة ، فقاموا عليها ، فذكر الله عزّ وجلّ الذين انهزموا ، فدخلوا المدينة ، فقال: (إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ التَقَى الجَمْعَانِ) . . . الآية .

وقال آخرون : بل نزل ذلك فى رجال بأعيانهم معروفين .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال عكرمة ، قوله (إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ التَقَى الجَمْعَانِ) قال : نزلت فى رافع بن الْمُعَلَّى وغيره من الأنصار ، وأبى حذيفة بن عتبة ، ورجل آخر ، قال ابن جريج : وقوله (إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ، وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ) إذ لم يعاقبهم .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قال : فرّ عثمان بن عفان ، وعقبة بن عثمان ، وسعد بن عثمان رجلان من الأنصار ، حتى بلغوا الجَلْعَب : جبل بناحية المدينة مما يلى الأعوص ، فأقاموا به ثلاثا ، ثم رجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لهم : لقد ذهبتم فيها عريضة .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قوله (إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ التَقَى الجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا) . . . الآية ، والذين استزلهم الشيطان : عُثمان بن عفان ، وسعد بن عثمان ، وعقبة بن عثمان الأنصاريان ، ثم الزُّرَقيان[1] .

(١) منسوبان إلى بنى زريق ، وهم خلق من الأنصار ، والنسبة إليهم : زرقى ، كجهنى (تاج العروس) .

وأما قوله (وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ) : فإن معناه : ولقد تجاوز الله عن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان ، أن يعاقبهم ، بتوليهم عن عدوّهم .

كما حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، قال : قال ابن جريج : قوله (وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ) يقول : ولقد عفا الله عنهم ، إذلم يعاقبهم .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله فى تولّيهم يوم أُحد (وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ) ، فلا أدرى أذلك العفو عن تلك العصابة ، أم عفو عن المسلمين كلهم .

وقد بينا تأويل قوله (إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ) فيما مضى .

القول فى تأويل قوله

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله ، وأقرّوا بما جاء به محمد من عند الله ، لاتكونوا كمن كفر بالله وبرسوله ، فجحد نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال لإخوانه من أهل الكفر إذا ضربوا فى الأرض ، فخرجوا من بلادهم سَفَرًا فى تجارة ، أوكانوا غُزًّى ، يقول : أوكان خروجهم من بلادهم غُزاة ، فهلكوا فماتوا فى سفرهم ، أوقتلوا فى غزوهم ، لو كانوا عندنا ما ماتوا ، وما قتلوا . يخبر بذلك عن قول هؤلاء الكفار : إنهم يقولون لمن غزا منهم ، فقتل ، أو مات فى سفر خرج فيه فى طاعة الله ، أو تجارة : لو لم يكونوا خرجوا من عندنا ، وكانوا أقاموا فى بلادهم ، ما ماتوا ، وما قتلوا (لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ) يعنى : أنهم يقولون ذلك ، كى يجعل الله قولهم ذلك حزنا فى قلوبهم و غمًّا ، ويجهلون أن ذلك إلى الله جلّ ثناؤه وبيده . وقد قيل : إن الذين نهى الله المؤمنين بهذه الآية أن يتشبهوا بهم فيما نهاهم عنه من سوء اليقين بالله ، هم عبد الله ابن أبىّ ابن سَلُول وأصحابه .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد ، قال : ثنا أحمد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاتَكُونُوا كالَّذِينَ كَفَرُوا وَقالُوا لإخْوانِهِم) . . . الآية . قال : هؤلاء المنافقون أصحاب عبد الله بن أبىّ .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قوله (وَقالُوا لإخْوانِهِم إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كانُوا غُزًّى) قول المنافق عبد الله بن أبى ابن سَلول .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

وقال آخرون فى ذلك : هم جميع المنافقين .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا لاتَكُونُوا كالَّذِينَ كَفَرُوا وَقالُوا لإخْوانِهِمْ) . . . الآية : أى لا تكونوا كالمنافقين الذين ينهون إخوانهم عن الجهاد فى سبيل الله ، والضرب فى الأرض فى طاعة الله ، وطاعة رسوله ، ويقولون : إذا ماتوا أو قتلوا : لو أطاعونا ما ماتوا ، وما قتلوا .

وأما قوله (إذَا ضَرَبُوا فِي الأرْضِ) فإنه اختُلِف فى تأويله ؛ فقال بعضهم : هو السفر فى التجارة ، والسير فى الأرض لطلب المعيشة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (إذَا ضَرَبُوا فِي الأرْضِ) وهى التجارة .

وقال آخرون : بل هو السير فى طاعة الله ، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (إذَا ضَرَبُوا فِي الأرْضِ) : الضرب فى الأرض فى طاعة الله ، وطاعة رسوله . وأصل الضرب فى الأرض : الإبعاد فيها سيرا .

وأما قوله (أوْ كانُوا غُزًّى) فإنه يعنى : أو كانوا غُزاة فى سبيل الله ، والغُزَّى : جمع غاز ، جمع على فُعَّل ، كما يجمع شاهد : شُهَّد ، وقائل : قُوَّل ، وقد ينشد بيت رؤبة :

فاليَوْمَ قَدْ نَهْنَهَنِى تَنَهْنُهِى وأَوْلُ حِلْمٍ لَيْسَ بالمُسَفَّهِ
وَقُوَّلٌ إلاَّ دَهٍ فَلا دَهٍ[1]

وينشد أيضا : وقولُهُمْ إلاَّ دَهٍ فَلا دَهٍ

وإنما قيل : (لاتَكُونُوا كالَّذِينَ كَفَرُوا وَقالُوا لإخْوانِهِمْ إذَا ضَرَبُوا فِي الأرْضِ أوْ كانُوا غُزًّى) بإصحاب ماضى الفعل الحرف الذى لايصحب مع الماضى منه إلا المستقبل ، فقيل : وقالوا لإخوانهم ثم قيل : إذا ضربوا . وإنما يقال فى الكلام : أكرمتك إذ زرتنى ، ولا يقال : أكرمتك إذا زرتنى ، لأن القول الذى فى قوله (وَقالُوا لإخْوانِهِمْ) وإن كان فى لفظ الماضى ، فإنه بمعنى المستقبل . وذلك أن العرب تذهب بالذين مذهب الجزاء ، وتعاملها فى ذلك معاملة مَن وما ، لتقارب معانى ذلك فى كثير من الأشياء ، وإن جمعهن أشياء مجهولات غير مؤقتات توقيت عمرو وزيد ، فلما كان ذلك كذلك ، وكان صحيحا

(١) الأبيات فى ديوان رؤبة طبع ليبسج (٢ : ١٦٦) وفى اللسان (دهده) الأول والثالث منها . قال : وقولهم : إلا ده فلا ده ، معناه : إن لم يكن هذا الأمر الآن ، فلا يكون بعد الآن ، ولا يدرى ما أصله ؟ قال الجوهرى : وإنى لأظنها فارسية ، يقول : إن لم تضرب الآن فلا تضرب به أبدا . والقول جمع قائل ، مثل راكع وركع . وفى حديث الكاهن إلا ده فلا ده (بإسكان الهاء فيهما) هذا مثل من أمثال العرب قديم ، معناه : إن لم تنله الآن لم تنله أبدا . وقيل أصله فارسى معرب ، أى إن لم تعط الآن لم تعط أبدا . وأول الحلم : رجوعه .

فى الكلام فصيحا ، أن يقال للرجل : أكرم من أكرمك ، وأكرم كل رجل أكرمك ، فيكون الكلام خارجا بلفظ الماضى مع مَن وكل مجهول ، ومعناه الاستقبال ، إذ كان الموصوف بالفعل غير مؤقت ، وكان الذين فى قوله (لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ) غير موقتين ، أجريت مجرى مَنْ ، وما فى ترجمتها ، التى تذهب مذهب الجزاء ، وإخراج صلاتها بألفاظ الماضى من الأفعال ، وهى بمعنى الاستقبال ، كما قال الشاعر فى ما :

وإنى لآتيكم تَشَكُّرَ ما مَضَى ... من الأمرِ وَاسْتِيجابَ ما كان فى غدِ[1]

فقال : ما كان فى غد ، وهو يريد : ما يكون فى غد ، ولو كان أراد الماضى لقال : ما كان فى أمس ، ولم يجز له أن يقول : ما كان فى غد ، ولو كان الذى موقتا ، لم يجز أن يقال : ذلك خطأ أن يقال لك : مَن هذا الذى أكرمك إذا زرته ؟ لأن الذى ههنا مؤقت ، فقد خرج من معنى الجزاء ، ولو لم يكن فى الكلام هذا ، لكان جائزا فصيحا ، لأن الذى يصير حينئذ مجهولا غير موقت ، ومن ذلك قول الله عزّ وجلّ (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) فردّ يصدون على كفروا ، لأن « الذين » غير مؤقتة ، فقوله (كَفَرُوا) وإن كان فى لفظ ماض ، فمعناه الاستقبال ، وكذلك قوله (إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا) ، وقوله (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ) معناه : إلا الذين يتوبون من قبل أن تقدروا عليهم ، وإلا من يتوب ويؤمن ، ونظائر ذلك فى القرآن والكلام كثير ، والعلة فى كل ذلك واحدة . وأما قوله (لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ) فإنه يعنى بذلك : حزنا فى قلوبهم .

كما حدثنا محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قوله (فِي قُلُوبِهِمْ) قال : يحزُنهم قولهم لا ينفعهم شيئا .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ) : لقلة اليقين بربهم جلّ ثناؤه .

القول فى تأويل قوله جلّ ثناؤه (وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) :

يعنى جلّ ثناؤه بقوله (وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ) : والله المعجل الموت لمن يشاء من حيث يشاء ، والمميت من يشاء كلما شاء ، دون غيره من سائر خلقه ، وهذا من الله عزّ وجلّ ، ترغيب لعباده المؤمنين على جهاد عدوّه ، والصبر على قتالهم ، وإخراج هيبتهم من صدورهم ، وإن قلّ عددهم ، وكثر عدد أعدائهم وأعداء الله ، وإعلام منه لهم أن الإماتة والإحياء بيده ، وأنه لن يموت أحد ولا يقتل ، إلا بعد فناء أجله الذى كتب له ، ونهىٌ منه لهم إذ كان كذلك أن يجزعوا لموت من مات منهم ، أو قتل من قُتل منهم

---

(١) البيت فى اللسان (شكر) أنشده أبو على (ولعله الفارسى) . قال : أى لتشكر ما مضى ، وأراد ما « يكون » فى غد ، فوضع الماضى (ما كان) موضع الآتى ، كما قال المؤلف . ورواية اللسان « فى الغد » فى مكان « فى غد » .
وأنشده الفراء فى معانى القرآن (ص٨٣ من مصورة جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٥٩) ، وعنه أخذه المؤلف .

فى حرب المشركين ، ثم قال جلّ ثناؤه (وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) يقول : إن الله يرى ماتعملون من خير وشرّ ، فاتقوه أيها المؤمنون ، فإنه مُحصٍ ذلك كله ، حتى يجازى كل عامل بعمله ، على قدر استحقاقه .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال ابن إسحاق .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (وَاللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ) : أى يعجل ما يشاء ويؤخر ما يشاء من آجالهم بقدرته .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه

وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧)

فخاطب جلّ ثناؤه عباده المؤمنين ، يقول لهم : لاتكونوا أيها المؤمنون فى شكّ من أن الأمور كلها بيد الله ، وأن إليه الإحياء والإماتة ، كما شكّ المنافقون فى ذلك ، ولكن جاهدوا فى سبيل الله ، وقاتلوا أعداء الله ، على يقين منكم بأنه لايقتل فى حرب ، ولا يموت فى سفر ، إلا من بلغ أجله وحانت وفاته ؛ ثم وعدهم على جهادهم فى سبيله المغفرة والرحمة ، وأخبرهم أن موتا فى سبيل الله ، وقتلا فى الله ، خير لهم مما يجمعون فى الدنيا من حُطامها ، ورغيد عيشها ، الذى من أجله يتثاقلون عن الجهاد فى سبيل الله ، ويتأخرون عن لقاء العدوّ .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) : أى إن الموت كائن لابد منه ، فموت فى سبيل الله ، أو قتل ، خير لو علموا ، فأيقنوا مما يجمعون فى الدنيا التى لها يتأخرون عن الجهاد ، تخوّفا من الموت والقتل ، لما جمعوا من زهيد الدنيا وزهادة فى الآخرة ، وإنما قال الله عزّ وجلّ (لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) وابتدأ الكلام : ولئن متم أو قتلتم بحذف جزاء لئن ، لأن فى قوله (لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) معنى جواز للجزاء ، وذلك أنه وعْد خرج مخرج الخبر .

فتأويل الكلام : ولئن قتلتم فى سبيل الله ، أو مُتّم ليغفرنّ الله لكم وليرحمنكم ، فدلّ على ذلك بقوله (لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) وجمع مع الدلالة به عليه ، الخبر عن فضل ذلك على ما يؤثرونه من الدنيا ، وما يجمعون فيها .

وقد زعم بعض أهل العربية من أهل البصرة : أنه إن قيل : كيف يكون (لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ) جوابا لقوله (وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ) فان القول فيه أن يقال فيه [١] : كأنه قال : ولئن متم أو قتلتم ، فذكر لهم رحمة من الله ومغفرة ، إذ كان ذلك فى السبيل ، فقال (لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ) : يقول لذلك (خَيْرٌ مِمَّا تَجْمَعُونَ) يعنى لتلك المغفرة والرحمة خير مما تجمعون ، ودخلت اللام فى قوله (لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ) لدخولها فى قوله : ولئن ، كما قيل : (وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ) .

(١) قوله أن يقال فيه ... إلى آخر العبارة : كذا فى الأصول .

القول فى تأويل قوله

﴿ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨) ﴾

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : ولئن متم أو قتلتم أيها المؤمنون ، فإن إلى الله مرجعكم ومحشركم ، فيجازيكم بأعمالكم ، فآثروا ما يقرّبكم من الله ، ويوجب لكم رضاه ، ويقرّبكم من الجنة ، من الجهاد فى سبيل الله ، والعمل بطاعته، على الركون إلى الدنيا ، وما تجمعون فيها من حُطامها الذى هو غير باق لكم ، بل هو زائل عنكم ، وعلى ترك طاعة الله والجهاد ، فإن ذلك يبعدكم عن ربكم ، ويوجب لكم سخطه ، ويقرّبكم من النار .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال ابن إسحاق .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ) أىّ ذلك كان (لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ) أى إن إلى الله المرجع ، فلا تغرّنكم الحياة الدنيا ، ولا تغترّوا بها ، وليكن الجهاد وما رغّبكم الله فيه منه ، آثرُ عندكم منها ، وأدخلت اللام فى قوله (لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ) لدخولها فى قوله ولئن ، ولو كانت اللام مؤخرة ، إلى قوله : تحشرون ، لأُحدثت النون الثقيلة فيه ، كما تقول فى الكلام : لئن أحسنت إلىّ لأحسننّ إليك ، بنون مثقلة ، فكان كذلك قوله : ولئن متم أو قتلتم لتُحْشَرُنّ إلى الله ، ولكن لما حيز بين اللام وبين تحشرون بالصفة[١] ، أدخلت فى الصفة ، وسلمت تحشرون ، فلم تدخلها النون الثقيلة ، كما تقول فى الكلام : لئن أحسنت إلىّ لإليك أحسن ، بغير نون مثقلة .

القول فى تأويل قوله

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) ﴾

يعنى جلّ ثناؤه بقوله (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ) : فبرحمة من الله ، وما صلة ، وقد بينت وجه دخولها فى الكلام فى قوله (إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا ، بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا) ، والعرب تجعل«ما»صلة فى المعرفة والنكرة ، كما قال:(فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ) . والمعنى :فبنقضهم ميثاقهم،وهذا فى المعرفة،وقال فى النكرة:(عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ). والمعنى :عن قليل . وربما جعلت اسما وهى فى مذهب صلة ، فيرفع مابعدها أحيانا على وجه الصلة ، ويخفض على إتباع الصلة ماقبلها ، كما قال الشاعر :

فَكَفَى بِنا فَضْلاً على مَنْ غَيْرِنا حُبُّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ إيَّانا[٢]

إذا جعلت غير صلة رفعت بإضمار هو ، وإن خُفِضَت أتبعت مَنْ فأعربته ، فذلك حكمه على ماوصفنا مع

(١) المراد بالصفة : حرف الجر ، وهو اصطلاح نحويى الكوفة ، ويميل إليهم المؤلف ، لأنه كان معجبا بالفراء من أئمتهم .

(٢) هذا البيت من شواهد النحويين (الخزانة ٢ : ٥٤٥) وهو شاهد على أن (من) نكرة موصوفة بمفرد ، وهو قوله (غيرنا) وقد تكون موصولة حذف صدر صلتها . وجعل المؤلف ما نظيرة (من) فى البيت من بعض الوجوه واستشهد به الفراء فى معانى القرآن ص٧٤ من مصورة جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٧٥ واقتبس المؤلف كلامه . وقائله : حسان ، أو كعب بن مالك أو عبد الله بن رواحة .

النكرات ، فأما إذا كانت الصلة معرفة ، كان الفصيح من الكلام الإتباع ، كما قيل ، فبما نقضهم ميثاقهم ، والرفع جائز فى العربية[1] .

وبنحو ماقلنا فى قوله (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ) قال جماعة من أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، فى قوله (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ) يقول : فبرحمة من الله لنت لهم .

وأما قوله (وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) فإنه يعنى بالفظّ : الجافى ، وبالغليظ القلب : القاسى القلب غير ذى رحمة ولا رأفة ، وكذلك كانت صفته صلى الله عليه وسلم ، كما وصفه الله به « بالمؤمنين رءوف رحيم » .

فتأويل الكلام : فبرحمة الله يامحمد ورأفته بك ، وبمن آمن بك من أصحابك ، لنت لهم ، لتُبَّاعك وأصحابك ، فسهلت لهم خلائقك ، وحسنت لهم أخلاقك ، حتى احتملت أذى من نالك منهم أذاه ، وعفوت عن ذى الجُرم منهم جُرمه ، وأغضيت عن كثير ممن لو جفوت به ، وأغلظت عليه ، لتركك ففارقك ، ولم يتبعك ، ولا ما بعثت به من الرحمة ، ولكن الله رحمهم ورحمك معهم ، فبرحمة من الله لنت لهم .

كما حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) : إى والله ، لَطهره الله من الفظاظة والغلظة ، وجعله قريبا رحيما بالمؤمنين رءوفا . وذُكر لنا أن نعت محمد صلى الله عليه وسلم فى التوراة : ليس بفظّ ولا غليظ ولا صخوب فى الأسواق ، ولا يَجزى بالسيئة مثلها ، ولكن يعفو ويصفح .

حُدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، بنحوه .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، فى قوله (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) قال : ذكر لينه لهم ، وصبره عليهم لضعفهم ، وقلة صبرهم على الغلظة لو كانت منه فى كل ما خالفوا فيه ، مما افترض عليهم من طاعة نبيهم .

وأما قوله (لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) فإنه يعنى : لتفرّقوا عنك .

كما حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس ، قوله (لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) قال : انصرفوا عنك .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) أى لتركوك .

القول فى تأويل قوله (فَاعْفُ عَنْهُمْ ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) :

يعنى تعالى ذكره بقوله (فَاعْفُ عَنْهُمْ) : فتجاوز يامحمد عن تُبَّاعك وأصحابك من المؤمنين بك ،

(١) عبارة الفراء فى معانى القرآن : فإذا كانت الصلة معرفة آثروا الرفع ؛ من ذلك : « فبما نقضهم » لم يقرأه أحد برفع ولم نسمعه ، ولو قيل جاز .

وبما جئت به من عندى ، ما نالك من أذاهم ، ومكروه فى نفسك (وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ) : وادع ربك لهم بالمغفرة لما أتوا من جرُم ، واستحقوا عليه عقوبة منه .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (فاعْفُ عَنْهُمْ) : أى فتجاوز عنهم ، (وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ) ذنوبَ من قارف من أهل الإيمان منهم .

ثم اختلف أهل التأويل فى المعنى الذى من أجله أمر تعالى ذكره نبيه صلى الله عليه وسلم أن يشاورهم ، وما المعنى الذى أمره أن يشاورهم فيه ؟ فقال بعضهم : أمر الله نبيَّه صلى الله عليه وسلم بقوله (وَشاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ) بمشاورة أصحابه فى مكايد الحرب ، وعند لقاء العدوّ ، تطييبا منه بذلك أنفسهم ، وتألُّفا لهم على دينهم ، وليروا أنه يسمع منهم ، ويستعين بهم ، وإن كان الله عزّ وجلّ قد أغناه بتدبيره له أمورَه ، وسياسته إياه ، وتقويمه أسبابه عنهم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَشاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ، فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلى اللهِ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَوَكِّلِينَ) أمر الله عزّ وجلّ نبيه صلى الله عليه وسلم أن يشاور أصحابه فى الأمور ، وهو يأتيه وحى السماء ، لأنه أطيب لأنفُس القوم ، وإن القوم إذا شاور بعضهم بعضا ، وأرادوا بذلك وجه الله ، عزم لهم على أرشده .

حُدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (وَشاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ) قال : أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يشاور أصحابه فى الأمور ، وهو يأتيه الوحى من السماء ، لأنه أطيب لأنفسهم .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (وَشاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ) : أى لتريهم أنك تسمع منهم ، وتستعين بهم ، وإن كنت عنهم غنيا ، تؤلفهم بذلك على دينهم .

وقال آخرون : بل أمره بذلك فى ذلك ، وإن كان له الرأى ، وأصوب الأمور فى التدبير ، لما علم فى المشورة تعالى ذكره من الفضل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن سلمة بن نُبَيط ، عن الضحاك بن مزاحم ، قوله (وَشاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ) قال : ما أمر الله عزّ وجلّ نبيه صلى الله عليه وسلم بالمشورة ، إلا لما علم فيها من الفضل .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا معتمر بن سليمان ، عن إياس بن دَغْفل ، عن الحسن : ما شاور قوم قَطُّ ، إلا هُدوا لأرشد أمورهم .

وقال آخرون : إنما أمره الله بمشاورة أصحابه فيما أمره بمشاورتهم فيه ، مع إغنائه بتقويمه إياه ، وتدبيره أسبابه ، عن آرائهم ، ليتبعه المؤمنون من بعده ، فيما حزبهم من أمر دينهم ، ويستنُّوا بسنته فى ذلك ، ويحتذوا المثال الذى رأوه يفعله فى حياته : من مشاورته فى أموره ، مع المنزلة التى هو بها من الله ، أصحابه وتُبَّاعه فى الأمر ، ينزل بهم من أمر دينهم ودنياهم ، فيتشاوروا بينهم ، ثم يَصدُروا عما اجتمع عليه ملؤُهم ، لأن المؤمنين إذا

تشاوروا فى أمور دينهم متبعين الحقّ فى ذلك ، لم يُخلِهم الله عزّ وجلّ من لطفه ، وتوفيقه للصواب من الرأى ، والقول فيه ؛ قالوا : وذلك نظير قوله عزّ وجلّ ، الذى مدح به أهل الإيمان (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا سوار بن عبد الله العنبرىّ ، قال : قال سفيان بن عيينة ، فى قوله (وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ) قال : هى للمؤمنين أن يتشاوروا فيما لم يأتهم عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فيه أثر .

قال أبو جعفر : وأولى الأقوال بالصواب فى ذلك : أن يقال : إن الله عزّ وجلّ أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بمشاورة أصحابه ، فيما حزَبه من أمر عدوّه ، ومكايد حربه ، تألفا منه بذلك من لم تكن بصيرته بالإسلام ، البصيرةَ التى يؤمَن عليه معها فتنة الشيطان ، وتعريفا منه أمته ما فى الأمور التى تحزُبهم من بعده ومطلبها ، ليقتدوا به فى ذلك عند النوازل التى تنزل بهم ، فيتشاوروا فيما بينهم ، كما كانوا يرونه فى حياته صلى الله عليه وسلم يفعله ؛ فأما النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فإن الله كان يعرِّفه مطالب وجوه ما حزَبه من الأمور بوحيه أو إلهامه إياه صوابَ ذلك ؛ وأما أمته ، فإنهم إذا تشاوروا مُستنين بفعله فى ذلك على تصادق وتآخٍ للحق ، وإرادة جميعهم للصواب ، من غير ميل إلى هوى ، ولا حَيْد عن هُدى ، فالله مسدّدهم وموفقهم .

وأما قوله (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) فإنه يعنى : فإذا صحّ عزمك بتثبيتنا إياك ، وتسديدنا لك ، فيما نابك وحزَبك من أمر دينك ودنياك ، فامض لما أمرناك به ، على ما أمرناك به ، وافق ذلك آراء أصحابك ، وما أشاروا به عليك ، أو خالفها ، وتوكَّل فيما تأتى من أمورك وتدع ، وتحاول أو تزاول ، على ربك ، فثق به فى كل ذلك ، وارض بقضائه فى جميعه ، دون آراء سائر خلقه ومعونتهم ، فإن الله يحبّ المتوكلين ، وهم الراضون بقضائه ، والمستسلمون لحكمه فيهم ، وافق ذلك منهم هوى ، أو خالفه .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) فإذا عزمت : أى على أمر جاءك منى ، أو أمر من دينك فى جهاد عدوك ، لا يصلحك ولا يصلحهم إلا ذلك ، فامض على ما أُمِرت به ، على خلاف من خالفك ، وموافقة من وافقك ، وتوكل على الله : أى ارضَ به من العباد ، إن الله يحبّ المتوكلين .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) : أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم ، إذا عزم على أمر أن يمضى فيه ، ويستقيم على أمر الله ، ويتوكل على الله .

حُدثت عن عمار ، عن ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قوله (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) . . . الآية : أمره الله إذا عزم على أمر ، أن يمضى فيه ، ويتوكل عليه .

القول فى تأويل قوله

إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠)

يعنى تعالى ذكره بذلك : إن ينصركم الله أيها المؤمنون بالله ورسوله ، على من ناوأكم وعاداكم من أعدائه ، والكافرين به ، فلا غالب لكم من الناس ، يقول : فلن يغلبكم مع نصره إياكم أحد ، ولو اجتمع عليكم مَنْ بين أقطارها من خلقه ، فلا تهابوا أعداء الله لقلة عددكم ، وكثرة عددهم ، ما كنتم على أمره ، واستقمتم على طاعته وطاعة رسوله ، فإن الغلبة لكم والظفر دونهم (وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ) يعنى : إن يخذلكم ربكم ، بخلافكم أمره ، وترككم طاعته وطاعة رسوله ، فيكلكم إلى أنفسكم ، فمن ذا الذى ينصركم من بعده ؟ يقول : فَأْيِسُوا من نصرة الناس ، فإنكم لاتجدون امرأ من بعد خذلان الله إياكم إن خذلكم . يقول : فلا تتركوا أمرى ، وطاعتى وطاعة رسولى ، فتهلكوا بخذلانى إياكم (وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) يعنى : ولكن على ربكم أيها المؤمنون فتوكلوا دون سائر خلقه ، وبه فارضوا من جميع من دونه ، ولقضائه فاستسلموا ، وجاهدوا فيه أعداءه ، يكفكم بعونه ، ويمددكم بنصره .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ؟ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) : أى إن ينصرك الله فلا غالب لك من الناس ، لن يضرك خذلان من خذلك ، وإن يخذلك ، فلن ينصرك الناس ، فمن الذى ينصركم من بعده : أى لاتترك أمرى للناس ، وارفض الناس لأمرى (وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) .

القول فى تأويل قوله

وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ، وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١)

اختلفت القرّاء فى قراءة ذلك ، فقرأته جماعة من قراء الحجاز والعراق (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ) بمعنى : أن يخون أصحابه ، فيما أفاء الله عليهم من أموال أعدائهم ؛ واحتج بعض قارئى هذه القراءة ، أن هذه الآية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى قَطِيفة فُقِدت من مغانم القوم يوم بدر ، فقال بعض من كان مع النبىّ صلى الله عليه وسلم : لعلّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها ، ورووْا فى ذلك روايات .

فمنها ما حدثنا به محمد بن عبد الملك بن أبى الشوارب ، قال : ثنا عبد الواحد بن زياد ، قال : ثنا خَصِيف ، قال : ثنا مِقسم ، قال : ثنى ابن عباس : أن هذه الآية (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ) نزلت فى قطيفة حمراء فُقدت يوم بدر ؛ قال : فقال بعض الناس : أخذها ، قال : فأكثروا فى ذلك ، فأنزل الله عزّ وجلّ : (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ ، وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) .

حدثنا ابن أبى الشوارب ، قال : ثنا عبد الواحد ، قال : ثنا خصيف ، قال : سألت سعيد بن جبير :

كيف تقرأ هذه الآية ؟ (وَما كان لِنَبِيٍّ أنْ يَغُلَّ) أو يُغَلَّ ؟ قال : لا . بل يَغُلَّ ، فقد كان النبيّ والله يَغُلّ ويقتل .

حدثني إسحاق بن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد ، قال : ثنا عتاب بن بشير ، عن خَصيف ، عن مقسم ، عن ابن عباس (وَما كانَ لِنَبِيٍّ أن يَغُلَّ) قال : كان ذلك فى قطيفة حمراء فُقدت فى غزوة بدر ، فقال أناس من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم : فلعلّ النبيّ أخذها ، فأنزل الله عزّ وجلّ (وَما كانَ لِنَبِيٍّ أنْ يَغُلَّ) قال سعيد : بل والله إن النبيّ ليَغُلّ ويقتل .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا خلاد ، عن زهير ، عن خَصيف ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : كانت قطيفة فقدت يوم بدر ، فقالوا : أخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله عزّ وجلّ (وَما كانَ لِنَبِيٍّ أنْ يَغُلَّ) .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا مالك بن إسماعيل ، قال : ثنا زهير ، قال : ثنا خصيف ، عن سعيد بن جبير وعكرمة ، فى قوله (وَما كانَ لِنَبِيٍّ أنْ يَغُلَّ) قالا : يَغُلّ ، قال : قال عكرمة أو غيره ، عن ابن عباس ، قال : كانت قطيفة فقدت يوم بدر ، فقالوا : أخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فأنزل الله هذه الآية (وَما كانَ لِنَبِيٍّ أنْ يَغُلَّ) .

حدثنا مجاهد بن موسى ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا قَزَعة بن سويد الباهليّ ، عن حميد الأعرج ، عن سعيد بن جبير ، قال : نزلت هذه الآية (وَما كانَ لِنَبِيٍّ أنْ يَغُلَّ) فى قطيفة حمراء فُقدت يوم بدر من الغنيمة .

حدثنا نصر بن عليّ الجَهْضميّ ، قال : ثنا معتمر ، عن أبيه ، عن سليمان الأعمش ، قال : كان ابن مسعود يقرأ (ما كانَ لِنَبِيٍّ أنْ يَغَلَّ) فقال ابن عباس : بلى ، ويقتل ، قال : فذكر ابن عباس : أنه إنما كانت فى قطيفة ، قالوا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، غلّها يوم بدر ، فأنزل الله (وَما كانَ لِنَبِيٍّ أنْ يَغُلَّ) .

وقال آخرون ممن قرأ ذلك كذلك ، بفتح الياء وضمّ الغين : إنما نزلت هذه الآية فى طلائع ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وجههم فى وجه ، ثم غنم النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فلم يقسم للطلائع ، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية على نبيه صلى الله عليه وسلم ، يعلمه فيها أن فعله الذى فعله خطأ ، وأن الواجب عليه فى الحكم أن يقسم للطلائع ، مثل ما قسم لغيرهم ، ويعرّفه الواجب عليه من الحكم ، فيما أفاء الله عليه من الغنائم ، وأنه ليس له أن يَخُص بشىء منها أحدا ممن شهد الوقعة ، أو ممن كان رِدْءا لهم فى غزوهم دون أحد

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (وَما كانَ لِنَبِيٍّ أنْ يَغُلَّ ، وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ القِيامَةِ) يقول : ما كان للنبى أن يقسم لطائفة من المسلمين ، ويترك طائفة ، ويجورَ فى القَسْم ، ولكن يقسم بالعدل ، ويأخذ فيه بأمر

الله ، ويحكم فيه بما أنزل الله ، يقول : ما كان الله ليجعل نبيا يَغُلّ من أصحابه ، فإذا فعل ذلك النبيّ صلى الله عليه وسلم ، استنُّوا به .

حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا هشيم ، عن جويبر ، عن الضحاك ، أنه كان يقرأ (ما كانَ لِنَبِيّ أنْ يَغُلَّ) قال : أن يعطىَ بعضا ، ويترك بعضا ، إذا أصاب مغنما .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن سلمة بن نبيط ، عن الضحاك ، قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم طلائع ، فغنم النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فلم يقسم للطلائع ، فأنزل الله عزّ وجلّ (وَما كانَ لِنَبِيّ أنْ يَغُلَّ) .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا مُعاذ ، قال : أخبرنا عبيد بن سليمان ، عن الضحاك (ما كانَ لِنَبِيّ أنْ يَغُلَّ) يقول : ما كان لنبيّ أن يقسم لطائفة من أصحابه ، ويترك طائفة ، ولكن يعدل ، ويأخذ فى ذلك بأمر الله عزّ وجلّ ، ويحكم فيه بما أنزل الله .

حدثنى يحيى بن أبى طالب ، قال : أخبرنا يزيد ، قال : أخبرنا جويبر ، عن الضحاك ، فى قوله (وَما كانَ لِنَبِيّ أنْ يَغُلَّ) قال : ما كان له إذا أصاب مغنما أن يقسم لبعض أصحابه ، ويدع بعضا ، ولكن يقسم بينهم بالسوية .

وقال آخرون : ممن قرأ ذلك بفتح الياء وضمّ الغين : إنما أنزل ذلك تعريفا للناس : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، لايكتم من وحى الله شيئا .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (وَما كانَ لِنَبِيّ أنْ يَغُلَّ ، وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ القِيامَةِ ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ ، وَهُمْ لايُظْلَمُونَ) : أى ما كان لنبىّ أن يكتم الناسَ ما بعثه الله به إليهم ، عن رهبة من الناس ، ولا رغبة ، ومن يعمل ذلك يأت به يوم القيامة

فتأويل قراءة من قرأ ذلك كذلك : ما ينبغى لنبىّ أن يكون غالاّ ، بمعنى : أنه ليس من أفعال الأنبياء خيانة أممهم ، يقال منه : غلّ الرجل فهو يَغُلّ ، إذا خان ، غُلُولا . ويقال أيضا منه : أغلّ الرجل فهو يُغِلّ إغلالا ، كما قال شريح : ليس على المستعير غير المُغِلّ ضمان ، يعنى : غير الخائن ؛ ويقال منه : أغلّ الجازر : إذا سرق من اللحم شيئا مع الجلد .

وبما قلنا فى ذلك ، جاء تأويل أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (ما كانَ لِنَبِيّ أنْ يَغُلَّ) يقول : ما كان ينبغى له أن يخون ، فكما لاينبغى له أن يخون ، فلا تخونوا .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قوله (ما كانَ لِنَبِيّ أنْ يَغُلَّ) قال : أن يخون .

وقرأ ذلك آخرون : (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يُغَلَّ) بضم الياء وفتح الغين ، وهى قراءة عُظْم قراء أهل المدينة والكوفة .

واختلف قارئو ذلك كذلك فى تأويله ، فقال بعضهم : معناه : ما كان لنبىّ أن يَغُلَّه أصحابه ، ثم أسقط الأصحاب ، فبقى الفعل غير مسمى فاعله ، وتأويله : وما كان لنبىّ أن يُخان .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا عوف ، عن الحسن أنه كان يقرأ (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يُغَلَّ) قال عوف : قال الحسن : أن يخان .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يُغَلَّ) يقول : وما كان لنبىّ أن يَغُلَّه أصحابه الذين معه من المؤمنين ، ذُكر لنا أن هذه الآية نزلت على النبىّ صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، وقد غَلَّ طوائف من أصحابه .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، فى قوله (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يُغَلَّ) قال : أن يَغُلَّه أصحابه .

حُدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قوله (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يُغَلَّ) قال الربيع بن أنس ، يقول : ما كان لنبىّ أن يغله أصحابه الذين معه ، قال : ذكر لنا ـ والله أعلم ـ أن هذه الآية أنزلت على نبىّ الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، وقد غلّ طوائفُ من أصحابه .

وقال آخرون منهم : معنى ذلك : وما كان لنبىّ أن يُتَّهَم بالغُلول فيخون ويسرق . وكأن متأوّلى ذلك كذلك وجهوا قوله (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يُغَلَّ) ، إلى أنه مراد به يُغَلَّل ، ثم خففت العين من يُفعَّل ، فصارت يُفْعَل ، كما قرأ من قرأ قوله (فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ) بتأوّل : يُكذِّبونك .

وأولى القراءتين بالصواب فى ذلك عندى : قراءة من قرأ : (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ) ، بمعنى : ما الغلول من صفات الأنبياء ، ولايكون نبيا مَن غَلّ . وإنما اخترنا ذلك ، لأن الله عزّ وجلّ أوعد عقيب قوله (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ) أهل الغلول ، فقال : (وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) . . . الآية ، والتى بعدها ، فكان فى وعيده عقيب ذلك أهل الغلول ، الدليل الواضح على أنه إنما نهى بذلك عن الغلول ، وأخبر عباده أن الغلول ليس من صفات أنبيائه بقوله (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ) ، لأنه لو كان إنما نهى بذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتهموا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغلول ، لعقب ذلك بالوعيد على التهمة ، وسوء الظنّ برسول الله صلى الله عليه وسلم ، لابالوعيد على الغلول ، وفى تعقيبه ذلك بالوعيد على الغلول بيان بيّن ، أنه إنما عرّف المؤمنين وغيرهم من عباده ، أن الغلول منتف من صفة الأنبياء وأخلاقهم ، لأن ذلك جُرم عظيم ، والأنبياء لاتأتى مثله .

فإن قال قائل ممن قرأ ذلك كذلك : فأولى منه[1] وما كان لنبىّ أن يخونه أصحابه ، أن ذلك كما ذكرت ، ولم

(١) قوله « فأولى منه » : لعله فأوله : وما كان . . . الخ .

يعقب الله قوله (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ) إلا بالوعيد على الغلول ، ولكنه إنما وجب الحكم بالصحة لقراءة من قرأ (يُغَلَّ) بضم الياء وفتح الغين ، لأن معنى ذلك : وما كان للنبيّ أن يغله أصحابه ، فيخونوه فى الغنائم ؛ قيل له : أفكان لهم أن يَغُلّوا غير النبيّ صلى الله عليه وسلم فيخونوه ، حتى خُصوا بالنهى عن خيانة النبيّ صلى الله عليه وسلم . فإن قالوا : نعم ، خرجوا من قول أهل الإسلام ، لأن الله لم يبح خيانة أحد ، فى قول أحد من أهل الإسلام قطّ .

وإن قال قائل : لم يكن ذلك لهم فى نبيّ ولا غيره ؟ قيل : فما وجه خصوصهم إذًا بالنهى عن خيانة النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وغلوله وغلول بعض اليهود بمنزلة ، فيما حرّم الله على الغالّ من أموالهما ، وما يلزم المؤتمن من أداء الأمانة إليهما ، وإذا كان ذلك كذلك ، فمعلوم أن معنى ذلك هو ما قلنا : من أن الله عزّ وجل نفى بذلك أن يكون الغلول والخيانة من صفات أنبيائه ، ناهيا بذلك عباده عن الغلول ، وآمرا لهم بالاستنان بمنهاج نبيهم ، كما قال ابن عباس فى الرواية التى ذكرناها من رواية عطية [١] ، ثم عقب تعالى ذكره نهيهم عن الغلول بالوعيد عليه ، فقال (وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) . . . الآيتين معا .

القول فى تأويل قوله (وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) :

يعنى بذلك تعالى ذكره : ومن يخن من غنائم المسلمين شيئا ، وفيئهم ، وغير ذلك ، يأت به يوم القيامة فى المحشر .

كما حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا ابن فُضَيل ، عن يحيى بن سعيد أبى حَيّان ، عن أبى زُرْعة ، عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قام خطيبا ، فوعظ وذكّر ، ثم قال : « ألا عَسَى رَجُلٌ مِنْكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ القِيامَةِ على رَقَبَتِهِ شاةٌ لَهَا ثُغاءٌ ، يَقُولُ : يا رَسُولَ اللهِ أغِثْنِى ، فَأقُولُ : لاأمْلِكُ لَكَ شَيْئًا ، قَدْ أبْلَغْتُكَ ؛ ألا هَلْ عَسَى رَجُلٌ مِنْكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ القِيامَةِ على رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهَا حَمْحَمَةٌ ، يَقُولُ : يا رَسُولَ اللهِ أغِثْنِى ، فَأقُولُ : لاأمْلِكُ لَكَ شَيْئًا ، قَدْ أبْلَغْتُكَ ؛ ألا هَلْ عَسَى رَجُلٌ مِنْكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ القِيامَةِ على رَقَبَتِهِ صامِتٌ ، فَيَقُولُ : يا رَسُولَ اللهِ أغِثْنِى ، فَأقُولُ : لاأمْلِكُ لَكَ شَيْئًا ، قَدْ أبْلَغْتُكَ ؛ ألا هَلْ عَسَى رَجُلٌ مِنْكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ القِيامَةِ على رَقَبَتِهِ بَقَرَةٌ لَهَا خُوارٌ ، يَقُولُ : يا رَسُولَ اللهِ أغِثْنِى فَأقُولُ : لاأمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أبْلَغْتُكَ ؛ ألا هَلْ عَسَى رَجُلٌ مِنْكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ القِيامَةِ على رَقَبَتِهِ رِقاعٌ تَخْفِقُ ، يَقُولُ : يا رَسُولَ اللهِ أغِثْنِى ، فَأقُولُ : لاأمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أبْلَغْتُكَ » .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا عبد الرحمن ، عن أبى حَيّان ، عن أبى زرعة ، عن أبى هريرة ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، مثل هذا ، زاد فيه : « على رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغاءٌ ، لاألْفَيَنَّ أحَدَكُمْ على رَقَبَتِهِ نَفْسٌ لَهَا صِياحٌ » .

(١) قوله من رواية ، عطية : لم يتقدم ذكر هذا الراوى .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا ابن علية ، قال : ثنا أبو حيّان ، عن أبى زرعة ، عن عمرو بن جرير ، عن أبى هريرة ، قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا يوما ، فذكر الغلول، فعظّمه وعظّم أمره ، فقال : « لاألْفِيَنَّ أحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ القِيامَةِ على رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغاءٌ ، يَقُولُ : يا رَسُولَ اللهِ أغِثْنِى » ثم ذكر نحو حديث أبى كريب ، عن عبد الرحمن .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا حفص بن بشر ، عن يعقوب القمّى ، قال : ثنا حفص بن حميد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لاأعْرِفَنَّ أحَدَكُمْ يأتى يَوْمَ القِيامَةِ يَحْمِلُ شاةً لَها ثُغاءٌ ، يُنادِى : يا مُحَمَّدُ يا مُحَمَّدُ ، فأقُولُ : لاأمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا ، قَدْ بَلَّغْتُكَ ، ولاأعرفنَّ أحَدَكُمْ يأتى يَوْمَ القِيامَةِ يَحْمِلُ جَمَلاً لَه رُغاءٌ ، يَقُولُ : يا مُحمدُ يا مُحَمَّدُ ، فأقُولُ : لاأمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا ، قَدْ بَلَّغْتُكَ ؛ وَلا أعرِفَنَّ أحَدَكُم يأتى يَوْمَ القِيامَةِ يَحْمِلُ فَرَسًا لَه حَمْحَمَةٌ ، يُنادِى : يا مُحمدُ يا مُحَمَّدُ ، فأقُولُ : لاأمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا ، قَدْ بَلَّغْتُكَ ، وَلا أعْرِفَنَّ أحَدَكُمْ يأتى يَوْمَ القِيامَةِ يَحْمِلُ قِسْمًا مِن أَدَمٍ يُنادِى : يا مُحَمَّدُ يا مُحَمَّدُ ، فأقُولُ : لاأمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا ، قَدْ بَلَّغْتُكَ » .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا أسباط بن محمد ، قال : ثنا أبو إسحاق الشيبانىّ ، عن عبد الله بن ذكوان ، عن عروة بن الزُّبير ، عن أبى حميد ، قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مصدّقا ، فجاء بسواد[1] كثير ، قال : فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من يقبضه منه ؛ فلما أتوه ، جعل يقول : هذا لى ، وهذا لكم ؛ قال : فقالوا : من أين لك هذا ؟ قال : أُهدى إلىّ . فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبروه بذلك ، فخرج فخطب ، فقال : « أيُّها النَّاسُ ، ما بالى أبْعَثُ قَوْمًا إلى الصدَقَةِ ، فَيَجِيءُ أحَدُهُمْ بالسَّوادِ الكَثِيرِ ، فإذا بَعَثْتُ مَنْ يَقْبِضُهُ ، قالَ : هَذَا لى ، وَهَذَا لَكُمْ ، فإنْ كانَ صادِقًا أفَلا أُهْدِىَ لَه وَهُوَ فى بَيْتِ أبِيهِ ، أوْ فى بَيْتِ أُمِّهِ ؟ ثُمَّ قالَ : أيُّها النَّاس ، مَنْ بَعَثْناه على عَمَلٍ فَغَلَّ شَيْئًا ، جاءَ بِهِ يَوْمَ القِيامَةِ على عُنُقِهِ يَحْمِلُهُ ، فاتَّقُوا اللهَ أنْ يأتِىَ أحَدُكُمْ يَوْمَ القِيامَةِ على عُنُقِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغاءٌ ، أوْ بَقَرَةٌ تَخُورُ ، أوْ شاةٌ تَثْغُو » .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا أبو معاوية وابن نمير وعبدة بن سليمان ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن أبى حميد الساعدىّ ، قال : استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من الأزد ، يقال له ابن اللُّتْبية ، على صدقات بنى سُلَيم ؛ فلما جاء قال : هذا لكم ، وهذا هدية أُهديت لى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفَلا يَجْلِسُ أحَدُكُمْ فى بَيْتِهِ فَتأتِيهُ هَدِيَّتُهُ » ، ثُمَّ حَمِدَ اللهَ وأثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قالَ : أمَّا بَعْدُ ، فإنِّى أسْتَعْمِلُ رِجالاً مِنْكُمْ على أُمُورٍ مِمَّا وَلاَّنِى اللهُ ، فَيَقُولُ أحَدُهُمْ هَذَا الَّذِى لَكُمْ ، وَهَذَا هَدِيَّةٌ أُهدِيتْ إلىَّ ، أفَلا يَجْلِسُ فى بَيْتِ أبِيهِ أوْ بَيْتِ أُمِّهِ ، فتأتِيهُ هَدِيَّتُهُ ، وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ ، لا يأخُذُ أحَدُكُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ، إلا جاءَ بِهِ يَوْمَ القِيامَةِ يَحْمِلُهُ على

(١) قال النووى فى شرح مسلم : أى بأشياء كثيرة ، وأشخاص بارزة من حيوان وغيره . والسواد : يقع على كل شخص . اه .

على عُنُقِهِ ، فلا أعرِفَنَّ ما جاء رَجُلٌ يَحْمِلُ بَعيرًا لَهُ رُغاءٌ . أوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ ، أو شاةً تَثْغُو . ثم رفع يده ، فقال : ألا هَلْ بَلَّغْتُ » .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا عبد الرحيم ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن أبي حميد ، حدثه بمثل هذا الحديث ، قال : أَفَلا جَلَسْتَ فِي بَيْتِ أَبِيكَ وَأُمِّكَ حَتَّى تَأْتِيَكَ هَدِيَّتُكَ ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَهُ حتى إنى لأنظر إلى بياض[1] إبطيه ، ثم قال : اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ » قال أبو حميد : بَصُرَ عيني ، وسمع أذني .

حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن وهب ، قال : ثنى عمى عبد الله بن وهب ، قال : أخبرني عمرو بن الحارث : أن موسى بن جبير ، حدثه أن عبد الله بن عبد الرحمن بن الحُباب الأنصاريَّ ، حدثه أن عبد الله بن أنيس حدثه ، أنه تذاكر هو وعمر يوما الصدقة ، فقال : ألم تسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ذكر غلول الصدقة ، من غلَّ منها بعيرا أو شاة ، فإنه يحمله يوم القيامة ؟ قال عبد الله بن أنيس : بلى .

حدثنا سعيد بن يحيى الأموى ، قال : ثنا أبى ، قال : ثنا يحيى بن سعيد الأنصاريّ ، عن نافع ، عن ابن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعث سعد بن عبادة مصدِّقا ، فقال : « إياكَ يا سَعْدُ أنْ تَجِيءَ يَوْمَ القيامَةِ بِبَعِيرٍ تَحْمِلُهُ لَهُ رُغاءٌ . قال : لا آخذه ولا أجيء به ، فأعفاه » .

حدثنا أحمد بن المغيرة الحمصى أبو حميد ، قال : ثنا الربيع بن روح ، قال : ثنا ابن عياش ، قال : ثنى عبيد الله ابن عمر بن حفص ، عن نافع مولى ابن عمر ، عن عبد الله بن عمر ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : أنه استعمل سعد بن عبادة ، فأتى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فسلم عليه ، فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : « إيَّاكَ يا سَعْدُ أنْ تَجِيءَ يَوْمَ القِيامَةِ تَحْمِلُ على عُنُقِكَ بَعيرًا لَهُ رُغاءٌ » ، فقال سعد : فإن فعلتُ يا رسول الله ، إن ذلك لكائن . قال : نَعَمْ ، قال سعد : قد علمتَ يا رسول الله أنى أسأل فأُعطى ، فأعفنى ، فأعفاه » .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا زيد بن حبان ، قال : ثنا عبد الرحمن بن الحارث ، قال : ثنى جدّى عبيد ابن أبى عبيد ، وكان أوّلَ مولود بالمدينة ، قال : استُعملت على صدقة دوس ، فجاءنى أبو هريرة فى اليوم الذى خرجت فيه ، فسلم ، فخرجت إليه ، فسلمت عليه ، فقال : كيف أنت والبعير ، كيف أنت والبقر ، كيف أنت والغنم ؟ ثم قال : سمعت حِبِّى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ أخَذَ بَعيرًا بغَيْرِ حقِّه ، جاءَ بِهِ يَوْمَ القِيامَةِ لَهُ رُغاءٌ ، ومَنْ أخَذَ بَقَرَةً بغَيْرِ حقها ، جاءَ بها يَوْمَ القيامَةِ لَهَا خُوارٌ ، ومَنْ أخَذَ شاةً بغَيْرِ حقها ، جاءَ بها يَوْمَ القيامةِ على عُنُقِهِ لَهَا ثُغاءٌ ، فإيَّاكَ والبَقَرَ فإنَّها أحَدُّ قُرُونًا ، وأشَدُّ أظْلافًا » .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا خالد بن مخلد ، قال : ثنى محمد ، عن عبد الرحمن بن الحارث ، عن جده عبيد بن أبى عبيد ، قال : اسْتُعْمِلْتُ على صدقة دَوْس ، فلما قضيت العمل قدمت ، فجاءنى أبو هريرة فسلم علىّ ، فقال : أخبرنى كيف أنت والإبل ، ثم ذكر نحو حديثه عن زيد ، إلا أنه قال : « جاء بِهِ يَوْمَ القِيامَةِ على عُنُقِهِ لَهُ رُغاءٌ » .

(١) فى صحيح مسلم : عفرتى أبطيه . وفسرها النووى بالبياض غير الخالص .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ ، وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) قال قتادة : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم ، إذا غنم مغنما ، بعث مناديا : ألا لايغلّن رجل مخيطا فما دونه ، ألا لايُغلّن رجل بعيرا ، فيأتى به على ظهره يوم القيامة له رُغاء ، ألا لا يغلن رجل فرسا ، فيأتى به على ظهره يوم القيامة له حمحمة .

القول فى تأويل قوله (ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَاكَسَبَتْ ، وَهُمْ لايُظْلَمُونَ) :

يعنى بذلك جلّ ثناؤه (ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ) : ثم تعطى كل نفس جزاء ما كسبت بكسبها وافياً غير منقوص ، مما استحقه واستوجبه من ذلك (وَهُمْ لايُظْلَمُونَ) يقول : لايفعل بهم إلا الذى ينبغى أن يفعل بهم ، من غير أن يعتدى عليهم ، فينقصوا عما استحقوه .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَاكَسَبَتْ ، وَهُمْ لايُظْلَمُونَ) ثم يُجزى بكسبه غير مظلوم ، ولا معتدًى عليه .

القول فى تأويل قوله

أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ؟ (١٦٢)

اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك ، فقال بعضهم : معنى ذلك : أفمن اتبع رضوان الله فى ترك الغلول كمن باء بسخَط من الله بغلوله ما غلّ .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا ابن عيينة ، عن مطرّف ، عن الضحاك فى قوله (أفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ) قال : من لم يغل . كمن باء بسخط من الله : كمن غلّ .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى سفيان بن عيينة ، عن مُطَرّف بن طريف ، عن الضحاك قوله (أفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ) قال : من أدّى الخمس كمن باء بسخط من الله ، فاستوجب سخطا من الله .

وقال آخرون فى ذلك بما حدثنى به ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (أفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ) على ما أحبّ الناسُ وسخطوا ، كمن باء بسخط من الله ، لرضا الناس وسخطهم ؟ يقول : أفمن كان على طاعتى ، فثوابه الجنة ورضوان من ربه ، كمن باء بسخَط من الله ، فاستوجب غضبه ، وكان مأواه جهنم وبئس المصير ، أسَوَاء المَثَلان ؟ أى فاعرفوا .

وأولى التأويلين بتأويل الآية عندى : قول الضحاك بن مزاحم ، لأن ذلك عقيب وعيد الله على الغلول ونهيه عباده عنه ، ثم قال لهم بعد نهيه عن ذلك ووعيده ، أسواء المطيع لله فيما أمره ونهاه ، والعاصى له فى ذلك ؟ أى أنهما لايستويان ، ولاتستوى حالتاهما عنده ، لأن لمن أطاع الله فيما أمره ونهاه : الجنة ، ولمن عصاه فيما أمره ونهاه : النار . فمعنى قوله (أفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ ؟) إذن : أفمن ترك الغلول ، وما نهاه الله عنه من معاصيه ، وعمل بطاعة الله فى تركه ذلك ، وفى غيره مما أمره به ونهاه

من فرائضه، متبعا فى كل ذلك رضا الله، ومجتنبا سخطه، كمن باء بسخط من الله. يعنى: كمن انصرف متحملا سخط الله وغضبه، فاستحقّ بذلك سكنى جهنم؟ يقول: ليسا سواء. وأما قوله (وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) فإنه يعنى: وبئس المصير الذى يصير إليه، ويئوب إليه من باء بسخط من الله، جهنمُ.

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه

هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ، وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣)

يعنى تعالى ذكره بذلك: أن من اتبع رضوان الله، ومن باء بسخط من الله مختلفو المنازل عند الله، فلمن اتبع رضوان الله، الكرامة والثواب الجزيل، ولمن باء بسخط من الله، المهانة والعقاب الأليم.

كما حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق (هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ، وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ): أى لكل درجات مما عملوا فى الجنة والنار، إن الله لايخفى عليه أهل طاعته من أهل معصيته.

حدثنى محمد بن سعد، قال: ثنى أبى، قال: ثنى عمى، قال: ثنى أبى، عن أبيه، عن ابن عباس (هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ) يقول: بأعمالهم.

وقال آخرون: معنى ذلك: لهم درجات عند الله، يعنى: لمن اتبع رضوان الله منازل عند الله كريمة.

ذكر من قال ذلك:

حدثنى محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، عن عيسى، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد فى قوله (هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ) قال: هى كقوله: لهم درجات عند الله.

حدثنا محمد، قال: ثنا أحمد، قال: ثنا أسباط، عن السدىّ (هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ) يقول: لهم درجات عند الله؛ وقيل قوله (هُمْ دَرَجَاتٌ) كقول القائل: هم طبقات، كما قال ابن هَرْمَة:

أَرَجْمٌ لِلْمَنُونِ يَكُونُ قَوْمِى ... لِرَيْبِ الدَّهْرِ أَمْ دَرَجُ السُّيُولِ[1]

وأما قوله (وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ) فإنه يعنى: والله ذو علم بما يعمل أهل طاعته ومعصيته، لايخفى عليه من أعمالهم شىء، يُحصِى على الفريقين جميعا أعمالهم، حتى توفّى كل نفس منهم جزاء ما كسبت من خير وشرّ.

كما حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق (وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ) يقول: إن الله لايخفى عليه أهل طاعته من أهل معصيته.

---

(١) البيت من شواهد النحويين (الخزانة ١ : ٢٠٣ — ٢٠٤) وهو منسوب لإبراهيم بن هرمة من الخلج من قيس عيلان. وروايته فيها مختلفة شيئا عن رواية المؤلف:

أَنُصْبٌ لِلْمَنِيَّةِ تَعْتَرِيهِمْ ... رِجَالِىَ أَمْ هُمُ دَرَجَ السُّيُولِ

يبكى قومه لكثرة من فقد منهم. والنصب بالضم: الشىء المنصوب. ودرج السيول: الموضع الذى يمر به السيل، فينزل من موضع إلى موضع حتى يستقر. والدرج: الطريق. يقول: قومى أكانوا غرضا للمنية فأهلكتهم، أم كانوا فى ممر السيل فاجترفهم؟ وأنشده فى اللسان كرواية الخزانة نقلا عن سيبويه. قال ودرج السيل ومدرجه: منحدره وطريقه فى معاطف الأودية. وقالوا: هو درج السيل، وإن شئت رفعت.

القول فى تأويل قوله

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ ، وَيُزَكِّيهِمْ ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَٰبَ ، وَالْحِكْمَةَ ، وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (١٦٤)

يعنى بذلك : لقد تطوّل الله على المؤمنين ، إذ بعث فيهم رسولا ، حين أرسل فيهم رسولا من أنفسهم ، نبيا من أهل لسانهم ، ولم يجعله من غير أهل لسانهم ، فلا يفقهوا عنه ما يقول ، يتلو عليهم آياته ، يقول : يقرأ عليهم آى كتابه وتنزيله . ويزكيهم ، يعنى : يطهرهم من ذنوبهم باتباعهم إياه ، وطاعتهم له ، فيما أمرهم ونهاهم . (وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) يعنى : ويعلمهم كتاب الله الذى أنزله عليه ، ويبين لهم تأويله ومعانيه . والحكمة ، ويعنى بالحكمة : السنة التى سنها الله جلّ ثناؤه للمؤمنين على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبيانه لهم (وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلالٍ مُبِينٍ) يعنى : إن كانوا من قبل أن يمنّ الله عليهم بإرساله رسولَه الذى هذه صفته ، لفى ضلال مبين ، يقول : فى جهالة جهلاء ، وفى حيرة عن الهدى عمياء ، لايعرفون حقا ، ولا يبطلون باطلا . وقد بينا أصل الضلالة فيما مضى ، وأنه الأخذ على غير هدى ، بما أغنى عن إعادته فى هذا الموضع . والمبين : الذى يبين لمن تأمله بعقله ، وتدبره بفهمه ، أنه على غير استقامة ، ولا هدى .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال جماعة من أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ) منّ الله عليهم من غير دعوة ولا رغبة من هذه الأمة ، جعله الله رحمة لهم ، ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويهديهم إلى صراط مستقيم . قوله : (وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) الحكمة : السنة (وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلالٍ مُبِينٍ) : ليس والله كما تقول أهلُ حَرُوراء : محنة غالبة ، من أخطأها أهريق دمه ، ولكن الله بعث نبيه صلى الله عليه وسلم إلى قوم لايعلمون فعلّمهم ، وإلى قوم لاأدب لهم فأدبهم .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قال : (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) إلى قوله (لَفِى ضَلالٍ مُبِينٍ) : أى لقد منّ الله عليكم يا أهل الإيمان إذ بعث فيكم رسولا من أنفسكم ، يتلو عليكم آياته ، ويزكيكم فيما أخذتم ، وفيما عملتم ، ويعلمكم الخير والشرّ ، لتعرفوا الخير ، فتعملوا به ، والشرّ فتتقوه ، ويخبركم برضاه عنكم إذا أطعتموه ، لتستكثروا من طاعته ، وتجتنبوا ما سخِط منكم من معصيته ، فتتخلصوا بذلك من نقمته ، وتدركوا بذلك ثوابه من جنته (وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلالٍ مُبِينٍ) : أى فى عمياء من الجاهلية ، لاتعرفون حسنة ، ولا تستغيثون من سيئة ، صمٌّ عن الحق ، عُمْىٌ عن الهدى .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه

أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَٰذَا ؟ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥)

يعنى تعالى ذكره بذلك : أو حين أصابتكم أيها المؤمنون مصيبة ، وهى القتلى الذين قُتلوا منهم يوم أحد ، والجرحى الذين جرحوا منهم بأُحد ، وكان المشركون قتلوا منهم يومئذ سبعين نفرا ، قد أصبتم مثليها ، يقول : قد أصبتم أنتم أيها المؤمنون من المشركين مثلَىْ هذه المصيبة، التى أصابوا هم منكم ، وهى المصيبة التى أصابها المسلمون من المشركين ببدر ، وذلك أنهم قتلوا منهم سبعين ، وأسروا سبعين ، (قُلْتُمْ أَنَّى هَٰذَا ؟) يعنى : قلتم لما أصابتكم مصيبتكم بأُحد : أنى هذا ؟ من أىّ وجه هذا ؟ ومن أين أصابنا هذا الذى أصابنا ، ونحن مسلمون وهم مشركون ، وفينا نبىّ الله صلى الله عليه وسلم ، يأتيه الوحى من السماء ، وعدوّنا أهل كفر بالله وشرك ؟ قل يامحمد للمؤمنين بك من أصحابك : (هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ): يقول : قل لهم : أصابكم هذا الذى أصابكم من عند أنفسكم ، بخلافكم أمرى ، وترككم طاعتى ، لا من عند غيركم ،ولا من قِبَل أحد سواكم (إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) يقول : إن الله على جميع ما أراد بخلقه من عفو وعقوبة وتفضل وانتقام ، قدير . يعنى : ذو قدرة .

ثم اختلف أهل التأويل فى تأويل قوله (قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ) بعد إجماع جميعهم على أن تأويل سائر الآية، على ما قلنا فى ذلك من التأويل ، فقال بعضهم : تأويل ذلك : قل هو من عند أنفسكم ، بخلافكم على نبىّ الله صلى الله عليه وسلم ، إذ أشار عليكم بترك الخروج إلى عدوّكم والإصحار لهم ، حتى يدخلوا عليكم مدينتكم ، ويصيروا بين آطامكم ، فأبيتم ذلك عليه ، وقلتم : اخرج بنا إليهم ، حتى نُصْحِر لهم ، فنقاتلهم خارج المدينة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا ، قُلْتُمْ أَنَّى هَٰذَا) أصيبوا يوم أُحد ، قتل منهم سبعون يومئذ ، وأصابوا مثليها يوم بدر ، قتلوا من المشركين سبعين ، وأسروا سبعين (قُلْتُمْ أَنَّى هَٰذَا ، قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ) ذكر لنا أن نبىّ الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يوم أُحد، حين قدم أبو سفيان والمشركون ، فقال نبىّ الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « إِنَّا فِى جُنَّةٍ حَصِينَةٍ » يعنى بذلك : المدينة ، فَدَعُوا القَوْمَ أن يَدْخُلُوا عَلَيْنَا نُقَاتِلْهُمْ ، فقال ناس له من أصحابه من الأنصار : يا نبىّ الله : إنا نكره أن نقتل فى طرق المدينة ، وقد كنا نمتنع فى الغزو فى الجاهلية ، فبالإسلام أحقّ أن نمتنع فيه ، فابرز بنا إلى القوم ، فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلبس لأمته ، فتلاوم القوم ، فقالوا عرّض نبىّ الله صلى الله عليه وسلم بأمر ، وعرّضتم بغيره ، اذهب ياحمزة فقل لنبىّ الله صلى الله عليه وسلم : أمرُنا لأمرك تبع ، فأتى

حمزة فقال له : يا نبيّ الله إن القوم قد تلاوموا ، وقالوا : أمرُنا لأمرك تبع . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنَّهُ لَيْسَ لِنَبِيٍّ إذَا لَبِسَ لأْمَتَهُ أنْ يَضَعَهَا حَتَى يُنَاجِزَ ، وَإنَّهُ سَتَكُونُ فِيكُم مُصِيبَةٌ . قالوا : يا نبيّ الله ، خاصة أوعامة ؟ قال : سَتَرَوْنَها » .

ذُكر لنا ، أن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم رأى فى المنام أن بقرا تُنْحَر ، فتأوّلها قتلا فى أصحابه ، ورأى أن سيفه ذا الفقار انقصم ، فكان قَتْل عمه حمزة ، قُتِل يومئذ ، وكان يقال له : أسد الله ، ورأى أن كبشا[1] أغبر ، فتأوّله كبش الكتيبة عثمان بن أبى طلحة ، أصيب يومئذ ، وكان معه لواء المشركين .

حُدثت عن عمار ، عن ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بنحوه ، غير أنه قال (قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا) يقول : مثلَىْ ما أصيب منكم (قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا ، قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ) يقول : بما عصيتم .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، قال : أصيب المسلمون يوم أُحد مصيبة ، وكانوا قد أصابوا مثليها يوم بدر ممن قُتلوا وأسروا ، فقال الله عزّ وجلّ : (أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا) .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن عمر بن عطاء ، عن عكرمة ، قال : قتل المسلمون من المشركين يوم بدر سبعين ، وأسروا سبعين ؛ وقتل المشركون يوم أُحد من المسلمين سبعين ، فذلك قوله (قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا ، قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا ؟) إذ نحن مسلمون نقاتل غضبا لله ، وهؤلاء مشركون (قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ) عقوبة لكم بمعصيتكم النبيّ صلى الله عليه وسلم حين قال ما قال .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن مبارك ، عن الحسن (أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا ، قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا ؟ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ) قالوا : فإنما أصابنا هذا ، لأنا قبلنا الفداء يوم بدر من الأسارى ، وعصينا النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، فمن قُتل منا كان شهيدا ، ومن بقى منا كان مطهرا ، رضينا بالله ربًّا .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن مبارك ، عن الحسن وابن جريج ، قالا : معصيتهم أنه قال لهم : لاتتبعوهم يوم أُحد فاتبعوهم .

حدثنا محمد ، قال : ثنا أحمد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، ثم ذكر ما أصيب من المؤمنين ، يعنى بأُحد ، وقتل منهم سبعون إنسانا (أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا) كانوا يوم بدر أسروا سبعين رجلا ، وقتلوا سبعين (قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا ؟) : أى من أين هذا ؟ (قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ) ، إنكم عصيتم .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس

---

(١) الذى فى السير : ورأيت أنى مردف كبشا ، فلعل فيه سقطا أو زيادة من الناسخ .

قوله (أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا) يقول : إنكم أصبتم من المشركين يوم بدر ، مثلَىْ ما أصابوا منكم يوم أُحد .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، ثم ذكر المصيبة التي أصابتهم ، فقال (أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا ، قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا ؟ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ) : أى إن تك قد أصابتكم مصيبة فى إخوانكم ، فبذنوبكم . قد أصبتم مثليها ، قتلا من عدوكم فى اليوم الذى كان قبله ببدر ، قتلى وأسرى ، ونسيتم معصيتكم وخلافكم ما أمركم به نبيكم صلى الله عليه وسلم ، إنكم أحللتم ذلك بأنفسكم (إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) : أى إن الله على كل ما أراد بعباده من نقمة ، أو عفو ، قدير .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا) . . . الآية ، يعنى بذلك : أنكم أصبتم من المشركين يوم بدر ، مثلَىْ ما أصابوا منكم يوم أُحد .

وقال بعضهم : بل تأويل ذلك : قل هو من عند أنفسكم بإسارتكم المشركين يوم بدر ، وأخذكم منهم الفداء ، وترككم قتلهم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا ابن فُضَيل ، عن أشعث بن سوار ، عن ابن سيرين ، عن عبيدة ، قال : أسر المسلمون من المشركين سبعين ، وقتلوا سبعين . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اخْتَارُوا أَنْ تَأْخُذُوا مِنْهُمُ الفِدَاءَ ، فَتَتَقَوَّوْا بِهِ عَلَى عَدُوِّكُمْ ، وَإِنْ قَبِلْتُمُوهُ قُتِلَ مِنْكُمْ سَبْعُونَ ، أَوْ تَقْتُلُوهُمْ ، فقالوا : بل نأخذ الفدية منهم ، ويُقتل منا سبعون ، قال : فأخذوا الفدية منهم ، وقتلوا منهم سبعين ، قال عبيدة : وطلبوا الخيرتين كلتيهما .

حدثني يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا ابن علية ، قال : ثنا ابن عون ، عن ابن سيرين ، عن عبيدة أنه قال فى أسارى بدر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إِنْ شِئْتُمْ قَتَلْتُمُوهُمْ ، وَإِنْ شِئْتُمْ فَادَيْتُمُوهُمْ ، وَاسْتُشْهِدَ مِنْكُمْ بِعِدَّتِهِمْ ، قالوا : بل نأخذ الفداء فنستمتع به ، ويستشهد منا بعدّتهم .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى إسماعيل ، عن ابن عون ، عن محمد ، عن عبيدة السَّلْمانى ؛ وحدثني حجاج عن جرير ، عن محمد ، عن عبيدة السَّلْمانى ، عن علىّ ، قال : جاء جبريل إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فقال له : يامحمد إن الله قد كره ما صنع قومك فى أخذهم الأسارى ، وقد أمرك أن تخيرهم بين أمرين : أن يقدموا فتضرب أعناقهم ، وبين أن يأخذوا الفداء ، على أن يقتل منهم عدّتهم قال : فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس ، فذكر ذلك لهم ، فقالوا : يا رسول الله ، عشائرنا وإخواننا ، لا ، بل نأخذ فداءهم ، فنتقوّى به على قتال عدوّنا ، ويستشهد منا عدّتهم ، فليس فى ذلك ما نكره ، قال : فقتل منهم يوم أُحد سبعون رجلا ، عدّة أسارى أهل بدر .

القول فى تأويل قوله

وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ، وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ، قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ، هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ، يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ. وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧)

يعنى تعالى ذكره بذلك: والذى أصابكم يوم التقى الجمعان، وهو يوم أُحد حين التقى جمع المسلمين والمشركين. ويعنى بالذى أصابهم: ما نال من القتل من قُتِل منهم، ومن الجراح من جُرح منهم، فبإذن الله. يقول، فهو بإذن الله كان، يعنى: بقضائه وقَدَره فيكم، وأجاب ما بالفاء، لأن ما حرف جزاء، وقد بينت نظير ذلك فيما مضى قبل (وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ، وليعلمَ الَّذِينَ نافقُوا) بمعنى: وليعلم الله المؤمنين، وليعلم الذين نافقوا، أصابكم ما أصابكم يوم التقى الجمعان بأُحد، ليميز أهل الإيمان بالله ورسوله المؤمنين منكم من المنافقين، فيعرفونهم، لايخفى عليهم أمر الفريقين. وقد بيّنا تأويل قوله (وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ) فيما مضى، وما وجه ذلك؟ بما أغنى عن إعادته فى هذا الموضع.

وبنحو ما قلنا فى ذلك، قال ابن إسحاق.

حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق (وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَقَى الجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ، وَلِيَعْلَمَ المُؤْمِنِينَ): أى ما أصابكم حين التقيتم أنتم وعدوّكم فبإذنى، كان ذلك حين فعلتم ما فعلتم بعد أن جاءكم نصرى، وصدقتم وعدى، ليميز بين المنافقين والمؤمنين، وليعلم الذين نافقوا منكم: أى ليظهروا ما فيهم.

القول فى تأويل قوله جلّ ثناؤه (وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ، أَوِ ادْفَعُوا، قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتالاً لاتَّبَعْنَاكُمْ، هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ، يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ).

يعنى تعالى ذكره بذلك: عبد الله بن أبىّ ابن سلول المنافق، وأصحابه الذين رجعوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه، حين سار نبىّ الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين بأُحد لقتالهم، فقال لهم المسلمون: تعالوا قاتلوا المشركين معنا، أو ادفعوا بتكثيركم سوادنا، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لسرنا معكم إليهم، ولكنا معكم عليهم، ولكن لانرى أنه يكون بينكم وبين القوم قتال، فأبدوا من نفاق أنفسهم ما كانوا يكتمونه، وأبدوا بألسنتهم بقولهم (لَوْ نَعْلَمُ قِتالاً لاتَّبَعْنَاكُمْ) غير ما كانوا يكتمونه ويخفونه، من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأهل الإيمان به.

كما حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، قال: ثنى محمد بن مسلم بن شهاب الزهرىّ، ومحمد بن يحيى بن حبان، وعاصم بن عمر بن قتادة، والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ

وغيرهم من علمائنا ، كلهم قدحدّث ، قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعنى : حين خرج إلى أُحد فى ألف رجل من أصحابه ، حتى إذا كانوا بالشوط بين أُحد والمدينة، انخزل عنهم عبد الله بن أبىّ ابن سلول بثلث الناس، فقال: أطاعهم فخرج، وعصانى، والله ما ندرى علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس؟ فرجع بمن اتبعه من الناس من قومه من أهل النفاق وأهل الريب ، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام أخو بنى سَلِمة ، يقول : ياقوم أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم عند ما حضر من عدوّهم ، فقالوا : لونعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم، ولكنا لانرى أن يكون قتال ، فلما استعصَوا عليه ، وأبَوا إلا الانصراف عنهم، قال : أبعدكم الله أعداء الله ، فسيغنى الله عنكم ، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا) يعنى : عبد الله بن أبىّ ابن سلول وأصحابه ، الذين رجعوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين سار إلى عدوّه من المشركين بأُحد ، وقوله (لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ) يقول : لو نعلم أنكم تقاتلون لسرنا معكم ، ولدفعنا عنكم ، ولكن لانظنّ أن يكون قتال ، فظهر منهم ما كانوا يخفون فى أنفسهم يقول الله عزّ وجلّ : (هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ) وليس فى قلوبهم (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ) : أى يخفون .

حدثنا محمد ، قال : ثنا أحمد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعنى : يوم أُحد فى ألف رجل ، وقد وعدهم الفتح إن صبروا ، فلما خرجوا رجع عبد الله بن أبىّ ابن سلول فى ثلثمائة ، فتبعهم أبو جابر السلمىّ يدعوهم ، فلما غلبوه وقالوا له : ما نعلم قتالا ، ولئن أطعتنا لترجعنّ معنا ... قال[1] : فذكر الله أصحاب عبد الله بن أبىّ بن سلول ، وقول عبد الله بن جابر بن أبى عبد الله الأنصارى حين دعاهم ، فقالوا : ما نعلم قتالا ، ولئن أطعتمونا لترجعُنّ معنا ، فقال الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا : لو أطاعونا ما قتلوا ، قل : فادرءوا عن أنفسكم الموت .

حدثنا القاسم ، قال: ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج قال : قال ابن جريج : قال عكرمة (قَالُوا: لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ) قال : نزلت فى عبد الله ابن أبىّ بن سَلول ، قال ابن جريج : وأخبرنى عبد الله بن كثير ، عن مجاهد (لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا) قال : لو نعلم أنا واجدون معكم قتالا ، لو نعلم مكان قتال لاتبعناكم .

واختلفوا فى تأويل قوله (أَوِ ادْفَعُوا) فقال بعضهم :معناه: أو كثّروا ، فإنكم إذا كثّرتم دفعتم القوم.

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد ، قال : ثنا أحمد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (أَوِ ادْفَعُوا) يقول : أو كثّروا .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج (أَوِ ادْفَعُوا) قال : بكثرتكم العدوّ ، وإن لم يكن قتال .

---

(١) الظاهر أن قوله «قال» هو أول رد أبى جابر السلمى على كلام المنافقين ، وحذف بقية كلامه اكتفاء بذكره فى الحديث الذى قبله ، وهو بمعناه .

وقال آخرون : معنى ذلك : أو رابطوا إن لم تقاتلوا .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا إسماعيل بن حفص الآملىّ وعلىّ بن سهل الرملىّ ، قالا : ثنا الوليد بن مسلم ، قال : ثنا عتبة بن ضمرة ، قال : سمعت أبا عون الأنصارىّ فى قوله (قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا) قال : رابطوا .

وأما قوله (وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ) فإنه يعنى به : والله أعلم من هؤلاء المنافقين الذين يقولون للمؤمنين : (لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاتَّبَعْنَاكُمْ) بما يضمرون فى أنفسهم للمؤمنين ويكتمونه ، فيستّرونه ، من العداوة والشنآن ، وأنهم لو علموا قتالا ما تبعوهم ، ولا دافعوا عنهم ، وهو تعالى ذكره محيط بما يخفونه من ذلك ، مطلع عليه ، ومحصيه عليهم ، حتى يهتك أستارهم فى عاجل الدنيا ، فيفضحهم به ، ويصليهم به الدرك الأسفل من النار فى الآخرة .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه

﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (١٦٨)

يعنى تعالى ذكره بذلك : وليعلم الله الذين نافقوا ، الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا ، فموضع الذين نصب على الإبدال من الذين نافقوا ، وقد يجوز أن يكون رفعا على الترجمة عما فى قوله (يَكْتُمُونَ) من ذكر الذين نافقوا ، فمعنى الآية : وليعلم الله الذين قالوا لإخوانهم الذين أصيبوا مع المسلمين فى حربهم المشركين بأُحد يوم أُحد ، فقتلوا هنالك من عشائرهم وقومهم . وقعدوا : يعنى وقعد هؤلاء المنافقون القائلون ماقالوا ، مما أخبر الله عزّ وجلّ عنهم ، من قيلهم عن الجهاد مع إخوانهم وعشائرهم فى سبيل الله : لو أطاعونا ، يعنى : لو أطاعنا من قُتل بأُحد من إخواننا وعشائرنا ما قُتلوا ، يعنى : ما قتلوا هنالك ، قال الله عزّ وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قل يا محمد لهؤلاء القائلين هذه المقالة من المنافقين : فادرءوا ، يعنى : فادفعوا ، من قول القائل : درأت عن فلان القتل ، بمعنى : دفعت عنه ، أدرؤه دَرْءا ، ومنه قول الشاعر :

تَقُولُ وَقَدْ دَرَأْتُ لَهَا وَضِينِى　　　أَهَــذَا دِينُهُ أَبَدًا وَدِينِى [1]

يقول تعالى ذكره : قل لهم : فادفعوا إن كنتم أيها المنافقون صادقين فى قيلكم : لو أطاعنا إخواننا فى ترك الجهاد فى سبيل الله مع محمد صلى الله عليه وسلم ، وقتالهم أبا سفيان ، ومن معه من قريش ، ماقُتلوا هنالك بالسيف ، ولكانوا أحياء بقعودهم معكم ، وتخلفهم عن محمد صلى الله عليه وسلم ، وشهود جهاد أعداء الله معه الموت ، فإنكم قد قعدتم عن حربهم ، وقد تخلفتم عن جهادهم ، وأنتم لامحالة ميتون .

---

(١) أنشد البيت فى اللسان (درأ) ونسبه للمثقب العبدى . قال : ويقال : درأت له وسادة : إذا بسطتها . ودرأت وضين البعير : إذا بسطته على الأرض ، ثم أبركته عليه ، لتشده به . وقد درأت فلانا الوضين على البعير وداريته .

وأنشده فى (وضن) وقال عن الجوهرى : الوضين للهودج بمنزلة البطان للقتب ، والتصدير للرحل ، والحزام للسرج ، وإذا كان مضفورا من سيور مضاعفا عريضا فهو وضين . والجمع : وضن . ودينه : عادته وديدنه . وأنشد بيت المثقب شاهدا عليه . يقول : تقول هذه الناقة إذا شددتها بحزامها : هذه عادته معى ، لا يزال يتعبنى ولا يريحنى .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ) الذين أصيبوا معكم من عشائرهم وقومهم : (لَوْ أطاعُونا ما قُتِلُوا) . . . الآية : أى أنه لابدّ من الموت ، فإن استطعتم أن تدفعوه عن أنفسكم فافعلوا ، وذلك أنهم إنما نافقوا ، وتركوا الجهاد فى سبيل الله ، حرصا على البقاء فى الدنيا ، وفرارا من الموت .

ذكر من قال : الذين قالوا لإخوانهم هذا القول ، هم الذين قال الله فيهم (وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نافَقُوا) :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (الَّذِينَ قالُوا لِإِخْوانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أطاعُونا ما قُتِلُوا) . . . الآية ، ذُكر لنا أنها نزلت فى عدوّ الله عبد الله بن أبىّ .

حدثنا محمد ، قال : ثنا أحمد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، قال : هم عبد الله بن أبىّ وأصحابه .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : هو عبد الله بن أبىّ الذى قعد ، وقال لإخوانه الذين خرجوا مع النبىّ صلى الله عليه وسلم يوم أُحد : (لَوْ أطاعُونا ما قُتِلُوا) . . . الآية . قال ابن جريج عن مجاهد ، قال : قال جابر بن عبد الله : هو عبد الله بن أبىّ ابن سلول .

حُدثت عن عمار ، عن ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع قوله (الَّذِينَ قالُوا لِإِخْوانِهِمْ وَقَعَدُوا) . . . الآية ، قال : نزلت فى عدوّ الله عبد الله بن أبىّ .

القول فى تأويل قوله جلّ ثناؤه

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠)

يعنى تعالى ذكره (وَلا تَحْسَبَنَّ) : ولا تظنّنّ .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (وَلا تَحْسَبَنَّ) : ولا تظنّنّ ، وقوله (الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) يعنى : الذين قُتلوا بأُحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أمواتا ، يقول ولا تحسبنهم يا محمد أمواتا ، لايحسّون شيئا ، ولا يلتذّون ، ولا يتنعمون ، فإنهم أحياء عندى ، متنعمون فى رزقى ، فرحون مسرورون بما آتيتهم من كرامتى وفضلى ، وحبوتهم به من جزيل ثوابى وعطائى .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن محمد بن إسحاق ، وحدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : ثنا إسماعيل بن عياش ، عن ابن إسحاق ، عن إسماعيل بن أمية ، عن أبى الزبير المكى ، عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَمَّا أُصِيبَ إخْوَانُكُمْ بِأُحُدٍ ، جَعَلَ اللهُ أرْوَاحَهُمْ فِي أجْوَافِ طَيْرٍ خُضْرٍ ، تَرِدُ أنْهارَ الجَنَّةِ ، وَتَأْكُلُ مِنْ ثِمارِها ، وَتَأْوِى إلى قَنادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ فِي ظِلِّ العَرْشِ ، فَلَمَّا وَجَدُوا طِيبَ مَشْرَبِهِمْ وَمَأْكَلِهِمْ

وَحُسْنَ مَقِيلِهِمْ ، قالُوا : يا لَيْتَ إخْوانَنا يَعْلَمُونَ ماصَنَعَ اللهُ بِنا ، لِئَلاَّ يَزْهَدُوا في الجهادِ ، وَلا يَنْكُلُوا عَنِ الحَرْبِ ، فَقالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : أنا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ ، فأنزل الله عزّ وجلّ على رسوله صلى الله عليه وسلم هؤلاء الآيات » .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير بن عبد الحميد ، وحدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قالا : جميعا ، ثنا محمد بن إسحاق ، عن الأعمش ، عن أبي الضحى ، عن مسروق بن الأجدع ، قال : سألنا عبد الله بن مسعود ، عن هذه الآيات (وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ) . . . الآية ، قال : أما إنا قد سألنا عنها ، فقيل لنا : إنه لما أصيب إخوانكم بأحد ، جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خُضْر ، ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديلَ من ذهب فى ظلّ العرش ، فيطلع الله إليهم اطلاعة ، فيقول : يا عبادى ما تشتهون فأزيدَكم ؟ فيقولون : ربنا لا فوق ما أعطيتنا ، الجنة نأكل منها حيث شئنا ثلاث مرات ، ثم يطلع فيقول : يا عبادى ما تشتهون فأزيدكم ؟ فيقولون : ربنا لافوق ما أعطيتنا ، الجنة نأكل منها حيث شئنا ، إلا أنا نختار أن تردّ أرواحنا فى أجسادنا ، ثم تردّنا إلى الدنيا ، فنقاتل فيك حتى نقتل فيك مرّة أخرى .

حدثنا الحسن بن يحيى العبدى ، قال : ثنا وهب بن جرير ، قال : ثنا شعبة ، عن الأعمش ، عن أبي الضحى ، عن مسروق ، قال : سألنا عبد الله ، عن هذه الآية ، ثم ذكر نحوه ، وزاد فيه : إنى قد قضيت ألا ترجعوا .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا ابن أبي عدىّ ، عن شعبة ، عن سليمان ، عن عبد الله بن مرّة ، عن مسروق ، قال : سألْنا عبد الله عن أرواح الشهداء ، ولولا عبد الله ما أخبرَنا به أحد ، قال : أرواح الشهداء عند الله فى أجواف طير خضر ، فى قناديل تحت العرش ، تسرح فى الجنة حيث شاءت ، ثم ترجع إلى قناديلها ، فيطلع إليها ربها ، فيقول : ماذا تريدون ؟ فيقولون : نريدأن نرجع إلى الدنيا ، فنقتلَ مرة أخرى .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا عبد الرحيم بن سليمان ، وعبدة بن سليمان ، عن محمد بن إسحاق ، عن الحارث بن فضيل ، عن محمود بن لبيد ، عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الشُّهَداءُ على بارِقٍ : نَهْرٍ بِبابِ الجَنَّةِ ، فِي قُبَّةٍ خَضْراءَ » . وقال عبدة « فِي رَوْضَةٍ خَضْراءَ ، يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الجَنَّةِ بُكْرَةً وَعَشِيًّا » .

حدثنا أبو كريب ، وأنبأنا يونس بن بكير ، عن محمد بن إسحاق ، قال : ثنى الحارث بن فضيل ، عن محمود بن لَبيد ، عن ابن عباس ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم بمثله ، إلا أنه قال : « فِي قُبَّةٍ [خَضْراءَ » وقال : « يَخْرُجُ عَلَيْهِم فيها » .

حدثنا ابن وكيع ، وأنبأنا ابن إدريس ، عن محمد بن إسحاق ، قال : ثنى الحارث بن فضيل ، عن محمود ابن لَبيد ، عن ابن عباس ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، مثله .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : قال محمد بن إسحاق : حدثنى الحارث بن الفضيل الأنصارىّ

عن محمود بن لَبيد الأنصاريّ، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الشُّهَداءُ على بارِقٍ، نَهْرٍ بِبابِ الجَنَّةِ: في قُبَّةٍ خَضْراءَ يَخْرُجُ عَلَيْهِم رِزْقُهُم مِنَ الجَنَّةِ بُكْرَةً وَعَشِيًّا».

حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: ثنى أيضا، يعنى: إسماعيل بن عياش، عن ابن إسحاق، عن الحارث بن الفضيل، عن محمود بن لَبيد، عن ابن عباس، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم بنحوه.

حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، قال: قال محمد بن إسحاق: وحدثنى بعض أصحابى، عن عبد الله ابن محمد بن عقيل بن أبى طالب، قال: سمعت جابر بن عبد الله يقول: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا أُبَشِّرُكَ يا جابرُ؟ قال: قلت: بلى يا رسول الله، قال: إنَّ أباكَ حَيْثُ أُصيبَ بأُحُدٍ أحْياهُ اللهُ، ثُمَّ قالَ لَهُ: ما تُحِبُّ يا عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو أنْ أفْعَلَ بِكَ؟ قالَ: يارَبِّ أُحِبُّ أنْ تَرُدَّنى إلى الدُّنْيا، فأُقاتِلَ فيكَ، فأُقْتَلَ مَرَّةً أُخْرَى».

حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة: ذكر لنا أن رجالا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالوا: يا ليتنا نعلم ما فعل إخواننا الذين قُتِلوا يوم أُحد! فأنزل الله تبارك وتعالى فى ذلك القرآن (وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فى سَبِيلِ اللهِ أمْوَاتاً بَلْ أحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ). كنا نحدَّث أن أرواح الشهداء تعارف فى طير بيض تأكل من ثمار الجنة، وأن مساكنهم السدرة.

حُدثت عن عمار، وأنبأنا ابن أبى جعفر، عن أبيه، عن الربيع بنحوه، إلا أنه قال: تعارف فى طير خضر وبيض، وزاد فيه أيضا: وذكر لنا عن بعضهم فى قوله (وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فى سَبِيلِ اللهِ أمْوَاتاً بَلْ أحْياءٌ) قال: هم قتلى بدر وأُحد.

حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثنى حجاج، عن ابن جريج، عن محمد بن قيس بن مخرمة قال: قالوا: يا ربِّ، ألا رسول لنا يخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم عنا بما أعطيتنا؟ فقال الله تبارك وتعالى: أنا رسولكم، فأمر جبريلَ عليه السلام أن يأتى بهذه الآية (وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فى سَبِيلِ اللهِ) ... الآيتين.

حدثنا الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا الثورىّ، عن الأعمش، عن عبد الله ابن مرة، عن مسروق، قال: سألنا عبد الله عن هذه الآيات (وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فى سَبِيلِ اللهِ أمْوَاتاً، بَلْ أحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) قال: أرواح الشهداء عند الله كطير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح فى الجنة حيث شاءت، قال: فاطَّلع إليهم ربك اطلاعة، فقال: هل تشتهون من شىء فأزيدَكموه؟ قالوا: ربنا ألسنا نسرح فى الجنة فى أيها شئنا، ثم اطلع عليهم الثالثة، فقال: هل تشتهون من شىء فأزيدَكموه؟ قالوا: تعيد أرواحنا فى أجسادنا، فنقاتل فى سبيلك مرّة أخرى، فسكت عنهم.

حدثنا الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا ابن عيينة، عن عطاء بن السائب، عن أبى عبيدة، عن عبد الله أنهم قالوا فى الثالثة حين قال لهم: هل تشتهون من شىء فأزيدَكموه؟ قالوا: تقرئُ نبينا عنا السلام، وتخبره أن قد رضينا ورُضِيَ عنا.

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قال : قال الله تبارك وتعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، يرغّب المؤمنين فى ثواب الجنة ،ويهوّن عليهم القتل: (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا ، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) : أى قد أحييتهم ، فهم عندى يرزقون فى رَوْح الجنة وفضلها ، مسرورين بما آتاهم الله من ثوابه على جهادهم عنه .

حُدثت عن الحسين ، قال: سمعت أبا معاذ ، قال : ثنا عبيد بن سليمان ، قال: سمعت الضحاك ،قال: كان المسلمون يسألون ربهم أن يريهم يوما كيوم بدر ، يُبلون فيه خيرا ، ويرزقون فيه الشهادة ، يرزقون فيه الجنة ، والحياة فى الرزق ، فلقوا المشركين يوم أُحد ، فاتخذ الله منهم شهداء،وهم الذين ذكرهم الله فقال : (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا) . . . الآية .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، قال : ذكر الشهداء ، فقال (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا ، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ) إلى قوله (وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) زعم أن أرواح الشهداء فى أجواف طير خضر ،فى قناديل من ذهب معلقة بالعرش ، فهى ترعى بكرة وعشية فى الجنة ، تبيت فى القناديل ، فإذا سرحن نادى مناد: ماذا تريدون ؟ ماذا تشتّهون ؟ فيقولون : ربنا نحن فيما اشتهت أنفسنا ، فيسألهم ربهم أيضا ماذا تشتهون ، وماذا تريدون ؟ فيقولون : نحن فيما اشتهت أنفسنا ؛ فيُسئلون الثالثة، فيقولون ما قالوا :ولكنا نحبّ أن تردّ أرواحنا فى أجسادنا لما يرون من فضل الثواب .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا عباد ، قال : ثنا إبراهيم بن معمر ، عن الحسن ، قال : مازال ابن آدم يتحمد حتى صار حيا مايموت ، ثم تلا هذه الآية (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا ، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) .

حدثنا محمد بن مرزوق ، قال : ثنا عمر بن يونس ، قال : ثنا إسحاق بن أبى طلحة ، قال : ثنى أنس ابن مالك فى أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم، الذين أرسلهم نبىّ الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل بئر معونة، قال : لاأدرى أربعين ، أو سبعين ، قال : وعلى ذلك الماء عامر بن الطفيل الجعفرىّ ، فخرج أولئك النفر من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم ، حتى أتوا غارا مشرفا على الماء قعدوا فيه، ثم قال بعضهم لبعض: أيكم يبلّغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل هذا الماء؟فقال: أراه أبوملْحان الأنصارىّ : أنا أبلغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج حتى أتى حيًا منهم ، فاحتبى أمام البيوت ، ثم قال : يا أهل بئر معونة ، إنى رسولُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم إليكم، إنى أشهد أن لاإله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، فآمنوا بالله ورسوله، فخرج إليه رجل من كسر البيت برمح ، فضرب به فى جنبه، حتى خرج من الشقّ الآخر ، فقال : الله أكبر ، فزتُ وربِّ الكعبة ، فاتبعوا أثره حتى أتوا أصحابه ، فقتلهم أجمعين عامر بن الطفيل ؛ قال: قال إسحاق : حدثنى أنس بن مالك ، أن الله تعالى أنزل فيهم قرآنا رفع بعد ما قرأناه

زمانا . وأنزل الله (وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً ، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) .

حدثنا يحيى بن أبى طالب ، قال : أخبرنا يزيد ، قال : أخبرنا جويبر ، عن الضحاك ، قال : لما أصيب الذين أصيبوا يوم أُحد من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم ، لقُوا ربهم ، فأكرمهم ، فأصابوا الحياة والشهادة والرزق الطيب ، قالو : يا ليت بيننا وبين إخواننا من يبلغهم أنا لقينا ربنا ، فرضى عنا وأرضانا ، فقال الله تبارك وتعالى : أنا رسولكم إلى نبيكم وإخوانكم ، فأنزل الله تبارك وتعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم : (وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً ، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) إلى قوله (وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) . فهذا النبأ الذى بلّغ اللهُ رسوله والمؤمنين ما قال الشهداء ، وفى نصب قوله (فَرِحِينَ) وجهان : أحدهما : أن يكون منصوبا على الخروج من قوله (عِنْدَ رَبِّهِمْ) ، والآخر من قوله (يُرْزَقُونَ) . ولو كان رفعا بالردّ على قوله : بل أحياء فرحون ، كان جائزا .

القول فى تأويل قوله جلّ ثناؤه (يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) :

يعنى بذلك تعالى ذكره : ويفرحون بمن لم يلحق بهم من إخوانهم ، الذين فارقوهم ، وهم أحياء فى الدنيا على مناهجهم ، من جهاد أعداء الله ، مع رسوله ، لعلمهم بأنهم إن استشهدوا فلحقوا بهم ، صاروا من كرامة الله ، إلى مثل الذى صاروا هم إليه ، فهم لذلك مستبشرون بهم ، فرحون أنهم إذا صاروا كذلك ، لاخوف عليهم ، ولا هم يحزنون ، يعنى بذلك : لاخوف عليهم ، لأنهم قد أمنوا عقاب الله ، وأيقنوا برضاه عنهم ، فقد أمنوا الخوف الذى كانوا يخافونه من ذلك فى الدنيا ، ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم من أسباب الدنيا ، ونكد عيشها ، للخفض الذى صاروا إليه ، والدّعة والزلفة ، ونصب « أن لا » بمعنى : يستبشرون لهم بأنهم لاخوف عليهم ولا هم يحزنون .

وبنحو ما قلنا فى ذلك قال جماعة من أهل التأويل :

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ) . . . الآية . يقول لإخوانهم الذين فارقوهم على دينهم وأمرهم لما قدموا عليه من الكرامة والفضل ، والنعيم الذى أعطاهم .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج (وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ) . . . الآية ، قال يقول : إخواننا يقتلون كما قتلنا ، يلحقون فيصيبون من كرامة الله تعالى ما أصبنا .

حُدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، ذكر لنا عن بعضهم فى قوله (وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً ، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) قال : هم

قتلى بدر وأُحد ، زعموا أن الله تبارك وتعالى لما قبض أرواحهم ، وأدخلهم الجنة ، جعلت أرواحهم فى طير خضر ترعى فى الجنة ، وتأوى إلى قناديل من ذهب تحت العرش ؛ فلما رأوا ما أعطاهم الله من الكرامة ، قالوا : ليت إخواننا الذين بعدنا يعلمون ما نحن فيه ، فإذا شهدوا قتالا تعجلوا إلى ما نحن فيه ، فقال الله تعالى : إنى منزل على نبيكم ، ومخبر إخوانكم بالذى أنتم فيه ، ففرحوا به واستبشروا ، وقالوا : يخبر الله نبيكم وإخوانكم بالذى أنتم فيه ، فإذا شهدوا قتالا أتوكم ، قال فذلك قوله : (فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ) . . . إلى قوله (أَجْرَ المُؤْمِنِينَ) .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ) : أى ويُسَرّون بلحوق من لحق بهم من إخوانهم ، على ما مضوا عليه من جهادهم ، ليشركوهم فيما هم فيه من ثواب الله الذى أعطاهم ، وأذهب الله عنهم الخوف والحزن .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ) قال : هم إخوانهم من الشهداء ممن يستشهد من بعدهم (لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) حتى بلغ (وَأَنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ المُؤْمِنِينَ) .

حدثنا محمد ، قال : ثنا أحمد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ : أما يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، فإن الشهيد يؤتى بكتاب فيه من يقدم عليه من إخوانه وأهله ، فيقال : يقدم عليك فلان يوم كذا وكذا ، ويقدم عليك فلان يوم كذا وكذا ، فيستبشر حين يقدم عليه ، كما يستبشر أهل الغائب بقدومه فى الدنيا .

القول فى تأويل قوله

* يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ ، وَأَنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ المُؤْمِنِينَ (١٧١)

يقول جلَّ ثناؤه (يَسْتَبْشِرُونَ) يفرحون (بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ) يعنى بما حباهم به تعالى ذكره من عظيم كرامته عند ورودهم عليه (وَفَضْلٍ) يقول : وبما أسبغ عليهم من الفضل ، وجزيل الثواب ، على ماسلف منهم من طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وجهاد أعدائه (وَأَنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ المُؤْمِنِينَ) .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ) . . . الآية ، لما عاينوا من وفاء الموعود ، وعظيم الثواب .

واختلف القراء فى قراءة قوله (وَأَنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ المُؤْمِنِينَ) فقرأ ذلك بعضهم بفتح الألف من « أن » ، بمعنى : يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وبأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ، وبكسر الألف على الاستئناف . واحتجّ من قرأ ذلك كذلك بأنها فى قراءة عبد الله (وَفَضْلٍ ، وَاللهُ لا يُضِيعُ أَجْرَ المُؤْمِنِينَ) قالوا : فذلك دليل على أن قوله (وإنَّ اللهَ) مستأنف غير متصل بالأول .

ومعنى قوله (لايُضيعُ أجرَ المُؤمنينَ) : لايبطل جزاء أعمال من صدّق رسوله واتبعه ، وعمل بما جاءه من عند الله . وأولى القراءتين بالصواب : قراءة من قرأ ذلك (وأنَّ اللهَ) بفتح الألف ، لإجماع الحجة من القراء على ذلك :

القول فى تأويل قوله

ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ ، وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢)

يعنى بذلك جل ثناؤه : وأن الله لايضيع أجر المؤمنين ، المستجيبين لله والرسول ، من بعد ما أصابهم الجراح والكُلوم ؛ وإنما عنى الله تعالى ذكره بذلك ، الذين اتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حمراء الأسد فى طلب العدوّ : أبى سفيان ، ومن كان معه من مشركى قريش ، منصرفَهم عن أُحد ، وذلك أن أباسفيان لما انصرف عن أحد، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أثره، حتى بلغ حمراء الأسد، وهى على ثمانية أميال من المدينة ، ليرى الناس أن به وأصحابه قوّة على عدوّهم .

كالذى حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن محمد بن إسحاق ، قال : ثنى حسان بن عبد الله ، عن عكرمة ، قال : كان يوم أُحد السبت للنصف من شوّال ؛ فلما كان الغد من يوم أُحد ، يوم الأحد لستّ عشرة ليلة مضت من شوّال، أذّن مؤذّن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس بطلب العدوّ ، وأذّن مؤذّنه: أن لايخرجَنّ معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس . فكلمه جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام، فقال : يا رسول الله إن أبى كان خلفنى على أخوات لى سبع ، وقال لى: يا بنىّ إنه لاينبغى لى ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة ، لارجل فيهنّ ، ولست بالذى أوثرك بالجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسى ، فتخلف على أخَواتك ، فتخلفت عليهنّ ، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج معه ، وإنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مرهبا للعدوّ ، ليبلغهم أنه خرج فى طلبهم، ليظنوا به قوّة ، وأن الذى أصابهم لم يُوهنهم عن عدوّهم .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن محمد بن إسحاق ، قال : فحدثنى عبد الله بن خارجة بن زيد ابن ثابت ، عن أبى السائب مولى عائشة بنت عثمان ، أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من بنى عبد الأشهل ، كان شهد أُحدا ، قال : شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أُحدا أنا وأخ لى ، فرجعنا جريحَين ؛ فلما أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج فى طلب العدوّ ، قلت لأخى ، أو قال لى : أتفوتنا غزوة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله ما لنا من دابة نركبها ، وما منا إلا جريح ثقيل، فخرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكنت أيسر جُرحا منه ، فكنت إذا غلب حملته عُقْبَة، ومشى عقبة[1] ، حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى انتهى إلى

(١) عقبة : شوطا . النهاية لابن الأثير .

حمراء الأسد ، وهى من المدينة على ثمانية أميال ، فأقام بها ثلاثا : الاثنين والثلاثاء والأربعاء ، ثم رجع إلى المدينة .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قال : فقال الله تبارك وتعالى : (الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ) : أى الجراح ، وهم الذين ساروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الغد من يوم أُحد إلى حمراء الأسد ، على ما بهم من ألم الجراح (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ) .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ) . . . الآية ، وذلك يوم أُحد بعد القتل والجراح ، وبعد ما انصرف المشركون : أبو سفيان وأصحابه ، فقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه : ألا عصابة تشدّ لأمر الله ، تطلب عدوّها ، فإنه أنكى للعدوّ ، وأبعد للسمع ، فانطلق عصابة منهم على ما يعلم الله تعالى من الجهد .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ : انطلق أبو سفيان منصرفا من أُحد ، حتى بلغ بعض الطريق ، ثم إنهم ندموا ، وقالوا : بئسما صنعتم ، إنكم قتلتموهم ، حتى إذا لم يبق إلا الشريد تركتموهم ، ارجعوا واستأصلوهم ، فقذف الله فى قلوبهم الرعب ، فهزموا ، فأخبر الله رسوله ، فطلبهم حتى بلغ حمراء الأسد ، ثم رجعوا من حمراء الأسد . فأنزل الله جلّ ثناؤه فيهم (الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ) .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قال : إن الله جلّ وعزّ قذف فى قلب أبى سفيان الرعب ، يعنى : يوم أُحد ، بعد ما كان منه ما كان ، فرجع إلى مكة ، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « إنَّ أبا سُفْيانَ قَدْ أصابَ مِنْكُمْ طَرَفاً ، وَقَدْ رَجَعَ ، وقَذَفَ اللهُ فِى قَلْبِهِ الرُّعْبَ » . وكانت وقعة أُحد فى شوّال ، وكان التجار يقدَمون المدينة فى ذى القعدة ، فينزلون ببدر الصغرى فى كل سنة مرة ، وإنهم قدموا بعد وقعة أُحد . وكان أصاب المؤمنين القرح ، واشتكوا ذلك إلى نبىّ الله صلى الله عليه وسلم ، واشتدّ عليهم الذى أصابهم ، وإن رسول الله ندب الناس لينطلقوا معه ، ويتبعوا ما كانوا متبعين ، وقال : إنما يرتحلون الآن ، فيأتون الحجّ ولا يقدرون على مثلها حتى عام مقبل ، فجاء الشيطان فخوّف أولياءَه ، فقال : إن الناس قد جمعوا لكم ، فأبى عليه الناس أن يتبعوه ، فقال : إنى ذاهب ، وإن لم يتبعنى أحد لأحضّض الناس ، فانتدب معه أبو بكر الصديق وعمر وعثمان وعلىّ والزبير وسعد وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وأبو عبيدة ابن الجرّاح فى سبعين رجلا ، فساروا فى طلب أبى سفيان ، فطلبوه حتى بلغوا الصَّفْراء ، فأنزل الله تعالى (الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ) .

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا هاشم بن القاسم ، قال : ثنا أبو سعيد ، عن هشام بن عروة ،

عن أبيه ، عن عائشة أنها قالت لعبد الله بن الزبير : يا بن أختى ، أما والله إن أباك وجدك ، تعنى : أبا بكر والزبير ، لممن قال الله تعالى فيهم : (الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ) .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : أخبرت أن أباسفيان ابن حرب لما راح هو وأصحابه يوم أُحد، قال المسلمون للنبيّ صلى الله عليه وسلم : إنهم عامدون إلى المدينة ، فقال : إنْ رَكِبُوا الخَيْلَ وَتَرَكُوا الأَثْقالَ ، فإنَّهُمْ عامِدُونَ إلى المَدِينَةِ ، وَإنْ جَلَسُوا على الأَثْقالِ وَتَرَكُوا الخَيْلَ فَقَدْ أرْعَبَهُمُ اللهُ وَلَيْسُوا بِعامِدِيها ، فركبوا الأثقال ، فرعّبهم الله ، ثم ندب ناسا يتبعونهم ، ليروا أن بهم قوّة ، فاتبعوهم ليلتين أو ثلاثا ، فنزلت (الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ) .

حدثنى سعيد بن الربيع ، قال : ثنا سفيان ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، قال : قالت لى عائشة : إن كان أبواك لمن الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح ، تعنى : أبا بكر والزبير .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن مغيرة ، عن إبراهيم ، قال : كان عبد الله من الذين استجابوا لله والرسول ، فوعد تعالى ذكره محسنَ من ذكرنا أمره من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ) إذا اتقى الله فخافه ، فأدّى فرائضه ، وأطاعه فى أمره ونهيه فيما يستقبل من عمره ، أجرا عظيما ، وذلك الثواب الجزيل ، والجزاء العظيم ، على ما قدّم من صالح أعماله فى الدنيا .

القول فى تأويل قوله

ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ ، فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا ، وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ (١٧٣)

يعنى تعالى ذكره : وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم ، والذين فى موضع خفض مردود على المؤمنين ، وهذه الصفة من صفة الذين استجابوا لله والرسول ، والناس الأوّل : هم قوم فيما ذكر لنا ، كان أبوسفيان سألهم أن يثبطوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين خرجوا فى طلبه بعد منصرفه عن أحد إلى حمراء الأسد ؛ والناس الثانى : هم أبو سفيان وأصحابه من قريش الذين كانوا معه بأُحد ، يعنى بقوله (قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ) : قد جمعوا الرجال للقائكم ، والكرّة إليكم لحربكم (فاخْشَوْهُمْ) يقول : فاحذروهم ، واتقوا لقاءهم ، فإنه لا طاقة لكم بهم (فَزَادَهُمْ إِيمَانًا) يقول : فزادهم ذلك من تخويف من خوّفهم أمرَ أبى سفيان وأصحابه من المشركين ، يقينا إلى يقينهم ، وتصديقا لله ولوعده ووعد رسوله إلى تصديقهم ، ولم يثنهم ذلك عن وجههم ، الذى أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسير فيه ، ولكن ساروا حتى بلغوا رضوان الله منه ، وقالوا ثقة بالله ، وتوكلا عليه ، إذ خوفهم من خوفهم أباسفيان وأصحابه من المشركين : (حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ) يعنى بقوله : حسبنا الله : كفانا الله ، يعنى : يكفينا الله . ونعم الوكيل : يقول : ونعم المولى لمن وليه وكفله . وإنما وصف تعالى نفسه بذلك ،

لأن الوكيل فى كلام العرب : هو المسند إليه القيام بأمر من أسند إليه القيام بأمره ؛ فلما كان القوم الذين وصفهم الله بما وصفهم به فى هذه الآيات، قد كانوا فوّضوا أمرهم إلى الله، ووثقوا به، وأسندوا ذلك إليه وصف نفسه بقيامه لهم بذلك ، وتفويضهم أمرهم إليه بالوكالة ، فقال : ونعم الوكيل الله تعالى لهم .

واختلف أهل التأويل فى الوقت الذى قال من قال لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ) فقال بعضهم : قيل ذلك لهم فى وجههم الذى خرجوا فيه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أُحد إلى حمراء الأسد ، فى طلب أبى سفيان ومن معه من المشركين .

ذكر من قال ذلك ، وذكر السبب الذى من أجله قيل ذلك ، ومن قائله :

حدثنا محمد بن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن محمد بن إسحاق ، عن عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، قال : مرّ به ، يعنى برسول الله صلى الله عليه وسلم مَعبد الخُزاعىّ بحمراء الأسد، وكانت خزاعة مسلمهم ومشركهم عَيبةَ نصح لرسول الله صلى الله عليه وسلم بتهامة، صفقتهم معه، لايخفون عليه شيئا كان بها ، ومعبد يومئذ مشرك ، فقال : والله يامحمد ، أما والله لقد عزّ علينا ما أصابك فى أصحابك ، ولوددنا أن الله كان أعفاك فيهم . ثم خرج من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم من حمراء الأسد ، حتى لقى أبا سفيان بن حرب ومن معه بالرَّوْحاء ، قد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وقالوا : أصبنا فى أُحد أصحابه وقادتهم وأشرافهم ، ثم نرجع قبل أن نستأصلهم ! لنكرنّ على بقيتهم ، فلنفرغنّ منهم . فلما رأى أبو سفيان معبدا ، قال : ما وراءك يا معبد ؟ قال : محمد قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قطّ ، يتحرّقون عليكم تحرّقا ، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم ، وندموا على ماصنعوا ، فهم من الحنق عليكم بشىء لم أر مثله قطّ ، قال : ويلك ما تقول ؟ قال : والله ما أراك ترتحل حتّى ترى نواصىَ الخيل ، قال : فوالله لقد أجمعنا الكرّة عليهم لنستأصل بقيتهم ، قال : فإنى أنهاك عن ذلك ، فوالله لقد حملنى ما رأيت على أن قلت فيه أبياتا من شعر ، قال : وما قلت ؟ قال : قلت :

كادَتْ تُهَدُّ مِنَ الأصْوَاتِ رَاحِلَتِى　　　إذْ سالَتِ الأرْضُ بالجُرْدِ الأبابِيلِ
تَرْدِى بِأُسْدٍ كِرَامٍ لاتَنَابِلَةٍ　　　عِنْدَ اللِّقَاءِ ولا مِيلٍ مَعَازِيلِ
فَظَلْتُ عَدْوًا أظُنُّ الأرْضَ مائِلَةً　　　لَمَّا سَمَوْا بِرَئِيسٍ غَيْرِ مَخْذُولِ
فَقُلْتُ وَيْلُ ابنِ حَرْبٍ مِنْ لِقائِكُمُ　　　إذَا تَغَطْمَطَتِ البَطْحاءُ بالجِيلِ
إنى نَذِيرٌ لأهْلِ البَسْلِ ضَاحِيَةً　　　لكُلِّ ذِى إرْبَةٍ مِنْهُمْ وَمَعْقُولِ
مِنْ جَيْشِ أحْمَدَ لا وَخْشٍ تَنابِلَةٍ　　　وَلَيْسَ يُوصَفُ ما أنْذَرْتُ بالقِيلِ[1]

(١) الأبيات فى سيرة ابن هشام (ج ٣ ص ١٠٩ طبعة الحلبى) . وتهد : تسقط لهول ما سمعت من أصوات الجيش وكثرته . والجرد : الخيل العتاق . والأبابيل : الجماعات . وتردى : تسرع . والتنابلة : القصار . والميل : جمع أميل ، وهو الذى لا رمح معه . وقيل : الذى لاترس معه . وقيل : الذى لايثبت على السرج . والمعازيل : الذين لاسلاح معهم . والعدو : مشى سريع . وسموا : علوا وارتفعوا . وابن حرب : أبوسفيان . وتغطمطت : اهتزت وارتجت . ومنه يقال : بحر غطامط : إذا علت أمواجه . والبطحاء : السهل من الأرض . والجيل : الصنف من الناس . والبسل : الحرام ، وأهل البسل : قريش ، لأنهم أهل مكة ، ومكة حرام . والضاحية : البارزة للشمس . والإربة هنا : العقل وهى بكسر الهمزة . والوخش : رذالة الناس وأخساؤهم ، يكون للمفرد وغير بلفظ واحد . والتنابل : جمع تنبلة ، وهى القطعة من الخيل . والقيل : القول ، أو هو اسم للمصدر .

قال : فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه ، ومرّ به ركب من عبد القيس ، فقال : أين تريدون ؟ قالوا : نريد المدينة . قال : ولم ؟ قالوا : نريد الميرة . قال : فهل أنتم مبلغون عنى محمدا رسالة أرسلكم بها ، وأُحَمِّلُ لكم إبلكم هذه غدا زبيبا بعكاظ إذا وافيتموها ؟ قالوا : نعم . قال : فإذا جئتموه ، فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه ، لنستأصل بقيتهم . فمرّ الركب برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بحمراء الأسد ، فأخبروه بالذى قال أبو سفيان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ) .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قال : فقال الله (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ : إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فاخْشَوْهُمْ ، فَزَادَهُمْ إيمَاناً ، وَقَالُوا حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوَكِيلُ) والناس الذين قال لهم ما قالوا: النفر من عبد القيس ، الذين قال لهم أبو سفيان ما قال : إن أبا سفيان ومن معه راجعون إليكم ، يقول الله تبارك وتعالى (فانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ) . . . الآية .

حدثنا محمد ، قال : ثنا أحمد بن مفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، قال : لما ندموا ، يعنى : أبا سفيان وأصحابه على الرجوع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقالوا : ارجعوا فاستأصلوهم ، فقذف الله فى قلوبهم الرعب ، فهزموا ، فلقوا أعرابيا ، فجعلوا له جُعْلاً : إن لقيت محمدا وأصحابه ، فأخبرهم أنا قد جمعنا لهم ، فأخبر الله جلّ ثناؤه رسوله صلى الله عليه وسلم ، فطلبهم حتى بلغ حمراء الأسد ، فلقُوا الأعرابىّ فى الطريق ، فأخبرهم الخبر ، فقالوا (حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ) ، ثم رجعوا من حمراء الأسد ، فأنزل الله تعالى فيهم ، وفى الأعرابىّ الذى لقيهم (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ : إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فاخْشَوْهُمْ ، فَزَادَهُمْ إيمَاناً ، وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ) .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : استقبل أبو سفيان فى منصرفه من أُحد عيرا واردة المدينة ببضاعة لهم ، وبينهم وبين النبىّ صلى الله عليه وسلم حِبال ، فقال : إن لكم علىّ رضاكم إن أنتم رددتم عنى محمدا ومن معه ، إن أنتم وجدتموه فى طلبى ، وأخبرتموه أنى قد جمعت له جموعا كثيرة ، فاستقبلت العير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا له : يا محمد إنا نخبرك أن أبا سفيان قد جمع لك جموعا كثيرة ، وأنه مقبل إلى المدينة ، وإن شئت أن ترجع فافعل ، ولم يزده ذلك ومن معه إلا يقينا ، (وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ) ، فأنزل الله تبارك وتعالى (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ) . . . الآية .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قال : انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وعصابة من أصحابه بعد ما انصرف أبوسفيان وأصحابه من أُحد خلفهم ، حتى كانوا بذى الحُليفة ، فجعل الأعراب والناس يأتون عليهم ، فيقولون لهم : هذا أبو سفيان مائل عليكم بالناس ، فقالوا (حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ) ، فأنزل الله تعالى فيهم (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ : إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فاخْشَوْهُمْ ، فَزَادَهُمْ إيمَاناً ، وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ) .

وقال آخرون: بل قال ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من قال ذلك له فى غزوة بدر الصغرى وذلك فى مسير النبىّ صلى الله عليه وسلم عامَ قابل من وقعة أُحد، للقاء عدوّه أبى سفيان وأصحابه، للموعد الذى كان واعده الالتقاء بها.

ذكر من قال ذلك:

حدثنى محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، عن عيسى، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد فى قوله (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ) قال هذا أبو سفيان، قال لمحمد: موعدكم بدر حيث قتلتم أصحابنا، فقال محمد صلى الله عليه وسلم عسى. فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم لموعده حتى نزل بدرا، فوافقوا السوق فيها، وابتاعوا، فذلك قوله تبارك وتعالى (فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ) وهى غزوة بدر الصغرى.

حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثنى حجاج، عن ابن جريج، عن مجاهد بنحوه، وزاد فيه: وهى بدر الصغرى، قال ابن جريج: لما عمد النبىّ صلى الله عليه وسلم لموعد أبى سفيان، فجعلوا يلقون المشركين، ويسألونهم عن قريش، فيقولون: (قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ) يكيدونهم بذلك، يريدون أن يرْعَبُوهم، فيقول المؤمنون: (حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ) حتى قدموا بدرا، فوجدوا أسواقها عافية، لم ينازعهم فيها أحد، قال: وقدم رجل من المشركين، وأخبر أهل مكة بخيل محمد عليه السلام، وقال فى ذلك:

نَفَرَتْ قَلُوصِى عَنْ خُيُولِ مُحَمَّدِ وَعَجْوَةٍ مَنْثُورَةٍ كالعَنْجَدِ
وَاتَّخذَتْ ماءَ قُدَيْدٍ مَوْعِدِى[1]

قال أبو جعفر: هكذا أنشدنا القاسم، وهو خطأ، وإنما هو:

قَدْ نَفَرَتْ مِنْ رُفْقَتَىْ مُحَمَّدِ وَعَجْوَةٍ مِنْ يَثْرِبٍ كالعَنْجَدِ
تَهْوِى على دِينِ أبِيها الأتْلَدِ قَدْ جَعَلَتْ ماءَ قُدَيْدٍ مَوْعِدِى
وَماءَ ضَجْنانَ لَهَا ضُحَى الغَدِ[2]

حدثنى الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا ابن عيينة، عن عمرو، عن عكرمة قال: كانت بدر متجرا فى الجاهلية، فخرج ناس من المسلمين يريدونه، ولقيهم ناس من المشركين، فقالوا لهم: (إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ)، فأما الجبان فرجع، وأما الشجاع فأخذ الأهبة للقتال، وأهبة التجارة (وَقَالُوا: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ)، فأتوهم فلم يلقوا أحدا، فأنزل الله عزّ وجلّ فيهم (إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ).

---

(١) هذا الرجز لمعبد بن أبى معبد الخزاعى. وهذه الرواية محرفة، وسيرويها المؤلف بعد على وجهها، كما فى سيرة ابن هشام، (طبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده ٢ : ٢٢١).

(٢) هكذا رويت أبيات معبد بن أبى معبد الخزاعى فى سيرة ابن هشام (٢ : ٢٢١) والعنجد: حب الزبيب. ويقال: هو الزبيب الأسود. وتهوى: تسرع. والدين: الدأب والعادة. والأتلد: الأقدم. وقديد: موضع قرب مكة. وضجنان بالفتح وقد يحرك: جبل بناحية تهامة، أو على بريد من مكة. والأبيات قالها معبد الخزاعى حين رأى النبى صلى الله عليه وسلم مقيما فى غزوة بدر الآخرة، ينتظر قدوم أبى سفيان، وقد رأى ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسرع به.

قال ابن يحيى ، قال عبد الرزاق ، قال ابن عيينة : وأخبرنى زكريا عن الشعبيّ ، عن عبد الله بن عمرو قال : هى كلمة إبراهيم صلى الله عليه وسلم حين أُلقِىَ فى النار ، فقال : (حَسْبُنا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ) .

وأولى القولين فى ذلك بالصواب : قول من قال : إن الذى قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه : من أن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، كان فى حال خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخروج من خرج معه فى أثَر أبى سفيان ، ومن كان معه من مشركى قريش ، منصرَفَهم عن أُحد إلى حمراء الأسد . لأن الله تعالى ذكره إنما مدح الذين وصفهم بقيلهم : (حَسْبُنا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ) لما قيل لهم : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، بعد الذى قد كان نالهم من القروح والكلوم ، بقوله : (الَّذِينَ اسْتَجابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ ما أَصابَهُمُ القَرْحُ) ، ولم تكن هذه الصفة إلا صفة من تبع رسول الله صلى الله عليه وسلم : من جرحى أصحابه بأحد إلى حمراء الأسد ، وأما قول الذين خرجوا معه إلى غزوة بدر الصغرى ، فإنه لم يكن فيهم جريح ، إلا جريح قد تقادم اندمال جرحه ، وبرأ كَلْمُهُ . وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنما خرج إلى بدر الخرجة الثانية إليها لموعد أبى سفيان الذى كان واعده اللقاء بها بعد سنة من غزوة أُحد ، فى شعبان سنة أربع من الهجرة ، وذلك أن وقعة أُحد كانت فى النصف من شوّال من سنة ثلاث ، وخروج النبيّ صلى الله عليه وسلم لغزوة بدر الصغرى إليها فى شعبان من سنة أربع ، ولم يكن للنبيّ صلى الله عليه وسلم بين ذلك وقعة مع المشركين كانت بينهم فيها حرب جرح فيها أصحابه ، ولكن قد كان قُتِلَ فى وقعة الرجيع من أصحابه جماعة لم يشهد أحد منهم غزوة بدر الصغرى ، وكانت وقعة الرجيع فيما بين وقعة أُحد ، وغزوة النبيّ صلى الله عليه وسلم بدر الصغرى .

القول فى تأويل قوله

فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ، وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤)

يعنى جلّ ثناؤه بقوله (فانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ) فانصرف الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح : من وجههم الذى توجهوا فيه ، وهو سيرهم فى أثر عدوّهم إلى حمراء الأسد . بنعمة من الله ، يعنى : بعافية من ربهم ، لم يلقوا بها عدوّا . وفضل ، يعنى : أصابوا فيها من الأرباح بتجاراتهم التى اتجروا بها ، والأجر الذى اكتسبوه (لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ) يعنى : لم ينلهم بها مكروه من عدوّهم ولا أذى ، (وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ) يعنى بذلك أنهم أرضَوْا الله بفعلهم ذلك ، واتباعهم رسوله إلى ما دعاهم إليه من اتباع أثر العدوّ وطاعتهم (وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ) يعنى : والله ذو إحسان وَطَوْل عليهم ، بصرف عدوّهم الذى كانوا قد هموا بالكرّة إليهم ، وغير ذلك من أياديه عندهم ، وعلى غيرهم بنعمه ، عظيم عند من أنعم به عليه من خلقه .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال جماعة من أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد (فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ) قال : والفضل : ما أصابوا من التجارة والأجر .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، قال : وافقوا السوق فابتاعوا ، وذلك قوله : (فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ) قال : الفضل ما أصابوا من التجارة والأجر ، قال ابن جريج : ما أصابوا من البيع ، نعمة من الله وفضل ، أصابوا عفوه وعزته ، لا ينازعهم فيه أحد ، قال : وقوله : (لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ) قال : قتل (وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ) قال : طاعة النبي صلى الله عليه وسلم .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ) لما صرف عنهم من لقاء عدوهم .

حدثنا محمد بن سعد ، قال : ثني أبي ، قال : ثني عمي ، قال : ثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قال : أطاعوا الله ، وابتغوا حاجتهم ، ولم يؤذهم أحد (فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ، وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ ، وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ) .

حدثنا محمد ، قال : ثنا أحمد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى ، قال : أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعني : حين خرج إلى غزوة بدر الصغرى ببدر ، دراهم ابتاعوا بها من موسم بدر ، فأصابوا تجارة ، فذلك قول الله (فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ، وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ) أما النعمة : فهي العافية ، وأما الفضل : فالتجارة . والسوء : القتل .

القول في تأويل قوله

إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥)

يعني بذلك تعالى ذكره : إنما الذي قال لكم أيها المؤمنون : إن الناس قد جمعوا لكم ، فخوفوكم بجموع عدوكم ، ومسيرهم إليكم ، من فعل الشيطان ، ألقاه على أفواه من قال ذلك لكم ، يخوفكم بأوليائه من المشركين : أبي سفيان وأصحابه من قريش ، لترهبوهم ، وتجبنوا عنهم .

كما حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ) يخوف والله المؤمن بالكافر ، ويرهب المؤمن بالكافر .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال مجاهد (إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ) قال : يخوف المؤمنين بالكفار .

حدثني محمد بن سعد ، قال : ثني أبي ، قال : ثني عمي ، قال : ثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس (إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ) يقول : الشيطان يخوف المؤمنين بأوليائه .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ) :

أى أولئك الرهط ، يعنى : النفر من عبد القيس، الذين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما قالوا ، وما ألقى الشيطان على أفواههم . يخوّف أولياءه : أى يرهبكم بأوليائه .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا علىّ بن معبد ، عن عتاب بن بشير ، مولى قريش ، عن سالم الأفطس ، فى قوله : (إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ) قال : يخوّفكم بأوليائه .

وقال آخرون : معنى ذلك : إنما ذلكم الشيطان يعظم أمر المشركين أيها المنافقون فى أنفسكم فتخافونه .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد ، قال : ثنا أحمد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، قال : ذكر أمر المشركين وعظمهم فى أعين المنافقين فقال (إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ) : يعظم أولياءه فى صدوركم فتخافونهم .

فإن قال قائل : وكيف قيل (يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ) وهل يخوّف الشيطان أولياءه ؟ قيل : إن كان معناه : يخوفكم بأوليائه ، يخوّف أولياءه[1] . قيل : ذلك نظير قوله : (لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا) بمعنى : لينذركم بأسه الشديد ، وذلك أن البأس لاينذر ، وإنما ينذَر به[2] . وقد كان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول : معنى ذلك : يخوّف الناس أولياءه ، كقول القائل : هو يعطى الدراهم ، ويكسو الثياب ، بمعنى : هو يعطى الناس الدراهم ، ويكسوهم الثياب ، فحذف ذلك للاستغناء عنه . وليس الذى شبه ذلك بمشبه ، لأن الدراهم فى قول القائل : هو يعطى الدراهم معلوم أن المعطَى هى الدراهم ، وليس كذلك الأولياء فى قوله (يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ) مخوَّفين ، بل التخويف من الأولياء لغيرهم ، فلذلك افترقا .

القول فى تأويل قوله (فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) :

يقول : فلا تخافوا أيها المؤمنون المشركين ، ولا يعظمنّ عليكم أمرهم ، ولا ترهبوا جمعهم مع طاعتكم إياى ، ما أطعتمونى ، واتبعتم أمرى ، وإنى متكفل لكم بالنصر والظفر ، ولكن خافون ، واتقوا أن تعصونى ، وتخالفوا أمرى ، فتهلكوا إن كنتم مؤمنين . يقول : ولكن خافونى دون المشركين ، ودون جميع خلقى أن تخالفوا أمرى ، إن كنتم مصدّقى رسولى ، وما جاءكم به من عندى .

القول فى تأويل قوله

وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ، إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ، يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦)

يقول جلّ ثناؤه : ولا يحزنك يامحمد كفر الذين يسارعون فى الكفر ، مرتدّين على أعقابهم من أهل النفاق ، فإنهم لن يضرّوا الله بمسارعتهم فى الكفر شيئا ، كما أن مسارعتهم لو سارعوا إلى الإيمان لم تكن بنافعته ، كذلك مسارعتهم إلى الكفر غير ضارّته .

---

(١) فى عبارة المؤلف شىء من التكرار فى الجمل أورثها غموضا .

(٢) هذا التخريج الذى ارتضاه المؤلف هو من كلام الفراء فى معانى القرآن (مصورة الجامعة رقم ٢٤٠٥٩ ص ٧٤) قال : ومثل ذلك قوله « لينذر يوم التلاق » ، معناه : لينذركم يوم التلاق ، وقوله « لينذر بأسا شديدا » المعنى : لينذركم بأسا شديدا ، البأس لاينذر ، إنما ينذر به .

كما حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قوله (وَلا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِى الكُفْرِ) يعنى : هم المنافقون .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (وَلا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِى الكُفْرِ) أى المنافقون .

القول فى تأويل قوله (يُرِيدُ اللهُ ألا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى الآخِرَةِ ، وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ) :

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : يريد الله ألايجعل لهؤلاء الذين يسارعون فى الكفر نصيبا فى ثواب الآخرة ، فلذلك خذلهم ، فسارعوا فيه ، ثم أخبر أنهم مع حرمانهم ما حُرِموا من ثواب الآخرة ، لهم عذاب عظيم فى الآخرة ، وذلك عذاب النار .

وقال ابن إسحاق فى ذلك بما حدثنى ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (يُرِيدُ اللهُ ألا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى الآخِرَةِ) : أن يُحبط أعمالهم .

القول فى تأويل قوله

إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : المنافقين الذين تقدم إلى نبيه صلى الله عليه وسلم فيهم ، ألايحزنه مسارعتهم إلى الكفر ، فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : إن هؤلاء الذين ابتاعوا الكفر بإيمانهم ، فارتدّوا عن إيمانهم بعد دخولهم فيه ، ورضوا بالكفر بالله وبرسوله ، عوضا من الإيمان ، لن يضرّوا الله بكفرهم وارتدادهم ، عن إيمانهم شيئا ، بل إنما يضرّون بذلك أنفسهم بإيجابهم بذلك لها من عقاب الله ، ما لا قِبَل لها به .

وإنما حثّ الله جلّ ثناؤه بهذه الآيات من قوله (وَما أصابَكُمْ يَوْمَ التَقَى الجَمْعانِ فَبِإذْنِ اللهِ ، إلى هذه الآية ، عباده المؤمنين على إخلاص اليقين ، والانقطاع إليه فى أمورهم ، والرضا به ناصرا وحده دون غيره من سائر خلقه ، ورغب بها فى جهاد أعدائه ، وأعداء دينه ، وشجع بها قلوبهم ، وأعلمهم أن من وليه بنصره ، فلن يخذل ، ولو اجتمع عليه جميع من خالفه وحادّه ، وأن من خذله ، فلن ينصره ناصر ينفعه نصره ، ولو كثرت أعوانه أونصراؤه .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (إنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الكُفْرَ بالإيمانِ) : أى المنافقين (لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا ، وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ) : أى موجع .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قال : هم المنافقون .

القول فى تأويل قوله

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنفُسِهِمْ ، إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٧٨)

يعنى بذلك تعالى ذكره : ولا يظنّنّ الذين كفروا بالله ورسوله ، وما جاء به من عند الله ، أن إملاءنا لهم خيرٌ لأنفسهم . ويعنى بالإملاء : الإطالة فى العمر ، والإنساء فى الأجل ؛ ومنه قوله جلّ ثناؤه : (وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا) : أى حيناً طويلا ؛ ومنه قيل : عشت طويلا ، وتمليت حينا ، والملا نفسه : الدهر ، والملوان : الليل والنهار ، ومنه قول تميم بن مقبل :

ألا يا دِيارَ الحَيِّ بالسَّبُعانِ أمَلَّ عَلَيْها بالبِلَى المَلَوانِ[١]

يعنى بالملوان : الليل والنهار .

وقد اختلفت القراء فى قراءة قوله (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ) فقرأ ذلك جماعة منهم (وَلَا يَحْسَبَنَّ) بالياء ، وبفتح الألف من قوله (أَنَّمَا) ، على المعنى الذى وصفت من تأويله . وقرأه آخرون (وَلَا تَحْسَبَنَّ) بالتاء (وأَنَّمَا) أيضا بفتح الألف من أنما ، بمعنى : ولا تحسبنّ يا محمد الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم .

فإن قال قائل : فما الذى من أجله فتحت الألف من قوله (أَنَّمَا) فى قراءة من قرأ بالتاء ، وقد علمت أن ذلك إذا قرئ بالتاء ، فقد أعملت «تحسبنّ» فى الذين كفروا ، وإذا أعملتها فى ذلك لم يجز لها أن تقع على «أنما» لأن « أنما » إنما يعمل فيها عامل يعمل فى شيئين نصبا ؟ قيل : أما الصواب فى العربية ، ووجه الكلام المعروف من كلام العرب ، كسر إن إذا قرئت تحسبن بالتاء ، لأن تحسبنّ إذا قرئت بالتاء ، فإنها قد نصبت الذين كفروا ، فلا يجوز أن تعمل ، وقد نصبت اسما فى أن ، ولكنى أظنّ أنّ من قرأ ذلك بالتاء فى تحسبن ، وفتح الألف من «أنما» ، إنما أراد تكرير تحسبنّ على «أنما» ، كأنه قصد إلى أن معنى الكلام : ولا تحسبنّ يا محمد أنت الذين كفروا ، لا تحسبنّ أنما نملى لهم خير لأنفسهم ، كما قال جلّ ثناؤه : (فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً) بتأويل : هل ينظرون إلا الساعة ، هل ينظرون إلا أن تأتيهم بغتة ؟ وذلك وإن كان وجها جائزا فى العربية ، فوجه كلام العرب ما وصفنا قبل .

والصواب من القراءة فى ذلك عندنا قراءة من قرأ (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا) بالياء من يحسبنّ ، وبفتح الألف من « أنما » ، على معنى الحسبان للذين كفروا دون غيرهم ، ثم يعمل فى أنما نصبا ، لأن يحسبنّ حينئذ لم يشغل بشىء عمل فيه ، وهى تطلب منصوبين ، وإنما اخترنا ذلك لإجماع القراء على فتح الألف من أنما الأولى ، فدل ذلك على أن القراءة الصحيحة فى يحسبنّ بالياء لما وصفنا ؛ وأما ألف إنما الثانية فالكسر على الابتداء بإجماع من القراء عليه .

(١) البيت من شواهد النحويين (الخزانة ٣ : ٢٧٥) على أن السبعان مجرور بالحركة على النون مع لزوم الألف . والسبعان : جبل قبل الفلج ، فى طريق البصرة إلى مكة . والشطر الأول ، وهو من المطلع فى قصيدة لتميم بن أبى بن مقبل ، وهو شاعر إسلامى مخضرم . وجاء أيضا صدر المطلع فى قصيدة لشاعر جاهلى من بنى عقيل كما قال الحصرى فى زهر الآداب ، وياقوت فى معجم البلدان ، والمطلع بتمامه وهو :

ألا يا ديارَ الحيِّ بالسَّبُعانِ عفَتْ حِجَجًا بعدى وهُنَّ ثَمَانِي

وأمل : ألح ودأب . والملوان : الليل والنهار ، أو الغداة والعشى . يتأسف على ديار قومه بهذا المكان ، ويخبر أن الملوين وهما الليل والنهار أبلياها ودرساها .

وتأويل قوله (إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا) : إنما نؤخر آجالهم فنطيلها، ليزدادوا إثما، يقول: يكتسبوا المعاصى ، فتزداد آثامهم وتكثر ، ولهم عذاب مهين ، يقول : ولهؤلاء الذين كفروا بالله ورسوله فى الآخرة عقوبة لهم مهينة مذلة .

وبنحو ما قلنا فى ذلك جاء الأثر .

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن خيثمة ، عن الأسود، قال: قال عبد الله: ما من نفس برّة ولا فاجرة إلا والموت خير لها. وقرأ (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ ، إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا) وقرأ: (نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللهِ، وما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلأَبْرَارِ) .

القول فى تأويل قوله

مَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ، وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ، فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ، وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩)

يعنى بقوله: (ما كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ) : ما كان الله ليدع المؤمنين على ما أنتم عليه من التباس المؤمن منكم بالمنافق ، فلا يُعرف هذا من هذا ، حتى يميز الخبيث من الطيب ، يعنى بذلك : حتى يميز الخبيث ، وهو المنافق المستسرّ للكفر ، من الطيب ، وهو المؤمن المخلص الصادق الإيمان بالمحن والاختبار ، كما مَيَّز بينهم يوم أُحد ، عند لقاء العدوّ عند خروجهم إليه .

واختلف أهل التأويل فى الخبيث الذى عنى الله بهذه الآية ، فقال بعضهم فيه : مثل قولنا .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنى أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قول الله (ما كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ على ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ حتى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ) قال : ميز بينهم يوم أُحد ، المنافقَ من المؤمن .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال: ثنى حجاج ، عن ابن جريج (ما كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ على ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ حتى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ) قال ابن جريج : يقول : ليبين الصادق بإيمانه من الكاذب . قال ابن جريج : قال مجاهد : يومَ أُحد مَيَّز بعضهم عن بعض ، المنافق عن المؤمن .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (ما كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ على ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ حتى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ) : أى المنافق .

وقال آخرون : معنى ذلك : حتى يميز المؤمن من الكافر ، بالهجرة والجهاد .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (ما كانَ اللهُ لِيَذَرَ المُؤْمِنينَ على ما أنْتُمْ عَلَيْهِ) يعني : الكفار ، يقول : لم يكن الله ليدع المؤمنين على ما أنتم عليه من الضلالة (حَتّى يَميزَ الخَبيثَ مِنَ الطَّيِّبِ) : يميز بينهم فى الجهاد والهجرة .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (حَتّى يَميزَ الخَبيثَ مِنَ الطَّيِّبِ) قال : حتى يميز الفاجر من المؤمن .

حدثنا محمد ، قال : ثنا أحمد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (ما كانَ اللهُ لِيَذَرَ المُؤْمِنِينَ على ما أنْتُمْ عَلَيْهِ حتى يَميزَ الخَبيثَ مِنَ الطَّيِّبِ) قالوا : إن كان محمد صادقا ، فليخبرنا بمن يؤمن بالله ، ومن يكفر ، فأنزل الله (ما كانَ اللهُ لِيَذَرَ المُؤْمِنِينَ على ما أنْتُمْ عَلَيْهِ حَتّى يَميزَ الخَبيثَ مِنَ الطَّيِّبِ) : حتى يخرج المؤمن من الكافر .

والتأويل الأوّل أولى بتأويل الآية ، لأن الآيات قبلها فى ذكر المنافقين ، وهذه فى سياقها ، فكونها بأن تكون فيهم أشبه منها بأن تكون فى غيرهم .

القول فى تأويل قوله (وَما كانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ على الغَيْبِ ، وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشاءُ) :

اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك ، فقال بعضهم بما حدثنا به محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (وَما كانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ على الغَيْبِ) وما كان الله ليطلع محمدا على الغيب ، ولكن الله اجتباه ، فجعله رسولا .

وقال آخرون بما حدثنا به ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (وَما كانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ على الغَيْبِ) أى فيما يريد أن يبتليكم به ، لتحذروا مايدخل عليكم فيه ، (وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي من رُسُلِهِ مَنْ يَشاءُ) بعلمه .

وأولى الأقوال فى ذلك بتأويله : وما كان الله ليطلعكم على ضمائر قلوب عباده ، فتعرفوا المؤمنَ منهم من المنافق والكافر ، ولكنه يميز بينهم بالمحن والابتلاء ، كما ميز بينهم بالبأساء يوم أُحد ، وجهاد عدوّه ، وما أشبه ذلك من صنوف المِحَن ، حتى تعرفوا مؤمنهم وكافرهم ومنافقهم ، غير أنه تعالى ذكره يجتبى من رسله من يشاء ، فيصطفيه ، فيطلعه على بعض ما فى ضمائر بعضهم ، بوحيه ذلك إليه ورسالته .

كما حدثنا محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله (وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشاءُ) قال : يخلصهم لنفسه .

وإنما قلنا : هذا التأويل أولى بتأويل الآية ، وابتداؤها خبر من الله تعالى ذكره ، أنه غير تارك عباده ، يعنى بغير مِحن ، حتى يفرّق بالابتلاء بين مؤمنهم وكافرهم ، وأهل نفاقهم ، ثم عقب ذلك بقوله (وَما كانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ على الغَيْبِ) ، فكان فيما افتتح به من صفة إظهار الله نفاق المنافق ، وكفر الكافر ،

دلالة واضحة على أن الذى وَلِى ذلك هو الخبر ، عن أنه لم يكن ليطلعهم على ما يخفى عنهم من باطن سرائرهم إلا بالذى ذكر أنه مميز به نعتهم : إلا من استثناه من رسله ، الذى خصه بعلمه .

القول فى تأويل قوله (فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ، وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ) :

يعنى بذلك جلّ ثناؤه بقوله (وَإِنْ تُؤْمِنُوا) : وإن تصدّقوا من اجتبيته من رسلى بعلمى ، وأطلعته على المنافقين منكم ، وتتقوا ربكم بطاعته فيما أمركم به نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم ، وفيما نهاكم عنه ، (فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ) يقول : فلكم بذلك من إيمانكم واتقائكم ربكم ثواب عظيم .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ، وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا) : أى ترجعوا وتتوبوا ، فلكم أجر عظيم .

القول فى تأويل قوله

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ، بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ، سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ، وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠)

اختلفت القراء فى قراءة ذلك ، فقرأه جماعة من أهل الحجاز والعراق (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ) بالياء ، من يحسبنّ ؛ وقرأته جماعة أخر : (وَلَا تَحْسَبَنَّ) بالتاء .

ثم اختلف أهل العربية فى تأويل ذلك ، فقال بعض نحويّ الكوفة : معنى ذلك : لايحسبنّ الباخلون البخل هو خيرا لهم ، فاكتفى بذكر يبخلون من البخل ، كما تقول : قدم فلان فسررت به ، وأنت تريد فسررت بقدومه ، وهو عماد . وقال بعض نحويّى أهل البصرة : إنما أراد بقوله (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ ، بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ) لاتحسبنّ البخل هو خيرا لهم ، فألقى الاسم الذى أوقع عليه الحسبان به ، وهو البخل ، لأنه قد ذكر الحسبان ، وذكر ما آتاهم الله من فضله ، فأضمرهما إذ ذكرهما [١] . قال : وقد جاء من الحذف ما هو أشدّ من هذا ، قال (لايَسْتَوِى مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ) ولم يقل : ومن أنفق من بعد الفتح ، لأنه لما قال (أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ) كان فيه دليل على أنه قد عناهم .

وقال بعض من أنكر قول مَن ذكرنا قوله من أهل البصرة ، إن مَن فى قوله (لايَسْتَوِى مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ) فى معنى جمع . ومعنى الكلام : لايستوى منكم من أنفق من قبل الفتح فى [منازلهم وحالاتهم ، فكيف من أنفق من بعد الفتح ؟ فالأول مكتف ، وقال فى قوله (لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ) محذوف ، غير أنه لم يحذف إلا وفى الكلام ما قام مقام المحذوف ، لأن هو عائد البخل ، وخيرا لهم عائد الأسماء ، فقد دلّ هذان العائدان على أن قبلهما اسمين ، واكتفى بقوله : يبخلون ، من البخل . قال : وهذا إذا قرئ بالتاء ، فالبخل قبل الذين ، وإذا قرئ بالياء ، فالبخل بعد الذين ، وقد اكتفى بالذين يبخلون من البخل ، كما قال الشاعر :

(١) فى العبارة غموض ، ولعله قد كشفه قوله بعد : « وقال بعض . . . الخ » ، ففيه بيان وتوضيح .

إذَا نُهِىَ السَّفِيهُ جَرَى إليْهِ وخالَفَ وَالسَّفِيهُ إلى خِلافِ[١]

كأنه قال : جرى إلى السفه ، فاكتفى عن السفه بالسفيه . كذلك اكتفى بالذين يبخلون من البخل .

وأولى القراءتين بالصواب فى ذلك عندى : قراءة من قرأ « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ) بالتاء بتأويل : ولا تحسبنّ أنت يا محمد بخل الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله ، هو خيرا لهم ، ثم ترك ذكر البخل ، إذ كان فى قوله: هو خيرا لهم ، دلالة على أنه مراد فى الكلام ، إذ كان قد تقدّمه قوله (الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ) .

وإنما قلنا قراءة ذلك بالتاء أولى بالصواب من قراءته بالياء ، لأن المَحْسَبَة من شأنها طلب اسم وخبر ، فإذا قرئ قوله (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ) بالياء ، لم يكن للمحسبة اسم يكون قوله (هُوَ خَيْرًا لَهُمْ) خبرا عنه ، وإذا قرئ ذلك بالتاء كان قوله (الَّذِينَ يَبْخَلُونَ) اسما له ، قد أدّى عن معنى البخل الذى هو اسم المحسبة المتروك ، وكان قوله (هُوَ خَيْرًا لَهُمْ) خبرا لها ، فكان جاريا مجرى المعروف من كلام العرب الفصيح . فلذلك اخترنا القراءة بالتاء فى ذلك على ما بيناه ، وإن كانت القراءة بالياء غير خطأ ، ولكنه ليس بالأفصح ، ولا الأشهر من كلام العرب .

وأما تأويل الآية الذى هو تأويلها على ما اخترنا من القراءة فى ذلك : ولا تحسبنّ يا محمد ، بخل الذين يبخلون بما أعطاهم الله فى الدنيا من الأموال ، فلا يُخرجون منه حقّ الله الذى فرضه عليهم فيه من الزكوات ، هو خيرا لهم عند الله يوم القيامة ، بل هو شرّ لهم عنده فى الآخرة .

كما حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ ، بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ) : هم الذين آتاهم الله من فضله ، فبخلوا أن ينفقوها فى سبيل الله ، ولم يؤدّوا زكاتها .

وقال آخرون : بل عنى بذلك اليهود الذين بخلوا أن يبينوا للناس ما أنزل الله فى التوراة : من أمر محمد صلى الله عليه وسلم ونعته .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ) ... إلى (سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) يعنى بذلك : أهل الكتاب أنهم بخلوا بالكتاب أن يبينوه للناس .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد قوله (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ) قال : هم يهود ، إلى قوله (وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ) .

وأولى التأويلين بتأويل هذه الآية : التأويل الأوّل ، وهو أنه معنىّ بالبخل فى هذا الموضع : منع الزكاة ، لتظاهر

(١) البيت من شواهد النحويين (الخزانة ٢ : ٣٨٣) ومعانى القرآن للفراء ، عند قوله تعالى « ولكن البر من آمن » على أن الضمير فى إليه : راجع على المصدر المداول عليه بالوصف ، أى إلى السفه . ومثله قوله تعالى : « ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم » فهو كناية عن البخل . وله نظائر كثيرة فى القرآن وكلام العرب . ويروى : « إذا زجر » فى مكان « إذا نهى » . وانظره أيضا فى معانى القرآن للفراء عند هذه الآية ص ٧٥ من نسخة الجامعة المصورة رقم ٢٤٠٥٩ .

الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه تأول قوله: (سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ القِيامَةِ): قال: البخيل الذى منع حقّ الله منه إنه يصير ثعبانا فى عنقه، ولقول الله عقيب هذه الآية (لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قالُوا: إنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أغْنِياءُ) فوصف جلّ ثناؤه قول المشركين من اليهود الذين زعموا عند أمر الله إياهم بالزكاة، أن الله فقير.

القول فى تأويل قوله (سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ القِيامَةِ):

يعنى بقوله جلّ ثناؤه (سَيُطَوَّقُونَ): سيجعل الله ما بخل به المانعون الزكاة طوقا فى أعناقهم، كهيئة الأطواق المعروفة.

كالذى حدثنى الحسن بن قَزَعة، قال: ثنا مسلمة بن علقمة، قال: ثنا داود، عن أبى قَزَعَة، عن أبى مالك العبدى، قال: مامن عبد يأتيه ذو رحم له يسأله من فضل عنده، فيبخل عليه، إلا أخرج له الذى بخل به عليه شجاعا أقرع، قال: وقرأ (وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ، هُوَ خَيْرًا لَهُمْ، بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ، سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ القِيامَةِ) ... إلى آخر الآية.

حدثنا ابن المثنى، قال: ثنا عبد الأعلى، قال: ثنا داود، عن أبى قَزَعة، عن رجل، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم، قال: «مامِنْ ذِى رَحِمٍ يَأْتِى ذا رَحِمِهِ، فَيَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلٍ جَعَلَهُ اللهُ عِنْدَهُ، فَيَبْخَلَ بِهِ عَلَيْهِ، إلاَّ أُخْرِجَ لَهُ مِنْ جَهَنَّمَ شُجاعٌ يَتَلَمَّظُ، حتى يُطَوَّقَهُ».

حدثنا ابن المثنى، قال: ثنا أبو معاوية محمد بن خازم، قال: ثنا داود، عن أبى قَزَعة حجر بن بيان، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مامِنْ ذِى رَحِمٍ يَأْتِى ذا رَحِمِهِ، فَيَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلٍ أعْطاهُ اللهُ إيَّاهُ، فَيَبْخَلَ بِهِ عَلَيْهِ، إلاَّ أُخْرِجَ لَهُ يَوْمَ القِيامَةِ شُجاعٌ مِنَ النَّارِ يَتَلَمَّظُ، حتى يُطَوَّقَهُ، ثم قرأ (وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ) حتى انتهى إلى قوله (سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ القِيامَةِ)».

حدثنى زياد بن عبيد الله المرّىّ، قال: ثنا مروان بن معاوية، وحدثنى محمد بن عبد الله الكلابىّ، قال: ثنا عبد الله بن بكر السَّهمى، وحدثنى يعقوب بن إبراهيم، قال: ثنا عبد الواحد بن واصل أبو عبيدة الحداد، واللفظ ليعقوب جميعا، عن بَهْز بن حكيم بن معاوية بن حيدة، عن أبيه، عن جده، قال: سمعت نبىّ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا يَأْتِى رَجُلٌ مَوْلاهُ فَيَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِ مالٍ عِنْدَهُ فَيَمْنَعَهُ إيَّاهُ، إلاَّ دَعا لَهُ يَوْمَ القِيامَةِ شُجاعاً يَتَلَمَّظُ، فَضْلَهُ الَّذِى مَنَعَ».

حدثنا ابن بشار، قال: ثنا عبد الرحمن، قال: ثنا سفيان، عن أبى إسحاق، عن أبى وائل، عن عبد الله بن مسعود (سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ القِيامَةِ) قال: ثعبان ينقر رأس أحدهم، يقول: أنا مالُك الذى بخلتَ به.

حدثنا محمد بن المثنى، قال: ثنا محمد بن جعفر، قال: ثنا شعبة، عن أبى إسحاق، قال: سمعت

أبا وائل يحدّث أنه سمع عبد الله ، قال فى هذه الآية (سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ القِيامَةِ) قال : شجاع يلتوى برأس أحدهم .

حدثنى ابن المثنى ، قال : ثنا ابن أبى عدىّ ، عن شعبة ، قال : ثنا خلاد بن أسلم ، قال : أخبرنا النضر ابن شميل ، قال : أخبرنا شعبة ، عن أبى إسحاق ، عن أبى وائل ، عن عبد الله ، بمثله ، إلا أنهما قالا : قال : شجاع أسود .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا الثورىّ ، عن أبى إسحاق ، عن أبى وائل ، عن ابن مسعود ، قال : يجيء ماله يوم القيامة ثعبانا ، فينقر رأسه فيقول : أنا مالك الذى بخلت به ، فينطوى على عنقه .

حُدثت عن سفيان بن عيينة ، قال : ثنا جامع بن شداد وعبد الملك بن أعين ، عن أبى وائل ، عن ابن مسعود ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما مِنْ أحَدٍ لايُؤَدّى زَكاةَ مالِهِ إلا مُثِّلَ لَهُ شُجاعٌ أقْرَعُ يُطَوَّقُهُ ، ثم قرأ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ) » . . . الآية .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنى أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ : أما (سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ) فإنه يجعل ماله يوم القيامة شجاعاً أقرع يطوّقه ، فيأخذ بعنقه ، فيتبعه حتى يقذفه فى النار .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا خلف بن خليفة ، عن أبى هاشم ، عن أبى وائل ، قال : هو الرجل الذى يرزقه الله مالاً ، فيمنع قرابته الحقّ الذى جعل الله لهم فى ماله ، فيجعل حية فيطوّقها ، فيقول : مالى ولك ؟ فيقول : أنا مالك .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا أبو غسان ، قال : ثنا إسرائيل ، عن حكيم بن جبير ، عن سالم بن أبى الجعد عن مسروق ، قال : سألت ابن مسعود عن قوله (سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ القِيامَةِ) قال : يطوّقون شجاعا أقرع ، يَنْهَشُ رأسه .

وقال آخرون : معنى ذلك (سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ القِيامَةِ) فيجعل فى أعناقهم طوقا من نار .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن منصور ، عن إبراهيم (سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ القِيامَةِ) قال : طوقا من النار .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة ، عن منصور ، عن إبراهيم أنه قال فى هذه الآية (سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ القِيامَةِ) قال : طوقا من نار .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا الثورىّ ، عن منصور ، عن إبراهيم ، فى قوله (سَيُطَوَّقُونَ) قال : طوقاً من نار .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن منصور ، عن إبراهيم (سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ القِيامَةِ) قال : طَوْق من نار .

وقال آخرون : معنى ذلك : سيحمل الذين كتموا نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم من أحبار اليهود ما كتموا من ذلك .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى ، أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ القِيامَةِ) ألم تسمع أنه قال : يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، يعنى : أهل الكتاب ، يقول : يكتمون ويأمرون الناس بالكتمان .

وقال آخرون : معنى ذلك : سيكلفون يوم القيامة أن يأتوا بما بخلوا به فى الدنيا من أموالهم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله (سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ القِيامَةِ) قال :سيكلَّفون أن يأتوا بما بخلوا به ، إلى قوله (وَالكِتابِ المُنِيرِ) .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا أبوحذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (سَيُطَوَّقُونَ) : سيكلفون أن يأتوا بمثل ما بخلوا به من أموالهم يوم القيامة .

وأولى الأقوال بتأويل هذه الآية : التأويل الذى قلناه فى ذلك فى مبدأ قوله (سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ) ، للأخبار التى ذكرنا فى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أحد أعلم بما عنى الله تبارك وتعالى بتنزيله منه عليه السلام .

القول فى تأويل قوله (وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) :

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : أنه الحىّ الذى لايموت ، والباقى بعد فناء جميع خلقه .

فإن قال قائل : فما معنى قوله لَهُ (مِيراثُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ) والميراث المعروف : هو ما انتقل من ملك مالك إلى وارثه بموته ، ولله الدنيا قبل فناء خلقه وبعده ؟ قيل : إن معنى ذلك ما وصفنا من وصفه نفسه بالبقاء ، وإعلام خلقه أنه كتب عليهم الفناء . وذلك أن ملك المالك إنما يصير ميراثا بعد وفاته ، فإنما قال جلّ ثناؤه (وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ) إعلامًا بذلك منه عباده ، أن أملاك جميع خلقه منتقلة عنهم بموتهم ، وأنه لا أحد إلا وهو فانٍ سواه ، فإنه الذى إذا هلك جميع خلقه ، فزالت أملاكهم عنهم ، لم يبق أحد يكون له ما كانوا يملكونه غيره .

وإنما معنى الآية : لاتحسبنّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم ، بل هو شرّ لهم ، سيطوّقون ما بخلوا به يوم القيامة ، بعد ما يهلكون ، وتزول عنهم أملاكهم ، فى الحين الذى لايملكون شيئا ، وصار لله ميراثه ، وميراث غيره من خلقه . ثم أخبر تعالى ذكره أنه بما يعمل هؤلاء الذين يبخلون بما آتاهم

الله من فضل ، وغيرهم من سائر خلقه ، ذو خبرة وعلم ، محيط بذلك كله ، حتى يجازى كلا منهم على قدر استحقاقه ، المحسن بالإحسان ، والمسىء على ما يرى تعالى ذكره .

القول فى تأويل قوله

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ ، وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ، سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ، وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٨٢)

ذكر أن هذه الآية وآيات بعدها نزلت فى بعض اليهود ، الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ذكر الآثار بذلك :

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا يونس بن بكير ، قال : ثنا محمد بن إسحاق ، قال : ثنا محمد بن أبى محمد ، مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أنه حدثه عن ابن عباس ، قال : دخل أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه بيت المِدْراس ، فوجد من يهودَ ناسا كثيرا ، قد اجتمعوا إلى رجل منهم ، يقال له فِنحاص ، كان من علمائهم وأحبارهم ، ومعه حَبْرٌ يقال له : أشيع ، فقال أبو بكر رضى الله عنه لفنحاص : ويحَك يا فنحاص ، اتقِّ الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمدا رسول الله ، قد جاءكم بالحقّ من عند الله ، تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة والإنجيل ، قال فِنحاص : والله يا أبا بكر ، مابنا إلى الله من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، وما نتضرّع إليه كما يتضرّع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء ، ولو كان عنا غنيا ما استقرض منا ، كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا ويعطيناه ، ولو كان غنيا عنا ما أعطانا الربا ، فغضب أبو بكر ، فضرب وجه فنحاص ضربة شديدة ، وقال : والذى نفسى بيده ، لولا العهد الذى بيننا وبينك لضربت عنقك ياعدوّ الله ، فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين . فذهب فنحاص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يامحمد ، انظر ما صَنع بى صاحبك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر : ما حَمَلَكَ على ما صَنَعْتَ ؟ فقال : يا رسول الله ، إن عدوّ الله قال قولا عظيما ، زعم أن الله فقير ، وأنهم عنه أغنياء ، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال ، فضربت وجهه . فجحد ذلك فِنحاص ، وقال : ما قلت ذلك ؟ فأنزل الله تبارك وتعالى فيما قال فنحاص ، ردّا عليه ، وتصديقا لأبى بكر (لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ، سَنَكْتُبُ ماقالُوا ، وقَتْلَهُمُ الأنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، ونَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيقِ) . وفى قول أبى بكر وما بلغه فى ذلك من الغضب (لَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ، وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أذًى كَثِيرًا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فإنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ) .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن أبى محمد ، مولى زيد بن ثابت ، عن

عكرمة مولى ابن عباس ، قال : دخل أبو بكر ، فذكر نحوه ، غير أنه قال : وإنا عنه لأغنياء ، وما هو عنا بغنىّ ، ولو كان غنيا . ثم ذكر سائر الحديث نحوه .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن مفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ) قالها فِنحاص اليهودىّ من بنى مرثَد ، لقيه أبو بكر فكلمه ، فقال له : يا فِنحاص ، اتق الله وآمن وصدّق ، وأقرض الله قرضا حسنا ، فقال فنحاص: يا أبا بكر ، تزعم أن ربنا فقير ، يستقرضنا أموالنا ؟ وما يستقرض إلا الفقير من الغنىّ ، إن كان ما تقول حقا ، فإن الله إذنْ لفقير ، فأنزل الله عزّ وجلّ هذا ، فقال أبو بكر : فلولا هدنة كانت بين النبىّ صلى الله عليه وسلم وبين بنى مرثَد لقتلته .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قال : صكّ أبو بكر رجلا منهم ، الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء ، لِمَ يستقرضنا وهو غنىّ ؟ وهم يهود .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، قال الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء ، لِمَ يستقرضنا وهو غنىّ ؟ قال شبل : بلغنى أنه فِنحاص اليهودىّ ، وهو الذى قال : إن الله ثالث ثلاثة ، ويد الله مغلولة .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنى يحيى بن واضح ، قال : حدثت عن عطاء ، عن الحسن ، قال : لما نزلت (مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا) قالت اليهود : إن ربكم يستقرض منكم ، فأنزل الله: (لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ) .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا حكام ، عن عمرو ، عن عطاء ، عن الحسن البصرىّ ، قال : لما نزلت (مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا) قال : عجبت اليهود فقالت : إن الله فقير يستقرض ، فنزلت (لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ) .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ) ذكر لنا أنها نزلت فى حُيَىّ بن أخطب لما أنزل الله (مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً) قال : يستقرضنا ربُّنا ؟ إنما يستقرض الفقيرُ الغنىّ .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، قال : لما نزلت (مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا) قالت اليهود : إنما يستقرض الفقيرُ من الغنىّ ، قال : فأنزل الله (لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ) .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال: سمعت ابن زيد يقول فى قوله : (لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ) قال : هؤلاء اليهود .

فتأويل الآية إذنْ : لقد سمع الله قول الذين قالوا من اليهود : إن الله فقير إلينا ، ونحن أغنياء عنه ، سنكتب ما قالوا من الإفك والفرية على ربهم ، وقتلهم أنبياءهم بغير حقّ .

واختلفت القراء في قراءة قوله (سَنَكْتُبُ ما قالُوا وَقَتْلَهُم) ، فقرأ ذلك قراء الحجاز وعامة قراء العراق: سنكتب ماقالوا، بالنون ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ،بنصب القتل، وقرأ ذلك بعض قراء الكوفيين: (سَيُكْتَبُ ما قالُوا وَقَتْلُهُمُ الأنبياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ) بالياء من سيكتب ،وبضمها ورفع القتل، على مذهب ما لم يسم فاعله ، اعتبارا بقراءة يذكر أنها من قراءة عبد الله فى قوله: ونقول: ذوقوا ، يذكر أنها فى قراءة عبد الله ، ويقال: فأغفل قارئ ذلك وجه الصواب فيما قصد إليه من تأويل القراءة التى تنسب إلى عبد الله ، وخالف الحجة من قراء الإسلام ، وذلك أن الذى ينبغى لمن قرأ (سَيُكْتَبُ ما قالوا وَقَتْلُهُمُ الأنبياءَ) على وجه ما لم يسم فاعله ، أن يقرأ : ويقال ، لأن قوله : ونقول عطف على قوله : سنكتب .

فالصواب من القراءة: أن يوفق بينهما فى المعنى ، بأن يقرآ جميعا على مذهب مالم يسم فاعله، أوعلى مذهب ما يسمى فاعله ، فأما أن يقرأ أحدهما على مذهب ما لم يسم فاعله ، والآخر على وجه ما قد سمى فاعله من غير معنى ألجاه على ذلك ، فاختيار خارج عن الفصيح من كلام العرب .

والصواب من القراءة فى ذلك عندنا: (سَنَكْتُبُ) بالنون (وَقَتْلَهُمُ) بالنصب: لقوله : ونقول ، ولو كانت القراءة فى (سَيُكْتَبُ) بالياء وضمها ، لقيل : ويقال ، على ما قد بينا .

فإن قال قائل: كيف قيل (وَقَتْلَهُمُ الأنبياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ) وقد ذكرت الآثار التى رويت، أن الذين عُنُوا بقوله (لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قالُوا: إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ) بعض اليهود الذين كانوا على عهد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن من أولئك أحد قتل نبيا من الأنبياء ، لأنهم لم يدركوا نبيا من أنبياء الله فيقتلوه ؟ قيل : إن معنى ذلك على غير الوجه الذى ذهبت إليه ، وإنما قيل ذلك كذلك لأن الذين عنى الله تبارك وتعالى بهذه الآية، كانوا راضين بما فعل أوائلهم من قتل من قتلوا من الأنبياء،وكانوا منهم، وعلى منهاجهم ، من استحلال ذلك واستجازته ، فأضاف جل ثناؤه فعل ما فعله من كانوا على منهاجه وطريقته إلى جميعهم ، إذ كانوا أهل ملة واحدة ، ونِحْلة واحدة ، وبالرضا من جميعهم فِعْلَ ما فَعَل فاعل ذلك منهم ، على ما بينا من نظائره فيما مضى قبل .

القول فى تأويل قوله (وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذابَ الحَرِيقِ ،ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ،وأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) .

يعنى بذلك جل ثناؤه: ونقول للقائلين: بأن الله فقير ونحن أغنياء، القاتلين أنبياء الله بغير حق ، يوم القيامة : ذوقوا عذاب الحريق ، يعنى بذلك : عذاب نار محرقة ملتهبة ، والنار اسم جامع للملتهبة منها وغير الملتهبة ، وإنما الحريق صفة لها ، يراد أنها مُحرقة ، كما قيل (عَذابٌ أَلِيمٌ) يعنى : مؤلم ، ووجيع ، يعنى : موجع .

وأما قوله (ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ) : أى قولنا لهم يوم القيامة: ذوقوا عذاب الحريق، بما أسلفت أيديكم ، واكتسبتها أيام حياتكم فى الدنيا ، وبأن الله عدل لايجور ، فيعاقب عبدا له بغير استحقاق منه العقوبة ، ولكنه يجازى كل نفس بما كسبت ، ويوفى كل عامل جزاء ما عمل ، فجازى الذين قال لهم

يوم القيامة، من اليهود الذين وصف صفتهم ، فأخبر عنهم أنهم قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء ، وقتلوا الأنبياء بغير حق ، بما جازاهم به من عذاب الحريق ، بما اكتسبوا من الآثام ، واجترحوا من السيئات ، وكذبوا على الله، بعد الإعذار إليهم بالإنذار ، فلم يكن تعالى ذكره بما عاقبهم به من إذاقتهم عذاب الحريق، ظالما ولا واضعا عقوبته فى غير أهلها ، وكذلك هو جل ثناؤه غير ظلام أحدا من خلقه ، ولكنه العادل بينهم ، والمتفضل على جميعهم ، بما أحب من فواضله ونعمه .

القول فى تأويل قوله

﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ، قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ ، فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (١٨٣)

يعنى بذلك جل ثناؤه : (لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَنْ لانُؤْمِنَ لِرَسُولٍ) وقوله (الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ اللهَ) فى موضع خفض ردا على قوله(الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ) . ويعنى بقوله : قالوا إن الله عهد إلينا أن لانؤمن لرسول : أوصانا وتقدم إلينا فى كتبه ، وعلى ألسن أنبيائه ، أن لانؤمن لرسول ، يقول : أن لانصدق رسولا فيما يقول: إنه جاء به من عند الله ، من أمر ونهى وغير ذلك ، حتى يأتينا بقربان تأكله النار ، يقول : حتى يجيئنا بقربان ، وهو ما تقرب به العبد إلى ربه من صدقة ، وهو مصدر مثل العُدوان والخسران ، من قولك: قربت قربانا . وإنما قال : تأكله النار، لأن أكل النار ما قربه أحدهم لله فى ذلك الزمان ، كان دليلا على قبول الله منه ماقرب له ، ودلالة على صدق المقرب فيما ادعى أنه محق ، فيما نازع أو قال .

كما حدثنا محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس قوله (حتى يأتِيَنَا بِقُرْبانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ) كان الرجل يتصدق ، فإذا تُقبل منه، أنزلت عليه نار من السماء فأكلته .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ ، يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله : بقربان تأكله النار ، كان الرجل إذا تصدق بصدقة ، فتُقبِّلَت منه ، بعث الله نارا من السماء، فنزلت على القربان فأكلته ، فقال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: (أن لانُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حتى يَأْتِيَنَا بِقُرْبانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ : قُلْ قَدْ جاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِى بالبَيِّناتِ): يعنى : بالحجج الدالة على صدق نبوتهم ، وحقيقة قولهم (وَبالَّذِى قُلْتُمْ): يعنى : وبالذى ادعيتم أنه إذا جاء به لزمكم تصديقه ، والإقرار بنبوته، من أكل النار قربانه إذ قرب لله دلالة على صدقه (فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) يقول له : قل لهم : قد جاءتكم الرسل الذين كانوا من قبلى بالذى زعمتم أنه حجة لهم عليكم ، فقتلتموهم ، فلم قتلتموهم وأنتم مقرون بأن الذى جاءوكم به من ذلك كان حجة لهم عليكم ، إن كنتم صادقين فى أن الله عهد إليكم أن تؤمنوا بمن أتاكم من رسله بقربان تأكله النار ، حجة له على نبوته ؟

وإنما أعلم الله عباده بهذه الآية ، أن الذين وصف صفتهم ، من اليهود الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لن يفرّوا ، وأن يكونوا فى كذبهم على الله ، وافترائهم على ربهم ، وتكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم ، وهم يعلمونه صادقا محقا ، وجحودهم نبوّته ، وهم يجدونه مكتوبا عندهم فى عهد الله تعالى إليهم ، أنه رسوله إلى خلقه ، مفروضة طاعته ، إلا كمن مضى من أسلافهم الذين كانوا يقتلون أنبياء الله بعد قطع الله عذرهم بالحجج التى أيدهم الله بها ، والأدلة التى أبان صدقهم بها ، افتراء على الله ، واستخفافا بحقوقه .

القول فى تأويل قوله جلّ ثناؤه

فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِالْبَيِّنَٰتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَٰبِ الْمُنِيرِ (١٨٤)

وهذا تعزية من الله جلّ ثناؤه نبيَّه محمدا صلى الله عليه وسلم على الأذى الذى كان يناله من اليهود وأهل الشرك بالله ، من سائر أهل الملل ، يقول الله تعالى له : لا يَحزُنك يا محمد كذب هؤلاء الذين قالوا : إن الله فقير ، وقالوا : إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار ، وافتراؤهم على ربهم ، اغترارا بإمهال الله إياهم ، ولا يعظمنّ عليك تكذيبهم إياك ، وادّعاؤهم الأباطيل ، من عهود الله إليهم ، فإنهم إن فعلوا ذلك بك فكذّبوك ، وكذبوا على الله ، فقد كذبت أسلافُهم من رسل الله قبلك مَن جاءهم بالحجج القاطعة العُذْر ، والأدلة الباهرة العقل ، والآيات المعجزة الخلق ، وذلك هو البينات . وأما الزُّبُر : فإنه جمع زَبور ، وهو الكتاب ، وكل كتاب فهو زَبور ، ومنه قول امرئ القيس :

لِمَنْ طَلَلٌ أبصَرْتُهُ فَشَجَانِي كَخَطِّ زَبُورٍ فى عَسِيبِ يَمَانِي[1]

ويعنى بالكتاب : التوراة والإنجيل ، وذلك أن اليهود كذّبت عيسى وما جاء به ، وحرّفت ما جاء به موسى عليه السلام ، من صفة محمد صلى الله عليه وسلم ، وبدلت عهده إليهم فيه ، وأن النصارى جحدت ما فى الإنجيل من نعته ، وغَيّرت ما أمرهم به فى أمره .

وأما قوله (المُنِير) فإنه يعنى : الذى ينير ، فيبين الحقّ لمن التبس عليه ويوضحه ، وإنما هو من النور والإضاءة ، يقال : قد أنار لك هذا الأمر ، بمعنى : أضاء لك وتبين ، فهو ينير إنارة ، والشىء المنير .

وقد حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك (فإنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ) قال : يُعزّى نبيَّه صلى الله عليه وسلم .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قوله (فإنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ

(١) البيت لامرئ القيس (مختار الشعر الجاهلى ، طبعة الحلبى ص ٧٠) والطلل : ما شخص من آثار الديار . وشجانى : حزننى . والزبور : الكتاب . والعسيب : جريدة النخل التى جرد عنها الخوص ، وكان أهل اليمن يكتبون قبل الإسلام العهود ونحوها فى العسب ، وكتب المسلمون أيضا القرآن أول الأمر فى العسب ، وفى اللخاف ، وهى حجارة بيض عريضة رقيقة ، وفى الأكتاف ، وهى عظام ألواح الحيوان . يقول سائلا متجاهلا أو متحيرا : لمن هذا الطلل الذى حين أبصرته شجانى وحزننى ، وقد أصبح كخط كتاب يكتبه الرجل اليمانى فى عسيب النخلة .

كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ) قال : يعزّى نبيه صلى الله عليه وسلم ، وهذا الحرف فى مصاحف أهل الحجاز والعراق ، والزُّبُر بغير باء، وهو فى مصاحف أهل الشام، وبالزبر بالباء، مثل الذى فى سورة فاطر .

القول فى تأويل قوله

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ، وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَٰعُ الْغُرُورِ (١٨٥)

يعنى بذلك تعالى ذكره ، أن مصير هؤلاء المفترين على الله، من اليهود المكذبين برسوله، الذين وصف صفتهم ، وأخبر عن جراءتهم على ربهم ، ومصير غيرهم من جميع خلقه تعالى ذكره ، ومرجع جميعهم إليه، لأنه قد حتَمَ الموت على جميعهم، فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : لايحزنك تكذيب من كذّبك يا محمد، من هؤلاء اليهود وغيرهم ، وافتراء من افترى علىّ ، فقد كُذِّب قبلك رسل جاءوا من الآيات والحجج ، من أُرسلوا إليه، بمثل الذى جئت من أرسلت إليه، فلك فيهم أسوة تتعزّى بهم، ومصير من كذّبك، وافترى علىّ وغيرهم ، ومرجعهم إلىّ ، فأوفى كل نفس منهم جزاء عمله يوم القيامة ، كما قال جلّ ثناؤه (وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ): يعنى أجور أعمالكم إن خيرا فخير، وإن شرّا فشرّ، (فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ): يقول : فمن نُحّى عن النار ، وأبعد منها (فَقَدْ فَازَ) يقول : فقد نجا وظفر بحاجته، يقال منه: فاز فلان بطَلِبته ، يفوز فوزا ومَفازا ومَفازةً : إذا ظفر بها .

وإنما معنى ذلك : فمن نُحّى عن النار فأبعد منها ، وأدخل الجنة ، فقد نجا وظفر بعظيم الكرامة . (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ) يقول : وما لذّات الدنيا وشهواتها ، وما فيها من زينتها وزخارفها ، إلا متاع الغُرور ، يقول : إلا متعة يمتعكموها الغُرور والخداع المضمحلّ، الذى لاحقيقة له عند الامتحان ، ولا صحة له عند الاختبار ، فأنتم تلتذّون بما متعكم الغرور من دنياكم ، ثم هو عائد عليكم بالفجائع والمصائب والمكاره ، يقول تعالى ذكره : لا تركنوا إلى الدنيا ، فتسكنوا إليها ، فإنما أنتم منها فى غرور تمتعون ، ثم أنتم عنها بعد قليل راحلون .

وقد روى فى تأويل ذلك ما حدثنى به المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا جرير ، عن الأعمش ، عن بُكير بن الأخنس ، عن عبد الرحمن بن سابط فى قوله (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ) قال : كزاد الراعى ، تزوّده الكفَّ من التمر ، أو الشىء من الدقيق ، أو الشىء يشرب عليه اللبن ، فكأن ابن سابط ذهب فى تأويله هذا إلى أن معنى الآية : وما الحياة الدنيا إلا متاع قليل ، لايبلغ من تمتعه، ولا يكفيه لسفره .

وهذا التأويل وإن كان وجها من وجوه التأويل، فإن الصحيح من القول فيه هو ما قلنا ، لأن الغُرور إنما هو الخداع فى كلام العرب ، وإذ كان كذلك فلا وجه لصرفه إلى معنى القلة ، لأن الشىء قد يكون قليلا ، وصاحبه منه فى غير خداع ولا غرور ؛ وأما الذى هو فى غرور ، فلا القليل يصحّ له ولا الكثير ، مما هو

منه فى غرور ، والغرور مصدر من قول القائل : غرّنى فلان ، فهو يغُرّنى غرورا بضمّ الغين . وأما إذا فتحت الغين من الغَرور ، فهو صفة للشيطان الغرور ، الذى يغر ابن آدم ، حتى يدخله من معصية الله فيما يستوجب به عقوبته .

وقد حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا عبدة وعبد الرحيم ، قالا : ثنا محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو سلمة ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَوْضِعُ سَوْطٍ فِى الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيا وَما فِيها ، وَاقْرَءُوا إنْ شِئْتُمْ : وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيا إلاَّ مَتاعُ الغُرُورِ) » .

القول فى تأويل قوله

* لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ (١٨٦)

يعنى بذلك تعالى ذكره (لَتُبْلَوُنَّ فِى أَمْوَالِكُمْ) لتُختبرنّ بالمصائب فى أموالكم وأنفسكم ، يعنى : وبهلاك الأقرباء والعشائر ، من أهل نصرتكم وملتكم ، (وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ) يعنى : من اليهود ، وقولهم (إنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِياءُ) وقولهم (يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ) ، وما أشبه ذلك من افترائهم على الله (وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا) يعنى النصارى (أَذًى كَثِيرًا) والأذى من اليهود ما ذكرنا ، ومن النصارى قولهم : المسيح ابن الله ، وما أشبه ذلك ، من كفرهم بالله (وَإنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا) يقول : وإن تصبروا لأمر الله الذى أمركم به فيهم وفى غيرهم ، من طاعته ، وتتقوا ، يقول : وتتقوا الله فيما أمركم ونهاكم ، فتعملوا فى ذلك بطاعته (فَإنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ) يقول ، فإن ذلك الصبر والتقوى مما عزم الله عليه ، وأمركم به . وقيل : إن ذلك كله نزل فى فنحاص اليهودىّ سيد بنى قَيْنُقاع :

كالذى حدثنا به القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال عكرمة قوله (لَتُبْلَوُنَّ فِى أَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا) قال : نزلت هذه الآية فى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وفى أبى بكر ، رضوان الله عليه ، وفى فنحاص اليهودىّ سيد بنى قَيْنُقاع ، قال : بعث النبىّ صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصدّيق رحمه الله إلى فنحاص يستمدّه ، وكتب إليه بكتاب ، وقال لأبى بكر ، لاتفتاتَنّ علىّ بشىء حتى ترجع ، فجاء أبو بكر ، وهو متوشّح بالسيف ، فأعطاه الكتاب ، فلما قرأه قال : قد احتاج ربكم أن نمدّه ، فهمّ أبو بكر أن يضربه بالسيف ، ثم ذكر قول النبىّ صلى الله عليه وسلم : « لاتَفْتاتَنَّ عَلَىَّ بِشَىْءٍ حَتَّى تَرْجِعَ » فكفّ ، ونزلت (وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ ، بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ) وما بين الآيتين إلى قوله (لَتُبْلَوُنَّ فِى أَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ) نزلت هذه الآيات فى بنى قَيْنُقاع ، إلى قوله (فَإنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ) قال ابن جُريج يعزّى نبيّه صلى الله عليه وسلم ، قال : (لَتُبْلَوُنَّ فِى أَمْوالِكُمْ

وأنفُسِكُمْ) قال : أعلم الله المؤمنين أنه سيبتليهم ، فينظر كيف صبرهم على دينهم ؟ ثم قال (وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ) يعنى : اليهود والنصارى (وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا) فكان المسلمون يسمعون من اليهود قولهم : عُزَيْر ابن الله ، ومن النصارى : المسيح ابن الله ، فكان المسلمون يَنْتَصِبون لهم الحرب ، ويسمعون إشراكهم ، فقال الله : (وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ) يقول : من القوّة مما عزم الله عليه ، وأمركم به .

وقال آخرون : بل نزلت فى كعب بن الأشرف ، وذلك أنه كان يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويتشبب بنساء المسلمين .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن الزهرىّ فى قوله : (وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ، وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا) قال : هو كعب بن الأشرف ، وكان يُحَرِّض المشركين على النبىّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى شعره ، ويهجو النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فانطلق إليه خمسة نفر من الأنصار فيهم محمد بن مسلمة ، ورجل يقال له أبو عبس ، فأتوه ، وهو فى مجلس قومه بالعوالى ؛ فلما رآهم ذُعِر منهم ، فأنكر شأنهم ، وقالوا : جئناك لحاجة ، قال : فليدْنُ إلىّ بعضكم ، فليحدثنى بحاجته ، فجاءه رجل منهم فقال : جئناك لنبيعك أدراعا عندنا ، لنستنفق بها ؛ فقال : والله لئن فعلتم لقد جَهِدتم منذ نزل بكم هذا الرجل ، فواعدوه أن يأتوه عشاء حين هدأ عنهم الناس ، فأتوه ، فنادَوه ، فقالت امرأته : ماطرقك هؤلاء ساعتهم هذه لشىء مما تحبّ ، قال : إنهم حدثونى بحديثهم وشأنهم . قال معمر : فأخبرنى أيوب عن عكرمة أنه أشرف عليهم فكلمهم ، فقال : أترْهنونى أبناءكم ، وأرادوا أن يبيعهم تمرا ، قال : فقالوا : إنا نستحى أن تعيَّرَ أبناؤنا ، فيقال هذا رهينة وَسْق ، وهذا رهينة وسْقين ، فقال : أترهنونى نساءكم ؟ قالوا : أنت أجمل الناس ، ولا نأمنك ، وأىّ امرأة تمتنع منك لجمالك ، ولكنا نرهنك سلاحنا ، فقد علمت حاجتنا إلى السلاح اليوم ، فقال : ائتونى بسلاحكم ، واحتملوا ماشئتم ، قالوا : فانزل إلينا نأخذ عليك ، وتأخذ علينا ، فذهب ينزل ، فتعلقت به امرأته ، وقالت : أرسل إلى أمثالهم من قومك يكونوا معك ، قال : لو وجدنى هؤلاء نائما ما أيقظونى ، قالت : فكلمهم من فوق البيت ، فأبى عليها ، فنزل إليهم يفوح ريحه ، قالوا : ما هذه الريح يا فلان ؟ قال : هذا عطر أمّ فلان امرأته ، فدنا إليه بعضهم يشمّ رائحته ، ثم اعتنقه ، ثم قال : اقتلوا عدوّ الله ، فطعنه أبو عَبْس فى خاصرته ، وعلاه محمد بن مسلمة بالسيف ، فقتلوه ، ثم رجعوا ، فأصبحت اليهود مذعورين ، فجاءوا إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : قتل سيدنا غِيلَة ، فذكّرهم النبىّ صلى الله عليه وسلم صنيعه ، وما كان يحضّ عليهم ، ويحرّض فى قتالهم ، ويؤذيهم ، ثم دعاهم إلى أن يكتب بينه وبينهم صلحا ، فقال : فكان ذلك الكتاب مع علىّ رضوان الله عليه .

القول فى تأويل قوله

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَٰقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ : لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ، وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧)

يعنى بذلك تعالى ذكره : واذكر أيضا من هؤلاء اليهود وغيرهم ، من أهل الكتاب منهم يا محمد ، إذ أخذ الله ميثاقهم ، ليبيننّ للناس أمرك الذى أخذ ميثاقهم على بيانه للناس ، فى كتابهم الذى فى أيديهم ، وهو التوراة والإنجيل ، وأنك لله رسول مرسل بالحقّ ، ولا يكتمونه ، فنبذوه وراء ظهورهم ، يقول : فتركوا أمر الله وضيعوه ، ونقضوا ميثاقه الذى أخذ عليهم بذلك ، فكتموا أمرك ، وكذبوا بك ، واشتروا به ثمنا قليلا ، يقول : وابتاعوا بكتمانهم ما أخذ عليهم الميثاق ألا يكتموه من أمر نبوّتك ، عوضا منه ، خسيسا قليلا من عرَض الدنيا ، ثم ذمّ جلّ ثناؤه شراءهم ما اشتروا به من ذلك ، فقال : فبئس ما يشترون .

واختلف أهل التأويل فيمن عنى بهذه الآية ، فقال بعضهم : عَنى بها اليهود خاصة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا أبوكريب ، قال : ثنا يونس بن بُكَير ، قال : ثنا محمد بن إسحاق ، قال : ثنى محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة أنه حدثه ، عن ابن عباس (وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ لَيُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا يَكْتُمُونَهُ) إلى قوله (عَذابٌ أَلِيمٌ) يعنى : فنحاص وأشيع وأشباههما من الأحبار .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة مولى ابن عباس ، مثله .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس قوله (وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ : لَيُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا يَكْتُمُونَهُ ، فَنَبَذُوهُ وَراءَ ظُهُورِهِمْ) كان أمرهم أن يتبعوا النبىّ الأمىّ الذى يؤمن بالله وكلماته ، وقال : اتبعوه لعلكم تهتدون ، فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم قال : (أَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ، وَإِيَّاىَ فارْهَبُونِ) عاهدهم على ذلك ، فقال حين بعث محمدا : صدّقوه ، وتلقون الذى أحببتم عندى .

حدثنا محمد ، قال : ثنا أحمد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ لَيُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ) . . . الآية ، قال : إن الله أخذ ميثاق اليهود ليبيننه للناس ، محمدا صلى الله عليه وسلم ، ولا يكتمونه ، فنبذوه وراء ظهورهم ، واشتروا به ثمنا قليلا .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا الثورىّ ، عن أبى الجحاف ، عن مسلم البطين ، قال : سأل الحجاج بن يوسف جلساءه عن هذه الآية (وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ الَّذِينَ

أُوتُوا الكِتابَ) فقام رجل إلى سعيد بن جبير فسأله ، فقال : وإذ أخذ الله ميثاق أهل الكتاب يهود ، (لَيُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ) محمدا صلى الله عليه وسلم ولا يكتمونه ، فنبذوه .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قوله (وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ لَيُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا يَكْتُمُونَهُ) قال : وكان فيه : إن الإسلام دين الله الذى افترضه على عباده ، وإن محمدا يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل .

وقال آخرون : عَنَى بذلك كل من أوتى علما بأمر الدين .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ لَيُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا يَكْتُمُونَهُ ، فَنَبَذُوهُ وَراءَ ظُهُورِهِمْ) . . . الآية ، هذا ميثاق أخذ الله على أهل العلم ، فمن علم شيئا فليعلمه ، وإياكم وكتمانَ العلم ، فإن كتمان العلم هَلَكَة ، ولا يتكلفنّ رجل ما لا علم له به ، فيخرج من دين الله ، فيكون من المتكلفين . كان يقال : مثل علم لا يقال به ، كمثل كنز لا يُنْفَق منه ، ومثل حكمة لا تخرج ، كمثل صنم قائم لا يأكل ولا يشرب . وكان يقال : طُوبَى لعالم ناطق ، وطُوبَى لمستمع واع ، هذا رجل علم علما فعلّمه ، وبذله ودعا إليه ، ورجل سمع خيرا فحفظه ووعاه ، وانتفع به .

حدثنى يحيى بن إبراهيم المسعودىّ ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن جده ، عن الأعمش ، عن عمرو ابن مرّة ، عن أبى عبيدة ، قال : جاء رجل إلى قوم فى المسجد ، وفيه عبد الله بن مسعود ، فقال : إن أخاكم كعبا يقرئكم السلام ، ويبشركم أن هذه الآية ليست فيكم (وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ لَيُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا يَكْتُمُونَهُ) فقال له عبد الله : وأنت فأقرئه السلام ، وأخبره أنها نزلت وهو يهودىّ .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن الأعمش ، عن عمرو بن مرّة ، عن أبى عبيدة بنحوه ، عن عبد الله وكعب .

وقال آخرون : معنى ذلك : وإذ أخذ الله ميثاق النبيين على قومهم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا يحيى بن سعيد ، عن سفيان ، قال : ثنى يحيى بن أبى ثابت ، عن سعيد بن جبير ، قال : قلت لابن عباس : إن أصحاب عبد الله يقرءون (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ مِيثاقَهُمْ) قال : من النبيين على قومهم .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا قبيصة ، قال : ثنا سفيان ، عن حبيب ، عن سعيد ، قال : قلت لابن عباس : إن أصحاب عبد الله يقرءون (وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ ، وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ) قال : فقال : أخذ الله ميثاق النبيين على قومهم .

وأما قوله (لَيُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ) فإنه كما حدثنا عبد الوارث بن عبد الصمد بن عبد الوارث ، قال :

ثنى أبى ، قال : ثنا محمد بن ذكوان ، قال : ثنا أبو نعامة السعدىّ ، قال : كان الحسن يفسر قوله : (وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَيُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُونَهُ) ليتكلمُن بالحقّ وليُصَدِّقُنه بالعمل .

واختلفت القراء فى قراءة ذلك ، فقرأه بعضهم (لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ) بالتاء ، وهى قراءة أعظم قراء أهل المدينة والكوفة على وجه المخاطب ، بمعنى : قال لهم : لتبيننه للناس ولا تكتمونه . وقرأ ذلك آخرون : (لَيُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُونَهُ) بالياء جميعا ، على وجه الخبر عن الغائب ، لأنهم فى وقت إخبار الله نبيه صلى الله عليه وسلم بذلك عنهم ، كانوا غير موجودين ، فصار الخبر عنهم كالخبر عن الغائب . والقول فى ذلك عندنا : أنهما قراءتان صحيحة وجوههما ، مستفيضتان فى قراءة الإسلام ، غير مختلفتى المعانى ، فبأيهما قرأ القارئ ، فقد أصاب الحقّ والصواب فى ذلك ، غير أن الأمر فى ذلك ، وإن كان كذلك ، فإن أحبّ القراءتين إلىّ أن أقرأ بها (لَيُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُونَهُ) بالياء جميعا ، استدلالا بقوله (فَنَبَذُوهُ) أنه إذ كان قد خرج مخرج الخبر عن الغائب على سبيل قوله (فَنَبَذُوهُ) حتى يكون متسقا كله على معنى واحد ، ومثال واحد ، ولو كان الأوّل بمعنى الخطاب ، لكان أن يقال : فنبذتموه وراء ظهوركم ، أولى من أن يقال : فنبذوه وراء ظهورهم .

وأما قوله (فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ) فإنه مثل لتضييعهم القيام بالميثاق ، وتركهم العمل به . وقد بينا المعنى الذى من أجله قيل ذلك كذلك فيما مضى من كتابنا هذا ، فكرهنا إعادته .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا ابن إدريس ، قال : أخبرنا يحيى بن أيوب البَجَلى ، عن الشَّعْبىّ فى قوله (فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ) قال : إنهم قد كانوا يقرءونه : إنما نبذوا العمل به .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج (فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ) قال : نبذوا الميثاق .

حدثنى محمد بن سنان ، قال : ثنا عثمان بن عمر ، قال : ثنا مالك بن مِغْوَل ، قال : نبئت عن الشعبىّ فى هذه الآية (فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ) قال : قذفوه بين أيديهم ، وتركوا العمل به .

وأما قوله (وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا) فإن معناه ما قلنا ، من أخذهم ما أخذوا على كتمانهم الحقّ ، وتحريفهم الكتاب .

كما حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن مفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا) أخذوا طمعا ، وكتموا اسم محمد صلى الله عليه وسلم .

وقوله (فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ) يقول : فبئس الشراء يشترون فى تضييعهم الميثاق ، وتبديلهم الكتاب .

كما حدثنا محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ) قال : تبديل اليهود التوراة .

القول فى تأويل قوله

لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوْاْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ ، فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨)

اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك ، فقال بعضهم : عَنَى بذلك قوم من أهل النفاق ، كانوا يقعدون خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا العدوّ ، فإذا انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتذروا إليه ، وأحبوا أن يُحْمَدوا بما لم يفعلوا .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن سهل بن عسكر وابن عبد الرحيم البرقىّ ، قالا : ثنا ابن أبى مريم ، قال : ثنا محمد بن جعفر بن أبى كثير ، قال : ثنى زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبى سعيد الخُدْرِىّ : أن رجالا من المنافقين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا خرج النبىّ صلى الله عليه وسلم إلى الغزو ، تخلفوا عنه ، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ، وإذا قَدِمَ النبىّ صلى الله عليه وسلم من السفر اعتذروا إليه ، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فأنزل الله تعالى فيهم (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا) . . . الآية .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا ، وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا) قال : هؤلاء المنافقون يقولون للنبىّ صلى الله عليه وسلم : لو قد خرجتَ لخرجنا معك ، فإذا خرج النبىّ صلى الله عليه وسلم تخلفوا وكذبوا ، ويفرحون بذلك ، ويرون أنها حيلة احتالوا بها .

وقال آخرون : عُنِى بذلك قوم من أحبار اليهود ، كانوا يفرحون بإضلالهم الناس ، ونسبة الناس إياهم إلى العلم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة مولى ابن عباس ، أو سعيد بن جبير (وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ) إلى قوله (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) يعنى : فِنْحاصا وأشيع وأشباههما ، من الأحبار الذين يفرحون بما يصيبون من الدنيا على ما زينوا للناس من الضلالة ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، أن يقول لهم الناس علماء ، وليسوا بأهل علم ، لم يحملوهم على هدى ولا خير ، ويحبون أن يقول لهم الناس : قد فعلوا .

حدثنا ابن كريب ، قال : ثنا يونس بن بكير ، قال : ثنا محمد بن إسحاق ، قال : ثنى محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أنه حدثه عن ابن عباس بنحو ذلك ، إلا أنه قال : وليسوا بأهل علم ، لم يحملوهم على هدى .

وقال آخرون : بل عُنِى بذلك قوم من اليهود ، فرحوا باجتماع كلمتهم على تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم ، ويحبون أن يحمدوا ، بأن يقال لهم : أهل صلاة وصيام .

ذكر من قال ذلك :

حُدثت عن الحسين بن الفرج ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد بن سليمان ، قال : سمعت الضحاك بن مزاحم ، يقول فى قوله (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا) فإنهم فرحوا باجتماعهم على كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : قد جمع الله كلمتنا ، ولم يخالف أحد منا أحدا أنه نبىّ ، وقالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه ، ونحن أهل الصلاة والصيام وكذبوا ، بل هم أهل كفر وشرك ، وافتراء على الله ، قال الله : (يُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا)

حدثنى يحيى بن أبى طالب ، قال : أخبرنا يزيد ، قال : أخبرنا جويبر ، عن الضحاك ، فى قوله (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا ، وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا) قال : قالت اليهود : أمر بعضكم بعضا ، فكتب بعضهم إلى بعض : أن محمدا ليس بنبىّ ، فاجمعوا كلمتكم ، وتمسكوا بدينكم وكتابكم الذى معكم ، ففعلوا وفرحوا بذلك ، وفرحوا باجتماعهم على الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم .

حدثنا محمد ، قال : ثنا أحمد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، قال : كتموا اسم محمد صلى الله عليه وسلم ، ففرحوا بذلك ، وفرحوا باجتماعهم على الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم .

حدثنا محمد ، قال : ثنا أحمد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، قال : كتموا اسم محمد صلى الله عليه وسلم ، وفرحوا بذلك حين اجتمعوا عليه ، وكانوا يزكُّون أنفسهم ، فيقولون : نحن أهل الصيام ، وأهل الصلاة ، وأهل الزكاة ، ونحن على دين إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله فيهم (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا) من كتمان محمد صلى الله عليه وسلم (وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا) : أحبوا أن تحمدهم العرب بما يزكون به أنفسهم ، وليسوا كذلك .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا الثورىّ ، عن أبى الجحّاف ، عن مسلم البطين ، قال : سأل الحجاج جلساءه عن هذه الآية (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا) قال سعيد بن جبير : بكتمانهم محمدا (وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا) قال : هو قولهم : نحن على دين إبراهيم عليه السلام .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا ، وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا) : هم أهل الكتاب أنزل عليهم الكتاب ، فحكموا بغير الحقّ ، وحرّفوا الكلم عن مواضعه ، وفرحوا بذلك ، وأحبوا أن

يحمدوا بما لم يفعلوا ، فرحوا بأنهم كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وما أنزل الله ، وهم يزعمون أنهم يعبدون الله ، ويصومون ، ويصلون ، ويطيعون الله ، فقال الله جلّ ثناؤه لمحمد صلى الله عليه وسلم: (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا) كفروا بالله ، وكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم (وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا) من الصلاة والصوم ، فقال الله جلّ وعزّ لمحمد صلى الله عليه وسلم: (فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : لاتحسبنّ الذين يفرحون بما أتوا: من تبديلهم كتابَ الله ، ويحبون أن يحمدهم الناس على ذلك .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد فى قول الله تعالى (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا) قال: يهود فرحوا بإعجاب الناس بتبديلهم الكتاب ، وحمدهم إياهم عليه ، ولا تملك يهود ذلك .

وقال آخرون : معنى ذلك : أنهم فرحوا بما أعطى الله تعالى آل إبراهيم عليه السلام .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن المثنى ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال: ثنا شعبة ، عن أبى المعلّى ، عن سعيد بن جبير أنه قال فى هذه الآية (وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا) قال: اليهود يفرحون بما آتى الله إبراهيم عليه السلام .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا وهب بن جرير ، قال : ثنا شعبة ، عن أبى المعلّى العطار ، عن سعيد بن جبير ، قال : هم اليهود ، فرحوا بما أعطى الله تعالى إبراهيم عليه السلام .

وقال آخرون: بل عُنى بذلك قوم من اليهود سألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شىء ، فكتموه، ففرحوا بكتمانهم ذلك إياه .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا ابن جريج ، قال : أخبرنى ابن أبى مُليكة أن علقمة بن أبى وقاص أخبره أن مروان قال لرافع : اذهب يارافع إلى ابن عباس، فقل له: لئن كان كلّ امرئ منا فرح بما أتى ، وأحبّ أن يحمد بما لم يفعل معذّبا ، ليعذّبنا الله أجمعين . فقال ابن عباس : مالكم ولهذه ؟ إنما دعا النبىّ صلى الله عليه وسلم يهود ، فسألهم عن شىء فكتموه إياه ، وأخبروه بغيره ، فأروه أن قد استجابوا الله بما أخبروه عنه مما سألهم ، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم إياه ، ثم قال (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) . . . الآية .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، قال : قال ابن جريج : أخبرنى عبد الله بن أبى مليكة ، أن حميد بن عبد الرحمن بن عوف أخبره: أن مروان بن الحكم قال لبوّابه: يارافع ، اذهب إلى

ابن عباس ، فقل له : لئن كان كل امرئ منا فرح بما أتى ، وأحبَّ أن يحمد بما لم يفعل معذَّبا ، لنعذَّبنّ جميعا ، فقال ابن عباس : مالكم ولهذه الآية ؟ إنما أنزلت فى أهل الكتاب ، ثم تلا ابن عباس (وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ لَيُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ) إلى قوله (أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا) قال ابن عباس : سألهم النبىّ صلى الله عليه وسلم عن شىء فكتموه إياه ، وأخبروه بغيره ، فخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما قدسألهم عنه ، فاستحمدوا بذلك إليه ، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم إياه ما سألهم عنه .

وقال آخرون : بل عنى بذلك قوم من يهود أظهروا النفاق للنبىّ صلى الله عليه وسلم محبة منهم للحمد ، والله عالم منهم خلاف ذلك .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، ذكر لنا أن أعداء الله اليهود : يهود خيبر أتوا نبىّ الله صلى الله عليه وسلم ، فزعموا أنهم راضون بالذى جاء به ، وأنهم متابعوه ، وهم متمسكون بضلالتهم ، وأرادوا أن يحمدهم نبىّ الله صلى الله عليه وسلم بما لم يفعلوا ، فأنزل الله تعالى (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا ، وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا) . . . الآية .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، قال : إن أهل خيبر أتوا النبىّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فقالوا : إنا على رأيكم وهيئتكم ، وإنا لكم رِدْءٌ ، فأكذبهم الله ، فقال (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا) . . . الآيتين .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن عمرو بن مرة ، عن أبى عبيدة ، قال : جاء رجل إلى عبد الله ، فقال : إن كعبا يقرأ عليك السلام ، ويقول : إن هذه الآية لم تنزل فيكم (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا ، وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا) قال : أخبروه أنها نزلت وهو يهودىّ .

وأولى هذه الأقوال بالصواب فى تأويل قوله (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا) . . . الآية : قول من قال : عنى بذلك : أهل الكتاب الذين أخبر الله جلّ وعزّ أنه أخذ ميثاقهم ، ليبيننّ للناس أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا يكتمونه ، لأن قوله (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا) . . . الآية فى سياق الخبر عنهم ، وهو شبيه بقصتهم مع اتفاق أهل التأويل ، على أنهم المعنيون بذلك ، فإذ كان ذلك كذلك ، فتأويل الآية : لاتحسبنّ يامحمد الذين يفرحون بما أتوا من كتمانهم الناس أمرك ، وأنك لى رسول مرسل بالحقّ ، وهم يجدونك مكتوبا عندهم فى كتبهم ، وقد أخذت عليهم الميثاق بالإقرار بنبوّتك ، وبيان أمرك للناس ، وألايكتموهم ذلك ، وهم مع نقضهم ميثاق الذى أخذت عليهم بذلك ، يفرحون بمعصيتهم إياى فى ذلك ، ومخالفتهم أمرى ، ويحبون أن يحمدهم الناس بأنهم أهل طاعة لله وعبادة وصلاة وصوم ، واتباع لوحيه ، وتنزيله الذى أنزله على أنبيائه ، وهم من ذلك أبرياء أخلياء ، لتكذيبهم رسوله ، ونقضهم ميثاقه الذى أخذ عليهم ، لم يفعلوا شيئا مما يحبون أن يحمدهم الناس عليه ، فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ، ولهم عذاب

أليم ، وقوله (فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفازَةٍ مِنَ العَذَابِ) : فلا تظنَّنهم بمَنجاة من عذاب الله الذى أعدّه لأعدائه فى الدنيا ، من الخسف والمسخ والرجف والقتل ، وما أشبه ذلك من عقاب الله ، ولا هم ببعيد منه .

كما حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفازَةٍ مِنَ العَذَابِ) قال : بمَنجاة من العذاب .

قال أبو جعفر (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) يقول : ولهم عذاب فى الآخرة أيضا مؤلم ، مع الذى لهم فى الدنيا معجل .

القول فى تأويل قوله

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩)

وهذا تكذيب من الله جلّ ثناؤه (الذين قالوا : إنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ) يقول تعالى ذكره مكذّبا لهم : لله ملك جميع ما حوته السموات والأرض ، فكيف يكون أيها المفترون على الله ، من كان ملك ذلك له فقيرا ؟ ثم أخبر جلّ ثناؤه أنه القادر على تعجيل العقوبة لقائلى ذلك ، ولكلّ مكذّب به ، ومفتر عليه ، وعلى غير ذلك مما أراد وأحبّ ، ولكنه تفضل بحلمه على خلقه ، فقال (وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) يعنى : من إهلاك قائلى ذلك ، وتعجيل عقوبته لهم ، وغير ذلك من الأمور .

القول فى تأويل قوله

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠)

وهذا احتجاج من الله تعالى ذكره على قائل ذلك ، وعلى سائر خلقه ، بأنه المدبر المصرّف الأشياء ، والمسخر ما أحبّ ، وأن الإغناء والإفقار إليه وبيده ، فقال جلّ ثناؤه : تدبَّروا أيها الناس واعتبروا ، ففيما أنشأته فخلقته من السموات والأرض لمعاشكم وأقواتكم وأرزاقكم ، وفيما عقبت بينه من الليل والنهار ، فجعلتهما يختلفان ، ويعتقبان عليكم ، تتصرّفون فى هذا لمعاشكم ، وتسكنون فى هذا راحة لأجسادكم ، معتبر ومدّكر ، وآيات وعظات ، فمن كان منكم ذا لبّ وعقل ، يعلم أن من نسبنى إلى أنى فقير وهو غنىّ ، كاذب مفتر ، فإن ذلك كله بيدى ، أقلبه وأصرفه ، ولو أبطلت ذلك لهلكتم ، فكيف ينسب فقر إلى من كان كل ما به عيش ما فى السموات والأرض بيده وإليه ؟ أم كيف يكون غنيا من كان رزقه بيد غيره ؟ إذا شاء رزقه ، وإذا شاء حرمه ، فاعتبروا يا أولى الألباب .

القول فى تأويل قوله

الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ، وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ : رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ ، فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)

وقوله (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا) من نعت أولى الألباب ، والذين فى موضع خفض ردًّا على قوله : لأولى الألباب .

ومعنى الآية : إن فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، لآيات لأولى الألباب ، الذاكرين الله قياما وقعودا ، وعلى جنوبهم ، يعنى بذلك : قياما فى صلاتهم ، وقعودا فى تشهدهم ، وفى غير صلاتهم ، وعلى جنوبهم نياما .

كما حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قوله (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِياماً وَقُعُوداً) . . . الآية ، قال : هو ذكر الله فى الصلاة ، وفى غير الصلاة ، وقراءة القرآن .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ) وهذه حالاتك كلها يابن آدم ، فاذكره وأنت على جنبك ، يسرًا من الله وتخفيفا .

فإن قال قائل : وكيف قيل (وَعَلَى جُنُوبِهِمْ) فعطف بعلى وهى صفة ، على القيام والقعود ، وهما اسمان ؟ قيل : لأن قوله (وَعَلَى جُنُوبِهِمْ) فى معنى الاسم ، ومعناه : ونياماً أو مضطجعين على جنوبهم ، فحسن عطف ذلك على القيام والقعود لذلك المعنى ، كما قيل (وَإِذَا مَسَّ الإِنْسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أو قائماً) فعطف بقوله (أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً) على قوله (لِجَنْبِهِ) ، لأن معنى قوله لجنبه : مضطجعا ، فعطف بالقاعد والقائم على معناه ، فكذلك ذلك فى قوله (وَعَلَى جُنُوبِهِمْ) .

وأما قوله (وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ) : فإنه يعنى بذلك أنهم يعتبرون بصنعة صانع ذلك ، فيعلمون أنه لايصنع ذلك إلا من ليس كمثله شىء ، ومن هو مالك كل شىء ورازقه ، وخالق كلّ شىء ومدبره ، ومن هو على كل شىء قدير ، وبيده الإغناء والإفقار ، والإعزاز والإذلال ، والإحياء والإماتة ، والشقاء والسعادة .

القول فى تأويل قوله (رَبَّنا ما خَلَقْتَ هٰذَا باطِلاً ، سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ) :

يعنى بذلك تعالى ذكره : ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، قائلين (رَبَّنا ما خَلَقْتَ هٰذَا باطِلاً) ، فترك ذكر قائلين ، إذ كان فيما ظهر من الكلام دلالة عليه ؛ وقوله (ماخَلَقْتَ هٰذَا باطِلاً) : يقول : لم تخلق هذا الخلق عبثا ولا لعبا ، ولم تخلقه إلا لأمر عظيم من ثواب وعقاب ، ومحاسبة ومجازاة ؛ وإنما قال : ما خلقت هذا باطلا ، ولم يقل : ماخلقت هذه ، ولا هؤلاء ، لأنه أراد بهذا : الخلق الذى فى السموات والأرض ، يدلّ على ذلك قوله (سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ) ورغبتهم إلى ربهم فى أن يقيهم عذاب الجحيم ، ولو كان المعنىّ بقوله (ما خَلَقْتَ هٰذَا باطِلاً) السموات والأرض ، لما كان لقوله عقيب ذلك (فَقِنا عَذابَ النَّارِ) معنى مفهوم ، لأن السموات والأرض أدلة على بارئها ، لاعلى الثواب والعقاب ، وإنما الدليل على الثواب والعقاب : الأمر والنهى . وإنما وصف جلّ ثناؤه أولى الألباب الذين ذكرهم فى هذه الآية ، أنهم إذا رأوا المأمورين المنهيين ، قالوا : يا ربنا لم تخلق هؤلاء باطلا عبثا ، سبحانك ! يعنى : تنزيها لك من أن تفعل شيئا عبثا ، ولكنك خلقتهم لعظيم من الأمر ، لجنة أو نار ، ثم فزعوا إلى ربهم بالمسئلة ، أن يُجيرهم من عذاب النار ، وألا يجعلهم ممن عصاه وخالف أمره ، فيكونوا من أهل جهنم .

القول فى تأويل قوله

رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ، وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (١٩٢)

اختلف أهل التأويل فى ذلك ، فقال بعضهم : معنى ذلك : ربنا إنك من تدخل النار من عبادك فتخلده فيها فقد أخزيته ، قال : ولا يُخزَى مؤمن مصيره إلى الجنة . وإن عذّب بالنار بعض العذاب .

ذكر من قال ذلك

حدثنى أبو حفص الجبيرىّ ومحمد بن بشار ، قالا : أخبرنا المؤمل ، أخبرنا أبو هلال ، عن قتادة ، عن أنس ، فى قوله (رَبَّنا إنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أخْزَيْتَه) قال : من تخلد .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا الثورىّ ، عن رجل ، عن ابن المسيب (رَبَّنا إنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أخْزَيْتَهُ) قال : هى خاصة لمن لايخرج منها .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو النعمان عارم ، قال : ثنا حماد بن زيد ، قال : ثنا قبيصة بن مروان ، عن الأشعث الحملىّ ، قال : قلت للحسن : يا أبا سعيد ، أرأيت ما تذكر من الشفاعة حقّ هو ؟ قال : نعم حق ، قال : قلت : يا أبا سعيد ، أرأيت قول الله تعالى (رَبَّنا إنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أخْزَيْتَهُ) يريدون أن يخرجوا من النار ، وما هم بخارجين منها ، قال : فقال لى : إنك والله لاتستطيع على شىء ، إن للنار أهلا لايخرجون منها ، كما قال الله ، قال : قلت : يا أبا سعيد : فيمن دخلوا ثم خرجوا ، قال : كان أصابوا ذنوبا فى الدنيا ، فأخذهم الله بها ، فأدخلهم بها ، ثم أخرجهم ، بما يعلم فى قلوبهم من الإيمان والتصديق به .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قوله (إنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أخْزَيْتَهُ) قال : هو من يخلد فيها .

وقال آخرون : معنى ذلك : ربنا إنك من تدخل النار ، من مخلّد فيها وغير مخلد فيها ، فقد أُخزى بالعذاب .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا الحارث بن مسلم ، عن يحيى بن عمرو بن دينار ، قال : قدم علينا جابر بن عبد الله فى عُمرة ، فانتهيت إليه أنا وعطاء ، فقلت : (رَبَّنا إنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أخْزَيْتَهُ) قال : وما إخزاؤه حين أحرقه بالنار ، وإنّ دون ذلك لخزيا .

وأولى القولين بالصواب عندى : قول جابر : إن من أُدخل النار فقد أُخزى بدخوله إياها ، وإن أخرج منها ، وذلك أن الخزى إنما هو هتك ستر المُخْزَى وفضيحته ، ومن عاقبه ربه فى الآخرة على ذنوبه ، فقد فضحه بعقابه إياه ، وذلك هو الخزى .

وأما قوله (وَما للظَّالِمِينَ مِنْ أنْصارٍ) يقول : وما لمن خالف أمر الله فعصاه ، من ذى نُصْرة له ينصره من الله ، فيدفع عنه عقابه ، أو ينقذه من عذابه .

القول فى تأويل قوله

رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ : أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ، رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ، وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا ، وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ (١٩٣)

اختلف أهل التأويل فى تأويل المنادِى الذى ذكره الله تعالى فى هذه الآية . فقال بعضهم : المنادِى فى هذا الموضع القرآن .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا قبيصة بن عقبة ، قال : ثنا سفيان ، عن موسى بن عبيدة ، عن محمد بن كعب : (إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَانِ) قال : هو الكتاب ، ليس كلهم لقى النبىّ صلى الله عليه وسلم .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا منصور بن حكيم ، عن خارجة ، عن موسى بن عبيدة ، عن محمد بن كعب القُرَظِىّ ، فى قوله (رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَانِ) قال : ليس كل الناس سمع النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ولكن المنادِى : القرآن .

وقال آخرون : بل هو محمد صلى الله عليه وسلم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حَجَّاج ، عن ابن جريج ، قوله (إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَانِ) قال : هو محمد صلى الله عليه وسلم .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَانِ) قال : ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأولى القولين فى ذلك بالصواب : قول محمد بن كعب ، وهو أن يكون المنادِى القرآن ، لأن كثيرا ممن وصفهم الله بهذه الصفة فى هذه الآيات ، ليسوا ممن رأى النبىّ صلى الله عليه وسلم ولا عاينه ، فسمعوا دعاءه إلى الله تبارك وتعالى ونداءه ، ولكنه القرآن ، وهو نظير قوله جلّ ثناؤه مخبرا عن الجنّ ، إذ سمعوا كلام الله يتلى عليهم أنهم قالوا : (إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ) .

وبنحو ذلك حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَانِ) إلى قوله (وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ) سمعوا دعوة من الله فأجابوها ، فأحسنوا الإجابة فيها ، وصبروا عليها ، ينبئكم الله عن مؤمن الإنس كيف قال ، وعن مؤمن الجنّ كيف قال؟ ، فأما مؤمن الجنّ ، فقال : (إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ ، فَآمَنَّا بِهِ ، وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا) ؛ وأما مؤمن الإنس ، فقال : (إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَانِ : أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا) . . . الآية .

وقيل : (إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ) يعنى : ينادى إلى الإيمان ، كما قال تعالى ذكره : (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا) بمعنى : هدانا إلى هذا ، وكما قال الراجز :

أَوْحَى لَهَا القَرَارَ فاسْتَقَرَّتِ		وَشَدَّهَا بالرَّاسِياتِ الثُّبَّتِ[1]

بمعنى : أوحى إليها ، ومنه قوله (بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا).

وقيل : يحتمل أن يكون معناه : إننا سمعنا مناديا للإيمان ينادى : أن آمنوا بربكم.

فتأويل الآية إذنْ : ربنا سمعنا داعيا يدعو إلى الإيمان، يقول إلى التصديق بك، والإقرار بوحدانيتك، واتباع رسولك وطاعته ، فيما أمرنا به ، ونهانا عنه ، مما جاء به من عندك، فآمنا ربنا ، يقول : فصدقنا بذلك يا ربنا ، فاغفر لنا ذنوبنا ، يقول : فاستر علينا خطايانا ، ولا تفضحنا بها فى القيامة على رءوس الأشهاد ، بعقوبتك إيانا عليها ، ولكن كفرها عنا ، وسيئات أعمالنا ، فامحها بفضلك ورحمتك إيانا . وَتَوَفَّنَا مع الأبرار : يعنى بذلك : واقبضنا إليك إذا قبضتنا إليك فى عداد الأبرار ، واحشرنا مَحْشَرَهم ومعهم . والأبرار : جمع برّ ، وهم الذين برّوا الله تبارك وتعالى بطاعتهم إياه ، وخدمتهم له ، حتى أرضوه ، فرضى عنهم .

القول فى تأويل قوله

رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ، وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ، إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ (١٩٤)

إن قال لنا قائل : وما وجه مسئلة هؤلاء القوم ربَّهم أن يؤتيهم ما وعدهم ، وقد علموا أن الله منجز وعده ، وغير جائز أن يكون منه إخلاف موعد ؟ قيل : اختلف فى ذلك أهل البحث ، فقال بعضهم : ذلك قول خرج مخرج المسئلة ، ومعناه الخبر ، قالوا : وإنما تأويل الكلام : ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان : أن آمنوا بربكم ، فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفر عنا سيئاتنا ، وتوفنا مع الأبرار ، لتؤتينا ماوعدتنا على رسلك ، ولا تخزنا يوم القيامة ، قالوا : وليس ذلك على أنهم قالوا : إن توفيتنا مع الأبرار ، فأنجز لنا ماوعدتنا ، لأنهم قد علموا أن الله لا يخلف الميعاد ، وأن ما وعد على ألسنة رسله ، ليس يعطيه بالدعاء ، ولكنه تفضل بإيتائه ، ثم ينجزه .

وقال آخرون : بل ذلك قول من قائله ، على معنى المسئلة والدعاء لله ، بأن يجعلهم ممن آتاهم ما وعدهم من الكرامة على ألسن رسله ، لأنهم كانوا قد استحقوا منزلة الكرامة عند الله فى أنفسهم ، ثم سألوه أن يؤتيهم ما وعدهم ، بعد علمهم باستحقاقهم عند أنفسهم ، فيكون ذلك منهم مسئلة لربهم ألا يخلف وعده . قالوا : ولو كان القوم إنما سألوا ربهم أن يؤتيهم ما وعد الأبرار ، لكانوا قد زكَّوا أنفسهم ، وشهدوا لها أنها ممن قد استوجب كرامة الله وثوابه . قالوا : وليس ذلك صفة أهل الفضل من المؤمنين .

وقال آخرون : بل قالوا هذا القول على وجه المسئلة ، والرغبة منهم إلى الله أن يُؤْتيهم ما وعدهم من النصر على أعدائهم من أهل الكفر ، والظفر بهم ، وإعلاء كلمة الحقّ على الباطل ، فيعجل ذلك لهم ،

---

(١) البيت للعجاج ، أنشده اللسان (وحى) . وهو فى ديوانه (طبع ليبسج ص ٥) وروايته فيهما (وحى) بدون همز قبل الواو ، والضمير فى لها : راجع إلى الأرض فى البيت قبله ، يريد أوحى إليها . يريد : أمرها . وقال ابن برى : ووحى بمعنى كتب .

قالوا : ومحال أن يكون القوم مع وصف الله إياهم بما وصفهم به، كانوا على غير يقين من أن الله لايخلف الميعاد ، فيرغبوا إلى الله جلّ ثناؤه فى ذلك ، ولكنهم كانوا وُعدوا النصر ، ولم يوقت لهم فى تعجيل ذلك لهم ، لما فى تعجُّله من سرور الظفر ، وراحة الجسد .

والذى هو أولى الأقوال بالصواب فى ذلك عندى : أن هذه الصفة، صفة من هاجر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من وطنه وداره، مفارقا لأهل الشرك بالله، إلى الله ورسوله، وغيرهم من تُبّاع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين رغبوا إلى الله فى تعجيل نُصرتهم على أعداء الله وأعدائهم ، فقالوا : ربنا آتنا ما وعدتنا من نصرتك عليهم عاجلا ، فإنك لاتخلف الميعاد ، ولكن لاصبر لنا على أناتك وحلمك عنهم ، فعجل حربهم ، ولنا الظفرَ عليهم . يدل على صحة ذلك آخر الآية الأخرى ، وهو قوله (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لاأُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ، فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ، وَأُوذُوا فِى سَبِيلِى ، وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا) . . . الآيات بعدها .

وليس ذلك مما ذهب إليه الذين حكيت قولهم فى شىء . وذلك أنه غير موجود فى كلام العرب أن يقال : افعل بنا يا ربّ كذا وكذا ، بمعنى : افعل بنا لكذا الذى ، ولو جاز ذلك ، لجاز أن يقول القائل الآخر : أقبل إلىّ وكلمنى ، بمعنى : أقبل إلىّ لتكلمنى ، وذلك غير موجود فى الكلام ، ولا معروف جوازه . وكذلك أيضا غير معروف فى الكلام : آتنا ما وعدتنا ، بمعنى : اجعلنا ممن آتيته ذلك ، وإن كان كلّ من أُعطى شيئا سنيًا فقد صير نظيرا لمن كان مثله فى المعنى الذى أعطيه ، ولكن ليس الظاهر من معنى الكلام ذلك ، وإن كان قد يئول معناه إليه .

فتأويل الكلام إذنْ : ربنا أعطنا ما وعدتنا على ألسن رسلك، إنك تُعلى كلمتك كلمة الحقّ، بتاييدنا على من كفر بك ، وحادّك ، وعبد غيرك ، وعجل لنا ذلك ، فإنا قد علمنا أنك لاتخلف ميعادك ، ولا تخزنا يوم القيامة ، فتفضحنا بذنوبنا التى سلفت منا ، ولكن كفرها عنا ، واغفرها لنا .

وقد حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قوله (رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ) قال : يستنجز موعود الله على رسله .

القول فى تأويل قوله

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ، فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ ، وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى ، وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ ، لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ، وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ، ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ، وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ (١٩٥)

يعنى تعالى ذكره : فأجاب هؤلاء الداعين بما وصف الله عنهم أنهم دعوا به ربهم ، بأنى لاأضيع عمل عامل منكم عمل خيرا، ذكرا كان العامل أو أنثى . وذُكر أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما بال الرجال يُذكرون ولا تُذكر النساء فى الهجرة ، فأنزل الله تبارك وتعالى فى ذلك هذه الآية .

حدثنا محمد بن بشار، قال: ثنا مؤمل، قال: ثنا سفيان، عن ابن أبى نجيح عن مجاهد، قال: قالت أمّ سلمة: يا رسول الله ، تُذْكر الرجال فى الهجرة ولا نذكر ، فنزلت (أَنِّى لاأُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى) . . . الآية .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرّزاق ، قال : أخبرنا ابن عيينة ، عن عمرو بن دينار ، قال : سمعت رجلا من ولد أمّ سلمة زوج النبىّ صلى الله عليه وسلم، يقول : قالت أمّ سلمة : يا رسول الله، لاأسمع اللهَ يذكر النساء فى الهجرة بشىء ، فأنزل الله تبارك وتعالى (فاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لاأُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى) .

حدثنا الربيع بن سليمان ، قال : ثنا أسد بن موسى ، قال : ثنا سفيان ، عن عمرو بن دينار ، عن رجل من ولد أمّ سلمة، عن أمّ سلمة: أنها قالت: يا رسول الله، لاأسمع الله ذكر النساء فى الهجرة بشىء ، فأنزل اللهُ تعالى (فاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لاأُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ) وقيل : فاستجاب لهم ، بمعنى : فأجابهم ، كما قال الشاعر :

وَداعٍ دَعا : يا مَنْ يُجِيبُ إلى النَّدَى   فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيبُ [1]

بمعنى : فلم يجبه عند ذاك مجيب .

وأدخلت مِن فى قوله (مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى) على الترجمة والتفسير عن قوله منكم ، بمعنى : لاأضيع عمل عامل منكم من الذكور والإناث ، وليست مِن هذه بالتى يجوز إسقاطها ، وحذفها من الكلام فى الجحد لأنها دخلت بمعنى لايصلح الكلام إلا به . وزعم بعض نحويّ البصرة أنها دخلت فى هذا الموضع ، كما تدخل فى قولهم : قد كان من حديث ، قال : ومن ههنا أحسن ، لأن النهى قد دخل فى قوله : لاأضيع . وأنكر ذلك بعض نحويّ الكوفة ، وقال : لاتدخل « من » وتخرج إلا فى موضع الجحد ؛ وقال : قوله (لاأُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ) لم يدركه الجحد ، لأنك لاتقول : لاأضرب غلام رجل فى الدار ولا فى البيت فيدخل ولا ، لأنه لم ينله الجحد ، ولكن « من » مفسرة .

وأما قوله (بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ) فإنه يعنى : بعضكم أيها المؤمنون الذين يذكرون الله قياما

(١) البيت من مرثية لكعب بن سعد الغنوى ، رواها القالى فى أماليه ، رثى بها أخاه . والداعى هنا : السائل . ويجيب : أى يرد الجواب . وقوله « فلم يستجبه » : أورده ابن قتيبة فى الأفعال التى تتعدى تارة بنفسها ، وتارة باللام ، فى أدب الكاتب . قال يقال : استجبتك واستجبت لك . وقال شارحه ابن السيد : كذلك يعقوب ومن كتابه نقل ابن قتيبة ؛ وقد يمكن أن يريد : فلم يجبه ، ويدل عليه أنه قال مجيب ، ولم يقل : مستجيب ، فيكون الشاعر أجرى استفعل مجرى أفعل ، مثل استوقد بمعنى أوقد . وأورده صاحب الكشاف عند قوله تعالى : « فاستجاب لهم ربهم » على أن الاستجابة تتعدى بنفسها ، كما فى البيت ، وباللام كما فى الآية ، واستجاب له أكثر شيوعا . (عن خزانة الأدب للبغدادى ٤ : ٣٧٥) .

وقعودا وعلى جنوبهم ، من بعض ، فى النصرة والمسألة والدين ، وحكم جميعكم فيما أنا بكم فاعل ، على حكم أحدكم، فى أنى لا أضيع عمل ذكر منكم ولا أنثى .

القول فى تأويل قوله (فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ، وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي ، وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا ، لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ، وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ) :

يعنى بقوله جلّ ثناؤه : فالذين هاجروا قومهم من أهل الكفر، وعشيرتهم فى الله ، إلى إخوانهم من أهل الإيمان بالله ، والتصديق برسوله ، وأُخرجوا من ديارهم ، وهم المهاجرون الذين أخرجهم مشركو قريش من ديارهم بمكة ، وأوذوا فى سبيلى ، يعنى :وأوذوا فى طاعتهم ربهم ، وعبادتهم إياه ، مخلصين له الدين ، وذلك هو سبيل الله التى آذى فيها المشركون من أهل مكة، المؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم من أهلها . وقُتلوا ، يعنى : وقتلوا فى سبيل الله وقاتلوا فيها . لأكفرنّ عنهم سيئاتهم ، يعنى : لأمحونها عنهم ، ولأتفضلنّ عليهم بعفوى ورحمتى ، ولأغفرنها لهم ، ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار . ثوابا ، يعنى : جزاء لهم على ما عملوا وأبلوا فى الله وفى سبيله . من عند الله ، يعنى : من قِبَل الله لهم . والله عنده حسن الثواب . يعنى : أن الله عنده من جزاء أعمالهم جميع صنوفه ، وذلك ما لا يبلغه وصف واصف ، لأنه مما لا عين رأت ، ولا أُذن سمعت ، ولا خَطَرَ على قلب بشر .

كما حدثنا عبد الرحمن بن وهب ، قال : ثنا عمى عبد الله بن وهب ، قال : ثنى عمرو بن الحارث : أن أباعُشّانة المعافرىّ[1] حدثه : أنه سمع عبد الله بن عمرو بن العاص يقول : لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : إن أوّل ثلة تدخل الجنة لفقراء المهاجرين ،الذين تُتّقى بهم المكاره، إذا أُمروا سمعوا وأطاعوا، وإن كانت لرجل منهم حاجة إلى السلطان لم تقض ،حتى يموت وهى فى صدره، وإن الله يدعو يوم القيامة الجنة ، فتأتى بزخرفها وزينتها ، فيقول : أين عبادى الذين قاتلوا فى سبيلى وقُتلوا ، وأُوذوا فى سبيلى ، وجاهدوا فى سبيلى ، ادخلوا الجنة ، فيدخلونها بغير عذاب ، ولا حساب ، وتأتى الملائكة فيسجدون ويقولون : ربنا نحن نسبح لك الليل والنهار ، ونقدّس لك ، مَن هؤلاء الذين آثرتهم علينا ؟ فيقول الربّ جلّ ثناؤه : هؤلاء عبادى الذين قاتلوا فى سبيلى ،وأوذوا فى سبيلى، فتدخل الملائكة عليهم من كل باب : سلام عليكم بما صبرتم ، فنعم عقبى الدار .

واختلفت القراء فى قراءة قوله (وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا) فقرأه بعضهم : (وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا) بالتخفيف، بمعنى أنهم قتلوا من قتلوا من المشركين، وقرأ ذلك آخرون : (وَقَاتَلُوا وَقُتِّلُوا) بتشديد قُتّلوا ، بمعنى : أنهم قاتلوا المشركين ، وقتلهم المشركون بعضا بعد بعض ، وقتلا بعد قتل ؛ وقرأ ذلك عامة قراء المدينة وبعض الكوفيين (وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا) بالتخفيف ، بمعنى أنهم قاتلوا المشركين وقتِلوا ، وقرأ ذلك عامة قراء الكوفيين (وَقُتِلُوا وَقَاتَلُوا) بالتخفيف (وَقَاتَلُوا) بمعنى : أن بعضهم قتل ، وقاتل من بقى منهم .

والقراءة التى لا أستجيز أن أعدوها : إحدى هاتين القراءتين ، وهى (وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا) بالتخفيف ،

(١) فى الخلاصة للخزرجى ، فى باب الكنى : أبوعشانة : حى بن يؤمن .

أو (وقُتِلُوا) بالتخفيف (وَقاتَلُوا) لأنها القراءة المنقولة نقل وراثة ، وما عداهما فشاذّ ، وبأىّ هاتين القراءتين التى ذكرت أنى لاأستجيز أن أعدوهما ، قرأ قارئٌ فمصيب فى ذلك الصواب من القراءة، لاستفاضة القراءة بكل واحدة منهما فى قرّاء الإسلام ، مع اتفاق معنييهما .

القول فى تأويل قوله

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه: ولايغرّنك يا محمد تقلب الذين كفروا فى البلاد ، يعنى : تصرفهم فى الأرض، وضربهم فيها .

كما حدثنى محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ) يقول : ضربهم فى البلاد ، فنهى الله تعالى ذكره ، نبيه صلى الله عليه وسلم عن الاغترار بضربهم فى البلاد ، وإمهال الله إياهم ، مع شركهم وجحودهم نعمه ، وعبادتهم غيره ، وخرج الخطاب بذلك للنبىّ صلى الله عليه وسلم ، والمعنىّ به غيره من أتباعه وأصحابه ، كما قد بينا فيما مضى قبلُ من أمر الله ، ولكن كان بأمر الله صادعا ، وإلى الحقّ داعيا .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال قتادة .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ) والله ما غرّوا نبىّ الله ، ولا وكل إليهم شيئا من أمر الله ، حتى قبضه الله على ذلك .

وأما قوله (مَتَاعٌ قَلِيلٌ) فإنه يعنى :أن تقلبهم فى البلاد وتصرّفهم فيها، متعة يمتعون بها قليلا ، حتى يبلغوا آجالهم ، فتخترمهم منياتهم ، ثم مأواهم جهنم بعد مماتهم ، والمأوَى : المصير الذى يأوون إليه يوم القيامة ، فيصيرون فيه . ويعنى بقوله (وَبِئْسَ الْمِهَادُ) : وبئس الفراش والمضجع : جهنم .

القول فى تأويل قوله

لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ (١٩٨)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه (لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ) : لكن الذين اتقوا الله بطاعته ، واتباع مرضاته . فى العمل بما أمرهم به ،واجتناب ما نهاهم عنه (لَهُمْ جَنَّاتٌ) يعنى : بساتين (تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا) يقول : باقين فيها أبدا (نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ) يعنى :إنزالا من الله إياهم فيها أنزلهموها ، ونصب «نزلا» على التفسير ، من قوله: لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، كما يقال : لك عند الله جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابا ، وكما يقال : هو لك صدقة ، وهو لك هبة . وقوله (مِّنْ عِندِ اللَّهِ) : يعنى : من قبل الله ، ومن كرامة الله إياهم، وعطاياه لهم ، وقوله (وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ

للأبرار) يقول : وما عند الله من الحياة والكرامة ، وحسن المآب خير للأبرار ، مما يتقلب فيه الذين كفروا ، فإن الذى يتقلبون فيه زائل فان ، وهو قليل من المتاع خسيس . وما عند الله خير من كرامته للأبرار ، وهم أهل طاعته ، باقٍ غير فانٍ ولا زائل .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : سمعت ابن زيد يقول ، فى قوله (وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلأَبْرَارِ) قال : لمن يطيع الله .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا الثورىّ ، عن الأعمش ، عن خيثمة عن الأسود ، عن عبد الله ، قال : ما من نفس برّة ولا فاجرة إلا والموت خير لها ، ثم قرأ عبد الله (وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلأَبْرَارِ) . وقرأ هذه الآية (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ) .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن فرج بن فضالة ، عن لقمان ، عن أبى الدرداء : أنه كان يقول : مامن مؤمن إلا والموت خير له ، وما من كافر إلا والموت خير له ، ومن لم يصدّقنى ، فإن الله يقول : (وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلأَبْرَارِ) ويقول : (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ ، إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا) .

القول فى تأويل قوله

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ ، لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩)

اختلف أهل التأويل فيمن عنى بهذه الآية ، فقال بعضهم : عنى بها أصحمة النجاشىّ ، وفيه أنزلت .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا عصام بن زياد بن روّاد بن الجراح ، قال : ثنا أبى ، قال : ثنا أبو بكر الهذلىّ ، عن قتادة ، عن سعيد بن المسيب ، عن جابر بن عبد الله : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : اخْرُجُوا فَصَلُّوا على أخٍ لَكُمْ . فصلى بنا ، فكبر أربع تكبيرات ، فقال : هَذَا النَّجاشِىُّ أَصْحَمَةُ . فقال المنافقون : انظروا إلى هذا يصلى على عِلْجٍ نصرانىّ لم يره قط ، فأنزل الله (وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ) .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا معاذ بن هشام ، قال : ثنا أبى ، عن قتادة : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « إنَّ أخاكُمُ النَّجاشِىَّ قَدْ ماتَ ، فَصَلُّوا عَلَيْهِ ، قالوا : نصلى على رجل ليس بمسلم ؟ قال : فنزلت (وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ باللهِ وَما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خاشِعِينَ للهِ) قال قتادة : فقالوا : فإنه كان لايصلى إلى القبلة ، فأنزل الله (وَللهِ المَشْرِقُ وَالمَغْرِبُ ، فأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ) .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ لَمَنْ

يُؤْمِنُ بالله وما أُنْزِلَ إلَيْكُمْ ، وَما أُنْزِلَ إلَيْهِمْ) ذكر لنا أن هذه الآية نزلت فى النجاشىّ ، وفى ناس من أصحابه ، آمنوا بنبىّ الله صلى الله عليه وسلم ، وصدّقوا به . قال : وذُكر لنا أن نبىّ الله صلى الله عليه وسلم استغفر للنجاشىّ ، وصلى عليه حين بلغه موته ، قال لأصحابه : « صَلُّوا على أخٍ لكُمْ قدْ ماتَ بغَيْرِ بِلادِكُمْ » ، فقال أناس من أهل النفاق : يصلى على رجل مات ليس من أهل دينه ؟ فأنزل الله هذه الآية (وَإنَّ مِنْ أهْلِ الكتابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بالله ، وَما أُنْزِلَ إلَيْكُمْ ، وَما أُنْزِلَ إلَيْهِمْ ، خاشِعِينَ لله ، لايَشْتَرُونَ بِآياتِ الله ثَمَناً قَلِيلاً ، أُولئِكَ لَهُمْ أجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، إنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسابِ) .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، فى قوله (وَإنَّ مِنْ أهْلِ الكِتابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بالله وَما أُنْزِلَ إلَيْكُمْ ، وَما أُنْزِلَ إلَيْهِمْ) قال : نزلت فى النجاشىّ وأصحابه ، ممن آمن بالنبىّ صلى الله عليه وسلم . واسم النجاشىّ : أصحمة .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : قال عبد الرزاق ، وقال ابن عيينة : اسم النجاشىّ بالعربية : عطية .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا حجاج ، عن ابن جريج ، قال : لما صلى النبىّ صلى الله عليه وسلم على النجاشىّ ، طعن فى ذلك المنافقون . فنزلت هذه الآية (وَإنَّ مِنْ أهْلِ الكِتابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بالله) . . . إلى آخر الآية .

وقال آخرون : بل عَنَى بذلك عبد الله بن سلام ، ومن معه .

ذِكر من قال ذلك :

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : نزلت ، يعنى هذه الآية ، فى عبد الله بن سلام ، ومن معه .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنى ابن زيد فى قوله (وَإنَّ مِنْ أهْلِ الكِتابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بالله وَما أُنْزِلَ إلَيْكُمْ ، وَما أُنْزِلَ إلَيْهِمْ) . . . الآية كلها . قال : هؤلاء يهود .

وقال آخرون : بل عنى بذلك : مُسْلِمة أهلِ الكتاب .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (وَإنَّ مِنْ أهْلِ الكِتابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بالله وَما أُنْزِلَ إلَيْكُمْ) من اليهود والنصارى ، وهم مسلمة أهل الكتاب .

وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية : ماقاله مجاهد ، وذلك أن الله جلّ ثناؤه عمّ بقوله (وَإنَّ مِنْ أهْلِ الكِتابِ) : أهلَ الكتاب جميعا ، فلم يخصص منهم النصارى دون اليهود ، ولا اليهود دون النصارى ، وإنما أخبر أن من أهل الكتاب من يؤمن بالله ، وكلا الفريقين ، أعنى اليهود والنصارى من أهل الكتاب .

فإن قال قائل : فما أنت قائل فى الخبر الذى رويتَ عن جابر وغيره : أنها نزلت فى النجاشىّ وأصحابه ؟ قيل : ذلك خبر فى إسناده نظر ، ولو كان صحيحا لاشكّ فيه ، لم يكن لما قلنا فى معنى الآية خلاف ، وذلك

أن جابرا ومن قال بقوله إنما قالوا : نزلت فى النجاشىّ ، وقد تنزل الآية فى الشىء ، ثم يعمّ بها كلّ من كان فى معناه . فالآية ، وإن كانت نزلت فى النجاشىّ ، فإن الله تبارك وتعالى قد جعل الحكم الذى حكم به للنجاشىّ ، حكما لجميع عباده الذين هم بصفة النجاشىّ ، فى اتباعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتصديق بما جاءهم به من عند الله ، بعد الذى كانوا عليه قبل ذلك ، من اتباع أمر الله ، فيما أمر به عباده فى الكتابين : التوراة ، والإنجيل . فإذ كان ذلك كذلك ، فتأويل الآية : وإنّ من أهل الكتاب : التوراة والإنجيل ، لمن يؤمن بالله ، فيقرّ بوحدانيته ، وما أنزل إليكم أيها المؤمنون . يقول : وما أنزل إليكم من كتابه ووحيه ، على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وما أنزل إليهم ، يعنى : وما أنزل على أهل الكتاب من الكتب ، وذلك التوراة والإنجيل والزبور ، خاشعين لله ، يعنى : خاضعين لله بالطاعة ، مستكينين له بها متذللين .

كما حدثنا يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنى ابن زيد ، فى قوله (خاشِعِينَ لِلَّهِ) قال : الخاشع : المتذلل لله الخائف ، ونصب قوله (خاشِعِينَ لِلَّهِ) على الحال من قوله (لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ) وهو حال من «ما» فى يؤمن ، من ذكر من لايشترون بآيات الله ثمنا قليلا ، يقول : لايحرّفون ما أنزل إليهم فى كتبه ، من نعت محمد صلى الله عليه وسلم فيبدلونه ، ولا غير ذلك من أحكامه وحججه فيه ، لعَرَض من الدنيا خسيس ، يُعْطَونه على ذلك التبديل ، وابتغاء الرياسة على الجهال ، ولكن ينقادون للحقّ ، فيعملون بما أمرهم الله به ، فيما أنزل إليهم من كتبه ، وينتهون عما نهاهم عنه فيها ، ويؤثرون أمر الله تعالى على هوى أنفسهم .

القول فى تأويل قوله (أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ) :

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : أولئك لهم أجرهم ، هؤلاء الذين يؤمنون بالله ، وما أنزل إليكم ، وما أنزل إليهم ، لهم أجرهم عند ربهم . يعنى : لهم عوض أعمالهم التى عملوها ، وثواب طاعتهم ربّهم فيما أطاعوه فيه عند ربهم . يعنى : مذخور ذلك لهم لديه ، حتى يصيروا إليه فى القيامة ، فيوفيهم ذلك (إن الله سريع الحساب) . وسرعة حسابه تعالى ذكره ، أنه لايخفى عليه شىء من أعمالهم قبل أن يعملوها ، وبعد ما عملوها ، فلا حاجة به إلى إحصاء عدد ذلك ، فيقع فى الإحصاء إبطاء ، فلذلك قال (إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ) :

القول فى تأويل قوله

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)

اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك ، فقال بعضهم : معنى ذلك : اصبروا على دينكم ، وصابروا الكفار ورابطوهم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا المثنى ، قال : ثنا سويد بن نصر ، قال : أخبرنا ابن المبارك ، عن المبارك بن فضالة ، عن

الحسن أنه سمعه يقول فى قول الله (يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا) قال : أمرهم أن يصبروا على دينهم ، ولا يدعوه لشدة ولا رخاء ، ولا سراء ولا ضراء ، وأمرهم أن يصابروا الكفار ، وأن يرابطوا المشركين .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا) : أى اصبروا على طاعة الله ، وصابروا أهل الضلالة ، ورابطوا فى سبيل الله ، واتقوا الله لعلكم تفلحون

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، فى قوله : (اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا) يقول : صابروا المشركين ، ورابطوا فى سبيل الله .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج (اصْبِرُوا) على الطاعة ، (وَصَابِرُوا) أعداء الله ، (وَرَابِطُوا) فى سبيل الله .

حدثنى يحيى بن أبى طالب ، قال : أخبرنا يزيد ، قال : أخبرنا جويبر ، عن الضحاك فى قوله : (اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا) قال : اصبروا على ما أمرتم به ، وصابروا العدو ، ورابطوهم .

وقال آخرون : معنى ذلك : اصبروا على دينكم ، وصابروا وعدى إياكم على طاعتكم لى ، ورابطوا أعداءكم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنى أبو صخر ، عن محمد بن كعب القُرَظِىّ ، أنه كان يقول فى هذه الآية : (اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا) يقول : اصبروا على دينكم ، وصابروا الوعد الذى وعدتكم ، ورابطوا عدوى وعدوكم ، حتى يترك دينه لدينكم .

وقال آخرون : معنى ذلك : اصبروا على الجهاد ، وصابروا عدوكم ورابطوهم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا جعفر بن عون ، قال : أخبرنا هشام بن سعد ، عن زيد ابن أسلم فى قوله (اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا) قال : اصبروا على الجهاد ، وصابروا عدوكم ، ورابطوا على عدوكم .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا مطرف بن عبد الله المزنى ، قال : ثنا مالك بن أنس ، عن زيد بن أسلم ، قال : كتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب ، فذكر له جموعا من الروم ، وما يتخوف منهم ، فكتب إليه عمر : «أما بعد، فإنه مهما نزل بعبد مؤمن منزلة شدة، يجعل الله بعدها فرجا، وإنه لن يغلب عسر يسرين وإن الله يقول فى كتابه (يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ، وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) ».

وقال آخرون : معنى (وَرَابِطُوا) : أى رابطوا على الصلوات : أى انتظروها واحدة بعد واحدة .

ذكر من قال ذلك :

حدثني المثنى ، قال : ثنا سويد ، قال : أخبرنا ابن المبارك ، عن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير ، قال : ثني داود بن صالح ، قال : قال لي أبو سلمة بن عبد الرحمن : يا بن أخي ، هل تدري في أيّ شيء نزلت هذه الآية : (اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا) ؟ قال : قلت : لا ، قال : إنه يا بن أخي ، لم يكن في زمان النبيّ صلى الله عليه وسلم غزْو يرابَط فيه ، ولكنه انتظار الصلاة خلف الصلاة .

حدثني أبو السائب ، قال : ثنا ابن فضيل ، عن عبد الله بن سعيد المقبري ، عن جدّه ، عن شرحبيل عن عليّ ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أدُلُّكُمْ على ما يُكَفِّرُ اللهُ بِهِ الذُّنُوبَ والخَطايا : إسْباغُ الوُضُوءِ على المَكارِهِ ، وانْتِظارُ الصَّلاةِ بَعْدَ الصَّلاةِ ، فَذَلِكَ الرِّباطُ » .

حدثنا موسى بن سهل الرملي ، قال : ثنا يحيى بن واضح ، قال : ثنا محمد بن مهاجر ، قال : ثني يحيى بن يزيد ، عن زيد بن أبي أنيسة ، عن شرحبيل ، عن جابر بن عبد الله ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أدُلُّكُمْ على ما يَمْحُو اللهُ بِهِ الخَطايا ، ويُكَفِّرُ بِهِ الذُّنُوبَ ؟ قال : قلنا بلى يا رسول الله ، قال : إسْباغُ الوُضُوءِ فِي أماكِنِها ، وكَثْرَةُ الخُطا إلى المَساجِدِ ، وَانْتِظارُ الصَّلاةِ بَعْدَ الصَّلاةِ ، فَذَلِكُمُ الرِّباطُ » .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا خالد بن مخلد ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، عن العلاء بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أدُلُّكُمْ على ما يَحُطُّ اللهُ بِهِ الخَطايا ، ويَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجاتِ ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : إسْباغُ الوُضُوءِ عِنْدَ المَكارِهِ ، وكَثْرَةُ الخُطا إلى المَساجِدِ ، وَانْتِظارُ الصَّلاةِ بَعْدَ الصَّلاةِ ، فَذَلِكُمُ الرِّباطُ ، فَذَلِكُمُ الرِّباطُ » .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا إسمعيل بن جعفر ، عن العلاء بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، بنحوه .

وأولى التأويلات بتأويل الآية : قول من قال في ذلك (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا) : يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله ، اصبروا على دينكم ، وطاعة ربكم . وذلك أن الله لم يخصص من معاني الصبر على الدين والطاعة شيئا ، فيجوز إخراجه من ظاهر التنزيل . فلذلك قلنا إنه عنى بقوله (اصْبِرُوا) الأمر بالصبر على جميع معاني طاعة الله فيما أمر ونهى ، صعبها وشديدها ، وسهلها وخفيفها (وَصَابِرُوا) يعني : وصابروا أعداءكم من المشركين .

وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب ، لأن المعروف من كلام العرب في المفاعلة ، أن تكون من فريقين ، أو اثنين فصاعدا ، ولا تكون من واحد إلا قليلا في أحرف معدودة ، وإذ كان ذلك كذلك ، فإنما أُمر المؤمنون أن يصابروا غيرهم من أعدائهم ، حتى يظفرهم الله بهم ، ويُعلَى كلمته ، ويخزيَ أعداءهم ، وإلا يكن عدوّهم أصبر منهم . وكذلك قوله (وَرَابِطُوا) معناه : ورابطوا أعداءكم وأعداء دينكم من أهل الشرك في سبيل الله . وأرى أن أصل الرباط : ارتباط الخيل للعدوّ ، كما ارتبط عدوّهم لهم خيلهم ، ثم

استعمل ذلك فى كل مقيم فى ثغر ، يدفع عمن وراءه من أراده . من أعدائهم بسوء، ويحمى عنهم من بينه وبينهم ، ممن بغاهم بشرّ ، كان ذا خيل قد ارتبطها ، أوذا رُجْلة لامركب له .

وإنما قلنا : معنى (وَرَابِطُوا): ورابطوا أعداءكم وأعداء دينكم. لأن ذلك هو المعنى المعروف من معانى الرباط ، وإنما توجه الكلام إلى الأغلب المعروف فى استعمال الناس من معانيه ،دون الخفىّ ، حتى يأتى بخلاف ذلك مايوجب صرفه إلى الخفىّ من معانيه، حجة يجب التسليم لها، من كتاب أو خبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو إجماع من أهل التأويل .

القول فى تأويل قوله : (وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) :

يعنى بذلك تعالى ذكره : واتقوا الله أيها المؤمنون ، واحذروه أن تخالفوا أمره ، وتتقدّموا نهيه . لعلكم تفلحون : يقول : لتفلحوا فتبقوا فى نعيم الأبد ، وتنجحوا فى طلباتكم عنده .

كما حدثنا يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنى أبو صخر ، عن محمد بن كعب القُرَظى أنه كان يقول فى قوله (وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ):واتقوا الله فيما بينى وبينكم، لعلكم تفلحون غدا إذا لقيتمونى .

آخر تفسير سورة آل عمران .

القول فى تفسير السورة التى يذكر فيها النساء

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله عزّ وجلّ

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ، وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ، إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)

قال أبو جعفر: يعنى بقوله تعالى ذكره (يا أيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ) : احذروا أيها الناس ربكم فى أن تخالفوه فيما أمركم ، وفيما نهاكم ، فيحلّ بكم من عقوبته ما لاقِبَل لكم به ، ثم وصف تعالى ذكره نفسه بأنه المتوحد بخلق جميع الأنام من شخص واحد ، وعرّف عباده كيف كان مبتدأ إنشائه ذلك من النفس الواحدة ، ومنبههم بذلك على أن جميعهم بنو رجل واحدٍ وأمّ واحدة، وأن بعضهم من بعض ، وأن حقّ بعضهم على بعض واجب وجوب حقّ الأخ على

أخيه ، لاجتماعهم فى النسب إلى أب واحد وأمّ واحدة ، وأن الذى يلزمهم من رعاية بعضهم حقّ بعض ، وإنْ بعد التلاقى فى النسب إلى الأب الجامع بينهم ، مثلُ الذى يلزمهم من ذلك فى النسب الأدنى ، وعاطفاً بذلك بعضهم على بعض ، ليتناصفوا ، ولا يتظالموا ، وليبذل القوىّ من نفسه للضعيف حقه بالمعروف ، على ما ألزمه الله له ، فقال (الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ) يعنى : من آدم .

كما حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن مفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ : أما خلقكم من نفس واحدة : فمن آدم صلى الله عليه وسلم .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (يا أَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ) يعنى : آدم صلى الله عليه وسلم .

حدثنا سفيان بن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن سفيان ، عن رجل ، عن مجاهد (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ) قال : آدم . ونظير قوله (مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ) والمعنىّ به رجل ، قول الشاعر :

أبوكَ خليفةٌ وَلَدَتْهُ أُخرَى وأنتَ خليفةٌ ، ذاكَ الكَمالُ (١)

فقال : ولدته أخرى ، وهو يريد الرجل ، فأنث للفظ الخليفة ، وقال تعالى ذكره (مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ) ، لتأنيث النفس . والمعنى : من رجل واحد ، ولو قيل من نفس واحد ، وأخرج اللفظ على التذكير للمعنى كان صوابا .

القول فى تأويل قوله جلّ ثناؤه (وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ، وَبَثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثِيراً وَنِساءً) :

يعنى بقوله جلّ ثناؤه : وخلق منها زوجها ، وخلق من النفس الواحدة زوجها : يعنى بالزوج الثانى لها ، وهو فيما قال أهل التأويل : امرأتها حوّاء .

ذِكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله (وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا) قال : حوّاء من قُصَيْرَى آدم وهو نائم ، فاستيقظ فقال : أثا بالنبطية ، امرأة .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا) يعنى حوّاء خلقت من آدم ، من ضلع من أضلاعه .

حدثنى موسى بن هارون ، قال : أخبرنا عمرو بن حماد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، قال : أسكن آدم الجنة ، فكان يمشى فيها وحِشا ، ليس له زوج يسكن إليها ، فنام نومة ، فاستيقظ ، فإذا عند رأسه امرأة قاعدة ، خلقها الله من ضِلَعه ، فسألها : ما أنت ؟ قالت : امرأة ، قال : ولم خلقتِ ؟ قالت : لتسكن إلىّ .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قال : ألقى على آدم صلى الله عليه وسلم السِّنة فيما

(١) البيت أنشده فى اللسان (خلف) وقال : الخليفة : السلطان الأعظم ، وقد يؤنث . وأنشدالفراء . . . البيت . قال : ولدته أخرى لتأنيث اسم الخليفة ، والوجه أن يكون : ولده آخر . وقد تقدم الكلام على هذا البيت فى ص ٢٤٨ ج ٣ .

بلغنا عن أهل الكتاب ، من أهل التوراة وغيرهم ، من أهل العلم ، عن عبد الله بن العباس وغيره ثم أخذ ضِلَعا من أضلاعه من شِقّه الأيسر ، ولأم مكانه ، وآدم نائم لم يهبَّ من نومته ، حتى خلق الله تبارك وتعالى من ضِلَعه تلك ، زوجته حوّاء ، فسوّاها امرأة ليسكن إليها ، فلما كُشفت عنه السِّنة ، وهبَّ من نومته ، رآها إلى جنبه ، فقال فيما يزعمون والله أعلم : لحمى ودمى وزوجتى ، فسكن إليها .

حدثنى محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدّى (وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا) جعل من آدم حوّاء .

وأما قوله (وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً) فإنه يعنى : ونشر منهما ، يعنى : من آدم وحوّاء (رِجالاً كَثِيرًا وَنِساءً) قد رآهم كما قال جلَّ ثناؤه (كَالفَرَاشِ المَبْثُوثِ) يقال منه : بثَّ الله الخلق ، وأبثّهم .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجالاً كَثِيرًا وَنِساءً) وبثَّ : خلَق .

القول فى تأويل قوله جلَّ ثناؤه (وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ) :

اختلفت القراء فى قراءة ذلك ، فقرأه عامة قراء أهل المدينة والبصرة (تَسَّاءَلُونَ) بالتشديد ، بمعنى : تتساءلون ، ثم أدغم إحدى التاءين فى السين ، فجعلهما سيناً مشددة . وقرأه بعض قرّاء الكوفة (تَسَاءَلُونَ) بالتخفيف ، على مثال تفاعلون ، وهما قراءتان معروفتان ، ولغتان فصيحتان ، أعنى التخفيف ، والتشديد فى قوله (تَساءَلُونَ بِهِ) ، وبأىّ ذلك قرأ القارئ أصاب الصواب فيه ، لأن معنى ذلك بأىّ وجهيه قُرِئ غير مختلف .

وأما تأويله (وَاتَّقُوا اللهَ) أيها الناس ، الذى إذا سأل بعضكم بعضا سأل به ، فقال السائل للمسئول : أسألك بالله ، وأَنْشُدُك بالله ، وأعزم عليك بالله ، وما أشبه ذلك ، يقول تعالى ذكره : فكما تعظمون أيها الناس ربكم بألسنتكم ، حتى تروا أن من أعطاكم عهده فأخفرَكموه ، فقد أتى عظيما ، فكذلك فعظموه بطاعتكم إياه فيما أمركم ، واجتنابكم ما نهاكم عنه ، واحذروا عقابه من مخالفتكم إياه فيما أمركم به ، أو نهاكم عنه .

كما حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك ، فى قوله (وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى تَساءَلُونَ بِهِ) قال : يقول : اتقوا الله الذى تَعاقَدُون ، وتَعاهَدون به .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى تَساءَلُونَ بِهِ) يقول : اتقوا الله الذى به تَعاقدون وتَعاهدون .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ابن أنس ، مثله .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : أخبرنا حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس : (تَسَاءَلُونَ بِهِ) قال : تعاطفون به .

وأما قوله (وَالْأَرْحَامَ) فإن أهل التأويل اختلفوا فى تأويله ، فقال بعضهم : معناه : واتقوا الله الذى إذا سألتم بينكم ، قال السائل للمسئول : أسألك به وبالرحيم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا حكام ، عن عمرو ، عن منصور ، عن إبراهيم (اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ) يقول : اتقوا الله الذى تَعاطَفون به والأرحام . يقول : الرجل يسأل بالله وبالرحم .

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا هشيم ، عن مغيرة ، عن إبراهيم ، قال : هو كقول الرجل : أسألك بالله ، أسألك بالرحم ، يعنى قوله (اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ) .

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن منصور ، عن إبراهيم (اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ) قال : يقول : أسألك بالله وبالرحم .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا هشيم ، عن مغيرة ، عن إبراهيم ، هو كقول الرجل : أسألك بالرحم .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ) قال : يقول : أسألك بالله وبالرحم .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا الحمانى ، قال : ثنا شريك ، عن منصور أو مغيرة ، عن إبراهيم فى قوله : (وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ) قال : هو قول الرجل : أسألك بالله والرحم .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا سويد ، قال : أخبرنا ابن المبارك ، عن معمر ، عن الحسن ، قال : هو قول الرجل : أَنْشُدُك بالله والرحم . قال محمد : وعلى هذا التأويل قول بعض من قرأ قوله : (وَالْأَرْحَامِ) بالخفض ، عطفا بالأرحام على الهاء التى فى قوله « به » ؛ كأنه أراد : واتقوا الله الذى تساءلون به وبالأرحام ، فعطف بظاهر على مكنىّ مخفوض . وذلك غير فصيح من الكلام عند العرب ، لأنها لا تَنْسُق بظاهر على مكنىّ فى الخفض ، إلاّ فى ضرورة شعر ، وذلك لضيق الشعر ؛ وأما الكلام فلا شىء يضطرّ المتكلم إلى اختيار المكروه من المنطق ، والردىء فى الإعراب منه . ومما جاء فى الشعر من ردّ ظاهر على مكنىّ فى حال الخفض ، قول الشاعر :

نُعَلِّقُ فِي مِثْلِ السَّوَارِي سُيُوفَنَا ... وَمَا بَيْنَهَا وَالْكَعْبِ غُوطٌ نَفَانِفُ [1]

فعطف الكعب ، وهو ظاهر ، على الهاء والألف فى قوله « بينها » ، وهى مكنية .

---

(١) البيت من شواهد النحويين ، أنشده الفراء ولم يعزه إلى أحد . وقال الجاحظ فى كتاب الحيوان : هو لمسكين الدارمى ، أورد بعضه العينى فى المقاصد النحوية (هامش خزانة الأدب ٤ : ١٦٤ - ١٦٦) قال العينى : والغوط بضم الغين : جمع غائط ، وهو المطمئن من الأرض . والنفانف : بنونين وفاءين : جمع نفنف ، وهى المفازة . قلت : يريد بعد ما بين السيف وكعب صاحبه . ويروى : « وما بينها والكعب مهوى نفانف » . وتعلق بالنون ، ويروى بالتاء مبنيا للمجهول . والشاهد فيه أنه عطف الكعب بالجر ، على الضمير المجرور ، بدون إعادة الجار ، والبصريون يمنعونه ، والكوفيون يجيزونه ، وكذلك أبو حيان من المتأخرين . لكثرة وروده فى الشعر (انظر تفسير البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى) .

وقال آخرون : تأويل ذلك (وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ) واتقوا الأرحام أن تقطعوها .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ فى قوله (وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ) يقول : اتقوا الله ، واتقوا الأرحام لاتقطعوها .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد، عن قتادة (وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ والأَرْحَامَ ، إنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً) ذُكر لنا أن نبىّ الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اتَّقُوا اللهَ وَصِلُوا الأَرْحَامَ ، فإنَّهُ أَبْقَى لَكُمْ فِي الدُّنْيا ، وَخَيْرٌ لَكُمْ فِي الآخِرَةِ » .

حدثنى علىّ بن داود ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية بن صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، فى قول الله (وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ والأَرْحَامَ) يقول : اتقوا الله الذى تساءلون به ، واتقوا الله فى الأرحام فصلوها .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا هشيم ، عن منصور ، عن الحسن فى قوله (وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ والأَرْحَامَ) قال : اتقوا الله الذى تساءلون به ، واتقوه فى الأرحام .

حدثنا سفيان ، قال : ثنا أبى ، عن سفيان ، عن خصيف ، عن عكرمة ، فى قول الله (الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ والأَرْحَامَ) قال : اتقوا الأرحام أن تقطعوها .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن الحسن فى قوله : (وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ والأَرْحَامَ) قال : هو قول الرجل : أَنْشُدُكَ بالله والرحم .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « اتَّقُوا اللهَ وَصِلُوا الأَرْحَامَ » .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ والأَرْحَامَ) قال : اتقوا الأرحام أن تقطعوها .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنى أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك ، فى قوله (الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ والأَرْحَامَ) قال : يقول : اتقوا الله فى الأرحام فصِلوها .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ والأَرْحَامَ) قال : يقول : واتقوا الله فى الأرحام فصِلوها .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، عن عبد الرحمن بن أبى حماد ، وأخبرنا أبو جعفر الخزاز ، عن جويبر ، عن الضحاك : أن ابن عباس كان يقرأ (والأَرْحَامَ) يقول : اتقوا الله لاتقطعوها .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس : اتقوا الأرحام .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قال : (اتَّقُوا اللهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ) أن تقطعوها .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ) واتقوا الأرحام أن تقطعوها ، وقرأ (وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ) .

قال أبو جعفر : وعلى هذا التأويل قرأ ذلك من قرأه نصبا ، بمعنى : واتقوا الله الذى تساءلون به ، واتقوا الأرحام أن تقطعوها ، عطفا بالأرحام فى إعرابها بالنصب ، على اسم الله تعالى ذكره . قال : والقراءة التى لانستجيز للقارئ أن يقرأ غيرها فى ذلك النصب (وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ) بمعنى : واتقوا الأرحام أن تقطعوها ، لما قد بيّنا أن العرب لاتعطف بظاهر من الأسماء على مكنىّ فى حال الخفض ، إلا فى ضرورة شعر ، على ما قد وصفت قبل .

القول فى تأويل قوله (إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً) .

قال أبو جعفر : يعنى بذلك تعالى ذكره : إن الله لم يزل عليكم رقيبا ، ويعنى بقوله (عَلَيْكُمْ) : على الناس الذين قال لهم جلّ ثناؤه : يا أيها الناس اتقوا ربكم ، والمخاطب والغائب إذا اجتمعا فى الخبر ، فإن العرب تخرج الكلام على الخطاب ، فتقول إذا خاطبتَ رجلا واحدا أو جماعة : فعلت هى وآخرون غُيَّب معهم فعلا : فعلتم كذا ، وصنعتم كذا . ويعنى بقوله (رَقِيباً) : حفيظا ، مُحصيا عليكم أعمالكم ، متفقدا رعايتكم حرمة أرحامكم ، وصِلتكم إياها ، وقطعكموها ، وتضييعكم حرمتها .

كما حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً) : حفيظا .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : سمعت ابن زيد فى قوله (إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً) : على أعمالكم ، يعلمها ويعرفها ؛ ومنه قول أبى دُواد الأيادىّ :

كمقاعِدِ الرُّقَبَاءِ للضُّرَبَاءِ أيدِيهِم نَوَاهِدْ[1]

القول فى تأويل قوله

وَءَاتُوا الْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ، وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ، وَلَا تَأْكُلُوٓا أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ، إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (٢)

قال أبو جعفر : يعنى بذلك تعالى ذكره أوصياء اليتامى ، يقول لهم : وأعطوا يا معشر أوصياء اليتامى أموالهم ، إذا هم بلغوا الحُلُم ، وأُونس منهم الرشد (وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ) يقول : ولا تستبدلوا الحرام عليكم من أموالهم ، بأموالكم الحلال لكم .

(١) أورد البيت صاحب اللسان فى (رقب) والرقيب : الموكل بالضريب ، وهو أمين أصحاب الميسر . والضرباء : جمع ضريب ، وهو الموكل بالقداح يضرب بها . ونواهد : جمع ناهد أو ناهدة : أى مرتفعة . يصف حال الرقباء بأنهم يرفعون أيديهم عند ما يجيل الضرباء قداح الميسر فى الخريطة ، يمنعوهم من غش إن ظهر لهم .

كما حدثنا محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله تعالى (وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ) قال : الحلال بالحرام .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا سفيان ، قال : ثنا أبى ، عن سفيان ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قوله (وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ) قال : الحرام مكان الحلال .

قال أبو جعفر : ثم اختلف أهل التأويل فى صفة تبديلهم الخبيثَ بالطيب ، الذى نُهُوا عنه ومعناه ، فقال بعضهم : كان أوصياء اليتامى يأخذون الجيد من ماله ، والرفيع منه ، ويجعلون مكانه لليتيم الردىء والخسيس ، فذلك تبديلهم الذى نهاهم الله تعالى عنه .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا ابن يمان ، عن سفيان ، عن مغيرة ، عن إبراهيم (وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ) قال : لاتعط زَيْفًا ، وتأخذَ جيدا .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا ابن يمان ، عن سفيان ، عن السدىّ ، وعن يحيى بن سعيد ، عن سعيد ابن المسيب ومعمر ، عن الزهرىّ ، قالوا : يعطى مهزولا ، ويأخذ سمينا . وبه عن سفيان ، عن رجل ، عن الضحاك ، قال : لاتعط فاسدا ، وتأخذَ جيدا .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ) كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة من غنم اليتيم ، ويجعل مكانها الشاة المهزولة ، ويقول : شاة بشاة ، ويأخذ الدرهم الجيد ، ويطرح مكانه الزيف ، ويقول : درهم بدرهم .

وقال آخرون : معنى ذلك : لاتستعجل الرزق الحرام فتأكله ، قبل أن يأتيك الذى قدّر لك من الحلال .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا ابن يمان ، عن سفيان ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ) قال : لاتعجل بالرزق الحرام قبل أن يأتيك الحلال الذى قُدر لك .

وبه عن سفيان ، عن إسماعيل ، عن أبى صالح مثله .

وقال آخرون : معنى ذلك كالذى حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله : (وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ) قال : كان أهل الجاهلية لايورّثون النساء ، ولا يورّثون الصغار ، يأخذه الأكبر ، وقرأ (وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ) قال : إذا لم يكن لهم شىء ، والمستضعفين من الولدان لايورّثونهم ، قال : فنصيبه من الميراث طيب ، وهذا الذى أخذه خبيث .

قال أبو جعفر : وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية : قول من قال : تأويل ذلك : ولاتتبدّلوا أموال أيتامكم أيها الأوصياء ، الحرام عليكم ، الخبيث لكم ، فتأخذوا رفائعها وخيارها وجيادها ، «بالطيب الحلال لكم من أموالكم»[1] ، (وتجعلوا)[2] الردىء الخسيس بدلا منه . وذلك أن تبدُّل الشىء بالشىء فى كلام العرب : أخذ شىء مكان

(١) لعل العبارة التى بين هذه الأقواس « » زيادة من قلم الناسخ .

(٢) (وتجعلوا) : هذه زيادة زدناها يستقيم بها وجه العبارة وقد سبق مثلها فى كلام المؤلف (السطر السابع من هذه الصفحة) .

آخر غيره ، يعطيه المأخوذ منه ، أو يجعله مكان الذى أخذ ، فإذ كان ذلك معنى التبديل والاستبدال ، فمعلوم أن الذى قاله ابن زيد ، من أن معنى ذلك : هو أخذ أكبر ولد الميت جميع مال ميته ووالده دون صغارهم ، إلى ماله ، قول لامعنى له ، لأنه إذا أخذ الأكبر من ولده جميع ماله دون الأصاغر منهم ، فلم يستبدل مما أخذ شيئا ، فما التبدّل الذى قال جلّ ثناؤه (وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ) ، ولم يبدل الآخذ مكان المأخوذ بدلا . وأما الذى قاله مجاهد وأبو صالح : من أن معنى ذلك لاتتعجل الرزق الحرام قبل مجىء الحلال ، فإنهما أيضا إن لم يكونا أرادا بذلك نحو القول الذى رُوى عن ابن مسعود أنه قال : إن الرجل ليُحرَم الرزق بالمعصية يأتيها ، ففساده نظير فساد قول ابن زيد ، لأن من استعجل الحرام فأكله ، ثم آتاه الله رزقه الحلال ، فلم يبدّل شيئا مكان شىء ، وإن كانا أرادا بذلك أن الله جلّ ثناؤه نهى عباده أن يستعجلوا الحرام ، فيأكلوه قبل مجىء الحلال ، فيكون أكلهم ذلك سببا لحرمان الطيب منه ، فذلك وجه معروف ، ومذهب معقول ، يحتمله التأويل ، غير أن الأشبه فى ذلك بتأويل الآية ما قلنا ، لأن ذلك هو الأظهر من معانيه ، لأن الله جلّ ثناؤه إنما ذكر ذلك فى قصة أموال اليتامى وأحكامها ، فلا يكون ذلك من جنس حكم أوّل الآية ، فأخرجها من أن يكون من غير جنسه .

القول فى تأويل قوله (وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ) :

قال أبو جعفر : يعنى بذلك تعالى ذكره : ولا تخلطوا أموالهم : يعنى ، أموال اليتامى ، بأموالكم ، فتأكلوها مع أموالكم .

كما حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا سفيان ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قوله (وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ) يقول : لاتأكلوا أموالكم وأموالهم ، تخلطوها فتأكلوها جميعا .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن مبارك ، عن الحسن ، قال : لما نزلت هذه الآية فى أموال اليتامى ، كرهوا أن يخالطوهم ، وجعل ولىّ اليتيم يعزل مال اليتيم عن ماله ، فشكَوا ذلك إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله (وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى ، قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ ، وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ) قال : فخالَطوهم واتقَوا .

القول فى تأويل قوله (إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا) :

قال أبو جعفر : يعنى تعالى ذكره : إنه كان حُوبا كبيرا : إن أكلكم أموال أيتامكم مع أموالكم حُوب كبير ، والهاء فى قوله (إِنَّهُ) دالة على اسم الفعل ، أعنى الأكل . وأما الحُوب : فإنه الإثم ، يقال منه : حاب الرجل يحوب حَوْبا وحُوبًا وحِيابة . ويقال منه : قد تحوّب الرجل من كذا ، إذا تأثم منه . ومنه قول أمية بن الأسكر الليثى :

وإنَّ مُهاجِرَيْنِ تكَنَّفاهُ غَدَاةَ إذٍ لقَدْ خَطِئا وَحَابا[1]

---

(١) هذا بيت لأمية بن الأسكر الجندعى الليثى ، من مقطوعة له ، يشكو فيها فراق ابنه « كلاب » بن أمية فى كبره وهرمه ، ذكرت فى « حسن الصحابة » فى شرح أشعار الصحابة (١ : ٥٢ — ٥٥ طبعة دار السعادة سنة ١٣٢٤) ورواية البيت فيه :

أتاهُ مُهاجِرَانِ تَكَنَّفاهُ فَفارَقَ شَيْخَهُ خَطِئا وخابا

تكنفاه : أحاطا به أو أخذاه فى كنفهما وحمايتهما . وشيخه : أى أباه . والرواية فيه وخابا ، بالخاء المعجمة ، لابالحاء كما رواه المؤلف ، من الحوب ، وهو الإثم ، ورواية المؤلف أصح معنى .

ومنه قيل : نزلنا بحَوْبة من الأرض ، وبحِيبة من الأرض : إذا نزلوا بموضع سَوء منها . والكبير : العظيم ، فمعنى ذلك : أن أكلكم أموال اليتامى مع أموالكم ، إثم عند الله عظيم .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عمرو ، وعمرو بن علىّ ، قالا : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله (حُوباً كَبِيرًا) قال : إثما .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد مثله .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، قوله (إنَّهُ كانَ حُوباً كَبِيرًا) قال : إثما عظيما .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (كانَ حُوباً) أما حُوبا : فإثما .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، فى قوله (حُوباً) قال : إثما .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (إنَّهُ كانَ حُوباً كَبِيرًا) يقول : ظلما كبيرا .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : سمعت ابن زيد يقول فى قوله : (إنَّهُ كانَ حُوباً كَبِيرًا) قال : ذنبا كبيرا ، وهى لأهل الإسلام .

حدثنا عمرو بن علىّ ، قال : ثنا يحيى بن سعيد ، قال : ثنا قرة بن خالد ، قال : سمعت الحسن يقول (حُوباً كَبِيرًا) قال : إثما والله عظيما .

القول فى تأويل قوله

وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا (٣)

قال أبو جعفر : اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك ، فقال بعضهم : معنى ذلك : وإن خفتم يا معشر أولياء اليتامى ألا تُقْسطوا فى صداقهنّ ، فتعدلوا فيه ، وتبلغوا بصَداقهنّ صَدُقات أمثالهنّ ، فلا تنكحوهنّ ، ولكن انكحوا غيرهنّ من الغرائب ، اللواتى أحلهنّ الله لكم وطيّبهنّ ، من واحدة إلى أربع ، وإن خفتم أن تجوروا إذا نكحتم من الغرائب أكثر من واحدة ، فلاتعدلوا ، فانكحوا منهنّ واحدة ، أو ما ملكت أيمانكم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا ابن المبارك ، عن معمر ، عن الزهرىّ ، عن عروة ، عن عائشة (وَإنْ

خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فى اليتامى فانكحوا ما طابَ لكُمْ مِنَ النِّساءِ) فقالت : يا بن أختى ، هى اليتيمة تكون فى حجر وليها ، فيَرغب فى مالها وجمالها ، ويريد أن ينكحها بأدنى من سُنة صداقها ، فنُهوا أن ينكحوهنّ ، إلا أن يُقسطوا لهنّ فى إكمال الصداق ، وأُمِروا أن ينكحوا ما سواهنّ من النساء .

حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنى يونس بن يزيد ، عن ابن شهاب ، قال : أخبرنى عروة بن الزبير : أنه سأل عائشة زوج النبىّ صلى الله عليه وسلم ، عن قول الله تبارك وتعالى : (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِى اليَتامَى فانكحوا ما طابَ لكُمْ مِنَ النِّساءِ) قالت : يابن أختى ، هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها ، تشاركه فى ماله ، فيعجبه مالها وجمالها ، فيريد وليها أن يتزوجها ، بغير أن يُقْسط فى صداقها ، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره ؛ فنُهوا أن ينكحوهن إلا أن يُقسطوا لهنّ ، ويبلغوا بهنّ أعلى سُنّتهنّ فى الصداق ، وأُمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن .

قال يونس بن يزيد . قال ربيعة فى قول الله (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِى اليَتامَى) قال : يقول : اتركوهن فقد أحللت لكم أربعا .

حدثنا الحسن بن الجنيد وأبو سعيد بن مسلمة ، قالا : أنبأنا إسماعيل بن أمية ، عن ابن شهاب ، عن عروة ، قال : سألتُ عائشة أمّ المؤمنين ، فقلت : يا أمّ المؤمنين أرأيتِ قول الله (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِى اليَتامَى فانكحوا ما طابَ لكُمْ مِنَ النِّساءِ) ؟ قالت : يا بن أختى ، هى اليتيمة تكون فى حجر وليها ، فيرغب فى جمالها ومالها ، ويريد أن يتزوّجها بأدنى من سنة صداق نسائها ، فنُهوا عن ذلك أن ينكحوهنّ إلا أن يُقسطوا ، فيكملوا لهنّ الصداق ، ثم أمروا أن ينكحوا سواهنّ من النساء إن لم يكملوا لهنّ الصداق .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثنى الليث ، قال : ثنى يونس ، عن ابن شهاب ، قال : ثنى عُروة بن الزُّبير ، أنه سأل عائشة زوج النبىّ صلى الله عليه وسلم . فذكر مثل حديث يونس ، عن ابن وهب .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن الزهرىّ ، عن عروة ، عن عائشة ، مثل حديث ابن حميد ، عن ابن المبارك .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن هشام ، عن أبيه ، عن عائشة ، قالت : نزل ، يعنى قوله : (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِى اليَتامَى) ... الآية ، فى اليتيمة تكون عند الرجل ، وهى ذات مال ، فلعله ينكحها لمالها ، وهى لاتعجبه ، ثم يَضْرِبُها ، ويسىء صحبتها ، فوُعِظ فى ذلك .

قال أبو جعفر : فعلى هذا التأويل جواب قوله (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا) قوله (فانكحوا) .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : النهى عن نكاح ما فوق الأربع ، حذَرا على أموال اليتامى أن يتلفها أولياؤهم . وذلك أن قريشا ، كان الرجل منهم يتزوّج العشر من النساء ، والأكثر والأقل ، فإذا صار معدما ، مال على مال يتيمه الذى فى حجره ، فأنفقه ، أو تزوّج به ، فنُهوا عن ذلك ؛ وقيل لهم : إن أنتم

خفتم على أموال أيتامكم أن تنفقوها فلا تعدلوا فيها، من أجل حاجتكم إليها، لما يلزمكم من مُؤَن نسائكم، فلا تجاوزوا فيما تنكحون من عدد النساء على[1] أربع، وإن خفتم أيضا من الأربع، ألا تعدلوا فى أموالهم[2]، فاقتصروا على الواحدة، أو على ما ملكت أيمانكم.

ذكر من قال ذلك:

حدثنا محمد بن المثنى، قال: ثنا محمد بن جعفر، قال: ثنا شعبة، عن سماك، قال: سمعت عكرمة يقول فى هذه الآية، (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِى الْيَتَامَى) قال: كان الرجل من قريش يكون عنده النسوة، ويكون عنده الأيتام، فيذهب ماله، فيميل على مال الأيتام، قال: فنزلت هذه الآية (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِى الْيَتَامَى، فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ).

حدثنا هناد بن السرىّ، قال: ثنا أبو الأحوص، عن سماك، عن عكرمة فى قوله (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِى الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ، مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً، أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) قال: كان الرجل يتزوّج الأربع والخمس والستّ والعشر، فيقول الرجل: ما يمنعنى أن أتزوّج كما تزوّج فلان، فيأخذ مال يتيمه، فيتزوّج به، فنهُوا أن يتزوّجوا فوق الأربع.

حدثنا سفيان بن وكيع، قال: ثنا أبى، عن سفيان، عن حبيب بن أبى ثابت، عن طاوس، عن ابن عباس، قال: قَصَرَ الرجالَ على أربع، من أجل أموال اليتامى.

حدثنى محمد بن سعد، قال: ثنى أبى، قال: ثنى عمى، قال: ثنى أبى، عن أبيه، عن ابن عباس، قوله (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِى الْيَتَامَى) فإن الرجل كان يتزوّج بمال اليتيم ماشاء الله تعالى، فنهى الله عن ذلك.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أن القوم كانوا يتحوّبون فى أموال اليتامى، ألايعدلوا فيها، ولا يتحوّبون فى النساء ألا يعدلوا فيهنّ، فقيل لهم: كما خفتم أن لا تعدلوا فى اليتامى، فكذلك فخافوا فى النساء ألاّ تعدلوا فيهنّ، ولا تنكحوا منهنّ إلا من واحدة إلى الأربع، ولا تزيدوا على ذلك، وإن خفتم ألا تعدلوا أيضا فى الزيادة على الواحدة، فلا تنكحوا إلا ما لاتخافون أن تجوروا فيهنّ من واحدة، أوماملكت أيمانكم.

ذكر من قال ذلك:

حدثنى يعقوب بن إبراهيم، قال: ثنا ابن علية، عن أيوب، عن سعيد بن جبير، قال: كان الناس على جاهليتهم، إلا أن يؤمروا بشىء، أو ينهوا عنه، قال: فذكروا اليتامى، فنزلت (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِى الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَاطَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ، مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) قال: فكما خفتم ألا تُقسطوا فى اليتامى، فكذلك فخافوا ألا تقسطوا فى النساء.

حدثنا محمد بن الحسين، قال: ثنا أحمد بن مفضل، قال: ثنا أسباط، عن السدىّ (وَإِنْ خِفْتُمْ

(١) كذا فى الأصول. ولعله ضمن «تجاوزوا» معنى «تزيدوا» فعداه بعلى.

(٢) الضمير فى «أموالهم»: راجع إلى اليتامى. أى إن كان زواجكم أربعا يؤدى إلى الجور على أموال اليتامى... الخ.

أَلاَّ تُقْسِطُوا فِى الْيَتَامَى) إلى (أَيْمَانُكُمْ) كانوا يشدّدون فى اليتامى ، ولا يشدّدون فى النساء ، ينكح أحدهم النسوة ، فلا يعدل بينهن ، فقال الله تبارك وتعالى : كما تخافون ألا تعدلوا بين اليتامى ، فخافوا فى النساء ، فانكحوا واحدة إلى الأربع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، أو ما ملكت أيمانكم .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد بن زُريع ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِى الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَاطَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ) حتى بلغ (أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا) يقول : كما خفتم الجور فى اليتامى ، وهمّكم ذلك ، فكذلك فخافوا فى جمع النساء . وكان الرجل فى الجاهلية يتزوج العشرة فما دون ذلك ، فأحلّ الله جلّ ثناؤه أربعا ، ثم الذى صيرهن إلى أربع قوله (مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً) يقول : إن خفت ألا تعدل فى أربع فثلاث ، وإلا فثنتين ، وإلا فواحدة ، وإن خفت ألا تعدل فى واحدة ، فما ملكت يمينك .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن أيوب ، عن سعيد بن جبير ، قوله (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِى الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ) يقول : ما أُحِل لكم من النساء (مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ) فخافوا فى النساء مثل الذى خفتم فى اليتامى ألا تقسطوا فيهن .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا الحجاج بن المنهال ، قال : ثنا حماد ، عن أيوب ، عن سعيد بن جبير ، قال جاء الإسلام ، والناس على جاهليتهم ، إلا أن يُؤْمروا بشىء فيتبعوه ، أو يُنْهَوا عن شىء فيجتنبوه ، حتى سألوا عن اليتامى ، فأنزل الله تبارك وتعالى (فَانْكِحُوا مَاطَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ) .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا أبو النعمان عارم[1] ، قال : ثنا حماد بن زيد ، عن أيوب ، عن سعيد بن جبير ، قال : بعث الله تبارك وتعالى محمدا صلى الله عليه وسلم ، والناس على أمر جاهليتهم ، إلا أن يؤمروا بشىء أو ينهوا عنه ، وكانوا يسألونه عن اليتامى ، فأنزل الله تبارك وتعالى (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِى الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ، مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ) قال : فكما تخافون ألا تقسطوا فى اليتامى ، فخافوا ألا تُقسطوا وتَعْدلوا فى النساء .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية بن صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، قوله (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِى الْيَتَامَى) قال : كانوا فى الجاهلية ينكحون عشرا من النساء الأيامى ، وكانوا يعظمون شأن اليتيم ، فتفقدوا من دينهم شأن اليتيم ، وتركوا ما كانوا ينكحون فى الجاهلية ، فقال (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِى الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ) ، ونهاهم عما كانوا ينكحون فى الجاهلية .

حُدثت عن الحسين بن الفرج ، قال : سمعت أبا معاذ ، قال : ثنا عبيد بن سلمان ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِى الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ) ، كانوا فى جاهليتهم لايَرْزَءون من مال اليتيم شيئا[2] ، وهم ينكحون عشرا من النساء ، وينكحون نساء آبائهم ،

(١) فى خلاصة الخزرجى : محمد بن الفضل السدوسى ، أبوالنعمان البصرى الحافظ الملقب بعارم .

(٢) لايرزءون : لايأخذون منه شيئا .

فتفقدوا من دينهم شأن النساء . فوعظهم الله فى اليتامى ، وفى النساء ، فقال فى اليتامى (وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ) . . . إلى (إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا) ، ووعظهم فى شأن النساء ، فقال (فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ) . . . الآية . وقال (وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ) .

حُدثت عن عمار ، عن ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع فى قوله (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى) ... إلى (مَامَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) يقول : فإن خفتم الجور فى اليتامى ، وغمكم ذلك ، فكذلك فخافوا فى جمع النساء ، قال : وكان الرجل يتزوج العشر فى الجاهلية ، فما دون ذلك ، وأحل الله أربعا ، وصيرهم إلى أربع ، يقول (فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً) وإن خفت ألا تعدل فى واحدة ، فما ملكت يمينك .

وقال آخرون : معنى ذلك : فكما خفتم فى اليتامى ، فكذلك فتخوفوا فى النساء أن تزنوا بهن ، ولكن انكحوا ما طاب لكم من النساء .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : أخبرنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى) يقول : إن تحرجتم فى ولاية اليتامى وأكل أموالهم ، إيمانا وتصديقا ، فكذلك فتحرجوا من الزنا ، وانكحوا النساء نكاحا طيبا (مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ، أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى اللاتى أنتم ولاتهن ، فلا تنكحوهن ، وانكحوا أنتم ما أحل لكم منهن .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا سفيان بن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى) قال : نزلت فى اليتيمة تكون عند الرجل هو وليها ، ليس لها ولى غيره ، وليس أحد ينازعه فيها ، ولا ينكحها لمالها فيضربها ، ويسىء صحبتها .

حدثنا حميد بن مسعدة ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا يونس ، عن الحسن فى هذه الآية (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ) : أى ما حل لكم من يتاماكم من قراباتكم (مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ، أَوْ مَامَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) .

قال أبو جعفر : وأولى الأقوال التى ذكرناها فى ذلك بتأويل الآية : قول من قال : تأويلها : وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى ، فكذلك فخافوا فى النساء ، فلا تنكحوا منهن إلا ما لا تخافون أن تجوروا فيه منهن ، من واحدة إلى الأربع ، فإن خفتم الجور فى الواحدة أيضا فلا تنكحوها ، ولكن عليكم بما ملكت أيمانكم ، فإنه أحرى ألا تجوروا عليهن .

وإنما قلنا : إن ذلك أولى بتأويل الآية ، لأن الله جل ثناؤه افتتح الآية التى قبلها ، بالنهى عن أكل أموال اليتامى بغير حقها ، وخلطها بغيرها من الأموال ، فقال تعالى ذكره (وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ ، وَلَا

تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ، وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا) .
ثم أعلمهم أنهم إن اتَّقَوُا الله فى ذلك فتحرّجوا فيه ، فالواجب عليهم من اتقاء الله ، والتحرّج فى أمر النساء ، مثل الذى عليهم ظن التحرّج فى أمر اليتامى ، وأعلمهم كيف التخلص لهم من الجور فيهن ، كما عرّفهم المخلص من الجور فى أموال اليتامى ، فقال : انكحوا إن أمنتم الجور فى النساء على أنفسكم ، ما أبحت لكم منهن وحللته ، مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم أيضا الجور على أنفسكم فى أمر الواحدة ، بأن تقدروا على إنصافها ، فلا تنكحوها ، ولكن تسرَّوا من المماليك ، فإنكم أحرى ألا تجوروا عليهن ، لأنهن أملاككم وأموالكم ، ولايلزمكم لهن من الحقوق كالذى يلزمكم للحرائر ، فيكون ذلك أقرب لكم إلى السلامة من الإثم والجور ، فى الكلام إذ كان المعنى ما قلنا متروك استغنى بدلالة ماظهر من الكلام عن ذكره ، وذلك أن معنى الكلام : وإن خفتم ألا تقسطوا فى أموال اليتامى ، فتعدّلوا فيها ، فكذلك فخافوا ألا تقسطوا فى حقوق النساء التى أوجبها الله عليكم ، فلا تتزوّجوا منهن إلا ما أمنتم معه الجور ، مثنى وثلاث ورباع ، وإن خفتم أيضا فى ذلك فواحدة ، وإن خفتم فى الواحدة فما ملكت أيمانكم ، فترك ذكر قوله : فكذلك فخافوا أن تقسطوا فى حقوق النساء ، بدلالة ماظهر من قوله تعالى ، (فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ، أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) .

فإن قال قائل : فأين جواب قوله (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِى الْيَتَامَى) ؟ قيل : قوله (فَانْكِحُوا مَاطَابَ لَكُمْ) غير أن المعنى الذى يدلّ على أن المراد بذلك ما قلنا : قوله (فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ، أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا) .

وقد بينا فيما مضى قبل أنّ معنى الإقساط فى كلام العرب : العدل والإنصاف ، وأن القسْط : الجور والحيف ، بما أغنى عن إعادته فى هذا الموضع . وأما اليتامى ، فإنها جمع لذكران الأيتام وإناثهم فى هذا الموضع ، وأما قوله (فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ) فإنه يعنى : فانكحوا ما حلّ لكم منهن دون ما حرّم عليكم منهن .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا ابن المبارك ، عن إسماعيل بن أبى خالد ، عن أبى مالك ، قوله (فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ) : ما حلّ لكم .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن أيوب ، عن سعيد ابن جبير فى قوله (فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ) يقول : ماحلّ لكم :

فإن قال قائل : وكيف قيل (فَانْكِحُوا مَاطَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ) ولم يقل : فانكحوا مَنْ طاب لكم ، وإنما يقال «ما» فى غير الناس ؟ قيل : معنى ذلك على غير الوجه الذى ذهبت إليه ، وإنما معناه : فانكحوا نكاحا طيبا .

كما حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ) فانكحوا النساء نكاحا طيبا .

حدثنى المثنى، قال: ثنا أبوحذيفة، قال: ثنا شبل، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد مثله. فالمعنىّ بقوله (ماطابَ لَكُمْ) الفعل، دون أعيان النساء وأشخاصهنّ، فلذلك قيل «ما» ولم يقل «مَنْ»، كما يقال: خذ من رقيقى ما أردت: إذا عنيت: خذ منهم إرادتك، ولوأردت خذ الذى تريد منهم لقلت: خذ من رقيقى مَنْ أردت منهم، وكذلك قوله (أَوْ مامَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ) بمعنى: أوملك أيمانكم؛ وإنما معنى قوله (فَانْكِحُوا ماطابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُباعَ) فلينكح كل واحد منكم مَثْنى وثُلاثَ ورُباعَ، كما قيل (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ المُحْصَناتِ، ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ فاجْلِدُوهُمْ ثَمانِينَ جَلْدَةً).

وأما قوله (مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُباعَ) فإنما ترك إجراؤهنّ لأنهنّ معدولات عن اثنين وثلاث وأربع، كما عدِل عُمر عن عامر وزُفَر عن زافر، فترك إجراؤه، وكذلك أَحادُ وثُناءُ، ومَوْحدُ ومَثْنَى ومَثلثُ ومَربعُ، لايُجرَى ذلك كله، للعلة التى ذكرت، من العدول عن وجوهه. ومما يدلّ على أن ذلك كذلك، وأن الذكر والأنثى فيه سواء، ما قيل فى هذه السورة وسورة فاطر: (مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُباعَ)، يراد به الجَناح، والجَناح ذَكَر، وأنه أيضا لايضاف إلى ما يضاف إليه الثلاثة والثلاث، وأن الألف واللام لاتدخله، فكان فى ذلك دليل على أنه اسم للعدد معرفة، ولو كان نكرة لدخله الألف واللام، وأضيف كما يضاف الثلاثة والأربعة، ومما يبين فى ذلك قول تميم بن أبىّ بن مقبل:

تَرَى النُّعَراتِ الزُّرْقَ تَحْتَ لَبانِهِ أُحادَ وَمَثْنَى أَصْعَقَتْها صَواهِلُهْ [1]

فردّ أُحاد ومثنى على النُّعَرات، وهى معرفة، وقد تجعلها العرب نكرة فتجريها، كما قال الشاعر:

قَتَلْنا بِهِ مِنْ بَيْنِ مَثْنًى ومَوْحَدٍ بِأَرْبَعَةٍ مِنْكُمْ وآخَرَ خامِسِ [2]

ومما يبين أن ثُناء وأحاد غيرُ جارية قول الشاعر:

ولَقَدْ قَتَلْتُكُمُ ثُناءَ ومَوْحَدًا وتَرَكْتُ مُرَّةَ مثل أمسِ الدَّابِرِ [3]

وقول الشاعر:

مَنَتْ لكَ أن تُلاقِيَنِى المَنايا أُحادَ أُحادَ فِى شَهْرٍ حَلالِ [4]

---

(١) أورده فى اللسان (نعر). وفيه «الخضر» فى مكان «الزرق». قال الجوهرى: النعرة مثال الهمزة (بضم النون وفتح العين): ذباب ضخم، أزرق العين، أخضر، له إبرة فى طرف ذنبه، يلسع بها ذوات الحافر خاصة، وربما دخل فى أنف الحمار. واللبان: الصدر، وأصعقتها صواهله: أى قتلها صهيله.

(٢) أورد المؤلف البيت شاهدا على أن مثنى وموحد قد يستعملان مصروفين إذا نكرا. والبصريون يقولون: إن موحد ومثنى ومثلث ومربع، وأحاد وثناء وثلاث ورباع، ممنوعة من الصرف للوصفية والعدل، وهو مذهب سيبويه، أو للتأنيث والعدل، وهو مذهب الزجاج، أو لتكرر العدل فيه، وهو مذهب ثالث لغيرهما من البصريين، كما ذكر صاحب اللسان فى (ثلث).

(٣) البيت لصخر بن عمرو بن الشريد السلمى (ص ٤٦٦) كما فى لسان العرب (دبر). وقال ابن السيد البطليوسى فى الاقتضاب كذا وقع فى النسخ. وكذا رويناه عن أبى نصر، عن أبى على (يريد القالى) والصواب: «المدبر»، كذا أنشده أبو عبيدة. يقوله صخر لبنى مرة بن سعد بن ذبيان.

(٤) منت لك المنايا: أى قدرت لك الأقدار. والبيت فى اللسان (منى). والرواية فيه «فى الشهر الحلال». ولم ينسبه لقائله. ونسبه ابن قتيبة فى كتاب المعانى الكبير ص ٨٤٠ لعمرو ذى الكلب. وفسره بقوله: هذا دعاء. منت لك: أى قدرت لك الأقدار لقائى وحدين فى الشهر الحلال. قلت: يتمنى لقاءه فى الشهر الحلال، ليريه كيف يكون لقاء الأبطال.

ولم يسمع من العرب صرف ما جاوز الرُّباعَ والمَرْبَعَ عن جهته ، لم يسمع منها خُماس ولا المخمس ، ولا السباع ولا المسبع ، وكذلك ما فوق الرباع ، إلا فى بيت الكميت ، فإنه يروى له فى العشرة عُشار ، وهو قوله :

فلَمْ يَسْتَرِيثُوكَ حتى رَمَيْـتَ فوقَ الرّجالِ خِصالاً عُشارا[١]

يريد عَشْرا عَشْرا ، يقال : إنه لم يسمع غير ذلك .

وأما قوله (فإنْ خِفْتُمْ ألاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً) فإن نصب واحدة ، بمعنى : فإن خفتم ألا تعدلوا فيما يلزمكم من العدل ما زاد على الواحدة من النساء عندكم بنكاح فيما أوجبه الله لهنّ عليكم ، فانكحوا واحدة منهنّ ، ولو كانت القراءة جاءت فى ذلك بالرفع كان جائزا ، بمعنى : فواحدة كافية ، أو فواحدة مجْزِئة ، كما قال جلّ ثناؤه (فإنْ لَمْ يَكُونا رَجُلَيْنِ فرَجُلٌ وامْرأتان) وإن قال لنا قائل : قد علمت أن الحلال لكم من جميع النساء الحرائر نكاح أربع ، فكيف قيل : (فانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النّساءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُباعَ) وذلك فى العدد تسع ؟ قيل : إن تأويل ذلك : فانكحوا ما طاب لكم من النساء ، إما مَثْنَى إن أمنتم الجَوْرَ من أنفسكم فيما يجب لهما عليكم ؛ وإما ثُلاث إن لم تخافوا ذلك ؛ وإما أربع إن أمنتم ذلك فيهنّ ، يدلّ على صحة ذلك قوله (فإنْ خِفْتُمْ ألاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً) لأن المعنى : فإن خفتم فى الثنتين ، فانكحوا واحدة ، ثم قال : وإن خفتم ألا تعدلوا أيضا فى الواحدة ، فما ملكت أيمانكم .

فإن قال قائل : فإن أمر الله ونهيه على الإيجاب والإلزام ، حتى تقوم حجة بأن ذلك على التأديب والإرشاد والإعلام ، وقد قال تعالى ذكره : (فانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النّساءِ) ، وذلك أمر ، فهل من دليل على أنه من الأمر الذى هو على غير وجه الإلزام والإيجاب ؟ قيل : نعم ، والدليل على ذلك قوله : (فإنْ خِفْتُمْ ألاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً) فكان معلوما بذلك أن قوله : (فانْكِحُوا ماطابَ لَكُمْ مِنَ النّساءِ) ، وإن كان مخرجه مخرج الأمر ، فإنه بمعنى الدلالة على النهى عن نكاح ما خاف الناكح الجور فيه من عدد النساء ، لابمعنى الأمر بالنكاح . فإن المعنىّ به : وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فتحرّجتم فيهنّ ، فكذلك فتحرّجوا فى النساء ، فلا تنكحوا إلا ما أمنتم الجَوْر فيه منهنّ ، ما أحللته لكم من الواحدة إلى الأربع .

وقد بيّنا فى غير هذا الموضع ، بأن العرب تخرّج الكلام بلفظ الأمر ، ومعناها فيه النهى ، أو التّهديد والوعيد ، كما قال جلّ ثناؤه (فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ ، وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ) وكما قال (لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْناهُمْ ، فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) فخرج ذلك مَخْرَجَ الأمر ، والمقصود به التّهديد والوعيد ، والزجر والنهى ، فكذلك قوله (فانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النّساءِ) بمعنى النهى ، فلا تنكحوا إلا ما طاب لكم من النساء . وعلى النحو الذى قلنا فى معنى قوله (أوْ ما مَلَكَتْ أيْمانُكُمْ) قال أهل التأويل :

(١) البيت للكميت (اللسان : عشر) وهو من شواهد النحاة ، على أنه لم يسمع صيغة فعال (بالضم) من العدد مما فوق رباع ، إلا فى قول الكميت . . . وقاسه الكوفيون من الواحد إلى العشرة .

واستراثه : استبطأه . ورواه ابن السيد البطليوسى فى الاقتضاب ، وقال فى شرحه : ومعنى يستريثوك : يجدونك رائثا ، أى بطيئا . ورميت : زدت . يقال : رمى على الخمسين وأرمى : إذا زاد . يقول : لما نشأت تشأ الرجال ، أسرعت فى بلوغ الغاية التى يبلغها طلاب المعالى ، ولم يقنعك ذلك حتى زدت عليهم بعشر خصال فقت بها السابقين ، وأيأست الذين راموا أن يكونوا لك لاحقين .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) يقول : فإن خفت ألا تعدل فى واحدة ، فما ملكت يمينك .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن مفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) : السَّرَارِىَّ .

حُدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ، أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) فإن خفت ألا تعدل فى واحدة ، فما ملكت يمينك .

حدثنى يحيى بن أبى طالب ، قال : حدثنا يزيد ، قال : ثنا جويبر ، عن الضحاك ، قوله (فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا) قال : فى المجامعة والحبِّ .

القول فى تأويل قوله (ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ لا تَعُولُوا) :

يعنى بقوله تعالى ذكره : وإن خفتم ألا تعدلوا فى مَثْنَى أو ثُلاثَ أو رُباعَ ، فنكحتم واحدة ، أو خفتم ألا تعدلوا فى الواحدة ، فتسرّرتم ملك أيمانكم ، فهو أدنى ، يعنى : أقرب ألا تَعُولُوا ، يقول : أن لاتجوروا ولا تميلوا ، يقال منه : عال الرجل فهو يَعول عَوْلا وعِيالة : إذا مال وجار ، ومنه عَوْل الفرائض ، لأن سهامها إذا زادت دخلها النقص ؛ وأما من الحاجة ، فإنما يقال : عالَ الرجل عَيْلَةً ، وذلك إذا احتاج ، كما قال الشاعر :

وَما يَدْرِى الفَقِيرُ مَتَى غِناهُ		وما يَدْرِى الغَنِىُّ مَتَى يَعِيلُ [١]

بمعنى يفتقر . وبنحو ما قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا حميد بن مسعدة ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا يونس ، عن الحسن (ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا) قال : العَوْل : الميل فى النساء .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنى حكام ، عن عنبسة ، عن محمد بن عبد الرحمن ، عن القاسم بن أبى بَزَّة ، عن مجاهد فى قوله (ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا) يقول : لاتميلوا .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله : (ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا) : ألاَّ تميلوا .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا أبو النعمان محمد بن الفضل ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا داود بن أبى هند ، عن عكرمة (أَلاَّ تَعُولُوا) قال : أن لاتميلوا . ثم قال : أما سمعت إلى قول أبى طالب :

بِميزَانِ قِسْطٍ وَزْنُهُ غَيْرُ عائِلِ

---

(١) البيت لأحيحة بن الجلاح من أربعة أبيات ذكرها اللسان فى (عيل) . وعال يعيل من باب ضرب عيلة وعيولا : افتقر .

حدثني المثنى ، قال : ثنا حجاج ، قال : ثنا حماد بن زيد ، عن الزبير ، عن حريث ، عن عكرمة في هذه الآية (أَلَّا تَعُولُوا) قال : ألا تميلوا . قال : وأنشد بيتا من شعر ، زعم أن أبا طالب قاله :

بِمِيزَانِ قِسْطٍ لَا يَخِسُ شَعِيرَةً ... وَوَازِنِ صِدْقٍ وَزْنُهُ غيرُ عائِلِ

قال أبو جعفر : ويروى هذا البيت على غير هذه الرواية :

بِمِيزَانِ صِدْقٍ لا يُغِلُّ شَعِيرَةً ... لهُ شاهِدٌ مِنْ نفسِهِ غيرُ عائِلِ[1]

حدثني يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا هشيم ، عن مغيرة ، عن إبراهيم في قوله (أَلَّا تَعُولُوا) قال : ألا تميلوا .

حدثني المثنى ، قال : ثنا عمرو بن عون ، قال : أخبرنا هشيم ، عن مغيرة ، عن إبراهيم ، مثله .

حدثني المثنى ، قال : ثنا عمرو بن عون ، قال : أخبرنا هشيم ، عن أبي إسحاق الكوفي ، قال : كتب عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى أهل الكوفة في شيء عاتبوه عليه فيه ، إني لست بميزان لأعول .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا عباد بن علي ، قال : ثنا إسماعيل بن أبي خالد ، عن أبي مالك في قوله ، (أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا) قال : لا تميلوا .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة : (ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا) : أدنى أن لا تميلوا .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة في قوله (أَلَّا تَعُولُوا) قال : تميلوا .

حُدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا) يقول : ألا تميلوا .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدي (ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا) يقول : تميلوا .

حدثني المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنا معاوية بن صالح ، عن علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس ، قوله (أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا) يعني : ألا تميلوا .

حدثنا محمد بن سعد ، قال : ثني أبي ، قال : ثني عمي ، قال : ثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس (ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا) يقول : ذلك أدنى ألا تميلوا .

حدثني يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا حصين ، عن أبي مالك في قوله : (ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا) قال : ألا تجوروا .

---

(١) البيت في لامية أبي طالب الطويلة ، يدافع بها عن ابن أخيه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم (السيرة لابن هشام طبعة الحلبي ، ١ : ٢٩٦ ، ولسان العرب : عيل (وفي رواية السيرة : « لا يخس » : أي لا ينقص ، وفي شرح أبي ذر للسيرة (ص ٩٠) ، ويروى : « لا يخيس » من قولهم : خاس بالعهد : إذا نقضه وأفسده ، وعائل : جائر .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عمرو بن عون ، وعارم أبوالنعمان [١] ، قالا : ثنا هشيم ، عن حصين ، عن أبى مالك ، مثله .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن يونس ، عن ابن إسحاق ، عن ابن مجاهد (ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا) قال : تميلوا .

حدثنا يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد (ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا) ذلك أقلّ لنفقتك ، الواحدة أقلّ من ثنتين وثلاث وأربع ، وجاريتك أهون نفقة من حرّة (أَلَّا تَعُولُوا) : أهون عليك فى العيال .

القول فى تأويل قوله

وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ، فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا (٤)

قال أبو جعفر : يعنى بذلك تعالى ذكره : وأعطوا النساء مهورهنّ عطية واجبة ، وفريضة لازمة ؛ يقال منه : نحل فلان فلانا كذا ، فهو ينحله نحلة ونحلا .

كما حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً) يقول : فريضة .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : أخبرنى معاوية بن صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، قوله (وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً) يعنى بالنِّحلة : المهر .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قوله (وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً) قال : فريضة مسماة .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : سمعت ابن زيد يقول فى قوله : (وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً) قال : النحلة فى كلام العرب : الواجب ، يقول : لاينكحها إلا بشىء واجب لها صدقة ، يسميها لها واجبة ، وليس ينبغى لأحد أن ينكح امرأة بعد النبىّ [٢] صلى الله عليه وسلم إلا بصداق واجب ، ولا ينبغى أن يكون تسمية الصداق كذبا بغير حقّ .

وقال آخرون : بل عنى بقوله (وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً) أولياء النساء ، وذلك أنهم كانوا يأخذون صدُقاتهن .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عمرو بن عون ، قال : ثنا هشيم ، عن سيار ، عن أبى صالح ، قال : كان الرجل إذا زوّج أيّمة أخذ صداقها دونها ، فنهاهم الله تبارك وتعالى عن ذلك ، ونزلت (وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً)

---

(١) تقدم ذكره والتعريف به فى ص ٢٣٤ من هذا الجزء . (٢) أى بعد مجيئه بالشريعة السمحة .

وقال آخرون: بل كان ذلك من أولياء النساء ، بأن يُعْطِيَ الرجل أختَه الرجل ، على أن يعطيه الآخر أخته ، على ألاّ كثيرَ مهر بينهما ، فنُهوا عن ذلك .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، قال : ثنا المعتمر بن سليمان ، عن أبيه ، قال : زعم حضرمىّ أن أناسا كانوا يعطِي هذا الرجل أخته ، ويأخذ أخت الرجل ، ولا يأخذون كثيرَ مهر ، فقال الله تبارك وتعالى: (وآتُوا النِّساءَ صَدُقاتِهِنَّ نِحْلَةً) .

قال أبو جعفر : وأولى التأويلات التى ذكرناها فى ذلك: التأويل الذى قلناه ، وذلك أن الله تبارك وتعالى ابتدأ ذكر هذه الآية بخطاب الناكحين النساء ، ونهاهم عن ظلمهنّ ، والجَوْر عليهنّ ، وعرفهم سبيل النجاة من ظلمهنّ . ولا دلالة فى الآية على أن الخطاب قد صُرِف عنهم إلى غيرهم ، فإذا كان ذلك كذلك ، فمعلوم أن الذين قيل لهم: (فانكِحُوا ما طابَ لكُمْ مِنَ النِّساءِ مَثْنَى وثُلاثَ ورُباعَ)هم الذين قيل لهم: (وآتُوا النِّساءَ صَدُقاتِهِنَّ)، وأن معناه : وآتوا من نكحتم من النساء صدقاتهنّ نِحْلة ، لأنه قال فى الأوّل (فانكِحُوا ما طابَ لكُمْ مِنَ النِّساءِ) ولم يقل : فانكحوا ، فيكون قوله (وآتُوا النِّساءَ صَدُقاتِهِنَّ) مصروفا إلى أنه معنىّ به أولياء النساء ، دون أزواجهنّ ، وهذا أمر من الله أزواج النساء المدخول بهنّ ، والمسمى لهنّ الصداق ، أن يُؤْتوهنّ صَدُقاتِهنّ دون المطلقات ، قبل الدخول ، ممن لم يسمّ لها فى عقد النكاح صداق .

القول فى تأويل قوله جلّ ثناؤه (فإنْ طِبْنَ لكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا):

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : فإن وَهَبَ لكم أيها الرجال نساؤكم شيئا من صَدُقاتِهنّ ، طيبة بذلك أنفسهنّ ، فكلوه هنيئا مريئا .

كما حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، قال : ثنا بشر بن المفضل ، قال : ثنا عمارة ، عن عكرمة (فإنْ طِبْنَ لكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا) قال : المهر .

حدثنا محمد بن المثنى ، قال: ثنى حرمىّ بن عمارة ، قال : ثنا شُعبة ، عن عُمارة ، عن عكرمة ، عن عُمارة فى قول الله تبارك وتعالى : (فإنْ طِبْنَ لكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا) قال : الصَّدُقات .

حدثنى المثنى ، قال : ثنى الحِمَّانىّ ، قال : ثنا شريك ، عن سالم ، عن سعيد (فإنْ طِبنْ لكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا) قال : الأزواج .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عمرو بن عون ، قال : أخبرنا هشيم ، عن عبيدة ، قال : قال لى إبراهيم : أكلتَ من الهنِىء المرىء ؟ قلتُ : ما ذاك ؟ قال : امرأتك أعطتك من صداقها .

حدثنا ابن حميد، قال: ثنا جرير ، عن منصور ، عن إبراهيم ، قال: دخل رجل على علقمة وهو يأكل من

طعام بين يديه ، من شىء أعطته امرأته من صداقها أوغيره ، فقال له علقمة : ادْنُ ، فكل من الهنىء المرىء .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية بن صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس (فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً ، فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً) يقول : إذا كان غير إضرار ولا خديعة ، فهو هنىء مرىء ، كما قال الله جلّ ثناؤه .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج (فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً) قال : الصداق (فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً) .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : سمعت ابن زيد يقول فى قوله : (فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً) .

حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، قال : ثنا المعتمر ، عن أبيه ، قال : زعم حَضْرَمِىّ أن أناسا كانوا يتأثّمون أن يرجع أحدهم فى شىء مما ساق إلى امرأته ، فقال الله تبارك وتعالى : (فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً ، فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً) .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً ، فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً) يقول : ما طابت به نفسا فى غير كُرْه أو هَوَان ، فقد أحلّ الله لك ذلك أن تأكله هنيئا مريئا .

وقال آخرون : بل عَنَى بهذا القول : أولياء النساء ، فقيل لهم : إن طابت أنفس النساء اللواتى إليكم عِصْمة نكاحهن بصَدُقاتهنّ نفسًا ، فكلوه هنيئا مريئا .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا هشيم ، قال : ثنا سيار ، عن أبى صالح فى قوله (فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً) قال : كان الرجل إذا زوّج ابنته عمد إلى صداقها فأخذه ، قال : فنزلت هذه الآية فى الأولياء (فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً ، فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً) .

قال أبو جعفر : وأولى التأويلين فى ذلك بالصواب : التأويل الذى قلنا ، وأن الآية مخاطب بها الأزواج ، لأن افتتاح الآية مبتدأ بذكرهم ، وقوله (فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً) فى سياقه .

وإن قال قائل : فكيف قيل : فإن طبن لكم عن شىء منه نفسا ، وقد علمت أن معنى الكلام : فإن طابت لكم أنفسهن بشىء ، وكيف وَحّدت النفس والمعنى للجميع ؟ وذلك أنه تعالى ذكره ، قال (وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً) قيل : أما نقل فعل النفوس إلى أصحاب النفوس ، فإن ذلك المستفيض فى كلام العرب . من كلامها المعروف : ضقت بهذا الأمر ذراعا وذرعا ، وقَرِرْتُ بهذا الأمر عينا ، والمعنى : ضاق به ذرعى ، وقرّت به عينى ، كما قال الشاعر :

إذا التَّيَّازُ ذُو العَضَلاتِ قُلْنا إليكَ إليكَ ضَاقَ بِها ذِرَاعا[1]

فنقل صفة الذراع إلى ربّ الذراع ، ثم أخرج الذراع مفسرة لموقع الفعل ، وكذلك وحد النفس فى قوله (فإنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً) إذكانت النفس مفسرة لموقع الخبر . وأما توحيد النفس من النفوس ، لأنه إنما أراد الهوى ، والهوى يكون جماعة . كما قال الشاعر :

بِها جِيَفُ الحَسْرَى ، فَأَمَّا عِظامُها فَبِيضٌ ، وأَمَّا جِلْدُها فَصَلِيبُ[2]

وكما قال الآخر :

فِي حَلْقِكُمْ عَظْمٌ وقد شَجِينا[3]

وقال بعض نحويّ الكوفة : جائز فى النفس فى هذا الموضع ، الجمع والتوحيد . فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا ، وأنفسا . وضقت به ذراعا ، وذَرْعا ، وأذرعا ، لأنه منسوب إليك ، وإلى من تخبر عنه ، فاكتفى بالواحد عن الجمع لذلك ، ولم يذهب الوهم إلى أنه ليس بمعنى جمع ، لأن قبله جمعا .

قال أبو جعفر : والصواب من القول فى ذلك عندنا : أن النفس وقع موقع الأسماء التى تأتى بلفظ الواحد ، مؤدّية معناه ، إذا ذكر بلفظ الواحد ، وأنه بمعنى الجمع عن الجمع .

وأما قوله (هَنِيئاً) فإنه مأخوذ من هنأت البعير بالقطران : إذا جرب فعولج به ، كما قال الشاعر :

مُتَبَذِّلاً تَبْدُو مَحاسِنُهُ يَضَعُ الهِناءَ مَواضِعَ النُّقْبِ[4]

فكان معنى قوله (فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً) : فكلوه دواء شافيا ، يقال منه : هنأنى الطعام ومرأنى ، أى صار لى دواء وعلاجا شافيا ، وهنِئنى ومرِئنى بالكسر ، وهى قليلة ، والذين يقولون هذا القول يقولون : يهنأُنى ويمرأُنى ، والذين يقولون هنأنى ، يقولون : يهنِئنى ويمرِئنى ، فإذا أفردوا ، قالوا : قد أمرأنى هذا الطعام إمراء ، ويقال : هنأت القوم : إذا عُلْتَهم ؛ سمع من العرب من يقول : إنما سميت هانئا لتَهْنأَ ، بمعنى : لتعول وتكفى .

---

(١) البيت للقطامى يصف بكرة اقتضبها ، وقد أحسن القيام عليها إلى أن قويت وسمنت ، وصارت بحيث لايقدر على ركوبها ، لقوتها وعزة نفسها . قال ابن برى : هكذا أنشده الجوهرى ، وفسر فى شعره أن إليك : خذها لتركبها وتروضها . قال : وهذا فيه إشكال ، لأن سيبويه وجميع البصريين ذهبوا إلى أن إليك بمعنى تنح ، وأنها غير متعدية إلى مفعول ، وعلى ما فسروه فى البيت يقضى أنها متعدية ، لأنهم جعلوها بمعنى خذها . قال : ورواه أبو عمرو الشيبانى : لديك لديك ، عوضا من «إليك إليك» . قال : وهذا أشبه بكلام العرب وقول النحويين ، لأن لديك بمعنى عندك ، وعندك فى الإغراء تكون متعدية ، كقولك : عندك زيدا ، أى خذ زيدا من عندك . وقد تكون أيضا غير متعدية ، بمعنى تأخر . وقوله : ذو العضلات : أى ذو اللحمات الغليظة الشديدة . والتياز : الرجل الكثير العضل ، وهو يتتيز فى مشيته : يتقلع من الأرض تقلعا (اللسان : تيز) .

(٢) البيت لعلقمة بن عبدة التميمى ، من قصيدته الطويلة المشهورة . (مختار الشعر الجاهلى طبعة الحلبى ص-٤٢١) والحسرى : جمع حسير ، وهى الدواب التى كلت من السير فماتت إعياء ، وصليب : يابس . والهاء فى « بها » : راجعة إلى المفازة التى وصفها .

(٣) هذا عجز بيت للمسيب بن زيد مناة ، وصدره « لاتنكروا القتل وقد سبينا » ، وقد أنشده فى اللسان (شجا) .

(٤) البيت لدريد بن الصمة الفارس المشهور ، من مقطوعة قالها يصف الخنساء حين ذهب ليخطبها من أبيها عمرو بن الشريد السلمى ، فرآها ، وكانت فى ثياب عليها تهنأ بالقطران إبلا لهم جربى . والمتبذل : الذى اتخذ بذلة أو مبذلة ، وهى ثوب يمتهن للعمل . والهناء : القطران . والنقب بضم النون وبسكون القاف وبفتحها : جمع نقبة : القطع المتفرقة من الجرب . وقيل : أول ما يبدو منه . وقبله .

ما إن رأيت ولا سمعت به كاليوم طالى أينق جرب

القول فى تأويل قوله

وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا، وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ، وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٥)

قال أبو جعفر : اختلف أهل التأويل فى السفهاء الذين نهى الله جلّ ثناؤه عباده أن يؤتوهم أموالهم، فقال بعضهم : هم النساء والصبيان .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن بن مهدىّ ، قال : ثنا إسرائيل ، عن عبد الكريم ، عن سعيد بن جبير ، قال : اليتامى والنساء .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا عمرو بن عون ، قال: ثنا هشيم ، عن يونس ، عن الحسن فى قوله (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُم) قال : لاتعطوا الصغار والنساء .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا يزيد بن زريع ،عن يونس ، عن الحسن ، قال : المرأة والصبىّ .

حدثنى المثنى ، قال: ثنا عمرو بن عون ، قال: أخبرنا هشيم ، عن شريك ، عن أبى حمزة ، عن الحسن قال : النساء والصغار ، والنساء أسفه السفهاء .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : ثنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن الحسن فى قوله (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُم) قال : السفهاء : ابنك السفيه، وامرأتك السفيهة ، وقد ذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « اتَّقُوا اللهَ فِى الضَّعِيفَيْنِ : اليتيم ، والمرأة » .

حدثنا المثنى ، قال: ثنا الحمانىّ ، قال : ثنا حميد ، عن عبد الرحمن الرؤاسى ، عن السدىّ . قال : يردّه إلى عبدالله ، قال : النساء والصبيان .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن مفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُم) أما السفهاء : فالولد والمرأة .

حُدِّثت عن الحسين بن الفرج ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد بن سليمان ، عن الضحاك ، قوله (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَموَالَكُم) يعنى بذلك : ولد الرجل وامرأته ، وهى أسفه السفهاء .

حدثنى يحيى بن أبى طالب ، قال : ثنا يزيد ، قال : أخبرنا جويبر ، عن الضحاك فى قوله : (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُم) قال : السفهاء : الولد ، والنساء أسفه السفهاء ، فيكونوا عليكم أربابا .

حدثنا أحمد بن حازم الغِفارىّ ، قال : ثنا أبو نعيم ، قال : ثنا سفيان ، عن سلمة بن نُبَيط ، عن الضحاك ، قال : أولادكم ، ونساؤكم .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا الحمانىّ ، قال : ثنا أبى ، عن سلمة ، عن الضحاك ، قال : النساء والصبيان .

حدثنا أحمد بن حازم ، قال : ثنا أبو نعيم ، قال : ثنا سفيان ، عن حميد الأعرج ، عن مجاهد (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُم) قال : النساء والولدان .

حدثنا أحمد ، قال : ثنا أبو نعيم ، قال : ثنا ابن أبي عنبسة ، عن الحكم (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُم) قال : النساء والوِلدان .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً) أمر الله بهذا المال أن يُخزَن فيُحسِنَ خِزانته ، ولا يملكه المرأة السفيهة والغلام السفيه .

حدثني المثنى ، قال : ثنا الحِمانيّ ، قال : ثنا ابن المبارك ، عن إسماعيل ، عن أبي مالك ، قال : النساء والصبيان .

حدثني المثنى ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثني معاوية ، عن عليّ بن أبي طلحة ، عن ابن عباس (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُم) قال : امرأتك وبنيك ، وقال : السفهاء : الولدان ، والنساء أسفه السفهاء .

وقال آخرون : بل السفهاء : الصبيان خاصة .

ذكر من قال ذلك :

حدثني المثنى ، قال : ثنا سويد بن نصر ، قال : أخبرنا ابن المبارك ، عن شريك ، عن سالم ، عن سعيد بن جبير ، في قوله (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُم) قال : هم اليتامى .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثني أبي ، عن شريك ، عن سالم ، عن سعيد ، قال : (السُّفَهَاءُ) : اليتامى .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا يونس ، عن الحسن ، في قوله (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُم) يقول : لاتنحلوا الصغار .

وقال آخرون : بل عنى بذلك السفهاء من ولد الرجل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا سعيد بن يحيى الأمويّ ، قال : أخبرنا ابن المبارك ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن أبي مالك ، قوله (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ) قال : لاتعط ولدك السفيه مالك فيفسده ، الذي هو قوامك بعدالله تعالى .

حدثنا محمد بن سعد ، قال : ثني أبي ، قال : ثني عمي ، قال : ثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُم) يقول : لاتسلط السفيه من ولدك ، فكان ابن عباس يقول : نزل ذلك في السفهاء ، وليسوا اليتامى من ذلك في شيء .

حدثنا محمد بن المثنى ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة ، عن فراس ، عن الشعبيّ ، عن أبي بردة ، عن أبي موسى الأشعري أنه قال : ثلاثة يدعون الله فلا يستجيب لهم : رجل كانت له امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها ، ورجل أعطى ماله سفيها ، وقد قال الله (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُم) ، ورجل كان له على رجل دين ، فلم يُشهد عليه » .

حدثنا يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : سمعت ابن زيد (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُم) . . . الآية ، قال : لا تعط السفيه من ولدك رأسا ولا حائطا ، ولا شيئا هو لك قيِّما من مالك .

وقال آخرون : بل السفهاء فى هذا الموضع : النساء خاصة ، دون غيرهم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، قال : ثنا المعتمر بن سليمان ، عن أبيه ، قال : زعم حضرمىّ أن رجلا عَمَد ، فدفع ماله إلى امرأته ، فوضعته فى غير الحقّ ، فقال الله تبارك وتعالى (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُم) .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن حميد ، عن مجاهد (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُم) قال : النساء .

حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : ثنا سفيان ، عن الثورىّ ، عن حميد ، عن قيس ، عن مجاهد فى قوله : (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُم) قال : هنّ النساء .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله تبارك وتعالى (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِى جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا) قال : نهى الرجال أن يعطوا النساء أموالهم وهنّ سفهاء ، مَنْ كنّ : أزواجا أو أمهات أو بنات .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الأعلى ، قال : ثنا هشام ، عن الحسن ، قال : المرأة .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا جويبر ، عن الضحاك ، قال : النساء من أسفه السفهاء .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا سويد ، قال : أخبرنا ابن المبارك ، عن أبى عوانة ، عن عاصم ، عن مورق ، قال : مرّت امرأة بعبد الله بن عمر لها شارة وهيئة ، فقال لها ابن عمر (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِى جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا) .

قال أبو جعفر : والصواب من القول فى تأويل ذلك عندنا : أن الله جلّ ثناؤه عمّ بقوله : (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُم) فلم يَخْصُصْ سفيها دون سفيه ، فغير جائز لأحد أن يؤتى سفيها ماله صبيا ، صغيرا كان أو رجلا كبيرا ذكرا كان أو أنثى ، والسفيه الذى لا يجوز لوليه أن يؤتيه ماله ، هو المستحق الحجر بتضييعه ماله ، وفساده وإفساده ، وسوء تدبيره ذلك .

وإنما قلنا ما قلنا من أن المعنىّ بقوله (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ) هو من وصفنا دون غيره ، لأن الله جلّ ثناؤه ، قال فى الآية التى تتلوها (وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ ، فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ) فأمر أولياء اليتامى بدفع أموالهم إليهم ، إذا بلغوا النكاح ، وأونس منهم الرشد ، وقد يدخل فى اليتامى الذكور والإناث ، فلم يخصص بالأمر بدفع مالهم من الأموال ، الذكور

دون الإناث ، ولا الإناث دون الذكور ، وإذا كان ذلك كذلك ، فمعلوم أن الذين أمر أولياؤهم بدفعهم أموالَهم إليهم ، وأجيز للمسلمين مبايعتهم ومعاملتهم ، غير الذين أمر أولياؤهم بمنعهم أموالهم ، وحظر على المسلمين مداينتهم ومعاملتهم ، فإذ كان ذلك كذلك ، فبيّن أن السفهاء الذين نهى الله المؤمنين أن يؤتوهم أموالهم ، هم المستحقون الحجر ، والمستوجبون أن يولى عليهم أموالهم ، وهم من وصفنا صفتهم قبلُ ، وأن من عدا ذلك ، فغير سفيه ، لأن الحجر لايستحقه من قد بلغ ، وأونس رشده . وأما قول من قال : عنى بالسفهاء النساء خاصة ، فإنه جعل اللغة على غير وجهها ، وذلك أن العرب لاتكاد تجمع فعيلا على فعلاء ، إلا فى جمع الذكور ، أو الذكور والإناث ؛ وأما إذا أرادوا جمع الإناث خاصة لاذكران معهم ، جمعوه على فعائل وفعيلات ، مثل غريبة تجمع غرائب وغريبات ؛ فأما الغُرباء فجمع غريب .

واختلف أهل التأويل فى تأويل قوله : (أَمْوَالَكُمُ الَّتِى جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِياماً ، وَارْزُقُوهُمْ فِيها وَاكْسُوهُمْ) فقال بعضهم : عنى بذلك : لاتؤتوا السفهاء من النساء والصبيان على ماذكرنا : من اختلاف من حكينا قوله قبل أيها الرشداء أموالكم التى تملكونها ، فتسلطوهم عليها ، فيفسدوها ويضيعوها ، ولكن ارزقوهم أنتم منها ، إن كانوا ممن تلزمكم نفقته ، واكسوهم ، وقولوا لهم قولا معروفا ؛ وقد ذكرنا الرواية عن جماعة ممن قال ذلك : منهم أبو موسى الأشعرىّ ، وابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، وحَضْرَمِىّ ، وسنذكر قول الآخرين الذين لم يذكر قولهم فيما مضى قبل .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (وَلا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِى جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِياماً وَارْزُقُوهُمْ فِيها) يقول : لاتعط امرأتك وولدك مالك ، فيكونوا هم الذين يقومون عليك ، وأطعمهم من مالك واكسهم .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس (وَلا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِى جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِياماً ، وَارْزُقُوهُمْ فِيها ، وَاكْسُوهُمْ ، وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً) يقول : لاتسلط السفيه من ولدك على مالك ، وأمره أن يرزقه منه ويكسوه .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (وَلا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوَالَكُمْ) قال : لاتعط السفيه من مالك شيئا هولك .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : ولا تؤتوا السفهاء أموالهم ، ولكنه أضيف إلى الولاة ، لأنهم قوّامها ومدبّروها .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا سويد بن نصر ، قال : ثنا ابن المبارك ، عن شريك ، عن سالم ، عن سعيد ابن جبير فى قوله (وَلا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوَالَكُمْ)[1] وقد يدخل فى قوله (وَلا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوَالَكُمْ) أموال المنهيين عن أن يؤتوهم ذلك ، وأموال السفهاء ، لأن قوله (أَمْوَالَكُمْ) غير مخصوص

(١) كذا بالنسخ ، والذى فى الدر عن سعيد بن جبير فى قوله « ولا تؤتوا السفهاء » قال : هم اليتامى . « أموالكم » قال : أموالهم ، بمنزلة قوله « ولا تقتلوا أنفسكم » اهـ . وبه يتم دليل الدعوى .

منها بعض الأموال، دون بعض، ولا تمنع العرب أن تخاطب قوما خطابا، فيخرّج الكلام: بعضه خبر عنهم، وبعضه عن غيب ، وذلك نحو أن يقولوا : أكلتم يا فلان أموالكم بالباطل ، فيخاطب الواحد خطاب الجمع ، بمعنى : أنك وأصحابك أو وقومك ، أكلتم أموالكم ، فكذلك قوله (وَلا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ) معناه : لاتؤتوا أيها الناس سفهاءكم أموالكم ، التي بعضها لكم، وبعضها لهم ، فتضيعوها ، وإذ كان ذلك كذلك ، وكان الله تعالى ذكره قد عمّ بالنهى عن إيتاء السفهاء الأموال كلها ، ولم يخصص منها شيئا دون شيء ، كان بيّنا بذلك أن معنى قوله (الَّتِى جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِياماً) إنما هو التي جعل الله لكم ولهم قياماً ، ولكن السفهاء دخل ذكرهم فى ذكر المخاطبين بقوله : لكم .

وأما قوله (الَّتِى جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِياماً) فإن قياماً وقِيَما وقِوَاما فى معنى واحد، وإنما القيام أصله القِوَام ، غير أن القاف التي قبل الواو لما كانت مكسورة ،جعلت الواو ياء لكسرة ما قبلها ، كما يقال : صمت صياما ، وحلت حيالا ، ويقال منه : فلان قِوَام أهل بيته ، وقيام أهل بيته .

واختلفت القرّاء فى قراءة ذلك ، فقرأ بعضهم (الَّتِى جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَما) بكسر القاف وفتح الياء بغير ألف . وقرأه آخرون (قِياما) بألف . قال محمد : والقراءة التي نختارها (قِياما) بالألف ، لأنها القراءة المعروفة فى قراءة أمصار الإسلام ، وإن كانت الأخرى غير خطأ ولا فاسد ، وإنما اخترنا ما اخترنا من ذلك ، لأن القراءات إذا اختلفت فى الألفاظ ، واتفقت فى المعانى ،فأعجبها إلينا ما كان أظهر وأشهر فى قراءة أمصار الإسلام .

وبنحو الذى قلنا فى تأويل قوله (قِياماً) قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا سعيد بن يحيي الأموى ، قال ثنا ابن المبارك ، عن إسماعيل بن أبى خالد ، عن أبى مالك : (أَمْوَالَكُمُ الَّتِى جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِياماً) : التي هى قِوَامك بعد الله .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال: ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (أَمْوَالَكُمُ الَّتِى جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِياماً) فإن المال هو قِيَام الناس قِوَام معايشهم ، يقول : كنت أنت قيم أهلك ، فلا تعط امرأتك مالك ، فيكونوا هم الذين يقومون عليك .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثنى معاوية بن صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، قوله (وَلا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِى جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِياماً) يقول الله سبحانه : لاتعمد إلى مالك ، وما خوّلك الله ، وجعله لك معيشة ، فتعطيه امرأتك أو بنيك ، ثم تنظر إلى ما فى أيديهم ، ولكن أمسك مالك وأصلحه ، وكن أنت الذى تنفق عليهم فى كسوتهم ورزقهم ومؤنتهم . قال : وقوله : (قِياماً) بمعنى : قِوَامكم فى معايشكم .

حدثنا الحسن بن يحيي ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن الحسن قوله (قِياماً) قال : قيام عيشك .

حدثني المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا بكر بن شرود ، عن ابن مجاهد : أنه قرأ (الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِياماً) بالألف ، يقول : قيام عيشك .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِياماً) قال : لاتُعط السفيه من ولدك شيئا هو لك قِيَم من مالك .

وأما قوله (وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ) فإن أهل التأويل اختلفوا فى تأويله ؛ فأما الذين قالوا : إنما عنى الله جلّ ثناؤه بقوله (وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ) أولياء السفهاء ، لاأموال السفهاء ، فإنهم قالوا : معنى ذلك : وارزقوا أيها الناس سفهاءكم من نسائكم وأولادكم ، من أموالكم طعامهم ، وما لابدّ لهم منه ، من مؤنهم وكسوتهم . وقد ذكرنا بعض قائلي ذلك فيما مضى ، وسنذكر من لم يُذْكَر من قائليه .

حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، قال : أمروا أن يرزقوا سفهاءهم ، من أزواجهم وأمهاتهم وبناتهم من أموالهم .

حدثني المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس قوله (وَارْزُقُوهُمْ) قال : يقول : أنفقوا عليهم .

حدثني محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ) يقول : أطعمهم من مالك واكسهم .

وأما الذين قالوا : إنما عنى بقوله (وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ) أموال السفهاء ألا يؤتيهموها أولياؤهم ، فإنهم قالوا : معنى قوله : (وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ) : وارزقوا أيها الولاة ولاة أموال السفهاء ، سفهاءكم من أموالهم ، طعامهم وما لابدّ لهم من مؤنهم وكسوتهم ، وقد مضى ذكر ذلك .

قال أبوجعفر : وأما الذى نراه صوابا فى قوله : (وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ) من التأويل ، فقد ذكرناه ، ودللنا على صحة ما قلنا فى ذلك ، بما أغنى عن إعادته .

فتأويل قوله : (وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ) على التأويل الذى قلنا فى قوله (وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ) وأنفقوا على سفهائكم من أولادكم ونسائكم الذين تجب عليكم نفقتهم : من طعامهم وكسوتهم فى أموالكم ، ولا تسلطوهم على أموالكم فيهلكوها ، وعلى سفهائكم منهم ، ممن لاتجب عليكم نفقته ، ومن غيرهم الذين تَلُون أنتم أمورهم من أموالهم ، فيما لابدّ لهم من مؤنهم : فى طعامهم وشرابهم وكسوتهم . لأن ذلك هو الواجب من الحكم فى قول جميع الحجة ، لاخلاف بينهم فى ذلك مع دلالة ظاهر التنزيل على ماقلنا فى ذلك .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه (وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً) :

قال أبو جعفر : اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك ، فقال بعضهم : معنى ذلك : عِدُوهم عِدة جميلة من البرّ والصلة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا) قال : أُمروا أن يقولو لهم قولا معروفا فى البرّ والصلة ، يعنى النساء ، وهن السفهاء عنده .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد (وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا) قال : عدةً تَعِدوهم .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : ادعوا لهم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله : (وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا) إن كان ليس من ولدك ، ولا ممن يجب عليك أن تنفق عليه ، فقل لهم قولا معروفا ، قل لهم : عافانا الله وإياك ، وبارك الله فيك .

قال أبو جعفر : وأولى هذه الأقوال فى ذلك بالصحة : ماقاله ابن جريج ، وهو أن معنى قوله : (وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا) : أى قولوا يامعشر ولاة السفهاء ، قولا معروفا للسفهاء ، إن صلحتم ورشدتم سلمنا إليكم أموالكم ، وخلينا بينكم وبينها ، فاتقوا الله فى أنفسكم وأموالكم ، وما أشبه ذلك من القول ، الذى فيه حثّ على طاعة الله ، ونهى عن معصيته .

القول فى تأويل قوله جلّ ثناؤه

وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ ، فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ، وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ، وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ، وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ، فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ، وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا (٦)

يعنى تعالى ذكره بقوله (وَابْتَلُوا الْيَتَامَى) : واختبروا عقول يتاماكم فى أفهامهم ، وصلاحهم فى أديانهم ، وإصلاحهم أموالهم .

كما حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة والحسن فى قوله (وَابْتَلُوا الْيَتَامَى) قالا : يقول : اختبروا اليتامى .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ : أما ابتلوا اليتامى : فجرّبوا عقولهم .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله (وَابْتَلُوا الْيَتَامَى) قال : عقولهم .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية بن صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، قوله (وَابْتَلُوا الْيَتَامَى) قال : اختبروهم .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد في قوله : (وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ) قال : اختبروه في رأيه ، وفي عقله ، كيف هو؟ إذا عرف أنه قد أُنس منه رشد ، دفع إليه ماله ، قال : وذلك بعد الاحتلام .

قال أبو جعفر : وقد دللنا فيما مضى قبل ، على أن معنى الابتلاء : الاختبار ، بما فيه الكفاية عن إعادته .

وأما قوله (إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ) فإنه يعني : إذا بلغوا الحلُم .

كما حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد في قوله : (حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ) : حتى إذا احتلموا .

حدثني عليّ بن داود ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثني معاوية ، عن علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس (حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ) قال : عند الحلم .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد في قوله : (حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ) قال : الحلُم .

القول في تأويل قوله (فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا) :

يعني بقوله (فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا) : فإن وجدتم منهم وعرفتم .

كما حدثني المثنى ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثني معاوية بن صالح ، عن عليّ بن أبي طلحة ، عن ابن عباس (فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا) قال : عرفتم منهم ، يقال : آنست من فلان خيرا ، وقرئ بمدّ الألف إيناسا ، وأنست به آنس أنسا بقصر ألفها : إذا ألِفه ، وقد ذكر أنها في قراءة عبد الله (فَإِنْ أَحْسَيْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا) بمعنى : أحسستم : أي وجدتم .

واختلف أهل التأويل في معنى الرشد ، الذي ذكره الله في هذه الآية ، فقال بعضهم : معنى الرشد في هذا الموضع : العقل والصلاح في الدين .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السديّ (فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا) عقولاً وصلاحا .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا) يقول : صلاحا في عقله ودينه .

وقال آخرون : معنى ذلك : صلاحا في دينهم ، وإصلاحا لأموالهم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثني أبي ، عن مبارك ، عن الحسن ، قال : رشدا في الدين وصلاحا وحفظا للمال .

حدثني المثنى ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثني معاوية ، عن عليّ بن أبي طلحة ، عن ابن عباس (فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا) في حالهم ، والإصلاح في أموالهم .

وقال آخرون : بل ذلك العقل خاصة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن منصور ، عن مجاهد ، قال : لا ندفع إلى اليتيم ماله ، وإن أخذ بلحيته ، وإن كان شيخا ، حتى يُؤْنس منه رشده : العقل .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا يحيى ، عن سفيان ، عن منصور ، عن مجاهد (فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا) قال : العقل .

حدثني يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا أبو شُبْرُمة ، عن الشعبيّ ، قال : سمعته يقول : إن الرجل ليأخذ بلحيته وما بلغ رشده .

وقال آخرون : بل هو الصلاح ، والعلم بما يصلحه .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن ابن جريج (فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا) قال : صلاحا ، وعلما بما يصلحه .

قال أبو جعفر : وأولى هذه الأقوال عندى بمعنى الرشد فى هذا الموضع : العقل وإصلاح المال ، لإجماع الجميع على أنه إذا كان كذلك لم يكن ممن يستحقّ الحجر عليه فى ماله ، وحَوْز ما فى يده عنه ، وإن كان فاجرا فى دينه . وإذ كان ذلك إجماعا من الجميع ، فكذلك حكمه إذا بلغ ، وله مال فى يدى وصىّ : أبيه ، أو فى يد حاكم قد ولى ماله لطفولته ، واجب عليه تسليم ماله إليه ، إذا كان عاقلا بالغا ، مصلحا لماله ، غير مفسد ، لأن المعنى الذى به يستحقّ أن يولى على ماله الذى هو فى يده ، هو المعنى الذى به يستحقّ أن يمنع يده من ماله الذى هو فى يد ولىّ ، فإنه لا فرق بين ذلك ، وفى إجماعهم على أنه غير جائز حيازة ما فى يده فى حال صحة عقله ، وإصلاح ما فى يده ، الدليل الواضح على أنه غير جائز منع يده مما هو له فى مثل ذلك الحال ، وإن كان قبل ذلك فى يد غيره ، لا فرق بينهما ، ومن فرق بين ذلك عكس عليه القول فى ذلك ، وسئل الفرق بينهما من أصل أو نظير ، فلن يقول فى أحدهما قولا إلا أُلزم فى الآخر مثله . فإن كان ما وصفنا من الجميع إجماعا ، فبيّن أن الرشد الذى به يستحقّ اليتيم إذا بلغ ، فأونس منه ، دفع ماله إليه ، ما قلنا من صحة عقله ، وإصلاح ماله .

القول فى تأويل قوله جلّ ثناؤه (فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ، وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا) :

يعنى بذلك تعالى ذكره : ولاة أموال اليتامى ، يقول الله لهم : فإذا بلغ أيتامكم الحلُم ، فآنستم منهم عقلا وإصلاحا لأموالهم ، فادفعوا إليهم أموالهم ، ولا تحبسوها عنهم .

وأما قوله (وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا) يعنى : بغير ما أباحه الله لكم .

كما حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة والحسن (وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا) يقول : لا تسرف فيها .

حدثنا محمد بن الحسن ، قال : ثنا أحمد بن مفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا) قال : يسرف فى الأكل ، وأصل الإسراف : تجاوز الحدّ المباح إلى مالم يبح ، وربما كان ذلك فى الإفراط ، وربما كان فى التقصير ، غير أنه إذا كان فى الإفراط ، فاللغة المستعملة فيه أن يقال : أسرف يُسْرِف إسرافا ، وإذا كان كذلك فى التقصير ، فالكلام منه : سَرِفَ يَسْرَفُ سَرَفا ، يقال : مررت بكم فسرِفتكم ، يراد منه : فسهوت عنكم وأخطأتكم ، كما قال الشاعر :

أَعْطَوا هُنَيْدَةَ يَحْدُوها ثَمَانِيَةٌ ما فِي عَطائِهِم مَنٌّ وَلا سَرَفُ [1]

يعنى بقوله : ولا سَرَف : لاخطأ فيه ، يراد به : أنهم يصيبون مواضع العطاء ، فلا يخطئونها .

القول فى تأويل قوله (وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا) :

يعنى جلّ ثناؤه بقوله (وَبِدَارًا) ومبادرة ، وهو مصدر من قول القائل : بادرت هذا الأمر مبادرة وبدارا ، وإنما يعنى بذلك جلّ ثناؤه : ولاة أموال اليتامى ، يقول لهم : لاتأكلوا أموالهم إسرافا ، يعنى : ما أباح الله لكم أكله ، ولا مبادرة منكم بلوغهم ، وإيناس الرشد منهم ، حذرا أن يبلغوا فيلزمكم تسليمه إليهم

كما حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثنى معاوية بن صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، قوله : (إِسْرَافًا وَبِدَارًا) يعنى : أكل مال اليتيم مبادرا أن يبلغ ، فيحول بينه وبين ماله .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة والحسن (وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا) يقول : لاتسرف فيها ، ولا تبادر .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن مفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (وَبِدَارًا) تبادرا أن يكبروا ، فيأخذوا أموالهم .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال: قال ابن زيد فى قوله: (إِسْرَافًا وَبِدَارًا) قال : هذه لولىّ اليتيم خاصة ، جعل له أن يأكل معه ، إذا لم يجد شيئا يضع يده معه ، فيذهب بوجهه ، يقول : لا أدفع إليه ماله ، وجعلت تأكله ، تشتهى أكله ، لأنك إن لم تدفعه إليه لك فيه نصيب ، وإذا دفعته إليه ، فليس لك فيه نصيب . وموضع « أن » فى قوله: أن يكبروا نصب بالمبادرة ، لأن معنى الكلام : لاتأكلوها مبادرة كِبَرِهم .

القول فى تأويل قوله : (وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ، وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ) :

يعنى بقوله جلّ ثناؤه (وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا) من ولاة أموال اليتامى على أموالهم (فَلْيَسْتَعْفِفْ) بماله عن أكلها بغير الإسراف والبدار أن يكبروا ، بما أباح الله له أكلها به .

---

(١) البيت لجرير (كما فى لسان العرب : هند) . والهنيدة : اسم للمائة من الإبل . ويحدوها : يسوقها ثمانية أعبد . والمن : التذكير بالعطاء على جهة الفخر به . والسرف : مجاوزة الحد فى الإنفاق ، أو الخطأ فى الإنفاق ، ووضع الشىء فى غير موضعه (وانظر ديوان جرير طبعة الصاوى ص ٣٨٩) .

كما حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا أبو أحمد ، قال : ثنا سفيان ، عن الأعمش وابن أبى ليلى ، عن الحكم ، عن مقسم ، عن ابن عباس فى قوله (وَمَنْ كانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ) قال : لغناه من ماله ، حتى يستغنى عن مال اليتيم .

وبه قال : حدثنا سفيان ، عن منصور ، عن إبراهيم فى قوله (وَمَنْ كانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ) بغناه

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا ابن علية ، عن ليث ، عن الحكم ، عن مقسم ، عن ابن عباس فى قوله (وَمَنْ كانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ، وَمَنْ كانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالمَعْرُوفِ) قال : من مال نفسه ، ومن كان فقيرا منهم إليها محتاجا ، فليأكل بالمعروف .

قال أبو جعفر : ثم اختلف أهل التأويل فى المعروف الذى أذن الله جلّ ثناؤه لولاة أموالهم أكلها به ، إذا كانوا أهل فقر وحاجة إليها ، فقال بعضهم : ذلك هو القرض يستقرضه من ماله ، ثم يقضيه .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا وكيع ، عن سفيان وإسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن حارثة بن مصرف ، قال : قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إنى أنزلت مال الله تعالى منى بمنزلة مال اليتيم ، إن استغنيت استعففت ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف ، فإذا أيسرت قضيت .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا ابن عطية ، عن زهير ، عن العلاء بن المسيب ، عن حماد ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى قوله (وَمَنْ كانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالمَعْرُوفِ) قال : هو القَرْض .

حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، قال : ثنا المعتمر ، قال : سمعت يونس ، عن محمد بن سيرين ، عن عبيدة السَّلْمانىّ ، أنه قال فى هذه الآية (وَمَنْ كانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ، وَمَنْ كانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالمَعْرُوفِ) قال : الذى ينفق من مال اليتيم يكون عليه قرضا .

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا ابن علية ، قال : ثنا سلمة بن علقمة ، عن محمد بن سيرين ، قال : سألت عبيدة ، عن قوله (وَمَنْ كانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ، وَمَنْ كانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالمَعْرُوفِ) قال : إنما هو قرض ، ألا ترى أنه قال (فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ) قال : فظننت أنه قالها برأيه .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا هشام ، عن محمد ، عن عبيدة فى قوله : (وَمَنْ كانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالمَعْرُوفِ) وهو عليه قرض .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا هشيم ، عن سلمة ، عن علقمة ، عن ابن سيرين ، عن عبيدة فى قوله : (وَمَنْ كانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالمَعْرُوفِ) قال : المعروف : القرض ، ألا ترى إلى قوله (فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ، فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ) .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : ثنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن أيوب ، عن ابن سيرين ، عن عبيدة ، مثل حديث هشام .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثنى معاوية بن صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس (وَمَنْ كانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالمَعْرُوفِ) يعنى : القرض .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس (وَمَنْ كانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ، وَمَنْ كانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالمَعْرُوفِ) يقول : إن كان غنيا فلا يحلّ له من مال اليتيم أن يأكل منه شيئا ، وإن كان فقيرا فليستقرض منه ، فإذا وجد ميسرة فليعطه ما استقرض منه ، فذلك أكله بالمعروف .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا أبو إدريس ، قال : سمعت أبى يذكر عن حماد ، عن سعيد بن جبير ، قال : يأكل قرضا بالمعروف .

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا حجاج ، عن سعيد بن جبير ، قال : هو القرض ، ما أصاب منه من شىء قضاه إذا أيسر ، يعنى قوله (وَمَنْ كانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ، وَمَنْ كانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالمَعْرُوفِ) .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا ابن علية ، عن هشام الدستوائى ، قال : ثنا حماد ، قال : سألت سعيد بن جبير ، عن هذه الآية (وَمَنْ كانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالمَعْرُوفِ) قال : إن أخذ من ماله قدر قُوته قرضا ، فإن أيسر بعدُ قضاه ، وإن حضره الموت ولم يوسر تحلله من اليتيم ، وإن كان صغيرا تحلله من وليه .

حدثنا حميد بن مسعدة ، قال: ثنا بشر بن المفضل ، قال: ثنا شعبة ، عن حماد ، عن سعيد بن جبير ، فليأكل قرضا .

حدثنا محمد بن المثنى ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة ، عن حماد : عن سعيد بن جبير (وَمَنْ كانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالمَعْرُوفِ) قال : هو القرض .

حدثنا ابن حميد ، قال: ثنا حكام ، عن عمرو بن أبى قيس ، عن عطاء بن السائب ، عن الشعبىّ (وَمَنْ كانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ، وَمَنْ كانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالمَعْرُوفِ) قال : لا يأكله إلا أن يضطرّ إليه ، كما يضطرّ إلى الميتة ، فإن أكل منه شيئا قضاه .

حدثنا حميد بن مسعدة ، قال : ثنا بشر بن المفضل ، قال : ثنا شعبة ، عن عبد الله بن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قوله (فَلْيَأْكُلْ بِالمَعْرُوفِ) قال : قرضا .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة ، عن عبد الله بن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (فَلْيَأْكُلْ بِالمَعْرُوفِ) قال : سَلَفاً من مال يتيمه .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا الثورىّ ، عن ابن أبى نجيح ، عن

مجاهد ، وعن حماد ، عن سعيد بن جبير (فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ) قالا : هو القرض ، قال الثورىّ ، وقاله الحكم أيضا : ألا ترى أنه قال : (فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ) .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا هشيم ، قال : ثنا حجاج ، عن مجاهد ، قال : هو القَرْض ، ما أصاب منه من شىء قضاه إذا أيسر ، يعنى (وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ) .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن أبى جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية (فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ) قال : القرض ، ألا ترى إلى قوله : (فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ) .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن سفيان ، عن عاصم ، عن أبى وائل ، قال : قرضًا .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن منصور ، عن الحكم ، عن سعيد بن جبير ، قال : إذا احتاج الولىّ أو افتقر ، فلم يجد شيئا ، أكل من مال اليتيم ، وكتبه ، فإن أيسر قضاه ، وإن لم يوسر حتى تحضره الوفاة ، دعا اليتيم ، فاستحلّ منه ما أكل .

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا ابن علية ، قال : أخبرنا ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله (وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ) من مال اليتيم بغير إسراف ، ولا قضاءَ عليه فيما أكل منه .

واختلف قائلو هذا القول ، فى معنى أكل ذلك بالمعروف ، فقال بعضهم : أن يأكل من طعامه بأطراف الأصابع ، ولا يلبس منه .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا أبو أحمد ، قال : ثنا سفيان ، عن السدىّ ، قال : أخبرنى من سمع ابن عباس يقول : (وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ) قال : بأطراف أصابعه .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا عبد الله الأشجعىّ ، عن سفيان ، عن السدىّ ، عمن سمع ابن عباس يقول ، فذكر مثله .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن مفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ، وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ) يقول : فمن كان غنيا من ولىّ مال اليتيم ، فليستعفف عن ماله ، ومن كان فقيرا من ولىّ مال اليتيم ، فليأكل معه بأصابعه ، لا يسرف فى الأكل ، ولا يلبس .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا حرمىّ بن عمارة ، قال : ثنا شعبة ، عن عمارة ، عن عكرمة فى مال اليتيم : يدك مع أيديهم ، ولا تتخذ منه قَلَنْسُوة .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا ابن عيينة ، عن عمرو بن دينار ، عن عطاء وعكرمة ، قالا : تضع يدك مع يده .

وقال آخرون : بل المعروف فى ذلك ، أن يأكل ما يسدّ جوعه ، ويلبس ما وارى العورة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا مغيرة عن إبراهيم ، قال : إن المعروف ليس يلبس الكتان ولا الحُلل ، ولكن ما سدّ الجوع ، ووارى العورة .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن مغيرة ، عن إبراهيم ، قال : كان يقال : ليس المعروف يلبس الكتّان والحلل ، ولكن المعروف ما سدّ الجوع ، ووارى العورة .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا الثورىّ ، عن مغيرة ، عن إبراهيم نحوه .

حدثنا علىّ بن سهل ، قال : ثنا الوليد بن مسلم ، قال : ثنا أبومَعْبد ، قال : سئل مكحول عن ولىّ اليتيم ، ما أكله بالمعروف إذا كان فقيرا ؟ قال : يده مع يده ، قيل له : فالكسوة ؟ قال : يلبس من ثيابه ، فأما أن يتخذ من ماله مالاً لنفسه ، فلا .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا الأشجعىّ ، عن سفيان ، عن مغيرة ، عن إبراهيم فى قوله (فَلْيَأْكُلْ بِالمَعْرُوفِ) قال : ما سدّ الجوع ، ووارى العورة ، أما أنه ليس لبوس الكتان والحُلل .

وقال آخرون : بل ذلك المعروف : أكل تمره ، وشرب رِسْل ماشيته ، بقيامه على ذلك ، فأما الذهب والفضة فليس له أخذ شيء منهما إلا على وجه القرض .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن الزهرىّ ، عن القاسم ابن محمد ، قال : جاء رجل إلى ابن عباس فقال : إن فى حجرى أموالَ أيتام ، وهو يستأذنه أن يصيب منها . فقال ابن عباس : ألست تبغى ضالَّتها ، قال : بلى ، قال : ألست تَهْنَأ جَرْباها ؟ قال : بلى ، قال : ألست تَلِيط[1] حياضها؟ قال : بلى ، قال : ألست تَفْرُط عليها يوم ورودها ؟ قال : بلى ، قال : فأصب من رِسْلها ، يعنى : من لبنها .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا الثورىّ ، عن يحيى بن سعيد ، عن القاسم بن محمد ، قال : جاء أعرابىّ إلى ابن عباس ، فقال : إن فى حجرى أيتاما ، وإن لهم إبلاً ، ولى إبل ، وأنا أمنح من إبلى فقراء ، فماذا يحلّ لى من ألبانها ؟ قال : إن كنت تبغى ضالَّتها ، وتهنأ جَرْباها ، وتلوط[1] حوضها ، وتسعى عليها ، فاشرب غير مُضِرّ بنسل ، ولا ناهك فى الحلب .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الوهاب ، قال : ثنا داود ، عن أبى العالية ، فى هذه الآية (وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ، وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالمَعْرُوفِ) قال : من فَضْل الرِّسْل والثمرة .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا عبدالأعلى ، قال : ثنا داود ، عن أبى العالية ، فى والى مال اليتيم ، قال : يأكل من رسل الماشية ، ومن الثمرة لقيامه عليه ، ولا يأكل من المال ، وقال : ألا ترى أنه قال : (فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ) .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا ابن إدريس ، قال : سمعت داود ، عن رُفيع أبى العالية[2] ، قال :

---

(١) لاط الحوض يلوطه ، وفى رواية يليطه : أصلحه وملسه بالطين .

(٢) رفيع بن مهران ، كنيته أبوالعالية . وفى الأصل : عن أبى العالية .

رخص لولىّ اليتيم أن يصيب من الرِّسْل، ويأكل من الثمرة ؛ وأما الذهب والفضة فلا بدّ أن تردّ ، ثم قرأ (فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ) ألا ترى أنه قال : لابدّ من أن يدفع .

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا عوف ، عن الحسن أنه قال : إنما كانت أموالهم أدخال النخل والماشية ، فرخص لهم إذا كان أحدهم محتاجا أن يصيب من الرِّسْل .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا إسماعيل بن سالم ، عن الشعبىّ فى قوله (وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ) قال : إذا كان فقيرا أكل من التمر ، وشرب من اللبن ، وأصاب من الرِّسْل .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ) ذكر لنا أن عمّ ثابت بن رفاعة ، وثابت يومئذ يتيم فى حجره من الأنصار ، أتى نبىّ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يانبىّ الله ، إن ابن أخى يتيم فى حجرى ، فما يحلّ لى من ماله ؟ قال : « أَنْ تَأْكُلَ بِالْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَقِيَ مَالَكَ بِمَالِهِ ، وَلَا تَتَّخِذَ مِنْ مَالِهِ وَفْرًا »، وكان اليتيم يكون له الحائط من النخل ، فيقوم وليه على صلاحه وسقيه ، فيصيب من ثمرته ، أو تكون له الماشية ، فيقوم وليه على صلاحها ، أو يلى علاجها ومؤنتها فيصيب من جذاذها وعوارضها ورِسْلها ، فأما رقاب المال وأصول المال ، فليس له أن يستهلكه .

حُدثت عن الحسين بن الفرج ، قال : سمعت أبا معاذ ، يقول : أخبرنا عبيد بن سليمان ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ) يعنى : ركوب الدابة وخدمة الخادم ، فإن أخذ من ماله قرضا فى غنى ، فعليه أن يؤدّيه ، وليس له أن يأكل من ماله شيئا .

وقال آخرون منهم : له أن يأكل من جميع المال إذا كان يلى ذلك ، وإن أتى على المال ولا قضاء عليه .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا إسماعيل بن صبيح ، عن أبى إدريس ، عن يحيى بن سعيد وربيعة جميعا ، عن القاسم بن محمد ، قال : سئل عمر بن الخطاب رضى الله عنه عما يصلح لولىّ اليتيم ؟ قال : إن كان غنيا فليستعفف ، وإن كان فقيرا فليأكل بالمعروف .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنا يحيى بن أيوب ، عن محمد بن عجلان ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، أن عمر بن الخطاب كان يقول : يحلّ لولىّ الأمر ما يحلّ لولىّ اليتيم ، من كان غنيا فليستعفف ، ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف .

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا الفضل بن عطية ، عن عطاء بن أبى رباح فى قوله : (وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ) قال : إذا احتاج فليأكل بالمعروف ، فإن أيسر بعد ذلك فلا قضاء عليه .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا يحيى بن واضح ، قال : ثنا الحسين بن واقد ، عن يزيد النحوىّ ، عن

عكرمة والحسن البصرىّ ، قالا : ذكر الله تبارك وتعالى مال اليتامى ، فقال : (وَمَنْ كانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ، وَمَنْ كانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بالمَعْرُوفِ) ومعروف ذلك : أن يتقىَ الله فى يتيمه .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا حكام ، عن عمرو ، عن منصور ، عن إبراهيم : أنه كان لايرى قضاءً على ولىّ اليتيم إذا أكل وهو محتاج .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن منصور ، عن مغيرة ، عن حماد ، عن إبراهيم (فَلْيَأْكُلْ بالمَعْرُوفِ) فى الوصىّ ، قال : لاقضاء عليه .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة ، عن منصور ، عن إبراهيم أنه قال فى هذه الآية : (وَمَنْ كانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بالمَعْروفِ) قال : إذا عمل فيه ولىّ اليتيم أكل بالمعروف .

حدثنا بشر بن محمد ، قال : ثنا يزيد بن زُرَيع ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قال : كان الحسن يقول : إذا احتاج ، أكل بالمعروف من المال ، طُعمة من الله له .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا ابن عيينة ، عن عمرو بن دينار ، عن الحسن البصرىّ ، قال : قال رجل للنبىّ صلى الله عليه وسلم : إن فى حِجرى يتيما ، أفأضربه ؟ قال : « فِيما كُنْتَ ضَارِباً مِنْهُ وَلَدَكَ . قال : أفأصيب من ماله ؟ قال : بالمَعْرُوفِ غيرَ مُتأثِّلٍ مالاً ، وَلا وَاقٍ مالَكَ بِمالِهِ » .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا الثورىّ ، عن ابن أبى نجيح ، عن الزبير بن موسى ، عن الحسن البصرىّ ، مثله .

حدثنا محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن عطاء ، أنه قال : يضع يده مع أيديهم ، فيأكل معهم . كقَدْر خدمته ، وقدر عمله .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة ، قالت : والى اليتيم إذا كان محتاجا يأكل بالمعروف لقيامه بماله .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : وسألته عن قول الله تبارك وتعالى : (وَمَنْ كانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ، وَمَنْ كانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بالمَعْرُوفِ) قال : إن استغنى كفّ ، وإن كان فقيرا أكل بالمعروف ، قال : أكل بيده معهم ، لقيامه على أموالهم ، وحفظه إياها ، يأكل مما يأكلون منه ، وإن استغنى كفّ عنه ، ولم يأكل منه شيئا .

قال أبو جعفر : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب ، قول من قال : بالمعروف الذى عناه الله تبارك وتعالى فى قوله (وَمَنْ كانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بالمَعْرُوفِ) : أكل مال اليتيم عند الضرورة والحاجة إليه ، على وجه الاستقراض منه ، فأما على غير ذلك الوجه ، فغير جائز له أكله ، وذلك أن الجميع مجمعون على أن ولى اليتيم لايملك من مال يتيمه إلا القيام بمصلحته ؛ فلما كان إجماعا منهم أنه غير مالكه ، وكان غير جائز لأحد أن يستهلك مال أحد غيره ، يتيما كان ربّ المال أو مدركاً رشيدا ، وكان عليه ، إن تعدّى

فاستهلكه بأكل أوغيره، ضمانه لمن استهلكه عليه بإجماع من الجميع ، وكان والى اليتيم سبيله سبيل غيره، فى أنه لايملك مال يتيمه ، كان كذلك حكمه فيما يلزمه من قضائه ، إذا أكل منه ، سبيله سبيل غيره ، وإن فارقه فى أن له الاستقراض منه عند الحاجة إليه ، كماله الاستقراض عليه عند حاجته إلى مايستقرض عليه، إذا كان قيما بما فيه مصلحته . ولا معنى لقول من قال : إنما عنى بالمعروف فى هذا الموضع :أكل والى اليتيم ، من مال اليتيم، لقيامه على وجه الاعتياض على عمله وسعيه ، لأن لوالى اليتيم أن يؤاجر نفسه منه، للقيام بأموره، إذا كان اليتيم محتاجا إلى ذلك بأجرة معلومة ، كما يستأجر له غيره من الأجراء ، وكما يشترى له من نصيبه ، غنيا كان الوالى أو فقيرا ، وإذا كان ذلك كذلك ، وكان الله تعالى ذكره ، قد دلّ بقوله (وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ، وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ)، على أن أكل مال اليتيم إنما أذِنَ لمن أذن له من ولاته، فى حال الفقر والحاجة، وكانت الحال التى للولاة أن يؤجروا أنفسهم من الأيتام، مع حاجة الأيتام إلى الأُجراء ، غير مخصوص بها حال غِنًى ، ولا حال فقر، كان معلوما أن المعنى الذى أبيح لهم من أموال أيتامهم فى كلّ أحوالهم ، غير المعنى الذى أبيح لهم ذلك فيه فى حال دون حال . ومن أبى ماقلنا ، ممن زعم أن لولىّ اليتيم أكل مال يتيمه عند حاجته إليه ، على غير وجه القرض، استدلالا بهذه الآية ؟ قيل له : أمجمع على أن الذى قلت تأويل قوله (وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ) ؟ فإن قال: لا، قيل له: فما برهانك على أن ذلك تأويله، وقد علمت أنه غير مالك مال يتيمه ؟ فإن قال : لأن الله أذن له بأكله ، قيل له : أذن له بأكله مطلقا ، أم بشرط ؟ فإن قال بشرط ، وهو أن يأكله بالمعروف ، قيل له : وما ذلك المعروف ؟ وقد علمت القائلين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الخالفين ، إن ذلك هوأكله قرضا وسلفا ، ويقال لهم أيضا مع ذلك : أرأيت المولى عليهم فى أموالهم من المجانين والمعاتيه، ألِوُلاة أموالهم أن يأكلوا من أموالهم عند حاجتهم إليه على غير وجه القرض، لاالاعتياض من قيامهم بها، كما قلتم ذلك فى أموال اليتامى فأبحتموها لهم ؟ فإن قالوا: ذلك لهم، خرجوا من قول جميع الحجة ، وإن قالوا: ليس ذلك لهم ، قيل لهم : فما الفرق بين أموالهم وأموال اليتامى ؟ وحكم ولاتهم واحد ، فى أنهم ولاة أموال غيرهم ، فلن يقولوا فى أحدهم شيئا إلا أُلزموا فى الآخر مثله ، ويُسئلون كذلك عن المحجور عليه : هل لمن يلى ماله أن يأكل ماله عند حاجته إليه ؟ نحو سؤالناهم عن أموال المجانين والمعاتيه .

القول فى تأويل قوله عزّ وجلّ : (فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ) :

قال أبو جعفر : يعنى بذلك جلّ ثناؤه : وإذا دفعتم يا معشر ولاة أموال اليتامى إلى اليتامى أموالهم ، فأشهدوا عليهم ، يقول : فأشهدوا على الأيتام ، باستيفائهم ذلك منكم ، ودفعكموه إليهم .

كما حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ، فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ) يقول: إذا دفع إلى اليتيم ماله، فليدفعه إليه بالشهود ، كما أمره الله تعالى .

القول فى تأويل قوله : (وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا) :

يقول تعالى ذكره: وكفى بالله كافيا من الشهود الذين يُشهدهم والى اليتيم على دفعه مالَ يتيمه إليه:

كما حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن مفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً) يقول : شهيدا ، يقال منه : قد أحسبنى الذى عندى ، يراد به : كفانى ، وسمع من العرب : لأحسبنكم من الأَسْوَدَين ، يعنى به : من الماء والتمر ، والمحسب من الرجال: المرتفع الحسب ، والمحسب: المكفى :

القول فى تأويل قوله

لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ، وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ، مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً (٧)

يعنى بذلك تعالى ذكره للذكور من أولاد الرجل الميت حصة من ميراثه ، وللإناث منهم حصة منه، من قليل ما خلف بعده وكثيره، حصة مفروضة، واجبة معلومة مؤقتة ؛ وذكر أن هذه الآية : لت من أجل أن أهل الجاهلية كانوا يورّثون الذكور ، دون الإناث .

كما حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، قال : كانوا لا يورّثون النساء ، فنزلت (وَلِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ) .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن عكرمة ، قال : نزلت فى أمّ كُحَّة وابنة كُحَّة وثعلبة وأوس بن سويد، وهم من الأنصار ، كان أحدهم زوجها ، والآخر عمّ ولدها، فقالت: يا رسول الله، توفى زوجى وتركنى وابنته ، فلم نورّث، فقال عمّ ولدها: يا رسول الله، لاتركب فرسا، ولا تحمل كَلاًّ ،ولاتنكأ[1] عدوا، يُكْسب عليها، ولاتكتسب، فنزلت (لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ . وَلِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ، مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً) .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله: (لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ) قال : كان النساء لايرثن فى الجاهلية من الآباء ، وكان الكبير يرث ، ولا يرث الصغير ، وإن كان ذكرا، فقال الله تبارك وتعالى (لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ)... إلى قوله (نَصِيباً مَفْرُوضاً) .

قال أبو جعفر : ونصب قوله (نَصِيباً مَفْرُوضاً) وهو نعت للنكرة لخروجه مخرج المصدر ، كقول القائل : لك علىّ حقّ واجبا ، ولو كان مكان قوله (نَصِيباً مَفْرُوضاً) اسم صحيح لم يجز نصبه ، لايقال: لك عندى حقّ درهما ، فقوله : (نَصِيباً مَفْرُوضاً) كقوله نصيبا فريضة ، وفرضا ، كما يقال : عندى درهم هبةً مقبوضة .

(١) نكأت العدو أنكؤهم ، من باب فتح : لغة فى نكيتهم : أكثرت فيهم الجراح والقتل ، فوهنوا .

القول فى تأويل قوله

وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُولُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ ، وَٱلْيَتَٰمَىٰ ، وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ ، وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٨)

قال أبو جعفر : اختلف أهل التأويل فى حكم هذه الآية : هل هو محكم أو منسوخ ؟ فقال بعضهم : هو محكم .

ذكر من قال ذلك :

ثنا أبو كريب ، قال : حدثنا ابن يمان ، عن سفيان ، عن الشيبانىّ ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال مُحكمة ، وليست منسوخة ، يعنى قوله (وَإِذَا حَضَرَ القِسْمَةَ أُولُوا القُرْبَى) . . . الآية .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا الأشجعىّ ، عن سفيان ، عن مغيرة ، عن إبراهيم والشعبىّ ، قالا : هى محكمة .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا ابن يمان ، عن سفيان ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قال : واجب ماطابت به أنفس أهل الميراث .

وحدثنا أبو كريب ، قال : ثنا الأشجعىّ ، عن سفيان ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قوله : (وَإِذَا حَضَرَ القِسْمَةَ أُولُوا القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينُ) قال : هى واجبة على أهل الميراث ماطابت به أنفسهم .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا الأشجعىّ ، عن سفيان ، عن مغيرة ، عن إبراهيم والشعبىّ ، قالا : هى محكمة ، ليست بمنسوخة .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا يحيى بن عبد الرحمن ، عن سفيان ، وثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا الثورىّ ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قال : هى واجبة على أهل الميراث ماطابت به أنفسهم .

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا أبو بشر ، عن سعيد بن جبير ، أنه سئل عن قوله (إِذَا حَضَرَ القِسْمَةَ أُولُوا القُرْبَى واليَتَامَى وَالمَسَاكِينُ فارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً) فقال : سعيد : هذه الآية يتهاون بها الناس ، قال : وهما وليان : أحدهما يرث ، والآخر لايرث ، والذى يرث هو الذى أُمِر أن يرزقهم ، قال : يعطيهم ، قال : والذى لايرث هو الذى أُمِر أن يقول لهم قولا معروفا ، وهى محكمة ، وليست بمنسوخة .

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا مغيرة ، عن إبراهيم بنحو ذلك ، وقال : هى محكمة ، وليست بمنسوخة .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن مُطرِّف ، عن الحسن ، قال : هى ثابتة ، ولكن الناس بخلوا وشَحُّوا .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا منصور والحسن ، قالا : هى محكمة ، وليست بمنسوخة .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا عباد بن العوّام ، عن الحجاج ، عن الحكم ، عن مِقْسَم ، عن ابن عباس ، قال : هى قائمة يعمل بها .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قوله (وَإِذَا حَضَرَ القِسْمَةَ أُولُوا القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينُ فارْزُقُوهُمْ مِنْهُ) : ماطابت به الأنفس حقا واجبا .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا أبو سفيان ، عن معمر ، عن الحسن والزهرىّ ، قالا فى قوله (وَإِذَا حَضَرَ القِسْمَةَ أُولُوا القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينُ فارْزُقُوهُمْ مِنْهُ) قال : هى محكمة .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا منصور ، عن قتادة ، عن يحيى بن يعمر ، قال : ثلاث آيات محكمات مدنيات تركهن الناس : هذه الآية ، وآية الاستئذان (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أيْمَانُكُمْ) ، وهذه الآية (يا أيُّها النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى) .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قال : كان الحسن يقول : هى ثابتة . وقال آخرون : منسوخة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن بشار ومحمد بن المثنى ، قالا : ثنا ابن أبى عدىّ ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن سعيد أنه قال فى هذه الآية (وَإِذَا حَضَرَ القِسْمَةَ أُولُوا القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينُ) قال : كانت هذه الآية قسمة قبل المواريث ، فلما أنزل الله المواريث لأهلها ، جعلت الوصية لذوى القرابة الذين يحزنون ولايرثون .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا قرة بن خالد ، عن قتادة ، قال : سألت سعيد بن المسيب عن هذه الآية (وَإِذَا حَضَرَ القِسْمَةَ أُولُوا القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينُ) قال : هى منسوخة .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، عن سعيد بن المسيب ، قال : كانت هذه قبل الفرائض وقسمة الميراث ، فلما كانت الفرائض والمواريث نُسخت .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا ابن يمان ، عن سفيان ، عن السدىّ ، عن أبى مالك ، قال : نسختها آية الميراث .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا الأشجعى ، عن سفيان ، عن السدىّ ، عن أبى مالك ، مثله .

حدثنا محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنا عمى ، قال : ثنا أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس (وَإِذَا حَضَرَ القِسْمَةَ أُولُوا القُرْبَى وَاليَتَامَى) . . . الآية ، إلى قوله (قَوْلاً مَعْرُوفاً) ، وذلك قبل

أن تنزل الفرائض . فأنزل الله تبارك وتعالى بعد ذلك الفرائض ، فأعطى كلّ ذى حقّ حقه ، فجعلت الصدقة فيما سمى المتوفى .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا جويبر ، عن الضحاك ، قال : نسختها المواريث .

وقال آخرون : هى محكمة وليست بمنسوخة ، غير أن معنى ذلك : وإذا حضر القسمة ، يعنى بها : قسمة الميت ماله بوصيته ، لمن كان يوصى له به ، قالوا : وأمر بأن يجعل وصيته فى ماله ، لمن سماه الله تعالى فى هذه الآية .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا يحيى بن سعيد الأموى ، قال : ثنا ابن المبارك ، عن ابن جريج ، عن ابن أبى مليكة ، عن القاسم بن محمد : أن عبد الله بن عبد الرحمن قسم ميراث أبيه وعائشة حية ، فلم يدع فى الدار أحدا إلا أعطاه ، وتلا هذه الآية (وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ) قال القاسم : فذكرت ذلك لابن عباس ، فقال : ما أصاب ، إنما هذه الوصية ، يريد الميت أن يوصى لقرابته .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا ابن جريج ، قال : أخبرنى ابن أبى مليكة ، أن القاسم بن محمد ، أخبره أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر قسم ، فذكر نحوه .

حدثنا عمران بن موسى الصفار ، قال : ثنا عبد الوارث بن سعيد ، قال : ثنا داود ، عن سعيد بن المسيب فى قوله (وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ) قال : أمر أن يوصى بثلثه فى قرابته .

حدثنا ابن المبارك ، قال : ثنا عبد الأعلى ، قال : ثنا داود ، عن سعيد بن المسيب ، قال : إنما ذلك عند الوصية فى ثلثه .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا عبد الوهاب ، قال : ثنا داود ، عن سعيد بن المسيب (وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ) قال : هى الوصية من الناس .

حدثنا يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ) قال : القسمة : الوصية ، كان الرجل إذا أوصى قالوا : فلان يقسم ماله ، فقال : ارزقوهم منه ، يقول : أوصوا لهم ، يقول للذى يُوصى (وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً) فإن لم توصوا لهم ، فقولوا لهم خيرا .

قال أبو جعفر : وأولى الأقوال فى ذلك بالصحة : قول من قال : هذه الآية محكمة غير منسوخة ، وإنما عنى بها : الوصية لأولى قُرْبَى الموصِى ، وعنى باليتامى والمساكين أن يقال لهم قول معروف .

وإنما قلنا ذلك أولى بالصحة من غيره : لما قد بينا فى غير موضع من كتابنا هذا وغيره ، أن شيئا من أحكام الله تبارك وتعالى التى أثبتها فى كتابه ، أو بيّنها على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، غير جائز فيه أن

يقال له ناسخ لحكم آخر ، أو منسوخ لحكم آخر ، إلا والحكمان اللذان قضى لأحدهما بأنه ناسخ ، والآخر بأنه منسوخ ، ناف كل واحد منهما صاحبه ، غير جائز اجتماع الحكم بهما فى وقت واحد ، بوجه من الوجوه ، وإن كان جائزا صرفه إلى غير النسخ ، أو يقوم بأن أحدهما ناسخ ، والآخر منسوخ ، حجة يجب التسليم لها ، وإذ كان ذلك كذلك ، لما قد دللنا فى غير موضع ، وكان قوله تعالى ذكره (وَإِذَا حَضَرَ القِسْمَةَ أُولُوا القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ) محتملا أن يكون مرادا به : وإذا حضر قسمة مال قاسم ماله بوصية ، أولو قرابته ، واليتامى ، والمساكين ، فارزقوهم منه ، يراد : فأوصوا لأولى قرابتكم الذين لايرثونكم منه ، وقولوا لليتامى والمساكين قولا معروفا ، كما قال فى موضع آخر : (كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى المُتَّقِينَ) ولا يكون منسوخا بآية الميراث ، لم يكن لأحد صرفه إلى أنه منسوخ بآية الميراث ، إذ كان لادلالة على أنه منسوخ بها ، من كتاب أوسنة ثابتة ، وهو محتمل من التأويل مابيّنا . وإذ كان ذلك كذلك ، فتأويل قوله (وَإِذَا حَضَرَ القِسْمَةَ) قسمة الموصى ماله بالوصية ، أولو قرابته واليتامى والمساكين ، فارزقوهم منه ، يقول : فاقسموا لهم منه بالوصية ، يعنى : فأوصوا لأولى القربى من أموالكم ، وقولوا لهم : يعنى الآخرين ، وهم اليتامى والمساكين ، قولا معروفا : يعنى : يدعى لهم بخير ، كما قال ابن عباس ، وسائر من ذكرناقوله قبل . وأما الذين قالوا : إن الآية منسوخة بآية المواريث ، والذين قالوا : هى محكمة ، والمأمور بها ورثة الميت ، فإنهم وجهوا قوله (وَإِذَا حَضَرَ القِسْمَةَ أُولُوا القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ) يقول : فأعطوهم منه ، وقولوا لهم قولا معروفا ، وقد ذكرنا بعض من قال ذلك ، وسنذكر بقية من قال ذلك ممن لم نذكره .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية بن صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس قوله (وَإِذَا حَضَرَ القِسْمَةَ أُولُوا القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينُ) أمر الله جلّ ثناؤه المؤمنين عند قسمة مواريثهم ، أن يصلوا أرحامهم ويتاماهم من الوصية إن كان أوصى ، وإن لم تكن وصية وصل إليهم من مواريثهم .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس (وَإِذَا حَضَرَ القِسْمَةَ أُولُوا القُرْبَى) . . . الآية ، يعنى : عند قسمة الميراث .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن هشام بن عروة ، أن أباه أعطاه من ميراث المصعب حين قسم ماله .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا عوف ، عن ابن سيرين ، قال : كانوا يَرْضَخُونَ[١] لهم عند القسمة .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن مطر ، عن الحسن ، عن حطّان : أن أبا موسى أمر أن يعطوا إذا حضر قسمة الميراث أولو القربى واليتامى والمساكينُ والجيران من الفقراء .

(١) يرضخون لهم : يعطونهم عطاء يسيرا .

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا يحيى بن سعيد ، وابن أبى عدىّ ، ومحمد بن جعفر ، عن شعبة ، عن قتادة ، عن يونس بن جبير ، عن حِطّان بن عبد الله الرقاشىّ ، قال : قسم أبو موسى بهذه الآية (وَإِذَا حَضَرَ القِسْمَةَ أُولُوا القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينُ) .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا محمد ويحيى بن سعيد ، عن شعبة ، عن قتادة ، عن يونس بن جبير ، عن حِطّان ، عن أبى موسى فى هذه الآية (وَإِذَا حَضَرَ القِسْمَةَ) . . . الآية ، قال : قضى بها أبو موسى .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن مغيرة ، عن العلاء بن بدر فى الميراث ، إذا قسم قال : كانوا يعطون منه التابوت ، والشىء الذى يستحيا من قسمته .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا عبد الأعلى ، قال : ثنا داود ، عن الحسن وسعيد بن جبير ، كانا يقولان : ذاك عند قسمة الميراث .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا ابن يمان ، عن سفيان ، عن عاصم ، عن أبى العالية والحسن ، قالا : يرضخون ويقولون قولا معروفا فى هذه الآية (وَإِذَا حَضَرَ القِسْمَةَ) ، ثم اختلف الذين قالوا : هذه الآية محكمة ، وإن القسمة لأولى القربى واليتامى والمساكين واجبة على أهل الميراث ، إن كان بعض أهل الميراث صغيرا ، فقسم عليه الميراث ولىّ ماله ، فقال بعضهم : ليس لولىّ ماله أن يقسم من ماله ووصيته شيئا ، لأنه لايملك من المال شيئا ، ولكنه يقول لهم قولا معروفا ، قالوا : والذى أمره الله بأن يقول لهم معروفا ، هو ولىّ مال اليتيم ، إذا قسم مال اليتيم بينه وبين شركاء اليتيم ، إلا أن يكون ولىّ ماله أحد الورثة ، فيعطيهم من نصيبه ، ويعطيهم من يجوز أمره فى ماله من أنصبائهم ، قالوا : فأما من مال الصغير الذى يُوَلَّى على ماله ، فلا يجوز لولىّ ماله أن يعطيهم منه شيئا .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن السدىّ ، عن أبى سعيد ، قال : سألت سعيد بن جبير عن هذه الآية (وَإِذَا حَضَرَ القِسْمَةَ أُولُوا القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينُ فارْزُقُوهُمْ مِنْهُ) قال : إن كان الميت أوصى لهم بشىء ، أنفذت لهم وصيتهم ، وإن كان الورثة كبارا رَضَخُوا لهم ، وإن كانوا صغارا ، قال وليهم : إنى لست أملك هذا المال ، وليس لى ، وإنما هو للصغار ، فذلك قوله : (وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً) .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير فى هذه الآية (وَإِذَا حَضَرَ القِسْمَةَ أُولُوا القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينُ فارْزُقُوهُمْ مِنْهُ ، وقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً) قال : هما وليان : ولىّ يرث ، وولىّ لايرث ، فأما الذى يرث فيعطى ، وأما الذى لايرث ، فقولوا له قولاً معروفا .

حدثنى ابن المثنى ، قال : ثنا عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن داود ، عن الحسن وسعيد بن جبير ، كانا

يقولان: ذلك عند قسمة الميراث ، إن كان الميراث لمن قد أدرك ، فله أن يكسو منه ، وأن يطعم الفقراء والمساكين ، وإن كان الميراث ليتامى صغار ، فيقول الولىّ : إنه ليتامى صغار ، ويقول لهم قولا معروفا .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا ابن يمان ، عن سفيان ، عن السدىّ ، عن أبى سعيد ، عن سعيد بن جبير قال : إن كانوا كبارا رَضَخُوا ، وإن كانوا صغارا اعتذروا إليهم .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا حكام ، عن عنبسة ، عن سليمان الشيبانىّ ، عن عكرمة (وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى) قال : كان ابن عباس يقول : إذا ولى شيئا من ذلك يرضخ لأقرباء الميت ، وإن لم يفعل اعتذر إليهم ، وقال لهم قولا معروفا .

حدثنا أحمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن مفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ ، وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً) : هذه تكون على ثلاثة أوجه : أما الأول : فيوصى لهم وصية ، فيحضرون ويأخذون وصيتهم . وأما الثانى : فإنهم يحضرون فيقتسمون إذا كانوا رجالا ، فينبغى لهم أن يُعطوهم . وأما الثالث : فتكون الورثة صغارا ، فيقوم وليهم إذا قسم بينهم ، فيقول للذين حضروا : حقكم حقّ ، وقرابتكم قرابة ، ولو كان لى فى الميراث نصيب لأعطيتكم ، ولكنهم صغار ، فإن يكبروا فسيعرفون حقكم ، فهذا القول المعروف .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا عبد الوهاب ، قال : ثنا داود ، عن رجل ، عن سعيد أنه قال (وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً) : قال : إذا كان الوارث عند القسمة ، فكان الإناء والشىء الذى لايستطاع أن يقسم ، فليرضخ لهم ، وإن كان الميراث لليتامى ، فليقل لهم قولاً معروفا .

وقال آخرون منهم : ذلك واجب فى أموال الصغار والكبار ، لأولى القربى واليتامى والمساكين ، فإن كان الورثة كبارا ، تولوا عند القسمة إعطاءهم ذلك ، وإن كانوا صغارا ، تولى إعطاء ذلك منهم ولىّ مالهم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا ابن علية ، عن يونس فى قوله (وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ) فحدّث عن محمد ، عن عبيدة : أنه ولى وصية ، فأمر بشاة فذبحت ، وصنع طعاما لأجل هذه الآية ، وقال : لولا هذه الآية لكان هذا من مالى ، قال : وقال الحسن : لم تنسخ ، كانوا يحضرون ، فيعطون الشىء والثوب الخلق ، قال يونس : إن محمد بن سيرين ولى وصية ، أو قال : أيتاما ، فأمر بشاة فذُبحت ، فصنع طعاما ، كما صنع عبيدة .

حدثنا مجاهد بن موسى ، قال : ثنا يزيد ، قال : أخبرنا هشام بن حسان ، عن محمد ، أن عبيدة قسم ميراث أيتام ، فأمر بشاة فاشتريت من مالهم ، وبطعام فصنع ، وقال : لولا هذه الآية لأحببت أن يكون من مالى ، ثم قرأ هذه الآية : (وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ) ... الآية ، فكان مَن ذهب من القائلين ، القول الذى ذكرناه عن ابن عباس وسعيد بن جبير . ومن قال :

يرضخ عند قسمة الميراث لأولى القربى واليتامى والمساكين تأوّل قوله (فارْزُقُوهُمْ مِنْهُ) : فأعطوهم منه وكأن الذين ذهبوا إلى ما قال عبيدة وابن سيرين ، تأوّلوا قوله (فارْزُقُوهُمْ مِنْهُ) : فأطعموهم منه .

واختلفوا فى تأويل قوله : (وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً) فقال بعضهم : هو أمر من الله تعالى ذكره ولاة اليتامى ، أن يقولوا لأولى قرابتهم ولليتامى والمساكين ، إذا حضروا قسمتهم مال من ولوا عليه ماله من الأموال ، بينهم وبين شركائهم من الورثة فيها ، أن يعتذروا إليهم ، على نحو ماقد ذكرناه فيما مضى من الاعتذار .

كما حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا هشيم ، قال : ثنا أبو بشر ، عن سعيد بن جبير (وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً) قال : هو الذى لايرث ، أُمر أن يقول لهم قولا معروفا ؛ قال : يقول : إن هذا المال لقوم غُيَّب ، أو ليتامى صغار ، ولكم فيه حقّ ، ولسنا نملك أن نعطيكم منه شيئا . قال : فهذا القول المعروف .

وقال آخرون : بل المأمور بالقول المعروف الذى أُمر جلّ ثناؤه أن يقال له ، هو الرجل الذى يوصى فى ماله ، والقول المعروف ، هو الدعاء لهم بالرزق والغنى وما أشبه ذلك من قول الخير ، وقد ذكرنا قائلى ذلك أيضا فيما مضى بما أغنى عن إعادته .

القول فى تأويل قوله

وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ ، فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا (٩)

اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك ، فقال بعضهم : وليخش : ليخف الذين يحضرون موصيا يوصى فى ماله ، أن يأمره بتفريق ماله وصية به فيمن لايرثه ، ولكن ليأمره أن يبقى ماله لولده ، كما لو كان هو الموصِى ، يسرّه أن يحثه من يحضره على حفظ ماله لولده ، وأن لايدعهم عالة مع ضعفهم وعجزهم عن التصرف والاحتيال .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى علىّ بن داود ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية بن صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، قوله (وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافُوا عَلَيْهِمْ) . . . إلى آخر الآية ، فهذا فى الرجل يحضره الموت ، فيسمعه يوصى بوصية تضرّ بورثته ، فأمر الله سبحانه الذى يسمعه أن يتقى الله ، ويوفقه ويسدّده للصواب ، ولينظر لورثته كما كان يحب أن يصنع لورثته إذا خشى عليهم الضَّيعة .

حدثنا علىّ ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، قوله : (وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافُوا عَلَيْهِمْ) يعنى :

الذى يحضره الموت ، فيقال له : تصدّق من مالك ، وأعتق ، وأعط منه فى سبيل الله ، فنُهوا أن يأمروه بذلك ، يعنى : أن من حضر منكم مريضا عند الموت ، فلا يأمره أن ينفق ماله فى العتق ، أو الصدقة ، أو فى سبيل الله ، ولكن يأمره أن يبين ماله وما عليه من دَين ، ويوصىَ فى ماله لذوى قرابته الذين لا يرثون ، ويوصى لهم بالخمس أو الربع ، يقول : أليس يكره أحدكم إذا مات وله وُلْد ضعاف ، يعنى صغار ، أن يتركهم بغير مال ، فيكونوا عيالا على الناس ، فلا ينبغى أن تأمروه بما لا ترضون به لأنفسكم ، ولا أولادكم ، ولكن قولوا الحقّ من ذلك .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً) قال : يقول : من حضر ميتا فليأمره بالعدل والإحسان ، ولينهه عن الحيف والجَوْر فى وصيته ، وليخش على عياله ما كان خائفا على عياله لو نزل به الموت .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً) قال : إذا حضرتَ وصية ميت ، فمره بما كنت آمرا نفسك ، بما تتقرّب به إلى الله ، وخَفْ فى ذلك ما كنت خائفا على ضَعَفتك لو تركتَهم بعدك . يقول : فاتق الله ، وقل قولا سديدا إن هو زاغ .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط عن السدىّ (وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافُوا عَلَيْهِمْ ، فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً) : الرجل يحضره الموت ، فيحضره القوم عند الوصية ، فلا ينبغى لهم أن يقولوا له : أوص بمالك كله ، وقدم لنفسك ، فإن الله سيرزق عيالك ، ولا يتركوه يوصى بماله كله ، يقول للذين حضروا (وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافُوا عَلَيْهِمْ) فيقول : كما يخاف أحدكم على عياله لو مات أن يتركهم صغارا ضعافا ، لا شىء لهم ، الضيعةَ بعده ، فليخف ذلك على عيال أخيه المسلم ، فيقول له القول السديد .

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن حبيب ، قال : ذهبت أنا والحكم ابن عيينة إلى سعيد بن جبير ، فسألناه عن قوله : (وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً) . . . الآية ، قال : قال الرجل يحضره الموت ، فيقول له من يحضره : اتق الله ، صلهم ، أعطهم ، برّهم ، ولو كانوا هم الذين يأمرهم بالوصية ، لأحبوا أن يبقوا لأولادهم .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا الثورىّ ، عن حبيب بن أبى ثابت ، عن سعيد بن جبير فى قوله : (وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً) قال : يحضرهم اليتامى فيقولون : اتق الله وصلهم وأعطهم ، فلو كانوا هم لأحبوا أن يُبقوا لأولادهم .

حدثنى يحيى بن أبى طالب ، قال : أخبرنا يزيد ، قال : أخبرنا جويبر ، عن الضحاك فى قوله : (وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً) . . . الآية ، يقول : إذا حضر أحدكم

مَن حضره الموت عند وصيته ، فلا يقل : أعتق من مالك ، وتصدّق ، فيفرّق ماله ، ويدع أهله عيَّلا ، ولكن مُرُوه ، فليكتب ماله من دَين وما عليه ، ويجعل من ماله لذوى قرابته خمس ماله ، ويدع سائره لورثته.

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله (وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافُوا عَلَيْهِمْ) . . . الآية ، قال : هذا يفرق المال حين يقسم ، فيقول الذين يحضرون : أقللت ، زِد فلانا ، فيقول الله تعالى (وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ) فليخش أولئك ، وليقولوا فيهم مثل مايحبّ أحدهم أن يقال فى ولده بالعدل إذا أكثر : أبق على ولدك .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : وليخش الذين يحضرون الموصِى ، وهو يوصى ، الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا ، فخافوا عليهم الضيعةَ من ضَعفهم وطفولتهم ، أن ينهوه عن الوصية لأقربائه ، وأن يأمروه بإمساك ماله ، والتحفظ به لولده ، وهم لو كانوا من أقرباء الموصِى ، لسرّهم أن يوصَى لهم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن حبيب ، قال : ذهبت أنا والحكم ابن عيينة ، فأتينا مِقْسَما ، فسألناه ، يعنى عن قوله : (وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً) . . . الآية ، فقال : ما قال سعيد بن جبير ؟ فقلنا : كذا وكذا ، فقال : ولكنه الرجل يحضره الموت ، فيقول له من يحضره : اتق الله وأمسك عليك مالك ، فليس أحدٌ أحقّ بمالك من ولدك ، ولو كان الذى يُوصِى ذا قرابة لهم ، لأحبوا أن يوصِىَ لهم .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا الثورىّ ، عن حبيب بن أبى ثابت ، قال : قال مقسم : هم الذين يقولون : اتق الله ، وأمسك عليك مالك ، فلو كان ذا قرابة لهم لأحبوا أن يوصِىَ لهم .

حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، قال : ثنا المعتمر بن سليمان ، عن أبيه ، قال : زعم حَضْرَمِىّ ، وقرأ (وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً) قال : قالوا : حقيق أن يأمر صاحب الوصية بالوصية لأهلها ، كما أن لو كانت ذرّية نفسه بتلك المنزلة ، لأحبّ أن يوصى لهم ، وإن كان هو الوارث ، فلا يمنعه ذلك أن يأمره بالذى يحقّ عليه ، فإن وُلْده لو كانوا بتلك المنزلة أحبّ أن يحثّ عليه ، فليتق الله هو ، فليأمره بالوصية ، وإن كان هو الوارثَ ، أو نحوا من ذلك .

وقال آخرون : بل معنى ذلك أمر من الله ولاةَ اليتامى ، أن يلوهم بالإحسان إليهم ، فى أنفسهم وأموالهم ، ولا يأكلوا أموالهم إسرافا وبدارا أن يكبروا ، وأن يكونوا لهم كما يحبون أن يكون وُلاة ولده الصغار بعدهم لهم بالإحسان إليهم ، لو كانوا هم الذين ماتوا ، وتركوا أولادهم يتامى صغارا .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافُوا عَلَيْهِمْ) يعنى بذلك :

الرجل يموت وله أولاد صغار ضعاف ، يخاف عليهم العَيْلة والضَّيْعة ، ويخاف بعده أن لايحسن إليهم مَن يليهم ، يقول : فإن ولِيَ مثل ذريته ضعافا يتامى ، فليحسن إليهم ، ولا يأكل أموالهم إسرافا وبدارا ، خشية أن يكبروا ، فليتقوا الله ، وليقولوا قولا سديدا .

وقال آخرون : معنى ذلك : وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم ، فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا ، يكفيهم الله أمر ذريّتهم بعدهم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا إبراهيم بن عطية بن دُرَيج بن عطية ، قال : ثنى عمى محمد بن دُرَيْج[1] ، عن أبيه ، عن الشيبانىّ ، قال : كنا بالقسطنطينية ، أيام مسلمة بن عبد الملك ، وفينا ابن محيريز وابن الديلمىّ وهانئ بن كلثوم ، قال : فجعلنا نتذاكر ما يكون فى آخر الزمان ، قال : فضقت ذرعا بما سمعت ، قال : فقلت لابن الديلمىّ : يا أبا بشر ، يودى أنه لايولد لى ولد أبدا ، قال : فضرب بيده على منكبي وقال : يا بن أخى لاتفعل ، فإنه ليست من نسمة كتب الله لها أن تخرج من صلب رجل ، إلا وهى خارجة ، إن شاء وإن أبى ، قال : ألا أدلك على أمر إن أنت أدركته نجاك الله منه ، وإن تركت ولدك من بعدك حفظهم الله فيك ؟ قال : قلت : بلى ، قال : فتلا عند ذلك هذه الآية : (وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافُوا عَلَيْهِمْ ، فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً) .

قال أبو جعفر : وأولى التأويلات بالآية قول من قال : تأويل ذلك : وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم العَيْلة ، لو كانوا فرّقوا أموالهم فى حياتهم ، أو قسموها وصية منهم بها لأولى قرابتهم ، وأهل اليُتم والمسكنة ، فأبقوا أموالهم لولدهم خشية العيلة عليهم بعدهم ، مع ضعفهم وعجزهم عن المطالب ، فليأمروا مَن حضروه ، وهو يوصى لذوى قرابته ، وفى اليتامى والمساكين ، وفى غير ذلك بما له بالعدل ، وليتقوا الله ، وليقولوا قولاسديدا ، وهو أن يعرّفوه ما أباح الله له من الوصية ، وما اختاره المؤمنون من أهل الإيمان بالله وبكتابه وسنته .

وإنما قلنا ذلك بتأويل الآية أولى من غيره من التأويلات ، لما قد ذكرنا فيما مضى قبل ، من أن معنى قوله : (وَإِذا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينَ فارْزُقُوهُمْ مِنْهُ ، وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً) : وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكينُ ، فأوصوا لهم بما قد دللنا عليه من الأدلة ، فإذا كان ذلك تأويل قوله (وَإِذا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينُ) . . . الآية ، فالواجب أن يكون قوله تعالى ذكره (وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ) تأديبا منه عباده فى أمر الوصية ، بما أذنهم فيه ، إذ كان ذلك عقيب الآية التى قبلها فى حكم الوصية ، وكان أظهر معانيه ماقلنا ، فإلحاق حكمه بحكم ماقبله أولى ، مع اشتباه معانيهما من صرف حكمه إلى غيره بما هو له غير مشبه .

وبمعنى ما قلنا فى تأويل قوله (وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً) قال من ذكرنا قوله فى مبتدأ تأويل هذه الآية ، وبه كان ابن زيد يقول .

---

(١) لم أجد أحدا من رجال هذا السند إلى دريج ، فى خلاصة تذهيب تهذيب الكمال للخزرجى .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد في قوله (وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافُوا عَلَيْهِمْ . فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً) قال: يقول قولا سديدا ، يذكر هذا المسكين وينفعه ، ولا يُجحف بهذا اليتيم وارث المؤدى ، ولا يضرّ به ، لأنه صغير لا يدفع عن نفسه ، فانظر له كما تنظر إلى ولدك لو كانوا صغارا . والسديد من الكلام : هو العدل والصواب .

القول في تأويل قوله

إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ، وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً) يقول : بغير حقّ (إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً) يوم القيامة ، بأكلهم أموال اليتامى ظلما فى الدنيا نار جهنم (وَسَيَصْلَوْنَ) بأكلهم (سَعِيراً) .

كما حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن مفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً) قال : إذا قام الرجل يأكل مال اليتيم ظلما ، يُبعث يوم القيامة ، ولهب النار يخرج من فيه ، ومن مسامعه ، ومن أذنيه وأنفه وعينيه ، يعرفه من رآه يأكل مال اليتيم .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، قال : أخبرنى أبو هارون العبدىّ ، عن أبى سعيد الخُدرىّ ، قال : ثنا النبىّ صلى الله عليه وسلم ، عن ليلة أُسْرِي به ، قال : « نَظَرْتُ فإذا أنا بِقَوْمٍ لَهُمْ مَشافِرُ كَمَشافِرِ الإبِلِ ، وَقَدْ وُكِّلَ بِهِمْ مَنْ يَأْخُذُ بِمَشافِرِهِمْ ، ثُمَّ يَجْعَلُ فِي أَفْوَاهِهِمْ صَخْراً مِنْ نارٍ يَخْرُجُ مِنْ أسافِلِهِمْ . قُلْتُ : يا جِبْرِيلُ مَنْ هَؤُلاءِ ؟ قال : هَؤُلاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً ، إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً » .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً) قال : قال أبى : إن هذه لأهل الشرك حين كانوا لا يورثونهم ، ويأكلون أموالهم .

وأما قوله (وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً) فإنه مأخوذ من الصَّلا ، والصَّلا : الاصطلاء بالنار ، وذلك التسخن بها ، كما قال الفرزدق :

وَقاتَلَ كَلْبُ الحَيِّ عَنْ نارِ أَهْلِهِ ... لِيَرْبِضَ فِيها وَالصَّلا مُتَكَنَّفُ [1]

(١) البيت للفرزدق (ديوانه طبعة الصاوى ص ٥٦٠) يقول : قاتل الكلب أهله عن النار من شدة البرد ، والصلا ، بفتح الصاد مقصور الصلاء ، بكسرها : مقاساة حر النار . قال فى اللسان : إذا كسرت مددت ، وإذا فتحت قصرت . وأنشد بيت الفرزدق ، ونسبه إلى امرئ القيس خطأ (انظر : صلى) .

وكما قال العجاج: وصاليان للصلا صلى

ثم استعمل ذلك فى كل من باشر بيده أمرا من الأمور ، من حرب أو قتال أو خصومة ، أو غير ذلك ، كما قال الشاعر :

لم أكن من جناتها علم الله وإنى بحرها اليوم صالى[1]

فجعل ما باشر من شدة الحرب وإجراء القتال ، بمنزلة مباشرة أذى النار وحرها .

واختلفت القراء فى قراءة ذلك . فقرأته عامة قراء المدينة والعراق (وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا) بفتح الياء على التأويل الذى قلنا . وقرأ ذلك بعض المكيين وبعض الكوفيين (وَسَيُصْلَوْنَ سَعِيرًا) بضم الياء ، بمعنى يحرقون ، من قولهم : شاة مَصْلِيَّة ، يعنى : مشوية .

قال أبو جعفر : والفتح بذلك أولى من الضم ، لإجماع جميع القراء على فتح الياء من قوله (لايَصْلاها إلاَّ الأشْقَى) ولدلالة قوله (إلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الجَحِيمِ) على أن الفتح بها أولى من الضم . وأما السعير : فإنه شدة حر جهنم ، ومنه قيل : استعرت الحرب : إذا اشتدت ، وإنما هو مسعور ، ثم صُرِف إلى سَعِير ، قيل : كف خضيب ، ولحية دهين ، وإنما هى مخضوبة ، صرفت إلى فعيل .

فتأويل الكلام إذنْ : وسيَصلون نارا مُسْعَرة : أى موقودة مُشْعَلة ، شديدا حرها .

وإنما قلنا: إن ذلك كذلك، لأن الله جل ثناؤه قال (وَإذَا الجَحِيمُ سُعِّرَتْ) فوصفها بأنها مسعورة، ثم أخبر جل ثناؤه أن أكلة أموال اليتامى يَصْلَونها ، وهى كذلك ، فالسعير إذَنْ فى هذا الموضع صفة للجحيم على ما وصفنا .

القول فى تأويل قوله

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ، فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ، وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ، وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ، فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ، مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ، آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ، فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١) ﴾

يعنى جل ثناؤه بقوله (يُوصِيكُمُ اللهُ) : يَعْهَد الله إليكم (فِى أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ) يقول يعهد إليكم ربكم إذا مات الميت منكم ، وخلف أولادا ذكورا وإناثا ، فلولده الذكور والإناث ميراثه أجمع بينهم ، للذكر منهم مثل حظ الأنثيين ، إذا لم يكن له وارث غيرهم ، سواء فيه صغار ولده

(١) البيت للحارث بن عباد البكرى ، من قصيدة قالها فى حرب وائل . (مجموع أشعار العرب ١ : ٥٩) . والنعامة : اسم فرسه التى يحارب عليها . وجناتها : الذين شبوا نارها وأوقدوها . وصالى : محترق بنارها .

وكبارهم وإناثهم ، فى أن جميع ذلك بينهم ، للذكر مثل حظ الأنثيين . ورفع قوله : مثلُ بالصفة ، وهى اللام التى فى قوله (للذَّكَرِ) ، ولم ينصب بقوله (يُوصِيكُمُ اللهُ) لأن الوصية فى هذا الموضع عهد وإعلام بمعنى القول ، والقول لا يقع على الأسماء المخبَر عنها ، فكأنه قيل : يقول الله تعالى ذكره : لكم فى أولادكم للذكر منهم مثل حظ الأنثيين . وقد ذُكر أن هذه الآية نزلت على النبى صلى الله عليه وسلم تبيينا من الله الواجبَ من الحكم ، فى ميراث من مات وخلف ورثة ، على ما بيّن ، لأن أهل الجاهلية كانوا لا يقسمون من ميراث الميت لأحد من ورثته بعده ، ممن كان لا يلاقى العدوّ ، ولا يقاتل فى الحروب من صغار ولده ، ولا للنساء منهم ، وكانوا يَخُصون بذلك المقاتلة دون الذرية . فأخبر الله جلّ ثناؤه أن ما خلفه الميت بين من سَمّى وفرض له ميراثا فى هذه الآية ، وفى آخر هذه السورة ، فقال فى صغار ولد الميت وكبارهم وإناثهم : لهم ميراث أبيهم ، إذا لم يكن له وارث غيرهم ، للذكر مثل حظ الأنثيين .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن مفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (يُوصِيكُمُ اللهُ فِى أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ) : كان أهل الجاهلية لا يورثون الجوارى ، ولا الصغار من الغلمان ، لا يرث الرجلَ من ولده إلا من أطاق القتال ، فمات عبد الرحمن أخو حسان الشاعر ، وترك امرأة يقال لها أم كُحَّة[1] ، وترك خمس أخوات ، فجاءت الورثة يأخذون ماله ، فشكت أم كُحّة ذلك إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية (فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ، وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ) ثم قال فى أم كُحّة (وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ ، فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ) .

حدثنا محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس (يُوصِيكُمُ اللهُ فِى أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ) ، وذلك أنه لما نزلت الفرائض التى فرض الله فيها ما فرض للولد الذكر والأنثى والأبوين ، كرهها الناس أو بعضهم ، وقالوا : تُعطَى المرأة الربع والثمن ، وتعطى الابنة النصف ، ويعطى الغلام الصغير ، وليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم ، ولا يحوز الغنيمة ، اسكتوا عن هذا الحديث ، لعلّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ينساه ، أو نقول له فيغيره . فقال بعضهم : يا رسول الله ، أنعطى الجارية نصف ما ترك أبوها ، وليست تركب الفرس ، ولا تقاتل القوم ؟ ونعطى الصبىّ الميراث ، وليس يغنى شيئا ، وكانوا يفعلون ذلك فى الجاهلية ، لا يُعطُون الميراث إلا من قاتل ، ويعطونه الأكبر فالأكبر .

وقال آخرون : بل نزل ذلك من أجل أن المال كان للولد قبل نزوله ، وللوالدين الوصية ، فنسخ الله تبارك وتعالى ذلك بهذه الآية .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد أو عطاء ،

(١) فى تاج العروس ، أم كحة ، بالضم : امرأة نزلت فى شأنها الفرائض .

عن ابن عباس فى قوله (يُوصِيكُمُ اللهُ فى أوْلادِكم) قال : كان المال للولد ، وكانت الوصية للوالدين والأقربين ، فنسخ الله من ذلك ما أحبّ ، فجعل للذكر مثل حظّ الأنثيين ، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس مع الولد ، وللزوج الشّطْر ، والربُع ، وللزوجة الربُع والثمُن .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (يُوصِيكُمُ اللهُ فِى أوْلادِكُمْ للذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ) قال : كان ابن عباس يقول : كان المال ، وكانت الوصية للوالدين والأقربين ، فنسخ الله تبارك وتعالى من ذلك ما أحبّ ، فجعل للذكر مثل حظّ الأنثيين ، ثم ذكر نحوه .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، عن ابن عباس مثله .

وروى عن جابر بن عبد الله ما حدثنا به محمد بن المثنى ، قال : ثنا وهب بن جرير ، قال : ثنا شعبة ، عن محمد بن المنكدر ، قال : سمعت جابر بن عبد الله ، قال : دخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا مريض ، فتوضأ ونَضَح علىّ من وَضوئه ، فأفقت ، فقلت : يا رسول الله ، إنما يرثنى كلالة ، فكيف بالميراث ، فنزلت آية الفرائض .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : ثنى محمد بن المنكدر ، عن جابر ، قال : عادنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضى الله عنه فى بنى سَلِمة يمشيان ، فوجدانى لا أعقل ، فدعا بوَضوء فتوضأ ، ثم رش علىّ فأفقت ، فقلت : يا رسول الله ، كيف أصنع فى مالى ؟ فنزلت (يُوصِيكُمُ اللهُ فِى أوْلادِكُمْ) . . . الآية .

القول فى تأويل قوله (فإنْ كُنَّ نِساءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا ما تَرَكَ) :

يعنى بقوله : (فإنْ كُنَّ) فإن كان المتروكات (نساءً فوْقَ اثنتينِ) ويعنى بقوله : نساء : بنات الميت (فوقَ اثْنَتَيْنِ) يقول : أكثر فى العدد من اثنتين ، فلهنّ ثلثا ما ترك ، يقول : فلبناته الثلثان مما ترك بعده من ميراثه دون سائر ورثته ، إذا لم يكن الميت خلّف ولدا ذكرا معهن .

واختلف أهل العربية فى المعنىّ بقوله (فإنْ كُنَّ نِساءً) فقال بعض نحويىّ البصرة بنحو الذى قلنا ، فإن كان المتروكات نساء ، وهو أيضا قول بعض نحويىّ الكوفة .

وقال آخرون منهم : بل معنى ذلك : فإن كان الأولاد نساء ، وقال : إنما ذكر الله الأولاد ، فقال (يُوصِيكُمُ اللهُ فِى أوْلادِكُمْ) ثم قسم الوصية ، فقال (فإنْ كُنَّ نِساءً) وإن كان الأولاد واحدة ، ترجمة منه بذلك عن الأولاد .

قال أبو جعفر : والقول الأوّل الذى حكيناه عمن حكيناه عنه من البصريين أولى بالصواب فى ذلك عندى ، لأن قوله : وإن كنّ ، لو كان معنيًا به الأولاد ، لقيل : وإن كانوا ، لأن الأولاد تجمع الذكور والإناث ، وإذا كان كذلك ، فإنما يقال : كانوا ، لا كنّ .

القول فى تأويل قوله: (وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ . إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ) :

يعنى بقوله : وإن كانت المتروكة ابنة واحدة ، فلها النصف ، يقول : فلتلك الواحدة نصفُ ماترك الميت من ميراثه ، إذا لم يكن معها غيرها من ولد الميت ، ذكر ولا أنثى .

فإن قال قائل : فهذا فرض الواحدة من النساء ، وما فوق الاثنتين ، فأين فريضة الاثنتين ؟ قيل : فريضتهم بالسنة المنقولة نقل الوراثة ، التى لايجوز فيها الشكّ . وأما قوله (وَلِأَبَوَيْهِ) فإنه يعنى : ولأبوى الميت ، لكل واحد منهما السدس من تركته ، وما خلف من ماله سواء فيه الوالدة والوالد ، لايزداد واحد منهما على السدس ، إن كان له ولد ، ذكر اكان الولد أو أنثى ، واحدا كان أو جماعة .

فإن قال قائل : فإذ كان كذلك التأويل ، فقد يجب أن لايزاد الوالد مع الابنة الواحدة على السدس من ميراثه عن ولده الميت ، وذلك إن قلته قول خلاف لما عليه الأمة مجمعون ، من تصييرهم باقى تركة الميت مع الابنة الواحدة ، بعد أخذها نصيبها منها لوالده أجمع ؟ قيل : ليس الأمر فى ذلك كالذى ظننتَ ، وإنما لكلّ واحد من أبوى الميت السدس من تركته مع ولده ، ذكرا كان الولد أو أنثى ، واحدا كان أو جماعة ، فريضة من الله له مسماة ، فإن زيد على ذلك من بقية النصف مع الابنة الراحدة ، إذا لم يكن غيره وغير ابنة للميت واحدة ، فإنما زيدها ثانيا لقرب عصبة الميت إليه ، إذ كان حكم كل ما أبقته سهام الفرائض ، فلأولى عصبة الميت ، وأقربهم إليه بحكم ذلك لها ، على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان الأب أقرب عصبة ابنه وأولاها به ، إذا لم يكن لابنه الميت ابن .

القول فى تأويل قوله : (فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ) :

يعنى جلّ ثناؤه بقوله (فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ) : فإن لم يكن للميت ولد ذكر ولا أنثى ، وورثه أبواه ، دون غيرهما من ولد وارث ، فلأمه الثلث ، يقول : فلأمه من تركته وما خلف بعده ، ثلث جميع ذلك .

فإن قال قائل : فمن الذى له الثلثان الآخران ؟ قيل له : الأب . فإن قال قائل : بماذا ؟ قلت : بأنه أقرب أهل الميت إليه . ولذلك ترك ذكر تسمية من له الثلثان الباقيان ، إذ كان قد بين على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم لعباده : أن كل ميت فأقرب عصبته به أولى بميراثه ، بعد إعطاء ذوى السهام المفروضة سهامهم من ميراثه . وهذه العلة هى العلة التى من أجلها سمى للأم ما سُمِّى لها ، إذا لم يكن الميت خلف وارثا غير أبويه ، لأن الأم ليست بعصبة فى حال للميت ، فبين الله جلّ ثناؤه لعباده مافرض لها من ميراث ولدها الميت ، وترك ذكر من له الثلثان الباقيان منه معها ، إذ كان قد عرّفهم فى جملة بيانه لهم ، مَنْ له بقايا تركة الأموال ، بعد أخذ أهل السهام سهامَهم وفرائضهم ، وكان بيانه ذلك معينا لهم على تكرير حكمه مع كل من قَسَم له حقا من ميراث ميت ، وسمى له منه سهما .

القول فى تأويل قوله جلّ ذكره (فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ) :

إن قال قائل : وما المعنى الذى من أجله ذكر حكم الأبوين مع الإخوة ، وترك ذكر حكمهما مع الأخ

الواحد ؟ قلت : اختلاف حكمهما مع الإخوة الجماعة والأخ الواحد . فكان فى إبانة الله جلّ ثناؤه لعباده حكمهما، فيما يرثان من ولدهما الميت مع إخوته غنى وكفاية،عن أن حكمهما فيما ورثا منه غير متغير عما كان لهما، ولا أخ للميت ، ولاوارث غيرهما ، إذ كان معلوما عندهم أن كل مستحقّ حقا بقضاء الله ذلك له ، لا ينتقل حقه الذى قضى به له ربه جلّ ثناؤه ، عما قضى به له إلى غيره ، إلا بنقل الله ذلك عنه إلى من نقله إليه من خلقه ، فكان فى فرضه تعالى ذكره للأم مافرض ، إذا لم يكن لولدها الميت وارث غيرها وغير والده، لوائح الدلالة الواضحة للخلق، أن ذلك المفروض هو ثلث مال ولدها الميت حقّ لها واجب، حتى يغير ذلك الفرض من فرض لها، فلما غير تعالى ذكره مافرض لها من ذلك،مع الإخوة الجماعة، وترك تغييره مع الأخ الواحد ، علم بذلك أن فرضها غير متغير عما فرض لها، إلا فى الحال التى غيره فيها من لزم العباد طاعته ، دون غيرها من الأحوال .

ثم اختلف أهل التأويل فى عدد الإخوة الذين عناهم الله تعالى ذكره بقوله : (فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ) فقال جماعة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتابعين لهم بإحسان ، ومن بعدهم من علماء أهل الإسلام، فى كل زمان:عنى الله جلّ ثناؤه بقوله (فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ) اثنين كان الإخوة أوأكثر منهما ، أنثيين كانتا،أو كنّ إناثا ، أو ذكرين كانا، أو كانوا ذكورا ، أو كان أحدهما ذكرا والآخر أنثى . واعتلّ كثيرممن قال ذلك، بأن ذلك قالته الأمة عن بيان الله جلّ ثناؤه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، فنقلته أمة نبيه نقلا مستفيضا، قطع العذر مجيئه ، ودفع الشكّ فيه عن قلوب الخلق وروده .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما: أنه كان يقول: بل عنى الله جلّ ثناؤه بقوله (فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ): جماعة أقلها ثلاثة ، وكان ينكر أن يكون الله جلّ ثناؤه حجب الأم عن ثلثها مع الأب، بأقلّ من ثلاثة إخوة ، فكان يقول فى أبوين وأخوين : للأم الثلث ، وما بقى فللأب ، كما قال أهل العلم فى أبوين وأخ واحد .

ذكر الرواية عنه بذلك :

حدثنى محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، قال : ثنا ابن أبى فُدَيك ، قال : ثنى ابن أبى ذئب ، عن شُعْبَة مولى ابن عباس ،عن ابن عباس: أنه دخل على عثمان رضى الله عنه، فقال: لم صار الأخوان يَرُدّان الأم إلى السدس ، وإنما قال الله (فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ) والأخوان فى لسان قومك ، وكلام قومك : ليسا بإخوة ، فقال عثمان رضى الله عنه : هل أستطيع نقض أمر كان قبلى ، وتوارثه الناس، ومضى فى الأمصار.

قال أبو جعفر : والصواب من القول فى ذلك عندى : أن المعنىّ بقوله (فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ) اثنان من إخوة الميت فصاعدا، على ماقاله أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، دون ما قاله ابن عباس رضى الله عنهما ، لنقل الأمة وراثة صحة ما قالوه من ذلك عن الحجة ، وإنكارهم ماقاله ابن عباس فى ذلك .

فإن قال قائل : وكيف قيل فى الأخوين إخوة ، وقد علمت أن الأخوين فى منطق العرب مثالا لا يشبه

مثال الإخوة فى منطقها ؟ قيل : إن ذلك وإن كان كذلك ، فإن من شأنها التأليف بين الكلامين بتقارب معنييهما ، وإن اختلفا فى بعض وجوههما ، فلما كان ذلك كذلك ، وكان مستفيضا فى منطقها ، منتشرا مستعملا فى كلامها ، ضربت من عبد الله وعمرو رءوسهما ، وأوجعت منهما ظهورهما ، وكان ذلك أشد استفاضة فى منطقها ، من أن يقال : أوجعت منهما ظهرهما ، وإن كان مقولا : أوجعت ظهرهما ، كما قال الفرزدق :

بِمَا فِى فُؤَادِينَا مِنَ الحُبِّ والهَوَى ... فَيَبْرَأُ مُنْهاضُ الفُؤَادِ المُشَغَّفِ[1]

غير أن ذلك وإن كان مقولا ، فأفصح منه : بما فى أفئدتنا ، كما قال جل ثناؤه (إِنْ تَتُوبا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما) فلما كان ما وصفت من إخراج كل ما كان فى الإنسان واحدا إذا ضمّ إلى الواحد منه آخر ، من إنسان آخر ، فصارا اثنين من اثنين ، فلفظ الجمع أفصح فى منطقها ، وأشهر فى كلامها ، وكان الأخوان شخصين ، كل واحد منهما غير صاحبه من نفسين مختلفين ، أشبه معناهما معنى ما كان فى الإنسان من أعضائه واحدا لا ثانى له ، فأخرج أنثيهما بلفظ أنثى العضوين اللذين وصفت ، فقيل إخوة فى معنى الأخوَين ، كما قيل ظهور فى معنى الظهرين ، وأفواه فى معنى فَمَوين ، وقلوب فى معنى قلبين . وقد قال بعض النحويين : إنما قيل إخوة ، لأن أقلّ الجمع اثنان ، وذلك أنه إذا ضمّ شىء إلى شىء صارا جميعا بعد أن كانا فردين ، فجمعا ليعلم أن الاثنين جمع ، وهذا وإن كان كذلك فى المعنى ، فليس بعلة تنبئ عن جواز إخراج ما قد جرى الكلام مستعملا مستفيضا على ألسن العرب لاثنيه بمثال وصورة ، غير مثال ثلاثة فصاعدا منه وصورتها ، لأن من قال : أخواك قاما ، فلا شكّ أنه قد علم أن كل واحد من الأخرين فرد ، ضم أحدهما إلى الآخر ، فصارا جميعا ، بعد أن كانا شتى عنوان الأمر ، وإن كان كذلك فلا تستجيز العرب فى كلامها أن يقال : أخواك قاموا ، فيخرج قولهم : قاموا ، وهو لفظ للخبر عن الجميع خبرا عن الأخوين ؛ وهما بلفظ الاثنين ، لأن لكل ماجرى به الكلام على ألسنهم مثالا معروفا عندهم ، وصورة إذا غيّر مغير ما قد عرفوه فيهم أنكروه ، فكذلك الأخوان ، وإن كانا مجموعين ضمّ أحدهما إلى صاحبه ، فلهما مثال فى المنطق ، وصورة غير مثال الثلاثة منهم فصاعدا وصورتهم ، فغير جائز أن يغير أحدهما إلى الآخر إلا بمعنى مفهوم ، وإذا كان ذلك كذلك فلا قول أولى بالصحة مما قلنا قبل .

فإن قال قائل : ولم نقصت الأم عن ثلثها ، بمصير إخوة الميت معها اثنين فصاعدا ؟ قيل : اختلفت العلماء فى ذلك ، فقال بعضهم : نقصت الأم عن ذلك دون الأب ، لأن على الأب مؤنهم ، دون أمهم .

---

(١) البيت للفرزدق (ديوانه ص ٥٥٤ طبعة الصاوى) . وهو مرتبط ببيتين قبله ، وهما :

دَعَوْتُ الذى سَوَّى السَّمواتِ أَيْدُهُ ... وَللهُ أَدْنَى مِن وَرِيدِى وَأَلْطَفُ

لِيَشْغَلَ عَنِّى بَعْلَها بِزَمانَةٍ ... تُدَلِّهُهُ عَنِّى وعَنْها فَتُسْعِفُ

بِمَا فى فُؤَادِينا من الهَمِّ والهَوَى ... فَيبرأُ مُنْهاضُ الفُؤَادِ المُسَقَّفُ

والمنهاض : الذى هيض بتشديد الياء : أى هيج مرة بعد مرة . ويروى من الشوق فى موضع من الحب . والمسقف فى موضع المشغف ، كما فى الأبيات . والمسقف : الذى وضع عليه خشب الجبائر . والمشغف : الذى أحرق الحب شغافه . وهذه الرواية أليق ، لأن القلب لاتوضع عليه الجبائر . والمشعف بالعين بدل الغين : أصوب وأجل ، وهو الذى احترق بنار الحب .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ . فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ . فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ . فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ) أنزلوا الأم ، ولا يرثون ، ولا يحجبها الأخ الواحد من الثلث ، ويحجبها ما فوق ذلك ، وكان أهل العلم يرون أنهم إنما حجبوا أمهم من الثلث ، لأن أباهم يلي نكاحهم ، والنفقة عليهم ، دون أمهم .

وقال آخرون : بل نقصت الأم السدس ، وقُصِر بها على سدس واحد ، معونة لإخوة الميت بالسدس ، الذى حجبوا أمهم عنه .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قال : السدس الذى حَجَبته الإخوة الأمّ لهم ، إنما حجبوا أمهم عنه ليكون لهم ، دون أمهم .

وقد روى عن ابن عباس خلاف هذا القول ، وذلك ما حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن عيينة ، عن عمرو ابن دينار ، عن الحسن بن محمد ، عن ابن عباس ، قال : الكَلالة : من لا ولد له ولا والد .

قال أبو جعفر : وأولى ذلك بالصواب : أن يقال فى ذلك : إن الله تعالى ذكره فرض للأم مع الإخوة السدس ، لما هو أعلم به من مصلحة خلقه ، وقد يجوز أن يكون ذلك كان لما ألزم الآباء لأولادهم ، وقد يجوز أن يكون ذلك لغير ذلك ، وليس ذلك مما كلفنا علمه ، وإنما أمرنا بالعمل بما علمنا . وأما الذى رُوى عن طاوس ، عن ابن عباس ، فقول لما عليه الأمة مخالف ، وذلك أنه لاخلاف بين الجميع ألاّ ميراثَ لأخى ميت مع والده ، فكفى إجماعهم على خلافه شاهدا على فساده .

القول فى تأويل قوله تعالى (مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ) :

يعنى جلّ ثناؤه بقوله : (مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ) أن الذى قسم الله تبارك وتعالى لولد الميت الذكور منهم والإناث ولأبويه من تركته من بعد وفاته ، إنما يقسمه لهم على ماقسمه لهم فى هذه الآية ، من بعد قضاء دين الميت الذى مات ، وهو عليه من تركته ، ومن بعد تنفيذ وصيته فى بابها ، بعد قضاء دَينه كله ، فلم يجعل تعالى ذكره لأحد من ورثة الميت ، ولا لأحد ممن أوصى له بشىء ، إلا من بعد قضاء دَينه من جميع تركته ، وإن أحاط بجميع ذلك ، ثم جعل أهل الوصايا بعد قضاء دينه شركاء ورثته فيما بقى لما أوصى لهم به ، ما لم يجاوز ذلك ثلثه ، فإن جاوز ذلك ثلثه جعل الخيار فى إجازة ما زاد على الثلث من ذلك أو ردّه إلى ورثته ، إن أحبوا أجازوا الزيادة على ثلث ذلك ، وإن شاءوا ردّوه ؛ فأما ما كان من ذلك إلى الثلث ، فهو ماضٍ عليهم ، وعلى كل ما قلنا من ذلك الأمة مجمعة .

وقد رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك خبر ، وهو ما حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا يزيد بن هارون ، قال : أخبرنا سفيان ، عن أبى إسحاق ، عن الحارث الأعور ، عن علىّ رضى الله عنه

قال : إنكم تقرءون هذه الآية (مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِها أَوْ دَيْنٍ) إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى بالدَّين قبل الوصية .

حدثنا ابن بشار ، قال: ثنا يزيد بن هارون ، قال : ثنا زكرياء بن أبى زائدة ، عن أبى إسحاق ، عن الحارث ، عن علىّ رضوان الله عليه ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، بمثله .

حدثنا أبو السائب ، قال : ثنا حفص بن غياث ، قال : ثنا أشعث ، عن أبى إسحاق ، عن الحارث ، عن علىّ ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بمثله .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا هارون بن المغيرة ، عن ابن مجاهد ، عن أبيه (مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِها أَوْ دَيْنٍ) قال : يبدأ بالدَّين قبل الوصية .

واختلفت القراء فى قراءة ذلك ، فقرأته عامة قراء أهل المدينة والعراق (يُوصِي بِها أَوْ دَيْنٍ) ، وقرأ بعض أهل مكة والشام والكوفة (يُوصَى بِها) ، على معنى مالم يسمّ فاعله .

قال أبوجعفر : وأولى القراءتين بالصواب : قراءة من قرأ ذلك (مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِها أَوْ دَيْنٍ) على مذهب ماقد سُمِّى فاعله ، لأن الآية كلها خبر عمن قد سُمِّى فاعله ، ألا ترى أنه يقول (وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُما السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كانَ لَهُ وَلَدٌ)فكذلك الذى هوأولى بقوله: (يُوصِي بِها أَوْ دَيْنٍ) أن يكون خبرا عمن قد سُمِّى فاعله ، لأن تأويل الكلام : ولأبويه لكلّ واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد ، من بعد وصية يوصِي بها ، أو دين يُقْضَى عنه .

القول فى تأويل قوله : (آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً) :

يعنى جلّ ثناؤه بقوله: (آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ) هؤلاء الذين أوصاكم الله به فيهم من قسمة ميراث ميتكم فيهم ، على ما سَمَّى لكم ، وبيّنه فى هذه الآية (آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ لاتَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً) يقول : أعطوهم حقوقهم من ميراث ميتهم الذى أوصيتكم أن تعطوهموها ، فإنكم لاتعلمون أيهم أدنى وأشدّ نفعا لكم ، فى عاجل دنياكم ، وآجل أخراكم .

واختلف أهل التأويل فى تأويل قوله: (لاتَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعا) فقال بعضهم : يعنى بذلك : أيهم أقربُ لكم نفعا فى الآخرة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال: ثنى معاوية بن صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، قوله (آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ لاتَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً) يقول : أطوعكم لله من الآباء والأبناء ، أرفعكم درجة يوم القيامة ، لأن الله سبحانه يشفّع المؤمنين بعضهم فى بعض .

وقال آخرون : معنى ذلك : لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعا فى الدنيا .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قوله : (أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً) فى الدنيا .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنى محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، قوله (لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً) قال بعضهم : فى نفع الآخرة ، وقال بعضهم : فى نفع الدنيا .

وقال آخرون فى ذلك بما قلنا .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : فى قوله (لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً) قال : أيهم خير لكم فى الدين والدنيا : الوالد أو الولد ، الذين يرثونكم لم يدخل عليكم غيرهم ، فرضى لهم المواريث ، لم يأت بآخرين يَشْرَكونهم فى أموالكم .

القول فى تأويل قوله (فَرِيضَةً مِنَ اللهِ ، إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً) :

يعنى بقوله جلّ ثناؤه : (فَرِيضَةً مِنَ اللهِ) وإن كان له إخوة فلأمه السدس . فريضة ، يقول : سهاما معلومة موقتة بيّنها الله لهم . ونصب قوله : «فريضة» على المصدر من قوله (يُوصِيكُمُ اللهُ فِى أَوْلادِكُمْ : لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ، فَرِيضَةً) فأخرج فريضة من معنى الكلام . إذ كان معناه ما وصفت ، وقد يجوز أن يكون نصبه على الخروج من قوله : فإن كان له إخوة فلأمه السدس فريضة ، فتكون الفريضة منصوبة على الخروج من قوله : (فَإِنْ كانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ) كما تقول : هو لك هبة ، وهو لك صدقة منى عليك .

وأما قوله (إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً) فإنه يعنى جلّ ثناؤه : إن الله لم يزل ذا علم بما يصلح خلقه أيها الناس ، فانتهوا إلى ما يأمركم ، يصلح لكم أموركم . حكيما : يقول : لم يزل ذا حكمة فى تدبيره ، وهو كذلك فيما يقسم لبعضكم من ميراث بعض ، وفيما يقضى بينكم من الأحكام ، لا يدخل حكمه خلل ولا زلل ، لأنه قضاء مَنْ لا يخفى عليه مواضع المصلحة فى البدء والعاقبة .

القول فى تأويل قوله

﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ، وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ، وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ ، فَإِن

كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : ولكم أيها الناس نصف ما ترك أزواجكم بعد وفاتهن من مال وميراث ، إن لم يكن لهنّ ولد ، يوم يحدث لهنّ الموت ، لاذكر ولا أنثى . فإن كان لهنّ ولد ، أى فإن كان لأزواجكم يوم يحدث لهنّ الموت ولد ذكر أو أنثى ، فلكم الربع مما تركن من مال وميراث ، ميراثا لكم عنهنّ ، من بعد وصية يوصين بها أو دين ، يقول : ذلكم لكم ميراثا عنهنّ ، مما يبقى من تركاتهنّ وأموالهنّ ، من بعد قضاء ديونهنّ التى يمُتْن وهى عليهن ، ومن بعد إنفاذ وصاياهنّ الجائزة ، إن كنّ أوصين بها .

القول فى تأويل قوله (وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ) :

يعنى جلّ ثناؤه بقوله (وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ) : ولأزواجكم أيها الناس ربع ما تركتم ، بعد وفاتكم من مال وميراث ، إن حدث بأحدكم حدث الوفاة ، ولا ولد له ذكر ولا أنثى (فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ) يقول : فإن حدث بأحدكم حدث الموت ، وله ولد ذكر أو أنثى ، واحدا كان الولد أو جماعة (فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم) يقول : فلأزواجكم حينئذ من أموالكم وتركتكم التى تخلّفونها بعد وفاتكم ، الثُّمُنُ ، من بعد قضاء ديونكم التى حدث بكم حدث الوفاة ، وهى عليكم ، ومن بعد إنفاذ وصاياكم الجائزة ، التى توصون بها ؛ وإنما قيل (مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ) ، فقدّم ذكر الوصية على ذكر الدَّين ، لأن معنى الكلام : إن الذى فرضت لمن فرضتُ له منكم فى هذه الآيات ، إنما هو له من بعد إخراج أىّ هذين كان فى مال الميت منكم ، من وصية أو دين ، فلذلك كان سواءً تقديمُ ذكر الوصية قبل ذكر الدين ، وتقديم ذكر الدين قبل ذكر الوصية ، لأنه لم يردْ من معنى ذلك إخراج أحد الشيئين : الدين والوصية ، من ماله ، فيكون ذكر الدين أولى أن يبدأ به من ذكر الوصية .

القول فى تأويل قوله (وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ) :

يعنى بذلك جل ثناؤه : وإن كان رجل أو امرأة يورَث كَلالة .

ثم اختلفت القُرّاء فى قراءة ذلك . فقرأ ذلك عامة قرّاء أهل الإسلام : (وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً) يعنى : وإن كان رجل يورث مُتَكَلَّلَ النسب ، فالكلالة على هذا القول مصدر من قولهم : تَكَلَّله النسب تَكَلُّلا وكَلالة ، بمعنى : تعطف عليه النسب . وقرأه بعضهم (وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَٰلَةً) بمعنى : وإن كان رجل يورث مَنْ يَتَكَلَّله ، بمعنى : من يتعطف عليه بنسبه : من أخ أو أخت .

واختلف أهل التأويل فى الكلالة ، فقال بعضهم : هى ماخلا الوالد والولد .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا الوليد بن شجاع السَّكُونىّ ، قال : ثنى علىّ بن مُسْهِر ، عن عاصم ، عن الشعبىّ ، قال : قال

أبو بكر رضى الله عنه : إنى قد رأيت فى الكلالة رأيا ، فإن كان صوابا فمن الله وحده لاشريك له ، وإن يكن خطأ فمنّى والشيطان ، والله منه برىء ، إن الكلالة : ماخلا الولد والوالد . فلما استُخْلِف عمر رضى الله عنه ، قال : إنى لأستحيى من الله تبارك وتعالى أن أخالف أبا بكر فى رأى رآه .

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا عاصم الأحول ، قال : ثنا الشعبىّ ، أن أبا بكر رضى الله عنه ، قال فى الكلالة : أقول فيها برأيى ، فإن كان صوابا فمن الله : هو ما دون الولد والوالد ، قال : فلما كان عمر رضى الله عنه ، قال : إنى لأستحيى من الله أن أخالف أبا بكر .

حدثنا أبو بشر بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا سفيان ، عن عاصم الأحول ، عن الشعبىّ ، أن أبا بكر وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما قالا : الكلالة : من لاولد له ولا والد .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنى أبى ، عن عمران بن حُدَير ، عن السُّمَيط ، قال : كان عمر رجلا أيسر ، فخرج يوما ، وهو يقول : بيده هكذا ، يديرها ، إلا أنه قال : أتى علىّ حين ولست أدرى ما الكَلالة ؟ ألا وإن الكَلالة : ما خلا الولد والوالد .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن سفيان ، عن جابر ، عن عامر ، عن أبى بكر ، قال : الكلالة ماخلا الولد والوالد .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا سفيان ، عن عمرو بن دينار ، عن الحسن بن محمد ، عن ابن عباس ، قال : الكلالة من لاولد له ولا والد

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : سمعت ابن جُريج يحدّث عن عمرو بن دينار ، عن الحسن بن محمد ، عن ابن عباس ، قال : الكلالة : من لاولد له ولا والد .

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا مؤمل ، قال : ثنا سفيان ، عن عمرو بن دينار ، عن الحسن بن محمد ابن الحنفية ، عن ابن عباس ، قال : الكلالة : ما خلا الولد والوالد .

حدثنا ابن بشار وابن وكيع ، قالا : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا أبى ، عن إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن سليم بن عبد ، عن ابن عباس ، بمثله .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن سليم بن عبد السَّلولىّ ، عن ابن عباس ، قال : الكلالة : ما خلا الولد والوالد .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية بن صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، قوله (وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ) قال : الكلالة : من لم يترك ولدا ولا والدا .

حدثنى محمد بن عُبيد المحاربىّ ، قال : ثنا أبو الأحوص ، عن أبى إسحاق ، عن سليم بن عبد ، قال : ما رأيتهم إلا قد اتفقوا : أن من مات ولم يدع ولدا ولا والدا : أنه كَلالة .

حدثنا تميم بن المنتصر ، قال : ثنا إسحاق بن يوسف ، عن شريك ، عن أبى إسحاق ، عن سليم بن عبد ، قال : ما رأيتهم إلا قد أجمعوا أن الكلالة : الذى ليس له ولد ولا والد .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن أبى إسحاق ، عن سليم بن عبد ، قال : الكلالة : ما خلا الولد والوالد .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا ابن فضيل ، عن أشعث ، عن أبى إسحاق ، عن سليم بن عبد ، قال : أدركتهم ، وهم يقولون : إذا لم يدع الرجل ولدا ولا والدا وُرِث كلالة .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد بن زُريع ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ) والكلالة : الذى لاولد له ولا والد ، لاأب ولا جدّ ، ولا ابن ولا ابنة ، فهؤلاء الإخوة من الأم .

حدثنى محمد بن المثنى ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، عن شعبة ، عن الحكم ، قال فى الكلالة : مادون الولد والوالد .

حدثنا يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : الكَلالة : كل من لايرثه والد ولا ولد ، وكلّ من لاولد له ولا والد ، فهو يُورَث كلالة ، من رجالهم ونسائهم .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة والزهرىّ وأبى إسحاق ، قال : الكلالة : من ليس له ولد ولا والد .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا محمد بن محمد ، عن معمر ، عن الزهرىّ وقتادة ، وأبى إسحاق ، مثله .

وقال آخرون : الكَلالة : مادون الولد ، وهذا قول عن ابن عباس ، وهو الخبر الذى ذكرناه قبلُ من رواية طاوس عنه ، أنه ورّث الإخوة من الأم السدس مع الأبوين .

وقال آخرون : الكَلالة : ما خلا الوالد .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا سهل بن يوسف ، عن شُعبة ، قال : سألت الحكَم عن الكلالة ؟ قال : فهو ما دون الأب .

واختلف أهل العربية فى الناصب للكلالة ، فقال بعض البصريين : إن شئت نصبت كلالة على خبر كان ، وجعلتَ يورث من صفة الرجل ، وإن شئت جعلت كان تستغنى عن الخبر نحو : وقع ، وجعلت نصب كلالة على الحال : أى يورث كلالة ، كما يقال : يضرب قائمًا . وقال بعضهم : قوله : كلالة خبر كان ، لايكون الموروث كلالة ، وإنما الوارث الكلالة [1] .

قال أبو جعفر : والصواب من القول فى ذلك عندى : أن الكلالة منصوب على الخروج ، من قوله : (يُورَثُ) ، وخبر كان يورث ، والكلالة وإن كانت منصوبة بالخروج من يورث ، فليست منصوبة على

(١) قوله « وإنما الوارث الكلالة » أى على جعل الرجل هو الوارث ، على قراءة الفعل مبنيا للمجهول ، كما فى الكشاف .

الحال ، ولكن على المصدر من معنى الكلام ،لأن معنى الكلام ،وإن كان رجل يورث متكلله النسب كلالة ، ثم ترك ذكر متكلله ، اكتفاء بدلالة قوله : يُورَث عليه .

واختلف أهل العلم فى المسمى كلالة ، فقال بعضهم : الكلالة : الموروث ، وهو الميت نفسه ، سمى بذلك إذا ورثه غير والده وولده .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ قولهم فى الكلالة ، قال : الذى لايدع والدا ولا ولدا .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا ابن عيينة ، عن سليمان الأحول ، عن طاوس ، عن ابن عباس ، قال : كنت آخر الناس عهدا بعمر رضى الله عنه ، فسمعته يقول : ماقلتُ . قلتُ : وما قلتَ ؟ قال : الكلالة : من لاولد له .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ويحيى بن آدم ، عن إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن سليمان بن عبد ، عن ابن عباس ، قال : الكلالة : من لاولد له ولا والد .

وقال آخرون : الكلالة : هى الورثة الذين يرثون الميت ، إذا كانوا إخوة أو أخوات ، أو غيرهم إذا لم يكونوا ولدا ولا والدا ، على ما قد ذكرنا من اختلافهم فى ذلك .

وقال آخرون : بل الكلالة : الميت والحىّ جميعا .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : الكلالة : الميت الذى لاولد له ولا والد ، والحىّ ، كلهم كلالة ، هذا يرث بالكلالة ، وهذا يورَث بالكلالة .

قال أبو جعفر : والصواب من القول فى ذلك عندى : ما قاله هؤلاء ، وهو أن الكلالة الذين يرثون الميت ، مَن عدا ولده ووالده ، وذلك لصحة الخبر الذى ذكرناه عن جابر بن عبد الله أنه قال : قلت يارسول الله ، إنما يرثنى كَلالة ، فكيف بالميراث ؟

وبما حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا ابن علية ، عن ابن عون ، عن عمرو بن سعيد ، قال : كنا مع حميد بن عبد الرحمن فى سوق الرقيق ، قال : فقام من عندنا ثم رجع ، فقال : هذا آخر ثلاثة من بنى سعد حدثه فى هذا الحديث ، قالوا : مرض سعدٌ بمكة مرضا شديدا ، قال : فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوده ، فقال : يا رسول الله ؟ لى مال كثير ، وليس لى وارث إلا كلالة ، فأُوْصِى بمالى كله ؟ فقال : لا .

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا ابن علية ، قال : ثنا إسحاق بن سُوَيد ، عن العلاء بن زياد ، قال : جاء شيخ إلى عمر رضى الله عنه ، فقال : إنى شيخ ، وليس لى وارث إلا كلالة ، أعراب متراخٍ نسبهم ، أفأوصى بثلث مالى ؟ قال : لا . فقد أنبأتْ هذه الأخبار عن صحة ما قلنا فى معنى الكلالة ، وأنها ورَثَة الميت دون الميت ، ممن عدا والده وولده .

القول فى تأويل قوله (وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ ، فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ ، فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِى الثُّلُثِ) :

يعنى بقوله جلّ ثناؤه : وله أخ أو أخت : وللرجل الذى يورث كلالة أخ أو أخت ، يعنى أخا أو أختا من أمه .

كما حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن يعلى بن عطاء ، عن القاسم ، عن سعد ، أنه كان يقرأ (وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ) قال سعد: لأمه

حدثنا محمد بن المثنى ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قا : ثنا شعبة ، عن يعلى بن عطاء ، قال : سمعت القاسم بن ربيعة يقول : قرأت على سعد (وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ) قال سعد : لأمه .

حدثنى محمد بن المثنى ، قال : ثنا وهب بن جرير ، قال : ثنا شعبة ، عن يعلى بن عطاء ، عن القاسم ابن ربيعة ، عن فاتك ، قال : قرأت على سعد ، فذكر نحوه .

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : أخبرنا هشيم ، قال : أخبرنا يعلى بن عطاء ، عن القاسم بن ربيعة ، قال : سمعت سعد بن أبى وقاص قرأ : وإن كان رجل يورث كلالة ، وله أخ أو أخت من أمه .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد بن زُرَيع ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ) فهؤلاء الإخوة من الأم ، إن كان واحدا فله السدس ، وإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث ، ذكرهم وأُنثاهم فيه سواء .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن مفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ) ، فهؤلاء الإخوة من الأم ، فهم شركاء فى الثلث ، سواء الذكر والأنثى ، وقوله (فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ) إذا انفرد الأخ وحده ، أو الأخت وحدها ، ولم يكن أخ غيره أو غيرها من أمه ، فله السدس من ميراث أخيه لأمه ، فإن اجتمع أخ وأخت أو أخوان لاثالث معهما لأمهما ، أو أختان كذلك ، أو أخ وأخت ليس معهما غيرهما من أمهما ، فلكلّ واحد منهما من ميراث أخيهما لأمهما السدس (وَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ) يعنى : فإن كان الإخوة والأخوات لأمّ الميت الموروث كلالة أكثر من اثنين (فَهُمْ شُرَكَاءُ فِى الثُّلُثِ) يقول : فالثلث الذى فرضت لاثنيهم إذا لم يكن غيرهما من أمهما ميراثا لهما من أخيهما الميت الموروث كلالة ، شركة بينهم ، إذا كانوا أكثر من اثنين إلى ما بلغ عددهم ، على عدد رءوسهم ، لايفضل ذكر منهم على أنثى فى ذلك ، ولكنه بينهم بالسوية .

فإن قال قائل : وكيف قيل : وله أخ أو أخت ، ولم يقل لهما أخ أو أخت ، وقد ذكر مثل ذلك رجل أو امرأة ، فقيل : وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة ؟ قيل : إن من شأن العرب إذا قدمت ذكر اسمين قبل الخبر ، فعطفت أحدهما على الآخر بأو ، ثم أتت بالخبر ، أضافت الخبر إليهما أحيانا ، وأحيانا إلى أحدهما ، وإذا

أضافت إلى أحدهما ، كان سواء عندها إضافة ذلك إلى أىّ الاسمين اللذين ذكرتهما إضافته ، فتقول : من كان عنده غلام أو جارية ، فليحسن إليه ، يعنى : فليحسن إلى الغلام ، وفليحسن إليها ، يعنى : فليحسن إلى الجارية ، وفليحسن إليهما . وأما قوله (فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ) و قد تقدم ذكر الأخ والأخت بعطف أحدهما على الآخر ، والدلالة على أن المراد بمعنى الكلام أحدُهما فى قوله (وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ) ، فإن ذلك إنما جاز لأن معنى الكلام : ولكل واحد من المذكورين السدس .

القول فى تأويل قوله (مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ ، وَصِيَّةً مِنَ اللهِ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ) :

يعنى جلّ ثناؤه بقوله (مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا) : أى هذا الذى فرضت لأخى الميت الموروث كلالة وأخته أو إخوته وأخواته من ميراثه وتَركته ، إنما هولهم من بعد قضاء دَين الميت الذى كان عليه يوم حدث به حدث الموت من تركته ، وبعد إنفاذ وصاياه الجائزة التى يوصى بها فى حياته لمن أوصى له بها بعد وفاته .

كما حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ) والدَّين أحقّ ما بدئ به من جميع المال ، فيؤدى عن أمانة الميت ، ثم الوصية ، ثم يقسم أهل الميراث ميراثهم .

وأما قوله (غَيْرَ مُضَارٍّ) فإنه يعنى تعالى ذكره : من بعد وصية يوصَى بها غير مضارٍّ ورثته فى ميراثهم عنه .

كما حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله (غَيْرَ مُضَارٍّ) قال : فى ميراث أهله .

حدثنى القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، قوله (غَيْرَ مُضَارٍّ) قال : فى ميراث أهله .

حدثنا بشر بن معاذ، قال: ثنى يزيد، قال: ثنى سعيد، عن قتادة، قوله: (غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللهِ) إن الله تبارك وتعالى كره الضرار فى الحياة وعند الموت ونهى عنه، وقدم فيه، فلا تصلح مضارّة فى حياة ولاموت.

حدثنى نصر بن عبد الرحمن الأودى ، قال : ثنا عبيدة بن حميد ، وثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا ابن علية جميعا ، عن داود بن أبى هند ، عن عكرمة ، عن ابن عباس فى هذه الآية (غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللهِ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ) قال : الضرار فى الوصية من الكبائر .

حدثنا ابن أبى الشوارب ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا داود ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : الضرار فى الوصية من الكبائر

حدثنا حميد بن مسعدة ، قال : ثنا بشر بن المفضل ، قال: ثنا داود ، عن عكرمة ، عن ابن عباس مثله .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا عبد الوهاب ، قال : ثنا داود ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : الحيف فى الوصية من الكبائر .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا ابن أبى عدىّ وعبد الأعلى ، قالا : ثنا داود ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : الضرار والحيف فى الوصية من الكبائر .

حدثنى موسى بن سهل الرملى ، قال : ثنا إسحاق بن إبراهيم أبوالنضر ، قال : ثنا عمرو بن المغيرة ، قال : ثنا داود بن أبى هند ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، قال : الضرار فى الوصية من الكبائر .

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا أبوعمرو التيمىّ ، عن أبى الضحى ، قال : دخلت مع مسروق على مريض ، فإذا هو يوصى ، قال : فقال له مسروق : اعدل لاتَضْلِلْ . ونصبت «غير مضارّ» على الخروج من قوله (يُوصَى بِها) وأما قوله(وَصِيَّةً)فإن نصبه من قوله(يُوصِيكُمُ اللهُ فِى أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ) وسائر ما أوصى به فى الاثنين . ثم قال : (وَصِيَّةً مِنَ اللهِ) مصدرا من قوله (يُوصِيكُمْ) . وقد قال بعض أهل العربية : ذلك منصوب من قوله (فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُما السُّدُسُ ، وَصِيَّةً مِنَ اللهِ) قال : هو مثل قولك : لك درهمان نفقةً إلى أهلك .

والذى قلناه بالصواب أولى ، لأن الله جلّ ثناؤه افتتح ذكر قسمة المواريث فى هاتين الآيتين بقوله (يُوصِيكُمُ اللهُ) ، ثم ختم ذلك بقوله (وَصِيَّةً مِنَ اللهِ) ، أخبر أن جميع ذلك وصية منه به عباده ، فنصبُ قوله (وَصِيَّةً) على المصدر من قوله (يُوصِيكُمْ) أولى من نصبه على التفسير من قوله (فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُما السُّدُسُ) لما ذكرنا ، ويعنى بقوله تعالى ذكره (وَصِيَّةً مِنَ اللهِ) : عهدا من الله إليكم فيما يجب لكم من ميراث من مات منكم (وَاللهُ عَلِيمٌ) يقول : والله ذوعلم بمصالح خلقه ومضارّهم ، ومن يستحق أن يعطى من أقرباء من مات منكم وأنسبائه من ميراثه ، ومن يُحْرَم ذلك منهم ، ومبلغ ما يستحق به كلّ من استحقّ منهم قسْما ، وغير ذلك من أمور عباده ومصالحهم . (حَلِيمٌ) يقول : ذو حلم على خلقه ، وذو أناة فى تركه معاجلتهم بالعقوبة ، على ظلم بعضهم بعضا ، فى إعطائهم الميراثَ لأهل الجَلَد والقوّة من ولد الميت ، وأهل الغَناء والبأس منهم ، دون أهل الضعف والعجز ، من صغار ولده وإناثهم .

القول فى تأويل قوله تعالى

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ، وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ، وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣)

قال أبو جعفر : اختلف أهل التأويل فى تأويل قوله (تِلْكَ حُدُودُ اللهِ) ، فقال بعضهم : يعنى به : تلك شروط الله .

ذكرُ من قال ذلك :

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن مفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (تِلْكَ حُدُودُ اللهِ) يقول : شروط الله .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : تلك طاعة الله .

ذكر من قال ذلك :

حدثني المثنى ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثنا معاوية بن صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، قوله (تِلْكَ حُدُودُ اللهِ) يعنى : طاعة الله ، يعنى : المواريث التى سمى الله .

وقال آخرون : معنى ذلك : تلك سنة الله وأمره .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : تلك فرائض الله .

قال أبو جعفر : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب : مانحن مبيِّنوه ، وهو أن حدّ كلّ شىء مافصَل بينه وبين غيره . ولذلك قيل لحدود الدار وحدود الأرضين : حدود ، لفصولها بين ما حدّ بها وبين غيره ، فكذلك قوله (تِلْكَ حُدُودُ اللهِ) معناه : هذه القسمة التى قسمها لكم ربكم ، والفرائض التى فرضها لأُحيائكم من موتاكم فى هذه الآية ، على مافرض وبيّن فى هاتين الآيتين حدود الله ، يعنى : فصولَ ما بين طاعة الله ومعصيته ، فى قَسْمكم مواريث موتاكم ، كما قال ابن عباس ، وإنما ترك طاعة الله ، والمعنىّ بذلك حدود طاعة الله ، اكتفاء بمعرفة المخاطبين بذلك ، بمعنى الكلام من ذكرها ، والدليل على صحة ما قلنا فى ذلك قوله : (وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ) . . . الآية التى بعدها (وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ) .

فتأويل الآية إذنْ : هذه القسمة التى قسم بينكم أيها الناس عليها ربكم مواريث موتاكم ، فصول فصل بها لكم بين طاعته ومعصيته ، وحدود لكم تنتهون إليها ، فلا تتعدّوها ، وفصَل منكم أهل طاعته من أهل معصيته ، فيما أمركم به من قسمة مواريث موتاكم بينكم ، وفيما نهاكم عنه منها ؛ ثم أخبر جلّ ثناؤه عما أعدّ لكلّ فريق منهم ، فقال لفريق أهل طاعته فى ذلك (وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ) فى العمل بما أمره به ، والانتهاء إلى ما حدّه له ، فى قسمة المواريث وغيرها ، ويجتنب مانهاه عنه فى ذلك وغيره (يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ) ، فقوله (يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ) يعنى : بساتين تجرى من تحت غروسها وأشجارها الأنهار (خالِدِينَ فِيها) يقول : باقين فيها أبدا ، لايموتون فيها ، ولا يفنَوْن ، ولا يخرجون منها ، (وذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ) يقول : وإدخال الله إياهم الجنان التى وصفها على ماوصف من ذلك ، الفوز العظيم ، يعنى : الفَلَج العظيم .

وبنحو ما قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد (تِلْكَ حُدُودُ اللهِ ، وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ) . . . الآية ، قال : فى شأن المواريث ، التى ذكر قبل .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (تِلْكَ حُدُودُ اللهِ) التى حدّ لخلقه ، وفرائضه بينهم من الميراث والقسمة ، فانتَهوا إليها ، ولا تعدَّوها إلى غيرها .

القول فى تأويل قوله

وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ، وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا ، وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٤)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه (وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ) فى العمل بما أمراه به من قسمة المواريث، على ما أمراه بقسمة ذلك بينهم، وغير ذلك من فرائض الله، مخالفا أمرهما إلى ما نهياه عنه، ويتعدّ حدوده، يقول: ويتجاوز فصول طاعته، التى جعلها تعالى فاصلة بينها وبين معصيته، إلى ما نهاه عنه من قسمة تركات موتاهم بين ورثته، وغير ذلك من حدوده، يدخله نارا خالدا فيها، يقول: باقيا فيها أبدا، لايموت، ولا يخرج منها أبدا، وله عذاب مهين، يعنى: وله عذاب مذلّ مَنْ عذّب به، مخز له.

وبنحو ما قلنا فى تأويل ذلك، قال أهل التأويل.

ذكر من قال ذلك:

حدثنا المثنى، قال: ثنا عبد الله بن صالح، قال: ثنى معاوية بن صالح، عن علىّ بن أبى طلحة، عن ابن عباس (وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ)... الآية فى شأن المواريث التى ذكر قبل، قال ابن جريج: ومن يعص الله ورسوله، قال: من أصاب من الذنوب ما يعذّب الله عليه.

فإن قال قائل: أوَ يُخلّد فى النار من عصى الله ورسوله فى قسمة المواريث؟ قيل: نعم، إذا جمع إلى معصيتهما فى ذلك شكا فى أن الله فرض عليه مافرض على عباده فى هاتين الآيتين، أو علم ذلك، فحادّ الله ورسوله فى أمرهما، على ما ذكر ابن عباس، من قول من قال، حين نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم قول الله تبارك وتعالى: (يُوصِيكُمُ اللهُ فِى أَوْلَادِكُمْ: لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ)... إلى تمام الآيتين، أيورث من لايركب الفرس، ولا يقاتل العدوّ، ولا يحوز الغنيمة، نصف المال أو جميع المال؟ استنكارا منهم قسمة الله ماقسم لصغار ولد الميت ونسائه وإناث ولده، ممن خالف قسمة الله ماقسم من ميراث أهل الميراث بينهم، على ماقسمه فى كتابه، وخالف حكمه فى ذلك وحكم رسوله، استنكارا منه حكمهما، كما استنكره الذين ذكر أمرهم ابن عباس، ممن كان بين أظهر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنافقين، الذين فيهم نزلت وفى أشكالهم، هذه الآية، فهو من أهل الخلود فى النار، لأنه باستنكاره حكم الله فى تلك، يصير بالله كافرا، ومن ملة الإسلام خارجا.

القول فى تأويل قوله

وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ، فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ ، أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (١٥)

يعنى بقوله جلّ ثناؤه (وَاللَّاتِى يَأْتِينَ الفَاحِشَةَ) والنساء اللاتى يأتين بالزنا: أى يزنين (مِنْ نِسَائِكُمْ) وهن مُحصَنات ذوات أزواج، أو غير ذوات أزواج (فاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً

مِنْكُمْ) يقول : فاستشهدوا عليهن بما أتين به من الفاحشة ، أربعة رجال من رجالكم ، يعنى : من المسلمين ، (فَإِنْ شَهِدُوا عَلَيْهِنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ) يقول : فاحبسوهن فى البيوت (حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ) يقول : حتى يمتن (أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً) يعنى : أو يجعل الله لهن مخرجا وطريقا إلى النجاة ، مما أتين به من الفاحشة .

وبنحو ما قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا أبو هشام الرفاعىّ ، عن محمد بن يزيد ، قال : ثنا يحيى بن أبى زائدة ، عن ابن جريج ، عن مجاهد (وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ . فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ ، فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ) : أمر بحبسهن فى البيوت حتى يمتن (أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً) قال : الحدّ .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله (وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ) قال : الزنا ، كان أمر بحبسهن حين يشهد عليهن أربعة حتى يمتن ، (أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً) والسبيل : الحدّ .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : حدثنى معاوية بن صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، قوله (وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ) إلى (أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً) ، فكانت المرأة إذا زنت ، حُبست فى البيت حتى تموت ، ثم أنزل الله تبارك وتعالى بعد ذلك (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ) ، فإن كانا مُحْصَنَين رُجما ، فهذا سبيلهما الذى جعل الله لهما .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس قوله (أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً) فقد جعل الله لهن ، وهو الجَلْد والرَّجْم .

حدثنى بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ) حتى بلغ (أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً) كان هذا من قِبَل الحدود ، فكانا يُؤْذَيان بالقول جميعا ، وبحبس المرأة ، ثم جعل الله لهن سبيلا ، فكان سبيل من أَحْصَن جلد مائة ، ثم رمى بالحجارة ، وسبيل من لم يحصن جلد مائة ، ونفى سنة .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال عطاء بن أبى رباح وعبد الله بن كثير : الفاحشة : الزنا ، والسبيل : الرجْم والجلْد .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن مفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ) إلى (أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً) : هؤلاء اللاتى قد نكحن وأُحْصِنَّ ، إذا زنت المرأة ، فإنها كانت تحبس فى البيت ، ويأخذ زوجها مهرها

فهو له ، فذلك قوله (وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا، إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ، وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ) حتى جاءت الحدود فنسختها ، فجُلدت ورُجمت ، وكان مهرها ميراثا ، فكان السبيل هو الجلد .

حُدثت عن الحسين بن الفرج ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد بن سلمان ، قال : سمعت الضحاك بن مزاحم يقول فى قوله (أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً) قال : الحدّ ، نسخ الحدّ هذه الآية .

حدثنا أبو هشام الرفاعىّ ، قال : ثنا يحيى ، عن إسرائيل ، عن خَصيف ، عن مجاهد (أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً) قال : جلد مائة الفاعلِ والفاعلة .

حدثنا الرفاعى ، قال : ثنا يحيى ، عن ورقاء ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قال : الجلد .

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا معاذ بن هشام ، قال : ثنا أبى ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن حِطّان ابن عبد الله الرَّقاشىّ ، عن عُبادة بن الصامت ، أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان إذا نزل عليه الوحى ، نكس رأسه ، ونكس أصحابه رءوسهم ؛ فلما سُرّى عنه ، رفع رأسه فقال : قد جعل الله لهنّ سبيلا ، الثيّب بالثيب ، والبكر بالبكر ؛ أما الثيب : فتجلد ثم ترجَم ؛ وأما البكر : فتجلد ثم تنفَى .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الأعلى ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، عن حِطّان بن عبد الله ، عن عبادة بن الصامت ، قال : قال نبىّ الله صلى الله عليه وسلم : «خُذُوا عَنِّى ، قَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً ، الثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ ، تُجْلَدُ مِائَةً ، وَتُرْجَمُ بِالحِجَارَةِ ، وَالبِكْرُ : جَلْدُ مِائَةٍ ، وَنَفْىُ سَنَةٍ » .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن حِطّان بن عبد الله أخى بنى رَقاشٍ عن عبادة بن الصامت ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا نزل عليه الوحى ، كُرِب لذلك ، وتربّد له وجهه ، فأنزل الله عليه ذات يوم ، فلقى ذلك ، فلما سرّى عنه ، قال : «خُذُوا عَنِّى . قَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً ، الثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ ، جَلْدُ مِائَةٍ ، ثُمَّ رَجْمٌ بِالحِجَارَةِ ، وَالبِكْرُ بِالبِكْرِ : جَلْدُ مِائَةٍ ثُمَّ نَفْىُ سَنَةٍ » .

حدثنا يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (وَاللَّاتِى يَأْتِينَ الفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ ، فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى البُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ المَوْتُ ، أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً) قال : يقول : لاتنكحوهنّ حتى يتوفاهنّ الموت ، ولم يخرجهنّ من الإسلام ، ثم نُسِخ هذا ، وجعل السبيل التى ذَكَر أن يجعل لهن سبيلا ، قال : فجعل لها السبيل ، إذا زنت وهى محصنة ، رُجمت وأخرجت ، وجعل السبيل للبكر جلد مائة .

حدثنى يحيى بن أبى طالب ، قال : أخبرنا جويبر ، عن الضحاك فى قوله (حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ المَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً) قال : الجلد والرجم .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا محمد بن أبى جعفر ، قال : ثنا شعبة ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن حِطّان ابن عبد الله الرَّقاشىّ ، عن عُبادة بن الصامت ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خُذُوا عَنِّى

قَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً : الثَّيِّبُ بالثَّيِّبِ ، وَالبِكْرُ بالبِكْرِ ، الثَّيِّبُ تُجْلَدُ وتُرْجَمُ ، والبِكْرُ تُجْلَدُ وَتُنْفَى » .

حدثنى يحيى بن إبراهيم المسعودى ، قال : ثنا أبى ، عن أبيه ، عن جده ، عن الأعمش ، عن إسماعيل ابن مسلم البصرىّ ، عن الحسن ، عن عبادة بن الصامت ، قال : كنا جلوسا عند النبىّ صلى الله عليه وسلم إذ احمرّ وجهه ، وكان يفعل ذلك إذا نزل عليه الوحى ، فأخذه كهيئة الغَشْى ، لما يجد من ثقل ذلك ، فلما أفاق قال : « خُذُوا عَنِّى ، قَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً ، البِكْرَانِ يُجْلَدَانِ وَيُنْفَيانِ سَنَةً ، والثَّيِّبانِ يُجْلَدَانِ وَيُرْجَمانِ » .

قال أبو جعفر : وأولى الأقوال بالصحة فى تأويل قوله (أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً) : قول من قال : السبيل التى جعلها الله جلّ ثناؤه للثيبين المحصَنين الرجم بالحجارة ، وللبكرين جلد مائة ، ونفى سنة ، لصحة الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رَجَم ولم يجلد ؛ وإجماع الحجة التى لا يجوز عليها فما نقلته مجمعة عليه الخطأ والسهو والكذب ؛ وصحة الخبر عنه ، أنه قضى فى البكرين بجلد مائة ، ونَفْى سنة ، فكان فى الذى صحّ عنه من تركه ، جلد من رجم من الزناة فى عصره ، دليل واضح على وَهْىِ الخبر الذى رُوِى عن الحسن عن حطان عن عبادة ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : السبيل للثيب المحصن : الجلد والرجم . وقد ذكر أن هذه الآية فى قراءة عبد الله : واللاتى يأتين بالفاحشة من نسائكم . والعرب تقول : أتيت أمرا عظيما ، وبأمر عظيم ، وتكلمت بكلام قبيح ، وكلاما قبيحا .

القول فى تأويل قوله

وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ، فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ، إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (١٦)

يعنى جلّ ثناؤه بقوله (وَاللَّذَانِ يَأْتِيانِها مِنْكُمْ) : والرجل والمرأة اللذان يأتيانها ، يقول : يأتيان الفاحشة ، والهاء و الألف فى قوله (يَأْتِيانِها) عائدة على الفاحشة التى فى قوله (واللاَّتِى يَأْتِينَ الفاحِشَةَ مِنْ نِسائِكُمْ) والمعنى : واللذان يأتيان منكم الفاحشة فآذوهما .

ثم اختلف أهل التأويل فى المعنىّ بقوله (وَاللَّذَانِ يَأْتِيانِها مِنْكُمْ فآذوهُما) فقال بعضهم : هما البكران اللذان لم يُحْصَنا ، وهما غير اللاتى عُنِين بالآية قبلها ، وقالوا : قوله (واللاَّتِى يَأْتِينَ الفاحِشَةَ مِنْ نِسائِكُمْ) معنىٌّ به الثيبات المحصنات بالأزواج ، وقوله (وَاللَّذَانِ يَأْتِيانِها مِنْكُمْ) يعنى به : البكران غير المحصنين .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، ذكر الجوارى والفتيان اللذين لم ينكحوا ، فقال : (وَاللَّذَانِ يَأْتِيانِها مِنْكُمْ فَآذُوهُما) .

حدثنا يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ) البكران فآذوهما .

وقال آخرون : بل عنى بقوله (وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ) الرجلان الزانيان .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا أبوهشام الرفاعىّ ، قال : ثنا يحيى ، عن ابن جريج ، عن مجاهد (وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا) قال : الرجلان الفاعلان ، لايكنى .

حدثنا محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله : (وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ) : الزانيان .

وقال آخرون : بل عنى بذلك الرجل والمرأة ، إلا أنه لم يقصد به بكر دون ثيب .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا أبوهشام الرفاعىّ ، قال : ثنا يحيى ، عن ابن جريج ، عن عطاء (وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا) قال : الرجل والمرأة .

حدثنا محمد بن حميد ، قال : ثنا يحيى بن واضح ، قال : ثنا الحسين ، عن يزيد النحوىّ ، عن عكرمة والحسن البصرىّ ، قالا : (وَاللاَّتِى يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ) إلى قوله (أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً) فذكر الرجل بعد المرأة ، ثم جمعهما جميعا ، فقال : (وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا ، فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا) .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال عطاء وعبد الله ابن كثير ، قوله : (وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ) قال : هذه للرجل والمرأة جميعا .

قال أبو جعفر : وأولى هذه الأقوال بالصواب فى تأويل قوله (وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ) : قول من قال : عُنى به البكران غير المُحْصَنين إذا زنيا ، وكان أحدهما رجلا ، والآخر امرأة ، لأنه لو كان مقصودا بذلك قصد البيان عن حكم الزناة من الرجال ، كما كان مقصودا بقوله (وَاللاَّتِى يَأْتِينَ بِالْفَاحِشَةِ مِنْ نِسَائِكُمْ) قصد البيان عن حكم الزوانى ، لقيل : والذين يأتونها منكم فآذوهم ، أو قيل : والذى يأتيها منكم ، كما قيل فى التى قبلها (وَاللاَّتِى يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ) فأخرج ذكرهنّ على الجمع ، ولم يقل : واللتان يأتيان الفاحشة ، وكذلك تفعل العرب إذا أرادت البيان على الوعيد على فعل ، أو الوعد عليه ، أخرجت أسماء أهله بذكر الجمع أو الواحد ، وذلك أن الواحد يدلّ على جنسه ، ولا تخرجها بذكر اثنين ، فتقول : الذين يفعلون كذا ، فلهم كذا ، والذى يفعل كذا ، فله كذا ، ولا تقول : اللذان يفعلان كذا ، فلهما كذا ، إلا أن يكون فعلا لايكون إلا من شخصين مختلفين ، كالزنا لايكون إلامن زان وزانية ، فإذا كان ذلك كذلك ، قيل بذكر الاثنين ، يراد بذلك الفاعل والمفعول به ، فأما أن يذكر بذكر الاثنين ، والمراد بذلك شخصان فى فعل ، قد ينفرد كلّ واحد منهما به ، أو فى فعل لايكونان فيه مشتركين ،

فذلك ما لا يعرف فى كلامها . وإذا كان ذلك كذلك ، فبيِّن فساد قول من قال : عنى بقوله : (وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ) الرجلان ، وصحة قول من قال : عنى به الرجل والمرأة . وإذا كان ذلك كذلك ، فمعلوم أنهما غير اللواتى تقدم بيان حكمهن فى قوله (واللاتى يأتين الفاحشة) لأن هذين اثنان ، وأولئك جماعة . وإذا كان ذلك كذلك ، فمعلوم أن الحبس كان للثيبات عقوبة ، حتى يتوفين من قبل أن يجعل لهن سبيلا ، لأنه أغلظ فى العقوبة من الأذى ، الذى هو تعنيف وتوبيخ ، أو سب وتعيير ، كما كان السبيل التى جعلت لهن ، من الرجم ، أغلظ من السبيل التى جعلت للأبكار ، من جلد المائة ، ونفى السنة .

القول فى تأويل قوله (فَآذُوهُمَا ، فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا) :

اختلف أهل التأويل فى الأذى الذى كان الله تعالى ذكره جعله عقوبة للذين يأتيان الفاحشة من قبل أن يجعل لهما سبيلا منه ، فقال بعضهم : ذلك الأذى ، أذى بالقول واللسان ، كالتعيير والتوبيخ على ما أتيا من الفاحشة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (فَآذُوهُمَا) قال : كانا يؤذيان بالقول جميعا .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن مفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (فَآذُوهُمَا ، فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا) . فكانت الجارية والفتى إذا زنيا يعنفان ويعيران حتى يتركا ذلك .

وقال آخرون : كان ذلك الأذى ، أذى باللسان ، غير أنه كان سبا .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (فَآذُوهُمَا) يعنى : سبا .

وقال آخرون : بل كان ذلك الأذى باللسان واليد .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية بن صالح ، عن على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، قوله (وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا) فكان الرجل إذا زنى أوذى بالتعيير ، وضُرب بالنعال .

قال أبو جعفر : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب : أن يقال : إن الله تعالى ذكره كان أمر المؤمنين بأذى الزانيين المذكورين إذا أتيا ذلك وهما من أهل الإسلام . والأذى قد يقع بكل مكروه نال الإنسان من قول سيئ باللسان ، أو فعل ، وليس فى الآية بيان أن ذلك كان أُمِر به المؤمنون يومئذ ، ولا خبر به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من نقل الواحد ، ولا نقل الجماعة ، الموجب مجيئها قطع العذر . وأهل التأويل فى ذلك

مختلفون ، وجائز أن يكون ذلك أذى باللسان واليد ، وجائز أن يكون كان أذى بأيهما ، وليس فى العلم بأن ذلك كان من أىّ نفع فى دين ولا دنيا ، ولا فى الجهل به مضرّة ، إذ كان الله جلّ ثناؤه قد نسخ ذلك من محكمه ، بما أوجب من الحكم على عباده فيهما ، وفى اللاتى قبلهما ؛ فأما الذى أوجب من الحكم عليهم فيهما ، فما أوجب فى سورة النور بقوله : (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُما مِائَةَ جَلْدَةٍ) . وأما الذى أوجب فى اللاتى قبلهما ، فالرجم الذى قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهما ، وأجمع أهل التأويل جميعا على أن الله تعالى ذكره قد جعل لأهل الفاحشة من الزناة والزوانى سبيلا ، بالحدود التى حكم بها فيهم .

وقال جماعة من أهل التأويل : إن الله سبحانه نسخ بقوله : (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُما مِائَةَ جَلْدَةٍ) قوله (وَاللَّذَانِ يَأْتِيانِها مِنْكُمْ فَآذُوهُما) .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (وَاللَّذَانِ يَأْتِيانِها مِنْكُمْ فَآذُوهُما) ، قال : كل ذلك نسخته الآية التى فى النور بالحدّ المفروض .

حدثنا أبو هشام ، قال : ثنا يحيى ، عن ابن جريج ، عن مجاهد (وَاللَّذَانِ يَأْتِيانِها مِنْكُمْ فَآذُوهُما) . . . الآية ، قال : هذا نسخته الآية فى سورة النور ، بالحدّ المفروض .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا أبو تُمَيلة ، قال : ثنا الحسين بن واقد ، عن يزيد النحوىّ ، عن عكرمة والحسن البصرىّ ، قالا فى قوله (وَاللَّذَانِ يَأْتِيانِها مِنْكُمْ فَآذُوهُما) . . . الآية ، نسخ ذلك بآية الجلد ، فقال : (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُما مِائَةَ جَلْدَةٍ) .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثنى معاوية بن صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، قوله (وَاللَّذَانِ يَأْتِيانِها مِنْكُمْ فَآذُوهُما) . فأنزل الله بعد هذا (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُما مِائَةَ جَلْدَةٍ) فإن كانا مُحْصَنَين رُجما فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن مفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الفاحِشَةَ مِنْ نِسائِكُمْ) . . . الآية ، جاءت الحدود فنسختها .

حُدثت عن الحسين بن الفرج ، قال : سمعت أبا معاذ ، يقول : أخبرنا عُبيد بن سلمان ، قال : سمعت الضحاك يقول : نَسَخ الحدُّ هذه الآية .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا أبو سفيان ، عن معمر ، عن قتادة (فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي البُيُوتِ) . . . الآية ، قال : نسختها الحدود ، وقوله (وَاللَّذَانِ يَأْتِيانِها مِنْكُمْ)نسختها الحدود .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (وَاللَّذَانِ يَأْتِيانِها مِنْكُمْ فَآذُوهُما) . . . الآية ، ثم نسخ هذا ، وجعل السبيل لها إذا زنت وهى مُحْصَنة ، رُجمت ، وأخرجت ، وجعل السبيل للذكر جلد مائة .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله : (فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ) قال : نسختها الحدود .

وأما قوله : (فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا) : فإنه يعنى به جل ثناؤه : فإن تابا من الفاحشة التى أتيا ، فراجعا طاعة الله بينهما وأصلحا ، يقول : وأصلحا دينهما ، بمراجعة التوبة من فاحشتهما ، والعمل بما يرضى الله ، فأعرضوا عنهما ، يقول : فاصفحوا عنهما ، وكفوا عنهما الأذى الذى كنت أمرتكم أن تؤذوهما به ، عقوبة لهما على ما أتيا من الفاحشة ، ولا تؤذوهما بعد توبتهما .

وأما قوله (إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا) فإنه يعنى : أن الله لم يزل راجعا لعبيده إلى ما يحبون ، إذا هم راجعوا ما يحب منهم من طاعته . رحيما بهم : يعنى : ذا رحمة ورأفة .

القول فى تأويل قوله

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ، فَأُولَـٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧)

يعنى بقوله جل ثناؤه (إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ) : ما التوبة على الله لأحد من خلقه ، إلا للذين يعملون السوء من المؤمنين بجهالة (ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ) يقول : ما الله براجع لأحد من خلقه ، إلى ما يحبه من العفو عنه ، والصفح عن ذنوبه التى سلفت منه ، إلا للذين يأتون ما يأتونه من ذنوبهم ، جهالة منهم ، وهم بربهم مؤمنون ، ثم يراجعون طاعة الله ، ويتوبون منه ، إلى ما أمرهم الله به ، من الندم عليه والاستغفار ، وترك العود إلى مثله ، من قبل نزول الموت بهم ، وذلك هو القريب الذى ذكره الله تعالى ذكره ، فقال : (ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ) .

وبنحو ما قلنا فى تأويل ذلك ، قال أهل التأويل ، غير أنهم اختلفوا فى معنى قوله (بِجَهَالَةٍ) فقال بعضهم فى ذلك بنحو ما قلنا فيه ، وذهب إلى أن عمله السوء : هو الجهالة التى عناها :

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، عن أبى العالية : أنه كان يحدث أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون : كل ذنب أصابه عبد فهو بجهالة .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، قوله (لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ) قال : اجتمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأوا أن كل شىء عُصِى به فهو جهالة ، عمدا كان أو غيره .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله : (لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ) قال : كل من عَصَى ربه فهو جاهل ، حتى ينزع عن معصيته .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قوله (إِنَّمَا

التَّوْبَةُ على الله لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ) قال : كل من عمل بمعصية الله ، فذاك منه بجهل ، حتى يرجع عنه .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن مفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (إِنَّمَا التَّوْبَةُ على الله لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ) ما دام يعصى الله فهو جاهل .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا محمد بن فضيل بن غزوان ، عن أبى النضر ، عن أبى صالح عن ابن عباس (إِنَّمَا التَّوْبَةُ على الله لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ) قال : من عمل السوء فهو جاهل ، من جهالته عمل السوء .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، قال : من عصى الله فهو جاهل ، حتى ينزع عن معصيته . قال ابن جريج : وأخبرنى عبد الله بن كثير ، عن مجاهد ، قال : كل عامل بمعصية فهو جاهل ، حين عمل بها . قال ابن جريج ، وقال لى عطاء بن أبى رباح : نحوه .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قول الله (إِنَّمَا التَّوْبَةُ على الله لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ) قال : الجهالة : كل امرئ عمل شيئا من معاصى الله ، فهو جاهل أبدا حتى ينزع عنها ، وقرأ (هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ) ، وقرأ (وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ) : قال : من عصى الله فهو جاهل ، حتى ينزع عن معصيته .

وقال آخرون : معنى قوله (لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ) : يعملون ذلك على عمد منهم له .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا الثورى ، عن مجاهد (يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ) قال : الجهالة : العمد .

قال : حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن سفيان ، عن رجل ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك (إِنَّمَا التَّوْبَةُ على الله لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ) قال : الجهالة : العمد .

وقال آخرون : معنى ذلك : إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء فى الدنيا .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا معتمر بن سليمان ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، قوله (إِنَّمَا التَّوْبَةُ على الله لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ) قال : الدنيا كلها جهالة .

قال أبو جعفر : وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية قول من قال : تأويلها : إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء ، وعملهم السوء هو الجهالة التى جهلوها ، عامدين كانوا للإثم ، أو جاهلين بما أعد الله لأهلها ، وذلك أنه غير موجود فى كلام العرب ، تسمية العامد للشىء : الجاهل به ، إلا أن يكون معنيًّا به أنه جاهل

بقدر منفعته ومضرّته ، فيقال : هو به جاهل ، على معنى جهله بمعنى نفعه وضرّه ؛ فأما إذا كان عالما بقدر مبلغ نفعه وضرّه ، قاصدا إليه ، فغير جائز من غير قصده إليه، أن يقال: هو به جاهل، لأن الجاهل بالشيء هو الذى لا يعلمه ولا يعرفه عند التقدم عليه، أو يعلمه فيشبه فاعله، إذ كان خَطَأً مافعله، بالجاهل الذى يأتى الأمر، وهو به جاهل، فيخطئ موضع الإصابة منه ، فيقال : إنه لجاهل به ، وإن كان به عالما، لإتيانه الأمر الذى لا يأتى مثله إلا أهل الجهل به؛ وكذلك معنى قوله (يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ) : قيل فيهم : يعملون السوء بجهالة ، وإن أتوه على علم منهم بمبلغ عقاب الله أهله ، عامدين إتيانه ، مع معرفتهم بأنه عليهم حرام، لأن فعلهم ذلك كان من الأفعال التى لا يأتى مثله إلا مَن جهل عظيم عقاب الله عليه أهلَه، فى عاجل الدنيا وآجل الآخرة ، فقيل لمن أتاه وهو به عالم ، أتاه بجهالة ، بمعنى : أنه فعل فعل الجهال به ، لا أنه كان جاهلا .

وقد زعم بعض أهل العربية أن معناه : أنهم جهلوا كُنْهَ ما فيه من العقاب، فلم يعلموه كعلم العالم ، وإن علموه ذنبا، فلذلك قيل (يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ)، ولو كان الأمر على ما قال صاحب هذا القول لوجب ألاّ تكون توبة لمن علم كنه ما فيه ، وذلك أنه جلّ ثناؤه ، قال (إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ) دون غيرهم، فالواجب على صاحب هذا القول ألاّ يكون للعالم الذى عمل سوءا على علم منه بكنه ما فيه ، ثم تاب من قريب: توبة ، وذلك خلاف الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أن كل تائب عسى الله أن يتوب عليه ، وقوله : « بابُ التَّوْبَةِ مَفْتُوحٌ ما لَمْ تَطْلُعِ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِها»، وخلاف قول الله عزّ وجلّ (إِلاَّ مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا) .

القول فى تأويل قوله (ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ) :

اختلف أهل التأويل فى معنى القريب فى هذا الموضع ، فقال بعضهم : معنى ذلك : ثم يتوبون فى صحتهم قبل مرضهم ، وقبل موتهم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن مفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ) والقريب : قبل الموت ما دام فى صحته .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا محمد بن فُضَيل ، عن أبى النضر ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس (ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ) قال : فى الحياة والصحة .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : ثم يتوبون من قبل معاينة ملك الموت .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثنا معاوية بن صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس (ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ) ، والقريب فيما بينه وبين أن ينظر إلى ملك الموت .

حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، قال : ثنا المعتمر بن سليمان ، قال : سمعت عمران بن حُدَير ، قال : قال أبومجلز : لايزال الرجل فى توبة حتى يعاين الملائكة .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن أبى معشر ، عن محمد بن قيس ، قال : القريب : مالم تنزل به آية من آيات الله تعالى ، وينزل به الموت .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك (إِنَّمَا التَّوْبَةُ على الله لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ) له التوبة ما بينه وبين أن يعاين ملك الموت ، فإذا تاب حين ينظر إلى ملك الموت ، فليس له ذاك .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : ثم يتوبون من قبل الموت .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا الثورىّ ، عن رجل ، عن الضحاك : (ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ) قال : كل شىء قبل الموت فهو قريب .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا معتمر بن سليمان ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة (ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ) قال : الدنيا كلها قريب .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله : (ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ) قبل الموت .

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا معاذ بن هشام ، قال : ثنى أبى ، عن قتادة ، عن أبى قِلابة ، قال : ذُكر لنا أن إبليس لما لعن وأُنظر ، قال : وعزّتك لاأخرج من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح ، فقال تبارك وتعالى : وعزتى لاأمنعه التوبة ما دام فيه الروح .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا أبو داود ، قال : ثنا عمران ، عن قتادة ، قال : كنا عند أنس بن مالك وثَمَّ أبو قلابة ، فحدّث أبوقِلابة ، قال : إن الله تبارك وتعالى لما لعن إبليس ، سأله النَّظِرة ، فقال : وعزّتك لاأخرج من قلب ابن آدم ، فقال الله تبارك وتعالى : وعزتى ، لاأمنعه التوبة ما دام فيه الروح .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الوهاب ، قال : ثنا أيوب ، عن أبى قِلابة ، قال : إن الله تبارك وتعالى لما لعن إبليس سأله النظِرة ، فأنظره إلى يوم الدين ، فقال : وعزتك لاأخرج من قلب ابن آدم مادام فيه الروح ، قال : وعزتى لاأحجب عنه التوبة ما دام فيه الروح .

حدثنى ابن بشار ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا عوف ، عن الحسن ، قال : بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « إِنَّ إِبْلِيسَ لَمَّا رأى آدَمَ أَجْوَفَ ، قال : وَعِزَّتِكَ لاأَخْرُجُ مِنْ جَوْفِهِ ما دَامَ فِيهِ الرُّوحُ ، فَقَالَ اللهُ تَبارَكَ وَتَعالى : وَعِزَّتِى لاأَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ ما دَامَ فِيهِ الرُّوحُ » .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا معاذ بن هشام ، قال : ثنى أبى ، عن قتادة ، عن العلاء بن زياد ، عن

أبى أيوب بشير بن كعب ، أن نبىَّ الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « إنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ ما لَمْ يُغَرْغِرْ » .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الأعلى ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، عن عبادة بن الصامت ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فذكر مثله .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا ابن أبى عدىّ ، عن عوف ، عن الحسن ، قال : بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « إنَّ اللهَ تَبارَكَ وَتَعالَى يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ ما لَمْ يُغَرْغِرْ » .

قال أبو جعفر : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب : قول من قال : تأويله : ثم يتوبون قبل مماتهم ، فى الحال التى يفهمون فيها أمر الله تبارك وتعالى ونهيه ، وقبل أن يُغلبوا على أنفسهم وعقولهم ، وقبل حال اشتغالهم بكَرب الحشرجة ، وغمّ الغرغرة ، فلايعرفوا أمر الله ونهيه ، ولا يعقلوا التوبة ، لأن التوبة لاتكون توبة إلا ممن ندم على ما سلف منه ، وعزم فيه على ترك المعاودة ، وهو يعقل الندم ، ويختار ترك المعاودة ؛ فأما إذا كان بكرب الموت مشغولا ، وبغمّ الحشرجة مغمورا ، فلا إخاله إلا عن الندم على ذنوبه مغلوبا ، ولذلك قال : من قال : إن التوبة مقبولة مالم يغرغر العبد بنفسه ، فإن كان المرء فى تلك الحال يعقل عقل الصحيح ، ويفهم فهم العاقل الأريب ، فأحدث إنابة من ذنوبه ، ورجعة من شروده عن ربه إلى طاعته ، كان إن شاء الله ممن دخل فى وعد الله الذى وعد التائبين إليه من إجرامهم من قريب بقوله : (إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ) .

القول فى تأويل قوله (فَأُولَـٰئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ ، وكانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً) :

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : (فَأُولَـٰئِكَ) : فهؤلاء الذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب . (يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ) : دون من لم يتب ، حتى غلب على عقله ، وغمرته حشرجة ميتته ، فقال وهو لايفقه مايقول : (إِنِّى تُبْتُ الآنَ) خداعا لربه ، ونفاقا فى دينه ، ومعنى قوله (يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ) : يرزقهم إنابة إلى طاعته ، ويتقبل منهم أوبتهم إليه ، وتوبتهم التى أحدثوها من ذنوبهم .

وأما قوله (وكانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً) فإنه يعنى : ولم يزل الله جلّ ثناؤه عليما بالناس من عباده المنيبين إليه بالطاعة ، بعد إدبارهم عنه ، المقبلين إليه بعد التولية ، وبغير ذلك من أمور خلقه ، حكيما فى توبته على من تاب منهم من معصيته ، وفى غير ذلك من تدبيره وتقديره ، ولا يدخل أفعاله خلل ، ولا يخلطه خطأ ولا زلل .

القول فى تأويل قوله

وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ ، قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ ، وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ، أُولَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨)

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : وليست التوبة للذين يعملون السيئات من أهل الإصرار على معاصى الله ، حتى

إذاحضر أحدهم الموت، يقول: إذا حشرج أحدهم بنفسه ، وعاين ملائكة ربه ، قد أقبلوا إليه لقبض روحه قال : وقد غلب على نفسه ، وحيل بينه وبين فهمه ، بشغله بكرب حشرجته وغرغرته : إنى تبت الآن ، يقول : فليس لهذا عند الله تبارك وتعالى توبة ، لأنه قال ما قال فى غير حال توبة .

كما حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا الثورىّ ، عن يعلى بن نعمان ، قال : أخبرنى من سمع ابن عمر يقول : التوبة مبسوطة مالم يَسُقْ ، ثم قرأ ابن عمر (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حتى إذَا حَضَرَ أحَدَهُمُ المَوْتُ ، قالَ إنِّى تُبْتُ الآنَ) ثم قال : وهل الحضور إلا السَّوْق .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حتى إذَا حَضَرَ أحَدَهُمُ المَوْتُ قالَ إنِّى تُبْتُ الآنَ) قال : إذا تبين الموت فيه ، لم يقبل الله له توبة .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا محمد بن فضيل ، عن أبى النضر ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس(وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِين يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ، حَتَّى إذَا حَضَرَ أحَدَهُمُ المَوْتُ قالَ: إنِّى تُبْتُ الآنَ) فليس لهذا عند الله توبة .

حدثنا محمد بن المثنى ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة ، قال : سمعت إبراهيم بن ميمون يحدّث عن رجل من بنى الحارث ، قال : ثنا رجل منا ، عن عبد الله بن عمرو ، أنه قال : من تاب قبل موته بعام تيب عليه ، حتى ذكر شهرا ، حتى ذكر ساعة ، حتى ذكر فُواقا ، قال : فقال رجل : كيف يكون هذا، والله تعالى يقول(وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ،حتى إذَا حَضَرَ أحَدَهُمُ المَوْتُ قالَ : إنِّى تُبْتُ الآنَ) فقال عبد الله: أنا أحدثك ما سمعتُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن سفيان ، عن إبراهيم بن مهاجر ، عن إبراهيم ، قال : كان يقال : التوبة مبسوطة ما لم يؤخذ بكَظَمه .

واختلف أهل التأويل فيمن عنى بقوله (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حتى إذَا حَضَرَ أحَدَهُمُ المَوْتُ قالَ إنِّى تُبْتُ الآنَ) فقال بعضهم : عنى به أهل النفاق .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (إنَّمَا التَّوْبَةُ على الله لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ) قال: نزلت الأولى فى المؤمنين ، ونزلت الوسطى فى المنافقين ، يعنى (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ) ، والأخرى فى الكفار ،يعنى (وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ) .

وقال آخرون : بل عنى بذلك أهل الإسلام .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا المثنى ، قال : ثنا سويد بن نصر ، قال : أخبرنا ابن المبارك ، عن سفيان ، قال : بلغنا فى هذه الآية (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ : إِنِّى تُبْتُ الْآنَ) قال : هم المسلمون ، ألا ترى أنه قال : (وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ) :

وقال آخرون : بل هذه الآية كانت نزلت فى أهل الإيمان ، غير أنها نسخت .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية بن صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، قوله (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ : إِنِّى تُبْتُ الْآنَ . وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ) فأنزل الله تبارك وتعالى بعد ذلك (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ . وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) فحرّم الله تعالى المغفرة على من مات وهو كافر ، وأرجأ أهل التوحيد إلى مشيئته ، فلم يؤيسهم من المغفرة .

قال أبو جعفر : وأولى الأقوال فى ذلك عندى بالصواب : ماذكره الثورىّ : أنه بلغه أنه فى الإسلام ، وذلك أن المنافقين كفار ، فلو كان معنيا به أهل النفاق ، لم يكن لقوله : (وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ) معنى مفهوم ، لأنهم إن كانوا هم والذين قبلهم فى معنى واحد ، من أن جميعهم كفار ، فلا وجه لتفريق أحد منهم فى المعنى الذى من أجله بطل أن تكون توبة واحد مقبولة . وفى تفرقة الله جلّ ثناؤه بين أسمائهم وصفاتهم ، بأن سمى أحد الصنفين كافرا ، ووصف الصنف الآخر بأنهم أهل سيئات ، ولم يسمهم كفارا ، ما دلّ على افتراق معانيهم ، وفى صحة كون ذلك كذلك صحة ما قلنا ، وفساد ما خالفه .

القول فى تأويل قوله (وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ، أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) :

يعنى بذلك جلّ ثناؤه : ولا التوبة للذين يموتون ، وهم كفار ، فموضع الذين خفض ، لأنه معطوف على قوله (لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ) ، وقوله (أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) يقول : هؤلاء الذين يموتون وهم كفار ، أعتدنا لهم عذابا أليما ، لأنهم أبعدهم من التوبة كونهم على الكفر .

كما حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا محمد بن فضيل ، عن أبى النضر ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس (وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ) أولئك أبعد من التوبة .

واختلف أهل العربية فى معنى (أَعْتَدْنَا لَهُمْ) فقال بعض البصريين : معنى (أَعْتَدْنَا) : أفعلنا من العتاد ، قال : ومعناها : أعددنا . وقال بعض الكوفيين : أعددنا وأعتدنا معناهما واحد ، فمعنى قوله : (أَعْتَدْنَا لَهُمْ) أعددنا لهم (عَذَابًا أَلِيمًا) يقول : مؤلما موجعا .

القول فى تأويل قوله

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ، وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ

مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ، وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ، فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٩)

يعنى تبارك وتعالى (يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا) : يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله (لا يَحِلُّ لَكُمْ أنْ تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهاً) يقول : لا يحلّ لكم أن ترثوا نكاح نساء أقاربكم وآبائكم كرها .

فإن قال قائل : كيف كانوا يرثونهن ، وما وجه تحريم وراثتهن ؟ فقد علمت أن النساء مورّثات كما الرجال مورّثون ؟ قيل : إن ذلك ليس من معنى وراثتهن إذا هنّ متن فتركن مالا ، وإنما ذلك أنهن فى الجاهلية كانت إحداهنّ إذا مات زوجها ، كان ابنه أو قريبه أولى بها من غيره ، ومنها بنفسها ، إن شاء نكحها ، وإن شاء عضلها ، فمنعها من غيره ، ولم يزوجها حتى تموت ، فحرّم الله تعالى ذلك على عباده ، وحظر عليهم نكاح حلائل آبائهم ، ونهاهم عن عضلهنّ عن النكاح .

وبنحو القول الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا أسباط بن محمد ، قال : ثنا أبو إسحاق ، يعنى الشيبانىّ ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، فى قوله : (يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أنْ تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهاً ، وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ ما آتَيْتُمُوهُنَّ) قال : كانوا إذا مات الرجل ، كان أولياؤه أحقّ بامرأته ، إن شاء بعضهم تزوّجها ، وإن شاءوا زوّجوها ، وإن شاءوا لم يزوّجوها ، وهم أحقّ بها من أهلها ، فنزلت هذه الآية فى ذلك .

وحدثنى أحمد بن محمد الطوسىّ ، قال : ثنا عبد الرحمن بن صالح ، قال : ثنى محمد بن فُضَيل ، عن يحيى بن سعيد ، عن محمد بن أبى أمامة بن سهل بن حُنَيف ، عن أبيه ، قال : لما توفى أبو قيس بن الأسلت أراد ابنه أن يتزوّج امرأته ، وكان ذلك لهم فى الجاهلية ، فأنزل الله (لا يَحِلُّ لَكُمْ أنْ تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهاً) .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا يحيى بن واضح ، عن الحسين بن واقد ، عن يزيدَ النحوىّ ، عن عكرمة والحسن البصرىّ ، قالا فى قوله (لا يَحِلُّ لَكُمْ أنْ تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهاً ، وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ ما آتَيْتُمُوهُنَّ ، إلاَّ أنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ) ، وذلك أن الرجل كان يرث امرأة ذى قرابته ، فيعضُلها حتى تموت ، أو تردّ إليه صداقها ، فأحكم[١] الله عن ذلك ، يعنى أن الله نهاكم عن ذلك .

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا ابن علية ، عن سليمان التيمىّ ، عن أبى مجلز فى قوله (يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أنْ تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهاً) قال : كانت الأنصار تفعل ذلك ، كان الرجل إذا مات حميمه ، ورث حميمه امرأته ، فيكون أولى بها من ولىّ نفسها .

(١) أحكم الله عن ذلك : منع منه ونهى عنه (النهاية لابن الأثير) .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا حجاج ، عن ابن جريج ، عن عطاء الخراسانيّ ، عن ابن عباس فى قوله (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً) . . . الآية ، قال : كان الرجل إذا مات أبوه أوحميمه ، فهو أحقّ بامرأته ، إن شاء أمسكها ، أو يحبسها حتى تفتدى منه بصداقها ، أو تموت ، فيذهب بمالها .

قال ابن جريج : فأخبرنى عطاء بن أبى رباح ، أن أهل الجاهلية كانوا إذا هلك الرجل ، فترك امرأة ، حبسها أهله على الصبىّ يكون فيهم ، فنزلت (لا يَحِلُّ لَكُمْ أنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً) . . . الآية . قال ابن جريج ، وقال مجاهد : كان الرجل إذا توفى أبوه ، كان أحقّ بامرأته ينكحها إن شاء ، إذا لم يكن ابنها ، أو ينكحها إن شاء أخاه أو ابن أخيه . قال ابن جريج : وقال عكرمة : نزلت فى كُبَيشة بنت معْن بن عاصم من الأوس ، توفى عنها أبو قيس بن الأسلت ، فجنح عليها ابنه ، فجاءت النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يا نبيّ الله ، لا أنا ورثت زوجى ، ولا أنا تُرِكت فأُنكح ، فنزلت هذه الآية .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قوله (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً) قال : كان إذا توفى الرجل ، كان ابنه الأكبر هو أحقّ بامرأته ، ينكحها إذا شاء إذا لم يكن ابنها ، أو يُنكحها من شاء ، أخاه أو ابن أخيه .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن عمرو بن دينار ، مثل قول مجاهد .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، قال : سمعت عمرو بن دينار يقول مثل ذلك .

حدثنى محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن مفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، أما قوله (لا يَحِلُّ لَكُمْ أنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً) ، فإن الرجل فى الجاهلية ، كان يموت أبوه أو أخوه أو ابنه ، فإذا مات وترك امرأته ، فإن سبَق وارث الميت ، فألقى عليها ثوبه ، فهو أحقّ بها أن ينكحها بمهر صاحبه ، أو يُنكحها ، فيأخذ مهرها ، وإن سبقته فذهبت إلى أهلها ، فهم أحقّ بنفسها .

حُدثت عن الحسين بن الفرج ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عُبيد بن سلمان الباهلىّ ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله : (لا يَحِلُّ لَكُمْ أنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً) : كانوا بالمدينة إذا مات حميم الرجل وترك امرأة ، ألقى الرجل عليها ثوبه ، فورث نكاحها ، وكان أحقّ بها ، وكان ذلك عندهم نكاحا ، فإن شاء أمسكها حتى تفتدى منه ، وكان هذا فى الشرك .

حدثنا يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (لا يَحِلُّ لَكُمْ أنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً) قال : كانت الوراثة فى أهل يثرب بالمدينة ههنا ، فكان الرجل يموت ، فيرث ابنه امرأة أبيه ، كما يرث أمه ، لا يستطيع أن يمنع ، فإن أحبّ أن يتخذها اتخذها ، كما كان أبوه يتخذها ، وإن كره فارقها ، وإن كان صغيرا حبست عليه حتى يكبر ، فإن شاء أصابها ، وإن شاء فارقها ، فذلك قول الله تبارك وتعالى (لا يَحِلُّ لَكُمْ أنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً) .

حدثنا محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس فى قوله (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أنْ تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهاً) : وذلك أن رجالا من أهل المدينة ، كان إذا مات حميم أحدهم ، ألقى ثوبه على امرأته ، فورث نكاحها ، فلم ينكحها أحد غيره ، وحبسها عنده ، حتى تفتدى منه بفدية ، فأنزل الله عزّ وجلّ (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أنْ تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهاً) .

حدثنى ابن وكيع ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنا سفيان ، عن علىّ بن بَذِيمة ، عن مِقسم ، قال : كانت المرأة فى الجاهلية إذا مات زوجها ، فجاء رجل فألقى عليها ثوبه ، كان أحقّ الناس بها ، قال : فنزلت هذه الآية (لا يَحِلُّ لَكُمْ أنْ تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهاً) .

فتأويل الآية على هذا التأويل : يا أيها الذين آمنوا لا يحلّ لكم أن ترثوا آباءكم وأقاربكم نكاح نسائهم كَرها ، فترك ذكر الآباء والأقارب والنكاح ، ووجه الكلام إلى النهى عن وراثة النساء ، اكتفاء بمعرفة المخاطبين بمعنى الكلام ، إذ كان مفهوما معناه عندهم .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : لايحلّ لكم أيها الناس أن ترثوا النساء تَركاتِهن كَرها ، قال : وإنما قيل ذلك كذلك ، لأنهم كانوا يعضلون أياماهُنّ وهن كارهات للعضل ، حتى يمتن ، فيرثوهن أموالهن .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية بن صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، قوله (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أنْ تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهاً) قال : كان الرجل إذا مات وترك جارية ، ألقى عليها حميمُه ثوبه ، فمنعها من الناس ، فإن كانت جميلة تزوّجها ، وإن كانت قبيحة حبسها حتى تموت ، فيرثها .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن الزهرىّ فى قوله (لا يَحِلُّ لَكُمْ أنْ تَرِثُوا النِّساءَ كَرْها) قال : نزلت فى ناس من الأنصار ، كانوا إذا مات الرجل منهم ، فأملكُ الناس بامرأته وليه ، فيمسكها ، حتى تموت فيرثها ، فنزلت فيهم .

قال أبو جعفر : وأولى القولين بتأويل الآية : القول الذى ذكرناه عمن قال : معناه : لايحلّ لكم أن ترثوا النساء كرها أقاربكم ، لأن الله جل ثناؤه قد بين مواريث أهل المواريث ، فذلك لأهله نحو وراثتهم إياه الموروث ذلك عنه ، من الرجال أو النساء ، فقد علِم بذلك أنه جلّ ثناؤه لم يحظر على عباده أن يرثوا النساء ماجعله لهم ميراثا عنهن ، وأنه إنما حظر أن يُكرهن موروثات ، بمعنى حظر وراثة نكاحهن إذا كان ميتهم الذى ورثوه ، قد كان مالكا عليهن أمرهن فى النكاح ، ملك الرجل منفعة ما استأجر من الدُّور والأرضين وسائر ماله منافع ، فأبان الله جلّ ثناؤه لعباده ، أن الذى يملكه الرجل منهم من بُضع زوجته ، معناه غير معنى ما يملك أحدهم من منافع سائر المملوكات التى تجوز إجارتها ، فإن المالك بضع زوجته إذا هو مات ، لم يكن ما كان

له ملكا من زوجته بالنكاح لورثته بعده ، كما لهم من الأشياء التى كان يملكها بشراء أو هبة أو إجارة بعد موته بميراثه ذلك عنه .

وأما قوله تعالى (وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ) فإن أهل التأويل اختلفوا فى تأويله ، فقال بعضهم : تأويله (وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ) : أى ولا تحبسوا يامعشر ورثة من مات من الرجال أزواجهم ، عن نكاح من أردن نكاحه من الرجال ، كيما يمتن ، فتذهبوا ببعض ما آتيتموهن : أى فتأخذوا من أموالهم إذا متن ، ما كان موتاكم الذين ورثتموهم ساقوا إليهن من صدقاتهن . وممن قال ذلك ، جماعة قد ذكرنا بعضهم ، منهم ابن عباس ، والحسن البصرى ، وعكرمة .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : ولاتعضلوا أيها الناس نساءكم ، فتحبسوهن ضرارا ، ولاحاجة لكم إليهن ، فتضروا بهن ، ليفتدين منكم بما آتيتموهن من صدقاتهن .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية بن صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، قوله (وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ) يقول : لاتقهروهن (لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ) ، يعنى الرجل تكون له المرأة ، وهو كاره لصحبتها ، ولها عليه مهر ، فيضربها لتفتدى .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، فى قوله (وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ) يقول : لايحل لك أن تحبس امرأتك ضرارا ، حتى تفتدىَ منك . قال : أخبرنا معمر ، قال : وأخبرنى سماك بن الفضل ، عن ابن البيلمانى ، قال : نزلت هاتان الآيتان : إحداهما فى أمر الجاهلية ، والأخرى فى أمر الإسلام .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا سويد بن نصر ، قال : أخبرنا ابن المبارك ، عن معمر ، قال : أخبرنا سماك ابن الفضل ، عن عبد الرحمن بن البيلمانى فى قوله (لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ، وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ) ، قال : نزلت هاتان الآيتان ، إحداهما فى الجاهلية ، والأخرى فى الإسلام ، قال عبد الله لايحل لكم أن ترثوا النساء فى الجاهلية ، ولا تعضلوهن فى الإسلام .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا الحمانى ، قال : ثنا شريك ، عن سالم ، عن سعيد (وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ) قال : لاتحبسوهن .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن مفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ) : أما تعضلوهن ، فيقول : تضاروهن ، ليفتدين منكم .

حُدثت عن الحسين بن الفرج ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد بن سليمان ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله : (وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ) قال : العضل : أن يكره الرجل امرأته ، فيضربها حتى تفتدى منه ، قال الله تبارك وتعالى (وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ) .

وقال آخرون : المعنىّ بالنهى عن عضل النساء فى هذه الآية : أولياؤهنّ .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله (وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ) أن ينكحن أزواجهن ، كالعضل فى سورة البقرة .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

وقال آخرون : بل المنهىّ عن ذلك زوج المرأة بعد فراقه إياها ، وقالوا : ذلك كان من فعل الجاهلية ، فنهوا عنه فى الإسلام .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : كان العضل فى قريش بمكة ، ينكح الرجل المرأة الشريفة ، فلعلها لاتوافقه ، فيفارقها على ألا تتزوّج إلا بإذنه ، فيأتى بالشهود، فيكتب ذلك عليها ويُشهد ، فإذا خطبها خاطب ، فإن أعطته وأرضته أذن لها ، وإلا عضلها . قال : فهذا قول الله (وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ) . . . الآية .

قال أبو جعفر : قد بيّنا فيما مضى معنى العضل ، وما أصله بشواهد ذلك من الأدلة .

وأولى هذه الأقوال التى ذكرناها بالصحة فى تأويل قوله (وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ) : قول من قال : نهى الله جلّ ثناؤه زوج المرأة عن التضييق عليها ، والإضرار بها ، وهو لصحبتها كاره ، ولفراقها محبّ ، لتفتدى منه ببعض ما آتاها من الصداق .

وإنما قلنا ذلك أولى بالصحة ، لأنه لاسبيل لأحد إلى عضل امرأة ، إلا لأحد رجلين : إما لزوجها ، بالتضييق عليها ، وحبسها على نفسه وهو لها كاره ، مضارّة منه لها بذلك ، ليأخذ منها ما آتاها ، بافتدائها منه نفسها بذلك ، أو لوليّها الذى إليه إنكاحها ، وإذا كان لاسبيل إلى عضلها لأحد غيرهما ، وكان الولىّ معلوما أنه ليس ممن آتاها شيئا ، فيقال : إن عضلها عن النكاح ، عضلها ليذهب ببعض ما آتاها ، كان معلوما أن الذى عنى الله تبارك وتعالى بنهيه عن عضلها ، هو زوجها ، الذى له السبيل إلى عضلها ضرارًا لتفتدى منه .

وإذا صحّ ذلك ، وكان معلوما أن الله تعالى ذكره ، لم يجعل لأحد السبيلَ على زوجته بعد فراقه إياها وبينونتها منه ، فيكون له إلى عَضْلها سبيل لتفتدى منه من عضله إياها ، أتت بفاحشة أم لم تأت بها ، وكان الله جلّ ثناؤه قد أباح للأزواج عضلهنّ إذا أتين بفاحشة مبينة ، حتى يفتدين منه ، كان بيّنا بذلك خطأ التأويل الذى تأوّله ابن زيد ، وتأويل من قال : عنى بالنهى عن العضل فى هذه الآية : أولياء الأيامى .

وصحة ما قلنا فيه . (وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ) فى موضع نصب عطفا على قوله (أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا) ومعناه : لايحلّ لكم أن ترثوا النساء كرها ، ولا تعضلوهن ، وكذلك هى فيما ذكر فى حرف ابن مسعود ، ولو قيل : هو فى موضع جزم على وجه النهى ، لم يكن خطأ .

القول فى تأويل قوله (إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ) :

يعنى بذلك جلّ ثناؤه: لايحلّ لكم أيها المؤمنون أن تعضلوا نساءكم، ضرارًا منكم لهن، وأنتم لصحبتهن كارهون ، وهنّ لكم طائعات ، لتذهبوا ببعض ما آتيتموهنّ من صَدُقاتهنّ ، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ، فيحلّ لكم حينئذ الضرار بهنّ ، ليفتدين منكم .

ثم اختلف أهل التأويل فى معنى الفاحشة التى ذكرها الله جلّ ثناؤه فى هذا الموضع ، فقال بعضهم : معناها: الزنا، وقال: إذا زنت امرأة الرجل، حلّ له عَضْلها والضرار بها ،لتفتدى منه بما آتاها من صداقها .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا ابن إدريس ، قال : أخبرنا أشعث، عن الحسن فى البِكْر تَفْجُر، قال : تضرب مائة ، وتنفى سنة ، وتردّ إلى زوجها ما أخذت منه .

وتأوّل هذه الآية : (وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ) .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال: أخبرنا عبد الرزاق ، قال: أخبرنا معمر ، عن عطاء الخراسانىّ، فى الرجل إذا أصابت امرأته فاحشة ، أخذ ما ساق إليها ، وأخرجها ، فنسخ ذلك الحدود .

حدثنا أحمد بن منيع ، قال: ثنا عبد الله بن المبارك ، قال : أخبرنا معمر ، عن أيوب ، عن أبى قِلابة قال :إذا رأى الرجل من امرأته فاحشة ، فلا بأس أن يضارّها ، ويشُقّ عليها ، حتى تختلع منه .

حدثنا ابن حميد ، قال : أخبرنا ابن المبارك ، قال : أخبرنى معمر ، عن أيوب ، عن أبى قلابة فى الرجل يطلع من امرأته على فاحشة ، فذكر نحوه .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن مفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (إلا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ) وهو الزنا، فإذا فعلن ذلك فخذوا مهورهن .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال: أخبرنى عبد الكريم، أنه سمع الحسن البصرىّ (إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ) قال : الزنا ، قال : وسمعت الحسن وأبا الشعثاء يقولان : فإن فعلت ، حلّ لزوجها أن يكون هو يسألها الخلع لتفتدى .

وقال آخرون : الفاحشة المبينة فى هذا الموضع : النُّشوز .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية بن صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس (إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ) وهو البغض والنشوز ، فإذا فعلت ذلك ، فقد حلّ له منها الفدية .

حدثنا ابن حميد ، قال: ثنا حَكّام، قال: ثنا عنبسة ، عن علىّ بن بَذِيمة ، عن مقسم فى قوله: (وَلا

تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ ما آتَيْتُمُوهُنَّ إلاَّ أنْ يَفْحُشْنَ) فى قراءه ابن مسعود ، قال : إذا عُضلت وآذتك ، فقد حلّ لك أخذ ما أخذت منك .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن مطرف بن طريف ، عن خالد ، عن الضحاك بن مزاحم (إلا أنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ) قال : الفاحشة ههنا النشوز ، فإذا نَشَزَتْ حلّ له أن يأخذ خُلْعها منها .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (إلاَّ أنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ) قال : هو النشوز .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال عطاء بن أبى رباح : (إلاَّ أنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ) فإن فعلن إن شئتم أمسكتموهنّ ، وإن شئتم أرسلتموهن .

حُدثت عن الحسين بن الفرج ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد بن سلمان ، قال : سمعت الضحاك بن مزاحم يقول فى قوله (إلا أنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ) قال : عدَل ربنا تبارك وتعالى فى القضاء ، فرجع إلى النساء ، فقال (إلاَّ أنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ) والفاحشة : العصيان والنشوز ، فإذا كان ذلك من قِبَلها ، فإن الله أمره أن يضربها ، وأمره بالهجر ، فإن لم تدع العصيان والنشوز ، فلا جناح عليه بعد ذلك أن يأخذ منها الفدية .

قال أبو جعفر : وأولى ماقيل فى تأويل قوله (إلاَّ أنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ) : أنه معنىّ به كل فاحشة من بذاءة باللسان على زوجها ، وأذى له ، وزنا بفرجها ، وذلك أن الله جلّ ثناؤه عمّ بقوله (إلاَّ أنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ) كلّ فاحشة مبينة ظاهرة ، فكلّ زوج امرأة أتت بفاحشة من الفواحش التى هى زنا أو نشوز ، فله عضلها على مابيّن الله فى كتابه ، والتضييق عليها ، حتى تفتدى منه بأىّ معانى فواحش أتت ، بعد أن تكون ظاهرة مبينة بظاهر كتاب الله تبارك وتعالى ، وصحة الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كالذى حدثنى يونس بن سلمان البصرىّ ، قال : ثنا حاتم بن إسماعيل ، قال : ثنا جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن جابر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « اتَّقُوا اللهَ فى النِّساءِ ، فإنَّكُمْ أخَذْتُمُوهُنَّ بأمانَةِ الله ، واسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ الله ، وإنَّ لَكُمْ عَلَيْهِنَّ أنْ لايُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أحَداً تَكْرَهُونَهُ ، فإنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ ، فاضْرِبُوهُنَّ ضَرْباً غَيْرَ مُبَرِّحٍ ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وكِسْوَتُهُنَّ بالمَعْرُوفِ » .

حدثنا موسى بن عبد الرحمن المسروقى ، قال : ثنا زيد بن الحباب ، قال : ثنا موسى بن عبيدة الرَّبَذِىّ ، قال : ثنا صدقة بن يسار ، عن ابن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « أيُّها النَّاسُ إنَّ النِّساءَ عِنْدَكُمْ عَوَانٍ ، أخَذْتُمُوهُنَّ بأمانَةِ الله ، واسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ الله ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ حَقٌّ ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ حَقٌّ ، ومِنْ حَقِّكُمْ عَلَيْهِنَّ أنْ لايُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أحَداً ، وَلا يَعْصِينَكُمْ فِى مَعْرُوفٍ ، فإذا فَعَلْنَ ذَلِكَ ، فَلَهُنَّ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بالمَعْرُوفِ » .

فأخبر صلى الله عليه وسلم، أن من حقّ الزوج على المرأة أن لاتُوطِئَ فراشه أحدا، وأن لاتعصيه فى معروف، وأن الذى يجب لها من الرزق والكسوة عليه، إنما هو واجب عليه، إذا أدّت هى إليه ما يجب عليها من الحقّ، بتركها إيطاء فراشه غيره، وتركها معصيته فى معروف، ومعلوم أن معنى قول النبىّ صلى الله عليه وسلم: «مِنْ حَقِّكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا» إنما هو ألا يمكنّ أنفسهنّ من أحد سواكم. وإذا كان ما روينا فى ذلك صحيحا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبيّن أن لزوج المرأة إذا أوطأت امرأته نفسها غيره، وأمكنت من جماعها سواه، أن له من منعها الكسوة والرزق بالمعروف، مثل الذى له من منعها ذلك إذا هى عصته فى المعروف، وإذا كان ذلك له، فمعلوم أنه غير مانع لها بمنعه إياها ماله منعها حقا لها واجبا عليه، وإذا كان ذلك كذلك فبيّن أنها إذا افتدت نفسها عند ذلك من زوجها، فأخذ منها زوجها ما أعطته، أنه لم يأخذ ذلك عن عضل منهىّ عنه، بل هو أخذ ما أخذ منها عن عضل له مباح، وإذ كان ذلك كذلك، كان بيّنا أنه داخل فى استثناء الله تبارك وتعالى، الذى استثناه من العاضلين بقوله (وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ) وإذ صحّ ذلك، فبينٌ فساد قول من قال (إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ) منسوخ بالحدود، لأن الحدّ حقّ الله تعالى على من أتى بالفاحشة التى هى زنا، وأما العضل: لتفتدى المرأة من الزوج بما آتاها أو ببعضه، فحقّ لزوجها كما عضله إياها، وتضييقه عليها إذا هى نشزت عليه، لتفتدى منه، حقّ له، وليس حكم أحدهما يبطل حكم الآخر.

فمعنى الآية: ولا يحلّ لكم أيها الذين آمنوا أن تعضلوا نساءكم، فتضيقوا عليهنّ، وتمنعوهنّ رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف، لتذهبوا ببعض ما آتيتموهنّ من صدُقاتكم (إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ) من زنا أوبذاء عليكم، وخلاف لكم فيما يجب عليهنّ لكم مبينة ظاهرة، فيحلّ لكم حينئذ عضلهنّ، والتضييق عليهنّ، لتذهبوا ببعض ما آتيتموهنّ من صداق، إن هنّ افتدين منكم به.

واختلفت القراء فى قراءة قوله (مُبَيَّنَةٍ)، فقرأه بعضهم مبينة بفتح الياء، بمعنى أنها قد بينت لكم، وأعلنت وأظهرت، وقرأه بعضهم (مُبَيِّنَةٍ) بكسر الياء، بمعنى أنها ظاهرة بينة للناس أنها فاحشة، وهما قراءتان مستفيضتان فى قراءة أمصار الإسلام، فبأيهما قرأ القارئ فمصيب فى قراءته الصواب، لأن الفاحشة إذا أظهرها صاحبها فهى ظاهرة بينة، وإذا ظهرت فبإظهار صاحبها إياها ظهرت، فلا تكون ظاهرة بينة إلا وهى مبينة، ولا مبينة إلا وهى مبينة، فلذلك رأيت القراءة بأيهما قرأ القارئ صوابا.

القول فى تأويل قوله (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ):

يعنى جلّ ثناؤه بقوله (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ): وخالقوا أيها الرجال نساءكم، وصاحبوهنّ بالمعروف، يعنى بما أمرتكم به من المصاحبة، وذلك إمساكهنّ بأداء حقوقهنّ التى فرض الله جلّ ثناؤه لهنّ عليكم إليهنّ، أو تسريح منكم لهن بإحسان.

كما حدثنا محمد بن الحسين، قال: ثنا أحمد بن مفضل، قال: ثنا أسباط، عن السدىّ (وَعَاشِرُوهُنَّ

بالمَعْرُوفِ) يقول : وخالطوهن ، كذا قال محمد بن الحسين ، وإنما هو خالقوهن ، من العشرة وهي المصاحبة.

القول في تأويل قوله (فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا) :

يعني بذلك تعالى ذكره : لاتعضلوا نساءكم ، لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن ، من غير ريبة ولا نشوز كان منهن ، ولكن عاشروهن بالمعروف ، وإن كرهتموهن ، فلعلكم أن تكرهوهن ، فتمسكوهن ، فيجعل الله لكم في إمساككم إياهن على كُره منكم لهن ، خيرا كثيرا ، من ولد يرزقكم منهن ، أو عطفكم عليهن ، بعد كراهتكم إياهن .

كما حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد في قوله (فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا) يقول : فعسى الله أن يجعل في الكراهة خيرا كثيرا .

حدثني المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثني محمد بن الحسين ، قال : ثني أحمد بن مفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدي في قوله (وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا) ، قال : الولد .

حدثني محمد بن سعد ، قال : ثني أبي ، قال : ثني عمي ، قال : ثني أبي عن أبيه ، عن ابن عباس (وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا) والخير الكثير : أن يعطف عليها ، فيرزق الرجل ولدها ، ويجعل الله في ولدها خيرا كثيرا . والهاء في قوله (وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا) على قول مجاهد الذي ذكرناه : كناية عن مصدر تكرهوا ، كأن معنى الكلام عنده : فإن كرهتموهن ، فعسى أن تكرهوا شيئا ، ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ، ولو كان تأويل الكلام : فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله في ذلك الشيء الذي تكرهونه خيرا كثيرا ، كان جائزا صحيحا .

القول في تأويل قوله

وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا ، فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ، أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (٢٠)

يعني جل ثناؤه بقوله (وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ) وإن أردتم أيها المؤمنون نكاح امرأة مكان امرأة لكم تطلقونها (وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ) يقول : وقد أعطيتم التي تريدون طلاقها من المهر قنطارا ، والقنطار : المال الكثير ، وقد ذكرنا فيما مضى اختلاف أهل التأويل في مبلغه .

والصواب من القول في ذلك عندنا ، فلا تأخذوا منه شيئا ، يقول : فلا تضروا بهن إذا أردتم طلاقهن ، ليفتدين منكم بما آتيتموهن .

كما حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد في قوله

(وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ) : طلاق امرأة مكان أخرى ، فلا يحلّ له من مال المطلقة شيء وإن كثر .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

القول فى تأويل قوله (أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً) :

يعنى بقوله تعالى ذكره (أَتَأْخُذُونَهُ) : أتأخذون ما آتيتموهنّ من مهورهنّ (بُهْتَانا) يقول : ظلما بغير حقّ (وَإِثْما مُبِينا) يعنى : وإثما قد أبان أمر آخذه أنه بأخذه إياه لمن أخذه منه ، ظالم .

القول فى تأويل قوله

وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ، وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (٢١)

يعنى جلّ ثناؤه بقوله (وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ) : وعلى أىّ وجه تأخذون من نسائكم ما آتيتموهنّ من صَدُقاتهنّ إذا أردتم طلاقهنّ ، واستبدال غيرهنّ بهنّ أزواجا . وقد أفضى بعضكم إلى بعضكم ، فتباشرتم وتلامستم . وهذا كلام ، وإن كان مخرجه مخرج الاستفهام ، فإنه فى معنى النكير والتغليظ ، كما يقول الرجل لآخر : كيف تفعل كذا وكذا وأنا غير راضٍ به ؟! على معنى التهديد والوعيد . وأما الإفضاء إلى الشىء ، فإنه الوصول إليه بالمباشرة له ، كما قال الشاعر :

بِلًى . . . . . . أَفْضَى إلى كُتْبَةٍ بَدَا سيرُها مِنْ باطِنٍ بَعْدَ ظاهِرِ[١]

يعنى بذلك : أن الفساد والبِلَى وصل إلى الخُرَز . والذى عُنِى به الإفضاء فى هذا الموضع : الجماع فى الفرج .

فتأويل الكلام إذ كان ذلك معناه : وكيف تأخذون ما آتيتموهنّ ، وقد أفضى بعضكم إلى بعض بالجماع ؟

وبنحو ما قلنا فى ذلك ، قال جماعة من أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى عبد الحميد بن بيان القَنَّاد ، قال : ثنا إسحاق ، عن سفيان ، عن عاصم ، عن بكر بن عبد الله ، عن ابن عباس ، قال : الإفضاء : المباشرة ، ولكن الله كريم ، يكنى عما يشاء .

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا سفيان ، عن عاصم ، عن بكر ، عن ابن عباس قال : الإفضاء : الجماع ، ولكن الله يكنى .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن عاصم بن بكر بن عبد الله المُزنىّ ، عن ابن عباس ، قال : الإفضاء : هو الجماع .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ) قال : مجامعة النساء .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

(١) كذا فى الأصول ، ولم نعثر على البيت فى معانى القرآن للفراء ، ولا فى معاجم اللغة . والكتبة بالضم كما فى اللسان : الخرزة التى ضم السير كلا وجهيها . وقال اللحيانى : الكتبة : السير الذى تخرز به المزادة والقربة ، والجمع كتب ، بفتح التاء .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ) يعنى : المجامعة .

القول فى تأويل قوله (وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً) :

أى ما وثقت به لهنّ على أنفسكم من عهد ، وإقرار منكم بما أقررتم به على أنفسكم ، من إمساكهنّ بمعروف ، أو تسريحهنّ بإحسان ، وكان فى عَقْد المسلمين النكاح قديما ، فيما بلغنا ، أن يقال للناكح : آللهِ عليك ، لتمسكَنّ بمعروف ، أو لتُسَرِّحَنّ بإحسان .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قولهُ (وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظا) ، والميثاق الغليظ الذى أخذه للنساء على الرجال : إمساك بمعروف ، أو تسريح بإحسان ، وقد كان فى عهد المسلمين عند إنكاحهم : آللهِ عليك لتمسكنّ بمعروف ، أو لتسرحنّ بإحسان .

واختلف أهل التأويل فى الميثاق الذى عنى الله جلّ ثناؤه بقوله (وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً) .

فقال بعضهم : هو إمساك بمعروف ، أو تسريح بإحسان .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا جويبر ، عن الضحاك فى قوله (وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً) قال : إمساك بمعروف ، أو تسريح بإحسان .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عمرو بن عون ، قال : ثنا هشيم ، عن جويبر ، عن الضحاك ، مثله .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، فى قوله (وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً) قال : هو ما أخذ الله تبارك وتعالى للنساء على الرجال ، فإمساك بمعروف ، أو تسريح بإحسان ، قال : وقد كان ذلك يُؤْخذ عند عقد النكاح .

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن مفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ : أما (وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً) فهو أن ينكح المرأة فيقول وليها : أنكحناكها بأمانة الله ، على أن تُمسِكها بالمعروف ، أو تُسَرِّحها بإحسان .

حدثنا عمرو بن علىّ ، قال : ثنا عبد الأعلى ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة فى قوله (وَأَخَذْنَ مِنْكُم مِيثَاقاً غَلِيظاً) قال : الميثاق الغليظ الذى أخذه الله للنساء : إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ، وكان فى عُقْدة المسلمين عند نكاحهنّ : أيم الله عليك ، لتمسكَنّ بمعروف ، ولتُسَرِّحَنّ بإحسان .

حدثنا عمرو بن علىّ ، قال : ثنا أبو قتيبة ، قال : ثنا أبو بكر الهُذَلى ، عن الحسن ، ومحمد بن سيرين فى قوله : (وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً) قال : إمساك بمعروف ، أو تسريح بإحسان .

وقال آخرون : هو كلمة النكاح التى استحلّ بها الفرج .

ذكر من قال ذلك :

حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبي نجيح عن مجاهد (وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً) قال : كلمة النكاح التي استحلّ بها فروجهنّ .

حدثني المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا يحيى بن سعيد ، قال : ثنا سفيان ، عن أبي هاشم المكيّ ، عن مجاهد في قوله : (وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً) قال : قوله : نكحت .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا حكام ، قال : ثنا عنبسة، عن محمد بن كعب القُرَظيّ (وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظا) قال : هو قولهم : قد ملكت النكاح .

حدثني المثنى ، قال : ثنا أبو نعيم ، قال : ثنا سفيان ، عن سالم الأفطس ، عن مجاهد (وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظا) قال : كلمة النكاح .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال: قال ابن زيد في قوله: (وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً) قال : الميثاق : النكاح .

حدثنا عمرو بن عليّ ، قال : ثنا يحيى بن سعيد ، قال : ثنا سفيان ، قال : ثني سالم الأفطس ، عن مجاهد (وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً) قال : كلمة النكاح ، قوله : نكحت .

وقال آخرون: بل عَنَى قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: « أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللهِ ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ » .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبي ، عن إسرائيل ، عن جابر وعكرمة (وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً) قالا : أخذتموهنّ بأمانة الله ، واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله .

حدثني المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً) والميثاق الغليظ : أخذتموهنّ بأمانة الله ، واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله .

قال أبو جعفر : وأولى هذه الأقوال بتأويل ذلك : قول من قال: الميثاق الذي عنى به في هذه الآية ، هو ما أخذ للمرأة على زوجها عند عُقْدة النكاح، من عهد على إمساكها بمعروف ، أو تسريحها بإحسان، فأقرّ به الرجل، لأن الله جلّ ثناؤه، بذلك أوصى الرجال في نسائهم، وقد بيّنا معنى الميثاق فيما مضى قَبْلُ، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع .

واختلف في حكم هذه الآية: أمحكم، أم منسوخ ؟ فقال بعضهم: محكَم ، وغير جائز للرجل أخذ شيء مما آتاها ، إذا أراد طلاقها ، إلا أن تكون هي المريدة الطلاق .

وقال آخرون : هي محكمة ، وغير جائز له أخذ شيء مما آتاها منها بحال ، كانت هي المريدة للطلاق، أو هو ؟ وممن حكى عنه هذا القول بكر بن عبد الله المزنيّ .

حدثنا مجاهد بن موسى ، قال : ثنا عبد الصمد ، قال : ثنا عقبة بن أبى المُهَنَّا ، قال : سألت بكرا عن المختلعة : أيأخذ منها شيئا ؟ قال : لا (وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً) .

وقال آخرون : بل هى منسوخة ، نسخها قوله (وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ) .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله : (وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ) إلى قوله (وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً) قال : ثم رخص بعد ، فقال (وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً ، إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ ، فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ) قال : فنسخت هذه تلك .

قال أبو جعفر : وأولى الأقوال بالصواب فى ذلك : قول من قال : إنها محكمة غير منسوخة ، وغير جائز للرجل أخذ شىء مما آتاها ، إذا أراد طلاقها من غير نشوز كان منها ، ولا ريبة أتت بها ، وذلك أن الناسخ من الأحكام ، ما نَفَى خلافه من الأحكام ، على ماقد بيَّنَّا فى سائر كتبنا ، وليس قوله : (وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ) نَفَى حكم قوله (فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ ، فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ) لأن الذى حرّم اللهُ على الرجل بقوله (وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ ، وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً) أخذ ما آتاها منها ، إذا كان هو المريد طلاقها .

وأما الذى أباح له أخذه منها بقوله (فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ) فهو إذا كانت هى المريدة طلاقه ، وهو كاره له ببعض المعانى ، التى قد ذكرنا فى غير هذا الموضع ، وليس فى حكم إحدى الآيتين نفى حكم الأخرى ، وإذا كان ذلك كذلك لم يجز أن يحكم لإحداهما بأنها ناسخة ، وللأخرى بأنها منسوخة ، إلا بحجة يجب التسليم لها .

وأما ما قاله بكر بن عبد الله المزنىّ ، من أنه ليس لزوج المختلعة أخذ ما أعطته على فراقه إياها ، إذا كانت هى الطالبة الفرقة ، وهو الكاره ، فليس بصواب لصحة الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه أمر ثابت بن قيس بن شَمَّاس ، بأخذ ما كان ساق إلى زوجته ، وفراقها إن طلبت فراقه ، وكان النشوز من قِبَلها .

القول فى تأويل قوله تعالى

وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً (٢٢)

قد ذكر أن هذه الآية نزلت فى قوم كانوا يخلفون على حلائل آبائهم ، فجاء الإسلام ، وهم على ذلك ،

فحرّم الله تبارك وتعالى عليهم المقام عليهنّ ، وعفا لهم عما كان سلف منهم فى جاهليّتهم وشركهم، مَنْ فعَل ذلك لم يؤاخذهم به ، إن هم اتقوا الله فى إسلامهم ، وأطاعوه فيه .

ذكر الأخبار التى رويت فى ذلك .

حدثنى محمد بن عبد الله المخرمىّ ، قال : ثنا قراد ، قال : ثنا ابن عيينة وعمرو ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : كان أهل الجاهلية يحرّمون مايحرَّم إلا امرأة الأب ، والجمع بين الأختين ، قال : فأنزل الله (وَلا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّساءِ إلاّ ما قَدْ سَلَفَ ، وأنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ) .

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا عبد الأعلى ، قال : ثنا سعيد، عن قتادة، فى قوله (وَلا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّساءِ) . . . الآية ، قال : كان أهل الجاهلية يحرّمون ما حرّم الله ، إلا أن الرجل كان يخلف على حليلة أبيه ،ويجمعون بين الأختين ، فمن ثم قال الله : (وَلا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّساءِ إلاّ ما قَدْ سَلَفَ) .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُريج ، عن عكرمة فى قوله (وَلا تَنْكِحُوا مانَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّساءِ إلاّماقَدْ سَلَفَ) قال: نزلت فى أبى قيس بن الأسلت، خَلَفَ على أم عُبيد بنت ضَمْرة ، كانت تحت الأسلت أبيه ؛ وفى الأسود بن خلف ، وكان خلف على بنت أبى طلحة بن عبد العزّى بن عثمان بن عبد الدار ، وكانت عند أبيه خلف ؛ وفى فاختة بنت الأسود بن المطلب بن أسد ، وكانت عند أمية بن خلف ، فخلف عليها صفوان بن أمية ؛ وفى منظور بن رباب ، وكان خلف على مليكة ابنة خارجة ، وكانت عند أبيه رباب بن سيار .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قلت لعطاء بن أبى رباح الرجل ينكح المرأة ثم لايراها حتى يطلقها ، أتحلّ لابنه ؟ قال : هى مرسلة ، قال الله تعالى (وَلاتَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّساءِ) قال : قلت لعطاء : ما قوله (إلاّ ما قَدْ سَلَفَ) ؟ قال: كان الأبناء ينكحون نساء آبائهم فى الجاهلية .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية بن صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، قوله (وَلا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّساءِ) . . . الآية ، يقول : كل امرأة تزوّجها أبوك وابنك ، دخل أو لم يدخل ، فهى عليك حرام .

واختلف فى معنى قوله: (إلاّ ما قَدْ سَلَفَ) فقال بعضهم: معناه: لكن ما قد سلف فدعوه ، وقالوا هو من الاستثناء المنقطع .

وقال آخرون : معنى ذلك : ولا تنكحوا نكاح آبائكم ، بمعنى: ولا تنكحوا كنكاحهم، كما نكحوا على الوجوه الفاسدة ، التى لايجوز مثلها فى الإسلام (إنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَمَقْتاً وَساءَ سَبِيلاً) يعنى : أن نكاح آبائكم الذى كانوا ينكحونه فى جاهليتهم ،كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا ، إلا ما قد سلف منكم فى جاهليتكم ، من نكاح لايجوز ابتداءً مثله فى الإسلام ، فإنه معفوٌّ لكم عنه .

وقالوا : قوله (وَلَا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ) كقول القائل للرجل : لاتفعل ما فعلتَ ، ولا تأكل ما أكلتَ بمعنى : ولا تأكل كما أكلت ، ولا تفعل كما فعلت .

وقال آخرون : معنى ذلك : ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء بالنكاح الجائز ، كان عقده بينهم ، إلا ما قد سلف منهم من وجوه الزنا عندهم ، فإن نكاحهن لكم حلال كان لأنهن لم يكن لهم حلائل ، وإنما ، ما كان من آبائكم منهن من ذلك فاحشة ومقتا ، وساء سبيلا .

ذكر من قال ذلك :

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله : (وَلَا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا ما قَدْ سَلَفَ)... الآية ، قال : الزنا ، إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا ، فزاد ههنا المقت .

قال أبو جعفر : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب ، على ما قاله أهل التأويل فى تأويله : أن يكون معناه : ولا تنكحوا من النساء نكاح آبائكم ، إلا ما قد سلف منكم ، فمضى فى الجاهلية ، فإنه كان فاحشة ومقتا ، وساء سبيلا . فيكون قوله (مِنَ النِّسَاءِ) من صلة قوله (وَلَا تَنْكِحُوا) ، ويكون قوله (مانَكَحَ آبَاؤُكُمْ) بمعنى المصدر ، ويكون قوله (إِلَّا ما قَدْ سَلَفَ) : بمعنى الاستثناء المنقطع ، لأنه يحسن فى موضعه ، لكن ما قد سلف فمضى ، إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا .

فإن قال قائل : وكيف يكون هذا القول موافقا قول من ذكرت قوله من أهل التأويل ؟ وقد علمت أن الذين ذكرتَ قولهم فى ذلك ، إنما قالوا : أُنزلت هذه الآية فى النهى عن نكاح حلائل الآباء ، وأنت تذكر أنهم إنما نُهوا أن ينكحوا نكاحهم ، قيل له : وإن قلنا ، إن ذلك هو التأويل الموافق لظاهر التنزيل ، إذ كانت «ما» فى كلام العرب لغير بنى آدم ، وإنه لو كان المقصود بذلك النهى عن حلائل الآباء ، دون سائر ما كان من مناكح آبائهم حراما ، ابتدئ مثله فى الإسلام ، بنهى الله جلّ ثناؤه عنه ، لقيل : ولا تنكحوا مَنْ نكح آباؤكم من النساء إلا ماقد سلف ، لأن ذلك هو المعروف فى كلام العرب ، إذ كان « من » لبنى آدم و « ما » لغيرهم ، ولا تقل : ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء ، فإنه يدخل فى « ما » ما كان من مناكح آبائهم التى كانوا يتناكحونها فى جاهليتهم ، فحرّم عليهم فى الإسلام بهذه الآية نكاح حلائل الآباء ، وكل نكاح سواه ، نهى الله تعالى ذكره ابتداء مثله فى الإسلام ، مما كان أهل الجاهلية يتناكحونه فى شركهم ،

ومعنى قوله (إِلَّا ما قَدْ سَلَفَ) : إلا ما قد مضى (إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً) يقول : إن نكاحكم الذى سلف منكم ، كنكاج آبائكم المحرّم عليكم ابتداءً مثله فى الإسلام ، بعد تحريمى ذلك عليكم ، فاحشة ، يقول : معصية (وَمَقْتاً وَساءَ سَبِيلاً) : أى بئس طريقا ومنهجا ما كنتم تفعلون فى جاهليتكم من المناكح ، التى كنتم تتناكحونها .

القول فى تأويل قوله

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ

وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ، فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ، وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ، وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٣)

يعنى بذلك تعالى ذكره : حرّم عليكم نكاح أمهاتكم ، فترك ذكر النكاح اكتفاء بدلالة الكلام عليه ، وكان ابن عباس يقول فى ذلك : ما حدثنا به أبو كريب ، قال : ثنا ابن أبى زائدة ، عن الثورىّ ، عن الأعمش ، عن إسماعيل بن رجاء ، عن عمير مولى ابن عباس ، عن ابن عباس ، قال : حرُم من النسب سبع ، ومن الصهر سبع ، ثم قرأ (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ) حتى بلغ (وأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إلاَّ ما قَدْ سَلَفَ) قال : والسابعة (وَلا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّساءِ) .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا مؤمل ، قال : ثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن إسماعيل بن رجاء ، عن عمير مولى ابن عباس ، عن ابن عباس ، قال : يحرم من النسب سبع ، ومن الصهر سبع ، ثم قرأ (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهاتُكُمْ) . . . إلى قوله : (والمُحْصَناتُ مِنَ النِّساءِ إلاَّ ما مَلَكَتْ أيمانُكُمْ) .

حدثنا ابن بشار مرّة أخرى ، قال : ثنا أبو أحمد الزبيرىّ ، قال : ثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن إسماعيل بن رجاء ، عن عمير مولى ابن عباس ، عن ابن عباس ، مثله .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن ابن أبى ذئب ، عن الزهرى بنحوه .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن حبيب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : حرّم عليكم سبع نَسَبا ، وسبع صِهرا (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهاتُكُمْ) . . . الآية .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن علىّ بن صالح ، عن سماك بن حرب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهاتُكُمْ وَبَناتُكُمْ وأخَواتُكُمْ) قال : حرّم الله من النسب سبعًا ، ومن الصهر سبعا ، ثم قرأ (وأُمَّهاتُ نِسائِكُمْ وَرَبائِبُكُمْ) . . . الآية .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن مطرّف ، عن عمرو بن سالم مولى الأنصار ، قال : حرم من النسب سبع ، ومن الصِّهر سبع ، حرمت عليكم أمهاتكم ، وبناتكم ، وأخواتكم ، وعماتكم ، وخالاتكم ، وبنات الأخ ، وبنات الأخت ؛ ومن الصهر : أمهاتكم اللاتى أرضعنكم ، وأخواتكم من الرضاعة ، وأمهات نسائكم ، وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهنّ ، فإن لم تكونوا دخلتم بهن ، فلاجناح عليكم ، وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ، وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف ، ثم قال (والمُحْصَناتُ مِنَ النِّساءِ إلاَّ ما مَلَكَتْ أيمانُكُمْ) ، (وَلا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّساءِ) ، فكل هؤلاء اللواتى سماهنّ الله تعالى وبيّن تحريمهنّ فى هذه الآية ، محرّمات غير جائز نكاحهن لمن حرّم الله ذلك

عليه من الرجال ، بإجماع جميع الأمة ، لااختلاف بينهم فى ذلك ، إلا فى أمهات نسائنا اللواتى لم يدخل بهن أزواجهن ، فإن فى نكاحهن اختلافاً ، بين بعض المتقدمين من الصحابة إذا بانت الابنة قبل الدخول بها من زوجها ، هل هن من المبهمات ، أم هن من المشروط فيهن الدخول ببناتهن ؟ فقال جميع أهل العلم متقدمهم ومتأخرهم : من المبهمات ، وحرام على من تزوج امرأة أمها ، دخل بامرأته التى نكحها أولم يدخل بها ، وقالوا : شرط الدخول فى الربيبة دون الأم ، فأما أم المرأة فمطلقة بالتحريم . قالوا : ولو جاز أن يكون شرط الدخول فى قوله (وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِى فِى حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللاَّتِى دَخَلْتُمْ بِهِنَّ) فوضع موصولا به قوله (وأُمَّهَاتُ نِسَائِكُم) جاز أن يكون الاستثناء فى قوله (وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إلاَّ مامَلَكَتْ أيمَانُكُمْ) من جميع المحرمات بقوله : (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ) . . . الآية ، قالوا : وفى إجماع الجميع على أن الاستثناء فى ذلك إنما هو مما وليه من قوله (والمُحْصَنَاتُ) أبينُ الدلالة على أن الشرط فى قوله (مِنْ نِسَائِكُمُ اللاَّتِى دَخَلْتُمْ بِهِنَّ) مما وليه من قوله (وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِى فى حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللاَّتِى دَخَلْتُمْ بِهِنَّ) دون أمهات نسائنا . وروى عن بعض المتقدمين أنه كان يقول : حلال نكاح أمهات نسائنا اللواتى لم ندخل بهن ، وإن حكمهن فى ذلك حكم الربائب .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا ابن أبى عدى وعبد الأعلى ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن خلاس بن عمرو ، عن على رضى الله عنه ، فى رجل تزوج امرأة فطلقها قبل أن يدخل بها ، أيتزوج أمها ؟ قال : هى بمنزلة الربيبة .

حدثنا حميد بن مسعدة ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا سعيد ، قال : ثنا قتادة ، عن خلاس ، عن على رضى الله عنه ، قال : هى بمنزلة الربيبة .

حدثنا حميد ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، قال : ثنا قتادة ، عن سعيد بن المسيب ، عن زيد بن ثابت أنه كان يقول : إذا ماتت عنده ، وأخذ ميراثها ، كره أن يخلف على أمها ، وإذا طلقها قبل أن يدخل بها ، فإن شاء فعل .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا يحيى بن سعيد ، عن قتادة ، عن سعيد بن المسيب ، عن زيد بن ثابت ، قال : إذا طلق الرجل امرأته قبل أن يدخل بها ، فلا بأس أن يتزوج أمها .

حدثنا القاسم ، قال : ثنى حجاج ، قال : قال ابن جريج : أخبرنى عكرمة بن خالد ، أن مجاهدا قال له (وأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِى فى حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُم) أريد بهما الدخول جميعاً .

قال أبو جعفر : والقول الأول أولى بالصواب ، أعنى قول من قال : الأم من المبهمات ، لأن الله لم يشرط معهن الدخول ببناتهن ، كما شرط ذلك مع أمهات الربائب ، مع أن ذلك أيضا إجماع من الحجة التى لايجوز خلافها فيما جاءت به متفقة عليه .

وقد روى بذلك أيضا عن النبى صلى الله عليه وسلم خبر ، غير أن فى إسناده نظرا ، وهو ما حدثنا به

المثنى ، قال : ثنا حبان بن موسى ، قال : أخبرنا ابن المبارك ، قال : أخبرنا المثنى بن الصباح ، عن عمرو ابن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، قال : « إِذَا نَكَحَ الرَّجُلُ المَرْأَةَ فَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ أُمَّهَا ، دَخَلَ بِالابْنَةِ أَمْ لَمْ يَدْخُلْ ؛ وَإِذَا تَزَوَّجَ الأُمَّ فَلَمْ يَدْخُلْ بِهَا ، ثُمَّ طَلَّقَهَا ، فَإِنْ شَاءَ تَزَوَّجَ الابْنَةَ » .

قال أبو جعفر : وهذا خبر ، وإن كان فى إسناده مافيه ، فإن فى إجماع الحجة على صحة القول به مستغنًى عن الاستشهاد على صحته بغيره .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال لعطاء : الرجل ينكح المرأة لم يرها ولا يجامعها حتى يطلقها ، أيحلّ له أمُّها ؟ قال : لا ، هى مرسلة ، قلت : لعطاء : أكان ابن عباس يقرأ (وأُمَّهاتُ نِسائِكُمُ اللاَّتِى دَخَلْتُمْ بِهِنَّ) قال : لا ، تبرأ ؛ قال حجاج : قلت لابن جريج : ماتبرأ ؟ قال : كأنه قال : لا ، لا . وأما الربائب فإنه جمع ربيبة ، وهى ابنة امرأة الرجل ، قيل لها ربيبة ، لتربيته إياها ، وإنما هى مربوبة ، صرفت إلى ربيبة ، كما يقال : هى قبيلة ، من مقبولة ، وقد يقال لزوج المرأة : هو ربيب ابن امرأته ، يعنى به : هو رابُّه ، كما يقال : هو جابر وجبير ، وشاهد وشهيد .

واختلف أهل التأويل فى معنى قوله (مِنْ نِسائِكُمُ اللاَّتِى دَخَلْتُمْ بِهِنَّ) فقال بعضهم : معنى الدخول فى هذا الموضع : الجماع .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثنى معاوية بن صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، قوله (مِنْ نِسائِكُمُ اللاَّتِى دَخَلْتُمْ بِهِنَّ) والدخول : النكاح .

وقال آخرون : الدخول فى هذا الموضع : هو التجريد .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، قال : قال ابن جريج : قلت لعطاء ، قوله (اللاَّتِى دَخَلْتُمْ بِهِنَّ) ما الدخول بهنّ ، قال : أن تُهدَى إليه فيكشف ، ويعُسّ ، ويجلس بين رجليها ، قلت : أرأيت إن فعل ذلك فى بيت أهلها ؟ قال : هو سواء ، وحَسْبُه قد حَرَّم ذلك عليه ابنتها ، قلت : تحرم الربيبة ممن يصنع هذا بأمها إلا ما يَحْرُم علىّ من أمتى إن صنعته بأمها ؟ قال : نعم سواء ؛ قال عطاء : إذا كشف الرجل أمته وجلس بين رجليها ، أنها ه عن أمها وابنتها .

قال أبو جعفر : وأولى القولين عندى بالصواب فى تأويل ذلك : ما قاله ابن عباس ، من أن معنى الدخول : الجماع والنكاح ، لأن ذلك لايخلو معناه من أحد أمرين : إما أن يكون على الظاهر المتعارف من معانى الدخول فى الناس ، وهو الوصول إليها بالخلوة بها ، أو يكون بمعنى الجماع ، وفى إجماع الجميع على أن خلوة الرجل بامرأته لايحرّم عليه ابنتها ، إذا طلقها قبل مسيسها ومباشرتها ، أو قبل النظر إلى فرجها بالشهوة

ما يدلّ على أن معنى ذلك : هو الوصول إليها بالجماع ، وإذا كان ذلك كذلك ، فمعلوم أن الصحيح من التأويل فى ذلك ما قلناه .

وأما قوله (فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ) فإنه يقول : فإن لم تكونوا أيها الناس دخلتم بأمهات ربائبكم اللاتى فى حجوركم ، فجامعتموهنّ حتى طلقتموهنّ ، فلا جناح عليكم ، يقول : فلا حرج عليكم فى نكاح من كان من ربائبكم كذلك .

وأما قوله (وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ) فإنه يعنى : وأزواج أبنائكم الذين من أصلابكم ، وهى جمع حليلة ، وهى امرأته ، وقيل : سميت امرأة الرجل حليلته ، لأنها تحلّ معه فى فراش واحد ، ولا خلاف بين جميع أهل العلم ، أن حليلة ابن الرجل حرام عليه نكاحُها بعقد ابنه عليها النكاحَ ، دخل بها أو لم يدخل بها .

فإن قال قائل : فما أنت قائل فى حلائل الأبناء من الرضاع ، فإن الله تعالى إنما حرّم حلائل أبنائنا من أصلابنا ؟ قيل : إن حلائل الأبناء من الرضاع ، وحلائل الأبناء من الأصلاب سواء فى التحريم ، وإنما قال (وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ) لأن معناه : وحلائل أبنائكم الذين ولدتموهم ، دون حلائل أبنائكم الذين تبنيتموهم .

كما حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قلت لعطاء : قوله (وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ) قال : كنا نتحدّث ـ والله أعلم ـ أنها نزلت فى محمد صلى الله عليه وسلم ، حين نكح امرأة زيد بن حارثة ، قال المشركون فى ذلك ، فنزلت (وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ) ، ونزلت (وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ) ، ونزلت (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ) .

وأما قوله (وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ) فإن معناه : وحرّم عليكم أن تجمعوا بين الأختين عندكم بنكاح ، فأن فى موضع رفع ، كأنه قيل : والجمع بين الأختين : إلا ما قد سلف ، لكن ما قد مضى منكم ، فإن الله كان غفورا لذنوب عباده ، إذا تابوا إليه منها ، رحيما بهم فيما كلفهم من الفرائض ، وخفف عنهم ، فلم يُحمّلْهم فوق طاقتهم . يخبر بذلك جلّ ثناؤه أنه غفور لمن كان جمع بين الأختين بنكاح فى جاهليته ، وقبل تحريمه ذلك ، إذا اتقى الله تبارك وتعالى ، بعد تحريمه ذلك عليه ، فأطاعه باجتنابه ، رحيم به وبغيره من أهل طاعته من خلقه .

تمّ الجزء الرابع من تفسير ابن جرير الطبريّ

ويليه الجزء الخامس

وأوّله القول فى تأويل قوله : (والمُحْصَنَات من النساء)

Elm[illegible]mes
Bob[illegible]ibrary

New York
University

G505